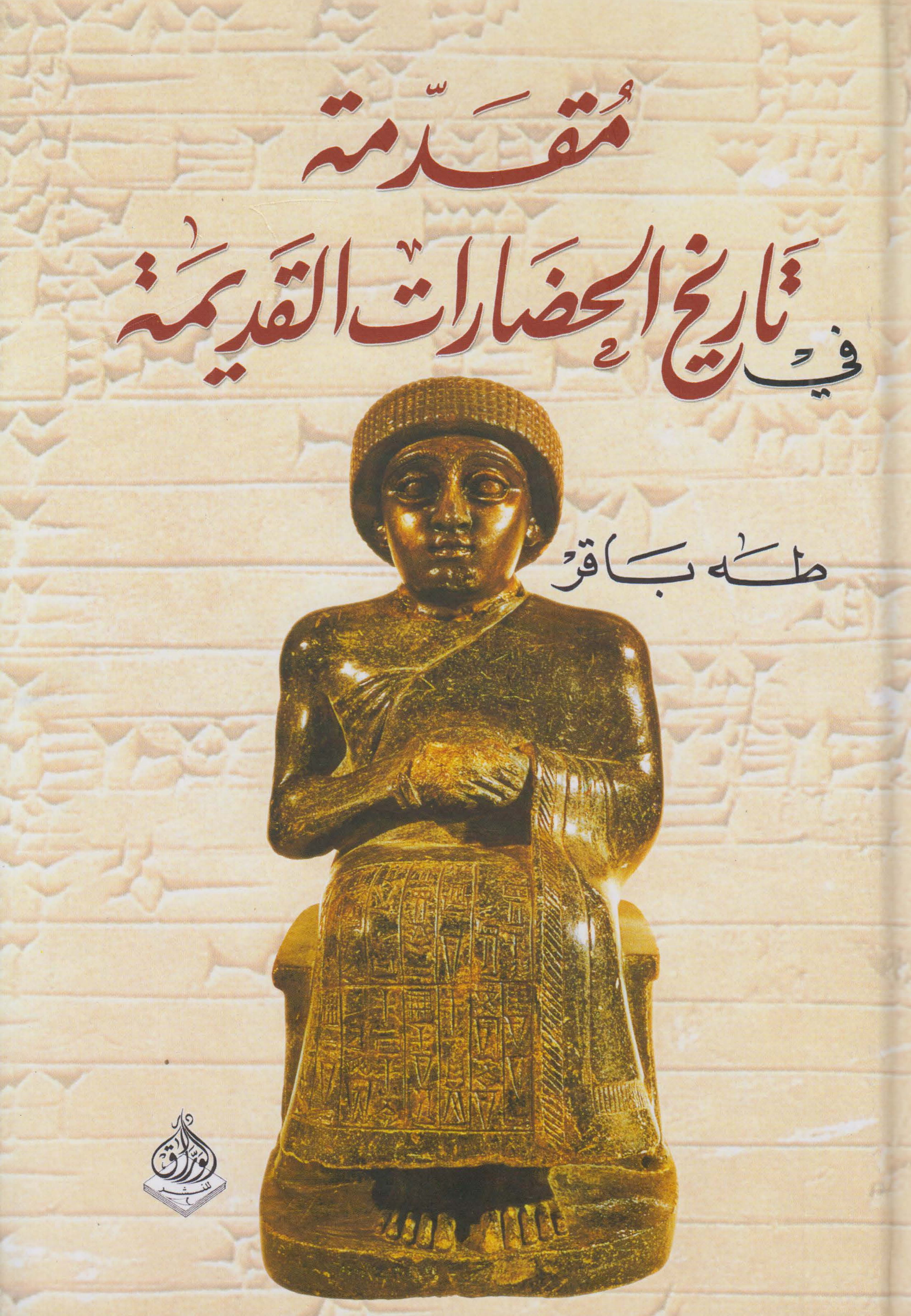

مُقدّمة
في تاريخ الحضارات القديمة
طه باقر

مُقَدِّمة
في تاريخ الحضارات القديمة

* الكتاب : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة .
* تأليف : طه باقر .
* **الطبعة الأولى لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة: 2009.**
* الطبعة الثانية لشركة الوراق للنشر المحدودة 2012
* **جميع حقوق مؤلفات طه باقر محفوظة لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة**
* تصميم الغلاف : جبران مصطفى .
* صورة الغلاف : أثر سومري .
* الناشر: شركة دار الورّاق للنشر المحدودة.

First edition by Alwarrak Publishing Ltd. 2009

www.alwarrakbooks.com

ISBN: 978-1-900700-45-0

التوزيع

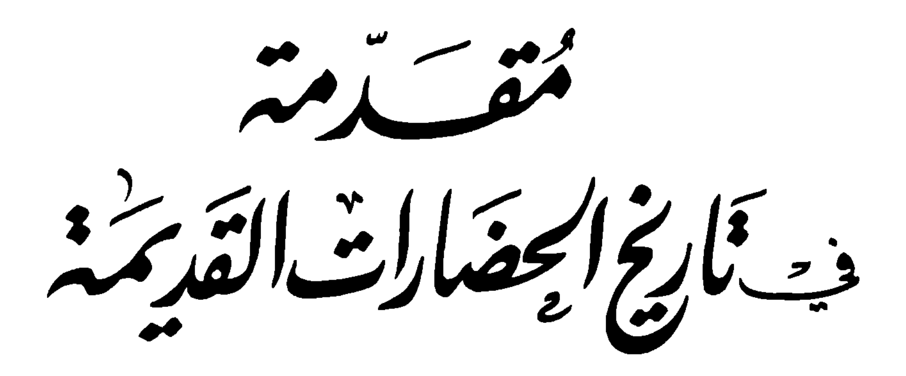
Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD - UK
Fax: 0044 208-7232775
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

شركة بيت الورّاق
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي
تلفون، 0096447702749792
009647801347076

شركة دار الورّاق للنشر
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني
طابق سفلي
تلفون، 009611341927
فاكس، 009611750053

طه باقر



الجزء الأول

الوجيز في تأريخ حضارة وادي الرافدين



الفهرس

الفصل الأول: مقدمة في صفة الأرض والسكان

الفصل الثاني: تأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية

الفصل الثالث: عصور ما قبل التأريخ

الفصل الرابع: عصور ما قبل التأريخ

الفصل الخامس: دول المدن السومرية أو عصر السلالات

الفصل السادس: الأمبراطورية الآكدية ودولة (أور) الثالثة

الفصل السابع: العصر البابلي القديم والسلالات البابلية الأخرى

الفصل الثامن: موجز تاريخ الآشوريين

الفصل التاسع: العهود الأخيرة من تأريخ العراق القديم

طه باقر

(١٩١٢ ـ ١٩٨٤)

هو طه باقر ناصر: ولد في الحلّة، وفيها أكمل الابتدائية والمتوسطة. وانتقل إلى بغداد فتخرّج في الثانوية المركزية عام 1932، ثم انتقل إلى أمريكا فتخرّج في جامعة شيكاغو ـ المعهد الشرقي بشهادة البكالوريوس والماجستير في الآثار عام 1938. عيّن في عدة وظائف ومنها: خبير فني في مديرية الآثار العامة (1938 ـ 1948) وأمين المتحف العراقي (1941 ـ 1953) ومدير الآثار العام (1958 ـ 1963) وعضو المجلس التأسيسي لجامعة بغداد (1957 ـ 1958) ونائب رئيس جامعة بغداد (1960 ـ 1963) ومستشار الشؤون الثقافية الأثرية في ليبيا (1965 ـ 1971) من مؤلفاته:

1 ـ دليل المتحف العراقي (بالعربية والإنكليزية) (1942).

2 ـ تقارير بالإنكليزية عن التنقيبات في عقرقوف لندن (1944 ـ 1946).

3 ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، مجلدان (1955).

4 ـ ترجمة كتاب توينبي (بحث في التاريخ) (1955).

5 ـ كتاب من ألواح سومر (1958).

6 ـ ملحمة جلجامش.

7 ـ وله أيضاً رحلات أثرية جغرافية (1961 ـ 1962).

8 ـ أدب العراق القديم (1971).

9 ـ من تراثنا اللغوي القديم (2001).

10 ـ الصلات التاريخية بين أقطار الشرق الأدنى القديم (دمشق 1947).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

مضى على كتابي الموسوم: «مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة» نحو ثماني عشرة سنة[1]، وهي فترة تعدُّ طويلة بالنسبة إلى ما استجدَّ من اكتشافات آثارية وما استتبع ذلك من بحوث ودراسات جديدة في حضارة وادي الرافدين أضافت الكثير من الآراء والاستنتاجات الأساسية عن تأريخ هذه الحضارة الذي ما زال يكتنفه الكثير من القضايا والمسائل التي يستلزم حلها متابعة التنقيبات والتحريات الآثارية والدرس والبحث. وإن ما أسفرت عنه الدراسات والبحوث في غضون هذه الفترة استوجب إعادة النظر في كثير من المواضيع والأوجه عن تأريخ هذه الحضارة. وكنت أواكب ما يستجد من استنتاجات وتغييرات في الموضوع، فتجمعت لدي مادة جديدة وغزيرة حتمت عليَّ أن أعيد كتابة مؤلَّفي السالف الذكر في كتاب جديد ضمننته كل ما استجد من دراسات وبحوث، وبدلت في أسلوب عرض مادته. فأولاً إن سعة المادة الجديدة التي تجمعت لدي عن حضارة وادي الرافدين استلزمت توزيع هذه المادة في جزأين، خصصت الجزء الأول منهما، وهو الذي أقدمه للقُرَّاء الآن، لتأريخ العراق القديم منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ إلى نهاية العصر

(1) الطبعة الأولى 1951، والطبعة الثانية المنقَّحة 1955.

الساساني أي بداية الفتح العربي الإسلامي، موجزاً فيه عهود هذا التأريخ المتطاول في القدم، وخلاصة الأحداث السياسية والحضارية والسلالات والدول التي حكمت فيها وما صاحب ذلك من تغييرات اقتصادية واجتماعية وفنية، بإيجاز الخصائص الحضارية والثقافية لكل دور من أدواره التأريخية.
أما القسم الثاني، الذي هو الآن في طريق الإعداد والتقديم إلى الطبع، فقد خصصته للأوجه والمقومات الحضارية المختلفة من ديانة ومعتقدات، وشرائع وآداب، ومعارف وعلوم، ونظم ومؤسسات اجتماعية وسياسية واقتصادية.
وثانياً استتبع عن هذا التقسيم أني غيّرت طريقة عرض المادة التي اتبعتها في كتابي القديم، الذي كنت قسمت المجلد الأول منه الخاص بحضارة وادي الرافدين[1] إلى قسمين، تناول القسم الأول منهما إيجاز الأدوار التأريخية من الناحية السياسية، وخصص القسم الثاني للأوجه الحضارية المختلفة. ومع أن هذا التقسيم لا يزال متَّبعاً في كتابي الجديد، بيد أن ما ذكرته من ازدياد مادة الكتاب وحجمه من جهة، ومتطلبات المنهج التأريخي الجديد الذي اتبعته في طريقة العرض، كل ذلك جعلني أوجز في الجزء الأول من كتابي الجديد المخصص للأدوار السياسية الخصائص والميزات الحضارية العامة في نهاية كل عصر من العصور التأريخية، مرجئاً التفصيل والإسهاب إلى الجزء الثاني الذي سيتناول المواضيع الحضارية كلاً على انفراد، ويتتبع كل موضوع حضاري منها وتطوره عبر الأدوار التأريخية المختلفة في تأريخ حضارة وادي الرافدين. ولعله لا يخفى على القارئ ما لهذا الأسلوب الجديد في العرض من فوائد وميزات، في جعله يلمّ بمقومات حضارة وادي الرافدين في كل عصر من عصورها المعروفة، ويتابع تبدلاتها وتطورها عبر تلك العصور، بحيث يستطيع قارئ الجزء الأول ممن لا يريد التبسط والتوسع أن يؤجل إلى حين قراءة القسم الثاني المخصص لتلك المقومات والأوجه الحضارية كما ذكرنا.

وإذا كان كتابي هذا قد وضع بالدرجة الأولى ليفي بحاجة طلاب التأريخ

---

(1) أما المجلد الثاني فقد تناول حضارات الشرق القديم.

القديم وفرع الآثار والحضارات القديمة في كليات الجامعات العراقية، وبحاجة غير المختصين في الموضوع أيضاً، فإنني لعلى يقين من أنه سيحقق إلى ذلك حاجة المختصين وعامة المثقفين ويغنيهم عن مراجعة المئات من البحوث والنشرات المختلفة المتفرقة في عشرات المجلات الآثارية في اللغات الأوروبية.

ورغم ما قد يُحمل مني محمل التبجُّح لا معدى لي من القول إنني وفيت الكثير من تلك الدراسات والبحوث حقها من الدرس والمتابعة، آخذاً منها أهم المطالب والآراء الجديدة، كما تشير إلى ذلك المراجع والمظان الكثيرة التي استشهدت بها في كل صفحة تقريباً، وإن كتابي هذا ثمرة اشتغالي في حقل الآثار والتأريخ، تنقيباً وبحثاً وتدريساً ونشراً طوال أكثر من ربع قرن من الزمان. وإلى المادة الجديدة التي نوَّهت بها أضفت إلى الجزء الأول أثباتاً تأريخية مفصلة بالأدوار التأريخية والسلالات الحاكمة وأسماء ملوكها مما يحتاج إلى الرجوع إليها المختصون وغير المختصين.

وفي الختام لا بدَّ من أن أنوِّه بالفرصة التي أتاحها لي صديقي الأستاذ الفاضل علي الخاقاني، صاحب مكتبة دار البيان في بغداد لإخراج كتابي هذا، فهو الذي تولى أمر طبعه ونشره، فله مني أجزل الشكر.

بغداد في صيف 1973

طه باقر

الفصل الأول

مقدمة في

صفة الأرض والسكان

جرت عادة المؤرخين على أن يمهدوا لتأريخ القطر الذي يبحثون في حضارته بمقدمة جغرافية يبينون فيها صفة الأرض التي وقعت فيها حوادث تأريخية ليكون الدارس لهذا التأريخ واقفاً على طبيعة مسرح تلك الحوادث ومدركاً لسير تأريخه، مفترضين أن عوامل البيئة الجغرافية أثرت في حوادث ذلك التأريخ وأكسبت حضارة ذلك القطر الطابع المميّز لها.

ومع أنه ليس من الصواب التطرف بجعل البيئة الجغرافية العامل الأول والأساس في تسيير الحضارة والتأريخ، إلا أنه ينبغي للباحث أن يدخل في حسابه أثر العوامل الجغرافية في حياة الإنسان وسير حضارته. وإذا كان الإنسان في رأيي هو العامل الحاسم في سير الحضارة والتأريخ، بيد أنه ينبغي أن ننظر إلى أثر الإنسان على هيئة تفاعل بينه وبين بيئته، في الطرق والوسائل التقنية (التكنولوجية) التي يبتدعها لترويض الطبيعة وتسخيرها له، واستغلال إمكانياتها التي تقدمها له أو التي يكتشفها هو فيها. وعلى هذا الضوء نقدم لهذا الوجيز في تأريخ العراق القديم بذكر أبرز خصائص بيئته الجغرافية، متحاشين التبسط في سرد جغرافيته الطبيعية وهو ما يمكن الرجوع إليه في الكتب الجغرافية المتيسرة، وإنما سنتناول تلك الميزات والظواهر البارزة التي نعتقد أنها أثرت بوجه خاص في سير حوادث تأريخه وتطور حضارته واتّسامها بالطابع العام المميّز لها. وبعبارة أخرى سيكون موضوع هذه المقدمة الجغرافية بالدرجة الأولى ما يصطلح عليه «الجغرافية التأريخية»، كالتغييرات المهمة في جغرافيته الطبيعية، مثل تبدل مجاري أنهاره، وموقعه الطبيعي، وما كان له من

آثار في مناخه وتركيب سكانه، إلى غير ذلك من العوامل الجغرافية الحاسمة التي سنصفها بالإيجاز في الصفحات التالية.

وقبل أن نبدأ بتعداد الميّزات الجغرافية المهمة يستحسن أن نورد بعض الملاحظات المفيدة عن اسم «العراق»، والأسماء التأريخية الأخرى التي عرف بها القطر في عصوره التأريخية المختلفة.

أما عن الاسم «عراق» فقد اختلفت آراء الباحثين في أصله ومعناه. ومن الممكن حصر هذه الآراء في ثلاثة احتمالات: (1) إن الاسم «عراق» عربي الأصل، (2) إنه معرب من أصل فارسي، (3) إنه يرجع في أصله إلى تراث لغوي من العراق القديم. فإذا أخذنا بالأصل العربي وجدنا عدة آراء في معنى «عراق» منها أنه «الشاطئ»، أي شاطئ البحر أو سيف البحر أو مطلق الشاطئ، وأن أهل الحجاز يسمون البلاد القريبة من البحر عراقاً، لدنوّه من البحر ولأنه على شاطئ دجلة والفرات أيضاً، أو أن معناه حرف الجبل أو سفوح الجبال المتاخمة لأطرافه الشمالية والشرقية[1]. أما الذين يرون الأصل الفارسي فقد اختلفوا أيضاً في معناه، فمنهم من ذهب إلى أنه مأخوذ من أصل يعني الساحل في الفارسية (ايراه الذي عرب إلى إيراق ثم عراق). وفي مفاتيح العلوم للخوارزمي وتأريخ حمزة الأصبهاني أن التسميتين «إيران» و«عراق» غلط والصواب فيهما «إيراك» (بالكاف الفارسية) وأنها أصل لفظ «إيران» و«عراق». وشبيه بهذا ما ذهب إليه الباحث الآثاري «هرتسفلد» من أن «عراق» معرب من «إيراك» الفارسية التي تعني البلاد السفلى[2]. أما الاحتمال الثالث أي إرجاع لفظ «عراق» إلى تراث لغوي من العراق القديم فهو، مع أنه لا يمكن الجزم به أو ترجيحه على أحد الرأيين السابقين، حري بالاعتبار، وخلاصته أن لفظ «عراق» يرجع في أصله إلى تراث لغوي إما من السومريين أو من قوم آخرين من غير السومريين ولا الساميين استوطنوا السهل الرسوبي منذ أبعد عصور

---

(1) راجع على سبيل المثال «تاج العروس» و«معجم البلدان»، لياقوت الحموي.

(2) مجلة «لغة العرب»، المجلد الرابع، ص 441.

ما قبل التأريخ فيه[1]، وأنه مشتق من كلمة تعني المستوطن ولفظها «أوروك» أو «أونوك» (Uruk. Unug)، وهي الكلمة التي سميت بها المدينة السومرية الشهيرة «الوركاء»، كما أن الكلمة نفسها تدخل في تركيب أسماء جملة مدن قديمة شهيرة مثل مدينة «أور» ومدينة «لارسة» وغيرهما. على أن نقطة الضعف في هذا الرأي أن هذا المصطلح لم يطلقه سكان العراق القدماء على القطر كله. ويرى المؤرخ المعروف «أومستد» أن أول استعمال لكلمة عراق ورد في العهد «الكشّي» (منتصف الألف الثاني ق.م) في وثيقة تأريخية ترقى في تأريخها إلى حدود القرن الثاني عشر ق.م، وجاء فيها اسم إقليم على هيئة «أريقا» الذي صار، على ما يرى الباحث المذكور، الأصل العربي لبلاد بابل[2]. وأوضح استعمال شاع لمصطلح «عراق» بدأ في الأدوار الأخيرة من العهد الساساني ما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين، حيث بدأ استعماله يظهر في الشعر الجاهلي.

وإذا كان العراقيون القدماء، كما ذكرنا، لم يطلقوا مصطلح «أوروك» أو نحوه على القطر أو على جزء منه على الأقل فماذا كانوا يسمون هذا القطر يا ترى قبل أن يشيع استعمال اسم «عراق» في أواخر العهد الساساني؟ وللإجابة على هذا التساؤل بوجه الإيجاز نقول إن أقدم أشكال للحكم في العراق في مطلع الألف الثالث ق.م، كما سيأتي شرح ذلك في الفصل الرابع، كان على هيئة ما يسمى بدولة المدينة (City State) على غرار ما كانت عليه التنظيمات السياسية في بلاد اليونان القديمة. فكان الحكام السومريون وغيرهم ممن حكم في دول المدن يلقب كل منهم نفسه بلقب حاكم المدينة التي كانت مركز دويلته مثل حاكم لجش (Ensi Lagash) وحاكم «أور» (Ensi Urima). . . إلخ، وفي حدود أواخر ذلك العصر الذي يسمى أيضاً عصر فجر السلالات (2800 ـ

(1) حول هؤلاء القوم راجع القسم الخاص بالأقوام القديمة في هذا الفصل.

(2) Olmstead, *History Of Assyria*, P. 60.

(النهرين)، صارت ضمن الولاية الأخمينية السابقة المسماة «عبر النهر».

2400ق.م) ابتدع آخر حاكم من حكام هذا العصر وهو المسمى «لوكال زاكيزى» لقباً سياسياً جديداً بأن سمى نفسه «ملك الإقليم» (Lugal Kalam-ma) وكلمة «كلام» (Kalam)، المضاهية لكلمة الإقليم العربية لفظاً ومعنى، تعني بوجه خاص إقليم الشخص المتكلم أي وطنه[1]. وفي حدود ذلك الزمن أو بعده بقليل ظهر في الاستعمال مصطلحان جغرافيان مهمان أحدهما «بلاد سومر» (Ki-En-Gi) للقسم الجنوبي من السهل الرسوبي والآخر بلاد «آكد» (Ki-Uri) للقسم الأوسط من ذلك السهل.

وتسمية «بلاد سومر» أو على الأصح «شومر»، جاءت في الكتابات الآكدية السامية على هيئة «مات شومريم» (بلاد السومريين)، وتكتب بمجموعة العلامات المسمارية (Ki-en-gi) التي ذكرناها، ولا يعلم معناها بوجه التأكيد، وقِيل في معناها الحرفي إنها تعني «أرض سيد القصب». وتلفظ العلامتان المعبّر بهما عن «بلاد آكد» أي (Ki-uri) في اللغة الآكدية «مات آكديم» (بلاد الآكديين). هذا ولا توجد حدود طبيعية واضحة بين ما كان يسمى «بلاد آكد» و«بلاد سومر». بيد أنه يمكن القول بوجه عام إن القسم الأوسط من السهل الرسوبي أي من حدود بغداد أو فوق بغداد إلى جنوب مدينة الحلة كان «بلاد آكد»، وإلى الجنوب من ذلك «بلاد سومر» وفي وسعنا تحديد مركز الحضارة السومرية بالمواقع الشهيرة من بلاد سومر (الواقعة في محافظتي الناصرية والديوانية الآن). وفي مقدمتها مدينة «نفر» (التي يرجح أنها كانت تقع في الحد الشمالي من بلاد سومر) والوركاء (أوروك أو أرك) و «لارسة» (السنكرة) و«ايسن» (إيشان بحريات) و«أدب» (بسمي) و«شروباك» (فاره) و«لجش» (تلول الهباء) و«لوما» (جوخة) و«زبلام» (بزيخ) و«أور» و«أريدو»، وغيرها. أما أشهر مدن بلاد آكد فكانت (اعتباراً من الشمال) آكد (في مكان ما بين بلدة المحمودية والحلة) و«سبار» (أبو حبة) و«كوثى» (تل إبراهيم أو حبل

---

(1) وللتمييز بين القطر الذي هو وطن المتكلم وبين الأقطار الأخرى الأجنبية أطلق السومريون على القطر الأجنبي كلمة «كر».

إبراهيم) و«بابل» و«كيش» (الأحمير) وبورسبا (برس نمرود) ودلبات (تل الديلهم) ومرد (ونة والصدوم) وغيرها.

واستعمل سرجون مؤسس السلالة الآكدية (2371 ـ 2316ق.م) أو على الأرجح حفيده «نرام ـ سين» (2291 ـ 2255ق.م) لقباً سياسياً جديداً هو «ملك الجهات الأربع»، وبالسومرية (Lugal An-Ub-Da-Limmu-Ba) وفي الآكدية (Shar Kibrat Arbaim) أي «ملك العالم أو الكون»، وهو بالأصل لقب ديني خصص لكبار الآلهة. وظهر في أوائل زمن سلالة أور الثالثة (2112 ـ 2004 ق.م) لقب مهم جديد هو: «ملك بلاد سومر وبلاد آكد» وبالسومرية (Lugal Ki-en-gi Ki-Uri) وكان أول من استعمله على ما نعرف لحد الآن ملك الوركاء المسمى «أوتو ـ حيگال» الذي اشتهر بأنه طرد الكوتيين وحرر البلاد منهم، وأعقبه ملوك سلالة أور الثالثة الذين استمروا في استعمال هذا اللقب بالإضافة إلى لقبهم الخاص «ملك مدينة أور»، وظل هذا المصطلح في الاستعمال إلى آخر العهود التأريخية تقريباً. ولكن استحدثت إلى جانبه تسميات جغرافية سياسية أخرى منها «بلاد بابل» و«بلاد آشور»، ومنها التسميتان الأوروبيتان «بابيلونيا» (Babylonia) و«أسّريا» (Assyria). وأوجد الملوك الكشيون الذين حكموا البلاد من بعد سلالة بابل الأولى في منتصف الألف الثاني ق.م، مصطلح «كار دُنياش» أي بلاد «دُنياش» و«دُنياش» اسم أحد الآلهة الكشية، وقد أطلقت هذه التسمية على بلاد سومر وآكد. واستعمل عدد من الكتاب اليونان والرومان وأولهم المؤرخ «هيرودوتس» مصطلح «بلاد بابل» (بابيلونيا) و«بلاد آشور» (أسريا) لإطلاقه على القطر كله أو الأجزاء الوسطى والجنوبية منه، كما استعملوا تسمية «كالدية» أو «كلدية» (أي بلاد الكلدانيين نسبة إلى الكلدانيين الآراميين الذين أسسوا الدولة الكلدية ما بين القرنين السابع والسادس ق.م) وورد مصطلح إقليم بابل أو أرض بابل في استعمال المؤرخين والبلدانيين العرب.

١ ـ بلاد «ما بين النهرين» (ميزوبوتامية):

في زمن ما بين القرن الرابع والثاني ق.م ظهر في استعمال الكتاب اليونان والرومان المصطلح الجغرافي المعروف «بلاد ما بين النهرين» أي التسمية الإغريقية «ميزوپوتامية» (Mesopotamia) وهو المصطلح الذي شاع استعماله عند الكُتّاب الأوروبيين لإطلاقه على هذه البلاد كلها أو بعضها، ولا يزال يستعمل حتى بعد ذيوع استعمال تسمية العراق. ولعل أقدم وأوضح استعمال لتسمية «ميزوپوتامية» ما ورد في كتاب المؤرخ الشهير «بوليبيوس» (Polybius) (202 ـ 120ق.م)، على الرغم من احتمال ظهور استعمال المصطلح في عهد الاسكندر الكبير[1]. وتبع «بوليبيوس» الجغرافي الشهير «سترابو» أو «سترابون» (64ق.م ـ19م) في استعمال هذا المصطلح لإطلاقه على ذلك الجزء من العراق المحصور ما بين دجلة والفرات من الشمال إلى حدود بغداد تقريباً أي إنه كان يرادف تقريباً مصطلح «الجزيرة» الذي أطلقه البلدانيون العرب على القسم الشمالي من وادي الرافدين. أما انتشار استعمال هذا المصطلح الجغرافي من بعد ذلك في اللغات الأوروبية فكان بوجه خاص من بعد ترجمة التوراة إلى اليونانية واللغات الأوروبية، إذ جاء في التوراة ذكر الإقليم المسمى «أرام نهرايم»[2] (سفر التكوين 24: 10) الذي يعني «آرام

---

(1) يروي المؤرخ «أريان» (65ـ175م)، الذي اشتهر بتأريخه عن الإسكندر الكبير أن الإسكندر أحدث ولاية إدارية باسم «ميزوبونامية». ومع أن «أريان» متأخر في زمنه بزهاء أربعة قرون عن عهد الإسكندر بيد أن مادة كتابه مأخوذة من مصادر معاصرة بعهد الإسكندر أو قريبة منه. انظر كتاب أريان المعنون (حملة الإسكندر):

Arrian, *Anaoases of Alexander*.

وانظر كذلك: Finkelstein in JNES, xxi (1962), 73h.

(2) «أرام ـ نهرايم» كلمة آرامية (أرض النهرين). وقد وردت تسمية بابلية أقدم منها هي «مات بريتم» (Mat biritim) أي (أرض المابين) للجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين. كما ورد مصطلح «بيرت نارم» (ما بين النهرين) (Birit narim) و«نهارينا» (Naharina)، الذي أطلق على المملكة المسماة «ميتاني» في رسائل «العمارنة» الشهيرة (القرن الرابع عشر ق.م). انظر:

Finkelstein, Ibid, JCS. Ix (1955).

النهرين» (أي بلاد ما بين النهرين)، على أن المقصود بهذا الإقليم في أصل ما وضع له في التوراة ليس بوجه التأكيد الأرض الكائنة ما بين نهري دجلة والفرات وإنما يرجح أن يكون النهران المذكوران في التوراة نهري الفرات والخابور أو نهري الخابور والباليخ أو كلا هذين النهرين مع الفرات. ومهما كان الحال فإنه عندما ترجمت التوراة إلى اليونانية ترجم المصطلح الآنف الذكر «آرام نهرايم» بكلمة «ميزوپوتامية» اليونانية، ثم دخل هذا المصطلح إلى اللغات الأوروبية من بعد ترجمة التوراة اليونانية إلى اللغات الأوروبية واتسع مدلوله من القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين إلى إطلاقه على القطر العراقي كله.

ولنعد إلى كلمة «العراق» من بعد ظهور استعمالها في أواخر العهد الساساني أي في العصر الجاهلي، فنقول إنها بدورها قد تطورت في الاستعمال واتسع مدلولها عند الجغرافيين العرب. فقد كثر ورود اسم العراق في الشعر الجاهلي واقترن لدى شعراء البادية بالرخاء والخيرات. وكان العرب يطلقون أيضاً على بلاد ما بين النهرين الشمالية أو العليا اسم «الجزيرة» الذي قلنا إنه يكاد يطابق مصطلح «ميزوپوتامية» اليوناني، وأطلقوا اسم العراق على الأقسام الوسطى والجنوبية مما يسمى العراق الآن، وكانوا يميزونه في بعض الأحايين بنعته بالعراق العربي تمييزاً له عن «عراق العجم» (الجزء الجنوبي من إيران) كما سموا السهل الرسوبي بالسواد لخضرته، وكان مصطلح «السواد» يرادف تسمية العراق في كثير من الاستعمالات، كما سموه «بلاد بابل» أو «أرض بابل»، وهو المصطلح الذي ظل متوارثاً في الاستعمال منذ العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق.م). أما الحد الفاصل ما بين الجزيرة وبين العراق في استعمال البلدانيين العرب فلم يكن ثابتاً واضحاً بل تغيّر في العصور المختلفة. فكان عند أوائلهم الخط المار تقريباً من الأنبار (الفلوجة) على الفرات إلى تكريت على دجلة، على أن تكريت والأنبار كانتا داخلتين في سواد العراق، ثم توسع الجغرافيون المتأخرون فمدُّوا ذلك الحد أكثر إلى ما فوق الفلوجة بحيث شمل مدناً أخرى على الفرات إلى حدود عانة تقريباً، وصار

مدلول العراق يتسع في استعمال البلدانيين العرب بحيث صار يشمل الجزيرة والقسم الجنوبي، ودخلت ضمنه البلاد الواقعة ما بين الموصل وعبادان طولاً إلى عذيب القادسية غرباً وإلى حلوان شرقاً، أي العراق الحالي تقريباً. وفي العهد السلجوقي (القرنان الخامس والسادس للهجرة) امتد إقليم العراق أكثر فشمل ما يجاور العراق من الأقسام الجبلية من إيران إلى مدينة همدان، وتبلورت حدود العراق الحالية بوجه خاص في العهد العثماني (القرن التاسع عشر) وفي فترة الاحتلال البريطاني (1917).

٢ ـ لمحة عن تأريخ العراق الجيولوجي وتكوين أرضه:

يتباين تكوين أرض العراق في أقسامها المختلفة من حيث تأريخها الجيولوجي، منذ أقدم الدهور الجيولوجية إلى أحدثها، فقد أظهرت التحريات الجيولوجية أنه توجد في بعض الأجزاء تحت السطح صخور قديمة جداً مما يسمى بالصخور النارية (Igneous Rocks) في الأجزاء المتاخمة للحدود الإيرانية والتركية، يعتقد فيها أنها كانت جزءاً من القارة «الأركائية» (العتيقة)، كما توجد على السطح من الناحية الثانية ترسبات حديثة العهد ترجع في زمنها إلى العصر الجيولوجي الحديث (Recent) أو (Holocene) وخلاصة القول يمكن للباحث الجيولوجي أن يجد في أرض العراق صخوراً تمثل الدهور الجيولوجية الأربعة الرئيسة[1] بالإضافة إلى الصخور النارية التي نوَّهنا بها. وكان البحر الجيولوجي المسمى «تيش» (Tethys) لا يزال يغطي أرض العراق في أواخر الدهر الجيولوجي الأول (Primary) في دوره الأخير المسمى «برمي» Permian ولكنه أخذ بالانحسار منذ قبل 60 مليون عام، حيث كانت شبه الجزيرة العربية وبلاد الأناضول ظاهرتين فوق سطح ذلك البحر، واستمرت عملية انحسار هذا

---

(1) الدهور الجيولوجية الأربعة الرئيسة: (1) الدهر الأول (Primary)، (2) الدهر الثاني (Secondary)، (3) الدهر الثالث (Tertiary)، (4) الدهر الرابع (Quaternary). ويقسم كل من هذه الدهور الطويلة إلى عصور وأدوار ثانوية.

البحر وظهور الأجزاء الشمالية من العراق في أواخر الدهر الجيولوجي الثاني وأوائل الدهر الثالث. وإن جبال العراق، على ما هو معروف، جزء من سلاسل جبال «زاجروس ـ طوروس»، ومن النظام الجبلي العام المسمى بالنظام «الألبي». وتكاملت عملية تكوين الجبال والمرتفعات في أواخر الدهر الجيولوجي الرابع في دوره الأخير المسمى «بلايستوسين» (Pleistocene) وهو الدور الذي تقع فيه العصور الجليدية المعروفة والعصور الحجرية القديمة. وتمّ في هذه الفترة أيضاً تكوين دلتا النهرين أي السهل الرسوبي بفعل ترسبات الطمى والغرين المحمول بالنهرين. وكان هذا السهل على هيئة حوض أو انخفاض جيولوجي في الدهور الجيولوجية السابقة.

٣ ـ مناخ العراق وأحواله الطبيعية في عصور ما قبل التأريخ:

كثيراً ما يتساءل الناس هل كانت أحوال العراق الطبيعية من حيث المناخ والطقس والأمطار كما هي عليه الآن؟ وللإجابة على هذا التساؤل بوجه الإيجاز نقول إن الأدلة الجغرافية والآثارية تشير إلى أنه لم تطرأ تبدلات أساسية في أحوال القطر المناخية منذ أن استوطن الإنسان السهل الرسوبي في الجنوب ما بين الألفين السادس والخامس ق.م، أي إن الأحوال المناخية استقرت بوجه أساسي منذ ذلك التأريخ. أما ما قبل ذلك، وعلى وجه التخصيص في العصور الحجرية القديمة (ما قبل نصف مليون عام أو يزيد) فكانت أحوال المناخ وطبيعة الأرض تختلف اختلافاً أساسياً عما هي عليه الآن. إذ إن تلك العصور الحجرية تقع كما بيّنا في العصر الجيولوجي المسمى «بلايستوسين» (قبل نحو مليون عام)، الذي حدثت فيه العصور الجليدية والفترات الجليدية[1] التي اقتصر حدوثها على الأجزاء الشمالية من أوروبا وأمريكا، أما في الأجزاء الجنوبية من الكرة الأرضية، ومنها العراق وأقطار الشرق الأدنى، فكان يحدث إبان العصور الجليدية الأوروبية عصور من

---

(١) راجع الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ.

الأمطار الغزيرة (Pluvial). والفترات الجليدية يقابلها في أنحاء الشرق الأدنى فترات يسودها الجفاف. ونحن نعيش الآن في عصر جفاف أي في الفترة الجليدية الأخيرة التي أعقبت العصر الجليدي الرابع. وكانت كميات الأمطار في العصور الممطرة تبلغ من الغزارة درجة كبيرة بحيث إنها جعلت حتى مناطق الصحارى في الجزيرة العربية وإفريقيا آهلة بالنبات والحيوان، كما استطاع إنسان العصر الحجري القديم أن يعيش فيها وترك فيها أدواته وآلاته الحجرية.

وكان لظاهرة العصور الممطرة والفترات الجافة أثر مهم في نشوء الحضارة الأولى في السهل الرسوبي من العراق ودفع الهجرات البشرية إليه وبداية الاستيطان فيه، كما خلفت ظواهر جغرافية مما يمكن مشاهدته الآن في العراق ولا سيما في وديان أنهاره. أما بالنسبة إلى النتائج الحضارية فإن حلول فترة الجفاف العامة الأخيرة في ربوع الشرق الأدنى جعلت من المتعذر اعتماد الإنسان في قوته على صيد الحيوان أي جمع القوات مما كان سائداً في العصر الحجري القديم، فاهتدى الإنسان في بقعة ما من الشرق الأدنى، ولا سيما في شمالي العراق، إلى إنتاج قوته بيده بالزراعة وتدجين الحيوان في العصر المسمى بالعصر الحجري الحديث مما سنتكلم عنه في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ. وكانت زراعة الإنسان في ذلك العصر تعتمد كلياً على الأمطار التي كانت كافية للزراعة المحدودة حتى من بعد حلول فترة الجفاف التي أشرنا إليها، ذلك لأن الجفاف لم يحل فجأة بل كان يعم تدريجياً إلى أن اشتد وتزايد فتعذرت زراعة الأمطار في كثير من المناطق التي تعتمد الزراعة المطرية، الأمر الذي دفع الكثير من الجماعات الفلاحية إلى ترك مواطنها بالتدريج والبحث عن مناطق أخرى تصلح لحياتها الزراعية، فركنت إلى الهجرة إلى وديان الأنهار مثل وادي الرافدين ووادي النيل، ودخل المستوطنون من الرواد الأوائل في السهل الرسوبي من العراق في امتحان وتجربة شديدين فرضتهما عليهم البيئة النهرية الجديدة، حيث تطلب ترويض هذه البيئة وجعلها صالحة لزراعة الري جهوداً كبيرة في إنشاء جهاز للري لأول مرة في تأريخ الحضارات، وسنتناول تأريخ الري وأحواله القديمة في الجزء الثاني من كتابنا.

أما الظواهر الجغرافية التي سبَّبتها العصور الممطرة والعصور الجافة مما يمكن مشاهدة آثارها الآن، فهي التي يطلق عليها مصطلح الشواطئ أو الضفاف (Terraces)، أي ضفاف الأنهار الجيولوجية القديمة. فمن بين النتائج الواضحة التي استتبعت حدوث العصور الممطرة التي ذكرناها كثرة مصادر المياه المغذية للأنهار واتساع مجاري هذه الأنهار وتكوينها ضفافاً عالية في كل عصر ممطر، ويحدث العكس إبان فترة الجفاف حيث تصغر فيها سعة هذه المجاري فتكون ضفافاً واطئة آخرها وأحدثها ضفة عقيق النهر الحالي. وترجع أزمان ضفاف الأنهار القديمة إلى عصر «البلايستوسين» بالدرجة الأولى، على أنه يحتمل أن يرجع بعضها إلى العصر الجيولوجي المسمى «بليوسين» (Pliocene) السابق لعصر «البلايستوسين». وقد أبانت التحريات الجيولوجية والتحريات الخاصة بتركيب التربة في حوض نهر دجلة في منطقة «بلد ـ سامراء» وفي بعض الأودية في شمالي العراق مثل وادي «سنگه سر» وجود ما لا يقل عن ثلاثة شواطئ جيولوجية، واحتمال وجود شاطئ رابع. أما ضفاف نهر الفرات القديمة فلم يشملها التحري الكامل في المناطق العراقية[1]. ويجدر أن نذكر بهذه المناسبة أن أحد شواطئ دجلة القديمة في منطقة «بلد ـ سامراء» قد حسب سابقاً أنه بقايا ساحل الخليج في عصور ما قبل التأريخ، وسنتطرق إلى قضية الساحل بعد قليل. وننوّه للمقارنة بما تم من تحريات جيولوجية وأثرية في وادي النيل، في تسجيل ضفافه القديمة وتحري بقايا إنسان العصر الحجري القديم فوقها وربط زمنها بزمن الضفة القديمة، واتخاذ ذلك وسيلة لتحديد أزمان العصور الحجرية القديمة. وسيمر بحث ذلك في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ.

---

(1) راجع تقرير خبير التربة الهولندي «بورنغ» (Buringh) المنشور في مجلة «سومر»، المجلد 13 (1957)، القسم الإنجليزي وفيه تجد الإشارات إلى الدراسات الأخرى المنشورة في المجلات المختصة. وسجلت في حوض الفرات الأعلى في الأراضي السورية، أربع ضفاف قديمة ارتفاعاتها 15، 30، 60، 100 على التوالي. حول ذلك انظر:

De Meyer, Tell Ed-Der (1971), p. 11.

٤ ـ قضية ساحل الخليج العربي:

في أواخر القرن الماضي وضع الآثاري المعروف «دي مورغن» (De Morgan)، الذي اشتهر بتحرياته الآثارية في سوسة (عاصمة بلاد عيلام) نظريته المشهورة عن الساحل القديم للخليج العربي[1]، وفحواها أن ساحل هذا الخليج كان يمتد في عصور ما قبل التأريخ البعيدة مسافة إلى الشمال أبعد من حده الحالي، وأن معظم القسم الجنوبي والأوسط من العراق كان مغموراً بمياه البحر. وحدد خط الساحل إبان العصر الحجري القديم (قبل نحو نصف مليون عام) بالخط المار ما بين هيت و«سامراء ـ بلد»، وعين المرتفعات التي ذكرناها سابقاً في منطقة، «بلد ـ سامراء» على أنها بقايا ساحل الخليج القديم كما يبدو ذلك في الخارطة التي رسمها لذلك الغرض.

وتابع «دي ـ مورغن» في رأيه ذاك معظم المؤرخين والآثاريين، بحيث إن معظم الكتب التي وضعت عن تأريخ العراق القديم عينت في خرائطها خط الساحل القديم بموجب نظريته، ورُسم لحد الساحل خط آخر ارتآه القائلون بهذه النظرية عندما تراجع الخليج بمرور الأزمان في الخط المار بين مدينة «أور» والعمارة أو الكوت.

وكان جلّ ما استند إليه «دي مورغن» ومن شايعه في نظريته يدور على تحديد مواضع بعض المدن القديمة والافتراض بأنها كانت تقع على الساحل القديم أو أنها كانت تبعد عن الساحل بمسافات استنتجوها من النصوص القديمة، ومن ذلك بعض الأماكن القديمة الواردة في حملة الملك الآشوري سنحاريب على بلاد عيلام (عام 696ق.م) وأخبار البعثة البحرية التي قام بها «نيرخس» (Nearchus) قائد أسطول الإسكندر في عام 325ق.م وما جاء فيها

---

(1) انظر:

De Morgan, MDP, I, (1900), 4ff.

والواقع أن نظرية، أن حد الساحل كان يقع إلى الشمال أبعد من وضعه في العصور التأريخية المتأخرة، قد أشار إليها قبل «دي ـ مورغن»، الكاتب الروماني الشهير «بليني»:

Pliny, *Natural History*, vi, 31, 13.

من أسماء بعض المواضع افترض فيها أنها كانت على الساحل ومنها المدينة القديمة «كراكس» (الكرخ) والافتراض بأن موقعها عند مدينة المحمرة الحالية التي تقع الآن في اليابسة على بعد نحو 47 كيلومتراً شمال خط الساحل الحالي، فحسب البعض معدل تكوين اليابسة من جراء تراجع الخليج صوب الجنوب بفعل ترسبات الطمى والغرين بمعدل (115) قدماً في السنة أو زهاء الميل ونصف الميل في القرن الواحد، واستندوا أيضاً إلى النصوص المسمارية التي استنتجوا منها أن مدينة «أور» كان لها ميناء على البحر وكذلك مدينة «أريدو» (أبو شهرين)، مضافاً إلى كل ذلك الظاهرة الطبيعية المعروفة من أن كميات جسيمة من الطمى والغرين يحملها النهران ومعهما نهر «كارون» ويرسبانها في الخليج مكوّنة بذلك السهل الرسوبي.

ظلت هذه النظرية وكأنها من الحقائق المسلم بها إلى السنوات القليلة الماضية حيث بدأت التحريات الجيولوجية الحديثة تبعث الشكوك في صحتها بل أبانت عدم صحتها، نخص بالذكر منها النتائج التي حصل عليها جماعة من الجيولوجيين منذ عام 1950 وعلى رأسهم «ليز» و«فلكون» و«رايت»، والتي هي على طرفي نقيض مع النظرية الآثارية السالفة الذكر، إذ يرون أن حدود الساحل لم تكن في الماضي أبعد إلى الشمال من وضعها الحاضر، وأن حد الساحل الموهوم الذي افترضه الآثاريون لم يكن له وجود على الإطلاق. أما المرتفعات الكائنة في منطقة «سامراء ـ بلد» التي قلنا إن الآثاريين حسبوها جرف الساحل القديم فإنها كما نوَّهنا ليست سوى بقايا أحد ضفاف دجلة من عصر «البلايستوسين». وذهب أولئك الجيولوجيون إلى أبعد من هذا بأن ساحل الخليج كان على عكس ما ارتآه الآثاريون يمتد إلى الجنوب أكثر مما هو عليه الآن، وأنه تقدم إلى الشمال بحيث إنه غمر بعض معالم الاستيطان القديمة. وأظهرت نتائج التحريات الجيولوجية الحديثة أيضاً أن هذه المنطقة من العراق معرضة لعملية البناء الجيولوجي (Tectonic) التي تسبب الارتفاع والانخفاض في مستوى الساحل والمنطقة المتاخمة له، وأن درجة الانخفاض أو الانخساف (Subsidence) تعادل عملية الملء أو الردم الناتجة من ترسبات

الطمى والغرين[1]، ولهذا السبب ظلّت الأهوار في منطقة العراق الجنوبية منذ تكوينها ما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين. فلو تركت عملية الترسبات وحدها لكانت كافية لردم هذه الأهوار وتحويلها سهولاً غرينية في هذا المدى الطويل من الزمن. ولكن هذه الترسبات ما زالت تحدث في حوض دائم الانخساف. أما مسألة أنه كان لبعض المدن القديمة مثل «أور» و«أريدو» موانئ على البحر فإنه من قبيل المجاز في تفسير النصوص القديمة، وأن هاتين المدينتين لم تكونا في يوم من الأيام على الساحل. ومع أن الواقع أنه كان لاور واريدو ميناء، إلا أنه كان على نهر الفرات الذي كان يربطهما بالخليج وكان الفرات يمر بمحاذاة «أور» ولكنه بدَّل مجراه في العصور اللاحقة حيث يمر الآن من مدينة الناصرية، على بعد نحو 20 كلم شرق «أور».

هذا هو الرأي الحديث الذي استنتجه الجيولوجيون عن قضية ساحل الخليج التأريخي مفندين به النظرية الآثارية التي أجملناها سابقاً. فأي الرأيين هو الصحيح؟ لعل خير إجابة على هذا التساؤل يمكن إجماله بأن النظرية الجديدة فيها من الوجاهة ما يستوجب إعادة النظر في النظرية الآثارية القديمة، وأن قضية ساحل الخليج القديم ما زالت أبعد ما تكون عن الحل النهائي، وأن هذا الحل النهائي في رأينا يقتضي تضافر دراسات باحثين من مختلف الاختصاصات وإعادة النظر في درس النصوص القديمة المتعلقة بالموضوع، ونذكر على سبيل المثال تحديد مواقع بعض المدن القديمة التي ذكرت مسافاتها عن ساحل الخليج، مثل الموقع المذكور في حملة سنحاريب على بلاد عيلام (696 ق.م) باسم «باب سالميتي» وأنه يبعد ساعتين مضاعفتين (نحو 10ـ12ميلاً) عن «البحر المخيف»، فلو استطعنا تعيين موقع بقايا هذه المدينة لحصلنا على نقطة ثابتة كانت معروفة المسافة عن ساحل الخليج.

أما مسألة تأريخ شط العرب وهل كان النهران يلتقيان في موضع ما فسنتناولها من بعد كلامنا على أنهار العراق.

---

(1) حول تحريات «ليز» و«فلكون»، ونظريتهما عن حد الساحل انظر:
Lees and Falcon, in *Geographical Journal*, March, 1952.

أبرز الخصائص الجغرافية المميزة وأثرها في سير حضارة وادي الرافدين

١ ـ الموقع:

(1) أثره في المناخ:

كان لموقع العراق الجغرافي أثر مهم في سير تأريخه سواء كان ذلك من ناحية الطقس والمناخ والزراعة والحياة الاقتصادية بوجه عام أم من ناحية تركيب سكانه التأريخي واتصالاته بالأقطار الأخرى والأقوام المجاورة إلى غير ذلك مما للموقع الطبيعي من نتائج مؤثرة في سير التأريخ والحضارة.

فالعراق، على ما هو معروف، يقع في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا، ويربط القارات التأريخية الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا (بصورة غير مباشرة)، ولهذا الموضع أهمية استراتيجية وتجارية، ولا سيما في العصور القديمة واستمر كذلك إلى العصور الحديثة تقريباً، حيث كان ملتقى طرق القوافل التجارية للاتصال بين البحر المتوسط والمحيط الهندي والشرق الأقصى والهند بالطرق البرية ثم عن طريق الخليج العربي إلى القارة الهندية، ولكن فقد هذه الأهمية التأريخية بعد تحول الطرق التجارية البحرية العالمية على أثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (القرن السادس عشر) وفتح قناة السويس (القرن التاسع عشر) حيث صار الاتصال التجاري مباشرة بالهند وجنوبي شرقي آسيا بدون الخليج العربي.

ومن ناحية المناخ يقع العراق في القسم الجنوبي من المنطقة المعتدلة، حيث يحدد موقعه خطا العرض 30° (وبالضبط 29,6 عند الفاو) جنوباً و37° (37,5°) شمالاً، وبين خطي الطول 58° و48° شرقاً. والمعروف في الجغرافية الطبيعية الإقليمية أن الأقاليم الواقعة غربي القارات، مثل العراق الذي يقع غربي آسيا، وبين خطي العرض السالفي الذكر يكون مناخها من نوع مناخ مناطق الانتقال ما بين المناخ الصحراوي الحار وبين مناخ حوض البحر المتوسط المعتدل، ولذلك تكون درجات الحرارة في المنطقة الجنوبية أعلى منها في المناطق المشابهة لها. ويتنوع مناخ العراق بالنسبة إلى أجزائه الطبيعية المختلفة، ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من المناخ بالنسبة إلى أقسام سطحه الثلاثة، وهي القسم الجبلي والقسم الصحراوي والقسم الرسوبي. فمناخ الأجزاء الجبلية من نوع مناخ البحر المتوسط المتميّز بالبرودة المعتدلة شتاء وبالحرارة المعتدلة صيفاً. ويتراوح سقوط الأمطار في هذه المنطقة ما بين 40 و100 سم سنوياً. أما السهل الرسوبي والهضبة الغربية (البادية) فيسودها المناخ الصحراوي، فيكون المناخ الصحراوي هو العام في العراق بالنظر إلى أن الهضبة الغربية تشغل زهاء نصف مساحة العراق، والسهل الرسوبي زهاء ربع المساحة، ويبلغ معدل الأمطار في السهل الرسوبي نحو 20 إلى 5 سم. أما نوع المناخ الثالث فهو من نوع مناخ السهوب (Steppes) الذي هو مناخ انتقالي ما بين مناخ البحر المتوسط في الشمال وبين المناخ الصحراوي الحار في الجنوب. ويعم هذا النوع من المناخ منطقة السهوب في العراق، ويبلغ معدل أمطارها السنوية ما بين 20 و40 سم. ولموقع العراق هذا أثر في سقوط أمطاره من حيث قلتها وتغيُّر كمياتها واقتصار سقوطها على الشتاء تقريباً وأوائل الربيع وبكميات قليلة في منتصف الخريف. وبوجه عام لا تكفي أمطار العراق للزراعة، وفي بعض الأجزاء، ولا سيما السهل الرسوبي، لا يمكن الاعتماد على الأمطار، وإنما المعول على الري منذ أقدم الأزمان. ويمكن حصر معدل سقوط المطر السنوي في العراق في حدود 25سم، وهو معدل نحو 75% من سطح العراق، وتزداد هذه الكمية فتصل إلى نحو 100سم في مناطق الجبال العالية، وقد تتضاءل

كمية الأمطار في الأجزاء الجنوبية إلى نحو 5سم سنوياً، كما يمكن اعتبار الخط المطري الذي معدله 30سم الحد الأدنى للزراعة المطرية[1].

وتعم في العراق الرياح الشمالية والشمالية الغربية التي تهب في الغالب في معظم أيام السنة ويأخذ اتجاهها الانحدار العام لأرض العراق، وتعم أكثر ما بين شهر أيار (مايو) وتشرين الأول، وهي في الغالب باردة، وهناك الرياح الجنوبية الشرقية (التي تسمى محلياً الشرقي)، وهي قوية الهبوب ودافئة رطبة لهبوبها من ناحية الخليج ومنطقة الأهوار وتصحبها الغيوم والأمطار حيث تلتقي بالرياح الشمالية الغربية الباردة فتسقط أمطارها.

(2) أثره في تركيب السكان التأريخي:

بالإضافة إلى ما سبق أن أوجزناه من أثر موقع العراق في مناخه كان لهذا الموقع أيضاً أثر مهم في سير تأريخه وتركيب سكانه التأريخي، من ناحية كونه يقع بين منطقتين هما، رغم تباينهما من حيث العوارض الطبيعية، متشابهتان من ناحية فقرهما وقلّة مواردهما الطبيعية، فتحده من أطرافه الشمالية والشمالية الشرقية مناطق جبلية ومن الغرب والجنوب الغربي مناطق صحراوية وبوادٍ مقفرة فقيرة في مواردها الزراعية والمائية، تلك هي الجزيرة العربية وجزؤها الشمالي والشمالي الغربي، أي بادية الشام التي تشترك معها بادية العراق الشمالية الغربية وفي الجنوب بادية السماوة. ولا يفصل العراق في الواقع عن الجزيرة العربية سوى خط مائي ضيق، هو نهر الفرات. ويكون الحد بين أرض السواد المزروعة وبين البادية في بعض أجزاء العراق الغربية بوناً صارخاً (كما في منطقة الكوفة وكربلاء والناصرية والسماوة وغيرها). ومما لا شك فيه أن هذه الظاهرة هي التي جعلت البدو العرب يسمون سهل العراق الجنوبي بالسواد (لخضرته). ويمكن تشبيه أرض ما بين النهرين

---

(1) عن موجز جغرافية العراق راجع:

W. Fisher, *The Middle East*, (1952).

والدكتور محمد جاسم الخلف «جغرافية العراق» وترجمة كتاب «هستيد».

الرسوبية بحوض خصب بين تينيك المنطقتين الفقيرتين نسبياً مما جعلها محط أنظار أقوامها وهجراتهم إليه منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ، وعلى ضوء ذلك ينبغي للمؤرخ أن ينظر إلى تركيب سكان ما بين النهرين. فمن الجزيرة العربية والبوادي الشمالية الغربية (مهد الأقوام السامية) نزحت إلى بلاد ما بين النهرين في مختلف عصور التأريخ الأقوام السامية المختلفة ومنها القبائل العربية التي يرجع إلى أصولها القسم الأعظم من سكان العراق الآن. ومن المنطقة الثانية، أي الأقاليم الشرقية والشمالية الشرقية، نزحت إلى العراق أقوام عديدة من بينها جماعات من أصول الأقوام الهندية ـ الأوروبية. والعراق من هذه الناحية إقليم مفتوح لهجرات الأقوام والغزوات بالمقارنة مع وادي النيل الذي يعد إقليماً مقفلاً بوجه نسبي. وبما أننا سنفرد موضوعاً خاصاً عن أقوام وادي الرافدين القدماء فنختتم هذه الملاحظات عن أثر موقع العراق في تركيب سكانه التأريخي بتأكيد ظاهرة مهمة، تلك هي عملية الانصهار الحضاري التي ميّزت تأريخ هذا البلد في صهر الأقوام المختلفة في بودقة حضارة وادي الرافدين وجعلت له كياناً تأريخياً وحضارياً متميّزاً منذ أقدم العهود.

٢ ـ أجزاء العراق الطبيعية:

يمكن أن نميّز عدة أجزاء في أراض العراق الطبيعية تختلف بعضها عن بعض بفروق واضحة، من سهول رسوبية إلى هضاب وبوادٍ ونجاد إلى منطقة جبلية وشبه جبلية أو متموجة.

أ ـ السهل الرسوبي:

عندما يصل النهران العظيمان، الفرات ودجلة إلى منطقة «هيت ـ سامراء» تبتدئ دلتاهما الكبيرة، حيث يلتقي وادياهما مكونين سهلاً رسوبياً واسعاً طوله زهاء (650) كم من الشمال إلى الجنوب ويختلف عرضه ما بين 45 و140كم. فيجري النهران في أراضٍ منخفضة ذات انحدار واطئ بحيث لا يزيد ارتفاعها أكثر من 32متراً عن سطح البحر في منطقة بغداد، ويجريان على هيئة متعرجة (meandering)، وتعم ظاهرة الفيضانات وتبدل المجاري وهي الظاهرة

المميزة للأنهار المتعرجة التي تجري في السهول الرسوبية. وتبدأ في هذا السهل مشاريع الري القديمة والحديثة بالإفادة من ظاهرة طبيعية يمتاز بها نهر الفرات في بداية هذا السهل الرسوبي، إذ يرتفع وادي هذا النهر قليلاً بالنسبة إلى وادي دجلة، حيث يبلغ معدل الانحدار من (7) إلى (10) أمتار أو نحو 15 إلى 16سم في الكيلومتر الواحد. وقد فطن العراقيون القدماء إلى هذه الظاهرة فشقُّوا من الفرات أنهاراً كثيرة للري باتجاه دجلة وجعلوا من السهل الرسوبي ابتداءً من فوق بغداد، بالقرب من الفلوجة، شبكة واسعة من مشاريع الري الكبيرة والصغيرة. ويتبدل الوضع في الجزء الجنوبي من السهل، في منطقة الكوت ـ الناصرية، حيث يبدأ وادي دجلة بالارتفاع بحيث يمكن إقامة مشاريع ري من دجلة إلى الفرات وقد تم ذلك في العصور القديمة وكما في مشروع سد الكوت في العصور الحديثة (1937).

وكان لهذه الظاهرة مضافاً إليها حقيقة أن نهر الفرات أقل عنفاً في فيضانه من دجلة أثر مهم في تأريخ الاستيطان البشري في السهل الرسوبي ونشوء الحضارة فيه، في تركيز ذلك الاستيطان في وادي الفرات دون دجلة. وسنتابع في الفصول الآتية مراحل ذلك الاستيطان ونشوء حضارة وادي الرافدين في هذا السهل، كما سنتطرق بعد قليل إلى ظاهرة تغيير النهرين مجرييهما في هذا الجزء من العراق، وأثر ذلك في هجر المدن التأريخية.

وتقع في الجزء الجنوبي من دلتا النهرين مناطق الأهوار[1]، التي تكون جزءاً متميزاً من سطح العراق، وتتميز بأحراشها من البردى والقصب وحيوانها الخاص «الجاموس» والخنزير البري والأسماك والأطيار البرية المائية، ويعيش سكانها حياة خاصة بدائية مكيفة بصورة عجيبة إلى هذه البيئة الطبيعية الغريبة. والمرجح أن منطقة الأهوار ازدادت اتساعاً منذ القرن السادس الميلادي

---

(1) حول الأهوار وأحوال سكانها انظر:

Wi Thesiger in Geographical Journal, (1954).

Westphal-Hlbusch in *Sumer*, (1956).

Philby in *Ibid.*, (1959).

(أواخر العهد الساساني) حينما تخربت السدود بعد فقدان السيطرة على الأنهار. وتقدر المساحة التي تشغلها الأهوار الآن زهاء (15) ألف كيلومتر مربع، وبالإمكان تقسيمها إلى ثلاث مجموعات: (1) الأهوار الشرقية في منطقة دجلة (وأكبرها هور الحويزة وهوالحويزة شويجه)، (2) الأهوار الوسطى في منطقة الفرات الأوسط من بعد المسيب مثل الحبانية وأبودبس، وهما منخفضان طبيعيان اتخذا حديثاً خزانين كبيرين لخزن مياه الفرات، (3) الأهوار الجنوبية وأكبرها هور الحمار ما بين الناصرية والبصرة، الذي تنصب فيه مياه الفرات جنوب سوق الشيوخ بنحو (20) كم، ثم يخرج منه الفرات عن طريق «كرمة علي»، وكان الفرات ودجلة يلتقيان عند القرنة قبل نحو 100 عام.

ب ـ البادية والهضبة الغربية:

تحادد منطقة البادية التي تشغل زهاء نصف مساحة العراق امتداد مجرى نهر الفرات من الغرب وتمتد مئات من الأميال إلى قلب الجزيرة العربية، ومن الحدود الأردنية والسعودية والكويتية إلى الحدود السورية، وتشترك مع بادية الشام، وهي أيضاً امتداد لهضبة نجد من وسط الجزيرة. وأراضي هذه البادية بالدرجة الأولى من الصخور الكلسية والرملية وتكثر فيها الرمال، كما تقطعها مجموعة من الأودية الطويلة مثل وادي حوران الذي يصب في الفرات أسفل مدينة عانة بقليل (قرب خان البغدادي). ولم تكن هذه البادية من الناحية الحضارية جزءاً مهماً من بلاد وادي الرافدين، بل كانت هي وسكانها غريبة عن سكان السهل الرسوبي المتحضرين ومصدر خطر يهدد مزارعهم ومدنهم وقوافلهم التجارية. ولكن هذه البوادي كانت، كما ذكرنا، مصدراً لهجرات الأقوام السامية البدوية إلى وادي الرافدين منذ أبعد عصور التأريخ.

جـ ـ منطقة الجزيرة:

سبق أن ذكرنا أن مصطلح الجزيرة هو الذي أطلقه المؤرخون والجغرافيون العرب على أرض ما بين النهرين العليا. ويرادف تقريباً التسمية اليونانية «ميزوپوتامية» في استعمالاتها القديمة. والغالب في استعمال البلدانيين

العرب أن الجزيرة تبتدئ إلى الشمال من الخط المار ما بين «الأنبار» (الفلوجة) أو هيت على الفرات إلى «سامراء ـ تكريت» على دجلة. ومنطقة الجزيرة هذه سهل واسع ما بين الفرات ودجلة يبلغ أوسع عرض له نحو (250) ميلاً وتمتد في هذا السهل المجاري والسيول والوديان الكثيرة التي تنتشر فيه كأنها المروحة، وتغذي نهري الباليخ والخابور وروافدهما، وكلها مصادر مائية مهمة لنهر الفرات. وبالإضافة إلى هذه الموارد المائية تتمتع المنطقة بسقوط الأمطار الكافية تقريباً للزراعة والرعي، كما توجد فيها مياه جوفية وفيرة، مما كان سبباً في ازدهارها منذ عصور ما قبل التأريخ، كما تدل على ذلك كثرة التلول الأثرية المنتشرة فيها والتي تتفاوت في أزمانها منذ عصور ما قبل التأريخ والعصور التأريخية المختلفة[1]. وهذا بالإضافة إلى إمكان إنشاء مشاريع للري فيها كما أقيمت في العصور الماضية[2]. وقامت في الجزء الشمالي من المنطقة المملكة الصغيرة التي عرفت باسم دولة «ميتاني» وباسم «خانيگلبات» في المصادر الآشورية، وبالمصطلح الآرامي «نهارينا»، وسيمرّ بنا الكلام عليها في عرضنا للتأريخ الآشوري في عهده الوسيط. وازدهرت الجزيرة في العصور العربية الإسلامية، كما اشتهرت منذ أقدم الأزمان بأنها كانت من مناطق الاتصال المهمة ما بين وادي الرافدين وبين بلاد الشام وموانئ البحر المتوسط وبلاد الأناضول، وكانت من المصادر المهمة للهجرات السامية إلى وادي الرافدين وبلاد الشام.

د ـ المنطقة الجبلية وشبه الجبلية:

تقع المنطقة الجبلية في الجهات الشمالية والشمالية الشرقية، وتشغل

---

(1) عن المواقع الأثرية والتحريات التي تمت فيها انظر المراجع الأساسية التالية:

Mallowan, *The Excavations at Tal Shagar Bazar* (Iraq. II. 1936).

Twenty five years of Mesopotamian Discovery.

Parrot, AM, I. 11.

(2) حول مشاريع الري القديمة في منطقة الباليخ راجع:

«فيضانات بغداد في التأريخ»، للدكتور أحمد سوسة، الجزء الثاني، ص 508ـ509.

زهاء خمس مساحة العراق، وتمتد في حدود العراق المشتركة مع إيران وتركية وسورية، وتتلاشى على هيئة تلال ومرتفعات عند حدود السهل الرسوبي بالقرب من الفتحة وبيجي. أما المنطقة شبه الجبلية أو المتموجة (Undulating) فتبتدئ من سفوح الجبال إلى الغرب والجنوب من المنطقة الجبلية وتستمر في اتجاهها عبر دجلة حتى حدود سورية غرباً وحافة الهضبة الغربية في الجهة الجنوبية الغربية وهي صالحة للزراعة ولا سيما في أقسامها الشمالية حيث يبلغ فيها معدل سقوط المطر سنوياً نحو 50سم وفي أجزائها الجنوبية نحو 20سم، الأمر الذي يجعل هذه الأجزاء صالحة للمراعي وتربية الماشية.

وتتدرج جبال العراق بالارتفاع على هيئة سلاسل متوازية تقريباً إلى أن تبلغ أقصى ارتفاع لها في حدود 8000 متر أو 11,500 قدم. ويلاحظ في الاتجاه العام لهذه السلاسل أنها على هيئة قوس من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، يستثنى من ذلك بعض السلاسل الصغيرة غربي دجلة على الأخص حيث تمتد من الشرق إلى الغرب مثل جبل سنجار. وتتخلل هذه السلاسل الجبلية المتوازية سهول ووديان خصبة (وتقدر مساحة هذه الوديان زهاء ربع مساحة الجبال). وتتميز المنطقة الجبلية بوفرة مواردها المائية، وتنساب روافد دجلة في هذه المرتفعات ويكون اتجاه مجاريها على هيئة قطرية إذ تقطع سلاسل الجبال بهيئة عامودية تقريباً. ولهذه الظاهرة إمكانيات مهمة في إنشاء خزانات للمياه والسدود وتوليد الطاقة الكهربائية، وقد تمت فعلاً الإفادة من ذلك في العصر الحديث (مثل مشروع دوكان على الزاب الأسفل ومشروع دربندى خان على ديالى). وتوجد بقايا مشاريع سدود قديمة أوضحها السد المقام على العظيم ويسمى البند في الموضع المسمى «دمير قبو» في أول الأراضي المسماة «الغرفة» الآن والعيث قديماً.

وفي هذه المنطقة الجبلية عاش إنسان العصور الحجرية القديمة والحديثة في سفوح المرتفعات كما ظهرت أولى القرى الفلاحية، مما سنفصله في كلامنا على عصور ما قبل التأريخ.

٣ ـ افتقار بيئة حضارة وادي الرافدين إلى المواد الأولية واشتهارها بالتجارة:

من الأمور البارزة التي تسترعي نظر الباحث في حضارة وادي الرافدين أن البيئة التي نشأت فيها هذه الحضارة، وهي السهل الرسوبي الجنوبي الذي مرت بنا صفته، مع اشتهارها بثرواتها المائية الكبرى وغنى حاصلاتها الزراعية منذ أبعد عصور التأريخ، إلا أنها فقيرة فقراً بارزاً في المواد الأولية اللازمة لبناء الحضارة كالمعادن والأخشاب والأحجار الصالحة للبناء والنحت والأحجار الكريمة وشبه الكريمة. والواقع من الأمر أن الجماعات الأولى التي أنشأت أولى الحضارات في السهل الرسوبي لم تجد ما تقدمه لها البيئة الطبيعية من المواد الضرورية لتلك الحضارة سوى الماء والتراب والقصب والأحراش. ولعل أبلغ مثل على هذه الحقيقة ما يشاهده الزائر للمتاحف العالمية من مجاميع الآثار النفيسة التي خلفتها حضارة وادي الرافدين وهي مصنوعة من مواد لا تتوفر في بيئة هذه الحضارة. ولكن هذا لم يفت في عضد روّاد تلك الحضارة إذ عملوا للحصول على تلك المواد من الأقطار الخارجية القريبة والبعيدة، فاتسمت حضارة وادي الرافدين بصفة ملازمة لها منذ أبعد العصور، هي أنها أصبحت حضارة تجارية، بالإضافة إلى كونها حضارة زراعة وري. وكان لتنظيم شؤون التجارة الخارجية وما يستلزم ذلك من تسيير القوافل والمحافظة على الطرق التجارية من العوامل المؤثرة في سير حضارة وادي الرافدين وتطورها، سواء أكان ذلك في التنظيم السياسي والاجتماعي أم في نشوء الأساليب والطرق الخاصة بالمعاملات التجارية. فعلى الصعيد السياسي استلزم ضمان ازدهار التجارة الخارجية ظهور الدولة القوية المركزية، دولة القطر الموحدة، بتوحيد دول المدن القديمة المتضاربة في مصالحها التجارية. وقد قوى هذا العامل وازدوج معه عامل مهم آخر عمل على ظهور أولى أنظمة الحكم وتطويرها إلى الوحدة السياسية الشاملة، ذلك هو تنظيم شؤون الري والسيطرة على الأنهار وفيضاناتها وإقامة مشاريع الري.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا أرجعنا الدوافع الأساسية التي كانت تدفع

ملوك العراق القديم وحكامه منذ أقدم الأزمان على القيام بالحملات الحربية والفتوح الخارجية، إلى ضمان الحصول على المواد الأولية الضرورية من الخارج، ومن أجل سلامة الطرق التجارية بإخضاع الأقوام المارة من أراضيها تلك الطرق، وإقامة الحاميات والحصون العسكرية في النقاط الاستراتيجية المهمة، نذكر منها على سبيل المثال الحصن الذي شيّده الفاتح الآكدي الشهير «نرام - سين» (2254 - 2218ق.م) في الموضع المسمى «تل براك» في منطقة الخابور في سورية، أي عند الطريق المهم الواصل ما بين بلاد ما بين النهرين وبين بلاد الشام والأناضول. وليس أدل على الاهتمام بالتجارة والاتصالات التجارية من أنه كان لكل مدينة مهمة في العراق القديم ميناء كبير على النهر، وكان الميناء من أهم أجزاء المدينة، واحتلال الشؤون التجارية مكاناً بارزاً في أخبار حضارة وادي الرافدين، ومنها الشرائع المدونة، وفي مقدمتها شريعة حمورابي الشهيرة واشتهار هذه الحضارة بالتنظيمات والمعاملات التجارية.

أشهر طرق الاتصالات الخارجية:

كان العراق يرتبط بالأقاليم الخارجية بعدة طرق تأريخية كانت القوافل التجارية تسلكها منذ أبعد عصور التأريخ. ولعل أبلغ دليل على اهتمام القوم بطرق المواصلات الخارجية أنهم وضعوا أدلة أو أثباتاً جغرافية بالطرق والمسالك المشهورة وتحديد المراحل والمدن التي تمر منها أو تقع عليها أي ما يصح أن نسميه بدليل الطرق والمسالك (Itinerary)، وقد جاءنا نماذج طريفة منها أشهرها وأقدمها يرجع في تأريخه إلى العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق.م)[1]. ويمكننا حصر الطرق المشهورة بثلاث مجموعات بالنسبة إلى اتجاهاتها والأقطار التي تؤدي إليها:

---

(1) حول الأثبات الخاصة بالطرق والمراحل المارة فيها انظر:

A. Goetze, «An Old Babylonian Itineray» in *JCS*, VII, (1953), 5ff.

J. Lewy, «Studies In Ancient Historical Geography Of The Ancient Near East», *Orientalia* xxII (1952). 26ff.; *Ibid.*, 393ff.

Le Breton, P. Garelli, Th. Jacobsen in *RA*, LII (1958), 110ff.

1 ـ الطرق المؤدية إلى الأقاليم الغربية:

يؤخذ من الأخبار التأريخية المختلفة العهود أنه كان يوجد طريقان مهمان كانا يربطان العراق باتجاه غربي ببلاد الشام وسواحل البحر المتوسط وبلاد الأناضول. فالطريق الأول يبدأ من بلاد آكد (من بابل أو سبار) ويسير بمحاذاة الفرات ماراً بالمدن التأريخية القديمة مثل المدن التي تقع الآن في منطقة الرمادي (مثل رابيقم) وهيت وعانة حتى يصل إلى مدينة «ماري» المهمة (تل الحريري الآن بالقرب من البوكمال) ويستمر من بعد ذلك قاطعاً بادية الشام غربي الفرات ويمر بتدمر وحمص وهنا يتشعب إلى جملة فروع تؤدي كلها إلى موانئ البحر المتوسط. وكان أصعب جزء من هذا الطريق المسافة التي يخترق فيها البادية التي تبلغ زهاء (300) ميل، ولذلك كان يفضل الطريق الثاني الذي يمر من نينوى أو يبتدئ منها ويجتاز منطقة الجزيرة (ما بين النهرين) من الشرق إلى الغرب ماراً بجملة مستوطنات ومدن مهمة مثل المدينة المسماة «شوبات أنليل» (المرجح تعيينها في التل المسمى جغار بازار) و«كوزانا» (تل حلف الآن) وحران، ويعبر الفرات عند «كركميش» (جرابلس الآن) ومدينة «مسكنة» (إيمار القديمة) ثم في حلب أو بالقرب منها وينتهي بنهر العاصي (أورنتس) حيث يتشعب إلى عدة طرق تؤدي إلى الأجزاء الوسطى من سورية وإلى سواحل البحر المتوسط. ومن فروعه المهمة ما كان يتجه إلى الشمال الغربي ويؤدي إلى كليكية والأجزاء الأخرى من المملكة الحثية (الأناضول). وبالإضافة إلى ذلك كان يمكن السفر من نينوى إلى أرمينية ثم الأناضول بأتباع دجلة إلى دياربكر (آمد القديمة) ثم عبر جبال طوروس في مجازات جبلية.

2 ـ الطرق المؤدية إلى الأقاليم الشرقية:

كان اتصال حضارة وادي الرافدين بالأقاليم الشرقية أصعب مما كان عليه الحال مع الأقاليم الغربية، من جراء طبيعة الأراضي الجبلية الوعرة، أي سلاسل جبال «زاجروس» وسفوحها المتاخمة لوادي الرافدين على طوال

حدوده الشرقية والشمالية الشرقية، وقلّة مجازات العبور فيها وشدة مراس القبائل الجبلية القاطنة فيها. فمن الممرات المعروفة المجاز الكائن بالقرب من «راوندوز» عند «رايات»، والممر الكائن في منطقة حلبجة، شرقي السليمانية وممر خانقين. وكان الممران الأولان، أي رايات وحلبجة، يؤديان أيضاً إلى منطقة بحيرة «أورمية» وآذربيجان. ويحتمل وجود ممر تأريخي آخر عند قلعة «ديزه»، وهو الطريق الذي يرجح أن الملك الآشوري سرجون الثاني (721ـ705ق.م) قد سلكه في حملته الحربية الشهيرة على بلاد أرمينية وآذربيجان (المسماة حملة سرجون الثامنة). أما طريق خانقين فكان يؤدي إلى كرمنشاه وهمذان (اكبتانا القديمة عاصمة الماذيين). وبالإضافة إلى هذه الطرق التي عددناها كان يوجد طريق آخر مشهور يربط العراق بالنواحي الشرقية عن طريق بلاد عيلام (منطقة عبادان أو الأهواز أو عربستان)، ويمر من المدينة المسماة «دير» (أو «دور ـ ايلو» وهي تلول العقر بالقرب من بدرة). وكان يسير محاذياً لسفوح جبال زاجروس حتى يصل إلى «سوسة» (عاصمة عيلام). ومع أن هذا الطريق لم تكن تعترضه جبال وعرة كوعورة الطرق الجبلية الأخرى بيد أن العلاقات العدائية ما بين دول وادي الرافدين وبين بلاد عيلام جعلت من هذا الطريق طريقاً حربياً بالدرجة الأولى، وكثيراً ما عبرته الجيوش الغازية من الجانبين. وكانت توجد بالإضافة إلى ما ذكرناه مسالك إلى بلاد عيلام لا يمكن تحديدها بوجه التأكيد كالاتصالات التي كانت تتم من منطقة شرقي دجلة في واديه الأسفل أي جهات العمارة والكوت والبصرة.

3 ـ الطريق البحري:

ومن الطرق الحيوية التي كانت تربط العراق بالعالم الخارجي ولا سيما الجهات الشرقية والهند والأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية، الطريق البحري من الخليج (الذي كان يسمى في النصوص المسمارية بالبحر الأسفل والنهر المر)، حيث كان الطريق البحري الوحيد، فكان بمثابة الرئة للجسد. وتدل النصوص التأريخية الكثيرة التي جاءتنا منذ منتصف الألف الثالث ق.م على اتصالات ما بين العراق وبين الأقطار المتاخمة للخليج وسواحل الجزيرة.

ومن أشهرها الأقاليم التي وردت باسم «مگان» (Magan، عُمان) و«دلمون» أو «تلمون» (البحرين)، وإقليم «ملوخا» الذي يرجح تعيينه بالأجزاء الشرقية من الهند ولا سيما وادي السند، كما يرجح أنه صار يطلق في العصور المتأخرة على بلاد الحبشة. والجدير بالذكر في هذا الصدد أن حضارة ازدهرت في وادي السند في منتصف الألف الثالث ق.م، وفيها جملة عناصر مضاهية لحضارة وادي الرافدين، كما أبانت التحريات الأثرية الحديثة وجود آثار من أدوار عصور ما قبل التأريخ من حضارة وادي الرافدين في سواحل الجزيرة العربية (انظر الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ).

وقد سبق أن ذكرنا اشتهار معظم المدن المهمة في حضارة وادي الرافدين بموانيها النهرية. وبالنظر إلى المكانة الحيوية للخليج في حضارة وادي الرافدين صار من مستلزمات سياسة الدول التي قامت في وادي الرافدين جعل الأقاليم المتاخمة له ضمن فلك النفوذ السياسي لتلك الدول منذ قيام أمبراطورية سرجون الآكدي الشهير (2370 ـ 2315ق.م) وظلت أهمية الخليج في العصور العربية الإسلامية، إذ كان يتم الاتصال عن طريقه بالهند والشرق الأقصى. وخلاصة القول كان الخليج واسطة مهمة بين الأقاليم الغربية وبين موانئ البحر المتوسط وبين الهند والشرق إلى أن فقد أهميته من بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح وفتح قناة السويس فتحولت الطرق التجارية العالمية تحولاً أساسياً وفقد العراق والخليج العربي أهميته التجارية العالمية السابقة.

الأنهار ونظام الري والمشاكل الناجمة عنها:

مرّ بنا في كلامنا على أقسام العراق الطبيعية كيف أن السهل الرسوبي الذي نشأت فيه حضارة وادي الرافدين يعتمد في حياته على ري الأنهار، ولذلك أجمع الباحثون على أن نظام الري وحل المشاكل الناجمة عنه كان على رأس العوامل المؤثرة في نشوء تلك الحضارة وتطورها وإكسابها الصفات الخاصة المميزة لها. فالمعروف أن وادي الرافدين إقليم نهري كبير، فيه نهران يعدان من الأنهار الكبرى في العالم ويتبعهما عدد من الروافد الكبيرة

والصغيرة، مما جعل العراق من الأقطار القليلة في العالم التي تحوز على ثروة مائية كبرى بالنسبة إلى مساحته الصغيرة. فكان الري والسيطرة على الأنهار العامل الحاسم الذي تفاعل مع جهود الإنسان فنتج عن ذلك أولى الحضارات البشرية في التأريخ؛ولعله من البديهي القول إن وجود هذه الثروة المائية الكبرى لم يسبب نشوء الحضارة تلقائياً، بل كان للجهود البشرية الشاقة في ترويض هذه البيئة النهرية للإفادة من إمكانياتها الأثر الحاسم في الموضوع، ويمكن القول أيضاً إن نتيجة جهود أولئك الرواد الذين استوطنوا السهل الرسوبي في الألف الخامس ق.م ظهرت بتحويل بيئة وحشية من الأهوار والأحراش أو البادية الجرداء إلى بيئة معطاء درت الخير والبركة ورددت شهرتها الأقوام والأمم القديمة، بحيث جعلت الكتب المقدسة جنة عدن فيها، وجعلت النهرين من بين الأنهار الأربعة التي تنبع من الجنة.

ولما كنا سنخصص بحثاً خاصاً عن تأريخ الري في الجزء الثاني من كتابنا فنكتفي بهذه الملاحظات مضيفين إليها ما سبق أن ذكرناه من إدراك العراقيين القدماء لخصائص نظام النهرين ووضعية واديهما الطبيعية، وفي مقدمتها ارتفاع وادي الفرات بالنسبة إلى وادي دجلة في السهل الرسوبي ابتداءً من منطقة «الفلوجة ـ بغداد»، فشقوا أنهاراً كثيرة من الفرات إلى دجلة كانت تروي أراضٍ شاسعة، ويمكن تتبع آثار شبكة أنهار الري وقيعانها المندرسة وعلى ضفافها الأطلال الكثيرة المندرسة التي كانت فيما مضى مدناً وقرى عامرة، وسنشير إلى التحريات الأثرية الحديثة في تتبع مجاري الأنهار القديمة.

وتشغل أخبار شق الجداول والأنهار مكاناً بارزاً في كتابات الملوك والحُكام منذ نشوء نظام الحكم في العراق وبداية التدوين في مطلع الألف الثالث ق.م. وكثيراً ما اتخذ حفر نهر جديد أو كريه وتطهيره حادثة يؤرخ منها في نظام التأريخ بالحوادث المشهورة المتبع في حضارة وادي الرافدين. والواقع أن عدد الأنهار والجداول التي ورد ذكرها في النصوص المسمارية يؤلف معجماً ليس بالصغير؟ وخصصت شريعة حمورابي (1750ق.م) أحكاماً كثيرة لتنظيم شؤون

الري والزراعة[1]. وبالإضافة إلى إقامة مشاريع الري تدلنا النصوص المسمارية أيضاً على إنجاز مشاريع أخرى ملازمة لنظام الري مثل إقامة السدود والأسكار وخزانات المياه لخزن الماء إبان الفيضانات والإفادة منها مرة أخرى في أوقات قلّة المياه. والمرجح كثيراً أنهم أفادوا من بعض المنخفضات الطبيعية القريبة من ضفاف الفرات الغربية في منطقة الرمادي لخزن المياه فيها مثل منخفض الحبانية وهور أبو دبس ومنخفض عقرقوف[2]، كما أقيمت خزانات في منطقة لجش في العصر المسمى فجر السلالات (الألف الثالث ق.م).

المشاكل الناجمة عن الري والأنهار:

أ ـ عنف البيئة الطبيعية:

إذا أضفنا إلى ما ذكرناه عن أثر موقع العراق الجغرافي في مناخه وطقسه من حيث تبدل المواسم والتفاوت الشديد في درجات الحرارة صيفاً وشتاء ونهاراً وليلاً ما هو معروف عن نظام أنهاره من حيث عدم انتظام فيضاناتها وعنف هذا الفيضان وعدم ملاءمة أوقاته لمواسم الدورة الزراعية، اتضح لنا أن البيئة الطبيعية التي قامت فيها حضارة وادي الرافدين تتصف، بخلاف ما قد يظن، بالعنف والشدة. ولعل أحسن ما يوضح لنا هذه الحقيقة ونتائجها أن نقارن نظام الأنهار في العراق بنظام الأنهار في حضارة وادي النيل التي تضاهي حضارة وادي الرافدين من حيث القدم والاعتماد على ري الأنهار. فعلى ما هو معروف يتصف نهر النيل باطراد فيضانه وانتظامه ولا يكون في الغالب مصحوباً بالعنف والتدمير كما هو الحال في نهري العراق، دجلة والفرات، ولا سيما دجلة. ثم إن موسم فيضان النيل (من حزيران إلى تشرين الأول) يلائم الدورة الزراعية، وبالمقابلة معه يكون موسم فيضان الرافدين

---

(1) راجع أحكام الأراضي والحقول والبساتين في شريعة حمورابي (المواد 26 ـ 60 فما بعد، وكذلك المواد 241 ـ 273).

(2) راجع تقرير المهندس «ويلكوكس» عن ري العراق (1911)، وبحث الدكتور أحمد سوسة: «وادي الفرات ومشروع بحيرة الحبانية» (1944) ص 81 فما بعد.

عكس الدورة الزراعية إذ إنه يحدث على ما هو معروف في وقت متأخر بالنسبة إلى الزراعة الشتوية فلا يستفاد من فيضانهما، بل إن هذا الفيضان كثيراً ما سبب تدمير الغلات الزراعية، وتشحّ مياههما في موسم الزراعة الصيفية. وخلاصة القول مع أن كلتا الحضارتين حضارتا ري، بيد أن نظام الري في حضارة وادي الرافدين أصعب تنظيماً وضبطاً وأكثر مشاكل، بحيث لا يسع المتتبِّع لتأريخ هذه الحضارة إلا أن يقدر ما بذله سكان العراق القدماء من جهود جبارة للسيطرة على نهرين من أشد أنهار الدنيا عنفاً.

وفي وسع المتتبِّع لسير الحضارة في كل من وادي النيل ووادي الرافدين أن يجد صورة هذا الجانب من بيئتهما الطبيعية ولا سيما نظام الأنهار والري في الكثير من مقوماتهما الفنية والأدبية والسياسية. وإذا جاز أن ينسب إلى الحضارات مزاج أو طابع مميّز أمكننا القول إن مزاج حضارة وادي النيل يتسم بطابع الاعتداد بالإنجازات وشعور الطمأنينة بالسيطرة على البيئة، بحيث جعلت رأس المجتمع إلهاً، أي إنها ألهت ملوكها وجعلتهم آلهة في الحقيقة وليس من باب التقديس أو المجاز. وبالمقابلة مع ذلك كان الطابع العام لمزاج حضارة وادي الرافدين العنف والتشاؤم والتوتر والتأزم وتوقع المفاجآت، وتطغى عليها الناحية العملية في الحياة. ومع أن بعض الملوك في حضارة وادي الرافدين قد قدسوا وألّهوا، بيد أن الملك ظل متصفاً ببشريته إلى آخر أدوار تلك الحضارة، فلم يكن يميزه عن البشر الآخرين سوى أن الآلهة التي بيدها حكم الكون المطلق قد انتدبته أو فوضته ليحكم الناس بالنيابة عنها. وكان البون شاسعاً في نظرة كل من الحضارتين إلى نظام الحكم. فالملوكية ونظام الحكم في حضارة وادي النيل قد وجد منذ بدء الخليقة، أي منذ ظهور الآلهة. وكان أول إله خالق ملكاً في الوقت نفسه، والفرعون إله من الآلهة. أما نظام الملوكية في حضارة وادي الرافدين فكان شيئاً طارئاً ليس من أساس نظام الخليقة، بل نشأ على أثر أزمة وقعت بين الآلهة في تنازعها على سيادة الكون، واضطرار مجموعة الآلهة الحديثة إلى انتخاب أحد الآلهة ليكون ملكاً عليها، وتنازلت له عن سلطاتها، وعمد كبير الآلهة بعدئذٍ إلى خلق

الإنسان ليتولى خدمة الآلهة (يعبدها)، وكان هو الذي يختار الملك أو الحاكم لينوب عنه في حكم البشر كما ذكرنا.

نجد كل هذا وغيره جلياً في أساطير كلتا الحضارتين الخاصة بالخليقة مثل أسطورة الخليقة البابلية الشهيرة (انظر الفصل الخاص بالأدب في الجزء الثاني). ويجد الفاحص لهذه الأساطير نفسية كل من هاتين الحضارتين ممثلة أحسن تمثيل، وهي انعكاس لأثر البيئة الطبيعية. فمثلاً تمت عملية الخلق في أساطير حضارة وادي النيل بهدوء، بمجرد إرادة الآلهة، ولكن الخليقة في أساطير وادي الرافدين حدثت بالصراع والاحتراب ما بين الآلهة كما نوَّهنا بذلك. والصفة الغالبة لآلهة حضارة وادي الرافدين القوة والبطش والتقلب. وليس من باب الصدفة أن تخلو آداب حضارة وادي النيل من أخبار للطوفان في حين أن الطوفان يكون موضوعاً رئيسياً شائعاً في آداب حضارة وادي الرافدين ونذكر على سبيل المثال ملحمة جلجامش التي يكون حدث الطوفان جزءاً مهماً منها.

وفي العقائد الدينية ولا سيما العقائد المتعلقة بعالم ما بعد الموت يمكن للمتتبع أن يقف على مزاج كل من الحضارتين. فالفرد في حضارة وادي الرافدين قد شغلته مشاكل هذه الحياة الدنيا وما تتطلبه من صراع وكفاح للسيطرة على البيئة عن التفكير كثيراً في الحياة الأخرى واعتقاد الخلود فيها، فلم تنشأ عند القوم فكرة واضحة عن وجود دار للعقاب ودار للثواب فيما بعد الموت. بل كان عقاب الآلهة وثوابها يتمان في هذه الحياة. وبالمقابلة مع ذلك شغل الفرد في حضارة وادي النيل بأمر الحياة الأخرى ونيل الخلود فيها. وظهر هذا جلياً في الآثار التي خلفتها هذه الحضارة، من الأهرام الضخمة إلى التحنيط إلى إيداع أنفس الأثاث في القبر، بحيث يمكن القول إن الغالبية العظمى من آثار هذه الحضارة قد وجدت في القبور، سواء كان ذلك في قبور الفراعنة والأمراء والحُكام أم في قبور عامة الناس.

ولعله يمكن إيجاز الفروق بين سير كل من هاتين الحضارتين بأن حضارة وادي النيل قد تم نضجها واستقرارها منذ زمن مبكر في تأريخها في حين أن

الصفة البارزة في سير حضارة وادي الرافدين أنها ظلت في جميع أدوارها المختلفة حضارة «ديناميكية» متحركة[1]. ونضيف إلى ما سبق أن ما ذكرناه عاملاً بشرياً نشأ من إحدى الميزات الجغرافية التي ذكرناها، ونعني بذلك أن وادي الرافدين يعد إقليماً مفتوحاً إلى الخارج بالنسبة إلى موقعه الطبيعي وبالمقارنة مع وادي النيل الذي يعد مقفلاً تقريباً من هذه الناحية، فتعرَّض وادي الرافدين إلى هجرات الأقوام الكثيرة والغزوات العنيفة واختلاط السكان واتصال الثقافات وما كان يستتبع ذلك من عنف وتدمير وتطور وتبدل في التكوين السياسي والاجتماعي وظهور ذلك في سير حضارته.

ب ـ مشكلة الترسبات وظاهرة تبدل مجاري الأنهار:

تحمل أنهار العراق، ولا سيما الرافدان العظيمان دجلة والفرات، كميات جسيمة من الطمى والغرين[2]، ترسبها في قيعانها كل عام، فتسبب هذه الترسبات مشاكل خطيرة منها ارتفاع قاعي النهرين عن مستوى السهل الرسوبي وأثر ذلك في التصريف الداخلي في المزارع وازدياد خطر الفيضان وتكوين الجزر الرملية في مجاري النهرين وتقليل سعة جداول الري، وإهمال هذه الجداول بمرور الزمن لتعذر تطهيرها وكريها المستمرين بحيث يصبح فتح جدول جديد أسهل وأقل كلفة من تطهير الجدول القديم.

ومن النتائج الخطيرة للترسبات تبديل الأنهار لمجاريها في فترات زمنية مختلفة الأمر الذي سبب هجران المدن بانتقال الاستيطان منها إلى مستوطنات جديدة تنشأ على ضفاف الأنهار الجديدة. وبالنسبة إلى هذه الظاهرة يمكن تقسيم الوادي الذي يجري فيه النهران في الأراضي العراقية إلى قسمين طبيعيين متميزين: (1) القسم الواقع إلى الشمال من الخط المار من «هيت ـ سامراء»

---

(1) انظر: Wilson, *Before Philosophy*.

(2) قدرت كميات الطمي والغرين في النهرين بزهاء (10) بلايين طن سنوياً وأنها تعادل من ثلاثة إلى خمسة أصناف ما يحمله النيل سنوياً. انظر: «الطمي العالقة بمياه دجلة» لفؤاد الخولي، (بغداد 1955).

حيث يكون واديا النهرين منفصلين ومتميزين، كل منهما شق مجراه في هضبة كلسية (Limestone)، وتحد ضفاف كل منهما مرتفعات صخرية (Cliffs) فلم تتغيّر مجاري النهرين في هذه المنطقة إلا قليلاً. (2) ولكن إلى الجنوب من ذلك الخط يختلط واديا النهرين، مكونين سهلاً غرينياً واسعاً هو الدلتا الطبيعية للنهرين، ويجري النهران ابتداء من ذلك الحد باتجاه الجنوب في انحدار واطئ (Low Gradient)، ويجريان بهيئة متعرجة أو منعطفة (Meandering) وكما هو الحال في الأنهار «المتندرة»، وبفعل ترسبات الطمي والغرين يعمل النهران على رفع مستوى قاعيهما فتفيض مياههما، مكونة أهواراً وبحيرات، فتبدأ ظاهرة تبديل المجرى الأصلي للنهر. وبالنظر إلى تعدد فروع الفرات ودجلة في السهل الرسوبي وتعرض المجاري الرئيسية إلى الاندثار بسبب الترسبات الكثيرة، فإن المجرى الأصلي كثيراً ما انتقل إلى أحد فروعه ووسع مجراه بحيث يصبح هذا الفرع عمود النهر، كما فعل نهر الفرات في العصور الحديثة (عام 1820) عندما تحول عموده الأصلي إلى أحد فرعيه، وهو الفرع الغربي (المسمى فرع الهندية) فجف المجرى الأصلي وهو شط الحلة الأمر الذي دعا إلى إنشاء سدة الهندية (1911ـ1913). وبدل الفرات مجراه أكثر من مرة في أزمان قديمة لا يمكن تحديدها. وفي الوسع تتبع أحد المجاري القديمة الرئيسة للفرات من مواقع المدن القديمة وامتدادها، وقد كانت فيما مضى تقع على ذلك المجرى ولكن تقع الآن في بادية جرداء إلى الشرق من المجرى الحالي للنهر، مثل مدينة «نفر» والوركاء ولارسة وايسن وغيرها. والملاحظ في تغيير مجرى النهرين أنهما يتجهان بوجه عام إلى الغرب من المجرى الأصلي، ولكن هذا ليس عاماً وفي جميع أنحاء العراق. وتتعرض دجلة أيضاً إلى تغييرات متعددة في مجراه في العصور التأريخية المختلفة[1].

وإذا كان ليس في الوسع إحصاء التغييرات التي حدثت في مجاري

---

(1) للأمثلة على تبدل مجرى دجلة راجع كتاب لسترنج: «بلدان الخلافة الشرقية»، ترجمة السيدين بشير فرنسيس وكوركيس عواد (1954) ص 42 ـ 43 وص 59 فما بعد.

الأنهار وحصرها في العصور المختلفة، بيد أنه يمكن رسم خرائط للمجاري القديمة في العصور التأريخية المختلفة بمسح التلول الأثرية المنتشرة في سهول العراق الرسوبية وتعيين أزمان ملتقطاتها السطحية والتي كانت تقع على مجارٍ رئيسية أو فرعية. وقد اتبع جماعة من الباحثين الآثاريين هذه الطريقة في تحديد مجاري الأنهار القديمة ولا سيما دجلة والفرات في المنطقة الوسطى والجنوبية. فبالنسبة إلى الفرات أمكن تتبع مجراه القديم من سبار (أبو حبة) إلى نفر ودلبات (دليهم) وكسورا القديمة (تل أبو حطب الآن) وشروباك (فارة) ثم الوركاء ومن الوركاء إلى منطقة «أور» بالقرب من الناصرية، وقد اتبعت هذه الطريقة الأثرية في عام 1953ـ1954 لمسح بلاد سومر الوسطى، وفي عام 1956ـ1957 لمسح بلاد آكد، ومسح منطقة ديالى في عام 1957ـ1958.

جـ ـ مشكلة الملوحة:

ملوحة التربة ولا سيما في السهل الرسوبي من المشاكل الجسيمة التي جابهت العراقيين القدماء، وهي الآن تهدد تربة العراق في منطقة الري. ومع أن مشكلة الملوحة ملازمة لنظام الري نفسه بسبب الأملاح المحمولة بمياه الأنهار إلا أنه بالنسبة إلى العراق ذات أوجه خاصة بسبب طبيعة التربة من حيث كثرة التبخر وانعدام أو ضآلة جهاز التصريف (البزل) الذي ينبغي أن يكون ملازماً لنظام الري. هذا ولا يمكن البت هل عرف العراقيون القدماء نظام التصريف؛ وكل ما يمكن قوله بهذا الصدد إن مشكلة الملوحة وأخطارها كانت وما تزال تزداد في جسامتها بمرور الأزمان. وذهب بعض الباحثين إلى أن ملوحة التربة بدأت بالظهور منذ أواخر ما يسمى بعصر فجر السلالات أي من بعد عام 2400ق.م، وكانت من بين العوامل الحاسمة في تدهور السلطة السياسية ثم زوالها من السومريين وانتقال الازدهار العمراني من الجنوب إلى الوسط والشمال من أرض ما بين النهرين.

ومع أن التحريات التأريخية عن مشكلة الملوحة في تأريخ وادي الرافدين

لم تبدأ إلا منذ سنين قليلة مضت[1]، إلا أن النتائج الأولية زودتنا بأشياء مهمة عن هذا الموضوع، ومنها أن الوثائق الإدارية الخاصة بالزراعة في منطقة لجش السومرية (منطقة الناصرية) من أواخر عصر فجر السلالات تشير إلى ظهور الملوحة وتناقص الغلات الزراعية، وأن أخطارها ازدادت بمرور الزمن وانتشرت إلى المنطقة الوسطى (بلاد آكد) ما بين 1200 أو 600ق.م. وكانت الملوحة لدى العراقيين القدماء من الآفات والعقوبات التي تحلّ بالبشر جزاء شرورهم وآثامهم، فكان تسليط الملوحة من جانب الآلهة على البشر من الطرق التي اتبعت في إفنائهم بالإضافة إلى إحلال الطوفان، كما جاء في ملحمة «اتراحاسس»، وهي إحدى الملاحم الطريفة الخاصة بالطوفان بالإضافة إلى خبر الطوفان الوارد في ملحمة جلجامش.

وميز كتبة العراق القديم بين نوعين من الملوحة مما يشاهد في تربة العراق الآن، فالنوع الأول ورد اسمه بالسومرية بصيغة «مُن» (Mun) وبالبابلية «طبتم»، وهو ذو لون أبيض مما يعرف باسم الشورة الآن، ويدخل في تركيبه ملح الطعام، والنوع الثاني ما نسميه الآن «السبخ»، وهو ذو لون أسمر داكن، وقد عبر عنه السومريون بالكلمة «نيمُر» (Nimur) وبالبابلية «إدرانُم».

الأنهار:

نختتم هذه المقدمة الجغرافية بوصف موجز لأنهار العراق وأثرها في سير تأريخه. فنكرر ما سبق أن ذكرناه من أن نشوء حضارة وادي الرافدين وازدهارها كان مرتبطاً بوجود الرافدين العظيمين وروافدهما. وإذا صح قول

---

(1) ومن ذلك الدراسات التي عهد بها مجلس الإعمار السابق في العراق إلى جماعة من الباحثين من جامعة شيكاغو (المعهد الشرقي) برئاسة الأستاذ ياكبسون، بالتعاون مع مديرية الآثار، وشملت تلك الدراسات تحريات أثرية في منطقة ديالى ودراسة النصوص المسمارية القديمة الخاصة بالسجلات الزراعية. راجع التقارير المنشورة في مجلة «سومر» المجلد 13 (1957) والمجلد 14 (1958) وأيضاً:

Jacobsen and Adams, «Salt And Silt In Ancient Mesopotamian Agriculture», *Science*,xxVIII 125ff.

هيرودوتس المأثور بأن مصر «هبة النيل»، فإن بلاد الرافدين كذلك هبة النهرين. فبالإضافة إلى نظام الري الذي هو عماد حضارة وادي الرافدين فإن للنهرين أهمية كبرى في المواصلات وازدهار التجارة التي قلنا إنها الميزة الثانية التي ميّزت هذه الحضارة بالإضافة إلى الري.

ويمكن للباحث أن يجمع مادة تأريخية مهمة عن أنهار العراق ومشاريع الري القديمة بالرجوع إلى النصوص المسمارية التي جاءت إلينا من مختلف أدوار التأريخ والأخبار الواردة في كتب البلدانيين والمؤرخين العرب والمصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية)، بالإضافة إلى ما يمكن القيام به من مسح أثري لبقايا مشاريع الري المندرسة ومجاري الأنهار القديمة مما سبق أن نوَّهنا به. وإلى جانب الناحية التأريخية والحضارية هناك الفوائد العملية التي تستخلص من مثل هذه الدراسات في إقامة مشاريع الري الحديثة على هدي طبيعة المشاكل «الجغرافية ـ التأريخية» التي عاناها سكان وادي الرافدين القدماء والخبرات الكثيرة التي حصلوا عليها، كما فعل في الأزمان الحديثة مهندس الري المشهور «ويلكوكس»، مصمم سدة الهندية، حيث درس أعمال الري القديمة واسترشد بها في إقامة مشاريع الري الحديثة[1].

خص العراقيون القدماء الرافدين بالتقديس والتعظيم، وعدوهما من جملة الآلهة المشتقة من القوى الطبيعية[2]، وأفردوا الفرات بتقديس أكثر لأنه كان

---

(1) سبق أن استشهدنا ببعض مؤلفات المهندس ويلكوكس ومنها الكتاب المترجم عن الأصل الإنجليزي:

W. Willcoks, *The Irrigation Of Mesopotamia* (1911).

W. Willcoks, «Nesopotamia, Past, Present Future» in *Geographical Journal,* (1911).

وانظر أيضاً: «تطور الري في العراق» (1946) للدكتور أحمد سوسة وكذلك «وادي الفرات» (1944ـ1945) و«الري والحضارة» (1968).

(2) حول تأليه النهرين انظر: Ebeling, *Tod Und Leben*, p. 125.

Dossin in *Syria*, x.x (1939), 126ff.

Jacobsen in JNES, v, 139FF.

النهر الذي تركزت على ضفافه المستوطنات القديمة، وسنتطرق إلى أسباب ذلك بعد قليل. ونعت النهران أيضاً في بعض التراتيل الدينية بالنهرين الأخوين أي الرافدين[1]. وفي أساطير الخليقة ذكر الفرات ودجلة بأنهما ينبعان من عين «تيامة»، وهي الآلهة التي كانت تمثل عنصر الماء الملح أي البحر، ومن قبيل ذلك عد الفرات ودجلة من الأنهار الأربعة التي تنبع من الجنة (سفر التكوين 2: 10ـ14)، وفي ترتيلة دينية طريفة يخاطب الفرات بأنه خلق الأشياء، وأن الآلهة لما حفرته عممت الخيرات على ضفافه وشيّد في أعماقه الإله «أيا» معبده، وأن مياهه تبرئ المرضى وتطهر الأدران، وهو القاضي الحكم بين الناس[2]. وهذا يذكرنا بالعرف القانوني الغريب الوارد في شريعة حمورابي في رمي المتهم بالسحر بالنهر لإظهار جرمه أو براءته (المادة الثانية).

أصل تسمية الفرات ودجلة:

كان الرأي السائد بين الباحثين أن تسمية النهرين من أصل سومري، ولكن أخذ الاتجاه حديثاً يميل إلى أنها ليست من أصل سومري ولا من أصل سامي، بل هي تراث لغوي من قوم مجهولين لعلهم سبقوا السومريين والساميين في استيطان السهل الرسوبي، ولا يعلم عنهم شيء سوى ما تركوه من آثار لغوية قليلة في أسماء المدن وبعض المهن والحرف ومنها أسماء دجلة والفرات (انظر القسم الخاص بأقوام وادي الرافدين القدماء). وقد ورد اسم الفرات في النصوص المسمارية بمجموعة من العلامات المسمارية تلفظ على هيئة «بورانُن» (Buranun) أو «بوروننا» (Burununa) ويرادف ذلك في اللغة الآكدية ـ البابلية (السامية) لفظ «بوراتي» أو «پوراتم» (Purati. Puratum) ومنه الصيغة العربية «فرات». وقيل في معنى هذا الاسم إنه يعني «الفرع» أو «الرافد» أو «الماء العذب»، وهو المعنى الذي أورده اللغويون العرب لاسم الفرات أيضاً. وأشهر

---

(1) انظر: Reisener, *Hymnen*, 136, 29.

(2) راجع ترجمة الأسطورة في مجلة «سومر» (1949)، ص 201.

كتابة لاسم الفرات مجموعة العلامات المسمارية: أود - كب - نُن - كي (Ud-kib-nun-ki) مسبوقة بالعلامة المسمارية الدالة على النهر «اد» (Id)[1]. وورد اسم الفرات أيضاً بمجموعة من العلامات المسمارية أقل استعمالاً من المجموعة الأولى.

أما اسم دجلة فقد ورد بهيئة «ادكنا» (Idigna) ومنها التسمية العبرانية «حداقل» أو «هداقل» والعربية دجلة[2].

حوض النهرين:

من الحقائق الجغرافية الخاصة بأنهار العراق أن مصادر مياهها، باستثناء نهر العظيم، تقع خارج العراق، فالمعروف أن جزءاً كبيراً من حوضي الفرات ودجلة وروافدهما، أي ما يصطلح عليه في الجغرافية (River Basin) (وهي المنطقة التي يأخذ النهر منها مصادر مياهه)، يشمل رقعة جغرافية واسعة ما بين بلاد الشام وسلاسل جبال طوروس (الأجزاء الخاصة بتركية منها) ومنطقة جبال

---

(1) جاء اسم دجلة في اللغة الحورية (انظر الأقوام القديمة) على هيئة «ارنزح» أو «ارزنخ» (Aranzakh). والمرجح كثيراً أن اسم دجلة الشائع في اللغات الأوروبية أي Tigris مأخوذ من الفارسية البهلوية «تيركاه» (Tir-gah) التي قِيل في معناها إنها السهم، ولعل هذا إشارة إلى سرعة جريان النهر، أو أنه تحريف أو ترجمة لمعنى اسمه العراقي القديم الذي فسّر في المعاجم المسمارية القديمة بأنه النهر الجاري أو السريع. والجدير بالملاحظة عن كتابة اسم الفرات أن اسم مدينة «سبار» (أبو حبة الآن) يكتب بالعلامات المسمارية نفسها بدون أن تصدر بالعلامة الدالة على النهر.

(2) جاء اسم دجلة في اللغة الحورية (انظر الأقوام القديمة) على هيئة «ارنزح» أو «ارزنخ» (Aranzakh). والمرجح كثيراً أن اسم دجلة الشائع في اللغات الأوروبية أي Tigris مأخوذ من الفارسية البهلوية «تيركاه» (Tir-gah) التي قِيل في معناها إنها السهم، ولعل هذا إشارة إلى سرعة جريان النهر، أو أنه تحريف أو ترجمة لمعنى اسمه العراقي القديم الذي فسّر في المعاجم المسمارية القديمة بأنه النهر الجاري أو السريع. والجدير بالملاحظة عن كتابة اسم الفرات أن اسم مدينة «سبار» (أبو حبة الآن) يكتب بالعلامات المسمارية نفسها بدون أن تصدر بالعلامة الدالة على النهر.

«ارارط»، وإلى الشرق سلسلة جبال زاجروس. وقد قدر أن نحواً من 45,8 بالمائة من مجموع مساحة حوضي النهرين يقع داخل القطر، والباقي خارج حدوده[1]. ومع أن القسم الأعظم من طولي النهرين يقع داخل الأراضي العراقية إلا أن قسماً غير قليل يتوزع ما بين تركية وسورية. فيمر من طول الفرات، البالغ من التقاء فرعيه في تركية حتى «كرمة علي» (2320) كم، زهاء (455) كم من تركية و675كم في سورية والباقي وقدره 200كم في الأراضي العراقية. أما دجلة فيقع من أصل طوله البالغ نحو (1718) كم، (1418) كم داخل الحدود العراقية والباقي في الأراضي التركية. وهكذا يبدو أن حصة العراق من دجلة والفرات حصة كبرى بيد أن اشتراك أقطار أخرى في أنهاره وحقيقة كون منابعهما في أراضٍ أجنبية لا يخلو من آثار في أحداث تأريخه بالنظر إلى ما قد ينجم عن ذلك من ملابسات دولية ينبغي تسويتها وتنظيمها وفق العرف الدولي. وقد بدأت بوادر هذه المشاكل حديثاً على أثر ما شرع به من إقامة خزانات وسدود في تركية وسورية بالنسبة إلى الفرات.

الفرات وتركيز الاستيطان القديم على ضفافه:

تحكمت خصائص النهرين الطبيعية بتأريخ توزيع المستوطنات البشرية وتركيزها بالدرجة الأولى على الفرات دون دجلة ولا سيما في مراحل الاستيطان الأولى في السهل الرسوبي ما بين الألفين الخامس والثالث ق.م. وأبرز عامل في ذلك ما سبق أن نوَّهنا به من أن الفرات أقل عنفاً وتقلباً في فيضانه بالنسبة إلى دجلة، كما أن كميات مياه الفيضان (في موسم الفيضان تقريباً من شهر آذار إلى نهاية أيار) في دجلة أكثر منها في الفرات، وقد قدرت الزيادة في فيضان دجلة بزهاء 31% أكثر من فيضان الفرات[2]. والمرجح كثيراً أن يكون للمنخفضات الطبيعية المحاذية لضفاف الفرات الغربية في منطقة

---

(1) راجع «فيضانات بغداد في التأريخ»، للدكتور أحمد سوسة (1963) الجزء الأول، ص 115.

(2) المصدر نفسه، ص 46.

الرمادي مثل منخفض الحبانية وهور أبو دبس أثر في تقليل شدة فيضان الفرات، ولعل العراقيين القدماء أفادوا من هذه المنخفضات الطبيعية لخزن المياه الفائضة فيها واستعمالها إبان شح الماء في النهر. وإلى هذه العوامل توجد خاصية أُخرى يتميّز بها وادي الفرات في السهل الرسوبي، تلك هي ما أشرنا إليه سابقاً من ارتفاع هذا الوادي ابتداءً من منطقة الفلوجة تقريباً وانحداره التدريجي شرقاً صوب دجلة، وقد فطن العراقيون القدماء إلى هذه الظاهرة الطبيعية فأفادوا منها بشق مشاريع ري كبرى من الفرات باتجاه دجلة، وقد سارت مشاريع الري الحديثة باتجاه المشاريع القديمة.

وينبع الفرات من الأجزاء الشرقية من الأناضول حيث تكثر السلاسل الجبلية الممتدة من الشرق إلى الغرب، الأمر الذي جعل أغلب روافد الفرات العليا تأتي من الشرق إلى الغرب. ويتألف النهر في منابعه العليا من فرعين كبيرين هما «فرات صو» الذي يجري في سهل «أرضروم» والفرع المسمى «مراد صو»، وهو الفرع الشرقي الذي يجري في هضبة أرمينية ويلتقيان عند بلدة «كيبان معدني»، مكونين مجرى الفرات الرئيس. ويكون طول الفرات قبل التقاء هذين الفرعين زهاء (2848) كم ونحو (2320) من بعد التقائهما. والمرجح كثيراً أن فرع «فرات صو» هو النهر الوارد في النصوص المسمارية بصيغة «أرزانيا» أو «أرصانيا»[1]، وشبيه بهذا اللفظ الاسم الوارد في كتابات «بليني» (القرن الأول الميلادي) على هيئة «أرسيناس» (أرسيناس فلومن)، وذكره البلدانيون العرب باسم «أرسيناس» وأنه نهر «شمشاط». وبعد اتحاد الفرعين الرئيسين السالفي الذكر يأخذ الفرات بالاتساع حيث تصب فيه جملة روافد وأودية ويسير بالاتجاه الجنوبي الغربي حتى يدخل سهل «ميليطية». وبالقرب من مدينة «ميليطية» يلتقي بالفرات رافد مهم يسمى «توخمة صو» (طوخماصو) على بعد نحو (120) كم جنوب «كيبان» التي قلنا إن عندها يلتقي

---

(1) «أرصانيا» أو ar-za-nia. انظر:

Meissner, *Babylonien und Assyrien*, I, p. 2.

فرعا الفرات الرئيسان. وقد ورد ذكر هذا النهر في المصادر العربية باسم «قباقب»، ولعله النهر المذكور في المصادر الكلاسيكية باسم «ميلاس». ويستمر عمود الفرات الرئيسي آخذاً بالاتجاه الجنوب الشرقي ويكون كثير التعرجات والالتواءات، ثم يقطع الحدود التركية ـ السورية عنه مدينة «جرابلس» (كركميش القديمة). وبعد جرابلس بنحو (20) كم يلتقي بالفرات في الجهة الغربية رافد آخر يسمى الساجور (أو الصاجور). ويأخذ الفرات ابتداءً من جرابلس بالاتجاه غرباً وكأنه يبحث عن منفذ له في البحر المتوسط حيث تصل المسافة عن هذا البحر نقطة حرجة لا تزيد عن المائة ميل. ولكنه لحسن الحظ يغير اتجاه مجراه من بعد هذه النقطة آخذاً بالاتجاه شرقاً في مسراه الجنوبي ويستمر بهذا الاتجاه حتى يدخل سهول سورية وإقليم ما بين النهرين (الجزيرة). وتقع في هذه المنطقة المدينة التأريخية «سميساط» أو سمساط (سموساته في المصادر الكلاسيكية)، وقد ذكرتها المصادر العربية وذكرت حصنها المسمى «قلعة الطين». ويجدر التنبيه أن هذه المدينة غير المدينة التي ذكرناها باسم «شمشاط».

وإلى الجنوب من نقطة التقاء الساجور بالفرات بنحو (83) كم يحاول الفرات مرة أخرى الاقتراب من البحر المتوسط في منطقة مدينة «مسكنة» («إيمار» القديمة) حيث تبلغ المسافة عن هذا البحر نحو (200) كم، ولكن النهر يغير اتجاهه مرة أخرى بالاتجاه الشرقي. وعند مدينة «مسكنة» أقيم مشروع إرواء لأخذ الماء إلى مدينة حلب بالأنابيب.

الباليخ والخابور:

يتصل بالفرات في مجراه الأعلى في سهول سورية رافدان مهمان هما الباليخ أو البليخ والخابور اللذان يصبان فيه في الجانب الأيسر أي الجانب الشرقي. وقد احتفظ هذان الرافدان بتسميتيهما القديمتين الواردتين في النصوص المسمارية. فقد ذكر الرافد الأول على هيئة «بليخو» أو «باليخ» ويكتب عادة بمجموعة من العلامات المسمارية تؤدي أصواتها لفظ باليخ. ويروي الباليخ إقليم

«أديسا» القديمة أي الرها وحران، وتوجد في هذه المنطقة بقايا مشاريع ري قديمة[1]. ويمر الباليخ أيضاً بمدينة الرقة المشهورة الواقعة على الجانب الأيسر (الشرقي)، وقد قامت عند المدينة القديمة المذكورة في المصادر الكلاسيكية باسم «نقيفوريُم» (Necephorium) وإلى الجنوب من هذه المدينة بنحو (8) كم يلتقي الباليخ بالفرات[2]. ويمر الفرات من بعد التقاء الباليخ به بمدينة دير الزور. وإلى الجنوب منها بنحو 54كم يصب فيه رافده الثاني الخابور بالقرب من المدينة السورية الحديثة المسماة «بسيسيرة»، وعندها بقايا المدينة التأريخية «قرقيسية» (Cercesium) وورد اسم الخابور في المصادر المسمارية بلفظه العربي «خبورو» أو «خابورو»، كما ذكر في المصادر الكلاسيكية بهيئة «خابوراس» أو «آبوراس». والخابور أطول روافد الفرات حيث يبلغ طوله زهاء (245) كم من ينابيعه في جبال ماردين وطور عابدين وتغذيه عدة روافد وأودية وشعاب أشهرها نهر «الهرماس» (الجغجغ)، وهو الفرع الشرقي من الخابور الذي يمر بمدينة «نصيبين» وتل براك وبلدة «سكير العباس» حيث يلتقي أسفل منها بقليل بالخابور. وجاء في أخبار البلدانيين العرب أن الثرثار يأخذ ماءه من «الهرماس» بالقرب من «سكير العباس» حيث توجد عند منابع الهرماس بقايا سدود قديمة، منها سكير العباس المذكور. وبعد أن يجتاز الثرثار جبال سنجار حيث تغذيه فيه جملة عيون وبعد أن يمر بضواحي مدينة الحضر الشهيرة يستمر في مجراه حتى يصب في دجلة في موضع ما بالقرب من تكريت، كما يصب قبل هذا في منخفض الثرثار المعروف.

---

(1) «فيضانات بغداد في التأريخ»، للدكتور أحمد سوسة، الجزء الأول (508-509).

(2) كانت الرقة من المراكز المهمة في العصر العباسي في منطقة الجزيرة، وقد شيّد بالقرب منها في عهد المنصور (عام 155هـ - 772م) معسكر للجند تطوّر فيما بعد إلى مدينة مهمة وسعها الرشيد وعرفت باسم «الرافقة»، حيث شيّدت فيها القصور الفخمة واتخذت مصيفاً وطغت شهرتها على مدينة «الرقة». واشتهرت منطقة الرقة بصناعة الصابون لكثرة أشجار الزيتون فيها، وهذا يذكرنا باسم الصابون الرقي المشهور في العراق وباسم الرقي في العراق (البطيخ في البلاد العربية الأخرى).

وقد سبق أن ذكرنا بأن المنطقة التي يجري فيها الفرات ورافداه الباليخ والخابور تكون جزءاً مهماً من الإقليم الجغرافي الذي سمّاه البلدانيون العرب «الجزيرة» وهي منطقة خصبة ترويها بالإضافة إلى هذه الأنهار سيول وأودية كثيرة كما أنها تتمتع بسقوط الأمطار الكافية، الأمر الذي جعلها تزدهر في جميع عصور التأريخ وما قبل التأريخ كما تدل على ذلك المجموعات الكثيرة من التلول الأثرية المنتشرة فيها (15)، كما ذكرنا ذلك من قبل، وكان يمر منها جملة طرق تأريخية تربط وادي الرافدين بسورية وموانئ البحر المتوسط والأناضول.

ويمر الفرات قبيل دخوله الأراضي العراقية بجملة مدن من بينها مدن تأريخية مشهورة مثل «دورايوروبس» (Dura-europus) (عند مدينة الصالحية الآن)[1]، ثم بمدينة البوكمال، وبالقرب منها مدينة «ماري» الشهيرة (تل الحريري) التي سيرد ذكرها مراراً في كلامنا على عصور العراق التأريخية. وبعد البوكمال بمسافة قليلة يدخل الفرات الأراضي العراقية عند قرية الحصيبة (مركز ناحية القائم وشمالها بنحو كيلومترين). وتوجد ما بين الحصيبة والقائم بقايا أثرية واسعة على الضفة الغربية تسمى «تل الجابرية» (أو الشيخ جابر لوجود ضريح بهذا الاسم)، كما يسمى المرتفع العالي «التامة»، والمحتمل أن هذه التلول بقايا المدينة القديمة الواردة في أخبار الملوك الآشوريين باسم «خندانو» أو «خندانا».

وبعد أن يجتاز الفرات الرفضة والناحية يمر من مدينة عانة على الضفة اليمنى وراوة (على الضفة الشرقية). ويكون مجرى الفرات من عانة إلى هيت تقريباً في حوض تكثر فيه الجنادل والصخور، كما تكثر فيه الجزر الصغيرة منها «تلبيس» و«كورو» والوس وجبة ونلووسة وغيرها. واشتهرت منطقة عانة في التأريخ بأنها كانت من المراكز المهمة للساميين الآموريين (انظر الفصل الخاص بالعهد البابلي القديم). ويصب في الفرات في الضفة الغربية وادي

---

(1) راجع الفصل الخاص بالعصور الأخيرة من تأريخ العراق القديم.

حوران جنوب بلدة الحديثة بحوالي 6كم بعد أن يأتي من بادية الشام ويمر بمنطقة الرطبة.

الفرات في السهل الرسوبي:

يدخل الفرات من بعد اجتيازه مدينة «هيت» (ايس أو «ايتو» أو «دلدولو» القديمة) السهل الرسوبي ودلتا النهرين الطبيعية. وقد سبق أن أشرنا إلى المنخفضات الطبيعية في منطقة الرمادي مثل الحبانية و«أبو دبس» التي يرجح أنها استعملت في العصور القديمة لخزن مياه الفيضان. وقد تم حديثاً إنشاء خزانات كبيرة (1956)، بإنشاء سدة شمالي الرمادي بنحو (20) كم لحجز مياه الفيضان وتحويلها بواسطة قناة أو جدول (جدول الورار بنحو 3كم شمال الرمادي) إلى بحيرة الحبانية التي تنخفض عن مستوى الفرات بنحو 11 متراً. واستعمل منخفض «أبو دبس» لأخذ الماء الفائض من الحبانية بواسطة جدول «المجرة» إلى «أبو دبس»، وتتم إعادة المياه إلى الفرات وقت شح الماء بواسطة قناة تسمى «الذبان» بالقرب من الفلوجة. وقد أبانت التحريات الجيولوجية أن نهر الفرات كان يتصل في عصور ما قبل التأريخ البعيدة بمنخفض الحبانية و«أبو دبس» وبحر النجف وأن هذه المنخفضات كانت متصلة بعضها ببعض مكونة وادياً طويلاً متصلاً من الشمال إلى الجنوب ولكن حركات «تكتونية» (Testonic) جزأت ذلك الوادي المتصل إلى أجزاء منفصلة هي المنخفضات التي ذكرناها[1].

ويقترب الفرات من دجلة أسفل الفلوجة بقليل حتى تبلغ المسافة ما بين النهرين في منطقة بغداد نحو (20) ميلاً، ويأخذ وادي الفرات في هذه المنطقة بالارتفاع قليلاً عن وادي دجلة (نحو 7 إلى 10 أمتار أعلى من دجلة) وهي الظاهرة التي نوَّهنا بها في الإفادة منها بشق مشاريع ري كبرى من الفرات إلى دجلة في العصور القديمة والحديثة. كما نوَّهنا بأن المشاريع الحديثة قد سارت

---

(1) راجع عن هذا الموضوع مجلة «سومر»، المجلد 13 (1957)، القسم الإنجليزي ص 135 فما بعد.

بالقرب من المشاريع القديمة مثل جدول الصقلاوية وأبو غريب واليوسفية واللطيفية والإسكندرية والمسيب الكبير التي تجري ما بين الفرات ودجلة بهيئة متوازية وهي موازية كما قلنا إلى المشاريع القديمة مثل نهر عيسى (المرجح أنه النهر البابلي القديم المسمى «پاتي ـ انليل») ونهر صرصر ونهر «ملكا» (نار شاري القديم)، ونهر «كوثي» ونهر الصراة الكبير.

وفي السهل الرسوبي أيضاً عانى النهران وبوجه خاص الفرات تبدلات كثيرة في مجاريهما كما نوَّهنا بذلك فيما سبق. وبعد أن يجتاز الفرات مدينة الفلوجة يمر ببلدة المسيب، وإلى الجنوب منها بنحو 8كم مشروع سدة الهندية الذي أنجز في أواخر العهد العثماني (1911ـ1913). وإن السبب في إقامة هذا المشروع مثال على ظاهرة تغيير النهرين لمجاريهما في هذه المنطقة فقد كان الفرات من بعد اجتيازه المسيب بقليل يتفرع إلى فرعين، فرع شرقي هو نهر الحلة الذي كان المجرى الأصلي للفرات، وفرع غربي هو نهر الهندية (الذي كان بالأصل جدولاً شق في القرن التاسع عشر لأخذ الماء إلى الكوفة والنجف)، ثم تحول فرع الحلة كله إلى فروع الهندية (1820). أما بعد إنشاء سدة الهندية فإن مياه الفرات صارت تنظم وتوزع في جداول فرعية، منها نهر الحلة والكفل والإسكندرية في الجانب الأيسر من السد وجدول الحسينية وجدول بني حسن في الجانب الأيمن.

هذا ولا يعلم بوجه التأكيد اتجاه مجرى الفرات عبر العصور القديمة المختلفة، بيد أنه يمكن تحديد أشهر هذه المجاري بالاستناد إلى النصوص القديمة وطريقة التحريات الأثرية الحديثة في تعيين مجاري الأنهار المندرسة بتتبع معالم الاستيطان الواقعة على ضفافها وربطها بعضها ببعض مما سبق أن نوَّهنا به. فيبدو أن الفرات كان ما بين الألفين الثالث والثاني ق.م يجري في اتجاه إلى الشرق من مجراه الحالي. وبعبارة أخرى كان يجري ما بين نهر الحلة الحالي ونهر دجلة إلى الشرق، وكان هذا المجرى يبتدئ بالقرب من صدر جدول اليوسفية الحديث ثم يمر بمدن كبيرة وصغيرة، وتروي فروعه الكثيرة القرى والمزارع المتعددة في السهل الرسوبي. فمن بين تلك المدن

الشهيرة مدينة «سپار» (أبو حبة الآن في منطقة المحمودية، وشرقي مجرى الفرات الحالي بنحو 12كم) ثم في مدينة «كوثي» الشهيرة (وتسمى بقايا المجرى القديم حبل إبراهيم وكذلك أطلال المدينة). وفي نقطة ما في منتصف المسافة ما بين سپار وكوثي كان يتفرع من الفرات القديم (من الجانب الأيمن) النهر الذي كان يروي منطقة بابل ويمر بمدينة بابل نفسها، وقد ورد ذكره في النصوص المسمارية باسم «اراختو»، ويتجه من بعد بابل إلى مدينة «كيش» (تل الأحمير الآن) ثم يمر مجرى الفرات الأصلي من بعد ذلك بمدينة «كيش» (بالقرب من عفك) ومدينة «شروباك» (تل فارة الآن) ثم بمدينة الوركاء، وينتهي أخيراً بمدينة «أور» (ولكن مجرى الفرات الحالي يمر بمدينة الناصرية على بعد نحو 20كم شرقي أور). وقد وجد المنقبون في أور في الموضع المسمى دقدقة (بنحو ميل ونصف شمال شرقي زقورة المدينة) بقايا مشروع سد قديم ومعالم رصيف مياه. وقد أقيم هذا السد لتوزيع مجرى الفرات إلى فرعين، فرع لإرواء منطقة أور (وقد ذكر هذا الفرع في المصادر المسمارية باسم ادنُن Idnun). والفرع الثاني لإرواء منطقة «اريدو». ويرجح بعض الباحثين أن هوراً كبيراً (مثل هور الحمار) كان يقع في العصور القديمة بالقرب من «أور» و«اريدو»، وأنه كان الواسطة لربط ميناء أور السالف الذكر بالخليج والبحر. وهذا هو تفسير الأخبار الواردة عن اتصال هاتين المدينتين بالبحر وليس لأن حد ساحل الخليج كان يصل إلى هذه المنطقة.

ونختتم هذه الملاحظات عن نهر الفرات بتتبع مجاريه السفلى الحديثة حيث الأنهار ومشاريع الري الكثيرة. فيتفرع من شط الحلة مثلاً نهر الدغارة الذي يغذي هور عفك وتقع على هذا الفرع جملة مدن وقرى مثل الديوانية والحمزة والرميثة، ويقترب من فرع الفرات الرئيسي (وهو فرع الهندية) شمال بلدة السماوة بقليل. كما أن فرع الهندية بدوره يتفرع بالقرب من بلدة الكفل إلى فرعين، فرع شرقي هو شط الشامية وفرع غربي هو شط الكوفة الذي يمر بمدينة الكوفة وأبو صخير وغيرهما ويلتقي بفرع الشامية بالقرب من قرية الشنافية. وتتوحد مجاري الفرات السفلى بالقرب من السماوة ثم يمر من بعدها بجملة مدن وقرى مثل الخضر

والدراجي والبطيحة والنصارية وسوق الشيوخ. وتنصب مياه الفرات كلها من بعد سوق الشيوخ في هور الحمار[1]، ويجري داخل هذا الهور بالاتجاه الجنوبي الشرقي مسافة نحو (100) كم، ثم تخرج مياه الفرات من الهور وتصب في دجلة عند «كرمة علي» على بعد نحو (10) كم شمال البصرة وجنوب القرنة بنحو (50) كم[2]، وكان النهران على ما هو معروف، يلتقيان عند القرنة قبل نحو مائة عام، ولكن مياه الأهوار الكثيرة ملأت المجرى الأصلي الذي كان الفرات يسير فيه بمحاذاة ضفة هور الحمار الشمالية، فشق الفرات له مجرى جديداً في الهور نفسه، ومن بعد خروجه من الهور يلتقي بدجلة عند الكرمة كما قلنا. وبتعبير آخر صار قسم الفرات الذي يمتد الآن ما بين «الگرمة» والقرنة جزءاً من مجرى دجلة في حين أنه كان جزءاً من شط العرب، فيصح القول عندئذٍ إن الفرات أصبح منذ مائة عام رافداً لدجلة.

شط العرب:

لا يعلم على وجه التأكيد متى حدث التقاء النهرين وتكوين شط العرب. وإن النصوص التأريخية وأقدمها الأخبار الآشورية من العهد الآشوري الحديث مثل حملة سنحاريب البحرية على بلاد عيلام (696ق.م)[3]، وكذلك أخبار المؤرخين والبلدانيين اليونان والرومان والعرب كلها تشير إلى أن النهرين كانا

---

(1) المعروف أن الأهوار (البطائح) تكونت ما بين القرن السادس والسابع الميلاديين من جراء انبثاق مياه النهرين ولا سيما الانبثاق الأخير الذي حدث في عام 628 و629م (العام السادس أو السابع الهجري). راجع كتاب «الري والحضارة»، للدكتور أحمد سوسة، الجزء الأول (1968) وفيه المراجع الأصيلة.

(2) أقدم ذكر للقرنة، على ما أعلم، جاء في أخبار الرحالة الأوروبيين في منتصف القرن السادس عشر، وذكرت كذلك في «جهان كما» (مطلع القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي)، ولم يرد ذكرها في كتب الجغرافيين العرب. انظر:

W. Budge, *By the Nile and Tigris*, I, 169ff.

(3) حول أخبار حملة سنحاريب على بلاد عيلام (696ق.م) انظر: ARAB, II, 319

وعن شط العرب: «شط العرب وشط البصرة في التأريخ»، للدكتور محمد طارق الكاتب (1971).

يصبان منفصلين في الخليج. فهيرودتس في تأريخه مثلاً (القرن الخامس ق.م) لا يشير في جميع المواطن التي ورد فيها ذكر دجلة والفرات إلى التقائهما بل إن كلاً منهما كان يصب على انفراد في الخليج (البحر الارثيري عند هيرودوتس لأن الخليج كان يعده جزءاً من البحر الأحمر)، وهكذا نص الكاتب الشهير سترابو (64ق.م ـ 19م)، والمؤرخ الطبيعي «بلني» الأكبر (23/ 24 ـ 79م) الذي يحدد المسافة ما بين مصبي النهرين عند الخليج بنحو 25ميلاً و7 أميال في مكان آخر.

ومهما كان الحال فإن شط العرب يتكون الآن من التقاء النهرين. ويبلغ طوله من القرنة زهاء 204كم. ويصب في الشط نهر السويب والكارون الذي يصب فيه عند مدينة المحمرة. أما عرضه فيختلف باختلاف المواضع ما بين 400متر عند مدينة العشار إلى حوالي (1500) م عند مصبه في الخليج. وتستطيع البواخر الكبيرة أن تسير فيه إلى المعقل بغاطس قدره (9) أمتار وإلى عبادان بغاطس مقداره (9,75) م وإلى الفاو نحو (10,75) م[1]. ويبلغ ارتفاع مناسيب مياهه إبان المد نحو (1,7) م صيفاً وزهاء (2,59) م في موسم الفيضان. وتفيد ظاهرة المد في تسهيل الملاحة وإرواء بساتين النخيل الكثيفة على جانبي شط العرب (ويبلغ عددها نحو 14 مليوناً) حيث تدخل مياه المد إلى الترع والجداول الكثيرة ثم تنسحب في أثناء الجزر جارفة معها الأملاح والأوساخ، فهي على ذلك تحقق عمليتين مزدوجتين في آنٍ واحد، الري والتصريف (البزل)[2].

---

(1) حول أخبار حملة سنحاريب على بلاد عيلام (696ق.م) انظر: ARAB, II, 319
وعن شط العرب: «شط العرب وشط البصرة في التأريخ»، للدكتور محمد طارق الكاتب (1971).

(2) حول أخبار حملة سنحاريب على بلاد عيلام (696ق.م) انظر: ARAB, II, 319
وعن شط العرب: «شط العرب وشط البصرة في التأريخ»، للدكتور محمد طارق الكاتب (1971).

دجلة:

سبق أن ذكرنا أسماء دجلة التأريخية فنختتم هذه الملاحظات على أنهار العراق بوصف موجز لرافد العراق الثاني، وأول ما نذكر أن منابعه كائنة في المرتفعات الواقعة جنوبي شرقي تركية، وتتكون مجاريه العليا من جملة روافد يمكن حصرها في مجموعتين، تأتي المجموعة الأولى من منطقة بحيرة «وان»، والثانية من الجبال القريبة من بحيرة «كولجك»، وباجتماع هذه الفروع يتكون المجرى الرئيسي الذي يأخذ بالانحدار بالاتجاه الجنوبي الشرقي ويدخل الأراضي العراقية قرب بلدة «فيشخابور» بعد أن يقطع زهاء (25) كم في تركية ونحو خمسين كيلومتراً ما بين تركية وسورية. ويبلغ زهاء (1718) كم يقع منها (1418) داخل العراق (أي نحو 82% من طوله) وتغذيه خمسة روافد كبرى سيأتي الكلام عليها حيث تمده بنحو 65% من مياهه. وعند بلدة فيشخابور يصب في دجلة أول روافده المسمى الخابور الذي ينبع من الأراضي التركية، ويمر بمدينة «زاخو» ويلتقي في غربيها برافده المسمى «الهيزل».

وبعد أن يدخل دجلة الأراضي العراقية يجتاز أراضي متموجة إلى قرب تكريت حيث يبدأ السهل الرسوبي ودلتا النهرين كما مرّ بنا في كلامنا على الفرات. وقبل تكريت يمر من الموصل ونينوى، وأسفل من ذلك بنحو (64) كم يلتقي به رافده الكبير الزاب الكبير أو الزاب الأعلى في الموضع المسمى «المخلط»، جنوب أطلال «نمرود» (كالح القديمة) بمسافة قليلة، وقرب التل المسمى «تل كشاف»، وهو موضع، «حديثة» دجلة[1]. وأسفل من هذا الموضع بنحو (128) كم يلتقي بدجلة رافده الثاني، الزاب الصغير أو الزاب الأسفل في موضع يبعد بنحو 36كم جنوب الشرقاط (موضع مدينة آشور

---

(1) هناك أدلة أثرية تشير إلى أن دجلة غيَّر مجراه قليلاً إلى جهة الغرب في منطقة نينوى ونمرود، ويبدو ذلك واضحاً عند نمرود التي كانت تقع على النهر، ولكن تحول مجرى النهر الآن غرباً مسافة نحو (5) كم ويمر من القرية الحديثة المسماة «السلامية». وقد وجد المنقبون في نمرود حديثاً بقايا رصيف ميناء من الحجارة الضخمة المهندمة كان يقع على النهر.

القديمة). وبعد ذلك بمسافة زهاء (30) كم إلى الجنوب يقطع دجلة سلسلة جبال حمرين عند الموضع المسمى «الفتحة»، المقابلة لبلدة «بيجي»، ثم يستمر في طريقه إلى السهل الرسوبي فيمر من تكريت الواقعة على جانبه الغربي، ثم من سامراء التي أقيم عندها مشروع سد الثرثار (تمّ إنشاؤه في عام 1956). كما توجد في هذه المنطقة مشاريع ري قديمة مثل النهروان ونهر الدجيل الكبير. وعند منتصف الطريق ما بين مدينة «بلد» وبغداد يلتقي به رافده نهر العظيم (جنوب بلد بنحو 30كم)، ويصل عند بغداد إلى أقرب مسافة له عن الفرات حيث المسافة ما بين النهرين لا تتجاوز العشرين ميلاً كما ذكرنا، ولكنه ينحرف ما بين بغداد والكوت باتجاه الجنوب الشرقي، ويكون في هذه المنطقة كثير الالتواءات والتعرجات (meandering) ويلتقي بدجلة آخر روافده الكبرى وهو ديالى أسفل مدينة «سلمان باك» بقليل. وأقيم عند الكوت مشروع ري مهم هو شط الغراف (الحي)، حيث شيّد سد كبير (1936ـ1937). ويجدر أن نذكر أن دجلة قد غيّر مجراه في منطقة الكوت، فإن فرعه الشرقي وهو المار الآن من مدينة الكوت والعمارة كان المجرى الأصلي للنهر في العصور القديمة ولكنه غير هذا المجرى في أواخر العهد الساساني إلى مجرى غربي هو مجرى الدجيلة الذي يرجح كثيراً أنه كان أحد مشاريع الري الكبيرة التي شقت من دجلة عند الكوت منذ عصر فجر السلالات (منتصف الألف الثالث ق.م)، ولعل «انتمينا»، حاكم دولة لجش هو الذي قام بهذا المشروع، وظل دجلة في هذا المجرى الغربي، وكان يمر بموضع واسط وكسكر، وظلّت واسط مزدهرة على هذا المجرى إلى حدود القرن السادس عشر الميلادي، حينما بدأ الماء يقل فيه وبطل صلاحه للملاحة وعاد النهر إلى مجراه الشرقي القديم أي مجرى الكوت ـ العمارة الحالي فاندثرت واسط[1].

---

(1) راجع أخبار الرحالة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين في كتاب «لسترنج»: «بلدان الخلافة الشرقية»، الترجمة العربية للسيدين كوركيس عواد وبشير فرنسيس (1954)، ص 46 فما بعد.

ويمر دجلة من بعد الكوت ببلدة الشيخ سعد ثم بعلي الغربي وعلي الشرقي والكميت والعمارة وقلعة صالح وقرية العزير ثم القرنة.

روافد دجلة:

يمتاز دجلة عن الفرات بكثرة روافده، إذ يتبعه خمسة روافد كبرى تغذيه كما قلنا بنحو 65 إلى 67% من مياهه، وكلها باستثناء العظيم تنبع من المناطق الجبلية خارج الحدود العراقية، وتصب كلها بدجلة في القطاع الشمالي والأوسط من حوض دجلة، أي في المنطقة المحصورة ما بين مصب الخابور عند فيشخابور شمالاً وبين مصب ديالى أسفل سلمان باك بقليل. وتجري هذه الروافد كلها في الجانب الشرقي من دجلة. وقد سبق أن نوَّهنا بأن هذه الروافد تتميز بأنها تجري على هيئة قطرية وتقطع سلاسل الجبال بصورة عامودية، وما لهذه الخاصية الطبيعية من إمكانيات في إقامة السدود والخزانات للمياه عند الممرات أو الفتحات الجبلية التي تقطع فيها تلك السلاسل الجبلية، ومثَّلنا على ذلك بمشروعي سد دوكان (على الزاب الأسفل) ودربندي خان (على ديالى). ونذكر في الأسطر التالية بعض الملاحظات الموجزة عن هذه الروافد.

1 ـ الخابور:

ينبع الخابور من المنطقة الجبلية في تركية، وهو أقصر روافد دجلة، لا يتجاوز في طوله (245) كم، ويجتاز الحدود العراقية التركية باتجاه جنوبي غربي وتصب فيه جملة مجارٍ أهمها نهر «الهيزل» الذي يلتقي به بالقرب من بلدة «زاخو»، التي يرجح أنها قامت في مكان مدينة «الحسنية» المذكورة في كتب البلدانيين العرب، ويلتقي الخابور بدجلة في الحدود العراقية التركية عند بلدة «فيشخابور» كما نوَّهنا بذلك.

2 ـ الزاب الأعلى:

الزاب الأعلى ويسمى كذلك الزاب الكبير. وتسمية الزاب الأعلى اسم هذا النهر الوارد في المصادر المسمارية أي «زابو ايلو»، والزاب الأعلى أطول

روافد دجلة، إذ يبلغ طوله زهاء (650) كم، وتقع منابعه في منطقة جبال حيكاري في تركية. وبعد أن يجتاز الحدود «التركية ـ العراقية» يقطع منطقة «الزيبار» حيث جبال «بارزان» تكتنفه من ضفافه الشمالية وجبال «زيبار» من ضفافه الجنوبية، وهذه منطقة تمتاز بمناظرها الطبيعية الجميلة، وللزاب الأعلى جملة روافد أشهرها نهر «راوندوز» و«رايات» و«خليفان» و«ديانا». وتجتاز المضيق الجميل المناظر المسمى «كلي علي بك» ثلاثة من روافد الزاب وهي خليفان وراوندوز وديانا حيث تلتقي عند المضيق مكونة فرع «خالان» الذي يصب في مجرى الزاب الرئيسي. ومن فروع الزاب الكبيرة نهر «الخازر» الذي يغذيه بدوره نهر الگومل. ويلتقي الخازر بالزاب الكبير عند بلدة «أسكي كلك». هذا وقد سبق أن ذكرنا أن الزاب الكبير يلتقي بدجلة عند المخلط، جنوب الموصل بنحو (40) كم وأسفل أطلال «نمرود» بقليل.

3 ـ الزاب الأسفل:

ويسمى أيضاً بالزاب الصغير، واسمه في المصادر المسمارية مثل الصيغة العربية الزاب الأسفل أي «زابو شپالو». وتقع منابعه في جبال كردستان في القسم الإيراني منها، ويبلغ طوله زهاء (520) كم. وبعد أن يترك منابعه في إيران يسير باتجاه جنوبي محاذياً الحدود الإيرانية العراقية تقريباً حتى يجتاز قرية «زردشت» حيث يأخذ بالانعطاف بالاتجاه الشمالي الغربي ويعبر الحدود في الموضع الذي يتصل به رافده المسمى «دبانة»، وتتصل به من بعد ذلك جملة روافد من كلا جانبيه. وينعطف النهر نحو الجنوب عندما يخرج من المنطقة الجبلية إلى سهول تكتنفها الجبال، منها «دشت سنگه سر» من بعد «قلعة دبزة»، ثم يدخل إلى منطقة جبلية مرة أخرى بعد أن يجتاز مضيق «رمكان»، عابراً سلسلة جبال «آسوس ـ كولارا» حيث يدخل سهل رانية أو سهل «بتوين» بين جبال «هيبت سلطان» المطلة على سهل «كويسنجق» وبين سلسلة «كوارهيش»، ويقطع سلسلة الجبال بصورة عامودية تقريباً في المضيق المسمى «دوكان»، وقد سبق أن نوَّهنا بالإفادة من هذه الخاصية في إنشاء سد

ضخم عند مضيق دوكان (1958). ويستمر الزاب الأسفل من بعد ذلك في أراضٍ متموجة ولا سيما عند طقطق ويمر من بعد ذلك في بلدة «التون كوبرى»، ويستمر باتجاه جنوبي غربي إلى أن يلتقي بدجلة ويصب فيه شمال الفتحة بقليل، على بعد نحو 36كم جنوب قرية الشرقاط (موضع آشور القديمة).

4 ـ العظيم:

سبق أن ذكرنا أن نهر العظيم هو الرافد الوحيد من روافد دجلة الذي تقع مصادر مياهه داخل العراق، فهو يتجمع من السيول الكثيرة في موسم الأمطار في منطقة جبال «قرة داغ»، ولذلك فإن العظيم قليل الأهمية لأن مصادر مياهه كما قلنا من الأمطار الشتوية بالدرجة الأولى، وتغذيه جملة وديان أو فروع تأخذ مياهها أيضاً من جبال «قرة داغ»، منها نهر «خاصة صو» الذي يمر بمدينة كركوك، وفرع داقوق (أو طاووق) المار من مدينة «داقوق» (دقوقا القديمة)، وفرع «طوز خورماتو». وقد أفاد القدماء من عبور العظيم سلسلة جبال حمرين في المضيق المسمى «دمير قبو» فأقاموا سداً هنا تسمى بقاياه الآن «البند»، لخزن المياه الكثيرة إبان فصل الأمطار وإرواء مساحات كبيرة من الأراضي التي تدعى الآن أراضي الغرفة والعيث بين الخالص والموضع المسمى «انجانة». ويلتقي العظيم بدجلة في موضع جنوب «بلد» وبنحو 30كم. وذكر العظيم في المصادر المسمارية باسم «ردانو» وفي المصادر الكلاسيكية باسم «فسكوس».

5 ـ ديالى:

نهر ديالى من أهم وأطول روافد دجلة، ويبلغ طوله زهاء (450) كم، وتقع منابعه في الجبال والمرتفعات الإيرانية، وتغذيه فروع وروافد كثيرة، أشهرها رافدان كبيران هما نهر «سيروان» والثاني «تانجرو»، كما تصب فيه فروع أخرى منها «قوراتو» و«الوند» الذي تقع عليه بلدة خانقين وفرع «نارين» الذي يصب في ديالى عند قرية السعدية.

ويقطع ديالى سلسلة جبال «برناند» (زوالي) في مضيق «دربندي خان» حيث أقيم حديثاً (1963) مشروع سد ضخم لخزن المياه. ويجتاز ديالى تلال حمرين بالقرب من منصورية الجبل، وهنا أقيم مشروع ري مهم حيث شقت من ديالى عدة جداول للري، ففي جانبه الشرقي جدول «خريسان» الذي يمر ببلدة بعقوبة وجدول «مهروت» وجدول «الروز»، ومن جانبه الغربي جدول الخالص. ويصب ديالى بدجلة أسفل سلمان پاك إلى جنوب بغداد بنحو (20) كم، ويكون ديالى مع دجلة مثلثاً كبيراً من الأراضي الواسعة الخصبة، وقامت هنا جملة مستوطنات قديمة مهمة، أشهرها دولة «اشنونا» وعاصمتها في التلول المسماة تل أسمر، وسيأتي الكلام على هذه الدولة في الفصول الآتية. وذكر نهر ديالى في المصادر المسمارية باسم «ترناة» وباسم «دورول» أيضاً.

الأقوام القديمة

مرّ بنا في القسم الأول من هذه المقدمة الجغرافية ما كان لموقع العراق الجغرافي من أثر في تركيب سكانه التأريخي، وكنا قد شبهنا وادي الرافدين بالحوض الواقع ما بين منطقتين جغرافيتين هما، رغم اختلافهما في خصائصهما الجغرافية، متشابهتان من حيث فقرهما إلى الخيرات والموارد الطبيعية بالمقارنة مع أرض ما بين النهرين. ونقصد بهاتين المنطقتين البوادي والسهوب المحاددة لحافة الوادي الغربية. والأقاليم الجبلية المتاخمة من الجهات الشمالية والشمالية الشرقية. فكانت أبرز ظاهرة في تأريخ وادي الرافدين استمرار الهجرات البشرية من تينيك المنطقتين في مختلف عصور التأريخ القديم والحديث، ولذلك فيستحسن أن نكمل هذه المقدمة عن صفة المسرح الجغرافي بالتعرف على أولئك الممثلين الذين قاموا بالأدوار الرئيسة في تمثيل تلك «الدراما» الكبرى التي كانت الأولى من نوعها.

ويجدر أن ننبه في أول الأمر إلى أن ما سنذكره عن أشهر الأقوام التي استوطنت وادي الرافدين وأسهمت بالأدوار الرئيسة في بناء حضارته سيقتصر بالدرجة الأولى على الجوانب اللغوية وليس ما يطلق عليه «الجنس» أو «الرس» (Race) في علم «الأنثروبولوجي»، فهذا موضوع لا تساعد ما بين أيدينا من مادة تأريخية على معالجته. فإذا ما تكلمنا مثلاً عن الأقوام السامية أو الأقوام الهندية ـ الأوروبية فسيكون مفهومنا عنها تلك الأقوام التي تكلمت بإحدى تلك اللغات التي أطلق عليها مصطلح «عائلة اللغات السامية» أو عائلة اللغات الهندية ـ الأوروبية.

١ ـ السومريون:

سيمر بنا في الفصل الخاص بتأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية كيف أن أوائل الباحثين في حضارة وادي الرافدين، من بعد حلهم رموز الخط المسماري قبل أكثر من مائة عام ومعرفتهم باللغة البابلية، وجدوا أن مآثر تلك الحضارة المدونة لم تقتصر على اللغة البابلية السامية بل اكتشفوا إلى جانبها لغة ثانية سموها اللغة السومرية. ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا والتساؤل لا يزال يثار عن هذه اللغة وعن القوم الذين تكلموا بها. فمن كان أولئك السومريون؟ هل كانوا أحد الأقوام الذين تحدروا من أصول قديمة واستوطنوا وادي الرافدين منذ عصور ما قبل التأريخ؟ أو أنهم جاؤوا بهجرة من خارج القطر في فترة ما في أواخر تلك العصور؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن أين جاؤوا، أي أين كان مهدهم ومتى جاؤوا إلى العراق؟

إن هذا النوع من التساؤل يعرف لدى الباحثين في حضارة وادي الرافدين بالقضية السومرية، وهي قضية كثر البحث والنقاش حولها وما زالت أبعد ما تكون عن الحل، لا سيما في الوضع الذي تعرض فيه أي مهد السومريين وأصلهم، فهي على هذا الوجه قضية نعتقد فيها أنها لا يمكن أن تحل في المدى القريب. أما إذا وضعت بمفهومها الحضاري وجعلنا تساؤلنا: «أين نشأت الحضارة السومرية»؟ وبعبارة أصح أين ظهرت حضارة وادي الرافدين التي أسهم في بنائها السومريون بنصيب كبير بحيث أطلق الباحثون على أطوارها الأولى «الحضارة السومرية»؟ والإجابة على هذا التساؤل بوجه الإيجاز أنها نشأت وتطورت في هذا القطر منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ، وهو ما سنتتبعه في الفصول التالية ولا سيما في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ.

اسم السومريين:

لما اكتشف أوائل الباحثين الذين حلوا رموز الخط المسماري اللغة السومرية من بعد معرفتهم باللغة البابلية كما نوَّهنا وكما سيمر بنا في كلامنا

على تأريخ التحريات حاروا أول الأمر في الاسم الذي يطلقون عليها فسمّاها بعضهم اللغة الـ «أشكوزية»[1] كما سمّاها البعض الآخر «اللغة الآكدية» (وهذا اسم اللغة السامية التي كانت أصل اللغتين البابلية والآشورية). وإن أولى النصوص الواضحة التي ورد فيها اسم السومريين كان في ألقاب ملوك حضارة وادي الرافدين، وهو لقب: «ملك بلاد سومر وبلاد آكد»، وبالنص السومري (Lugal Ki-en-gl Ki-uri)، وباللغة البابلية (Shar mat shumerim u Akkadim). وقد ظهرت هذه التسمية المزدوجة كما ذكرنا في كلامنا على أسماء العراق التأريخية من بعد العهد الكوتي، حيث اتخذ هذا اللقب الملك السومري «أوتو ـ حيگال» الذي طرد الكوتيين وحرر البلاد منهم، ولا يعرف معنى مجموعة العلامات المسمارية التي يكتب بها اسم «سومر» أي Ki-en-gi وقد سبق أن نوَّهنا باحتمال أنها تعني في معناها الحرفي «أرض سيد القصب أو الأحراش» ولعل المقصود بسيد الأحراش هنا الإله السومري المشهود «أنكي» أو «أيا»، كما قيل في معنى «سومر» إنه مشتق من أحد أسماء مدينة «نفر»[2] القديمة التي كانت أولى مدينة في الحد الشمالي من «بلاد سومر»، وإلى الشمال من نفر تبدأ بلاد آكد.

اللغة السومرية:

كانت حضارة وادي الرافدين منذ ظهورها في مطلع الألف الثالث ق.م مزدوجة اللغة. فباستثناء آثار قليلة بقيت من تراث قوم مجهولين سنتطرق إلى ذكرهم فيما بعد، كانت اللغتان الرئيستان في التدوين والكلام اللغة السومرية واللغة الآكدية التي تفرعت إلى الفرعين الرئيسين، البابلية والآشورية. وبما أنه

---

(1) أشكوزي هي الصيغة التي وردت في النصوص الآشورية عن اسم أولئك الأقوام الطورانية التي كان مهدها في المناطق الشمالية من البحر الأسود، ودعا الإغريق بلادهم «سكوثية» (skuthia) ومنها كلمة «سكيثي» (Scythian) في اللغات الأوروبية، وسيرد ذكر هؤلاء الأقوام في الفصل الخاص بتأريخ الآشوريين.

(2) حول معاني كلمة «سومر» راجع:
Sollberger in *RA*, (1951), 114ff.

ليس من موضوعنا الكلام على اللغة السومرية التي يدرسها طلابنا الآن في قسم الآثار من جامعة بغداد فنكتفي بإيراد بعض الملاحظات الموجزة عنها مما له صلة بموضوع بحثنا الراهن. وأول ما يُقال عن اللغة السومرية إنها تكاد تكون لغة منفردة بنفسها من ناحية كونها لا يمكن تصنيفها وإرجاعها إلى إحدى العوائل اللغوية المعروفة الآن[1]، فهي ليست من عائلة اللغات السامية ولا من عائلة اللغات الهندية ـ الأوروبية. على أنها إذا لم يمكن إرجاعها إلى عائلة لغوية من حيث الأصل التأريخي فيمكن وصفها بأنها من نوع اللغات المعروفة باللغات الملصقة (Agglutinative)، فمن مظاهر الإلصاق في اللغة السومرية أنها تجمع أو تركب الجمل الفعلية بطريقة إلصاق الضمائر والأدوات الدالة على الزمن إلى جذر الفعل في أول هذه الجمل وفي وسطها وآخرها، بحيث تصبح الجملة الفعلية وكأنها كلمة مركبة واحدة، كما أنها تلصق الأدوات النحوية مثل الأدوات المعبرة عن الإضافة والجر والجمع والفاعلية إلى آخر الاسم مع إجراء التغييرات الصوتية من دمج أو إسقاط لبعض الحروف. والغالبية الكبرى من مفرداتها قوامها مقطع واحد مثل «لو» (Lu) رجل. و«كال» (Gal) عظيم، جليل، و«كا» (Ka) فم و«شو» (Shu) يد، و«كي» (Kí) أرض، موضع و«آن» (An) سماء و«أي» (é) بيت و«دو» (Dú) شيد، وبنى و«تُم» (Tum) رفع، حمل، إلخ وتؤلف بطريق الإلصاق مفردات أخرى مركبة كثيرة مثل «لوكال» (Lugal) أي «الملك» (الرجل العظيم)، و«آن ـ كي» (An-ki) الكون (أي السماء والأرض) و«أي ـ كال» (é-gal) القصر (البيت العظيم، ومنها كلمة هيكل في اللغة العربية واللغات السامية الأخرى)، و«دب ـ سار» (Dub-Sar)

---

(1) يقصد بالعائلة اللغوية (Family of languages) مجموعة من اللغات متحدرة من أصل واحد ولذلك فهي تتشابه في مفرداتها الأساسية معنى ولفظاً (ولكن ليس إلى حد التطابق) وفي نحوها أي تراكيبها وأساليبها اللغوية، مثل عائلة اللغة السامية (التي سيأتي الكلام عليها في هذا القسم من بحثنا) وعائلة اللغات «الهندية ـ الأوروبية» أو «الهندية ـ الجرمانية» وعائلة لغات «الأورال ـ الطاي» التي تضم اللغات المغولية باختلاف أسمائها مثل لغات الشرق الأقصى واللغات التترية والتركمانية.

الكاتب (كاتب لوح الطين: «دب»)، إلى غير ذلك من الكلمات الكثيرة.
وتوجد خاصية يعرفها الدارسون المبتدئون هي أن الحرف الصحيح في أواخر الكلمات لا يلفظ في الغالب، ولكن إذا ولي هذا الحرف الصحيح أدوات نحوية مبتدئة بحرف علة فيلفظ عندئذٍ الحرف الصحيح بدمجه بحرف العلة، والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي بإيراد أسهلها، ففي عبارة: «ملك أور» يعبّر عنها في المفردات السومرية Lugal-urim-ak و(ak) في آخر العبارة أداة الإضافة، فيكون لفظ هذه العبارة وكتابتها على الوجه الآتي: Lugal-uri-ma وفي عبارة: «قصر ملك أور» يكون ترتيبها وشكلها قبل الدمج: -é-gal-lugal urim-ak-ak وبتطبيق القاعدة التي ذكرناها تلفظ وتكتب: é-gal-lugal-uri-ma-ka إلى غير ذلك من الأمثلة المعروفة لدى الملمين باللغة السومرية. وتفيدنا هاتان العبارتان في الوقوف على طريقة الكتابة بالخط المسماري من بعد تطوره من المراحل الصورية والرمزية، وكيف صار كتابة خليطة من كتابة رمزية (Ideogram) أو (Logogram) للتعبير عن كلمة، وكتابة صوتية مقطعية (Syllabic)، أي إن العلامة تؤدي مجرد صوت على هيئة مقطع من حرف صحيح وحرف علة أو بالعكس فيستعمل بدمجه مع مقاطع أخرى لكتابة الكلمات والجمل المختلفة. ومع أن أسلوب الإلصاق مستعمل في جملة لغات بشرية ملصقة قديمة وحديثة مثل اللغة العيلامية ولغات عائلة «الأورال ـ الطاي»، كالمغولية والتركية والمجرية ولغات أخرى مثل البولينيزية والباسكية وبعض اللغات القوقازية مثل الجورجية، بيد أنه يمكن القول إن اللغة السومرية لا تمت بصلة قربى إلى أي من هذه اللغات الملصقة. ولعل أقرب فرضية لتعليل تفرد اللغة السومرية أنها من عائلة لغوية قديمة انقرضت في أزمان بعيدة من عصور ما قبل التأريخ ولم يبقَ إفرادها سوى اللغة السومرية التي تكلم بها السومريون في حضارة وادي الرافدين، وكانت أقدم اللغات المدونة في هذه الحضارة.

زمن ظهور اللغة السومرية في التدوين:

اللغة السومرية كما قلنا أقدم لغة في حضارة وادي الرافدين دوّنت بالخط المسماري، في المراحل الأولى التي تلت ظهور هذا الخط في الدور

الأخير من عصر الوركاء (الطبقة الرابعة من طبقات أدوار هذه المدينة) أي في حدود 3500ق.م. وسواء كان السومريون هم الذين أوجدوا هذا الخط وهو الرأي المرجح، أم قوم آخرون غيرهم سبقوهم في استيطان السهل الرسوبي، فإن السومريين اتخذوا ذلك الخط لتدوين لغتهم، واتضح ذلك أكثر في الطور الحضاري التالي المسمى «جمدة نصر». وازداد وضوح تدوين اللغة السومرية في ألواح الطين المكتشفة في جملة مواضع قديمة من العصر المسمى عصر فجر السلالات الثاني (في حدود 2800 ـ 2700ق.م) مما وجد في مدينة «أور» (الألواح الآركائية)، ثم من أوائل عصر فجر السلالات الثالث في الألواح المكتشفة في تل «فارة» (مدينة شروباك القديمة) حيث بدأت النصوص السومرية وفي مقدمتها كتابات الحكام والملوك[1]، وفيها يظهر تكامل تطور الكتابة المسمارية وسيادة اللغة السومرية في مآثر حضارة وادي الرافدين المدونة، وسنتطرق إلى زمن ظهور اللغة السامية في التدوين.

السومريون من الناحية العرقية:

بعد تلك الملاحظات الموجزة عن اسم السومريين ولغتهم نعالج ما قد يثار من تساؤل عن دلالة الهياكل العظيمة التي وجدت في أثناء التنقيبات في المدن السومرية مثل أور واريدو وكيش وغيرها من الناحية العرقية، وبعبارة أخرى هل يمكن أن نستدل من دراسة هذه البقايا العظيمة عن العرق أو «الرس» (Race) الذي ينتمي إليه السومريون؟ وخلاصة الإجابة على هذه المسألة بالنفي، فإن الهياكل العظيمة المكتشفة في القسم الجنوبي من العراق

(1) حول هذه الألواح القديمة والأطوار الأولى في تطور الخط المسماري راجع المصادر الأساسية الآتية:

(1) Falkenstein, *Arkaische Keilschrifttexte aus Uruk* (1936).

(2) Burrows, *Archaic Texts. Ur Excavations*, vol. II.

(3) Langdon, *The Herbert Weld Collection... Pictographic Inscriptions from Jrmdet Nasr.*

منذ أقدم أطوار الاستيطان البشري في عصر العبيد (الألف الخامس ق.م) إلى عصور فجر السلالات المتميز بسيادة اللغة السومرية والثقافة السومرية ـ نقول إن تلك البقايا العظيمة لم تزود الباحثين المختصين بالموضوع (الأنثروبولوجيين) إلا بمفاهيم عامة غامضة لا تفيد في حل القضية التي بين أيدينا. فهي تشير إلى اختلاط عرقي منذ أقدم العصور. ومن الناحية الأنثروبولوجية وجد نوعان من البشر جنباً إلى جنب، النوع المتميز بالرأس الطويل (Dolichocephalic) وهو نوع الرأس الذي يغلب على أقوام حوض البحر المتوسط بوجه عام، ونوع الرأس المدور أو العريض (Brachycephalic) السائد في أقوام أوروبا الوسطى وفي أرمينيا. وما وجد من الهياكل التي ينبغي أن تكون سومرية خليط من هذين النوعين[1] على الرغم مما ذهب إليه بعض الباحثين من أن السومريين كانوا من ذوي الجماجم المدورة في حين أن الساميين من ذوي الرؤوس الطويلة[2]. أما الملامح الطبيعية التي يمكن درسها من المنحوتات فهي كذلك لا تفيدنا بأشياء مهمة في حل القضية. وكان الباحثون من الجيل القديم يعوّلون كثيراً على تمثيل الأشخاص في المنحوتات في تعداد صفات السومريين والساميين الجسمية كشعر الرأس وإطلاق اللحى وحلق الشوارب وشكل الأنف إلى غير ذلك من الصفات الجسدية. ولكن الواقع من الأمر أن ما يبدو من ملامح على التماثيل الآدمية كانت تتحكم في تمثيلها الطرز الفنية المتَّبعة في النحت بالدرجة الأولى، وأن ما يظهر من

---

(1) عن دراسة الهياكل العظيمة المكتشفة في المواضع الأثرية، انظر المراجع التالية:

1. Frankfort, *The Birth of Civilization in Ancient East* (1950).

2. Langdon, *Excavations At Kish* (1924).

3. L. Woolley, *Ur Excavations*, I, (1927), I. (1934).

4. *Sumer*, v, (1949), iv, (1948).

5. A. Parrot, *AM*, II, 316ff.

(2) راجع التقارير التي نشرت في أبحاث المؤتمر التاسع لعلماء الآشوريات المنعقد في جنيف عام 1960.

هيئات وسحن على تلك التماثيل لا يمثل في الواقع فروقاً أو ميزات قومية خاصة بالسومريين أو الساميين، وإنما هي أزياء خاصة بمقام الشخص الممثل كطبقته الاجتماعية أو الدينية، كالملوك والحُكام والأمراء والكهنة. فنجد الملامح والسمات التي درج الباحثون القدماء على عزوها إلى تماثيل السومريين ظاهرة أيضاً في تماثيل أشخاص ساميين في منطقة سامية صرفة من عصر فجر السلالات السومري ونعني بذلك منطقة مدينة «ماري» (تل الحريري قرب الحدود السورية ـ العراقية). وإلى ذلك إذا قارنا تماثيل السومريين من عصر فجر السلالات (منتصف الألف الثالث ق.م) بتماثيل الأمير السومري الشهير «كودية» أو «جودية» (2200ق.م) وجدنا فروقاً واضحة، وكذلك يُقال بالنسبة إلى تماثيل الآلهة من كلا العصرين.

أما عن قضية مجيء السومريين إلى وادي الرافدين وزمن هجرتهم فهناك احتمالات عديدة لا توجد مبررات حضارية وتأريخية لتفضيل أحدها على الآخر والأخذ به. فمن هذه الاحتمالات أن السومريين لم يأتوا من جهات بعيدة خارج القطر، وإنما كانوا أحد الأقوام الذين عاشوا في جهة ما من وادي الرافدين في عصور ما قبل التأريخ ثم استقروا في السهل الرسوبي منه في حدود الألف الخامس ق.م أو بعد ذلك الزمن عندما أصبح هذا السهل صالحاً للسكنى، وأنهم لم يكونوا المستوطنين الوحيدين ولا أقدم المستوطنين وإنما تعايشوا مع جماعات من أقوام أخرى وفي مقدمتهم الأقوام السامية التي سنتطرق إلى هجراتها إلى وادي الرافدين منذ أبعد العصور التأريخية. ولعل مما يرجح هذا الرأي ويعززه أن ما يسمى بالحضارة السومرية التي ظهرت بمقوماتها في أواخر العصر «الحجري ـ المدني» (chalcolithic) (النصف الثاني من دور الوركاء ودور جمدة نصر) يمكن تقصي أصولها وجذورها الأولى إلى أطوار ما قبل التأريخ في وادي الرافدين نفسه. وبعبارة أخرى أينما كان مهد السومريين فإنهم لم يجلبوا معهم إلى وادي الرافدين عناصر الحضارة ومقوماتها الأساسية معهم على نحو ما فعل المهاجرون الأوروبيون إلى أمريكا. على أن هناك جماعة من الباحثين تحدد مجيء السومريين إلى السهل الرسوبي في

أواخر العصر «الحجري ـ المعدني» الذي نوَّهنا به[1]. ومن هؤلاء الجماعة من يعين الموطن الذي نزح منه السومريون بأنه أرض جبلية، ولذلك نراهم، على حد زعم هذه الجماعة، يقيمون معابدهم فوق مرتفعات اصطناعية (هي الأبراج المدرجة أو الزقورات)، وخصص البعض ذلك الموطن في الجهات الشرقية مثل بلاد إيران بانين افتراضهم هذا على تشابه فخار دور «العبيد»، وكان أقدم نوع من الفخار عثر عليه في السهل الرسوبي، مع فخار دور «سوسة»، ولكن الاكتشافات الآثارية الحديثة أسفرت عن وجود فخار أقدم من فخار دور العبيد، ونعني بذلك فخار طور «اريدو»، كما سنفصل هذا في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ. وارتأت جماعة أخرى من الباحثين أن السومريين نزحوا من وادي السند أو جنوبي بلوجستان، مستندين في ذلك إلى التشابه الحضاري ما بين حضارة هذا الوادي (حضارة هرابا وموهنجو دارو) وبين الحضارة السومرية، وأنهم جاؤوا في موجتين أو هجرتين، إحداهما عن طريق البحر وعبر الخليج العربي والثانية براً عن طريق إيران[2].

وذهب بعض الباحثين إلى أن السومريين عندما جاؤوا إلى وادي الرافدين كانوا في مبدأ أمرهم يجاورون أصحاب حضارة أرقى ومنها اقتبسوا عناصر ثقافتهم، بدليل ما نشأ عندهم من أدب بطولي أو ملاحمي (Heroic Age) وهو نوع من الأدب يظهر عادة عند الأقوام الغير المتحضرة بتأثير جوارها إلى حضارات أرقى، مثل عصر البطولة اليوناني (الممثل بالإلياذة والأوديسة) حينما اتصل اليونان بحضارة الأقوام الإيجية (ومركزها في جزيرة كريت) ومثل عصر البطولة الذي نشأ عند برابرة أوروبا إبان جوارهم للحضارة الرومانية[3].

---

(1) راجع رأي الأستاذ «سبايزر» (Speiser) المنشور في مجلة وكذلك: JSOR, (1939), 29ff.
H. Frankfort, *Archaeology and the Sumerian Problem* (1932).

(2) راجع رأي الأستاذ «سبايزر» (Speiser) المنشور في مجلة وكذلك: JSOR, (1939), 29ff.
H. Frankfort, *Archaeology and the Sumerian Problem* (1932).

(3) انظر بحث الأستاذ «كرامر» (Kramer) المنشور في مجلة:
American Journal of Archaeology (1948), 150ff.

وهكذا يبدو مما عرضناه من آراء عن أصل السومريين ومهدهم أن ذلك من القضايا التي لم تستطع حلها الدراسات اللغوية والآثارية، وأن كل ما قيل ويُقال بشأنها مجرد تخمين وافتراضات لا يمكن البرهنة عليها ولا رفضها بوجه قاطع. وقد سبق لمؤلف هذا الكتاب[1] أن اقترح ما سبق التنويه به من أن السومريين إحدى الجماعات المنحدرة من بعض الأقوام المحلية في وادي الرافدين في عصور ما قبل التأريخ البعيدة، وأنهم عرفوا باسمهم الخاص، أي السومريين، نسبة إلى اسم الإقليم الذي استوطنوا فيه أخيراً في القسم الجنوبي من العراق، أي إن التسمية لاحقة للاستيطان ومشتقة من اسم موضع جغرافي ولا تحمل مدلولاً قومياً، يؤيد هذا أن كثيراً من الأقوام التأريخية التي اشتهرت في وادي الرافدين وأسهمت في تكوين حضارته وأحداث تأريخه سميت باسم المواضع التي حلّت فيها مثل الآكديين نسبة إلى مدينة «آكد» أو «أكادة»، العاصمة التي أسسها سرجون الآكدي، والبابليين نسبة إلى مدينة بابل والآشوريين نسبة إلى مدينة آشور على ما يرجح. كما يمكن تتبع أصول الحضارة السومرية إلى جذورها الأولى في عصور ما قبل التأريخ مما نوَّهنا به مراراً. وسنرى من كلامنا على الساميين أن السومريين لم يكونوا أقدم المستوطنين في السهل الرسوبي بل جاوروا أقواماً أخرى وفي مقدمتهم الساميون. وبخلاف ما ذهب إليه البعض من نسبة الأصل الجبلي الخارجي إلى المهد الذي نزح منه السومريون، لا نجد في المآثر السومرية، وعلى رأس ذلك آدابهم وأساطيرهم وشعائرهم الدينية، ما يشير إلى أصل غريب عن بيئة وادي الرافدين الطبيعية، ولا سيما القسم الرسوبي منه، بل إن طابع حضارتهم المميز مشتق من بيئة نهرية ذات أحراش وقصب ونخيل وأثل وطمى وغرين وفيضانات وسهول إلى غير ما هناك مما سبق أن نوَّهنا به من أثر البيئة الطبيعية في حضارة وادي الرافدين.

ونختتم هذه الملاحظات عن السومريين بالتنويه بما كان يفترضه الباحثون

---

(1) طه باقر: «مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة»، الطبعة الثانية، جـ1، ص 91.

القدماء من الصراع والاحتراب بين السومريين والساميين وتفسير أحداث مهمة من تأريخ العراق القديم على أساس هذه الفرضية التي فندتها البحوث الحديثة مما سنتطرق إليه مرة أخرى في أحد الأقسام الآتية من هذا الموضوع.

٢ ــ الساميون:

سبق أن ذكرنا في القسم الأول من هذه المقدمة أثر موقع العراق بالنسبة إلى الجزيرة العربية في تركيب سكانه التأريخي منذ أقدم العهود، فقد نزحت من الجزيرة وأطراف بواديها أقوام كثيرة وفي أزمان مختلفة لا يعلم تحديدها بالضبط إلا حين تخلف تلك الهجرات أثراً وذكراً لها في تأريخ حضارة وادي الرافدين كتأسيس دولة أو سلالة حاكمة مثل الدولة الآكدية والسلالات الحاكمة الأمورية في العصر البابلي القديم.

التسمية:

أطلق على الأقوام العربية التي هاجرت من مهدها الأصلي في جزيرة العرب اسم الأقوام السامية وكان المستشرق الألماني «شلوتزر» (Sshloezer) أول باحث أوجد مصطلح سامي وساميين (في عام 1781) لإطلاقه على المتكلمين بإحدى لغات العائلة السامية كالعربية والعبرانية والآكدية (البابلية والآشورية) والآرامية والكنعانية، بناء على تشابه هذه اللغات الواضح[1]، وظناً منه أن المتكلمين بها متحدرون من نسل «سام» بن نوح كما جاء في جدول الأنساب في التوراة (سفر التكوين، الإصحاح العاشر: 21 ـ 31، والإصحاح الحادي عشر: 10ـ26)، فاتخذت تلك التسمية منذ آنذاك لإطلاقها على اللغات السامية وعلى الأقوام المتكلمين بها. على أن الرأي الحديث اتجه إلى

---

(1) الواقع أن التشابه ما بين اللغتين العبرية والعربية قد فطن إليه بعض أحبار اليهود من أهل القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وأخذ البعض منهم، مثل الرباي أبو زكريا يهوذا (القرن الحادي عشر) يطبق النحو العربي على اللغة العبرية:
Geiger, *Ursprung der Sprache* (1889), p. 22.

البحث في هؤلاء الأقوام من الناحية اللغوية وليس من الناحية العرقية أو الرسية (Racial)، وكذلك ستكون معالجتنا لهذا الموضوع.

وقبل أن نعدد أشهر الأقوام السامية التي استوطنت وادي الرافدين يجدر أن نبيِّن أن هذه التسمية الشائعة، أي الساميين واللغات السامية، غير موفقة ولا صحيحة في رأيي رغم شيوعها في الاستعمال. ولو أننا سمينا هذه اللغات بلغات الجزيرة أو اللغات العربية والأقوام السامية بالأقوام العربية أو أقوام الجزيرة لكان ذلك أقرب إلى الصواب، ولكن اختصاص أولئك الأقوام السامية كل منهم باسم خاص مثل الآكديين والبابليين والعرب والعبرانيين وغيرهم يجعل إطلاق تسمية عرب على كل منهم لا يعبّر عن المدلول التأريخي الدقيق.

مهد الساميين:

عاش الساميون منذ أقدم عهود التأريخ المعروفة في مواطنهم التي عرفت في التأريخ، وهي الجزيرة العربية وأطرافها أي ما يسمى بالهلال الخصيب[1]، وفي بوادي الشام وبوادي العراق. والنظرية الشائعة التي ترجع مهد الأقوام السامية إلى الجزيرة العربية لا تزال النظرية المعول عليها من جانب جمهور الباحثين. وانتشر من الجزيرة منذ أزمان مختلفة أقوام على هيئة هجرات استوطنت في أطراف الجزيرة ومنها بوادي الشام والعراق الغربية وبوادي ما بين النهرين العليا مثل منطقة الخابور والباليخ والفرات الأعلى، ومنها كانت تتغلغل إلى المناطق الأخصب مثل وادي الرافدين وسورية وفلسطين ولبنان وحتى وادي النيل حيث دخلت جماعات من الساميين منذ عصور ما قبل التأريخ في تركيب سكانه التأريخي.

ومع أن نظرية كون الجزيرة مهد الساميين كما ذكرنا أصبحت في عداد

---

(1) أول من استعمل مصطلح الهلال الخصيب (Fertile Crescent) المؤرخ الشهير «هنري بريستد» في كتابه «العصور القديمة».

الحقائق تقريباً إلا أنه ينبغي التحوير في بعض تفاصيلها: فمثلاً مع صحة الفرضية القائلة إن صحارى الجزيرة كانت عامرة بالحياة، من حيوان ونبات وإنسان، في العصور الحجرية القديمة في الدهر الجيولوجي المسمى «بلايستوسين» (Pleistocene) حيث تمتعت بأمطار غزيرة[1]، بيد أنه يشك في أنها ظلت صالحة للاستيطان في العصور التأريخية التالية، لتعذر العيش فيها بحلول الجفاف العام وانعدام وسائل التجول فيها قبل إدخال الجمل إلى منطقة الشرق الأدنى، ولا سيما منذ أواخر الألف الثاني ق.م[2]. وقبل استعمال الجمل كان البدو الساميون على ما يرجح يستعملون في تنقلهم الحمير ويربون الماشية، فكانت تنقلاتهم محدودة بدرجة أكثر من بدو الجزيرة الآن، من بعد استعمال الجمل. ولذلك فإن الصورة القديمة التي كان يصور بها الساميون بكونهم بدواً يتجولون في الجزيرة صورة غير صحيحة على علاتها، بل إن الكثير منهم سبق أن هاجر من الجزيرة في أزمان بعيدة واستوطن في البوادي الخصبة المجاورة لمراكز العمران والحضارة في الهلال الخصيب وصاروا زراعاً أو رعاة شبه مستقرين، كما أن جماعات كثيرة منهم كانت تتغلغل بالتدريج إلى تلك المراكز العمرانية في أزمان مختلفة. وهذه أحداث لم يسجلها التأريخ بل اقتصر الأمر من هجرات تلك القبائل على تلك الهجرات الكبرى التي أحدثت اضطرابات وتبدلات أساسية في مراكز الحضارات المجاورة كالقضاء على الدول القائمة فيها وإقامة كيانات سياسية لها سجلها التأريخ، والأمثلة على ذلك كثيرة سيرد ذكر أشهرها في الفصول الآتية. ومن هنا منشأ ما تعارف عليه المؤرخون في تعداد ما يسمى بالموجات السامية إلى أقطار الهلال الخصيب. وبالنسبة إلى وادي الرافدين لم ينقطع تسرب الأقوام

---

(1) انظر الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ حول أحوال المناخ في منطقة الشرق الأدنى في العصور الحجرية القديمة.

(2) حول إدخال الجمل واستعماله لأول مرة في أقاليم الشرق الأدنى راجع:

Forbes, *Studies in Ancient Technology*, II, (1955), 187ff.

البدوية المتاخمة له من جهاته الغربية عبر الفرات بل استمر إلى العصور الحديثة. وكان للفتوح العربية الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي لأقطار الهلال الخصيب وشمالي أفريقيا الأثر الحاسم النهائي في تركيب سكان هذه الرقعة الجغرافية الشاسعة بجعل غالبية سكانها من الأقوام السامية أي العربية.

ملاحظات على خصائص عائلة اللغات السامية:

تؤلف اللغات السامية كما ذكرنا ما يصطلح عليه اسم العائلة اللغوية التي سبق أن عرفناها. وقد انتشرت لغات هذه العائلة التي سنعددها منذ أقدم العصور التأريخية القديمة في المناطق التالية من آسية الغربية، وهي ابتداءً من الشرق إلى الغرب: ما بين النهرين وسورية وفلسطين (أي بلاد الشام جميعها) وشبه الجزيرة العربية وفي السواحل المقابلة للأجزاء الجنوبية من الجزيرة ولا سيما بلاد الحبشة. وانتشرت من هذه المناطق الأصلية أما بالهجرة والاستيطان أو الفتوح إلى وادي النيل وشمالي إفريقيا وغيرها.

وتمتاز اللغات السامية بصفتها عائلة لغوية بخصائص مشتركة تميزها عن غيرها من أفراد عائلات اللغات البشرية الأخرى أبرزها الأمور التالية:

1 ـ تعنى اللغات السامية في كتابتها بالحروف الصحيحة أكثر من اعتمادها على حروف العلة، مع أنها تتميز على اللغات الأخرى بثروتها الكبرى من الاشتقاق والتصريف المستندين إلى تغيير حركات الكلمات بدرجة كبيرة.

2 ـ ترجع الغالبية الكبرى من المفردات في اللغات السامية إلى أصل أو جذر ذي ثلاثة حروف، وتشتق من هذا الأصل صيغ وأبنية مختلفة كثيرة فيها معنى الأصل وزيادة، بتحوير حركات ذلك الأصل الثلاثي أو بإضافة زوائد إلى أوله أو وسطه أو آخره. وبهذه الوسيلة من الاشتقاق صارت في اللغات السامية ثروة كبيرة من المفردات لا تكاد تضاهى في اللغات الأخرى، وكان هذا مصدر نمو وحيوية فيها. وإلى الأصول الثلاثية الغالبة في اللغات السامية

لا يندر وجود الأصول الثنائية، ومن الباحثين من يرى الأصل الثنائي. وتتشابه اللغات السامية في عدد أصواتها أي حروفها وبوجود أصوات خاصة بها كحروف الحلق والضاد والظاء.

3 ـ الفعل في اللغات السامية بوجه عام محدود الزمن في أصل ما وضع له، فالأصل في أزمانه الماضي والحاضر، ولكن الكثير من اللغات السامية ومنها الآكدية والعربية يستعمل أدوات خاصة أو يحدث تحويرات في صيغ الفعل لمد هذين الزمنين إلى المستقبل وإلى الماضي البعيد أو القريب، وللدلالة على تمام الحدث (Perfect) كما في اللغة الآكدية بوجه خاص.

4 ـ ليس في اللغات السامية سوى جنسين هما المذكر والمؤنث.

5 ـ وتتميز اللغات السامية بظاهرة غريبة في العلاقة العكسية بين العدد والمعدود من حيث التذكير والتأنيث من الثلاثة إلى العشرة، وشمول ذلك الأعداد المركبة بشيء من التحوير على نحو ما هو معرف في اللغة العربية، وتسمى هذه الظاهرة بالاستقطاب الجنسي (Polarity).

6 ـ وتندر في اللغات السامية ظاهرة التركيب في الكلمات أي دمج كلمة مع أخرى لتصبح كلمة واحدة على غرار الإلصاق الذي نوَّهنا به في اللغة السومرية. ويستثنى من ذلك التركيب الخاص بأسماء الأعلام في كثير من اللغات السامية حيث الغالب فيها، كما في البابلية والآشورية، أنها تتألف من عبارة أو جملة مفيدة من مسند ومسند إليه.

ولعل أقرب شبه بعائلة اللغات السامية عائلة اللغات الحامية التي سنتطرق إلى صلتها بها بحيث عدت العائلتان عائلة واحدة كبرى على رأي جمهور من الباحثين[1].

---

(1) أحدث مرجع عن اللغات السامية وخصائصها ونحوها المقارن وفيه الإشارات الكثيرة إلى الدراسات والبحوث الخاصة بالموضوع المصدر الآتي:

Moscati, Spitaler, Ullendorf, Von Soden, *An Introduction to the Comparative Grammar of Semitic Languages* (1964). Mosati, *The Semites in Ancient History* (1959).

وتصنف عائلة اللغات السامية إلى مجموعات أو كتل لغوية على أساس التوزيع الجغرافي والتشابه اللغوي إلى المجموعات اللغوية التالية:

١ ـ كتلة اللغات السامية الشرقية:

أو الشمالية الشرقية وتتألف بالدرجة الأولى من اللغات أو اللهجات الآكدية في العراق القديم، وقد بدأ تدوينها بالخط المسماري منذ 2500ق.م.

وتفرعت الآكدية منذ مطلع الألف الثاني إلى اللهجات الرئيسة التالية:

أ ـ البابلية:

(في حدود 2000ق.م إلى القرن الأول الميلادي):

1 ـ البابلية القديمة (2000 ـ 1500ق.م).

2 ـ البابلية الوسيطة (1500 ـ 1000ق.م).

3 ـ البابلية الحديثة (1000 ـ 600ق.م).

4 ـ البابلية المتأخرة (600ق.م إلى القرن الأول الميلادي).

ب ـ الآشورية:

(في حدود 2000 ـ 600ق.م):

1 ـ الآشورية القديمة (2000 ـ 1500ق.م).

2 ـ الآشورية الوسيطة (1500 ـ 1000ق.م).

3 ـ الآشورية الحديثة (1000 ـ 600ق.م).

٢ ـ كتلة اللغات السامية الغربية:

وموطن هذه الكتلة من اللغات السامية بالدرجة الأولى في بلاد الشام بمفهومها الجغرافي التأريخي العام، أي سورية وفلسطين ولبنان وشرقي الأردن وتنقسم كتلة اللغات السامية الغربية بدورها إلى مجموعتين كبيرتين هما:

أ ـ اللغات الكنعانية:

ومن أفرادها الأمورية والكنعانية ـ الفينيقية، والعبرانية والأوغاريتية[1] والموأبية (نسبة إلى موأب في شرقي الأردن) والفينيقية الحديثة في قرطاجنة وشمالي إفريقيا.

ب ـ الآرامية:

الآرامية القديمة ما بين القرنين العاشر والثامن ق.م وتفرعت الآرامية القديمة ما بين القرن الأول ق.م والقرن الثاني الميلادي إلى فرعين رئيسين احتوى كل منها على عدة لهجات:

1 ـ الآرامية الشرقية:

منها اللهجة الحضرية (مدينة الحضر المشهورة) والآرامية البابلية والرهوية (سريانية الرها) واللهجة الصابئية (المندائية) والآثورية في العراق.

2 ـ الآرامية الغربية:

ومنها الآرامية النبطية والتدمرية والآرامية الفلسطينية والسورية وغيرها من اللهجات المحلية.

3 ـ كتلة اللغات السامية الجنوبية (الجنوبية الغربية):

وهي لغات الجزيرة العربية واللغة الحبشية، واللغة العربية الشمالية (الحجازية) التي تسود فروعها ولهجاتها المختلفة الآن جميع الأقطار العربية. ومنها اللغات العربية الجنوبية التأريخية مثل المعينية والسبئية والحميرية والقتبانية واللهجات الحبشية.

---

(1) الأوغاريتية نسبة إلى مدينة «أوغاريت» (رأس الشمرا الآن قرب اللاذقية في سورية) وكانت مركز مستوطن كنعاني ازدهرت حضارته في الألف الثاني ق.م، ووجدت في أوغاريت أدوار حضارية تمتد إلى عصور ما قبل التأريخ.

وهناك اختلاف في الرأي حول موقع بعض اللغات السامية من هذه الكتل التي عددناها مثل مكانة الأوغاريتية والأمورية ما بين الكتلتين الغربية والشرقية، ومكانة النبطية والتدمرية ضمن الآرامية، ومكانة اللغات العربية الجنوبية ما بين الحبشية واللغات العربية الأخرى.

ملاحظات على الهجرة السامية إلى مناطق الشرق الأدنى:

إن ما سنعدده من هجرات أو موجات للقبائل السامية إلى أنحاء الشرق الأدنى المختلفة تقتصر كما ذكرنا على تلك الهجرات التأريخية المأثورة التي دون التأريخ أحداثها ونتج عنها في الغالب قيام دول وسلالات حاكمة مشهورة، مؤكدين ملاحظاتنا السابقة من أن تغلغل القبائل السامية من أطراف الجزيرة إلى مراكز الحضارات والعمران في الشرق الأدنى كان عملية مستمرة تقريباً منذ عصور ما قبل التأريخ ولا تزال مستمرة في بعض الأجزاء إلى يومنا هذا ما دامت البداوة في الوجود[1].

1 ـ الساميون الشرقيون:

في وادي الرافدين ما بين الألفين الخامس والرابع ق.م، قامت من هؤلاء الساميين في العراق في منتصف الألف الثالث ق.م الدولة الآكدية المشهورة، نسبة إلى العاصمة آكد[2]، فأطلق اسم الآكديين واللغة الآكدية على الساميين الشرقيين، وهذه تسمية متأخرة لاحقة لوجود الساميين في العراق[3].

2 ـ الساميون الغربيون:

اشتهر من هؤلاء الساميين الغربيين القبائل الأمورية، وهم الكنعانيون

---

(1) حول القبائل السامية البدوية بوجه عام ولا سيما قبائل بوادي الشام والعراق وما بين النهرين في الألف الثاني ق.م انظر:

J.R. Kupper, *Les nomades en Mesopotamie au temps des rois de Mari* (1957).

(2) راجع الفصل الخاص بالآكديين.

(3) راجع الفصل الخاص بالآكديين.

الشرقيون في وادي الرافدين وبلاد الشام والكنعانيون الغربيون ومنهم الفينيقيون في سورية وفلسطين كذلك، ما بين الألفين الثالث والثاني ق.م وسيمر بنا في كلامنا على تأريخ العراق في العصر البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) كيف أسس الأموريون في العراق دولاً وسلالات كثيرة في فترتين من هجراتهم[1]، كانت أولاهما في أواخر الألف الثالث ونتج عنها تحطيم أمبراطورية «أور» وإقامة عدة دويلات على أنقاضها مما سنفصل فيه القول في الفصول التالية، وأعقبتها من بعد نحو مائة عام هجرة أمورية ثانية قامت منها أيضاً عدة دويلات ومشيخات أشهرها سلالة بابل الأولى (1894ـ1595ق.م) التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي (1792ـ1750ق.م).

3 ـ الآراميون:

انتشرت القبائل الآرامية في كثير من مناطق الهلال الخصيب ما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر ق.م، في بلاد الشام وبواديها وفي جزيرة ما بين النهرين (أرض ما بين النهرين العليا)، وقامت منها عدة دويلات، ولكنها دخلت في صراع مميت مع الآشوريين. وكان الضغط الآشوري في مقدمة الأسباب التي حالت دون قيام دولة كبرى من الآراميين، وسيمر بنا تفصيل العلاقات ما بين الآشوريين وبين الآراميين في القسم المخصص لتأريخ الآشوريين. وتدفقت القبائل الآرامية أيضاً إلى وادي الفرات الأعلى والأسفل وقامت منهم عدة مشيخات ودويلات، آخرها وأشهرها الدولة الكلدانية التي اشتهرت بملكها نبوخذ نصر الثاني (605ـ562ق.م).

4 ـ القبائل العربية:

انتشرت القبائل العربية منذ الألف الأول ق.م إلى جهات ما بين النهرين، وقد أخذ اسم «عرب» يظهر في أخبار الملوك الآشوريين في

---

(1) أحسن مرجع عن موضوع هجرات الأموريين إلى العراق والسلالات التي أقاموها فيه المرجع المرموز له بـ ZZB.

حروبهم مع بعض تلك القبائل في بوادي الشام والعراق ولعله في شمالي الحجاز[1].

ونذكر أيضاً القبائل النبطية في تدمر وطور سيناء وشمالي الحجاز وهي على الأكثر قبائل عربية تكلمت أو كتبت باللغة الآرامية. وهناك القبائل العربية مما قبل الإسلام ما بين القرن الثاني ق.م والقرن السادس الميلادي. وتعد الفتوح العربية منذ القرن السابع الميلادي من جملة الموجات العربية الكبرى التي نتج عنها التركيب الحالي لغالبية سكان البلاد العربية.

اللغة السامية «الأم» واللغات السامية والحامية:

تستلزم حقيقة كون اللغات السامية تؤلف عائلة لغوية واحدة أنها انحدرت من أصل واحد، أي ما يصطلح عليه باللغة «الأم» (Ursprache) التي كانت لغة أجداد الأقوام المتكلمين بها، كما يفترض أن هذه اللغة «الأم» كانت في بقعة جغرافية معيّنة في العصور البعيدة، وهي المهد الذي نزحت منه الأقوام المتكلمون بفروعها المختلفة، حيث تبدأ لهجاتهم من بعد هجراتهم إلى مواطن أخرى بالتنوع والتغيير والاختلاف بفعل ناموس التطور اللغوي والتباعد الجغرافي، وتزداد هذه الاختلافات بمرور الزمن، ولكنها مع ذلك تظل متشابهة في مفرداتها الأساسية الموروثة وفي تراكيبها النحوية الأساسية.

لقد استعملنا تعبير «يفترض» لأن في الواقع البديهي يتعذر العثور على «الأم» الأصلية لعائلة أي لغات بشرية ولا سيما القديمة منها، ولا سبيل لنا في ذلك إلا افتراض وجود تلك اللغة الأصلية المشتركة، بيد أنه افتراض يقوم على أساس تأريخي هو وجود العائلة اللغوية نفسها؛ وإلى هذا فإن التأريخ سجل لنا أمثلة على ظاهرة نشوء أفراد العائلة اللغوية، ومنها صيرورة إحدى اللغات من عائلة لغوية كبيرة عائلة لغوية ثانوية بتفرعها إلى لهجات من جراء

(1) أول ذكر لاسم «عرب» في التأريخ كان في أخبار الملك الآشوري «شليمنصر الثالث» (858ـ824ق.م) انظر: ARAB, I, (1924).

هجرات جماعات يتكلمون بها فيعمل التطور اللغوي والتباعد الزمني والجغرافي ما بين المتكلمين بها على ظهور لهجات أو لغات متعددة منها؛ ونكتفي للأمثلة على هذه العملية اللغوية التأريخية بمثال صيرورة العربية الشمالية من عائلة اللغات السامية «أمًا» للهجات عربية كثيرة، هي اللهجات العربية المنتشرة الآن في أقطار الشرق العربي وشمالي إفريقيا ومالطة وغيرها، ومثل صيرورة اللغة اللاتينية «أمًا» للهجات أو لغات عديدة، هي اللغات التي تسمى باللغات «الرومانسية» ومنها الفرنسية والإيطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية.

على أنه رغم اندثار السامية «الأم» وزوالها من الوجود في زمن موغل في القدم فقد يثار التساؤل التالي: ترى كيف كانت تلك السامية «الأم»؟ وهل بمكننا أن نكون عنها صورة ولو تقريبية؟ وأي من بنات هذه الأم التي عددناها أشبه بها؟ وللإجابة على مثل هذه التساؤلات يمكن القول إننا نستطيع تأليف صورة ولكنها صورة عامة الملامح عن تلك السامية الأم بطريقة تجريد العناصر اللغوية القديمة المشتركة المستخلصة من أفراد هذه العائلة اللغوية، ولا سيما الأفراد الواضح تطورها اللغوي. على أن إعادة تركيب هذه الصورة لا تعني أننا نقف منها على شخصية تلك «الأم» يوم كانت لغة حية محكية، بل إن ذلك مجرد إعادة تركيب هيكلها العظمي. ويمكن القول بهذا الصدد إن تصور الملامح العامة للسامية الأم أمر أسهل بالمقارنة مع بعض العوائل اللغوية التأريخية المشهورة، مثل عائلة اللغات «الهندية ـ الأوروبية» التي انتشرت أفرادها إلى بقاع جغرافية شاسعة البعد بعضها عن بعض، في حين أن انتشار أفراد العائلة السامية انحصر بالمقارنة في بقاع جغرافية غير متباعدة، الأمر الذي قلل من مدى التباعد اللغوي ما بين هذه الأفراد، وإلى هذا تضاف وفرة التراث التأريخي المدون لمعظم أفراد هذه العائلة وكون التشابه فيما بينها أكثر منه في أفراد العوائل اللغوية الأخرى.

أما تساؤلنا عن أي من أفراد عائلة اللغات السامية أشبه «بالأم» الأصلية

فقد اختلف في الإجابة عليه الباحثون في علم الساميات المقارن. وكانت العربية إلى زمن قريب اللغة المفضلة عند جمهور الباحثين في كونها أقرب اللغات السامية شبهاً بالأم بالنظر إلى احتفاظها بعناصر لغوية عتيقة. ولكن أخذ يزاحم العربية حديثاً بعض اللغات السامية الأخرى مثل «الأوغاريتية» واللغات العربية الجنوبية والآكدية.

اللغات السامية والحامية:

يرى جماعة من الباحثين أن عائلة اللغات السامية ليست ظاهرة لغوية منعزلة بل إنها تؤلف مع ما يسمى باللغات السامية (ومن أفرادها اللغة المصرية القديمة واللغات البربرية والكوشية) عائلة لغوية كبرى أطلق عليها اسم عائلة اللغات «السامية ـ الحامية»، بالاستناد إلى التشابه الملحوظ ما بين أفراد هاتين العائلتين. وقد أكد بعض الباحثين في دراستهم اللغات البربرية الصلة الوثيقة بين اللغة الآكدية (السامية الشرقية) وبين هذه اللغات[1]. وهناك من الباحثين من يرى وجود نقاط من الشبه والصلة بين عائلة اللغات «السامية ـ الحامية» وبين عائلة اللغات «الهندية ـ الأوروبية»، مفترضين وجود عائلة لغوية أكبر تضم هاتين العائلتين أطلقوا عليها اسم «الآرية ـ السامية»، بيد أن هذه فرضية لا يقرها جمهور الباحثين.

٣ ـ قوم مجهولون وأقوام أخرى في وادي الرافدين:

أ ـ الفراتيون الأوائل:

بدأ الباحثون في أصول حضارة وادي الرافدين منذ الأربعينات من هذا

---

(1) حول تشابه اللغات السامية والحامية انظر المرجع المستشهد به في الهامش رقم 47. وعن التشابه الخاص ما بين الآكدية وبين اللغات، البربرية بوجه خاص والفرعونية القديمة بوجه عام انظر:

O. Rossler in ZA, 50, (1952), 121ff.; *Orientalia*, 20, (1951), 101ff.

القرن يشكون في إرجاع أصول معظم المدن التأريخية في السهل الرسوبي ومنها اسما دجلة والفرات وأصول أسماء حرف كثيرة إلى اللغة السومرية أو اللغة الآكدية (السامية). وازدادت تلك الشكوك وتجمعت الأدلة اللغوية على أن هذه الأسماء التي سنعددها بعد قليل تراث لغوي وحضاري من قوم مجهولين ليسوا من السومريين ولا من الساميين، ويرجح أنهم سبقوا هذين القومين في الاستيطان في السهل الرسوبي. وكان الأستاذ «لاندزبيركر» (Landsberger) أول باحث أثار هذا الموضوع وسمى أولئك القوم المجهولين «بالفراتيين» الأوائل (Proto-Euphrateans) وأعاد درس الموضوع جملة باحثين آخرين منهم الأستاذ «كلب» (Gelb) الذي أضاف أدلة أخرى تأريخية ولغوية، وفسّر عصر البطولة (Heroic Age) الذي نشأ عند السومريين مما أشرنا إليه سابقاً بسبب جوارهم لأولئك القوم المجهولين الأرقى منهم حضارة[1].

ولعله من المفيد أن نذكر أشهر المفردات الدالة على طائفة من الحرف والصناعات والتي يراها الباحثون أنها من تراث أولئك القوم وليست سومرية أو آكدية: (1) «إنگار» (Engar)، فلاح، (2) «آپن» (Apin) محراث،

---

(1) نشر بحث الأستاذ «لاندزبيركر» (Landsberger) في المجلة التأريخية لجامعة أنقرة (1943-1945). بالإضافة إلى هذا البحث انظر: Kramer, *The Sumerians* (1963), p. 40.
وبحث الأستاذ «كلب» في المؤتمر التاسع لعلماء الآشوريات (Assyriology) المنعقد في جنيف عام 1960.
وحول عصر البطولة عند السومريين انظر:
Kramer in the *Proceedings of the American Philosophical Society* (1946), 120ff.
وأضاف الأستاذ «كلب» (Gelb) في بحثه المشار إليه أدلة مأخوذة من أثبات العلامات المسمارية حيث وجد أن البعض منها يذكر القيم الصوتية المقطعية دون ما يرادفها من قِيم رمزية أي الكلمات التي تعبر عنها تلك المقاطع الصوتية، ففسرها بأنها كانت بالأصل لمفردات غير سومرية ورثها السومريون في نظام كتابتهم المسمارية. كما ذهب هذا الباحث إلى ترجيح أن السومريين أخذوا الخط المسماري من أولئك القوم المجهولين.
حول هذه العلامات المسمارية الغريبة انظر:
David, «Le terme Ka.ka-siga in *Oriens Antiquus*, nos. 5-12 (1945).

(3) «نمبار» (Nimbar) نخل، (4) «سولومب» (Sulumb) تمر،
(5) «تبيرا» (Tibira) نحاس، تعدين، (6) سمگ (Simug) حداد أو نحاس
(7) نگار (Nagar)، نجار (أصل العربية نجار) (8) «ملاح» (Malakh)، ملاح
(العربية ملاح) (9) «پخار» (Pakhar) فخار (صانع الأواني الفخارية)
(10) «دمگار» (Damgar)، تاجر (11) «إشبار» (Ishbar)، حائك
(12) «أشگاب» (Ashgab) اسكافي، جلاد (صانع الجلود).

وبالنسبة إلى أسماء المدن والمواضع فيرى الباحثون بموجب هذه الآراء الحديثة أن أسماء معظم المدن المهمة في بلاد سومر وبلاد آكد ولا سيما القديمة منها ترجع إلى التراث اللغوي الذي تركه أولئك القوم ومنها تسمية نهري دجلة والفرات كما قلنا، ونعدد أسماء هذه المدن ابتداء من الجنوب:

(1) «أريدو» (Eridu) (أبو شهرين) (2) أور (Urim) (3) «أوروك» أو «أونوك» (Uruk. Unug) (الوركاء) (4) كلابا، كلاب (Kullaba) (5) «لارسام» (Larsam)، لارسة (السنكرة) (6) لگاشو (Lagashu) (الهباء) (7) «كرسو» (Girsu) (تلو) (8) نينا (Nina) (سرغل) (9) «سرارا» (Sirara) (10) «باد - تبيرا» (Bad-tibira) (تلول المدينة في منطقة لجش) (11) «أوما» (Umma) (تل جوخة) (12) شروباك (Shuruppak) (تل فارة) (13) أدب أو «أودب» (Adab. Udab) (بسمي) (14) «نپر» أو «نبروآ» (Nippur. Nibrua) (نفر) (15) كيش (Kesh) (لا يعلم موقعها وهي غير مدينة كيش التي سيأتي ذكرها) (16) مرد (Marad) (ونة والصدوم) (17) «لراك» (Larak) (تل الولاية) (18) ايسن (Isin) (ايشان بحريات) (19) كيش (Kish) تلول الأحيمر (20) سپار أو «زمبر» (Sippar. zimbir) (أبو حبة) (21) اكشك أو «أوپي» (Akshak. Upi) (22) اكد أو «اگاده» .Akkad) (Agade (23) كوثي أو «كودوآ» (Gudua) (كوني، تل إبراهيم) (24) بابلم (Babilim) (بابل) (25) بارسبا، أو بورسبا (Barsipa) (برس نمرود) (26) «إشنونا» (Eshnunna) (تل أسمر) (27) توتب (Tutub) (خفاجي).

ب ـ السوباريون والحوريون:

اتصل سكان وادي الرافدين منذ أقدم عهود التأريخ بعدة أقوام خارج القطر، أما عن طريق الاتصالات التجارية أو الفتوح أو الغزو أو الأسفار، فأثرت فيهم حضارة وادي الرافدين كما أثروا فيها، وتغلغل البعض منهم إلى موطن هذه الحضارة نفسها فدخلوا في تركيب سكان العراق القديم، واستوطنت جماعات أخرى في مناطق العراق الشمالية وفي الأقسام الجبلية منها مثل الگوتيين واللولبيين، وجماعات من الماذيين أو الميديين في أواخر الألف الثاني، والمرجح أن يكون منهم الأكراد الآن. وسيمر بنا الكلام على بعض الأقوام الأخرى ممن أسسوا سلالات حاكمة مثل الكشيين. ونخصص الملاحظات التالية على بعض الأقوام التي كان لها أثر وكيان مهمان في تأريخ سكان وادي الرافدين، وهم السوباريون والحوريون.

١ ـ السوباريون:

منذ ظهور أخبار الحكام والملوك الأوائل في عصر فجر السلالات الثالث (منتصف الألف الثالث ق.م) بدأ فيها ذكر أقوام غريبة وبعيدة عن بلاد سومر، ومنهم السوباريون[1] الذين ورد ذكرهم لأول مرة على ما يرجح في أخبار حاكم مدينة لجش المسمى «اياناتم»، وفي أخبار فتوح سرجون الآكدي، وكثر ذكرهم من بعد ذلك في النصوص التأريخية[2]، وكثيراً ما يرد اسم قوم آخرين معهم، هم «الحوريون» أو «الخوريون».

---

(1) سيرد الكلام على السوباريين في القسم الخاص بتأريخ الآشوريين، فنكتفي الآن بذكر المرجعين الأساسيين عنهم:

(1) Gelb, *Hurrians and Subarians* (1944).

(2) Finkelstein in *JCS*, (1955), 1ff.

(2) سيرد الكلام على السوباريين في القسم الخاص بتأريخ الآشوريين، فنكتفي الآن بذكر المرجعين الأساسيين عنهم:

(1) Gelb, *Hurrians and Subarians* (1944).

(2) Finkelstein in *JCS*, (1955), 1ff.

أما أصل السوباريين ولغتهم فغير معروفين، وكل ما قيل في لغتهم إنها ليست من عائلة اللغات «الهندية ـ الأوروبية»، وإنهم كانوا من الأقوام الجبلية في الجهات الشرقية مثل الكوتيين واللولبيين، وكانوا يقطنون في شمالي ما بين النهرين في منطقة الجزيرة العليا وشرقي دجلة، وكان يقع ضمن موطنهم المنطقة الشمالية من العراق التي عرفت كذلك باسم بلاد آشور، وذلك قبل هجرة الآشوريين الساميين في الألف الثالث ق.م، حيث أزاحو القسم الأكبر من السوباريين إلى المناطق الجبلية شرقي دجلة. ولكن مما لا شك فيه دخلت عناصر كثيرة منهم في التركيب القومي للآشوريين، كما دخلت منهم عدة تأثيرات لغوية وحضارية في الثقافة الآشورية، من بينها آلهة وظائفة من الشعائر الدينية وأسماء بعض المدن والمواضع.

واستعمل مصطلح «سوبارتو» وبلاد «سوبارتو» في كثير من النصوص البابلية مرادفاً لبلاد آشور والآشوريين إلى العهود التأريخية المتأخرة. فمثلاً نجد الثائر البابلي المشهور «مردوخ ـ بلدان» (721 ـ 710ق.م) يذكر خصمه الملك الآشوري سرجون بأنه ملك «بلاد سوبارتو» وليس بلاد آشور، ومثل هذا الاستعمال ورد في كتابات ملوك الدولة البابلية الأخيرة (626 ـ 539ق.م). أما الآشوريون فقد تحاشوا استعمال كلمة «سوبارتو» لإطلاقها على بلادهم باستثناء بعض النصوص الخاصة بالفأل والتنبؤ، نستشهد منها بتلك النبوءة الطريفة التي قدمها منجم آشوري إلى أحد الملوك الآشوريين بأن السوباريين سيقضون على الاخلامو (إحدى القبائل الأمورية)، ويضيف ذلك المنجم موضحاً للملك: «نحن السوباريين»[1] أما السبب في تحاشي الآشوريين إطلاق اسم «بلاد سوبارتو» على بلادهم فناشئ من استهجانهم لهذا التعبير الذي كان يطلق أيضاً على العبد، بالنظر إلى شهرة العبيد الذين كان البابليون يجلبونهم من بلاد السوباريين بحيث أصبحت كلمة «سوبارم» (Subarum) و«سبرم» (Subrum) مرادفة في اللغة الآشورية القديمة لكلمة عبد مثل أصل كلمة (Slave) في بعض اللغات الأوروبية من أقوام الصقلب (الصقالبة) أي السلافيين.

(1) انظر: CAH, 1, part, 2, (1971), p. 733.

٢ ـ الحوريون:

يرجح أن يكون مهد الحوريين الأصلي في المنطقة الجبلية التي تكون نصف دائرة تمتد من جبال طوروس بالقرب من كركميش (جرابلس الآن) إلى بحيرة وان تقريباً، ويحتمل أنهم امتدوا جنوباً حتى الزاب الأعلى حيث كان يجاورهم «اللولوبيون» من الشرق (منطقة شهرزور)، وقد ظهروا في التأريخ منذ منتصف الألف الثالث ق.م واتصل بهم ملوك الدولة الآكدية، حيث كانت لهم دويلة في أعالي وادي دجلة والفرات، ولكن لم يبرز لهم شأن سياسي مهم إلا في القرن الخامس عشر ق.م.

وقبل أن يقف الباحثون على ذكرهم في إحدى رسائل «العمارنة» الشهيرة (القرن الرابع عشر ق.م) اقتصر ذكرهم على ما جاء في التوراة (سفر التكوين، الإصحاح 36: 20 ـ 30) ثم كثرت عنهم الإشارات التأريخية في نصوص حضارة وادي الرافدين منذ العهد الآكدي (2370 ـ 2160ق.م) ومن ذلك أسماء أعلام حورية وردت في الألواح الإدارية والاقتصادية من زمن سلالة «أور» الثالثة (2112 ـ 2004ق.م)[1].

ويبدو من لغتهم التي دونت نصوص منها بالخط المسماري أنهم لم يكونوا من الناحية اللغوية من الساميين ولا من الأقوام «الهندية ـ الأوروبية»، فلم يستطع الباحثون أن يرجعوهم إلى أحد الأقوام التأريخية المعروفة سوى إطلاق المصطلح الغامض «آسويين» (Asianic) عليهم، على أن اللغة الأوراراطية (أي لغة إقليم أرمينيا القديمة) أقرب اللغات المعروفة إلى لغتهم. وعبدوا إلهاً قومياً اسمه «تشوب» (Teshup)، وهو من آلهة الجو والصاعقة

---

(١) عن الحوريين وكذلك السوباريين انظر المصادر الآتية:

(1) Gelb, *Op. Cit.*

(2) Speiser. «Ethnic Movements in the Near East in the Second mill. B.C.» In the *Annual of the Amer. schools of Oriental Research* (1933), 13ff.

(3) Speiser. «The Hurrian Participation in the Civilization of Mesopotamia, Syria and Palestine» in *Journal of World History* (1953), 31ff.

والرعود مثل الإلهين «أنليل» و«أدد» في حضارة وادي الرافدين، كما عبدوا الآلهة «خيفا» أو «حيفا» (Khepa) وجعلوها زوج الإله «تشوب» السالف الذكر، وطوبق إلههم هذا بإله مملكة «اشنونا» المسمى «تشباك» (Tishpak).

وقد انتشر الحوريون في الربع الأول من الألف الثاني ق.م إلى عدة جهات من الهلال الخصيب، ففي سورية الشمالية كونوا في حدود 1800ق.م أكثرية السكان في منطقة المدينة القديمة المسماة «ألالاخ» (تل العطشانة ما بين حلب وإنطاكية)[1]. وبعد فترة تقدر بنحو قرن واحد نجد الحوريين في شمالي العراق، ومركزهم في المدينة القديمة «نوزى» (يورغان تبه بالقرب من كركوك) وقد بدلوا اسم المدينة القديم «كاسر» (Gasur) إلى نوزى أو «نوزو»، ووجدت آثارهم أيضاً في مواضع أخرى مثل «تبه كورا» و«تل بلا» (بالقرب من الموصل). وظهر في القرن السادس عشر ق.م نوع جديد من الفخار يمتاز بجماله ودقة صنعه أطلق عليه اسم الفخار الحوري.

وفي حدود القرن الخامس عشر ق.م ظهرت في شمالي ما بين النهرين مملكة كان أغلب سكانها من الحوريين ولكن الطبقات الحاكمة فيها كانت من الأرستقراطيين الآريين، وكان مركزها في وادي الخابور والباليخ. وقد سمّاها الآشوريون «خانيگلبات» (Khanigalbat) وأطلق عليها اسم «نهارين» أو «نهارينا»[2] كما عرفت أيضاً في النصوص المعاصرة باسم مملكة «ميتاني»، وسيرد ذكر هذه الدويلة في القسم الخاص بتأريخ الآشوريين.

ومع أن أثر هؤلاء الحوريين في حضارة وادي الرافدين لم يكن على مقياس كبير ولكن أثرهم في بلاد الشام كان أكبر، وسيمر بنا في كلامنا على تأريخ العصر الآشوري الوسيط اصطدام دولتهم بالآشوريين حتى أن أحد

---

(1) انظر عن «الالاخ» (تل العطشانة):

Wiseman, *The Alalakh Tablets* (1953).

Woolley, *A Forgotten Kingdom* (Pelican, 1953).

(2) O, Callaghan, *Aram Nahraim* (1948).

ملوكهم المسمى «سوشتار» غزا بلاد آشور نفسها في القرن الخامس عشر ق.م. ولكن الملك الآشوري «آشور أوبالط» (1362ـ1337) قضى على دولتهم.

عرض لغوي موجز لحضارة وادي الرافدين:

لعله من المفيد أن نختتم كلامنا على أقوام العراق القدماء بعرض لغوي موجز[1] لأدوار حضارة وادي الرافدين من حيث اللغة أو اللغات السائدة في كل من هذه الأدوار مبتدئين بأقدم عهود الاستيطان في السهل الرسوبي في حدود الألف الخامس ق.م.

1 ـ دور العبيد:

على الرغم من تعذر معرفتنا باللغة أو اللغات التي سادت في دور العبيد لأنه من عصور ما قبل التأريخ التي لم يظهر فيها التدوين بالكتابة، فإن بعض الباحثين ينسب أولئك القوم المجهولين الذين تكلمنا عنهم إلى دور العبيد في حدود الألف الخامس ق.م. ولعلهم سبقوا الساميين والسومريين في استيطان السهل الرسوبي أو عايشوهم، ولكن لغتهم بادت ولم يبق منها سوى تراث قليل في المفردات اللغوية التي عددناها، أي أسماء معظم المدن المشهورة في بلاد سومر وبلاد آكد وطائفة من أسماء الحرف والصناعات، كما رجح بعض الباحثين أنهم هم الذين أوجدوا الخط المسماري.

2 ـ دورا الوركاء وجمدة نصر:

سنرى من كلامنا على عصور ما قبل التأريخ أن الأطوار الأخيرة منها، وعلى وجه التحديد الطبقة الخامسة من مدينة الوركاء ودور جمدة نصر التالي قد جعلت دوراً حضارياً متميزاً أطلق عليه مصطلح «الدور الشبيه بالتأريخي» أو «الشبيه بالكتابي» (Proto-historic) أو (Protoliterate) وقد ظهرت الكتابة لأول

---

(1) يستند هذا العرض اللغوي إلى إيجاز بحث الأستاذ «كلب» Gelb في مؤتمر علماء الآشوريات المنعقد في جنيف عام 1960، حيث خصصت أبحاث ذلك المؤتمر للعلاقات بين السومريين والآكديين (الساميين).

مرة في الطبقة الرابعة (أ) من الوركاء، ولكنها كانت في طورها الصوري Pictographic ولم يدون بها في مبدأ الأمر سوى أشياء مادية أي صور الأشياء المراد تدوينها فلا نعرف اللغة التي دونت بها، ولكن في دور «جمدة نصر» التالي اتضح أن اللغة المدونة بالخط المسماري كانت اللغة السومرية، وهذه أولى بوادر سيادة اللغة السومرية والثقافة السومرية في حضارة وادي الرافدين وازدادت وضوحاً في الأدوار التالية.

3 ـ عصر فجر السلالات:

يقسم العصر المسمى عصر فجر السلالات أو عصر دول المدن (2800 ـ 2370) إلى ثلاثة أدوار حضارية متميزة كما سنشرح ذلك في الفصل المخصص لهذا العصر. ومن ناحية الموضوع الذي بين أيدينا لم تأتنا من الطور الأول من هذا العصر أشياء مدونة يعتد بها، ولكن كثرت الكتابات السومرية في الدور الثاني وازدادت أكثر في الدور الثالث الذي سادت فيه اللغة السومرية ولا سيما في بلاد سومر، وتوجد أدلة تأريخية تشير إلى ظهور كيان بارز للساميين الآكديين في القسم الأوسط من السهل الرسوبي، أي في بلاد أكد التي كان مركزها في مدينة «كيش» المشهورة. وخصصت للدور الثاني من عصر فجر السلالات السالف الذكر سلالتان حكمتا البلاد هما سلالة كيش الأولى، وكانت أول سلالة حكمت من بعد الطوفان كما جاء في أثبات الملوك السومرية التي سيأتي الكلام عليها، أما السلالة الثانية فقد كان مركزها في مدينة الوركاء. ويستدل من أسماء ملوك كيش على أن نصف عددهم البالغ اثنين وعشرين ملكاً أسماء سامية، مثل الملك المسمى «كلبم» (Kalbum) (أي الكلب) و«قلومو» (Qalumu) (أي الحمل) و«أوريئم» (Arwium) (أي الغزال أو الأروى) و«باليخ» (Balikh) وغيرهم. وفي المناطق السومرية في الجنوب التي سادت فيها اللغة السومرية ظهرت كذلك أسماء أعلام سامية في ألواح الطين[1]، وظهرت في اللغة السومرية نفسها مفردات

---

(1) انظر الأمثلة على هذه الأسماء السامية في:

R.D.Biggs, «Semitic Names in the Fara Period», in *Orientalia*, (1967), 55f.

ثبت أنها مستعارة من اللغة الآكدية السامية مثل كلمة «شام» (Sham) (اشترى، باع مثل العربية سام، يسوم) وكلمة «دمكار» (Damkar) (تاجر، وقد سبق أن ذكرنا هذه الكلمة من جملة التراث اللغوي لأولئك القوم المجهولين ولكن السومريين أخذوها عن طريق الآكديين) و«تمخار» (Tamkhar) (قتال، حرب) كما ظهرت قيم صوتية جديدة لبعض العلامات المسمارية مأخوذة من كلمات أكدية مثل المقطع (Id) المأخوذ من كلمة «يد» الآكدية، و(Iz) المأخوذ من كلمة (Isum) الآكدية (تضاهي كلمة عصا العربية) وPu من الكلمة «فم» (Pum) أي الفم وغيرها.

أما الدور الثالث من عصر فجر السلالات فإنه يمتاز من ناحية موضوعنا بكثرة المصادر الكتابية بالمقارنة مع الأدوار السابقة. وقد تنوعت النصوص المدونة فشملت أصنافاً مهمة مثل الكتابات الملكية الرسمية أي النصوص الخاصة بأعمال الحكام والملوك، والنصوص الخاصة بالنذور والقرابين (Votive inscriptions) والنصوص الاقتصادية (Economic texts) وأحجار تثبيت الملكية (Kudurru). كما تكاثرت في هذا الدور أسماء الأعلام السامية الآكدية حتى في المناطق التي سادت فيها اللغة السومرية مثل منطقة لجش ونفر وأدب (بسمي). ومع أن اللغة السائدة في التدوين كانت اللغة السومرية كما قلنا إلا أنه ظهرت بعض النصوص المدونة باللغة الآكدية لأول مرة في تأريخ حضارة وادي الرافدين.

4 ـ العهد الآكدي:

سيطر الآكديون الساميون على جميع القطر في نهاية عصر فجر السلالات كما سنفصل ذلك في الفصل الخاص بهذا العهد. وبرزت اللغة الأكدية (السامية الشرقية) بصفتها لغة النصوص الرسمية، كما بدأت تدون فيها المعاملات الخاصة بشؤون الحياة الاعتيادية. ولكن مع ذلك ظلّت اللغة السومرية لغة للتدوين والكلام ولا سيما في بلاد سومر، كما بقيت أيضاً لغة رسمية إلى جانب اللغة الآكدية حتى في المناطق الآكدية من البلاد. ويمكننا تلخيص الوضع اللغوي في حضارة وادي الرافدين ابتداء من هذا العصر بالازدواج اللغوي، أي استعمال اللغتين الآكدية والسومرية جنباً إلى جنب في

معظم النصوص المهمة، ومن علائم التفوق السياسي والسكاني للآكديين الساميين منذ هذا العهد ظهور أسماء أمكنة آكدية كثيرة في جميع أرجاء الأمبراطورية الآكدية، يرجح أنها نشأت في هذا العهد، ويغلب على أسمائها دخول الكلمات الآكدية الدالة في تركيبها مثل «دور» Dûr أي الحصن و«مشكن» (Mashkan) أي المسكن أو المستوطن.

أما مسألة النزاع والاحتراب ما بين الآكديين وبين السومريين، وهي الفكرة التي ذهب إليها الباحثون القدماء، فلا يوجد ما يؤيدها، سواء أكان هذا الصراع المزعوم على الصعيد الرسمي أم الصعيد القومي والشعبي. وإذا ما تميّز بعض الجوانب من سياسة سرجون الآكدي وغيره من ملوك السلالة الآكدية بالعنف إزاء بعض المدن السومرية في الجنوب فإنما كان ذلك بصفتها دويلات مدن قاومت ملوك تلك السلالة أو ثارت عليهم وليس لأن سكانها كانوا سومريين، على أنه لا ينكر أن يبدر من سكان هذه المدن شعور قومي عدائي إزاء سيطرة الملوك الآكديين. ولكننا إذا رجعنا إلى أخبار سرجون وأخبار الملوك الآكديين الآخرين وجدنا أن الشدة والقسوة اللتين تنسبان إليهم إزاء بعض المدن السومرية وجهتا أيضاً على المدن الآكدية حين كانت تظهر العصيان والانفصال، وسترد على هذا أمثلة كثيرة في كلامنا على أخبار الدولة الآكدية. وخلاصة ما يقال عن هذه القضية إن ما كان يظنه الباحثون القدماء من وجود صراع بين الآكديين وبين السومريين ليس إلا من قبيل المبالغة من حوادث قليلة، وإن المدن السومرية نفسها كانت في صراع مستمر فيما بينها في أثناء ازدهارها في عصر فجر السلالات[1].

5 ـ عهد سلالة أور الثالثة:

قامت سلالة أور الثالثة (2112 ـ 2004ق.م) من بعد فترة الكوتيين

---

(1) أول من تصدى لتفنيد هذا الرأي الأستاذ ياكبسون. انظر:

Th. Jacobsen, «The Assumed Conflict Between Sumerians and Semites in Early Mesopotamian History» in *Journal of the Amer. Oriental Society,* (1939), 485ff.

الذين قضوا على الدولة الآكدية، وقد أسس هذه السلالة السومريون، وكانت مملكة قوية شمل حكمها القطر جميعه وامتدت بالفتوح الخارجية إلى الأقطار المجاورة، ويعد عهدها من ناحية موضوعنا بعثاً أو إحياء (Renaissance) في اللغة السومرية ونهضة أدبية وثقافية بدأت من زمن الحاكم السومري في لجش «جودية» أو «كودية» المشهور قبيل قيام تلك السلالة. وجاءتنا من هذا العهد، أي زمن سلالة أور الثالثة، عشرات الألوف من ألواح الطين المدونة باللغة السومرية، ولكن أغلبها وثائق وعقود اقتصادية وتجارية، إلى جانب النصوص الملكية الرسمية القليلة، ومنها رسائل رسمية جاءتنا بنسخ من العهد البابلي القديم الذي أعقب سلالة أور الثالثة. أما النصوص المدونة باللغة الآكدية فقد تقلص عددها، ولكن اللغة الآكدية استمرت لغة محكية بارزة، واستمر القطر في التحول اللغوي إلى اللغة الآكدية السامية، كما يشير إلى ذلك ازدياد عدد الكلمات الآكدية المستعارة في اللغة السومرية نفسها. وليس أدل على ذلك من حقيقة أن أسماء ثلاثة من ملوك تلك السلالة البالغ عددهم خمسة ملوك كانت أسماء سامية[1]، كما أن اتخاذ ملوكها لقب «ملك بلاد سومر وبلاد آكد» له دلالته في هذا التحول والانصهار الثقافي والقومي بين السومريين والآكديين.

6 ـ العهد البابلي ـ القديم:

انهارت أمبراطورية «أور» بسبب عوامل الضعف الداخلي وما تلا ذلك من تدفق القبائل السامية الأمورية من البوادي المتاخمة لجهات الفرات الأعلى إلى وادي الرافدين وتأسيس جملة سلالات حاكمة في العهد الذي يسمى بالعصر البابلي القديم (2000 ـ 1500ق.م) ويمكن القول فيما يتعلق بموضوعنا إن الصورة العامة لحضارة وادي الرافدين قد تبدلت تبدلاً أساسياً من جراء هجرات أولئك الأقوام السامية من الأموريين إلى وادي الرافدين بإضافتها إلى الساميين الآكديين الأصليين. ومع كثرة هذه القبائل السامية

---

(1) بعد «أور ـ نمو» مؤسس السلالة وابنه «شولكي» حكم من هذه السلالة ثلاثة ملوك ذوي أسماء سامية هم: «أمار ـ سين» و«شو ـ سين» و«ابي ـ سين».

الجديدة من الأموريين فإن اللهجة الأمورية (وهي إحدى لغات الكتلة السامية الغربية كما بيَّنا سابقاً) لم تصبح لغة تدوين في حضارة وادي الرافدين بل ظلت اللغة الآكدية (وهي السامية الشرقية) لغة التدوين السائدة، على أن المرجح أن اللهجة الأمورية صارت لغة الكلام والتخاطب بين الساميين الجدد، كما كثرت أسماء الأعلام الأمورية في أسماء الأشخاص وأسماء ملوك السلالات التي قامت في العصر البابلي القديم.

أما اللغة السومرية فقد استمر استعمالها في التدوين إلى جانب اللغة الآكدية ولا سيما في الكتابات الرسمية الملكية وفي النصوص القانونية والاقتصادية والأدبية. فمثلاً دوَّن «لبت عشتار» خامس ملوك سلالة «ايسن» الأمورية شريعته باللغة السومرية. أما لغة الرسائل والمخاطبات الرسمية والنصوص الرياضية وغيرها فقد سادت فيها اللغة الآكدية. ومن النتائج المهمة في هذا العهد الحضاري الجديد زوال الفروق ما بين القوميات ولا سيما ما بين السومريين والساميين من جراء الاختلاط والانصهار الحضاري والسياسي، ولعل أحسن ما يعبّر عن هذا الاتجاه شريعة حمورابي الشهيرة التي لم تفرق ما بين السومريين وبين البابليين والقوميات الأخرى بل إنها وضعت لجميع السكان، وفوق ذلك نجد فيها اتجاهاً عاماً يتعدى حدود مملكة مشرعها، حمورابي، ليشمل جميع الناس أو البشر في عرف ذلك الزمان، أو كما جاء في العبارة المشهورة في تلك الشريعة (ذوو الرؤوس السود).

رموز المراجع الأساسية التي تتكرر الإشارة إليها:

AAO: H. Frankfort, *The Art And Architecture of the Ancient Orient* (1954).
AJ: Antiquiries Journal (London).
AFO: Archiv für Orientforschung (Berlin).
AJSL: American Journal of Semitic Languages and Literature (Chicago).
AM: A. Parrot, *Archeologie Mesopotamienns* (Paris, 1946).
ANET: Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old *Testament.* ED. Pritchard (Princeton, 1950, 1955).
ARAB: Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia* (Chicago, 1926-27).
ARM: *Archives royales de Mari.* ED. Parrot and Dossin (Paris, 1950ff.).

BHT: S. Smith, *Babylonian Historical Texts* (London, 1924).
CAH: Cambridge Ancient History. new ED. 1963-1971.
IRAQ: Iraq. British School of Archaeology in Iraq.
JCS: Journal of Cuneiform Studies (New Haven, 1947ff.).
JAOS: Journal of the American Oriental Society.
JNES: Journal of Near Eastern Studies (Chicago).
JSOR: Journal of the Society of Oriental Research.
MDP: Memoires de la delagation en perse.
OIP: Oriental Institute Publications (Chicago).
RA: Revue d'Assyriologie... (Paris).
RB: Revue Bibllique.
RISA: Barton, *The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad* (1929).
RLA: E. Ebeling. Meisner (ED.), Reallexikon der Assyriologie (1932ff).
SAK: Thureau-Dangin, *Die Sumepischen und Akkadischen Königinschriften* (1907).
SKL: Th. Jacobsen, *The Sumerian King-list* (1939).
SAHG: Falkenstein. von Soden, *Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete* (1952).
UVB: Uruk vorläufiger Berichte..... (Berlin. 1930ff.).
ZA: Zeitschrift für Assyriologie.
ZZB: D. O. Edzard, *Dir Zweite Zwischenzeit Babyloniens* (1957).
WVDOG: Wissenschaftliche veröftenlichungen der Deutsche Orientgesellschaft.

الفصل الثاني

تأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية

أولاً: مقدمة في التاريخ والتاريخ القديم

1 ـ التاريخ ومنهجه:

يحسن بنا ونحن نبحث في تأريخ حضارة وادي الرافدين أن نعرف إلى أي صنف من أصناف المعرفة يرجع موضوع التاريخ. وقد كان هذا الأمر فيما سبق قضية خلاف بين العلماء. ولكن الذي عليه ثقات الباحثين الآن، أن التاريخ، استناداً إلى مفهوم العلم[1]، علم من العلوم. بيد أنه ليس من صنف العلوم التي تعتمد على الملاحظة المباشرة كالفلك أو على التجربة والمختبر مثل أكثر العلوم الطبيعية، وإنما هو علم بحث ونقد ونظر. فهو أقرب ما يكون إلى «الجيولوجيا». فكما أن الجيولوجي يبحث في أحوال الأرض فيعرف

---

(1) من التعاريف المتفق عليها للعلم أنه «معرفة منظمة أو مجموعة من الحقائق أمكن الوصول إليها بالبحث والتحري والنقد والتحقيق» والواقع من الأمر أن كلمة التأريخ في اللغات الإفرنجية (History) تعني في أصل ما وضعت له باليونانية كما استعملها هيرودوتس لأول مرة (القرن الخامس ق.م) «بحث وتحقيق أو معرفة ما يحصل عليها بالبحث والتحري» ولكن استعملت هذه الكلمة كذلك في معانٍ أخرى منها سير الحوادث الماضية وتستعمل أحياناً بمعنى طريقة تدوين تلك الحوادث. وتستعمل كلمة تأريخ كذلك بمعنى زمن وقوع الحوادث. ومن الجدير ذكره بهذا الصدد أن ابن خلدون أول باحث أشار إلى أن التأريخ بحث ونظر ونقد (انظر المقدمة لمقدمته).

إن هذا القسم من الفصل مأخوذ بالدرجة الأولى من كتاب المؤلف:

«مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة»، الجزء الأول (1955) ص 3 فما بعد.

تاريخها وكيف وصلت إلى ما هي عليه الآن، كذلك يبحث المؤرخ في بقايا الماضي وآثاره ليستعين بها على معرفة الحاضر. والتاريخ مثل العلوم الأخرى له غرض وموضوع. وموضوعه البحث في أعمال البشر التي وقعت في الماضي. أو هو درس المجتمعات البشرية في المكان والزمان.

وإذا كان التأريخ علماً فينبغي أن يكون له مثل العلوم الأخرى منهج أو طريقة للبحث (Method)[1] يستطيع بها الوصول إلى مادته وحقائقه. ولكي نعرف شيئاً عن منهج التأريخ بصفته علماً نؤكد ما أشرنا إليه من اختلافه عن بعض العلوم الأخرى ولا سيما العلوم الطبيعية أو العلوم المضبوطة من حيث أنه لا يعتمد على التجربة لأنها مستحيلة في التأريخ، ولا يستفيد من الملاحظة المباشرة ولا من الدليل العقلي المجرد كما في الرياضيات بل إنه يبحث فيما خلَّفه الإنسان لمعرفة حاضر الإنسان. وإن مصادره ومادته الأولى بوجه العموم جميع ما خلَّفه البشر مما يمكن الاستفادة منها كالوثائق والسجلات والآثار المادية مما يعيننا على فهم حضارات الأمم وتقاليدها وأديانها ولغاتها وتفكيرها وغير ذلك من مقومات تلك الحضارات، وبعبارة موجزة معرفة البشرية والنفس البشرية، ولكن ليس النفس الفردية أو الشخصية التي هي موضوع علم النفس بل الطبيعة البشرية وإمكانياتها وحدودها، وماذا استطاع الإنسان أن يفعل وبالنتيجة ما هو الإنسان.

وإذا كان منهج البحث العلمي الذي أوجده الباحثون في العصور الحديثة قد أكسب التأريخ أهلية ليكون علماً إلا أنه لا يزال أمام المعترضين على كون التأريخ علماً، مجال للاعتراض بأن التأريخ لا يستطيع أن يجاري العلوم المضبوطة (Exact Sciences) في قدرتها على استنباط القوانين والنواميس من درس العلاقات بين الأشياء ومقارنتها، بحيث تستطيع أن تتنبأ بها عن المستقبل تحت شروط وأحوال معيّنة. أما مسألة التنبؤ (Prediction) فلا تقتصر على كونها غير ممكنة في

---

(1) ويسمى منهج التاريخ بالمانية (Die Historik) والإنجليزية (Historical Method) أو (Methodology).

التأريخ بل إنها خارج اختصاص بحثه، لأن دائرة البحث الخاصة بالمؤرخ كما قلنا حوادث البشر وتجاربهم في الماضي. وقد يحاول المؤرخ استناداً إلى خبرته التأريخية أن يقيس عليها فيحدس ما يقع في المستقبل ولكنه حتى لو صدق في حدسه فإن محاولته هذه ينبغي أن لا تكون بصفته مؤرخاً بحسب مفهوم موضوع التأريخ. أما عن وجود القوانين في التأريخ فيجيب عنه الباحثون المحدثون بأن التأريخ بصفته علماً من العلوم الاجتماعية يحاول جاهداً أن يكتشف القوانين والقواعد الكلية لتفسير حوادث التأريخ، ولكن لما تبلغ هذه القواعد مرتبة قوانين العلوم الطبيعية من الدقة والإطراد، ذلك لأن قانون العلية أو السببية (Law of Causality) في حوادث التأريخ متناهٍ في التعقيد. فإن الحادثة الاجتماعية مهما بلغت من البساطة إنما تقع بفعل سلسلة متشابكة من العلل بخلاف الوقائع الطبيعية التي يبحث فيها علماء الطبيعة حيث يكون واجبهم في درسها والعلاقات فيما بينها أمراً يسيراً لو قِيس بواجب المؤرخ الذي يكون موضوعه ليس أشياء جامدة بل أفعالاً صادرة من فاعلين يتصفون بالفكر والقصد والحوافز المعقدة. ولكن مع ذلك فمعظم حوادث التأريخ وأسبابها ليست فوضى أو حوادث فردية لا ضابط لها، وإنما تنشأ من معيشة الإنسان في مجتمعات أو أنظمة اجتماعية تسيطر على أفعالها قواعد الضرورة الاجتماعية والنواميس الاجتماعية العامة، وإلا لما أمكن وجود ما نسميه بعلم الاجتماع أو العمران الذي يدرس المؤسسات والأنظمة الاجتماعية دراسة مقارنة، ويستخرج لها القواعد الكلية التي يستفيد منها المؤرخ.

ثم إننا لعلى أمل وطيد في أن هذا النوع البشري الذي يسمى «بالإنسان العاقل» سيبرر أهليته لهذا اللقب فيجد في البحث عن نفسه والكشف عن أسرار المجتمعات البشرية بالدرس العلمي المقارن. وعندئذٍ فستتوطد قوانين التأريخ والعمران البشري على وجه ليس كما يتطرف البعض في تفسير حوادث التأريخ وليس كما يرتئي البعض الآخر من إنكار لإمكان استخراج القوانين فيه.

وبحسب المصادر التي يعتمد عليها التأريخ في جمع مادته تكون أولى خطوة منطقية في منهج البحث التأريخي جمع المصادر والأصول المتعلقة

ببحثه. ويصح أن نطلق على هذه الخطوة اسم «جمع الأصول»[1]. ومع أن هذه خطوة من خطوات المؤرخ غير أنها المرحلة الأساسية إذ، كما قيل، «لا تأريخ بلا وثائق». فإذا جمع المؤرخ ما يستطيع جمعه من مصادر بحثه وأصول مادته وكان على معرفة تامة بمادته وخبيراً بمصادره كخطوط الوثائق واللغات المكتوبة بها أو أطرزتها وأوصافها إن كانت من الآثار الفنية وبالاستعانة بالعلوم الموصلة[2]، فإنه يبدأ بخطوة ثانية من بحثه وهي مرحلة النقد (Die Kritik أو Criticim) أي نقد ما جمعه في الخطوة الأولى وتمحيص المصادر والوثائق التي جمعها وتحقيقها لمعرفة أصالتها وصحتها من خطئها وتزويرها ومعرفة مؤلفها وزمان كتابتها ومكانها، ثم تحري ما جاء فيها من معلومات ومدى مطابقتها إلى الحقيقة والواقع، فإن كانت من الوثائق المدونة، كالكتب، فيلزم معرفة تأريخها ومؤلفها ومبلغ أمانته وأوهامه. وقد يلزم تصحيح متن الوثائق التأريخية بإصلاح خطئها اللغوي وتكميل ما نقص منها، وذلك بمضاهاة الأصول المختلفة لهذه الوثائق. ويلي ذلك تمحيص مادة الوثائق

---

(1) وتدعى بالألمانية (Die Heuristik).

(2) العلوم الموصلة أو المساعدة وتسمى (Auxiliary Sciences) مجموعة من الطرق العلمية الفنية (Techniques) يستعين بها الباحث التأريخي في فهم مصادره وتقدير قيمتها تمهيداً لنقدها، وأشهر هذه الطرق علم الخطوط القديمة على الورق وما شابهه (Palaeography) كأشكال الخطوط المختلفة قبل اختراع الطباعة وأنواع الورق والحبر. والكتابة على الحجر والطين وما شاكل ذلك (Epigraphy) ومعرفة اللغات والتقويم (Chronology). ومن العلوم الموصلة علم النقود أو النميات (Numismatics) وعلم الأختام والطمغات (Sphragistics). وهناك علوم عامة تعتبر مساعدة للباحث التأريخي من حيث ثقافته العامة وسعة اطلاعه، نذكر من ذلك علم الآثار (Archaeology) وعلم الإنسان (Anthropology) وعلم الاقتصاد والجغرافية والاجتماع، والواقع من الأمر يصح أن نقول إن معظم العلوم والمعارف يمكن أن تكون علوماً مساعدة للتأريخ وسيمر بنا في القسم الثالث من هذا الفصل كيف أفاد الآثاريون والمؤرخون من معطيات بعض العلوم الطبيعية في ضبط أزمان الأدوار التأريخية.

Langlois and Seignbos, *Introduction to the Study of History,* (English Trans. 1912).

Vincent, *Historical Research* (1929).

بتحليل الحقائق الواردة فيها وترتيب موضوعاتها وتصنيف حوادثها. وبالإجمال لا تعدو المصادر المكتوبة أن تكون مثل شهادة الغير. ولذلك وجب على المؤرخ الباحث تمحيص هذه الشهادة وعدم قبولها على علّاتها. وبما أن الحوادث التأريخية وقائع حقيقية والحقيقة واحدة لا تتعدد فلا بدَّ أن يصل الباحث، هو بنفسه أو مَنْ يستدرك عليه، إلى تلك الحقيقة أو ما يقاربها على الأقل. وجلّ اعتماده في ذلك سبيل التحليل وتقصي الحوادث وموازنتها ومضاهاتها، وبوجه الإجمال يمكننا تحليل عملية النقد، التي هي عماد البحث التأريخي، إلى مرحلتين كثيراً ما تكونان متداخلتين، وهما مرحلة النقد الخارجي (External criticism) وتدور على البحث في المصادر للتأكد من أصالتها وصحتها ومعرفة مؤلفها وزمانه ومكانه، فليس كل الوثائق التأريخية صحيحة بل كثيراً ما يتطرق الشك إلى صحتها وأصالتها ومنشأ ذلك قد يكون التزوير المتعمد أو الأخطاء والأوهام الناشئة من النقلة والنساخ وكذلك من انعدام الخبرة والممارسة التأريخية ومن التسرع والسطحية، كما أن كثيراً من الوثائق تكون مخرومة غير معلوم مؤلفها أو زمان تأليفها فنستعين بطرق النقد الخارجي لتعيين المؤلف وزمانه ومكانه[1].

أما المرحلة الثانية من النقد فتسمى النقد الباطني أو الداخلي (Internal criticism) ومدار هذا النقد على وزن علاقة الوثيقة أو الدلالة التأريخية التي جمعناها بالحقيقة وواقع الحال، وقد تقسم هذه المرحلة أيضاً إلى شطرين يسمى أحدهما وأولهما بالنقد الباطني الإيجابي والثاني النقد الباطني السالب، الأول يتعلق بفهم نصوص الوثائق أي فهم لغتها وأساليبها

---

(1) ونذكر من طرق تعيين زمن الوثيقة على سبيل المثال طريقة تعيين الحدين الأدنى والأعلى في زمن الوثيقة بالنظر في الحوادث المذكورة فيها. فالحد الأعلى هو الزمن الذي لا يمكن أن تكون الوثيقة قد كتبت قبله (Terminus post Quem) والحد الثاني (Terminus ante quem) أي الزمن الذي لا يمكن أن تكون الوثيقة قد كتبت بعده. ومن ذلك نحصل بين هذين الحدين على تأريخ تقريبي للوثيقة المجهول زمن تأليفها.

وإدراك أغراض المؤلف وآرائه ثم ننتقل إلى الشطر الثاني من النقد وهو إثبات صحة المعلومات الواردة في تلك الوثائق أي تجريح المؤلف أو تعديله (الجرح والتعديل) من حيث صدقه وكذبه أو انخداعه وأوهامه وتحليل الظروف والأحوال التي كتبت فيها الوثيقة. والنقد الباطني بكلا نوعيه يسمى بالمصطلح اليوناني (Herneneutic) ومعناه النقد التفسيري أي التفسير والتحليل.

فإذا ما تم تحقيق الوثائق ونقدها إيجاباً وسلباً (الجرح والتعديل) فإن الباحث يخطو الخطوة الثالثة من خطوات البحث التأريخي ومدار هذه المرحلة على التأليف بين الحقائق وتركيبها (Historical Construction)، وتكون طرق التركيب والتأليف شطراً مهماً من منهج البحث التأريخي، فإن عمليات النقد التي أوجزناها لا تنتج لنا إلا حقائق منعزلة منفصلة بعضها عن بعض، فلكي نؤلف من هذه الحقائق المنفصلة المنعزلة مجموعة كاملة مفهومة من العلم والمعرفة فيلزم على المؤرخ أن يقوم بجهود أخرى لتركيب هذه الحقائق المنفصلة والتأليف فيما بينها بتصنيف الحقائق والمعلومات الواردة في الوثائق إلى أصناف وموضوعات متجانسة.

والذي يمكن قوله بوجه عام بصدد قواعد التأليف التأريخي إنه لا يمكن وضع خطة مثلى (ideal) على غرار مناهج العلوم المضبوطة التي نأمل أن يكون التأريخ مثلها، بل إن خطة عملنا تتوقف إلى حد كبير على المادة التأريخية التي تتوفر لدينا بعد جمع المصادر ونقدها. ولكي نفهم حدود خطة التأليف التأريخي يلزم علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار طبيعة الحقائق التأريخية المستخرجة من الوثائق، وطريقة استخراجها. فبحسب منهج البحث الذي أوجزناه تستخرج الحقائق التأريخية بتحليل الوثائق تحليلاً نقدياً (Critical analysis of documents) فتخرج لنا هذه الحقائق بعد عملية النقد وهي مغربلة منتقاة ولكنها بهيئة معلومات مجزأة فردية لا يجمعها نظام أو تأليف ما. فقد تؤدينا طرق النقد التأريخي إلى تجزئة الجملة الواحدة من الوثيقة إلى أجزاء نرفض بعضها ونقبل البعض الآخر. كما أن الوثيقة الواحدة، ولو كانت صغيرة، أو أن نصاً تاريخياً واحداً، قد يزودنا

بمعلومات متنوعة مختلفة. فتكون الحقائق التأريخية المستخرجة من الوثائق خليطة مزيجة، وهذا أحد الأمور الذي يميّز التأريخ من العلوم الأخرى، فمثلاً إن العلوم التي تعتمد على الملاحظة المباشرة (direct observation) تنتخب الحقائق التي تدرسها وتحصر همها في البحث المنظم في حقائق متجانسة. أما العلوم المعتمدة على النصوص والوثائق (documentary sciences) والتأريخ واحد منها، فإنها تأخذ حقائقها وقد سبقت مشاهدتها وملاحظتها عن طريق آخر غير طريقها، أي عن طريق مؤلفي الوثائق. فمن الضروري تصفية هذه الحقائق وتصنيفها تحت أصناف وأنواع مختلفة بحسب المواضيع التي يعالجها المؤرخ وبحسب القضايا والمسائل التي يبحث عن حلولها.

ولعل أقرب العلوم التي يمكن للتأريخ أن يسير على منهجها من ناحية جمع الحقائق وتصنيفها علم الحيوان الوصفي (Descriptive Zoology) الذي يبدأ بحثه بملاحظة الحيوان بكامله بالمشاهدة المباشرة ثم يشرِّح هذا الحيوان إلى أجزائه المختلفة. والتشريح هنا يقابل التحليل في طريقة التأريخ (أي (Analysis)) ثم يعمد إلى جمع الأجزاء المشرَّحة وتركيبها بحيث تكوّن الكل الأصلي وهذا هو التركيب الحقيقي (Synthesis)، وبوسع علم الحيوان أيضاً في مرحلة ثالثة أن يقارن هذا الشكل الذي كونه بعد التشريح مع أفراد أخرى من نوعه فيدرس أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها ويصنفها. فتكون خطوات علم الحيوان في استخراجه للحقائق: (1) الملاحظة والتحليل. (2) التركيب. (3) المقارنة والتصنيف. وبوسع التأريخ أن يسير على هذا المنهج إلى حدٍ ما على الوجه الآتي:

يمكننا أن نوجز تصميم التأليف أو التركيب التأريخي بجملة مراحل تركيبية (Synthetic):

أ ـ تخيّل الحقائق وتصورها في العقل: ـ يجهزنا تحليل الوثائق النقدي بالمادة اللازمة للبناء التأريخي. وهذه المادة عبارة عن حقائق تأريخية مضت وهي متفرقة ومنعزلة بعضها عن بعض. وبما أن المؤرخ، بخلاف عالم الحيوان، لا يرى شيئاً ملموساً سوى «الورق المكتوب»، وفي بعض الأحايين الآثار القائمة ونتاج

الفنون والصناعة، فيعمد المؤرخ لإدراك هذه الحوادث التي مضى إلى تخيّلها مفترضاً أنها تشبه حقائق الحاضر بوجه عام، محاولاً تكوين صورة عقلية تشبه بقدر الإمكان الحوادث الماضية التي استخرجها من الوثائق.

ب ـ جمع الحقائق وتنظيمها: وبعد أن نتخيل الحقائق ونكوّن عنها في أذهاننا صوراً عقلية نجمع فيما بينها ونضعها بموجب خطة نضعها بحسب موضوع بحثنا. ونعمد أيضاً في هذه المرحلة من التأليف التأريخي إلى تقسيم الحقائق إلى مجاميع وأجزاء متشابهة بحسب مواضيعها.

جـ ـ الاجتهاد (Reasoning): أو الاستنتاج التأريخي بطريق الاجتهاد، فإن الباحث كثيراً ما يجد أنه بالرغم ممّا جمعه من الحقائق فإنه لا يزال يجد أمامه فجوات عن وقائع الماضي لم تستطع الحقائق التي جمعها أن تزوده بها بصورة مباشرة، فعليه في مثل هذه الحال أن يحاول ملء بعض هذه الفجوات عن طريق الاجتهاد العقلي أو المنطقي بالاستناد إلى الحقائق التأريخية المعروفة لديه.

د ـ مرحلة الاستنتاج واستخراج القواعد العامة:

تساعدنا المراحل الثلاث السابقة على استخراج مجموعة من الحقائق أو المعرفة المصنفة بموجب خطة منظمة من التصنيف. فيبقى على الباحث أن يركز هذه الحقائق المصنفة ويعبّر عنها بقواعد أو دساتير (formulae) لاستنتاج خصائصها وميزاتها العامة وعلاقاتها بعضها ببعض، وخلاصة هذه المرحلة أنها تؤدينا إلى الاستنتاجات النهائية، وتجعل من بحثنا التأريخي بحثاً علمياً. وتدخل في هذه المرحلة من مراحل التركيب التأريخي أو يأتي بعدها تفسير الحوادث التأريخية أي تعليلها والبحث عن أسباب وقوعها. ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن منشأ الاختلاف بين المؤرخين ونشوء المذاهب المختلفة في تفسير التأريخ مرده إلى اختلاف وجهات النظر بين الباحثين في هذه المرحلة من منهج البحث التأريخي.

وبعد أن يتم الباحث جميع المراحل التي لخصناها فيما سبق يبدأ في المرحلة النهائية من مراحل بحثه وهي مرحلة التأليف والتدوين أي تبويب مادته

وعرضها عرضاً فنياً صحيحاً مستساغاً[1]. ولأن هذه المرحلة الأخيرة تعتمد الأدب والفن كثيراً عدّ الناس التأريخ فناً أو فرعاً من فروع الأدب ولسنا بحاجة إلى التأكيد على خطل هذا الرأي لأن الأدب في الواقع إنما اتخذ وسيلة للعرض والتدوين التأريخي وأنه حتى في هذه المرحلة التي يدخل فيها الأدب يجب على مؤلف التأريخ أن يستعين بالأسلوب المنطقي في طريقة عرض مادته. ولعل خير ما يُقال بهذا الصدد «إن أحسن تأريخ يكتب للناس هو ذلك التأريخ الذي اعتمد على الطرق العلمية من البحث التأريخي في جمع مادته وعلى الأدب والفن في عرض تلك المادة».

ومن الملاحظات المهمة التي يجدر أن نعرفها عن التأريخ ومنهجه، وقد

---

(1) يسمى فن التدوين التأريخي بـ (Historiography). وطرق التدوين الشائعة عند المؤرخين محصورة في ثلاثة أساليب: ـ أولها نظام الحوليات (annals) وهي أشبه ما تكون عند البابليين والمصريين القدماء. واستعملها مؤرخو العصور الوسطى في أوروبا وهي ذكر الحوادث المعاصرة عاماً بعد عام وكانت في أول أمرها تافهة لا تعدو مجرد مذكرات لتقييد الحوادث المعاصرة تدون بهيئة تعليقات على التقاويم الدينية الخاصة بالأعياد. وأغلب هذه الحوادث لا تعدو الحوادث الدينية كالخوارق، وحدوث الزلازل إلى غير ذلك، ولكن ترقّت الحوليات في أواخر العصور الوسطى وأصبحت سجلات سنوية مهمة. ومما لا شك فيه أن التحسن الذي طرأ على هذه الطريقة من التدوين كان بتأثير مؤرخي العرب. والطريقة الثانية هي التأريخ التي يصطلح عليها اسم (Chronicles) وهي أرقى من سابقتها إذ إنها تدور على عرض الحوادث عرضاً أتم وأوفى مما في الحوليات بيد أنها احتفظت بالترتيب المتبع في الحوليات أي ترتيب الحوادث وعرضها على السنين ويبدأ بها عادة منذ الخليقة حتى وقت الكتابة وقد تأثرت أوروبا بمؤرخي العرب المسلمين فترقى عندها هذا الفن من التأليف التأريخي. ويظن أن أول من بدأ هذا النمط في عرض مادة التأريخ الهيثم بن عدي المتوفى عام 207 للهجرة ثم جرى عليها الطبري وابن مسكويه وابن الأثير. أما الطريقة الثالثة وهي التي عليها معظم المؤرخين الآن فهي عرض الحوادث وسوقها مساق القصة المرتبة على العهود التأريخية دون السنين. وقد جرى على هذه الطريقة من مؤرخي العرب اليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن خلدون وغيرهم وانتهى أمر التأريخ عند العرب بأن أوصله المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون إلى مرتبة العلم وإلى مفهومه في الوقت الحاضر فهو بذلك كما لقبه بعض العلماء «يعد واضع علم التأريخ» انظر:

R. Flint, *History of the Philosophy of History* (1893) pp. 157-171.

سبق التنويه بها، أن التأريخ يشارك العلوم الأخرى بوجه عام. فالعلوم كلها تقريباً لا تقتصر في بحثها على جمع المعلومات التي تصل إليها بالبحث والتحري وجمعها وتنظيمها بموجب طراز أو شكل خاص وإنما تتعدى ذلك إلى الكشف عن الشيء المجهول، أي الأشياء التي نجهلها. وإذا كان التأريخ يشارك العلوم الأخرى في هذا الأمر فإنه يفترق عنها ولا سيما عن العلوم الطبيعية في مسألة مهمة. فوظيفة العالم الطبيعي درس حوادث الطبيعة ومظاهرها، وهذه ليست أعمالاً صادرة من فاعلين كالحوادث التأريخية، يحاول العالم الطبيعي فهم قصدهم وفكرهم على نحو ما يفعل المؤرخ الذي يجهد في الكشف عن الفكر والقصد من وراء أعمال البشر التي حدثت فيما مضى. وهذا فرق جوهري بين المؤرخ وبين العالم الطبيعي، بين التأريخ وبين العلم الطبيعي. وثمة فرق آخر هو أن العالم الطبيعي مع عدم محاولته لفهم القصد والفكر وراء الظواهر الطبيعية التي يدرسها إلا أنه يدرس علاقات هذه الظواهر بعضها ببعض ويستطيع من بحثه المقارن أن يضع الأشياء التي يبحث فيها في قانون أو دستور هو القانون العلمي، أي وجود القوانين والدساتير في العلم ولكن التأريخ لم يستطع بعد أن يضع لأعمال البشر قوانين ودساتير مضبوطة مطردة عامة تسير بموجبها. وكل ما استطاع أن يفعل هو محاولات لوضع قواعد عامة لما تبلغ درجة الضبط والدقة والاطراد مما تمتاز به دساتير العلوم المضبوطة كما ذكرنا ذلك من قبل.

ما جدوى درس التأريخ القديم:

والتأريخ القديم بوجه عام (ما قبل التأريخ والعهد التأريخي منه) قصة تطور الإنسان منذ أقدم عهوده. فهو يحدثنا كيف كانت حياة الإنسان الأولى عندما كان في عهد الفطرة والتوحش، ثم كيف استطاع بعد ألوف كثيرة من السنين أن ينتقل من ذلك الحال فينشئ أولى الحضارات الناضجة ولا سيما في وادي الرافدين ووادي النيل، ويحدثنا كذلك عن الحضارات الأخرى المتأثرة بهاتين الحضارتين، ويدلنا على تراث هذه الحضارات في حضارة الإنسان الراهنة.

وخلاصة القول يعيننا التأريخ القديم على فهم حاضر الإنسان وكيف وصل إلى ما هو عليه ويكشف لنا عن الأصول الأساسية لتراث البشرية منذ أقدم العصور وبذلك تكون دراسة التأريخ القديم ضرورة لازمة لفهم التأريخ الحديث وفهم حاضر الإنسان.

وبوسعنا أن نقرب إلى مداركنا الفوائد التي تجنيها البشرية من معرفة ماضيها (أي تأريخها) بقولنا إن التأريخ بمثابة الذاكرة للجنس البشري. أو كما قال «درويسن» «التأريخ (اعرف نفسك) مضافاً إلى البشرية وهو ذاكرتها وشعورها»[1] فكما أن ماضي الفرد منا تؤثر تجاربه وخبراته الماضية في سيره في حاضره، كذلك يؤثر ماضي البشرية في حاضرها. وإذا لم يكن للبشرية ذاكرة كما للفرد فإن التأريخ هو «ذاكرتها وضميرها».

وعندما كثرت معلومات الباحثين ومعرفتهم بحضارات البشر الغابرة بعد أن كشفت التنقيبات الأثرية عن عدد كبير منها، تمكن الباحثون في العمران البشري بفضل هذه المادة المتكاثرة من البحث في سنن نشوء الحضارات وعلل نموها وأسباب توقفها عن النمو وركودها ثم عوامل انحلالها وزوالها. فنشأ فرع من فروع المعرفة على قدر عظيم من الأهمية، هو فلسفة التأريخ، وعلم الحضارات والعمران بدرس الحضارات درساً مقارناً. وقد تكونت من الباحثين مدارس فكرية مختلفة اختصت كل منها بفلسفة خاصة أو بنظرية وآراء لتعليل نشوء الحضارات والعمران البشري. ومن البديهي أن يكون التأريخ القديم المصدر الأساسي، الذي تستمد منه هذه البحوث والدراسات مادتها الأولية. وبوسعنا أن نؤكد القول إن المادة المتكاثرة عن الحضارات البشرية المندرسة قد مكّنت فلاسفة التأريخ والباحثين في العمران من أن يصلوا إلى نتائج خطيرة، بما أمدتهم هذه المادة الجديدة من كثرة الأمثلة للموازنة والمقارنة، مما جعل هذا الفرع من المعرفة يقوم على أساس جديد من الدقة والشمول ومقاربة الصواب في الاستنتاج. ومما لا شك فيه أن الفارق بين الأوائل من

---

(1) An Outline of Modern Knowledge (1932); p. 807.

فلاسفة التأريخ وأولهم المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون، والمتأخرين منهم ينحصر، بغض النظر عن التفاوت في القابليات والمدارك، في كثرة المادة التي صارت في متناول أيدي المتأخرين منهم وقلتها عند الأوائل منهم. فعندما بحث المؤرخ العربي ابن خلدون في سنن العمران لم يكن في متناول يده غير مادة قليلة، لأن الحضارات التي استعملها مادة لبحثه كانت مقتصرة على الحضارة العربية الإسلامية وحضارات أمم أخرى قليلة لم يكن على معرفة تامة بها. ولكن عندما بحث المتأخرون من أمثال «شبنكلر» و«توينبي» في الموضوع نفسه كان لديهم قدر كبير من المادة التأريخية لا يصح مقارنتها مع ما كان متوفراً لابن خلدون. فقد استعمل «توينبي» مثلاً في مادة بحثه تواريخ أمم وشعوب كثيرة صنفها إلى حضارات أو مجتمعات عدد منها ستاً وعشرين حضارة من حضارات البشر وكان الفضل في معرفة القسم الأعظم من هذه الحضارات يرجع إلى التنقيبات الآثارية التي بدأها العلماء منذ القرن الماضي أي يرجع الفضل بتعبير آخر إلى التأريخ القديم.

مصادر التأريخ القديم:

مادة التأريخ بوجه عام، والتأريخ القديم بوجه خاص، مستمدة من كل ما خلفه الإنسان. وهذا كثير متنوع إذ يشمل جميع آثار الماضي وبقاياه مما يساعدنا على فهم ذلك الماضي لتوضيح الحاضر وفهمه. وقبل أن يهتدي الإنسان في العراق ومصر إلى اختراع الكتابة، تقتصر مصادرنا على آثار الإنسان المادية، وهي التي خلفها لنا في المواضع التي حلّ وسكن فيها كأدواته المصنوعة من الحجارة والخشب، وبيوته وحلاه والنقوش والتصاوير التي نقشها في سقوف الكهوف التي عاش فيها في العصور الحجرية القديمة وكذلك عظامه وعظام الحيوانات التي اصطادها، وبقايا النبات والمعلومات الجيولوجية مما يتعلق بأحوال المناخ والبيئة التي عاش فيها. وعندما اهتدى الإنسان إلى استنباط الكتابة أضيف مصدر جديد إلى الآثار المادية ونعني بذلك السجلات والوثائق المدونة كسجلات الملوك والأمراء التي خلفها لنا العراقيون

والمصريون الأقدمون وكذلك المعاملات وشؤون الحياة المختلفة التي دونها الناس على ألواح الطين والحجر وورق البردى وعلى الجلود والمعادن. وقد جاءتنا من هذه الوثائق نماذج كثيرة من مختلف العهود. وكثرت المصادر المادية في العصور التأريخية وتنوعت فشملت فن العمارة كالمباني العامة من قصور ومعابد وبيوت وكذلك الآثار الفنية كالمنحوتات والصور إلى غير ما هنالك من آثار الفن التي يجدها المنقبون في مدن العراق القديمة الدارسة وغيره من أقطار الشرق الأدنى.

ولكن لم يستطع الباحثون أن يقفوا على هذه الآثار والبقايا بيسر وسهولة، كما قد يتبادر إلى الذهن، لأن جميعها تقريباً كان مطموراً تحت التراب في باطن التلول والأطلال الكثيرة التي نشاهدها الآن منبثّة في جميع أنحاء العراق والتي كانت مدناً ازدهرت في الأزمان الخوالي، وفي باطن الكهوف وشطآن الأنهار في حالة العصور الحجرية القديمة. وقد تطلب استخراج هذه الآثار جهوداً مادية وعلمية كبيرة، وتطلب فهمها ودرسها جهوداً علمية أخرى. وصارت كيفية استخراج الآثار بالطرق العلمية علماً خاصاً هو التنقيب توفر على الاختصاص به جماعة مخصوصة من العلماء، وسنوجز الكلام على تأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية في القسم التالي من هذا الفصل.

ثانياً: «تأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية»:

1 ـ مصادرنا عن تأريخ العراق القديم مما قبل القرن التاسع عشر:

نوَّهنا في القسم الأول من هذا الموضوع كيف أن التنقيبات والتحريات الآثارية هي الوسائل العلمية التي ينبغي للمؤرخ والباحث في حضارة وادي الرافدين أن يعتمد عليها لأنها، كما ذكرنا، هي التي تمد الباحث بمصادر بحثه الأصلية، سواء كانت وثائق كتابية أم البقايا الأثرية المادية على اختلاف أنواعها. على أن التنقيب والكشف عن مخلفات حضارة وادي الرافدين لم يبدأ في العصر الحديث إلا منذ منتصف القرن الماضي. أما ما قبل هذا الزمن

فلم يكن ليعرف عن مدنيات الشرق والعراق القديمة سوى أخبار ونتف متفرقة ورد بعضها في الكتب المقدسة ولا سيما أخبار التوراة، وروايات المؤرخين الكلاسيكيين (اليونان والرومان) من أمثال هيرودوتس وزنيفون وغيرهما ممن سنذكرهم بعد قليل.

وتأتي التوراة في مقدمة مصادرنا عن العراق القديم قبل الكشف عن آثاره عن طريق التنقيبات، فقد حوت أسفارها طائفة من الأخبار عن بلاد ما بين النهرين وتأريخها، بنتيجة التأثيرات الحضارية التي خلفتها حضارة وادي الرافدين في العبرانيين الذين اقتبسوا منها أشياء كثيرة في حقل الأساطير والقصص والمعارف فضمنوها في توراتهم منذ بدء الخليقة. وإلى هذه التأثيرات الحضارية نشأت بين العبرانيين وسكان وادي الرافدين القدماء صلات مباشرة، اتسم معظمها بالعداء والبغض من جراء الضربات الشديدة التي وجهها الملوك الآشوريون على العبرانيين، ولا سيما في عهد الأمبراطورية الآشورية الأخيرة، مما جعل مدوني أسفار التوراة يفردون فصولاً مطولة عن تلك العلاقات (راجع بوجه خاص سفر الملوك الأول والثاني وأسفار الأنبياء)، وكذلك يقال في علاقات اليهود بالأمبراطورية البابلية الكلدانية، ولا سيما الملك «نبوخذ نصر» الثاني المشهور (605 ـ 562ق.م) الذي أزال الدولة اليهودية من الوجود ودمر أورشليم، وكان صاحب السبي المشهور (596 و586ق.م)، وما استتبع ذلك السبي من بقاء اليهود في بلاد بابل ردحاً من الزمن فازدادت تأثيرات حضارة وادي الرافدين فيهم، بحيث إن أسفار التوراة التي جاءت إلينا في شكلها الأخير إنما تمّ تدوينها في بلاد بابل (ما بين القرنين السادس والخامس ق.م) ودون التلمود اليهودي المعروف بالتلمود البابلي في بلاد بابل (القرن السادس الميلادي).

ومع أننا الآن في وضع يمتاز بوفرة المصادر عن حضارة وادي الرافدين بيد أن أخبار التوراة لا تزال من المصادر التي يمكن الرجوع إليها بشرط تطبيق أصول النقد التأريخي عليها، والنظر بعين الاعتبار إلى تعصب مدوني التوراة وتحيزهم والتشهير بأعدائهم من ملوك بابل وآشور.

المصادر الكلاسيكية:

أما الأخبار الواردة في المصادر الكلاسيكية فتأتي في مقدمتها أخبار «هيرودوتس» (في حدود 480ـ425ق.م) الملقب بأبي التأريخ. وكان أول من استعمل مصطلح «هستوريا» (Historia) للتأريخ وأصل كلمة تأريخ في معظم اللغات الأوروبية. ومن ناحية موضوعنا كان تأريخ هيرودوتس أقدم الكتب التأريخية، على أن الإفادة من أخباره عن أحوال العراق القديم لا تتم إلا من بعد نقدها، ويدخل في ذلك التعرف على شخصيته وطريقة روايته للأخبار والحوادث، فهو مولع بسرد القصص والحكايات والأساطير خالطاً إياها في كثير من الأحايين بالأخبار التأريخية بدون أن ينبه على الحد الفاصل ما بين الاثنين. كما توجد شكوك في أن هيرودوتس قد زار في الواقع بلاد بابل، بل إن الأخبار التي ذكرها عنها استقاها بالدرجة الأولى من مشاهدين آخرين، فقد ورد فيها اضطراب في الوصف مثل تسميته لبلاد بابل آشور، مع أن المصطلحين كانا معروفين لدى اليونان. كما وردت مبالغات في وصف مدينة «بابل» في قياس أسوارها وبعض أبنيتها. ومع كل هذه الهنات يجد القارئ لأخبار هيرودوتس عن العراق القديم[1] طرائف ممتعة، في وصف بعض مدنه وأنهاره، ولا سيما مدينة «بابل» في العهد الفارسي الأخميني (539ـ331ق.م) حيث كانت معابدها وبرجها الشهير وقصورها لا تزال قائمة.

---

(1) سمى هيرودوتس الأجزاء المتضمنة مؤلفه في التأريخ، وعددها تسعة أجزاء، بأسماء الآلهات أو الحوريات الخاصة بالموسيقى والغناء والشعر والتأريخ، وعددهن تسع آلهات (Muses) بحسب الأساطير اليونانية. ويجد القارئ الأخبار الخاصة ببلاد ما بين النهرين في الجزء الأول المسمى باسم آلهة التأريخ «كيلو» (Clio). وقد ترجم تأريخ هيرودوتس عدة ترجمات إلى اللغات الأوروبية المختلفة، ومنها ترجمة «جورج رولنصن»:

G. Rawlinson, *The Hidtory of Herodotus* (Every Man's Library, 1910).

وعن هيرودوتس وتأريخه بوجه عام نختار من الدراسات الكثيرة:

J. L. Myres, *Herodotus, Father of History* (1953).

وعن وصفه لبلاد بابل:

W. Baumgartner. «Herodotus Babylonische und Assyrische Nachrichten», in *Archiv Orientalni*, (1950). 69ff.

وعاصر «هيرودوتس» في أواخر حياته المؤرخ المسمى «زينفون» (430ـ355ق. م) الذي دوَّن طائفة مهمة عن أخبار العراق والأمبراطورية الفارسية الأخمينية بوجه عام. وكان قد التحق في آسية الصغرى بحملة «كورش» الأصغر، حاكم ولاية «ليدية»، وأخو الملك الفارسي «ارتحشتا» الثاني (Artaxerexes) (404ـ359ق. م)، وقد ثار «كورش» عليه وجرد حملة عسكرية معظمها من مرتزقة الإغريق، عرفت «بحملة العشرة آلاف إغريقي» (401ق. م)، وبعد فشل الحملة قاد «زينفون» فلول الإغريق في تقهقرهم وعودتهم من العراق إلى الأناضول، وخلف لنا أخبار هذه الأحداث وضمنها وصفاً للعراق والمدن والأماكن التي مرّ بها، وتعد أخباره أوثق من أخبار هيرودوتس[1].

ومن المؤرخين اليونان المشهورين نذكر «پوليبيوس» (Polybius) (202 ـ 120ق. م) الذي ألّف في تأريخ الرومان وذكر أحوال عالم البحر المتوسط وأحداثه التأريخية. والمرجح أنه كان أول من استعمل مصطلح «ميزوپوتامية» (ما بين النهرين) لإطلاقه على الجزء الأوسط والشمالي من أرض الرافدين.

ومن الكتَّاب الكلاسيكيين الذين يجدر ذكرهم الجغرافي الشهير «سترابو» أو «سترابون» (Strabo. Strabon) (في حدود 64ق. م ـ 19م) الذي اشتهر بمؤلفه عن جغرافية العالم الموسوم (Geographica)، وقد جاء بسبعة عشر جزءاً، وصف فيها الأقاليم المعروفة آنذاك، ومنها بلاد بابل وآشور[2]. وقد اقتبس من جملة مؤلفين سبقوه كما يخبرنا، منهم الكاتب اليوناني الشهير «اراتوسثينس» (Eratosthenes) الذي كان من مواليد المدينة الشهيرة «قورينا» (Cyrene) (منتصف القرن الثالث ق. م)، وتعرف بقاياها الآن باسم «شحات»

---

(1) يسمى كتاب «ينيفون» بحملة «ينيفون» (Anabasis):
Xenophon Anabasis: The Expedition of Cyrus the Younger.

(2) ترجم كتاب «سترابو» في الجغرافية عدة ترجمات منها:
H. L. Jones, *Strabo, Geyraphy.*

في إقليم برقة بليبيا، واشتغل في مكتبة الاسكندرية الشهيرة، وألّف في موضوعات مختلفة منها الجغرافية ولكن لم تأتنا مؤلفاته الأصلية إلا بطريق الاقتباسات منها. واستقى أيضاً من الجغرافي المسمى «بوزيدونيوس» (Poseidones) من مواليد مدينة «أفامية» (في بلاد الشام) (135ق.م).

وجاء في جغرافية «سترابو» أشياء مفيدة عن بلاد العرب ومصر وبلاد بابل ولا سيما مدينة بابل التي ذكر عنها أنها كانت مدينة مهجورة تقريباً (الجزء السادس عشر من جغرافيته، الفقرة الخامسة)[1]، ولكن مع ذلك يصف أحوالها الماضية، وأسوارها المشهورة وجنائنها المعلقة التي يذكرها بالمصطلح الإغريقي (Kremastos Kepos).

ونذكر أيضاً المؤرخ الشهير «ديودورس» الصقلي (Diodorus Sicouly) (40ق.م ـ ؟) الذي ألّف كتابه في تأريخ العالم وعنونه باليونانية (Bibliotheke Historike)، وقد جاء في الجزء الثاني منه وصف بلاد بابل ومعبد الإله «مردوخ» (بيل)، ووصف الجنائن المعلقة وأن الملكة «سميراميس» هي التي شيَّدتها.

ودوّن المؤرخ الروماني المسمى «كورتيوس روفس» (Curtius Rufus) (القرن الأول الميلادي) تأريخ الإسكندر، تطرق فيه إلى وصف بلاد بابل ومنها مدينة بابل ووصف جنائنها المعلقة وسمّاها بالمصطلح اللاتيني (Pensiles Horti).

واشتهر الكاتب الروماني «بليني الأكبر» (Pliny) (23 أو 24 ـ 79م) بمؤلفاته التأريخية والجغرافية، أشهرها كتابه المعنون «التأريخ الطبيعي» وباللاتينية (Naturalis Historia)، الذي وصف فيه جغرافية القارات المعروفة في زمنه وعادات أهلها ومواردها، وذكر أشياء مهمة عن العراق ولا سيما أنهاره وعيَّن منابع النهرين بصورة مضبوطة كما ذكر أحوال الري والملاحة، وأن دجلة والفرات كانا يصبان كلاً على انفراد في البحر وأن المسافة ما بين مصبيهما

---

(1) ترجم كتاب «سترابو» في الجغرافية عدة ترجمات منها:

H. L. Jones, *Strabo, Gegraphy.*

نحو (25) ميلاً. ووصف كذلك بعض المدن القديمة التي بقيت في زمنه مثل «سلوقية» (تل عمر الآن مقابل طاق كسرى على دجلة) ومدينة «أرتميتا» والوركاء (أورخوى (Orchoi))، وطيسفون وغيرها.

وجاءت في كتاب المؤرخ اليهودي «جوزيفس» (Flavius Josephus) (37 ـ 100م) عن تأريخ اليهود والحرب الرومانية ـ اليهودية نتف عن أخبار بلاد بابل ولا سيما وصف جنائنها المعلقة التي سمّاها (Pensile Paradise).

ووردت اقتباسات كثيرة في مؤلفات الكتّاب الكلاسيكيين من كتاب الكاهن البابلي الشهير «بيروسس» (Berosus) الذي ألف باليونانية عن تأريخ بلاد بابل في عهد الملك السلوقي «سلوقس» الأول (مطلع القرن الثالث ق.م)، ولكن كتابه فقد ولم يبق من محتوياته سوى الاقتباسات التي نوَّهنا بها[1].

ومن الكتاب الرومان الذين يجدر التنويه بهم الكاتب المسمى «أريان» (Arrian) (95ـ175م) الذي اشتهر بمؤلفه عن حروب الإسكندر الكبير في كتابه المعنون «حملة الإسكندر» (Anabasis of Alexander) وجاءت فيه طائفة من الأخبار عن بلاد بابل وبلاد الهند والاستكشافات البحرية التي قام بها قائد الإسكندر «نيرخش» (Nearchus) في الخليج العربي والبحر الهندي؛ وقد سبق أن نوَّهنا في أول المقدمة الجغرافية عن أسماء القطر التأريخية باحتمال ظهور استعمال المصطلح الجغرافي «ميزوپوتامية» (ما بين النهرين) في عهد الإسكندر. ونذكر كذلك الجغرافي والفلكي اليوناني الشهير «بطليموس» (Claudius Ptolemaeus) الذي عاش في الإسكندرية في حدود منتصف القرن الثاني الميلادي، وألف باليونانية في الفلك والرياضيات والجغرافية، واشتهر من مؤلفاته كتاباه الموسوم أحدهما «نظام الرياضيات» (Mathematike Syntaxis)

---

(1) عن المؤرخ «بيروسس» راجع:

Schnabel, *Berosos und die Babylonische Hellenistische Literatur* (1923).

وتحت مادة (Berosos) في المرجع المرموز له بـ *RLA*, I.

وقد ضمنه خلاصة المعارف والنظريات الفلكية في عصره، وهو الذي ترجم إلى العربية بعنوان «المجسطي» (الكتاب العظيم)، وكتابه الثاني في الجغرافية (Geographike Huphegesis) والحق به جداول مهمة بأسماء الأمكنة ومواضعها بخطوط الطول والعرض وخرائط مطولة عن العالم القديم المعروف آنذاك، وبضمن ذلك بلاد ما بين النهرين ومدنها[1].

وننوّه أيضاً بالكاتب الروماني «كلوديوس اليانوس» (Claudius Aelianus) من أهل القرن الثاني الميلادي الذي روى في جملة ما روى قصة طريفة عن البطل الشهير «جلجامش» وسمّاه «كل كاموس»[2]. وعن أحوال العراق في العهد الساساني نذكر المؤرخ البيزنطي «أميانوس مركلينيوس» (Ammianus Marcellinus) من أهل القرن الرابع الميلادي، وقد دوّن في تأريخه الشهير أخبار حملات الأباطرة الرومان «جوليان» (360 ـ 363م) وجوفيان (363ـ 364م) وفلنتيان الأول (364 ـ 375م) على العراق والأجزاء الأخرى من الأمبراطورية الساسانية[3].

ونذكر من المؤرخين الكلاسيكيين «يوسيبيوس» (Eusebius) (265 ـ 340م) الذي كان بطرك قيصرية في فلسطين ومؤلف كتاب «الأخبار» باليونانية، وقد ترجمه القديس «جيروم» إلى اللاتينية، وجاء فيه جملة اقتباسات مهمة من المؤرخ البابلي «بيروسس» الذي سبق أن ذكرناه. ومنهم أيضاً الكاتب البيزنطي الملقب بالدمشقي الذي عاش في زمن الأمبراطور البيزنطي «جستنيان» (527 ـ 565م) وقد روى جانباً مهماً من أسطورة الخليقة البابلية.

---

(1) عن جغرافية بطليموس ومؤلفاته الأخرى انظر:

Stevenson, Claudius Ptolemy, Geography.

وراجع المتن تحت ثبت «بطليموس»، وهو ما يسمى «قانون بطليموس» المتضمن أسماء ملوك بابل وآشور منذ القرن الثامن ق.م إلى منتصف القرن الثاني الميلادي.

(2) انظر ملخصها في ملحمة «جلجامش»، ترجمة طه باقر، (الطبعة الثانية 1971).

(3) عن «أميانوس مركيلينيوس» أو «مرشيلينيوس» راجع:

Yonge, *Ammianus Marcellinus* (1911).

ونختتم هذا العرض الموجز بالتنويه بالمؤرخين الآراميين (السريان) من أمثال «ثيودور برخوني» (893م) الذي ذكر ثبتاً بأسماء ملوك بابل، وكذلك الأخبار الطريفة التي وردت في كتب المؤرخين والبلدانيين العرب، ولا سيما أحوال العراق في عهوده الأخيرة وبالأخص العصر الساساني (7/ 226 ـ 637م) حيث تكون الأخبار التأريخية مما يعتمد عليها لقرب العهد.

أخبار الرحالة والسياح:

قبل أن تبدأ التحريات والتنقيبات الفعلية عن بقايا حضارة وادي الرافدين منذ منتصف القرن التاسع عشر بدأ الغرب يتعرف على أحوال العراق وبلدان الشرق الأدنى بوجه عام وعلى البقايا الأثرية فيها عن طريق أخبار الرحالة الأوروبيين الذين شرعوا يؤمون الشرق منذ القرن الثاني عشر الميلادي؛ ويمكن تحديد بداية هذه الرحلات في زيارة السائح اليهودي «بنيامين التطيلي» (1160م)، كما يمكن إنهاء طور الرحلات ببداية أولى تحريات آثارية على أيدي الهواة وقناصل الدول الأجنبية من أمثال «بوتا» و«ليرد» و«رولنصن» منذ عام 3/ 1842 وبالنسبة إلى الموضوع الذي بين أيدينا لا يخفى ما لأثر مثل أولئك الرحالة والسياح في جعل العالم المتمدن يطلع على بقايا حضارات الشرق القديم وآثاره، وإثارة الرغبة في القوم لمعرفة ماضي هذا الشرق، لا سيما وأن كثيراً من مدنه القديمة ذات صلة وثيقة بأخبار التوراة وبتأريخ الديانتين العبرانية والمسيحية، بالإضافة إلى الأطماع السياسية والاقتصادية. وسنرى مما سنوجزه عن أخبار أولئك السياح كيف أن بعضهم نقل إلى أوروبا نماذج من آثار العراق، من بينها تلك الكتابة الغريبة التي سميت بعدئذٍ بالكتابة المسمارية؛ كل هذا وغيره مهد السبيل للشروع بالتنقيبات الفعلية وحل رموز الخط المسماري في منتصف القرن الماضي. ولذلك فيحسن أن نورد نبذاً عن مشاهير أولئك الرحالة والسياح والتنويه بإسهام المشهورين منهم في تعريف مدن العراق وآثاره إلى العالم الحديث.

بنيامين التطيلي:

يرجح أن يكون «بنيامين» التطيلي[1] الذي سبق ذكره أول سائح أمَّ العراق من الغرب (اسبانية) في العام 1160م، وكانت زيارته في زمن الخليفة العباسي المقتفي بالله (530 ـ 555هـ/ 1160 ـ 1170م) وخلافة المستنجد بالله (555 ـ 566هـ). وسلك في رحلته طريق إيطاليا واليونان وقبرص ثم فلسطين وانتهى به المطاف إلى العراق وبلاد فارس، وقد خصص مذكراته بالدرجة الأولى لوصف أحوال الجاليات اليهودية في الأقطار التي زارها ولا سيما يهود العراق. وإلى هذا وصف ما شاهده من أطلال بعض المدن القديمة مثل نينوى وبابل، وعين موقع المدينة الأولى بالنسبة إلى الموصل، وزار بقايا بابل التي قال عنها إنها تمتد مسافة ثلاثة أميال، ووصف الخرائب التي سمّاها قصر «نبوخذ نصر»، وأكد أنه شاهد «برج» بابل المشهور، وارتقى السلالم الملتوية التي يرقى بها إلى القمة، وفسّر ما شاهده من بقايا الآجر المنصهر (صخريج) بأنها من أثر صاعقة ضربت البرج. إن هذا الوصف ينطبق على بقايا البرج المسمى «برس نمرود» (بورسبا القديمة جنوب بابل بنحو 20كم) وليس على برج بابل. وعندما ترجمت رحلته إلى الفرنسية والإنجليزية أثارت الاهتمام بين المؤرخين في أوروبا، ووضعت في متناول أيديهم وصفاً لشاهد عيان عن بقايا مدن يعرفون أسماءها وطرفاً من أخبارها مما ورد عنها في التوراة وأخبار المؤرخين اليونان والرومان.

بترو ديلا فاله:

وتعاقب من بعد «بنيامين» التطيلي في زيارة العراق جملة رحالة وسياح كتبوا عنه، نذكر من مشاهيرهم العالم الطبيعي والطبيب الألماني «راوولف» (Rauwolf) من أهل القرن السادس عشر.

---

(1) «بنيامين» بن يوحنا «رابي» تطيلة (Tudela) في مملكة «نافار» (Navarre) ولم تنشر أخبار رحلته إلا في القرن السادس عشر حيث ترجمت من بعد ذلك إلى اللغات الأوروبية المختلفة، وترجمها إلى العربية الأستاذ «عزرا حداد».

وزار العراق في مطلع القرن السابع عشر نبيل إيطالي اسمه «بترو ديلا فاله» (Pietro Della Valle)؛ وقد استغرقت رحلته في بلدان الشرق والعراق من عام 1616 إلى عام 1625، فزار بقايا بابل (1616) وبقايا «أور» (1625) وهو في طريق عودته إلى بلاده عن طريق البصرة. وكان على ما يرجح أول رحالة أوروبي زار بقايا «الأخيضر» الشهيرة ووصفها، كما زار المدينة الفارسية القديمة «برسيبوليس» (اصطخر) وجلب منها أولى نماذج من الخط المسماري الغريب، كما أخذ معه آجراً مختوماً بهذا الخط من بابل و«أور».

وتلا «ديلا فاله» سياح آخرون في القرن السابع عشر نذكر من مشاهيرهم السائح الفرنسي «ثفينو» (Thevenot) الذي زار العراق وبغداد في ولاية «قرة مصطفى» (1664)، ووصف بغداد وذكر نتفاً عن بعض البقايا الأثرية، والرحالة الفرنسي «تافرنيه» في القرن نفسه[1].

رحالة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر:

صادف حب التطلع والاهتمام اللذين أثارتهما أخبار أمثال أولئك السياح والرحالة ظهور ما يعرف في تأريخ أوروبا بالحركة «الرومانطيقية» التي اتصفت من جملة ما اتصفت به بالرغبة في الوقوف على أخبار الماضي واستكشافات المجهول من الأقاليم، فنشطت الأكاديميات والمؤسسات العلمية الأوروبية في إرسال البعثات إلى أنحاء الشرق، وكانت أول بعثة من هذا النوع البعثة الاستطلاعية المنتظمة التي أرسلها ملك الدنيمرك في عامي 1761 و1767 برئاسة العالم الرياضي الدنيمركي «كارستن نيبور» (Karsten Niebuhr) لجمع المعلومات العلمية في مختلف المواضيع ومنها بقايا الماضي وآثاره. وقد امتاز رئيس تلك البعثة بالدقة العلمية في وصفه لبقايا نينوى وبابل ورسم لها مخططات، واستنسخ نماذج عديدة من الكتابات المسمارية ولا سيما من مدينة

---

(1) ترجم السيدان بشير فرنسيس وكوركيس عواد القسم الخاص بالعراق من رحلة «تافرنيه» (بغداد 1944).

«برسيبوليس»، فوضع بذلك في متناول أيدي الباحثين واللغويين مادة أصلية مهمة. وسنرى كيف أن تلك الجهود المحمودة قد أسفرت في القرن التالي (منتصف القرن التاسع عشر) عن حل رموز الخط المسماري، مفتاح معرفتنا بحضارة وادي الرافدين. ونشر «نيبور» نتائج تحرياته في عام 1778.

وتقدمت مراحل الكشف عن ماضي العراق خطوات أخرى حينما صار المهتمون بهذا الموضوع يقيمون في العراق فترات أطول، مدفوعين في ذلك بالشؤون السياسية والتجارية مثل وكلاء الشركات الأجنبية والمقيمين الممثلين لدولهم. وعمت هذه الرغبة حتى بين السياح لمدد قصيرة ممن زار البقايا الأثرية الشهيرة واستنسخ الكتابات وجمع الآثار، نذكر منهم عالم النبات الفرنسي «ميشو» (Michaux) الذي عثر في منطقة طيسفون (سلمان باك) على حجرة حدود منقوشة بالخط المسماري وقد باعها إلى المكتبة الوطنية في باريس وحاول البعض ترجمتها، فكانت ترجمة خيالية عجيبة.

ونذكر من مشاهير المقيمين في بغداد مدداً طويلة المبعوث البابوي «بوشام» (Abbè Joseph Beauchamp) الذي مكث في بغداد من عام 1785 إلى 1790. وكان فلكياً وزار من بين ما زار من المدن القديمة بقايا بابل مراراً كثيرة، وأجرى التنقيبات فيها وأزاح الأنقاض عن أسد بابل الشهير، كما كشف عن بعض الأجزاء من باب «عشتار» وكان يراسل أكاديمية العلوم الفرنسية ونشر نتائج تحرياته في مجلة العلماء الفرنسيين (Journal Des Savants) في عامي 1785 و1790 فكان ذلك من العوامل المهمة في إثارة الرغبة بين الباحثين والمؤسسات العلمية الأوروبية للاستزادة من المعلومات بمتابعة الدراسات ومواصلة البحوث. وشملت هذه الرغبة الرأي العام الأوروبي وبوجه خاص في إنكلترا، حتى أن شركة الهند الشرقية المعروفة في لندن طلبت من ممثليها في البصرة أن يرسلوا إلى إنكلترا المزيد من الآجر المختوم بالكتابة المسمارية. ونشط العمل أكثر بإرسال الشركة مقيماً لها في بغداد هو «كلوديوس رج» (Cludius Rich) الذي شغل بالإضافة إلى ذلك وظيفة القنصل البريطاني العام في بغداد (807)، بيد أنه توفي

بمرض الكوليرا وهو في سن مبكرة (1821)؛ وقد امتاز «رج» بموهبة في تعلم اللغات الشرقية، فكان يجيد العربية والتركية، وزار بقايا بابل (1811) ورسم مخططات لها كما أجرى بعض التنقيبات فيها وزار نينوى وجمع منها بعض الألواح المسمارية. وكان مسكنه في بغداد[1] مركزاً وملتقى للرحالة والباحثين من أمثال «بكنگهام» (James Buckingham) و«بلينو» و«كير بورتر» (Ker Parter) ومن مشاهير رحالة هذه الفترة «روبرت مينان» (Robert Mignan) (1827 ـ 1828) الذي حفر في بابل ووجد اسطوانة من الطين منقوشة بالخط المسماري. و«وليم أنزورث» (William Ainsworth) و«بيلي فريزر» (Baillie Frazer) في الثلاثينات من القرن الثامن عشر، ونذكر كذلك بعثة «جسني» البريطانية لمسح النهرين ودراسة صلاحيتهما للملاحة (1835ـ1836).

تنقيبات الهواة (1842ـ1899):

إن ما نوّهنا به من تحريات الرحالة السابقين في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لم تكن في الواقع سوى نبش أو حفر مشوش، ولم يبدأ الحفر الواسع أو التنقيبات إلا حين قارب التاسع عشر من الانتصاف، ولكن هذه التنقيبات كانت بعيدة عن الأساليب العلمية المتبعة في علم الآثار في مراحل تطوره التالية، فكانت أقرب ما تكون إلى النبش لاستخراج الآثار الكبيرة كالمنحوتات. ولم تكن لتعنى بتسجيل ما يعرف في علم الآثار بالطبقات الأثرية والأدوار التأريخية العائدة إليها، كما أهملت الآثار الصغيرة القابلة للتلف مثل ألواح الطين المسمارية، وأهملت تسجيل مخططات المباني. وكان الحفارون في هذه الفترة، التي يمكن تحديد بدايتها من تنقيبات «بوتا» في

---

(1) اشتهر «رج» أيضاً في رحلته الشهيرة إلى كردستان، ونشر عن ذلك كتاباً قيماً، ونشر كذلك نتائج تحرياته في بابل في كتاب خاص بعنوان:

C. Rich, *Memoir on the Ruins of Babylon* (1812-18).

وعن حياة «رج» وسيرته راجع:

C. Alexander, *Baghdad in the Bygone Days* (1928).

S. Lloyd, *Foundations in the Dust* (1947).

خرسباد (1843) ونهايتها بشروع التنقيبات الألمانية في بابل (1899)، لا يستطيعون أن يميزوا دائماً الجدران المبنية باللبن عن أنقاض التراب والطين فأزالوا معالم الأبنية القديمة المشيدة بهذه المادة، وتلفت مجاميع مهمة من الآثار بسبب إهمال تغليفها ووسائل النقل. وخلاصة القول كان هم أولئك المنقبين الهواة محصوراً بالدرجة الأولى في استخراج التماثيل والألواح الحجرية الكبيرة المنحوتة إلى المتاحف الشهيرة في أوروبا.

بدأ هذا الطور من التنقيبات، كما ذكرنا، في عام 1842ـ1843 في العواصم الآشورية في منطقة الموصل، وكان معظم المنقبين من قناصل الدول الأجنبية، واشتد التنافس ما بين الفرنسيين والإنجليز. ففي أواخر عام 1842 شرع القنصل الفرنسي «بول أميل بوتا» (Paul Emile Botta) بفحص خرائب نينوى من فوق تل «قوينجق» وبينا كان ينقب فيه أخبره رجل من أهل «خرسباد» بأنه يستطيع أن يجد آثاراً أكثر وأحسن في «خرسباد»، فنقل عمله إلى هناك في مطلع عام 1843، وسرعان ما تحققت أخبار ذلك الرجل، إذ بدأ «بوتا» يستظهر المنحوتات الآشورية الشهيرة من قصر الملك الآشوري «سرجون»، وواصل عمله في خرسباد إلى عام 1844[1]، وشحن أولى غنائمه إلى فرنسا.

وظهر في المسرح في هذه الفترة رجل إنجليزي اسمه «هنري ليرد» (Henry Layard)، ونال نصيباً من الشهرة في هذا الطور من التنقيبات وقد شجعه نجاح «بوتا» في خرسباد على أن ينقب في نمرود (مدينة كالح القديمة) في عام 1845 وفي نينوى ففاز بكنوز أثرية شحنها إلى لندن في عام 1847

---

(1) حول التنقيبات في العراق راجع المصادر الأساسية التالية:

(1) *RLA*, I, (Ausgrabungen).

(2) W. Budge, *Rise and Progress of Assyriology* (1925).

(3) S. Lloyd, *Foundations in the Dust* (1947).

(4) S. Lloyd, *Mounds of the Near East* (1962).

(5) A. Parrot, *AM*, I, II.

(6) G. Contenau, *Manuel D'Archeologie Orientale*. 4 vols. (1927-47).

وكانت أولى الآثار الآشورية التي حاز عليها المتحف البريطاني. وأثار نجاح «ليرد» اهتماماً وحماساً في إنكلترا مكّناه من متابعة نشاطه الأثري بالحفر في نينوى ولا سيما القسم المعروف منها بتل قوينجق، كما واصل العمل في «نمرود» من عام 1849 إلى 1851، وتحرى أيضاً عدة تلول أثرية في المنطقة. وبعد أن اعتزل العمل خلفه في النشاط الأثري الإنجليزي «هنري رولنصن» (1810ـ1895) (Henry Rawlinson) الذي أسهم في حل رموز الخط المسماري، كما سيأتي إيجاز ذلك. وخلف «بوتا» الباحث الفرنسي «فكتور بلاس» (Victor Place). وقام في هذه الفترة من تأريخ التنقيبات تنافس مشين بين المنقبين الفرنسيين والإنجليز. أما «بلاس» فقد واصل التحريات في «خرسباد» فكشف عن قصر الملك «سرجون»، وامتازت أعماله بالدقة العلمية بالمقارنة مع معاصريه الآخرين، ولا سيما من ناحية التسجيل ورسم المخططات، فقد استطاع مساعده المهندس المعماري «توماس» تسجيل مباني تلك العاصمة الآشورية في كتاب ضخم من الرسوم والمخططات.

وتابع «رولنصن» ومساعده «هرمز رسام» (من أهل الموصل) التنقيبات في نينوى وظفرا بمجاميع نفيسة من المنحوتات الآشورية في قصر الملك «آشور بانيبال» (668ـ627ق.م)، وعثر أيضاً على كنوز مكتبة القصر الشهيرة.

ولم يقتصر التنافس الإنجليزي الفرنسي في نهب الآثار على عواصم الدولة الآشورية في شمالي العراق بل امتد إلى جنوبي العراق، ولا سيما في التلول الأثرية المشهورة باسم «تلو» (مركز دولة لجش السومرية)، حيث سمع القنصل الفرنسي في البصرة «إميل دي سارزك» (Emile De Sarzec) بما يحتوي عليه ذلك الموضع من كنوز أثرية، وسرعان ما شرع في نهبه (1877ـ1878) بدون إذن رسمي من الدولة العثمانية، وغنم كميات كبيرة من الآثار السومرية القيِّمة، من بينها المنحوتات والكتابات، وقد باعها إلى متحف «اللوفر» في باريس بمبلغ (13000) فرنك، وكان هذا مبلغاً ضخماً بالنسبة إلى ذلك العهد. وفي أثناء غياب «دي سارزك» أسرع «هرمز رسام» في نهب المنطقة الأثرية بالنيابة عن المتحف البريطاني. ونشطت في الوقت نفسه حفائر الأهليين

ورجال القبائل المجاورة، ولنا أن نتصور مبلغ التخريب والتدمير الذي أصاب التلول في هذه المنطقة الأثرية المهمة. وعلى الرغم من هذه الأضرار والمساوئ حفز وصول تلك الآثار النفيسة إلى أوروبا الباحثين ومؤرخي الفن على درس هذه الآثار. وتمتاز الحفائر التي أجريت في منطقة «تلو» بأنها وضعت في متناول أيدي الباحثين أولى نماذج من الكتابات والفنون السومرية؛ وصادف ذلك التوصل إلى حل رموز الخط المسماري في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر. وظلت «تلو» موضع اهتمام المنقبين الفرنسيين من متحف اللوفر إلى عام 1931.

ودخلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى ميدان التحريات الآثارية في عام 1877، يوم أرسلت جامعة بنسلفانية بعثة أثرية برئاسة «بيترز» (Peters) أستاذ اللغة العبرية في تلك الجامعة، ومساعده «هلبرشت» (Hilprecht) للتنقيب في مدينة «نفر» الشهيرة (بالقرب من عفك) واستخرجت منها عشرات الألوف من ألواح الطين المسمارية المهمة، من بينها مجموعات ثمينة مدونة بالأدب السومري. ومع أن باكورة أعمال هذه البعثة شابتها الاضطرابات والقلاقل مع عشائر منطقة عفك المجاورة، إلا أنها استأنفت عملها بعد أعوام قليلة (1889ـ1900).

ولما أوشك القرن التاسع عشر على الانتهاء بدأ ما يصح أن نسميه بطور التنقيبات الأثرية العلمية، وفي وسعنا جعل التنقيبات الألمانية في بابل (1899ـ1917) وفي آشور (قلة الشرقاط) (1904ـ1914) فاتحة هذا الطور الجديد في تأريخ التنقيبات في العراق. وقبل أن نوجز نتائج تحريات هذا الطور يحسن أن نتوقف قليلاً لنروي بالإيجاز قصة حلّ رموز الخط المسماري التي بدأت قبيل ذلك الطور، ذلك لأن معرفة الباحثين بقراءة الكتابات المسمارية كانت من أبرز الأمور المميزة له ومن مستلزمات البحث الأثري.

حل رموز الخط المسماري:

ظل الخط المسماري، خط حضارة وادي الرافدين، في الاستعمال منذ أول ظهوره في حدود (3500) ق.م إلى بداية العهد الميلادي (50 ـ 75م)،

حيث انحصر تداوله بين كهنة المعابد، وحلّ محله الخط الآرامي المؤلف من حروف هجائية قليلة وحلت محل اللغة البابلية اللغة الآرامية المدونة بذلك الخط. فدخل ذلك الخط المسماري، الذي بقي أداة للتدوين في حضارة وادي الرافدين وحضارات الشعوب المجاورة زهاء أربعة آلاف عام، في ظلام النسيان وظل كذلك دهراً طويلاً إلى أن بدأت المحاولات الأولى لحل رموزه منذ أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. وتعد تلك المحاولات والجهود من أروع قصص الاكتشافات العلمية في العصور الحديثة، إذ أسفر نجاحها عن معرفة حضارة عريقة في القدم والوقوف على منجزاتها ومآثرها الأدبية والفكرية.

وتشبه قصة حل رموز الخط المسماري قصة حلّ رموز الخط الهيروغليفي (خط حضارة وادي النيل)، حيث وجد مفتاح الحل في كلتا الحالتين باكتشاف نصوص قديمة مدونة بثلاث لغات إحداها ترجمة للأخرى؛ وكانت إحدى تلك اللغات الثلاث معروفة: اليونانية في حالة حجر «رشيد»، مفتاح حل رموز اليهروغليفية، والفارسية القديمة في حالة حل رموز الخط المسماري.

لقد مر بنا فيما أوجزناه عن تأريخ التنقيبات كيف نقل الرحالة والسياح وأوائل المنقبين من العراق نماذج من الكتابات المسمارية إلى أوروبا، وقد حار القوم في أمرها وتسميتها، وظنها البعض ضرباً من الزخرفة، بيد أن حقيقة كونها كتابة لم تفت على فطنة جمهرة الباحثين. وبما أن النماذج الأولى التي نقلت من هذه الكتابة إلى أوروبا تنتهي علاماتها، وهي في أطوارها الأخيرة، بما يشبه المسامير أو الأسافين، فقد أطلق عليها المصطلح اللاتيني (Cuneiform) وكان البعض من تلك النماذج مدوناً بثلاث لغات (Trilingual) ويرجع الفضل في المراحل الأولى من حل رموز هذه الكتابة إلى النسخ المضبوطة التي استنسخها الباحث الدنيمركي «كارستن نيبور» (عام 1765) لمجموعة من النصوص المسمارية عثر عليها في «برسيبوليس»، كما نوَّهنا بذلك في كلامنا على رحالة القرن الثامن عشر. ونشرت تلك الاستنساخات ما

بين عامي 1774 و1778، وكان أول من فطن إلى أنها من كتابات ملوك الفرس الأخمينيين، وأن اللغة الفارسية القديمة كانت إحدى اللغات الثلاث المدونة بها، أما اللغتان الأخريان فقد عينتا من بعد معرفة تلك اللغة بأنهما اللغة البابلية واللغة العيلامية، حيث درج ملوك السلالة الفارسية الأخمينية (640ـ331ق.م) على تدوين مآثرهم بتلك اللغات الثلاث، والمثال على ذلك كتابات «بهستون» الشهيرة التي سيأتي الكلام عليها. ومما سهل حلّ رموز الخط المسماري أن اللغويين الأوروبيين وقفوا على أسرار الفارسية القديمة في حدود ذلك الزمن، وفي مقدمتهم الباحث «دوبيرو» (Duperon) الذي تعلمها في الهند على أيدي المجوس «البارسيين» (Parsees)، وكان يشتغل على نشر ترجمته للافستا (الابستاق)، فسهل ذلك الجهود التي كان يبذلها أحد أساتذة جامعة «كوتنكن» المسمى «فردريك كروتفند» (Grotefend) في حل رموز خط اللغة الفارسية القديمة التي قلنا إنها كانت إحدى اللغات الثلاث المدونة بالخط المسماري في كتابات «برسيبوليس» السالفة الذكر، إذ اشتق الفرس الأخمينيون خطهم المسماري من الخط المسماري البابلي مثلما فعل العيلاميون قبلهم. وبالاستعانة بأسماء الأعلام الفارسية القديمة ولا سيما أسماء الملوك المذكورة في التوراة وفي الكتابات الكلاسيكية نجح ذلك الباحث في حل قسم كبير من النص الفارسي المدون بالخط المسماري كما ذكرنا، وقدم في عام 1802 دراسة عن نجاحه في قراءة ثلاثة عشر حرفاً أو مقطعاً من ذلك الخط. وكانت أولى الخطوات التي اتبعها تخمينه أن مجموعة من العلامات المسمارية المتكررة في نفس النقش تدون كلمة «ملك» و«ملك الملوك» ثم عرف لقب الملك بأنه «الملك العظيم»، وأن اسم الملك ينبغي أن يسبق هذا اللقب، وفسر الكلمة التي تعقب اسم الملك ولقبه بأنها تعني «ابن» مضافة إلى اسم ملك آخر هو «أبو الملك العظيم». وبمواصلة التحليل على هذا الوجه حزر أن في النص أسماء ثلاثة ملوك أولهم الجد والثاني ابنه والثالث حفيده (ابن ابنه). وبما أن اسم الجد ذكر مجرداً من لقب «ملك» فينبغي أن يكون مؤسس سلالة حاكمة. وبالاستعانة بصيغ أسماء ملوك السلالة الأخمينية المذكورة في التوراة

وفي المصادر الكلاسيكية خمن أن يكون ذلك المؤسس أما «كورش» أو «هستاسبس»، وأبعد احتمال أن يكون كورش هو المقصود، إذ لو كان الأمر كذلك لبدأ اسم ابنه أي «قمبيز» (أو الأصح «كمبيز») بنفس الحرف الأول من اسم كورش، وبما أنه ليس كذلك فينبغي أن يكون الاسم المقصود «هستاسبس»، وينبغي أن يكون ترتيب هذه الأسماء كما وردت في النص على الوجه الآتي: هستاسبس ـ دارا ـ احشويرش. وبالاستناد إلى تهجئة اسم «دارا» (داريوش) الواردة في التوراة، استطاع «كرتفند» السالف الذكر أن يعرف أصوات عدد من العلامات المسمارية، وهي الحروف المدون بها اسم «دارا»، كما عرف أصوات العلامات المدون بها اسما الملكين الآخرين. واستطاع الباحث الفرنسي «برنوف» والباحث الألماني «لارسن» أن ينشرا النصين اللذين عالجهما «كرتفند»، فكانت ترجمة أحد النصين: «دارا، الملك العظيم، ملك الملوك، ملك الأقطار، ابن هستاسبس، الملك الأخميني، هو الذي شيّد هذا القصر». وترجمة النص الثاني: «احشويرش، الملك العظيم، ملك الملوك، ابن دارا، الملك الأخميني».

كتابة «بهستون»:

تكللت تلك الخطوات التي أوجزناها في حل رموز الخط المسماري بخطوة كبرى، بالشروع في دراسة تلك الكتابات التأريخية الشهيرة المنقوشة في وجه الجبل الشاهق المسمى «بهستون»، بالقرب من كرمنشاه، وهي أيضاً من كتابات أحد الملوك الأخمينيين المسمى «دارا» الأول (522 ـ 486ق.م)[1] وهي مدونة بالخط المسماري بنص واحد ولكن في ثلاث لغات: هي الفارسية

---

(1) جبل «بهستون» يطل على الطريق إلى كرمنشاه وبالقرب منها. وقد نقش «دارا» الأول في وجه هذا الجبل الشاهق كتابات ومنحوتات تخلد أعماله وأخبار قضائه على الثائرين والمتمردين في ولايات الأمبراطورية. حول هذه النقوش انظر المراجع الآتية:

(1) G. Cameron, «Darius Carved History on Ageless Rock», in *National Geographical Magazine,* (1950), 825ff.

(2) W. Budge, *Rise Progress of Assyriology* (1925).

القديمة والعيلامية والبابلية. وهنا برز اسم لامع في تأريخ حل رموز الخط المسماري، ذلك هو «رولنصن» الذي مرّ ذكره في تأريخ التنقيبات. وكان ضابط استخبارات في الجيش البريطاني، ونقل من الهند إلى إيران، وقد سبق له أن أتقن الفارسية، وكان أول من استنسخ أجزاء كثيرة من نقوش بهستون (1835ـ1844) رغم المخاطر التي عرض إليها حياته في تسلقه ذلك الجبل الشاهق، وأكمل في عام 1844 استنساخ النصين العيلامي والفارسي. أما النص البابلي فقد تأخر استنساخه إلى عام 1847 بسبب ارتفاعه الشاهق من وجه الجبل، ونشر في عام 1846 النص الفارسي بخطه المسماري وتأدية أصواته وترجمته ، وتولى درس النص العيلامي الباحث الإنجليزي «نورس» (Norris) (عام 1853ـ1855). أما خط النص الثالث، أي النص البابلي، فلم تحل رموزه بالسهولة التي حل بها النصان الأولان. وكان الباحثون في أوروبا قد بدؤوا قبل حل رموز الخطين العيلامي والفارسي يحزرون على الوجه الصحيح أن الخط الثالث في كتابات بهستون هو الخط نفسه المنقوش على ألواح الطين وعلى الآجر مما نقله الرحالة إلى أوروبا من مدن العراق القديمة وعثر عليه أيضاً في أثناء التنقيبات في العواصم الآشورية كما مرَّ بنا. وسار الباحثون وفي مقدمتهم «رولنصن» و«هنكس» (Hinckes) في خطوات منطقية أولاها التخمين الصحيح أن الخط المسماري البابلي لم يكن هجائياً بل إنه مكوَّن من مقاطع (Syllables) أي إن العلامة المسمارية الواحدة تقوم مقام حرف صحيح مع حرف علة أو حرفين صحيحين بينهما حرف علة، وثانيها معرفة عدد لا بأس به من أصوات تلك العلامات، وهي العلامات التي دونت بها أسماء الملوك الفرس ولا سيما «دارا» و«احشويرش» في النصوص الثلاثية اللغة، وسرعان ما ظهرت حقيقة سهلت تقدم حلّ الرموز المسمارية تلك هي أن اللغة البابلية إحدى اللغات السامية المشابهة في لفظ مفرداتها ومعانيها لأختيها اللغة العبرانية واللغة العربية. واستطاع «رولنصن» في عام 1851 أن ينشر النص البابلي من نقوش «بهستون» بخطه المسماري وبأصواته الأصلية وترجمته. وتتابعت دراسات الباحثين الآخرين وزدادت معرفتهم باللغة البابلية بخطها

المسماري. ومع ذلك فلم تزل الشكوك تساور الرأي العام الأوروبي في صحة حلّ رموز ذلك الخط، مما حدا بالجمعية الآسيوية الملكية في لندن أن تجري امتحاناً للباحثين فقدمت في عام 1857 إلى أربعة باحثين أوروبيين نصاً مسمارياً لأحد الملوك الآشوريين صادف اكتشافه في تلك الفترة. أما أولئك الباحثون فكانوا «رولنصن» و«هنكس»، و«فوكس تالبوت» (Talbot) و«أوبرت» (J. Oppert) وطلبت من كل منهم أن يترجم ذلك النص على انفراد، ولما قورنت الترجمات الأربع بعضها ببعض في جلسة رسمية لتلك الجمعية وجد أن أولئك الباحثين الأربعة كانوا متفقين في ترجماتهم بوجه أساسي، فاطمأنت المحافل العلمية إلى صحة الطريقة التي اتبعت في حل رموز الخط المسماري. ومنذ آنذاك ولد عام جديد في تأريخ المعارف البشرية، ونعني بذلك العلم الذي يطلق عليه «علم الآشوريات» (Assyriology)، الذي صار يدرس في معاهد الغرب وجامعاته مثلما تدرس اللغات الشرقية.

اكتشاف اللغة السومرية:

أما معرفة الباحثين باللغة السومرية، وهي اللغة التي قلنا عنها في كلامنا على الأقوام القديمة إنها كانت إحدى اللغتين اللتين دونت بهما مآثر حضارة وادي الرافدين (واللغة الأخرى «الآكدية - البابلية») فقد تأخرت بعض الوقت من بعد حل رموز اللغة البابلية. وكان الباحثون يجدون في أثناء قراءتهم للنصوص المسمارية مفردات لغة غريبة بالإضافة إلى اللغة البابلية السامية، فوجهوا جهودهم للكشف عن أسرارها، فكانت قصة مضاهية لقصة حل رموز اللغة البابلية. ومما سهل أمر حلها أنها كانت مدونة أيضاً بالخط المسماري نفسه، وهو الخط الذي حلت رموزه على النحو الذي بيّناه سابقاً. كما أن طائفة من الكتابات المسمارية التي عثر عليها في مدن العراق القديمة كانت بمثابة معاجم لشرح مفردات اللغة السومرية وتأدية أصواتها باللغة البابلية التي أصبح الباحثون على معرفة بها. وقد سبق لبعضهم من أمثال «هنكس» (في عام 1850) أن شك في أن يكون البابليون والآشوريون (وهم من الساميين) هم الذين أوجدوا الخط المسماري، لأن من خصائص اللغات السامية أنها لا

تعنى بتأدية أصوات العلة بعلامات خاصة بل العنصر الأساسي في كتابة مفرداتها الحروف الصحيحة، وعلى هذا فمن المستبعد أن يخترع أولئك الساميون خطاً قوامه المقاطع التي تكون حروف العلة فيها العناصر الأساسية مع الحروف الصحيحة. وإلى هذا لو كان الساميون (البابليون أو الآكديون) هم الذين ابتدعوا الخط المسماري لظهرت المفردات السامية في قِيم المقاطع المسمارية الصوتية التي ترجع أصواتها إلى مفردات ليست سامية على وجه الإطلاق. وفي عام 1855 نشر الباحث «رولنصن» في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية في لندن[1] نصوصاً مسمارية غير بابلية ولا سيما النصوص المنقوشة على الآجر المختوم، الأمر الذي حفز بعض الباحثين ومنهم «هنكس» السالف الذكر على العودة إلى بحث القضية، وسار خطوات أخرى أبعد، منها اكتشافه أن تلك اللغة الثانية، غير البابلية، تتصف بكونها من نوع اللغات «الملصقة» (Agglutinative) وأورد أولى أمثلة عليها من النصوص المزدوجة اللغة (أي المدونة باللغتين البابلية والسومرية جنباً إلى جنب) مما دخل إلى حوزة المتحف البريطاني من التنقيبات البريطانية في نينوى آنذاك. وحار الباحثون كما ذكرنا في كلامنا على السومريين في الفصل الأول في تسمية تلك اللغة الغريبة، فأطلق البعض عليها اسم اللغة الـ «أشكوزية» (أو السكيثية)، وسمّاها البعض الآخر لغة آكدية، أي التسمية نفسها التي أطلقها الباحثون فيما بعد على اللغة السامية الشرقية في العراق (أي البابلية والآشورية)؛ ولكن الباحث «أوبرت» (Oppert) سمّاها بالاسم التأريخي الصحيح (عام 1869) أي اللغة السومرية، فقد وجد أن من بين ألقاب الملوك الواردة في الآجر المختوم وفي النصوص الأخرى اللقب الشهير: «ملك بلاد سومر وبلاد آكد» (راجع البحث الخاص بالأقوام القديمة في العراق)، فاستنتج أن اللغة الثانية المجهولة ينبغي أن تسمى «اللغة السومرية» والمتكلمين بها «السومريون». ولكن الذي يؤسف له أن كثيراً من الباحثين آنذاك لم يأخذوا بتسميته الصحيحة، بل ظلوا يطلقون عليها

---

(1) Journal of the Royal Asiatic Society.

المصطلح الخاطئ «اللغة الآكدية» سنوات أخرى تلت. ومما زاد في الطين بلة أن المستشرق المعروف «هلفي» (Halevy) أنكر بالمرة وجود اللغة السومرية والسومريين، وفسر ما وجده الباحثون عنها أنها ليست سوى رموز سرية ابتدعها كهنة بلاد بابل لتدوين أسرار شعائرهم الدينية[1]، فشغل الباحثين في جدل عقيم دام فترة من الزمن إلى أن اتضحت شخصية اللغة السومرية في نهاية الأمر.

وكان معظم النصوص المكتشفة عن اللغة السومرية في تلك الفترة مقتصراً تقريباً على النصوص المزدوجة، أي المدونة باللغتين البابلية والسومرية، ولا سيما النصوص المكتشفة في مكتبة الملك الآشوري «أشور بانيبال» في نينوى، ومجموعات من الآجر المختوم وألواح قليلة مما دخل في حوزة المتحف البريطاني. ولكن تنقيبات القنصل الفرنسي «دي سارزك» في تلو (1877)، التي نوَّهنا بها في كلامنا على تأريخ التنقيبات، وضعت في متناول أيدي الباحثين ألوفاً كثيرة من النصوص السومرية الصرفة التي يرجع عهدها إلى ما يسمى في تأريخ حضارة وادي الرافدين بعصر فجر السلالات (الألف الثالث ق.م)، ويرجع بعضها إلى عصر سلالة «أور» الثالثة، في حدود 2200ق.م. كما كشفت التنقيبات التي أجرتها البعثة الأثرية الأمريكية في «نفر» عن مجاميع مهمة من النصوص السومرية أيضاً، وكذلك ما وجده المنقبون الألمان في موضع «فارة» (مدينة شروباك القديمة) (1902ـ1903). كل هذه النصوص وغيرها مما استخرج من المواضع الأخرى أقامت معرفة الباحثين باللغة السومرية على أسس سليمة وطيدة.

طور التنقيبات العلمية (القرن العشرون):

نستأنف مواصلتنا لقصة التنقيبات عن حضارة وادي الرافدين بعد أن توقفنا لنوجز كيفية حل رموز الخط المسماري. وكنا قد وقفنا في تتبعنا لسير

---

(1) عن حل اللغة السومرية انظر المرجع رقم (2) من الهامش رقم (10)، وراجع أيضاً:
Kramer. *Sumerian Mythology* (1946).

التنقيبات عند بدء التنقيبات الألمانية في مدينة «بابل»، تلك التنقيبات المنتظمة التي جعلناها فاتحة طور التنقيبات العلمية عن آثار حضارة وادي الرافدين. ويتميز هذا الطور أن التنقيبات فيه، بالإضافة إلى تفادي الأخطاء السابقة التي نجم عنها الكثير من الأضرار بالآثار وضياع الكثير من الدلالة الأثرية، لم تقتصر كما في الأطوار السابقة على مجرد استخراج الآثار المتحفية والمنحوتات الكبيرة لعرضها في المتاحف، بل أخذ المنقبون يولون عنايتهم في التزام منهج علمي في التنقيبات، وفي مقدمة ذلك تسجيل ما يسمى بالطبقات الأثرية أي الأدوار البنائية، ورسم مخططاتها وأخذ تصاويرها الفتوغرافية وتسجيل كل ما يصاحب الآثار من دلالة أثرية وربطها بالطبقة البنائية التي يعثر عليها فيها، والعناية الدقيقة باستخراج الآثار الدقيقة، ومعالجتها وتقويتها إبان العثور عليها في موضع التنقيبات، ونشر التقارير العلمية عن نتائج تنقيبات كل موسم، بالإضافة إلى النشرة النهائية من بعد انتهاء التنقيبات في الموضوع الأثري. واقتضى اتباع هذه الطرق العلمية أن بعثات التنقيب لم تعد مؤلفة من الهواة بل ظهرت أنواع الاختصاص الأثري المختلفة وتنوعت في مواضيعها، فصارت بعثات التنقيب الموفدة من جانب الجامعات والمؤسسات العلمية تتألف من عدة أعضاء من ذوي الاختصاصات المختلفة منهم رئيس البعثة والمهندس المعماري والرسام والمصور والمسجل (لتسجيل الآثار) والمختص بقراءة الخطوط المسمارية وغيرهم. وازداد تنوع اختصاص أفراد البعثة الأثرية في السنوات القليلة الماضية، فصار يشمل الجيولوجي والأنثروبولوجي (لدرس الهياكل العظمية) والمختص بعظام الحيوانات والعالم النباتي. وصرنا بفضل اتباع الأساليب العلمية الحديثة في التنقيبات نعرف ما يمتاز به كل دور من أدوار حضارة وادي الرافدين، من بين ذلك معلومات ثمينة عن فن العمارة وخطط المعابد والقصور ودور السكنى وخطط المدن، بالإضافة إلى ما يتميّز به كل دور من الآثار المادية والفنية المختلفة، إلى غير ذلك من الأمور التي أغفلها المنقبون الأوائل.

بدأ دور التنقيبات العلمية كما قلنا منذ التنقيبات الألمانية في بابل

(1889ـ1917) واستمر في تحسن وتقدم مطردين، منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا. وبالإمكان تقسيمه إلى أطوار ثانوية يتميّز كل منها، بالإضافة إلى تقدم أساليب التنقيبات، بنوع البحث الذي وجه إليه الباحثون اهتمامهم للوقوف على أدوار معينة من تأريخ حضارة وادي الرافدين والبحث فيه. فالدور الأول الذي يمكن تحديد نهايته في الحرب العالمية الأولى اقتصرت فيه تحريات المنقبين على التنقيب في المدن الكبيرة المشهورة كالعواصم وعلى الأدوار التأريخية المشهورة التي أعقبت عصور ما قبل التأريخ. أما الدور الثاني، الذي يمكن وضع بدايته من بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فيتميز باتساع أعمال التنقيبات وتقدم أساليبها أكثر فأكثر، وشملت بالإضافة إلى المدن القديمة المشهورة مواضع أخرى ترجع آثارها إلى عصور أقدم من عصر نضج الحضارة في وادي الرافدين، فتناولت عصور ما قبل التأريخ والمراحل الأولى التي سبقت ظهور الحضارة الناضجة في مطلع الألف الثالث ق.م. ولعله يمكن جعل الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية بداية دور ثالث من طور التنقيبات العلمية، ازداد فيه الاهتمام بتتبع الأطوار القديمة في تأريخ حضارة وادي الرافدين، ولا سيما أصولها وأسسها في عصور ما قبل التأريخ، كما اتسعت دراسات الباحثين في تفسير أصول تلك الحضارة وتحديد أزمان أدوارها وعهودها (Chronology)، واستعان الباحثون في السنوات الحديثة بمعطيات العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء الذرية لتحديد أزمان الأدوار الحضارية المختلفة مما سنتطرق إليه في القسم الثالث من هذا الفصل. ونظمت العلاقات ما بين بعثات التنقيب الأجنبية وبين مديرية الآثار العراقية، ولا سيما من بعد تشريع قانون خاص بالآثار (1936)، بالإضافة إلى إشراف موظفي الآثار العراقيين على هيئات التنقيب الأجنبية، وتوفر ذوو الاختصاص في الآثار من العراقيين ممن درس علم الآثار في الجامعات الغربية (منذ 1938). وازداد عددهم في السنوات الأخيرة. ودخل العراق الحديث منذ عام 1936 وبوجه خاص منذ 1938 ميدان التحريات الأثرية على أيدي الاختصاصيين من مديرية الآثار. وقد سبق أن شرع في تأسيس المتحف العراقي منذ عام 1924، وصار

ينمو ويتسع بما كان يدخل إليه من آثار عن طريق تنقيبات البعثات الأثرية الأجنبية، وأكمل بناء المتحف الجديد (في الصالحية) في الستينات وتم افتتاحه رسمياً في عام 1966.

ولما كان يتعذر تفصيل القول في نتائج بعثات التنقيب المختلفة التي صارت تؤم العراق منذ نهاية القرن التاسع عشر، فنكتفي بمجرد تعداد أسمائها، وسترد الإشارات الكثيرة إلى نتائج أعمالها مع المراجع الأساسية عن الموضوع:

1 ـ تحريات «المتحف البريطاني» على يد «هرمز رسام» في مدينة «سبار» (أبو حبة الآن، على بعد نحو 20 ميلاً جنوب غربي بغداد) (1880ـ1882) ثم تحريات الأب شايل (Scheil) في 1894 وأندريه ويوردان الألمانيين في 1927.

2 ـ البعثة الألمانية في بابل برئاسة الأستاذ «روبرت كولدواي» (Robert Koldewey) من جانب «الجمعية الشرقية الألمانية» (Deutsche Orient-Gessellschaft) (1899ـ1917).

التقارير المفصلة في المرجع المرموز له: WVDOG, 55, 54, 48, 47, 23.

وكذلك خلاصة النتائج في: Koldewey, *The Excavations of Babylon*, Unger, *Babylon;* RLA, I.

3 ـ البعثة الأثرية الأمريكية «جامعة بنسلفانية» في نفر (1888ـ1900) واستئناف التحريات من جانب جامعة شيكاغو وجامعة بنسلفانية (1948ـ1966) برئاسة «مكون» ثم هاينس (Heines) وغيرهما.

4 ـ التحريات الألمانية في تل «فارة» (شروباك القديمة) نحو 40 ميلاً جنوب شرقي الديوانية (1902ـ1903)[1]، وتحريات جامعة بنسلفانية الأمريكية (1930)[2].

---

(1) انظر: Heinrich, Andrea, *Fara*. (1931).

(2) Schmidt, in *Museum Journal*, (1931).

5 ـ البعثة الألمانية في آشور (قلعة الشرقاط) (1903ـ1914) برئاسة «ولتر أندريه» (Walter Andrae).

انظر الخلاصة في: W. Andrae, *Das Wiederestandene Assur* (1938).

6 ـ البعثة الألمانية برئاسة «فون أوبنهايم» (Von Oppenheim) في تل حلف (مدينة كوزانا القديمة بالقرب من منابع الخابور) (1911ـ1913، 1928) Von Oppenheim, *Der Tell Halaf* (1931 & 1943).

7 ـ التحريات الأمريكية (جامعة شيكاغو في تل «بسمي» (أدب القديمة) على نحو (16) ميلاً شمال تل فارة) (1903ـ1904) برئاسة «بانكس» Banks, *Bismya, or the Lost City of Adab* (1912).

8 ـ التحريات الأثرية الفرنسية في كيش (تلول الأحيمر بالقرب من بابل) في عام 1911 برئاسة «دي جنواك» (De Genouillac) واستئناف التنقيبات من جانب بعثة بريطانية ـ أمريكية (1923ـ1930) برئاسة «لنگدون» (langdon)، وتحرت البعثة كذلك الموضع المسمى «جمدة نصر» (1925) الذي سمي به الطور الحضاري الذي سيأتي الكلام عليه في الفصل الثالث.

انظر:

De Genouillac, *Fouilles Françaises d'el-Akhymer* (1924-25).
Watelin and Langdon, *Excavations at Kish.* 4vols, (1924-1934).
Mackay, *Report on Excavations at Jemdet Nasr* (1931).

9 ـ التحريات الألمانية في سامراء الإسلامية (1911ـ1914) برئاسة الأستاذ «هرتسفيلد» Hertzfeld, *Die Ausgrabungen von Samarra.*

10 ـ البعثة الأثرية «البريطانية ـ الأمريكية» المشتركة في مدينة «أور» برئاسة الأستاذ «وولي» طوال اثني عشر موسماً (1919، ثم من عام 1922 إلى 1934) Woolley, *Excavations At Ur* (1954).

والنشرات المفصلة، وخلاصة ذلك في المراجع المرموز له بـ AM، والمراجع المذكورة في الهامش رقم (9) من هذا الفصل.

11 ـ التحريات الفرنسية في مدينة «لارسة» (السنكرة، على بعد نحو 40كم شمال غربي الناصرية) برئاسة الأستاذ «بارو» (1931ـ1934) واستئناف التنقيب (1967ـ1970)[1].

واستئناف متحف اللوفر التنقيبات في منطقة تلو برئاسة «بارو» (1929ـ1930) (Parrot, *Tello*, 1948).

12 ـ التحريات الأثرية في نوزى (يورغان تبة بالقرب من كركوك، نحو ٨ أميال إلى الجنوب الغربي) من جانب مدرسة الدراسات الشرقية الأمريكية (1925ـ1931).

R. F. Starr, *Report on the Excavations at Yorgan Tepe,* (1937-9).
C. H. Gordon, *Adventures in the Near East* (1957), pp. 105ff.

13 ـ البعثات الأثرية لجامعة شيكاغو (المعهد الشرقي) في منطقة ديالى: تل أسمر وخفاجي واشجالي وتل أجرب (1930ـ1937) برئاسة الأستاذ «هنري فرنكفورت» (H.Frankfort)[2]. وفي خرسباد موضع عاصمة الملك الآشوري سرجون المسماة «دور ـ شروكين» برئاسة الأستاذ «لود» (1930ـ1935) Loud, *Khorsabad* (1936-8).

14 ـ التنقيبات الألمانية في الوركاء من جانب «الجمعية الشرقية الألمانية» برئاسة «يوليوس يوردان» (J. Jordan) (1928ـ1931) ثم برئاسة

---

(1) حول التنقيبات في العراق راجع المصادر الأساسية التالية:

(1) *RLA*, I, (Ausgrabungen).
(2) W. Budge, *Rise and Progress of Saayriology* (1925).
(3) S. Lloyd, *Foundations in the Dust* (1947).
(4) S. Lloyd, *Mounds of the Near East* (1962).
(5) A. Parrot, *AM*, I, II.
(6) G. Contenau, *Manuel D'Archeologie Orientale.* 4 vols. (1927-47).

(2) انظر المراجع المرموز لها:

AM. OIP, Xliv; LIII; LVIII; Lx; LxxII.

«نولدكه» (Nöldeke) (1931ـ1939) ثم «لنزن» (1953ـ1964) ثم «شمدت» (Schmidt) إلى الوقت الحاضر (1973). واستئناف التحريات في بابل (منذ 1960) في قاعدة البرج، والتحري عن معبد رأس السنة «بيت آكيتو» (1971ـ1972) (حول نتائج التنقيبات في الوركاء انظر التقارير المفصلة في المرجع المرموز له بـ UVB من 1928 إلى 1939 ثم من عام 1953 حتى الآن).

15 ـ التنقيبات الأمريكية (جامعة بنسلفانية) برئاسة الأستاذ «سبايزر» في «تبه كورا» (قرب الموصل) (1931ـ1938).

A. J. Tobler, *Excavations at Tepe Gawra* (1950).

16 ـ التنقيبات الفرنسية في «ماري» (تل الحريري بالقرب من البوكمال) برئاسة الأستاذ «بارو» (1933ـ1939) ثم استئناف التنقيب منذ 1950 انظر: AM, I. II وكذلك:

Parrot, Massion Archeologique de Mari.

17 ـ التنقيبات البريطانية (المدرسة الآثارية البريطانية في العراق) في نينوى (1931ـ1932).

(انظر المراجع المذكورة في الهامش رقم 9 ومجلة:

Annals of Archaeology and Anthropology, (1934).

وفي الأربجية قرب الموصل في 1935 (Iraq, 1936) وفي تل «جغار بازار» (Iraq, III) وفي نمرود (كالح القديمة) (1949ـ1961) (مجلة Iraq). وفي تل الرماح (بالقرب من تل أعفر) (1964ـ1971).

18 ـ التنقيبات اليابانية في تلول «الثلاثات» (بالقرب من سنجار) برئاسة الأستاذ «ايگامی» (Namio Egami) من جامعة طوكيو (1956ـ1957 و1964).

19 ـ البعثة الأثرية الأمريكية (جامعة شيكاغو) في تل «الهباء» (موضع المدينة القديمة لجش، بالقرب من الشطرة) (1968 ثم من 1970 حتى الآن) وفي تل «أبو صلابيخ» (منذ 1963) .Biggs in *JCS* (1965).

20 ـ البعثة الأثرية السوفيتية برئاسة الأستاذ «منجايف» (Rauf Munchaev) في التل المسمى «يارم تبة» (جنوب غربي تل أعفر بنحو 5كم) (منذ عام 1968 حتى الوقت الحاضر) (انظر مجلة سومر المجلد 25 و26).

21 ـ البعثة الإيطالية برئاسة الأستاذ «گولينو» (Gullino) من جامعة «تورنتو» في سلوقية (كان موسمها الرابع في 1966ـ1967 والثامن 1971 إلى 1972).

22 ـ تنقيبات البعثة الألمانية من جامعة ميونخ في «أيسن» (إيشان بحريات) في عام 1973 (الموسم الأول).

23 ـ تحريات خاصة بعصور ما قبل التأريخ[1]:

أ ـ تحريات الباحثة الأمريكية «گارود» (Garrod) في كهفي «زرزي وهزار مرد» في منطقة السليمانية (1928)[2].

ب ـ تنقيبات جامعة شيكاغو في تل «جرمو»، برئاسة الأستاذ «بريدوود» (Braidwood) (1948ـ1955)، وفي تل مطارة (بالقرب من كركوك 1948)، وتحريات الباحث المذكور مع «هاو» (Howe) في المنطقة الشمالية (1951ـ1955).

ج ـ تنقيبات جامعة «مشيغن» الأمريكية ثم المعهد «السمشوني» في كهف «شانيدر» و«زاوى جمى» برئاسة الأستاذ «سوليكي» (1951 ـ 1961).

د ـ تحريات البعثة «الدنيمركية» في تل «شمشارة» (1957) برئاسة

---

(1) حول التنقيبات في العراق راجع المصادر الأساسية التالية:

(1) *RLA*, I, (Ausgrabungen).

(2) W. Budge, *Rise and Progress of Saayriology* (1925).

(3) S. Lloyd, *Foundations in the Dust* (1947).

(4) S. Lloyd, *Mounds of the Near East* (1962).

(5) A. Parrot, *AM*, I, II.

(6) G. Contenau, *Manuel D'Archeologie Orientale*. 4 vols. (1927-47).

(2) حول خلاصة التحريات الخاصة بعصور ما قبل التأريخ، انظر الفصل الثالث.

الأستاذ «انگهولت» (Ingholt) ثم مواصلة العمل من جانب مديرية الآثار العراقية (1958 ـ 1959) (انظر الفقرة 24).

24 ـ تنقيبات مديرية الآثار العراقية:

أ ـ تحريات واسط (1936 ـ 1940) (مجلة سومر، ونشرة واسط بالإنجليزية).

ب ـ تل الدير (1940 ـ 1941) (مجلة سومر 1945) استئناف التنقيبات من جانب البعثة البلجيكية جامعة غنت من 1968 إلى الوقت الحاضر.

جـ ـ تل العقير (1940 ـ 1941) .*JNES*, II, (1943)

د ـ تل حسونة (1943 ـ 1944) .*JNES*, IV, (1945)

هـ ـ عقرقوف (دور ـ كوريگالزو) (1943ـ1945) (Iraq, 1944-64) ثم من عام 1960 حتى الوقت الحاضر (تحريات وصيانة).

و ـ الحضر تحريات وصيانة منذ 1950 (انظر مجلة سومر).

ز ـ اريدو (أبو شهرين) (مجلة سومر 1950، القسم الإنجليزي).

ح ـ تل حرمل (1945 ـ 1961) وتل الضباعي (1960 ـ 1961).

ط ـ تل الصوان (بالقرب من سامراء) (من 1964 إلى الوقت الحاضر).

ي ـ تل قالينج آغا (نحو كيلومتر واحد جنوب قلعة أربيل) (من 1968 إلى الآن، انظر مجلة سومر).

ك ـ عدة تحريات في سهل «بتوين ـ رانية» لإنقاذ الآثار من مشروع «دوكان» في جملة مواضع مثل تل الديم وباسموسيان، وكمريان، وقوره شينا وشمشارة (1954 ـ 1961) وكذلك التحريات في سهل شهرزور من جراء مشروع دربندى خان مثل بكر آوه وغيره (1960 ـ 1961) (انظر مجلة سومر).

ل ـ التحريات في تل أسود الواقع على بعد نحو 29كم شمال غربي الرمادي على الجهة اليسرى من الفرات، وقد أظهر موسم تنقيبات عام 1971ـ1972 بقايا من عصر فجر السلالات وعهد سلالة أور الثالثة.

ثالثاً: تسلسل الأدوار التأريخية وتحديد أزمانها:

إن التنقيبات التي تتبعنا نشوءها وتطورها منذ بدايتها في منتصف القرن الماضي إلى حال التأريخ قد وضعت في أيدي الباحثين والمؤرخين المادة الأولية والمصادر الأصلية لمعرفة حضارة وادي الرافدين بجميع أوجهها ومقوماتها منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ إلى آخر عهودها التأريخية. ولكن كثيراً ما يتساءل الناس: ترى كيف استطاع الباحثون أن يضبطوا أدوار هذه الحضارة، من ناحية تسلسل هذه الأدوار وتحديد أزمانها بالنسبة إلى عهد ثابت متخذ في تأريخ الحوادث مثل العهد الميلادي؟ إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة تكون ما يصح أن نطلق عليه «التقويم» أي ضبط تسلسل الأدوار التأريخية وتحديد أزمانها (Chronology). وسنحاول إيجاز هذا الموضوع بوجه ميسر يسهل فهمه بالنسبة لغير المختصين، وهو مقدمة ضرورية لفهم ما سنتكلم عنه من أدوار حضارة وادي الرافدين في الفصول الآتية.

1 ـ التسلسل النسبي للطبقات الأثرية. كيف تنشأ الأطلال الأثرية:

المواقع الأثرية أو الأطلال الأثرية كانت في أصلها قرى أو مدن قديمة. فالمعروف أن الناس كانوا وما زالوا يعيشون في البقعة الواحدة عدة أجيال متعاقبة. وسواء كانت دور سكناهم مبنية من الطين أم من «اللبن» أم من الآجر فإنها لا بدَّ وأن تتداعى بمرور الأزمان. وبعد استنفاد ترميمها عدة مرات تشيد بيوت جديدة فوق بقايا جدران البيوت القديمة بعد تسويتها للإفادة منها كأسس للبيوت الجديدة. وهكذا ترتفع أماكن السكنى بمرور الأزمان وتكون تلاً أو مرتفعاً اصطناعياً يمثل أدواراً كثيرة من السكنى المتعاقبة. وبالإضافة إلى الألوف الكثيرة من التلول الأثرية المنبثة في جميع أرجاء العراق، فإن خير ما يشاهده المرء الآن قلعة كركوك القديمة التي هي في واقع الأمر تل اصطناعي تكوَّن من تراكم طبقات السكنى المتعاقبة لعله منذ منتصف الألف الثالث ق.م إلى الزمن الحاضر، حيث دور السكنى الحديثة فوق قمة التل وتحتها أسس جدران لبيوت من العهد العثماني وتحت هذه أنقاض سكنى من أدوار أقدم،

وهكذا إلى قعر التل حيث بقايا أول استيطان في الموضع وهي تقوم فوق ما يسمى في علم الآثار بالأرض البكر (Virgin Soil)، والمثال الثاني رابية قلعة أربيل التي نشأت أيضاً من تراكم أدوار متعاقبة من السكنى. إن مثل هذه التلول بمثابة سفر متكامل تبدأ فصوله الأولى منذ أول دور من أدوار الاستيطان فيه إلى الفصل الأخير فوق سطح التل بعد أن يهجر الموضع.

وهناك عوامل كثيرة لترك مواضع السكنى القديمة والانتقال إلى أماكن جديدة، وهي تختلف باختلاف المواضع. فمن بين هذه العوامل أن موضع السكنى إذا ارتفع ارتفاعاً كبيراً بسبب تراكم بقايا السكنى بعضها فوق بعض تركه السكان وسكنوا في موضع جديد. ومنها انقطاع موارد المياه مثل جفاف الآبار والعيون وأهم من ذلك تغيير مجاري الأنهار التي شيّدت فوق ضفافها تلك المستوطنات. وقد سبق أن نوَّهنا بهذه الظاهرة في كلامنا على جغرافية العراق، ومثَّلنا على ذلك بالتلول الكثيرة التي كانت تقع يوماً ما على مجاري الأنهار القديمة. ونذكر أيضاً انتقال الطرق التجارية التي كان مرورها من بعض المواضع السبب في نشوء بعض المستوطنات، ومنها تدهور الأراضي الزراعية وحاصلاتها من جراء انتشار الملوحة في التربة أو شح المياه والآفات الطبيعية الأخرى مثل التدمير والحريق الناجمين عن الحروب.

2 ـ معنى الطبقة الأثرية والدور الحضاري:

كثيراً ما نكرر ورود مصطلح «الطبقة الأثرية» و«الدور الحضاري»، وسنستعملهما مراراً في كلامنا على أدوار حضارة وادي الرافدين ولا سيما في الفصل المخصص لعصور ما قبل التأريخ. ولأن فهم هذين المصطلحين جزء من الموضوع الذي بين أيدينا، أي ضبط تسلسل الأدوار التأريخية، فينبغي شرح مفهومهما في عرف المنقبين والباحثين. يمكن تعريف الطبقة الأثرية (Level) أو (Stratum) بأنها دور بنائي أو دور سكني (Building Level) سواء كان البناء من جدران وتباليط (Pavement) تابعة لها، أم من أرضيات ترابية أو طينية مدكوكة مما يبقى من سكنى الإنسان في الخيام أو الأكواخ أو الملاجىء الجبلية

أو الكهوف، ولا سيما في عصور ما قبل التأريخ البعيدة. وإلى ذلك يوجد ما يصطلح عليه بالطبقة الأثرية الثانوية، وهي دور بنائي ينشأ من التغييرات أو التجديدات في البناء مثل إزالة بعض جدرانه وتجديد البعض الآخر منها أو تجديد تبليطه أو إضافة بعض الأجزاء والمرافق الجديدة. أما الدور الحضاري (Cultural Period) فإنه حقبة زمنية قد تدوم بضعة قرون وتتألف في الموضع الأثري من عدة طبقات أثرية، وتتميز بآثارها الخاصة وطرزها المعمارية المميزة وأوانيها الفخارية، أي إنها تمثل جملة خصائص حضارية في تأريخ القطر المبحوث في حضارته، وتتضمن تبدلات ثقافية مثل الاختراعات الجديدة. وقد يكون الدور الحضاري مصحوباً بتغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية. وسيمر بنا في كلامنا على عصور ما قبل التأريخ في العراق كيف يمثل الدور الحضاري في المدن القديمة بعدة أدوار بنائية. فمثلاً كشف في الوركاء عن ثمانية عشر دوراً بنائياً تتوزع على أربعة أدوار أو عصور حضارية رئيسية منذ أقدم عهود الاستيطان في دور العبيد ثم دور الوركاء وجمدة نصر وعصر فجر السلالات. والباحثون الآن في وضع يستطيعون معرفة الدور الحضاري بمجرد فحص آثار قليلة منه، وأكثر من هذا يستطيع الفاحص للملتقطات السطحية فوق التلول الأثرية ولا سيما كسر الفخار أن يعين أبرز أدوار الموضع الأثري قبل التنقيب فيه.

3 ـ تسلسل الطبقات الأثرية وتحديد أزمانها بوجه تقريبي:

من البديهي أن تكون الطبقة الأثرية السفلى وما يعثر عليه فيها من آثار وأبنية أقدم زمناً من الطبقة التي تليها إلى الأعلى. وقد سبق أن شبهنا التلول الأثرية المؤلفة من عدة طبقات بنائية متسلسلة في أزمانها بأنها مثل الكتاب المنضد الصفحات. وقبل أن نعدد أشهر الطرق التي يستعان بها في تحديد أزمان هذه الطبقات والدور الحضاري المؤلف منها ننوّه بأن الباحث الأثري يستطيع أن يخمن عدد السنين التي تستغرقها هذه الطبقات بوجه تقريبي، إذ يتعذر وضع قواعد ثابتة لأن الفترات الزمنية التي تدوم فيها الطبقات الأثرية تختلف باختلاف الأقطار وباختلاف مادة البناء وجودة البناء. فالبناء المشيد

بالحجر مثلاً أطول عمراً من بناء الآجر ولا سيما الآجر الرديء النوع؛ وجدران الآجر بدورها تدوم زمناً أطول من عمر بناء اللبن (الآجر غير المفخور أو غير المشوى)، وبناء اللبن يعمر أكثر من بناء الطين، كما في أكواخ الطين من عصور ما قبل التأريخ. وتؤثر عوامل المناخ من رطوبة وجفاف في عمر الطبقة البنائية المشيّدة باللبن. وجرى العرف الأثري على تخصيص زمن جيل واحد (أي في حدود 20 ـ 30 سنة) لعمر بناء اللبن والطين، أما أبنية الحجارة والآجر فتعمر أزماناً أطول قد تصل في بعض الحالات إلى قرن من الزمان وبضمن ذلك أدوار التجديد الثانوية.

وفي حالة عصور ما قبل التأريخ، ولا سيما تلك التي لم يعرف فيها الإنسان بناء البيوت بل كان يعيش كما قلنا في المغاور والكهوف والأكواخ، تكون أعمار الطبقات الأثرية فيها مقتصرة على تقدير ثخن الأنقاض التي تتجمع وتتراكم من سكنى الإنسان في مثل تلك المواضع، ويختلف تقدير أعمار هذه الطبقات من قطر إلى آخر. ففي التحريات الأثرية التي أجريت في الهند والباكستان مثلاً قدر عمر طبقة ثخنها خمسة أقدام بأنه استغرق من عام 50ق.م إلى 200 ميلادي، أي زهاء (250) عاماً، وفي موضع آخر قدر عمر طبقة أثرية ثخنها (6ـ9) أقدام بحوالي القرنين من الزمان.

ونختار من الأمثلة على تقدير أزمان الطبقات الأثرية الطريقة الطريفة التي قدرت بها أدوار معبد الإله «سين» في الموضع المسمى «خفاجى»[1] (منطقة ديالى)، فقد سجلت لهذا المعبد عشرة أدوار بنائية أساسية تبدأ من دور «جمدة نصر» في حدود 3100 أو 3000ق.م وتنتهي قبيل العصر الآكدي في حدود 2400ق.م. وقدر عمر المعبد السابع بأسلوب بارع في حساب مقدار ارتفاع الأنقاض وربطها بعدد «التماليط» (Plastering) التي ملطت بها جدران ذلك المعبد وقدرها (16) مرة أي (16) قشرة أو طبقة من الملاط. وعلى فرض أن

---

(1) من المواضع المهمة التي تحرتها بعثات التنقيب الأمريكية (المعهد الشرقي، جامعة شيكاغو) في منطقة ديالى. وسيرد الكلام عليه في الفصل الخاص بعصر فجر السلالات. انظر: *OIP*, (1942), 6ff.

الملط كما هو متعارف عليه في العراق كان يتم في كل عام، فيكون زمن هذه التماليط (16) عاماً، ويقابل ذلك ارتفاع أرضية المعبد عند مدخله بمقدار (12) سم، ولكن تبليط المعبد في داخله ارتفع (75) سم. فإذا كان ارتفاع (12) سم قد حدث في خلال (16) عاماً فإن ارتفاع 75سم يكون قد استغرق زهاء المائة عام. وبموجب هذا الحساب التقريبي أمكن تقدير أدوار المعبد السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر، وهي المعابد التي شغلت أطوار عصر فجر السلالات الأول والثاني والثالث التي قدرت مدتها الكلية ما بين (600) و(500) عام. وبما أن المعبد العاشر، وهو المعبد الأخير، قد هجر وترك استعماله قبيل بداية السلالة الآكدية في حدود 2370ق.م، فتقدر بداية عصر فجر السلالات السالف الذكر في حدود 2900 أو 2800ق.م.

وبالاستعانة بمضاهاة الأختام الإسطوانية من دور جمدة نصر للأختام التي استعملت في مصر في الدور المسمى «نقادة» الثاني الذي حدد زمنه قبيل 3100ق.م، أمكن أيضاً تحديد بداية دور جمدة نصر في العراق في حدود هذا التأريخ، وتقدير دور الوركاء الأخير (الطبقة الخامسة في الوركاء) في حدود 3500 ق.م.

4 ـ الاستعانة بمعطيات بعض العلوم الطبيعية:

كنا قد نوَّهنا في أثناء عرضنا لتأريخ التنقيبات بأن ما يميّز التنقيبات العلمية الحديثة استعانتها بطائفة من الاختراعات التي توصلت إليها العلوم الطبيعية مثل الكيمياء والفيزياء الذرية والجيولوجيا وغيرها، في تحديد أزمان أدوار التأريخ وما قبل التأريخ بالنسبة إلى عهد ثابت مثل العهد الميلادي. ونعدد فيما يلي أشهر هذه الطرق التي طبقت بنجاح لا بأس به في هذا المجال[1].

---

(1) ندرج المرجعين الأساسين عن الموضوع:

(1) Zeuner, *Dating the Past*, (1958).

(2) *Science on Archaeology*, (Second ed., 1969), section I.

1 ـ البقايا الجيولوجية:

يستعان بالمواد الجيولوجية مثل عظام الحيوانات القديمة وبقايا النباتات المتحجرة وغير المتحجرة والطبقات الصخرية الجيولوجية في تحديد تأريخ الآلات والأدوات الحجرية من عصور ما قبل التأريخ مما يعثر عليه في الطبقة الأثرية الجيولوجية، ولا سيما أدوات العصر الحجري القديم الذي يقع زمنه في دهر البلايستوسين، وهو آخر الدهور الجيولوجية قبل نحو مليون عام، ومع قصر هذا الدهر الجيولوجي بالمقارنة مع الدهور الجيولوجية السابقة المتناهية الطول، بيد أن أنواعاً وفصائل حيوانية ونباتية عاشت فيه ولكن انقرض بعضها. وقد عاش البعض منها في النصف الأول منه والبعض الآخر في النصف الثاني بحيث صارت عظام مثل تلك الحيوانات المنقرضة وكذلك بقايا النباتات مما يعثر عليها مع الأدوات الحجرية من العصر الحجري القديم تستخدم لتحديد أزمان هذه الأدوات. وبعبارة أخرى يستفيد الباحث الأثري من بقايا الحيوانات والنباتات القديمة أي ما يسمى (Palaeontology) في تحديد أدوار ما قبل التأريخ البعيدة. ويدخل في هذا الموضوع ما يستنتج عن أحوال المناخ في تلك العصور من دلالة الأنواع النباتية والحيوانية، وتشخيص عظام الحيوانات التي يعثر عليها المنقبون أيضاً هل كانت حيوانات وحشية أو مدجنة. وسنتطرق في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ إلى الإفادة من ظاهرة العصور الجليدية والفترات الفاصلة ما بينها، وبما يقابلها من عصور ممطرة وجافة في الشرق الأدنى في تحديد أزمان الأدوات الحجرية وبوجه خاص أدوات العصر الحجري القديم.

2 ـ النظائر أو العناصر المشعة:

ومن الطرق العلمية الحديثة التي طبقت حديثاً في تحديد أزمان المواد الأثرية الظاهرة التي تعرف بمصطلح النظائر (Isotopes) أو العناصر المشعة (Radio-Active)، أي وجود عدة أشكال للعنصر الواحد ذات أوزان ذرية

مختلفة[1]، والعادة في هذه النظائر أنها غير ثابتة، لأن ذراتها مشعة فتتحول إلى عناصر أخرى.

ومن العناصر المشعة التي استخدمت في تحديد أزمان العصور التأريخية شكل من أشكال «الكاربون» يختلف عن الكاربون الاعتيادي في أن وزنه الذري 14 في حين أن الوزن الذري للكاربون الاعتيادي 12، ولذلك عرف باسم «كاربون ـ 14». وكان أول من طبق استخدام «الكاربون ـ 14» (C14) في تحديد أزمان الآثار العالم الطبيعي «لبي» (Libby) من جامعة شيكاغو منذ عام 1948، وتبعه باحثون آخرون، وما زال البحث فيها وتحسينها جاريين حتى الآن. وبالنظر إلى أهمية هذه الطريقة والآمال التي يعلقها عليها الآثاريون فإنه من المفيد أن نوجزها، فنقول إن الأشعة الكونية (Cosmic Rays) الآتية من خارج الجو الأرضي تولد بتفاعلها مع نايتروجين (آزوت) الأرض نوعاً من الكاربون المشع، هو الذي ذكرناه باسم «كاربون ـ 14» الذي قلنا إنه نظير الكاربون الاعتيادي. وإن هذين النوعين من الكاربون موجودان في ثاني أوكسيد الكاربون في الأجواء الأرضية بنسبة ثابتة تقدر بنحو واحد من البليون من «كاربون ـ 14» لكل غرام واحد من «كاربون ـ 12» الاعتيادي. وتمتص ثاني أوكسيد الكربون المحتوي على هذين النوعين من الكاربون الأجسام الحية (الأجسام العضوية) وخاصة النباتات، ولكنه يدخل أيضاً في بناء أجسام الحيوانات عن طريق غذائها بالنباتات. وتبقى نسبة الكميتين لهذين الشكلين من الكاربون ثابتة في الأجسام الحية ما دامت على قيد الحياة، ولكن متى ما مات العضو الحي توقفت عملية امتصاص الكاربون. وبما أن «الكاربون ـ 14» عنصر مشع كما ذكرنا فيبدأ بالإشعاع من جسم العضو الميت وتتناقص نسبة وجوده بمرور الأزمان إلى أن يتلاشى حيث يتحول إلى عنصر النايتروجين، في حين أن الكاربون الاعتيادي ذا الوزن الذري 12 يظل ثابتاً. وقد وجد أن

---

(1) النظير (Isotope) شكل من أشكال العنصر الواحد التي لها أعداد متساوية عن البروتونات والإلكترونات في نوى ذراتها، ولكنها تحتوي على أعداد مختلفة من النيوترونات، ولذلك فهي متساوية في أعدادها الذرية ولكنها مختلفة في أوزانها الذرية (Atomic Weight).

تناقص وزن النوع الأول من الكاربون (C14) يسير على نسب منتظمة، فإنه يفقد نصف وزنه في مدى كل (5600) عام أو 5750 عام، أي ما يسمى بدورة «نصف العمر» (Half life cycle) في ظاهرة العناصر المشعة، وبعد مضي هذه الدورة يفقد نصف الوزن المتبقي إلى أن يتحول إلى عنصر النايتروجين كما ذكرنا. ويمكن قياس ما يتبقى منه في المادة العضوية الميتة بواسطة جهاز كهربائي حساس (جهاز (Geiger)).

ولهذا فلو أننا جمعنا كمية من المواد العضوية مما نجده في طبقة أثرية معينة، مثل بقايا العظام أو الفحم أو الخشب أو المحار أو البواري والحصر، وأجريت عليها في المختبر عمليات كيميائية خاصة مثل حرقها وتطهيرها من شوائب المواد الغريبة ثم قيس ما بقي فيها من الكاربون ـ 14 لأمكن تحديد الزمن الذي ماتت فيه تلك المواد العضوية، أي الزمن الذي استعملها الإنسان في ذلك الدور الأثري، وتحديد زمن هذا الدور أو الطبقة الأثرية. وبالنظر إلى قلة نسبة الكاربون ـ 14 في المواد العضوية وضرورة إجراء العمليات الكيماوية التي نوَّهنا بها فيلزم تزويد المختبرات الخاصة بهذه الطريقة بكميات مناسبة من المواد العضوية الأثرية تتراوح ما بين 65 و700غرام: 65غراماً إذا كانت فحماً و200 غرام في حالة البقايا النباتية الأخرى كالخشب والحبوب والحصر ونحو 700 غرام في حالة العظام والمحار[1].

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن هذه الطريقة بذكر بعض نقائصها وعيوبها ومجالات تطبيقاتها. فأولاً إنها حديثة الاستعمال ولكنها في تطور وتحسن، ثم إن صغر نسبة الكاربون ـ 14 الموجود في المواد العضوية وكذلك دورة «نصف العمر» القصيرة يجعلان المدى الذي تستعمل فيه هذه الطريقة لا يتعدى أبعد من 50,000 أو 60,000 عام، ولذلك فهي لا تصلح لتحديد أزمان الأدوار الأولى

---

(1) عن طريقة «الكاربون ـ 14» راجع المصادر التالية:

(1) Libby *Radio-Carbon Dating* (1955).

(2) R. Braidwood in *Sumer*, 23, (1967), 39ff.

(3) *Science in Archaeology* (1969).

من العصر الحجري القديم التي قد يبلغ بعضها إلى حدود نصف مليون عام. وإلى ذلك يوجد هامش في الزيادة والنقصان في أرقام التقديرات الناتجة ما بين 200 و300 عام، ولذلك فلا يصلح فحص الكاربون ـ 14 لتقدير الأدوار التأريخية التي لا تحتمل مثل هذه الزيادة أو النقصان. كما أن التلوث في المواد العضوية المراد فحصها يكون مصدر خطأ في التقدير. والغالب أن الفاحص المختص يجب أن يزود مسبقاً بتقدير عمر المواد الأثرية التي يفحصها، أي تقدير عمرها الأثري بالطرق الأثرية المتبعة عن الآثاريين.

ولكن رغم كل هذه النقائص وغيرها في هذه الطريقة فإنها طبقت واستفيد منها في تقدير أدوار حضارية مهمة في العراق ومصر وأقطار الشرق الأدنى الأخرى وغيرها، وتكون الفائدة منها أضبط وأجدى إذا قورنت نتائجها مع التقديرات الأخرى التي يحصل عليها من طرق التأريخ الأخرى.

وهناك طرق حديثة أخرى مستندة إلى معطيات العلوم الطبيعية لا مجال لشرحها[1]، فنكتفي بالتنويه بإحداها، وهي طريقة فحص «البوتاسيوم ـ أرغون» المرموز لها بـ K-A (Potassium-Argon) المستندة إلى ظاهرة البوتاسيوم المشع ذي الوزن الذري (40) (K-40) وتحوله بالإشعاع بمرور الزمن إلى «أرغون» وقياس ما يتبقى من ذلك العنصر المشع مع البقايا العظيمة في الكهوف وطبقات الصخور. وتصلح هذه الطريقة للاستعمال في مدى أبعد قد يبلغ عدة ملايين من السنين بالنظر إلى طول دورة «نصف العمر» الخاصة بهذا العنصر.

أثبات الملوك والسلالات الحاكمة:

ومن المصادر المهمة التي اعتمدها الباحثون في حضارة وادي الرافدين لتحديد تسلسل الحكام والملوك والسلالات الحاكمة التي حكمت في العراق

---

(1) عن طريقة «الكاربون ـ 14» راجع المصادر التالية:

(1) Libby *Radio-Carbon Dating* (1955).

(2) R. Braidwood in *Sumer*, 23, (1967), 39ff.

(3) *Science in Archaeology* (1969).

القديم منذ أبعد عصور التأريخ إلى العهود الأخيرة ما خلفه الكتبة القدماء من أثبات أو جداول مطولة بأسماء السلالات الحاكمة وترتيب تسلسلها الزمني، وجداول مهمة بالحوادث التأريخية التي كانوا يؤرخون منها، وأثبات بأسماء بعض السلالات المتعاصرة، إلى غير ذلك من النصوص التأريخية التي استعين بها في ضبط تسلسل الأدوار التأريخية وتحديد سني الملوك. وقبل أن نذكر هذه الأثبات نمهد لذلك بذكر الطرق المختلفة التي سار عليها سكان العراق القدماء في تأريخ الحوادث.

طرق تأريخ الحوادث في حضارة وادي الرافدين:

لم يتخذ سكان وادي الرافدين القدماء عهداً ثابتاً يؤرخون منه على غرار العهود الثابتة المشهورة مثل التأريخ الميلادي أو الهجري قبل اتخاذ العهد السلوقي (تشرين الأول عام 311ق.م) عهداً ثابتاً لتأريخ الحوادث منه، فكانوا قبل هذا يؤرخون الأحداث أما من حادثة مهمة تقع في أول السنة أو في السنة السابقة فتعتمد رسمياً للتأريخ، أو يؤرخون بسني حكم الملوك أو بطريقة «اللمو» الآشورية في تسمية كل سنة من حكم الملك باسم أحد كبار موظفي الدولة بهيئة دورية[1].

---

(1) نعدد فيما يلي العهود التأريخية (Eras) المشهورة التي اتخذتها الأمم والشعوب القديمة لتأريخ الحوادث منها:

1 ـ العبرانيون: منذ الخليقة التي قدروا بدايتها في 4004ق.م.

2 ـ اليونان: منذ دورة الألعاب الأولمبية الأولى (Olympiad) في عام 776ق.م.

3 ـ الرومان: منذ تأسيس مدينة روما في عام 753ق.م.

4 ـ العهد السلوقي في العراق وسورية في عام 311ق.م.

5 ـ العهد الروماني في سورية 63ق.م (الفتح البومبي نسبة إلى القائد الروماني).

6 ـ العهد الميلادي (ميلاد المسيح في حدود 4 ـ 2 ق.م).

7 ـ العهد القبطي في مصر في 284م (فترة اضطهاد الأمبراطور الروماني ديوقليشان للمسيحين).

8 ـ العهد الهجري (الهجرة النبوية عام 622م).

1 ـ طريقة التأريخ بالحوادث المشهورة:

باستثناء فترة قصيرة استعملت فيها طريقة التأريخ بسني حكم الحكام في سلالة مدينة «لجش» الأولى (منتصف الألف الثالث ق.م)، كانت طريقة التأريخ من الحوادث المهمة الأسلوب المتبع في تقويم الأحداث في العراق القديم من أقدم الأزمان إلى العصر الكشي (منذ القرن السادس عشر ق.م) الذي شاع فيه أسلوب التأريخ بسني الملوك وبقي مستعملاً إلى العهد السلوقي حيث اتخذ العام 311ق.م عهداً ثابتاً يؤرخ منه كما ذكرنا. وبموجب طريقة التأريخ من الحوادث تستعمل السنة الأولى من حكم الملك الجديد فيؤرخ منها وتسمى: «السنة التي توج فيها الملك الفلاني». والغالب في صيغ الحوادث المؤرخ منها استعمال اللغة السومرية. فلو فرضنا أن الملك المؤرخ بحوادث سني حكمه الملك حمورابي فتسمى السنة الأولى بالصيغة السومرية (Mu Hammurabi Lugal-e) وجرت العادة أن السنة تسمى بحادثة وقعت في السنة السابقة، ولا تخلو السنون السابقة من أحداث مهمة تتخذ وتعلن رسمياً لتؤرخ منها السنون التالية، مثل حفر نهر جديد أو تشييد معبد وتجديد بنائه أو غلبة الملك في حرب من حروبه أو نحت تمثال لإله معين إلى غير ما هنالك من الأحداث المهمة. وإذا كانت السنة السابقة لم يحدث فيها حادث ذو شأن بحيث يؤرخ منه فتسمى السنة المراد تأريخ أحداثها بعبارة: «السنة التالية» للسنة المسماة بحادثة معينة، وبالمصطلح السومري (mu-us-sa)، وقد تتكرر هذه الصيغة لأكثر من سنة واحدة، مما كان مصدر إرباك وعناء للباحثين المحدثين. وقد جمع الكتبة القدماء أثباتاً مطولة بأسماء الحوادث المؤرخ منها، مما يصطلح عليه (Date form ulae) خصص بعضها لعهد ملك واحد وبعضها لمجموع الحوادث المؤرخ بها لحكم السلالات المختلفة. ومما لا شك فيه أن جامعي سلالات الملوك استندوا في ترتيب أسماء ملوك هذه السلالات وأطوال سني حكمها وعهود ملوكها إلى تلك الأثبات المهمة، وبالنسبة إلى الباحثين في العصر الحديث

تعد هذه الأثبات من أثمن المصادر التأريخية لمعرفة أحداث التأريخ المهمة الخاصة بالملوك والسلالات[1].

2 ـ طريقة «اللمو» الآشورية:

ظلت طريقة التأريخ من الحوادث المشهورة مستعملة في بلاد بابل كما قلنا منذ أقدم العهود التأريخية حتى ظهر استعمال التأريخ بسني حكم الملوك في العهد الكشي (القرن السادس عشر ق.م)، وكانت طريقة سهلة، وبقيت في الاستعمال إلى العهد السلوقي في العراق الذي أدخل فيه أسلوب التأريخ من عهد ثابت (311ق.م). ويجدر أن ننوّه بهذا الصدد أن العرب قبل اتخاذهم العهد الهجري (622م) استعملوا كلتا الطريقتين في التأريخ، فكانوا يؤرخون من الحوادث المشهورة مثل عام الفيل ومن سني حكم الملوك الساسانيين.

أما الآشوريون فقد استعملوا طريقة التأريخ التي ذكرناها باسم «لمو»[2] أي الدورة الخاصة بحكم كل ملك، حيث كانوا يخصصون السنة الأولى أو الثانية من حكم الملك الجديد إلى هذا الملك فيؤرخون منها ثم السنين التالية إلى كبار موظفي الدولة إلى أن ينتهي حكم الملك فيبدؤون بدورة جديدة تخصص لعهد الملك الذي يخلفه وهكذا. وعلى هذا تكون الفترة الزمنية بين تولي ملك ما وظيفة «اللمو» وتولي خليفته لهذه الوظيفة المدة التي استغرقها حكم الملك الأول. وخلف لنا الكتبة الآشوريون أثباتاً مطولة باللمو وهي أثبات متممة لأثبات الملوك والسلالات الحاكمة وكانت مصدراً أساسياً لأولئك الكتبة في تنظيم أثبات الملوك. ولم يقتصر جامعو أثبات «اللمو» على مجرد تعداد سني حكم الملوك بل كانوا يذكرون في كثير من الأحايين بعض

---

(1) حول ترجمة أثبات الحوادث المؤرخ بها راجع المصادر الأساسية التالية:

(1) *ANET*.

(2) *RLA*, II, (Daten Listen).

(2) «لمو» (Limmu) مصطلح آشوري (وكذلك (Limum) في العصر الآشوري القديم) مشتق من جذر الفعل (Lamû) أو (Lawû) الذي يعني «دار، يدور» أو أحاط بالشيء.

الحوادث المهمة التي تقع في أثناء سنة «اللمو»، مثل ذكر حادثة كسوف الشمس في «لمو» الموظف الآشوري المسمى «بور ـ شگاله» في شهر «أيار ـ حزيران» من حكم الملك الآشوري «آشور ـ دان» الثالث، وقد حسبت هذه الحادثة الفلكية فأمكن تحديد وقوعها في 15 حزيران عام 763 ق.م. وبالاستعانة بهذه النقطة الثابتة بالنسبة إلى العهد الميلادي أمكن تعيين أزمان الملوك الذين سبقوا هذا الملك والذين أعقبوه بطريقة الجمع والطرح وبالاستناد إلى معرفتنا بسني حكم كل ملك من الملوك الآشوريين إلى حدود 1700ق.م، أي بداية حكم سلالة الملك الآشوري المسمى «أداسي». أما الفترات السابقة لحكم هذا الملك فلا يمكن تقديرها بوجه دقيق من جراء انخرام أثبات الملوك ونقصانها.

وقد جرى العرف في بلاد آشور أنهم كانوا يقيمون مسلة خاصة بالموظف الذي تسمى باسمه سنة «اللمو»، وتوضع صفوف المسلات المنقوشة بأسماء المشاهير من موظفي الدولة وهي مرتبة بحسب أزمانها في الميدان الكبير من مدينة آشور، أو أنهم كانوا يدونون أسماء كبار الموظفين الذين تسمى بأسمائهم سنين «اللمو» في ألواح من الطين. وكما هو الحال في إثبات الحوادث المؤرخ منها عند البابليين جمع الكتبة الآشوريون قوائم «باللمو» أمكن إرجاع أزمانها من أحدث العهود الآشورية إلى حدود القرن الحادي عشر ق.م[1]، ولكن طريقة التأريخ باللمو تمتد إلى أبعد من هذا التأريخ.

أثبات الملوك السومرية والبابلية:

أ ـ الأثبات السومرية:

سبق أن نوَّهنا كيف أن الكتبة في حضارة وادي الرافدين جمعوا جداول أو أثباتاً بأسماء الملوك والسلالات الحاكمة في البلاد، وخلفوا لنا من ذلك

---

(1) عن أثبات «اللمو» راجع:

RLA, II, (Eponymn Listen). *ARAB*, II.

نماذج متنوعة ومهمة، بعضها يقتصر على أسماء ملوك سلالة معينة واحدة، وتضمن بعضها جملة سلالات. فمن هذا النوع الثاني ما يعرف في تأريخ العراق القديم بأثبات الملوك السومرية (Sumerian King-List)، وهي أثبات مطولة ومفصلة شملت الملوك الذين حكموا البلاد في عهد ما قبل الطوفان ثم السلالات التي حكمت من بعد ذلك الحدث إلى الزمن الذي جمعت فيه تلك الأثبات. وقد وجدت منها جملة نسخ آخرها النسخة التي دونت في عهد السلالة البابلية المسماة سلالة «أيسن» (2017 ـ 1794ق.م) حيث تنتهي تلك الأثبات في نهاية حكم هذه السلالة. أما زمن أول جمع لها فيرجح أنه قد تمّ في عهد سلالة أور الثالثة[1] (2112 ـ 2004ق.م). ولما كنا سنورد ترجمة خاصة لهذه الأثبات في الفصل الخاص بعصر فجر السلالات فنكتفي الآن بذكر بعض الملاحظات الموجزة، منها أن تلك الأثبات ذكرت السلالات الحاكمة مع عواصمها أو المدن التي حكمت فيها على أنها متعاقبة في حين أن الكثير منها كان متعاصراً بصورة كلية أو جزئية، كما بالغت في الأرقام المخصصة لسني حكم الملوك وبوجه خاص ملوك السلالات القديمة مما قبل الطوفان وبعده بقليل، كما أن جامعي تلك الأثبات أغفلوا ذكر سلالات حكمت في العصور القديمة مثل سلالة مدينة «لجش» في عصر فجر السلالات الثالث، ولعل سبب ذلك ناشئ من اعتبارات سياسية، إلى غير ذلك من العيوب والشوائب التي تجعل الإفادة منها كمصدر تأريخي لا تتم إلا بعد النقد والتمحيص والاستعانة بالمصادر الأخرى. ومن ناحية التنظيم رتبت تلك الأثبات بقسمين رئيسين: (1) سلالات حكمت قبل الطوفان في خمس مدن مجموع ملوكها ثمانية ملوك ومجموع سني حكمهم (241000) عام، (2) ثم

---

(1) حول أثبات الملوك السومرية انظر:

(1) Th. Jacobsen, *The Sumerian King-List* (1939).

(2) M.B. Rowton, «The Date of the Sumerian King-List» in *JNES,* (1960), 156ff.

(3) *ANET,* 211ff.

يأتي الطوفان، وبعد الطوفان هبطت الملوكية من السماء وحلّت في مدينة «كيش»، فتعدد أسماء ملوكها وسني حكم كل منهم ثم يعقب ذلك عشرون سلالة، عدد ملوكها نحو (140) ملكاً إلى آخر ملوك سلالة «ايسن» التي دونت في عهدها آخر النسخ من هذه الأثبات كما ذكرنا.

ب ـ أثبات الملوك البابلية:

ونظم الكتبة البابليون في العهود القديمة والوسيطة من تأريخ بلاد بابل جملة أثبات بأسماء السلالات البابلية الحاكمة، وجدت منها عدة نماذج، بعضها بهيئة أجزاء غير كاملة، نذكر منها ما يعرف لدى الباحثين باسم ثبت الملوك البابلي «أ» (The Babylonian King-List «A»)، وجاءتنا آخر نسخة منه من العهد البابلي الأخير (القرن السادس ق.م)، ويتضمن أسماء السلالات البابلية الحاكمة من سلالة بابل الأولى (1894ـ1595ق.م) إلى عهد الحاكم الآشوري في بابل المسمى «قندلانو» (627ق.م). ومما يؤسف له أن هذا الثبت مشوه، كثير الخروم، ولكن يكمل معظم النواقص الموجودة فيه ثبت ملوك آخر يدعى «ب» (King-List «B»)، ويتضمن أسماء ملوك سلالة بابل الأولى وملوك السلالة المسماة «سلالة القطر البحري»، ولكنه غفل من أرقام السنين الخاصة بحكم الملوك. وهناك ثبت ثالث يعرف بثبت «ج» (King-List «C») لم يبق منه سوى أسماء سبعة ملوك من ملوك سلالة بابل الرابعة التي تلت العهد الكشي (سلالة بابل الثالثة).

وإلى هذه الأثبات توجد ثلاثة أثبات أخرى تعدد بعض السلالات البابلية الحاكمة في الفترة الزمنية ما بين نهاية سلالة أور الثالثة وبين عهد حمورابي. فبالإضافة إلى أثبات الملوك السومرية السالفة الذكر يوجد ثبت خاص بملوك سلالة أور الثالثة وآخر بأسماء ملوك سلالة «اسين»، وثبت ثالث بأسماء ملوك سلالة لارسة المعاصرة لسلالة «ايسن».

جـ ـ ثبت بطليموس:

نظم الفلكي والجغرافي الشهير «بطليموس» (القرن الثاني الميلادي)

جدولاً بأسماء الملوك البابليين والفرس وسني حكمهم من عهد الملك البابلي «نبوناصر» (746ـ734ق.م)، وشمل كذلك أسماء الأباطرة الرومان إلى زمن الأمبراطور «انطونينوس بايوس» (138ـ161م). وذكر أيضاً في ثبته هذا جملة من الظواهر الفلكية المهمة. ويعرف هذا الجدول عند الباحثين باسم قانون بطليموس (Ptolemy Canon) وهو يتداخل مع جداول «اللمو» الآشورية ما بين عام 747 و631ق.م. وعلى هذا تتضح أهمية هذا الثبت في تحديد عهود الملوك البابليين والآشوريين بالنسبة إلى عهد ثابت هو العهد الميلادي.

د ـ أثبات الملوك الآشورية:

وكما كان الحال عند كتبة بلاد بابل خلف لنا زملاؤهم الكتبة والنساخ الآشوريون جملة جداول أو أثبات بأسماء ملوك بلاد آشور منذ أقدم أزمان تأريخهم، وعلى وجه التحديد منذ استقلال بلاد آشور من بعد سلالة أور الثالثة، وقد سبق أن نوَّهنا بما جاءنا من أثبات اللمو التي تعد متممة لأثبات الملوك. ونعدد أشهر هذه الأثبات[1]:

ثبت خرسباد:

عثرت بعثة التنقيبات التي أوفدتها جامعة شيكاغو (المعهد الشرقي) إلى خرسباد (دور ـ شروكين) في عام 1932 ـ 1933 على وثيقة تأريخية مهمة بالنسبة إلى التأريخ الآشوري بوجه خاص وتأريخ العراق القديم بوجه عام، إذ وجدت ثبتاً مطولاً وكاملاً تقريباً يتضمن ملوك بلاد آشور من حكم الملك «شمسي أدد» الأول (1813 ـ 1781ق.م) المعاصر للملك البابلي حمورابي

---

(1) عن أثبات الملوك الآشوريين انظر:

(1) Poebel, «The Assyrian King-List from Khorsabad» In *JNES*, (1942), 247ff. *IBID*. (1943), 56ff.

(2) Gelb, «Two Assyrian King-Lists», In *JNES*, (1954), 209ff.

(3) J. Lewy, «A Propos of A Recent Study in Old Assyrian Chornology», in *Orientalia*, (1957), 12ff.

(4) B. Landsberger, «Assyrische Königliste...» in *JCS*, (1954), 31ff.

(1792 ـ 1750ق.م) وينتهي بحكم الملك الآشوري «آشور نيراري» الخامس (753 ـ 746ق.م) أي إنه يتضمن حكم 69 ملكاً. ويذكر التذييل الذي ينتهي به هذا الثبت اسم الكاتب الذي جمعه على هيئة «قندلانو»، أحد كتبة معبد «عشتار» في أربيل اربائيلو مؤرخ بحسب الطريقة الآشورية التي ذكرناها «باللمو» الخاص بحاكم مدينة «آشور» المسمى «أدد ـ بيلا ـ أوكن». ووجد ثبت ثانٍ بأسماء ملوك بلاد آشور جمع أحد كهنة الإله «آشور» في مدينة آشور، ينتهي بالعام 722ق.م. ونشر ثبت ثالث في لوح هُرب إلى أمريكة واقتناه «معهد الجمعية السبتية» هناك وهو ذو صلة بثبت خرسباد.

هـ ـ أثبات الملوك المتعاصرين:

بالإضافة إلى الأنواع التي عددناها من أثبات الملوك خلف لنا الكتبة الآشوريون نوعاً طريفاً ومهماً من الأثبات أطلق عليه اسم «ثبت الملوك المتعاصرين» (Synchronistic King-Lists). وقد رتب في لوح الطين بعمودين من الكتابة أحدهما بجانب الآخر، يذكر العمود الأول (82) ملكاً آشورياً ابتداء من الملك الآشوري «ايريشم» ابن الملك «ايلو شوما» (مطلع الألف الثاني ق.م)، وينتهي بالملك «آشور بانيبال» (668ـ627ق.م)، ويذكر في العمود الثاني 98 ملكاً من ملوك البابليين المعاصرين للملوك الآشوريين ابتداء من الملك الثاني من ملوك سلالة بابل الأولى «سومولئيل» وينتهي بحكم الملك «قندلانو». وبهذا تتضح أهمية هذا الثبت في تحديد تواريخ السلالات الحاكمة ليس في بلاد آشور حسب، بل في تأريخ وادي الرافدين، بالاستناد إلى ما ذكرناه من تمكن الباحثين من تحديد أدوار التأريخ الآشوري بالنسبة إلى عهد ثابت من حادثة كسوف الشمس التي ذكرت في أثبات الملوك الآشوريين في عهد الملك «آشور دان» (عام 763ق.م)، حيث استعان الباحثون بهذا التعاصر ما بين الملوك الآشوريين والملوك البابليين، وما ثبت الآن من تعاصر الملك البابلي الشهير حمورابي مع الملك الآشوري «شمسي أدد» الأول وملك مملكة «اشنونا» المسمى «أبالبيل» الثاني و«زمري ليم»، ملك مدينة «ماري»

(تل الحريري عند الحدود العراقية السورية)، وتعاصر الملك الكشي «بورنابورياش» مع الفرعون المصري «امنوفس» الثالث وابنه «امنوفس» الرابع (أخناتون)، وتعاصر الملك البابلي «نبوخذ نصر» الأول مع ثلاثة من الملوك الآشوريين هم: «ننورتا - توكلتي - آشور» و«متكل - نسكو» و«آشور - ريش - ايشي».

ونختتم هذه الملاحظات عن الطرق التي اتبعت في تحديد الأدوار التأريخية في حضارة وادي الرافدين بالتنويه بأن الباحثين استفادوا أيضاً من الأرصاد الفلكية التي جمعت عن كوكب الزهرة في عهد الملك البابلي المسمى «عمي - صادوقا»، حفيد حمورابي، وكانت هذه أرصاداً خليطة من الملاحظات الفلكية والملاحظات التنجيمية أي التنبؤات التي كانوا يستنتجونها من الحالات التي كان يظهر فيها كوكب الزهرة. وبما أن هذا الكوكب يتكرر ظهوره في الحالات التي وصفت في تلك الأرصاد في فترات زمنية منتظمة[1]، فقد أمكن حساب هذه الفترات وبالتالي تحديد عهود ملوك سلالة بابل الأولى بوجه تقريبي، وهي تقديرات لا تخلو من فائدة إذا قورنت بالنتائج التي يحصل عليها من اتباع الطرق الأخرى التي نوّهنا بأشهرها.

وندرج فيما يلي أسماء الأدوار الحضارية وتسلسلها وتحديد أزمانها، من خلاصة النتائج التي توصل إليها الباحثون في اتباعهم طرق البحث التي أوجزناها.

---

(1) حول أرصاد كوكب الزهرة انظر:

(1) Langdon and Fortheringham, *The Venus Tablets of Ammizaduga* (1928).

(2) O. Neugebauer in *Journal of the American Oriental Society*, (1941), 59ff.

الأدوار الحضارية

عصور ما قبل التأريخ:

أولاً: العصر الحجري الإيوليثي (Eolithic):

1 ـ طور حجري قديم غير واضح. يقع زمنه في أواخر دهر البليوسين وبداية البلاستوسين (Pleistocene).

2 ـ تعود إليه على ما يرجح طائفة من الأدوات البدائية الساذجة تسمى الأدوات الحصوية (Pebble Tools)، مما وجد في إفريقيا وأجزاء أخرى من الأرض.

3 ـ لم يعثر على بقايا له في العراق.

4 ـ يرجح أن ترجع إليه أنواع من الجنس الإنساني تسمى «بالإنسان الجنوبي» (Australopethecinae) مثل النوع المسمى (Ziajanthropos) الذي وجدت بقاياه العظيمة في الأجزاء الجنوبية من إفريقيا.

ثانياً: العصر الحجري القديم (Palaeolithic):

زمنه منتصف دهر البلايستوسين إلى نهاية العصور الجليدية في أوروبا أي من حدود 600,000 أو 500,000 إلى 10,000ق.م.

ويقسم إلى الأدوار التالية:

أ ـ العصر الحجري القديم الأدنى (Lower Palaeolithic):

1 ـ الدور الـ «أبيفيلي» (Abbevillian):

وكان يدعى سابقاً الدور الشيلي (Chellean). زمنه في الفترة الجليدية الأولى (Günz-Mindel). لم يعثر على أدواته في العراق لحد الآن. ينسب إليه الإنسان البائد المسمى «هايدل برك» (Heidelberg) ونوع الإنسان الأطلسي (إنسان الأطلس في شمالي إفريقيا).

2 ـ الدور الكلاكتوني (Clactonian):

زمنه الفترة الجليدية الثانية (Mindel-Riss). لم يعثر على أدواته في العراق لحد الآن.

3 ـ الدور الآشولي (Acheulian):

أطول أدوار العصر الحجري القديم. ابتداؤه في أوروبا من الفترة الجليدية الثانية في الفترة الثالثة (Riss-Würm)، ويقسم إلى عدة أطوار مثل الآشولي الأول والثاني والثالث (ولا سيما في إفريقيا). ويحتمل أن أدوات حجرية من هذا الدور وجدت في شمالي العراق (في الموضع المسمى برده بلكا قرب جمجمال).

4 ـ الدور اللفالوازي (Levalloisian):

زمنه الفترة الجليدية الثالثة، وله صلة بالدور «اللفالوازي ـ المستيري» الآتي.

ب ـ العصر الحجري القديم الأوسط (Middle Palaeolithic):

1 ـ الفالوازي ـ مستيري.

2 ـ مستيري (Mousterian).

زمنه في الفترة الجليدية الثالثة واستمر إلى العصر الجليدي الرابع (Würm) وعاش فيه نوع الإنسان البائد المسمى «نياندرتال» (Neanderthal) الذي وجدت منه نماذج كثيرة في أجزاء العالم المختلفة ومنها العراق في كهف

«شانيدر»، الطبقة «D» التي وجدت فيها بقايا هذا الدور. ويسمى في شمالي إفريقيا «المستيري ـ العتيري».

جـ ـ العصر الحجري القديم الأعلى (Upper Palaeolithic):

1 ـ شغل في أوروبا الجزء الأخير من دهر البلايستوسين، في العصر الجليدي الرابع قبل نحو 40,000 إلى 50,000.

2 ـ ساد فيه نوع الإنسان الحديث المسمى «الإنسان العاقل» (Homo Sapiens).

3 ـ أطلق على الأدوات الحجرية الممثلة لهذا الدور في شمال العراق اسم الدور البرادوستي (نسبة إلى جبال برادوست)، وتعود إليه الطبقة «C» في كهف شانيدر، كما وجدت أدواته في كهفي «زرزي» و«هزار ميرد» (قرب السليمانية).

4 ـ يسمى في شمالي إفريقيا بالدور «القفصي» (في الأجزاء الداخلية) و«الوهراني» (في الأجزاء الساحلية).

5 ـ تسمى أدواره في أوروبا:

أ ـ بريگودي ـ شاتل بيروني (Perigodian Chatel Peronian) قبل نحو 32,000 إلى 28,000ق.م.

ب ـ أورغنيشي (Aurignacian) 28,00 ـ 22,000ق.م.

جـ ـ كرافيتي (Gravettian) 22,000 ـ 18,000ق.م.

د ـ سلوتري (Solutrean) 18,000 ـ 15,000ق.م.

هـ ـ مگدليني (Magdalnian) 15,000ـ8000ق.م.

ثالثاً: العصر الحجري الوسيط (Mesolithic):

1 ـ يقع زمنه في أواخر دهر البلايستوسين ونهاية العصر الحجري القديم

والعصور الجليدية في حدود الألف العاشر ق.م. يطلق عليه أيضاً اسم دور الأدوات الدقيقة (Microlithic).

2 ـ في العراق، أطلق عليه اسم الدور الزرزي (نسبة إلى كهف زرزي بالقرب من السليمانية). ووجدت أدواته في كهف شانيدر في الطبقة «B» وفي كهف هزار ميرد وأماكن أخرى في شمالي العراق أشهرها: زاوي جمي وبالى كورا وملفعات وكريم شهر.

3 ـ في بلاد الشام: يسمى الدور النطوفي. وفي شمالي إفريقيا الأطوار الأخيرة من الدور القفصي ـ الوهراني.

4 ـ في العراق وبعض أجزاء الشرق الأدنى ظهرت طلائع تدجين الحيوان والزراعة (Incipient Food Production).

رابعاً: العصر الحجري الحديث (Neolithic):

في حدود الألف التاسع أو الثامن إلى 5600ق.م.

في العراق بوجه خاص والشرق الأدنى بوجه عام يقسم إلى الأطوار التالية:

1 ـ بداية العصر الحجري الحديث أو أواخر الحجري الوسيط (Proto Neolithic):

أ ـ كهف شانيدر الطبقات B-2 وA.

ب ـ قرية زاوي جمي.

جـ ـ كريم شهر.

د ـ ملفعات.

هـ ـ كرد ـ جاي.

و ـ الطبقات السفلى من جرمو وشمشارة.

بداية تدجين الحيوان والزراعة وظهور القرى الفلاحية.

2 ـ دور ما قبل الفخار (Prepottery Neolithic):

ما بين الألف الثامن والسابع ق.م.

أطوار حجرية حديثة في شمالي العراق وبلاد الشام وتركية وغيرها لم يظهر فيها الفخار: الطبقات السفلى من «جرمو» (الطبقات 16ـ6، حيث الفخار مقتصر على الطبقات الخمس العليا)، والطبقة «A» من كهف «شانيدر»، والطبقة العليا من قرية «زاوي جمي». والطبقات (14ـ6) من تل «شمشارة».

3 ـ دور الفخار (Pottery Neolithic):

أ ـ جرمو من الطبقات الخمس العليا (5ـ1).

ب ـ حسونة، الطبقة السفلى (1أ Ia).

جـ ـ الطبقات السفلى من تل الصوان.

د ـ أماكن عديدة في الشرق الأدنى مثل جبيل ورأس الشمرا والعمق (الطبقة «A») وغيرها.

ازدهرت في هذا الطور من العصر الحجري الحديث القرى الفلاحية وزاد اعتماد الانسان على الزراعة وتدجين الحيوان.

خامساً: العصر «الحجري ـ المعدني» (Chalcolithic):

من الألف السادس (في حدود 5600ق.م إلى 3500ق.م). ويقسم إلى الأطوار التالية:

1 ـ حجري ـ معدني قديم (Early Chalcolithic):

أ ـ دور حسونة في حسونة وتل الصوان وشمشمارة وغيرها.

ب ـ طور سامراء في المواضع المذكورة في (أ).

جـ ـ أطوار مماثلة في بلاد الشام وتركية وإيران.

2 ـ حجري ـ معدني وسيط (Middle) الألف الخامس:

أ ـ دور حلف المنتشر في شمالي العراق وبلاد الشام والأناضول.

ب ـ في الأجزاء الجنوبية والوسطى من العراق:

1 ـ فخار «اريدو» أو طور «اريدو» = طور العبيد الأول (الطبقات 19 ـ 15 من أريدو).

2 ـ فخار حاج محمد ورأس العمية = العبيد الثاني.

3 ـ حجري ـ معدني متأخر (Late)**(4000 ـ 3500ق.م)**:

1 ـ العبيد الثالث (العبيد القديم سابقاً).

ب ـ العبيد الرابع (العبيد المتأخر سابقاً).

ج ـ الوركاء: (1) الوركاء القديم (الوركاء، الطبقات 12 ـ 7).

(2) الوركاء الوسيط (الوركاء، الطبقات 6ـ5).

ملاحظات:

يقسم دور حلف في الأربجية بوجه خاص إلى الأطوار التالية:

1 ـ حلف قديم (Early) (ما قبل الطبقة العاشرة في الأربجية).

2 ـ حلف وسيط (Middle) (الطبقات 10 ـ 7).

3 ـ حلف متأخر (Late) (الطبقة السادسة).

سادساً: العصر الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتأريخي
(Proto Literate. Proto Historic)؛ **(3500 ـ 2800ق.م)**:

1 ـ دور الوركاء الأخير:

(الوركاء الطبقة الخامسة والرابعة أ، ب، جـ).

2 ـ دور جمدة نصر 3000 ـ 2900ق.م:

(الوركاء الطبقة الثانية والثالثة).

3 ـ عصر فجر السلالات الأول:

2900 ـ 2800ق.م.

العصور التأريخية:

1 ـ عصر فجر السلالات أو عصر دول المدن:

2800 ـ 2370ق.م.

أ ـ عصر فجر السلالات الثاني:

2800 ـ 2600ق.م.

ب ـ عصر فجر السلالات الثالث:

2600 ـ 2370ق.م.

2 ـ السلالة الأكدية:

2370 ـ 2160 أو 2334 ـ 2154ق.م.

3 ـ الدور الكوتي وسلالة لجش الثانية:

1230 ـ 2120ق.م.

4 ـ سلالة أور الثالثة:

2112 ـ 2004ق.م.

5 ـ العصر البابلي القديم:

2000 ـ 1500ق.م:

أ ـ سلالة لارسة:

2025 ـ 1763ق.م.

ب ـ سلالة ايسن:

2017 ـ 1794ق.م.

جـ ـ سلالة اشنونا:

2000؟ ـ 1761ق.م.

د ـ بلاد آشور:

2000 ? ـ 1760ق.م.

هـ ـ سلالة بابل الأولى:

1894 ـ 1595ق.م.

(حمورابي 1792 ـ 1750ق.م).

و ـ سلالة ماري:

1850? ـ 1760ق.م.

6 ـ العصر الكشي:

(1700? ـ 1157ق.م).

الكشيون في بلاد بابل (سلالة بابل الثالثة) 1595 ـ 1157ق.م.

7 ـ سلالة «القطر البحري»:

(سلالة بابل الثانية) 1743 ـ ?.

8 ـ العصر البابلي الوسيط:

(1500 ـ 7/ 626ق.م).

أ ـ سلالة بابل الرابعة 1156 ـ 1025ق.م.

(= سلالة ايسن الثانية).

ب ـ سلالة بابل الخامسة (سلالة القطر البحري الثانية) 1024ـ1004ق.م.

جـ ـ سلالة بابل السادسة (سلالة بازي) 1003 ـ 984ق.م.

د ـ سلالة بابل السابعة 983 ـ 978ق.م (ملك واحد).

هـ ـ سلالة بابل الثامنة 977 ـ 732ق.م.

و ـ سلالة بابل التاسعة 746 ـ 734ق.م.

ز ـ سلالة بابل العاشرة 731 ـ 627ق.م.

9 ـ العصر البابلي الحديث أو الأخير 627 ـ 539ق.م.

(سلالة بابل الحادية عشرة).

10 ـ الدور الفارسي الأخميني (في العراق) 539 ـ 331ق.م.

11 ـ الإسكندر الكبير والدور السلوقي 331 ـ 138/ 126ق.م.

أ ـ فتح الإسكندر للعراق 331ق.م. وفاته في بابل 323ق.م.

ب ـ العهد السلوقي في العراق: 3 نيسان 311ق.م.

12 ـ الدور البارثي (الفرثي أو الإرشاقي): في العراق 138/ 126ق.م ـ227م وفي إيران 250ق.م ـ 6/ 227م.

13 ـ الدور الساساني 7/ 226 ـ 637م.

مجمل الأدوار التأريخية في بلاد آشور:

1 ـ عصور ما قبل التأريخ، كما مرّ سابقاً.

2 ـ دور سيطرة دول بلاد بابل إلى نهاية سلالة أور الثالثة 2500 ? ـ 2000ق.م.

3 ـ العصر الآشوري القديم 2000 ـ 1500ق.م.

4 ـ العصر الآشوري الوسيط 1500 ـ 911ق.م.

5 ـ العصر الآشوري الحديث 911 ـ 612ق.م.

أ ـ الأمبراطورية الآشورية الأولى 911 ـ 745ق.م.

ب ـ الأمبراطورية الآشورية الثانية 745 ـ 612ق.م.

جـ ـ السلالة السرجونية 721 ـ 612ق.م.

الفصل الثالث

عصور ما قبل التأريخ

١ ــ العصور الحجرية:

تعريف عصور ما قبل التأريخ وأدوارها:

تعارف المؤرخون على تقسيم تأريخ الإنسان إلى عصور وأدوار مختلفة، إذ على الرغم من أن سير التأريخ البشري سلسلة من حوادث مستمرة متواصلة الحلقات، حيث الحاضر وليد الماضي واستمرار له، والمستقبل جنين الحاضر متصل به، فإنه يسوغ للمؤرخ، من أجل تسهيل عرض حوادث التأريخ عرضاً تطورياً منطقياً، أن يختار بعض الأحداث الحاسمة في تأريخ تطور الإنسان فيتخذها فاصلاً مميزاً بين عهد وعهد. وقد يكون لبعض تلك الأحداث أثر حاسم في التطور البشري أو في سير تأريخ قطر ما بحيث يصح أن تتخذ علماً واضحاً يفصل ما بين دور ودور، وبين قديم وجديد كالانقلابات والتطورات الحاسمة في حياة الإنسان الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. على أن هناك حالات اختير فيها بعض الحوادث بوجه كيفي ولغرض تسهيل العرض التأريخي للفصل بين العهود التأريخية. ومن هذا القبيل ما تواضع عليه مؤرخو التأريخ العام في إطلاق مصطلح التأريخ القديم على تلك العهود التأريخية الطويلة منذ أقدم الأزمان إلى سقوط روما (476م)، أو كما يصح أن نعد ظهور الإسلام نهاية العصور القديمة في الشرق الأدنى.

والعصور القديمة هذه أزمان طويلة موغلة في القدم، حيث تبدأ منذ أن وجد الإنسان على الكرة الأرضية قبل أكثر من مليون عام؛ ولذلك جرى

المؤرخون على أن يقسموا هذه الحقب الطويلة التي استغرقها تأريخ الإنسان القديم إلى عدة أدوار وأطوار: أولاً تقسيمها إلى عصور ما قبل التأريخ والعصور التأريخية، وثانياً تقسيم كل من هذين العصرين إلى أدوار أخرى سنذكر أسماءها بعد قليل. ويقصد بعصور ما قبل التأريخ (Pre-History) المعنى اللغوي لهذا المصطلح، أي العصور التي سبقت التأريخ أي التدوين بظهور الكتابة. ويقصد بها كمصطلح حضاري تلك العصور الطويلة التي مرّت في تأريخ الإنسان قبل أن يهتدي إلى اختراع وسيلة للتدوين، ويرادف أو يطابق مصطلح بداية التأريخ بداية نشوء الحضارة والعمران في مراكز الحضارات القديمة الأولى في الشرق الأدنى، وأقدمها حضارة وادي الرافدين ووادي النيل حيث تنتهي عصور ما قبل التأريخ في هذين القطرين في مطلع الألف الثالث ق.م. ويتضح من هذا التحديد المصطلح عليه بين الباحثين في تأريخ الحضارات أن نهاية عصور ما قبل التأريخ وبداية العصور التأريخية تختلف باختلاف الأقطار والمواضع المختلفة من الأرض. وإذا كان وادي الرافدين ووادي النيل كما قلنا أولى البقاع التي ظهرت فيه العصور التأريخية والحضارة فإن بداية هذه العصور قد تأخرت أزماناً طويلة في بقاع العالم الأخرى. فمثلاً لا تتعدى بداية العصور التأريخية في اليونان أبعد من القرن التاسع أو الثامن ق.م، وتأخرت في أوروبا الشمالية إلى القرن الأول ق.م. وفي شمالي إفريقيا إلى مطلع الألف الأول ق.م، في حين أنه ظلّت جملة شعوب أخرى تعيش في همجية عصور ما قبل التأريخ حتى العصور الحديثة.

بداية عصور ما قبل التأريخ وأطوارها:

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن البحوث التي اضطلع بها العلم الحديث في تحريه عصور ما قبل التأريخ تعد من أروع ما أسهم به علم الآثار (الأركيولوجيا) في إغناء المعرفة البشرية بتتبعه قصة تطور الإنسان العجيبة منذ ظهور تلك الفصائل البشرية التي كانت أصل النوع الإنساني قبل أكثر من مليون عام أو مليوني عام بحسب أحدث الدراسات والاكتشافات. ففي بداية تلك العصور الموغلة في

القدم تمت تلك الأعجوبة في تطور الحياة على الكرة الأرضية بتطور بعض مراتب الحيوانات العليا إلى ظهور «الإنسان الناطق الصانع للآلة». واللغة وصنع الآلة هما السمتان اللتان ميزتا النوع الإنساني عن سائر أنواع المملكة الحيوانية. وما كاد ينتهي أقدم عصور ما قبل التأريخ، وهو العصر الحجري القديم الذي سنتكلم عنه، حتى حدث تطور بيولوجي خطير آخر، هو انتقال الأنواع البشرية القديمة البائدة (Palaeoanthropic) إلى نوع الإنسان الحديث (Neoanthropic)، أي ما يسمى بالإنسان العاقل (Homo Sapiens) قبل نحو 50,000 عام، وعلى وجه التحديد في النصف الثاني من العصر الحجري القديم، المسمى بالعصر الحجري القديم الأعلى (Upper Palaeolithic).

واستغرقت عصور ما قبل التأريخ القسم الأعظم من حياة الإنسان، وقد سبق أن حددنا بداية أولى الحضارات البشرية (في وادي الرافدين ووادي النيل) بمطلع الألف الثالث ق.م، أي إن عمر أقدم الحضارات البشرية زهاء خمسة آلاف عام، وتكون هذه الحقبة فترة جد قصيرة بالنسبة إلى عمر الإنسان الكلي لا تتجاوز نسبة الواحد بالمائة إذا قدرنا عمر الإنسان بمليون عام. أما إذا قدرناه بمليوني عام أو مليون ونصف (وهو التقدير الجديد لظهور بعض الفصائل البشرية) فتكون تلك النسبة زهاء 1/ 2 بالمائة، وبتعبير آخر شغلت عصور ما قبل التأريخ أكثر من 99 بالمائة من عمر الإنسان[1]. وإن نسبة

(1) لعله من الطريف أن نذكر بعض التقديرات الأخرى التي تقدم لنا صورة عجيبة لتطور الإنسان الحضاري. فمن هذه التقديرات أننا إذا حسبنا 1200 مليون عام لعمر الحياة على الكرة الأرضية وزهاء المليون عام لعمر الإنسان وعمر أولى الحضارات البشرية (5000) عام، ثم خفضنا المقياس وحسبنا (100) عام لعمر الحياة فيكون عمر الإنسان زهاء شهر واحد وعمر حضارته بجميع عهودها نحو ساعتين. ونترك للقارئ حساب عمر الحضارة البشرية إذا أخذنا بالتقدير الثاني لعمر الإنسان أي مليوني عام.

ونورد تقديراً طريفاً آخر هو أننا إذا قدرنا لعمر الأرض 24 ساعة أي يوماً واحداً فيكون عمر أقدم إنسان في الدقيقة الأخيرة من اليوم، وظهور الإنسان الحديث (الإنسان العاقل) في الثواني القليلة الأخيرة. ويوجد تقدير ثالث محسوباً بالأجيال (معدل الجيل الواحد 20 إلى 30 عاماً). فيخصص نحو 5000 جيل لعصور ما قبل التأريخ و50 جيلاً فقط للعصور التأريخية جميعها.

الواحد أو النصف بالمائة المتبقية من عمر الإنسان تتضمن عمر جميع الحضارات قديمها ووسيطها وحديثها. وشغل ما يسمى بالعصور الحجرية القديمة من عصور ما قبل التأريخ أكثر من 98 بالمائة من عمر الإنسان، على أن ما يمكن تدوينه من الأحداث عن عصور ما قبل التأريخ برمتها لا يؤلف سوى جزء ضئيل بالنسبة إلى ما دون ولا يزال يدون عن فترة أو دور واحد من العصور التأريخية، والسبب في هذا لا يعسر إدراكه إذا علمنا أن ما جاء إلينا من عصور ما قبل التأريخ يقتصر على الأدوات والآلات المادية البدائية وبقايا الهياكل العظيمة والبقايا المادية الأخرى القليلة حيث لم يهتدِ الإنسان إلى ابتداع وسيلة لتدوين شؤون حياته.

ولكي نفهم ما سنذكره عن أدوار عصور ما قبل التأريخ في العراق بوجه عام والعصور الحجرية في أقسامه الشمالية بوجه خاص يحسن أن نمهد لذلك بذكر موجز عن التسميات والمصطلحات الخاصة بالعصور الحجرية الأوروبية، لأن هذه التسميات صارت أساساً لجميع التحريات التي تمت في أجزاء الأرض الأخرى ومنها العراق، على الرغم من أن بعض التسميات وتسلسل الأدوار وأطوالها لا يصح إطلاقها على الأدوار المضاهية لها في شمالي العراق، ولكننا مضطرون إلى التعرف عليها لأنها كما قلنا أساس أو خلفية (Background) للأدوار العراقية التي سنذكرها.

العصور الحجرية:

1 ـ أدوار العصور الحجرية وتسمياتها:

يطلق على أقدم أزمان ما قبل التأريخ مصطلح العصور الحجرية، وهي الأزمان التي قلنا إنها تؤلف القسم الأعظم من حياة الإنسان. أما إطلاق تسمية «الحجرية» عليها فإنها تشير إلى الجانب التكنولوجي منها، لأن الإنسان اقتصر فيها في صنع أدواته وآلاته الساذجة على الحجارة واستعمل كذلك العظام والخشب. وبعبارة أخرى لم يعرف الإنسان المعادن والتعدين.

وتعارف الباحثون في الموضوع على تقسيم هذه العصور الحجرية إلى أدوار كثيرة متميّزة بعضها عن بعض. فأولاً تقسيمها إلى طورين أو عصرين كبيرين يمتاز كل منهما بأساليب خاصة من العيش والحياة الاقتصادية وبأشكال الأدوات الحجرية التي صنعها الإنسان في كل منهما. ويدعى أقدم هذين العصرين باسم العصر الحجري القديم أو بالأحرى العصور الحجرية القديمة (Palaeolithic)، ويسمى الطور الثاني بالعصر الحجري الحديث (Neolithic). وأهم ما يميّز كلاً من هذين العصرين الرئيسين أنه بالإضافة إلى طراز الأدوات الحجرية المميزة لكل منهما أن الإنسان في العصر الحجري القديم اعتمد في عيشه على جمع القوت ولم يتجه بيده بالزراعة أو تدجين الحيوان أو بكليهما، بل كان اصطياد الحيوان وجمع مصادر القوت الأخرى أساس حياته الاقتصادية، ولذلك صح إطلاق مصطلح «جمع القوت» أو «التقاط القوت» على العصر الحجري القديم (Food Gathering) أما في العصر الحجري الحديث فقد تبدلت حياة الإنسان تبدلاً جوهرياً حيث اهتدى إلى إنتاج قوته بيده وضمان عيشه بالزراعة وتدجين الحيوان، ولذلك يسمى هذا العصر بطور إنتاج القوت (Food Producing) وسنرى كيف أن هذا الانقلاب الاقتصادي قد تحقق لأول مرة في حياة الإنسان في بقعة ما من الشرق الأدنى، ولا سيما في شمالي العراق ما بين الألف الثامن والسابع ق.م.

والملاحظ في كثير من الأقطار التي تم فيها التحري عن العصور الحجرية أن العصر الحجري الحديث لم يعقب العصر الحجري القديم بوجه مباشر بل توجد ما بينهما فترة تختلف في قصرها وطولها من قطر إلى آخر سميت بالعصر الحجري الوسيط (Mesoilithic)، كما توجد فترة حضارية مهمة تفصل ما بين نهاية العصر الحجري الحديث وبين بداية الحضارة الناضجة أو بين العصر التأريخي في معظم أقطار الشرق الأدنى أطلق عليها مصطلح «العصر الحجري ـ المعدني» (Chalcolithic)، الذي تمت فيه جملة اختراعات ومنجزات حضارية مهمة كانت بمثابة فجر الحضارة الذي مهد لظهور الحضارة الناضجة في مطلع الألف الثالث ق.م، مما سنعالجه بشيء من التفصيل.

وعلى ضوء هذه التسميات والتعاريف نوجز الكلام على الدورين الرئيسين للعصور الحجرية من حيث ميزاتهما وخصائصهما العامة التي تنطبق على أغلب الأقطار التي ظهرت فيها، ونتبع ذلك بما نعرفه عنهما في حضارة وادي الرافدين. ونبدأ بأقدم هذين الدورين، أي العصر الحجري القديم.

العصر الحجري القديم:

لا يعرف على وجه التأكيد متى بدأ الإنسان في صنع الأدوات والآلات من الحجارة، كما لا يعلم أي من تلك الأجناس أو الفصائل البشرية القديمة البائدة التي ظهرت منذ قبل مليوني عام من بدأ بصنع أولى أدوات ساذجة، على أنه مما لا شك فيه أن أولى أدوات صنعها الإنسان كانت بدائية ساذجة، وأن الدور الذي تعلم فيه الإنسان صنع الآلة قد سبقته أطوار طويلة كان يستعمل فيها الأحجار الطبيعية والعصي والأغصان وعظام الحيوانات أدوات للدفاع عن نفسه في تلك الحقب المظلمة حيث البيئة الطبيعية القاسية الشاقة، وإزاء مخلوقات ضارية أقوى منه كانت تتهدد وجوده في الحياة على أن ذلك الإنسان الذي كان يبدو ضعيفاً أعزل كان قد اكتسب في أثناء تطوره البيولوجي الطويل ملكات وقابليات جسمية وعقلية جعلت منه بمرور الزمن سيد المملكة الحيوانية وسيد الكرة الأرضية. فمن بين هذه الملكات والصفات البارزة: دماغه العجيب وقدرته على الكلام ويداه الماهرتان ولا سيما قابلية انضمام إبهام يده إلى الأصابع الأخرى، تلك الخاصية التي مكنته من استعمال يديه بمهارة وصنع الأدوات والآلات، ونذكر أيضاً انتصاب قامته في المشي وخصائص رؤيته المجسمة وعجز أعضائه وجوارحه عن الدفاع بخلاف الحيوانات الأخرى، والعناية الطويلة التي تحتاج إليه تربية صغاره. إن هذه الملكات هي التي مكنت الإنسان من صنع الآلة والنطق، وهما الخاصيتان اللتان قلنا إنهما ميزتا الإنسان عن سائر المملكة الحيوانية، إذ تمكن هذا المخلوق «صانع الآلة والكلمة» من أن يتغلب بآلاته وعدته المادية والعقلية

(حضارته) على بيئته الطبيعية في مسيرة تطوره الطويلة ويسخرها له، في حين أنه لا توجد وسيلة أو واسطة بين الحيوان وبين البيئة سوى أعضاء جسمه، ولذلك أطلق بعض الأنثروبولوجيين على الأدوات «أعضاء الإنسان الإضافية».

ويرى جمهور الباحثين الأنثروبولوجيين أن صنع الآلة ونشوء اللغة عند الإنسان كانا متلازمين، والمرجح أنهما ظهرا في آنٍ واحد[1]، في فترة ما من العصر الحجري القديم، كما عرف الإنسان استعمال النار ثم توليدها والإفادة منها في ذلك العصر. وأظهرت التحريات الحديثة عن بقايا الإنسان البائد نماذج من البقايا والهياكل العظيمة تعود إلى أنواع (Species) وأجناس (Genus) من الفصيلة البشرية قبل نحو مليوني عام. وإذا علمنا أن زمن العصر الحجري القديم يقع في الدهر الجيولوجي المسمى «بريستوسين» (Pleistocene) الذي يخصص لطوله زهاء المليون عام، فيكون ظهور أوائل النماذج الإنسانية قبل هذا الدهر الجيولوجي، ولعله في أواخر الدهر السابق للبلايستوسين أي الدهر المسمى «بليوسين» (Pliocene). على أننا لا نعلم بوجه التأكيد هل أن تلك الأشكال البشرية التي ظهرت قبل العصر الحجري القديم أي قبل دهر البلايستوسين بدأت بصنع الأدوات الحجرية. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن بعض المختصين في عصور ما قبل التأريخ يخصصون طوراً حجرياً سبق العصر الحجري القديم بفترة زمنية لا يعلم مدى طولها، أطلقوا عليه اسم العصر

---

(1) قضية ظهور اللغة عند الإنسان وأصلها والنظريات التي وضعت عنها وهل كانت اللغات البشرية لغة واحدة ثم تفرقت وتنوعت أو أنها ظهرت منذ البدء مختلفة متنوعة ـ كل هذه الأمور وغيرها لا تدخل في موضوع بحثنا بل إنها تكون بحثاً مهماً خاصاً من مواضيع علم اللغة (Linguistics) الداخل في علم الأنثروبولوجيا (Anthropology)، فنحيل القارئ المهتم بالموضوع إلى بعض المراجع الأساسية:

(1) Alan Gardner, *Speech And Language*, (1951).

(2) C. Songer in *A History of Technology*, I, (1955), chap. IV.

(3) Anderson Hoebel, *Man in the Primitive World*, (1958).

(4) A. L. Kroeber, *Anthropology Today*.

الحجري الإيوليثي (Eolithic)، بيد أن باحثين آخرين يبدون شكوكاً حول هذا العصر ويعزون الأدوات الحجرية الساذجة التي تنسب إليه إلى أنها أحجار طبيعية أي غير مصنوعة، وأن ما يظهر عليها من أثر الصنعة والتشظية من فعل العوامل الطبيعية أو أنها بقايا أو فضلات من عملية صنع الأدوات الحجرية وتشظيتها. على أن الاتجاه الحديث يميل إلى إقرار صناعة مثل هذه الأدوات وأنها تمثل دوراً حجرياً مستقلاً أطلق عليه المصطلح الذي سبق أن ذكرناه. كما نسبت إلى هذا الدور الحجري طائفة من الأدوات الحجرية تسمى «الأدوات الحصوية» (Pebble Tools) وقد وجدت هذه الأدوات في أكثر من موضع واحد من الأرض، من بينها شمالي إفريقيا، في ليبيا والجزائر والمغرب[1]. ولكن لم يستقر الرأي بعد على أي من الأنواع البشرية القديمة يمكن أن تعزى إليه هذه الأدوات.

وبعد فترة زمنية لا يمكن تحديد مقدارها على وجه التأكيد تبدأ أولى أطوار العصر الحجري القديم. وقبل أن نتكلم عن هذا العصر نواصل ذكر بعض الملاحظات العامة الأخرى تمهيداً لما سنذكره عن عصور ما قبل التأريخ في العراق. وأول ما نذكر من هذه الملاحظات أن دهر «البلايستوسين» الذي قلنا إن أدوار العصر الحجري القديم تقع ضمنه، كان يتصف بالمناخ المتناهي في البرودة، حيث كانت ظاهرة العصور الجليدية (Ice Ages). فقد ثبت من تأريخ الأرض الجيولوجي حدوث عصور جليدية في فترات زمنية متباعدة من عمر الأرض، وقد حدث بعضها قبل أن يظهر الإنسان عليها بملايين كثيرة من السنين. ولكن الذي يعنينا منها تلك العصور الجليدية التي حدثت في دهر البلايستوسين، أي في أثناء العصر الحجري القديم. ويخمن تأريخ أول عصر جليدي في حدود (600,000)، وانتهى آخر عصر جليدي في حدود

---

(1) عن عصور ما قبل التأريخ في شمالي إفريقيا انظر:

Mcburney, *Stone Age of Northern Africa* (1961).

Lionel Balout, *Prehistoire de L'Afrique du Nord*, (1955).

(15,000) أو (10,000) ق.م[1]. والمعروف أن ما لا يقل عن أربعة عصور جليدية كبرى حدثت في الأجزاء الشمالية من الكرة الأرضية، في أوروبا وأمريكا الشمالية (وقدر للقارة الأخيرة خمسة عصور جليدية). وبعبارة أخرى اقتصر حدوث هذه الظاهرة على تلك الأجزاء الشمالية من الكرة الأرضية. وسميت تلك العصور، ولا سيما الأوروبية منها، بأسماء مناطق الثلاجات الألبية (نسبة إلى جبال الألب). وهي، ابتداء من أقدمها: (1) كينز (Günz)، (2) مندل (Mindel)، (3) رس (Riss)، (4) ورم (Würm). ومن البديهي أن مناخ الكرة الأرضية في المناطق الجليدية كان يتصف بالبرودة المتناهية الشدة. وكان يستتبع ذلك تغيّرات في الحياة النباتية والحيوانية، وحياة الأنواع البشرية التي عاشت في العصر الحجري القديم. أما في الأجزاء الجنوبية التي لم يصل إليها زحف الثلاجات الجليدية، ومنها منطقة الشرق الأدنى، فكان يحدث إبان كل عصر جليدي عصر غزير الأمطار (Pluvial Period)[2] بحيث إنه حتى الصحارى القاحلة الآن، مثل الصحراء العربية والصحراء الإفريقية، كانت تتمتع بالمياه الوفيرة، مما جعل الحياة النباتية والحيوانية تزدهر فيها.

---

(1) نذكر فيما يأتي تقديرات تخمينية لأطوال العصور الجليدية الفاصلة فيما بينها في أوروبا:

1 ـ كنز 600,000 ـ 540,000.
فترة الـ «كنز ـ مندل» 540,000 ـ 480,000.
2 ـ مندل 480,000 ـ 430,000.
فترة الـ «مندل ـ رس» 430,000 ـ 240,000.
3 ـ رس 240,000 ـ 180,000.
فترة الـ «رس ـ ورم» 180,000 ـ 120,000.
4 ـ ورم 120,000 ـ 15,00 أو 10,000ق.م.

(2) العصور الممطرة (Pluvial Period). لم يثبت لحد الآن حدوث عصور جليدية في مناطق الشرق الأدنى، وإنما هناك احتمالات على وجود آثار ترسبات جليدية في القاعدة الجنوبية لجبل «بيره مكزون» في الموضع المسمى «قره جتان»، وكذلك في بعض المواضع في جبال الأطلس في الجزائر:

Braidwood, *Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan* (1960), p. 89.

وإذا كان الضغط العالي الناتج من وجود الجبال الثلجية قد كان يحول دون سقوط معظم الأمطار المحمولة بالأعاصير الأطلسية في المناطق الشمالية من أوروبا حيث كانت تلك الأعاصير تنحرف إلى الأصقاع الجنوبية من الكرة الأرضية، فإنه كان يحدث العكس إبان الفترات الجليدية، فكان يقابلها في الأجزاء الجنوبية، ومنها منطقة الشرق الأدنى، عصور جفاف، على نحو ما نشاهده الآن، حيث الفترة الجليدية الراهنة وظاهرة الجفاف العامة في المناطق البعيدة عن مدى خطوط الأمطار.

وقبل أن ننهي هذه الملاحظات على ظاهرة العصور الجليدية والفترات الجليدية ننوِّه باستخدام ترسبات العصور الجليدية لتحديد أزمان أدوار العصور الحجرية الأوروبية قبل الاستعانة بالطرق العلمية الحديثة، وأشهرها ما سبق أن ذكرناه في الفصل الثاني عن ظاهرة العناصر المشعة (Radio-Active) أو النظائر (Isotopes) مثل «الكاربون ـ 14» والبوتاسيوم ـ أرغون /K) (Potassium-Argon) (A و«الأورانيوم ـ ثوريوم» (Uranium-Thorium).

أما كيفية الاستعانة بظاهرة العصور الجليدية والفترات الجليدية في تحديد أدوار العصر الحجري القديم في أوروبا فإنها تستند إلى التعاصر أو الترابط الزمني ما بين هذه الأدوار وبين العصور الجليدية وفتراتها التي قدرت أزمانها بطرق جيولوجية خاصة، وما نتج عن هذه العصور الجليدية من تبدلات وتغييرات في الحياة الحيوانية والنباتية مما يعثر على بقاياها مع الأدوات الحجرية الخاصة بأدوار العصر الحجري القديم على نحو ما نوَّهنا به في الفصل الثاني. أما بالنسبة إلى العصور الحجرية الخاصة بالمناطق الخارجة عن نطاق العصور الجليدية، ومنها العراق ومنطقة الشرق الأدنى، فقد توصل الباحثون حديثاً إلى استنباط طرق خاصة لتحديد أدوار العصور الحجرية فيها بالاستناد إلى الظاهرة المصاحبة للعصور الجليدية الأوروبية، أي العصور الممطرة التي قلنا إنها تقابل العصور الجليدية الأوروبية، والعصور الجافة المقابلة للفترات الجليدية في أوروبا. فمن نتائج العصور الجليدية في الشرق الأدنى ظاهرة شطآن الأنهار (Terraces) العالية والواطئة، حيث الشطآن العالية تقابل العصر الجليدي الأوروبي أي العصر الممطر في الجهات الجنوبية من

الأرض، والشطآن الواطئة كانت تتكون إبان الفترة الجليدية الأوروبية أي عصر الجفاف في منطقة الشرق الأدنى وغيرها من المناطق الخارجة عن مدى ظاهرة العصور الجليدية. وقد سجلت مثل هذه الشطآن أو الضفاف الجيولوجية من وادي النيل، واستفيد منها بربط زمن ما يعثر فيها على أدوات حجرية بأحد العصور الجليدية أو الفترات الجليدية الأوروبية[1]، كما سجل عدد من هذه الضفاف في دجلة والفرات وبعض الوديان الأخرى في العراق.[2].

وننوّه أيضاً بالاستعانة بظاهرة سواحل البحار العالية والواطئة، حيث الساحل الواطئ يمثل عصراً جليدياً لانحباس مصادر المياه في الكرة الأرضية في الجبال الثلجية في حين أن الشاطئ العالي يمثل فترة جليدية. وقد سجلت مستويات مختلفة من هذه السواحل، بعضها في شمالي إفريقيا وبعضها في سورية، واستعين بها في تحديد زمن الأدوات الحجرية التي يعثر عليها في مثل هذه السواحل بزمن العصر الجليدي أو الفترة الجليدية التي تقابلها[3].

---

(1) تحرى جماعة من الباحثين من المعهد الشرقي (جامعة شيكاغو) ضفاف نهر النيل الجيولوجية (1929ـ1930) ودرست الأدوات الحجرية التي وجدت فوقها. انظر المرجعين التاليين:

(1) Sandford in *AJSL*, (1932), 170ff.

(2) Sandford, *Palaeolithic Man and The Nile Valley in Lower and Middle Egypt*.

(2) التحريات الخاصة بهذا الموضوع في العراق قليلة، نذكر منها ما اكتشف حديثاً من أدوات حجرية من العصر الحجري القديم الأدنى والأوسط في شطآن الوادي المسمى «وادي القصير» في البادية الجنوبية من العراق في ربيع عام 1966 من جانب جماعة من الباحثين من المعهد الشرقي (جامعة شيكاغو). انظر:

Wright in *SUMER*, (1966).

وسجلت في حوض الفرات الأعلى في الأراضي السورية أربع ضفاف ارتفاعاتها: 15، 30، 100م على التوالي كما ذكرنا في المقدمة الجغرافية انظر:

De Meyer, *Tell Ed-Der*, (1971), p. 11.

(3) حول ظاهرة الشطآن البحرية وربطها بالعصور الجليدية والفترات الجليدية راجع البحوث التالية:

((1) Zeuner, *Dating The Past*, (1958).

(2) Daly, *The Changing World of the Ice Age*, (1934).

(3) Wulsin, *Prehistoric Archaeology of Nothwestern Africa* (1941).

(4) Mcburney and Hey, *Prehistoric and Pleistocene Geology in Cyrenaican Libya* (1955).

أدوار العصر الحجري القديم:

بعد تلك الملاحظات التمهيدية التي أوردناها نوجز خصائص العصر الحجري القديم والتسميات الخاصة بأدواره المختلفة في أوروبا لتكون كما ذكرنا أساساً لما يضاهيها من العصر الحجري القديم في العراق. وأول ما نذكر طول الفترة الزمنية التي استغرقها العصر الحجري القديم، فقد شغل النصف الثاني من دهر البلايستوسين، قبل نحو (500,000) عام، كما استغرق العصور الجليدية كلها. وحدثت في هذه الفترة الطويلة تطورات بيولوجية وثقافية عديدة في حياة الإنسان، منها تطور الأساليب في صنع الأدوات الحجرية، بحيث أمكن تقسيم تلك الفترة الطويلة إلى أطوار كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة أدوار أو عصور رئيسة، هي ابتداء من الأقدم:

1 ـ العصر الحجري القديم الأول أو الأدنى (Lower Palaeolithic):

أ ـ الدور الـ «ابيفلي» (Abbevellian) (وكان يسمى سابقاً شيلي) (Chellean).

ب ـ كلاكتوني (Clactonian).

جـ ـ آشولي (Acheulean).

د ـ لفالوازي (Levalloisian).

2 ـ العصر الحجري القديم الأوسط (Middle Palaeolithic):

أ ـ لفالوازي ـ مستيري.

ب ـ مستيري (Mousterian).

3 ـ العصر الحجري القديم الأعلى أو الثاني (Upper Palaeolithic):

ويتضمن الأدوار التالية في أوروبا:

أ ـ بريكودي ـ شاتل بيروني (Perigodian Chatel-Peronian).

ب ـ أورغنيشي (Aurignacian).

جـ ـ سلوتري (Soluteran).

د ـ مگدليني (Magdalenian).

4 ـ العصر الحجري الوسيط (Mesolithic):

ونورد الآن بعض الملاحظات الموجزة عن هذه الأدوار:

الدور الابيفيلي:

لقد ذكرنا أنه كان يسمى سابقاً الدور الشيلي. وهو أقدم أدوار العصر الحجري القديم، ويقع زمنه ما بين العصر الجليدي الأول وبين الفترة الجليدية الأولى، أي فترة الـ «كنز ـ مندل»؛ وعاش فيه نوع من الإنسان القديم البائد في أوروبا سمي بإنسان «هايدل برك» (Heidelberg). وكانت الأدوات الحجرية في هذا الدور تصنع بطريقة تشظية الحجارة واستعمال لب الحجرة من بعد تشظيتها وهندمتها أداة على هيئة الفأس اليدوية (Hand Axe) أو كما تسمى بالفرنسية (Coup de point)، وهي ذات أشكال كمثرية. ولأن لب الحجر هو الذي كان يستعمل أداة عرف هذا الأسلوب بصناعة «اللب» (Care industry). وانتشرت هذه الصناعة الحجرية في أوروبا وفي شمالي افريقيا وأماكن أخرى من العالم، ولكن لم يعثر حتى الآن عليها أو على ما يضاهيها في العراق.

الدور الكلاكتوني:

ويقع زمن هذا الدور في أوروبا في أواخر الفترة الجليدية الثانية (مندل ـ رس)، وأهم ما يميز أدوات هذا الدور الحجرية أن معظمها مصنوع بطريقة التشظية، حيث الشظايا هي الأدوات المستعملة (Flake Industry).

الدور الآشولي:

استغرق زمن هذا الدور في أوروبا فترة طويلة من دهر البلايستوسين، فقد بدأ في الفترة الجليدية الثانية (مندل ـ رس) التي يقدر طولها ما بين

200,000 و190,000عام، وانتهى قبيل الفترة الثالثة (رس ـ ورم)، ولذلك قسم في بعض أجزاء العالم، ولا سيما إفريقيا، إلى ثلاثة أطوار كبرى سميت الطور الآشولي الأول والثاني والثالث. ويعد الدور الآشولي من ناحية الأسلوب المتبع في صناعة الأدوات الحجرية وأشكالها متطوراً من الدور الابيفيلي السابق الذي قلنا إنه أول أدوار العصر الحجري القديم. وإن كلتا الصناعتين الأبيفيلية والآشولية من نوع الصناعة التي سميناها «صناعة اللب» وتتألف غالبية الأدوات الحجرية الآشولية من الفؤوس اليدوية، ولكنها صارت أدق صنعاً في أشكالها وتشظيتها وهندمتها من سابقاتها الفؤوس الأبيفيلية.

ولم يعثر لحد الآن على أدوات حجرية واضحة من هذا الدور في العراق، على الرغم من أن الفؤوس اليدوية التي وجدت في «برده بلكا» (بالقرب من جمجمال) قد اعتبرت حين اكتشافها من الدور الآشولي، وسنتطرق إلى هذا الموضوع فيما بعد.

الدور اللفالوازي:

يقع زمن هذا الدور في الفترة الجليدية الثالثة (رس ـ ورم)، وتتميز أدواته الحجرية بأن الكثير منها صنع من شظايا الحجارة. وله صلة تطورية بالدور التالي أي الدور «اللفالوازي ـ المستيري».

العصر الحجري القديم الأوسط (Middle Palaeolithic):

ارتأى الباحثون حديثاً فرز دورين من أدوار العصر الحجري القديم وجعلهما عصراً حجرياً خاصاً أطلق عليه العصر الحجري القديم الأوسط، وقد خصص له الدوران المسميان «لفالوازي ـ مستيري» والدور المستيري. وأهم ما يميّز صناعة هذا العصر بكلا دوريه نوع من الفؤوس اليدوية أشكالها على هيئة القلب (cardiform) وهي مصنوعة من لب الحجر (Core). على أن أدوات أخرى من هذا العصر صنعت من الشظايا أيضاً. ويقع زمن هذا العصر في الفترة الجليدية الثالثة (رس ـ ورم).

وبالنسبة إلى العراق وجدت أدوات هذا العصر ولا سيما من النوع «المستيري» بكثرة في شمالي العراق، مثل كهف شانيدر الذي سيأتي الكلام عليه. ويقرن بهذا العصر نوع الإنسان القديم البائد المعروف باسم النياندرتال الذي وجدت نماذج كثيرة من هياكله العظيمة في أرجاء العالم، ومنها البقايا العظمية التي وجدت في كهف شانيدر، كما سنذكر فيما بعد . والجدير بالتنويه في ختام هذه الملاحظات العامة أنه اشتقت من الصناعة المستيرية صناعة حجرية خاصة بشمالي إفريقيا أطلق عليها اسم الصناعة «العتيرية»[1].

العصر الحجري القديم الأعلى (Upper Palaeolithic):

شغل العصر الحجري القديم الأعلى جزءاً صغيراً من دهر البلايستوسين، فيرجع زمنه إلى الأطوار الأخيرة من العصر الجليدي الرابع، وهو العصر الأخير المسمى «ورم»، الذي استغرق من حدود 120,000 إلى 15,000 أو 10,000ق.م، في حين أن هذا العصر الحجري لا يتعدى 40,000. وأهم ما يميز صناعة هذا العصر الحجري تطور أساليب التشظية واتقانها وصنع الأدوات التي تسمى النصال أو الأدوات النصلية (Blades). ويميّز المختصون من هذه الأدوات التي هي عبارة عن شظايا طويلة مستدقة عدة أصناف وأنواع أبرزها نوع من المقاشط (End-of-blade scrapers) والمزارف (Burins) والنصال ذات الحافات المثلومة أو ذات الحد الواحد (Backed blades). ووجدت في أوروبا أدوات كثيرة مصنوعة من العظام والخشب بالإضافة إلى الأدوات المصنوعة من الحجر. وظهر في هذا العصر ولا سيما في أوروبا فن الرسم والصور في جدران الكهوف. وأطلق مصطلح الدور «البرادوستي» (نسبة إلى جبال برادوست في شمالي العراق) على هذا العصر في العراق وسيأتي الكلام على ذلك. كما يضاهي العصر الحجري القديم الأعلى الدوران المسميان الدور «القفصي» والدور «الوهراني» في

---

(1) نسبة إلى بئر العتير الواقعة على بعد نحو 80كم جنوب مدينة تونس.

شمالي إفريقيا حيث الأول منها يعم الأجزاء الداخلية والثاني الأجزاء الساحلية. وقد سبق أن عددنا أدوار هذا العصر في أوروبا فلا حاجة للكلام عليها لأنها خارج موضوعنا.

وحدث في العصر الحجري القديم الأعلى تطور بيولوجي خطير في حياة الإنسان حيث ظهر نوع الإنسان الحديث الذي سبق أن أشرنا إليه باسم الإنسان العاقل (Homo sapiens)، واختفى نوع إنسان «النياندرتال» الذي كان سائداً في العصر الحجري القديم الأوسط. ويختلف الباحثون في علاقة هذا الإنسان الحديث بالأنواع البشرية السابقة، فهل تطور منها أو أنه ظهر بطريقة التغيير البيولوجي الفجائي، وأنه قضى على تلك الأنواع وأبادها، أو أنه نشأ بطريقة التزاوج أو التهجين ما بين بعض تلك الأنواع البائدة.

العصور الحجرية في العراق:

ملاحظة على تأريخ التحريات عن هذه العصور:

إلى ما قبل 25 عاماً كانت التحريات الآثارية عن عصور ما قبل التأريخ في العراق مقتصرة على مناطق السهول الجنوبية والوسطى بعيداً عن المنطقة الجبلية في كردستان العراق، فلم تكن الأدوار التي أظهرتها تلك التحريات سوى الأطوار الأخيرة من عصور ما قبل التأريخ، من بعد العصر الحجري الحديث بالدرجة الأولى، وعلى وجه التحديد الأطوار الأخيرة من العصر الذي يسمى «العصر الحجري ـ المعدني». فباستثناء بعض الملتقطات السطحية والتحريات القصيرة القديمة التي أجرتها الباحثة الأثرية «كارود» (Garrod) في عام 1928 في كهفي «زرزي» و«هزار ميرد» في منطقة السليمانية، لم تتناول التحريات الأثرية كردستان العراق إلا منذ عام 1948، عندما بدأ الأستاذ «بريدوود» (Braidwood) من المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو في تحرياته المهمة في الموضع الأثري المسمى «جرمو»، تلك التحريات التي أثارت اهتمام الأوساط الأثرية في العالم، فاتسع نطاق التحريات وفي مقدمتها

تحريات المعهد الشرقي السالف الذكر بإشراف الأستاذ «بريدوود» نفسه والأستاذ «هاو» (Howe) في سفوح الجبال والمناطق المجاورة مما سنفصل القول فيه بعد قليل. وبدأت التنقيبات المهمة في كهف «شانيدر» (في عام 1951 واستمرت في عام 1961). على أن الذي يؤسف له أن هذه التحريات لم تكن في واقع الأمر سوى البداية، ولكنها كانت بداية تبشر بنتائج مهمة، لولا أنها أخذت بالتقلص ثم الانقطاع التام، حيث تحولت جهود الباحثين الآثاريين إلى الجانب الإيراني من جبال «زاجروس»، في سهول كرمنشاه وشمالي لورستان وأماكن أخرى في سفوح تلك الجبال الشرقية.

وعلى ضوء المقدمة العامة التي أوردناها في القسم الأول من هذا الفصل نحاول إيجاز نتائج التحريات الأثرية في شمال العراق بحسب الأدوار المختلفة التي عددناها للعصور الحجرية، وسنتناول في هذا الفصل أيضاً العصر الحجري الحديث. أما عصور ما قبل التأريخ الأخرى التي تلت هذا العصر فقد خصص لها الفصل الرابع التالي.

العصر الحجري القديم:

سبق أن رأينا كيف أن العصر الحجري القديم في أوروبا كان زمنه يقع ضمن العصور الجليدية والفترات الجليدية التي كان يقابلها في العراق وفي مناطق الشرق الأدنى عصور ممطرة وعصور جافة. ومع أن هناك بعض الامارات المحتملة على حدوث ما يضاهي العصور الجليدية الأوروبية في جبال طوروس وزاجروس[1]، بيد أنه يمكن الجزم بأن العراق كان من الأقاليم الخارجة عن مناطق الجبال الثلجية، وأنه من الناحية المناخية كان يقع إبان دهر البلايسوسين (الذي حدثت فيه العصور الجليدية) بين منطقتين مناخيتين متميزتين: منطقة شبه ثلجية ومنطقة شبه ممطرة (Sub pluvial). ومع ذلك فإن ظاهرة العصور الجليدية والعصور الممطرة التي تقابلها قد أثرت في عوارض

---

(1) راجع ما ذكرناه سابقاً عن احتمال وجود آثار ثلاجة محلية في سفوح جبل «بيره مكرون»، الهامش رقم 3.

العراق الجغرافية، مثل شطآن أنهاره وسعة أودية هذه الأنهار، حيث الكميات الجسيمة من المياه التي كانت تملؤها. كما أن الأمطار الغزيرة التي كانت تعم في العصور الجليدية قد نجم عنها تكوين الوديان الواسعة في سفوح كردستان. وأن مناطق البوادي القاحلة الآن كانت عامرة بالحياة النباتية والحيوانية، فكانت مناطق سهوب (Steppes)، إلى غير ذلك من الأحوال المناخية المواتية لازدهار إنسان ما قبل التأريخ، ولا سيما في أثناء العصور الحجرية، الأمر الذي يجعل من المتوقع أن يجد الباحثون أدوار تلك العصور ممثلة أحسن تمثيل في المناطق الشمالية من العراق، ولكن قلة التحريات الأثرية وانقطاعها المؤسف جعلنا لا نعرف سوى أشياء قليلة عن أدوار تلك العصور.

العصر الحجري القديم الأدنى (Lower Palaeolithic):

لم يعثر لحد الآن على آثار واضحة لما سميناه بالعصر الحجري القديم الأدنى باستثناء ملتقطات سطحية هنا وهناك مشكوك في نسبتها إلى دور واضح من أدوار هذا العصر التي عددناها في القسم الأول من بحثنا. ومن قبيل ذلك الأدوات الحجرية التي التقطتها مديرية الآثار العامة (عام 1949) في الموضع المسمى «برده بلكا»[1] الواقع على بعد نحو ميل ونصف شمال شرقي بلدة جمجمال، على الطريق المؤدي إلى السليمانية، والمرجح أن اسم هذا الموضع أي «برده بلكا» مشتق من النصب أو الحجر القائم الذي يحتمل أنه يعود في زمنه إلى العصر الحجري الحديث قبل نحو 8000عام.

وأعقب جمع مثل تلك الملتقطات السطحية تحريات أثرية قصيرة أجراها في هذا الموضع الباحثان الأمريكيان «رايت» و«هاو»[2]، حيث تأكد بنتيجة السبر الأثري أن أصل تلك الأدوات الحجرية الملتقطة يعود إلى مستوطن

---

(1) انظر مجلة «سومر»، المجلد الخامس (1949).

(2) انظر المراجع:

Wright and Howe. «Preliminary Report on the Sounding at Barda Balka» in *SUMER*,(1951).

Wright in the *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, no. 128, (1952), 11ff.

مكشوف (في العراء) يرجع في تأريخه إلى العصر الحجري القديم، وقد انطمر تحت طبقة من الطمى (Silt) والحصى يبلغ ثخنها نحو (5) أقدام، الأمر الذي يشير إلى عصر ممطر لعله كان آخر العصور الممطرة المقابل لآخر عصر جليدي في أوروبا. وإن الأدوات الحجرية التي اكتشفت في الموضع مصنوعة بطريقة التشظية أي إنها أدوات من الشظايا، من بينها الأدوات ذات الحدين وبضع فؤوس حجرية يدوية على هيئة القلب (Cardiform) وبعضها لوزية الشكل. كما وجدت عدة أدوات من النوع الذي سميناه بالأدوات الحصوية (Pebble tools) كانت تستعمل للقشط. والرأي السائد عن هذه الأدوات أنها تشبه الأدوات الآشولية وبعضها يشبه الأدوات الكلاكتونية والأدوات المستيرية المحلية. وقد خصص لزمن هذه الأدوات العصر الجليدي الأخير، لعله ما بين 100,000 إلى 60,000 عام، على أن الدور المستيري أقرب الأدوار التي يرجح نسبتها إليه.

وعدا عن هذا الموضع لم يعثر بطريق التحريات المنتظمة على أدوات من أطوار العصر الحجري القديم الأدنى في أنحاء العراق المختلفة باستثناء ملتقطات سطحية قليلة وجدت في عدة مواضع من العراق، من بينها أماكن في البادية الغربية، أغلب الظن أنها من العصر المستيري أي العصر الحجري القديم الأوسط، واحتمال نسبة البعض الآخر منها إلى العصر الحجري القديم الأدنى[1].

---

(1) من هذه الأماكن ما وجد في منطقة منخفض «أبو دبس» و«الرزازة»، غرب مدينة كربلاء ومنطقة بحر النجف، حيث استخرج الباحث الجيولوجي «فوت» (Caesar voûte) في عام 1955 بطريقة الحفر (Boring) بعض الأدوات الحجرية من نوع المقاشط (على عمق نحو 4,80 متراً تحت السطح)، وهي ترجع في أغلب الظن إلى الدور المستيري. كما يجدر التنويه أيضاً بالتحريات التي أجراها الأستاذ «رايت» (Wright) في منطقة وادي القصير، على بعد نحو كيلومترين جنوب ـ غربي قلعة القصير في بادية السماوة الجنوبية، حيث عثر على بقايا مستوطن من العصر الحجري القديم (انظر مجلة سومر، المجلد 22 (1966)، القسم الإنجليزي ص 101).

العصر الحجري القديم الأوسط (Middle Palaeolithic):

سبق أن ذكرنا أن هذا العصر يطلق عليه تسمية «لفالوازي ـ مستيري» ويقع زمنه في أواخر الفترة الجليدية الثالثة وفي العصر الجليدي الرابع وكان أقدم اكتشاف للأدوات الحجرية التي ترجع إلى هذا العصر في العراق ما أظهرته تحريات الباحثة الأمريكية «دوروثي كارود» في الكهف المسمى «هزار ميرد» (الواقع على بعد نحو 12 ميلاً جنوب السليمانية) في عام 1928 حيث وجدت الأدوات الحجرية من هذا العصر في أسفل طبقات هذا الكهف[1] كما تحرت الباحثة السالفة الذكر في الكهف المسمى «زرزي» (في منطقة السليمانية أيضاً). ووجدت آثار هذا العصر كذلك في كهوف أخرى في شمالي العراق أشهرها كهف «شانيدر» الذي سنتكلم عنه، وكهف «بايخال»، في حافة سهل «ديانا».

كهف شانيدر:

وبما أن الأدوات الخاصة بالدور «المستيري»، موضوع كلامنا الآن، قد وجدت في كهف «شانيدر» مع هياكل عظمية من إنسان النياندرتال الذي عاش في هذا الدور، فيحسن أن نلخص نتائج التنقيبات المنتظمة التي أجريت فيه.

كهف «شانيدر» من كهوف كردستان العراق المشهورة، ولعله أكبر الكهوف المكتشفة لحد الآن، ولا يزال يستعمله الرعاة للسكنى وإيواء قطعان الماشية فيه. وهو يقع في الجناح الجنوبي من جبال «برادوست»، ويطل على وادي الزاب الأعلى، بالقرب من مركز ناحية شانيدر. وقد اكتشفته مديرية الآثار العامة، ثم رخصت للأستاذ «رالف سوليكي» (Solecki) أن ينقب فيه بالنيابة عن جامعة «مشيغان» الأمريكية، ثم نيابة عن المعهد «السمشوني» الأمريكي، فشرع بتحرياته في عام 1951 واستمر إلى عام 1961 وما زال التحري فيه ناقصاً حيث بقيت أعماق من الكهف لم يحفر فيها قبل بلوغ قاع

---

(1) حول تحريات كهفي «هزار ميرد» و«زرزي» انظر:

Garrod in the *Bulletin of the American School of Prehistoric Research,* (1930).

الكهف الأصلي، أي ما يسمى «الأرض البكر». وبلغت التنقيبات في الموسم الأخير زهاء 45 قدماً (14 متراً) من عمق الكهف، تتضمن بقايا أربعة أدوار أو طبقات أثرية رئيسية[1]، رقمت بالأحرف اللاتينية ابتداء من الأعلى: الطبقة «A» و«B» (B-2, B-1) و«C» و«D». وتتميز الطبقة «D» بأنها أكثر الطبقات ثخناً، إذ إنها تتألف من نحو (28) قدماً من الأنقاض؛ وترجع آثارها إلى العصر الحجري القديم الأوسط، من الدور «المستيري» (Mousterian)، حيث سكن نوع إنسان النياندرتال هذا الكهف طوال عدة مئات من القرون. وقد أمكن تحديد زمن هذا الدور من الكهف بطريق فحص «الكاربون ـ 14» ما بين 60,000 و45,000 عام وهو رقم يلائم التاريخ المقدر للدور «اللفالوازي ـ المستيري» في الأجزاء الأخرى من الشرق الأدنى.

أما الأدوات الحجرية التي وجدت في الكهف من الدور «المستيري» فأكثرها من نوع المثاقب أو المزارف الحجرية (Points) وهي ذات أشكال شبه مثلثة وكذلك الأدوات المستعملة للقشط أي المقاشط (Scrapers) ووجدت في الطبقة «D» من الكهف أيضاً بقايا عظام حيوانية متنوعة ولكنها غير مدجنة كالثيران والغنم والماعز وأصداف السلاحف. وسنشير إلى أهمية وجود الأصول الوحشية للحيوانات التي دجنها إنسان العصر الحجري الحديث في شمالي العراق. وتكللت المكتشفات الأثرية في كهف «شانيدر» بالعثور على هياكل عظمية بشرية من الطبقة «D» التي قلنا إنها تعود إلى الدور المستيري،

---

(1) نشرت نتائج التنقيبات في جملة تقارير ظهرت بالدرجة الأولى في المجلدات الآتية من مجلة «سومر»: المجلد 8 (1952)، و9 (1953) و11 (1955) و13 (1957) و14 (1958) و17 (1961). أما أدوار طبقات الكهف فهي:

الطبقة «A»: أوائل العصر الحجري الحديث (Proto Neolithic).

الطبقة «B»: الدور الحجري الوسيط.

ويسمى هذا الدور باسم خاص هو الدور «الزرزي» (نسبة إلى كهف زرزي).

الطبقة «C»: العصر الحجري القديم الأعلى (ويطلق عليه في شمالي العراقي «برادوستي»).

الطبقة «D»: الدور المستيري (أي العصر الحجري القديم الأوسط).

وهي من نوع إنسان النياندرتال المشهور[1]، الذي يعد آخر الأنواع البشرية العتيقة البائدة حيث ظهر من بعده نوع الإنسان العاقل، أي نوع الإنسان الحديث، أما هياكل شانيدر العظمية فيعود أحدها إلى طفل قدر عمره بستة شهور، وتعود الهياكل الثلاثة الأخرى إلى أفراد بالغين (وجدت في مواسم عام 1956ـ1957). ومما يؤسف له أن عظام الطفل وعظام اثنين من الأفراد البالغين في حالة غير سليمة وغير محفوظة ولكن جمجمة الهيكل الرابع الذي قدر عمره بخمسة وثلاثين عاماً أحسن حفظاً، وأمكن بعد معالجتها وتقويتها ودرسها معرفة أمور مهمة عن تشريح هذا الإنسان القديم وبنيته الجسمية. فمن الأشياء الطريفة التي عرفت عن هذا الإنسان أن ذراع أحد أولئك الأفراد كانت مشلولة عاطلة منذ ولادته ثم قطعت بعدئذٍ بسكين من حجر الصوان. والمرجح أن أولئك الرجال لاقوا حتفهم بسبب سقوط صخور سقف الكهف لعله على أثر زلزال وقع في المنطقة. وقد قدر تأريخ ثلاثة هياكل في حدود 45,000 عام، في حين أن الهيكل الرابع يرجح أن يرجع زمنه إلى حدود 60,000 بدلالة عمق الطبقة التي وجد فيها في الكهف.

إن الهياكل العظمية المكتشفة في كهف شانيدر على قدر عظيم من الأهمية لأنها أولى بقايا عظمية تكتشف في العراق من إنسان العصر الحجري القديم الذي عاش في كردستان العراق قبل نحو 60,000 عام أو يزيد.

ومع أن هذا الإنسان ليس أقدم نوع من الأنواع البشرية التي عاشت في

---

(1) (Neanderthal man) أو بالمصطلح العلمي (Homo Neanderthalenis) نسبة إلى موضع في ألمانية اسمه «نياندرتال» بالقرب من «دسلدورف». حيث اكتشفت هناك هياكله العظمية لأول مرة، ثم عثر على نماذج أخرى كثيرة من هذا النوع الإنساني في معظم أجزاء العالم تقريباً، ومنها الشرق الأدنى مثل شمالي إفريقيا وفلسطين وإيران.

وقد درس هذه الهياكل العظمية من شانيدر المتخصص بالأنثروبولوجيا الجسمية الأستاذ «ستيوارت» (Stewart) ونشر نتيجة دراسته في مجلة «سومر»، المجلد الرابع عشر (1958)، القسم الإنجليزي ص 90 فما بعد راجع كذلك دراسته المنشورة في مجلة «الأخبار المصورة اللندنية» (Illustrated London News), nos, 5-7, (1960).

العصر الحجري القديم بيد أن اكتشاف بقايا له في شمالي العراق يشير إلى الإمكانات المحتملة في العثور في المستقبل على أنواع أقدم. وقد سبق أن نوَّهنا بتوقف التحريات الأثرية في شمالي العراق وهي لا تزال في بدايتها المثمرة، ولنا وطيد الأمل بأن استئناف التحري سيكشف لنا عن نتائج على قدر عظيم من الأهمية، حيث إن كهف شانيدر نفسه لم تبلغ التحريات فيه قاع الكهف أي ما يعرف بمصطلح «الأرض البكر» في علم الآثار؛ وهناك العشرات بل المئات من الكهوف والملاجئ الجبلية والمواضع المكشوفة في كردستان العراق، سجل الكثير منها، ولكن لم تجر فيها التحريات الأثرية.

وننهي هذه الملاحظات عن نتائج التحريات في كهف شانيدر بذكر رأي بعض الباحثين في وجود شبه كبير بين إنسان النياندرتال «الشانيداري» وإنسان النياندرتال المكتشف في جبل الكرمل في فلسطين، والمرجح أن لأحدهما أو لكليهما علاقة تطورية بيولوجية بظهور نوع الإنسان الحديث أي «الإنسان العاقل».

العصر الحجري القديم الأعلى (Upper Palaeolithic):

سبق أن ذكرنا أن هذا العصر هو الطور الأخير من العصر الحجري القديم، وأن زمنه يرجع إلى آخر العصور الجليدية، أي العصر الجليدي الرابع، وبانتهائه حلت الفترة الجليدية الراهنة، ونوَّهنا أيضاً بأن أبرز ما يميز هذا العصر الحجري، بالإضافة إلى نوع أدواته الحجرية المتميّزة بصناعتها وأشكالها، ظهور نوع الإنسان العاقل أو الإنسان الحديث، كما عددنا أطواره في أوروبا. أما في العراق فقد ارتأى منقب كهف شانيدر الأستاذ «سوليكي» تسمية هذا العصر بجميع أطواره باسم الدور «البرادوستي»، نسبة إلى جبال برادوست المعروفة التي يقع فيها كهف شانيدر نفسه.

وجدت الأدوات الممثلة لهذا العصر في عدة أماكن في شمالي العراق، من بينها جملة كهوف استوطنها إنسان ذلك العصر. وكان أقدم اكتشاف لأدواته الحجرية في العراق ما وجدته الباحثة «كارود» في كهف «زرزي» الواقع

في منطقة السليمانية[1] وهي الباحثة التي قلنا إنها تحرت كهف «هزار ميرد» أيضاً. ووجدت آثار هذا العصر أيضاً في كهف «بالي كورا» الواقع على بعد نحو (20) ميلاً شرق جمجمال، وقد تحرى فيه الأستاذ «هاو» (Howe)[2]، كما عثر عليها في جملة كهوف أخرى تحرى فيها الأستاذ «بريدوود» وجماعته في عام 1954 و1955 مثل كهف «كيوانيان» في منطقة راوندوز[3].

وظهرت أدوات هذا العصر كذلك في الطبقة «C» من كهف شانيدر، وقد أمكن تقدير زمن هذه الطبقة أي زمن العصر الحجري القديم الأعلى المسمى في العراق بالدور «البرادوستي» كما قلنا بطريقة فحص «الكاربون ـ 14» ما بين (34,000) و(25,000): ق.م[4]، ويمثل الرقم الأول النهاية العظمى والرقم الثاني النهاية الصغرى.

الغالب على الأدوات الحجرية الخاصة بهذا العصر أنها من نوع الأدوات النصلية أو النصال (Blades)، وهي الصناعة التي قلنا إنها تميز هذا العصر، على أن هنا أدوات خاصة بشمالي العراق تسمى الأزاميل (Gravers) وكانت هذه الأدوات من بين الأسباب التي حملت الأستاذ «سوليكي» على إطلاق تسمية الدور «البرادوستي» على هذا العصر في العراق. وظهر هذا النوع من الأدوات في الأجزاء العليا من الطبقة «C» في كهف شانيدر السالف الذكر

---

(1) حول تحريات كهفي «هزار ميرد» و«زرزي» انظر:

Garrod in the *Bulletin of the American School of Prehistoric Research*, (1930).

(2) انظر:

Braidwood and Howe, *Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan*, (1960).

(3) ذات المصدر في الهامش 12، وكذلك مجلة «سومر»، المجلد العاشر (1954) القسم الإنجليزي.

(4) الواقع أن فحص «الكاربون ـ 14» أسفر عن نتيجتين: (1) فحص واشنطن وأرقامه 34,000 للنهاية العظمى ورقم 29,000 زائد أو ناقص 1500 للنهاية الصغرى، (2) فحص (Lamout) وأرقامه 32,000 زائد أو ناقص 3000 ورقم 26,000 زائد أو ناقص 1500.

وتعد كلتا النتيجتين معقولة في تقدير زمن هذا العصر الذي قلنا إنه يقع في أواخر العصر الجليدي الرابع.

وفي معظم الطبقة «B» (التي تلي الطبقة «C» إلى الأعلى)، ويغلب على هذه الأدوات الأشكال الدقيقة الصغيرة (Microlithic) كما وجدت أنواع من المقاشط (Ssrapers) الصغيرة المستديرة والنصال الدقيقة في الكهوف الأخرى مثل كهف «زرزي». وتدل بعض الأدوات المصنوعة من الحجر البركاني الأسود المعروف بحجر الأوبزيدي (Obzidian) على اتصالات مع المناطق المشهورة بكونها مصدر هذا الحجر ولا سيما منطقة «وان» في أرمينية.

وهناك وجهات نظر مختلفة عن مضاهاة أدوات هذا العصر البرادوستي في العراق مع أدوات العصر الحجري القديم الأعلى من الجهات الأخرى في الشرق الأدنى وأوروبا. فيرى بعض الباحثين أن لها شبهاً بالصناعة الأورغنيشية الأوروبية في حين يرى باحثون آخرون أن الأدوات العراقية فريدة من نوعها فلا تشبه أي صناعة حجرية أخرى.

العصر الحجري الوسيط (Mesolithic):

يأتي هذا العصر الحجري من بعد نهاية العصر الحجري القديم، وهو في الأغلب طور انتقال ما بين الحجري القديم والحجري الحديث. وأهم ما يتميّز به من ناحية أدواته الحجرية دقة هذه الأدوات وصغر حجومها، ولذلك يسمى أيضاً عصر الأدوات الدقيقة «مايكروليثي» (Microlithic). وقد سبق أن ذكرنا التسمية الخاصة التي أطلقت على هذا العصر في العراق، هي الدور «الزرزي» نسبة إلى كهف «زرزي» (في منطقة السليمانية)[1]، ووجدت أدواته الحجرية الخاصة في عدة أماكن في شمالي العراق، بعضها كهوف وملاجئ

---

(1) يطلق على العصر الحجري الوسيط في سورية ولبنان وفلسطين اسم الدور «النطوفي» نسبة إلى وادي النطوف في فلسطين. وقد عاش النطوفيون، كما كان عليه الحال في شمالي العراق، في الكهوف وفي قرى ومستوطنات مكشوفة، واعتمدوا الصيد وجمع القوت في تأمين قوتهم. كما جمعوا الحبوب البرية. وعثر في بعض هذه المواضع على طائفة من الأدوات منها نوع من المناجل الصوانية، ولكن لم يثبت أنها استعملت للحصد في الزراعة المدجنة، كما لم تظهر إمارات أكيدة على تدجين الحيوان. ولعل معرفة التدجين والزراعة قد انتقلت من شمالي العراق إلى تلك المناطق (انظر CAH, I, (1965), chap. 3).

جبلية، وبعضها على هيئة قرى ومستوطنات في الأرض المكشوفة. وكان أول موضع وجدت فيه كهف «زرزي» السالف الذكر، الذي أطلق اسمه على هذا الدور من أدوار العصور الحجرية في شمالي العراق. وعثر عليها أيضاً في كهف آخر اسمه «پاولي ـ كورا»، وقد سبقت الإشارة إليه؛ وفي كهف «شانيدر» وجدت أدوات هذا الدور في الطبقة المرقمة «B»، وقد أظهر فحص «الكاربون ـ 14» رقم 10,000ق.م على أنه حد أدنى لزمن تلك الأدوات.

ومع أن الإنسان اعتمد صيد الحيوان وجمع البذور الوحشية مصدراً أساسياً لحياته الاقتصادية، بيد أنه ظهرت إمارات مهمة على انتقال الإنسان في شمالي العراق إلى حياة صار يعتمد فيها بالتدريج على جمع الحبوب البرية واختيار بعض أصنافها وظهور البوادر الأولى للزراعة التجريبية المحدودة وتدجين بعض الحيوانات كما سنتطرق إلى ذلك بعد قليل في كلامنا على بعض القرى القديمة مثل «زاوي جمي» وكريم شهر وملفعات وكردي جاي، وكلها يرجع إلى أطوار انتقالية ما بين آخر العصر الحجري الوسيط الممثل بقرية «زاوي جمي» وبين طور قرية «جرمو» الذي يعد بداية العصر الحجري الحديث حيث اتضح ظهور الزراعة وتدجين الحيوان على ما سنبيِّن ذلك. أما الأطوار السابقة لطور «جرمو» وهي الأطوار التي أطلقنا عليها اسم العصر الحجري الوسيط، فكانت مراحل انتقالية تمهيدية كما قلنا لبداية تدجين الحيوان وجمع بعض الحبوب التي دجنت وزرعت في الطور الزراعي الواضح الذي تمثله قرية «جرمو». ونحاول فيما يلي إيجاز هذه الأطوار الانتقالية كما كشف عنها في المواضع الأثرية التي أجريت التحريات فيها.

1 ـ «زاوي ـ جمي»، أقدم قرية من نوعها:

ولنأخذ أولى القرى التي يرجع عهدها إلى العصر الحجري الوسيط وظهرت فيها بداية الانتقال إلى طور إنتاج القوت بالزراعة وتدجين الحيوان،

وتعرف بقاياها الآن باسم «زاوي جمي»، وقد اعتبرت أقدم مستوطن قروي في شمالي العراق وأول قرية من نوعها في العالم[1].

تقع «زاوي ـ جمي» على ضفة الزاب الأعلى (ولذلك سميت بهذا الاسم)، حيث تبعد عن ضفة النهر بنحو 95 متراً، وعلى بعد زهاء 4كم إلى الغرب من كهف «شانيدر»، وعلى ارتفاع نحو 425 متراً عن سطح البحر، وترتفع جبال «برادوست» المجاورة زهاء 1800متر. وتبلغ مساحة التل نحو 215×275 متراً. وقد نقب في هذا الموضع الأستاذ «سوليكي» في أثناء مواسم عمله الأخيرة في كهف «شانيدر». وظهر من هذه التحريات أن أقدم بقايا هذا المستوطن تقع على عمق ما بين المتر الواحد والمترين. وتتألف بقايا السكنى فيه من جدران من الطين غير منتظمة شيدت على أسس من حجارة الحصى الكبيرة، ووجدت كذلك معالم أكواخ مستديرة. وقد سجل دوران من البناء أي أدوار السكنى. ومع سذاجة هذه البيوت السكنية إلا أنها أقدم بيوت شيدها إنسان العصر الحجري الوسيط. وعثر على عدد من المواد المنزلية البدائية، من بينها الأحجار التي كانت تستعمل للدق والسحق وكذلك الهاون (Mortar) وأحجار الرحى.

استمر الاستيطان في هذه القرية مدة طويلة نوعاً ما؛ وكان صيد الحيوان المهنة الأساسية لسكانها، كما تدل على ذلك بقايا العظام الكثيرة. ويغلب على حيوانات الصيد في الطبقة السفلى من الموضع نوع من الغزال الأحمر أو الأيل. كما وجدت عظام الغنم (Sheep) وكانت عظامها في الطبقة السفلى القديمة من النوع الوحشي المصطاد، ولكن سرعان ما دجن الكثير منها في الطبقة العليا. أما الماعز فقد ظل وحشياً غير مدجن في جميع أدوار الموضع. وتشير الأدوات المنزلية التي ذكرناها كالرحى والمدقات والمساحق إلى أن

(1) راجع أحدث ما كتب عن الموضوع في:

(1) Garrod, «Primitive Man in Egypt, Western Asia and Europe», in *CAH.*, (1965), I, chap. 3.

(2) Mellaart, «The Earliest Settlements in Western Asia», in *CAH*, (1967), I, chap. 2, 1ff.

استعمالها كان لتهيئة الغذاء من الحبوب؛ كما وجدت مناجل من العظام، الأمر الذي يشير إلى معرفة بدائية بالزراعة، ولكن عدم العثور على بقايا من الحبوب «المكربنة» (Carbonized) يجعل من المتعذر الجزم بأن الإنسان في شمالي العراق قد شرع في هذا الطور بزراعة الحبوب البرية وتدجينها. وإذا انتفى هذا الجزم فيمكن تفسير تلك الأدوات المنزلية بأنها استعملت لتهيئة القوت من الحبوب البرية التي كان السكان يحصلون عليها بالجمع، مضافاً إلى ذلك أثمار البلوط التي يكثر وجودها في هذه المناطق من العراق منذ أقدم الأزمان، كما أن القواقع (Snails) كانت تؤلف جزءاً مهماً من غذاء السكان. ومهما كان الأمر من عدم العثور على بقايا حبوب مدجنة فإن تلك الأدوات المنزلية الخاصة بتهيئة الطعام من النباتات والحبوب وتدجين الغنم، كل ذلك يسوغ لنا الاستنتاج بدون أدنى شك أن قرية «زاوي ـ جمي» كانت كما قلنا أقدم قرية عثر عليها لحد الآن وفيها ظهرت البوادي الأولى لذلك الانقلاب الاقتصادي الخطير في حياة الإنسان، ونعني بذلك تدجين الحيوان والزراعة، وسنشاهد كيف أن معالمه اتضحت أكثر في العصر الحجري الحديث التالي، ممثلاً بأقدم قرى هذا العصر، ألا وهي قرية «جرمو» التي سنتكلم عنها بعد قليل.

أما تقدير زمن قرية «زاوي ـ جمي» فقد أظهرت فحوص «الكاربون ـ 14» رقم 9217 زائد أو ناقص 300ق. م لبقايا الطبقة السفلى ورقم 8935 زائد أو ناقص 300 للطبقة (B-1) من كهف شانيدر المعاصرة في زمنها لقرية «زاوي ـ جمي»، وبذلك يمكن تقدير زمن هذا الطور المهم من عصور ما قبل التأريخ في شمالي العراق في حدود الألف العاشر ق. م وبداية الألف التاسع. ويضاهي هذا التأريخ الزمن المقدر للطور «النطوفي» في فلسطين الذي سبق أن نوَّهنا به.

وبالنسبة إلى علاقة كهف شانيدر بقرية «زاوي جمي» القريبة منه يرجح أن الكهف في زمن الطبقة (B-1) كان مستوطناً شتوياً لأهل قرية «زاوي ـ جمي» التي كانت مقرهم الصيفي. ووجدت في الطبقة (B-1) من الكهف المعاصرة للقرية جملة قبور يرجح أنها تعود لأهل القرية. وعثر في بعض هذه القبور على

أدوات وتجهيزات جنائزية ذات دلالة مهمة. ففي أحد القبور العائد إلى فتاة وجدت مغرة حمراء وقلادة من خرز صغيرة ووجد في قبر آخر سكين من الصوان مثبت بالقبر في قبضة طويلة من العظم، كما وجدت معالم دكاك صغيرة من الأحجار، وضع البعض منها على هيئة قوس يشبه جدار السور المقوس الذي عثر عليه في قرية زاوي جمي. كل هذا يشير إلى نوع من الشعائر الخاصة بالدفن وبمعتقدات أقدم سكان القرى. ومن الآثار التي عثر عليها في الكهف وفي القرية ما يشير إلى اتصالات تجارية مع أقطار بعيدة، نذكر منها الحجر البركاني الأوبزيدي، الذي سبق أن ذكرنا أن أحد مصادره المشهورة في منطقة بحيرة وان. وكذلك القير في منطقة كركوك، كما وجدت بقايا قليلة من النحاس الخام الذي لا يعلم مصدره على وجه التأكيد، ولعله من المنطقة الواقعة شمال ديار بكر.

وتدل الأساليب التي صنعت بها الأدوات الحجرية المكتشفة في قرية زاوي جمي وفي الطبقة (B-1) من كهف شانيدر المعاصرة لزمن القرية على جمع بين الطرق القديمة المتوارثة من الأطوار السابقة وبين أساليب جديدة مشتقة من الصناعة الزرزية (العصر الحجري الوسيط). فمن بين الأدوات المصنوعة وفق الأساليب الجديدة الأدوات الحجرية المصنوعة بطريقة الضغط والصقل، مثل الرحى والمساحق (Muller) والهواوين والمدقات والمطارق. والجدير بالملاحظة في ختام كلامنا على قرية «زاوي ـ جمي» أنه لم يعثر فيها على أدوات مصنوعة من الطين مثل (الفخار والدمى الطينية)، كذلك لم يعثر على أقراص مغازل أو أدوات متشابهة تدل على معرفة بالحياكة، بيد أنه وجدت قطع من السلال والحصر. ووجدت عدة أدوات مصنوعة من العظام مثل المخارز (Awl) وآلات القشط والأزاميل الصغيرة والسكاكين ومقابض المناجل التي كانت تثبت نصالها المصنوعة من العظام بالقير. وصنع الكثير من الأدوات العظمية على هيئة أشكال هندسية استعمل البعض منها زينة. ويجدر أن نذكر بهذه المناسبة أنه وجدت جملة مواد للزينة مثل خرز القلائد المصنوعة من العظام ومن أسنان بعض الحيوانات، وبعضها من الحجر الأخضر

المعروف باسم «ستياتايت» (Steatite)، ومن خام النحاس، ومن أدوات الزينة الدلايات أو القلائد المتخذة من حجر الاردواز (Slate) المزين بالحزوز[1].

الفترة ما بين طور «زاوي - جمي» وبين طور «جرمو»:

توجد فترة حضارية ما بين نهاية طور قرية «زاوي - جمي» التي تكلمنا عنها وبين دور العصر الحجري الحديث الذي تمثله قرية «جرمو» ويرجع في زمنه إلى حدود 6700ق.م، وبعبارة أخرى الفترة الفاصلة ما بين العصر الحجري الوسيط وبين العصر الحجري الحديث. ولم يعثر لحد الآن على مواضع أثرية استمرت فيها أدوار السكنى بحيث تكون تسلسلاً أثرياً طبقياً من نهاية طور «زاوي جمي» إلى بداية العصر الحجري الحديث، حيث انقطعت معالم السكنى في هذه القرية قبل بداية طور «جرمو» بعدة قرون، بخلاف بعض المواقع الأثرية في فلسطين التي تبدأ من الطور النطوفي (العصر الحجري الوسيط الذي تمثله قرية زاوي جمي) وتستمر فيها أطوار السكنى في الأطوار التالية إلى العصر الحجري الحديث والأطوار الأخرى كما في قرية «أريحا». أما في شمالي العراق فإن التسلسل الطبقي الأثري منقطع حسب معرفتنا الراهنة، على أنه وجدت جملة مواضع أثرية يعتقد أن أطوارها تملأ تلك الفترة الحضارية والزمنية، بيد أن الباحثين لم يستندوا في رأيهم هذا إلى طريقة التسلسل الطبقي الأثري وإنما اعتمدوا على تطور أشكال الأدوات والآلات الحجرية التي وجدت فيها، أي ما يصطلح عليه في علم الآثار (Typology).

أما هذه المواضع فهي على الترتيب التالي بحسب ما يظن في قدمها:

(1) كريم - شهر:

ويقع زمنه ما بعد طور «زاوي - جمي» وأقرب إلى بداية طور «كرمو».

ويرجح أن يكون طوره ما بين كريم شهر وبين جرمو.

---

(1) انظر التقرير الخاص بتحريات «زاوي جمي» في:

E. Solecki, «Zawi Chemi Shanidar. A Post Pleistocene Village Site in Northern Iraq», *Report of the VI. International Congress on Quaternary* (Warsaw, 1961),. vol. IV, (1964).

(2) **ملفعات.**

(3) **كردي جاي يشبه الموقع السابق أي ملفعات.**

ونذكر موجز نتائج التحريات الآثارية في هذه المواضع:

كريم ـ شهر:

يقع هذا التل بنحو (6) أميال شرق جمجمال[1]، وهو موضع أثري مكشوف (أي إنه ليس في كهف أو مغارة)، ويشغل مساحة قدرها نحو «ايكرين» (زهاء 8000متر مربع)، ولم تكشف التحريات فيه سوى دور واحد من الاستيطان يقع تحت سطح التل مباشرة، وقد أرجع زمنه إلى فترة ما من الدور الحجري الوسيط (Mesolithic) من بعد طور «زاوي ـ جمي» السالف الذكر. والغالب على الأدوات الحجرية التي وجدت فيها أنها من النوع الدقيق الصغير (مايكروليثي)، وهو نوع الأدوات المميزة للعصر الحجري الوسيط بوجه عام، ووجدت في الموضع أيضاً أدوات زراعية مثل المناجل المصنوعة من نصال الصوان والمعازق أو الفؤوس الحجرية للحراثة (Hoe) وأحجار الرحى. ولكن، كما قلنا عن قرية «زاوي ـ جمي»، لا يمكن الجزم بأن سكان «كريم شهر» عرفوا الزراعة المنظمة، بل يحتمل أن مثل هذه الأدوات الزراعية كانت تستعمل للحبوب التي ما زالت برية غير مدجنة. على أن المستوطنين في هذا الموضع كانوا شبه مستقرين، فإن عدم العثور على بقايا بيوت مشيدة باستثناء تباليط من الحصى في أرض الموقع يشير إلى أنه كان أقرب ما يكون إلى المخيم الموسمي. ومع أنه لم تكتشف بقايا حيوانات مدجنة إلا أنه وجدت كميات كثيرة من عظام الحيوانات التي دجنها الإنسان فيما بعد بزمن غير بعيد، فكانت بوادر التدجين عن طريق الانتخاب والاختيار للأنواع التي دجنت فيما بعد.

---

(1) انظر:

Braidwood and Howe, *Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan*, (1960).

ملفعات وكردي ـ جاي:

تحرى الأستاذ «بريدوود»[1] في الموضع المسمى «ملفعات» الواقع على ضفة نهر الخازر في الطريق ما بين أربيل والموصل. وقد وجدت فيه بيوت محفورة في الأرض ذات جدران مدورة مشيّدة بالحجارة غير المهندمة وذات «تباليط» من الحصى والحجارة. أما الأدوات فقوامها الفؤوس الحجرية (Celt) والهواوين، كما وجدت عظام حيوانات شبيهة بما وجد في موضع «كريم شهر». ويرجع الموضع في تأريخه مثل «كريم ـ شهر» إلى فترة تلي زمن قرية «زاوي ـ جمي».

ووجد موضع ثالث أرجع دوره أيضاً إلى الفترة الحضارية ما بين «زاوي ـ جمي» وبين طور «جرمو» يسمى «كردي جاي» في منطقة الزاب الأعلى، وتشبه صناعته الحجرية وأشكال الأدوات أيضاً ما وجد في «كريم ـ شهر» وملفعات.

إن ما ذكرناه من المواضع القليلة لا تقدم في الواقع إلا صورة جزئية ناقصة عن تلك الأطوار الحضارية المهمة التي تمثل المراحل الأولى للانتقال من طور جمع القوت في العصر الحجري الوسيط إلى طور الزراعة وتدجين الحيوانات التي ظهرت بوادرها الأولى في هذا العصر كما أبانت التحريات فيها. ومما لا شك فيه أن هناك مواضع أخرى قد نجد في بعضها سلسلة التطور المفقودة إلى ظهور الزراعة وتدجين الحيوان بوجه واضح في العصر الحجري الحديث الذي ظهرت بدايته في قرية «جرمو» مما سنتطرق إليه بعد قليل. ويجدر أن نعيد في هذا الصدد ما سبق أن نوَّهنا به من أن ما تم من تحريات في شمالي العراق لحد الآن لم يكن في الواقع سوى البداية، حيث انقطعت منذ أوائل الستينات وبقيت قضايا آثارية مهمة معلقة لا يزال حلها ينتظر استئناف البحث والتحري.

---

(1) انظر: Braidwood in *SUMER*, x, (1954), 120ff.

العصر الحجري الحديث:

انقلاب العصر الحجري الحديث وأين حدث:

سبق أن بيّنا كيف أن الإنسان ظل طوال العصور الحجرية القديمة (التي قلنا إنها شغلت زهاء 98% من حياة الإنسان) يعيش حياة همجية يعتمد في عيشه على جمع القوت بالصيد والالتقاط، ثم بدأ ينتقل في أواخر تلك العصور إلى طور جديد من الحياة تبدلت فيه أساليب عيشه تبدلاً أساسياً، بتعلمه إنتاج قوته بيده بالزراعة وتدجين الحيوان، وهو الانقلاب الاقتصادي الذي اتضحت معالمه في العصر الحجري الحديث وظهرت بوادره الأولى في شمالي العراق في العصر الذي سميناه «العصر الحجري الوسيط» مما سبق أن تكلمنا على بعض المواضع الأثرية الممثلة له في كردستان العراق.

إن انقلاب العصر الحجري الحديث بلغ من عظم الأثر في حياة الإنسان وفي مسيرته الطويلة إلى الحضارة والمدنية بحيث قرن الباحثون أهميته الاقتصادية بأهمية الانقلاب الاقتصادي الذي ظهر في الحضارة الغربية الحديثة منذ ظهور ما يسمى بالثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر وطبعها بطابعها المميّز لها.

أصل الزراعة وتدجين الحيوان:

وقبل أن نتكلم عن هذا العصر الجديد، أي العصر الحجري الحديث، والمواضع الأثرية التي ظهرت فيها أدواره وآثاره في أنحاء العراق ولا سيما الأقسام الشمالية منه، نتناول أولاً قضية حضارية على قدر عظيم من الأهمية في تطور الإنسان الحضاري، تلك هي مسألة أصل الزراعة وتدجين الحيوان، وأين وقع ذلك الانقلاب الاقتصادي الخطير على ضوء أحدث التحريات والدراسات الآثارية.

من البديهي أن يكون المنطلق الواضح لحل هذه القضية في البحث عن المواطن الطبيعية للنباتات والحيوانات التي دجنها الإنسان بعد أن كان يحصل عليها في العصور السابقة للعصر الحجري الحديث بطريقة الجمع والجني والصيد. فيكون الموطن الطبيعي (Natural habitat) لهذه النباتات والحيوانات

الموضع الذي ينبغي أن نبحث فيه عن أصل الزراعة وتدجين الحيوان. ويضاف إلى هذا الشرط الأساسي شرط مهم آخر لإثبات أصل الزراعة وتدجين الحيوان، ذلك أن نجد بطريق التحريات الآثارية في ذلك الموطن الطبيعي آثاراً وبقايا لتلك النباتات والحيوانات تثبت أن الناس الذين عاشوا في ذلك الموطن الطبيعي اهتدوا إلى إنتاج قوتهم بالتدجين بعد أن كانوا يحصلون عليه بالجمع والصيد. إن تحقق هذا الشرط الثاني أمر أساسي في حل القضية لأن مجرد وجود الأنواع النباتية والحيوانية الوحشية لم ينتج عنه تلقائياً تدجين تلك الأنواع من جانب الإنسان. وسنحاول إثبات تحقق هذين الشرطين في شمالي العراق. فإذا تحرينا عن الشرط الأول الخاص بالموطن الطبيعي لأصول تلك الأنواع الحيوانية والنباتية التي دجنها الإنسان، وفي مقدمتها الغنم (Sheep) والماعز والبقر والخنزير والقمح والشعير والعدس (Lentils) وغيرها، وجدنا أن ذلك الموطن محصور في منطقة جغرافية معيّنة منها الشرق الأدنى، على أننا إذا ضيقنا حدود تحرينا فيجب إخراج بعض الأقطار مثل وادي النيل الذي لا توجد فيه الأصول الوحشية لتلك الحيوانات والنباتات التي عددناها، ويصح هذا الحكم كذلك على بوادي بلاد الشام ومناطق الجزيرة العربية وسهل وادي الرافدين الجنوبي وسواحل البحر المتوسط وشمالي أفريقيا وأوروبا التي لا يوجد فيها من أصول تلك الأنواع سوى البقر والخنزير. ولذلك يضع الباحثون هذه المناطق خارج المركز الذي حدث فيه انقلاب العصر الحجري الحديث[1]. وبالإمكان حصر حدود الرقعة الخاصة بالموطن الطبيعي للنباتات

---

(1) مما لا شك فيه أن هذا هو السبب الذي جعل ظهور انقلاب العصر الحجري الحديث في وادي النيل يتأخر في بدايته عن وادي الرافدين فترة طويلة من الزمن، وليس من المستبعد أن تكون معرفة الزراعة وتدجين الحيوان قد انتقلت إلى مصر من العراق.

وعلى ضوء هذا السبب نفسه يمكن تفسير اقتصار انقلاب العصر الحجري الحديث في شمالي أفريقيا على تدجين الحيوان ولا سيما البقر دون الزراعة، وأن ظهور الزراعة فيها قد تأخر إلى زمن أولى الهجرات التأريخية للأقوام الأخرى وفي مقدمتهم الفينيقيون في مطلع الألف الأول ق.م والإغريق إلى برقة (في ليبيا) في القرن الثامن ق.م.

والحيوانات التي دجنها إنسان العصر الحجري الحديث في المنطقة الممتدة من هضبة الأناضول وأواسط آسية والقوقاز ومرتفعات فلسطين وشمالي العراق، في سفوح جبال «زاجروس» وبرادوست، ولعله أيضاً جهات البرز الشرقية والمنحدرات الشمالية لجبال هندوكوش[1].

وعلى هذا فإن سفوح جبال «زاجروس» الغربية (شمالي العراق) والشرقية (إيران) تحقق الشرط الأول من وجود الأصول الوحشية للحيوانات والنباتات التي دجنها الإنسان. وفي شمالي العراق يتحقق الشرط الثاني الملازم للشرط الأول، أي العثور على مستوطنات قديمة ظهرت فيها البوادر الأولى لذلك الانقلاب. وقد سبق أن تكلمنا على بعض هذه المستوطنات مما تم التحري فيها مثل «زاوي ـ جمي» و«كريم ـ شهر» وملفعات، وسنتكلم الآن عن المستوطنات التي ظهرت فيها الآثار الواضحة للزراعة وتدجين الحيوان في العصر الحجري الحديث في شمالي العراق، حيث الأحوال الطبيعية من مناخ ملائم وديمومة مياه الأمطار ووجود حيوانات ونباتات وحشية صالحة للتدجين هيأت المسرح منذ العصر الحجري الوسيط (الألف العاشر ق.م) لظهور ذلك الانقلاب الاقتصادي الخطير في حدود الألف الثامن أو السابع ق.م، أي في العصر الحجري الحديث التالي للحجري الوسيط، حيث ظهرت القرى الفلاحية التي وجد منها عدة نماذج في سفوح الجبال الشمالية، نذكر أشهرها بحسب قدمها: (1) جرمو. (2) الطبقات السفلى من «شمشارة»، (3) تل حسونة، (الطبقة الأولى أ ـ IA). (4) كهف شانيدر (الطبقة A)، وغيرها من المستوطنات القديمة الأخرى التي سنذكرها في كلامنا على أطوار العصر «الحجري ـ المعدني» التالي للعصر الحجري الحديث، حيث ترجع الطبقات السفلى في الكثير منها إلى العصر الحجري الحديث.

---

(1) انظر: Mellaart in *CAH*, vol. I, II, (1967), shap. VII.
وكذلك المرجع المذكور في الهامش رقم 12، الص (120) منه.

جرمو: أولى قرى العصر الحجري الحديث:

ونبدأ من قرى العصر الحجري الحديث في شمالي العراق بوصف الموضع الأثري المسمى «جرمو»، أقدم مستوطن زراعي من مستوطنات ذلك العصر.

تقع جرمو قرب جمجمال بنحو 11كم شرقاً، و35 شرق كركوك على الوادي المسمى «جم كورا» أحد روافد العظيم وطوق جاي، وترتفع عن سطح الأرض بنحو (2500) قدم، وتشغل مساحة تتراوح ما بين (3) و(4) ايكرات (أي زهاء 12,000 إلى 16,000متر مربع)، وترتفع بقايا السكنى في التل نحو 23قدماً. وقد اكتشفته مديرية الآثار العراقية في الأربعينات من هذا القرن ثم شرعت بعثة أثرية من جامعة شيكاغو (المعهد الشرقي) تنقب فيه منذ عام 1948 برئاسة الأستاذ «بريدوود» واستمرت التحريات فيه إلى عام 1955. وقد أسفرت تلك التحريات[1] عن إظهار ست عشرة طبقة أثرية أو دور سكني في التل الذي قلنا إن أنقاضه الأثرية تبلغ زهاء 23 قدماً في ثخنها. وكانت الإحدى عشرة طبقة الأولى منه (ابتداء من الأسفل) خالية من الآثار الفخارية، فترجع هذه الطبقات الأثرية من جرمو إلى الطور القديم من العصر الحجري الحديث الذي لم يبدأ فيه صنع الفخار، ولذلك سمي طور «ما قبل الفخار» (Pre-Pottery Neolithic). وقد وجد مثل هذا الطور في جملة مستوطنات قديمة في الشرق الأدنى مثل «أريحا» (في فلسطين) و«جتل هيوك» (في تركية). وينحصر الطور الذي ظهر فيه الفخار في «جرمو» في الطبقات الخمس العليا. وقد خمن منقب «جرمو» الأستاذ «بريدوود» لطبقاتها الست عشرة أنها استغرقت زهاء أربعمائة عام. أما تحديد تأريخ الموقع بطريقة فحص «الكاربون ـ 14»

---

(1) راجع التقارير التي نشرها الأستاذ «بريدوود» في المجلات الآتية:

American Journal of Archaeology, (1949), 49ff.; *Antiquity*, (1950), 189ff.; *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, no. 124, (1951), 12ff.

والمرجع المذكور في الهامش رقم 12، الص (38) منه.

فقد ظهرت له عدة أرقام كان آخرها الرقم الناتج من خلاصة عدة فحوص (6750ق.م). وقدرت بيوت القرية ما بين 25 و30 بيتاً وعدد سكانها نحو (150) نفساً.

كشف في قرية جرمو عن أمور مهمة عن العصر الحجري الحديث في شمالي العراق بوجه خاص ومنطقة الشرق الأدنى بوجه عام. ففي هذه القرية التي تعد أولى القرى الفلاحية نجد خلاصة تجارب الأطوار السابقة في اختيار نوع الحبوب البرية الصالحة للتدجين، وكان بعض أنواعها لا يزال غير بعيد عن أصوله البرية، منها القمح المسمى (Emmer Wheat) الذي ظل من ناحية تركيبه قريباً من أصله الوحشي، ولكن ظهر إلى جانب هذا النوع المسمى (Einkorn Wheat)، وكذلك نوع الشعير المسمى (Hulled two-row Barley)، والعدس والحمص. ووجدت كميات من هذه الأنواع من الحبوب «مكربنة» أي على هيئة فحم (Carbonized) واستمر استعمال أثمار بعض الأشجار التي كانت تجمع في أطوار ما قبل الزراعة لغناها بالمواد الدهنية المغذية مثل البلوط والفستق.

أما الحيوانات التي دجنها الإنسان في شمالي العراق ووجدت بقايا من عظامها في قرية «جرمو» فكان في مقدمتها الماعز ولعله الغنم والخنزير. أما الغنم فقد سبق أن نوَّهنا بتدجينه في الدور السابق، أي العصر الحجري الوسيط في قرية «زاوي - جمي». ووجدت في جرمو نسبة غير قليلة من عظام الغنم المدجنة، ولكن البقر لم يزل تدجينه غير مؤكد، بل إنه كان يصطاد مع الغزال والخنزير الوحشي. وكانت القواقع (Snails) تؤلف جزءاً مهماً من قوت السكان.

وتقدم فلاحو جرمو أشواطاً أبعد من سكنى الأكواخ البدائية المستديرة التي شاعت في الأطوار السابقة، إذ تعلموا بناء بيوت مستطيلة من الطين (الطوف)، وشيّدت بيوت الطبقات العليا فوق أسس من الأحجار الطبيعية، وكانت جدران البيوت «تملط» بالطين. وبلطت أرضيات الدور بالطين فوق

القصب، كما استعمل القصب والخشب لتسقيف البيوت، وبلغ معدل طول الحجرات في البيت ما بين 5 إلى 6 أقدام. ويحتوي البيت الواحد على أكثر من حجرة واحدة. وخلاصة ما يُقال في بيوت جرمو إنها تعد تطوراً ملحوظاً في فن تشييد دور السكنى. كما تشير الأدوات البيتية التي وجدت في جرمو إلى تقدم في سلم التطور المادي عن الأطوار السابقة، فوجدت مثلاً الملاعق المصنوعة من العظام والإبر العظمية للخياطة، وتدل أقراص المغازل الصوانية (Spindle whorls) على معرفة بالغزل والحياكة، مثل غزل الصوف والقنب. وهناك طائفة متنوعة من الأدوات الحجرية الدقيقة (مايكروليثية) صنعت من حجر الصوان والحجر الأوبزيدي، من بينها نصال ثبتت بالخشب بواسطة القير وهي على هيئة مناجل. أما الأدوات الكبيرة فإنها صنعت من حجر الكلس (Limestone) مثل الفؤوس (Celt) وأحجار الرحى والمساحق والمدقات والهواوين وطائفة من الأواني البيتية. ومن الكماليات التي استعملها سكان قرية «جرمو» القلائد ذوات الخرز المصنوعة من الحجارة أو من الطين والأساور المصنوعة من حجر المرمر والقلائد أو الدلايات من الصدف والمحار، كما صنعت الأواني والأوعية المنزلية من الحجر.

وكانت العادة الغالبة في طرق الدفن أن يلحد الميت في قبر يحفر تحت أرضيات بيوت السكنى. وفي وسعنا أن نلمح طرفاً من الحياة الدينية في قرية «جرمو» من دلالة دمى الطين التي تمثل الحيوانات المختلفة، وكذلك الدمى التي تمثل نسوة بدينات حبالى من النوع الذي فسر بأنه أقدم نموذج لما أطلق عليه اسم «الآلهة ـ الأم» (Mother Goddess) التي ترمز لقوى الخصب والإنجاب وقوى الطبيعة المولدة الغامضة.

وخلاصة القول تمثل لنا قرية «جرمو» أقدم القرى الفلاحية يوم صارت الزراعة وتدجين الحيوان عماد حياة الإنسان منذ انقلاب العصر الحجري الحديث. بيد أن ذلك النظام الاقتصادي الجديد كان في ذلك العصر يتصف بالاكتفاء الذاتي، بمعنى أن كل عائلة فلاحية كانت تنتج قوتها بنفسها وتصنع

أدواتها البدائية المحدودة، فلم يظهر بعد التخصص في حياة الإنسان. ولكن رغم محدودية الإنتاج فإن العصر الحجري الحديث كان يحمل جنين التطورات التي سنشاهدها تظهر في العصور التالية لذلك العصر، مما سنفرد له بحثاً خاصاً.

ولعله من المستحسن أن نضيف إلى هذه الملاحظات عن قرية «جرمو» ظاهرة أثرية مهمة تجعل هذه القرية من القرى الفلاحية الأولى في العالم. فإن خلو معظم الطبقات الأثرية التي تمثل أدوار السكنى المتعاقبة في جرمو من الأواني الفخارية (من الطبقة الأولى إلى الطبقة الحادية عشرة إلى الأعلى) يضفي ميزة على هذه القرية بكونها كما قلنا من قرى العصر الحجري الحديث القليلة في أنحاء الشرق الأدنى مما لم يعثر فيها على الفخار من أطواره الأولى. وقديماً كان الفخار من الإمارات التي يعددها الآثاريون لتمييز العصر الحجري الحديث عن العصور الحجرية السابقة. ونذكر من بين هذه القرى القليلة المضاهية لقرية «جرمو» مما تم الكشف عنها الموضع المسمى «جتل هيوك»، في تركية، وأريحا في فلسطين. وقد أسفرت التحريات التي أجرتها في «أريحا» الباحثة الأمريكية «كثلين كنيون»[1] عن العثور على أطوار ما قبل الفخار فيها، وكانت بيوت هذه القرية من تلك الأطوار تشيد من اللبن وليس من الطين كما في قرية «جرمو». وكانت قرية «أريحا» مسورة بجدران من الحجارة، وأظهرت فحوص «الكاربون ـ 14» بالنسبة إلى «أريحا» أرقاماً أعلى من الأرقام التي خصصت لأطوار «جرمو».

ظهر فخار العصر الحجري الحديث في جرمو كما ذكرنا في الطبقات الخمس العليا من التل. وكان فخار الطبقتين الخامسة والرابعة أحسن نوع من الفخار ظهر في الموضع، فهو من الفخار المصبوغ باللون الأحمر على أرضية صفراء فاقعة (Orange buff) ومنه نوع ضارب إلى الحمرة، وقد زين بخطوط متقطعة، وسمي فخار جرمو المصبوغ. ووجد ما يضاهي هذا النوع من الفخار

---

(1) راجع: K. M. Kenyon, *Digging Up Jericho* (1957), 151ff.

في «تبه كوران»، في إيران، ويعتقد أن أحدهما أصل للآخر، وبطل استعماله في حدود 6000ق.م.

أما فخار الطبقات التالية لذلك النوع المصبوغ، فإنه يغلب عليه النوع الخشن المصنوع باليد وهو غفل من الزخرفة والألوان، وفخره غير جيد، وهذه صفة فخار العصر الحجري الحديث بوجه عام. وتلته في نهاية هذا العصر أنواع من الفخار أحسن وأتقن صنعاً مثل فخار حسونة وغيرها مما سيأتي الكلام عليها.

ونذكر في ختام ملاحظاتنا عن جرمو العثور في ربيع عام 1966 على موضع أثري اسمه «ثامر خان» إلى الشمال من بلدة مندلي ثبت أن آثاره تضاهي آثار جرمو، حيث الأدوات الصوانية والأوبزيدية والأواني الحجرية والفخارية. ويرتفع هذا الموضع زهاء (6) أمتار ومساحته نحو 100×150متراً[1].

خلاصة ميزات العصر الحجري الحديث:

بالنظر إلى أهمية العصر الحجري الحديث ليس في تأريخ حضارة وادي الرافدين حسب بل في تطور الحضارات جميعها، فيحسن أن نلخص خصائصه قبل الانتقال إلى الكلام عن الأطوار الحضارية المهمة التي تلت هذا العصر.

مع عظم الانقلاب الذي حدث في حياة الإنسان في العصر الحجري الحديث باهتداء بعض الجماعات في الشرق الأدنى وفي مقدمتها المستوطنات في شمالي العراق إلى إنتاج القوت بالزراعة وتدجين الحيوان، نقول مع أهمية هذا التطور ظلت عدة الإنسان وحياته الاقتصادية بدائية ضيقة، فقد اقتضى الأمر مراحل أخرى من التطور التكنولوجي قبل أن يتمكن الإنسان من إنتاج الأدوات المتنوعة الضرورية لحياته المادية. فمن بين الأدوات البدائية التي يجدها المنقبون في مستوطنات العصر الحجري الحديث رحى الطحن المؤلفة

(1) كشفت عن هذا الموضع الأثري السيدة «جوان أوتس»، انظر:
Joan Oates in *SUMER*, 22, (1966), 15ff.

من حجرين يدور أحدهما فوق الآخر أو يضرب أحدهما بالآخر؛ وكذلك الأطباق الفخارية البسيطة لفرك الحبوب وتقشيرها (Husking trays)، وقد وجدت نماذج من هذه الأطباق في تل حسونة الذي سنتكلم عنه في الفصل التالي. ونذكر أيضاً المعازق والمحاريث البدائية (Hoe) والمناجل التي قوامها نصال صغيرة من حجر الصوان، ورؤوس النبال والسهام الحجرية. والمرجح كثيراً أن الإنسان عرف الغزل والحياكة بدلالة ما وجد من أقراص المغازل. أما الأواني الفخارية فقد سبق أن رأينا كيف أن الإنسان لم يعرف صنعها في الشطر الأقدم من هذا العصر، وهو الشطر الذي اصطلح على تسميته لهذا السبب بطور ما قبل الفخار (Pre-Pottery Neolithic). ولما تعلم الإنسان صنع الفخار في الشطر الثاني منه كانت الأواني الفخارية كما ذكرنا من النوع الساذج البدائي الغفل من الزخرفة والألوان باستثناء فخار الطبقات السفلى من قرية «جرمو». كما أنها صنعت باليد حيث لم يظهر دولاب الخزاف إلا من بعد قرون كثيرة، في أواخر ما يسمى بالعصر الحجري المعدني الذي سنتكلم عنه في الفصل التالي.

وإذا كانت لم تتضح بعد معالم التخصص بالصناعات البدائية فإن نوعاً من تقسيم العمل مارسته المجتمعات الزراعية الأولى في الشرق الأدنى إبان هذا العصر. ولعل المرأة هي التي اهتدت إلى تدجين الحبوب البرية بالزراعة، أي إنها هي التي أوجدت الزراعة[1]. وكانت أعمال المرأة بالإضافة إلى تربية الأطفال تتعلق بطحن الحبوب وتهيئة الخبز والطعام وكذلك الغزل لصنع الملابس وتهيئة جلود الحيوانات، والعناية بتلك الحيوانات المدجنة في حظائرها. أما أبرز أعمال الرجل وواجباته فكانت على ما يرجح تتعلق بصنع الأدوات الحجرية والأسلحة البسيطة، وحماية قطعة الأرض الصغيرة المزروعة وصيد الحيوانات، حيث استمر إنسان العصر الحجري الحديث على توفير قوته

---

(1) انظر:

G. Childe, *New Light on the Most Ancient East*, (1952), p. 61.

بالصيد، وتهيئة الحقل للزراعة. وقد سبق أن نوَّهنا بأن زراعة الإنسان في هذا العصر كانت زراعة محدودة تتصف بالاكتفاء الذاتي. أي زرع مساحة صغيرة من الأرض تكفي لإعالة الأسرة الفلاحية الواحدة، كما أنها كانت زراعة حقلية إذ لم تظهر بعد زراعة البساتين بالأشجار المثمرة (Horticulture) إلا في العصور التالية وعلى وجه التحديد في أواخر العصر الحجري المعدني التالي. وكانت زراعة العصر الحجري الحديث إلى ذلك أشبه ما تكون بالزراعة المتنقلة، حيث الأرض سرعان ما كان يستنفد خصبها فيهجرها الفلاحون إلى أرض أخرى بكر، لأن الإنسان على ما يبدو لم يعرف الطريقة المتبعة بين فلاحي العراق الآن من زرع قسم من الأرض وترك القسم الآخر بوراً إلى الموسم الآتي، أي زراعة (النير والنير).

واستتبع انقلاب العصر الحجري الحديث الاقتصادي تطورات اجتماعية مهمة، منها نشوء فكرة الملكية الفردية، أي ملكية الحقل وأدوات الإنتاج البدائية والحيوانات المدجنة، كما يرجح نشوء بذور نظام الحرب بأبسط أنواعها، حيث التنقل الزراعي واحتكاك الجماعات المنتجة للقوت بعضها ببعض والاصطدام بالجماعات البشرية الأخرى التي لم تتعلم الزراعة بل ظلت على حياة جمع القوت بالصيد.

ولعل أهم تطور أحدثته الزراعة في حياة الإنسان تحرير القسم الأعظم من نشاطه وطاقته بضمان إنتاج القوت بالزراعة. وكانت زراعة مطرية حيث انحصرت زراعة هذا العصر في الأقسام الشمالية من العراق وفي المناطق التي يمكن الاعتماد فيها على سقوط الأمطار الكافية، فكانت محدودة الجهد لم تكن تتطلب من فلاح العصر الحجري الحديث سوى الحرث اليسير حيث الحقل الذي يزرع كان صغيراً ثم البذر والانتظار إلى موسم الحصاد والجني، إذ لم تكن زراعة ري كما قلنا. وتبدو هذه الأعمال جد طفيفة إذا قورنت مع الجهود الجسيمة المضنية التي كان يتطلبها الحصول على القوت بالصيد والجمع والالتقاط في عصر جمع القوت السابق (العصر الحجري القديم).

ولعل فكرة قياس الزمن والتقويم، ولا سيما التقويم الشمسي، أوحتها للإنسان الدورة الزراعية، إذ يمكن قياس طول السنة الشمسية من وقت بذر إلى وقت بذر آخر أو من حصاد إلى حصاد آخر. ولعل إنسان ذلك العصر استعان في ضبط مثل هذه الدورات والمواسم وتعاقبها ومواعيدها باقترانها بطلوع بعض النجوم والكواكب، على نحو ما يمارسه الفلاحون الآن في العراق وغير العراق. ويجدر أن ننوّه بهذا الصدد أن ضبط التقويم المصري القديم كان يستند إلى اقتران بدء فيضان النيل بظهور كوكب الشعرى (Serius). أما حساب الأشهر فقد ظل على النظام القمري في جميع العصور القديمة تقريباً، ويرجح أن يكون من تراث ما قبل العهد الزراعي.

وإذا كان يشك في ظهور ديانة ما عند إنسان العصر الحجري القديم فإن نشوء بذور الديانة والعبادة عند إنسان العصر الحجري الحديث يكاد يكون من الأمور المؤكدة. ولعل أول معبود تصورته المجتمعات الفلاحية كان ذا صلة بقوى الأرض المنتجة المولدة وخصبها، كما يرجح أن يكون أول معبود تصوره الإنسان كان على هيئة إلهة تمثل الأرض وخصبها، وهي الإلهة التي يطلق عليها اسم «الإلهة ـ الأم» (Mother-goddess) وأن دمى الطين المصنوعة بهيئة نسوة بدينات مبالغ في كبر أثدائهن، مما وجد في عدة مستوطنات من قرى العصر الحجري الحديث ومنها قرية «جرمو»، تمثل تلك الإلهة. كما يرجح أن الإنسان قرن خصب الأرض ونتاجها الزراعي بإخصاب الأنثى بعضو الذكر، الأمر الذي يفسر لنا تلك الأشكال الغريبة المصنوعة من الطين والفخار على هيئة ذلك العضو (Phallus) وقد وجدت منها نماذج عديدة في العراق والشرق الأدنى.

وظهرت معالم المجتمع والحياة الاجتماعية في هذا العصر. أما في العصر الحجري القديم السابق له فلم يكن مجتمع بالمعنى الدقيق لمفهوم المجتمع وإنما كان نوعاً من التجمع. ومثل هذا يُقال بالنسبة إلى نشوء العائلة بمفهومها الاجتماعي وليس الجنسي، حيث المشاعية الجنسية كانت هي السائدة في العصر الحجري القديم. كما يرجح ظهور البداوة (Nomadism)

والرعي (Pasturalism) في العصر الحجري الحديث. وقد نشأت على ما يحتمل بطريقتين. أما من المجتمعات التي اهتدت إلى تدجين الحيوان فقط دون الزراعة كما في مجتمعات شمالي إفريقيا في العصر الحجري الحديث، أو من مجتمعات زراعية حل في مواطنها الزراعية الجفاف فلم تستطع زرع الأرض زراعة مطرية، حيث لم يتعلم الإنسان زراعة الري إلا عندما انتقل إلى سهول الأنهار الرسوبية في العصور التالية كما سنشرح ذلك في الفصل التالي، فاقتصر في مثل تلك الأحوال على تدجين الحيوانات ورعيها.

ويجدر أن نلاحظ في ختام كلامنا على انقلاب العصر الحجري الحديث أنه إلى جانب مناطق الشرق الأدنى وفي مقدمتها شمالي العراق التي ظهرت فيها أولى وأقدم زراعة، ظهر ذلك الانقلاب أيضاً بوجه مستقل في مركزين آخرين من العالم ولكن في أزمان متأخرة عن ظهوره في الشرق الأدنى، وهما الشرق الأقصى (الصين) حيث زراعة الرز وتدجين الخنزير في حدود 3000ق.م، وفي أمريكا الوسطى حيث زراعة الذرة في حدود 1000ق.م. أما في سائر أنحاء العالم فقد انتقلت إليها منجزات العصر الحجري الحديث في أزمان متفاوتة من الشرق الأدنى بالدرجة الأولى، فمثلاً انتقلت إلى أوروبا عن طريق تركية واليونان وإلى جنوبي روسية ووادي الدانوب. ومع ذلك الانتشار فإن مجتمعات بشرية عديدة ظلّت تعيش في طور جمع القوت بعد مرور ألوف كثيرة من السنين على ظهور الزراعة في الشرق الأدنى. ومع نقائص الحياة الاقتصادية وأساليب الإنتاج في العصر الحجري الحديث مما ألمحنا إليه من بدائية الإنتاج واتصافه بالاكتفاء الذاتي وعدم ظهور معالم التخصص وانتفاء ضمان الإنتاج للطوارئ بسبب قلة هذا الإنتاج ـ نقول على الرغم من كل هذه العيوب والنقائص كان العصر الحجري الحديث يحمل في طياته جنين إمكانات المستقبل في توسع الإنتاج وتقسيم العمل والتخصص في الفلاحة وإنتاج الأدوات إلى غير ذلك من المقومات الحضارية الأخرى في التقدم التكنولوجي، مما سنشاهد بوادره ومعالمه في الأطوار الحضارية التالية التي ستكلم عنها في الفصل التالي.

الفصل الرابع

عصور ما قبل التأريخ

٢ ـ العصر الحجري ـ المعدني:

تعريف العصر وخصائصه العامة:

انتهى العصر الحجري الحديث في العراق وفي بعض أقطار الشرق الأدنى في حدود 5600 أو 5000ق.م، وابتدأت طلائع الحضارة والعصر التأريخي في حدود 3500ق.م. أما الفترة الزمنية المحصورة ما بين هذين التأريخين ومقدارها ما بين 1500 و2000 عام فإنها تحتل مكاناً مهماً في تأريخ تطور الحضارة في وادي الرافدين بوجه خاص وأقطار الشرق الأدنى بوجه عام، إذ حدثت فيها تطورات حضارية مهمة كانت مراحل تمهيدية لظهور الحضارة في مطلع الألف الرابع، فهي على ذلك تعد فجر الحضارة والتأريخ. وأطلق عليها جملة تسميات منها مصطلح العصر «الحجري ـ المعدني» (Chalcolithic) وهي تسمية تشير إلى حقيقة أن سكان وادي الرافدين بدؤوا يكتشفون استعمال المعادن، ولكن لم يبدأ استعمالهم لها منذ بداية هذا العصر بل في منتصفه تقريباً، إذ ظل الإنسان في النصف الأول منه يعتمد الحجارة وغيرها من صنع أدواته وآلاته. وسميت هذه الفترة أيضاً بعصر ما قبل السلالات (Pre-Dynastic) وهي تسمية تدل على الجانب السياسي، حيث لم تظهر فيه السلالات الحاكمة. وإذا كان قد ظهر بعض التنظيمات السياسية فلا سبيل لنا لمعرفتها لأن العراقيين القدامى لم يبتدعوا بعد وسيلة للتدوين، أي لم تظهر المصادر المدونة.

وحدثت في هذا العصر سلسلة من التطورات الحضارية أمكن حصرها

في أدوار أو مراحل متميزة بطرز أوانيها الفخارية وأشكال هذه الأواني، وفي العناصر الحضارية الأخرى مما سنتطرق إليه. ويمكن إيجاز الخصائص والمقومات الأساسية لهذه الفترة الحضارية بالأمور التالية:

1 ـ ازدياد القرى الفلاحية واتساعها وتطور الكثير منها إلى المدن التأريخية التي اشتهرت في العصور التأريخية التالية.

2 ـ اتساع زراعة العصر الحجري الحديث السابق الذي قلنا إنه كان يتصف بالاكتفاء الذاتي من ناحية الإنتاج الزراعي. أما في هذا العصر الجديد فإن الفلاحين صاروا يبادلون فائض الإنتاج الزراعي بالسلع والحاجات التي تخصصت في صنعها وإنتاجها طبقات جديدة من الصناع والحرفيين، مثل الفخار والنجار وغيرهما. وبعبارة أخرى ظهر في هذا العصر تقسيم العمل وطلائع، التخصص.

3 ـ بداية استيطان السهول الزراعية ثم السهول الرسوبية في الأقسام الوسطى والجنوبية في وادي الرافدين، وظهرت منذ منتصف هذا العصر زراعة الري بالأنهار والجداول، فنجم عن ذلك آثار كثيرة في تطور النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، مما سنتطرق إليه في موضع آخر من هذا الفصل.

4 ـ امتاز فخار هذا العصر في وادي الرافدين ومناطق الشرق الأدنى الأخرى بأنه كان من النوع الملون والمزخرف، ويعد بعض أنواعه من أجمل ما أنتجته الحضارات القديمة، وقد أطلق بعض الباحثين على هذا العصر اسم «عصر الفخار الملون»، وسنرى كيف أن فخار الأطوار المختلفة من هذا العصر يختلف بعضه عن بعض ويتميز فخار كل طور بالطرز والألوان وأشكال الأواني المميزة فاتخذ ذلك من بين الأسس التي استند إليها الباحثون في تقسيم هذا العصر إلى الأطوار المختلفة التي سنعددها واشتقت أسماؤها من أسماء المواضع الآثارية التي وجدت فيها آثارها المميزة لأول مرة، وهي بحسب تسلسلها الزمني:

1 ـ دور حسونة.

2 ـ دور سامراء أو دور «حسونة ـ سامراء».

3 ـ دور حلف.

4 ـ دور العبيد:

أ ـ العبيد الأول (= طور أريدو).

ب ـ العبيد الثاني (= طور حاج محمد ورأس العمية).

جـ ـ العبيد الثالث (العبيد القديم سابقاً).

د ـ العبيد الرابع (العبيد المتأخر سابقاً).

5 ـ دور الوركاء: طور الوركاء القديم والوسيط والمتأخر.

وقد ارتُئي حديثاً أن يجعل طور الوركاء الأخير ودور جمدة نصر والدور الأول من عصر فجر السلالات التالي لجمدة نصر دوراً حضارياً متميزاً أطلق عليه مصطلح العصر «الشبيه بالكتابي» (Proto-literate) أو «الشبيه بالتأريخي» (Proto-historic).

ويمكن تنظيم هذه الأدوار وجمعها تحت ثلاثة أدوار رئيسة:

1 ـ حجري ـ معدني قديم (Early chalcolithic) (في حدود 5600ق.م):

أ ـ دور حسونة.

ب ـ دور سامراء.

2 ـ حجري ـ معدني وسيط (Middle chalcolithic) (الألف الخامس ق.م).

أ ـ دور حلف: 1ـ حلف قديم، 2 ـ حلف وسيط، 3 ـ حلف متأخر.

ب ـ العبيد الأول:

(= طور أريدو، الطبقات 19 ـ 15 في أريدو).

جـ ـ العبيد الثاني (حاج محمد ورأس العمية).

3 ـ حجري معدني متأخر (Late chalcolithic) (4000 ـ 3500ق.م):

أ ـ العبيد الثالث (العبيد القديم سابقاً).

ب ـ العبيد الرابع (العبيد المتأخر سابقاً).

ج ـ دور الوركاء:

1 ـ وركاء قديم (الطبقات 12ـ8 في الوركاء).

2 ـ وركاء وسيط (الطبقات 8ـ6 في الوركاء).

4 ـ الدور الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتأريخي (3500 ـ 2800ق.م):

أ ـ وركاء متأخر (الوركاء، الطبقات 5 و4أ، ب، جـ).

ب ـ جمدة نصر (الوركاء، الطبقات 3 ـ 2).

جـ ـ عصر فجر السلالات الأول.

ونوجز الآن خصائص هذه الأدوار الحضارية وميزاتها.

1 ـ دور حسونة:

تل حسونة:

سمي الدور الأول من أدوار العصر الحجري المعدني باسم طور «حسونة» نسبة إلى التل المسمى «حسونة»، إذ وجدت فيه لأول مرة الأواني الفخارية والأدوات الأخرى المميزة لهذا الدور. ويقع تل حسونة في ناحية الشورة من محافظة نينوى (الموصل)، على بعد نحو 22 ميلاً جنوب الموصل و5 أميال شمال شرقي قرية الشورة. وقد نقبت فيه مديرية الآثار العراقية (1943ـ1944)[1]. وهو تل صغير يشغل مساحة تقدر بنحو 200×150متراً، وترتفع أعلى نقطة فيه زهاء (7) أمتار عن السهل المجاور. وأظهرت التنقيبات المشار إليها بقايا ست عشرة طبقة من أدوار السكنى، تنتظم في خمسة أدوار حضارية، هي، ابتداء من أقدمها (1) طور حجري حديث متأخر (الطبقة IA) (2) دور حسونة (الطبقات IB-VI):

أ ـ فخار حسونة القديم (الأركائي) المصبوغ والمحزز (الطبقات: IB-III).

ب ـ فخار حسونة الخاص (Standard Hassuna ware) (الطبقات III-V).

(3) دور «حسونة ـ سامراء» (الطبقات V-VI).

(4) دور حلف (الطبقات VI-X).

(5) دور العبيد الشمالي (الطبقات XI-XII).

---

(1) أشرف على تنقيبات مديرية الآثار في تل «حسونة» الأستاذان فؤاد سفر وسيتون لويد. انظر التقرير المنشور في *JNES*, IV, (1945), 255ff.

(6) فخار من الأدوار المتأخرة (الطبقات XIII-XVI).

ففي أسفل طبقات التل وعلى ما يسمى في علم الآثار بالأرض البكر(Virgin soil) وجدت آثار مستوطن زراعي من أواخر العصر الحجري الحديث، ويبدو أن المستوطنين كانوا يسكنون الخيام، إذ لم يعثر على بقايا بيوت مشيدة. وهذه هي الطبقة الأولى (أ) (IA) من تل حسونة التي وجد فيها فخار العصر الحجري الحديث من أطواره الأخيرة كما قلنا، حيث بدأ استيطان السهول الشمالية من بعد ظهور المراحل الأولى من الزراعة وتدجين الحيوان في سفوح الجبال الشمالية كما مرّ بنا في كلامنا على القرية الفلاحية «جرمو» في الفصل السابق، فقد ذكرنا أن العصر الحجري الحديث ينقسم إلى دورين: دور ما قبل الفخار، ثم الدور الذي تعلم فيه فلاحو ذلك العصر صنع الأواني الفخارية، وكانت من نوع الفخار الغفل أي غير مصبوغ وخالٍ من الزخرفة والزينة وقد صنع باليد، والغالب عليه أنه خشن سمج الصنع، مثل الفخار الذي عثر عليه في حسونة (الطبقة IA) وفخار الطبقات الأولى من تل «الصوان».

وأعقب أولئك الفلاحين الذين عاشوا في مضارب الخيام أحفادهم الذين وجدت بقاياهم في الطبقات التالية من تل حسونة التي تمثل أطوار العصر الحجري المعدني، أي الطور الذي سميناه طور حسونة (الطبقات IB-VI من تل حسونة). وقد تقدم أولئك الفلاحون مراحل أبعد من أسلافهم الذين عاشوا في العصر الحجري الحديث، إذ صاروا يشيدون مساكنهم من الطين (على غرار بيوت الطين الفلاحية الآن). ولكنهم سرعان ما عرفوا صنع «اللبن» من الطين. ووجدت في حسونة مخازن للحبوب على هيئة أحواض أو جرار كبيرة من الفخار غير المفخور، كانت تدفن في أرض الدار حتى حافاتها. كما عرفوا كيف يخبزون الخبز بتنور من الطين. ولما كانوا لا يعرفون استعمال المعادن فإنهم صنعوا أدواتهم المنزلية البدائية من الحجارة ومن الطين ومنها «الهاون» (Mortar) ومناجل الصوان (نصال من حجر الصوان) وبالمحاريث أو الفؤوس الحجرية (Hoe) وأقراص المغازل للغزل، ودمى الطين السمجة الصنع (Terra cotta figurines) التي تشير إلى نوع من العبادة.

أما الفخار الخاص بدور حسونة فهو على نوعين قسم بموجبهما دور حسونة إلى طورين، أطلق على فخار الطور الأقدم منهما اسم فخار حسونة القديم (Archaic ware) (تل حسونة الطبقات IB-III)، وهو فخار مزين بحزوز وألوان؛ وقد وجد هذا النوع من الفخار في مواضع أخرى منها تل الصوان (الذي سنتكلم عنه) وتل مطارة[1]. ويتميز فخار حسونة من الطور الثاني والمسمى «فخار حسونة الأنموذجي» (Standard ware)، بتقدم في صنع الفخار وزخرفته. وقوام هذه الزخرفة خطوط مستقيمة وخطوط متصالبة ومتقاطعة ومثلثات، ولون الأواني أسمر كاب (Matt). والغالب على الأواني الفخارية أنها من نوع الجرار الكروية ذات الرقاب المستطيلة القائمة، والكؤوس أو الطاسات (Bowl). ويمثل طور حسونة الثاني في تل حسونة الطبقات (III-V) وفي تل الصوان (الطبقات III-V). وتقدمت طرق تشييد بيوت السكنى، وازدادت مرافقها وعدد حجراتها.

ويبدو بحسب معرفتنا الراهنة، أن دور حسونة كان محصوراً في الأجزاء الشمالية والوسطى من العراق، حيث تل الصوان القريب من سامراء أبعد موضع جنوبي وجد فيه دور حسونة وكذلك طور سامراء الذي أعقبه.

وفي ختام كلامنا على دور حسونة يجدر التنويه ببعض البقايا العظمية التي وجدت في الطبقة الثانية من تل حسونة، حيث وجد هيكلان عظميان لطفلين توأمين وضعا في جرة من الفخار، وقد قدر عمرهما في حدود الستة أشهر، ووجدت معهما طاسة صغيرة من الفخار والجمجمتان من النوع المسمى «الرأس الطويل» (Dolichocephalic)[2]. ووجد ما يضاهي فخار حسونة، بالإضافة إلى المواضع التي ذكرناها، في الطبقات السفلى من نينوى (الطبقة 1-

---

(1) يقع تل «مطّارة» على بعد نحو 35كم جنوب كركوك. وقد تحرت فيه بعثة التنقيبات الأمريكية في جرمو برئاسة الأستاذ «بريدوود» في عام 1948، ووجد في التل فخار حسونة وسامراء وحلف: Braidwood in *JNES,* XI (1952), 1ff.

(2) راجع الدراسة التشريحية التي قام بها بعض الاختصاصيين من كلية الطب العراقية المنشورة في مجلة «سومر»، المجلد 22 (1966)، القسم الإنجليزي، ص 45 فما بعد.

IIB)[1]، كما وجد في تل «شمشارة» الذي سنصفه. ووجدت أطوار حسونة وسامراء في التل المسمى «يارم تبه» (جنوب غربي تلعفر بنحو 5كم)، في التل الثاني منه كما أبانت ذلك تنقيبات البعثة الأثرية الروسية برئاسة الأستاذ «مونجايف»، واقتصر التل الثاني من هذا الموضع على دور حلف فقط. أما أطوار سامراء وحلف والعبيد في تل حسونة فسيأتي الكلام عليها في الأقسام المخصصة لها من هذا الفصل.

تل «شمشارة» والتلول الأخرى في سهل «بتوين ـ رانية»:

من المواقع الأثرية التي يجدر أن نفرد لها بحثاً خاصاً بالنظر إلى ما أسفرت التحريات الأثرية فيها عن نتائج مهمة حول أطوار «العصر الحجري المعدني»، جملة مواضع في سهل «بتوين ـ رانية» ومنها التل المسمى «شمشارة» الواقع على الضفة اليمنى من نهر الزاب الصغير، وعلى بعد نحو 8كم جنوب شرقي رانية و(5) كم غرب المضيق الجبلي المسمى «رَمْكان» (أو مضيق سنگسر) الذي يمر منه الزاب من بعد اجتيازه وادي «نودشت» الكائن في الجهة الثانية من الجبال المحيطة بسهل «بتوين ـ رانية»[2].

وقد حمل مشروع خزان «دوكان» الذي شرع به في عام 1956 مديرية الآثار العامة على القيام بتحريات أثرية في المنطقة التي كانت ستغمرها مياه هذا الخزان، فبدأت بمسح التلول الأثرية في عامي 1954 و1955، لاختيار المهم منها لإجراء تحريات أثرية إنقاذية فيها (Salvage Archaeology). وقد سجل نحو أربعين موقعاً أثرياً في منطقة الفيضان، فاختارت أهمها وشرعت منذ عام 1956

---

(1) حول التحريات الأثرية في نينوى راجع:

Mallowan, «The Prehistoric Sondage at Nineveh (1931-32)» in *The Annals of Archaeology and Anthropology*, XX, (1933).

(2) يفصل الزاب الصغير أحد السهول الكبيرة الذي تكتنفه سلاسل جبال «كوراهش ـ آزوس ـ كلار» إلى شطرين، يسمى السهل الغربي منهما، وهو الأكبر، سهل «بتوين» وسهل «رانية» أيضاً حيث تقع مدينة رانية في طرفه الشمالي. ويسمى السهل الشرقي «بنكرت» (نسبة إلى ناحية بنكرت) وكذلك سهل «مركة»، (نسبة إلى قرية مركة الواقعة في حدوده الشمالية).

بالتنقيبات فيها، وأوفدت لذلك الغرض عدة هيئات كانت تعمل في آنٍ واحد، واستمر العمل إلى عام 1960، وكان بناء السد قد تمّ في عام 1958.

وأظهرت نتائج هذه التحريات أن هذا السهل الخصب استوطنه الإنسان منذ العصر الحجري الحديث، واستمر الاستيطان فيه في جميع أدوار عصور ما قبل التأريخ، وأدوار العصور التأريخية التالية. ولما كان يتعذر الكلام على التلول التي شملتها التحريات فنكتفي بمجرد تعدادها محيلين القارئ إلى التقارير الأولية التي نشرت عنها[1]، ونقتصر على إيجاز النتائج المهمة التي أسفرت عنها التنقيبات في تل «شمشارة».

تل «شمشارة»:

سبق أن نوَّهنا بتل «شمشارة» من حيث أهمية النتائج التي أسفرت عنها التنقيبات التي أجريت فيه فيجدر أن نفرد له وصفاً خاصاً ليكون متمماً لكلامنا على العصر الحجري الحديث والعصر الحجري ـ المعدني الممثلين في طبقات

---

(1) شملت التنقيبات المنتظمة المستمرة سبعة تلول مهمة هي: (1) كمريان، (2) تل الديم (وكلاهما في الضفة الشرقية من الزاب الأسفل)، (3) قورة شينا، (4) باسموسيان، (5) كامم، (6) شمشارة، (7) دوگردان (وكلها في الجانب الغربي من الزاب)، ونذكر فيما يلي أمثلة على نتائج التحريات:

(1) تل باسموسيان: ست عشرة طبقة أثرية، أقدمها دور سامراء وحلف ثم العبيد والوركاء ثم الأطوار التأريخية التالية. فقد وجدت بقايا معبدين في الطبقتين الثالثة والرابعة، من العهد الآشوري القديم (الألف الثاني ق.م).

(2) تل گمريان: دور العبيد والوركاء، ثم الدور الآكدي والآشوري القديم والحوري.

(3) تل الديم: دور العبيد والوركاء. ثم الدور الآكدي والآشوري القديم والحوري والميدي، وعثر أيضاً على معبد من العهد الآشوري القديم.

(4) قوره شينا: دور العبيد وقد عثر على بقايا معبدين من هذا الدور ثم بقايا دور الوركاء والأدوار التالية.

(5) دور گردان: دور العبيد ثم الوركاء والعهد الآشوري القديم حول خلاصة هذه التحريات انظر تقرير الدكتور بهنام أبو الصوف في مجلة «سومر» (1970، المجلد 26) القسم الإنجليزي ص 65 فما بعد. وراجع كذلك المجلدات التالية من مجلة «سومر»: المجلد 12 (1956)، 15 (1959)، 16 (1960)، 18 (1962)، 20 (1964).

هذا الموضع الأثرية. وقد استمر استيطانه إلى العصور التأريخية كما تدل على ذلك ألواح الطين المسمارية التي اكتشفت فيه ومن بينها رسائل مهمة تعود إلى العصر الآشوري القديم (في حدود القرن الثامن عشر ق.م)، واستوطنت الطبقات العليا من التل في العصر الإسلامي، في حدود القرن الرابع عشر الميلادي.

يرتفع تل شمشارة معدل (19) متراً عن السهل المحيط به، ويبلغ عرضه زهاء (60) متراً، من (القاعدة)، ويوجد امتداد جنوبي للتل يرتفع نحو (13) متراً، وطول التل الكلي يربو على (330) متراً. وقد نقبت فيه بعثة أثرية دنيمركية في عام 1957 برئاسة الأستاذ «انگهولت» (H. Ingholt) ومساعده الأستاذ «لسُّو» (Laessoe)، وبعد توقف أعمال هذه البعثة في عام 1958 تولت مديرية الآثار العراقية استئناف التحريات فيه (1958ـ1959)[1].

وكشف الجس الأثري (Sounding) من أعلى التل إلى أعمق الطبقات في الأسفل عن بقايا ست عشرة طبقة أثرية أو دور سكني يمكن توزيعها على الأدوار الحضارية التالية، ابتداء من الأعلى[2]:

---

(1) مولت البعثة الدنيمركية في تل «شمشارة» المؤسسة الدنيمركية المسماة «وقف كارلزبيرج». حول نتائج هذه التحريات انظر التقارير التالية:

H. Ingholt in *SUMER*, XIII, (1957), 214ff.

Laessoe, «An Old Babylonian Archive Discovered at Shemshara» in *SUMER*, XIII, (1957), 216ff.; *IBID*, XVI, (1960), 12ff.

وعن خلاصة الطبقات الأثرية والأدوار الحضارية التي سجلت في شمشارة ومقارنتها بالمواضع الأثرية الأخرى في العراق راجع:

Peder Mortensen in *SUMER*, XVIII, (1962), 78ff.

(2) مولت البعثة الدنيمركية في تل «شمشارة» المؤسسة الدنيمركية المسماة «وقف كارلزبيرج». حول نتائج هذه التحريات انظر التقارير التالية:

H. Ingholt in *SUMER*, XIII, (1957), 214ff.

Laessoe, «An Old Babylonian Archive Discovered at Shemshara» in *SUMER*, XIII, (1957), 216ff.; *IBID*, XVI, (1960), 12ff.

وعن خلاصة الطبقات الأثرية والأدوار الحضارية التي سجلت في شمشارة ومقارنتها بالمواضع الأثرية الأخرى في العراق راجع:

Peder Mortensen in *SUMER*, XVIII, (1962), 78ff.

الطبقات 1ـ3: معالم استيطان إسلامي يرجع في تأريخه إلى ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين.

الطبقات 4ـ8: أدوار حورية وآشورية قديمة، وبضمنها ألواح الطين المسمارية المكتشفة من العهد الآشوري القديم.

الطبقات 9ـ16: أدوار ما قبل التأريخ.

والطبقات الأخيرة السفلى هي التي يعنينا أمرها بالنسبة إلى الموضوع الذي بين أيدينا. فالطبقات من 16 إلى 14 ترجع إلى طور ما قبل الفخار من العصر الحجري الحديث، حيث لم يعثر فيها على بقايا من الفخار، والمرجح أنها تعاصر في زمنها طور «جرمو» مما قبل الفخار. ووجد فيها بدلاً من الفخار أدوات حجرية دقيقة (مايكروليثية). أما الطبقات 13ـ9 فقد ظهر فيها الفخار، ويرجح أنها تعاصر تل حسونة (الطبقات IV-VI) حيث يتشابه النوعان من الفخار في كلا الموضعين.

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن «شمشارة» بالتنويه بألواح الطين المسمارية التي عثر عليها في الطبقات التأريخية من الموضع (الطبقة الخامسة)، ويرجع عهدها كما قلنا إلى العصر الآشوري القديم (في حدود 1800ق.م) ويتألف معظمها من الرسائل الرسمية الإدارية من زمن الملك الآشوري الشهير «شمسي ـ أدد» الأول (1813ـ1781ق.م)، ويستبان من هذه الرسائل أن أمبراطورية هذا الملك الآشوري امتدت إلى هذه الأقاليم الخصبة. وورد اسم حاكم الإقليم التابع، الذي كانت شمشارة مركزه، بهيئة «كواري» (Kuwari) واسم المركز الإداري «شوشرّا»[1]، وهذا بلا شك اسم «شمشارة» القديم الذي ظل في الاستعمال مع بعض التحوير في اللفظ. ويرجح أن يكون الموضع نفسه قد عرف في عهد سلالة «أور» الثالثة (2112 ـ 2004ق.م) بصيغة «ششرُم» (Shashrum) وهي المدينة التي ضمت إلى أمبراطورية «أور» في

(1) شوشرا، وبالمقاطع المسمارية: .shu-shar-ra, shu-sha-ra-a, shu-shar-ra-e

عهد الملك «شولگي» مع مراكز أخرى في الشمال منها «أوربيلم» (Urbilum) (أربائيلو أي أربيل) و«سِمرم» (Simurrum) التي يرجح أن يكون موقعها في منطقة «ألتون كوبري» على الزاب الأسفل.

تل الصوان:

ومن المواقع الأثرية التي كشف فيها عن أطوار العصر «الحجري ـ المعدني» والأطوار الأخيرة من العصر الحجري الحديث الموضع المسمى تل الصوان الواقع على ضفة دجلة اليمنى، على بعد نحو 11كم جنوب سامراء. وهو تل صغير يرتفع عن السهل المحيط به زهاء (3 ـ 4) أمتار وذو شكل بيضوي تقريباً، طوله من الشمال إلى الجنوب نحو (230) متراً وعرضه من الشرق إلى الغرب نحو (110) أمتار. وقد سبق للباحث الآثاري المعروف «هرتسفيلد» (منقب سامراء) أن فحصه في عام 1911[1] واتضحت أهميته من بعد فحصه من جانب مديرية الآثار حيث كان الغالب على الملتقطات السطحية فيه فخار دور حسونة القديم وفخار دور سامراء التالي له. فباشرت بالتحري فيه منذ عام 1963 ولا يزال العمل فيه جارياً. وأسفرت تلك التنقيبات عن نتائج مهمة وتسجيل خمس طبقات أثرية رئيسة، ترجع الطبقات الثلاث السفلى منها إلى أواخر العصر الحجري الحديث ثم طور حسونة القديم وبداية فخار حسونة الأنموذجي الذي يستمر إلى الطبقة الرابعة ثم الخامسة مع فخار طور سامراء[2] وكشف في الطبقة الأولى من هذا التل التي قلنا إنها تعاصر فخار حسونة القديم عن مجموعات من القبور المهمة يربو عددها على مائة قبر، وجدت فيها بالإضافة إلى الهياكل العظمية مجموعات ثمينة من الأواني الحجرية ودمى أو تماثيل صغيرة منحوتة نحتاً دقيقاً من حجر المرمر الجميل، كما وجدت مجموعة من الحلى بعضها من أحجار كريمة وشبه كريمة

---

(1) Hertzfeld, *Die Ausgrabungen von Samarra*, V, (1930), p. 5.

(2) حول نتائج التنقيبات في التقارير الموسمية الأولية راجع المجلدات الآتية من مجلة «سومر»: 21 (1965)، 20 (1964)، 24 (1968).

مثل العقيق (Cornelian) والزبرجد (Turqoise) أو الفيروز. وقد حفرت هذه القبور في أرضيات بيوت الطبقة الأولى فوق الأرض البكر، ووجد في أحدها هيكل امرأة مطلي بالمغرة دفنت معها قلائد من الخرز المختلفة، من بينها خرز من النحاس الخام. والذي يلفت النظر في آثار هذه القبور كثرة ما وجد فيها من تلك التماثيل الصغيرة المنحوتة من المرمر التي أشرنا إليها، فقد وجد منها من واحد إلى ثلاثة تماثيل في القبر الواحد. وعثر في بعض القبور على أشياء تمثل عضو الذكر من الحجر (Phallic Symbols) ولكن لم يعثر عليها مصاحبة للتماثيل الحجرية الأنثوية، وزين بعض تماثيل النسوة بتطعيم عيونهن بالصدف والمحار المثبت بالقبر.

ووجدت في الطبقة الأولى أيضاً بقايا بيوت مشيدة من اللبن، وهي على جانب كبير من التطور بالنسبة إلى بيوت العصر الحجري الحديث السابقة للعصر الحجري المعدني. واعتمد سكان هذا المستوطن من أهل الطبقة الأولى في قوتهم على زراعة القمح والشعير، كما وجدت بقايا نباتات أخرى أهمها نبات الكبار (Caper) والكتان والقنب. وبما أن مثل هذه النباتات تحتاج إلى الري الاصطناعي فيمكن الاستنتاج أن سكان هذا المستوطن بدؤوا بمشاريع الري الصغيرة.

ومن الأبنية التي تستحق التنويه بناء واسع مشيد باللبن وجدرانه مملطة بالطين، يرجح أن يكون له صفة عامة أو دينية، ولعله كان شكلاً من أشكال بيوت العبادة، يؤيد هذا الاحتمال ما وجد فيه من التماثيل الصغيرة من المرمر من النوع الذي يسمى في الآثار بتماثيل «الإلهة - الأم» (Mother goddess).

2 - دور «سامراء»:

دور سامراء هو الطور الثاني من أدوار العصر الحجري المعدني القديم، ويرقى زمن ازدهاره إلى النصف الثاني من الألف السادس ق.م. وسمي بدور سامراء لأن الفخار الخاص به وجد لأول مرة في مقبرة من عصور ما قبل التأريخ تقع تحت بقايا دور السكنى من عهد سامراء العباسية، حيث عثر عليه

المنقبون الألمان قبيل الحرب الأولى (1912-1914)[1]. ثم وجد الفخار المميز لدور سامراء في جملة مواقع أثرية أخرى محصورة في شمالي العراق وفي الأجزاء الوسطى منه حيث منطقة سامراء (تل الصوان الذي سبق ذكره) تحدد أقصى مدى جنوبي انتشر إليه ذلك الفخار ومعه فخار حسونة. أما أشهر هذه المواقع فهي تل مطارة (القريب من كركوك) وتل حسونة (الطبقات V-VI) وتل شمشارة (الطبقات 13-9 ويقع ضمنها دور حسونة أيضاً) وتل الصوان (الطبقات III-V وبضمنها فخار حسونة الخاص) وتل حلف وتل جغاربازار في الجزيرة العليا وتل «بوغاز» على الفرات الأعلى مقابل ألبو كمال وفي تبه گورا والأربجية وغيرها. ووجد ما يضاهي فخار سامراء في بلاد عيلام (سوسة).

ويرى بعض الباحثين أن ما يسمى بدور سامراء ليس في الواقع دوراً حضارياً متميزاً وإنما هو نوع خاص من الفخار الملون المنقوش من فخار العصر الحجري المعدني، والأجدر أن يلحق بدور حسونة باعتباره طوراً من أطواره، وأنه يتداخل في بعض المواضع الأثرية مع فخار دور حلف الذي سيأتي الكلام عليه، حيث يستمر فخار سامراء في الأطوار القديمة من دور حلف.

ومهما كان الأمر فإن فخار سامراء يتميز، بالمقارنة مع فخار دور حلف الذي يليه، بأنه ذو لون واحد (Monochrome) كما يمتاز كذلك بزخارفه الهندسية المرتبة في أنطقة (Bands) أفقية ومتوازية وكذلك أشكال بعض الحيوانات مثل الطيور والأسماك والعقارب والايل وفي حالات قليلة أشكال آدمية مرسومة بصورة تخطيطية تقريبية. وكانت هذه الزخارف تنقش بلون أسود فاتح أو أسمر على سطح الإناء ذي اللون الأصفر الباهت.

وعلى حد ما نعرفه إلى الآن لم يعرف العراقيون القدماء استعمال المعادن والتعدين في طور سامراء فكانت الحجارة المادة المعتمدة في صنع الأدوات، ومنها الحجر البركاني الأسود (الأوبزيدي Obzidian).

---

(1) Hertzfeld, *Die Ausgrabungen von Samarra*, V, (1930), p. 5.

العصر «الحجري ـ المعدني» الوسيط:

1 ـ دور حلف:

عد دور حلف، كما مر بنا، الطور الأول مما أطلقنا عليه اسم «العصر الحجري ـ المعدني» الوسيط (Middle chalcolithic)؛ ويلي دور حلف من حيث التسلسل الطبقي والزمني طور سامراء الذي تكلمنا عليه.

أما اسمه فقد اشتق من اسم التل المسمى «حلف» أو «خلف»، وهو موضع أثري كبير يطل على الخابور، بالقرب من قرية «رأس العين»، على الحدود التركية السورية، وعلى بعد نحو (140) ميلاً شمال غربي نينوى. وقد تحرت فيه بعثة أثرية ألمانية برئاسة الباحث الأثري «فون أوبنهايم» (Von Oppenheim) قبل الحرب العالمية الأولى، وكشفت عن بقايا أثرية مهمة منها ما يعود إلى مملكة آرامية ازدهرت في المنطقة في القرن العاشر ق.م، كانت عاصمتها «كوزان» أو «كوزانا» (Guzan) وهو اسم تل حلف القديم. ومن ناحية الموضوع الذي بين أيدينا عثر المنقبون على طبقات أثرية تقع تحت القصر الملكي وجد فيها نوع من الفخار المصبوغ الجميل، هو الذي أطلق عليه من بعد ذلك اسم فخار حلف. ولأن فخاريات عصور ما قبل التأريخ لم تكن قد نالت آنذاك الاهتمام اللازم من الباحثين ولتأخر النشر عن هذا الفخار إلى عام 1931[1]، فلم يعرف عن تأريخه وتسلسله الحضاري إلا من بعد ذلك العام، إذ إن التحريات الأخرى التي تلت النشر عنه واهتمام الباحثين بآثار ما قبل التأريخ، وضعت دور حلف والفخار الذي يميّزه في موضعه الصحيح بين أدوار ما قبل التأريخ التي اتفق الباحثون على تسميتها وتسلسلها الحضاري في

---

(1) سمي المكتشف «فون أوبنهايم» هذا النوع من الفخار «الفخار المصبوغ» أو «الملون» (Buntkeramik):

Von Oppenheim, *Der Tell Halaf,* (1931).

Von Oppenheim, *Tell Halaf, I, Die Praehistorischen Funde* (1943).

الثلاثينات من هذا القرن. فقد اكتشف فخار حلف في جملة مواقع أثرية منها نينوى[1] وتل الأربجية[2] وتل جغاربازار[3] وتبه كورا[4] وغيرها.

إن أبرز ما تمتاز به آثار دور حلف أواني الفخار الجميلة ذات النقوش الزاهية المصبوغة بعدة ألوان (Polychrome) مثل الأصفر والبرتقالي والأحمر والأسود على أرضية من الطين المفخور. والواقع أن براعة صنع هذا الفخار وجودة تزويقه تضاهي أجمل ما صنع من الفخار الملون في تأريخ الحضارات القديمة. ومما يزيد الإعجاب بها أن الأواني الفخارية قد صنعت باليد حيث لم يستعمل دولاب الخزاف بعد، ولكن رقة هذه الأواني وجودة طينتها وانتظام أشكالها ما زالت كما قلنا مدعاة للدهشة والإعجاب. وصنعت أنواع عديدة من الأواني مثل الأقداح (Pots) ذات الرقاب المفلطحة والجرار المقرفصة (Squat) والأباريق والدوارق (Beakers) والصحون والأطباق وغيرها. أما الزخارف فهي ذات أشكال متناسقة جميلة، وقوامها الأشكال الهندسية كالمثلثات والمربعات والمعينات والخطوط المتصالبة وأشكال المراوح أو أشكال المحار المروحي (Scallop) والدوائر الصغيرة، والأشكال النباتية والحيوانية مثل الأزهار والأطيار الحاطة والغزلان ورؤوس الثيران المرسومة بصورة مختصرة تخطيطية (Bukranium)، ومن الأشكال الخاصة الفأس ذات الرأسين وما يسمى بالمربع المالطي (Maltese square) (وهو مربع في كل من زواياه الأربع مثلث صغير).

---

(1) راجع:

R. C. Thomson and Mallowan, «The British Excavations at Nineveh» In *The Annals of Archaeology and Amthropology*, XX, (1933).

(2) انظر:

Mallowan and Rose in *IRAQ*, II, (1935).

(3) Mallowan in *IRAQ*, III,. (1936). *IBID.*, IV, (1937).

(4) A. J. Tobler, *Excavations at Tepe Gawra*, (1950).

اختلف الباحثون في أصل فخار حلف[1]، ويرد عن الموضوع احتمالان أحدهما الأصل السوري والاحتمال الثاني الذي نرجحه أنه من أصل محلي[2] من شمالي العراق ولا سيما منطقة نينوى، يؤيد ذلك وجود تراث قديم في شمالي العراق في صناعة الفخار الملون، مثل فخار دور حسونة وسامراء. وإذا سلمنا بهذا الأصل فإن انتشاره في العراق لم يصل إلى المنطقة الوسطى منه، إذ لم يعثر عليه في سامراء كما ذكرنا. كما أن الأطوار الأولى منه متصلة بفخار دور سامراء. ولكنه انتشر انتشاراً بعيداً إلى الجهات الغربية بامتداد طرق القوافل التجارية المؤدية عبر الفرات والجزيرة إلى منطقة البحر المتوسط. وقد وجدت في منطقة الخابور عدة مواضع أثرية كشف فيها عن فخار حلف مثل تل «براك» و«جغاربازار» وتل حلف (وهو التل الذي اشتق منه اسم هذا الدور كما بيّنا)، وانتشر كذلك عن طريق نهر الباليخ حيث وجد فخاره في الموضع المسمى «تل أسود» وعن طريق كركميش (جرابلس الآن) إلى بلاد الشام وكيليكية في الأناضول. كما وجد في عدة أماكن على ساحل البحر المتوسط مثل «أوغاريت» القديمة (رأس الشمرا، بالقرب من اللاذقية).

ومن الطريف ذكره بصدد أصل فخار حلف أن بعض الباحثين ذهب، قبل أن يثبت زمن هذا الفخار، إلى أنه من أصل إغريقي[3]، ومع أن هذا الرأي أصبح باطلاً الآن، بيد أن شبه فخار حلف بالفخار اليوناني أمر يسترعي الانتباه. وإلى ذلك فإن الأبنية المستديرة المسماة «ثولوس» (Tholos) التي عثر عليها من دور حلف في شمالي العراق لها ما يضاهيها في جزيرة قبرص وكريت في تأريخ متأخر عن زمن حلف العراقي. وكذلك في بلاد

---

(1) عن الآراء المختلفة حول أصل فخار حلف انظر:

Ann Perkins, *The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia*, (1947), 43ff.

(2) راجع:

R. C. Thomson and Mallowan, «The British Excavations at Nineveh» In *The Annals of Archaeology and Amthropology*, XX, (1933).

(3) R. Dussaud in *SYRIA*, XX, (1931), 92ff.

«مسينية» أو «مكينية» (Mycenae). يضاف إلى ذلك استعمال بعض الدمى والرموز الدينية التي وجدت من دور حلف مثل الدمى التي تمثل «الإلهة ـ الأم» (Mother Goddess) والحمامة والفأس ذات الرأسين أو الحدين ورأس الثور (Bukranium). وقد وجد مثل هذه الرموز في كريت وبلاد الأناضول مما قبل العهد الحثي. وبالنظر إلى قدم فخار حلف وسبقه في الزمن بعشرات القرون فيسوغ للباحث أن يعكس ذلك الرأي القديم عن أصل فخار حلف، وإرجاع تلك التأثيرات الحضارية في هذه المناطق إلى طور حلف في شمالي العراق.

ويتميز دور حلف في تأريخ حضارة وادي الرافدين بأن فيه ظهرت بداية التعدين واستعمال المعادن، ولا سيما النحاس والرصاص، وقد تقدم فن التعدين خطوات أخرى في الأدوار التي أعقبت عصر حلف.

وتشير سعة القرية التي كشفت عن بقاياها في تل الأربجية (القريب من الموصل) إلى تقدم القرى الفلاحية من ناحية الاتساع والتنظيم وأساليب البناء، وأصبح البعض منها، ولا سيما الأربجية السالفة الذكر، أقرب ما تكون إلى مدن صغيرة تقدم فيها بناء بيوت السكنى وترتيبها وتنظيمها في شوارع مبلطة بالحجارة الطبيعية، ومع أن الطين بقي المادة الشائعة في بناء البيوت إلا أنه ظهر كذلك استعمال اللبن وبوجه خاص في قرى منطقة الخابور.

ويتفرد دور حلف عن أطوار العصر الحجري المعدني بنوع غريب من الأبنية هي الأبنية المستديرة التي ذكرناها باسم «ثولوس» (Tholos وجمعها Tholi) والتي قلنا إنها تضاهي أبنية القبور «المسينية» التي يرجع زمنها إلى عصر متأخر عن دور حلف. وقد وجد عشرة أبنية منها في تل الأربجية من طول حلف الوسيط، وقوامها، كما قلنا، أبنية مستديرة تبلغ أقطارها من 5 ونصف إلى 7 أمتار، ثم ازدادت سعتها في الطبقات التالية من الأربجية إلى 5، 16 و19متراً، وهي مشيدة من الطين على هيئة خلايا النحل وأسسها من الحجارة، ويظن أنها كانت تسقف بقباب معقودة، ووجد للبعض منها مدخل أمام البناء

على هيئة حجرة مستطيلة. ولكن لم يعثر في أي منها على بقايا عظمية بخلاف ما يماثلها من الأبنية «المسينية» التي قلنا إنها كانت قبوراً، ولم يهتدِ الباحثون حتى الآن إلى تفسير واضح لوظيفة هذه الأبنية في شمالي العراق، وقد رجح أن يكون الكبير منها الموجود في مركز قرية الأربجية نوعاً من المعابد أو المزارات الدينية. كما فسرها البعض بأنها لم تكن سوى طراز خاص من دور السكنى، وأن الكبير منها كان بمثابة النادي أو «المضيف» للمجتمع الفلاحي، ولعل مما يؤيد ذلك أن الأنواع، الجديدة المكتشفة في تركية (في الموضع المسمى ترلو) ثبت أنها بيوت للسكنى.

وقد أمكن تقسيم دور حلف ولا سيما في الأربجية، كما ذكرنا في أول كلامنا على العصر الحجري ـ المعدني، إلى ثلاثة أطوار يمثل كلاً منها عدداً من طبقات السكنى ونوعاً خاصاً من فخار حلف. وقد أطلق على هذه الأطوار: (1) طور حلف القديم ويشمل الطبقات البنائية في تل الأربجية مما قبل الطبقة العاشرة، (2) طور حلف الوسيط، وتمثله الطبقات (10ـ7)، (3) طور حلف المتأخر وتمثله الطبقة السادسة.

ونختتم كلامنا على دور حلف بذكر أبرز المواد الأثرية بالإضافة إلى الأواني الفخارية التي تكلمنا عنها، فمنها أنواع مهمة من القلائد أو الدلايات (Pendants) المصنوعة من حجر «الاستيتايت» الأخضر (Steatite) والأقراص الحجرية الصغيرة المنقوشة بخطوط مستقيمة أو متقاطعة. والمرجح أنها كانت تستعمل لختم «السدادات» الطينية الخاصة بالجرار فتكون بذلك أقدم نوع من الأختام المنبسطة (Stamp seals) التي سبقت في الظهور والاستعمال الأختام الإسطوانية (Cylinder seals) وهي الأختام التي ظهرت في الأطوار الأخيرة من دور الوركاء الذي سيأتي الكلام عليه. ومن المواد المميزة أيضاً رؤوس الدبابيس الحجرية (Mace heads) والعوذ الحجرية (Amulets) المصنوعة على هيئة رؤوس الثيران، والدمى المصنوعة بشكل الحمامة وكذلك الدمى التي أشرنا إليها باسم «الإلهة ـ الأم» المصنوعة بهيئة امرأة بدينة تضع يديها على

ثدييها المبالغ في كبرهما، وجسمها مزين بخطوط ونقط يظن أنها نوع من الوشم (Tatto).

2 ـ دور العبيد:

تأريخ الاكتشاف والتسمية:

وجدت بعثة التنقيبات البريطانية في «أور» في أثناء تحرياتها في عام 1926ـ1927[1] في الموقع الأثري المسمى «العبيد» (تصغير عبد) القريب من «أور» (على بعد نحو 4 أميال إلى الشمال الغربي) نوعاً من الفخار الملون عد عند اكتشافه أقدم نوع من الفخار ويمثل أول دور للاستيطان البشري في السهل الرسوبي، وأطلق عليه اسم دور «العبيد» نسبة إلى ذلك التل الذي ذكرناه. ثم أعقبت اكتشافات أخرى لفخار دور العبيد في أنحاء كثيرة من العراق، في الشمال والجنوب؛ ففي الأعوام 1946ـ1949 قامت مديرية الآثار بالتنقيبات في الموضع المسمى «أبو شهرين» (أريدو القديمة، على بعد نحو 25كم جنوب غربي أور). ووجدت نوعاً جديداً من الفخار في طبقات أثرية من «أريدو» تحت الطبقات التي وجد فيها فخار العبيد في الموقع نفسه[2]، أي إن فخار «أريدو» الجديد أقدم زمناً من فخار العبيد، وعد هذا الفخار الجديد دوراً جديداً من أدوار ما قبل التأريخ وأقدم عهود الاستيطان في الجنوب. وقد سبق لبعثة التنقيبات الألمانية في الوركاء أن عثرت في عام 1935ـ1937 على نوع آخر من الفخار أسمته فخار «حاج محمد» نسبة إلى الموضع المسمى «حاج محمد» أو «قلعة حاج محمد» الواقع على ضفة الفرات غير بعيد عن موقع الوركاء وبالقرب من قلعة حاج محمد شيخ قبيلة الجوابر[3]. وقد وجد هذا الفخار تحت طبقة من الترسبات الغرينية يبلغ ثخنها زهاء عشرة أقدام، ولكنه

---

(1) Hall and Woolley, *Al-'Ubaid. Ur Excavations*, I, (1927).

(2) عن نتائج التنقيبات في «أريدو» راجع التقارير الأولية المنشورة في مجلة «سومر»، المجلد الثالث (1947) والمجلد الرابع (1948) والمجلد السادس (1950).

(3) G. Ziegler, *Die Keramik von der Qal'at Haggi Muhammad*, (1953).

كان يظهر إلى العيان في جرف شاطئ النهر إبان انحسار ماء الفرات، ومما لا شك فيه أن يكون موضع الاكتشافات هذا بقايا مستوطن من عصور ما قبل التأريخ سبق دور «العبيد»، ولكن ارتفاع مستوى الأرض بفعل الترسبات الغرينية جعله مطموراً تحت سطح الأرض، وقد وجد فخار «حاج محمد» في «أريدو» في طبقة أثرية تقع فوق طبقات فخار «أريدو» وتحت طبقات فخار العبيد، فيكون التسلسل الأثري لهذه الأنواع الثلاثة من الفخار ابتداء من أسفل الطبقات على الوجه الآتي: أريدو ـ حاج محمد ـ العبيد. ثم اكتشف في عام 1960 في الموضع المسمى «رأس العمية» بالقرب من «كيش» نوع رابع من الفخار شبيه بفخار «حاج محمد» ولكن ارتُئي أن يكون أحدث منه ومشتق منه[1]. وبعد دراسات وبحوث عن الموضوع في الستينات من هذا القرن صار معظم الباحثين يميل إلى عد ما كان يسمى دور «أريدو» طوراً قديماً من أطوار دور العبيد في الجنوب، وأصبح هذا الدور يقسم الآن إلى الأطوار الأربعة التالية:

1 ـ العبيد الأول = طور «أريدو».

2 ـ العبيد الثاني = طور فخار حاج محمد ورأس العمية.

3 ـ العبيد الثالث = ما كان يسمى سابقاً دور العبيد القديم.

4 ـ العبيد الرابع = ما كان يسمى سابقاً دور العبيد المتأخر.

ويعاصر العبيد الأول والعبيد الثاني دور حلف في شمالي العراق، وقد سبق أن جعلنا دور حلف والعبيد الأول والثاني تؤلف ما سميناه بالعصر الحجري ـ المعدني الوسيط. أما العبيد الثالث والعبيد الرابع ودور الوركاء القديم (الطبقات 12ـ8 من الوركاء) والوركاء الوسيط (الطبقات 8ـ6 من

---

(1) اكتشف هذا الفخار في «رأس العمية» السيد «ستروناك» انظر:
D. B. Stronach in *IRAQ*, 23, (1961), 95ff.

الوركاء) فقد جعلت كما مرّ بنا سابقاً الدور الأخير من العصر الحجري المعدني[1].

أريدو:

تقع مدينة «أريدو» (أبو شهرين) الآن في شبه صحراء رملية، بيد أنها لم تكن كذلك في العصور القديمة، إذ تشير الأدلة الآثارية إلى أن مجرى نهر الفرات القديم أو فرعاً منه كان يرويها من بعد مروره بمدينة «أور» القريبة منها (نحو 25كم إلى الشمال الشرقي). وأبرز ما يشاهد الآن من بقايا المدينة بضعة مرتفعات تغطيها الرمال وبقايا البرج المدرج (الزقورة) الذي يرجع في أصله البعيد إلى العصر الشبيه بالكتابي، ولكن شيّد بالآجر بشكله التأريخي في عهد

---

(1) نكرر خلاصة أدوار العصر الحجري المعدني:

1 ـ العصر الحجري ـ المعدني القديم:

أ ـ دور حسونة.

ب ـ دور سامراء.

2 ـ الحجري ـ المعدني الوسيط:

أ ـ دور حلف.

ب ـ دور العبيد الأول = دور «أريدو» (أريدو الطبقات 19ـ15).

جـ ـ دور العبيد الثاني = حاج محمد ورأس العمية (أريدو: الطبقات 14ـ12).

3 ـ الحجري المعدني الأخير:

أ ـ العبيد الثالث (العبيد القديم سابقاً. أريدو: الطبقات 9ـ8). في العبيد و«أور» وتبه گورا (الطبقات 19ـ17).

ب ـ العبيد الرابع (العبيد الأخير سابقاً): في أريدو، الطبقات 7ـ6 والوركاء (الطبقات 18ـ15) وتبه گورا (الطبقات 16ـ13).

جـ ـ الوركاء:

1 ـ الوركاء القديم: الوركاء، الطبقات 12ـ8. وأريدو، الطبقات 5ـ4، وتبه گورا (الطبقات 13أـ12).

2 ـ الوركاء الوسيط: الوركاء (الطبقات 8ـ6)، وأريدو (الطبقات 3ـ2)، وتبه گورا (11أـ11).

3 ـ الوركاء الأخير: الوركاء الطبقات 5 و4أ، 4ب، 4جـ.

وقد جعل هذا الدور من الوركاء أول أطوار العصر الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتأريخي.

سلالة «أور» الثالثة (في حدود 2100ق.م)، كما يدل على ذلك الآجر المختوم بأسماء ملوك هذه السلالة. واشتهرت مدينة «أريدو» في تأريخ حضارة وادي الرافدين ومآثرها الدينية بكونها مركز عبادة الإله الشهير «أنكي - أيا» إله الحكمة والمعرفة الذي اشتهر في العقائد الدينية وفي الآداب والأساطير.

وأبانت التحريات الآثارية التي قامت بها مديرية الآثار (1946-1949) أن أريدو كانت، بحسب معرفتنا الراهنة، أقدم مواضع الاستيطان في السهل الرسوبي الجنوبي، وذكرت المدينة في أثبات الملوك السومرية على أنها أولى المدن الخمس التي حكمت فيها سلالات من الملوك في عصر ما قبل الطوفان[1]. وكشفت التنقيبات التي نوّهنا بها عن بقايا تسع عشرة طبقة أثرية أو دور سكني. وتنتظم هذه الطبقات ابتداء من الطبقة السفلى 19 (الكائنة فوق الأرض البكر) في الأدوار الحضارية التالية:

1 - الطبقات 19-15: طور «أريدو»، الذي سبق أن ذكرنا أنه سمي بدور العبيد الأول.

2 - الطبقات 14-12: طور فخار حاج محمد، وهو الطور الذي أطلق عليه مع فخار رأس العمية «العبيد الثاني».

3 - الطبقات 11-8: فخار العبيد المألوف الذي كان يسمى العبيد القديم ثم الآن «العبيد الثالث».

4 - الطبقات 7-6: فخار دور العبيد المتأخر (العبيد الرابع الآن).

5 - الطبقات 5-1: دور الوركاء والأطوار التالية وبضمنها عصر فجر السلالات.

ويبدو من نتائج التحريات السالفة الذكر أن السكنى العامة في «أريدو» انقطعت تقريباً من بعد دور الوركاء، واقتصرت حياة المدينة على جملة بنايات

(1) انظر الفصل التالي (الخامس) الخاص بعصر فجر السلالات.

رسمية ومعبدية للموظفين ورجال الدين التابعين لمعبد «أي ـ آبسو»، معبد الإله «أنكي ـ أيا». وقد وجدت بقايا قصر كبير يرجع في زمنه إلى عصر فجر السلالات الثالث، واستمر المعبد والزقورة وما يتبعهما من أبنية إلى العصور التأريخية التالية، كما يدل على هذا ما ذكرناه من أن زقورة المدينة (برجها المدرج) قد شيّدت في عهد سلالة أور الثالثة (2112 ـ 2004ق.م)، واستمرت الإشارات التأريخية في النصوص المسمارية إلى معبد المدينة في كتابات الملوك من العهود التأريخية التالية، وفي مقدمتها شريعة «حمورابي» (1792ـ1750ق.م).

وإذا استثنينا الطبقة التاسعة عشرة التي لم يعثر فيها على بقايا من الأبنية الأمر الذي يشير إلى سكنى الأكواخ، فقد وجدت في الطبقات التالية بقايا مساكن مشيدة من الطين ثم من اللبن، وكان لأحد هذه الأبنية قوس معقود باللبن من دور الوركاء.

وكشفت التحريات عند زاوية الزقورة عن سلسلة المعابد شيّد بعضها فوق بعض، أي إن المعبد الجديد كان يقام فوق أنقاض المعبد الأقدم منه. ويرجع أربعة من هذه المعابد إلى دور «أريدو» (العبيد الأول) ويرجع البعض الآخر إلى طور حاج محمد (العبيد الثاني)، ثم العبيد الثالث والرابع ودور الوركاء. وكان المعبد السادس عشر (من الطبقة السادسة عشرة) أحسن تلك المعابد حفظاً، ويلاحظ فيه تقدم في البناء، حيث شيّد باللبن، وقوامه حجرة مربعة تقريباً تحتوي على دكة القرابين (Offering table) ومذبح المعبد (Altar). وتمتاز جدران المعبد بما يسمى بالطلعات والدخلات (Buttress. Recess) وهي الخاصية المعمارية التي ظلّت ملازمة لطراز العمارة في معابد حضارة وادي الرافدين إلى آخر عهودها التأريخية. وتزداد إمارات التقدم المعماري في بناء المعابد التالية، فقد ازداد المعبد الخامس عشر سعة وحجماً، وعندما نصل إلى معابد أطوار العبيد التالية (المعابد: 11ـ9) نجدها مما يصح أن يطلق عليها مصطلح المباني «التذكارية» (Monumental buildings)، حيث شيّدت باللبن

المنتظم وأقيمت فوق دكاك أو مصاطب منحدرة الارتفاع، ويرقى إليها بمنحدرات ترابية (Ramp). وفي وسع الباحث أن يعد هذه المعابد المقامة فوق مرتفعات اصطناعية أصل الزقورات (جمع زقورة أي البرج المدرج)، وهي الأبنية الدينية المرتفعة التي تميزت بها حضارة وادي الرافدين منذ مطلع العصور التأريخية. واستمر تشييد المعابد فوق المصاطب المرتفعة في «أريدو» في دور الوركاء التالي لدور العبيد.

ووجدت في معظم المعابد السالفة الذكر كميات كثيرة من عظام السمك، يمكن تفسيرها على أنها القرابين التي كانت تقدم إلى إله المدينة الذي لا شك في أنه كان الإله «أيا ـ أنكي» حيث استمرت عبادته في المدينة إلى العصور التأريخية، وكانت «أريدو» أشهر مراكز عبادته.

انتشار دور العبيد ومجمل خصائصه الحضارية:

وجدت الآثار المختلفة الممثلة لدور العبيد (بأطواره الأربعة التي يقسم إليها الآن) في جميع أنحاء العراق؛ على أن العبيد في شمالي العراق، وهو ما يطلق عليه اسم «العبيد الشمالي»، يختلف من بعض الوجوه عن العبيد الجنوبي. ويمكن القول إنه في الأجزاء الوسطى والجنوبية من العراق قامت المدن التأريخية المشهورة فوق بقايا قرى من دور العبيد كما تشير إلى ذلك التحريات الآثارية التي تمت في مثل هذه المدن، نخص بالذكر منها «أور» و«أريدو» ولجش (لگش) و«نفر» و«الوركاء» وغيرها، بالإضافة إلى المواضع الأثرية الكثيرة التي سجل المسح الأثري فيها وجود فخار دور العبيد[1]، ومثل ذلك يُقال بالنسبة إلى المواقع الأثرية الكثيرة في شمالي العراق مما سبقت

---

(1) نشير بوجه خاص إلى تحريات مديرية الآثار الخاصة بتسجيل المواقع الأثرية في سائر أنحاء القطر. راجع آخر النشرات التي أصدرتها هذه المديرية عام 1970. وننوّه كذلك بالتحريات التي تمت في منطقة مندلي والكشف عن أطوار العبيد. راجع:

Josan Oates in *IRAQ*, XXX, (1968), 1ff. *IBID.*, XXXI, (1969), 115ff.; *SUMER*, 22, (1966), 15ff.

الإشارة إلى بعضها. وسنخصص وصفاً لأحد المواقع الشمالية وهو «تبه كورا» بصفته إحدى قرى العبيد الشمالي. ووجدت آثار طور العبيد المختلفة في عدة جهات من الشرق الأدنى، ومنها بلاد إيران وبلاد الشام. وتم في السنوات القليلة الماضية مسح أثري لآثار العبيد في بعض جهات المملكة العربية السعودية ولا سيما الأجزاء الساحلية من الخليج. وسجل أكثر من سبعة عشر موضعاً أثرياً في الجهات الداخلية على بعد نحو 40 ميلاً من السواحل، وجد فيها فخار العبيد من أطواره المختلفة. والجدير بالذكر بهذا الصدد أن آثاراً من دور «جمدة نصر» وعصر فجر السلالات وجدت في واحة «البريمي» (أبو ظبي)، كما عثر على معبد من عصر فجر السلالات في البحرين (البعثة الأثرية الدنيمركية 1954ـ1961)[1].

وبعد هذا الموجز عن مدى انتشار دور العبيد نذكر مجمل صفة آثار هذا الدور ولا سيما أوانيه الفخارية المميّزة. وأول ما نذكر أن فخار العبيد بوجه عام من النوع الملون ولكنه أحادي اللون (Monochrome)، وقوام الزخارف في أوانيه الفخارية خطوط سود مائلة إلى الزرقة أو سمر أو حمر فاتحة، أما سطح الإناء فإنه ذو لون مخضر (مائل إلى الخضرة) أو أصفر فاتح (Buff)، وهي مفخورة (مشوية) بدرجات عالية من الحرارة. هذا ولا يندر وجود أوانٍ مزينة بأشكال بعض النباتات والحيوانات. كما أن طائفة من الأواني قد صنعت بنوع خاص من دولاب الخزاف أو ما يسمى «القرص» (Tournette) إذ لم يستعمل دولاب الخزاف الصحيح. هذا مجمل وصف فخار العبيد بوجه عام، ويمكن للقارئ الذي يريد الاستزادة والوقوف على فخار كل دور من أدواره الرجوع إلى النشرات الخاصة المثبتة في آخر هذا الفصل. أما موجز فخار طور «أريدو» فإنه يشترك مع فخار

---

(1) عن نتائج هذه التحريات راجع البحوث التي ألقيت في المؤتمر الدولي المنعقد في البحرين عام 1970 عن موضوع الآثار الآسيوية، والمنشورة خلاصتها في:

Edith Porada in *Artibus Asiae*, XXXIII, (1971).

ونشرت هذه البحوث في مجلة: *Archaeology*, 23, (1970), 334ff.

وراجع أيضاً: Geofrey Bibby, *Looking for Dilmun*, (1969).

العبيد العام بكونه ملوناً بلون واحد، ولونه في الغالب أسمر غامق (لون الشكولاتة) ومزين بخطوط صغيرة وبأشكال المربعات والمثلثات الصغيرة والخطوط المنكسرة ضمن خطوط أفقية متوازية، وتشبه هذه الأطرزة في شكلها العام أطرزة فخار دور «سامراء»، ويرجح أن يكون النوعان من الفخار متعاصرين تقريباً. ووجدت في الطبقة (19) (أولى طبقات أريدو) والطبقات 17 و15 الأطباق الخاصة بتقشير الحبوب (Husking trays) الشبيهة بأطباق دور حسونة، الأمر الذي يشير إلى قدم دور «أريدو». أما فخار «حاج محمد» (أي دور العبيد الثاني الممثل في «أريدو» بالطبقات 14ـ12) فلونه في الغالب قاتم ضارب إلى الحمرة الأرجوانية، ويظهر على الإناء بريق معدني من جراء ثخن طلائه، ولكن قعر الإناء ذو لون ضارب إلى الصفرة. ووجد نوع من الأواني على هيئة الطاسات (Bowls) العريضة تشبه الصحون التي وجدت من آخر أطوار حلف، وهي كذلك مزينة من الداخل بشبكات من المربعات والمثلثات.

وإذا كان فن التعدين ولا سيما تعدين النحاس قد كان في مراحله الأولى في دور حلف، فتوجد شواهد على تقدمه في دور العبيد ولا سيما الأطوار الأخيرة منه حيث وجدت آلات واضحة مثل الفؤوس كما تشير إلى ذلك الفأس المكتشفة في «تبه كورا» القريبة من الموصل.

وتدل بقايا القرى التي جرى التحري فيها في جنوبي العراق وشماليه مثل «أريدو» والعقير و«تبه كورا» على اتساع القرى في دور العبيد وتقدم بناء المساكن وازدياد استعمال اللبن المنتظم في البناء، كما أن كثرة القبور وعدد دور السكنى تدل هي الأخرى على تكاثر سكان القرى. فقد وجد مثلاً ما لا يقل عن ألف قبر في «أريدو» من دور العبيد. وقد فرز بعض القبور في «أريدو» وجعلت على هيئة مقبرة للقرية خارج حارات السكن، وهي قبور منتظمة مبنية باللبن وقد وضعت الجثث فيها على ظهورها.

ومما توصف به التحريات التي كانت تجري للكشف عن دور العبيد بوجه خاص وأدوار عصور ما قبل التأريخ بوجه عام أن معظمها لم يتم بأسلوب التنقيبات الأفقية المنتظمة أي الكشف عن حارات السكنى طبقة من بعد طبقة،

وإنما أجريت بطريق حفر الجس (Test pits) العميقة أي الحفر العمودي كما تم في «أور» و«الوركاء» ونفر ونينوى وغيرها، يستثنى من ذلك عدد قليل من المواضع التي طبقت فيها طريقة التنقيبات الأفقية وفي مقدمتها «أريدو» وتبه كورا والعقير، وإذ كنا قد تكلمنا على أريدو فيحسن أن نوجز نتائج التحريات في كل من العقير وتبه كورا بصفتهما أمثلة على قرى عصر العبيد، موضوع بحثنا.

العقير:

ففي موقع العقر (الواقع على بعد نحو 50ميلاً جنوب بغداد في جزيرة ما بين النهرين السفلى) كشفت مديرية الآثار العراقية (1940ـ1941)[1] عن قرية أنموذجية من دور العبيد (دور العبيد الثالث والرابع). كما وجد معبد من طور الوركاء الأخير سيأتي وصفه في كلامنا على العصر الشبيه بالكتابي. لقد شيدت بيوت هذه القرية العبيدية من اللبن وبنيت على جانبي دروب أو أزقة، ويحتوي البيت الواحد على عدة حجرات ذات تخطيط منسق نوعاً ما. ووجدت نماذج للتنور الشبيه بالتنور العراقي الحديث. واستعمل فلاحو هذه القرية المناجل والفؤوس المصنوعة من الفخار المشوي شياً جيداً، حيث لم ينتشر استعمال معدن النحاس على مقياس كبير، كما استعملوا الحجارة الطبيعية في صنع أدواتهم الزراعية المحدودة مثل رؤوس المحاريث، ولم يكن المحراث المعدني الكبير قد شاع استعماله. ووجدت كذلك إبر من العظم وأقراص للمغازل الأمر الذي يشير إلى تقدم فن الحياكة والنسيج.

ويجدر أن ننوّه في ختام كلامنا على دور العبيد بالاتصالات التجارية بين وادي الرافدين وبين الأقطار الخارجية منذ عصور ما قبل التأريخ لجلب المواد الضرورية التي استعملها سكان العراق القديم؛ ومع أن تلك الاتصالات كانت تتم

---

(1) عن نتائج تنقيبات مديرية الآثار في العقير راجع:

S. Lloyd and F. Safar in *JNES* (1943).

وعن موجز فخار العبيد من أطواره المختلفة انظر:

Edith Porada in Ehrich, *Chronolgies in Old World Archaeology,* (1965), 133f.; 149ff.

بالدرجة الأولى بالطرق البرية بيد أنه وجدت إمارات آثارية تشير إلى أن بعض تلك الاتصالات كان بطريق البحر، ونذكر بهذه المناسبة نموذج القارب المصنوع من الفخار الذي وجد في «أريدو» من أطوار العبيد الأخيرة. وأن «أريدو» و«أور» القريبة منها لم تكونا بعيدتين عن ساحل الخليج العربي، وقد سبق أن ذكرنا في الفصل الأول المخصص للمقدمة الجغرافية احتمال اتصال هاتين المدينتين بالخليج عن طريق هور كبير كان يمتد في عصور ما قبل التأريخ إلى هذا الجزء من جنوبي العراق. ونعيد إلى الأذهان بهذه المناسبة ما سبق أن ذكرناه من الاكتشافات الآثارية الجديدة في سواحل الجزيرة العربية والعثور على أطوار العبيد المختلفة. ولعل تلك الاتصالات قد بلغت جهات الهند الشرقية (وادي نهر السند)، وهي الاتصالات التي اتضحت أكثر في العصور التأريخية التالية.

قرية «تبه كورا»:

من القرى النموذجية التي تناولتها التنقيبات الأفقية أي الكشف عن حارات دور السكنى بحسب طبقاتها، الموضع الذي سبقت الإشارة إليه باسم «تبه كورا»، الواقع على بعد نحو 15ميلاً شمال شرقي الموصل. وقد أسفرت التحريات التي قامت بها جامعة «بنسلفانية» الأمريكية برئاسة الأستاذ «سپايزر» (Speiser) (1931ـ1938)[1] عن إظهار عشرين طبقة أثرية أو دور سكني، تبدأ أزمانها من دور حلف الذي تكلمنا عنه سابقاً في منتصف الألف الثاني ق.م، حيث الفخار «الحوري» والآشوري من العصر الآشوري الوسيط[2]. أما دور

---

(1) انظر نتائج التنقيبات في تبه گورا في:
A. J. Tobler, *Excavations at Tepe Gawra*, (1956).

(2) ندرج فيما يأتي خلاصات الطبقات في تبه گورا:
دور حلف: الطبقات 20 ـ 19.
دور العبيد: الطبقات 19 ـ 13.
دور الوركاء: الطبقات 13 ـ 9.
دور جمدة نصر: الطبقات 9 ـ 8.
عصر فجر السلالات والعصور التأريخية التالية الطبقات 8 ـ 7.

العبيد، موضوع بحثنا، فإنه ظهر في الطبقة التاسعة عشرة ويستمر إلى الطبقة الثالثة عشرة، حيث عثر فيها على الأواني الفخارية الخاصة بدور العبيد، ولا سيما دور العبيد الثالث والرابع. وشيّدت بيوت هذه القرية، كما في بيوت دور العبيد الجنوبية بآجر اللبن، ولكن إلى ذلك استعملت الحجارة أيضاً. ويمتاز العبيد الشمالي، كما تمثله «تبه كورا»، بكثرة ما يسمى بالأختام المنبسطة (Stamp seals) المصنوعة من أنواع الأحجار المختلفة، في حين أن استعمالها في العبيد الجنوبي كان نادراً تقريباً، وقد نقشت بصور مبسطة من الحيوانات والصور الآدمية التقريبية. كما أن الأدوات المصنوعة من النحاس أوضح وأكثر منها في العبيد الجنوبي، حيث لم يعثر لحد الآن على أدوات نحاسية واضحة لعله بسبب ملوحة التربة في الأجزاء الجنوبية من العراق. وقد سبق أن ذكرنا الفأس النحاسية التي وجدت في «تبه كورا» كما وجدت ثلاث أدوات أخرى هي مخيط (Awl) وحلقة و«زر». وبالإضافة إلى معدن النحاس وجدت خرز من الذهب، وقد وجد خيط أو سلك من الذهب في أور.

ووجدت في تبه كورا ثلاثة معابد (الطبقة 13)، وهي تضاهي بعض معابد «أريدو» من الدور نفسه. وإلى جانب ذلك عثر في الطبقة نفسها على بناءين مستديرين من النوع الذي سميناه «ثولوس» (Tholos) الذي شاع في قرية الأربجية من دور حلف السابق لدور العبيد، الأمر الذي يشير إلى استمرار بعض العناصر الحضارية من دور حلف إلى دور العبيد. ومثل ذلك يُقال في دمى الطين التي تمثل «الإلهة ـ الأم» وهي جالسة على غرار دمى دور حلف فلا تشبه ما شاع في العبيد الجنوبي، حيث تمثل على هيئة امرأة نحيفة (هيفاء) ورأسها أشبه ما يكون برأس الحية، ومثل شعرها بطيات من القير. ويجدر أن نشير بهذا الصدد إلى أن هناك نوعاً آخر من دمى الطين الممثلة على هيئة امرأة تحمل على صدرها طفلاً، مما يشبه «الأم والطفل» في الرموز المسيحية الدينية.

وبخلاف المقبرة التي وجدت في «أريدو» المخصصة خارج دور السكنى والمشيدة باللبن من دور العبيد مما أشرنا إليه في كلامنا على «أريدو»، كانت

القبور في قرية تبه كورا من الدور نفسه عبارة عن (حفر دفن اعتيادية) حفرت خارج المعابد ووضعت الجثث فيها وهي ملمومة (Contracted). أما الأطفال فكانوا يقبرون في جرار أو أوانٍ كبيرة من الفخار. ولعل هذا يشير إلى أن العبيديين الشماليين ظلوا محافظين على طائفة من تراث أسلافهم من دور حلف رغم انتشار جماعات من أهل العبيد الجنوبي إلى الشمال.

ومما لا شك فيه أن الزراعة اتسعت في هذا العصر، وأصبحت بالدرجة الأولى زراعة ري ولا سيما في السهول الرسوبية الوسطى والجنوبية. وبما أن دور العبيد أقدم زمن للاستيطان في هذه الأقسام من العراق فكانت زراعة الري أولى تجارب ومحاولات لمشاريع الري قام بها العبيديون الجنوبيون بوجه خاص، وكانت في مقدمة العوامل التي حفزت الإنسان على تنظيم المجتمع وظهور المعالم الأولى من نظام الحكم، مما سنتطرق إليه مرة أخرى. وكان لظهور المعبد منذ دور العبيد أثر مهم في التنظيمات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، حيث سرعان ما ظهرت في الأدوار التي أعقبت عصر العبيد ملامح نظام المدينة المعبدية والحكومة المعبدية. وعلى هذا فإن ظهور المعابد في عصر العبيد واستمرارها في الوجود والتطور والاتساع في الحجم والتنظيم والنفوذ يسوغ للباحث عد عصر العبيد بداية ما يسمى بالحضارة السومرية التي ازدهرت في مطلع الألف الثالث ق.م مما سنتناوله في الفصل التالي. وهذا يضعف رأي من ذهب من الباحثين إلى جعل بداية حضارة وادي الرافدين منذ دخول السومريين المزعوم إلى العراق في الأطوار الأخيرة من دور الوركاء.

العصر «الحجري ـ المعدني» الأخير:

تكلمنا فيما سبق على العصر الحجري ـ المعدني الأول (القديم) الذي يتضمن دور حسونة وسامراء والعصر الحجري المعدني الثاني (الوسيط) الذي يدخل ضمنه دور حلف والعبيد الأول والثاني، فنخصص الآن موجزاً لآخر أدوار العصر الحجري ـ المعدني (4000ـ3500) الذي أدخلنا فيه دوري العبيد الثالث والرابع ودور الوركاء (الوركاء القديم والوسيط).

1 ـ دور العبيد الثالث والرابع:

بما أننا تكلمنا على دور العبيد بوجه عام فلا حاجة إلى إفراد بحث خاص لدوري العبيد الثالث والرابع اللذين قلنا إنهما كانا يسميان العبيد القديم والعبيد المتأخر، فنقتصر على ذكر أبرز الأمور المميزة، منها أن هذين الدورين ممثلان في جميع أنحاء العراق الشمالية والجنوبية، وفي معظم أجزاء الشرق الأوسط. فالعبيد الثالث مثلاً ممثل في «أريدو» بالطبقات (11ـ8)، وقبل ذلك وجد في «أور» وتل العبيد (الذي سمي باسمه دور العبيد جميعه) وفي «تبه كورا» (الطبقات 19ـ17)، وكان يسمى سابقاً دور العبيد القديم وهو أول ما اكتشف من أطوار هذا الدور قبل أن يعثر على طور «أريدو» وطور «حاج محمد». ولعل أبرز ما يجده المنقبون ولا سيما في المواقع الجنوبية، مسامير الفخار المعوجة (Bent clay nails)، ومناجل الفخار. والفخار الأنموذجي لهذا الطور من العبيد ذو لون واحد وقوام زخارفه خطوط منحنية. ويوجد نوع خاص من الأواني يطلق عليها مصطلح الجرار السلحفاتية (Tortoise jars) وقد بدأ ظهورها في «أريدو» (الطبقة 13) ولكن كثر استعمالها في الطبقات (11ـ8)، ويظن أن استعمالها كان يتعلق بنوع من الشعائر الدينية. وننوّه أيضاً بما ذكرناه من المعابد في «أريدو» ذات الجدران المنتظمة المزينة بما سميناه «الطلعات» و«الدخلات»، وقد أقيمت كما ذكرنا على دكاك أو مصاطب، والوحدة المعمارية البارزة فيها محراب المعبد أو «السيلا» (Cella) والمذبح (Altar) في الجهة المقابلة وخلفه ممشى أو ممر.

أما الدور الأخير من العبيد (العبيد الرابع الذي كان يسمى أيضاً العبيد المتأخر) فتمثله في «أريدو» الطبقتان 7 و6 والطبقات (16ـ13) من «تبه كورا». واستمرت المعابد في تطورها في هذا الدور في الجنوب وفي الشمال. ويوجد تشابه ملحوظ بين النوعين من المعابد كما يظهر من مقارنة المعبدين السابع والسادس في «أريدو» بمعابد الطبقة الثالثة عشرة في تبه كورا، من حيث اتجاهاتها العامة ووجود المحراب فيها (السيلا) ووجود حجرات (أربع حجرات) على جنبي

(السيلا). ولكن حدث تدهور في صناعة الفخار وقد علل بعض الباحثين هذا الإهمال في صناعة الأواني الفخارية بازدياد استعمال المعادن[1].

وجاءتنا عدة نماذج من الأختام المنبسطة من هذا الطور وهي بيضوية أو مستديرة ومزخرفة بخطوط متناظرة متوازية وكذلك بحفر صغيرة. ويلاحظ بعض التطور في دمى الطين والغالب عليها أنها تمثل حيوانات ولا سيما البقر (Bovids) وأشكالاً آدمية ولا سيما صور النسوة.

2 ـ دور الوركاء (الطوران القديم والوسيط):

سمي الدور الحضاري الذي تلا الطور الأخير من دور العبيد بالوركاء نسبة إلى موقع الوركاء المعروف، حيث اكتشف نوع جديد من الفخار معظمه مصنوع بدولاب الحزاف، وقد وجد هذا الفخار في أثناء السبر الأثري في منطقة معبد «أي ـ أنا»[2] في تسع طبقات أثرية (الطبقات 12ـ4)، عثر عليه في أماكن كثيرة من العراق والشرق الأدنى.

ويتجه البحث الحديث في عصور ما قبل التأريخ في حضارة وادي الرافدين إلى تقسيم دور الوركاء هذا والفخار الخاص به إلى ثلاثة أطوار[3]: أ ـ طور الوركاء القديم. ب ـ طور الوركاء الوسيط. جـ ـ طور الوركاء الأخير.

فطور الوركاء القديم تمثله الطبقات (12ـ7) من الوركاء وفي «أريدو» ترجع إليه المعابد المقامة على مصاطب (الطبقات 5ـ2) وفي «تبه كورا»

---

(1) انظر: Joan Oates. «Ur and Eridu» in *IRAQ*, XXII, (1960), 39.

(2) راجع تقارير تنقيبات البعثة الأثرية الألمانية في الوركاء في النشرة الخاصة المرموز لها بـ (UVB): *UVB*, III, (1932), IV (1933).

(3) انظر:

R. W. *EHRICH, Chronologies in Old World Archaeology*, (1965), 153ff.

وبالإضافة إلى دلالة فخار دور الوركاء على استعمال دولاب الخزاف وجدت أجزاء من هذا الدولاب في أور من دور الوركاء، إذ عثر على قرص دائري من الفخار الثخين، وسطه مثقوب ومبطن بالزفت، وتوجد دائرة من الثقوب في أطراف محيطه، حول هذا الموضوع راجع:

Forbes, *A History of Technology*, I, (1955), p. 199.

الطبقات (13أ-12)، وتعود إلى طور الوركاء الوسيط الطبقتان (7-6) من الوركاء، أما طور الوركاء الأخير فتمثله في الوركاء الطبقتان (5-4)، وتنقسم الطبقة الرابعة إلى أ وب وجـ وقد جعل هذا الطور الأخير مع دور «جمدة نصر» وعصر فجر السلالات الأول عصراً حضارياً خاصاً سمي كما ذكرنا سابقاً بالعهد الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتأريخي، وسنفرد له وصفاً خاصاً.

ويميز فخار الوركاء القديم بأنه ذو لون فاتح وهو في الغالب مصنوع باليد، وهناك الفخار الأحمر والرمادي وكلاهما من النوع المطلي (Slipped) كما تميزه الأقداح ذات الحافات المائلة أو المعوجة (Bevelled rim). أما الأختام فإنها ظلّت من النوع المنبسط (Stamp seal) ولم تظهر بعد الأختام الإسطوانية.

أما طور الوركاء الوسيط الذي تعود إليه الطبقتان السابعة والسادسة في الوركاء فتمثله أيضاً في «أريدو» الطبقتان الثالثة والثانية، كما ترجع إليه الطبقات (20 ـ 17) في «نفر»، في منطقة معبد الإلهة «أنانا» (عشتار) والطبقة الحادية عشرة في «تبه كورا»، كما وجدت آثاره في عدة أماكن أخرى مثل منطقة ديالى. والغالب على الأواني الفخارية من هذا الطور الأباريق ذات الصنابير المعوجة (Drooping spout)، والجرار ذات الصنابير الطويلة، وأوعية من الفخار الأحمر ذات عرى أو آذان أربع (Four lugged).

العصر الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتأريخي:

ارتأى جماعة من الباحثين ولا سيما من جماعة المعهد الشرقي (جامعة شيكاغو)[1] لأسباب حضارية إطلاق مصطلح العصر أو الدور الشبيه بالكتابي (Proto-literate) أو الشبيه بالتأريخي (Proto-historic) على طور الوركاء الأخير

---

(1) راجع:

P. Delougaz in *OIP*, LVIII, p. 8.

A. Parrot *AM*, II. 272ff.

(الوركاء، الطبقتان 5 و4 أ وب وجـ) وعلى دور جمدة نصر (الطبقتان 3 و2 من الوركاء)، وأضيف حديثاً إلى هذين الدورين عصر فجر السلالات الأول. ويمكن تحديد زمن هذا العصر بموجب أحدث الآراء من 3500 إلى 2800ق. م.

موجز الخصائص الحضارية للعصر الشبيه بالكتابي:

قبل أن نتكلم على أطوار هذا العصر نجمل أولاً أبرز الخصائص الحضارية التي ميّزته. فباستثناء فخار دور الوركاء المختلف عن فخار الأطوار السابقة، نلاحظ استمرارية التقدم الحضاري في كثير من المقومات والعناصر الحضارية من العصور السابقة، وفي مقدمة ذلك استمرار المعابد بشكلها العام المتحدر من دور العبيد وطوري الوركاء القديم والوسيط السابقة لهذا العصر، ولكنها ازدادت سعة وأناقة وزخرفة في هذا العصر الجديد، وإلى هذا ظهرت أوائل المعابد العالية أي الزقورات التي اختصت بها حضارة وادي الرافدين، كما تشير إلى ذلك المعابد المقامة على أكثر من مصطبة واحدة مما اكتشف في الوركاء والعقير. وظهرت جملة عناصر حضارية جديدة مميزة لحضارة وادي الرافدين الأمر الذي يسوغ لنا عد هذا العصر بأنه طور التكوين الحضاري (Formative phase)، فظهرت لأول مرة الأختام الإسطوانية (Cylinder seals) في الطبقة الخامسة من الوركاء، وقد رأينا أن الأختام كانت مما يسمى بالأختام المنبسطة (Stamp seals) في الأدوار السابقة لهذا العصر. والأختام الإسطوانية صارت من العناصر الحضارية الملازمة لحضارة وادي الرافدين في جميع عهودها منذ ظهورها في هذا العصر. وظهر أيضاً لأول مرة استعمال دولاب الخزاف لصنع الأواني الفخارية، واحتمال استعمال عجلة العربة. وتقدم فن التعدين مراحل مهمة وانتشر استعمال المعادن، وتطورت القرى الكبيرة من العهود السابقة فصارت أوائل المدن ونواة لظهور التمدن والحياة الحضرية (Urbanization) ونظام دولة المدينة (City state) وهو النظام الذي سنشاهد ازدهاره وصيرورته النظام السياسي المميز في عصر فجر السلالات التالي للعصر

الشبيه بالكتابي. وظهر كذلك فن النحت بالحجر بكلا نوعيه المجسم والبارز. وحصل تطور محسوس في الزراعة ونظام الري من حيث الانتظام والاتساع.

ومما لا شك فيه أن أعظم اختراع حصل في هذا العصر كان في ابتداع وسيلة للتدوين أي ظهور الكتابة لأول مرة في تأريخ الحضارة، حيث عثر على أولى نماذج من الكتابة الصورية و(Pictographic) من الطبقة (4«أ») في الوركاء (IV-A)، ومع أنها كانت صورية كما ذكرنا بيد أنه يرجح أنها لم تكن البداية البسيطة بل لعله سبقتها أطوار بدائية. واتضحت اللغة المدونة بهذه الكتابة في دور جمدة نصر بأنها اللغة السومرية. وبما أن الكتابة في الطور الشبيه بالكتابي كانت صورية واقتصر استعمالها على تدوين أشياء بسيطة مادية كواردات المعبد وأملاكه من الحيوانات ولم تدوّن بها نصوص تأريخية ولا شؤون الحياة العامة فلم يجعل دور الوركاء الرابع الذي ظهرت فيه بداية العصر التأريخي بل عد كما قلنا ضمن العصر الشبيه بالتأريخي الذي سمي كذلك للسبب الذي نوَّهنا به من أن مصادرنا المدونة عنه مقتصرة على تلك الألواح الصورية الخالية من الأخبار التأريخية.

دور الوركاء الأخير:

بعد أن أوجزنا الخصائص الحضارية العامة المميزة للعصر الشبيه بالكتابي نورد الآن بعض الملاحظات الأساسية عن أدوار هذا العصر. ونبدأ بأول هذه الأدوار وهو الطور الأخير من عصر الوركاء الذي تمثله في الوركاء الطبقتان الخامسة والرابعة (الرابعة أ، ب، جـ) كما ترجع إليه الطبقتان السادسة عشرة والخامسة عشرة في نفر (معبد أنانا) والطبقتان (10أ) و(9) في تبه كورا والمعبد الأخير في «أريدو».

ومن ناحية الفخار اختفى في هذا الدور فخار الوركاء ذو اللون الرمادي باستثناء كميات قليلة وجدت منه في منطقة «أي ـ أنا» في الوركاء، وقل استعمال الفخار الأحمر وظهر نوع من الفخار يعرف بطلائه ذي اللون «الإجاصي» (Plum red slip) وقد بدأ لأول مرة في الطبقة السادسة عشرة من

معبد «أنانا» في «نفر» وفي «أي ـ أنا» في الوركاء، وكثر في الاستعمال في الطبقات التالية، كما ظهرت الجرار المزخرفة بأشكال من المثلثات المتصالبة وذات العرى الأربع.

ولعل أبرز ما يميّز هذا الدور ظهور عدد من المعابد المهمة ولا سيما تلك المعابد المقامة على مصاطب أو دكاك اصطناعية. ففي مدينة الوركاء كشف عن عدد منها في منطقة معبد «أي ـ أنا»، وهو المعبد المخصص للإلهة «أنانا» (عشتار). كما شيدت معابد أخرى للإله «آنو» في الموضع الذي شيدت «زقورته». ففي المنطقة الأولى وجدت بعثة التنقيبات الألمانية ما لا يقل عن ستة معابد موزعة بين الطبقتين الخامسة والرابعة، وقد شيدت على هيئة أزواج (Pairs) أي على هيئة معبدين متجاورين، وقد فسر المنقبون هذا الترتيب[1] بأن المعبدين المزدوجين خصص أحدهما للإلهة «أنانا» (عشتار) والآخر لقرينها أو زوجها الإله «تموز». وقد سمي أحد المعابد من الطبقة الخامسة بالمعبد الكلسي لأنه أقيم على أسس أو مصطبة من حجر الكلس (وسعته 29×75متراً). ويمتاز هذا المعبد والمعابد التالية له بأنها كانت مزينة بزينة من الفسيفساء الجميلة التي تتألف من مخاريط (Cones) من الطين المشوي (تتراوح أطوالها ما بين 3 إلى 4 انجات)، ولونت رؤوسها بأصباغ من اللون الأسود والأحمر والأبيض، وكانت تثبت بالجدران المملطة (Plastered) بالطين. وقد شاع استعمال هذا الطراز من الزخارف المعمارية الجدارية في العصر الشبيه بالكتابي.

وكشف في الطبقة الرابعة (ب) في الوركاء عما لا يقل عن ثلاثة معابد ومعبدين من الطبقة الرابعة أ، أبعاد أحدهما 83×53م وأبعاد المعبد الثاني المسمى معبد «C» (22,20×54,20م). أما معابد الإله «آنو» في الوركاء من هذا العصر فقد سجلت لها ستة أدوار بنائية شيدت متسلسلة الواحد فوق

---

(1) انظر:

H. Lenzen. «Die Tempel Der Schicht «V» in URUK» in *ZA*, 40. (1949), 1ff.

الآخر، وقد تطورت في النهاية إلى زقورة على هيئة دكة أو مصطبة ترتفع خمسين قدماً وفوقها شيّد المعبد الذي أطلق عليه اسم المعبد الأبيض. أما زقورة مدينة الوركاء الكبيرة في منطقة «أي ـ أنا» فيرجع زمن تأسيسها إلى عهد سلالة أور الثالثة، وبوجه خاص مؤسس هذه السلالة «أور ـ نمو» وابنه «شولگي»، وقد وجدت تحتها بقايا زقورة أقدم منها تعود إلى العصر الشبيه بالكتابي.

ومن المعابد المهمة التي كشف عنها في العصر الشبيه بالكتابي معبد العقير الذي سبق أن نوَّهنا به في كلامنا على موضع العقير وتنقيبات مديرية الآثار فيه (1940ـ1941)[1]. ويعد هذا المعبد أيضاً من أولى المعابد العالية أو «الزقورات»، إذ يرجح أنه يعاصر في زمنه طبقة الوركاء الرابعة، كما يدل على ذلك اللبن المشيد به. وهو مقام على دكة أو مصطبة ترتفع زهاء (4) أمتار. وزينت جدران المعبد العالي المشيد فوقها بصور جدارية ملونة جميلة قوامها أشكال آدمية رسمت على هيئة موكب، ولكنها مشوهة مع الأسف، وأشكال بعض الحيوانات من بينها صورتا فهدين (Leopard) رابضين، يحرسان على ما يرجح أن يكون عرش إله لا يعلم من هو. وتعد هذه أقدم صور جدارية اكتشفت لحد الآن[2].

وتختص أبنية هذا العهد باستعمال نوع من اللبن أطلق عليه بالألمانية مصطلح «ريمشن» (Riemchen)، وهو لبن مستطيل الشكل مربع المقطع تقريباً، ويرجح أن أول استعمال له ظهر في الطبقة السادسة من الوركاء واستمر في الاستعمال إلى أطوار الوركاء التالية ثم إلى دور «جمدة نصر». ويجدر أن ننوّه بالعثور على بقايا معبد مشيد على مصطبة من دور الوركاء الرابع في التل المسمى «قالينج آغا» (نحو كيلومتر واحد عن قلعة أربيل).

---

(1) انظر المصدر المذكور في الهامش رقم 23.

(2) انظر المصدر المذكور في الهامش رقم 23.

فن النحت:

لم يعثر على آثار منحوتة من طبقة الوركاء الرابعة ولكن وجدت جملة قطع فنية جميلة في الوركاء من دور «جمدة نصر» يرجح أنها ترجع في أصلها إلى دور الوركاء السالف الذكر (الطبقة الرابعة)، من بينها الإناء الحجري النذري ومسلة صيد الأسود ورأس الامرأة الجميل المنحوت من المرمر، وسنفرد لمثل هذه المنحوتات وصفاً خاصاً في كلامنا على دور «جمدة نصر».

الأختام الإسطوانية:

من العناصر الحضارية المميزة التي سبق أن ذكرنا ظهورها في العصر الشبيه بالكتابي الأختام الإسطوانية (Cylinder seals)، وكانت الأختام في العصور السابقة من النوع المنبسط (Stamp seals). وظهر هذا النوع الجديد من الأختام، كما رأينا، في الطبقة الخامسة من الوركاء ثم كثر استعمالها منذ الطبقة الرابعة التي خصصنا إليها أيضاً ظهور الكتابة لأول مرة. والختم الإسطواني كما يشير إلى ذلك اسمه، عبارة عن خرزة إسطوانية تصنع من الأحجار المختلفة وبعضها من أحجار شبه ثمينة، وتتراوح أطوال هذه الأختام من عقد واحدة (انج) إلى ثلاثة انجات، وتختلف أقطارها أيضاً ما بين زهاء سنتيمتر واحد إلى بضعة مليمترات. وهي مثقوبة طولياً مما يحتمل أنها كانت تعلق من الرقبة، وكانت من المقتنيات الشخصية الملازمة لمعظم الأفراد. ويعد الختم من الناحية الفنية من أجمل ما أنتجه فن النقش والنحت في جميع الحضارات، وكان يحفر وينقش بصور مختلفة المواضيع والطرز بهيئة معكوسة بحيث إذا دحرج على الطين الطري ترك طبعة هذه الصور بهيئة موجبة، وكان ذلك بمثابة التوقيع أو الختم لتوثيق العقود والمعاملات المختلفة، وصار الكثير منها في العصور التأريخية التالية ينقش أيضاً بكتابة جميلة موجزة قد تذكر اسم صاحب الختم وهويته. ويتميز كل دور من أدوار حضارة وادي الرافدين بأنواع خاصة من الأختام الإسطوانية، وعلى هذا تكون هذه الأختام على جانب كبير من الأهمية في تحديد أزمان الطبقات الأثرية في أثناء التنقيبات. وإلى ذلك

فالأختام تعد من المصادر المهمة من مصادر معرفتنا بجوانب مهمة من حضارة وادي الرافدين لأنها، كما بيّنا، كانت تنقش بمواضيع مختلفة من المشاهد المتعلقة (بالعقائد الدينية ومواضيع الأساطير وصور الآلهة ورموزها والأحداث المخلدة بالأدب)[1].

الكتابة:

والكتابة التي ظهرت في العصر الشبيه بالكتابي كما رأينا تعد من أعظم الاختراعات في حضارة وادي الرافدين، فهي على ما هو بديهي من مستلزمات الحضارة بل إن الكتابة والتدوين مرادفة للحضارة. وقد تفردت مدينة الوركاء بذلك الإنجاز الخطير، فقد وجدت، كما مرّ بنا، أولى كتابة من النوع الصوري في الطبقة الرابعة من منطقة معبد «أي ـ أنا»، ومع أن هذه الكتابة كما قلنا، أقدم ما جاء إلينا لحد الآن، بيد أنه يعتقد أن محاولات لإيجاد وسيلة للتدوين قد سبقتها في العصور الأقدم. كما أنه لا يعلم بوجه التأكيد من الذي اخترع الكتابة المسمارية، أهم السومريون أم قوم آخرون سبقوهم في استيطان السهل الرسوبي من غير السومريين ولا الساميين كما نوَّهنا في كلامنا على الأقوام القديمة في وادي الرافدين. وبالإضافة إلى مدينة الوركاء وجد في مدينة «كيش» لوح من الحجر منقوش بكتابة صورية قديمة يرجح أنه يرجع في عهده إلى مطلع العصر الشبيه بالكتابي.

وكانت الكتابة طوال عصر الوركاء الأخير (الطبقة الرابعة من الوركاء) صورية لا تعدو كونها تقييدات بسيطة لواردات المعابد بالدرجة الأولى ولا تعرف اللغة التي دوّنت بها، ولكنها تقدمت أشواطاً أخرى في العصور التالية ابتداء من دور «جمدة نصر» الذي بدأت فيه المحاولات الأولى لكتابة المفردات وبعض الجمل البسيطة، واتضح أن اللغة التي دوّنت بها منذ ذلك

---

(1) راجع:

P. Amiet, *La Glyptique Mèsopotaminne Archaique* (1961), p. 37.

الدور كانت اللغة السومرية؛ وفي عصر فجر السلالات الذي تلا دور «جمدة نصر» تقدمت مراحل أخرى بحيث أصبحت وسيلة لتدوين شؤون الحياة المختلفة والسجلات الرسمية. وجاءتنا نماذج من كتابات عصر فجر السلالات الثاني ولا سيما الألواح «الأركائية» (Archaic) التي وجدت في الموضع المسمى «فاره» (شروباك القديمة)، وقد قدر زمنها ببداية عصر فجر السلالات الثالث، وأقدم منها الألواح المكتشفة في «أور» التي تؤرخ ما بين عصر فجر السلالات الأول والثاني (في حدود 2800 ـ 2700ق.م). وترجع إلى هذا الزمن على ما يرجح الكتابات المكتشفة في منطقة ديالى والنقوش الكتابية القليلة المنسوبة إلى ملك كيش المسمى «أنميبراكيسي» (Enmebaragisi) ومع أن الألواح الصورية التي جاءت إلينا من العصر الشبيه بالكتابي لم تدون بها شؤون ذات بال إلا أننا نستطيع أن نستنتج منها أموراً مهمة عن بعض الجوانب الاقتصادية، بدارسة صور الأشياء المادية التي دوّنت بها ومنها الأغنام والماعز والأصواف والعلامة المسمارية التي تعبّر عن كلمة تاجر وصورة المحراث والعلامة الدالة على البستان وشجرة النخيل، الأمر الذي يشير إلى ظهور البساتين والبستنة (Horticulture) والعلامة المعبرة عن العربة ذات العجلة. وظهرت كذلك علامات مسمارية ذات دلالة مهمة عن صفة التنظيمات الاجتماعية والسياسية مثل العلامة الدالة على «مشيخة المدينة» (شيوخ المدينة) و«مجمع المدينة» (Assembly) والعلامة الدالة على «الحاكم» و«قيم» المعبد: «اين» (En) ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن العلامة الدالة على الملك (لوكال Lugal) لم تظهر في نظام الخط المسماري قبل عصر فجر السلالات.

إن اكتشاف أقدم كتابة في المعبد وليس في المباني الأخرى له مغزاه ودلالته على أن المعبد منذ ظهوره في عصر العبيد السابق كان مركز الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في قُرى ذلك العصر التي تطورت فيما بعد منذ العصر الشبيه بالكتابي إلى المدن التأريخية المشهورة، وسنتناول موضوع المدينة والمعبد في القسم الثاني من كتابنا، كما سنخصص بحثاً عن الكتابة والتدوين.

وننهي هذه الملاحظات الموجزة عن نشوء الكتابة بإيجاز المراحل التطورية التي سار فيها تطور الكتابة: (1) اختزال الأعداد الكثيرة للعلامات الصورية المعبرة عن الشيء المادي نفسه والاقتصار على بضع علامات قليلة لتمثيل هذا الشيء، وتبسيط رسم العلامات. وللمقارنة نذكر أن عدد العلامات المسمارية الذي بلغ زهاء (2000) علامة في الدور الرابع من عصر الوركاء اختصر واختزل إلى نحو 800 علامة في أواخر عصر فجر السلالات الثاني. فمثلاً اختزل عدد العلامات المعبرة عن الغنم أي الكلمة السومرية «أدو» (Udu) من 31 علامة في دور الوركاء السالف الذكر إلى 3 علامات ثم علامتين في الأطوار التالية. (2) ظهور استعمال العلامات الدالة على الكلمات أي التي تقوم مقام الكلمة مما يصطلح عليه بالكتابة الرمزية (Ideogram) أو (Logogram)، ثم استعمال المعاني المشتقة من الأشياء المادية المدونة بالعلامات المسمارية، مثل تأدية صورة القدم (السومرية Du) لجملة كلمات من بينها أفعال مهمة تقترن بعضو القدم والرجل مثل «قام» و«دخل» و«ذهب» و«حمل» و«رفع»، واكتساب مثل هذه العلامة أصواتاً أخرى أو قِيماً صوتية هي أصوات تلك الكلمات المشتقة منها، أي ما يصطلح عليه في الخط المسماري بمبدأ تعدد القِيم الصوتية للعلامة الواحدة (Polyphones). (3) الانتقال من هذه المرحلة الرمزية إلى المرحلة الصوتية (Phonetic) باستخدام أصوات العلامات المسمارية المشتقة من ألفاظ أشياء مادية للتعبير عن قِيم صوتية مجردة عن معاني الكلمات المشتقة منها لكتابة الكلمات والجمل كتابة صوتية على هيئة مقاطع (Syllables). (4) اختيار طائفة من العلامات المسمارية تكتب قبل أسماء الأشياء أو بعدها لبيان الصنف الذي تعود إليه أو المادة المصنوعة منها مثل العلامة الدالة على الخشب (Gish) للدلالة على أسماء الأشجار والأخشاب، وهذا ما يصطلح عليه في طريقة الكتابة المسمارية بالعلامات الدالة (Determinative)؛ كما طرأ تبدل في اتجاه كتابة العلامات المسمارية، فبعد أن كانت تكتب في الأسطر من الأعلى إلى الأسفل صارت تكتب أفقياً من اليسار إلى اليمين، والطريف ذكره بهذا الصدد أنه في أثناء هذه التطورات التي نوَّهنا

بها ظهرت المحاولات الأولى لتأليف أثبات أو جداول بالعلامات المسمارية لشرح أصواتها ومعانيها، أي بعبارة أخرى ظهور فن المعاجم.

دور جمدة نصر:

دور «جمدة نصر» هو الطور الثاني من أطوار العصر الشبيه بالكتابي، فقد قلنا إنه يلي دور الوركاء، أما تسميته فهي مأخوذة من اسم «جمدة نصر» (تل نصر)، وهو موضع أثري صغير على بعد نحو 15 ميلاً شمال شرقي كيش، وقد حفرت فيه البعثة الأثرية التي كانت تنقب في كيش في عام 1925، فاكتشف المنقب «لنگدون» (Langdon)[1] أواني الفخار والمواد الأثرية الأخرى الخاصة بهذا الدور، ثم عثر عليها في مواضع أخرى كثيرة في العراق وأنحاء الشرق الأدنى.

ففي الوركاء، وهو أحسن موضع سجلت فيه الطبقات الأثرية الممثلة لدور «جمدة نصر» في منطقة معبد «أي ـ أنا»، وجدت آثار هذا الدور في الطبقة الثالثة التي قسمت إلى ثلاثة أطوار (أ، ب، جـ) (URUK III, a, b, c). وتعود إليه الطبقات (14ـ12) في نفر في معبد «أنانا» وفي منطقة ديالى الأدوار المعمارية الخمسة لمعبد الإله «سين» في خفاجي (المعبد الأول إلى المعبد الخامس)، وعثر في موقع العقير على (معبد صغير) يرجع إلى هذا الدور، وفي «تبه كورا» تبدأ آثار دور جمدة نصر من أواخر الطبقة العاشرة وتستمر إلى الطبقة الثامنة، كما يرجع إليه ما سمي (بمعبد العين) في تل براك على الخابور (Eye temple).

---

(1) يرجح أن يكون اسم تل «جمدة نصر» القديم «كدنن» (Kidnun) عن التحريات في هذا الموضع انظر:

E. Mackay, *Report on The Excavations of Jemdet Nasr* (1931).

H. Field and Martin, «Painted Pottery from Jemdet Nasr» in *American Journal of Archaeology* (1935), 310ff.

Ann Perkins, *The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia* (1947).

واستمر في دور جمدة نصر تطور المقومات والعناصر الحضارية من الأطوار السابقة بالإضافة إلى تفرده بميزات خاصة به. ففي حقل الكتابة حصل ما أشرنا إليه من اختزال في عدد العلامات المسمارية وظهور بداية التطور الصوتي أي استخدام الكلمات المرسومة بالعلامات على هيئة أصوات مقطعية لكتابة الكلمات المختلفة، كما اتضح أن اللغة السومرية كانت أقدم لغة دوّنت بهذه الكتابة.

وعلى قدر معرفتنا الراهنة ظهر في هذا الدور فن النحت المجسم والبارز لأول مرة في حضارة وادي الرافدين. فقد وجدت في مدينة الوركاء في الطبقات الأثرية التي ترجع إلى هذا الدور قطع فنية نفيسة من النحت بكلا نوعيه البارز والمجسم، منها الإناء النذري الشهير الذي وجد في منطقة المعابد (أي ـ أنا) (عام 1933ـ1934) من الطبقة العائدة لدور جمدة نصر، بيد أن بعض الباحثين ارتأى إرجاع زمن نحته إلى دور الوركاء السابق، بناء على اعتبارات فنية وفي مقدمتها مضاهاة أسلوب نحته لأطرزة الأختام الإسطوانية من الطبقة الرابعة في الوركاء. وقد نحت هذا الإناء الجميل من حجر الرخام الجيد وعلوه (3) أقدام، وتتألف منحوتاته البارزة من ثلاثة أنطقة (Register) من المواضيع الغنية. فالنطاق الأعلى يحتوي على مشهد كاهن (لعله الكاهن الأعلى En) وهو يقدم سلة من الفاكهة إلى إلهة هي بلا شك الإلهة السومرية «أنانا» (عشتار البابلية)، وتقف هذه الإلهة أمام عمودين أو حزمتين من القصب ينتهيان بحزمتين معقوفتين هما شعار تلك الإلهة أو رمزها وأصل العلامة المسمارية التي يكتب بها اسمها. ويقف خلف الكاهن أشخاص آخرون من الكهنة أيضاً، كما يشاهد خلف الإلهة طائفة من القرابين والنذور من بينها وعاءآن يشبهان الوعاء النذري الأصلي، ويشاهد في النطاق الثاني أسفل النطاق الأول موكب من كهنة عراة يحملون سلالاً من الفاكهة وجراراً وصحوناً. ونحتت في النطاق الثالث صفوف من الكباش والغنم مع أشجار نخيل وسنابل. والمرجح أن هذا الإناء قدم إلى الإلهة «أنانا» بصفتها إلهة الخصب. وتشير التصليحات الموجودة في الإناء مما تـ[illegible] في الأزمان

القديمة إلى أهمية هذا الإناء وإلى تقدم في فن التعدين حيث ربطت الأجزاء المكسورة بأسلاك من النحاس.

ونذكر كذلك رأس الامرأة المنحوت من المرمر الفاخر نحتاً مجسماً. وقد وجد في الوركاء (1939) في طبقة تعود إلى جمدة نصر. وتبلغ هذه القطعة الفنية من الروعة درجة تؤهلها أن تعد من القطع الفنية الفريدة (Objet d'art) في تأريخ الفن العالمي. ومن الآثار الفنية الأخرى التي تستحق الذكر ووجدت في الوركاء أيضاً مسلة صغيرة من حجر «البازلت» نحتت بمشهد صيد الأسود، حيث صور بالنحت البارز رجلان ملتحيان يصطادان الأسود بالسهام والرماح، وهذا أقدم مشهد من نوعه من مشاهد الصيد التي شاعت في فن النحت الآشوري[1].

وبرع فنانو حضارة وادي الرافدين في دور جمدة نصر بتزيين أواني الحجر الجميلة بترصيعها أو تطعيمها بفصوص من الأحجار الجميلة على أطرزة وأشكال بديعة، وقد وجدت نماذج كثيرة منها في الوركاء وفي المواضع الأثرية في منطقة ديالى. ويمكن تمييز الأختام الإسطوانية من هذا العهد من نقوشها الخاصة المؤلفة في الغالب من صفوف (الحيوانات كالأسماك والطيور)، وقد نقشت بطريقة خطية مختصرة، وهي بوجه عام دون مستوى أختام عصر الوركاء السابق في البراعة ودقة التعبير.

وبالإضافة إلى مثل هذه الآثار الخاصة بدور جمدة نصر يستعين الباحثون في تمييز هذا الدور بالأواني الفخارية الخاصة من ناحية أشكالها وزخارفها وألوانها، فكان الفخار من هذا الدور بوجه عام من النوع المتعدد الألوان (Polychrome)، وتغلب على أشكال الأواني الجرار الكبيرة المزينة بزخارف

(1) توجد هذه المنحوتات الفنية الثلاث في المتحف العراقي. انظر عنها الدراسات الآتية:
H. Heinrich in UVB, V, (1934), H. Lenzen, *IBID*, XI, (1941).
H. Lenzen in *ZA*, XI, (1939), 85ff.

هندسية أو زخارف طبيعية بلون أسود أو أحمر أو بكلا اللونين على سطح الإناء ذي اللون الأصفر الفاتح (Buff).

ويرجع إلى دور «جمدة نصر» عدد من المعابد والأبنية العامة المهمة كشف عنها في الوركاء وغيرها من المواضع الأثرية مما أشرنا إلى بعضها في أول كلامنا على هذا الدور. وعم في مثل هذه الأبنية استعمال اللبن المستطيل ذي المقطع المربع، وهو نوع اللبن الخاص الذي ذكرناه بالتسمية الألمانية «ريمشن» (Riemchen) والذي كان أول ظهور له في دور الوركاء السابق. فمن هذه المعابد التي سبق أن أشرنا إليها معبد الإله «سين» في خفاجى (منطقة ديالى) وقد سجلت له في هذا الدور خمسة أطوار بنائية سميت بالمعبد الأول والثاني والثالث والرابع والخامس[1].

وعلى زقورة الإله «آنو» في الوركاء (وهي مرتفع اصطناعي ارتفاعه زهاء 40 قدماً ويرقى إليها بثلاثة منحدرات) شيد معبدان أطلق عليهما معبد (D) ومعبد (E)؛ ويرجع إلى هذا الدور أيضاً المعبد الذي أطلق عليه اسم «المعبد الأبيض». واستمر استعمال الزخارف الجدارية المؤلفة عن المسامير الطينية الملونة الرؤوس مما لاحظناه في دور الوركاء السابق، وأضيفت إليها في دور جمدة نصر أشكال حيوانية ورموز الإلهة «أنانا»، واستمرت الأبنية الدينية المهمة في منطقة «أي ـ أنا» في الوركاء، وقد وجد فيها مجموعات مهمة من التعاويذ المصنوعة على هيئة الحيوانات. ومن الأبنية التي سبق أن نوَّهنا بها التي ترجع إلى دور جمدة نصر المعبد الذي عثر عليه في تل «براك» في منطقة الخابور وسمي معبد «العين»[2] (Eye temple) لما وجد فيه من أشكال أو صور حجرية كثيرة نحتت فيها العيون بلا رؤوس.

---

(1) عن معبد الإله «سين» انظر:

Delougaz and S. Lloyd, *Pre-Sargonic Temples in the Diyala Region.*

(2) يقع تل «براك» على بعد نحو 2/1 1 ميل من الضفة الغربية لنهر «الجغجغ» (الهرماس القديم). حول نتائج التنقيبات فيه انظر:

Mallowan in *IRAQ*, IX, (1947).

وكشف في الوركاء عن بناء غريب يرجع إلى دور جمدة نصر أيضاً أطلق عليه المنقبون الألمان اسم «بناء الريمشين» (Riemchen Gebaude) وسمي كذلك لأنه مشيد بنوع اللبن المسمى «ريمشن»، وهو بناء مستطيل (20×18م) ينسبه المنقبون إلى دور الوركاء (الطبقة الرابعة)، ولكن دلالة الفخار والآثار الأخرى التي وجدت فيه تشير إلى أرجحية كونه من دور جمدة نصر. ويتألف هذا البناء الغريب في تخطيطه من (عدة حجرات وممرات)، ولا مدخل له من الخارج. وأغرب ما فيه الحجرة الوسطى (6,50×4م) التي يحيط بها ممر أو ممشى، ووجدت فيها آثار حريق شديد، كما وجدت فيها مجموعات مهمة من الأوعية الحجرية والفخارية والنحاسية ومخاريط الطين وأوراق ذهبية ومسامير مموهة بالذهب. وقد فسّر المنقبون هذا البناء بأنه خصص لحرق الأشياء المقدسة العائدة إلى المعابد القديمة التي تهجر وينقطع استعمالها ويشيد فوق أنقاضها معابد جديدة، وقد أطلقوا عليها التسمية الألمانية (Opferstatte)، أي من نوع مواضع القرابين. والمحتمل أن أبنية مضاهية لهذا البناء قد أقيمت في مواضع أثرية أخرى ولكن المنقبين فيها لم يفطنوا إلى حقيقتها وماهيتها فوصف البعض منها على أنها بقايا أفران مثل الموضع الذي وجد في إحدى الساحات العائدة إلى معبد الإله «سين» (المعبد الرابع) في خفاجى (منطقة ديالى).

وفي موضع «جمدة نصر» الذي سمي باسمه هذا الدور الثاني من العصر الشبيه بالكتابي عثر على بناية كبيرة فسرها المنقبون على أنه قصر[1]، وإذا صح هذا التفسير، فيكون لظهور القصر في دور جمدة نصر دلالته على نشوء الطبقات الاجتماعية المتميزة بالثروة والسلطة، أي الطبقة الحاكمة.

ونختتم هذه الملاحظات عن دور جمدة نصر بالتنويه بانتشار التأثيرات الحضارية خارج مركز حضارة وادي الرافدين إلى عدة أرجاء من الشرق

---

(1) راجع:

Langdon in *Alte Orient*, XXVI (1927).

Moorey in *IRAQ*, 26, (1964), 93ff.

الأدنى، مثل عيلام، كما تدل على ذلك الأختام الإسطوانية والكتابة الشبيهة بكتابة حضارة وادي الرافدين وأختامها الإسطوانية. ووجدت مثل هذه الكتابة في الموضع المسمى «تبه سيالك» (في منطقة قاشان شمال غربي إيران). كما يرجح تفسير أنواع الكتابات الصورية التي وجدت حديثاً في بعض أجزاء أوروبا الوسطى مثل رومانية إلى تلك التأثيرات الحضارية. وانتشرت عناصر حضارية مهمة إلى جهات الفرات الأعلى والخابور كما تدل على ذلك المعابد التي وجدت في تل «براك» و«جغار بازار»، ووجدت آثار دور جمدة نصر أيضاً في الجديدة في سهل إنطاكية. وفي وادي النيل وجدت أختام إسطوانية من النوع الخاص بحضارة وادي الرافدين، من العصر المسمى في تأريخ حضارة وادي النيل بدور «نقاده» الثاني، ونذكر كذلك القبور المشيدة على هيئة مصاطب ذات «الطلعات» و«الدخلات» في جدرانها، وهي الزخارف المعمارية المميزة لعمارة المعابد في حضارة وادي الرافدين، إلى غير ذلك من الآثار والأطرزة الفنية[1].

أما الطور الأول من عصر فجر السلالات الذي جعلناه الطور الأخير من العصر الشبيه بالكتابي فيمكن عده بمثابة مرحلة انتقال إلى عصر فجر السلالات الثاني الذي تلاه. ويمتاز بأطرزة أختامه الإسطوانية التي تشبه زخارفها النسيج (Brocade style)، وبنوع الفخار المسمى «الفخار القرمزي» (Scarlet ware) الذي وجد أول مرة في مواضع منطقة ديالى، وسنذكر أشياء أخرى عنه في الفصل الآتي.

---

(1) حول التأثيرات الحضارية التي انتقلت من حضارة وادي الرافدين إلى حضارة وادي النيل في العصر الشبيه بالكتابي. راجع البحوث الآتية:

CAH, I, (1971), chap. IX. Frankfort in *AJSL*, (1941), 354ff.; Kantor in *JNES*, XI, (1952), 239ff.

Frankfort, *The Birth of Cicilization in the Ancient Near East* (1951).

الفصل الخامس

دول المدن السومرية

أو

عصر السلالات

تعريف العصر:

كنا قد تتبعنا في الفصلين السابقين نشوء حضارة وادي الرافدين ومراحل تطورها منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ إلى مطلع الألف الثالث ق.م، حيث ظهرت المعالم والملامح الأولى لهذه الحضارة في العصر الذي سميناه العصر «الشبيه بالكتابي» أو «الشبيه بالتأريخي» (3500 ـ 2800ق.م) المتضمن الطور الأخير من عصر الوركاء ودور «جمدة نصر» والطور الأول من عصر فجر السلالات، موضوع هذا الفصل. وإذا ألحقنا بعصر فجر السلالات ذلك الطور الأول منه فيكون تحديده الزمني في الفترة الواقعة ما بين نهاية دور «جمدة نصر» وبين بداية حكم سرجون وتأسيسه السلالة الآكدية في حدود 2370 أو 2334ق.م، أي إنه دام ما بين خمسة أو أربعة قرون، من 2900 إلى 2370 أو من 2800 إلى 2370. ويتميّز هذا العهد كما سيتضح مما سنذكره عنه بأنه عصر ازدهار حضارة وادي الرافدين ونضجها، وظهور أبرز أوجهها ومقوماتها التي استمرت بشيء من التطور والتغيير والتحوير إلى العصور التأريخية التالية، وإلى ذلك تفرد هذا العصر بأنه العصر الذي سادت فيه اللغة السومرية والثقافة السومرية، كما أن السلالات التي حكمت فيه كان الغالب عليها أنها سلالات سومرية.

وقبل أن يشيع استعمال مصطلح عصر السلالات أو فجر السلالات (Early dynastic period) الذي وضعه الأستاذ «فرنكفورت» (H.Frankfort)

بالاستناد إلى نتائج التنقيبات في مواقع منطقة ديالى الأثرية[1]، كان يطلق على هذا العصر جملة تسميات أخرى منها التسمية «عصر ما قبل سرجون» (Pre-Sargonic period) التي أطلقها عليه الباحثون القدماء، لأن هذا العصر يسبق زمن الملك الآكدي «سرجون» السالف الذكر، كما كان يسمى عصر اللبن «المستوي ـ المحدب» (Plano-convex bricks) لشيوع استعمال هذا النوع من اللبن في أبنية هذا العصر، وإلى ذلك اعتاد بعض الباحثين الألمان أن يطلقوا عليه اسم عصر «لجش»، نسبة إلى مدينة لجش السومرية الشهيرة التي سيأتي الكلام عليها.

على أن الواقع من الأمر أن هذه التسميات التي أوردناها ليست موفقة كل التوفيق في التعبير عن هذا العصر الحضاري الجديد لأن كلاً منها لا يمثل إلا بعض الجوانب والأوجه الحضارية المميزة له. فتسمية عصر السلالات مثلاً لا تعبّر إلا عن الجانب السياسي لهذا العصر، من قيام دول مدن أو سلالات حاكمة، كانت في أغلب الأحايين متعاصرة في أزمانها، وسيأتي الكلام عنها. ولذلك فيصح تسميته من هذه الناحية «عصر دول المدن» (City states) كما يمكن تسميته بعصر الحضارة السومرية على الرغم من أن ما نسميه بالحضارة السومرية قد أسهم في تكوينها وبنائها أقوام أخرى من غير السومريين وفي مقدمتهم الساميون الذين عايشوا السومريين في استيطان السهل الرسوبي منذ أقدم العصور.

وبالنظر إلى أهمية هذه الحقبة في حضارة وادي الرافدين وطول زمنها وكونها عهد الحضارة الناضجة الذي وضعت فيه أسس تلك الحضارة ومقوماتها فيكون من المفيد لو قسمنا كلامنا عنها إلى بحثين، يتناول القسم

---

(1) نشير إلى التنقيبات الواسعة التي اضطلع بها المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو في منطقة ديالى (1930ـ1937)، مما مرّ بنا في تأريخ التنقيبات؛ وقد أوجزنا في هذا الفصل جانباً مهماً من نتائج تلك التنقيبات حول تسمية «عصر فجر السلالات» التي اقترحها رئيس تلك البعثات الأثرية، الأستاذ «فرنكفورت» انظر:

H. Frankfort, *Sculptures from the Diyala Region*.

الأول منهما النواحي الأثرية والحضارية، والقسم الثاني الجوانب السياسية من هذا العصر.

أولاً: عصر السلالات من الناحية الآثارية والحضارية:

مع أن المتعارف عليه في وصف عصر تأريخي أن يمهد للجانب الحضاري منه بمقدمة تتناول أحواله السياسية، بيد أن الباحث في عصر فجر السلالات الذي نتكلم عنه، يجد نفسه مضطراً إلى اتباع عكس هذا المنهج المألوف فيبدأ بالقسم الحضاري منه، ذلك لأن مصادرنا الكتابية، أي النصوص المدونة، عن أحوال هذا العصر السياسية من القلة بحيث إنها لا تمكن الباحث من أن يستخلص منها صورة كاملة عن السلالات الحاكمة باستثناء بعض الفترات منه، ولذلك فيستعين الباحث لإكمال هذه الصورة بالاستنتاج من الآثار الفنية والمخلفات المادية الأخرى مما كشفت عنه التنقيبات في المواضع الأثرية المختلفة.

وأول ما نذكر من هذه الاستنتاجات أن الباحثين استطاعوا، بالاستناد إلى دراسة آثار هذا العصر[1]، أن يقسموه إلى ثلاثة أطوار أو أدوار رئيسية، أطلق عليها اسم عصر فجر السلالات الأول والثاني والثالث. وهي أطوار حضارية يتميز كل منها بطائفة من العناصر الحضارية كالأختام الإسطوانية والأواني الفخارية والبقايا المعمارية البنائية وفن النحت مما سنوجز الكلام عليه في المواقع الأثرية المشهورة التي كشف فيها عن الآثار الممثلة لأطوار هذا العصر مثل المواضع الأثرية في منطقة ديالى ومنطقة لجش والوركاء وكيش ونفر وماري (تل الحريري) وآشور ونينوى وتبه گورا وغيرها. ونبدأ أولاً في تلخيص خصائص كل طور من هذه الأطوار الثلاثة:

1 ـ عصر فجر السلالات الأول:

أما الطور الأول من عصر فجر السلالات، الذي سبق أن قلنا إن بعض

---

(1) نخص بالذكر منها الدراسات التي تمت على آثار المواقع الشهيرة في منطقة ديالى من تنقيبات المعهد الشرقي الأمريكي (جامعة شيكاغو) (1930ـ1937) وسيمر بنا تفصيل الكلام عنها.

الباحثين المحدثين يلحقونه بالعصر الشبيه بالكتابي، فليس واضح المعالم ومعرفتنا به مقتصرة على نتائج التنقيبات في منطقة ديالى، وجل ما يُقال عنه إنه كان مرحلة انتقالية من دور «جمدة نصر» السابق له، ويمتاز من الناحية الأثرية بالطرز الخاصة بأختامه الإسطوانية التي تشبه نقوشها ما يسمى بزخرفة النسيج (Brocade style)، وإنها متطورة تقريباً من أطرزة أختام الدور السابق، كما ينسب إلى هذا الطور نوع من الفخار الذي وجد بالدرجة الأولى في منطقة ديالى، ويعرف لدى الباحثين باسم الفخار القرمزي (Scarlet ware) ويحتمل أنه يعاصر الفخار المكتشف في نينوى (الطبقة الخامسة). وبالنسبة إلى بقايا الأبنية العامة التي تنسب إلى هذا الطور من عصر فجر السلالات فقد خصص إليه المعبدان السادس والسابع من الأدوار المعمارية التي مرت على معبد الإله «سين» في خفاجي (منطقة ديالى)، كما سيأتي شرح ذلك في موضع آخر. ويكفي أن نذكر هنا أن تحديد زمن هذا المعبد في حدود 3000ق.م قد خصص لبداية هذا الطور من عصر فجر السلالات، ولكن الباحثين المحدثين يميلون إلى تخفيض بداية هذا الطور إلى 2900 أو 2800ق.م[1]. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن هذا التقدير المستند إلى الدراسات الأثرية لا يتفق والنتائج المستخلصة من فحص «الكاربون ـ 14»، ولا سيما الفحوص التي أجريت على المواد الأثرية من «نفر»، إذ ظهرت نتائج جد منخفضة عن التقديرات الأثرية بعدة قرون، وظهر مثل هذه التقديرات الواطئة بالنسبة إلى الأدوار الحضارية في وادي النيل التي تعاصر ما يضاهيها في حضارة وادي الرافدين، ولذلك فلا يعول الباحثون عليها[2].

---

(1) انظر خلاصة ذلك في البحوث المنشورة في:

R. W. Ehrich, *Chronologies in Old World Archaeology* (1965).

(2) نورد للمقارنة أحدث النتائج المستخلصة من تطبيق فحص «الكاربون ـ 14» ولا سيما على مواد أثرية من معبد الإلهة «أنانا» في نفر:

2253+ أو -23 لعصر فجر السلالات الأول و2184+ أو -41 لعصر فجر السلالات الثاني و2124+ أو -64 لعصر فجر السلالات الثالث أو لفترة الانتقال من الطور الثاني إلى الطور=

وتمتاز الأطوار الأولى من عصر فجر السلالات من الناحية المعمارية باستعمال نوع من اللبن أطلق عليه اسم اللبن «المستوي ـ المحدب» (Plano-convex) الذي أشرنا إليه سابقاً، ولكن نوع اللبن المسمى «ريمشن» (Riemchen) الذي ظهر استعماله في العصر الشبيه بالكتابي ظل في الاستعمال في بداية الطور الأول من عصر فجر السلالات ولا سيما في منطقة «ديالى» وفي «نفر». وبالإضافة إلى المعبدين السادس والسابع العائدين للإله «سين» في خفاجى اللذين ذكرناهما سابقاً يرجع إلى الطور الأول من عصر فجر السلالات المعبد الرابع من أدوار معبد الإله «آبو» في تل أسمر (منطقة ديالى). وتمثل هذا الطور في نفر في منطقة معبد الإلهة «أنانا» (عشتار) الطبقات الأثرية التاسعة والعاشرة والحادية عشرة. وفي تل «تبه گورا» الطبقة الثامنة. وبدأ في هذا الطور أيضاً نحت الأواني الحجرية، حيث وجدت نماذج منها من الحجر الأخضر «ستيتايت» من خفاجى وتل أجرب (منطقة ديالى)[1].

ومع أننا سنتناول الجوانب السياسية لعصر فجر السلالات في القسم الثاني من الموضوع، إلا أنه يجدر أن ننهي هذه الملاحظات الموجزة عن الطور الأول من هذا العصر بالتنويه باحتمال أن سلالات «ما قبل الطوفان»، بحسب التعبير الوارد في أثبات الملوك السومرية، يرجع البعض منها إلى هذا الطور وإلى العصر الشبيه بالكتابي، واحتمال أن نوح الطوفان البابلي الوارد في قصص الطوفان السومرية والبابلية بهيئة «زيوسُدرا» (Ziusudra) أو «أتو ـ نبشتم»، كان يعيش في هذا العصر، وأن سلالة كِيش الأولى، وهي أول سلالة حكمت من بعد الطوفان، يرجع عهدها إلى طور عصر فجر السلالات الثاني.

= الثالث منه (انظر المرجع المرموز له بـ *CAH,* I, part 2, (1971), 242).

وهذه تقديرات غير معقولة لأنها تستوجب تخفيضاً أساسياً في جميع الأدوار التأريخية التالية، ولذلك فسرت بأنها ناتجة من انحراف أو تغيير في مجال الشمس المغناطيسي حدث في حدود الألف الثالث ق.م، مما أثر في مصدر «الكاربون ـ 14» فينبغي عدم الاعتماد على هذه الطريقة في تقدير أزمان الأدوار التأريخية في العراق وغير العراق من فترة الألف الثالث ق.م، لأنها، كما ذكرنا، تعطينا زهاء خمسة قرون أقل من التقديرات الأثرية المعتمدة.

(1) ذات المصدر ص 159 فما بعد.

2 ـ عصر فجر السلالات الثاني:

في طور عصر فجر السلالات الثاني يبدأ العهد التأريخي الصحيح، حيث بدأ سكان وادي الرافدين يدونون بالكتابة المسمارية المتطورة شؤون حياتهم، كما بدأت المدونات التأريخية الرسمية بالظهور إلى أن تكاثرت في الطور الثالث من هذا العصر، وسنرى مما سنذكره على الأوجه الحضارية الخاصة بهذا العصر ازدياداً محسوساً في التطور العمراني والمدني (Urbanization) وظهور الحياة السياسية على هيئة دول مدن. ويمكن تخصيص بعض السلالات الحاكمة الواردة في أثبات الملوك السومرية إلى هذا الطور من عصر فجر السلالات ولا سيما سلالة كيش الأولى والوركاء الأولى ، كما سنفصل ذلك في كلامنا على الأحوال السياسية في هذا العصر بوجه عام. ويمكن تحديد زمن الطور الثاني بالسنين بوجه تقريبي من حدود 2700 إلى 2550ق.م.

ويتميز هذا الطور من الناحية الأثرية والحضارية بطائفة من الآثار المادية والأبنية العامة كالمعابد والقصور مما كشفت عنه التنقيبات الحديثة في مواقع منطقة ديالى وعدة مواقع أثرية سنشير إليها.

وأول ما نذكر من هذه الآثار المادية المميزة الأختام الإسطوانية التي يعتمدها الآثاريون في تحديد تأريخ الطبقات الأثرية العائدة إلى هذا الطور، فهي تتميز بنقوشها التي تعم فيها مشاهد المصارعة بين البشر وبين الحيوانات، ويرجح أنها تصور مواضيع أسطورية (ميثولوجية) كانت متداولة في هذا العصر. ومن المواضيع الشائعة أيضاً مشاهد الاحتفالات والولائم (Banqet scenes) وتجذيف القوارب، وصور فسرت على أنها تمثل ما اصطلح عليه «الزواج المقدس» أو «الزواج الإلهي» (Hieros gamos) أو (Sacred marriage)، أي الزواج بين إله وإلهة من آلهة الخصب. ومما تجدر ملاحظته عن طرز الأختام الإسطوانية هذه أنه مع استمرار بعض موضوعاتها إلى عصر فجر السلالات الثالث التالي، إلا أنه يوجد اختلاف واضح في أسلوب النقش

المتبع في أختام كل من هذين الطورين. ففي حين أن الأسلوب الشائع في الطور الثاني الذي نتكلم عنه كان أسلوباً خطياً (Linear) غدت النقوش في الطور الثالث أقرب ما تكون إلى الزخرفة من النقش البارز (Decorative relief) وأصبحت الأشكال محتشدة وذات حجوم أكبر.

ومن الآثار الخاصة بعصر فجر السلالات الثاني جملة أنواع من الأواني الفخارية نذكر منها قواعد الأواني الفخارية أو حاملات الأواني (Pot stand) والكؤوس والأقداح الكبيرة (Beaker. Goblet) والإناء المعروف بالزمزمية (Piligrim flask)، والجرار الكبيرة ذات الأكتاف المحززة، والأواني ذوات القواعد المستطيلة المسماة حاملة الفاكهة (Fruit stand). وأن فخار هذا الطور والأطوار الأخرى من عصر فجر السلالات بوجه عام غفل من الزخارف والألوان، باستثناء الفخار القرمزي من الطور الأول، مما سبق ذكره. ويشبه فخار عصر فجر السلالات الثالث بوجه عام فخار الطور الثاني، ولم تنشأ فيه أنواع جديدة إلا في النادر، مثل الجرار ذات العرى القائمة (Upright handles)، وهي مزينة بالحزوز وبنوع من الزخرفة تشبه فخار «الباربوتين»، وتمثل هذه في الغالب صورة إلهة، مما وجد في منطقة ديالى وكيش، كما ظهرت أنواع من الجرار والأواني المزينة بما يشبه الأزرار (Studs).

ويقابل هذا التدهور في فن زخرفة الأواني الفخارية بالمقارنة مع أنواع الفخار الجميلة من عصور ما قبل التأريخ تطور كبير في فن التعدين الذي تجلى في صنع أنواع كثيرة من الأدوات والآلات المنزلية. أما المعدن الشائع فكان البرونز والفضة والذهب والاكتروم الذي قلنا إنه كان مزيجاً من الذهب والفضة، وقد سبق أن ذكرنا أن معدن الحديد لم يظهر استعماله في هذا العصر. ويبدو أن طريقة القالب الشمعي (Lost wax process) قد شاعت منذ عصر فجر السلالات الثاني لصنع الأشكال الآدمية والحيوانية وقوائم الأواني أو حاملات الأواني. واستمر فن التعدين في التطور والتحسن حتى بلغ الذروة في عصر فجر السلالات الثالث، إذ استطاع صانعو الأسلحة والمعدنون الآخرون في هذا الطور أن يصنعوا الأنواع العديدة من الأسلحة القوية والكبيرة

نذكر منها الفؤوس والرماح و«البلطات» (Adze) والقدور الكبيرة والمرايا وأدوات الزينة كالدبابيس والمشابك وغير ذلك من الأدوات البيتية والشخصية. وليس أدل على نضج فن التعدين وتقدمه من تلك البراعة المدهشة التي بلغها الصاغة والجوهريون في صنعهم أنواع الحلي الفاخرة والأسلحة الذهبية والفضية وأدوات الزينة المتنوعة مما وجد في المقابر الملكية الشهيرة في «أور» التي ستكرر الإشارة إليها في مواضع أخرى من هذا الفصل. وشاع مع استعمال المعادن، ولا سيما الفضة والذهب، استعمال الجواهر والأحجار الكريمة وشبه الكريمة مما وجد في تل المقابر وغيرها من المواقع الأثرية مثل العقيق بأنواعه المختلفة وحجر اللازورد والأصداف الجميلة (Mother-of-pearls) مما سبق أن نوَّهنا به؛ وقد تفنن الصاغة والجوهريون في استعمال هذه الأحجار مثل تطعيمها أو تكفيتها (Inlay) في الأواني الحجرية أو الألواح الحجرية وفي الخشب والمعادن الأخرى. وقد سبق أن تطرقنا إلى الاتصالات التجارية لجلب مثل هذه الأحجار منذ عصور ما قبل التأريخ من أقطار بعيدة مثل وادي نهر السند وأفغانستان والأجزاء المختلفة الساحلية من الجزيرة العربية. ويبدو أن بلاد بابل احتكرت تجارة هذه الأحجار في عصر فجر السلالات كما تشير إلى ذلك القصص والأساطير السومرية مثل قصة النزاع بين حاكم الوركاء المسمى «أينمر كار» وبين حاكم إقليم «أرانا» (من الأقاليم الجنوبية في إيران وكان على طريق القوافل إلى مصادر الأحجار ولا سيما حجر اللازورد).

فن النحت:

من الخصائص البارزة التي ظهرت في عصر فجر السلالات الثاني ازدهار فن النحت بكلا نوعيه البارز (Relief) والنحت المجسم (In the round) واستمر هذا التقدم إلى الطور الثالث من هذا العصر، ويلحق بهذا الفن نحت دمى الحجر الصغيرة الجميلة التي كانت تستعمل على هيئة تعاويذ أو قلائد (دلايات) (Pendant).

والمرجح أن قطع الحجر المنحوتة بالنحت البارز مما كان يثبت في جدران المعابد كانت أول ما ظهر من المنحوتات في عصر فجر السلالات الثاني، فقد وجدت منها نماذج كثيرة وجميلة في المعابد المكتشفة في مواقع منطقة ديالى وفي معبد الإلهة «أنانا» في نفر. وقد نحتت هذه القطع بمشاهد متنوعة تمثل جوانب من الحياة اليومية والمواضيع الدينية والأسطورية، وجاء في بعضها مشاهد من المصارعة والملاكمة، مما يمكن مشاهدته الآن في المتحف العراقي وفي المتاحف العالمية الأخرى[1].

ويميل بعض الباحثين إلى تقسيم النحت من عصر فجر السلالات الثاني إلى طورين متميزين من ناحية أسلوب النحت الشائع في كل منها. فيتميز أسلوب الطور الأول بأنه أقرب إلى الأسلوب التجريدي (Abstract)، ومنحوتاته البارزة بسيطة غير نافرة البروز، وقد أطلق الباحث الألماني «مورت گات» على هذا الطور اسم عصر «ميسلم»، أحد ملوك عصر فجر السلالات القدامى الذي سنتكلم عنه في القسم الثاني من هذا الفصل. وينسب إلى هذا الطور أيضاً طبعات الأختام الإسطوانية التي وجدت في تل «فاره» (مدينة شروباك القديمة). أما الطور الثاني من أسلوب فن النحت في عصر فجر السلالات الثاني فيمتاز بتنوع الموضوعات، وازدياد الأشكال المنحوتة بأسلوب التمثيل الواقعي أو الطبيعي. وقد استمر هذا الأسلوب إلى عصر فجر السلالات الثالث. ومما يُقال بوجه عام عن المنحوتات المجسمة من عصر فجر السلالات الثاني ازدياد عدد الأشكال المنحوتة التي تمثل آلهة وأشخاصاً مما وجد في معابد منطقة ديالى وغيرها من المواقع الأثرية. ويغلب عليها الأسلوب الذي يسمى الأسلوب الهندسي (Geometric) وقد يطلق عليه الأسلوب التكعيبي (Cubism) وعدم الالتزام بالتمثيل الواقعي الطبيعي. بيد أن فناني ذلك العصر أظهروا براعة مدهشة في التمثيل الطبيعي بالنسبة إلى أشكال الحيوانات التي جاءت

---

(1) انظر:

H. Frankfort, *Sculptures of the third Millennium from Tell Asmar and Khafaje.*

إلينا منها نماذج جميلة تعد من بين القطع الفنية العالمية، وازداد الاتجاه إلى التمثيل الواقعي حتى في نحت الأشكال الآدمية في عصر فجر السلالات الثالث[1].

فن العمارة:

ومن العناصر الفنية التي أحرزت تقدماً بارزاً في عصر فجر السلالات الثاني بوجه خاص فن العمارة في أبنية المعابد والقصور التي وجدت منها نماذج لا بأس بها من التنقيبات التي أجريت في عدة أماكن أثرية، نذكر منها القصرين المكتشف أحدهما في كيش والثاني في «أريدو»، اللذين يرجح أنهما شيدا في الطور الثاني من عصر فجر السلالات واستمر استعمالهما في الطور الثالث منه. ومما لا شك فيه أن لظهور القصور الفخمة في هذا العصر دلالته التأريخية على ظهور السلالات الحاكمة، مما سنتطرق إليه في القسم الثاني من هذا الفصل. أما المعابد فإنها حافظت على أشكالها الأساسية بوجه عام، تلك الأشكال التي ظهرت فيها في الأدوار الحضارية السابقة لعصر فجر السلالات، ولكنها اتسعت في مخططاتها وأحجامها، كما اتضحت أسماء بعض الآلهة التي خصصت لعبادتها، مع ما استتبع ذلك من تبلور الشعائر والطقوس الدينية الخاصة بها، وظهور طبقات الكهنة، والفصل ما بين وظيفة الكهانة وبين وظيفة الحاكم، وهما الوظيفتان اللتان يرجح أنهما كانتا مجتمعتين في شخص واحد هو الكاهن الأعلى والحاكم في الوقت نفسه مما كان يدعى بالسومرية «اين» (En) وسنذكر أسماء بعض المعابد الشهيرة العائدة إلى هذا الطور من عصر فجر السلالات مثل معبد الإله «سين» في خفاجى (من الدور السادس إلى الدور العاشر من أدوار هذا المعبد البنائية)، ومثل معبد الإلهة

---

(1) حول خصائص فن النحت في عصر فجر السلالات انظر:

R. W. Ehrich, *OP. CIT.*, 159ff.

وعن المنحوتات المكتشفة في معبد الإلهة «أنانا» في «نفر» انظر:

Hansen in *JNES*, XXII, (1963), 145ff.

«أنانا» (عشتار)[1] والمعبد البيضوي في تل العبيد[2]، والمعبد البيضوي أيضاً في خفاجى[3]، ومعبد الإله «آبو» في تل أسمر ومعبد الإلهة عشتار في مدينة ماري (تل الحريري).

ويمكن معرفة أبنية هذا الطور من استعمال اللبن الذي سميناه باللبن «المستوي ـ المحدب» في بنائها، وهو نوع خاص من اللبن اقتصر استعماله على بلاد بابل ويضمن ذلك منطقة ديالى ولم يشع استعماله في بلاد آشور (القسم الشمالي من العراق) ولا في بلاد الشام باستثناء الموضع المسمى «تل براك» (في أعالي الخابور) الذي كان ذا صلة حضارية وثيقة بالقسم الجنوبي من العراق.

عصر فجر السلالات الثالث:

يمكن القول إن حضارة وادي الرافدين بلغت في الطور الثالث من عصر فجر السلالات أوج الازدهار والنضج في مقوماتها الأساسية، كما تدل على ذلك البقايا الأثرية المتنوعة الكثيرة، حيث يفوق هذا الطور الطورين اللذين سبقاه بكثرة ما وصل إلينا من آثار متنوعة، وفي مقدمة ذلك وفرة النصوص الكتابية من حكام السلالات الحاكمة وملوكها بالمقارنة مع قلتها في العصرين السابقين، مما سنفصل القول فيه، واستمر فن النحت في تطوره وتقدمه وكثرت المنحوتات التي تمثل الأشخاص من المناطق المختلفة، ومن بينها المجاميع النفيسة التي وجدت في مواضع منطقة ديالى. كما استمر استعمال المعابد التي ظهرت أو شيدت في الطور السابق مع التجديد والتعمير فيها. وتعود إلى هذا الطور من عصر فجر السلالات القبور الملكية الشهيرة في «أور» التي سنتناول

---

(1) انظر حول معبد «أنانا» في نفر:

Hansen and Dales, «The Temple of Inanna» in *Archaeology* (1962).

(2) راجع: Delougaz in *IRAQ*, V, (1938), 1ff.

(3) عن المعبد البيضوي في خفاجى انظر:

Delougaz, *The Oval Temple at Khafajah* (1940).

وصفها في موضع آخر من هذا البحث، كما سنورد بعض الأمور الأخرى عن هذا العصر فنكتفي بهذا التعريف الموجز مضيفين إلى ذلك ما ارتئي حديثاً من تقسيم هذا الطور الأخير من عصر فجر السلالات إلى مرحلتين أو دورين، تميز المرحلة الأولى منهما المقبرة الملكية في «أور»، ويرجع إليها زمن سلالة أور الأولى التي أسسها الملك «ميسا نيبدا»، ويعود إلى الفترة الثانية منه عهد حكام «لجش» أي سلالة «أور ـ نانشة» مما سيأتي تفصيل الكلام عليه في القسم الثاني.

أشهر المواقع الأثرية الممثلة لحضارة عصر السلالات:

1 ـ المواقع الأثرية في منطقة ديالى:

مر بنا في الفصل الخاص بتأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية ذكر المواضع القديمة المهمة التي نقبت فيها البعثات الأثرية من جامعة شيكاغو الأمريكية (المعهد الشرقي) برئاسة الأستاذ «هنري فرنكفورت» (H. Frankfort) وقد استمر العمل فيها طوال عدة سنين (1930ـ1937). وبالنظر إلى أهمية النتائج التي أسفرت عنها تلك التحريات مما يخص معرفتنا بحضارة وادي الرافدين بوجه عام وحضارة عصر فجر السلالات موضوع هذا البحث بوجه خاص فيستحسن أن نذكر خلاصة موجزة عن نتائج التحريات في هذه المواضع.

أ ـ تل أسمر:

تل أسمر هو موضع المدينة القديمة «أشنونا»، عاصمة المملكة التي عرفت بهذا الاسم أيضاً، وقامت في المثلث المكون من الأراضي الخصبة ما بين ديالى شرقاً ودجلة غرباً. وتقع أطلالها على بعد نحو (50) ميلاً شمال شرقي بغداد، واستغرقت التحريات فيها ستة مواسم (1930ـ1936) ونتجت الكشف عن جملة مبانٍ مهمة كالمعابد والقصور من مختلف الأدوار التأريخية، من بينها ما يعود إلى عصر فجر السلالات. وكانت آثار العصر البابلي القديم

(في حدود 2000 ـ 1500ق.م) آخر ما وجد في هذا الموضع. وعثر في أثناء التنقيبات على مجموعات مهمة من النصوص والوثائق المدونة، بعضها يرجع إلى العهد الآكدي (زهاء مائتي لوح من الطين) وأكثر من ألف لوح من زمن سلالة أور الثالثة والعهد البابلي القديم[1].

ب ـ تل خفاجى:

يقع التل المسمى «خفاجى» أو خفاجة على بعد نحو (7) أميال شرق بغداد ونحو (12) ميلاً جنوب شرقي تل أسمر السالف الذكر، وهو موضع المدينة القديمة المسماة «توتب» (Tutub). وقد استمرت التحريات فيه ثمانية مواسم (1930ـ1938) تم الكشف فيها عن جملة معابد منها ما يرجع في عهده إلى عصر فجر السلالات مثل المعبد «البيضوي»، ومعبدين للإله «سين» والإلهة «ننتو»، كما وجدت مجموعات مهمة من ألواح الطين بعضها من العصر الآكدي والبعض الآخر من العصر البابلي القديم. وتل «خفاجى» منطقة أثرية واسعة تتألف من أربع مجموعات من التلول، أطلق عليها المنقبون تل «A» وتل «B» وتل «C» ثم تل «D». فالأول من هذه التلول أوسع موضع استمر الاستيطان فيه من العهد الشبيه بالكتابي، وكشف فيه عن ثلاثة معابد مهمة هي المعبد «البيضوي» (Oval temple)[2] والمعبد المخصص للإله «سين»، والمعبد الثالث للإلهة المسماة «ننتو»[3]. وعثر في التلين «B» و«C» على حصن شيده الملك البابلي «سمسو ايلونا»، ابن الملك «حمورابي»[4]. وكشف في التل

---

(1) حول نتائج التحريات في تل أسمر انظر:

H. Frankfort, *OIP*, 1940.

وعن خلاصة نتائج التحريات في منطقة ديالى راجع البحث الموجز:

Harris in *JCS*, (1955), no. 9.

(2) انظر: Delougaz, *OIP*, (1940).

(3) عن هذين المعبدين انظر: *OIP*, (1942).

(4) حول هذا الحصن راجع:

Speiser in *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, no. 70, p. 7ff.

«D» عن مجموعات من بيوت السكنى يتوسطها معبد آخر للإله «سين»، ووجدت في هذه المنطقة مجموعة مهمة من ألواح الطين[1].

جـ ـ تل اشجالى:

يقع هذا الموضع الثالث من التلول الأثرية في منطقة ديالى على بعد نحو (3) أميال جنوب شرقي خفاجى الذي مرّ ذكره، واستمرت التحريات فيه طوال موسمين من العمل (1934 ـ 1936)؛ ورجح أن يكون موضع المدينة القديمة المسماة «نريبتم» (Neribtum)، كما احتمل أنه «دور ـ رموش» (Dûr-rimush). وكان من بين ما كشفت عنه التحريات فيه معبدان، خصص أحدهما لعبادة الإلهة «عشتار» الملقبة «كتيتم» (Ishtar kititum) والثاني إلى الإله «شمش». وقد سبق أن استخرجت من هذا الموضع مجموعات من ألواح الطين عن طريق الحفريات غير المشروعة[2].

د ـ تل أجرب (أو عقرب):

يقع هذا الموضع الأثري على بعد نحو 15ميلاً شمال شرقي تل «أسمر» ولا يعلم اسمه القديم، كما أن التحريات فيه لم تكن كاملة (1936ـ1937) وأهم ما كشف عنه في الموضع المعبد الذي خصص لعبادة الإله «شارا» (Shara)[3].

وبعد هذه المقدمة الموجزة عن نتائج التحريات الأثرية في منطقة ديالى نوجز فيما يلي وصف المباني والآثار المهمة التي يرجع عهدها إلى عصر فجر السلالات، موضوع بحثنا.

معابد الإله «سين» في خفاجى:

سجل المنقبون في خفاجى عشرة أدوار من البناء مرّ فيها المعبد الذي

---

(1) نشرت هذه الألواح في: Harris in *JCS*, 9, (1955), 39ff.

(2) نشرت هذه الألواح في:

Lutz, *Legal and Economic Documents from Ashjaly*, (1931).

(3) انظر نشرة المعهد الشرقي في المرجع المرموز له: OIP, 1942.

شيد لعبادة الإله القمر الشهير في حضارة وادي الرافدين المعروف باسم «سين» (واسمه السومري ننا أو ننار)، حيث عبد في جملة مراكز أخرى أشهرها مدينة «أور» ومدينة «حران». ويبدأ أقدم دور شيد فيه معبده في خفاجى من دور «جمدة نصر»، وآخر أدواره يرجع إلى نهاية عصر فجر السلالات، قبيل العصر الآكدي الذي تلاه. أما أدوار هذا المعبد التي ترجع إلى عصر فجر السلالات بأطواره الثلاثة التي بيّناها فتبدأ من المعبد السادس إلى المعبد العاشر، حيث يمثل المعبدان السادس والسابع الطور الأول من هذا العصر، ويليهما المعبد الثامن الذي يعود في زمنه إلى الطور الثاني من عصر فجر السلالات السالف الذكر، وقد اتسم المعبد في دوره الثامن بضخامة جدرانه، بيد أنه بني وفق المخطط والتصميم الخاصين بالطور السابق. وتفرد هذا المعبد الثامن بما وجد فيه من المنحوتات، وقد سبق أن رأينا أن ظهور فن النحت وازدهاره مما يميّز هذا الطور عن عصر فجر السلالات. أما المعبد التاسع فقد أرجع إلى ما بين الطورين الثاني والثالث، ويليه دور المعبد العاشر الذي خصص إلى الطور الأخير أي الطور الثالث من عصر فجر السلالات. وقد وجد في المعبد من هذا الطور مجموعات من قطع التماثيل الجميلة. وأصاب المعبد في دوره التاسع حريق بالغ كما تشير إلى ذلك الآثار الواضحة التي سجلت فيه وكسر التماثيل المحطمة. وقد عُزي هذا الحريق إلى تخريب المنطقة على يد حاكم مدينة «لجش» المسمى «إياناتم» الذي اشتهر بحروبه الداخلية والخارجية[1].

معبد الإلهة «ننتو» في خفاجى:

ومن المعابد التي كشفت عنها التحريات الأثرية في خفاجى معبد نسب إلى إحدى الإلهات المسماة «ننتو»، إحدى الإلهات الخاصة بالولادة والإنجاب. وقد سجلت له سبعة أدوار بنائية، كان آخرها المعبد السابع الذي

---

(1) حول وصف هذه المعابد انظر:
CAH, I, part, 2, (1971), 246ff.
وكذلك: *OIP*, LVIII.

وجد فيه لوح من الحجر منقوش باسم هذه الإلهة التي لم يسبق لها ذكر في العصور القديمة قبل سلالة «أور» الأولى، ولذلك حدد زمن الدور السابع من المعبد بأنه يرجع إلى عصر فجر السلالات الثالث. أما المعبدان السادس والخامس اللذان يسبقانه في الزمن فقد أرجع عهدهما إلى الطور الثاني من هذا العصر، وشغلت أدوار المعبد الأول والثاني والثالث والرابع الطور الأول وأوائل الطور الثاني من عصر فجر السلالات.

المعبد البيضوي في خفاجي:

مرّ بنا ذكر هذا المعبد الذي سمي «المعبد البيضوي» (Oval temple) لأن شكله الخارجي بيضوي، وهو يشغل حارة مقدسة واسعة (مساحتها زهاء 8000 متر مربع)، مسورة بجدارين ضخمين يحيطان بمزار المعبد وساحته بهيئة بيضوية. ويقع المزار المقدس (Cella) في أحد طرفي الساحة الكبيرة (مساحتها 58×38م)، ويوجد في الطرف الثاني مرافق المعبد الأخرى وبيوت سكنى الكهنة. وقد كشفت التنقيبات في هذا المعبد عن طريقة غريبة اتبعت في تشييده، فقبل أن تقام أسسه حفر خندق كبير وعميق استلزم حفره رفع ما يقارب (64,000) متر مكعب من التراب ثم وضع بدلاً منه رمل نظيف صافٍ لإقامة أسس المعبد فوقها، وهذه جهود جسيمة ترينا ما كان يوليه سكان وادي الرافدين من العناية في تشييد معابدهم في عصر فجر السلالات، ولعله من المفيد أن نشير بهذا الصدد إلى الأدلة الكتابية التي تؤيد هذه الاستنتاجات[1]. وقد جدد بناء هذا المعبد في ثلاثة أدوار رئيسية، في عصر فجر السلالات الأول والثاني، وجدد مرتين في الطور الثالث من هذا العصر. وعثر فيه من مختلف أدواره على آثار نفيسة، من بينها مجموعة مهمة من المنحوتات، بعضها ألواح من الحجر مربعة ومنحوتة بالنحت البارز بمشاهد مختلفة، منها ما يمثل موضوعات دينية فسرت بأنها تصور موكب ما سميناه بالزواج الإلهي أو الزواج المقدس (Hieros gamos).

---

(1) انظر: Falkenstein in *Orientalia*, (1966).

معبد الإله «آبو» في تل أسمر:

من بين ما كشفت عنه التنقيبات في تل أسمر الذي سبق أن عرفناه، سلسلة من المعابد المهمة، يرجع عدد منها إلى عصر فجر السلالات، منها ما أطلق عليه اسم المعبد القديم (Archaic shrine) الذي شيد في الطور الأول من عصر فجر السلالات، ومعبد آخر سمي «المعبد المربع» يرجع إلى الطور الثاني من هذا العصر. ووجد معبد ثالث أرجع زمن تأسيسه إلى أوائل الطور الثالث من العصر نفسه سمي بالمعبد «ذي المزار الواحد» (Single shrine) وأمكن تعيين الإله الذي خصص لعبادته بأنه الإله المسمى «آبو» أو «أبًا»، بدلالة بعض النقوش الكتابية، كما وجد فيه عدد من المنحوتات.

معبد الإله «شارا» في تل أجرب:

عثر في الموضع الأثري المسمى تل «أجرب» أو «تل عقرب» من منطقة ديالى على معبد مهم من عصر فجر السلالات شيد لعبادة الإله المسمى «شارا»، كما تدل على ذلك الكتابة المنقوشة على إناء من الحجر وجد في المعبد من عصر فجر السلالات الثالث (انظر OIP, LVIII).

ومع أن التحريات في هذا المعبد لم تكن كاملة بيد أن المنقبين استطاعوا أن يتتبعوا مخططه من طور عصر فجر السلالات الثاني والثالث، فوجد أنه يحيط به جدار خارجي ضخم (سمكه 5,50م) وتتخلله الطلعات والدخلات المميزة لجدران المعابد الخارجية منذ أول ظهور المعابد في حضارة وادي الرافدين في عصر العبيد (في حدود 4000ق.م).

2 ـ كيش:

من المراكز الحضارية المهمة التي كشفت التنقيبات فيها عن بقايا عصر فجر السلالات والعصور الأخرى الموقع الأثري المشهور «كيش» الذي يتألف من مجموعة من الأطلال الأثرية الواسعة، تسمى تلول الأحيمر (تصغير أحمر) و«النغرة» وتقع على بعد نحو (10) أميال شرق مدينة بابل. واشتهرت مدينة

«كيش» في تأريخ حضارة وادي الرافدين بأنها كانت مركز أول سلالة حكمت من بعد الطوفان بحسب أثبات الملوك السومرية، كما سيأتي تفصيل ذلك.

ومع أن التنقيبات التي أجريت في أطلال كيش لم تكن على المقياس الذي يتناسب وسعة هذه البقايا الأثرية وأهميتها، بيد أن ما تم الكشف عنه[1] يضيف أشياء مهمة إلى معرفتنا بحضارة وادي الرافدين ولا سيما في عصر فجر السلالات، إذ كشف عن بقايا قصر كبير في منطقة «النغرة». ويشاهد في هذه المنطقة بقايا برجين مدرجين (زقورتين) شيدتا باللبن «المستوي ـ المحدب»، وهو اللبن الذي قلنا إنه يميز أبنية عصر فجر السلالات. وقد شيّد كل منهما فوق مصطبة كبيرة مزينة الأوجه بالطلعات والدخلات (Buttress, Recess)، وإن هاتين الزقورتين اللتين لم تتناولهما أعمال التحري الكافي على قدر عظيم من الأهمية لأنهما أقدم نماذج للزقورات من عصر فجر السلالات من بعد ظهور تلك المعابد العالية التي كانت تقام فوق المصاطب في العصر الشبيه بالكتابي.

وعثر في كيش كذلك على مجموعات من دور السكنى، وهي أيضاً ذات أهمية خاصة لأنها تمثل نظام السكنى في عصر فجر السلالات، موضوع كلامنا. ووجدت في الشوارع أو الأزقة الفاصلة ما بين البيوت آثار ترسبات من فيضان أو طوفان تفصل ما بين الطور الأول من عصر فجر السلالات وبين الطورين التاليين منه؛ ولعل هذه الترسبات الطوفانية من بقايا الطوفان المذكور في أثبات الملوك السومرية وفي ملحمة جلجامش. وعثر في هذه البيوت على مجموعات من الأواني الفخارية من الأطوار الثلاثة لعصر فجر السلالات، كما وجدت بقايا من الأدوات المعدنية من البرونز، ولا سيما من الطور الثاني من

---

(1) نوّهنا في الفصل الخاص بتأريخ التنقيبات بالتحريات الفرنسية القديمة في كيش برئاسة «دي جنواك» (1911ـ1912):

De Genuillac, *Foilles Françaises D'el-Akhymer*, (1924-25).

ثم تنقيبات البعثة «الإنجليزية ـ الأمريكية» (1923ـ1930):

Watelin and S. Langdon, *Excavations at Kish*, (1924-1934).

ذلك العصر، ومجموعات من الأختام الإسطوانية الخاصة بهذا العصر وهي ذات الأطرزة المميزة المكونة من الزخارف النسيجية (Brocade style).

وتم التحري أيضاً في مجموعة من القبور وفي مقدمتها المقبرة التي أطلق عليها المنقبون مقبرة «Y»، وجد فيها أجزاء من عربات ذوات عجلات وأدوات معدنية مهمة، من بينها خنجر دقيق الصنع. ويرجع بعض هذه القبور إلى عصر فجر السلالات الثاني، ويمكن نعتها بالقبور الملكية، وهي أقدم من مقبرة مدينة «أور» الشهيرة ولكنها فقيرة لا تضاهي هذه المقبرة في الكنوز التي وجدت فيها.

أما القصر المكتشف في كيش فإنه بناية واسعة ذات مداخل محصنة بالأبراج. ووجدت في القصر بقايا أعمدة تضاهي ما وجد في منطقة ديالى في أبنية عصر فجر السلالات الثاني، ولكن الإمارات الأخرى تجعل تحديد زمن القصر إلى مطلع عصر فجر السلالات الثالث أقرب إلى الصحة. ومهما كان الأمر فيعد قصر كيش وقصر «أريدو» الذي سيأتي ذكره أقدم نماذج من نوعها من هذا العصر. وقد دمر القصر بالحريق وأقيمت في أنقاضه مقبرة، وهي المقبرة التي أطلق عليها المنقبون مقبرة «A» المعاصرة للمقبرة الملكية في أور[1].

أريدو:

سبق أن تكلمنا على أدوار ما قبل التأريخ في «أريدو» في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ. أما بالنسبة إلى الموضوع الذي بين أيدينا، أي عصر فجر السلالات، فيبدو أن هذه المدينة ظلّت على شيء من الازدهار في بعض أجزائها على الأقل، مثل معابدها والقصر المهم الذي كشفت عنه تنقيبات مديرية الآثار العراقية في «أريدو» (1946ـ1949). وهو قصر كبير شيد

---

(1) حول قصر كيش ومقبرتها انظر:

Mackay, *A Sumerian Palace and the «A» Cemetery at Kish*, (1929).

على غرار أبنية ذلك العصر باللبن «المستوي ـ المحدب» (Plano-convex) ويتألف من بنايتين متكاملتين إحداهما لصق الأخرى (معدل قياس كل منهما 65×45متراً)، وقد سوِّر القصر بجدارين محصنين، تزين واجهاتهما سلسلة من الطلعات والدخلات. ولم يعثر على أشياء مهمة في هذا القصر سوى تمثال صغير (ارتفاعه نحو 16سم) من حجر الرخام الجميل، يمثل رجلاً طعمت عيناه بحجر اللازورد. ويستدل من طراز النحت على أنه يرجع في زمنه إلى عصر فجر السلالات الثالث. ومما يقال عن زمن قصر أريدو إنه كان معاصراً لقصر كيش وإن كليهما من أواخر عصر فجر السلالات الثاني أو أوائل الطور الثالث من هذا العصر.

شروباك (تل فارة):

يسمى موضع المدينة القديمة «شروباك»، موطن بطل الطوفان البابلي «اوتو ـ نبشتم» باسم تل فارة، على بعد نحو 64 كم جنوب شرقي مدينة الديوانية. وقد سبق أن نوَّهنا بالتحريات القصيرة الأمد التي أجراها الألمان في هذا الموضع (1902ـ1903)، ثم تحريات جامعة بنسلفانية الأمريكية (1930). وتدل الإشارات التأريخية الواردة في النصوص المسمارية على أن «شروباك» كانت من المراكز التي ازدهرت في عصر فجر السلالات، وكانت من المدن الخمس التي حكمت فيها سلالة من الملوك في عهد ما قبل الطوفان. ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة ما عثر في هذا الموضع من آثار ترسبات غرينية تفصل ما بين دور جمدة نصر وبين بداية عصر فجر السلالات. وعثر في أثناء التحريات على مجموعة مهمة من الأختام الإسطوانية يرجع زمنها إلى عصر فجر السلالات الثاني، والغالب على المشاهد الممثلة فيها الصراع ما بين البشر وبين الحيوانات، ومشاهد تجذيف القوارب وفيها الآلهة وهم يعبرون إلى الأماكن المخصصة للاحتفال بالأعياد، كما نقش بعضها بأشكال العقارب والأفاعي.

ومن الاكتشافات المهمة التي يجدر ذكرها مجموعة من ألواح الطين

القديمة (اركائية)، ترجع في عهدها إلى الأطوار الأولى من عصر فجر السلالات الثالث، وأنها على ما يرجح تعاصر زمن المقبرة الملكية في مدينة «أور»، وهي عبارة عن قيود وسجلات بواردات المعبد، وبعضها تمارين مدرسية، من بينها جداول في قِيم العلامات المسمارية وأصواتها، فهي على ذلك أقدم معاجم في التأريخ[1].

نفر:

تقع مدينة «نفر» بنحو 45 ميلاً جنوب شرقي بابل وبالقرب من بلدة عفك. وقد اشتهرت في تأريخ حضارة وادي الرافدين بمكانتها الدينية المقدسة، حيث كانت مركز عبادة كبير الآلهة السومرية «أنليل» وزوجته «ننليل»، واشتهرت في مآثر وادي الرافدين بأن الملوك والحكام لم تكن لتثبت شرعية توليهم السلطة ولا سيما في العصور القديمة، إلا من بعد تسلمهم من إلهها التاج والصولجان وشارات الملوكية الأخرى.

وتتألف المنطقة الأثرية من مساحة واسعة تبلغ زهاء (180) ايكراً (الأيكر الواحد يساوي نحو 4000 متر مربع). وقد سبق أن ذكرنا التنقيبات الأمريكية القديمة في نفر (1888ـ1900) ثم استئناف التنقيبات فيها من جانب جامعتي شيكاغو وبنسلفانية منذ عام 1949 إلى عام 1963، وشملت التحريات الجديدة التنقيب في معبد الإلهة «أنانا» (عشتار) القريب من زقورة المدينة، وسجلت أدواره التأريخية في عصر فجر السلالات، وقد بلغ في الطور الثاني من هذا العصر سعة كبيرة (275×85قدماً). ويوجد للمعبد مزاران (Shrine) يدخل إليهما بطريق معقد ومتشعب من خلال ساحات صغيرة وسقائف وحجرات أمامية. وعثر في المعبد على أعمدة مشيدة باللبن «المستوي ـ المحدب» ومملطة بالطين، وهي تضاهي ما وجد في معبد الإله «سين» في خفاجي في دوره الثامن، وفي قصر كيش الذي مر

---

(1) حول تحريات تل «فارة» انظر:
E. Schmidt, in *Museum Journal,* (1931).

ذكره بأنه يرجع إلى عصر فجر السلالات الثاني. ووجدت في المعبد مجاميع مهمة من النذور والهدايا، من بينها مجموعة من صفائح الحجر المطعمة بالصدف، يحتمل أن إحداها تمثل الإلهة «أنانا» صاحبة المعبد، وهي تلبس تاجها الإلهي ذا القرون، وتخرج منه خصلات شعرها على هيئة السنابل. ومن الألواح المنحوتة الجميلة التي يجدر ذكرها وهي من عصر فجر السلالات الثاني بعض المشاهد الطريفة التي يمثل بعضها أسداً يهاجم ثوراً، وبطلاً يصارع الأسود والثيران، مما يذكرنا بالبطل الشهير جلجامش، ومشهد احتفالات وولائم حيث الموسيقيون يعزفون على قيثارة ذات ثمانية أوتار، وينتهي صندوقها الصوتي برأس ثور مما يشبه قيثارة أور الذهبية المشهورة، والمشهد المصور على ما يعرف باسم «راية أور» الملكية التي وجدت في أقدم قبر من القبور الملكية فيها.

لقد سجلت الأدوار المعمارية المختلفة التي جدد فيها معبد الإلهة «أنانا»، ويمكن إيجازها على الوجه الآتي: (1) عصر فجر السلالات الأول وتمثله الطبقات (11) إلى (9). (2) عصر فجر السلالات الثاني وتعود إليه الطبقة الثامنة. (3) عصر فجر السلالات الثالث وتعود إليه الطبقات (7) إلى (5). وقد عثر على نماذج من الفخار خاصة بكل من هذه الأدوار. كما وجدت في الطبقة السابعة «B» ألواح مدونة بالخط المسماري القديم تضاهي الألواح المكتشفة في «فارة» التي يرجع عهدها إلى أوائل عصر فجر السلالات الثالث[1].

منطقة لجش:

سيمر بنا في كلامنا على الأحوال السياسية في عصر فجر السلالات كيف أن دولة لجش ازدهرت في عصر فجر السلالات، وكانت أشهر دول المدن التي قامت بدور بارز في تأريخ حضارة وادي الرافدين في ذلك العصر.

---

(1) عن نتائج التحريات في معبد «أنانا» في «نفر»، انظر المرجع المذكور في الهامش رقم 6، وعن المنحوتات المكتشفة فيه انظر:

Hansen in *JNES*, XXII, (1963), 145ff.

وتقع الآن في منطقة أثرية واسعة بالقرب من شط الحي (الغراف)، في منتصف المسافة تقريباً ما بين دجلة والفرات، على بعد نحو (10) أميال إلى الشمال الشرقي من بلدة الشطرة. وتتألف من جملة تلول أثرية، أبرزها المنطقة المسماة «تلو» التي ثبت من الدراسات الحديثة أنها موضع المدينة القديمة «جرسو» أو «گرسو» (Girsu)، ومنطقة تلول «الهباء»، موضع مدينة «لجش» الشهيرة التي سميت باسمها دولة المدينة، ثم التلول المعروفة باسم «سرغل»، وهي المدينة القديمة «نينا» أو «سرارا». وللمثال على سعة هذه المنطقة الأثرية تبلغ مساحة منطقة تلو وحدها زهاء 4×3 كيلومترات.

وبالإضافة إلى هذه المنطقة الأثرية الواسعة سجلت في أثناء المسح الأثري الذي تقوم به مديرية الآثار مجموعات مهمة من التلول الأثرية الأخرى، التي يغلب على ملتقطاتها السطحية أنها تعود إلى أدوار عصر فجر السلالات[1].

ومما يؤسف له أن المنقبين الفرنسيين القدماء في منطقة لجش، وقد اقتصرت تحرياتهم المضطربة على «تلُّو» وهي مدينة «جرسو» القديمة، لم يعنوا العناية اللازمة في تسجيل مخططات الأبنية وتثبيت أدوارها، ولذلك ضاعت معالم مهمة من بقايا عصر فجر السلالات الذي ازدهرت فيه هذه المنطقة كما بينا سابقاً، وتحسن الوضع أكثر عندما تولى الإشراف على التنقيبات الفرنسية التالية الأستاذ «أندريه پارو» (1929-1933)[2] بالنيابة عن متحف اللوفر، حيث سجلت بقايا مشيدة باللبن «المستوي ـ المحدب». ووجدت في الموضع أيضاً من عصر فجر السلالات ومن الأدوار السومرية التالية، مثل عهد «گودية» وعهد سلالة «أور» الثالثة، مجموعات كثيرة من ألواح الطين، وقطع كثيرة من

---

(1) راجع التقرير المنشور في:

Th. Jacobsen in *SUMER*, XXV, (1969), 103ff.

(2) انظر عن التنقيبات في تلُّو:

A. Parrot, *Tello*, (1948).

المنحوتات والآثار الفنية الأخرى، بعضها منقوش أيضاً بكتابات سومرية تعود إلى حكام سلالة «لگش» الأولى ، ومنهم مؤسس السلالة «أور ـ نانشه»، نخص بالذكر منها مسلات فنية مدونة تخلد انتصارات المشاهير من حكام هذه السلالة مثل مسلة النسور أو العقبان (Stele of the vultures) العائدة إلى «اياناتُم» الشهير، والإناء الفضي النفيس العائد إلى «أنتمينا»، المنقوش بصورة نسر باسط جناحيه، وكان النسر رمز مدينة لجش أو دولة لجش وسنتناول أخبار هذه الدولة المهمة ومآثر حكامها في القسم الثاني من هذا الفصل.

تل العبيد:

تل العبيد موضع أثري صغير بجوار «أور» (على بعد نحو4 أميال إلى الجهة الشمالية الغربية) وقد اشتهر اسم هذا التل لأنه، كما مرّ بنا في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ، أطلق على أقدم دور من أدوار ما قبل التأريخ في السهل الرسوبي[1]. وعثر في تل العبيد بالإضافة إلى فخار العبيد الخاص على بقايا مهمة من عصر فجر السلالات، موضوع بحثنا، ولا سيما من الطور الثالث منه، نخص بالذكر المعبد الجميل الذي شيده إلى الإلهة «نِن ـ خَرساگ» الملك «آنيبدا» ابن «ميسا نيبدآ»، مؤسس سلالة «أور» الأولى. ويرجع زمن هذا المعبد إلى الطور الأخير من عصر فجر السلالات الثالث، من بعد زمن المقبرة الملكية في «أور» بفترة قصيرة. وأصاب المعبد في زمن ما بعد تأسيسه حريق وتدمير فسقطت عمده وواجهاته ولم يبقَ قائماً منه سوى المصطبة أو الدكة التي شيّد فوقها المعبد الذي كان يرقى إليه بسلمين من الحجر. وأجمل ما وجد من بقاياه المتساقطة العمد المزينة بطريقة الغرس أو التطعيم (Inlay) بالصدف، كما أن جدران المعبد كانت مزدانة بتثبيت أزهار جميلة مصنوعة من الحجارة الملونة، ووجدت أيضاً بقايا أشكال حيوانية مصنوعة من النحاس، بعضها بطريقة الطرق وبعضها بطريقة السبك، وكانت هذه الأشكال تزين واجهة

---

(1) حول التنقيبات الأثرية في تل العبيد انظر:

Hall and Woolley, *Al-Ubaid*, 1927.

المعبد، من بينها أشكال أبقار وغزلان وشكل نسر باسط جناحيه. ويجدر أن نذكر القطعة الفنية النفيسة المكونة من افريز مطعم بقطع من الحجارة الجميلة وقطع من الأصداف، وهي تمثل مشهداً طريفاً في حلب الأبقار وخض اللبن وبعض العمليات الخاصة بصناعة الألبان (Dairy).

وننهي هذه الملاحظات الموجزة عن معبد العبيد بالتنويه بأن إعادة فحص الموضع في زمن لاحق من بعد التحريات القديمة فيه أثبتت بأن هذا المعبد كان يحيط به سور بيضوي على غرار المعبد البيضوي في خفاجى الذي سبق ذكره[1].

أور:

أظهرت التنقيبات الأثرية الواسعة التي أجرتها البعثة البريطانية ـ الأمريكية المشتركة في أور (1922ـ1934) نتائج على قدر عظيم من الأهمية، فإنها ألقت أضواء كاشفة على حضارة وادي الرافدين في عهودها المختلفة[2] لا مجال لتفصيل القول فيها إلا إيجاز ما أسفرت عنه بالنسبة إلى بقايا عصر فجر السلالات موضوع هذا الفصل. فمما يقال عن هذا الموضوع بوجه الإجمال إن ما كشف عنه من تلك البقايا لا يعد على قدر كافٍ من الأهمية باستثناء المقبرة الملكية الشهيرة التي يرجع زمنها إلى الطور الثالث من هذا العصر كما سنفصل ذلك بعد قليل. وأول ما نذكر عن بقايا هذا العصر الأخرى أن هناك إمارات قوية تشير إلى زقورة المدينة التي شيدها مؤسس سلالة «أور» الثالثة، «أور ـ نمُّو» قد أقيمت فوق بقايا بنائية من عصور أقدم، كما يدل على ذلك اللبن «المستوي ـ المحدب» الذي شيّدت به هذه البقايا

(1) انظر: Delougaz in *IRAQ*, (1938), 1ff.

(2) راجع النشرات المفصلة في:

Woolley, *Ur Excavations*, vols. I, II.

Woolley, *Ur of the Chaldees*, (1938).

Woolley, *Excavations at Ur*, (1954).

والذي يشير إلى عصر فجر السلالات. وثبت كذلك أن هذه البقايا المشيدة بهذا النوع من اللبن كانت في الواقع زقورة حقيقية وليست مجرد معبد مقام فوق دكة أو مصطبة على غرار معابد المصاطب التي ظهرتْ في العصر الشبيه بالكتابي، كما مرّ بنا في الفصل السابق. ووجدت أيضاً في جانبي السلم العائد إلى زقورة أور الثالثة بقايا بناءين كبيرين مشيدين كذلك باللبن المميز لأبنية عصر فجر السلالات، أي اللبن «المستوي ـ المحدب». ولا تعلم حقيقة هذين البناءين على وجه التأكيد، على أن المنقب «وولي» فسرهما بأنهما بقايا مطابخ المعابد القديمة بالاستناد إلى ما وجد فيهما من آثار الرماد والأحواض المبطنة بالقير ونظام لتصريف المياه. وبالإضافة إلى هذه البقايا وجدت كذلك معالم معبدين غير واضحين أرجع زمنهما إلى عصر فجر السلالات أيضاً، وعثر فيهما على آثار مكسورة من المنحوتات وطبعات أختام إسطوانية من هذا العصر. كما يرجح وجود بقايا أخرى تعود إلى الأطوار الأولى من هذا العصر وإلى دور جمدة نصر السابق بدلالة ما استعمل في بنائها من اللبن المعروف باسم «ريمشن» (Riemchen) المميز لأبنية العصر الشبيه بالكتابي. وخلاصة القول وجدت في أور في حارة المعابد المقدسة (Temenos) بقايا جزئية غير كاملة من أبنية ترجع في أزمانها إلى نهاية العصر الشبيه بالكتابي وإلى عصر فجر السلالات التالي بأطواره الثلاثة، وأن المعابد هذه اكتسبت قدسية خاصة منذ العصر الشبيه بالكتابي واستمرت كذلك إلى آخر العهود التأريخية. ووجدت كذلك بقايا كاملة من عصر فجر السلالات في حارتي معبدين من معابد المدينة، هما المعبد المسمى «اي ـ نُن ـ ماخ» (è-nun-makh) والثاني «اي ـ خُر ـ ساگ» (é-khur-sag).

المقبرة الملكية:

اكتسبت مدينة أور شهرة عالمية واسعة بفضل ما وجد فيها في تنقيبات الأعوام 1927ـ1934 من قبور أثارت الدهشة في العالم الحديث في آثارها العجيبة وكنوزها الذهبية والفنية التي تكاد تكون منقطعة النظير. فما حقيقة هذه

المقبرة وما تأريخها؟. وللإجابة على هذا التساؤل بوجه الإيجاز نقول إن المنقبين وجدوا في «أور» مجموعات متنوعة من المقابر، منها ما يعود إلى عهد سلالة أور الثالثة، نخص بالذكر منها القبور الملكية العائدة إلى ملوك هذه السلالة، وهي قبور ضخمة مكونة من سراديب ذات عقادات متقنة من الآجر لدفن ملوك هذه السلالة، وشيدت فوق تلك السراديب أو الأقبية معابد لعبادة الملك المقدس أو المولَّه وتقديم القرابين إليه. وهكذا فإن هذه المدافن قبور ملكية بالمعنى الدقيق لهذه التسمية، ولكنها وجدت خالية معبوثاً بها بحيث لم يعثر فيها على رفات أصحابها، وقد عُزي هذا الانتهاك إلى هجمات العيلاميين والأموريين التي قضت على سلالة أور على نحو ما سنفصل ذلك في أحد الفصول الآتية.

ووجد في الجهة الجنوبية الشرقية من السور (Temenos) مجموعات أخرى من المقابر بعضها قديم جداً يرجع في عهده إلى عصر العبيد (مطلع الألف الرابع ق.م)، وبعضها من العصر الشبيه بالكتابي، ولا سيما من دور جمدة نصر (أواخر الألف الرابع ق.م)، وقسم منها يعود إلى العصر الآكدي وإلى زمن سلالة أور الثالثة التالي. ولكن مجموعات كثيرة أخرى من القبور في المنطقة نفسها يرجع عهدها إلى عصر فجر السلالات الثالث، وهي التي يعنينا أمرها، إذ إنها هي التي عثر فيها على الكنوز الذهبية والفنية، واشتهرت باسم «المقبرة الملكية». وقد وجد في القبر الواحد منها عدا الشخص الملحود فيها عدد من الأتباع والحاشية وحتى العربات والحيوانات التي كانت تجرها والحلي والمجوهرات النفيسة. وقد فسرت من بعد اكتشافها بأن الأشخاص الملحودين فيها كانوا حكاماً أو ملوكاً إذا ما مات الواحد منهم دفنت معه حاشيته وأتباعه وأنفس الحلي والأثاث العائدة إليه لحاجته إليها في عالم ما بعد الموت. ومع أن تفسيرات أخرى وضعت بالإضافة إلى هذا التفسير عن حقيقة تلك القبور العجيبة، بيد أن مغزاها وتفسيرها الحقيقي ما زال بين أخذ ورد بين الباحثين، وأبعد ما يكون عن الحل النهائي لهذه القضية التأريخية التي هي أشبه ما تكون باللغز.

يرقى زمن هذه المقبرة، التي سنصف أهم قبورها، إلى عصر فجر السلالات الثالث كما بيّنا، ولكن اختلف في تحديد زمنها بالضبط إلى هذا الطور الثالث من عصر فجر السلالات، هل ترجع إلى النصف الأول منه أو إلى النصف الثاني؟ فعلى ضوء الدلالة الأثرية التي استنتجت مما وجد مصاحباً لهذه القبور يمكن التأكيد بأن زمنها أقدم من عهد مؤسس سلالة أور الأولى المسمى «ميسا نيبدا»، وهي في الوقت نفسه أحدث عهداً من ألواح الطين القديمة (الأركائية) التي وجدت في طبقة أثرية تحت الطبقة المخصصة لتلك القبور وقد أرّخت هذه الألواح إلى الطور الثاني من عصر فجر السلالات[1].
هذا وليس من الجائز، على ما أرى، أن تتفرد مدينة أور بكونها الموقع الأثري الوحيد الذي يحتوي على مقبرة ملكية من هذا النوع، وأن عادة هذا النوع من الدفن في عصر فجر السلالات اقتصرت على هذه المدينة، وعلى هذا فتكون صدفة الاكتشاف الأثري التفسير المعقول لتفرد أور بهذا النوع الغريب من القبور، وأن الاكتشافات المقبلة ستسفر عن إظهار نماذج أخرى في المدن التأريخية المشهورة. يؤيد هذا الاحتمال ما وجد في بعض المدن ما يصح تسميته بالقبور الملكية، وإن لم يعثر فيها على ما يشبه النفائس الأثرية التي تميزت بها مقبرة أور، نخص بالذكر منها ما وجد في كيش من قبور قديمة العهد، بعضها يرجع في زمنه إلى عصر فجر السلالات الثاني، وهي المقبرة المؤشرة بالحرف «Y» في سجلات المنقبين[2]، وعثر في بعض قبورها على أجزاء من عربات وآثار أخرى لا تضاهي آثار مقبرة أور من حيث نفاستها، كما وجدت في كيش نفسها مقبرة أخرى اطلق عليها اسم المقبرة «A» وأرجع زمنها

(1) حول تأريخ المقبرة والآراء المختلفة عنها راجع خلاصة ذلك في:
W. Ehrich, *Chronologies in Old World Archaeology* (1965), 162ff.

(2) حول القبور المكتشفة في كيش انظر:
Watolin, *Excavations at Kish*, IV, (1934).

وعن مقبرة سوسة راجع:
De Mecquenem, *Memoire de la Mission Archéologique de Perse ANET*, p. 51.

إلى عصر فجر السلالات الثالث، ولعلها تعاصر مقبرة «أور» في الزمن، ووجدت قبور مماثلة في مدينة «سوسة» (عاصمة بلاد عيلام)[1].

ولنعد الآن إلى مقبرة أور لنصف أهم قبورها وما وجد فيها من بقايا بشرية ونفائس أثرية، فنقول إنه سجل من هذه القبور ما يناهز (2500) قبر، منها ما قوامه بناء معقود على هيئة قبة بسيطة من نوع العقادة الذي يطلق عليه مصطلح (Corbel)، ويحتوي بعضها على أكثر من حجرة، كما أن بعضها الآخر من نوع المدافن الاعتيادية على هيئة حفر بسيطة.

ومع أن عدداً غير قليل من هذه القبور وجدت معبوثاً بها ومسروقة، إلا أن عدداً آخر منها لا يستهان به وجد محفوظاً، من كلا النوعين المعقود بالقباب، ونوع الحفر الاعتيادية. والمرجح أن بعض القبور المعقودة ولا سيما الكبيرة منها كانت قبوراً جماعية، أو بالأصح قبوراً عائلية. ونعدد أبرز القبور التي اشتهرت بما وجد فيها من الآثار النفيسة، وقد أمكن تعيين أسماء أصحاب البعض منها وللكثير منهم صفة الملوكية، إذ أمكن تخصيص ما لا يقل عن ستة عشر قبراً بكونها قبوراً ملكية، نخص بالذكر منها القبر العائد إلى «ميسكلام دگ» (Mes-Kalam-dug) (ويعني اسمه «بطل الإقليم الطيب»)، حيث وجد هذا الاسم منقوشاً على ختم إسطواني من الذهب، ويصحبه لقب الملك أي «لوگال» (Lugal) ووجد أيضاً قبر ابنه المسمى «آ ـ كلام ـ دگ» (A-kalam-dug) (ابن الإقليم الطيب)، وقبر زوجة الملك الأول بهيئة «نن ـ بندا» (Nin-banda)، وقبر ملكة أو أميرة لا يعلم اسم زوجها، وهي الملكة الشهيرة التي كان يقرأ اسمها سابقاً على هيئة «شبعاد» (Shub-ad) ولكن ارتئي للاسم حديثاً قراءة أصح بهيئة «پو ـ آبي» (Pu-abi) والمرجح أن هذه الصيغة اسم سامي. وقد لقبت كلتا هاتين الملكتين بلقب السيدة أو الملكة أي «نن» (Nin)، بيد أن الملكين المذكورين لم يرد اسماهما في أثبات الملوك السومرية.

---

(1) المصدر السابق نفسه.

وإذا أردنا تخصيص هذه القبور بالأرقام التي سجلها بها المنقبون فنختار منها الأرقام الآتية:

1 ـ القبر المرقم 1054:

وهو معقود من الحجر، وجدت فيه جثة امرأة لعلها أميرة أو ملكة مع جثث أربعة رجال من أتباعها على ما يرجح، ووجد فيه أيضاً ختم الملك «ميسكلام دگ» السالف الذكر، وأربعة خناجر جميلة من الذهب.

2 ـ القبر المرقم 779:

ومساحته 12×8,5م، ويعد من أقدم القبور، كان منهوباً معبوثاً به، ولكن وجد فيه مع ذلك ما أطلق عليه اسم «راية أور» وهي قطعة نفيسة مطعمة بالفيسفساء من الصدف وحجر اللازورد. وتصور الراية بطريقة فنية رائعة مشهداً من مشاهد الحرب، ومشهد احتفال بالنصر أيضاً.

3 ـ القبر المرقم 775:

يقع جوار القبر الثاني (ذي الرقم 779)، ويعود إلى الملك الشهير الذي ذكرناه باسم «ميسكلام دگ»، صاحب الخوذة الذهبية المشهورة وآثار الذهب الأخرى الرائعة التي يمكن مشاهدة بعضها معروضة في المتحف العراقي.

4 ـ القبر المرقم (1050):

يعود إلى الملك «آ ـ كلام ـ دگ» ابن الملك «ميسكلام ـ دك»؛ وجدت معه أربعون جثة من الحاشية ونفائس من الآثار من بينها ختم إسطواني من حجر اللازورد يحمل كتابة باسمه ولقبه على أنه ملك «أور».

5 ـ القبران المرقمان (789 و800 B):

وهما قبران مؤلفان من عقادتين أو قبتين فوق حفرة عميقة. ويمتاز الأول منهما بكثرة عدد الضحايا التي وجدت فيه حيث بلغ عددها زهاء 59جثة من بينها جثث ستة جنود وتسع نساء وبقايا عربتين. والمرجح كثيراً أن هذا القبر

يعود إلى ملك مهم لا يعلم اسمه لأن القبر نهب في العصور القديمة بواسطة ثقب أحدث في سقفه.

ويقع لصق هذا القبر، القبر المرقم (800) الذي أمكن تعيين صاحبه بأنه يعود إلى ما يرجح أن تكون الملكة «شبعاد» أو «پو ـ آبي» السالفة الذكر. وقد وجدت جثتها في حفرة مستطيلة (2,80×4,35م)، مع جثث حاشية من الوصائف والأتباع بلغ عددها (59) جثة، الغالب عليها أنها جثث نساء ورجال من الجند أو الأتباع، كما وجدت بقايا عربتين مع حيواناتهما من الحمر الوحشية (Onager) وسائقيهما. أما الكنوز الأخرى التي وجدت في هذين القبرين فتعد من أروع الآثار النفيسة، منها الحلي الذهبية بمختلف أنواعها وأشكالها وقيثارتين ذهبيتين ينتهي كل منهما برأس ثور من الذهب الخالص، ووجدت بقايا من صندوقيهما الصوتيين وهما من الخشب المطعم بالصدف وحجر اللازورد.

6 ـ القبر المرقم 1237:

لا يضاهي النفائس التي وجدت في القبرين السالفي الذكر إلا آثار القبر المرقم (1237) الذي سمي بحفرة الموت الكبيرة، إذ هو في الواقع حفرة واسعة (8,5×75م)، ومع أن هذا القبر وجد بحالة غير سليمة إلا أن الضحايا التي سجلت فيه بلغ عددها 74جثة، من بينها جثث (68) امرأة مع كامل زينتهن وحلاهن النفيسة من الذهب والفضة وقلائد حجر اللازورد الجميل والأحجار الكريمة الأخرى كالعقيق، كما وجد عدد من القيثارات إلى غير ذلك من الآثار الجميلة التي لا يسع المجال لإسهاب القول فيها، ويستطيع من يرغب في الاستزادة من الوصف الرجوع إلى المصادر التي أثبتناها في آخر هذا الفصل.

تفسير المقبرة:

يتضح مما أوجزناه عن وصف هذه القبور التي سميت بالمقبرة الملكية أن عدداً من الشخصيات الحاكمة، كالملوك والملكات والأمراء، وجدوا

مقبورين مع حاشيتهم وأتباعهم وأنفس متاعهم وآثاثهم، فكان التفسير القديم الذي ارتآه مكتشف هذه المقبرة المرحوم «وولي» (Woolley) وتابعه في رأيه جماعة من الباحثين، أن الحكام السومريين كانوا في فترة قديمة من عصر فجر السلالات الثالث، أي في حدود 2600ق.م أو 2550ق.م، يمارسون عادة تضحية أتباعهم ويدفنونهم معهم عند مماتهم. وأن أولئك الأتباع الملحودين بصحبة أسيادهم كانوا يدخلون إلى هذه القبور وهم أحياء ثم تقتل الحيوانات من جانبهم، ويتناولون من بعد إدخال جثة سيدهم سموماً كانت تهيأ لهذا الغرض، وكان الدفن يجري في احتفال ديني مهيب.

أما إذا أردنا الاستعانة بشيء من النصوص الكتابية المعاصرة فلا نجد ما يسعفنا في حلّ هذا اللغز سوى ما ذكرناه من أن بعض الشخصيات المقبورة كانت تحمل ألقاب ملوك وملكات وهذا ما دعا المنقبين إلى إطلاق تسمية «المقبرة الملكية» على تلك القبور. ولم يترك لنا الكتبة المتأخرون من العصور التالية ما يوضح حقيقة هذه المقبرة باستثناء إشارات قليلة مقتضبة نذكر منها ما جاء في إحدى الأساطير أو القصص الخاصة بجلجامش من الإشارة إلى بطل أو ملك أرفق معه عند موته أتباعه، وسميت هذه الأسطورة بعنوان «موت جلجامش»[1]. وكان جلجامش بصفته شخصية تأريخية قد عاش في الفترة الزمنية التي خصصت لأحد ملوك المقبرة الملكية المسمى «ميسكلام ـ دگ». وإن هذا الملك وغيره من ملوك هذه المقبرة كانوا إلى جانب صفتهم الملكية يتصفون بحسب نظرية «وولي» بالألوهية، فحق لهم أن يضحوا حاشيتهم معهم عند موتهم، حيث يعيشون في عالم آخر هو عالم ما بعد الموت. وفي الأسطورة السابقة التي تدور على موت جلجامش نجد هذا البطل مع أتباعه وحاشيته يقدم الهدايا إلى الشخصيات المهمة في ذلك العالم.

---

(1) حول هذه القصة انظر:

Kramer in *IRAQ*, (1960), 56ff.

والبحث المنشور في *IRAQ*.

وهناك رأي آخر في تفسير تلك العادة الغريبة من الدفن يربطها بما كان يمارس في فترة ما من عصر فجر السلالات من شعائر الزواج المقدس أو الزواج الإلهي (Hieros gamos)، حيث كان يختار بموجبها الملك أو الحاكم أو الكاهن الأعلى ليمثل إله الخصب «تموز»، وتختار الملكة أو الكاهنة العليا لتمثل الإلهة «أنانا» (عشتار) ويقومان بشعائر الزواج الإلهي في بدء السنة الجديدة لإحلال الخصب والخير، ثم كان يُسمَّان مع أتباعهما ويدفنان في احتفال ديني، بموجب عقيدة القوم بأن الإله «تموز» كان يموت ويبقى رهينة في العالم الأسفل طوال نصف العام، ثم يقوم من عالم الأموات في النصف الثاني بعد أن تقوم مقامه أخته المسماة «گشتن ـ أنا» (Geshtin anna) رهينة في ذلك العالم[1]. ويضيف الباحثون إلى هذا أن عادة التضحية هذه لم تستمر ممارستها في حضارة وادي الرافدين في العصور التالية، واستبعدوا أن تكون عادة أدخلها إلى بلاد ما بين النهرين قوم فاتحون غرباء في فترة ما من ذلك العصر، ذلك لأن أسماء الملوك التي كشف عنها في مقبرة «أور» أسماء سومرية مألوفة.

وفي ختام هذه الملاحظات الموجزة عن تفسير المقبرة الملكية في أور يجدر أن ننوِّه بأن علائم ضعيفة وجدت في قبور كيش على ممارسة عادة التضحية البشرية في عصر فجر السلالات. وباستثناء ذلك لم يعثر على ما يضاهي هذه القبور من غير مدينة «أور». ولا يستبعد أن يكون تفسير ذلك يعزى إلى صدفة الاكتشافات كما بينا وأن معظم القبور الملكية من هذا النوع المحتمل وجودها في المواقع الأخرى التي جرى التنقيب فيها قد نهب وأزيلت معالمه في العصور التأريخية القديمة. أما من خارج حضارة وادي الرافدين فقد سجلت عادة دفن الأتباع مع الملوك والحكام والأمراء في زمن الأسرة الأولى من ملوك مصر (في حدود 3100 ـ 3000ق.م)، وسجلت أيضاً في العصور

---

(1) راجع إيجاز مثل هذه الآراء في:

Saggs, *The Greatness That was Babylon*, (1962), 378ff.

التأريخية المتأخرة عند قبائل «الأشكوزيين» أو «السكيثيين» وعند مغول «أسام»، والكومان (Comans) في جنوبي روسية في عصر متأخر (القرن الثالث عشر الميلادي)[1].

بقايا عصر السلالات في الأجزاء الشمالية من العراق:

إن معرفتنا بحضارة عصر فجر السلالات، من الناحية السياسية والحضارية، ناقصة قليلة بالنسبة إلى بلاد آشور، ووادي دجلة بوجه عام، وكذلك وادي الفرات الأعلى، ولكنها تزداد وضوحاً في عصر فجر السلالات الثالث.

لقد أظهرت التنقيبات التي أجريت في مدينة «آشور»، أن هذه المدينة الآشورية، التي كانت أقدم المراكز أو العواصم الآشورية وظلت مدينة مقدسة في جميع أدوار التأريخ الآشوري، قد أسست في عصر فجر السلالات على مرتفع طبيعي يطل على دجلة، وقد كشفت هذه التنقيبات، بالإضافة إلى آثار العصور التأريخية المختلفة، عن بقايا معبد مهم شيد لعبادة الإلهة «عشتار» في عصر فجر السلالات، وقد سجل لهذا المعبد دوران رئيسيان، أقدمهما دور التأسيس (المعبد المسجل بحرف H في التنقيبات) حيث شيد على الأرض الحجرية الطبيعية (الأرض البكر)، ثم شيد فوقه المعبد الثاني وفق المخطط نفسه (معبد G). ويشير الفخار الذي وجد في المعبد إلى أنه استمر في الاستعمال في الطور الثاني وأوائل الطور الثالث من عصر فجر السلالات. ووجدت في المعبد أيضاً قطع من المنحوتات على الطراز السومري، مما يشير إلى ازدهار الحضارة السومرية في آشور في ذلك العصر، سواء كان السكان

---

(1) للاستزادة من الآراء التي قيلت في تفسير مقبرة «أور» الملكية انظر: مجلة (IRAQ)، المجلد 22 (1960) المخصص لذكرى منقب أور المرحوم «وولي»، وفيه عدة بحوث عن هذا الموضوع وعما يتعلق بتحريات «أور» بوجه عام.

من السومريين المهاجرين من الجنوب أم من الآشوريين والسوباريين المقتبسين لتلك الحضارة.

وفي الموضع الأثري المسمى «نوزي» من منطقة كركوك (يورغان تبه على بعد نحو (13) كم غرب كركوك) وجدت بقايا أثرية من دور جمدة نصر. أما بقايا عصر فجر السلالات فلم يعثر عليها في هذه المنطقة، بل نجد المدينة تظهر في العصر الآكدي التالي باسم «گاسُر» (Gasur)، ولكن أظهر المسح الأثري للتلول الكائنة في هذه المنطقة وجود ملتقطات سطحية كثيرة من فخار عصر فجر السلالات، والفخار المسمى «فخار نينوى» الطبقة الخامسة، المعاصر للطورين الأول والثاني من عصر فجر السلالات. كما وجدت آثار سومرية في مدينة «نينوى» التي سمي باسمها هذا النوع من الفخار، ووجدت طبعات أختام إسطوانية من عصر فجر السلالات الثالث. والجدير بالملاحظة بهذا الصدد أن اسم نينوى (Ninua) نفسها اسم سومري وهو الاسم نفسه الذي كانت تسمى به إحدى مدن دولة لجش في بلاد سومر، أي مدينة «نينا» (Nina) التي تعرف بقاياها الآن باسم «سُرغل» في منطقة لجش.

ولعل أبرز ما يميز الطبقات الأثرية من عصر فجر السلالات الأول والثاني في بلاد آشور نوع من الفخار مصنوع بدولاب الخزاف وهو مصبوغ ومزين بالحزوز، وأشهر أوانيه الإناء الذي يسمى إناء الفاكهة أو حامل الفاكهة (Fruit stand).

مدينة ماري (تل الحريري):

ازدهرت المدينة المسماة «ماري» في عصر فجر السلالات وتعتبر من هذه الناحية من المواضع الأثرية المهمة التي وجدت فيها الآثار المميزة لهذا العصر. وتعرف بقاياها الآن باسم تل الحريري على بعد نحو 11كم شمال غربي بلدة البوكمال، عند الحدود العراقية السورية، وعلى بعد 1/ 2 2كم غربي نهر الفرات. وتشغل هذه الأطلال مساحة تناهز (100) ايكر (أي نحو 400000 متر مربع).

إن أبرز البقايا التي أظهرتها التنقيبات في هذه المدينة من عصر فجر السلالات، الأدوار المعمارية التي سجلت للمعبد الذي شيد لعبادة الإلهة الشهيرة «عشتار». فقد سجلت لهذا المعبد ستة أدوار بنائية قدرت لها مدة ستة قرون تمثل أطوار هذا العصر الثلاثة، وكان آخرها المعبد الذي يرقى في زمنه إلى الطور الأخير من عصر فجر السلالات الثالث، أي زمن سلالة أور الأولى، وسلالة لجش بوجه التقريب[1]. ووجد في المعبد من هذا الدور تمثال يعود إلى أحد ملوك ماري ورد اسمه منقوشاً بهيئة «لمگي ـ ماري» (Lamgi-mari) وقد لقب نفسه حاكم الإله «أنليل»، كما وجد تمثال آخر لأحد كبار الموظفين أو الحكام اسمه «ابخ ـ أيل» (Ebikh-il).

والجدير بالملاحظة عن هذين الاسمين أنهما اسمان ساميان مما يدل على أن منطقة ماري كانت منذ أقدم عصور التأريخ قد استوطنها الساميون الذين اقتبسوا الحضارة السومرية، كما يجدر التنويه بأن فن النحت في ماري من عصر فجر السلالات يضاهي طراز منحوتات منطقة ديالى وأور وكيش من العصر نفسه. وقد بلغ هذا المعبد في الطور الأخير من عصر فجر السلالات غاية التطور والازدهار، كما تشير إلى ذلك الآثار الجميلة التي وجدت فيه، من بينها قطع فنية مطعمة بالصدف وفصوص من الأحجار الجميلة، مما يشبه «راية أور» التي وجدت في المقبرة الملكية كما ذكرنا من قبل. ويبدو أن هذه القطع كانت تؤلف مشهداً من عدة أفاريز، يمثل أحد ملوك ماري وجيشه وعرباته وأسرى الحرب ووليمة الاحتفال بالنصر. وانتهى المعبد من جراء ما أصابه من التدمير والحريق التي سجلت آثارها الواضحة فيه، ولا يعلم اسم الفاتح الذي سبب هذا التدمير. على أن الأستاذ «پارو» الذي نقب في ماري يرى أن هذا الغازي كان «اياناتُم»، ملك دولة لجش الذي سنتكلم عنه، ولكن

---

(1) حول خلاصة التحريات في «ماري» انظر:

W. Parrot, *AM*, I, II, (1946-1953).

وكذلك مجلة SYRIA، ولا سيما المجلدات 1962 و1963.

يرجح كذلك أن يكون سرجون الآكدي، وكلا الملكين غزا المناطق العليا من الفرات.

وختاماً لهذه الملاحظات عن مدينة ماري يجدر أن نذكر أن معبدين آخرين كشفت عنهما التنقيبات في هذه المدينة، خصص أحدهما لعبادة الإلهة «نن ـ خرساگ» التي مر بنا ذكر معبدها في تل العبيد وفي أور. وخصص المعبد الثاني لعبادة آلهة ورد اسمها بهيئة «نني ـ زازا» (Ninni-zaza)[1] وقد وجد في داخله قائم حجري مخروطي الشكل، مما يضاهي الأنصاب السامية الغربية التي تعرف باسم «بيت ـ أيل»، ووجد أيضاً معبد خصص لعبادة الإله «شمش». أما قصر المدينة الشهير فهو يعود إلى ملوك المدينة في العصر البابلي القديم، وسترد الإشارة إليه في كلامنا على هذا العهد في أحد الفصول الآتية. وخصصت أثبات الملوك السومرية لمدينة «ماري» سلالة حاكمة من بين السلالات التي حكمت من بعد الطوفان، كما سنشرح ذلك في القسم الثاني من هذا الفصل.

والإضافة إلى ماري أجريت التحريات الأثرية في جملة أماكن أخرى في جهات ما بين النهرين العليا، كشف فيها من بين ما كشف عن آثار عصر فجر السلالات، نذكر منها الموضع الأثري المسمى «جغار بازار» (على بعد نحو 35ميلاً جنوب غربي القامشلي بالقرب من الحدود السورية التركية)، وكان هذا الموضع أحد المستوطنات الكثيرة على طوال وادي دجلة الأعلى وتتصل ببلاد آشور عن طريق القوافل عبر جبل سنجار. وأظهرت التنقيبات فيه[2] خمس عشرة طبقة أثرية، تمثل الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة عصر فجر السلالات، ولا سيما القبور التي وجدت في الطبقتين الخامسة والرابعة حيث

---

(1) حول هذين المعبدين انظر:

A. Parrot, *Les Temples D'Ishtar et de Ninni-Zaza,* (1967).

(2) انظر:

Mallowan, «Excavations at Brak and Chagar Bazar», in *IRAQ,* 3, (1936); *IBID.* 9, (1947).

وجد فخار نينوى المعروف باسم «نينوى الطبقة الخامسة». ووجد من الطور الثالث من هذا العصر خنجر من الحديد ليس من أصل سماوي (من النيازك)، وهو يضاهي ما وجد في تل أسمر من منطقة ديالى. ونذكر أيضاً تل «براك» الذي يقع على بعد نحو 20 ميلاً جنوب شرقي «جغار بازار» السالف الذكر، وأظهرت التنقيبات التي أجريت فيه[1] ازدهار هذا الموضع في عصر فجر السلالات، وفي دور جمدة نصر السابق له، حيث وجدت فيه المعابد الخاصة التي سميناها «معابد العين» (Eye temple). وبالنظر إلى أهمية هذا الموضع في العصور القديمة لوقوعه على طرق القوافل ما بين العراق وبلاد الشام وموانئ البحر المتوسط فقد ظل مزدهراً في العصور التي تلت عصر فجر السلالات، يدل على ذلك القصر أو الحصن الفخم الذي شيده فيه الملك الآكدي الشهير «نرام ـ سين»، حفيد سرجون.

ثانياً: أحوال العراق السياسية في عصر السلالات:

يتضح من الأمثلة التي أوردناها على أشهر المواضع الأثرية التي كشفت التحريات فيها عن بقايا عصر فجر السلالات ازدهار العمران واتساع مراكز هذا العمران ممثلاً بتعاظم المدن واتساعها وتكاثرها منذ العصر الشبيه بالكتابي وصيرورتها مدناً معظمة في عصر فجر السلالات ومراكز لحكم سلالات مهمة، وأصبح للكثير من هذه المدن أسوار. وازدهرت الزراعة واتسعت التجارة الخارجية وأقيم جهاز منظم وواسع للري. وسنرى مما سنورده عن أخبار هذه المدن كيف أن كلاً منها صار في هذا العصر الذي نتكلم عنه مركزاً سياسياً واقتصادياً ودينياً يضم مدناً أخرى وقرى ومزارع، وهو الذي اصطلح

---

(1) انظر المراجع الأساسية التالية عن أثبات الملوك السومرية:

1. Th. Jacobsen, *The Sumerian King-List,* (1939).

2. Kramer, *The Sumerians,* (1963), 328ff.

3. Rowton, in *JNES,* XIX, (1960), 156ff.

4. *ANET,* (1955).

على تسميته «دولة المدينة» (Citystate). فإن أهم ما كان يميز هذا العصر من الناحية السياسية أن القطر كان مجزءاً إلى عدة دول مدن مستقلة ومنفصلة بعضها عن بعض، وكانت على الغالب في نزاع وحروب للاستحواذ على الأراضي الزراعية ومصادر مياه الري. وإن تضارب مصالح هذه الدويلات وما كان يتطلبه تنظيم شؤون الري والإدارة والتجارة الخارجية التي كانت العماد الثاني لازدهار حضارة وادي الرافدين من بعد الزراعة - كل هذه العوامل كانت تعمل على تغلب الاتجاه الثاني المعاكس، ونعني به ضرورة قيام وحدة سياسية أكبر من دولة المدينة، تضم تحت سلطتها السهل الرسوبي كله، أي دولة القطر الموحدة. وقبل أن يحقق «لوگال زاگيزي»، آخر حكام عصر فجر السلالات ومن بعده سرجون الآكدي هذا الاتجاه التأريخي الثاني كان يحدث بين الحين والحين أن ينجح أحد حكام تلك الدويلات فيضم أكثر من دولة مدينة إلى سلطته ودولة مدينته ويبسط سلطانه على جميع بلاد سومر وآكد، كما فعل بعض أوائل الملوك مثل «ميسلم»، و«ميسانيبدا»، مؤسس سلالة أور الأولى، و«ايواناتم»، حاكم دولة لجش. وجرى العرف السياسي أن مثل هذا الحاكم الذي ينجح في مد سلطانه إلى المدن الأخرى كان يتخذ لقباً سياسياً هو ملك «كيش» ولقب «الملك». وتطور مدلول ملك «كيش» في العصور التأريخية التالية إلى معنى «ملك العالم» (وبالآكدية «شار كشتى») والمرجح أن «ميسلم» كان أول من استعمل هذا اللقب.

وسنحاول في الصفحات التالية إيجاز ما نعرفه عن أخبار دول المدن الكثيرة التي قامت في عصر فجر السلالات، بعضها في الأطوار الأولى منه، ولكن أغلبها من الطورين الثاني والثالث. وأول ما نذكر من الحقائق التأريخية الخاصة بالموضوع أن مصادرنا الكتابية أي النصوص المدونة عن حكام هذه الدويلات هي من القلة بحيث لا تتناسب وطول هذه الحقبة التأريخية. فباستثناء الوثيقة التأريخية المهمة التي أشرنا إليها مراراً باسم «أثبات الملوك السومرية» والتي سنورد ترجمة لها بعد قليل، لم يصل إلينا شيء مدون من الطورين الأول والثاني من عصر فجر السلالات. أما الطور الثالث منه فقد

جاءت منه بضعة نصوص قصيرة لا يتعدى البعض منها أسطراً قليلة مثل الكتابات المختومة على الآجر ومخاريط الطين. ولكن يعوض عن هذا النقص في مصادرنا ما وصل إلينا من النصوص المتنوعة العائدة إلى حكام دولة لجش، وهي تعد غزيرة بالمقارنة مع ما جاءنا من دويلات المدن الأخرى، يضاف إلى ذلك نصوص متأخرة العهد استفيد منها في إيضاح بعض الجوانب المهمة عن الحياة السياسية في هذا العصر، نخص بالذكر منها الكتابة المعروفة باسم نص «تُمال» (Tummal inscription) الخاص بتجديد معبد الإلهة «ننليل» في نفر من جانب الملوك السومريين عاش البعض منهم في عصر فجر السلالات، ثم طائفة من النصوص المتأخرة الخاصة بتنبؤات الفأل حيث وردت فيها إشارات إلى بعض أولئك الملوك والحكام.

أثبات الملوك السومرية:

سبق أن عرفنا هذه الوثيقة التأريخية المهمة في الفصل الخاص بتأريخ التنقيبات، فنقتصر هنا على إعادة أهم النقاط المتعلقة بها، وأولاها أن زمن جمعها أو تأليفها يرجع على ما يرجح كثيراً إلى زمن سلالة «أور» الثالثة أو لعله قبيل ذلك ولا سيما الفترة القصيرة التي حكم فيها «أوتو ـ حيگال» الذي اشتهر بطرد الكوتيين كما سيمر بنا في الفصول الآتية. ولكن آخر نسخة منها تعود إلى عهد سلالة «ايسن» (2017 ـ 1794ق.م) التي تلت سلالة أور في الحكم، حيث تنتهي جداول الملوك هذه بآخر ملوك هذه السلالة، وتبدأ في تعداد السلالات الحاكمة من أزمان ما قبل الطوفان، وقد عنونها جامعوها بعنوان «الملوكية» (وبالسومرية) (Nam-lugal). ومن ناحية لزوم تطبيق منهج النقد التأريخي العلمي عليها، شأنها في ذلك شأن أي مصدر تأريخي، يجدر أن ننبه إلى الجوانب التي ينبغي الالتفات إليها مثل المبالغة في أرقام السنين المخصصة لحكم الملوك فيها ولا سيما ملوك السلالات القديمة التي أعقبت «الطوفان»، كما أن الكثير من السلالات التي ذكرت وكأنها متعاقبة في الحكم كانت في الواقع متعاصرة جزئياً أو كلياً، ولأسباب غير معروفة على وجه

التأكيد أغفلت ذكر بعض السلالات والملوك ممن نعرف من مصادر أخرى أنهم حكموا في عصر فجر السلالات، مثل سلالة لجش الشهيرة.

وعلى الرغم من هذه الشوائب وغيرها تعد هذه الأثبات على قدر كبير من الأهمية على أنها مصدر أساسي من مصادر معرفتنا بعصر فجر السلالات. وقبل أن نتكلم عن السلالات الواردة فيها كلاً على جدة يحسن أن نورد ترجمتها[1] لتكون أساساً لمناقشتنا:

ترجمة أثبات الملوك:

هبطت الملوكية من السماء فكانت «أريدو» مركز الملوكية. وحكم في أريدو «ألولم» (Alulim) ملكاً (مدة) 28,000عام. وحكم «ألگار» (Alagar) 36,000عام. المجموع: ملكان حكما 64,000عام.

تركت «أريدو» وانتقلت ملوكيتها إلى «باد ـ تبيرا» (Bad-tibira). في «باد ـ تبيرا» حكم «أينمنلو ـ أنّا» (Enmenlu anna) 43,000 عام، ثم حكم «اينمنگال ـ أنّا» (Enmengal anna) 28,000عام. وحكم «دموزي» (تموز) الراعي 36,000عام. و(المجموع) ثلاثة ملوك حكموا 180,000عام.

تركت «باد ـ تبيرا»، وانتقلت ملوكيتها إلى «لرك» (Larak). في «لرك» حكم «اينسيبازيانّا» (Ensipzianna) 28,000عام. (المجموع) ملك واحد حكم 28,000عام.

تركت «لرك» وانتقلت ملوكيتها إلى سپار. في سپار حكم «أينميدر ـ أنّا» (Enmedur anna) 21,000عام. ملك واحد حكم 21,000عام.

---

(1) انظر المراجع الأساسية التالية عن أثبات الملوك السومرية:

1. Th. Jacobsen, *The Sumerian King-List,* (1939).
2. Kramer, *The Sumerians,* (1963), 328ff.
3. Rowton, in *JNES,* XIX, (1960), 156ff.
4. *ANET,* (1955).

تركت «سپار» وانتقلت ملوكيتها إلى «شروباك» (Shuruppak). في شروپاك حكم «أوبار ـ توتو» (Ubar-tutu) 18,000عام. (المجموع) خمس مدن وثمانية ملوك حكموا 241,000عام.

ثم جاء الطوفان (وجرف البلاد). وبعد الطوفان هبطت الملوكية (مرة ثانية) وحلت في كيش. وصارت كيش مركز الملوكية.

وحكم في كيش:

1 ـ گاور (Gaur) 1200عام.

2 ـ گُلا ـ ندابا ـ أنَّا پاد[1] 960.

3 ـ پالاكماتم (Palakimatiom) 900.

4 ـ منگشلشما (Mangishlishma) ....

5 ـ باهينا (Bahina) ....

6 ـ پو ـ آنم (Buanum) أو «سريمم» (Sirrimum) 840.

7 ـ كلبم (Kalbum) 960.

8 ـ قلومم (Qalumum) 840.

9 ـ زقاقپم (Zuqaqipum) أو «زقاقب» 900.

10 ـ أتاب (Atab) 600.

11 ـ «مشدا»، بن «أتاب» 840.

---

(1) من المحتمل جداً أن «كلا ـ ندابا ـ أنَّابادا» أو في قراءة أخرى «گلا ـ ندابا ـ سكل» ليس اسم ملك بل عبارة أضافها أحد نُساخ هذه الأثبات وتعني بالسومرية، «مخروم أو مكسور والعلم عند ندابا» و«ندابا» آلهة الكتابة والقلم. أي إن اسم الملك الثاني من ملوك سلالة كيش ساقط من لوح الطين الذي استنسخ منه فأضاف هذه العبارة الطريفة المضاهية لقولنا «والله أعلم».

12 ـ أرويئم (Arwium) بن «مشدا» 720.

13 ـ ايتانا (Etana) الراعي، الذي عرج إلى السماء، ووطد جميع البلاد 1560.

14 ـ باليخ (Balikh) ابن «ايتانا»، 400.

15 ـ اينميننا (Enmenunna) 660.

16 ـ «ميلام ـ كيش» (Melam-kish) ابن «اينميننا» 900.

17 ـ برسالننا (Barsal nunna)، ابن اينميننا 1200.

18 ـ «ميسى ـ زامگ» (Meszamug) ابن برسالننا 140.

19 ـ تزكار (Tizkar) ابن «ميس زامگ» 305.

20 ـ الكو (Ilku) 900.

21 ـ التسادم (Iltasadum) 1200.

22 ـ اينميبراگيسي (Enmebaragesi)، حطم جيوش عيلام، 900.

23 ـ أگا (Agga) ابن «اينميبراكيسي»، 625.

المجموع 23 ملكاً، حكموا 240510 سنة و3 أشهر و3 أيام ونصف اليوم.

دحرت كيش (في الحرب) ونقلت ملوكيتها إلى «أي ـ أنَّا»[1] وحكم في «أي ـ أنَّا»:

---

(1) كانت مدينة الوركاء في الأطوار الأولى من عصر فجر السلالات مؤلفة من قسمين، يسمى أحدهما «أي ـ أنَّا» نسبة إلى حارة المعابد المقدسة، ولا سيما معبد الإلهة «أنانا» (عشتار) والإله «آنو» ثم «كلاب» وقد ورد كلا هذين القسمين في ملحمة جلجامش. والترجمة الحرفية لعبارة «دحرت»: ضربت بالسيف أو بحدّ السلاح.

1 ـ ميسكيگاشر (Meskiggasher) ابن «أوتو»[1] بصفته «أين»[2] وبصفته ملكاً، 324 ذهب «مسكيگاشر» إلى البحر وارتقى الجبال.

2 ـ «أينمركار»، ابن «مسكيگاشر»، ملك «أوروك»، الذي شيد «أوروك». حكم 420 عاماً.

3 ـ لوگال بندا، الراعي، 1200 عام.

4 ـ «دموزي» (Dimuzi)، صائد السمك، الذي كان أصله من مدينة «كوآ»، حكم 100 عام.

5 ـ جلجامش، ابن لُلا (Lulla)[3]، 126 عام.

6 ـ «أور ـ ننگال» (Ur-nungal)، ابن جلجامش، 30 عاماً.

7 ـ أودل ـ كلامَّا (Udulkalamma)، ابن «أور ـ ننگال»، حكم 15 عاماً.

---

(1) «أوتو»، هو الاسم السومري للإله شمش. ولقب «أين»، كما سيأتي شرحه في موضع آخر، كان في الأطوار القديمة من عصر فجر السلالات والعصر الشبيه بالكتابي ذا صفة مزدوجة، فكان الكاهن الأعلى للمعبد والحاكم في الوقت نفسه قبل أن تتميز هاتان الوظيفتان بعضهما عن بعض في العصور التالية. ويجدر أن نذكر بهذه المناسبة أن معظم الحكام أو الملوك اللذين وردت أسماؤهم في أثبات الملوك مسبوقة بالمقطع «أين» (En) يرجح أن ذلك لقباً وليس جزءاً من الاسم.

(2) «أوتو»، هو الاسم السومري للإله شمش. ولقب «أين»، كما سيأتي شرحه في موضع آخر، كان في الأطوار القديمة من عصر فجر السلالات والعصر الشبيه بالكتابي ذا صفة مزدوجة، فكان الكاهن الأعلى للمعبد والحاكم في الوقت نفسه قبل أن تتميز هاتان الوظيفتان بعضهما عن بعض في العصور التالية. ويجدر أن نذكر بهذه المناسبة أن معظم الحكام أو الملوك اللذين وردت أسماؤهم في أثبات الملوك مسبوقة بالمقطع «أين» (En) يرجح أن ذلك لقباً وليس جزءاً من الاسم.

(3) في ترجمة الأستاذ كرامر لأثبات الملوك ترد من بعد اسم جلجامش عبارة «أبوه كان بدوياً» مع الاستفهام (Kramer, *The Sumerians*, 1963, 328ff.).

8 ـ لباشر (Labasher) حكم 9 أعوام.

9 ـ اين ـ نندار ـ أنّا (Ennundarnna) حكم 8 أعوام.

10 ـ مشيدي (Meshede) حكم 36 عاماً.

11 ـ ميلام ـ أنّا (Melamanna) حكم 6 أعوام.

12 ـ لوگال ـ كيدو (Lugalkidu) حكم 36 عاماً.

المجموع 12 ملكاً حكموا 2310 أعوام.

دحرت أوروك في الحرب ونقلت ملوكيتها إلى «أور» وفي «أور» حكم:

1 ـ ميسانيبدا (Mesannepadda) 80 عاماً.

2 ـ ميسكياگنّنّا (Mesdkiagnunna)[1] ابن ميسانيبدا 36 عاماً.

3 ـ ايلولو (Elulu) 25 عاماً.

4 ـ بالولو (Balulu) 36 عاماً.

المجموع أربعة ملوك حكموا 177 عاماً. دحرت «أور» ونقلت ملوكيتها إلى «أوان» وفي أوان حكم ثلاثة ملوك 356 عاماً[2]. دحرت «أوان»، ونقلت ملوكيتها إلى كيش، وفي كيش حكم:

1 ـ .... (210) سنة.

2 ـ داداسِگ (Dadasig).......

3 ـ ماماگال (Mamagal) 420.

4 ـ كلبُم ابن «ماماگال»، 132.

---

(1) المعروف من المصادر المدونة الأخرى أن ابن «ميسانيبدا» الذي خلفه في الحكم كان «آنيبدا»، ولعل مسكياگننا كان الابن الأكبر.

(2) أسماء هؤلاء الملوك مشوهة لا يمكن قراءتها.

5 ـ توگي (Tuge) 360.

6 ـ مينُنَّا (Menunna) 180.

7 ـ لوگال مو (Lugalmu) 420.

8 ـ ابي ـ أيا (Ibbi-Ea) 290 (؟).

المجموع 8 ملوك، حكموا 3195 عاماً.

دحرت كيش ونقلت ملوكيتها إلى «حمازي» أو (خمازي)، وحكم في حمازي «هدانش» (Hadanish). المجموع، ملك واحد، حكم 360سنة. دحرت حمازي ونقلت ملوكيتها إلى «أوروك». وفي أوروك حكم:

1 ـ .... 60.

2 ـ لوگال أوري (Lugalure) 120.

3 ـ أرگنديا (Argndea) 7.

المجموع ثلاثة ملوك .... دحرت أوروك ونقلت ملوكيتها إلى «أور»....... ثلاثة ملوك حكموا 116 عاماً[1]. دحرت أور ونقلت ملوكيتها إلى «أدب»، وفيها حكم «لوگال آنيموندو» (Lugalannemundu) 90 عاماً. دحرت أدب ونقلت ملوكيتها إلى ماري وفيها حكم:

1 ـ ايلشو (Ilshu) 30.

2 ـ .... ابن «ايلشو» 17.

3 ـ .... 30.

4 ـ .... 20.

5 ـ .... 30.

---

(1) أسماء هؤلاء الملوك مخرومة. وهذه هي سلالة أور الثانية.

9 ـ ...... 9.

المجموع 6 ملوك حكموا 136 سنة. دحرت ماري، ونقلت ملوكيتها إلى كيش. وفي كيش حكمت «كوباو» (كوبابا) صاحبة الحانة 100 سنة، وقد عملت على توطيد أسس كيش. ملكة واحدة حكمت 100 سنة. دحرت كيش ونقلت ملوكيتها إلى «أكشك» (Akshak). وفي أكشك حكم:

1 ـ أونزي (Unzi) 30 سنة.

2 ـ أوندالولو (Undalulu) 12.

3 ـ أورورو[1] (Ururu) 6.

4 ـ بوزر ـ نيراب (Puzur-nirab) 20.

5 ـ ايشو ـ ايل (Ishu-il) 24.

6 ـ شو ـ سين (Shu-sin) ابن «ايشو ـ ايل» 7.

المجموع ستة ملوك حكموا 99 سنة. دحرت «أكشك»، ونقلت ملوكيتها إلى كيش، وفي كيش حكم:

1 ـ بوزر ـ سين (Puzuz-Sin)، ابن «كوباو» (كوبابا)، 25.

2 ـ أور ـ زبابا (Ur-Zababa)، ابن «بوزر- سين» 40.

3 ـ سيمو درا (Simudarra) 30.

4 ـ أوسيواتر (Usiwater) ابن «سيموادرا»، 7.

5 ـ عشتار ـ موتي (Ishtar-muti) 11.

6 ـ يشمع ـ شمش (Ishme-Shamash) 11.

7 ـ نانيًّا (Nannia)، ناحت الأحجار 7.

---

(1) لعله القراءة الصحيحة «زوزو».

المجموع سبعة ملوك حكموا 491 سنة. دحرت كيش ونقلت ملوكيتها إلى «أوروك»، حكم في «أوروك» «لوگال زاكيزي» (Lugalzagesi) 25 عاماً. دحرت أوروك ونقلت ملوكيتها إلى «آگد» (اگادة Agade) وفيها حكم:

1 ـ سرجون (Sharru-kin). كان أبوه بستانياً. وصار ساقياً للملك «أور ـ زبابا». شيّد «أگاده»، وحكم 56 سنة.

2 ـ رموش (Rimush)، ابن سرجون، 9.

3 ـ مانشتوسو (Manishtusu) أخو رموش الأكبر، وابن سرجون، حكم 15 سنة.

4 ـ نرام ـ سين (Naram-Sin)، ابن مانشتوسو، 56.

5 ـ شار كالي شري (Sharkalisharri)، ابن نرام ـ سين25.

«من كان الملك ومن كان غير الملك؟».

6 ـ ايكيكي (Igigi).

7 ـ نانم (Nanum).

8 ـ ايمي (Imi).

9ـ ايلولو (Elulu). أربعتهم كانوا ملوكاً ولكن حكموا 3 سنوات.

10 ـ دودو (Dudu) 21.

11 ـ شو ـ دوررول (Shudurul)، ابن «دودو» 15.

المجموع 11 ملكاً حكموا 197 سنة. دحرت أگاده ونقلت ملوكيتها إلى «أوروك» وفيها حكم:

1 ـ أور ـ نگن (Urnigin) 7.

2 ـ أور ـ گيگر (Urgigir)، ابن أور ـ نگن 6.

3 ـ كُدا (Kudda) 6.

4 ـ بوزر ـ ايلي (Puzur-ili) 5.

5 ـ أور ـ أوتو (Ur-utu) 6.

المجموع خمسة ملوك حكموا 30 سنة. دحرت «أوروك»، ونقلت ملوكيتها إلى جموع الكوتيين:

1 ـ امتا 3.

2 ـ انكيشيد 6.

3 ـ سر ـ لگاب 6.

4 ـ شُلمي 6.

5 ـ ايلولومش 6.

6 ـ أينميباكش 5.

7 ـ ايگيشوش 6.

8 ـ . . . . 2.

9 ـ ارارم 2.

10 ـ خبلم 2.

11 ـ بوز ـ سين ابن خبلم 7.

12 ـ ايار ـ لگب 7.

المجموع 12 ملكاً، حكموا 91 سنة. دحر الكوتيون ونقلت ملوكيتهم إلى أوروك. وفي أوروك حكم «أوتو ـ حيگال» (Utu-khegal) 7 سنوات و6 أشهر و15 يوماً.

دحرت «أوروك» ونقلت ملوكيتها إلى «أور».

ثم يبدأ حكم سلالة أور الثالثة وملوكها ويعقبها سلالة «ايسن» حيث تنتهي أثبات الملوك بنهاية ملوك هذه السلالة. حول أسماء ملوك هاتين السلالتين انظر الجداول الملحقة بالفصل الخاص بالعصر البابلي القديم.

نص «تمّال»:

سبق أن ذكرنا أن ما يعرف باسم نص تمال (Tummal inscription) يعد من بين المصادر الكتابية المهمة لمعرفتنا بعدد من حكام عصر فجر السلالات وأزمان حكم بعضهم بالنسبة إلى البعض الآخر. وقد دون هذا النص على لوح من الطين وجدت منه نسخة في نفر من العصر البابلي القديم (مطلع الألف الثاني ق.م)، وهو يسجل أسماء الحكام أو الملوك الذين قاموا بتجديد المعبد المسمى «تمال» أو المعبد الواقع في حارة تمال المقدسة في نفر، وقد خصص للإلهة «ننليل»، زوجة الإله «أنليل»[1]:

الأسطر:

1 ـ 3: «اينميراگيسي»، الملك، شيد في مدينة نفر بيت أنليل.

3 ـ 5: «أگا ابن اينميبراكيسي» أعلى شأن «تمال»، وجلب (الإلهة) ننليل إليه.

6 ـ 7: «ثم تخرب تمال لأول مرة، فشيد «ميسانيبدا» «برشوشا» العائد إلى معبد أنليل».

---

(1) يتألف النص المعروف بكتابة «تمال» من نحو 34 سطراً، وكانت الأسطر العشرة الأولى مفقودة ولكنها اكتشفت في عام 1955. أما النص الناقص فقد كان معروفاً وقد نشره الباحث المشهور «بوبل» (Poebel) في كتابه المعنون: نصوص تأريخية (Historical Texts)، وهو المجلد الرابع من نشرات جامعة بنسلفانية الأمريكية. ونشر النص حديثاً، انظر:

Sollberger, «The Tummal Inscription» in *JCS*, (1962).

Kramer, *The Sumerians*, (1963), 46ff.

8 ـ 10: «مسكياگننا، ابن «ميسانيبدا» أعلى شأن «تمال» وجلب ننليل إليه».

11 ـ 12: «تخرب تمال للمرة الثانية، فشيد جلجامش» نومنبرا (Numun-burra) العائد إلى معبد «أنليل».

13 ـ 15: «أور ـ لوگال، ابن جلجامش أعلى شأن تمال وجلب ننليل إليه».

19 ـ 17: «وللمرة الثالثة تخرب «تمال»، فعمر نانًّا (Nanna) البستان المقدسة العائدة إلى معبد أنليل».

18 ـ 20: «مسكياگننا» ابن «نانا» أعلى شأن «تمال» وجلب إليه ننليل.

21 ـ 25: «وللمرة الرابعة تخرب «تمال» فشيد «أور ـ نمو» معبد «أي ـ گور»، وشولگي ابن أور ـ نمو أعلى شأن تمال وجلب ننليل إليه».

26 ـ 34: «وللمرة الخامسة تخرب «تمال» في السنة التي حكم «أمار ـ سين» إلى حكم «ابي ـ سين». اينام گال أنًّا بصفته «أين» En للإلهة أنانا في أوروك، جلب ننليل إلى تمال. وبحسب قول «لو ـ أنانًّا» الكاهن الأعلى (Ashgab-gal) للإله «أنليل»، شيد «اشبي ـ ايرا» مخزن معبد الإله «أنليل» المسمى «أي ـ كورا ـ ايكيكلا» (Ekurraigigalla)».

السلالات الحاكمة في عصر السلالات:

بعد أن أوردنا ترجمة أثبات الملوك السومرية ونص «تُمَّال» نوجز ما نعرفه عن دول المدن وحكامها في عصر فجر السلالات على ضوء هذين النصين والنصوص المعاصرة القليلة التي وصلت إلينا من هذا العصر:

ملوك ما قبل الطوفان وحقيقة هذا الطوفان:

لعل أول ما يلفت النظر في أثبات الملوك السومرية أنها تبدأ بالقول إن «الملوكية هبطت من السماء» وحلت في خمس مدن بصورة متعاقبة وحكم

فيها ثمانية ملوك خصصت لعهود حكمهم أرقام عالية خارجة عن مدى الأعمار البشرية الطبيعية، تناهز ربع مليون عام (أي 241000 عام)، كما خصصت لحكم كل منهم رقماً خيالياً يذكرنا بالأعمار الطويلة المخصصة لآدم وأحفاده والأنبياء القدامى في التوراة. وإن عبارة «هبطت الملوكية من السماء» التي تبدأ بها هذه الأثبات ذات دلالة مهمة على عقيدة القوم بأصل نظام الحكم، مما سبق أن نوَّهنا به في فصل المقدمة الجغرافية وسنفصل القول فيها في كلامنا عن نظام الحكم والديانة في الجزء الثاني من كتابنا، أما الآن فنقتصر على إيجاز خلاصتها في أن الآلهة هي التي تحكم الكون والبشر، وأن نظام الحكم والملوكية وشاراتها كان عند الآلهة في السماء؛ ولكي تحكم الأرض والناس فإنها تنتدب أو تفوض نواباً عنها تصطفيهم من بين البشر ليكونوا نواباً عنها في حكم البشر. وهذه نظرية أساسية عند القوم في أصل نظام الحكم في وادي الرافدين يقف عليها الفاحص لمآثر هذه الحضارة في مختلف أوجهها ومقوماتها. ولعل أوضح تعبير عن هذه النظرية ما نجده في مقدمات الشرائع التي يتجلى فيها تسلسل التفويض الإلهي من كبار الآلهة إلى إله المدينة التي أصدر ملكها الشريعة ثم تفويض هذا الإله بدوره ملك هذه المدينة ليحكم الناس بالنيابة. كما أن جعل «أريدو» أول مركز حلّت فيه الملوكية في عهود قبل الطوفان ذو مغزى حضاري مهم. فقد سبق أن رأينا في تتبعنا لأدوار حضارة وادي الرافدين في عصور ما قبل التأريخ كيف أن أقدم معالم للاستيطان في السهل الرسوبي قد عثر على بقاياها في «أريدو»، في الدور الذي أطلق عليه دور «أريدو»، أو كما سميناه «دور العبيد الأول» في حدود منتصف الألف الخامس ق.م. ولعله يمكن الاستنتاج بهذا الصدد أن القسم الأول من أثبات الملوك قد وضع من جانب كهنة «أريدو» وكتبتها.

ثم تذكر تلك الأثبات أن الملوكية انتقلت من أريدو إلى المدينة المسماة «باد ـ تبيرا» التي أصبح تعيينها بالبقايا الأثرية المسماة «تل المدينة» من الأمور

الأكيدة تقريباً[1]؛ وخصصت أثبات الملوك لهذه المدينة ثلاثة ملوك مجموع سني حكمهم (108000) عام، آخرهم «دموزي» الملقب بالراعي، ولا يعلم هل أن «دموزي» هذا هو الإله الشهير «تموز» أو أنه إنسان كان راعياً.

انتقلت الملوكية من «باد ـ تبيرا» السالفة الذكر إلى المدينة المسماة «لرك» التي يحتمل أن بقاياها ما يسمى الآن تل الولاية[2]، ثم انتقل الحكم منها إلى مدينة «سبار»[3] الشهيرة في تأريخ حضارة وادي الرافدين، وهي من مدن بلاد آكد، ولكن الغريب في الأمر أن هذه المدينة لم يقم لها شأن سياسي بين السلالات التي حكمت من بعد الطوفان، أي في عصر فجر السلالات. وأخيراً انتقلت الملوكية إلى مدينة «شروپاك» (تل فارة الآن) وحكم فيها ملك واحد اسمه «أوبار ـ توتو». والجدير بالملاحظة أن هذا الملك ورد في خبر الطوفان بحسب رواية ملحمة جلجامش بصفته جد بطل الطوفان «أوتو ـ نبشم» أو أباه، وكان موطن هذا البطل في هذه المدينة أيضاً. وننهي هذه الملاحظات

---

(1) يقع تل المدينة بنحو 45كم شمال شرقي الوركاء وزهاء 32كم جنوب غربي بلدة الشطرة. وقد اشتهرت مدينة «باد ـ تبيرا» في عهد سلالة لجش (عصر فجر السلالات الثالث). وقد شيّد فيها معبد للإلهة «أنانا» (عشتار) عرف باسم «اي ـ مش» (è-mush) وعبد فيه قرينها الإله «دموزي» (تموز) الذي لقب لذلك بـ (Lugal é-mush). وقد يرد اسم هذا المعبد بهيئة (é-mush-kalama) حول تعيين «باد تبيرا» بتل المدينة انظر:
Vaughn Crawford in *IRAQ*, XXII (1960), 197ff.

(2) تل الولاية يقع في منطقة ناحية الحسينية (لواء الكوت) في الأراضي المسماة سابقاً أراضي أمير ربيعة. انظر مجلة «سومر»، المجلد 15، (1959)، ص 51 فما بعد.

(3) تعرف بقايا مدينة سبار باسم تل «أبو حبة» (على بعد نحو 20 ميلاً جنوب غربي بغداد) وقد سبق أن ذكرناها في أكثر من موضع واحد ولا سيما في أثناء كلامنا عن تأريخ التنقيبات، حيث كانت من المواضع التي تناولتها التحريات القديمة، مثل تحريات «هرمز رسام» عن المتحف البريطاني (1881ـ1882) والأب «شايل» (Scheil) (1894) و«أندريه» و«يوردان» (1927)، واشتهرت سبار بكونها إحدى مراكز عبادة الإله الشمس «شمش»، حيث معبده فيها المسمى «اي ـ ببار» (è-babbar) وعبدت فيه معه زوجته المسماة «آي». حول التحريات في هذه المدينة انظر: Parrot, *AM*, I, 10ff.

الموجزة عن ملوك ما قبل الطوفان في التنويه بأن تلك المدن الخمس التي خصصت لملوك ذلك العهد البعيد ورد ذكرها أيضاً في إحدى الأساطير السومرية[1] بكونها أولى مدن أسستها الآلهة من بعد خلق الإنسان، وأضيفت إليها في نص آخر متأخر لهذه الأسطورة مدينة «نفر» و«أوروك» (الوركاء) ومدينة بابل.

الطوفان:

إذا رجعنا إلى نص أثبات الملوك الذي أوردنا ترجمته وجدناه يروي أن الطوفان جرف البلاد من بعد حكم مدينة «شروباك». وهذه أول إشارة كتابية يرد فيها ذكر الطوفان، وأنه كان حدثاً بلغ من عظم الأثر والجسامة عند سكان وادي الرافدين بحيث أن جامعي أثبات السلالات ومؤلفي القصص والأساطير جعلوه حداً فاصلاً بين عهدين متميزين في تأريخ البلاد، عهد ما قبل الطوفان وعهد ما بعد الطوفان، أي لعله يضاهي ما تواضع عليه المؤرخون المحدثون من تقسيم التأريخ البشري العام إلى العصور القديمة والعصور الحديثة. وهنا تتوارد إلى الذهن تساؤلات كثيرة: ترى هل كان هذا الطوفان المذكور في أثبات الملوك وفي القصص والأساطير حدثاً تأريخياً واقعياً ومتى وقع؟ وهل كان طوفاناً واحداً أو عدة طوفانات تكرر حدوثها فاختير أشدها وأعنفها ليكون حداً فاصلاً بين عهدين من تأريخ البلاد؟ وهل أن الطوفان المذكور في أثبات الملوك هو نفسه الوارد في ملحمة جلجامش والقصص الأخرى المماثلة؟ ثم هل وجدت في أثناء التحريات التي أجريت في مدن العراق القديمة آثار أو إمارات على طوفان أو طوفانات؟ وهل أن هذا الطوفان الذي اشتهر في حضارة وادي الرافدين هو الطوفان المذكور في الكتب المقدسة ولا سيما التوراة؟

إن مثل هذه التساؤلات وغيرها لا يمكن الإجابة عليها إجابة واحدة

---

(1) انظر ترجمة الأسطورة في:

Kramer, *The Sumerian Mythology* (1944), p. 97.

قاطعة بل هناك عدة احتمالات قد يكون أحدها أقرب إلى الحقيقة. على أننا نستطيع أن نقول بشيء من التأكيد إن الطوفان المذكور في أثبات الملوك السومرية وفي ملحمة جلجامش وغيرها من قصص الطوفان السومرية والبابلية كان طوفاناً واحداً، وإنه كان حدثاً تأريخياً واقعياً حدث في طيات الماضي البعيد، وكان كما قلنا قد بلغ من عظم الأثر بحيث إنه جعل موضوع تلك القصص لما خلفه من آثار بليغة في ذاكرة الأجيال المتعاقبة، وإنه اختير من بين الطوفانات الكثيرة التي تعرض إليها السهل الرسوبي وما زال يتعرض إليها منذ أبعد العصور.

أما زمن هذا الطوفان ولا سيما الطوفان الوارد في أثبات الملوك وفي ملحمة جلجامش والذي رجحنا أن يكون طوفاناً واحداً فلا يمكن تحديده بالنسبة إلى الأدوار التأريخية المعروفة في حضارة وادي الرافدين، ولكننا إذا أخذنا بالافتراض القائل إن سلالة كيش الأولى التي حكمت من بعد الطوفان مباشرة يقع زمنها في عصر فجر السلالات الثاني ولا سيما الأطوار الأولى منه وإن زمن جلجامش في بداية الطور الثالث من هذا العصر فأقرب الاحتمالات أن ذلك الطوفان حدث ما بين دور جمدة نصر وبين عصر فجر السلالات الأول، ولعل من آثار هذا الطوفان ما وجد من ترسبات غرينية في جملة مواضع أثرية جرى التنقيب فيها مثل كيش والوركاء وشروباك (تل فارة) ولجش، وهي تفصل ما بين الطبقات العائدة إلى دور جمدة نصر وبين عصر فجر السلالات الأول[1]. وذهب الباحث المعروف المرحوم «وولي» (Woolley)، الذي نقب في أور، إلى أن الطوفان المأثور وقع في زمن ما من دور العبيد (في حدود 4000ق.م)، أي قبل الزمن الذي افترضناه بأكثر من ألف عام، مستنداً في رأيه هذا إلى ما وجده من آثار ترسبات غرينية في أور من دور العبيد، بلغ ثخنها زهاء (11) قدماً، وقد عثر عليها في موضع قريب

---

(1) حول هذه الاحتمالات وغيرها راجع أحدث الآراء في المرجع الآتي:
CAH, I, part 2, (1971), 272ff.

من المقبرة الملكية، ولكن لم يعثر على بقايا مماثلة من هذا الدور في المواضع الأخرى مثل «أريدو» القريبة من أور.

ويكاد الإجماع ينعقد بين الباحثين أن خبر الطوفان الوارد في الكتب المقدسة ولا سيما التوراة هو الطوفان الوارد في مآثر حضارة وادي الرافدين نفسه[1].

ويرى بعض الباحثين أننا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن رواية الطوفان في مآثر حضارة وادي الرافدين ولا سيما في ملحمة جلجامش وفي التوراة تجعل المصدر الرئيسي لهذا الطوفان الأمطار الجسيمة، فلعله يمكن الافتراض أن زمن ذلك الطوفان يرجع إلى عصور ما قبل التأريخ البعيدة، وعلى وجه التحديد إلى العصر الحجري القديم أو أواخر هذا العصر، أي إلى العصر الجليدي الرابع حيث كان يقابل هذا العصر، عصر ممطر في أقطار الشرق الأدنى مما أوجزناه في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ[2]. وخلاصة القول إن معرفتنا الراهنة لا تمكننا من الجزم برأي قريب من الواقع، ولعل التحريات المقبلة ستكشف لنا ما يلقي ضوءاً أكثر في سبيل حل هذه القضية.

سلالات ما بعد الطوفان:

1 ـ سلالة كيش الأولى:

بعد تلك الملاحظات التي بيناها عن سلالات ما قبل الطوفان نتابع تحليلنا لأثبات الملوك وربط ما جاء فيها عن السلالات التي حكمت من بعد

---

(1) انظر:

A. Heidel, *Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels,* (1949).

وكذلك طه باقر في مجلة سومر (1951)، والبحث المنشور في مجموعة بحوث المؤتمر السابع للمستشرقين من جماعة «ثورو دانجان» (باريس 1958) 1960 بعنوان:

M. David, *Le Recit du Déluge et L'Epopee de Gilgamesh.*

(2) انظر:

G. Roux, *Ancient Iraq,* (Pelican Book, 1966), p. 110.

الطوفان بما لدينا من المصادر التأريخية الأخرى. ونبدأ بسلالة «كيش» التي كانت أولى السلالات من بعد الطوفان بحسب تلك الأثبات، حيث تخصص لها 23 ملكاً أو 22 ملكاً إذا أسقطنا من حسابنا اسم الملك الثاني من ملوك هذه السلالة باعتبار أن هذا كما قلنا ليس اسم ملك بل عبارة سومرية تعني أن الاسم «مخروم» والعلم عند «الإلهة» ندابا. وإذا غضضنا النظر عن سني هؤلاء الملوك المبالغ في أطوالها مبالغة فوق المعقول، فإن حقائق أخرى مهمة تبدو واضحة من تحليلنا لأسماء هؤلاء الملوك. فأولاً إن مصادر مدونة أخرى سنشير إليها تثبت أن البعض من هؤلاء الملوك كانوا شخصيات تأريخية وأنهم حكموا في الواقع في حدود الطور الثاني من عصر فجر السلالات، وهو العهد الذي خصصه البحث الحديث إلى زمن سلالة كيش الأولى هذه، وأن سلالة الوركاء التي أعقبتها في تلك الأثبات كانت في الواقع معاصرة لها بصورة جزئية.

وهناك أمر ثانٍ ذو أهمية تأريخية خاصة في نسبة جامعي تلك الأثبات السلالة الأولى التي حكمت من بعد الطوفان إلى مدينة تقع في بلاد «آكد» وليس في بلاد «سومر»[1]، وبعبارة أخرى إلى منطقة الساميين. وإلى هذا فإن أسماء ما لا يقل عن اثني عشر ملكاً من ملوك هذه السلالة البالغ عددهم 22 أو 23 ملكاً، أسماء سامية الأصل والاشتقاق أو أنها ألقاب سامية. أما الأسماء الباقية فستة منها أسماء سومرية وأسماء الأربعة الباقين من أصل لا يعلم اشتقاقه اللغوي، ولعلهم من القوم المجهولين غير الساميين ولا السومريين الذين نوَّهنا بهم في القسم الخاص بسكان العراق القدماء (الفصل الأول). ولعل أول ما يستنتج من هذه الحقائق المستقاة من أثبات الملوك ظاهرة الاختلاط العنصري أو القومي بين سكان وادي الرافدين القدماء منذ أقدم عصور التأريخ، الأمر الذي يقدم لنا عكس الصورة التي ارتآها الباحثون القدماء في افتراضهم الصراع والاحتراب الدائمين ما بين الساميين وبين

(1) راجع المقدمة الجغرافية (الفصل الأول) حول تحديد هذين القسمين من السهل الرسوبي.

السومريين[1]. والأمر الآخر الذي تجدر ملاحظته عن هذه السلالة ما سبق أن نوَّهنا به من أن جعل كيش مركز أولى سلالة ملوكية أو سلالة حاكمة من بعد الطوفان قد يفسر لنا الحقيقة التأريخية في أن عدة ملوك قدامى قد اتخذوا لقب «ملك كيش» إشارة إلى اتساع سلطانهم السياسي في البلاد، وتطور مدلول هذا اللقب في العصور المتأخرة ولا سيما لدى الملوك الآشوريين إلى معنى «ملك العالم» (Shar-kishshati).

ونقرأ إزاء اسم الملك الثالث عشر من سلالة كيش الأولى المسمى «إيتانا» ملاحظة طريفة عن هذا الملك هي أنه كان راعياً وأنه عرج إلى السماء ووطد جميع البلاد. ولعل الشق الثاني من هذه العبارة يشير إلى شيء من الحقيقة التأريخية عن اتساع حكم هذا الملك. أما عن عروجه إلى السماء فتوجد أسطورة طريفة وصلت إلينا وهي مدونة باللغة البابلية[2] تروي صعود هذا الملك على ظهر نسر إلى السماء لجلب نبات خاص بحمل النساء لأن امرأته كانت عاقراً. ومع أن اللوح المدونة فيه هذه الأسطورة غير كامل فلا يعلم على وجه التأكيد هل حقق الملك «ايتانا» مطلبه، بيد أن حقيقة ما جاء في أثبات الملوك بجعل الملك الذي خلفه وهو المسمى «باليخ»، ابن ايتانا تشير إلى نجاحه في مسعاه. وغدت هذه الأسطورة من المواضيع المحببة الشائعة عند صانعي الأختام الإسطوانية حيث ينقش فيها مشهد شخص يطير إلى السماء على ظهر نسر. ونجد ما يضاهيها في الأسطورة اليونانية والفن الكلاسيكي في أخذ الإله اليوناني «زيوس» للشاب الجميل «گانيميده» (Ganymede) على ظهر

---

(1) راجع فصل المقدمة الخاص بسكان العراق القديم، حيث الإشارة إلى أن الأستاذ «ياكبسون» (Jacobsen) كان أول من تصدى لتفنيد هذا الرأي. أما الأسماء السامية في ملوك سلالة كيش الأولى فهم الملوك المرقمة أسماؤهم بالترتيب 3، 4، 6، 7، 9، 12، 13، 14، 19، 20، 21. راجع حول الموضوع:

A. Goetze in *JCS*, XV, (1961), 105ff.

(2) سترد ترجمة هذه الأسطورة في الفصل الخاص بأدب حضارة وادي الرافدين، فيكفي أن ننوّه بأنها جاءتنا في كسرتين من العهد البابلي القديم وكسرة من العهد الآشوري. انظر ترجمتها في: Speiser, in *ANET*.

نسر إلى السماء ليكون ساقياً له. وهناك أسطورة أخرى خاصة بايتانا في لوح موجود الآن في متحف «بوشكين» (في روسية)، وقد ترجم حديثاً وهي تدور على نزول «ايتانا» إلى العالم الأسفل[1].

أما بقية أسماء ملوك هذه السلالة فلا نعرف عنهم شيئاً آخر سوى ذكرهم في أثبات الملوك إلى أن نأتي إلى الملكين الأخيرين فيها، أي الملك الثاني والعشرين والثالث والعشرين المسمى أولهما «اينميبراكيسي» والثاني ابنه «أكا» (Agga) حيث ذكرت تلك الأثبات عن الأول منهما أنه قهر بلاد عيلام. وقد ثبتت حقيقة هذا الملك التأريخية وتحديد زمن حكمه من نص مدون وجد في خفاجى (توتب القديمة في منطقة ديالى) في طبقة أثرية تعود في زمنها إلى الطور الثاني من عصر فجر السلالات الثاني. ورغم قصر هذا النص فإنه على قدر كبير من الأهمية لأنه، كما قلنا، يؤيد حقيقة هذا الملك التأريخية كما يعين الزمن الذي حكم فيه، فهو يذكر اسمه ولقبه بصفته ملك كيش[2]. وإلى جانب هذا النص المهم يعيننا النص الذي ذكرناه بعنوان كتابة «تمال» وأوردنا ترجمته، في إثبات أن الملك «اينميبراكيسي» وابنه «أكا» كانا أول ملكين شيّدا معبد الإلهة «ننليل» في الحارة المقدسة «تمال» في نفر. إن هذه الإشارة التأريخية المهمة تجعل هذين الملكين الأخيرين من سلالة كيش الأولى متعاصرين مع الملوك الأربعة الأوائل من سلالة الوركاء الأولى التي أعقبت سلالة كيش في الحكم بحسب تلك الأثبات، وأشهرهم الملك الخامس «جلجامش» وابنه «أور ـ ننكال» اللذان يذكرهما نص «تمال» السالف الذكر من

(1) انظر: Kramer, *The Sumerians*, (1963), p. 44.

(2) وجد هذا النص حديثاً (1959) على كسرة إناء من حجر الرخام في المتحف العراقي (رقم سجلها 30590)، وهو يطابق النص القصير الذي وجد في خفاجى. أما نص المتحف العراقي فيذكر اسم هذا الملك بهيئة (Me-Barag-si Lugal Kish). بدون أن يذكر المقطع «اين» في أول الاسم، لأنه على ما يرجح لقب وليس جزءاً من الاسم كما نوَّهنا بذلك في ملاحظتنا عن بعض الأسماء الواردة في أثبات الملوك المبتدأة بمقطع (En). راجع ترجمة النص والتعليق عليه في:

Edzard, in ZA, (1959), 9ff. ; *SUMER*, (1959), 2ff.

بين الملوك الذين جددوا بناء ذلك المعبد للمرة الثالثة. وجدد هذا البناء، بحسب ذلك النص، «ميسانيبدا» الذي هو بلا شك مؤسس سلالة أور الأولى. فيستنتج من ذلك أن هذا الملك كان معاصراً أيضاً لجلجامش بعض الزمن. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار القصة الملحمية القصيرة التي تدور على النزاع والحرب ما بين «جلجامش»، خامس ملوك الوركاء وبين «أگا»، آخر ملوك كيش على أن ما جاء فيها له نصيب من الحقيقة التأريخية، فإن هذا يضيف إلى معرفتنا حقيقة أخرى مهمة عن تعاصر أواخر ملوك كيش مع أوائل ملوك سلالة الوركاء الأولى؛ وتصور لنا هذه القصة الطريفة[1]، التي تنتهي على ما يبدو بالمصالحة ما بين «جلجامش» و«أگاد»، جانباً مما كان يسود عصر دول المدن (عصر السلالات) من النزاع والاحتراب بين السلالات الحاكمة.

ميسلم:

قبل أن نورد ما نعرفه من ملاحظات على سلالة الوركاء الأولى التي تلت سلالة كيش بحسب أثبات الملوك، نذكر بعض الأمور الموضحة عن ملك مهم لم يرد ذكره في هذه الأثبات، ولكن جاءت عنه أشياء تأريخية مهمة في مصادر أخرى، ونعني به الملك الشهير «ميسلم» الذي يرجح أنه حكم القطر كله أو في مدينة ما، وأن زمنه يقع في عصر السلالات الثاني. ويقرأ بعض الباحثين اسمه بهيئة «ميسالم»، ويضع الباحثون ولا سيما الألمان منهم زمنه في الطور الثاني من عصر فجر السلالات حتى أنهم يطلقون على هذا الطور اسم «عصر ميسلم»، على أن باحثين آخرين يرجعون عهده إلى الطور الثالث من ذلك العصر، وأنه حكم من بعد «أگا» بقليل، قبيل زمن ألواح «فارة». ومن الباحثين من يطابقه بمؤسس سلالة أور الأولى «ميسانيبدا»، وأنه كان ملكاً على كيش وأور. ولعل تخصيص زمن هذا الملك في فترة ما من عصر السلالات

---

(1) راجع ترجمة القصة والتعليق عليها في:

Kramer in *American Journal of Archaeology*, vol. LIII.

Kramer, *From the Tablets of Sumer*, (1956).

وترجمة الكتاب الثاني من جانب مؤلف هذا الكتاب بعنوان: «من ألواح سومر» (1958).

الثاني أقرب إلى الحقيقة بدلالة الإشارات القديمة إليه من جانب حكام سلالة «لجش» الأوائل الذين حكموا عصر فجر السلالات الثالث. وأهم إشارة تأريخية إلى «ميسلم» هي التي وردت في نصوص «انتيمينا» حاكم مدينة «لجش» في نصه التأريخي الشهير الذي يدون أخبار النزاع والحرب ما بين مدينته «لجش» وبين المدينة المجاورة «اوما»، حيث كان الحكم في ذلك النزاع «ميسلم» الذي حكم قبل «انتيمينا» بعدة أجيال، وأنه هو الذي حدد الحدود ما بين الدولتين المتحاربتين، ويذكره بلقب ملك كيش[1]، وأن إلهه الحامي كان الإله المسمى «ستران» (Sataran) المعروف أن أحد مراكز عبادته كان في مدينة «دير» (دور ـ أيلو، وهي الأطلال المعروفة الآن بتلول العقر قرب بلدة بدرة). وتشير الكتابات القصيرة التي جاءت إلينا من الملك «ميسلم» إلى امتداد سلطانه السياسي ولا سيما ما وجد في مدينتي لجش و«أدب» اللتين كان حاكماهما تابعين له؛ ومن الباحثين من يرى أن اسم هذا الملك كان اسماً سامياً.

وهناك احتمال طريف عن الملك «ميسلم» هو أن اسمه ورد في الجزء المخروم من أثبات الملوك السومرية في سلالة كيش الأولى، أي إنه كان ثاني ملك من ملوك تلك السلالة. أما الإشارة إليه في نص «انتيمينا» على أنه ملك «كيش» فيمكن تفسيره بأمرين، أولهما أنه كان ملك كيش في الواقع ولكن سقط اسمه في أثبات الملوك كما ذكرنا، أو أن هذا لقب يشير إلى امتداد سلطانه جرياً على العرف السياسي الذي سار عليه حكام عصر السلالات حين يبسطون نفوذهم على مدن أخرى، كما نوَّهنا بذلك من قبل.

2 ـ سلالة الوركاء الأولى:

بينا في كلامنا على سلالة كيش الأولى تعاصر أواخر ملوكها ولا سيما الملك المسمى «اينميبراگيسي» وابنه «أكا» مع أوائل سلالة الوركاء الأولى. وعلى وجه التخصيص مع «جلجامش» وابنه «أور ـ ننكال» بحسب دلالة نص

---

(1) حول نص «انتيمينا» راجع:

Gadd, *Sumerian Reading Book,* (1924).

وكذلك: Thureau - Dangin, *SAK.*

«تمال». أما مؤسس سلالة الوركاء فكان بحسب تلك الأثبات «مسكيگاشر»، الذي وردت بجانب اسمه ملاحظة أنه كان ابن الإله الشمس «أوتو»، وأنه حكم بصفته «أين» (En) ثم بصفته ملكاً، وذهب إلى البحر وارتقى الجبال. وباستثناء هذه الملاحظة لا نعرف شيئاً آخر عن هذا الملك؛ على أن تلك الملاحظة، على اقتضابها، ذات مغزى تأريخي، فهي أولاً تشير إلى أصل هذا الملك المقدس، وأن كونه حكم أولاً بصفة «أين» ثم بصفة ملك يلقي ضوءاً مهماً على أصل نظام الحكم وتطوره. فإن وظيفة الـ «أين»، كما سنعالج ذلك في موضع آخر، كانت تجمع ما بين السلطتين الدينية والزمنية، إذ كان الحاكم والكاهن الأعلى في الوقت نفسه، وأنها سبقت وظيفة الملوكية (لوگال)، ثم ظهرت وظيفة الحاكم المجرد «آنسي» (Ensi) وكذلك وظيفة الملك حيث انفصلت الوظيفتان وأصبح الـ «أين» الكاهن الأعلى فقط.

وخلف «مسكيكاشر» ابنه المسمى «اينمركار» الذي تصفه أثبات الملوك بأنه شيد مدينة الوركاء، حيث ذكر أبوه بأنه حكم في «اي ـ أنّا»، وقد سبق أن بيّنا أن «اي ـ أنا» كان أحد القسمين الرئيسين من مدينة الوركاء والقسم الثاني «كلاب» أو «كلابا». ولعل ملاحظة أثبات الملوك تشير إلى أن «اينمركار» جمع قسمي المدينة وجعل منهما مدينة كبيرة واحدة يضمها سور كبير، وسيمر بنا أن جلجامش هو الذي أقام أسوار الوركاء. وجاءتنا من العهد البابلي القديم قصص أو ملاحم قصيرة باللغة السومرية عن أعمال «أينمركار» البطولية، أشهرها القصة التي تدور على النزاع بين هذا الحاكم وبين حاكم «أراتّا» (Aratta) أحد حكام المنطقة الجبلية في الأجزاء الغربية من إيران[1]، لأن «اينمركار» كان يريد إخضاع هذا الحاكم سلماً أو حرباً لضمان الحصول على بعض المواد الأولية التي كانت تحتاج إليها مدينته الوركاء، ولا سيما بعض الأحجار الكريمة مثل حجر اللازورد، وكان إقليم «أراتا» على طرق القوافل

---

(1) راجع الفصل الخاص بالآداب في الجزء الثاني من هذا الكتاب. وتجد القصة مترجمة في:

Kramer, *The Sumerians*, (1963).

Kramer, *From the Tablets of Sumer*, (1956).

الشهيرة إلى مصادر تلك الموارد. ولعل هذه أقدم إشارة تأريخية إلى الاتصالات التجارية ما بين وادي الرافدين وبين الجهات الشرقية. ولعل «اينمركار» هو الذي ذكر في الكتابات الإغريقية بهيئة «سوخروس» (Séuechros) وأنه كان جد البطل جلجامش (جلجاموس بحسب تلك الكتابات).

ويأتي من بعد «اينمركار» في أثبات الملوك «لوگال بندا»، وقد نعت بالراعي. وجاء في ملحمة جلجامش أن أُم هذا البطل الإلهة «ننسون» وأباه الملك المؤله «لوكال بندا». وخلف لوگال بندا في حكم الوركاء «دموزي» وقد وصف بأنه كان صياداً (صائد سمك). ولا يعلم هل هذا هو الإله «تموز» الشهير. أما عن «لوگال بندا» السالف الذكر فبالإضافة إلى ذكره في ملحمة جلجامش ورد عنه بعض القصص القصيرة التي تدور على النزاع مع بلاد «أراتّا» مثل قصص الملك «اينمركار».

جلجامش:

سبق أن ذكرنا أن جلجامش كان الملك الخامس في سلالة الوركاء الأولى بحسب أثبات الملوك التي تضيف إزاء اسمه عبارة أن أباه كان «لُلَّا»، كاهن «كُلاب» (أحد قسمي مدينة الوركاء). ومما لا شك فيه أن يكون جلجامش هذا بطل الملحمة الشهيرة نفسه، وهي الملحمة التي ترجع في أصولها إلى عدة قصص سومرية، ثم ألف منها باللغة الآكدية في العصر البابلي القديم في حدود القرن (الثامن عشر ق.م)[1] تلك القصة الجميلة التي تعد

(1) راجع ترجمة مؤلف هذا الكتاب لملحمة جلجامش، الطبعة الأولى (1962) والطبعة الثانية المنقحة (1971)، وسيأتي تفصيل القول عنها في الفصل الخاص بالآداب، في الجزء الثاني من هذا الكتاب. ونورد فيما يأتي أشهر الترجمات للملحمة:

1. A. Schott, *Das Gilgamesh-Epos,* (1934, 1958).
2. A. Heidel, *Gilgamesh Epic,* (1949).
3. Speiser, in *ANET,* (1955).
4. C. Thomson, *The Gilgamesh Epic,* (1930).
5. Garelli, *Gilgamesh et Sa Legende* (1960).

حكام عصر فجر السلالات الثاني والثالث

ق.م 2800 كيش

سلالة كيش الأولى: حكم فيها 22 أو 23 ملكاً من بعد الطوفان، منهم: كلبم. قلومم. زقاقب. ايتانا، اينميراگيسي، وآخرهم «اكا» (انظر أثبات الملوك السومرية).

سلالة كيش الثانية: 8 ملوك، منهم: داداسگ و«ماما گال» (انظر أثبات الملوك).

سلالة كيش الثالثة: ملكة واحدة «كوبابا» أو «كوباو».

سلالة كيش الرابعة: 7 ملوك: بوزر ـ سين، أور ـ زبابا، سيمودار (سيمودرا)، أوسي ـ واتر، عشتار ـ موتي، يشمع ـ شمش، نانيا.

الوركاء

سلالة الوركاء الأولى: 12 ملكاً منهم: مسكيگاشر، اينمركار، لوگال بندا، دموزي، جلجامش، أور ـ ننگال، اودل ـ كلاما، ميلام ـ أنا، لوگال ـ كيدو.

سلالة الوركاء الثانية: 3 ملوك: اين ـ شاكش ـ أنا، لوگال ـ كنيشيدودو، لوگال ـ كيسالسى

سلالة الوركاء الثالثة: لوكال ـ زاكيزي، (2400 ـ 2370ق.م).

سلالة الوركاء الرابعة: خمسة ملوك (2260 ـ 2230).

انظر أثبات الملوك.

سلالة الوركاء الخامسة: أوتو ـ حيگال (2120 ـ 2114ق.م).

أور:

المقبرة الملكية: ميس ـ كلام ـ دگ، آ ـ كلام ـ دگ.

سلالة أور الأولى: مسانيبدا، آنيبدا، مسكياگننا، ايلولو، بالولو.

سلالة أور الثانية: لوگال ـ كنيشيدودو، لوگال ـ كيسالسى.

لجش: اين ـ حيگال، لوگال ـ شاك ـ انگر.

سلالة أور ـ نانشة: أور ـ نانشة، آكور ـ گال، ايانانم، اناناتم الأول، انتمينا، اناناتم الثاني، انيتارزي، انليتارزي، لوگال أندا، أورو كاجينا، (2378 ـ 2370 ق.م).

سلالات مدن أخرى:

مدينة «أوما»: أوش، اينكالي، أور ـ لما، لوكال زاكيزي.

مدينة أكشك: اونزى، اوندالولو، بوزر ـ نيراخ، ايشو، شو ـ سين.

سلالة أوان، سلالة حمازى:

سلالة أدب: لوگال ـ آنى ـ موندو.

سلالة ماري: 6 ملوك

(انظر أثبات الملوك).

عموماً. وإلى جانب ما ذكرناه عن جلجامش في كلامنا على سلالة الوركاء الأولى نضيف أن أحد ملوك الوركاء المسمى «أنَّام»، في مطلع الألف الثاني ق.م، ذكر جلجامش بأنه هو الذي شيّد أسوار مدينة الوركاء، وبهذه الصفة أيضاً ذكر في الملحمة وأيدت ذلك التحريات الآثارية الحديثة، إذ وجدت بقايا أسوار المدينة وهي مشيدة باللبن «المستوي ـ المحدب» الذي قلنا إنه يميز أبنية عصر فجر السلالات ولا سيما مباني الطورين الثاني والثالث منه. ولعل أهم إشارة تأريخية إلى جلجامش أن اسمه واسم «لوگال بندا» ذكرا من بين الأسماء المؤلهة في الألواح الصورية القديمة (الاركائية) المكتشفة في تل «فارة» (مدينة شروباك القديمة) والتي قلنا إنها ترجع في زمنها إلى مطلع عصر فجر السلالات الثالث. وجاء ذكر جلجامش أيضاً في أحد الكتابات المنسوبة إلى الملك «أور ـ نمو»، مؤسسة سلالة أور الثالثة أنه صار أحد قضاة العالم الأسفل. وصار جلجامش وصاحبه «أنكيدو» من المواضيع المحببة لدى ناحتي الأختام الإسطوانية من مختلف العهود التأريخية. هذا وقد سبق أن ذكرنا ما جاء عن جلجامش وعن ابنه «أور ـ ننكال» في نص «تمال» حيث جددا بناء معبد الإلهة «ننليل» في نفر للمرة الثانية، كما نوَّهنا بتعاصر جلجامش مع الملك «ميسانيبدا»، مؤسس سلالة أور الأولى، بالاستناد إلى دلالة ذلك النص.

ولعله يمكن تفسير جانب من جوانب الوضع السياسي في بلاد سومر في عصر فجر السلالات الثالث بأن «ميسانيبدا»، في سعيه للسيطرة على البلاد استطاع أن ينتزع السيطرة على المدينة المقدسة «نفر» من «أكا»، آخر ملوك سلالة كيش الأولى، ولعله استطاع أن يحكم مدينة كيش نفسها، ولذلك نجده يلقب نفسه «ملك كيش» في الكتابة المنقوشة على أحد أختامه الإسطوانية، وهذا لقب كان يعني السيطرة على البلاد كما بينا، بيد أن المرجح أنه كان طاعناً في السن لما استولى على مدينة «نفر» فلم يستطع بناء معبد «تمال»، فاضطلع بالأمر من بعده ابنه المسمى «مسكيا گننا»، كما جاء في نص «تمال»، ولكن جلجامش نازعه السيطرة على نفر فانتزعها منه، وكان جلجامش على ما

يبدو متقدماً في السن أيضاً فوقع على ابنه «أور ـ ننكال» أمر تجديد بناء معبد «تمال»[1].

خلف ابن جلجامش في حكم الوركاء ستة ملوك لا نعرف عنهم شيئاً سوى أسمائهم الواردة في أثبات الملوك، ثم يعقب ذلك سلالة أور الأولى التي جاءت عنها مصادر تأريخية مهمة أخرى.

سلالة «أور» الأولى:

عند انتقال الحكم من الوركاء إلى أور تبرز ظاهرة مهمة في أثبات الملوك، في حقيقة أن السنين المخصصة لملوك سلالة أور أرقام ضمن مدى الأعمار البشرية المألوفة. والواقع أن هذه الظاهرة تبدأ قبيل ذلك الزمن، اعتباراً من حكم «أور ـ ننكال»، ابن جلجامش في سلالة الوركاء الأولى.

وبالنسبة إلى هذه السلالة الجديدة لم يكن ملوكها مجرد أسماء اقتصر ذكرها في أثبات الملوك، بل إلى ذلك جاءتنا عن المهمين منهم جملة وثائق تأريخية، وأولهم مؤسس السلالة المسمى «ميسانيبدا»، الذي خصص لحكمه 80عاماً، والمرجح كثيراً أن هذا رقم مبالغ فيه ولعله يدخل ضمنه حكم ابنه المسمى «آنيبَّدا»، الذي لم يرد ذكره في أثبات الملوك، ولكن النص المنقوش على آجرة رخامية وجدت في بقايا معبد الإلهة «ننخرساك» في تل العبيد يذكر اسمه وأنه ابن «ميسانيبدا»[2]. ولعله يصح الافتراض بهذا الصدد أن «آنيبدا» خلف أخاه «مسكياگننا» الوارد في أثبات الملوك، كما يصح العكس.

أما مؤسس السلالة «ميسانيبدا» فقد سبق أن ذكرنا عنه جملة ملاحظات في أثناء كلامنا على المقبرة الملكية في «أور» التي أرجع زمنها إلى قبيل

---

(1) راجع تفسير الحوادث الواردة في نص «تمال» في:
Kramer, *The Sumerians*, (1963), 328ff.

(2) لعله من المفيد أن نورد ترجمة هذا النص القصير: «إلى ننخرساك، آنيبدا، ملك أور، ابن ميسانيبدا، ملك أور، شيّد هذا المعبد». (Gadd, *Ur Excavations*, I, p. 126).

تأسيس تلك السلالة، كما تطرقنا إلى مسألة تعاصره مع «أگا» ومع جلجامش، وأنه استطاع أن يفرض سيطرته على مدينة «نفر» وعلى مدينة «كيش»، ولذلك اتخذ لقب ملك كيش، بدلالة كتابة أحد أختامه الإسطوانية كما ذكرنا. وهناك رأي يذهب إلى أن «ميسانيبدا» و«ميسلم» شخصية تأريخية واحدة. وإذا استثنينا الكتابة القصيرة التي تنسب إلى «ايلولو» ثالث ملوك سلالة أور الأولى، فلا توجد أخبار أخرى عن ملوك السلالة الآخرين ولا عن ملوك السلالات الأخرى التي أعقبتها في الحكم.

السلالات الحاكمة من بعد سلالة «أور» الأولى:

تعدد أثبات الملوك ما بين نهاية سلالة أور الأولى وبين قيام الملك «سرجون»، مؤسس السلالة الآكدية إحدى عشرة سلالة ذكرت بهيئة متعاقبة في الحكم على النحو الذي ذكرت فيه السلالات الأخرى، في حين أن الدلالة التأريخية تشير إلى احتمال أن الكثير منها كانت متعاصرة في الزمن، كلياً أو جزئياً[1]. وإذا أخذنا بدلالة تلك الأثبات من أن السلالة التي خلفت سلالة أور في الحكم كان مركز حكمها في مدينة «أوان»[2] فإن هذا يشير إلى تسلط العيلاميين على بلاد سومر، ولكن أسماء الملوك الثلاثة المخصصة لهذه السلالة مشوهة لا يمكن قراءتها. ثم حكم من بعد سلالة «اوان» سلالة ملوك ثانية حكمت في مدينة «كيش»، وتعدد أثبات الملوك لها ثمانية ملوك ولسني حكمهم رقماً خيالياً هو (3195) سنة، ولا يعرف عنهم شيء آخر سوى ذكرهم في تلك الأثبات. ثم يأتي من بعد ذلك حكم ملك يؤسس سلالة حاكمة في مدينة «حمازي» أو «همازي»، وهي من مدن بلاد عيلام، ثم ينتقل الحكم إلى

---

(1) حول ذلك راجع:
CAH, (1967-71), chap. IV, 200, 220ff.

(2) لم يعين موقع مدينة «اوان» بعد، والمحتمل أنها تقع في موضع ما في منطقة «دزفول»، في الطرف الشمالي الشرقي من بلاد عيلام (الأهواز أو خوزستان). حول الحكام القدماء في بلاد عيلام ، ولا سيما في عصر فجر السلالات الثالث انظر: *CAH*, I, part 2, XXII.

مدينة الوركاء، حيث تقوم فيها سلالتها الثانية وعدد ملوكها ثلاثة لا نعرف عنهم سوى أسمائهم المذكورة في تلك الأثبات، ويعقبهم ملوك سلالة «أور» الثانية الذين انخرمت أسماؤهم، والمرجح أن عددهم أربعة ملوك. ثم تأتي ست سلالات قبل السلالة الآكدية لا يعرف عنها شيء سوى أسماء ملوكها المذكورة في أثبات الملوك؛ بيد أن الملك المخصص لسلالة مدينة «أدب» (تل بسمي الآن) «لوگال آنيموندو» قد وجدت له كتابة متأخرة عن زمنه بألف عام تقريباً تشير إلى فتوح هذا الملك البعيدة التي امتدت إلى جبال «زاجروس»، وتعدد الحكام (أنسي Ensi) التابعين له في بلاد عيلام وفي بلاد الكوتيين (في الجهات الشمالية الشرقية)، وتذكر طرفاً من أعماله العمرانية في حقل البناء منها تشييده معبد إلهة مدينة «أدب» المسماة «ننتو» (Nin-tu) ومعبدها باسم «اي ـ نام ـ زو» (é-nam-zu)[1]. وبمناسبة ذكرنا لسلالة أدب يجدر أن ننوِّه بأن ملكاً أو حاكماً ورد اسمه بهيئة «لوگال دالو» (Lugaldalu) حكم في هذه المدينة في فترة عصر فجر السلالات الثالث أو قبيل هذا الزمن، ولكن لم يرد ذكره في أثبات الملوك، بيد أنه وجد تمثاله في أثناء التنقيبات التي أجريت في هذه المدينة (1904).

وتذكر أثبات الملوك من بعد سلالة «أدب» ستة ملوك حكموا في مدينة «ماري» (تل الحريري الآن قرب البوكمال)، لم يبق من أسمائهم سوى الملك الأول واسمه «ايل ـ شو»، وهو اسم سامي. ويجدر أن ننوِّه بهذا الصدد أن التنقيبات المهمة التي قام بها الفرنسيون في مدينة «ماري» كشفت عن بقايا وآثار مهمة، من بينها جملة تماثيل لحكام وشخصيات بارزة تدل هيئاتهم وأسلوب نحت تماثيلهم على أنها من عصر فجر السلالات ولا سيما من الطور الثالث منه. والمرجح أن أولئك الحكام يعودون إلى تلك السلالة الواردة في أثبات الملوك، نذكر منهم الملك المسمى «لماگي ـ ماري» (Lamagi-mari)

(1) حول الثبت الجديد الخاص بحكام لجش انظر:
E. Sollberger in *JCS*, 21, (1967), 279ff.

و«ايكو ـ شمگان» (Iku-shamgan)، ومن بين الشخصيات المهمة «ابخ ـ ايل» (Ibikh-îl) و«ادي ـ نازم» (Idi-narum). وعلى الرغم من أسلوب النحت السومري والزي السومري في هذه التماثيل فإنها تعود إلى شخصيات من الساميين كما تدل على ذلك أسماء أصحابها.

وخلفت سلالة ماري سلالة حكمت في مدينة «كيش»، خصصت لحكمها أثبات الملوك ملكة واحدة اسمها «كوباو» أو «كوبابا» وأنها حكمت مائة عام، وكانت صاحبة حانة ووطدت الحكم في كيش. وجاء ذكر هذه الملكة في النصوص المتأخرة بأنها أزاحت من الحكم ملك مدينة «اكشك» المسمى «بوزر ـ نيراخ» (Puzur-nirakh)، فيبدو أن شهرتها انتقلت إلى العصور المتأخرة، فذكرت في نصوص الفأل والتنبؤ (الخاصة بفحص أعضاء الحيوانات المقربة)، والمرجح أنها أصل الاسم «كمبابوس» (Kombabos)، الكاهن «الخصي» في مدينة «هيرابوليس» (في سورية)، ولاسمها أيضاً صلة باسم الإلهة الحثية «كوبابا» التي عبدت في شمالي ما بين النهرين.

ويأتي من بعد سلالة الملكة «كوبابا» في كيش سلالة حكمت في مدينة اكشك ثم يعقب ذلك سلالة كيش الرابعة التي كان من ملوكها الملك المسمى «أور ـ زبابا» الذي سيأتي ذكره في كلامنا على سرجون الآكدي حيث كان سرجون ساقياً لهذا الملك ثم انتزع منه السلطة.

سلالة لجش وسلالات أخرى غير مذكورة في أثبات الملوك:

في فترة ما من عصر فجر السلالات الثالث ازدهرت في منطقة الغراف، أي منطقة مدينة لجش الخصبة، دولة مدينة حكم فيها عدد من الحكام لم تذكرهم أثبات الملوك السومرية، ولكن التنقيبات المهمة التي أجراها الفرنسيون في «تلو» منذ أواخر القرن الماضي (راجع الفصل الخاص بتأريخ التنقيبات) ألقت أضواء كاشفة على أخبار هذه الدولة ومآثرها وأسماء ملوكها، ومخلفاتهم الفنية وكتاباتهم التأريخية مما لم يضاهها في كثرتها وتنوعها جميع ما جاء إلينا من عصر فجر السلالات من المواضع الأخرى، فكانت بذلك في

مقدمة مصادرنا عن أحوال هذا العصر في جميع أوجهه ونواحي الحياة فيه.
وعلى ضوء هذه الوثائق نلخص تأريخ هذه السلالة المهمة:

وقبل أن نتناول أخبار هذه السلالة نعيد ما سبق أن ذكرناه من أن الدراسات والتحريات الحديثة مضافاً إليها دلالة الوثائق المكتشفة في منطقة لجش أظهرت أن هذه المملكة كانت تضم جملة مدن وقرى وأراضٍ زراعية واسعة في منطقة الشطرة والغراف، وأنها كانت تتألف من جملة مراكز عمرانية أو مدن كبيرة أشهرها: (1) مدينة «جرسو» أو «گرسو» (Girsu) التي تعرف بقاياها الآن باسم «تلو» وهي منطقة أثرية واسعة (نحو 4×3كم) بالقرب من شط الغراف، على بعد نحو (16) كم شمال شرقي مدينة الشطرة وفي هذه المنطقة تركزت أعمال التنقيبات الفرنسية القديمة. (2) مدينة «نينا» (Nina)[1]، مركز عبادة الآلهة «نانشة» (Nanshe) وتعرف بقاياها الآن باسم «سرغل»، على نحو 48كم جنوب شرق تلو. (3) مدينة لجش التي سميت باسمها هذه الدويلة وقد ثبت الآن أنها تقع في التلول الأثرية المسماة «الهباء» أو «الهبة» (شرق بلدة الشطرة بنحو 45كم)، وكان يظن سابقاً أن موقعها في «تلو» (+). ونظرة واحدة إلى خارطة السهل الرسوبي ترينا أن هذه المدن الثلاث تمتد بخط واحد تقريباً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وكانت تقع على مجرى نهر قديم كان يروي أراضيها ويقع ما بين دجلة والفرات وتقع في الامتداد نفسه إلى الشمال الغربي بنحو 50كم بقايا المدينة الشهيرة «اوما» (تل جوخة)، التي قامت فيها كانت في عصر فجر السلالات دولة مدينة كانت في نزاع وحرب دائمين تقريباً مع دولة لجش المجاورة.

وبما أننا سنتطرق في مكان آخر إلى الأمور الحضارية لعصر فجر السلالات فنقتصر الآن على إيجاز الأحوال السياسية لهذه الدولة بالاستناد إلى السجلات والوثائق المهمة التي كشفت عنها التحريات الأثرية. ونبدأ من ذلك

---

(1) وتعرف «نينا» باسم آخر هو «سرارا» على ما يرجح، كما وردت لمدينة لجش صفة أو اسم آخر بهيئة «أورو كوگك» (أي المدينة المقدسة).

بالتساؤل عن سبب إغفال أثبات الملوك السومرية لهذه الدولة في عدم ذكر أسماء حكامها ضمن السلالات التي ذكرتها. فارتأى بعض الباحثين أن مرد ذلك ناشئ من عدم اعتراف كهنة معبد «أنليل» في نفر، وهو أمر يربطه أولئك الباحثون بعرف ساد ذلك العصر من أن سلطة حكامه كانت مستمدة من الإله «أنليل» بطريق التفويض الإلهي، وهذا أساس نظرية أصل الحكم في حضارة وادي الرافدين في جميع أدوار تأريخها، على أن باحثين آخرين ذهبوا في تعليل ذلك إلى أن كتبة «لجش» في مطلع العصر البابلي القديم، وهو زمن سلالة «ايسن» الذي صدرت فيه آخر نسخة من أثبات الملوك، امتنعوا من تزويد الكتبة الذين تولوا أمر جمع تلك الأثبات بالمعلومات الخاصة بأسماء حكام لجش. ويجدر أن نذكر بهذا الصدد أن وثيقة مهمة نشرت حديثاً تتضمن سجلاً بأسماء الحكام في تلك الدولة، ممن عرفت أسماؤهم وأعمالهم من الوثائق الأخرى المكتشفة في لجش نفسها[1].

قامت في دولة لجش سلالة من الحكام أسسها «أور ـ نانشة» في عصر فجر السلالات الثالث، لعله في حدود الزمن الذي كانت تحكم في أور سلالتها الأولى التي مر الكلام عليها. ولكن قبل أن يؤسس «أور ـ نانشة» السالف الذكر سلالته الحاكمة بفترة ما تشير الوثائق التي وجدت في لجش إلى أن حكاماً آخرين سبقوه في الحكم في لجش أشهرهم الحاكم المسمى «اينحيگال» (Enkhegal) الذي خلف سجلاً إدارياً على لوح من الحجر بالأراضي الزراعية التي اشتراها، وما عدا هذا لا يعلم عن خلفائه الذين خلفوه في الحكم.

وجاء اسم حاكم ذكره الملك «ميسلم» باسم «باگال شاكنكر (Lugal shagengur) يحتمل أنه حكم قبل «أور ـ نانشة» بجيل أو جيلين.

---

(1) حول هذه الوثيقة انظر:

CAH., I, chap. Iv, 19, 40ff., part 2, chap. XIII, 115.

وتبدأ الأخبار عن دولة لجش بالكثرة والتنوع ابتداء من حكم «أور ـ نانشة» وازدادت في عهد خلفائه، وتتضمن السجلات والكتابات التأريخية والآثار الفنية المتنوعة ولا سيما المنحوتات. وكان اللقب الغالب لهؤلاء الحكام لقب الحاكم أو ما كان يترجم سابقاً الأمير، بالسومرية «آنسي» (Ensi) ومنه الكلمة البابلية «اشاكو». ولكن عدداً قليلاً من أولئك الحكام اتخذ لقب الملك (لوگال)، وسترد الإشارة إليهم. ويذكر مؤسس هذه السلالة اسم أبيه «گونيدو» الذي لم يتول الحكم. وتدل المآثر الفنية والمعمارية والكتابية على ازدهار هذه الدولة ورخائها. والغالب على سجلات مؤسس السلالة أنها تدون أعماله البنائية ولا سيما تشييد المعابد وتجديدها وبناء أسوار المدينة ونحت التماثيل وإقامة مشاريع الري التي كانت الشغل الشاغل لملوك ذلك العصر وحكامه وحكام العصور التالية أيضاً. وبالإضافة إلى مثل هذه الأعمال يستدل من سجلاته أيضاً على نشاط ملحوظ في حقل التجارة الخارجية، حيث يذكر السفن المحملة بالبضائع المختلفة، من بينها الأخشاب والأحجار من تلمون أو دلمون (البحرين). ولعله بسط حمايته على مدينة «أور» كما يستدل من المسلة الصغيرة المنحوتة من حجر الغرانيت التي وجدت في أور وفيها صور مشوهة وبقية من كتابة تذكر اسمه[1]. ومن آثاره التي يجدر التنويه بها القطع الفنية المنحوتة بالنحت البارز وقد مثل في بعضها هذا الملك يحيط به أفراد عائلته وحاشيته وموظفو بلاطه مع ذكر أسمائهم وألقابهم. وتظهر على أسلوب النحت والنقوش الكتابية مسحة القدم.

خلف «أور ـ نانشة» ابنه «آكور ـ گال» (Akurgal) الذي لا نعرف عنه شيئاً سوى اسمه وصورته المنقوشين في منحوتات أبيه التي نوَّهنا بها، على أنه جاءنا من عهد ابنه الذي خلفه المسمى «اياناتم» (Eannatum) جملة مآثر فنية وسجلات مدونة، ومنها يمكن الاستنتاج أن دولة لجش بلغت في عهده من الازدهار واتساع السلطة درجة بحيث إنها بسطت نفوذها على جميع بلاد

---

(1) انظر: *CAH.*, I, part 2, (1971), 117.

سومر، أو كما يقول هذا الحاكم في كتاباته حصل على «ملوكية سومر» (Nam-lugal-ki-en-gi). وإلى ذلك اتخذ لقب «ملك كيش»، وهو اللقب الذي سبق أن ذكرنا أنه كان يرمز إلى اتساع السلطة السياسية في عرف ذلك الزمان. وبعد أن وطد «اياناتم» سلطانه في داخل بلاد سومر مد فتوحاته مدى أبعد، حيث استولى على دويلة مدينة «ماري» وعلى بلاد «سوبارتو» (Subar) وهي التسمية التي سبق ذكرها أنها كانت تطلق على بلاد آشور، كما سجل انتصاره في بلاد عيلام[1].

النزاع بين دولتي «لجش» و«أوما»:

من بين دول المدن التي قامت في بلاد سومر في عصر فجر السلالات الدويلة التي كان مركز حكمها في مدينة «اوما» المجاورة لدولة لجش[2] وقد سبق أن ذكرنا أن بقاياها الآن تعرف باسم تل جوخة، بنحو (50) كم إلى الجهة الشمالية الغربية. وقد حكم في هذه الدويلة جملة حكام لم تذكر أسماءهم أثبات الملوك السومرية، إذ إنها، مثل سلالة لجش، لم تخصص لهذه المدينة سلالة حاكمة. ولأنه لم تجر تحريات آثارية في بقايا مدينة «اوما» لم يأتنا من أخبار حكامها أشياء يعتد بها، وأن جل ما نعرفه عنهم مستقى بالدرجة الأولى من الأخبار التي ذكرها حكام لجش، لا سيما أحداث النزاع والحرب بين الدولتين، حيث اتسمت العلاقات ما بين هاتين الدويلتين بالعداء والنزاع على الأراضي الزراعية وعلى مياه الري، من جراء جوارهما المتقارب، فإن «اوما» تقع في أعالي مصادر المياه لكلتا الدولتين. وبدأت

---

(1) حول النصوص الخاصة بالملك «اياناتم» وغيره من حكام لجش، راجع:
Thureau - Dangin, *SAK*. Barton, *RISA*.
Lambert in *RA*, (1926), 23ff.; Kramer, *The Sumerians*.

(2) سبق أن ذكرنا أن بقايا مدينة «اوما» تعرف باسم تل جوخة، على بعد نحو 40ـ50كم شمال غربي تلو، ولم تجر فيه التحريات لحال التأريخ (1973) وإنما استخرجت منه آثار متنوعة عن طريق الحفريات الغير مشروعة. انظر:
L. King, *History of Sumer and Akkad*, (1923).

العلاقات المدونة بوجه خاص من زمن حاكم لجش «اياناتم» السالف الذكر، ولكن النزاع ظهر قبل ذلك بعدة أجيال، كما روى لنا ذلك حاكم لجش «ايتمينا» الذي ستتكلم عنه.

ومع أن النزاع بين دولتي لجش و«أوما» كان نزاعاً نموذجياً لما تميز به عصر فجر السلالات في العلاقات السائدة ما بين دول المدن التي حكمت فيه من أجل توحيد هذه الدول وقد نجح بعض حكامه في ذلك مثل «ميسلم» و«اياناتم» وغيرهما، بيد أن الصراع بين هاتين الدولتين اتسم بالشدة والاستمرارية إلى أن انتهى بغلبة دولة «اوما» وتحطيم لجش على يد آخر ملوك عصر فجر السلالات المسمى «لوگال زاكيزي»، وكان حاكم تلك المدينة. وسنذكر في كلامنا على حاكم لجش المسمى «انتمينا» إيجاز تأريخ ذلك النزاع ابتداء من تحديد الحدود بين الدولتين من جانب الملك «ميسلم»، أما بصفته حكماً دولياً أو بصفته الملك الأعلى الذي كان يتبعه حاكما هاتين الدولتين. وقد عيّن بالانصاب والمسلات خط الحدود ما بين الدولتين المتنازعتين جاعلاً الأراضي الخصبة التي ورد ذكرها في أخبار النزاع بهيئة «گو ادنا» (Gu-Edina) ضمن حدود لجش، الأمر الذي لم ترضخ إليه «اوما» أمداً طويلاً، فكانت تعمد كلما واتتها الفرص على انتهاك تلك الحدود، كما يشير إلى ذلك نص «انتمينا» السالف الذكر. ويضيف إلى ذلك أن «اياناتم» القوي دحر جيش «اوما» وذبح منها خلقاً كثيراً. وقد خلف «اياناتم» انتصاره هذا في مسلة نحتها لهذا الغرض، وعثر على القسم الأكبر منها، وقد سماها الباحثون المحدثون باسم «مسلة النسور» أو «مسلة العقبان» (Stele of the vultures) لأن نسوراً أو عقباناً صورت في المسلة وهي تنهش جثث القتلى من جيش «اوما»، كما مثل الملك «أياناتم» في أحد وجهي المسلة بالنحت البارز وهو في عدته الحربية، مرة واقفاً، ومرة في عربته الحربية؛ قائداً جيشه الذي نظم على هيئة الصف (Phalanx)، وقد تسلح الجنود بالرماح الطويلة وبالدروع، وهو نظام الجيش الذي اشتهر به الإغريق. أما الوجه الثاني من المسلة فقد نحت بمشهد طريف يصور الإله «ننجرسو»، حامي دولة لجش، وقد نشر شبكته العظيمة فاصطاد في

داخلها جيش المدينة المعادية «اوما»، ولم يكتفِ باصطياد المحاربين بل نجده يهشم رؤوسهم الخارجة من الشبكة بدبوسه الحجري. ويوجد تحت هذا المشهد بقايا من منحوتات غير كاملة وغير واضحة، من بينها صورة عربة حربية، لعلها تخلد انتصار «اياناتم» على جيش كيش. ويبدو أن الحرب ما بين الدولتين انتهت بمعاهدة صلح رضخت بموجبها «اوما» إلى شروط المدينة المنتصرة لجش.

خلف اياناتم أخوه المسمى «اناناتم» الأول (Enannatum) وأعقب هذا ابنه المسمى «انتمينا» (Entemena) الذي سبق أن أشرنا إلى نصه الشهير الذي يدون أخبار النزاع ما بين دولتي لجش واوما بوجه مفصل أكثر من رواية عمه «اياناتم». وبالنظر إلى أهمية هذا النص الذي يعد أقدم تدوين تأريخي بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح فيستحسن أن نعيد إيجازه[1]: يروي هذا النص بداية الأحداث قبل زمن «انتمينا» بما لا يقل عن ثلاثة أجيال يوم اتفق إلها المدينتين المتنازعتين «ننجرسو»، إله لجش، و«شارا»، إله «اوما» على تسوية النزاع ما بين مملكتيهما وتثبيت الحدود فيما بينهما. ونفذ هذا الاتفاق الإلهي الملك «ميسلم» بصفته حكماً أو سيد هاتين المملكتين كما نوَّهنا، فثبت الحدود ما بينهما وأقام عند خط الحدود كما قلنا مسلة وأنصاباً. ولكن بعد حين استجد النزاع، وكان البادئ في نقض تسوية التحكيم حاكم «اوما» المسمى «اوش» (Ush) أو «كش» (Gish) فأزال نصب «ميسلم» وغزا حقول دولة لجش؛ وعندئذٍ أمر سيد لجش الأعلى، أي الإله «ننجرسو» قائده الحربي، أي حاكم لجش المسمى «اياناتم» أن يشن الحرب على حاكم «اوما»، ودحره في الحرب ولعله قضى عليه، وفرض على «اوما» شروطاً جديدة للصلح قبل بها حاكم هذه

---

(1) سبق أن ذكرنا أن بقايا مدينة «اوما» تعرف باسم تل جوخة، على بعد نحو 40-50كم شمال غربي تلو. ولم تجر فيه التحريات لحال التأريخ (1973) وإنما استخرجت منه آثار متنوعة عن طريق الحفريات الغير مشروعة. انظر:

L. King, *History of Sumer and Akkad*, (1923).

المدينة الجديد «ايناكالي» (Enakalli)، وتضمنت معاهدة الصلح الجديدة أن يقوم حاكم «اوما» بحفر نهر جديد يأخذ من نهر الفرات (؟)، وأرجعت الحدود السابقة ومعها الأنصاب القديمة ومسلة «ميسلم»، وأقام بجانبها «اياناتم» مسلة جديدة خلد فيها انتصاره. وفي الوقت نفسه شيدت في الأراضي الجديدة التي ضمت إلى دولة لجش معابد صغيرة أو مزارات (بالسومرية Barag) لآلهة لجش، وفرض على أهل «اوما» غرامة حربية كبيرة، أن تدفع كميات كبيرة من الحبوب سنوياً. ولكن ثمرة هذا النصر الذي خلده «اياناتم» في «مسلة النسور» الشهيرة كما ذكرنا لم تدم أبعد من حياة هذا الحاكم. إذ إنه عندما خلفه في الحكم أخوه المسمى «اناناتم» الأول الذي اقتصر على لقب الحاكم «آنسي» (Ensi)، نقض المعاهد حاكم «اوما» الجديد المسمى «أور - لما»، ابن «اينكالي» الذي عاصر «اياناتم» كما قلنا؛ فأزال الأنصاب من الحدود وحطمها «ورماها في النار»، بحسب تعبير نص «انتمينا» وخرب المزارات التي كانت قد أقيمت في زمن «اياناتم»، ثم عبر نهر الحدود السالف الذكر وغزا لجش نفسها، فتصدى له «اناناتم»، ولكن يبدو أنه لم يفلح في صد جموع «اوما»، لأن ابنه «انتمينا» الذي روى لنا هذه الأحداث كما قلنا، اقتصر على القول بأنه، أي «انتمينا» انتصر على أوما ولم يشر إلى انتصار لأبيه عليها. وفجأة يختفي «أور - لما» من رواية «انتمينا» ويحل محله حاكم جديد في اوما ورد اسمه بهيئة «ال» (Il) الذي كان أحد كهنة «اوما»، ولعل«انتمينا» هو الذي أزاح «أور - لما» من الحكم ونصب بدلاً منه ابن أخيه «ال» السالف الذكر، وأبرم معه معاهدة في إعادة حقوق لجش بأراضيها وإعادة تثبيت الحدود القديمة ما بين الدولتين المتخاصمتين.

كان «انتمينا» يعاصر حاكم مدينة الوركاء المسمى «لوگال كينيشيدودو» (Lugal kinishedudu)، وأبرمت بين الحاكمين معاهدة سلم وصداقة. والمرجح كثيراً أن «انتمينا» حفر نهراً كبيراً من دجلة إلى الفرات ليضمن موارد الري لدولة لجش دون الاعتماد على النهر القديم، ولعله أصل شط الحي أو الغراف الحالي. ووجد في مدينة أور تمثال لانتمينا منحوت من حجر الديورايت (Diorite) (هو

الآن في المتحف العراقي)، وقد فسّر وجود هذا التمثال في «أور» على أنه يشير إلى امتداد سلطة «انتمينا» على هذه المدينة، والمعروف أن أكثر من واحد من حكام لجش قد بسط نفوذه على مدينة أور، ولا سيما «اياناتم»[1].

كان «انتمينا» آخر حاكم قوي في سلالة لجش، إذ خلفه في الحكم حكام ضعفاء أولهم ابنه المسمى «أناناتم» الثاني، وأعقبه حاكمان آخران لم يدم حكمهما إلا فترة قصيرة، هما «اينيتارزي» و«لوكالندا»، وكانا من طبقة الكهنة. وقد انقطعت أخبار السلالة الرسمية واقتصرت الوثائق المدونة التي وصلت إلينا على العقود التجارية والاقتصادية والمعاملات الشخصية الأخرى. ولكن مع ذلك تعد هذه الوثائق على قدر عظيم من الأهمية في معرفتنا بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية. فنقرأ فيها من جملة ما نقرأ من الأمور الاجتماعية المكانة البارزة التي حازت عليها زوجة الحاكم «لوگالندا» المسماة «برانامترا» (Baranamtarra)، وكانت تدير شؤون أحد المعابد في مملكة لجش وكذلك المكانة التي تمتعت بها امرأة أخرى اسمها «شاشا»، هي زوجة الحاكم «أورو ـ كاجينا»، آخر حكام دولة لجش الذي سنتكلم عنه بعد قليل.

انتقل الحكم في لجش عن طريق الانقلاب العسكري إلى «أوروكاجينا»، صاحب الإصلاحات المشهورة، وكان على ما يرجح ينتمي إلى طبقة الكهنة، ولكن الحكام الكهنة ومعهم الكهنة أيضاً ممن سبق «أوروكاجينا» دأبوا على ابتزاز الثروات واضطهاد جماهير الناس وسيطروا حتى على أملاك المعابد لصالحهم الشخصي. وإلى هذه المساوئ والمفاسد وجه «أوروكاجينا» إصلاحاته الاجتماعية المشهورة.

لم يحكم «أوروكاجينا» أكثر من ثمانية أعوام، واتخذ في العام الثاني من حكمه لقب «الملك». وكان في مبدأ الأمر مجرد حاكم أي «أنسي» (Ensi) هذا ولا تعلم بوجه التأكيد الحوافز التي دفعت «أوروكاجينا» إلى القيام بإصلاحاته هذه، عدا الأسباب الموجبة التي يعددها هو في نصوص تلك الإصلاحات

---

(1) انظر: Gadd, *Ur Excavations*, vol. I.

ومنها العودة إلى القوانين القديمة العادلة وأنه فعل ذلك بأمر من الإله «ننجرسو»، إله دولة لجش، وبذلك حق لاوروكاجينا أن يقول بثقة إنه «نائب الإله ووكيله حقاً». وضمن أوروكاجينا بإصلاحاته هذه تأييد أهم طبقات المجتمع وإسنادها، وفي مقدمتها طبقة المحاربين وطبقات جماهير الناس ممن رفع عنها اضطهاد الكهنة وجباة الضرائب، وقد أنقص الضرائب التي كانت تجبى منهم سواء كانت ما يذهب منها إلى الحاكم وموظفيه وحاشيته أم الرسوم الباهظة التي فرضها الكهنة في حوادث الأحوال الشخصية وفي مقدمتها الزواج والطلاق ورسوم الدفن. وتناولت إصلاحاته كذلك تخفيض الضرائب حتى على بعض طبقات الكهنة التي كانت معرضة إلى ابتزاز أموالها من جانب جباة الحكام الذين يقول عنهم «أوروكاجينا» إنهم كانوا منتشرين في كل مكان «من أرض ننجرسو إلى تخوم البحر». وعاهد «أوروكاجينا» إلهه «ننجرسو» بأنه لم يسلم «الضعيف والأرملة إلى القوي»[1]. وشملت تلك الإصلاحات أيضاً طبقة الحكام في وضع حد لاستحواذهم على أملاك المعابد. فيتضح من ذلك أن «أوروكاجينا» كان جريئاً ومحايداً في إصلاحاته، فقد تناولت أيضاً تحديد سلطات الطبقة الحاكمة التي كان نفسه على رأسها، وعمل كذلك على معالجة الجرائم وتنظيم العقوبات الخاصة بها، وجوانب مهمة من الأحوال الشخصية مثل تحريم زواج المرأة برجلين في آنٍ واحد في بعض الحالات. ولعل الفقرات الآتية التي وضعت على هيئة مواد أحكام تعطينا فكرة عن هذه التشريعات الإصلاحية التي يمكن عدها أقدم تشريعات في تأريخ البشرية[2]:

«إذا أراد وجيه (متنفذ) شراء حمار أو بيت يعود إلى فقير فباستطاعة الفقير أن يطلب الثمن الذي يريده من الوجيه وعلى هذا أن يدفع الثمن بنقود معتمدة

---

(1) قارن العبارة المطابقة الواردة في شريعة حمورابي (1750ق.م) (خاتمة المقدمة، العمود 40، السطر 59ـ62).

(2) حول إصلاحات «أوروكاجينا» راجع ترجمتها والتعليق عليها في:

Diakanoff in *RA*, (1958), 12ff.; Kramer, *The Sumerians*, 317ff.

(فضة) ولا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يضطهد الفقير إذا رفض البيع».
ويذكر «أوروكاجينا» حالة البؤس التي آلت إليها طبقة العمال والصناع بحيث إنهم «صاروا يستجدون الطعام ويأكلون فضلات الطعام من أبواب المدينة، في حين أن مخازن الحكام وأهراءهم وبيوتهم وقصورهم وأملاك حاشيتهم كانت تفيض بالخيرات. وأينما ولى المرء وجهه، من حدود ننجرسو إلى تخوم البحر وجد جباة الضرائب». ثم يعدد أعمال السخرة التي كانت تفرض على الفقراء والضعفاء وحتى العميان منهم من جانب وكلاء الحكام الذين بلغت بهم القسوة أنهم كانوا لا يجهزونهم بما يحتاجون إليه من قوت. ويذكر أيضاً أمره بالعفو العام عن المسجونين والموقوفين بسبب ديونهم السابقة أو بسبب استحقاق الضرائب عليهم إلى القصر (السلطة الحاكمة). وأبطل الضريبة التي فرضها الحكام على الرجل إذا طلق امرأته، وفرض الرجم على السارق. وإن كل هذه المساوئ كانت ترتكب في غابر الأيام، ولكن حين أعطى الإله «ننجرسو» ملوكية لجش إلى «أوروكاجينا»، مصطفياً إياه من بين الجموع الغفيرة، أمره بتنفيذ الإرادة الإلهية فصدع بالأمر، وعزل الموكلين بالملاحين ومنع الاستيلاء على قواربهم، وحرم على رئيس الرعاة الاستحواذ على قطعانهم... وجعل سلطان ننجرسو يسمو على سلطة الحكام.

لم يتمتع هذا المشرع المصلح بالحكم زمناً طويلاً فقد قضى عليه حاكم المدينة المعادية «لوگال زاگيزي»، مما سنوجزه في الأسطر التالية.

لوگال زاگيزي ونهاية عصر فجر السلالات:

انتهى حكم المصلح «أوروكاجينا» بالعنف ليس من داخل دولته بل على أثر هجوم مفاجئ قام به «لوكال زاكيزي»، حاكم دولة المدينة المجاورة «اوما»، عدوّة دولة لجش المأثورة. وكان لوكال زاكيزي هذا يتحلى بصفات عالية ولا سيما مقدرته العسكرية التي مكنته من القضاء على «أوروكاجينا» بضربة خاطفة، وبذلك أنهى النزاع الطويل بين هاتين الدويلتين، وهو نزاع استغرق زهاء قرن واحد، منذ قيام سلالة «أور ـ نانشة» في لجش، وكانت

الضربة ماحقة حيث دمرت المدينة وأعمل فيها وفي أهلها النار والسيف. ولعل مما سهل على «لوكال زاكيزي» انتصاره الخاطف، بالإضافة إلى مقدرته الحربية، أحوال دولة لجش الداخلية، فإن الإصلاحات التي فرضها «أوروكاجينا» لم يتح لها الوقت الكافي لتؤتي ثمارها في استتباب الأحوال، بل إنها، شأنها في ذلك شأن أي إصلاحات أخرى، لاقت مقاومة من جانب الطبقات المتنفذة وأحدثت البلبلة وعدم الاستقرار. ومهما كان الأمر فإن التدمير الشامل الذي أحدثه الفاتح في دولة لجش قد بلغ من العظم والشمول بحيث إنه ترك صدى في نفوس الكتاب والأدباء، فخلف لنا أحدهم رثاء مؤثراً يندب فيه ما حل بلجش ومعابدها وأهلها ويستنزل العقاب الإلهي على «لوكال زاكيزي»[1] والجدير بالذكر في هذا الصدد أن رثاء سقوط المدن والسلالات الحاكمة كان من بين المواضيع الأدبية الشائعة لدى أدباء العراق القديم. وقد خلف لنا أحدهم رثاء عن سقوط مدينة «أور» على أيدي العيلاميين والأموريين.

نشأ «لوكال زاكيزي» من عائلة تنتمي إلى طبقة الكهنة، فقد كان أبوه كاهن الإلهة «نصابا» (Nisaba) في مدينة «اوما»، وإنه كان على ما يرجح من أصل سامي (آكدي)، كما يشير إلى ذلك اسمه «بوبو» (Bubu)، وعمل معه ابنه في منصب الكهنوتية، ولكن قابلياته العسكرية مكّنته من تبوأ الحكم في دولة مدينة «اوما».

وبعد القضاء على دولة لجش وتوطيد السلطة في هذه المنطقة وفي «أور» استولى على دولة مدينة الوركاء الشهيرة، فاتخذ لقب «ملك أوروك»، وذكرته أثبات الملوك بصفته مؤسس سلالة في هذه المدينة هي سلالتها الثالثة. واستعمل «لوكال زاكيزي» إلى ذلك لقباً جديداً استحدثه، هو «ملك الإقليم» (أي ملك البلاد) (Lugal kalamma)، وملك «سُومر». ولما أن استولى على

---

(1) راجع نص الرثاء في:

Thureau - Dangin, *SAK*, 90ff.; Barton, *RISA*,; Kramer, *The Sumerians*, 323ff.

معظم بلاد سومر وآكد وبضمنها مدينة «كيش» والمدينة المقدسة «نفر» اتخذ لقب «ملك كيش». ولم يقتصر هذا الفاتح على إخضاعه دول المدن في بلاد وادي الرافدين بل إنه، كما جاء في نصوصه المدونة، مد فتوحه من «البحر الأسفل إلى البحر الأعلى»، أي من الخليج العربي إلى البحر المتوسط. ويعد نصه التأريخي الذي وصل إلينا أقدم وأطول كتابة ملكية من نوعها وأكثرها تفصيلاً في سرد أعماله العسكرية والعمرانية في المدن المختلفة[1]. وخصصت له أثبات الملوك حكماً دام 25عاماً، وهو أمد طويل مكنه من التمتع بثمرات فتوحه وتوحيد البلاد، وإقامته دولة القطر الموحدة، وإنشاء أولى أمبراطورية شملت أجزاء من الشرق الأدنى، مثل بلاد الشام، ولعله بلاد عيلام.

وإذا صدقنا بنبوءة ذلك الشاعر الذي رثى تدمير لجش واستنزل عقوبة الآلهة على «لوگال زاگيزي» وجدناها تتحقق، حيث ظهر في حدود ذلك الزمن على مسرح التأريخ شخص آخر استطاع أن يغلب لوگال زاگيزي وينتزع منه السلطة والزعامة، ذلك هو سرجون الآكدي الشهير الذي يصح أن نضعه في مقدمة الفاتحين القدامى في تأريخ العالم، وستكون سيرة هذا الفاتح وأعماله موضوع الفصل الآتي. ولم تقتصر نهاية «لوگال زاگيزي» على أنها كانت نهاية حكم ملك أو حكم سلالة مثل الفترات التي مرت بنا، بل إنها كانت خاتمة عصر تأريخي أو حضاري وفاتحة عصر جديد في تأريخ حضارة وادي الرافدين: انتهاء العصر الذي أطلقنا عليه اسم عصر فجر السلالات أو عصر دول المدن، وبداية العصر الآكدي وانتقال السلطة السياسية إلى الآكديين الساميين، وظهور دولة القطر الكبيرة التي اتسعت بالفتوح الخارجية إلى أمبراطورية.

ويمكن القول إن فتوح لوگال زاگيزي ومن بعده سرجون الآكدي كانت تمثل اتجاهاً تأريخياً كان قد ظهر أثره في عصر فجر السلالات وتغلب على يد

---

(1) حول نص «لوكال زاكيزي» انظر:

SAK, 218ff.; *RISA*, 9ff.; Kramer, *OP. CIT*, 323ff.

Jacobsen in *ZA*, (1959), 135ff.

هذين الفاتحين على اتجاه آخر معاكس له. ونعني بالاتجاه الأول فرض نظام دولة القطر أو المملكة الواحدة على الاتجاه الثاني المتمثل بنظام دولة المدينة (City state) وهو النظام الذي ساد عصر فجر السلالات الذي أطلقنا عليه بناء على ذلك عصر دول المدن. وإن ما أنجزه لوگال زاگيزي في تحقيق الاتجاه الأول كان من العوامل الرئيسة التي مهدت الطريق أمام سرجون الآكدي في إقامته دولة القطر الموحدة، وسيكون هذا موضوع الفصل الآتي.

إيجاز الأوجه الحضارية في عصر السلالات:

نظام دولة المدينة:

تكررت الإشارات فيما سبق إلى نظام دولة المدينة، وكيف أنه كان النظام السائد في حضارة وادي الرافدين في عصر فجر السلالات. والمرجح كثيراً أن أصول هذا النظام تمتد في جذورها إلى زمن ظهور أولى مراكز للاستيطان البشري في السهل الرسوبي منذ الألف الخامس ق.م وتطور المراكز الزراعية الفلاحية إلى مدن في العصر الذي سميناه بالعصر الشبيه بالتأريخي أو الشبيه بالكتابي في منتصف الألف الرابع ق.م، كما مرّ بنا في الفصل الخاص بعصور ما قبل التأريخ حيث اقترن ظهور أولى المدن بنشوء التمدن والعمران الحضري (Urbanization). وبالنظر إلى قدم حضارة وادي الرافدين فإن هذه الحضارة خير مرجع للباحثين في أصول هذا النظام وتطوره التأريخي. ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا أكدنا القول إن حضارة وادي الرافدين تفردت بأول ظهور لنظام دولة المدينة على أنه أول شكل من أشكال الحكم في التأريخ البشري. وإن ما ظهر في حضارة وادي النيل قبيل قيام المملكة الموحدة في عهد الأسرات الأولى، لا يشبه ذلك النظام، ولعل أقرب شيء يضاهيه نظام دولة المدينة في الحضارة الإغريقية (Polis)، حيث كان ذلك النظام في كلتا الحضارتين النظام النموذجي للوحدة السياسية أو الدولة. ونمت في المدينة وفي دولة المدينة فكرة المواطن والمواطنة (Ctizenship). فكانت المدينة أكثر من كونها تجمعاً سكانياً أو قبلياً، بل إن ما يدهش الباحث في حضارة وادي

الرافدين أن لا يجد آثاراً للنظام القبلي منذ أواخر عصور ما قبل التأريخ، ولعل العامل في ذلك أن الوحدة السكانية في حضارة وادي الرافدين في السهل الرسوبي كانت أولاً القرية الفلاحية ثم المدينة المعتمدة كل منهما على الاقتصاد الزراعي وجهاز الري والتجارة، فنشأت فيها بدلاً من الأنظمة القبلية والولاء القبلي أنظمة سياسية واجتماعية عجيبة منذ أبعد العصور التأريخية، مثل مجلس المدينة «بوخرم» (Pukhrum) باللغة الآكدية، و«اوكن» (Ukin) في اللغة السومرية، ومشيخة المدينة «شيبوت آلم» (Shibût alim) إلى غير ذلك من الأجهزة المدنية والتنظيمات الاجتماعية والسياسية، مما سنفصل القول فيه في الجزء الثاني من كتابنا.

تشير التحريات الآثارية التي أجريت في المدن القديمة في السهل الرسوبي إلى أن القرى الفلاحية التي نشأت فيه في عصور ما قبل التأريخ سرعان ما نمت إلى مدن في العصر الشبيه بالكتابي كما ذكرنا من قبل، وبرزت ملامحها المميزة في عصر فجر السلالات، موضوع بحثنا. ولعل أبرز شيء طرأ على هذه المدن في ذلك العصر اتساع حدودها وتكاثر سكانها وازدياد ازدهارها بتأثير عوامل مهمة تطرقنا إلى بعضها وفي مقدمتها ازدهار الزراعة المعتمدة على جهاز منظم للري وازدهار التجارة الخارجية، وصارت مراكز لتجمعات سياسية، أي وحدات سياسية واقتصادية هي التي ينطبق عليها مصطلح دولة المدينة. فكانت دولة المدينة هذه مكونة من مدينة مركزية، هي العاصمة، يتبعها مدن أخرى وعدد من القرى والأرياف والأراضي الزراعية. ونظرة واحدة إلى الخارطة التأريخية لوادي الرافدين ترينا كيف أن السهل الرسوبي في عصر فجر السلالات يكاد يتفرد بظاهرة عمرانية وسكانية، تلك هي كثافة تلك المراكز العمرانية وقرب المدن الكبيرة والصغيرة بعضها من بعض. وقد يبلغ قرب الجوار بين المدينة والأخرى بضعة كيلو مترات مثل مدينة «أريدو» بالنسبة إلى مدينة أور (زهاء 25كم) وقربها مدن منطقة لجش ولارسة والوركاء وايسن وغيرها. وقد مرّ بنا كيف أن دولتين مشهورتين من دول المدن السومرية لم تتجاوز المسافة ما بين عاصمتيهما الخمسين ميلاً،

ونعني بذلك دولة لجش ودولة «اوما». وخلاصة القول إن هذه الظاهرة أقدم مثال في التأريخ على تركيز العمران وكثافته.

وبما أننا سبق أن عددنا أسماء المدن الرئيسية في الفصل الخاص بالمقدمة الجغرافية، وتكرر الكثير من هذه الأسماء في كلامنا عن أثبات الملوك السومرية فلا حاجة إلى تكرار ذكر هذه المدن، وبدلاً من ذلك نتناول الجوانب الأخرى مما يتعلق بها مما نوّهنا به من اتساع هذه المدن في مساحاتها بالاستناد إلى سعة أطلالها الباقية، ونذكر على سبيل المثال أن محيط مدينة الوركاء بلغ زهاء تسعة كيلو مترات ومساحتها نحو (6) كيلو مترات مربعة، ومساحة مدينة «أور» زهاء 220أيكراً (الأيكر الواحد يعادل نحو 4000متر مربع أو 4840 ياردة مربعة) ومساحة مدينة «خفاجى» (توتب القديمة) زهاء 100أيكر[1]. أما مساحات دول المدن أي المدينة وما يتبعها من مراكز عمرانية أخرى وقرى وأراضٍ زراعية فلا يمكن تقديرها إلا على وجه التخمين، بالاستناد إلى النصوص المعاصرة. ولنأخذ دولة لجش مثلاً لوفرة المصادر عنها فقد قدرت مساحتها بزهاء (1800) ميل مربع أو نحو (3000) كيلومتر مربع وعلى أقل تقدير (1000) كم مربع. أما سكان مدينة لجش فيرجح أن عددهم كان في حدود (36000)، وسكان دولة المدينة نحو 100,000، وهناك تقدير آخر لسكان المدينة بنحو 19,000، وقدرت نفوس مدينة «اشنونا» (عاصمة مملكة اشنونا) بنحو 9000 وسكان مدينة خفاجى بـ 12,000 وسكان اوما بـ 16,000[2].

---

(1) انظر:

Delougaz, *The Oval Temple at Kkafajah,* (1940).

(2) ندرج فيما يلي المراجع المهمة عن الموضوع:

(1) Frankfort, «Town Plannig in Ancient Mesopotamia», in *Town Plannig Review* (1950), 104ff.

(2) Dikanoff, «The Population of the Sumerian City-State» in *Vtstnik Drevney Istorii,* (Moscow, 1950), 77ff.

(3) Diakanoff, *Ancient Mesopotamia,* (1959).

(4) Deimel, «Die Sumerischen Tempel Wirtschaft», in *Analecta Orientalia* (1931).

وكان لمعظم المدن في عصر فجر السلالات أسوار تحيط بها، وسنرى في كلامنا على العصر الآكدي في الفصل الآتي كيف أن سرجون الآكدي نقض أسوار المدن هادفاً من ذلك على ما يرجح الحيلولة دون ثوراتها والاحتماء داخل الأسوار. وكان المعبد، الذي تتبعنا نشوءه منذ أولى أطوار الاستيطان في السهل الرسوبي، مركز حياة المدينة في النواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأخذ يضاهيه في الأهمية ويزاحمه في النفوذ والسلطة قصر الحاكم الذي بلغ هو الآخر اتساعاً كبيراً في المساحة والتنظيم، كما كشفت التنقيبات عن بعض قصور عصر فجر السلالات في بعض المدن المهمة مثل قصر كيش وقصر «أريدو» وقصر «ماري». وسنرى رجحان كفة القصر أي السلطة الزمنية على المعبد والسلطة الدينية منذ أن تولى الآكديون الساميون زمام الحكم في العراق واتضح هذا الاتجاه أكثر في العصر البابلي القديم (الألف الثاني ق.م).

والقاعدة في اختيار مواقع المدن في جميع الأدوار التأريخية تقريباً، أن تكون على مجرى ماء رئيسي أو بالقرب منه، وقد سبق أن نوَّهنا بظاهرة هجران مراكز العمران عند تحول اتجاه هذه المجاري، ونتج عن ذلك ظاهرة انتشار الأطلال الأثرية في بقاع جرداء الآن من جراء تبدل مجاري الأنهار القديمة حيث تشاهد تلك التلول على ضفاف هذه الأنهار المندرسة. وحتى في حالة ارتفاع قيعان مثل هذه الأنهار إلى مستوى السهل المجاور وزوال معالمها فإن الخط الواصل ما بين عدة تلول أثرية من عصر واحد يحدد لنا مجرى النهر القديم الذي كانت تقع على ضفافه تلك المدن القديمة المهجورة.

والغالب أن المصطلح السومري «أورو» (Uru) والآكدي «آلو» (Alû) كان يطلق على المستوطن من حجم المدينة، بيد أنه لا توجد مصطلحات خاصة للتمييز ما بين المدن الكبيرة وبين المدن الصغيرة. أما المستوطنات الريفية من قبيل القرى الفلاحية فيوجد لها بعض التسميات الخاصة، مثل المصطلح السومري «أي ـ أورو ـ شي» (é-uru-she) و«اي ـ دورو» (é-duru) وفي الآكدية

السامية «كبرو» أو «كفرو» (Kapru)، و«خصارو» أو«حضارو» (أي الحضر أو الحضيرة) (Khusaru)[1].

وبالقياس إلى ما نعرفه عن خطط المدن في العصور التي تلت عصر فجر السلالات يمكن القول إن المدينة في هذا العصر أيضاً كانت تتألف في الغالب من ثلاثة أقسام رئيسية[2]: (1) مركز المدينة المسمى بالآكدية «قلب المدينة» (Qabalti áli)، وقد يعني هذا المصطلح في بعض الحالات الجزء القديم من المدينة. وكان سور المدينة يتضمن هذا القسم الرئيسي المدينة وفيه المعبد أو المعابد والقصر أو القصور وبيوت السكان الحضريين. وكان الكثير من شؤون المدينة يدار عند بوابتها أو بواباتها، التي تطلق عليها التسمية المضاهية للكلمة العربية «بابتو»، وبالسومرية (Dag-gi4-a)، وكثيراً ما يرد اسم البوابة في مثل هذه الوظيفة في الشرائع (مثل شريعة حمورابي وشريعة اشنونا). (2) ضواحي المدينة، وتسمى بالسومرية المدينة الخارجية أو «البرانية» أي (Uru-bar-ra)، ويوجد فيها في الغالب المعبد المخصص لأعياد رأس السنة في بداية الربيع، المسمى «بيت ـ آكيتو» (Bît-akitu)، وكذلك مساكن الزراع وبساتين المدينة وحظائر الماشية، وتعتمد المدينة في غذائها على هذا الجزء وعلى المزارع المجاورة. (3) قسم الميناء والتجار ومستودع البضائع الذي يطلق عليه بالسومرية «كار» (Kar) وبالآكدية «كارو» (Karu). وكان هذا القسم أكثر من مجرد ميناء على النهر، فقد كان مركز المدينة التجاري ولا سيما التجارة الخارجية، وكان في الغالب يتمتع بشيء كثير من الاستقلال الإداري والقانوني، وفيه يقيم التجار الأجانب حيث الخانات والبيوت المخصصة للمسافرين. وقد وصلت إلينا أخبار طريفة في ألواح الطين من مدينة «أور»،

---

(1) حول الموضوع راجع:

L. Oppenheim, *Ancient Mesopotamia,* (1965), 109ff.

(2) حول الموضوع راجع:

L. Oppenheim, *Ancient Mesopotamia,* (1965), 109ff.

ندرس منها نشاط هذا الجزء المهم من المدينة، وقد سبق أن ذكرنا عثور المنقبين على بقايا ميناء «أور» (الكائن شمال شرقي الزقورة بنحو 3كم في الموضع المسمى الآن دقدقة). وسيمر بنا وصف المستعمرة التجارية المشهورة التي أقامها التجار الآشوريون في شرقي الأناضول، في الموضع المسمى «كول تبة» (كانيش القديمة). ومما تجدر ملاحظته عن أجزاء المدينة التي ذكرناها أنه لم يكن كل المدن تتألف منها، فبعضها مثل مدينة «سبار»، كانت في الأصل مركزاً تجارياً مهماً للمتاجرة بالماشية والصوف من المناطق الرعوية المجاورة.

وبالإضافة إلى المدن العريقة التي نمت من كونها مراكز قديمة للاستيطان في السهل الرسوبي واستمرت بالتطور والاتساع توجد طائفة أخرى من المدن في حضارة وادي الرافدين كانت تُقام من جانب الملوك والحكام لأغراض عسكرية أو سياسية كالسيطرة على طرق القوافل التجارية أو لحماية مواقع استراتيجية، نذكر على سبيل المثال الحصن الذي شيده الملك الآكدي «نرام ـ سين» في تل براك في أعالي الخابور، وبعض المدن الآشورية مثل مدينة «كار ـ توكلتي ـ ننورتا»، و«كار شليمنصر» و«دور ـ شروكين» (خرسباد)، وسيأتي التنويه بهذه المدن في كلامنا على تأريخ الآشوريين. وقد سبق أن ذكرنا قيام مدن ومستوطنات جديدة في العهد الآكدي الذي أعقب عصر فجر السلالات وتبدأ أسماؤها في الغالب بكلمة «دور» (الحصن) أو «مشكن» (Mashkan) المضاهية لمسكن العربية.

الآلهة ومعابدها:

لما كنا سنتكلم على الديانة في حضارة وادي الرافدين في الجزء الثاني من كتابنا المخصص لمقومات هذه الحضارة وأوجهها المختلفة فإننا نقتصر في كلامنا على الآلهة ومعابدها على الملامح الأساسية لديانة مجتمع عصر فجر السلالات موضوع بحثنا الراهن، تلك الملامح التي استمرت بشيء من التحوير والتطور في جميع العهود التأريخية التالية سواء كانت السلالات

الحاكمة سومرية أم بابلية أم آشورية. ومما لا شك فيه أن هذه الاستمرارية في أهم مقومات حضارة وادي الرافدين من الأدلة الكثيرة على ما سبق أن أكدناه من أن أسس هذه الحضارة قد وضعت ونمت وتطورت في وادي الرافدين منذ عصور ما قبل التأريخ. ومن ناحية الموضوع الذي بين أيدينا، أي الديانة، رأينا كيف أن أقدم المباني العامة التي تركزت حولها أولى المستوطنات في السهل الرسوبي كانت المعابد التي استمرت في تطورها سعة وشكلاً وعدداً في الأدوار التأريخية التالية، وكان المعبد مركز القرية الفلاحية ثم المدينة حين تطورت القرى إلى مدن، ثم دولة المدينة حيث أصبح مدار حياتها الدينية والاقتصادية والاجتماعية. والمرجح كثيراً أن قوام المعابد ومديري شؤونها كانوا أقدم حكام في المجتمعات المتحضرة. فكان الكاهن الأعلى «أين» (En) حاكم المجتمع المعبدي في الوقت نفسه، وظل يجمع ما بين السلطتين الدينية والزمنية حتى بدأ الانفصال بين الوظيفتين الدينية والزمنية في فترة ما من عصر فجر السلالات حين ظهر إلى جانب الكاهن الأعلى الحاكم الزمني المفوض من إله المدينة أو أنه كان وكيل هذا الإله في إدارة دولته الأرضية، وأطلق على هذا الحاكم مصطلح «أنسي» (Ensi) (وكان يقرأ باتيسى)، وأعقبه ظهور الملك (لوگال) حين كان يتسنى لحاكم إحدى المدن أن يبسط سلطانه على دول مدن أخرى، وعندئذٍ يصبح حاكم المدينة تابعاً له. والجدير ذكره بهذا الصدد أن العلامة المسمارية الدالة على الكاهن الأعلى (En) ظهرت في نظام الخط المسماري الصوري قبل العلامة الدالة على الملك.

وهكذا كان المعبد مركز الحياة الحضرية في حضارة وادي الرافدين منذ ظهور أولى المستوطنات في السهل الرسوبي في الألف الخامس ق.م. وقد سبق أن رأينا كيف ظهر في كنف المعبد أعظم اختراع حضاري في منتصف الألف الرابع، ونعني بذلك ظهور الكتابة في الأطوار الأخيرة من عصر الوركاء حين دعت الحاجة إلى إيجاد وسيلة لتدوين واردات المعبد وأملاكه. ولعله لم يكن من باب الصدفة أن يعثر على أقدم كتابة صورية في منطقة معبد «أي ـ أنا» في مدينة الوركاء الشهيرة.

ومع أنه لا يمكن معرفة أسماء الآلهة التي عبدت في وادي الرافدين في العصور التي سبقت عصر فجر السلالات، بيد أن إمارات قوية ظهرت في الآثار الفنية ولا سيما المنحوتات والأختام الإسطوانية والكتابة في طورها الصوري، وهي تشير إلى أن الكثير من الآلهة التي عرفت أسماؤها واتضحت سماتها في العصور التأريخية منذ عصر فجر السلالات كانت معروفة منذ أزمان قديمة ولا سيما في العهد الشبيه بالكتابي كما تدل على ذلك «رموز الآلهة» والمشاهد الدينية الممثلة في القطع الفنية، وأن استمرار إقامة الكثير من المعابد بعضها فوق بعض منذ عصر العبيد في «أريدو» مثلاً يشير كذلك إلى هذه الحقيقة.

ولعل أبرز ما يلفت إليه نظر الدارس لديانة حضارة وادي الرافدين في جميع عهودها كثرة الآلهة فيها، وبتعبير آخر شيوع مبدأ الشرك (Polytheism) بحيث يؤلف عدد الآلهة معجماً ليس بالصغير. ثم إن الآلهة بوجه عام، ما عدا تميزها عن البشر بالخلود والقدرة، تشبه البشر في صفاتها الروحية والمادية، وهذا هو مبدأ «التشبيه» (Anthropomorphsim) الذي كان أبرز صفة للآلهة في هذه الديانة، وهي مفتاح فهمنا ومعرفتنا لجميع أنواع الشعائر والعبادات الخاصة بالآلهة، كبناء معابدها التي كانت في الواقع بيوت الآلهة ومساكنها (لاحظ أن جميع المعابد تبدأ أسماؤها بالكلمة السومرية «اي» (é) التي تعني البيت)، ومن مظاهر هذه الصفة أن القوم نقلوا إلى الآلهة جميع الأفعال والأعمال التي يمارسها البشر في حياتهم الخاصة والعامة، كالطعام واللباس والزواج وإقامة الولائم وعقد مجالس الشورى والحكومة الإلهية والملوكية؛ والآلهة مثل البشر تفرح وتغضب وتتخاصم فيما بينها، وصار مجتمع الآلهة السماوي بموجب ذلك المبدأ نسخة ثانية للمجتمع البشري في الأرض، إلى غير ذلك من مظاهر هذا المبدأ مما سنفصل فيه القول في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ومما لا ريب فيه أن كثيراً من الآلهة في حضارة وادي الرافدين نشأ في

الأصل من القوى والظواهر الطبيعية البارزة في هذا الكون، ولا سيما القوى التي كانت تؤثر في حياة القوم كالكواكب والظواهر الجوية المختلفة وفي مقدمتها الشمس والقمر والسماء والهواء والأرض والمياه. وإلى هذه الأصول يمكن القول إنهم خصصوا لشؤون الحياة المختلفة المهمة آلهة تتحكم فيها وتسيرها، كالموت والولادة والغلال والخصب والأمراض، إلى غير ما هنالك من مظاهر الحياة الطبيعية والبشرية. ولما كانت ظواهر الكون والحياة تتفاوت في أهميتها وأثرها في حياة البشر، لذلك كانت الآلهة التي عبدت في حضارة وادي الرافدين متفاوتة في أقدارها ودرجاتها ومنزلة عبادتها وتقديسها. فنجد في أسفل درجات السلم طائفة من الآلهة القليلة الشأن لم يخصص لعبادتها سوى مزار صغير قد يقام في أحد الطرقات أو في بيوت السكنى على هيئة معبد صغير في أحد أركان البيت. ويكاد يكون من المؤكد أن القوم كان لهم عبادة وآلهة شعبية جماهيرية لا نعرف عنها أموراً كثيرة، لأن مصادرنا عن ديانة حضارة وادي الرافدين تقتصر بالدرجة الأولى على الديانة الرسمية، كما نظمها ودونها رجال الدين، أما عقائد الجماهير من عامة الناس وعباداتها الخاصة بها فليس لدينا عنها سوى النزر اليسير، مما نستشفه من المصادر المدونة الرسمية والآثار الفنية. ويلي الطبقات الدنيا من الآلهة طبقة يصح أن نسميها بالآلهة المحلية، وهي الآلهة التي اختصت بعبادتها وتقديسها المدن المختلفة بصفتها الآلهة الحامية لهذه المدن. وأن آلهة المدن هذه هي التي كانت تتحارب وتتخاصم فيما بينها وكانت المسؤولة عن الحروب التي كان يشنها حكام دول المدن بعضهم على بعض، كما كانت تتقدم جيوش دول المدينة وتشترك في القتال بأسلحتها الخاصة المفضلة لديها.

وقد رأينا كيف أن الإله «ننجرسو»، إله دولة لجش الرئيسي، هو الذي انتصر على جيش دولة المدينة المعادية «اوما»، واصطاده بشبكته الإلهية. ولا يندر أن يقع بعض الآلهة في الأسر، والويل والدمار للمدينة التي يؤخذ إلهها أسيراً. وهناك أمثلة طريفة على أسر الآلهة، نذكر منها أسر الإله «مردوخ»، إله بابل الشهير، أكثر من مرة واحدة، فجردت الحملات الحربية لاسترجاع تمثال

الإله الأسير، لأن غياب تمثال الإله، الذي هو المستودع أو الوعاء الحجري الذي تحل فيه روح الإله أو جوهر قوته، يعرض مدينته إلى قوى الشر والدمار. ومن قبيل الآلهة المحلية ما جرى عليه سكان العراق القديم، ملوكاً وحكاماً وأفراداً، من اتخاذهم ما يصح أن نصطلح عليه اسم الآلهة الحامية، وقد يكون هذا الإله الحامي بالنسبة إلى الحاكم إله المدينة التي يحكم فيها، وقد يكون إلهاً غيره، فيكون هذا الإله الحامي شفيعاً وحامياً للفرد إزاء الآلهة العظام ومسؤولاً عن أعماله وتصرفاته، كما كان بمثابة الملاك الحارس للفرد. وقد جاء إلينا هذا العرف مدوناً في المواضيع الفنية ولا سيما في نقوش الأختام الإسطوانية، إذ نجد طائفة من الأختام في بعض العهود التأريخية وهي منقوشة بمشهد يمثل فرداً عابداً (هو صاحب الختم)، يقدمه إله أو آلهة إلى بعض الآلهة من مقام ورتبة أعلى. وقد تكون العلاقة بين الأفراد ولا سيما الحكام وبين آلهتهم الحامية علاقة أبوة أو أمومة ولكن بالتبني، كما جاء ذلك واضحاً في نصوص حكام دولة لجش. أما علاقة الزواج بين الآلهة والبشر فهي نادرة جداً بخلاف الآلهة اليونانية على ما هو معروف من الأساطير اليونانية. فباستثناء البطل جلجامش الذي جعل في الملحمة لغرض فني (درامي)، ابن الآلهة ننسون، لا نعرف أمثلة أخرى على التزاوج ما بين الآلهة والبشر.

ويستطيع من يدرس أسماء الأعلام (الأشخاص) في حضارة وادي الرافدين أن يقف على أمور كثيرة عن آلهة القوم ومعتقداتهم الدينية، وفي رأيي أن هذا الحقل من المصادر المهمة لدرس ديانة هذه الحضارة في مختلف أدوارها، فإن الغالب على هذه الأسماء، سواء كانت أسماء حكام وملوك أم أفراد من عامة الناس، أن تدخل أسماء الآلهة المختلفة في تركيبها. وإلى هذا فإن كثرة استعمال اسم إله معين في تركيب أسماء فترة تأريخية خاصة يكشف لنا عن اشتهار ذلك الإله لدى الجماهير وتعلقهم به، كما قد يشير إلى انتماء الشخص من الناحية القومية، إن كان سومرياً أو بابلياً أو آشورياً أو حورياً أو «سوبارياً» إلى غير ذلك من الأصول المختلفة التي دخلت في التركيب التأريخي لسكان العراق القديم.

أما الصنف الثالث من آلهة حضارة وادي الرافدين فيتألف من الآلهة العظام التي عمت عبادتها وتقديسها جميع القطر ولم تقتصر على مدينة أو دولة مدينة، كما أنها استمرت في التقديس في جميع أدوار التأريخ، ويأتي على رأسها الثالوث الإلهي المؤلف من ثلاثة آلهة عظام، هم: «آنو» و«أنليل» و«انكي» (أيا)، وكان هؤلاء يقتسمون حكم الكون ما بينهم، فلآنو السماء، كما يشير إلى ذلك اسمه السومري. وكان لأنليل الجو، يدل على ذلك اسمه أيضاً، ويحكم الإله «أنكي» (ايا) الأرض والمياه الظاهرة والسفلى. وقد أخذ هؤلاء الآلهة حكم الكون من بعد القضاء على آبائهم من جيل الآلهة القديمة، بعد صراع وحرب دامية ما بين جيل الآلهة القديمة وبين الآلهة الحديثة، كما جاء ذلك في أسطورة الخليقة البابلية المشهورة التي دوّنت في حدود 1700ق.م. وجعل بطل المعركة فيها الإله «مردوخ»، إله بابل بعد أن عظم شأن هذه المدينة وأصبحت عاصمة أمبراطورية في عهد ملكها الشهير حمورابي (1792ـ1750ق.م). والمرجح كثيراً أن البطل الأصلي في الأسطورة السومرية الأصلية الإله «أنليل». ولعل هذا الأمر خير ما يوضح الاتجاه العام في ديانة حضارة وادي الرافدين في حالة تعاظم إله محلي أي إله المدينة إلى مركز إله عام ولكن دون أن تنبذ عبادة الآلهة الأخرى، وهذا هو المبدأ المعروف في تأريخ الديانات بمصطلح «التفريد» (Henotheism)، إذ لم تصل ديانة حضارة وادي الرافدين إلى مبدأ التوحيد في جميع عهود تأريخها.

ونظم الكهنة ورجال الدين علاقات الآلهة بعضها ببعض ووضعوا أنسابها وخصصوا لها الزوجات والأبناء والبنات والوزراء والأتباع والمبلغين والمراسلين وسائر أنواع الخدم والحاشية. فينسب إلى أولئك الآلهة العظام بموجب هذه الأنساب جملة أبناء وبنات. فكان للإله «آنو» مثلاً ابنة مفضلة هي «أنانا» (عشتار)، كما جعلت زوجته، وعبد الأب والبنت معاً في المركز الرئيسي لعبادتهما في مدينة الوركاء ويسمى معبدهما «أي ـ أنا»، أي بيت السماء، وصيغ من اسم «آنو» إلهة زوجة له أيضاً هي «آنتم». وكان من أشهر أبناء الإله «أنليل» من زوجته «ننليل»، الإله القمر «نانا» (بالسومرية) أو «سين»

(في البابلية). ومن أبنائه أيضاً «نرجال»، إله العالم الأسفل، و«ننازو»، إله الطب والشفاء و«ننورتا»، إله الحرب (وهو أيضاً ننجرسو، إله لجش). وولد للإله القمر «نانا» (وكان يلفظ سابقاً ننار) من زوجته «ننگال»، إله الشمس الشهير، «أوتو» (بالسومرية) و«شمش» (في البابلية). وعبد الإله «نانا» في أور، كما اشتهرت مراكز أخرى لعبادته مثل مدينة «حران». أما الإله الشمس فقد اشتهر بأنه إله النور والحق والعدل والموحي بالشرائع والكاشف عن الظلم والبغي، واشتهرت مدينتا «سپار» و«لارسة» على أنهما مركزان مهمان لعبادته كما شيّدت له معابد في بعض المدن الأخرى، وكلها دعيت باسم «اي ـ ببار» (é-babbar). أما الإله «أنكي» (ايا) فكان مركز عبادته مدينة «أريدو»، ومعبده فيها باسم «أي ـ أبسو»، منذ أقدم الأزمان، وكان إله الماء والحكمة والمعرفة الذي علم البشر المعارف والفنون، وولد له من زوجته «دام ـ كنا» (Dam-kinna) ابنه البكر «مردوخ» الذي تولى عن الآلهة قتال الآلهة العتيقة وقضى على تيامة، كما جاء في أسطورة الخليقة البابلية. وولد لمردوخ من زوجته «صربنيتم» ابنه الشهير «نابو» أو «نبو»، إله المعرفة والكتابة والقلم، واشتهرت مدينة «بورسبا» القريبة من بابل بكونها مركز عبادته حيث معبده فيها يسمى «اي ـ زيدا» (é-zida)، ومعبد أبيه في بابل باسم «اي ـ ساگلا».

وبما أننا سنفصل القول في أسماء الآلهة ووظائفها ومعابدها في الجزء الثاني فنكتفي بما ذكرناه للمثال على بعض الجوانب المهمة من عقائد القوم في آلهتهم ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن الآلهة المشهورة بالتنويه بعبادة إله تعدت شهرته وممارسة عبادته حضارة وادي الرافدين إلى أقوام وحضارات أخرى، ذلك هو الإله الشهير «تموز» أو «دموزي»، الذي كان في أصله من آلهة الخضار والنباتات والماشية، واشتهر باقترانه بآلهة الحب «عشتار» (أنانا)، فنشأت عن ذلك عبادة الخصب التي انتشرت من حضارة وادي الرافدين إلى أقوام كثيرة. فكان خصب الأرض وما تدره من ثمرات وخيرات يتوقف على الاقتران السنوي (في مطلع الربيع على ما يرجح) بين الإله «تموز» والإلهة «عشتار». وأغلب الظن أن أقدم ممارسة لهذه العبادة ظهرت في مدينة الوركاء،

مركز عبادة الإلهة «عشتار» (أنانا)، كما ذكرنا. ولكن لم يقتصر هذا الزواج الإلهي (Hieros gamos)، الضامن لإحلال الخصب والخير، على اقتران تموز بعشتار في الوركاء، بل كان يمكن لزوجين آخرين من الآلهة في المدن الأخرى أن يقوما بالدور نفسه، ثم صار الحاكم والملك بوسعه أن يمارس هذه الشعائر الخاصة بالخصب مع كاهنة عليا خاصة. وقد سبق أن نوَّهنا كيف أن بعض الباحثين فسر المقبرة الملكية في أور على ضوء هذه الشعائر الدينية الخاصة بتموز وعشتار. ونشأت حول تموز وعشتار جملة أساطير أشهرها الأسطورة الجميلة التي جاءت إلينا في أصلها السومري وبالرواية البابلية أيضاً[1]، وخلاصتها أن عشتار غضبت على حبيبها أو زوجها تموز فأنزلته إلى الأرض السفلى، عالم الأموات وحبسته فيه. وكان من سنن هذا العالم أن من دخله لا يستطيع الخروج منه حتى الآلهة، إلا بأن يضع بديلاً عنه في ذلك العالم[2]. ولا تعلم نهاية الأسطورة على وجه التأكيد، فهل بقي تموز رهينة ذلك العالم أو أنه خرج منه، على أن آخر الآراء في الموضوع أنه تم الاتفاق ما بين عشتار وبين أختها، ملكة العالم الأسفل (ايرش ـ كيگال) أن يظل تموز حبيس ذلك العالم طوال نصف العام ويخرج منه في النصف الثاني مقابل الاحتفاظ بأخته المسماة «گشتن ـ أنا» (Geshtin anna) (أي خمرة السماء) بديلاً عنه في العالم الأسفل في النصف الثاني من العام الذي يخرج فيه تموز إلى الحياة، والمرجح أن يكون في مطلع الربيع ليحل الخصب والحياة في الأرض. ومما لا شك فيه عندي أن هذه الأسطورة الطريفة أصل الأسطورة الإغريقية المعروفة الخاصة بأدونيس، الذي هامت بجماله إلهة الحب «أفروديت»، ولكن آلهة

---

(1) حول أسطورة «تموز» ونزول عشتار (أنانا) إلى العالم الأسفل راجع:

(1) *ANET*, 50ff.; 106ff.

(2) Falkenstein in *Compt Rendu de la 2 ém. Rencontre Assyriologique Internationale*, (1954).

(3) Kramer, in *IRAQ*, (1960), 59ff.

(2) يسمى العالم الأسفل أو عالم الأموات بالسومرية «كور ـ نو ـ كي» وبالبابلية «ارصة لاتاري» وكلتا العبارتين تعني «الأرض التي لا رجعة منها».

العالم الأسفل «برسيفونه» نازعتها حب «أدونيس»، وحل النزاع بين هاتين الآلهتين بأن يبقى ذلك الإله الجميل عند آلهة العالم الأسفل طوال نصف عام ويخرج منه في النصف الثاني ليكون حصة «أفروديت».

وعلى ضوء السجلات الكثيرة المكتشفة من دولة لجش في عصر فجر السلالات الثالث نستطيع أن نستنتج أموراً مهمة عن حضارة وادي الرافدين في هذا العصر، وبالنسبة إلى موضوع الآلهة ومعابدها وعبادتها نقف منها على النشاط الاقتصادي الواسع الذي كانت تمارسه هذه المعابد في حياة القوم الاقتصادية والاجتماعية[1]. فكان في دولة لجش ما لا يقل عن عشرين معبداً كبيراً خصصت لعبادة آلهة هذه الدولة، مثل معبد الإله «ننجرسو» والإلهة «يابا» والإلهة «نانشه» أو «نازي»، والإلهة «كاتمدگ» (Gatumdug) والإله «دموزي» والإله «أيگالم» (Igalim) والإلهة «أنانا» والإله «لوگال أورو» (Lugal uru) والإله «ننمار» والإله الشمس «أوتو» والإلهة «نندار» والإله «أنكي». وكان يتبع الإله «ننجرسو» ما بين 6000 و5000 من العمال والخدم، وخصص لمعبد الإلهة «نانشه» في مدينة «نينا» (سرغل) زهاء ألف تابع، وقدر عدد الخدم والعبيد التابعين لمعابد دولة لجش بنحو (10,000) شخص مضافاً إليهم نحو 20,000 شخص من الأحرار. وقدرت أملاك هذه المعابد من الأراضي الزراعية في حدود (500) إلى (600) كيلومتر مربع، وتكوّن هذه المساحة نسبة تربو على ربع مساحة تلك الدولة.

وما دمنا في ذكر أملاك المعابد من الأراضي الزراعية فيستحسن أن ننوّه بأنواع هذه الأراضي التي يمكن تصنيفها بوجه عام إلى ثلاثة أصناف غير خاضعة للبيع والشراء: (1) حقول تسمى بالسومرية (Nig-en-na) أو (Gana-nig-en-na) ومعناها الحرفي «أرض الرب أو السيد»، وقد خصصت كلها لخدمة المعبد، وكان يقع على سكان دولة المدينة العمل فيها لمنفعة المعبد

---

(1) انظر:

Diakanoff, *Ancient Mesopotamia*, 173ff.

وسد احتياجاته، وتجهز إدارة المعبد المسخرين للعمل بالبذور والأدوات اللازمة، (2) نوع ثانٍ من الحقول يطلق عليه بالسومرية (Gana-kur5) أو (Gana-kur-ra)، وكان هذا النوع من الأراضي يقسم إلى وحدات زراعية تعطى «باللزمة» إلى العمال الذين يشتغلون في أراضي المعبد من الصنف الأول، وتكون غلتها لإعالة هؤلاء العمال وإعاشتهم، ويخصص بعض غلتها كذلك إلى الخدم والتابعين إلى المعبد، (3) حقول تسمى بالسومرية: (Gana-uru4-la) أو (Gana-apin-la)، وكانت تؤجر إلى الفلاحين ولا سيما فلاحي أراضي المعبد من الصنف الثاني، مقابل حصة عينية من الغلة تتراوح ما بين السبع والثمن من الحاصل.

ومع أن حصة المعبد من أراضي دولة المدينة الزراعية كانت حصة جسيمة كما بينا، بيد أن ما كان يظن سابقاً من أن معظم الأراضي يعود إلى المعبد أمر مبالغ فيه، ولعل ما ذكرناه في تقدير هذه الحصة بنحو ربع الأراضي وعلى أكثر تقدير نصف الأراضي أقرب إلى الواقع. أما الأراضي العائدة إلى الأفراد الخاضعة إلى التملك الفردي وشؤونها المختلفة من بيع وشراء وإجارة فقد جاءتنا عنها مجموعات مهمة من الوثائق المدونة ولا سيما سجلات دولة لجش، وسجلات مدينة «شروباك» (تل فارة) وسبار (أبو حبة) و«أدب» (بسمي) وغيرها من المواقع الأثرية[1]. فتشير هذه الوثائق إلى أن عامة الناس في دولة المدينة كان باستطاعتهم امتلاك الحقول الزراعية، وفي الوقت نفسه يستبان من هذه الوثائق سعة الأراضي التي كانت تمتلكها الطبقات الأرستقراطية الحاكمة، مثل الحاكم (الأنسي (Ensi)) والملك وكبار موظفي الدولة والكهنة الذين ينتمون إلى هذه الطبقة المالكة، ولا تدخل الأراضي المعبدية في حوزتهم. وكان العمل في أراضي هذه الطبقة يتم باستخدام العبيد والتابعين إلى مالك الأرض من نوع رقيق الأرض أو من الأحرار المأجورين. وكانت ملكية الأرض وراثية وقابلة للتعامل مثل البيع والشراء والتأجير والرهان. ولكن يؤخذ

---

(1) المصدر ذاته المذكور في الهامش رقم 65.

من الوثائق التي بين أيدينا أن نقل الملكية ينبغي أن يتم بموافقة مجلس المدينة. ويمكن تقسيم سكان دولة المدينة من ناحية علاقتهم بالأراضي الزراعية إلى الصنفين التاليين: (1) جماعة من السكان يعتمدون في الحصول على الأرض التي يزرعونها على الملاك من الطبقة الحاكمة أو المعبد مقابل العمل في الحقل، (2) ملاك أحرار يملكون أراضيهم الخاصة بهم. كما يمكن تقسيم سكان دولة المدينة بالنسبة إلى طبقاتهم الاجتماعية إلى الأصناف الآتية: (1) الطبقة الحاكمة وهي في رأس المجتمع ومعها الطبقة المالكة الأرستقراطية ومنهم الكهنة وشيوخ المدينة (Shibût âli)، (2) عامة الناس من الأحرار من أهل الطبقة الوسطى والفلاحين الأحرار والصناع والأجراء، ولعل هؤلاء كانوا يؤلفون نصف السكان في دولة المدينة، (3) صنف الأتباع أو ما يضاهي المصطلح العربي «الموالي» (Clients)، ومنهم الصناع التابعون إلى المعبد وعماله المشتغلون في صناعاته المختلفة كالحياكة والنسيج وصنع الجعة والخمور وزراع أراضي المعبد، والتابعون إلى الطبقة الأرستقراطية، ويأتي في أسفل السلم الاجتماعي العبيد الأرقاء سواء كانوا مملوكين من جانب القصر أم المعبد أم الأفراد، ولا يسعنا في هذا المجال أن نتكلم عن مصدر العبيد مثل الأسر والشراء وأيلولة الأشخاص الأحرار إلى العبودية في حالات خاصة مثل عجزهم عن دفع ديونهم، إلى غير ذلك مما سنفرد له فصلاً خاصاً في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

موجز الحياة الاقتصادية:

يعد عصر فجر السلالات من حيث الرخاء والازدهار الاقتصادي من العهود المتميزة في حضارة وادي الرافدين، يدل على ذلك ما سبق أن أوجزناه من بقايا الآثار المادية التي كشفت عنها التنقيبات في المواضع الأثرية التي جرى فيها التحري، علماً بأن هذه المواضع لا تمثل في رأينا سوى نسبة صغيرة مما لا يزال ينتظر التحري والتنقيب. ولا يعسر على المتتبع أن يقف على الأسس التي قام عليها ذلك الرخاء الاقتصادي، وفي مقدمتها الزراعة

وخصب الأرض وجهاز ري منظم، بالإفادة من ميزة جغرافية تفردت بها بيئة وادي الرافدين، هي الثروات المائية الضخمة بالنسبة إلى صغر مساحة هذه البيئة. وقد رأينا مما مرّ بنا كيف بدأ اهتمام القوم بشؤون الري منذ المراحل الأولى للاستيطان في السهل الرسوبي، وازدادت العناية والمهارة في ضبط الري والفيضانات بحفر القنوات وإقامة السدود. وقد طفحت أخبار الحكام والملوك منذ عصر فجر السلالات بشؤون الري وطغت على أوجه النشاط الأخرى، مما سنخصص له فصلاً في الجزء الثاني. ويكفي في هذا الموجز أن ننوّه بما ذكرناه من آثار شؤون الري والأنهار في النصوص المدونة وحتى في القصص والأساطير. كما أن النزاع ما بين دويلات المدن في هذا العصر، مثل النزاع بين دولتي «لجش» و«اوما»، كان مرده بالدرجة الأولى إلى السيطرة على أنهار الري والتحكم في مصادر الري والاستحواذ على الأراضي الزراعية.

ويجدر أن نشير بهذا الصدد إلى ما سبق أن ذكرناه عن النزاع بين هاتين الدولتين كيف أن من جملة العقوبات التي فرضها «اياناتم»، ملك لجش على «اوما» من بعد انتصاره عليها أن تقوم بحفر نهر على الحدود ما بين الدولتين. ولضمان مياه الري الكافية حفر «اياناتم» أيضاً خزاناً للمياه ووسع فيه خليفته «انتمينا».

وكان الشعير والقمح، بكميّات أقل، في مقدمة الغلات الزراعية في عصر فجر السلالات وفي العصور التي أعقبته، ثم الذرة والسمسم. وتشير الوثائق المكتشفة في لجش إلى ازدهار البساتين من الأشجار المثمرة وفي مقدمتها النخيل وكذلك زراعة الخضراوات، وسيمر بنا تعداد أنواع هذه الأشجار والنباتات في الجزء الثاني من الكتاب. وإلى النشاط الزراعي اهتم القوم بتربية الماشية كالبقر والغنم والماعز والخنزير، وما كان يجنى منها من نتاج وصناعات مشتقة كالصوف والنسيج والألبان، وقد سبق أن ذكرنا المشهد الطريف الذي يصور جانباً من صناعة الألبان في القطعة المطعمة التي كشف عنها في معبد الإلهة «ننخرساگ» في تل العبيد، من عصر فجر السلالات

الثالث. ويجدر أن ننوّه في هذا الصدد بالسجلات الإدارية التي وصلت إلينا من لجش وفيها أسماء العمال والعاملات الملحقين بمعابد هذه الدويلة والمشتغلين في غزل الأصواف وغير ذلك من الصناعات اليدوية التي كانت المعابد تمارسها. وذكرت هذه الوثائق أيضاً مهنة مهمة تتعلق بواردات المعبد والسلطة الحاكمة، هي صيد الأسماك النهرية والبحرية، وهي الصناعة التي استمرت في الازدهار في العصور التأريخية التالية.

ومع أن الزراعة كانت في جميع عهود حضارة وادي الرافدين المورد الأساسي للازدهار الاقتصادي، بيد أنه ينبغي أن نضيف إليها مورداً آخر لا يقل عنها أهمية وشأناً، ونعني بذلك التجارة الخارجية التي كانت مع الزراعة ومشتقاتها عماد الحياة الاقتصادية في حضارة وادي الرافدين. فقد سبق أن قلنا إن البيئة الطبيعية التي نشأت فيها هذه الحضارة، أي السهل الرسوبي، فقيرة فقراً بارزاً في جميع المواد الأولية الضرورية لإنشاء الحضارة، كالمعادن والأحجار والأخشاب الصالحة للبناء، فكانت التجارة الوسيلة التي كان سكان وادي الرافدين يحصلون بها على مثل تلك المواد، مما ذكرناه في فصل المقدمة الجغرافية. وجاءت في النصوص المدونة التي خلفها حكام دولة لجش أمور ومعلومات مهمة عن النشاط التجاري الذي مارسه سكان العراق القديم في هذا العصر. يضاف إلى هذه الأخبار المدونة بقايا الآثار المادية، ومنها الآثار المعدنية والحجرية بمختلف أنواعها. وبالإمكان معرفة المصادر التي كانت تستورد منها، وقد سبق أن نوَّهنا بأشهر الطرق التجارية وذكرنا إنشاء الموانئ النهرية في معظم المدن المهمة وأن الدراسات التي تمت على الأحجار الكريمة وشبه الكريمة وكذلك المعادن مما وجد في أثناء التنقيبات مكنتنا من تعيين مصادر الكثير منها. فالنحاس مثلاً كان من النوع المخلوط بصورة طبيعية بمعدن «النيكل»، وهذا هو البرونز الطبيعي الذي يرجح أن مصدره كان «عمان» (في اليمن). أما الذهب الذي صنعت منه الآثار النفيسة التي كشف عنها من عصر فجر السلالات فكان من النوع المعروف بالغريني (Alluvial) الذي يمكن خلطه أو مزجه بالفضة لينتج المعدن المزيج المسمى

«الكتروم» (Electrum) وهو المعدن الذي صنعت منه قطع نفيسة من الآنية والأدوات الأخرى مما وجد في المقبرة الملكية في أور. وقد اقترح لمصدر الذهب في حضارة وادي الرافدين قطران معروفان، أما من بلاد أرمينية أو من القطر المسمى «ملوخا» الذي يرجح تعيينه بالحبشة أو بلاد النوبة. واستوردت طائفة من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة من بعض الجهات في أفغانستان و«بدخشان»، ولا سيما حجر اللازورد الجميل (Lapis lazulli) الذي استعمل بكثرة في آثار عصر فجر السلالات والعصور السابقة واللاحقة. ونذكر أيضاً العقيق بأنواعه المختلفة والصدف واللؤلؤ من مناطق الخليج ومن الجهات الشمالية الغربية من الهند، أي بلاد السند.

الحرب والأسلحة:

وننهي كلامنا على عصر فجر السلالات بإيجاز القول في نظام الحرب والأسلحة بالنظر إلى أن ذلك العصر كما مر بنا شغل بالحروب والنزاع ما بين دويلات المدن، فظهرت الحروب المنظمة لعله لأول مرة في تأريخ الحضارات.

ولعل خير ما يمثل لنا النزعة الحربية أو العسكرية (Militarism) التي سادت دول المدن هذه، الأخبار التي جاءت إلينا من عصر فجر السلالات، سواء كانت من الوثائق المدونة أم من القطع الفنية التي مثلت فيها مشاهد الحرب، مما أشرنا إلى بعضها مثل «مسلة النسور» العائدة إلى حاكم لجش «اياناتم» وراية أور الشهيرة، التي وجدت في المقبرة الملكية. وإذا رجعنا إلى أثبات الملوك السومرية التي أوردنا ترجمتها في موضع سابق من هذا الفصل وقفنا على تلك النزعة العسكرية. فهي عندما تذكر انتقال الحكم من مدينة إلى أخرى بقيام سلالة فيها تستعمل العبارة الطريفة: «دحرت المدينة الفلانية ونقلت ملوكيتها إلى المدينة الفلانية»، ولكن الترجمة الحرفية لتلك العبارة أقرب إلى تفسير الروح الحربية السائدة وهي: «ضربت المدينة بالسلاح أو ضربت بالسيف ونقلت ملوكيتها إلى المدينة كذا». أما فن النحت ولا سيما من الطور الثالث من عصر فجر السلالات الذي حكمت في أثنائه أشهر دول المدن، فإنه

لا يتفوق عليه في كثرة ما مثل فيه من مشاهد الحرب والقتال إلا الفن الآشوري.

هذا وليس بالإمكان تقدير الجيوش في دول المدن المختلفة. وكانت دولة لجش الدولة الوحيدة التي خلفت لنا وثائق لا بأس بها، ولعله يمكن تقدير جيشها بالنسبة إلى عدد سكانها الذي أوردنا تقديره فيما سبق. ومن هذه الأخبار المدونة أن معبد «لجش» الرئيسي جهز من أتباعه نحو (600) أو (500) رجل ليخدموا في جيش دولة المدينة. ويخبرنا «اياناتم» في أحد نصوصه المدونة أنه قتل من جيش دولة المدينة المعادية «اوما» (3600) رجل.

وإذا ما فحصنا القطع الفنية التي مثلت فيها المشاهد الحربية ولا سيما ما جاء إلينا من دولة لجش و«أور» وجدنا أن الصنوف الغالبة في جيوش عصر فجر السلالات العربات الحربية والجند المشاة، كما مثلت في «مسلة النسور» العائدة إلى «اياناتم». ولكن المشهد الممثل في راية «أور» الجميلة أكثر تفصيلاً في تمثيل الحرب والجيش. فنشاهد في الحقل الأعلى من هذه القطعة الفنية العربة الملكية وبجانبها الملك القائد. ويرينا المشهد الأسفل أربع عربات أخرى وهي مشتبكة في القتال. ويبدو أن عربات القتال هذه كانت تتسع لأكثر من مقاتل، والسلاح الشائع فيها الرمح والسيف المقوس نوعاً ما، ونوع آخر من السيوف على هيئة أوراق الشجر. ويكون مقدمة العربة الحربية محمياً بحاجز، وفيها جعبة للرماح الخاصة التي يرجح أنها كانت ترمى أو تقذف بنوع خاص من المقاليع أو المقاذف. والواقع أن هذا النوع من الرماح وجد في المقبرة الملكية في «أور»، وأنه هو الذي كان شائعاً في الاستعمال في عصر فجر السلالات بدلاً من القوس والسهم اللذين بدأ استعمالهما في الحرب من جانب المشاة من بعد ذلك العصر. أما الحيوانات المستعملة لجر العربات فكانت نوعاً من الحمر الوحشية المعروفة باسم (Onager)[1]. وكان يجر العربة

(1) انقرض هذا النوع من الحمير، وكان موجوداً في العالم قبل زهاء القرن الواحد:
CAH., I, part 2, (1971), 122.

الواحدة أربعة حيوانات في صف واحد، وتربطها أعنة تمرر من شق في أعلى مقدمة العربة ثم من عنان مزدوج مثبت بعمود العربة. وكانت هذه العربات ذات أشكال غريبة اختفت من الاستعمال في العصور التالية، فعجلاتها مثلاً كانت من النوع الصلد غير المشبك، وكان هيكلها الخشبي يغلف بجلود ثخينة قوية، وهي ذات جانبين واطئين ولكن مقدماتها عالية. وقد وجد من هذه العربات عدة أجزاء من المقبرة الملكية في «أور» ومن كيش، بالإضافة إلى النماذج المصغرة التي وصلت إلينا من مواضع كثيرة مثل «أور» وتل أجرب وتل أسمر، وفي المتحف العراقي نماذج منها.

أما صنف الفرسان أو الخيالة فلم يظهر في القتال إلا في أزمان متأخرة من بعد عصر فجر السلالات. وكان صنف المشاة كما تمثله القطع الفنية التي أشرنا إليها ينظم في المعركة على هيئة نظام الصف (Phalanx) الإغريقي والمقدوني، فكانت الصفوف تنظم الواحد خلف الآخر، وقد شرع الجند رماحهم بهيئة أفقية ويحمل كل منهم ترساً أو مجناً (Shield)، وتصف التروس الواحد جنب الآخر بحيث إنها تؤلف جداراً صلباً يحمي المحاربين المدججين بالسلاح، ويلبسون في رؤوسهم بيضات أو خوذاً معدنية مرصعة بالمعدن أيضاً. ويتقدم صفوف الجنود في الغالب بعض الجنود المسلحين تسليحاً خفيفاً، وينازلون نزالاً فردياً جنوداً من الأعداء بطريقة المبارزة. وكان الجند يسلحون بالإضافة إلى الرماح والسيوف بالخناجر أو الفؤوس. والمعدن الشائع في صنع مثل هذه الأسلحة البرونز حيث لم يستعمل الحديد بعد.

أما القذائف (Missiles) كالقوس والسهم فإنها لم تستعمل في عصر فجر السلالات، بل بدأ استعمالها في الحرب في العصر الآكدي التالي. كما لم تستعمل الآلات القاذفة الأخرى مما استعمل في العصور التالية. وكان عماد التسلح بوجه عام الأسلحة الثقيلة والنزال الفردي وقتال نظام الصف. ومع أن القوس والسهم كانا معروفين منذ عصور أقدم من عصر فجر السلالات كما تشير إلى ذلك الصور المنقوشة على الأختام الإسطوانية والأواني الفخارية

والمنحوتات مثل مسلة صيد الأسود من الوركاء، إلا أنها كانت مقتصرة في استعمالها على الصيد دون الحرب. وعلى الرغم من أنه لم تأت إلينا مشاهد مصورة عن آلات الحصار والنقض ودك الأسوار، إلا أن المرجح أن نوعاً من مثل هذه الآلات كان معروفاً، ذلك لأن مدن عصر فجر السلالات كانت مسورة في الغالب كما بينا. ولعلهم اتبعوا في نقض أسوار المدن طريقة إقامة مدارج أو منحدرات ترابية (Ramp) على الأسوار ثم تسلقها والرقي بواسطتها إلى أعاليها، وهي الطريقة التي شاعت عند الآشوريين واليونان والرومان بالإضافة إلا آلات الحصار الأخرى.

الفصل السادس

الأمبراطورية الآكدية ودولة (أور) الثالثة

رأينا في الفصل السابق كيف انتهى عصر فجر السلالات أو عصر دول المدن بتوحيد دويلات المدن الحاكمة على يد آخر حكام ذلك العهد المسمى «لوگال زاكيزي» الذي استطاع أن يخضعها إلى سلطانه فيؤسس بذلك مملكة القطر بعد أن كان النظام السياسي السائد في العراق نظام دولة المدينة على نحو ما مر بنا، ورأينا كذلك كيف وسع ذلك القائد العظيم مملكته فمدَّها بالفتوح إلى خارج القطر وأقام بذلك ما يصح أن نسميه الأمبراطورية. وبعد نحو ربع قرن من قيام «لوگال زاكيزي» برز في أحداث تاريخ وادي الرافدين حاكم آخر برهن على أنه أشد عزيمة وأصلب عوداً من لوكال زاكيزي، وذلك هو الملك «سرجون الآكدي» الذي نازعه السلطة والزعامة وأحرز الغلبة عليه وأسس سلالة حاكمة عرفت بالسلالة الآكدية أو الدولة الآكدية (2334 ـ 2154ق.م أو 2371 ـ 2230ق.م)، أي إنها دامت أكثر من قرن ونصف القرن وشمل حكمها القطر كله واتسع بالفتوحات الخارجية إلى الأقطار المجاورة. أما التسمية «آكدي» و«آكديون» فقد سبق أن تطرقنا إليها في كلامنا على أقوام حضارة وادي الرافدين في فصل المقدمة الجغرافية. وقد رأينا أن هذه التسمية مشتقة من اسم مدينة «آكد» أو آكادة التي أسسها مؤسس السلالة سرجون واتخذها عاصمة له، فهي بذلك تسمية لاحقة لوجود الآكديين في وادي الرافدين، وهم الساميون الذين نزحوا إليه منذ أقدم العصور التأريخية وعاشوا جنباً إلى جنب مع الأقوام الأخرى وفي مقدمتهم السومريون الذين رأيناهم يقومون بالدور البارز في إنشاء حضارة وادي الرافدين ولا سيما في

العصر الذي سميناه عصر فجر السلالات أو عصر دول المدن حيث ساد السومريون سياسياً وثقافياً ولغوياً.

ومع أن حكم سرجون وعهد السلالة التي أسسها كما قلنا لا يمثلان هجرة سامية جديدة أو أول استيطان للساميين في العراق بل مجرد قيام أول سلالة حاكمة منهم، بيد أن العهد الآكدي الجديد يحدد نهاية عصر وبداية عصر جديد بدأت فيه ملامح حضارة وادي الرافدين تتبدل تبدلاً أساسياً من الناحية القومية واللغوية والسياسية، كما ظهرت عناصر ومقومات حضارية جديدة. فعلى الصعيد اللغوي بدأت اللغة الآكدية (وهي السامية الشرقية من عائلة اللغات السامية) تأخذ المكان البارز بكونها اللغة الرسمية المدونة إلى جانب كونها لغة محكية منذ أقدم الأزمان. واستمرت هذه اللغة في بروزها وتفوقها على اللغة السومرية في العصور التالية إلى أن صارت اللغة السائدة منذ العصر البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) تدويناً وتكلماً، واقتصر الأمر في اللغة السومرية على استمرارها لغة حضارية مدونة جنباً إلى جنب مع اللغة الآكدية. وسنرى من كلامنا على أعمال سرجون وخلفائه طائفة من الأشياء الجديدة التي ظهرت في حضارة وادي الرافدين بوجه عام والنظم السياسية والاجتماعية والحربية بوجه خاص. فإلى جانب اللقب السياسي الذي ابتدعه «لوكال زاكيزي»، أي ملك القطر وملك بلاد سومر، اتخذ سرجون أو حفيده «نرام ـ سين» لقباً جديداً هو «ملك الجهات الأربع»[1]، وهو لقب بالإضافة إلى كونه مظهراً من مظاهر اتساع السلطة وازدياد رقعة المملكة، ذو مدلول ديني لتثبيت السلطان السياسي، فقد كان لقباً خاصاً ببعض الآلهة العظام مثل «آنو» و«أنليل» و«شمش»، بصفتهم أسياد الخليفة والكون، وباتخاذ الملوك الآكديين هذا اللقب صاروا ممثلين لهؤلاء الآلهة في حكم العالم.

ومن مظاهر سعي الملوك الآكديين لتثبيت سلطانهم وطاعتهم أن سرجون

---

(1) نص هذا اللقب باللغة الآكدية: «شار كبرات اربعيم أو عربيتم» وبالسومرية Lugal an-ubda limmu-ba.

أدخل اسم الملك في العقود القانونية مع أسماء الآلهة، كما أنه جعل القضاة مجرد موظفين يعينهم الملك بعد أن كانوا في العهود السابقة أشبه ما يكونون بالمحكمين. أما في هذا العهد الجديد فقد صارت أحكامهم وأقضيتهم ملزمة لأنهم يحكمون باسم الملك[1]. ومن الوسائل التي أدخلها سرجون لتوطيد وحدة المملكة توحيد التقويم بعد أن كان لكل دولة مدينة في العصر السابق تقويمها الخاص بها وأسماء أشهرها وأعيادها الخاصة.

وسنرى من كلامنا على حكم سرجون أن هذا الملك لم يثق بولاء دول المدن السومرية التي أخضعها إلى حكمه، بل اعتمد بالدرجة الأولى على أتباعه الذين أقطعهم الأراضي، كما أنه عين من جانبه حكاماً على المدن والولايات التابعة وأبطل نظام تولي مثل هذه المناصب بالوراثة، وإلى ذلك أزال أسوار المدن، وصار حكام المدن في عهد حفيده «نرام ـ سين» يلقبون أنفسهم: «عبد الملك»[2]، وهو العرف الذي استمر إلى العهود التالية. والمرجح كثيراً أن سرجون كان أول من أوجد نظام الجيش القائم الدائم وأحدث تغييرات أساسية في أساليب القتال والسلاح، ومما لا شك فيه أن يكون ذلك من جملة العوامل التي مكنته من غلبة خصمه «لوكال زاكيزي». فقد أبطل استعمال الأسلحة الثقيلة السائدة في عصر فجر السلالات والتي كانت لا تساعد على المرونة في الحركة والمناورة في ميدان القتال، كما يرجح أنه أبطل أيضاً نظام الصف (Phalanx) الثقيل وأكثر من استعمال الأسلحة الخفيفة وفي مقدمتها أسلحة الرماية والقذف مثل القوس والسهم.

وإذا كان الآكديون قد اقتبسوا الشيء الكثير من تراث السومريين الفني فإننا مع ذلك نلاحظ في فن العصر الآكدي روحاً جديدة تتسم بالقوة والحركة والحيوية مما يمكن الوقوف عليه في المنحوتات وفي فن نقش الأختام

---

(1) انظر حول ذلك:

Frankfort, Kingship and the Gods, (1954), 406.

(2) راجع: Frankfort, *The Birth of Civilization*, p. 74.

الإسطوانية التي جاءت إلينا من هذا العصر، ويكفي أن نذكر بهذا الصدد الرأس البرونزي المسبوك الذي وجد في نينوى، وهو يمثل إما سرجون أو حفيده «نيرام - سين» ويعد على قدر عظيم من البراعة الفنية، ونذكر أيضاً المنحوتات الجميلة التي خلفها «نرام - سين» ويشاهد فيها قوة التعبير والحركة الحيوية.

ومن الأمور الحضارية التي يجدر التنويه بها في موضوع انتقال السلطة السياسية إلى الآكديين الساميين انتفاء الصراع القومي الذي كان يفترضه الباحثون القدماء ما بين الساميين وبين السومريين على أن منشأه أسباب قومية. إذ الواقع من الأمر أن الملوك الآكديين إذ كانوا قد اتخذوا القسوة إزاء بعض المدن السومرية فإن سبب ذلك لأنها أعلنت الثورة وليس لأن أهلها من السومريين، وأنهم ساروا على السياسة نفسها تجاه بعض المدن الآكدية إذ أظهرت العصيان. وعلى الرغم من حلول بعض الملاك الآكديين محل أهل بعض المدن السومرية توجد أدلة تأريخية مهمة تشير إلى المعاملة العادلة القانونية التي عومل بها أصحاب الأملاك المنتزعة منهم أملاكهم، ومن الأمثلة على ذلك أن الملك الآكدي «مانشتوسو» لم يغتصب الأملاك التي استحوذ عليها بل عوّض عنها تعويضاً عادلاً كما جاء ذلك في نصوص مسلته التأريخية المشهورة[1]، ومع أن كتابة هذه المسلة لا تذكر الأغراض التي اشتريت من

---

(1) وهي مسلة شبه هرمية من حجر الديوريت الأسود، ارتفاعها نحو (5) أقدام، وهي منقوشة بكتابة آكدية من 69 عموداً أو حقلاً من الكتابة تسجل صفقات شراء أراضٍ من جانب الملك «مانشتوسو» في بعض المدن. ويرى الأستاذ «گلب» (Gelb) أن هذه المسلة نسخة زورت في العصر البابلي القديم (الألف الثاني ق.م). وقد عثر عليها في مدينة «سوسة» (عاصمة بلاد عيلام) حيث كانت من بين الغنائم التي أخذها العيلاميون من وادي الرافدين في نهاية العهد الكشي (القرن الثاني عشر ق.م). انظر نص المسلة وترجمتها في المرجع المرموز له بـ:

MDP, I, pl. IX, Tome 2, pl. 1ff.

وعن النصوص الأخرى من هذا العهد انظر:

Gelb, *Sargonic Texts from The Diyala Region.*

أجلها تلك الأراضي، إلا أن أغلب الظن أنها خصصت لأتباع هذا الملك من المحاربين الآكديين، وقد جاء من بين الأسماء اثنان من أبناء حاكم مدينة «اوما» السومري، واسم بهيئة «أوروكاجينا» ابن «اينكلسا» حاكم لجش ولا يعلم بوجه التأكيد هل أن «أوروكاجينا» هذا هو الذي أزاحه «لوكال زاكيزي» من الحكم. وجاءنا من العصر الآكدي عدد غير قليل من الوثائق الخاصة بالمعاملات التجارية والاقتصادية والإدارية من جملة مواقع قديمة مثل المواضع الأثرية في منطقة ديالى ومن «سوسة» ومدينة «نوزي» يورغان تبه الآن بالقرب من كركوك، وكان اسم هذه المدينة في العصر الآكدي «گاسر» (Gasur).

ويستشف من مثل هذه الوثائق بوادر الانتقال من الاقتصاد المعبدي الذي كان سائداً في عصر فجر السلالات السابق إلى النظام العلماني في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. والجدير بالملاحظة عن ألواح الطين الخاصة بالعصر الآكدي أنها ذات أشكال تسهل معرفتها بمجرد النظر إليها، فبالمقابلة مع ألواح عصر فجر السلالات المدورة الأشكال تقريباً أو المدورة الزوايا وذات الكتابة غير المنتظمة، تميزت ألواح العصر الآكدي بجودة طينتها وبأشكالها المستطيلة وانتظام كتابتها وتخطيط أسطرها، حيث العلامات المسمارية منقوشة بعناية ودقة، وتمتاز أيضاً بجمال منظرها بوجه عام، ولم يضاهها من هذه الناحية إلا الألواح الآشورية وبوجه خاص ألواح مكتبة الملك الآشوري «آشور بانيبال».
هذا وقد سبق أن أشرنا إلى بعض التغييرات التي أحدثها الآكديون الساميون في نظام الخط المسماري الذي أوجد في الأصل لتدوين لغة غير اللغة الآكدية بل اللغة السومرية، فاقتضى إجراء بعض التحويرات ليلائم تأدية تدوين اللغة الآكدية. كما أن هذه اللغة بدورها تأثرت من جراء تدوينها بهذا الخط المسماري، ولا سيما أصواتها في اختفاء بعضها من الكتابة وبوجه خاص حروف الحلق والأصوات السامية الأخرى مثل الضاد والظاء والعين والحاء لعدم وجود علامات مسمارية خاصة تؤديها. وظهرت منذ العهد الآكدي ظاهرة لغوية في نظام الخط المسماري هي أن العلامات المتخذة رموزاً (أي

العلامات التي تقوم مقام الكلمات) للتعبير عن كلمات سومرية صارت تقرأ في اللغة الآكدية بما يرادفها من كلمات في هذه اللغة، واستتبع عن ذلك الحاجة إلى وضع معاجم ولا سيما في العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) لشرح العلامات المسمارية بما يرادفها من كلمات وقِيم آكدية.

الفتوح الآكدية ونتائجها:

قبل أن نتناول ملوك الدولة الآكدية وأعمالهم نواصل هذه المقدمة العامة عن العصر الآكدي بذكر ما نتج عن الفتوح الآكدية الخارجية التي قام بها سرجون وخلفاؤه وأشهرهم حفيده «نرام - سين»، فقد أسفرت تلك الفتوح عن تكوين أمبراطورية واسعة شملت معظم أجزاء الهلال الخصيب وبلاد عيلام والأقسام الشرقية من آسية الصغرى إلى سواحل البحر المتوسط. وقد التقى النفوذ المصري في أواخر ما يسمى بالدولة القديمة أو عصر الأهرام بالنفوذ الآكدي في مدن الساحل الفينيقية مثل جبيل وصور وصيدا، ولكن لم يحدث اصطدام مسلح بين الدولتين في هذا العصر، وسنرى من كلامنا على عهد مؤسس الدولة الآكدية «سرجون» كيف أن الكتابات التأريخية من العهود التي أعقبت العصر الآكدي تروي لنا غزو «سرجون» إقليم «كبدوكية» في شرقي الأناضول لنجدة مستعمرة من التجار الآكديين تأسست هناك للتجارة بالصوف والفضة كما يرجح امتداد النفوذ السياسي والثقافي في كريت وقبرص بدلالة ما وجد في هذه الجهات النائية من آثار حضارة وادي الرافدين وفي مقدمتها الأختام الإسطوانية. وأبانت التحريات الآثارية التي أجريت في منطقة الخابور وجهات الجزيرة العليا وجود مستوطنات من العصر الآكدي ومن العصور السابقة، نخص بالذكر منها الحصن الذي شيّده «نرام - سين» في تل «براك» على الخابور، الأمر الذي يشير إلى اتساع السيطرة الآكدية وعناية ملوك الدولة الآكدية في ضمان السيطرة على الطرق التجارية المهمة ما بين العراق وسورية الشمالية وموانئ البحر المتوسط وبلاد الأناضول. وسنشاهد اتساع الأمبراطورية الآكدية في عهد «نرام - سين»، حفيد سرجون، حيث مد نفوذه

إلى إيران وسورية الشمالية، كما ازداد النشاط التجاري مع الخارج إلى أقاليم نائية مثل «مجان» أو «مگان» (عمان في بلاد اليمن) ومثل البلاد المسماة «ملوخا» التي عينت في العصور القديمة بأنها في بلاد السند ثم بلاد نوبيا، كما ازدادت الاتصالات مع سواحل الجزيرة وفي مقدمتها بلاد «دلمون» أو «تلمون» التي أصبح تعيينها بالبحرين من الأمور المؤكدة تقريباً، ومما لا شك فيه أن يكون مثل هذه الاتصالات قد تمّ عن طريق البحر، كل ذلك لجلب المواد الخام مثل النحاس والأحجار الكريمة وشبه الكريمة، مما نوَّهنا به أكثر من مرة في كلامنا على عصر فجر السلالات السابق.

كانت الفتوح الآكدية تستهدف بالدرجة الأولى السيطرة على البقاع الغنية بالموارد والمواد الأولية الضرورية لازدهار الحضارة. وكان الحصول على مثل هذه المواد يتم في العصور السابقة ولا سيما في عصر فجر السلالات السابق عن طريق التجارة الخارجية، ولكن هذه الوسيلة لم تكن مضمونة على الدوام ثم إن النزاع ما بين دول المدن في ذلك العصر وتضارب مصالحها الاقتصادية وتنافسها كان من العوامل المعوقة لازدهار التجارة الخارجية. هذا وقد رأينا كيف أن آخر حكام عصر فجر السلالات المسمى «لوكال زاكيزي» قد مد فتوحه إلى مصادر تلك المواد الأولية، ولكن السلالة الآكدية قد حققت السيطرة الفعلية الدائمة تقريباً على أشهر مصادر التجارة الخارجية، فيكون الفتح الآكدي على ذلك أول نظام للأمبراطورية وطلائع الاستعمار الاقتصادي المباشر.

ونرانا في غنى عن القول إن تلك الفتوح كان لها أثر بعيد في تأريخ الحضارات البشرية، والاتصالات المباشرة ما بين شعوب منطقة الشرق الأدنى،ونشر حضارة وادي الرافدين في أقاليمه، فبدأ انتشار استعمال الكتابة المسمارية حيث استعارت الشعوب المجاورة الخط المسماري لتدوين لغاتها المختلفة، وإلى هذا انتشرت عناصر الحضارة ومقوماتها، من بينها الكثير من الأساليب الأدبية والقصص والأساطير والمعتقدات الدينية، وكانت عاملاً مهماً

في تحضر كثير من الشعوب البدائية المتاخمة لوادي الرافدين عن طريق اقتباسها من عناصر هذه الحضارة وأساليبها الحربية وأسلحتها. وقد تمكن بعض الأقوام الجبلية الذين ورد ذكرهم باسم الكوتيين من الجهات الشمالية الشرقية أن تقضي على الدولة الآكدية في نهاية الأمر بعد اقتباسها فنون الحرب والسلاح من الآكديين.

ملوك الدولة الآكدية:

1 ـ سرجون:

بعد أن أوجزنا ما تميز به العهد الآكدي من خصائص حضارية وسياسية نتكلم عن أبرز الأعمال التي اضطلع بها ملوك السلالة الآكدية[1] وسير الأحداث التأريخية في حضارة وادي الرافدين في عهدها. فنبدأ بإيجاز سيرة مؤسس هذه السلالة، سرجون الآكدي الشهير. وأول ما نذكره عنه أننا لا نعرف اسمه الحقيقي. أما التسمية «سرجون»، التي تعني «الملك الصادق» أو «الملك الحق» (بالآكدية شرو ـ كين) فأغلب الظن أنها تسمية اصطنعها هذا

---

(1) حكم من السلالة الآكدية عشرة ملوك، اشتهر منهم الخمسة الأوائل. وقد اختلف في تواريخ حكمهم. ونورد فيما يلي أشهر تأريخيين لعهودهم:

(1) سرجون (2334 ـ 2279) (2371 ـ 2316).

(2) رموش (2278 ـ 2270) (2315 ـ 2307).

(3) مانشتوسو (2269 ـ 255) (2306 ـ 2292).

(4) نرام ـ سين (2254 ـ 2118) (2291 ـ 225)...

(5) شار ـ كالي ـ شري (2217 ـ 2193) (2254 ـ 2230).

(6) ايكيكي. (7) نانيؤم. (8) (2192 ـ 2190).

(9) دودو (2189 ـ 2169). (10) شودورل (2168 ـ 2154) فالأرقام الأولى التي في جهة اليمين اتبعت في المرجع:

L. Oppenheim, *Ancient Mesopotamia* (1964).

والأرقام الثانية التي تليها سار عليها المرجع:

Saggs, *The Greatness That Was Babylon* (1962).

الملك في الفترة الأولى من حكمه، من بعد أن استقل عن تبعيته إلى ملك «كيش». وهي تسمية نالت شهرة واسعة بين ملوك العراق القديم، بحيث اتخذها ملكان من مشاهير الملوك الآشوريين. ويؤخذ من الإشارات الكثيرة التي وردت عن سرجون في النصوص المتأخرة عن عهده أن هذا الملك دون أعماله المختلفة وأخبار فتوحه في عدة نصوص، ولكن لم يأتِ إلينا منها إلا النزر اليسير ولعل الاكتشافات المقبلة ستكمل هذا النقص، أما الآن فإن أغلب النصوص التأريخية التي بين أيدينا عن سرجون كما قلنا نسخ يرجع زمنها إلى العصور المتأخرة، وأقدمها النسخ التي خلفها لنا كتبة مدينة «نفر» التابعون لمعبد إله هذه المدينة «أنليل»، ومعظمها من العصر البابلي القديم، ويليها في الزمن النسخ الآشورية[1]. ومن قبيل هذه المصادر المتأخرة الإشارات التأريخية المهمة الواردة في الكتابات التي تعرف بنصوص الفأل والتنبؤ (Omen Texts). فمن النصوص الطريفة التي ترجع إلى العصر الآشوري الحديث (القرن السابع ق.م) أسطورة تتعلق بأصل سرجون وطفولته، اشتهرت في تأريخ حضارة وادي الرافدين، وهي ذات شبه كبير بأسطورة طفولة النبي «موسى» المشهورة في التوراة. ويلاحظ في أسطورة سرجون أنها جاءت على لسان هذا الملك (أي بضمير المتكلم) إذ يقول: إن أمي كانت كاهنة (؟) ولم أعرف أبي وكان متجولاً، وأصلي من مدينة «آزوفيرانو» (مدينة الزعفران) على الفرات. وحملت بي أمي ووضعتني سراً، فأخفتني في سلة من الحلفاء مقيرة،

---

(1) حول النصوص الخاصة بحكم سرجون وملوك السلالة الآكدية بوجه عام نورد المراجع الأساسية الآتية:

Barton, *RISA,*; Thureau - Dangin, *SAK.*; King, *Chronicles Concerning Early Babylonian Kings*, II (1907).

H. E. Hirsch in *Archiv Für Orientforschung*, XX (1963), 1ff.;

Albright, «The Epic of the Battle» in *JSOR*, 7, (1923), 1ff.;

Albright. «A Babylonian Geographical Treatise on Sargon of Akkas Empire», in *JAOS*, 45, (1925), 193ff.;

Goetze, «HistoricalAllusions in Old Babylonian Omen Texts», in *JCS*. I, (1947).

وغطتها ورمتني في الماء[1] الذي لم يغرقني. وحملني الماء إلى «آكي»، ساقي الماء، فانتشلني «آكي» ورباني واتخذني ولداً وعينني بستانياً عنده. وبينا كنت أعمل بستانياً أحبتني عشتار. وتوليت الملوكية طوال أربع و....سنة. وهنا ينخرم النص، ولكن يمكن إكماله في نص سومري للأسطورة، ومما جاء من ملاحظة عنه في أثبات الملوك السومرية من أنه كان ساقياً عند ملك مدينة «كيش» المسمى «أور ـ زبابا»، وهو ثاني ملك من سلالة هذه المدينة الرابعة، وأن سرجون بالإضافة إلى الرعاية التي أولته إياها الإلهة عشتار نال رضا الإله «مردوخ» الذي غضب على ملك كيش لأنه أهمل شعائر معبده «ايساكلا» (E-sag-ila) في بابل. هذا ولا يعلم بوجه التأكيد هل استقل سرجون عن «أور ـ زبابا»، ملك كيش عن طريق ثورة أطاحت به. على أن دلاله أثبات الملوك السومرية تشير إلى أن سلالة كيش التي حكم فيها هذا الملك قد استمرت في الحكم إذ خلف «أور ـ زبابا» السالف الذكر خمسة ملوك، وكانت السلالة التي أعقبت سلالة كيش في حكم البلاد ليست سلالة «اكاده» (سلالة سرجون) وإنما سلالة الوركاء الثالثة التي أسسها «لوكال زاكيزي» الذي قضى عليه سرجون. وإذا سلمنا بدلالة أثبات الملوك فيكون تفسير الموقف السياسي أن سرجون لم يستطع القضاء على سلالة الملك «أور ـ زبابا» في كيش، بل إنه استقل عن تبعيته لها وأسس حكمه في المدينة الجديدة التي ابتناها، أي عاصمته «أكد» أو «اكاده»، وأن الذي قضى على سلالة كيش كان

---

(1) أغلب الظن أن السبب الذي دفع أمه على أن ترميه في الماء أنها كانت من طبقة عليا من الكاهنات تسمى الواحدة منهن «اينتم» (Entum) حرم عليهن الزواج ما دمن في أثناء خدمتهن الدينية، وحرم عليهن إنجاب الأطفال. قارن هذا بالنظام الذي كانت تسير عليه رومة القديمة بالنسبة إلى صنف الكاهنات العذارى (Vestals). واعتاد الباحثون ترجمة النص بعبارة «أمي وضيعة» ولكن الدراسات الحديثة أثبتت أن المصطلح الوارد في النص بهيئة (Enitum) ليس إلا صيغة أخرى لكلمة (Entum) التي تعني «الكاهنة العليا». انظر معجم شيكاغو تحت مادة (énu). وعلى هذا كان سرجون من الطبقات العليا في المجتمع، إذ جرى العرف أن الكاهنات العليا كن بنات الملوك والحكام.

«لوكال ـ زاكيزي» الذي نازعه سرجون زعامة البلاد وقضى عليه. والمرجح كثيراً أن سرجون شغل نفسه في هذا الفترة الأولى من حكمه بتثبيت استقلاله وتأسيس عاصمة مملكته، وكان هذا مظهراً من مظاهر استقلاله.

سمى سرجون عاصمته الجديدة «أكد» أو «اگاده»، التي قلنا إن النسبة إليها صارت تطلق على الساميين في العراق، أي الآكديين، كما نسب إليها القسم الخاص بهم من السهل الرسوبي وهو القسم الأوسط، أي «بلاد أكد» المرادفة للمصطلح السومري «گي ـ أوري» (Ki-Uri). هذا ولا يعرف اشتقاق اسم هذه المدينة ومعناه. كما لم يحدد بعد موقع بقاياها، وإنما يمكن القول بوجه عام إنها تقع في موضع ما بين منطقة بلدة المحمودية وبين مدينة بابل (بجوار مدينة الحلة)، ولا يستبعد احتمال أنها أسست بالقرب من كيش وبابل أو بالقرب من مدينة «سبار» (أبو حبة الآن قرب اليوسفية)، وكان الرأي عند بعض الباحثين أنها تل الدير الواقع في الطريق الذاهب إلى مركز ناحية اليوسفية، ولكن تحريات مديرية الآثار في هذا الموضع الأثري (1940ـ1941) وتحريات البعثة البلجيكية فيه من بعد ذلك (منذ عام 1970) لم تظهر ما يؤيد هذا الظن. وهناك احتمال آخر في أن مدينة «أگاده» كانت بابل نفسها، حيث يذكر أحد نصوص الفأل من العهود المتأخرة أن سرجون أخذ تراب بابل لتأسيس مدينة تنافسها، الأمر الذي أغضب إلهها مردوخ، وصار هذا الحدث من الأسباب في سقوط سلطان الآكديين.

ومما يقال عن الأحداث في حكم سرجون إن تسلسلها غير معروف على وجه التأكيد لانتفاء النصوص المتعلقة بالموضوع، وإن جل استنادنا في ترتيبها الزمني يعتمد على ما ينبغي أن تكون عليه مجريات الحوادث من الناحية المنطقية التأريخية. وعلى ضوء هذا المنطق يبدو أن الأمر المهم الثاني الذي وجه إليه سرجون نشاطه من بعد تأسيس عاصمته تصفية الحساب مع «لوكال زاكيزي»، الذي رأيناه من بعد قضائه على دول المدن يؤسس مملكة شملت معظم أنحاء البلاد ويمد سلطانه بالفتوح الخارجية.

ومع أننا نجهل تفاصيل المعركة أو المعارك التي نشبت بين هذين

البطلين، بيد أنها كانت على ما ينبغي حرباً عنيفة بالنظر إلى ما عرف به لوكال زاكيزي من البأس والقوة، وأن هجوم سرجون على مدينة الوركاء، عاصمة خصمه، كان كذلك هجوماً مباغتاً دمرت فيه أسوار المدينة واستطاع أن يأسر «لوكال زاكيزي» ويأتي به مصفداً بالأغلال إلى باب الإله «أنليل» في مدينة نفر تذكاراً لنصره العظيم. وبعد تغلب سرجون على خصمه القوي شرع يخضع مدن بلاد سومر الواحدة تلو الأخرى ويدمر أسوارها، مبتدئ بأولى مدينة في الجنوب، هي مدينة «أور» ثم دولة مدينة «لجش» التي يبدو أنها حالفت «أور» في حربهما الدفاعية، فقضى عليها وتمّ إخضاع المدن الأخرى التابعة لها، وتبعها دولة المدينة المجاورة «أوما» (تل جوخة)، واستمر في إخضاع المدن الأخرى، وكلّل انتصاراته على بلاد سومر بالسيطرة على منطقة الخليج واستطاع أن يضمن منفذاً من أهم المنافذ في طرق التجارة الخارجية، وجاء في نصوصه التأريخية أن سفن ملوخا ومگان (عمان) وتلمون (البحرين) كانت ترسو في ميناء عاصمته أكد.

وبعد أن تمت لسرجون السيطرة على جميع القطر، وبوجه خاص بلاد «سومر وأكد» ووطد حكمه الداخلي ووضع التنظيمات الإدارية مما أشرنا إليه في أول كلامنا على العهد الآكدي، وجه نشاطه إلى حقل الفتوح الخارجية التي أوجزنا نتائجها وآثارها سياسياً وحضارياً واقتصادياً. وقد شرع من سلسلة فتوحاته الخارجية بإخضاع المدن الواقعة على طوال نهر الفرات والاستيلاء على بلاد الشام وسيطر على أشهر الموانئ الفينيقية على البحر المتوسط مثل «ابلا» (جبيل) و«يارموتي» (لعلها جنوب جبيل)، وبلغ غابات الأرز المشهورة ومنها إلى الجبال التي ورد ذكرها في أخباره باسم جبال الفضة أي جبال «طوروس»، والمرجح كثيراً أنه فتح الأجزاء الشرقية من آسية الصغرى، ولا سيما «كبدوكية». ومما له علاقة بتغلغله إلى آسية الصغرى القصة الطريفة التي وردت بعنوان «ملك الحرب» (وبالآكدية شار ـ تمخاري)، وهي ملحمة قصيرة لا يعلم زمن تدوينها ولكن النص الذي جاءنا عنها وجد في لوح من الألواح المسمارية التي عثر عليها في «تل العمارنة» (في مصر الوسطى، وهي

عاصمة الفرعون الشهير أخناتون، القرن الرابع عشر ق.م)[1]، كما وجدت لها نسخة باللغة الحثية في «بوغازكوي» (موضع العاصمة الحثية «حاتوشاش»)، كما أشار إلى فتوح سرجون في آسية الصغرى الملك الحثي المسمى «حاتوشيلش» الأول (1650ق.م). وخلاصة هذه الملحمة أن جماعات من التجار الآكديين كانوا يقيمون في المدينة المسماة «بورشخندا» أرسلوا إلى سرجون يستعطفونه في حمايتهم من الاضطهاد الذي حلّ بهم من جانب حاكم هذه المدينة، فاستجاب سرجون لشكواهم وخف لنجدتهم بحملة حربية وجهها إلى تلك البلاد النائية ولاقى فيها الصعاب، ولما بلغ المدينة استسلم له الحاكم ويبدو أن معاهدة فرضت عليه. وأغلب الظن أن تلك الملحمة القصيرة كانت على شيء كبير من الحقيقة التأريخية فإن تلك المدينة ذكرت أيضاً من بين الأقاليم التي فتحها حفيده «نرام ـ سين». وأكثر من هذا يؤخذ من المصادر الآشورية ولا سيما تلك الوثائق التي نظمت على هيئة أثبات بالأسماء الجغرافية والمسافات ما بينها التي يظهر سرجون في الكثير منها فاتحاً، أن هذا الفاتح العظيم تعدى أقاليم «البحر الأعلى» (البحر المتوسط) المشهورة، فذكرت ضمن الأقاليم البعيدة التي فتحها «كفتارا» (Kaptara) التي هي بلا شك جزيرة «كريت» الواردة في التوراة بالصيغة نفسها تقريباً أي بهيئة «كفتور»، ولعل مما يؤيد حقيقة هذا الفتح ما عثر عليه حديثاً من أختام إسطوانية من العهد الآكدي في جزيرة قبرص[2]. وتذكر تلك الأثبات إلى جانب «كفتارا» السالفة الذكر موضعاً جغرافياً باسم «بلد القصدير» أو الرصاص (أنكو Annaku بالبابلية)[3].

---

(1) عن نص هذه الملحمة القصيرة راجع المصادر الخاصة بحكم سرجون، وراجع تحليل النص في: CAH, I, Part 2, (1971), p. 426.

(2) انظر عن هذا الموضوع:
C. H. Gordon, *Before The Bible*, (1962), 28f.

(3) حول تحديد معنى الكلمة الآكدية «انكوم» (قارن العربية أنك) بالقصدير أو الرصاص راجع البحث الآتي:
Laessoe, «Akkadian *Annaku*, Tinor Lead» in *Acta Oritntalia*, 24 (1959), 83ff.

وبعد استيلاء سرجون على بلاد آشور ومدنها المشهورة مثل نينوى[1] وآشور وغيرها وجه نشاطه العسكري إلى الجهات الشرقية والشمالية الشرقية أي الأقاليم الجبلية المتاخمة لبلاد آشور، وشملت أيضاً أجزاء مهمة من بلاد إيران، ومنها بلاد عيلام، وقد جاءتنا بهذا الصدد قائمة بأسماء الحكام التابعين إلى سرجون. وتحدد فتوح سرجون في بلاد عيلام نهاية الدائرة الكبرى التي شملتها تلك الفتوح.

خلفاء سرجون:

تذكر نصوص الفأل والتواريخ (Chronicles) المتأخرة أن ثورات داخلية وخارجية قامت في أواخر حكم سرجون، ولكن ذلك الأسد رغم شيخوخته لم يزل حادّ الأنياب والمخالب فقضى على الثائرين وقرب أسرارهم إلى الإلهة عشتار، حامية مدينة «أكد»، ومع ذلك لم يسلم من غضب الآلهة الأخرى ولا سيما إله بابل «مردوخ» بسبب بنائه لمدينة «أگاده» بالقرب منها ومزاحمتها لها. ومات سرجون وهو شيخ بعد أن حكم ما يربو على نصف القرن (56سنة) بحسب أثبات الملوك، وخلفه في الحكم ولداه «رموش» و«مانشتوسو» بالتعاقب، ولكن «رموش» كان الابن الأصغر، وشغل عهد الاثنين بالدرجة الأولى في الحملات الحربية الموجهة لإخماد الثورات في أرجاء الأمبراطورية التي أسسها أبوهما.

رموش:

حكم «رموش» تسع سنوات قضى معظمها كما قلنا في إخماد الثورات والحملات الحربية، ويبدو أن باكورة هذه الحملات كانت في سنة حكمه الثالثة على بلاد عيلام، أما السنوات الأولى فالمرجح أنها خصصت لإخماد ثورات المدن السومرية التي انتهزت فرصة موت سرجون فانفصلت وأعلنت

---

(1) حول الرأس البرونزي الذي يمثل نرام ـ سين أو سرجون والذي عثر عليه في معبد الإلهة عشتار في نينوى انظر:

Mallowan, *IRAQ*, 3. (1936), 104ff.

استقلالها وتزعمت حركة التحرر مدينة «أور»، ولذلك دمرت أكثر من غيرها. والطريف ذكره بهذا الصدد أن تدمير هذه المدينة جاء في رثاء يعزى إلى أخت «رموش» المسماة «أنخيدو أنا»، التي عيّنها أبوها كاهنة عليا في معبد الإله القمر «ننا» في أور، وكيف تخلى هذا الإله عن مدينته ولم تستطع هذه الكاهنة أن تخفف من غضب أخيها[1]، ثم أخضع المدن الأخرى من بعد «أور» وعندئذٍ اتجه في نشاطه العسكري إلى الخارج، مبتدئاً بالأقاليم الشرقية وقد جاءتنا أخبار هذه الحملات من النصوص المكتشفة في «نفر»، وأعقب ذلك غزوه بلاد عيلام وتدمير مدنها، وأعاد توطيد أمبراطورية أبيه فحق له أن يتبجح بأنه «فتح للإله أنليل البحر الأسفل (الخليج) والبحر الأعلى (البحر المتوسط) وجميع الجبال».

ومما تجدر ملاحظته بصدد هذه الفتوح أنه يوجد ما يؤيدها في المآثر التي خلفها «رموش» في جملة أقاليم من الشرق الأدنى، ومنها أجزاء من أواني الرخام المنقوشة بكتابته مما وجِد في تل «براك» وفي شمالي ما بين النهرين. ولكن السنوات الأخيرة من حكمه انتهت بمؤامرة دبرت من جانب رجال القصر يرجح كثيراً أن أخاه «مانشتوسو» اشترك فيها. ويروي لنا أحد نصوص الفأل أن حاشية قصره قتلته «بألواح الطين المختومة أو بالأختام الإسطوانية»[2].

مانشتوسو:

خلف «مانشتوسو» أخاه «رموش» على عرش الدولة الآكدية وحكم خمس عشرة سنة، ساد في السنوات الأولى منها السلم واستتباب الأمور في

---

(1) كان تعيين ابنة سرجون كاهنة عليا في معبد الإله «ننا» في أور بداية العرف الذي سار عليه معظم ملوك وادي الرافدين في تعيين بناتهم وإخواتهم في هذا المنصب الديني المهم وقد جاءتنا من ابنة سرجون جملة آثار وجدت في أور وبعض الأختام الإسطوانية العائدة إلى خدمها وحاشيتها. انظر:

Falkenstein, «i heduanna, die Tochter Sargons von Akkad» in *RA*, 52, (1958), 129ff.

(2) راجع النص في المرجع الآتي:

A. Goetze in *JCS*, I, (1947), P. 256, No. 13.

أرجاء المملكة والأمبراطورية. وقد وجد في مدينة سوسة (عيلام) تمثال من الحجر لهذا الملك وفيه كتابة لحاكم المنطقة المسمى «اشپم» يقدم فيه التمثال لإلهة محلية «من أجل حياة سيده الملك مانشتوسو». ولكن هذا السلم لم يدم فترة طويلة إذ تكررت الثورات الداخلية والخارجية. وقد جاء في أحد النصوص التأريخية[1] وصف لحرب هذا الملك في جبهتين مهمتين: في الجهات الشرقية والجهات الجنوبية الشرقية في منطقة الخليج إزاء بعض الأقاليم الواقعة عليه، حيث جاء فيه أن: «مانشتوسو» ملك كيش (أي ملك العالم) بعد أن أخضع «أنشان» و«شريختم» (في بلاد عيلام) عبر البحر الأسفل (الخليج) في سفن فحارب 32 ملكاً من ملوك المدن الواقعة في الجانب الآخر من ذلك البحر، وأخضعهم واستولى على هذه الأقاليم وبلغ مناجم الفضة، والجبال الواقعة ما وراء البحر الأسفل وجلب الأحجار الجيدة منها، ونحت لنفسه تمثالاً وقدمه إلى الإله «أنليل». وفي نص تأريخي آخر جاء ذكر «ملوخا» بدلاً من «شريختم». فيجدر قبل أن نواصل كلامنا على الدولة الآكدية أن نذكر لمحة عن إقليم «ملوخا» الذي كثر وروده في مآثر حضارة وادي الرافدين من مختلف عهود التأريخ. فمما يُقال عن تعيين موقع «ملوخا» أنها ترد في الغالب مع اسم إقليم ثانٍ هو «مگان» (Magan) التي أصبح تعيينها بعمان من الأمور المؤكدة. أما ملوخا (Melukhkha) فيبدو من النصوص القديمة أنها كانت تقع في جهات نائية شرقية ويقترن اسمها بالبضائع المستوردة منها وعلى رأسها الأخشاب والذهب والأحجار الثمينة والعاج، ورجح تعيينها بالجهات الغربية من بلاد السند، ولا سيما مدن دلتا نهر السند التي اشتهرت منها «موهنجودارو» و«هرابا»، وقد سبق أن نوَّهنا بالصلات الحضارية القوية بين وادي الرافدين وبين بلاد السند. أما النصوص التأريخية المتأخرة، أي النصوص التي جاءتنا

---

(1) هو النص المنقوش على حجر بهيئة الصليب، وقد أظهرت الدراسات الحديثة أن هذا النص لا يرجع في تأريخه إلى العصر الآكدي وإنما هو نسخة عن الأصل حول ذلك انظر:
CAH. I, Part 2, (1971).

منذ الألف الثاني، فتشير إلى «ملوخا» وهي أقرب ما تكون إلى أحد الأقاليم الإفريقية، إما بلاد النوبة أو «الحبشة»[1].

انتهى حكم «مانشتوسو» بحسب رواية أحد النصوص المتعلقة بنبوءات الفأل أنه مات مقتولاً في أثناء مؤامرة داخلية، وخلفه على العرش ابنه «نرام ـ سين» الشهير.

نرام ـ سين:

حكم «نرام ـ سين» الذي يعني اسمه «محبوب الإله سين»، أمداً طويلاً دام 37 عاماً، وتميز حكمه، باستثناء السنين الأخيرة منه، بالقوة والازدهار. وكان «نرام ـ سين» أقوى وأشهر ملك آكدي من بعد جده مؤسس السلالة «سرجون». ويتفرد عهد هذا الملك من ناحية مصادرنا التأريخية بوفرة هذه المصادر سواء كان ذلك النصوص الأصلية من عهد الملك نفسه، مثل الحوادث المؤرخ منها والمنحوتات والمسلات أم الكتابات التي جاءت إلينا من العهود المتأخرة وبضمنها نسخ من النصوص الأصلية ونصوص الفأل.

ولعل أول ما يجلب الانتباه في حكم «نرام ـ سين»، أن هذا الملك أوجد بدعتين في نظام الحكم، أولاهما أنه صدر كتابة اسمه بالعلامة الدالة على الألوهية، وقد سار على هذا العرف عدد من الملوك الذين جاؤوا من بعده. وأكثر من هذا صار يلقب نفسه «إله أگاده»، وهذه بدعة، ولا سيما الشق الثاني منها، كانت أقرب ما تكون إلى الكفر والخروج على العرف الديني، لأن الحكام في وادي الرافدين لم يتجاوزوا، وهم في أقصى تعاظمهم، حد التقديس والتأليه، وكونهم نواباً عن الآلهة في حكم البشر. وعزت بعض القصص والأساطير ونبوءات الفأل المتأخرة سبب سقوط «نرام ـ سين» إلى ذلك التطاول الديني. أما البدعة الثانية فكانت اتخاذه لقب «ملك الجهات الأربع»[2]، وهو اللقب الذي

---

(1) أحدث البحوث عن «ملوخا» في:

B. Landsberger in *Die Welt Des Orient*, (1966), 261ff.

(2) انظر:

Hallo, *Early Mesopota mian Titles* (1957).

أشرنا إليه في أول كلامنا على العصر الآكدي. والمرجح أن «نرام ـ سين» تفرد في تمثيله بالمنحوتات بارتداء لباس الرأس ذي القرون أو الأصح ذي القرنين، مما يخص لباس الآلهة.

وباستثناء عدد من السنين التي يمكن ترتيب أحداثها الزمني بالاستناد إلى إثبات الحوادث المؤرخ بها من حكم «نرام ـ سين»، فإنه يتعذر ترتيب تسلسل الأحداث الأخرى بصورة مضبوطة. وأول ما يلاحظ عن حكم هذا الملك أنه مثل أسلافه بدأت سنوات حكمه الأولى بإخماد بعض الثورات والاضطرابات التي قامت في بعض المدن في الداخل، ويبدو أن مدينة «كيش» تزعمت إحدى تلك الثورات. أما في الخارج فإن أولى الجهات التي وجه إليها عنايته كانت أقاليم شمالي ما بين النهرين والفرات الأعلى ومنطقة مدينة «ماري»، ثم جهات بلاد الشام الساحلية والداخلية، ومنها منطقة حلب التي ورد ذكرها في أخباره باسم «أرمانم» (Armanum) وجبيل (ابلا)، وقد ذكر اسم حاكم المنطقة بهيئة «ريش ـ أدد»، الذي أسر في الحرب، وصور في المنحوتة التي قدمها الملك في معبد الإله «سين». وسار كذلك إلى جبال الأرز في لبنان وإلى جبال «أمانوس». أما في آسية الصغرى فلا يمكن الجزم بأن «نرام ـ سين» أعاد سلطان الدولة الآكدية فيها، رغم الإشارات التأريخية الواردة في النصوص التأريخية من العهود المتأخرة. ومن الجهات التي مد إليها فتوحه إقليم الحوريين في أعالي الجزيرة مما بين النهرين. وقد سبق أن ذكرنا هؤلاء الحوريين في كلامنا على الأقوام القديمة في العراق. ووطد «نرام ـ سين» السلطان الآكدي في جهات شمالي العراق وفي منطقة الجزيرة (أعالي ما بين النهرين) والفرات الأعلى وفي منطقة الخابور والباليخ، وأقام بعض الحصون في المواضع الاستراتيجية في الطرق الرئيسة إلى بلاد الشام والأناضول مثل الحصن الشهير في تل «براك» الذي سبقت الإشارة إليه في عدة مواضع، ووجدت مسلة منقوشة بكتابة مشوهة وصورة الملك في القرية المسماة «بير حسين»، بالقرب من ديار بكر.

وبذل «نرام ـ سين» جهوداً أكبر في توطيد سلطانه في الجهات الشرقية

والشمالية الشرقية، حيث القبائل الجبلية الشديدة المراس المتاخمة لسهول وادي الرافدين الخصبة. وخلف «نرام ـ سين» جملة آثار مشهورة عن حملاته وانتصاراته العسكرية على أولئك الأقوام في تلك المناطق، ومنهم القوم الذين ورد اسمهم بعدة صيغ منها «لولوبو» و«لولو» و«لولومو». ويستبان من أخبار الحملات الحربية لملوك السلالة الآكدية وحملات الملوك الآشوريين على هؤلاء الأقوام أن مركز تجمعهم كان في سهل «شهروز»، وإلى الجنوب منهم كان الكونيون. وخلد «نرام ـ سين» حملته الحربية على «اللولوبو» في المنحوتات الجبلية في إحدى مجازات جبال «قره داغ» المسمى «دربندى گاوور» (جنوب شرقي مجاز دربندى بازيان الكائن في الطريق إلى السليمانية من كركوك)[1]. وقد نحت وجه الجبل المطل على هذا المجاز الجبلي مشهد يمثل إخضاع تلك الأقوام، حيث الملك «نرام ـ سين» يدوس على جثث قتلاهم، وهو لابس الخوذة الحربية ذات القرنين، سمة الألوهية ورمزها. ويبدو أن موضوع هذه المنحوتات الجبلية يكرر مشاهد مماثلة نحتت في مسلة «نرام ـ سين» الشهيرة المعروفة باسم «مسلة النصر»، وقد عثر عليها في مدينة سوسة (عاصمة بلاد عيلام)، حيث كانت من جملة الغنائم التي نقلها العيلاميون إلى بلادهم في أثناء غزوتهم التي قضت على الكشيين في بلاد بابل (القرن الثاني عشر ق.م)، وهي الآن من أنفس آثار متحف اللوفر في باريس، وتخلد انتصار الملك الآكدي على ملك «اللولوبو» المسمى «ساتوني»[2]،

---

(1) حول منحوتات جبال «قره داغ» انظر:

(1) S. Smith. *history of Assuria* (1928), P. 96.

(2) Edmons, in *The Geographical Journal*, (1925).

(2) انظر:

De Morgan. MDP. I, (1900), 144ff.

Scheil, Ibid, II, 53ff. Parrot,Sumer, P. 15-212-213.

ونشاهد في المسلة صورة «نرام ـ سين» وهي تطغى بكبرها على المشهد وقد تنكب الملك القوس وعلى رأسه تاج الألوهية ذو القرنين ويتسلق جبلاً شاهقاً ويدوس على جثث الأعداء.

وانتشر هؤلاء اللولوبو من مركزهم إلى الجهات الشرقية والغربية ومنها منطقة «زهاب» (زهاو) بالقرب من «سريبول» حيث وجدت منحوتة جبلية فيها صورة ملك «اللولوبو» وكتابة تذكر اسمه بهيئة «آنو ـ بانيني» بالخط المسماري واللغة الآكدية. وتوطدت سلطة «نرام ـ سين» في بلاد عيلام، وفرض على أحد الملوك العيلاميين المسمى «خيتا» معاهدة صداقة[1]. ووجدت في سوسة جملة مآثر بنائية تدل على تبعية بلاد عيلام إلى «نرام ـ سين»، ومنها الآجر المختوم باسمه، وأسماء بعض الحكام الذين عينهم على عيلام مثل «ايپر ـ موبي» (Epir-Mupi) و«اين ـ شوشناك» و«بوزر ـ اين ـ شوشناك» الذي انفصل عن تبعيته إلى الآكديين في عهد خليفة «نرام ـ سين»، «شاركالي شري».

مگان ودول الخليج:

لم يقتصر «نرام ـ سين» على تثبيت سلطانه في أرجاء الأمبراطورية في الشمال والشرق والغرب، بل إنه أراد أن يبرر لقبه الضخم الذي ابتدعه، أي «ملك الجهات الأربع» فسجل انتصارات مهمة في أقاليم الخليج والبحر العربي ولا سيما «مگان» (عمان) التي سبق ذكرها حيث دخلت في نطاق النفوذ الآكدي في عهد أسلاف «نرام ـ سين»، وجاء توطيد سلطة هذا الملك في «مگان» معززاً بنص كتابي جاء فيه اسم ملكها على هيئة «مانيوم» وذكر أيضاً في الأخبار التأريخية وفي نصوص الفأل من العهود المتأخرة، كما جاءتنا كسر من أواني حجر الرخام وهي منقوشة باسم «نرام ـ سين» وفيها عبارة «غنائم مگان». ومع أن اسم مگان كان يطلق على منطقة عمان في العصور القديمة، إلا أن الاسم نفسه صار يطلق في العصور المتأخرة من تأريخ العراق القديم على بلاد مصر[2]، الأمر الذي يثير تساؤلاً محيراً هو: هل كان المقصود من قطر «مگان» وملكه «مانيثم» في عهد نرام ـ سين بلاد مصر؟ ومع

---

(1) راجع حول هذه المعاهدة:

W. Hinz, «Elams Vertrag mit Naram - Sin» in ZA, 58 (1967), 66ff.

(2) راجع: *CAH.*, I, part 2, (1971), 445.

أننا نستبعد أن يكون المقصود كذلك بيد أنه يجدر أن نذكر بهذا الصدد أن كسر أواني الرخام المشار إليها تضاهي الأواني المصرية المنقوشة بالكتابة من عهد الأسرتين الخامسة والسادسة الذي يقع ضمنه حكم «نرام ـ سين».

نهاية حكم «نرام سين» وآخر ملوك السلالة:

كان «نرام ـ سين» آخر ملك قوي من ملوك السلالة الآكدية بل كان في الواقع، كما ذكرنا، أقوى ملوك هذه السلالة من بعد المؤسس، جده سرجون. وتذكر الأخبار المتأخرة (Chronicles) أن حكم «نرام ـ سين» انتهى بالاضطراب وتجمع الأعداء عليه. ومع أنه لا يمكن الجزم بأن حكم هذا العاهل انتهى بكارثة بيد أنه يمكن القول إن بوارد الأخطار كانت تعم أرجاء الأمبراطورية من بعد موته فأدَّت إلى تحطيمها في عهد خلفائه الضعفاء، وجاءت الضربة القاضية على ما سنذكره من جانب جموع الكوتيين. وننوِّه من بين تلك الأخبار والقصص بالأسطورة المشهورة التي وجدت نسخ منها في مكتبة الملك الآشوري «آشور ـ بانيبال» (القرن السابع ق.م)، وجاءتنا أيضاً أجزاء منها من العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق.م)، ونسخة أخرى من «سلطان تبه» في آسية الصغرى وبعضها باللغة الحثية[1]. فتروى هذه الأسطورة الطريفة تدفق جموع غفيرة من المحاربين البرابرة الذين كانوا ذوي أجسام وهيئات غريبة على هيئة الطيور الجوارح وقد زحفوا من الجبال الشمالية مكتسحين جميع الأقوام في طريقهم مثل «السوباريين» والكوتيين والعيلاميين وانحدروا إلى بلاد «سومر وآكد»، وواصلوا زحفهم إلى مناطق الخليج مثل تلمون (البحرين) ومگان (عمان) وبلغوا إقليم «ملوخا» ولم تستطع جيوش «نرام ـ سين» صدّ تقدمهم. وإلى هذه الأخطار الماحقة حلّت بالبلاد كوارث أخرى كالجفاف والقحط والطاعون والطوفان. ومن الأخبار المتأخرة نصوص تجعل مجيء

---

(1) انظر ملخص الأسطورة:

Saggs, *The Greatness That Was Babylon*, (1962), 419ff.

الكوتيين في حكم «نرام ـ سين» وأن الإله مردوخ هو الذي سلطهم لتدمير مملكته.

خلف «نرام ـ سين» في الحكم ابنه المسمى «شار ـ كالي ـ شري» (أي ملك كل الملوك). ويتميز حكم هذا الملك بكثرة ما جاءنا منه من السجلات التأريخية من بينها ثبت بأسماء السنين المؤرخ منها (Date-Formulae)، وهذا يمكننا من ترتيب بعض الأحداث المهمة بحسب تسلسلها التأريخي. فنذكر في مقدمة الأحداث التي بدأ بها انهيار الأمبراطورية انفصال بلاد عيلام واستقلالها، ولم تكتفِ بذلك بل إنها هاجمت بلاد بابل، ومع أن الملك الجديد استطاع أن يطرد العيلاميين إلا أنه لم يفلح في إرجاعهم إلى سلطته. وما كاد ينتهي من دفع خطر الغزو العيلامي حتى وجد نفسه إزاء خطر آخر من الجهات الغربية، من جموع الأموريين فقد جاء اسم سنة حكمه الثانية بأنها السنة التي تغلب فيها على الأموريين في مرتفعات «بسار»[1]. وهذا أقدم ما جاء إلينا من بوادر هجرات هؤلاء الأقوام السامية الغربية إلى سهول وادي الرافدين وسنراهم بعد أكثر من قرن يتدفقون على بلاد بابل ويقضون على أمبراطورية «أور». ويجدر أن نذكر بهذه المناسبة الشبه الواضح ما بين الأحداث التي وقعت في عهد الملك «شار ـ كالي ـ شري» وبين تلك التي سببت القضاء على أمبراطورية أور، على أن «شار ـ كالي ـ شري» استطاع أن يصدّ جموع الأموريين، ولكن الخطر الأكبر جاء من جهة أخرى. ففي حادثة سنة أخرى يذكر هذا الملك أنه جرد حملة على الكوتيين، ويدعي الانتصار عليهم في سنة أخرى وأسر ملكهم المسمى «شارلكاب» (Sharlagab) ومهما كان نصيب هذا الادعاء من الصحة فإن هؤلاء الكوتيين أفلحوا في نهاية حكم «شار ـ كالي ـ شري» في شن هجومهم النهائي الكبير الذي قضى على حكم

(1) جبل بسار (Basar) أو «بسرى» الوارد في النصوص المسمارية يعرف الآن باسم جبل «بشرى»، وهي مجموعة المرتفعات الممتدة إلى الضفة اليمنى من الفرات أسفل الرقة وسيأتي الكلام على هذه المنطقة في أثناء كلامنا على الأموريين.

السلالة الآكدية. وفي وسعنا أن نستشف الفوضى السياسية التي أعقبت حكم «شار كالي شري» والذي حكم 25 عاماً بحسب أثبات الملوك، من الأخبار المعاصرة، نخص بالذكر منها العبارة الساخرة التي أضافها جامعو تلك الأثبات من بعد حكم هذا الملك، وهي: «من كان الملك ومن كان غير الملك؟» ثم تعدد تلك الأثبات أسماء أربعة ملوك حكموا جميعهم ثلاث سنوات، كانوا بالظل أشبه منهم بالحقيقة. والمرجح أن هجوم الكوتيين بلغ في عهدهم أوج شدته فاستطاعوا غزو السهل الرسوبي. ثم تذكر أثبات الملوك ملكين آخرين من السلالة الآكدية، خصصت لحكم الأول منهما المسمى «دودو» واحداً وعشرين عاماً والثاني المسمى «شو ـ دورل»، خمسة عشر عاماً، ويبدو أن هذا الملك كان على شيء من القوة بحيث استطاع أن يبسط نفوذه على منطقة اشنونا[1]، وهنا تعترضنا مشكلة تأريخية في التوفيق ما بين الانتعاش الجزئي في حياة السلالة الآكدية وبين تسلط الكوتيين على البلاد، فلا معدى من الافتراض إزاء ذلك أن ذلك التسلط لم يعم البلاد بل إنه كان جزئياً، يؤيد ذلك بعض الحقائق التأريخية الأخرى التي سنشير إليها في كلامنا على العهد الكوتي، على أنه يجوز الافتراض أيضاً أن هذين الملكين الآكديين حكما تحت سيادة الكوتيين الاسمية.

فترة الحكم الكوتي والسلالات التي قامت فيه:

كل ما يمكن قوله عن الكوتيين الذين قضوا على السلالة الآكدية إنهم كانوا من أقوام جبال «زاجروس» المتاخمة لحدود العراق الشرقية مع بلاد إيران. ولا يعلم على وجه التأكيد هل كانوا من الأقوام «الهندية ـ الأوروبية»، فإن أولئك الكوتيين لم يخلفوا وثائق مدونة بلغتهم، فلا يعرف عن لغتهم شيء سوى أسماء ملوكهم الواردة في أثبات الملوك السومرية، أما موطنهم الذي استقروا فيه فإنهم كانوا يجاورون اللولوبيين، الذين سبق ذكرهم، إلى جهة الجنوب، أي جنوب منطقة «شهرزور» التي كانت موطن أولئك اللولوبيين الذي

---

(1) المرجح في اسم هذا الملك أنه يدخل في تركيبه اسم نهر ديالى القديم أي «دورل».

شمل أيضاً المناطق الجبلية جنوب الزاب الأسفل. واستمر ذكر الكوتيين في مآثر حضارة وادي الرافدين المدونة إلى العهود المتأخرة، حيث ذكر أحفادهم باسم «قوتو» في رسائل مدينة «ماري» الشهيرة (الألف الثاني ق.م)، وكثرت الإشارات إليهم في أخبار الحملات الآشورية الحربية. والجدير بالذكر بهذا الصدد أن الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح الطوفان البابلي «أوتو ـ نبشتم» جاء ذكره في ملحمة جلجامش باسم جبل نصير، ووصف هذا الجبل في المصادر الأخرى بأنه جبل الكوتيين[1].

تخصص أثبات الملوك السومرية للكوتيين عشرين أو واحداً وعشرين ملكاً حكموا (125) عاماً. ولا يعرف اسم أول ملوكهم، ولعله كان «شارلگاب» الذي ذكره الملك الآكدي «شار كالي شري» بأنه أخذه أسيراً. ويرجع ما سبق أن ذكرناه أن الملوك الآكديين الأربعة الذي ذكرت أسماؤهم من بعد عبارة أثبات الملوك الساخرة: «من كان الملك ومن كان غير الملك» حكموا حكماً اسمياً في أثناء الحكم الكوتي، وأن الملكين اللذين جاءا من بعدهم وحكما أمداً طويلاً نوعاً ما، استعادا شيئاً من الحكم الذاتي من بعد الفوضى السياسية التي خلفتها شدة الغزو الكوتي.

ومما يُقال عن هؤلاء الكوتيين بوجه عام إنهم كانوا برابرة، ولم يتركوا آثاراً محسوسة في ثقافة البلاد ومسيرة تأريخها العام، سوى أن عهدهم كان من الفترات المظلمة في تأريخ البلاد السياسي، على أن حكمهم في البلاد لم يكن عاماً شاملاً، فلم يسيطروا على جميع أقسامها، ولعلهم، بعد التدمير الذي استتبع شدة هجومهم، انسحبوا إلى الجهات الشمالية من العراق ولا سيما منطقة كركوك، واختاروا مدينة «آرانجا» (كركوك) مركزاً لهم على ما يرجح.

---

(1) راجع البحوث الآتية عن الكوتيين:

(1) S. Dmith in *Journal of Royal* Asiatic Society, (1932), 296ff.

(2) Speiser in Journal of The American Oriental Society, (1952) 97ff.

(3) GADD in CAH. 1, Part 2, (1971) Chap. 19.

ومن الناحية الحضارية، انصهروا في بودقة حضارة وادي الرافدين، كما انصهر غيرهم من الأقوام ممن كانوا دونها في مستواهم الحضاري، مثل الكشيين في عصر لاحق، ومن أمارات ذلك الاندماج الحضاري أن أسماء ملوكهم باستثناء الأوائل منهم، تظهر عليها الصيغ الآكدية.

السلالات المعاصرة لحكم الكوتيين ـ سلالة جودية (گودية):

تجعل أثبات الملوك السومرية حكم الكوتيين، كطريقتها في السلالات الأخرى، السلطة الحاكمة الوحيدة في البلاد إلى أن تم طردهم منها بالقوة. ولكن هناك أدلة تأريخية مهمة على أن حكم الكوتيين، كما ذكرنا، لم يعم البلاد كلها، وأن سيطرتهم بدأت بالتقلص قبل أن يطردوا من البلاد. كما أن سلالات وطنية حكمت في البلاد في أثناء حكمهم، ذكر بعضها في أثبات الملوك، وبعضها لم يرد ذكرها فيها. فتذكر تلك الأثبات سلالة حكمت في الوركاء من بعد العهد الآكدي وقبيل فترة حكم الكوتيين، وخصصت لها خمسة ملوك حكموا ثلاثين عاماً. والمرجح كثيراً أن هؤلاء الملوك حكموا معاصرين للكوتيين في أواخر السلالة الآكدية، على أننا لا نعرف أشياء يعتد بها عن أولئك الملوك.

وفي منطقة «لجش» التي تتبعنا ازدهار دولتها في عصر فجر السلالات السابق، قامت سلالة من الحكام السومريين ازدهرت في عهدهم هذه الدولة، ويعد عهدها انبعاثاً جديداً في اللغة السومرية والثقافة السومرية. وكان من ملوكها الأوائل الحاكم المسمى «لوگال أو شمگال»، الذي يرجح أنه حكم في أواخر حكم الملك الآكدي «نرام ـ سين» وأوائل عهد الملك «شار كالي شري»، وخلفه عدد آخر من الحكام في لجش عاصروا الملوك الكوتيين[1]، وخلفوا

(1) المرجع أن ترتيب هؤلاء الحكام على الوجه الآتي: (1) لوكال أو شمكال، (2) بوزر ـ ماما، (3) «أور ـ أوتو»، (4) أور ـ ماما، (5) لوكال ـ بابا، (6) أو ـ كرلا، (7) كا ـ كوكك، (8) أور ـ بابا، (9) جودية (كودية)، (10) أور ـ ننجرسو، (11) أو كمي، (12) أور ـ كار، (13) نمخني (Nammakhni).

مآثر مدونة، منهم «أور ـ بابا» الذي بلغ درجة من الاستقلال والازدهار بحيث استطاع أن ينجز مشاريع عمرانية مهمة وفي مقدمتها بناء المعابد ومشاريع الري. وظهرت في عهده مدرسة جديدة في فن النحت السومري والأدب السومري بلغت ذروة ازدهارها في عصر «جودية» (گوديه)، وتشير الدلالة التأريخية إلى أن حكم «أور ـ بابا» تعدى حدود دولة المدينة، فامتد إلى المدن المجاورة مثل مدينة «أور»، حيث عين ابنته كاهنة عليا في معبد الإله القمر «ننا» فيها، كما يدل على ذلك الإناء الحجري المكتوب الذي وجد هناك.

وتعترض الباحث من بعد حكم «أور ـ بابا» السالف الذكر مشكلة تأريخية في أي من الحاكمين التاليين حكم قبل الآخر: گودية أو «نمخني»؟ وكان يظن سابقاً أن الثاني حكم قبل الأول، ولكن ورود اسم «نمخني» في مقدمة شريعة «أور ـ نمو»، مؤسس سلالة أور الثالثة، على أنه أخضعه لسلطته تجعل «نمخني» السالف الذكر معاصراً لأور ـ نمو، وتجعل حكم «گودية» على فرض أنه جاء من بعد «نمخني» يقع في عهد «أور ـ نمو»، ويلزم أن يكون تابعاً له، وهو أمر مستبعد لأن كل الدلائل التأريخية التي جاءتنا عن «گودية» تشير بوضوح إلى أنه كان مستقلاً كل الاستقلال في جميع أعماله وتصرفاته ولا توجد أية إشارة في نصوصه إلى أنه كان تابعاً لأور ـ نمو بأي شكل من أشكال التبعية. كل هذا يجعلنا نرجح أن الذي خلف «أور ـ بابا» في حكم دولة لجش كان «گودية»، أي إنه حكم قبل «نمخني» السالف الذكر. ويجدر أن نذكر بهذا الصدد ما ذهب إليه بعض الباحثين حديثاً إلى أنه يوجد في سلالة لجش في هذه الفترة حاكمان باسم «گودية»[1]، حكم الأول منهما في عهد الكوتيين قبل «أور ـ بابا»، والثاني حكم من بعده قبيل عهد الملك «أور ـ نمو».

---

(1) انظر النشرة التي يصدرها معهد الدراسات الأثرية الألمانية في بغداد:
Baghdader Mitteilungen, Band, I, (1960), Table, No. 18.

ومهما كان الأمر فإن الكتابات المتنوعة التي خلفها گودية[1] تدل على نشاط واسع في حقل البناء والتعمير ولا سيما بناء المعابد وعلى نشاط تجاري كبير امتد إلى الأقطار المجاورة مثل بلاد الشام وبلاد عيلام والأجزاء الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية ومنها إقليم «مگان» (عمان) لجلب النحاس والأخشاب والأحجار وفي مقدمة ذلك حجر «الديورايت» الصلد، وخلف لنا كودية عدداً مهماً من تماثيله المنحوتة من هذا الحجر. ولم تقتصر سجلات گودية على النشاط العمراني والتجاري بل ورد فيها أيضاً خبر إرساله حملة عسكرية إلى إقليم «أنشان»، في بلاد عيلام. وقد طغت على نصوصه التأريخية تسجيل الأعمال التي اضطلع بها في تجديد معبد كبير آلهة لجش «ننجرسو»، الذي سبقت الإشارة إليه في كلامنا على ديانة عصر دول المدن السابق، حيث معبده المسمى «أي ـ ننو» (è-nimu) أي «معبد الخمسين»، ولعل هذه التسمية إشارة إلى الرقم المخصص لهذا الإله، إذ جرى العرف في ديانة حضارة وادي الرافدين على تخصيص أرقام لدرجات كبار الآلهة فيها. ويستطيع الباحث أن يجد في القسم الخاص ببناء هذا المعبد من نصوص گودية أموراً مهمة عن طرق تشييد المعابد وما كان يقام من شعائر ورسوم دينية، والمعتقدات الدينية بوجه عام.

وإلى هذا تعدّ النصوص التي خلفها «گودية» بعثاً للأدب السومري، وهي أطول نصوص أدبية سومرية وصلت إلينا لحد الآن، وخير ما يمثل لنا اللغة

---

(1) عن نصوص «كودية» راجع:

(1) Thureau - Dangin, SAK.

(2) Barton, RISA.

(3) Maurice Price, *The Great* Cylinder Inscriptions of Gudea.

(4) M. Lambert and Tournay in *RB*, 55, (1948), 403ff.

(5) L. Oppenheim in ANET, (1955).

(6) M. Lambert in RA, (1925) 81ff.

السومرية إبان نضجها[1]، وعلى هذا يتضح أن دولة لجش حافظت على المآثر السومرية والتراث السومري التي اشتهرت به في عصر فجر السلالات، رغم تسلط الآكديين الساميين وفترة الكوتيين المظلمة. ولما قامت سلالة «أور» الثالثة في أواخر حكم «گودية» كان الأدب السومري واللغة السومرية قد بلغا أوج نضجهما، وقد واصل ملوك هذه السلالة السومريون إحياء التراث السومري، كما سيأتي ذكر ذلك في كلامنا على هذه السلالة. وقد دوّنت نصوص گودية الشهيرة على إسطوانات من الطين وعلى تماثيله المنحوتة بالإضافة إلى النصوص البنائية القصيرة. ولعله من المفيد أن نذكر ترجمة بعض الفقرات الطريفة في إسطوانة گودية المرقمة «A»، وهي الإسطوانة الخاصة بتجديد معبد الإله «ننجرسو»: «في وسط الحلم كان رجل بلغ طوله ارتفاع السماء، ووزنه وزن الأرض... وكان يربض عن يمينه وعن يساره أسدان. لقد أمرني أن أبني له معبداً ولكنني لم أدرك رغبته ومراده.... ثم ظهرت امرأة حرت في أمرها من تكون. كانت تمسك بيدها قلماً من معدن وهّاج، وباليد الأخرى لوح كتابة السماء المقدسة، وهي مستغرقة في تفكيرها...». ولما استيقظ گودية اضطرب وحار في تفسير الحلم، فالتجأ يلتمس العون من أمه الإلهة «كاتمدگ». ثم ركب القارب وقصد معبد الإلهة «نانشة»، البصيرة بتعبير الرؤيا، ففسرت «نانشة» حلمه بأن الرجل الذي رآه كان «ننجرسو»، والمرأة الإلهة «نصابا»، إلهة القلم والمعرفة، ونصحت نانشة گودية أن يقدم إلى ننجرسو عربة مزينة بالذهب وحجر اللازورد، وأن الإله نفسه سينبئه عن

---

(1) عن نصوص «كودية» راجع:

(1) Thureau - Dangin, SAK.

(2) Barton, RISA.

(3) Maurice Price, *The Great* Cylinder Inscriptions of Gudea.

(4) M. Lambert and Tournay in *RB*, 55, (1948), 403ff.

(5) L. Oppenheim in ANET, (1955).

(6) M. Lambert in RA, (1925) 81ff.

هيئة المعبد الذي أمره ببنائه. فعمل گودية بما أشير عليه. وبعد أن جمع أهل لجش وجعلهم كأنهم «أبناء أم واحدة» وأحل السلام والطمأنينة في كل بيت، نقض المعبد القديم وطهر المدينة: «طهر المدينة القديمة وأحاطها بالنار... وجمع الطين من كل موضع طاهر، وفي مكان مطهر صنع منه الآجر بالقالب. لقد اتبع الشعائر بجميع أمجادها، وطهر أسس المعبد محيطاً إياها بالنار، ومسح الدكة (المصطبة) بالبلسم المعطر». وبعد أن أتم هذه التحضيرات الشعائرية جلب العمال والصناع من كل الأمكنة مثل بلاد عيلام. ومن مكان وملوخا جلب الأخشاب إلى مدينته گرسو.. گودية الكاهن الأعلى للإله ننجرسو فتح الطريق إلى جبال الأرز التي لم يصل إليها أحد من قبل وقطع الأرز بفؤوس ضخمة.. وكالثعابين الهائلة كانت أخشاب الأرز تطفو على الماء... ومن مقالع الأحجار التي لم يبلغها أحد من قبل فتح الطريق «گودية»، وجمع الأحجار بكتل ضخمة... وجمعت للحاكم (گودية) المعادن الثمينة الكثيرة. فجلب النحاس من جبل النحاس «كماش»، وجمع الذهب من الجبال وكأنه التراب، واستخرجت الفضة من الجبال، والحجارة الحمراء من «ملوخا». وهكذا شرع گودية في بناء معبد «ننجرسو» الضخم، ويبدو أنه أتم بناءه في مدى عام واحد.

أمبراطورية سلالة «أور» الثالثة:

1 ـ أوتو ـ حيگال وطرد الكوتيين:

كان أحد الأمراء السومريين المسمى «أوتو ـ حيگال» يحكم في مدينة الوركاء في أواخر العهد الكوتي، ولعله كان معاصراً لگودية السالف الذكر. وقد ذكرته أثبات الملوك السومرية بصفته مؤسس سلالة حاكمة في تلك المدينة، هي سلالتها الخامسة، وكان الملك الوحيد فيها وقد خصص لحكمه سبع سنوات ونصف السنة، حيث انتقلت الملوكية، بموجب تلك الأثبات، إلى مدينة «أور». وخلف لنا أوتو ـ حيگال نص كتابته التأريخية الذي يروي خبر طرده الكوتيين وتحرير البلاد منهم، ولعل النص الأصلي نقش على مسلة من

الحجر[1]. وتعد هذه الكتابة من ناحية أسلوبها من أجود ما وصل إلينا من الأدب السومري في عهد انتعاشه ونضجه منذ زمن «گودية».

يبدأ هذا النص التأريخي بالقول: «إن أوتو ـ حيگال سحق الكوتيين ثعابين الجبال القارصة وأعداء الآلهة الذين نقلوا ملوكية بلاد سومر إلى الجبال وملؤوا البلاد بالشر. . . . ولما أن قرر الإله «أنليل» أن يمحوهم اختار أوتو ـ حيگال، ملك أوروك لتنفيذ إرادته. . . فصلى في معبد إلهته «أنانا» التي اختارته بدورها لتلك المهمة». ويستمر أوتو ـ حيگال في روايته الممتعة فيخبرنا كيف جمع محاربي أوروك حوله وسار على رأسهم. وفي الموضع المسمى معبد «أيشور» خطب بالجموع فهتفوا له وفي اليوم السادس من المسيرة وفي المكان المسمى «معبد ايلي ـ تبَّا»، جاء إليه ضابطان من ملك الكوتيين لعله لعرض الخضوع والتسليم، ولكنه أبى ذلك على ما يبدو. وفي اليوم السادس التقى بجيش «تريقان»، ملك الكوتيين، فهزمه، وهرب هذا الملك إلى إحدى المدن، ولكن أهلها قبضوا عليه وسلموه إلى أوتو ـ حيگال، فوضع قدميه على رقبته وأعاد بذلك ملوكية «سومر» إلى أهلها.

وهكذا انتهت فترة تسلط الكوتيين في عهد آخر ملوكهم «تريقان» الذي لم يحكم سوى أربعين يوماً بحسب أثبات الملوك. وقد خلدت حرب التحرير هذه في مآثر الأجيال التالية فذكرتها التنبؤات الخاصة بالفأل، مثل طريقة فحص الكبد، ومنها أن مشاهدة ستة أوعية صغيرة في الكبد «فأل الملك تريقان الذي هرب من وسط جموعه». وسجل فأل آخر خاص بخسوف القمر في الرابع عشر من شهر «تموز» البابلي واقتران ذلك بنشوب ثورة على الكوتيين وسقوطهم[2]. وهذه أولى ثورة تموزية في تأريخ العالم. ويوجد فأل طريف

---

(1) حول نص «أوتو ـ حيگال» انظر:

RISA.; SAK.,

Gadd, *Sumerian Reading Book* (1924); Karmer, *The Sumerians* 325.

(2) انظر: CAH., I, Part 2, (1971), P. 426.

آخر يتعلق بنهاية حياة «أوتو ـ حيگال» نفسه في موته غرقاً وهو يشرف على بناء سد على أحد الأنهار.

2 ـ سلالة «أور» الثالثة:

لم يتمتع البطل المحرر «أوتو ـ حيگال» في الحكم سوى فترة قصيرة من الزمن دامت سبع سنوات ونصف السنة، كما تنص على ذلك أثبات الملوك. والمرجح كثيراً أن هذه الأثبات التي سبقت الإشارة إليها مراراً قد دوّنت لأول مرة في عهد هذا الملك، ثم أضيفت إليها سلالتا «أور» الثالثة و«ايسن» في النسخة الأخيرة التي جاءت إلينا من عهد سلالة «ايسن»، كما ذكرنا ذلك في الفصل الخاص بالتنقيبات والتحريات الآثارية. ولعل الدافع إلى وضعها لأول مرة نشأ من الروح القومية الجديدة التي انبعثت عند السومريين من بعد نجاح حرب التحرير التي شنها «أوتو ـ حيگال» على الكوتيين، فكان من مظاهرها تدوين تراث نظام الحكم المتطاول في البلاد وسلالاتها الحاكمة الكثيرة.

وبالإضافة إلى النص الذي دون خبر طرد الكوتيين وجد عدد من النصوص الكتابية الأخرى في «أور» وفي بعض المدن الأخرى المجاورة تشير إلى اهتمام الملك «أوتو ـ حيگال» بمدينة «أور» وجاء في أحدها اسم «أور ـ نمو» بصفته حاكم هذه المدينة من قبل أوتو ـ حيگال. كما ذكر في نصوص بعض المخاريط الطينية أن أوتو ـ حيگال عين الحدود ما بين «لجش» و«أور» وهذا يشير إلى تبعية هاتين المدينتين إليه. ولعله يصح الافتراض أن تسوية الحدود هذه كانت في صالح لجش، الأمر الذي أغضب «أور ـ نمو» حاكم «أور»، وكان ذلك من بين الأسباب التي دفعته على العصيان والانفصال عن «أوتو ـ حيگال»، على أننا نجهل سير الأحداث التي رافقت استقلال «أور ـ نمو» وتغلبه على أوتو ـ حيگال وتفرده بالحكم وتأسيسه سلالة حاكمة شهيرة فيها، هي سلالتها الثالثة موضوع كلامنا الآن.

أور ـ نمو:

وعلى هذا الوجه قامت سلالة أور الثالثة التي دام حكمها زهاء القرن الواحد (2112 ـ 2004ق.م)، وحكم منها خمسة ملوك[1]، أعيدت في عهدهم وحدة البلاد السياسية من بعد فترة حكم الكوتيين المظلمة، ولم يكتفِ ملوك هذه السلالة بإعادة الوحدة السياسية إلى البلاد بل إنهم وسعوا مملكة القطر بفتوحهم الخارجية، معيدين بذلك الأمبراطورية الآكدية. وقد شملت تلك الفتوحات أجزاء مهمة من أنحاء الشرق الأدنى من بينها بلاد آشور وبلاد عيلام وسورية ووادي الخابور والباليخ والأجزاء الشرقية من آسية الصغرى ومناطق الخليج العربي. ومن الملاحظات العامة التي يجب ذكرها عن سلالة «أور» الثالثة قبل إيجاز الكلام عن ملوكها أنها كانت نهاية حياة السومريين السياسية، إذ لم تنشأ منهم سلالات حاكمة أخرى بصفتهم طبقة حاكمة من بعد هذه السلالة. وسنرى في الفصل الآتي كيف تفرد الساميون في الحكم في العصر الذي تلا سلالة «أور»، أي العصر الذي سميناه بالعصر البابلي القديم حيث تدفقت في مطلعه هجرات جديدة من الساميين إلى وادي الرافدين، هم الساميون الغربيون أو الأموريون. ولكن على الرغم من اختفاء السومريين من المسرح السياسي فقد ظل تراثهم الثقافي واللغوي حياً إلى آخر أدوار حضارة وادي الرافدين تقريباً. والواقع أن التحول إلى السامية لغوياً وقومياً كان قد بدأ منذ قيام الدولة الآكدية، وأن قيام سلالة «أور» الثالثة السومرية لم يصد تيار ذلك التحول، ولعل أقصى ما استطاع أن يفعله ملوك تلك السلالة إعادة استعمال اللغة السومرية لغة للتدوين الرسمي، ولكن اللغة الآكدية (السامية) استمرت بصفتها لغة محكية لقطاع كبير من سكان البلاد والتدوين بها أيضاً في المناطق الآكدية. وإلى هذا ظهرت إمارات قوية من جانب ملوك «أور» على التوفيق والمصالحة مع السكان الآكديين ولعل أوضح مثال على هذه الظاهرة

---

(1) هم بالترتيب: (1) أور ـ نمو (2112 ـ 2095)، (2) شولكي (2094 ـ 2047)، (3) أمار ـ سين أو بور ـ سين (2046 ـ 2038)، (4) شو سين (2037 ـ 2029)، (5) أبي ـ سين (2028 ـ 2004).

أن أولئك الملوك استعملوا اللقب المشهور: «ملك بلاد سومر وبلاد آكد»، وهو اللقب الذي أوجده الملك «أوتو ـ حيگال»، بالإضافة إلى لقبهم الخاص «ملك أور»، ولقب «ملك الجهات الأربع»، الذي ابتدعه الملك الآكدي نرام ـ سين كما ذكرنا، واتخذ الملوك الثلاثة الأواخر منهم أسماء سامية، إذ إنه إذا استثنينا اسم مؤسس السلالة «أور ـ نمو» واسم خلفه «شولگي» اللذين هما اسمان سومريان، فإن أسماء الملوك الباقين منهم سامية كما بينا وهم: «امار ـ سين» أو «بور ـ سين» و«شو ـ سين» و«ابي ـ سين».

يتميّز عهد ملوك هذه السلالة من ناحية المصادر بوفرة ما وصل إلينا منهم من نصوص وعقود تجارية وقانونية تعد بالألوف، ولكن المصادر الرسمية، أي الكتابات الملكية، قليلة جداً بالمقارنة مع الصنف الأول من المصادر. فلم يأتِ إلينا سوى عدد قليل من النصوص القصيرة الخاصة بملوك هذه السلالة، وأسماء الحوادث التي كانت تتخذ لتأريخ السنين أي ما سميناه (Date Formule)[1].

تخصص أثبات الملوك للملك «أور ـ نمو» حكماً دام ثماني عشرة سنة، ابتداء من إعلان استقلاله عن «أوتو ـ حيگال»، على أننا لا نعرف تسلسل الأحداث الخاصة بالسني الأولى من حكمه. وقد جاء في إحدى التراتيل الدينية أنه طارد فلولاً من الكوتيين كانوا محتمين في إحدى جهات البلاد، كما يذكر نفسه في مقدمة شريعته التي سيأتي الكلام عليها أنه أخضع حاكم لجش المسمى «نمخني» مما سبقت الإشارة إليه في القسم الخاص بالكوتيين. ودوّنت إحدى الحوادث المؤرخ بها أنه مهد الطريق من «الجهات السفلى إلى الجهات العليا»، أي إنه سار من «البحر الأسفل» (الخليج) إلى البحر الأعلى (البحر المتوسط).

---

(1) حول الحوادث المؤرخ بها من عهد سلالة «أور» الثالثة انظر:

Ungnad in, RLA, II, (1938), 136ff.

وعن كتابات ملوك هذه السلالة: *RISA. SAK.*

وكذلك: *Ur Excavations*.

أما عن شريعة «أور ـ نمو» الشهيرة التي وجدت منها نسخ غير كاملة في مدينة «نفر»[1]، فقد أفردنا لها بحثاً خاصاً في الفصل المخصص للشرائع في الجزء الثاني من هذا الكتاب. ومما لا شك أن عهد هذا الملك كان بداية تعاظم سلطان الدولة وازدهارها الاقتصادي، فقد قام بمشاريع عمرانية ضخمة في عاصمته «أور» وفي مدينة الوركاء ونفر وغيرها من المدن المعظمة، كما تشير إلى ذلك النصوص القصيرة المدونة على مخاريط الطين (Clay Cones) وأحجار الأبواب (Door Sockets). ففي مدينة «نفر» جدد معبد الإله «أنليل»، أما تجديد معبد حارة «تمال» العائد إلى ننليل، زوجة الإله «أنليل» فقد اضطلع به ابنه وخليفته «شولگي». وشيّد في مدينة الوركاء زقورتها العائدة إلى الإلهة «أنانا» (عشتار)، وحرم المعبد فيها، واضطلع ابنه «شولگي» بإكمال جملة مشاريع بدأ بها أبوه.

ووجه «أور ـ نمو» نشاطه بالدرجة الأولى إلى إعمار عاصمته «أور» وأنجز فيها عدة مشاريع عمرانية كبيرة، وفي مقدمتها زقورة المدينة (برجها المدرج)[2]، الذي يعتبر أقدم ما يمثل تلك البنايات العجيبة التي تفردت بها حضارة وادي الرافدين، ونعني بذلك الزقورات (جمع زقورة)[3]، إذ يعتبر الباحثون عهد سلالة «أور» الثالثة الزمن الذي تطورت فيه هذه الأبنية إلى هيئاتها المميزة المعروفة، من

---

(1) عن شريعة «أور ـ نمو» راجع:

(1) Kramer and Falkenstein in *Orientalia*, 23, (1954).

(2) Szlechthre in *RA*, (1955), 169ff.

(3) Kramer, *The Sumerians*.

(4) Finkelstein, in JCS, (1968-69), pp. ff.

(2) عن برج «أور» انظر:

Wooley, *Ur ERcavations*, V, (1939).

وعن الأبراج المدرجة في حضارة وادي الرافدين بوجه عام:

Lenzen. *Die Entwicklung Der Zikkurat*. (1941).

A. Parrot, *Les Ziggurats et Tour de Babel*. (1949).

(3) لفظ الزقورة بابلي مأخوذة من مادة أو جذر يعني «علا، يعلو» (زقر أو سقر أو صقر).

بعد نشوء المعابد العالية التي كانت تقام فوق مصاطب في العصر «الشبيه بالكتابي» (منتصف الألف الرابع ق.م). وتعاصر زقورة أور في الزمن زقورتا الوركاء وأريدو وكذلك زقورة «نفر». وتمتاز هذه الزقورات وبوجه خاص في عهد سلالة «أور» الثالثة بأنها مؤلفة من ثلاث طبقات، وقد ازداد عدد طبقاتها في العصور التالية فبلغ في العصور المتأخرة سبع طبقات، وأشهر مثال على الزقورات من هذه الأدوار المتأخرة برج بابل الشهير الذي أصبح في العصر البابلي الحديث (القرن السادس ق.م) مكوناً من سبع طبقات.

وبالنظر إلى أهمية زقورة «أور» فيحسن أن نورد لها وصفاً موجزاً فنقول إن «أور ـ نمو» شيّد هذه الزقورة على أنقاض زقورة أقدم منها يرجح أن ترجع في زمنها إلى عصر فجر السلالات ولعلها نشأت قبل هذا الزمن. وقد جعل «أور ـ نمو» هيكلها الداخلي من آجر اللبن، وغلفه بغلاف من الآجر المشوى (المفخور)، ثخنه (8) أقدام، وقد بني هذا الغلاف الآجري بملاط من القير[1] (Mortar) وتتألف الزقورة كما قلنا من ثلاث طبقات، قياس السفلى منها في قاعدتها 200×150قدماً (نحو 62,50×43متراً) وعلو ما بقي من طبقتها العليا (60) قدماً (نحو 20متراً)، وكان المعبد العالي فوق هذه الطبقة الثالثة التي لم يبقَ منها الآن سوى معالم واطئة. وقد جدد البرج في عهود الملوك المتأخرين، آخرهم «نبونيدس»، آخر ملوك الدولة البابلية الحديثة، وقد جعلها هذا الملك على ما يرجح سبع طبقات، ولا تزال تشاهد هذه التغييرات التي أحدثها «نبونيدس». وبقي من البرج في وجهه الشمالي الشرقي السلالم الثلاثة التي كان يرقى بها إلى أعلى البرج، واحد في الوسط واثنان جانبيان يتصلان بالسلم الوسطى في الأعلى. وقد اضطلعت مديرية الآثار العراقية بصيانة البرج من عام 1959 إلى 1963 بتثبيت الجدران المتصدعة المتداعية وإعادة الأجزاء المتساقطة من السلالم.

---

(1) ومن هنا منشأ الاسم المحلي لبقايا «أور» التي تعرف باسم «المقير» أو «أور المقير»، والمحتمل كثيراً أن هذا أصل التسمية العربية للمنطقة «ذي قار».

ومما يلفت النظر في برج «أور» أن من ينظر إليه يشعر بجماله ورشاقته المتأتيين من التناسب في قياسات الجوانب وأوجه القاعدة السفلى. فمثلاً إذا أنعمنا النظر من قريب في سطوح هذه الأوجه بدت لنا وكأنها على شيء يسير من التحدب أو الانتفاخ، وهي الخاصية المعمارية التي تميزت بها الأبنية اليونانية ولا سيما الأعمدة، مما يطلق عليه مصطلح التحدب[1]. وتقوم زقورة «أور» فوق دكة أو مصطبة وسط الساحة المقدسة المخصصة لمعابد المدينة ولا سيما معبد الإله القمر «ننا» (وكان يلفظ سابقاً ننار وهو سين في اللغة الآكدية)، وتحيط هذه الساحة بالمخازن ومساكن الكهنة ومعبد هذا الإله وزوجته «ننگال». واسمه بالسومرية «أي ـ كش ـ شر ـ گال» (E-gish-shir-gal) أما الزقورة فاسمها بالسومرية «اي ـ تمن ـ ني ـ گور» (E-temen-ni-gur). وتشغل هذه المنطقة المقدسة النصف الشمالي من المدينة، وكان مجرى الفرات القديم يمر بمحاذاة الجانب الغربي من البرج.

ومما يُقال عن زقورة «أور» إنها من نوع الزقورات ذوات القواعد المستطيلة، حيث الطبقة الأولى السفلى قياسها 62,50×43 متراً كما قلنا، وارتفاعها 11متراً، وقياس الطبقة الثانية 36×26 متراً، وارتفاعها (6) أمتار وبقايا الطبقة الثالثة 120 متراً، ولكن لم يبقَ سالماً من ارتفاعها الأصلي سوى (3) أمتار، فيكون ارتفاع ما بقي من الزقورة الآن (20) متراً، كما ذكرنا. وقد خلد «أور ـ نمو» إقامته للزقورة في قطعة منحوتة من الحجر، لم يبقَ سالماً منها إلا مشاهد جزئية أهمها مشهد صور فيه الملك وهو واقف بهيئة صلاة وتعبد أمام الإله الجالس على عرشه (وهو الإله القمر ننا) لتسلم الأوامر منه، ويشاهد في المشهد الأسفل الملك وقد تسلم الأوامر المقدسة في تشييد الزقورة ومعها أدوات البناء مثل الخيط وعصا البناء.

---

(1) أي (Entasis)، وهو كما قلنا تحدب طفيف يجعل في الغالب في أبدان الأعمدة من أجل تصحيح خداع النظر الذي تبدو فيه الأعمدة أو الجدران مقعرة لو أنها شيدت وهي مستوية السطوح.

وبالإضافة إلى هذه القطعة المنحوتة وجد عدد من التماثيل النفيسة بعضها مصنوع من البرونز المسبوك وبعضها من الحجر، وهي تمثل الملك «أور ـ نمو» وخلفاءه من أبنائه وهي منقوشة في الغالب بنصوص سومرية قصير باسم الملك وألقابه وتسجيل بناء أحد المعابد.

ويأتي حفر الأقنية والأنهار وجداول الري من بعد مشاريع البناء من حيث تسجيلها فيما جاء إلينا من كتابات «أور ـ نمو». وقد شغلت إقامة مشاريع الري جانباً مهماً من نشاط هذا الملك بسبب تدهور هذه المشاريع إبان فترة الحكم الكوتي المظلمة، فلزم على مؤسس سلالة «أور» الثالثة وخلفائه بذل الجهود المتواصلة لإعادة الرخاء والازدهار الاقتصادي إلى البلاد . فنقرأ في كتابة أحد المخاريط الطينية الذي وجد في «لجش»[1] خبر حفر الملك «أور ـ نمو» لنهر ري كبير اسمه «ننا ـ كوكال» (Nanna Gugal) في الحدود ما بين منطقة لجش و«أور»، وأنه حفر له خزاناً كبيراً «كأنه البحر». وفي كتابات مخاريط الطين التي وجدت في الموضع المسمى «دقدقة» (شمال شرقي الزقورة بنحو 1/ 2 1ميل) نقرأ جانباً من أعمال الري في هذه المنطقة في إعادة اتصال المدينة بنهر الفرات عند هذا الموضع، وتشييد ميناء وجدت بقاياه، لربط مدينة «أور» بالبحر (الخليج) عن طريق النهر.

شولگي:

خلف «شولگي»[2] أباه «أور ـ نمو» على عرش أور. وقد حكم زمناً طويلاً، في حدود الثمانية والأربعين عاماً، صرف معظم النصف الأول منها في إقامة مشاريع بنائية وعمرانية، وفي مقدمتها إكمال بناء جملة معابد وأبراج مدرجة «زقورات» كان قد بدأ بها أبوه ولكن لم يستطع إتمامها، مثل

---

(1) حول مشاريع الري التي قام بها «أور ـ نمو» وخلفاؤه انظر:
CAH., I, Part 2, (1971). 599ff.

(2) يكتب اسم هذا الملك بالمقطعين Shul-Gi، ومن المحتمل أن يقرأ المقطع الأول أي Shul بهيئة Dun فتكون قراءة الاسم «دونگي»، مثلما كان يقرأ سابقاً.

زقورة «أور»، والوركاء، وتجديد بناء حارة «تمال»، موضع عبادة الإلهة «ننليل» في مدينة نفر. وأصلح التقويم ووحده كما جعل الموازين والمكاييل على قياس واحد مطرد. ويجد الزائر للمتحف العراقي والمتاحف العالمية الأخرى نماذج من هذه الموازين المنقوشة بكتابة قصيرة باسم الملك ومقدار الوزن، وهي مصنوعة من الحجر في الغالب على هيئة البط، رؤوسها ملتفة إلى الوراء.

وحذا «شولگي» حذو الملك الآكدي «نرام سين» في استعمال لقب «ملك الجهات الأربع». وتوجد إمارات قوية على أنه بولغ في تقديسه إلى حد التأله والعبادة في أثناء حياته ومن بعد مماته. فكانت القرابين تقدم إلى تماثيله في أنحاء الأمبراطورية مرتين في الشهر، وسمي أحد شهور السنة في التقويم السومري باسم «شولگي المقدس». ولما مات دفن في قبر فخم شيّد فوقه معبد لتقديم القرابين إليه وعبادته، ولا تزال بقايا هذا القبر والقبور الفخمة الأخرى العائدة لملوك سلالة «أور» من الآثار البارزة في المدينة، ولكن المنقبين وجدوها خالية معبوثاً بها، وقد انتهكت في أثناء الغزوات المدمرة التي قام بها الأموريون والعيلاميون. وقد وصل إلينا نحو ثلاثين ترتيلة دينية خصصت لهذا الملك، وقد خوطب فيها بتمجيد كأنه إله من الآلهة، وأنه تحدر من صلب الآلهة مثل «لوگال نبدا» والإلهة «ننسون» اللذين كانا أيضاً أبوي جلجامش ولذلك دعى «أور ـ نمو» في إحدى تلك التراتيل بأنه أخو جلجامش، وإلى ذلك ادعى «شولگي» بأنه ذو قربى بالإله الشمس «أوتو». وقد شيّد للملك معبد في مدينة «نفر». ومما أثر عن شولگي أنه أتقن فن الكتابة والأدب، ولعل هذا يسوغ الاستنتاج بأن الكثير من تلك المدائح والتراتيل التي وضعت لتقديسه كانت من نظمه؛ وتمتاز هذه التراتيل بأنها ذات أسلوب أدبي رفيع، يدل على ذلك ولع مدارس الكتبة من العهد البابلي القديم الذي أعقب زمن «أور» الثالثة باستنساخ بعض هذه القطع الأدبية، ويدخل ضمن ذلك الرسائل الملكية. وقد جاءت إلينا نماذج من هذه النسخ من كتبة مدينة «نفر»، ولا سيما تراتيل

شولگي وبعض رسائله ورسائل «ابي - سين»، آخر ملوك هذه السلالة[1]، وسيرد ذكر هذه الرسائل في موضع آخر من هذا الفصل.

ومما يقال عن ألواح الطين الخاصة بحكم «شولگي» إنها قليلة العدد من أوائل حكمه، ووجد معظمها في لجش وفي أور، وغالبها غفل من التأريخ قبل عام حكمه الرابع والعشرين. أما نشاطه الحربي والسياسي فتظهر بوادره ابتداء من منتصف حكمه، فنجد الحادثة المؤرخ بها عام حكمه الثامن عشر تسجل زواجاً سياسياً، بزواج ابنته من حاكم أحد الأقاليم العيلامية، المسمى «برخشي» أو «ورخشي»، الذي قام بدور بارز في أحداث الدولة الآكدية. ويظهر من عام حكمه الرابع والعشرين نشاطه العسكري في الفتوحات الخارجية، مبتدئاً بالأقاليم الشمالية والشمالية الشرقية، بالإضافة إلى بلاد آشور، ومنها مدينة «آشور» ومدينة «أوربيلم» (Urbilum) (وهي أربائيلو، أربيل، الواردة في المصادر الآشورية)، ومدينة «سمورم» (Simmurm) التي يرجح أنها تقع في منطقة بلدة «التون كوبري»، على الزاب الأسفل، ومدينة «ششرم» (Shashrum)، المرجح كثيراً تعيينها بالتل الأثري المسمى «شمشارا»، وقد وردت بهيئة شوشرا في الألواح المكتشفة في الموضع من العهد الآشوري القديم (انظر الفصل الرابع). كما وجهت حملات عسكرية على قبائل «اللولوبو». أما في بلاد عيلام فقد توطدت سلطة «أور» في عهده، ومثل ذلك يُقال بالنسبة إلى أقاليم الفرات الأوسط والأعلى.

ويتميّز عهد «شولگي» بوجه خاص وملوك سلالة أور الثالثة بوجه عام

---

(1) حول هذه التراتيل ومظاهر التأليه الأخرى راجع:

(1) Falkenstin und Von Soden, *Sumer. Und. Akkad. Hymnen Und Gebete,* (1953).

(2) Falkenstein in *IRAQ*. (1960) 139ff.

وعن رسائل ملوك «أور»: F. Ali, «Two Collections of Sumerian Letters» in *Archiv Orientalni* 33, (1965), 529ff.

Kramer, in *Orientalia,* (1953). Van Dijk in *Sumer,* 15, (1959), Jacobsen in *JCS,* VII, (1953).

Sollberger, *Tests From Cuneiform Sources,* I, (1966).

من ناحية الوثائق المدونة بكثرة ما جاء إلينا من مختلف العقود القانونية والتجارية والسجلات الأخرى الدقيقة الخاصة بجميع أنواع الواردات والصرف والشؤون الخاصة المختلفة، مما يتعلق بإدارة المعابد والمرافق والمؤسسات العائدة إلى الدولة. وقد أحصيت هذه السجلات الإدارية والاقتصادية بزهاء عشرين ألف لوح، نشر القسم الأعظم منها[1] ولكنها ما زالت بحاجة إلى التحليل والدرس لاستخلاص النتائج منها عن الحياة الاقتصادية والإدارية والاجتماعية والدينية.

ونختتم كلامنا عن «شولگي» بالتنويه بأن شهرته لم تقتصر على الفتح وتنظيم إدارة الدولة وتقديسه الذي بلغ حد العبادة، بل أضاف الكتبة إلى ذلك أنه كان أول موسيقار في المملكة، فكان يحسن العزف على ما لا يقل عن ثماني آلات موسيقية، من بينها قيثارة وصفت بأنها ذات «ثلاثين وتراً»، وآلة موسيقية سميت باسم أحد ملوك كيش القدامى هو «أور ـ زبابا»[2]، الذي سبق أن رأينا كيف أن سرجون الآكدي كان ساقياً له ثم استقل عنه.

أمار ـ سين:

«أمار ـ سين» أو«بور ـ سين»[3]، الملك الثالث من سلالة «أور» الثالثة، وقد خلف أباه «شولگي»، وحكم تسع سنوات. ومما يقال عن حكمه بوجه عام إنه سار على خطى أبيه في توزيع نشاطه بين البناء والتشييد، وفي مقدمة

---

(1) حول ألواح الطين في عهد سلالة «أور» الثالثة انظر المراجع الآتية:

(1) L. Oppeheim, *Catalogue of The Cuneifrm Texts in The W.Eames Collection*, (1948).

(2) Johnes and Snyder, *Sumerian Econonic Texts from The Third Dynasty of Ur*, (1961).

(3) Fish, in *IRAQ*, (1938).

(2) في نص نشر حديثاً انظر: CAH., I, Part 2, (1971), 606-7.

(3) الصيغة الأولى من الاسم أي (أمار ـ سين) هي الصيغة السومرية، ولكن يرجح كذلك أن يقرأ الاسم بهيئة (بور ـ سين) وهو الشكل الآكدي (السامي) وقد سبق أن ذكرنا أن الملوك الثلاثة الأخيرين من هذه السلالة كانوا ذوي أسماء سامية.

ذلك إقامة المعابد، وبين النشاط العسكري والسياسي، ولا سيما في الأقاليم الشرقية والشمالية الشرقية، وهي الأقاليم التي لم تخضع خضوعاً تاماً لسلطان أمبراطورية «أور» الأمر الذي اضطر «أمار ـ سين» إلى إرسال الحملات العسكرية منذ بداية حكمه، فقد سمي الحدث الذي اتخذ لتأريخ عامه الثاني بأنه (العام الذي دمر فيه أمار ـ سين «أوربيلم»)، مجدداً بذلك ما قام به أبوه قبل نحو خمس سنوات. وأرخت السنتان السادسة والسابعة من حكمه بأحداث حربية في هذه الجهات، وذكرت مواضع ومدن سبق أن ورد ذكرها في عهد أبيه مثل «ششرم». أما في بلاد عيلام فيبدو أن الأحوال فيها استمرت هادئة مستقرة، وكذلك يقال بالنسبة إلى أرجاء الأمبراطورية الأخرى، وكانت الطرق ونظام المواصلات ممهدة ما بين العاصمة وبين الولايات التابعة لها. ولعل أبرز ما كان يتميز به نظام الحكم والإدارة في عهد هذه السلالة بروز السلطة المركزية وتعاظمها، ويتجلى ذلك في طريقة ارتباط الولايات التابعة بالحكومة المركزية ممثلة بالعاصمة «أور» حيث كان يحكم فيها حكام يعينهم ملك «أور»، وقد جاءت إلينا أسماء البعض منهم مثل حاكم آشور المسمى «زريقم» الذي عين والياً على بلاد آشور في عهد «شولگي»، وقد شيد هذا الحاكم في تلك المدينة معبداً «لحياة سيده أمار ـ سين». [1]، لأن هذا الملك قدس كذلك وبلغ درجة الألوهية مثل أبيه. وقد نعت في كتاباته بأنه «الإله الشمس الذي يهب الحياة إلى البلاد وقاضي البلاد». وشيّد له قبر في مدينة «أور»، بجوار قبر أبيه، وأقيم فوق «سرداب» اللحد معبد لعبادته وتقديم القرابين والصلوات إليه.

وعلى الرغم من قصر حكم «أمار ـ سين»، فقد قام بجملة مشاريع بنائية، ولا سيما في حقل تشييد المعابد كما نوَّهنا بذلك من قبل. فقد خصص جهوداً كبيرة في إعمار العاصمة «أور»، وتليها في ذلك المدينة المقدسة «نفر»، كما تشير إلى ذلك نتائج التنقيبات والنصوص المكتشفة. وشيد في مدينة «أريدو» زقورتها (برجها المدرج).

---

(1) انظر: A. Goetze in *JCS*, (1947), 216 (1928), P. 131.

ولا يعلم على وجه التأكيد كيف كانت نهاية حياة «أمار ـ سين»، والطريف ذكره بهذا الصدد ما جاء في أحد نصوص الفأل من أنه «مات على إثر عضة حذاء»[1].

شو ـ سين:

«شو ـ سين» (وكان يقرأ سابقاً گمل ـ سين)، الملك الرابع من سلالة «أور» الثالثة؛ وتذكر أثبات الملوك أنه ابن «أمار ـ سين» ولكن أدلة تأريخية أخرى تشير إلى أنه كان أخاه. ودام حكمه تسع سنوات، شغلها مثل أسلافه في مشاريع البناء والتشييد والحملات الحربية، ونال مثلهم أيضاً نصيباً من التقديس والتأليه. ففي حقل البناء ظهر نشاطه، مثل الملوك السابقين، في تجديد بناء المعابد في المدن المشهورة. ودونت أخبار هذا النشاط فيما وصل إلينا من نصوص مدونة، نذكر على سبيل المثال بناءه لمعبد الإله «شارا» في مدينة «أوما» (تل جوخة الآن قرب تلو)، وقد استغرق بناؤه سبع سنوات، واستعملت فيه (9) ملايين آجرة كبيرة و(17) مليون آجرة صغيرة[2]. وشيّد له الحاكم التابع له المسمى «أتوريا» في «أشنونا» (عاصمة المملكة المسماة بالاسم نفسه) معبداً خاصاً لعبادته، وقد تناولته التحريات الأثرية التي أجرتها بعثات التنقيب من جامعة شيكاغو في منطقة ديالى[3].

وتشير الحوادث المؤرخة بها سنوات حكم «شو ـ سين» إلى توطيد الأمور واستتباب السلم في أرجاء الأمبراطورية، ولكن لم يخل حكمه من نشاط عسكري ولا سيما الحملات الحربية التي وجهها إلى منطقة جبال «زاجروس»، واستطاع فيها دحر اتحاد أو تحالف من الدويلات الإيرانية[4]، كما أرسل الجيوش إلى الجهات الشمالية الشرقية في عام حكمه الثالث

---

(1) انظر: Goetze in JCS, (1947), 261, Nos. 29-31.

(2) Saggs, *The Greatness That Was Babylin,* (1962), P. 57.

(3) حول هذا المعبد انظر: Frankfort, *The Gimil-Sin Temple*.

(4) D. D. Edzard in *Archiv Für Orientforschung,* (1959-60), Iff.

لإخضاع الثائرين في المنطقة المسماة «سمانم»، وفي سنته السابعة إلى الإقليم المسمى «زبشالي»، وقد سجل انتصاره في المنطقة الأولى في منحوتات وضعها في مدينة «نفر»، ولكن لم يعثر عليها وإنما جاءتنا أخبارها المدونة من العهود التالية. وفي بلاد «عيلام» عين «شو ـ سين» حكامه في المدن المهمة. واشتهر في عهده شخصية مهمة هو حاكم لجش المسمى «أر ـ نانا» الذي شيّد لسيده الملك معبداً في لجش، ووجدت له في هذه المدينة جملة أحجار أبواب (Door Sockets) نقشت فيها ألقابه وتبعيته إلى الملك «شو ـ سين» وقد عينه هذا الملك حاكماً عاماً (بالسومرية «سوكال ـ ماخ») في الأقاليم الشرقية.

بدء اندفاع الأموريين إلى وادي الرافدين:

بدأت في حكم «شو ـ سين» بوادر اندفاع هجرات سامية جديدة من أنحاء بوادي الشام، وهم الأموريون أو الكنعانيون الشرقيون الذين قضوا على أمبراطورية «أور» في عهد آخر ملوكها المسمى «أبي ـ سين» وقامت على أنقاضها جملة دويلات من هؤلاء الأموريين، مما سنشرحه بعد قليل. فقد أرخت السنة الرابعة من حكم «شو ـ سين» بأنها السنة التي شيد فيها «سور الأموريين» وسمي هذا السور أو الجدار: «مورق تدنم» أي السور الذي يصد الأموريين[1] لأن كلمة «تدنم» من أسماء هؤلاء الأموريين أو هي صفة من صفاتهم. ومع أن «شو ـ سين» استطاع أن يصد اندفاع الأموريين على طوال نهر الفرات، إلا أن هذا كان صداً مؤقتاً. والمرجح كثيراً أن هذا السور شيد في موضع ما بالقرب من هيت (توتل أو دودل) وقد جاءت تفصيلات في وصف هذا السور في رسالة غير كاملة. واقتضى لإقامة هذا السور بموجب تلك الرسالة، كسر ضفاف النهرين (الفرات ودجلة) لعله لملء الخندق

---

(1) لعله من المفيد أن نورد نص الحادثة المؤرخة بها السنة الرابعة من حكم «شو ـ سين» بلفظها السومري:

Mu d Shu-d Suen Lugal Uri-ma-Ke bad mar-Tu mu-ri-iq ti-id-ni-im Mu-Du (Edzard, ZZB, P. 33).

الملاصق للسور، ويبدأ السد الترابي من الموضع المسمى قنال «ابكلات» وأن طوله 26 «بيرو» (البيرو ساعة مضاعفة) أي في حدود 275كم أو (170) ميلاً، وأن جعل بدايته من الموضع المذكور أي «ابكلات» (وفي صيغة أخرى ابلاكات) يمكننا من تعيين موضعه المحتمل بأنه لم يكن بعيداً من شمالي غربي بغداد، وأن القتال المذكور «ابكلات» يرجح أن يكون النهر الذي ورد ذكره في الأخبار المتأخرة باسم «بلاكوباس» الذي يقال إن الإسكندر الكبير هو الذي حفره، ويقترن عادة باسم المدينة «بلوكات» التي يحتمل أنها بلدة الفلوجة. ولكن طول السد الذي قدر بنحو (170) ميلاً أطول بكثير من المسافة القصيرة ما بين الفرات ودجلة في منطقة الفلوجة، ولذلك فيرجح أن يكون طرفه الغربي عند بلدة الرمادي بالقرب من بحيرة الحبانية، والطرف الشرقي عند التلال الكائنة ما بين الفلوجة وبغداد[1].

«أبي ـ سين» وانهيار أمبراطورية أور:

كان «أبي ـ سين» آخر ملوك سلالة أور الثالثة، وقد خلف أباه «شو ـ سين» السالف الذكر، وحكم أربعة وعشرين عاماً كانت نهاية أمبراطورية أور التي دامت زهاء القرن الواحد (2112 ـ 2004ق.م) وقد عملت على انحلالها وانهيارها عوامل داخلية وخارجية سنوجزها بعد قليل. أما الأحداث الاعتيادية التي سجلتها السنوات المؤرخ بها فتدور على أعمال البناء والتشييد تتخللها بعض الحملات العسكرية إلى الأقاليم الشمالية الشرقية، كما ظهرت بوادر العصيان والانفصال في الأقاليم التابعة من بلاد عيلام، وسنرى هذا الخطر يتطور ويتفاقم في غزو العيلاميين لوادي الرافدين، مضافاً إلى ذلك تجدد اندفاع الأقوام الأمورية بكثرة وشدة من الجهات الشمالية الغربية على طوال وادي الفرات، وقد لاقت هذه الأخطار الخارجية جبهة داخلية يعمها التفكك والانشقاق.

---

(1) حول هذا السور انظر: Gadd in CAH, I, Part 2, (1971), 610ff.

ولعل خير ما يوضح إمارات الانهيار والتفكك هذه في الجبهة الداخلية وفقدان سيطرة الملك المركزية على الأجزاء المختلفة من البلاد أن الكثير من هذه الأجزاء لم يلتزم باستعمال الحوادث الرسمية المؤرخ بها، بل استعمل كل منها حوادث خاصة بها، ويعني هذا في العرف السياسي في حضارة وادي الرافدين أن تلك المراكز والمدن نبذت اعترافها بالسلطة المركزية، أي سلطة الملك وسلطة العاصمة أور. فإذا استثنينا العامين الأولين من حكم الملك «ابي - سين» اللذين سار فيهما أكثر المدن على الالتزام بالتأريخ الرسمي فإن تلك المدن بدأت منذ عام حكمه الثالث تستعمل الواحدة بعد الأخرى حوادث محلية خاصة بها للتأريخ منها، وبالإمكان متابعة هذه الظاهرة على ضوء دلالة ألواح الطين المستخرجة من مدن العراق القديمة. ففي منطقة «اشنونا» انقطع، التأريخ بالحوادث الرسمية منذ عامه الثاني[1]، وفي مدينة «سوسة» (عاصمة بلاد عيلام) منذ عامه الثالث وفي لجش منذ عامه الخامس، وفي مدينة «أوما» (تل جوخة) منذ العام السادس وفي مدينة «نفر» التي كانت مصدر الاعتراف بالسلطة الملكية، منذ عامه السابع. وبالإضافة إلى هذه البوادر الدالة على انفصال المدن عن السلطة المركزية، تشير الأخبار المدونة إلى تهاون حكام الأقاليم في إرسال الحيوانات الخاصة بالقرابين إلى معبد الإله «ننا» في أور منذ العام السادس من حكم الملك. وإذا رجعنا إلى نصوص الفأل والتنبوءات التي دوّنت في العصور التالية وجدناها تشير إلى انحلال السلطة الداخلية وتمرد السكان على طاعة السلطة المركزية، وظهور العصيان والثورات[2]، كما أن المعاصرين والجيل الذي عاش من بعد سقوط «أور» عزوا سبب سقوطها إلى غضب الإله «أنليل» والآلهة العظام الأخرى على مدينة أور وعلى إلهها «ننا» وملكها فسلطوا القحط والمجاعة والأعداء. وأشارت إلى ذلك قصائد الرثاء

---

(1) انظر: Jacobsen, JCS, VII, (1958).

(2) حول نصوص الفأل انظر: Goetze, in JCS, I, (1947).

وعن رثاء سقوط «اور»: Kramer, in ANET.

التي نظمت في رثاء مدينة «أور» ونبوءات الفأل والرسائل، ولا سيما رسائل «اشبي ـ ايرا» التي سنتطرق إليها في موضع آخر.

إن ذلك الانهيار والانحلال الداخليين اللذين رأينا بعض بوادرهما عجل فعل الأخطار الخارجية التي يمكن حصرها في جبهتين: الأخطار التي ظهرت من بلاد عيلام في الجبهة الشرقية وتدفق جموع الساميين الأموريين من الجبهة الشمالية الغربية. أما في بلاد عيلام فلم يستطع الملك «ابي ـ سين» أن يعيد إليه ولاءها أو حيادها في المحاولات الحربية والسلمية التي بذلها، على الرغم من أن تحالفاً تمّ بينه وبين العيلاميين أيضاً، فإن هؤلاء العيلاميين لم يلتزموا بذلك التحالف، بل اغتنموا فرصة تلك الأحداث وشنوا هجوماً على مملكة أور وأسهموا مع الأموريين في تدميرها، والواقع أن تدمير مدينة «أور» تمّ على أيديهم، ويرجح أنهم أسروا الملك نفسه. وظهر خطل سياستهم تجاه «أور» وملكها عندما جاء دورهم بهجوم الأموريين عليهم وطردهم من البلاد ولا سيما بعد أن استقل أحد الحكام التابعين إلى ملك «أور» المسمى اشبي ـ ايرا الذي طرد الحامية العيلامية التي تركها العيلاميون في مدينة «أور» وضم هذه المدينة إلى مملكته «ايسن» كما سنذكر ذلك بعد قليل.

أما الأموريون فقد بدأ اندفاعهم الجديد إلى بلاد وادي الرافدين منذ السنة الخامسة من حكم «ابي ـ سين» واستطاعوا اختراق خط الدفاع أو السور الذي شيده «شو ـ سين» ونزلوا على مدن السهل الرسوبي ينهبونها ويدمرونها. فانتهز معظم المدن الأخرى هذه الفرصة وانفصلت عن السلطة المركزية الضعيفة التي ظهر عجزها في صد هجوم أولئك الأموريين. وكان في مقدمة تلك المدن مدينة «ايسن» وكان حاكمها المدعو «اشبي ـ ايرا»، الذي يرجع في أصله إلى مدينة ماري ثم دخل في خدمة ملك أور «أبي ـ سين»، أبرز الحكام في هذه الفترة التي عمها الاضطراب والفوضى السياسية. وقد حقق طموحه السياسي بتأسيس مملكة مستقلة كانت من أهم الدويلات التي قامت على أنقاض أمبراطورية «أور» في العصر البابلي القديم (مطلع الألف الثاني ق.م) وهو العصر الذي سنفرد له الفصل الآتي.

ولعل أوضح ما يمثل لنا الوضع الداخلي المتدهور وموقف الكثير من الحكام التابعين إلى الملك وتقلبهم في ولائهم وانتهاز الفرص للانسلاخ والاستقلال وفي مقدمتهم «اشبي ـ ايرا» السالف الذكر، ما جاء إلينا من نسخ الرسائل[1] المتبادلة ما بين ملك «أور» وبين اثنين من حكامه هما «اشبي ـ ايرا» وحاكم منطقة «كزالو» في الجهات الشمالية من العاصمة «أور» ففي الرسالة التي أرسلها «اشبي ـ ايرا» إلى الملك حينما كان لا يزال في خدمته ما بين السنة الخامسة والثانية عشرة من حكمه، نقرأ نجاح هذا الحاكم في الحصول على كميات كبيرة من الحبوب أرسله الملك ليشتريها بالفضة بالنظر إلى شح الحبوب في العاصمة «أور» وحلول المجاعة فيها، ولكن «اشبي ـ ايرا» لم يستطع إيصالها إلى أور لأن الأموريين الغزاة دخلوا البلاد وتغلغلوا فيها، فعمد هذا الحاكم على خزن تلك الحبوب في مدينة «ايسن» وطلب من الملك في رسالته السالفة الذكر، أن يرسل سفناً كثيرة ليشحنها. وتنتهي الرسالة بتشجيعه للملك على الصمود إزاء العيلاميين الذين دب الضعف إليهم من جراء قلة مؤونتهم، كما طلب منه أن يمنحه السلطة في حكم مدينة «ايسن» ومدينة «نفر» ويظهر من الرسالة الجوابية التي أرسلها الملك إلى «اشبي ـ ايرا» أنه أقر هذا الحاكم على طلبه. وقد وجدت هذه الرسالة في أثناء تنقيبات جامعة شيكاغو في مدينة «نفر»، ونقف مما جاء فيها على مبلغ الخوف والهلع اللذين حلا بملك أور واستعداده لدفع أسعار الحبوب مضاعفة، ونراه يبدي غضبه على حكام الأقاليم التابعين له لأنهم لم يستطيعوا صد جموع الأموريين. وارتفعت أسعار المعيشة ارتفاعاً فاحشاً في أثناء هذه الأزمات. وبوسعنا الوقوف على نوايا «اشبي ـ ايرا» الحقيقية وأنه كان يعمل لتحقيق مطامحه الشخصية في

---

(1) يرجع عهد هذه الرسائل إلى العصر البابلي القديم. حول أصالة هذه الرسائل وترجمتها والتعليق عليها انظر البحوث الآتية:

(1) Jacobsen in JCS, VII, (953), 36ff.

(2) F. Ali in *Archiv Orientalni* 33, (1965), ff.

الاستقلال من الرسالة التي وجهها إلى ملك «أور» حاكم إقليم «كزالو» المسمى «بوزر ـ نومشدا» أو «يوزر ـ شولگي» وكيف أن «اشبي ـ ايرا» قد استقل في الواقع، وأنه كان يحاول ضم كزالو إلى المدن التي استقل بها. وفي جواب الملك على هذه الرسالة نجده بالغ الارتباك والضعف وأنه اعترف بحقيقة تمرد «اشبي ـ ايرا».

وهكذا نقف من هذه الوثائق وغيرها على الأسباب التي عملت على سقوط أمبراطورية «أور» وفي مقدمتها العوامل الداخلية التي مهدت للأعداء الخارجيين الانقضاض عليها. وسنتابع النتائج السياسية الخطيرة التي استتبعت انهيار هذه الأمبراطورية من عودة القطر إلى وضع «دول المدن»، وهي الدويلات التي قامت على أنقاض أمبراطورية «أور» من جانب رؤساء القبائل الأمورية ومشايخها. وكانت نهاية أور نهاية محزنة، ولم يقم للمدينة من بعدها قائمة فلم تظهر فيها سلالات حاكمة، كما انتهت حياة السومريين السياسية واتخذ سقوط «أور» وتدميرها موضوعاً للرثاء وقد جاءت إلينا جملة قصائد في ذلك[1].

موجز عن التنظيمات الإدارية والاقتصادية:

1ـ الملك وجهازه من الموظفين:

بالمقارنة مع قلّة المصادر المتعلقة بالأوضاع السياسية وقلة السجلات الملكية الرسمية، جاءت إلينا من عهد سلالة «أور» الثالثة كما ذكرنا مصادر وفيرة عن الأحوال الداخلية من الوثائق والعقود التجارية والاقتصادية والإدارية التي بدأت تتكاثر وتتضخم منذ منتصف حكم الملك «شولگي» ومما لا شك فيه أن هذه الوفرة من الوثائق الاقتصادية والإدارية كانت تستلزم جهازاً واسعاً من المسجلين والمحاسبين والمشرفين والمديرين، وبعبارة أخرى إدارة مكتبية

---

(1) حول قصائد الرثاء التي نظمت بمناسبة سقوط أور انظر:
Kramer, in ANET, (1955), 36ff.

(بيروقراطية) ضخمة. والواقع من الأمر أن ولع الكتبة السومريين بالتسجيل والتنظيم وحفظ الوثائق كان تراثاً متأصلاً ورثه كتبة سلالة «أور» الثالثة من العصور الماضية. ويمكن بوجه عام تصنيف جهاز الدولة الوظائفي ابتداء من درجاته السفلى إلى الأصناف الآتية:

أ ـ الكتبة والمسجلون أي ما يسمى بالسومرية «دب ـ سار» (Dub-Sar) وكان هؤلاء على مراتب ودرجات، وبضمنهم المحاسبون والموظفون الصغار[1].

ب ـ ويأتي فوق هؤلاء طبقة من الموظفين أعلى درجة مثل مديري المشاغل والمصانع الخاصة بالقصر والمعبد، وكبار الموظفين الموكلين بإدارة أملاك القصر والمعبد والكهنة والكاهنات وقواد الجيش وحكام المدن والأقاليم. وكان الحكام طبقة عليا من الموظفين، ويسمى الحاكم بالسومرية «أنسي» (Ensi) وبالبابلية «اشاكم» (Ishshakkum) و«شكنا» (Shakkana) الحاكم العسكري أو القائد ثم يأتي في قمة الهرم الملك ومستشاره ووزيره الأعظم «سكال ـ ماخ» (Sukkal-Makh).

واستحدثت في زمن «شولگي» دوائر اقتصادية مهمة مثل دائرة المقاييس والمكاييل المسؤولة عن تنظيم الأوزان والمكاييل الرسمية المضبوطة ومراقبتها وقد ظل هذا النظام معمولاً به في الأدوار التأريخية التالية.

ولما ظهرت المملكة الموحدة الكبيرة واتسعت إلى أمبراطورية في العصر الآكدي واستمرار ذلك في زمن سلالة «أور» الثالثة تعقدت إدارة الدولة واتسعت سلطات الملك فظهر الاتجاه الذي لاحظناه في هذين العهدين في تقديس الملك وتأليهه وأنه كان ممثلاً للألوهية في الواقع، أي القيام بوظيفة الإله نفسه. وتأكدت هذه الصفة الإلهية منذ منتصف حكم شولگي. وكان من

---

(1) حول وظيفة الكتبة انظر:

N. Schneider in *Orientalia*, 15, (1946), 64ff.

بين العوامل التي أدت إلى ذلك التطور في نظام الملوكية، أن الملوك بدؤوا منذ العهد الآكدي يعينون حكاماً على الأقاليم التابعة لهم. ولكن كان مثل هؤلاء الحكام في عصر فجر السلالات السابق لزمن الدولة الآكدية يمثلون آلهة دول المدن التي كانوا يحكمونها ولما ظهر النظام الجديد بتعيين الملك لمثل أولئك الحكام وحين تعدت سلطة الملك مقياس دولة المدينة إلى حكم المملكة الكبيرة والأمبراطورية، استلزم ظهور نظرية أو مبدأ جديد في الحكم هي ألوهية هذا الملك لتنسجم مع اتساع سلطته ومع إمكانه تعيين حكام الدويلات والأقاليم المختلفة بحيث ينوب هؤلاء الحكم عن الملك ويمثلونه في السلطة مثلما كانوا يمثلون الآلهة عصر فجر السلالات. ولعل أشبه نظام تأريخي نسوقه للمقارنة مكانة الأمبراطور الروماني عند ظهور نظام الأمبراطورية في تأريخ رومة وظهور نظام عبادته وإقامة المعابد له. وقد رأينا مما مرّ بنا سابقاً كيف شيدت المعابد لمعظم ملوك سلالة «أور» الثالثة وأقيمت لهم معابد جنائزية لعبادتهم وتقريب القرابين لهم من بعد مماتهم، كما في المقبرة الملكية الخاصة بملوك هذه السلالة في العاصمة «أور». ولكن مع كل ذلك لم يصبح الملك إلهاً حقيقياً على غرار الآلهة المعروفين، لأنه كان ينقصه الكثير من سمات الألوهية المهمة وفي مقدمتها الخلود والقدرة المطلقة، فظل الملك إلى جانب تقديسه وعبادته «راعي الناس» الذين عهدت الآلهة رعايتهم إليه.

ومهما كان الأمر فإن الملك كان على رأس السلطة ومصدر السلطات والشرائع على الرغم من أن الشرائع مردها إلى أوامر الآلهة وإرادتهم من الناحية النظرية، كما جاء في شريعة مؤسس هذه السلالة «أور ـ نمو» حيث انتدبه إله مدينته بناء على تفويض إلهي من الآلهة الأكبر منه، ليقيم العدل في البلاد ويمنع القوي من اضطهاد الضعيف وهي العبارة التي تتكرر في شرائع العراق القديم ابتداء من تشريعات «أوروكاجينا» وإصلاحاته التي تكلمنا عنها في الفصل السابق. ومن قبيل هذه الواجبات التشريعية أن يصدر الملك أوامره وإراداته لتنظيم إدارة الدولة ومحاكمها وتعيين القضاة المنفذين لها. وبالإضافة إلى الشرائع التي تصدر من سلطة الملك العليا المستندة إلى إرادة الآلهة جعلت

القرارات التي تصدرها المحاكم أحكاماً ملزمة، أي سوابق قضائية يسار عليها في معظم الحالات. وقد وصل إلينا من عهد «أور» الثالثة نحو (150) لوحاً معظمها من لجش، وهي عبارة عن سجلات بالقرارات التي أصدرها قضاة المحاكم في شؤون مختلفة مثل الأحوال الشخصية والمداينات والبيوع وبعض الجرائم، وكثيراً ما كانت مثل تلك المرافعات تجري أمام الملك أو بتصديق منه (انظر الفصل الخاص بالشرائع في الجزء الثاني من هذا الكتاب).

ملاحظات على الوثائق الاقتصادية:

مع كثرة الألواح الخاصة بالأمور الاقتصادية والتجارية أو لعله بسبب كثرتها لم تستخلص منها النتائج النهائية فهي ما زالت بحاجة إلى الدرس والتحليل على الرغم من أن معظمها قد تم نشره كما ذكرنا. ولعل الملاحظات الموجزة التالية تكفي للتعريف بطبيعة مثل هذه الوثائق:

وأول ما نذكر عن هذه السجلات الاقتصادية والإدارية اتباع طريقة خاصة في حفظها وتنظيمها. فكانت ألواح الطين توضع في صناديق أو أوعية من الفخار تسمى بالسومرية «پسان ـ دبا» (Pisan-Dub-Ba) أي وعاء أو صندوق الألواح أو «الأرشيف» ويدعى الموكل بها رجل الأرشيف أو حافظ السجلات (بتصدر كلمة «لو» أي الرجل قبل العلامات المسمارية المذكورة) وكان يعلق في مثل هذه الصناديق التي يحتوي كل منها على صنف معين من الوثائق والسجلات بطاقة على هيئة لوح طين صغير يدون عليه نوع الوثائق المحفوظة وتأريخها في بعض الأحايين. وإن قسماً كبيراً من الوثائق التي وجدت من عهد سلالة أور الثالثة يخص اقتصاد المعبد وإدارته وقوائم القرابين التي كانت تقدم إلى معابد الآلهة في أيام ومواسم معلومة، وكذلك سجلات مصروفاته إلى غير ذلك من الشؤون الخاصة بإدارة المعبد. وهناك السجلات الخاصة بالحكام والموظفين أي الطبقة الحاكمة، وعلى رأسها الملك وبلاطه ثم سجلات الطبقة الوسطى وطبقة الفلاحين وعامة الناس.

ويستنتج من هذه الوثائق أمور مهمة عن الملكية الفردية وإمكان التصرف

بها بحرِّية من بيع وشراء وتبادل في العقارات والعبيد، كما ندرس منها معاملات المداينات والقروض بالحبوب والتمر والفضة. ويبلغ الفائض معدل عشرين بالمائة لقروض الحبوب ولا سيما من أهراء القصر والمعابد، أما قروض الفضة فكان فائضها مرتفعاً يبلغ معدله نحو ثلاثة وثلاثين ونصف بالمائة. وتتضمن تلك الوثائق أحكام الإجارات للبيوت والأراضي الزراعية، وجاء نوع من إجارة الأرض أن يدفع المستأجر ثلث حاصل الغلة لمالك الأرض. وندرس في مثل هذه العقود التجارية المختلفة الصيغ القانونية الدقيقة المتبعة في تدوينها وذكر القسم بأسماء الآلهة واسم الملك ثم أسماء الشهود، والمدون أو الموثق (كاتب العدل) والتأريخ الرسمي. وقد سبق أن نوَّهنا كيف أن الملك سرجون الآكدي كان على ما يرجح أول من أدخل اسم الملك في قسم العقود.

والغالب أن عامة الناس كانوا يفضلون الاشتغال أجراء في الأراضي العائدة إلى الملك أو المعبد مقابل إعالتهم ودفع تكاليف معيشتهم تخلصاً من تراكم الديون عليهم بفائضها الفاحش الأمر الذي كان يؤول في الغالب إلى عبوديتهم إذ الواقع التأريخي أن عهد سلالة أور الثالثة يمثل درجة عالية من نظام الدولة الرأسمالية أي رأسمالية الدولة عن طريق احتكار جهاز الحكم لمعظم وسائل الإنتاج الزراعي والنشاط التجاري والصناعي. أما ما يسمى بالقطاع الخاص في عرف الاقتصاد الحديث فكان أصحابه كما نوَّهنا معرضين إلى الأخطار والهلاك، كالإفلاس والأيلولة إلى العبودية.

وبالإضافة إلى الثروات الناتجة عن المحاصيل الزراعية كان اقتصاد الدولة يعتمد كذلك على طائفة من الصناعات اليدوية ولكن بهيئة جماعية، حيث المشاغل أو المصانع العائدة إلى الدولة والمعابد، مثل مصانع طحن الحبوب وكانت هذه من الحرف المختصة بالنساء تقريباً وقد جاءتنا سجلات طريفة عن عدد من هذه المطاحن وعدد عمالها وحساباتها وأجور عاملاتها التي كانت تدفع في الغالب على هيئة مواد عينية غذائية. ونذكر أيضاً صناعة

الصوف والنسيج، وقد اختص بها كذلك النساء في الغالب، ويدخل ضمن هذه الصناعة المهمة صبغ الأنسجة، وكانت صناعة النسيج صناعة ضخمة وذات أساليب ومصطلحات فنية معقدة ويلحق بها صناعة الخياطة. وكانت البضائع المصدرة إلى الخارج من هذه الصناعة تدر أرباحاً طائلة للدولة. ومن الصناعات المهمة التي يمكن الوقوف عليها من هذه السجلات صناعة الجلود والخمور بأنواعها الكثيرة المستخلصة من التمور والكروم، وصناعة بناء السفن والنجارة والبناء وصناعة المعادن، مثل النحاس والبرونز والفضة والذهب ولم يظهر استعمال الحديد بعد. ثم صناعة البواري والحصر من القصب والحلفاء على نحو ما يلاحظ الآن في العراق. وكانت تربية المواشي ومصائد الأسماك من مصادر الثروة المهمة منذ أبعد العهود وازدادت ازدهاراً في زمن سلالة أور الثالثة. وخصص بعض المراكز لأغراض تربية المواشي نذكر من بينها المدينة التي ورد ذكرها باسم «بوزورش ـ دكان» (في الموضع الذي يعرف الآن باسم دريهم جنوب مدينة نفر ببضعة أميال) فقد كانت مركزاً كبيراً لحظائر الماشية العائدة إلى ملوك سلالة أور منذ عهد الملك «شولگي».

الفصل السابع

العصر البابلي القديم

و

السلالات البابلية الأخرى

تعريف وتمهيد:

يطلق اسم العصر البابلي القديم على الفترة الزمنية الواقعة ما بين نهاية سلالة أور الثالثة التي مر الكلام عليها (في حدود 2004ق.م) وبين نهاية سلالة بابل الأولى (في حدود 5/ 1594) وتأسيس الدولة الكشية أو سلالة بابل الثالثة. وسنرى أن أبرز ما يميز هذه الفترة الطويلة من تاريخ العراق القديم (وقد دامت زهاء أربعة قرون) من الناحية السياسية والسكانية تدفق هجرات الآموريين من بوادي الشام والجهات العليا من الفرات وتحطيم الكيان السياسي في وادي الرافدين وقيام عدة دويلات متعاصرة ومتحاربة ظلت حتى قيام الملك البابلي الشهير «حمورابي» (سادس ملوك سلالة بابل الأولى) وفرضه الوحدة السياسية (في حدود 1763ق.م. وهو العام الذي قضى فيه على سلالة لارسة)، وبعبارة أخرى عادت البلاد في هذا العهد إلى نظام دول المدن الذي كان أول نظام سياسي ظهر في حضارة وادي الرافدين في العصر الذي سميناه «عصر فجر السلالات» أو عصر دول المدن، ولذلك فيصح أن نطلق على هذا العهد الجديد اسم «عصر دول المدن الثاني»[1]. وقد يسمى

---

(1) وبهذا المعنى سماه الباحث (أزارد) وبالألمانية «Zwischen Zeit» وهو مصطلح استعمله الباحثون الألمان في تاريخ وادي النيل أو ما يرادف المصطلح الإنجليزي «العصر المتوسط» أو العصر الوسيط (Intermediary Period) وهي الفترة التي تفصل ما بين عهد ما يسمى في تاريخ مصر بالمملكة القديمة (عصر الأهرام) وبين عهد الأسرتين الحادية عشرة=

بأسماء أخرى منها عصر «أيسن ولارسة» وبوجه خاص القسم الأول من هذا العصر الذي دام زهاء القرنين ونصف القرن والذي حكمت فيه جملة دول مدن أشهرها وأقواها سلالتا «أيسن» و«لارسة» المتعاصرتين، ويعقب ذلك قيام حمورابي (1792ـ1750ق.م) وقضاؤه على دول المدن وعودة نظام مملكة القطر، وهو الشطر الثاني من العصر البابلي القديم.

هجرات الآموريين:

وقبل أن نتكلم عن الدويلات المختلفة التي قامت في هذا العهد ينبغي التمهيد لذلك بإيجاز هجرات الأقوام الآمورية إلى وادي الرافدين، لأن تلك الهجرات كما قلنا هي التي أسفرت عن قيام دول المدن في هذا العصر، وكانت إحدى الظواهر المميزة له.

لقد سبق أن تكلمنا بإيجاز عن الآموريين[1] وهجراتهم في الفصل الخاص بمقدمة هذا الكتاب، فالآموريون كانوا من أكبر الأقوام السامية التي استوطنت أجزاء مختلفة من بلاد الشام منذ أبعد عصور التأريخ، ويميل الباحثون حديثاً إلى إطلاق اسم الكنعانيين على تلك الأقوام وتقسيمهم إلى كنعانيين شرقيين وهم الآموريون، وكنعانيين غربيين أو فينيقيين على الأقوام السامية التي توطنت في الأجزاء الساحلية من بلاد الشام.

= والثانية عشرة، وحل فيه محل مملكة القطر الواحدة حكم دويلات النبلاء وأمراء الإقطاع. أما بالنسبة إلى تاريخ العراق القديم فيعتبر الباحث المذكور عصر فجر السلالات (2800 ـ 2370ق.م) العصر المتوسط الأول والعهد البابلي القديم موضوع كلامنا العصر المتوسط الثاني. راجع كتابه المرموز له: ZZB, 1ff.

(1) «أمورو» (Amurru) الصيغة الآكدية (السامية) للتسمية السومرية «مار ـ تو» Mar - Tu وكان هذا المصطلح في استعمال سكان وادي الرافدين بالإضافة إلى إطلاقه على هؤلاء الأقوام ذا مدلول جغرافي عندهم يعني الغرب وبلاد الشام أيضاً. كما استعمل الاسم «مارتو» لإطلاقه على الإله الخاص بالآموريين. حول ورود هذا المصطلح في العصور التاريخية المختلفة انظر: ZZB, 30 ff.

ومع أن سيل هجرات الآموريين إلى وادي الرافدين بدأ على أشده منذ حكم الملك «شو ـ سين» ثالث ملوك سلالة «أور» الثالثة، ونتج عنه تحطيم أمبراطورية هذه السلالة في عهد آخر ملوكها المسمى «ابي ـ سين» كما مر بنا، بيد أن هؤلاء الأقوام لم يكونوا جدداً في اتصال سكان وادي الرافدين بهم والتعرف عليهم، فقد ورد ذكرهم في الأخبار والقصص منذ مطلع الألف الثالث ق.م. بصفتهم بدواً مخربين «لا يعرفون سكنى البيوت ولا الزراعة والحبوب ويعتمدون في قوتهم على استخراج الكما من البادية ويأكلون اللحم نيئاً، ولا يعرفون كيف يدفنون موتاهم»[1]، ونجد الآموريين في الأخبار التاريخية يبدؤون في الواقع تهديدهم لوادي الرافدين في زمن الملك الآكدي «شار كالي ـ شري» الذي هزمهم في إحدى مستوطناتهم المهمة في الهضاب أو المرتفعات المسماة جبل «بسار»، كما تطرقنا إلى ذلك في أخبار الدول الآكدية. والجدير بالتنويه عن الكره والعداء اللذين يسودان الإشارات التاريخية الواردة عنهم في نصوص حضارة وادي الرافدين أنهما لم يكونا وليدين عن نعرة أو بغض قومي، بل إنهما مظهر من مظاهر احتقار الحضارة للبداوة أو العداء المأثور بين الحضر والبدو، سواء كان أهل هذه الحضارة من السومريين أم من الساميين الذين هم والآموريون من أرومة واحدة. على أن مجيء هؤلاء الآموريين إلى وادي الرافدين ما بين عهدي «شار ـ كالي ـ شري» و «شو ـ سين» لم يكن على هيئة موجات كبيرة بل على هيئة تسلل من أفراد وجماعات صغيرة عاشوا في وادي الرافدين جنوداً مرتزقة أو عمالاً وأجراء، ثم كانت هجراتهم الضخمة إبان حكم «ابي ـ سين» آخر ملوك سلالة أور الثالثة كما بينا، فقضت عليها وقامت منها دويلات العهد البابلي القديم. ومع أن بلاد الشام الداخلية كانت بوجه عام مراكز لمستوطنات القبائل الآمورية بيد أن

---

(1) حول الأساطير الخاصة بالآموريين وأسطورة زواج الإله «مارتو» انظر:

Kramer, *The Sumerians* (1963). Sumerian Mythology.

E. Chiera, *Sumerian Epics and Myths,* (1934), Nos. 58-112

الموجات التي انحدرت إلى بلاد وادي الرافدين جاءت بالدرجة الأولى من البوادي الكائنة إلى شمال غربي الفرات: بادية الشام وبادية العراق ومن أعالي الفرات وشمالي ما بين النهرين، وقد سبق أن ذكرنا أن المصادر المسمارية خصت المرتفعات المسماة جبل «بسار» بأنها موطن الآموريين الذين احتك بهم سكان وادي الرافدين، ومنها نزحوا إليه. فيذكر لنا مثلاً الملك الآكدي «شار كالي شري» السالف الذكر أنه غزاهم في تلك المرتفعات التي يمكن تحديدها ما بين تدمر ودير الزور، وتمتد من شمال شرقي تدمر إلى الفرات ووردت تلك المرتفعات في أخبار حضارة وادي الرافدين بهيئة «بسلا» (Basalla) و«بسري» أو «بسير» أي جبل بسرى كما قلنا[1].

والجدير بالذكر عن الهجرات الآمورية أنها لم تنقطع في اندفاع أو موجة واحدة كما أنها لم تنحصر أو تقتصر في استيطانها على السهل الرسوبي من وادي الرافدين، بل يمكن القول إنها تجزأت إلى فترات زمنية منذ نهاية الألف الثالث إلى المنتصف الأول من الألف الثاني ق.م، وإنها انتشرت في جملة مستوطنات من أنحاء وادي الرافدين وأجزاء بلاد الشام الأخرى. فبالنسبة إلى وادي الرافدين يمكن التمييز بين موجتين كبيرتين على الأقل جاءتا في فترتين من الزمن واستوطنت في أجزاء مختلفة من العراق. فالموجة الأولى جاءت في أواخر سلالة «أور» الثالثة أي في عهد الملك «ابي - سين» أو قبيل ذلك في زمن الملك السابق المسمى «شو - سين»، وهي التي قضت على تلك السلالة ونتج عنها تأسيس جملة سلالات أشهرها سلالتا «أيسن» و «لارسة» ولعله سلالة «اشنونا» أيضاً. وبعد زهاء القرن الواحد على هذه الهجرة الأولى انحدرت من جهات الفرات الأعلى والأوسط جماعات أخرى من الآموريين إلى وادي الرافدين، واستطاع شيوخ قبائلها أن يؤسسوا مشيخات أو سلالات حاكمة أشهرها سلالة بابل الأولى التي أسسها «سوموآبم» كما قامت منهم

(1) انظر: Edzard, ZZB, P.35

Gelb in AJSL, Vol, LV P.73ff.

إمارات أخرى في سپار والوركاء و «مرد» وغيرها من المدن، ولكنها لم تظفر من النجاح والاتساع على النحو الذي حصلت عليه سلالة بابل التي تفردت بحكم البلاد على ما سنبين بعد قليل.

أما المناطق التي استوطنتها تلك القبائل الآمورية في بلاد وادي الرافدين فكانت، بالإضافة إلى السهل الرسوبي، أي بلاد سومر وأكد التي أقاموا فيها سلالاتهم الحاكمة، في جهات الفرات الأوسط، ولا سيما منطقة ماري (تل الحريري الآن) ومنطقة عانة (خانة أو خانات القديمة)، ومنطقة شرقي دجلة، ومنها إقليم «اشنونا» وبضمنها البلاد التي ورد ذكرها باسم «يموت ـ بعل»[1]، التي يحدها من جهة الشرق المنطقة الجبلية ويخترقها نهر ديالى. واسم «يموت بعل» أطلق على إحدى القبائل الآمورية، وكثيراً ما جعل في المصادر المسمارية مرادفاً لمصطلح «أمورو»، كما أطلق على الدويلة التي تأسست في هذه المنطقة. ومن الممكن تعليل استيطان الآموريين في هذه المنطقة شبه الجبلية والمتاخمة لبلاد عيلام وإيران بأن جماعات من الآموريين لم تجد مجالاً لانحدارها جنوباً مع الفرات إلى السهل الرسوبي فعبرت البادية شرقاً واستوطنت شرقي دجلة. وكانت الدويلة التي قامت في هذا الإقليم تحت نفوذ العيلاميين السياسي في فترات معينة، ونشأت صلات كثيرة بينها وبين الدويلات الأخرى المعاصرة. وسنرى كيف أن ملكها المسمى «كودر مابك» استطاع أن يحتل دويلة «لارسة» وينصب ولديه «ورد ـ سين» و «ريم ـ سين» ملكين عليها بالتعاقب.

وما دمنا في ذكر هذه القبيلة الآمورية فيحسن أن ننوّه بأسماء القبائل الأخرى ولا سيما المشهورة منها، مثل قبيلة «أمنانم» (Amnanum) التي ورد ذكرها في كتابات ملك الوركاء من هذا العهد، أي «سين ـ كاشد»[2] الذي

---

(1) يعني اسم القبيلة «يموت بعل»: مات الإله «بعل» ويكتب بصورتين: Yamut - Bal أو Emutbal. حول هذا الاسم انظر: A. Goetze in JCS IV 72ff.

(2) عن نصوص «سين ـ كاشد» انظر: RISA; SAK; ZZB 154 - 5

لقب نفسه في بعض نصوصه بأنه ملك «أمنانم»، الأمر الذي يشير إلى أن فرعاً من هذه القبيلة استوطن منطقة الوركاء، واستوطن فرع آخر من هذه القبيلة في منطقة «سبار» (أبو حبة)، بحيث سميت هذه المدينة في بعض النصوص «مدينة الأمانيين»[1].

وذكرت قبيلة «أمنانم» مع قبيلة آمورية أخرى اسمها «يخرورم» أو «يحرورم» في رسائل مدينة ماري الشهيرة[2]، وقد استوطنت منطقة دجلة الوسطى ما بين الزاب الأسفل وديالى، واستوطن فرع منها في منطقة سپار، وباسم هذا الفرع سميت المدينة «سپار يخروم». ومن القبائل الآمورية المشهورة القبيلة التي ورد ذكرها باسم «خانيين» أو «حانيين» التي استوطنت منطقة «خانة» أو «عانة» (عانة أو خانات) المذكورة في رسائل مدينة «ماري» حيث انتشرت هذه القبيلة من عانة إلى منطقة ماري على الفرات الأوسط. وقبيلة أخرى جاء اسمها على هيئة «سوتو» (Sutium) استوطنت غربي الفرات الأوسط.

وهناك ظاهرة غريبة في أمر هؤلاء الآموريين، تلك هي أنهم على الرغم من كثرة قبائلهم التي استوطنت وادي الرافدين وقيام سلالات حاكمة منهم، لم تحل لغتهم أو لهجتهم السامية الغربية محل اللغة الآكدية (السامية الشرقية في العراق) التي رأيناها تعم وادي الرافدين منذ العهد الآكدي وتزيح بالتدريج اللغة السومرية بصفتها لغة التدوين. وبدلاً من أن يدون هؤلاء الآموريون بلغتهم اتخذوا اللغة الآكدية التي يطلق عليها البابلية القديمة في هذا العهد (العهد البابلي القديم)، فلم يصل إلينا من السلالات الآمورية الحاكمة أية نصوص مدونة بلغتهم باستثناء أسماء الأعلام الكثيرة ورجحان أن اللهجات السامية الغربية كانت اللغات المحكية لجماعات كثيرة من السكان الجدد الذين

---

(1) انظر: ZZB, P.106.

(2) حول القبائل الآمورية الواردة في رسائل «ماري» انظر:

Kupper, *Les Nomades en Mesopotamie au Temps Des Rois De Mari* (1957).

اختلطوا بالساميين القدامى، على أنه دخل بالإضافة إلى ذلك عدد من الكلمات السامية الغربية وبعض الآلهة السامية الغربية مثل الإله «مارتو» والإله «دگان» (دجان أو داجون في التوراة) وإله الرعد والزوابع «أدد» أو «حدد»، وبهيئة «يشكر» (Ishkur) أيضاً والإله «سومو» و«حمو» و«عمو» كما يظهر في أسماء عدة ملوك من سلالة بابل الأولى مثل «حمورابي» و«عمي ـ صادوقا» ومثل لفظ «ايل» الداخل في أسماء بعض الملوك والأعلام مثل «سومو ـ لئيل» و«أبو»، أو «ابي» (الاب) مثل «أبي ـ سارة» (من ملوك سلالة بابل الأولى أيضاً).

السلالات الحاكمة في العهد البابلي القديم:

سبق أن تكررت الإشارة إلى قيام عدة سلالات حاكمة من القبائل الآمورية التي استوطنت وادي الرافدين من بعد القضاء على أمبراطورية «أور». وقبل أن نتناول الكلام على أشهر هذه السلالات نعدد فيما يأتي أسماءها:

(1) سلالة «أيسن»، ومؤسسها «اشبي ـ ايرا» (2017 ـ 1794).

(2) سلالة «لارسة»، ومؤسسها «نيلانم» (2025 ـ 1763).

(3) سلالة «اشنونا»، (2000؟ ـ 1761ق.م).

(4) بلاد آشور (2000؟ ـ 1760).

(5) سلالة «ماري» (1850؟ ـ 1761).

(6) سلالة بابل الأولى، ومؤسسها «سومو ـ آبم» (1894 ـ 1595).

(7) سلالة الوركاء، ومؤسسها «سين ـ كاشد» (1860 ـ ؟).

(8) سلالة دير.

(9) سلالة «ملگيثم»، وسلالة «يموت بعل» وسلالة مدينة «سپار» وغيرها.

سلالة «أيسن»:

مر بنا في كلامنا على نهاية سلالة «أور» علاقة آخر ملوك هذه السلالة بمؤسس سلالة «أيسن»، اشبي ـ ايرا، وكيف أن هذا كان في أصله من مدينة «ماري»، أما في خدمة ملك «أور»، ابي ـ سين أو أنه التحق بخدمته من بعد ذلك، وكيف أنه اغتنم فرصة اضطراب الأحوال في أمبراطورية «أور»، من جراء تدفق الهجرات الآمورية، فاستقل عن ملك أور وأسس في مدينة «أيسن»[1] سلالة مستقلة منذ العام الثاني عشر من حكم «ابي ـ سين»، وبدأ يؤرخ بالأحداث الخاصة بحكمه[2]. وقد قام حكمه زهاء ثلاثة وثلاثين عاماً، وضم إلى مملكته بالإضافة إلى مدينة أيسن والأراضي التابعة لها مدناً أخرى أهمها مدينة «أور» وتوابعها، حيث استطاع أن يطرد العيلاميين منها، ومدينة «نفر»، ومنطقة لجش والأجزاء الجنوبية ومن بينها سواحل الخليج. وكانت «أيسن» أهم سلالة في العهد البابلي القديم في سعة رقعتها ونشاط ملوكها ومآثرهم التي خلفوها، وقد تفوقت على السلالة المعاصرة، أي سلالة «لارسة» المجاورة لها والتي سيأتي الكلام عليها، على الرغم من أن نهاية «أيسن» كانت على يدها، من جانب ملكها المسمى «ريم ـ سين» في العام 1794ق.م، فزالت من الوجود، واستمرت سلالة لارسة المنافسة لها في الوجود إلى زمن حمورابي، حيث تلقت الضربة القاضية بدورها على يده (1763ق.م). وحكم في سلالة أيسن سبعة عشر ملكاً أولهم كما قلنا «أشبي ـ ايرا»، وآخرهم «دامق ـ اليشو» (1816 ـ 1794ق.م.).

---

(1) تقع بقايا مدينة «أيسن» في التلول المسماة الآن «ايشان بحريات» على بعد نحو 16 ميلاً جنوب غربي «نفر». وأوفدت في هذا العام (1973) جامعة ميونخ الألمانية بعثة للتنقيبات في المدينة، حيث بدأت موسم عملها الأول.

(2) راجع الحوادث المؤرخ بها الخاصة بحكم الملك «اشبي ـ ايرا» التي نشرها مؤلف هذا الكتاب في مجلة «سومر»، المجلد الرابع (1948)، القسم الإنجليزي، وراجع التعليقات المهمة على أحداث هذه الفترة في:

Jacobseh, in JCS, VII, (1953), 42ff.

استمرت سلالة «أيسن» في الازدهار والتوسع ولا سيما في عهود الملوك الأربعة الذين خلفوا المؤسس «اشبي ـ ايرا»، وقد عمل الملكان الأولان اللذان خلفاه وهما «شو ـ اليشو» و «اشمي ـ دگان» على مد رقعة الملكة إلى الخليج، من بينها «نلمون» أو «دلمون» (البحرين)، كما امتدت شمالاً إلى منطقة «سپار» وبهذا سيطرت على نصف بلاد أكد وسومر تقريباً، بالإضافة إلى ما سجل عن ملوكها الأوائل من نشاط تجاري خارجي بإقامة علاقات تجارية واسعة مع الأقطار المجاورة.

وكان مؤسس السلالة «اشبي ـ ايرا» يعتبر مملكته وريثة لسلالة «أور» ووريثة السومريين بوجه عام في ملوكية «بلاد سومر وأكد»، ويتجلى ذلك في تعلق ملوك هذه السلالة بالثقافة السومرية، وسار الكثير منهم على حذو ملوك «أور» في ألقابهم وأسلوب الحكم في بلاطهم وألقابهم، وتأله بعضهم على غرار ملوك «أور» ونظمت التراتيل في مديحهم[1]، كما لقبوا أنفسهم ملك أور، وملك سومر وأكد، وكانت اللغة السومرية اللغة الرسمية تقريباً لهم، كما يدل على ذلك الكتابات الملكية التي جاءت إلينا من ملوكهم، والجدير بالذكر أن كثيراً من القطع الأدبية السومرية التي وجدت في مكتبة مدينة «نفر» قد ألفت أو استنسخت في هذا العهد ولعله بطلب من ملوك سلالة «أيسن»، ولهذه الأسباب على ما يرجح يمكن أن نعزو إصدار نسخة جديدة لأثبات الملوك السومريين بحيث تضمنت أسماء ملوك هذه السلالة ولكنها لم تذكر أسماء ملوك السلالات الأخرى المعاصرة. وبعد حين من قيام سلالة «أيسن» شرعت هجرات ثانية من الأقوام الآمورية إلى الأجزاء الوسطى والجنوبية من العراق ونجح زعماء بعض القبائل في تأسيس كيانات سياسية لهم، من بينها سلالة بابل الأولى الشهيرة التي سيأتي ذكرها فاضطر ملوك سلالة أيسن وغيرهم من

---

(1) انظر:

Hallo, «Royal Inscriptions of the Early old Babylonian Period» in *Bibliotheka Orientalis*, 18, (1961). 4 ff.

السلالات الأخرى إلى إقامة الحصون للعمل على صد اندفاع هذه الهجرات الجديدة. ومهما كان الحال فإن سلالة «أيسن» استمرت في الازدهار إلى أن بدأت المتاعب والأخطار مع الدويلة المجاورة أي سلالة «لارسة» التي كانت تنافسها وتنازعها السلطة على البلاد وظهر النزاع الحاد في عهد ملكها الخامس المسمى «لبت ـ عشتار» (1934 ـ 1924ق.م) الذي اشتهر بإصدار شريعته الخاصة التي سبقت شريعة حمورابي الشهيرة بنحو قرنين من الزمان وقد دونها باللغة السومرية الأمر الذي يعزز ما ذكرناه من تعلق ملوك هذه السلالة باللغة والثقافة السومرية. وكان «لبت ـ عشتار» يعاصر ملك «لارسة» المسمى «كنكونم» الذي كان على شيء كبير من المقدرة والدهاء بحيث استطاع أن ينتزع مناطق مهمة تابعة إلى أيسن مثل «أور» و «لجش» وادعى الملوكية على بلاد «سومر وأكد»، وبذلك رجحت الكفة في صالح «لارسة» ولا سيما من بعد سيطرتها على المناطق المتاخمة للخليج وهي المفتاح المهم للتجارة الخارجية، واستمر توازن القوى في صالح الدولة المعادية، بحيث استطاع ملكها المسمى «سوموايل» أن ينتزع المدينة المقدسة «نفر» من ملك «أيسن» المعاصر المسمى «ايرا ـ ايميتي» (الملك التاسع 1868 ـ 1861ق.م). ويجدر أن ننوّه بمناسبة ذكرنا لهذا الملك بالكيفية التي مات بها، مما يتعلق بما يسمى في تاريخ حضارة وادي الرافدين «الملك البديل»[1]، وفحواها أن عرف القوم جرى أنه في حالات توقع حدوث خطر بالمملكة بحسب تنبؤات الفأل ولكي لا يتعرض إليها شخص الملك المقدس كان ينصب ملك بديل لدفع الشر عن الملك الحقيقي، فيتوج ويحكم طوال فترة الأخطار، ثم ينحى عن الحكم عند زوالها. وفي حالة «ايرا ـ ايميتي» السالف الذكر تذكر لنا التواريخ البابلية[2] ما حدث بالعبارة التالية: «لكي لا تنقرض السلالة الحاكمة عين الملك «ايرا ـ

---

(1) عن نظام «الملك البديل» وبالبابلية (Pukh - Sharri) انظر:

Frankfort, *Kingship and The Gods*, (1955), 262 ff.

(2) انظر: *King, Babylonin Chronicles, II, 12ff.*

ايميتي» البستاني المسمى «انليل ـ باني» بدلاً منه على العرش، ووضع التاج الملكي فوق رأسه. ولكن «ايرا ـ ايميتي» مات بدلاً منه على أثر تناوله الحساء. أما «انليل ـ باني» فلم يتخل عن العرش بل صار ملكاً حقيقياً».

وليس من المستبعد أن الملك الحقيقي مات مسموماً لعله على يد ذلك الملك البديل، الذي حصل على عرش المملكة واستمر في الحكم طوال عشرين عاماً. ولكن مملكة «أيسن» استمرت في التدهور في حين أن السلالة المعادية «لارسة» كانت في تعاظم مستمر وصادف في حدود هذا الزمن تبدل في حكمها من بعد موت ملكها المسمى «ضلي ـ أدد» (في عام 1834ق.م) في أثناء حربه مع سلالة بابل التي سيأتي ذكرها فتدخل في شؤون المملكة حاكم إقليم «يموت ـ بعل» المسمى «كودر ـ مابك»، وهو الإقليم المتاخم لبلاد عيلام، ما بين دجلة والمرتفعات التي يمر منها نهر ديالي، كما مر بنا. ويشير الاسم العيلامي لهذا الحاكم إلى أن مملكته كانت تحت نفوذ العيلاميين، وجاء من بين ألقابه أنه «أبو الآموريين». وبعد استيلائه على مملكة «لارسة» نصب على عرشها ابنه المسمى «ورد ـ سين» أما هو فظل يحكم في إقليمه الخاص. وبتولي «ورد ـ سين» عرش لارسة ازدادت قوة وسلطاناً. وبعد أن حكم زهاء الأحد عشر عاماً (1834 ـ 1823) خلفه على عرش لارسة أخوه المسمى «ريم ـ سين» الذي حكم أمداً طويلاً واستطاع القضاء على سلالة «أيسن» في عام 1794ق.م وبهذا زالت دولة من الدول المهمة المتنافسة في مطلع العهد البابلي القديم، وانحصر النزاع الآن بين «لارسة» وبين سلالة بابل الأولى، في عهد حمورابي الشهير الذي خلف أباه «سين ـ مبلط» بعد عامين من القضاء على سلالة «أيسن»، وظل الخصمان القويان، حمورابي و «ريم ـ سين» يتربص أحدهما بالآخر طوال 30 عاماً، كانت الغلبة في نهاية الأمر لحمورابي الذي قضى على دول المدن الأخرى وتفرد بزعامة البلاد وسيتكرر ذكر هذه الأحداث في كلامنا على سلالة بابل الأولى.

سلالة لارسة:

إن ما ذكرناه من الأحداث الخاصة بسلالة «أيسن» شملت السلالة المنافسة لارسة[1]، ولذلك فسنقتصر في كلامنا عن هذه السلالة على ملاحظات أخرى موجزة، ومنها أن هذه الدويلة المعاصرة لسلالة «أيسن» كانت كما قلنا من دول المدن الكثيرة التي قامت في العهد البابلي القديم على أثر هجرات القبائل الآمورية التي مر ذكرها، وكان مؤسسها المسمى «نپلانم» شيخ إحدى تلك القبائل، وقد استطاع أن يؤسس مملكته ويحكم في لارسة (2025 ـ 2005ق.م) في حدود الزمن الذي أقام فيه «اشبي ـ ايرا» مملكته في أيسن (2017 ـ 1985ق.م) وحكم من سلالة لارسة أربعة عشر ملكاً، وكان إبان حكم الملوك الأربعة الأوائل من سلالة «أيسن» دون هذه السلالة في السلطان والقوة، ولكن بدأت كفتها ترجح منذ قيام ملكها الخامس المسمى «گنگونم» (1932 ـ 1906ق.م) المعاصر للملك الخامس من سلالة «أيسن»، أي «لبت ـ عشتار» (1934 ـ 1924ق.م)، واستمرت «لارسة» في التعاظم واتساع الرقعة على حساب سلالة «أيسن» المنافسة لها، إلى أن قضى عليها آخر ملوك لارسة المسمى «ريم ـ سين» (عام 1794ق.م)، فانحصر النزاع بين هذا الملك وبين حمورابي، سادس ملوك سلالة بابل الأولى حيث تم القضاء على سلالة «لارسة» عام 1763ق.م، كما ذكرنا.

مملكة اشنونا:

ومن الدويلات المهمة التي قامت في العصر البابلي القديم مملكة «اشنونا» في الأراضي الخصبة في المثلث المحصور ما بين دجلة وديالى

---

(1) مر بنا في كلامنا على تاريخ التحريات الأثرية أن بقايا مدينة لارسة تعرف الآن باسم «السنكرة»، على بعد نحو 30 ميلاً شمال غربي الديوانية، وقد تحرى فيها الآثاريون الفرنسيون فترة قصيرة (1933)، ثم استأنفوا التحري في السنوات القليلة الماضية ولا زالت التحريات مستمرة إلى حال التاريخ انظر: Rarrot, RA, (1933), 169ff. AM (1945 - 1953)

وسفوح مرتفعات «زاجروس» شرقاً، وسميت نسبة إلى مركزها أو عاصمتها المسماة «اشنونا» (تل أسمر الآن)، التي سبق أن تكلمنا عنها في الفصل الخاص بعصر فجر السلالات حيث ازدهرت في هذه المنطقة حضارة وادي الرافدين منذ أواخر العصر الذي أطلقنا عليه «الحجري ـ المعدني» (Chalcolithic)، فقد رأينا كيف أن التحريات التي قامت بها جامعة «شيكاغو» (المعهد الشرقي) (1930 ـ 1937) قد كشفت عن نتائج مهمة عرفتنا بحضارة وادي الرافدين في عصر فجر السلالات، حتى أن هذه التسمية وتقسيمات هذا العصر إلى الأطوار الثلاثة التي تكلمنا عنها استندت بالدرجة الأولى إلى تلك النتائج. ولما أن قامت الدول الكبيرة في العصر الآكدي وفي عهد سلالة أور الثالثة كانت هذه المنطقة من أغنى الأقاليم التابعة لهما. وبالإضافة إلى المراكز الرئيسة التابعة إلى هذه المنطقة التي عددناها سابقاً، مثل تل أسمر وخفاجى وأشجالي وتل أجرب وغيرها ظهر من تحريات مديرية الآثار أن هناك جملة مراكز أخرى مهمة تمتد إلى مدينة بغداد الحالية ولا سيما ضواحيها الشرقية، مثل تل حرمل في منطقة تل محمد أو ما يسمى الآن بغداد الجديدة، وقد أظهرت التنقيبات التي أجريت في الموضع (1945 ـ 1962) نتائج مهمة في معرفتنا بحضارة وادي الرافدين في العصر الذي نتكلم عنه الآن، أي العصر البابلي القديم[1]، وقد تبين من النصوص المكتشفة فيه أن اسم الموضع القديم «شادبم»، وكان من بين المراكز الإدارية المهمة التابعة إلى مملكة «اشنونا»، من بعد استقلالها في نهاية سلالة «أور» الثالثة. ووجدت في تل حرمل مجموعات كثيرة من ألواح الطين (ما بين 4000 و5000 لوح) المتنوعة في محتوياتها، مثل العقود والوثائق التجارية والقانونية والاقتصادية والمعاملات

---

(1) حول نتائج هذه التنقيبات التي أشرف عليها مؤلف هذا الكتاب انظر مجلة «سومر» المجلد الثاني (1946) والمجلد الرابع (1948). وعن الشريعة المكتشفة في تل حرمل وتعيين الموضع بالاسم القديم «شادبم» انظر:

A. Goetze, *The Laws of Eshnunna* (1956).

وعن الرسائل المكتشفة فيه راجع «سومر»، المجلد 14 (1958) القسم الإنجليزي.

الأخرى والرسائل، وجملة ألواح رياضية مهمة، ونسخة من الشريعة العائدة إلى مملكة «اشنونا»، التي يرقى زمنها إلى أوائل العصر البابلي القديم (في حدود 1900 ـ 1850ق.م)، ونسبت عند اكتشافها إلى أحد ملوك المملكة المسمى «بلالاما»، ولكن ثبت أن هذه النسبة غير مؤكدة أو غير صحيحة. وإلى جانب الأهمية الخاصة بمحتويات الألواح المكتشفة في تل حرمل، فلها أهمية خاصة ناشئة من كونها مؤرخة بحوادث رسمية خاصة بسني حكم الملوك في اشنونا، وقد عثر من بين الألواح المهمة على ثبت بالحوادث المؤرخ بها الخاصة بحكم الملك المسمى «ابابيل» الثاني[1].

ومن المواضع المهمة التابعة إلى مملكة «اشنونا» التل المسمى تل الضباعي وقد تحرت فيه مديرية الآثار (1960 ـ 1963)، وهو قريب من تل حرمل السالف الذكر، ووجدت فيه أيضاً مجموعة مهمة من ألواح الطين المدونة بمختلف المعاملات والشؤون الحياتية، من بينها بضعة ألواح رياضية مهمة[2]، وتبين من دراسة هذه الألواح أن اسم تل الضباعي القديم كان بهيئة «اوزارز لولو» أو «زارلو» أو «زرا لولو»، ووجد في الموضع معبد صغير شيد لعبادة إله المدينة الذي ورد اسمه في الألواح المكتشفة بهيئة «لا صميم» (ويكتب هذا الاسم في بعض الألواح بالعلامة المسمارية KAS مسبوقة بعلامة التأليه).

إن موقع دولة «اشنونا» الجغرافي الذي حددناه بالنسبة إلى بلاد الرافدين، من مجاورتها لبلاد عيلام وبلاد آشور، وبلاد أكد في الوسط جعلها ذات أهمية خاصة في تاريخ حضارة وادي الرافدين، بالإضافة إلى تأثرها الحضاري والاقتصادي من الجهات الشمالية والشرقية، وببلاد سومر وأكد من الجنوب، حيث تأثيرات حضارة وادي الرافدين تلتقي بالتأثيرات الثقافية الآتية من الجهات الأخرى، ولذلك تميزت حضارة هذه المملكة بخصائص محلية بالإضافة إلى طابع حضارة القطر العامة، فمن هذه الخصائص المحلية أسماء

---

(1) نشرها المؤلف في سومر، المجلد الخامس (1948).

(2) انظر مجلة سومر (1963).

بعض الآلهة، وعلى رأسها كبير الآلهة المسمى «تشپاك»، الذي يطابق بالإله الحوري «تشوب»[1]، وأسماء ملوكها وحكامها، ولا سيما في فترة العهد البابلي القديم، فبعضها أسماء سامية، وبعضها من أصول عيلامية وحورية. وكانت منطقة اشنونا، كما ذكرنا، تابعة إلى ملوك الدولة الآكدية، ثم من بعد فترة الحكم الكوتي إلى ملوك سلالة «أور» الثالثة، حيث شيدت المعابد لعبادة ملوك هذه السلالة ولا سيما الملك «شو ـ سين» (الذي كان يسمى گمل ـ سين سابقاً)، وقد كشف عن المعبد المشيد له في تل أسمر. ويبدو أن منطقة اشنونا كانت أولى الولايات التي انفصلت عن أمبراطورية «أور»، في عهد آخر ملوكها «ابي ـ سين» في حدود 2028ق.م، وكان آخر الحكام التابعين إلى أور الشخص المسمى «اتوريا»، فأخذت اشنونا تستبدل التقويم السومري الخاص بسلالة أور وأسماء الأشهر والحوادث المتخذة للتاريخ بتقويم خاص بها، كما برز شأن إلهها «تشپاك» السالف الذكر، وصار ملوك هذه الدويلة المستقلة يلقبون أنفسهم «عبد تشباك» بدلاً من «عبد ملك أور»، وحول المعبد الذي شيد لعبادة ملك أور «شو ـ سين» إلى بناء ذي وظيفة دنيوية، وشيد بجانبه قصر كبير، كما حلت اللغة الآكدية (السامية) محل اللغة السومرية بصفتها لغة التدوين الرسمية.

ومما يقال عن الأوائل من ملوك اشنونا أن تسلسلهم وأطوال حكمهم غير معروفة، وقد خلفوا لنا طائفة من كتاباتهم الرسمية، ونصوصاً أخرى متنوعة خاصة بالشؤون الإدارية والاقتصادية، والكثير منها مؤرخ بطريقة التاريخ من الحوادث المهمة، وبعد نيلهم الاستقلال على أثر انحلال أمبراطورية أور صاروا يوسعون من رقعة مملكتهم، ودخلوا في العلاقات الدولية المختلفة مع الدويلات المجاورة، وقد استوطن بعض الجماعات الآمورية منطقة اشنونا،

---

(1) بالإضافة إلى المراجع التي أثبتناها عن تل حرمل والضباعي، فإن أحسن خلاصة عن تاريخ مملكة «اشنونا» في المرجع الآتي:

Frankfort and Jacobsen, *The Gimil - Sin Temple and The Palace of The Rulers of Tell Asmar.*

وقد سبق أن ذكرنا الإقليم المسمى «يموت ـ بعل» المتاخم لأشنونا والذي يكون جزءاً من هذه المنطقة الخصبة ما بين دجلة غرباً وديالى شرقاً.

وبلغت مملكة اشنونا في الفترة الأولى من استقلالها مستوى ملحوظاً من الازدهار السياسي والاقتصادي. والمرجح أنه حكم في هذه الفترة الملوك الآتية أسماؤهم: «ايليشو ـ ايليا» و «نور ـ آخم»، و «كيريكيري» وابنه «بلالاما» الذي شيدت في زمنه المدينة الجديدة التي أطلق عليها اسم «توتب» (خفاجى)، وهو الذي قوى تحصينات مدينة «اشنونا» العاصمة، ويرجع إلى عهده تأسيس مدينة جديدة أخرى اسمها «تابي ـ تشباك»، وإقامة معبد لإله المدينة «تشباك» باسم «اي ـ سكل» (E - Sikil)[1]، ويدل اللوح الذي وجد في «اشنونا» على أن «بلالاما» كان معاصراً لملك دويلة «دير» (تلول العقر الآن قرب بلدة بدرة) المسمى «آنو متبل».

وحلت من بعد حكم «بلالاما» في تاريخ مملكة «اشنونا» فترة مظلمة لا يعلم مقدار طولها بوجه التأكيد، صارت فيها مرة تحت نفوذ دويلة «أيسن» ومرة أخرى تحت نفوذ ملك «دير» ثم تحت سلطة «كيش»، إلى أن ظهر فيها سلسلة جديدة من الحكام أولهم «ابق ـ أدد» الثاني (في حدود 1850ق.م) ابن «أبالبيل» الأول فاستعادت هذه المملكة في عهدهم استقلالها وازدهارها. وخلق «ابق ـ أدد» ابنه المسمى «نرام ـ سين» الذي وسع نفوذ المملكة إلى الفرات الأوسط، في المدينة المسماة «رابيقم» (في منطقة الرمادي) وإلى مدينة آشور و «قبارا» في سهل أربيل ومدينة «أشناكم» على الخابور، ولقب نفسه «ملك بلاد آشور». والمرجح كثيراً أن «نرام ـ سين» اشنونا و «نرام ـ سين» المذكور في أثبات الملوك الآشوريين كانا شخصاً واحداً. وجاء إلى حكم «اشنونا» من بعد نرام ـ سين أخوه المسمى «دادوشا» وكان ملكاً قوياً طموحاً في حقل الفتوح الخارجية، فقد شن الحرب على مدينة «ماري» حين كان يحكم فيها «اشمي ـ دگان» نيابة عن أبيه «شمشي ـ أدد» الأول المشهور، وقد

---

(1) انظر: Edzard, ZZB. P.72.

أسهم «دادوشا» في إنهاء الحكم الآشوري في ماري، وخلفه ابنه المسمى «ابالبيل» الثاني، وانتهى حكم هذه السلالة في عهد آخر ملوكها المسمى «ضلى ـ سين» على يد حمورابي في عام 1761ق.م.

مملكة ماري:

مر بنا في الفصل الخاص بعصر فجر السلالات كيف ازدهرت حضارة وادي الرافدين في منطقة ماري[1] (تل الحريري الآن قرب البو كمال) على ضوء نتائج التنقيبات الفرنسية فيها، أما في عهد الأمبراطورية الآكدية وأمبراطورية سلالة «أور» الثالثة فقد دخلت ماري ضمن الأقاليم التابعة لهما. ومما لا شك فيه أن جماعات من الآموريين استوطنت المنطقة على أثر هجرات القبائل الآمورية في نهاية الألف الثالث ق.م فقامت سلالة حاكمة مستقلة في العهد البابلي القديم، هي إحدى السلالات الكثيرة التي حكمت متعاصرة في هذا العهد في الأجزاء المختلفة من وادي الرافدين، وبدأ ازدهار هذه المملكة في حدود 1900ق.م وامتدت سلطتها على طوال الفرات والخابور وشملت منطقة «عانة» (خانة القديمة)، ولا سيما في عهد ملكها أو حاكمها المسمى «يجد ـ لم» (Iaggid - Lim) أو «يجت ـ لم» (Iagit - Lim) وكان يعاصر أحد ملوك بلاد آشور المسمى «ايلا ـ كبكبو». وأعقب «يجد ـ لم» ابنه المسمى «يخدن ـ لم» الذي اغتالته حاشية البلاط وصادف هذه الأحداث تعاظم الدولة الآشورية في عهد ملكها الشهير «شمسي ـ أدد» الأول الذي كان من أصل آموري[2]، فضم إليه مملكة «ماري» ومناطق مهمة من

---

(1) راجع القسم الخاص بأثبات الملوك السومرية في عصر فجر السلالات حيث خصصت لمدينة ماري سلالة حاكمة في ذلك العصر.

(2) عن أصل «شمسي ـ أدد» انظر:

Landsberger in JCS, VIII, (1954), 34ff.;

Kupper, *Nomades*, (1957), 207ff. *ARAB*. I, 45.

وعن أخبار حملاته ووصوله إلى لبنان وإقامته تمثالاً له هناك انظر: ARAB, I, 45

سورية ولبنان وسواحل البحر المتوسط. وكان له ابنان عين أحدهما المسمى «يسمح ـ أدد» ملكاً على ماري، وعين الثاني المسمى «اشمى ـ دگان» أو «يسمع ـ دگان» على منطقة دجلة إلى الجنوب من مدينة آشور، حيث مركز حكمه في المدينة المسماة «ايكالاتم»، وبذلك سيطر الملك «شمسي ـ أدد» على الأجزاء الوسطى من وادي دجلة والفرات.

وكانت تلك الحقبة من تاريخ «ماري» وبلاد «آشور» من عهود الازدهار كما أنها تتميز بغزارة المصادر والنصوص التاريخية التي جاءتنا منها، مما عثر عليه من الرسائل الرسمية والوثائق الملكية الأخرى في أثناء التنقيبات الفرنسية في مدينة «ماري» في قصرها الملكي الفخم[1]، الأمر الذي مكّن الباحثين من الوقوف على أمور مفصلة عن الحياة الاجتماعية والنظم الإدارية والاقتصادية والعلاقات الدولية في العصر البابلي القديم.

ويستنتج من هذه الوثائق أن «اشمي ـ دگان» كان شجاعاً قوي الشخصية ومدبراً، على النقيض من شخصية أخيه «يسمح ـ أدد» الضعيفة، وكان هذا كما ذكرنا نائباً لأبيه في حكم ماري[2]. وكان على أبيهما «شمسي ـ أدد» أن يحافظ على مملكته التي اتسعت إلى أمبراطورية شملت كذلك مملكة اشنونا التي تكلمنا عنها، وكان ينافسه ويزاحمه سلالتا «لارسة» وبابل، كما كانت مهددة بالأخطار الآتية من البدو الآموريين في منطقة الفرات الأعلى. وقد سبق أن ذكرنا بعض قبائلهم مثل القبيلة المسماة «خانيين» أو «حانيين» (في منطقة

---

(1) نشرت النصوص المهمة المكتشفة في ماري منذ عام 1950 في ثمانية مجلدات من جانب الباحثين الفرنسيين: «دوسا» (Dossin) و «بوتيرو» (Boterro) و «بويه» (Boyer) و «جان» (Jean) و «كوبر» (Kupper) بعنوان: *Archives Royales de Mari* (ARM)
فالمجلدات الأول والرابع والخامس تتعلق بمراسلات الملك «شمسي ـ أدد» وولديه، والمجلدات الأخرى بمراسلات الملك «زمري ـ لم» وموظفيه. وعن نصوص الفترة التي سبقت «شمسي ـ أدد» انظر:
Dossin, in *Syria*, (1955), 1ff.; *Studia Mariana*, (1950), 52ff.

(2) انظر: ARM, I, 124.

عانة). وقد اشتهرت هذه القبيلة بشدة مراسها في الحرب، ودخلت جماعات منها جنوداً في جيش مملكة ماري، ومثل القبيلة المسماة «بنو ـ يمينا» (بنو اليمين، أي الجنوب) التي كانت أشد القبائل الآمورية خطراً على مملكة ماري، ولكن يبدو من الرسائل المكتشفة في ماري أن الملك «يسمح ـ أدد» سالمهم وحالفهم وأقطع جماعات منهم الأراضي فصاروا زراعيين مستقرين.

كان الملك «شمسي ـ أدد» الأول معاصراً لملك بابل المسمى «سين ـ مبلط» (1812 ـ 1793ق.م)، وكانت العلاقات ما بين الدولتين علاقات مهادنة ومجاملة أكثر منها علاقات صداقة، كما تشير إلى ذلك رسائل «ماري»[1]. أما العلاقات ما بين ماري وبين «اشنونا» فكانت أقرب ما تكون إلى العلاقات العدائية، فكانت مملكة اشنونا في عهد ملكها المسمى «دادوشا» تحرض الأقاليم والقبائل المجاورة للثورة على ماري وعلى بلاد آشور التابعة لها، لأن ظهور «شمسي ـ أدد» القوي ضيق الخناق على مملكة «اشنونا». وقد استطاع بعض ملوك هذه المملكة وبوجه خاص «نرام ـ سين» أن يبسط حمايته على بلاد آشور. وظلت الحملات مستمرة ما بين الطرفين، والنصر والاندحار يتناوبان بين الجانبين. ولما توفي الملك «شمسي ـ أدد» في العام السابع من حكم «حمورابي» (1786ق.م) وفي العام الخامس أو السادس من حكم ملك «اشنونا»، «ابالبيل» الثاني الذي خلف أباه دادوشا (في حدود 1790ق.م) أعقبه في الحكم ابنه القوي «اشمي ـ دگان» وظل أخوه «يسمح ـ أدد» يحكم في ماري نائباً عن أخيه، ولكنه لم يستطع المحافظة عليها عندما ظهر أحد الأمراء من أهل ماري المسمى «زمري ـ لم»، ابن «يخدن ـ لم» ونازعه السلطة واستطاع أن يطرده منها بمساعدة مملكة حلب، وبهذا عاد حكم ماري إلى أهلها بعد استيلاء «شمسي ـ أدد» عليها فترة من الزمن ولكن اشمي ـ دگان لم يتقبل ضياع النصف الغربي من مملكته، حيث انحصر حكمه في بلاد آشور، فاستمرت المناوشات والحملات الحربية ما بين الطرفين. أما علاقات ملك

---

(1) انظر المرجع المرموز له بـ: .ARM, I, 93, IV, 514

ماري الجديد «زمري ـ لم» بحمورابي، ملك بابل، فكانت علاقات صداقة وثيقة لفترة قصيرة، فقد جمعت ما بينهما المصلحة المشتركة إزاء المحاولات الخطيرة التي بدرت من مملكة اشنونا بمساعدة حلفائها من العيلاميين، للاستيلاء على منطقة الجزيرة العليا ولا سيما إقليم حران، لأن الاستيلاء على هذه المنطقة معناه قطع الاتصالات التجارية الحيوية لمملكة ماري ومملكة بابل، فتطورت تلك الصداقة إلى تعاون عسكري وثيق دام زمناً ما، إلى أن ظهرت نوايا حمورابي وطموحه على حقيقتها. إذ إنه بعد أن أمن جانب بعض خصومه المجاورين، وبعد أن استطاع أن يحطم حلفاً عسكرياً ضخماً من العيلاميين ومملكة اشنونا والسوباريين في عام حكمه التاسع والعشرين، لاقى في السنة التالية خصمه الشديد «ريم ـ سين» ملك لارسة، فقضى عليه بعد أن حكم أمداً طويلاً دام ستين عاماً، ثم قضى على مملكة اشنونا، وقصد من بعد ذلك بلاد آشور واستولى عليها، وعندئذٍ جاء دور صديقه وحليفه ملك «ماري» «زمري ـ لم» الذي قضى عليه في عام حكمه الواحد والثلاثين، وبذلك تمكن حمورابي من توحيد البلاد في مملكة قوية كبيرة وسعها إلى أمبراطورية. ويبدو من مجريات الأحداث أنه لما دحر «زمري ـ لم» في المعركة أسره واستبقاه حياً وعينه حاكماً تابعاً له، ولكن قامت ثورة في ماري من بعد عامين فجرد حمورابي حملة على المدينة ودمرها وأحرق قصر «زمري ـ لم» الجميل الضخم وأعمل التدمير والقتل في المدينة (1759ق.م)، وستمر بنا الأحداث الأخرى في حكم حمورابي في القسم الخاص بسلالة بابل الأولى من هذا الفصل. كما سنوجز تاريخ بلاد آشور في الفصل المخصص لتاريخ الآشوريين.

سلالات حاكمة أخرى:

إلى جانب السلالات الكبيرة التي عددناها وسلالة بابل الأولى التي سنفرد لها قسماً خاصاً من هذا الفصل، قامت في العهد البابلي القديم مجموعة أخرى من السلالات الحاكمة كان الكثير منها أقرب إلى المشيخات أو الإمارات الصغيرة التي لم يتعد سلطانها منطقة صغيرة أو المدينة التي

اتخذت مركزاً للحكم، كما أنها لم تعمر زمناً طويلاً فلم يقم منها إلا عدد قليل من الحكام لم يتعد في بعض الحالات الملك الواحد أو الملكين. وتفاوتت في أزمان تأسيسها، فبعضها قام في الطور الأول من العصر البابلي القديم من هجرات الآموريين الأولى التي قضت على أمبراطوية «أور»، وظهر البعض الآخر في أثناء الهجرات التالية لهؤلاء الأقوام، كما شملت المواضع التي قامت فيها أنحاء مختلفة متباعدة من بلاد ما بين النهرين. وبما أننا سبق لنا أن عددنا أشهر هذه السلالات في أول كلامنا على العصر البابلي القديم فسنقتصر الآن على ملاحظات موجزة عن الشهيرة منها.

سلالة دير:

تعرف بقايا المدينة القديمة «دير» أو («دور ـ ايلو» (Dur - An) أي حصن أو مدينة الإله آنو) باسم تلول العقر في ضواحي بلدة بدرة الحالية (التي يرجح أن لاسمها صلة باسم المدينة القديمة) على بعد نحو 100 ميل شمال شرقي بابل (شرقي دجلة) وزهاء 65 ميلاً شرق تل أسمر (اشنونا القديمة) وهي تلول واسعة ومرتفعة، ولموقعها أهمية استراتيجية فهي على الحدود العيلامية (الحدود العراقية ـ الإيرانية الآن)، وكانت من المواقع الرئيسية في الطريق التجاري والحربي إلى بلاد عيلام، وكثيراً ما اجتازتها الجيوش الغازية من الطرفين، من بلاد بابل وبلاد عيلام، وجرت عندها عدة معارك حربية في عصور التاريخ المختلفة، وتتألف المنطقة الأثرية من تل واسع مرتفع ما زال ينتظر التنقيب والتحري فيه. ومع أنه لم تجر في بقايا هذه المدينة تنقيبات لحال التاريخ، بيد أن الأخبار التي يمكن استخلاصها من النصوص المسمارية، ولا سيما من العصر البابلي القديم، تشير إلى أنه قامت فيها في ذلك العصر سلالة حاكمة بلغت من القوة والبأس في الفترة من حكمها القصير درجة بحيث إنها هاجمت مملكة «اشنونا» في زمن ملكها المسمى «بلالاما». ومع أنه لا يمكن ضبط ترتيب الحكام الذين وردت أسماؤهم من النصوص المعاصرة على أنهم حكموا في هذه الدويلة، إلا أن المرجح أن أقدمهم

الحاكم المسمى «ندنوشا» (Nidnusha) الذي جاءنا منه نص قصير باللغة البابلية يذكر ألقابه وطرفاً من أعماله. وقد كتب اسمه وهو مسبوق بالعلامة الدالة على التأليه، كما ذكر اسم إله المدينة «ستران»[1]. وقد مر بنا في كلامنا على عصر فجر السلالات اسم هذا الإله بصفته الإله الخاص بالحدود وتسويتها، كما فعل في النزاع ما بين «لجش» و«أوما» في نزاعهما على الحدود[2] وأنه هو الذي أوعز إلى «ميسلم» ملك كيش لتعيين الحدود ما بينهما الأمر الذي يشير بوضوح إلى قدم مدينة «دير» وأهميتها في عصر فجر السلالات السالف الذكر. ويرجح أن «ندنوشا» السالف الذكر خلفه في حاكمية «دير» «آنو ـ متبل»، المعاصر لملك اشنونا بلالاما، بحسب دلالة النص الذي وجد في تل أسمر[3] وجاء منه أيضاً نص يدعي فيه أنه دحر جيوش «انشان» (أحد أقاليم بلاد عيلام)، وأنه غزا مملكة اشنونا. وانتهى استقلال مملكة دير على يد ملك (أيسن) المسمى ادن ـ دكان (1974 ـ 1954 ق.م).

سلالة الوركاء:

قامت في مدينة الوركاء الشهيرة سلالة حاكمة في العهد البابلي القديم وكان أقدم ملوكها، بحسب معرفتنا الراهنة «سين ـ كاشد» الذي لا نعرف بداية حكمه بوجه التأكيد، ولعله حكم قبيل 1860ق.م. وقد خلف في مدينة الوركاء مآثر بنائية مهمة وفي مقدمتها قصره القريب من سور المدينة وقد تناولته أعمال التحريات في المواسم الأخيرة، وجدد الأبنية الدينية في منطقة «اي ـ أنا»، وأقام معبداً لتقديس الإله «لوگال بندا» وزوجته الإلهة «نفسون» والبناء الديني المخصص لكاهنات المعبد المسمى «گي ـ باركو» (Gi - Par - ku) وعين

---

(1) راجع النص الخاص بهذا الحاكم في:
Yale Oriental Series, 1915ff. Vol. IX, no. 62

(2) قارن بذلك الإله الروماني الممثل بأحجار الحدود (Terminus).

(3) انظر: Edzard, ZZB, P.72.

فيه ابنته كاهنة عليا (Nin - Dinger) وتضمن بعض النصوص التي جاءتنا منه أوامره في تحديد أسعار السلع والحاجيات[1].

وخلف «سين ـ كاشد» في حكم الوركاء «سين ـ ايريبام» الذي لا نعرف عنه أشياء ذات بال سوى أنه ذكر في عقد من مدينة «لارسة» مؤرخ بحكم ملكها «ورد ـ سين». ثم خلفه «سين ـ گامل» و(اردا ـ نيني) الذي كان يعاصر (دامق ـ ايليشو)، ملك لارسة ثم «أنام» الذي ذكر في أحد نصوصه التي جاءتنا منه[2] أنه جدد أسوار الوركاء ومعبد «اي ـ أنا» وعزا تأسيس تلك الأسوار إلى جلجامش، وقد سبق أن ذكرنا أن أسوار الوركاء ترجع في تأسيسها إلى عصر فجر السلالات بدلالة بنائها باللبن «المستوي ـ المحدب»، ونسب تأسيسها إلى جلجامش في ملحمة جلجامش[3] وجدد أيضاً البناء المخصص لسكنى الكاهنات المسمى (e-gi-par-en-na) وعثر في الوركاء على الرسالة التي وجهها «أنام» إلى ملك بابل «سين ـ مبلط»، أبى حمورابي يستنجده فيها على القبائل التي كانت تهدد الوركاء. وانتهى استقلال الوركاء عندما ضمها «ريم ـ سين» ملك «لارسة» إلى مملكته في عام حكمه العشرين.

سلالة ملكيئوم (Malgium):

من الحكام أو الملوك الذين ورد ذكرهم في نصوص العهد البابلي القديم ملكان حكما في المدينة المسماة «ملكيئوم» التي لا يعلم موقعها بالضبط سوى احتمال أنها تقع في مكان ما أسفل ملتقى ديالى بدجلة ولعلها قرب الكوت. وجاء نصان مدونان بأخبار البناء والتشييد لأحد حكامها المسمى

---

(1) عن نصوص «سين ـ كاشد» انظر المراجع المذكورة في الهامش رقم 4.

(2) عن نصوص «أنام» انظر:
SAK; ZZB, P.156.

(3) عن نصوص «أنام» انظر:
SAK; ZZB, P.156.

«تاكل ـ ايليشو» وحاكم آخر باسم «ابق ـ عشتار». وذكرت المدينة في الحوادث المؤرخ بها من ملوك لارسة ولا سيما الملك «كنكونم» الذي دمرها في عام حكمه التاسع عشر كما ذكرها حمورابي في عام حكمه الخامس والثلاثين[1].

سلالة كيش:

قامت في مدينة كيش سلالة حاكمة من الآموريين في الزمن الذي تأسست سلالة بابل الأولى تقريباً، وقد جاء بعض النصوص التاريخية من أحد حكامها المسمى «أشدوني ـ آرم» (Ashduniarim) وهي تدون جانباً من أعماله ونشاطه الحربي[2]، ولكن مما يلفت إليها النظر أن فيها كثيراً من المبالغة من قبيل قوله إن جهات العالم الأربع ثارت عليه، وإنه ظل يحارب أعداءه طوال ثمانية أعوام حتى لم يبق من جيشه سوى (300) مقاتل، ولكن آلهة كيش بادرت لعونه ونصرته، فتغلب على أعدائه، وإنه قوى أسوار مدينة كيش.

سلالة سبار:

مر بنا ذكر مدينة «سبار» في عدة مواطن من الفصول السابقة فلا حاجة لإعادة تعريفها، ونقتصر على القول بالنسبة إلى موضوعنا إن جماعات من الآموريين استوطنت منطقة كيش، وعرفت من قبائلهم القبيلة التي ورد ذكرها باسم «يخرورم» أو «يحرورم» ومنها تسمية المدينة باسم (سبار يخرورم) ويستدل من أخبار العصر البابلي القديم أن سلالة حاكمة قامت في هذه المدينة في حدود الزمن الذي أسس «سومو آبم» سلالة بابل الأولى وكان يعاصر ثاني ملوك سلالة بابل المسمى «سومولئيل» ملك سبار الذي يدعى «اميروم». وقد ورد اسما هذين الملكين في القسم المذكور في أحد العقود المكتشفة في تل

---

(1) انظر: ZZB, P.159.

(2) حول سلالة كيش انظر: ZZB, P.130.

الضباعي. ويبدو أن الحكم في سبار انتقل من بعد ذلك إلى الملك المسمى «بونوتختونيلا» (Bunutakhtunila) الذي يرجح أنه كان يعاصر «سومولئيل» ثاني ملوك سلالة بابل الأولى، ثم أعقبه ملكان آخران أحدهما باسم «منابعلتي ايل» والثاني «ايلوما ايلا»[1] الذي ورد اسمه في إحدى الرسائل المكتشفة في تل الدير.

---

(1) انظر: ZZB, P.129.

سلالة بابل الأولى

من السلالات التي قامت في منتصف العصر البابلي القديم سلالة بابل الأولى (1894 ـ 1595ق.م) التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي (1792 ـ 1750ق.م) وقد تكررت الإشارة إليه بأنه هو الذي استطاع أن يوحد القطر في مملكة واحدة بعد أن كان يحكم فيها جملة سلالات متعاصرة متنازعة منذ بداية هذا العصر. ففي السنة الأولى التي حكم «سوموايل» سابع ملوك سلالة «لارسة» (في حدود 1894ق.م) استطاع أحد زعماء القبائل الآمورية المسمى «سومو آبم» أن يستقل في مدينة بابل في ظروف غير معروفة، وأسس فيها السلالة التي عرفت في أثبات الملوك البابلية باسم سلالة بابل الأولى، من بعد نحو (130) عاماً على قيام سلالة «لارسة» وزهاء (123) عاماً من بعد قيام سلالة «أيسن» وقد سبق أن ذكرنا أن هذه السلالة الجديدة قامت على أثر الموجة الثانية من هجرات الآموريين إلى وادي الرافدين. وقد ساعدت الأحوال التاريخية التي سادت البلاد من الحروب ما بين الدويلات المتعاصرة وسياسة ملوك هذه السلالة في الإفادة من ذلك النزاع لصالح دولتهم على تمهيد الطريق لأن تكون أطول السلالات الحاكمة عمراً وأشدها بأساً بحيث إنها ورثت زعامة البلاد في النهاية من بعد تصفية السلالات الحاكمة بعضها بعضاً. فقد سبق أن رأينا كيف انتهى النزاع ما بين أقوى سلالتين من هذه السلالات بتغلب آخر ملوك لارسة المسمى «ريم ـ سين» على السلالة المجاورة «أيسن» وبذلك انحصر الصراع بين بابل ولارسة. وسنرى من كلامنا على حمورابي

كيف استطاع هذا العاهل العظيم القضاء على خصمه «ريم ـ سين» (عام 1763ق.م) وتفرد بذلك في زعامة البلاد.

وبالنظر إلى أهمية سلالة بابل الأولى في تاريخ هذه الحقبة في حضارة وادي الرافدين فيستحسن أن نتتبع تدرجها في البأس والقوة بعرض موجز عن أعمال ملوكها وسير الأحداث في عهودهم. وقد حكم فيها أحد عشر ملكاً مجموع حكمهم زهاء الثلاثة قرون (1894 ـ 1595ق.م):

سومو ـ آبم:

وأول ما نذكر عن هذه السلالة وأول ملوكها المسمى «سومو ـ آبم» أن أخبارنا المدونة عنها لم تأت إلينا من مدينة بابل نفسها على الرغم من التنقيبات الواسعة التي أجراها الآثاريون الألمان في المدينة (1899 ـ 1917)، ذلك لأن ارتفاع مناسيب المياه الجوفية الناشئة من ارتفاع مستوى نهر الفرات القريب قد سبب طمس بقايا هذه السلالة ولا سيما من أدوارها القديمة، فلم يستطع المنقبون التعمق في حفرهم إلى طبقات أثرية أقدم من العصر الكشي وأواخر عهد هذه السلالة[1]. ولكن مع ذلك وصلت إلينا وثائق متنوعة وكثيرة عن أخبار هذه السلالة من المدن الأخرى، من بين ذلك الألوف الكثيرة من العقود التجارية والقانونية والمعاملات المختلفة الخاصة بشؤون الحياة العامة، ورسائل ملوك السلالة، ولا سيما رسائل حمورابي إلى ولاته وحكامه، ورسائل هؤلاء إليه، وشريعته المشهورة، وكذلك أثبات ملوك هذه السلالة، وأثبات الحوادث المؤرخ بها، والأخبار الخاصة بالعلاقات التي نشأت ما بين ملوك هذه السلالة وبين ملوك السلالات الأخرى المعاصرة لها، ولا سيما سلالتي «أيسن» و«لارسة» ورسائل مدينة ماري الشهيرة التي سبقت الإشارة إليها في كلامنا على سلالة ماري[2].

---

(1) انظر: O. Reuther, *Die Innenstadt von Bobylon.*

(2) أحدث وأوجز مصدر عن الموضوع البحث الذي رمزنا له بـ .ZZB, 4ff

حكم مؤسس السلالة «سومو ـ آبم» السالف الذكر أربعة عشر عاماً، ولا يعلم أصله ومنشؤه باستثناء ما قلناه من إنه كان أحد مشايخ القبائل الآمورية في هجراتها الثانية إلى العراق، كما لا يمكن البت هل كان في مبدأ أمره تابعاً إلى ملك إحدى الدويلات المعاصرة أو أنه حل رأساً مع أتباعه المحاربين في منطقة بابل وأقام فيها دويلته. ومما لا ريب فيه أن بُعد مدينة بابل عن مركز حكم السلالتين القويتين «أيسن» و«لارسة» كان من بين العوامل المهمة التي ساعدت مؤسس هذه السلالة. أما صلته بملوك بابل الذينْ خلفوه في الحكم فهي صلة غامضة، والمرجح كثيراً أنه لم يعقبه في الحكم أحد من أبنائه. فإن الملك «حمورابي» مثلاً لا يذكره في مقدمة شريعته ضمن أجداده الذين عددهم بل إنه يقف عند جده الأعلى المسمى «سومولئيل» الذي أعقب «سومو آبم» في الحكم، كذلك لم يذكره تاسع ملوك السلالة المسمى «عمى ـ ديتانا» في معرض تعداد نسبه. ومهما كان الأمر فإن «سومو آبم» شغل معظم سني حكمه البالغة أربعة عشر عاماً في توطيد سلطته في مدينة بابل وتقوية وسائل دفاعها وحصونها. وقد أرخ عام حكمه الأول في حادثة بناء سور المدينة[1]، واستطاع بالتدريج أن يضم إلى دويلته بعض المدن المجاورة مثل «دلبات»[2]، ويرجح أن سلطته امتدت إلى مدينة كيش القريبة من بابل، كما تدل على ذلك الألواح المكتشفة في كيش والمؤرخة بأعوام حكمه الثالث والعاشر والثالث عشر، وكذلك امتد نفوذه إلى مدينة «سبار».

سومولئيل:

خلف «سوموآبم» الملك الثاني من هذه السلالة المسمى «سومولئيل» الذي لا يمت إليه بصلة قربى، كما نوَّهنا، وعلى هذا فتكون سلالة بابل

---

(1) حول أثبات الحوادث المؤرخ بها من عهد سلالة بابل الأولى انظر:
Ungnad in RLA, II,; ANET.

(2) دلبات وتعرف بقاياها الآن باسم تل «دليهم» على بعد نحو 40 كم جنوب بابل. حول أخبار هذه المدينة انظر: Unger in *PLA*, II, 218ff.

الأولى بمعنى الأسرة قد بدأت منذ عهد هذا الملك الذي دام حكمه 36 عاماً، وقد صرف جزءاً كبيراً منه في حروب مع دول المدن المجاورة، وبوجه خاص مع كيش القريبة من بابل، وحارب أيضاً ملك إقليم «كزالو» المسمى «يحزرئيل» أو «يخزرئيل» وكان يعاصر «سين ـ ادنام»، ملك لارسة، كما سجلت له جملة أعمال في داخل مدينة بابل، مثل تقوية تحصيناتها وسورها، ودخلت مدينة «كوثي» (تل إبراهيم)[1] ضمن مملكته كما يشير إلى ذلك الحادث المؤرخ به عام حكمه السابع والعشرون. ومد نفوذه إلى قرب مدينة «نفر» ومدينة «أيسن»، وإلى مدينة «مرد» (ويعرف موقعها الآن باسم ونة والصدوم، في الطريق ما بين الحلة والديوانية). على أن هذه التوسعات لم تكن دائمة بل كان عليه وعلى خلفائه أن يعيدوا فرض سلطتهم على مثل هذه المدن المجاورة. وشغل «سومولئيل» أيضاً بأعمال البناء، في إقامة المعابد كما قام بجملة مشاريع للري، فقد سجلت ثلاثة أعوام من حكمه بحوادث حفر ثلاثة أنهر للري.

سابيئم:

قبل أن يتولى «سابيئم» الحكم في بابل من بعد أبيه «سومولئيل» كان حاكماً على مدينة «سبار» من قبل أبيه. وقد حكم 14 عاماً، وظلت سبار تابعة إلى بابل كما تدل على ذلك الألواح التي اكتشفت فيها وهي مؤرخة بأعوام حكمه، وكذلك يقال بالنسبة إلى كيش و«دلبات». وقد أرخ عام حكمه التاسع بحادثة تشييده المعبد الخاص بإله مدينة «دلبات» المسمى «أوراش»، وأرخ عام حكمه العاشر بأنه شيد معبد بابل الشهير «ايساگلا» المخصص للإله مردوخ.

---

(1) كوثي في المصادر العربيه و «كوتم» بالبابلية وبالسومرية (Gu-du-a) وتعرف أطلالها الواسعة باسم تل إبراهيم أو جبل إبراهيم على بعد نحو 50 كم شمال شرقي بابل، ويمر عندها مجرى النهر القديم المسمى نهر كوثي. واشتهرت كوثي بكونها مركز عبادة الإله «نرجال»، إله العالم الأسفل المذكور في التوراة ومعبده فيها يسمى «اي ـ ميسلام»، وكوثي أيضاً من أسماء العالم الأسفل أو عالم الأموات ولم تجر فيها تحريات لحال التاريخ.

آبل ــ سين:

خلف «آبل سين» أباه «سابيئم» في الحكم، ودام حكمه 18 عاماً، وكان يعاصر ملك «لارسة» «ورد ـ سين»، ثم أخاه «ريم ـ سين». وسجلت له الحوادث المؤرخ بها عدة أعمال عمرانية، ولا سيما في العاصمة بابل وفي المدن التابعة لها، مثل السور الذي أقامه في بابل وسماه «السور الجديد العظيم» (Bad - Makh - Gibil) في عام حكمه الثاني، وأقام معبداً للآلهة عشتار في بابل (في عام حكمه السادس عشر)، وجدد معبد الإله «نرجال» في مدينة «كوثي»، كما شيد سور مدينة «بورسبا»[1]، وقام كذلك بجملة مشاريع للري، ففي عام حكمه الرابع عشر مثلاً حفر النهر الذي دعاه «نهر آبل ـ سين حيكال» أي «نهر آبل ـ سين الجالب للخير»، وأرخ عام حكمه السادس بحفر النهر الذي سمي «نهر ـ الشوندر» (Id- Sumun - Dar). وأقام في عام حكمه الثامن حصناً سماه «قلعة آبل ـ سين» لحماية الطريق من بابل إلى مدينة «سپار»، ومنها إلى مدينة آشور[2].

سين ــ مبلط:

خلف «سين ـ مبلط» أباه «آبل ـ سين» على عرش بابل، وهو الملك الخامس من ملوك سلالة بابل الأولى وأبو حمورابي الشهير. وحكم عشرين عاماً تعاظمت في أثنائها مملكة بابل، وكان يعاصر «ريم ـ سين» ملك «لارسة»، وشغل نفسه في أعمال البناء وتوطيد العاصمة، كما عمل على تقوية سلطانه في المدن التابعة. وبالإمكان الوقوف على تفاصيل أعماله ومشاريعه

---

(1) تقع بقايا بورسبا أو بارسبا على بعد نحو 20 كم جنوب بابل، وذكرت في مقدمة شريعة حمورابي من جملة المدن التي عمرها حمورابي واشتهرت بكونها مركز عبادة الإله «نابو» أو «نبو» ابن الإله مردوخ، ومعبده فيها يسمى «اى ـ زيدا». وورد ذكر المدينة في نصوص سلالة أور الثالثة، كما ذكرها «اشبي ـ ايرا» أول ملوك سلالة «أيسن».

(2) انظر: Goetze in *JCS*, VII, 51

وتسلسها الزمني بالرجوع إلى الحوادث المؤرخة بها أعوام حكمه. ويستنتج من هذه الحوادث انتقال مدينة بابل من موقف التربص والدفاع إلى موقف الهجوم، كما يدل على ذلك الحادث المؤرخ به عام حكمه الرابع عشر، حيث استطاع أن يدحر جيش «لارسة»، كما هاجم مدينة «أور» و«أيسن»، ولكن هذا لم يكن فتحاً دائماً[1]، على أنه مهد الطريق للمشاريع الجسيمة التي اضطلع بها ابنه حمورابي.

(1) حول حكم «سين ـ مبلط» راجع:

B. Landsberger in *JNES*. Vol. XIV, 14ff.

حمورابي وعصره

ورث حمورابي[1] من أبيه «سين ـ مبلط» مملكة صغيرة نوعاً ما لا تتجاوز مساحتها زهاء (128) كم طولاً ونحو (40) كم عرضاً، تمتد من مدينة «سبار» شمالاً إلى مدينة «مرد» جنوباً، أي إلى حدود مدينة الديوانية تقريباً. ولما جاء إلى عرش بابل كان يزاحمه في البقاء ويهدد وجود مملكته ملك لارسة القوي «ريم ـ سين» في عام حكمه الواحد والثلاثين، وقد مر بنا كيف أن «ريم ـ سين» استطاع أن يقضي على مملكة «أيسن» ويضمها إليه قبل أن يتبوأ حمورابي العرش بعامين (1794ق.م). وبالإضافة إلى مملكة «لارسة» التي كانت تهدد مملكة حمورابي بالزوال كانت إلى الشمال منها ثلاث دويلات أخرى تحت سلطان الملك الآشوري «شمسي ـ أدد» الأول الذي تكلمنا عنه في معرض حديثنا عن مملكة ماري، وهي بلاد آشور، وإقليم «ايگالاتم» ومنطقة ماري. وإلى الشرق مملكة اشنونا المستقلة في الإقليم الكائن ما بين نهر دجلة وديالى، وقد مر إيجاز التعريف بها. ولكن حمورابي الذي تميز بقابلية وقدرة متعددتي الجوانب استطاع أن يقضي على هذه الدويلات المزاحمة له، الواحدة بعد الأخرى، فيتفرد في النهاية بزعامة البلاد ويحقق وحدتها السياسية. ولا يسع المتتبع للخطط والخطوات التي سار عليها حمورابي في تحقيق أهدافه، وبراعته في الحرب والإدارة والتنظيم إلا أن

---

(1) اسم حمورابي مركب من كلمتين: «حمو» (وهو اسم إله سامي غربي من الآلهة الشمسية كما يدل على ذلك اسمه الذي يعني الحرارة)، وكلمة «رابي»، معناها عظيم أو كبير. ويجوز قراءتها «رافيء»، بمعنى «مكثر». أما اسم أبيه «سين ـ مبلط» فيعني «الإله سين المحيي».

يسميه بالملك العظيم، ويعد حكمه الطويل الذي دام ثلاثة وأربعين عاماً من العهود المجيدة في تاريخ حضارة وادي الرافدين، والتاريخ البشري العام.

ويبدو من درس الحوادث المؤرخة بها أعوام حكمه[1] أنه أمضى الأعوام الأولى منها في تقوية وضعه في الداخل وإعداد العدة والتمهيد للاضطلاع بالمشاريع الحربية التي اعتزم تنفيذها. وظهر نشاطه الحربي في سنته السادسة بالهجوم على مدينة «أيسن» والوركاء وضمها إلى مملكته. وتلا ذلك هجومه الكاسح في عامي حكمه السابع والتاسع على إقليم «يموت ـ بعل» التابع لخصمه القوي «ريم ـ سين»، ملك لارسة. ونراه يتوقف عن مواصلة نشاطه الحربي من بعد عامه العاشر إلى عامه الثلاثين، بحيث اقتصرت حوادث العشرين عاماً التي تلت سنته العاشرة على الأعمال العمرانية، مثل بناء المعابد وتقوية الحصون والأسوار في عاصمته وفي مدن مملكته الأخرى المهمة، وتنظيم الجيش وشؤون إدارة البلاد، كل ذلك كان تهيؤاً واستعداداً للبدء بأعماله الحربية الجسيمة في أعوام حكمه التالية، أي من العام الثلاثين إلى التاسع والثلاثين فقضى على أقوى وأخطر خصومه في عامه الثلاثين، هو «ريم ـ سين»، ملك لارسة الذي تكررت الإشارة إليه، فكان العام 1763ق.م عاماً حاسماً بعد زوال كيان مملكة لارسة المعادية، وأعقب ذلك اكتساحه لمملكة «اشنونا» في عام حكمه الواحد والثلاثين، ثم بلاد «آشور»، ومنطقة ماري في العام الثاني والثلاثين، ثم اتجه إلى بلاد الشام، فأصبح منذ عام حكمه الثامن

---

(1) الحوادث المؤرخ بها (Date Formulae) تأتي في مقدمة مصادرنا عن سير الأحداث السياسية الحربية والعمرانية مضافاً إليها الإشارات المهمة الواردة في رسائل ماري وشريعة حمورابي المشهورة ورسائله والوثائق القانونية والإدارية. حول مثل هذه المصادر راجع:

(1) Ungnad in *RLA*, II, 178ff.

(2) L. Oppenheim in *ANET*.

(3) L. King, The Letters and Inscriptions of Hammurabi.

(4) Thureau - Dangin in Ra, XXI, 1ff.

(5) Edzard, ZZB, 180ff.

والثلاثين سيد وادي الرافدين بلا منازع من أقصى شمال ما بين النهرين إلى الخليج العربي. وأصدر في الأعوام الأخيرة من حكمه شريعته المشهورة لتسري أحكامها على أرجاء مملكته الواسعة، وحق له أن يتخذ اللقب الفخم «الملك العظيم، ملك بابل، ملك بلاد الآموريين كلها (بلاد الشام)، ملك بلاد سومر وأكد، ملك جهات العالم الأربع». ولعل صورته المنحوتة في أعلى مسلته المكتشفة في مدينة «سوسة» (1901 ـ 1902) والرأس المنحوت الذي يمثله[1]، يعبران بعض الشيء عن شخصية هذا العاهل العظيم الجدير بأن يأخذ مكانة مرموقة بين عظماء التاريخ البشري.

خلفاء حمورابي:

خلف حمورابي خمسة ملوك ورثوا عنه مملكة موحدة قوية تضم العراق وأجزاء مهمة من بلاد الشام وأعالي ما بين النهرين. وقد شغل أوائل هؤلاء الملوك بالمحافظة على هذه المملكة الواسعة، ولم تخل أعوام حكمهم من تجريد الحملات الحربية في الداخل والخارج للقضاء على محاولات الانفصال وصد الطامعين من الأقوام المجاورة، الطامحة بخيرات وادي الرافدين، إلى أن قضى على كيان هذه السلالة الحثيون في حدود 1595ق.م.

أعقب حمورابي في الحكم ابنه المسمى «سمسو ـ ايلونا» (1749ـ 1712ق.م) وكان هذا على شيء من المقدرة العسكرية، كما تدل على ذلك حملاته الحربية التي قام بها في أوائل حكمه إزاء الثائرين للانفصال عن حكمه. وقد كلفته إحدى الثورات جهداً جسيماً، وهي الثورة التي نشبت في أحد الأقاليم المتاخمة لبلاد عيلام وقادها الشخص المسمى «ريم ـ سين»، وهو غير «ريم ـ سين»، ملك لارسة الذي قضى عليه حمورابي. فلم يستطع «سمسو ـ ايلونا» إخمادها إلا بعد عامين. وظهرت من جديد بوادر قيام دول

---

(1) حول هذا الرأس واحتمال كونه يمثل حمورابي راجع:

Frankfort, *AAO*, p1.63; Parrot, *SUMER*, p1.375.

المدن في عهده، حيث استطاع الشخص المسمى «ايلوما ـ ايلو» (الذي ادعى أنه من أحفاد دامق ـ ايليشو، ملك أيسن) أن يثور ويستقل في المناطق الجنوبية من البلاد، مؤسساً بذلك ما يعرف في تاريخ العراق القديم باسم سلالة «القطر البحري»[1]، لمجاورتها لمناطق الخليج والأهوار الجنوبية، وذكرها جامعو أثبات السلالات البابلية باسم سلالة بابل الثانية (1740 ـ 1500ق.م). وخصصت لها تلك الأثبات أحد عشر ملكاً. وتلا قيام هذه السلالة سلسلة من الحروب ما بين ملوكها وبين ملوك سلالة بابل الأولى دمرت في خلالها مدن جنوبية مهمة، وفي مقدمتها مدينة «أور». وظلت هذه السلالة منفصلة عن ملوك بابل رغم ذلك، إلى مطلع الحكم الكشي حيث قضي على استقلالها في حدود 1500ق.م.

وفي حدود زمن سلالة «القطر البحري» اغتنمت الفرصة بلاد آشور فقامت فيها سلسلة من الملوك انفصلوا عن تبعيتهم لأمبراطورية حمورابي، ويرجح أن يكون أول ملك من هؤلاء الملك المسمى «أداسي» الذي ذكرته أثبات الملوك الآشورية، ووصفته أخبار الملوك الذين جاؤوا من بعده بأنه خلص بلاد آشور من العبودية[2].

وإلى هذه الأخطار الداخلية جابه الملك «سمسو ـ ايلونا» أخطاراً خارجية جديدة، وفي مقدمتها تهديد الكشيين الذين كانوا على ما يبدو يحكمون في منطقة الفرات الأوسط، ثم أسسوا سلالة حاكمة في بلاد بابل في نهاية حكم سلالتها الأولى، موضوع كلامنا الآن. وقد أرخ عام حكمه التاسع بأنه العام الذي رصد فيه جموع الكشيين، كما صدّ جيشاً من الآموريين في عام حكمه الخامس والثلاثين. ومع أن مملكة بابل سلمت من مثل هذه الأخطار بيد أنها تقلصت في سعة رقعتها ولا سيما من بعد انفصال بلاد آشور

---

(1) القطر البحري ترجمة للمصطلح الوارد في النصوص المسمارية بهيئة (URU - KU - ki) انظر:
Dougherty, The *Sea - Land of Ancient Arabia*, (1932).

(2) انظر كتابة اسرحدون (680ـ669ق.م) في: *ARAB*, II, 576.

والأجزاء الجنوبية من القطر التي قامت فيها سلالة القطر البحري السالفة الذكر.

وواصل الملوك الأربعة الذين خلفوا «سمسو ـ ايلونا» الدفاع عن كيان المملكة والمحافظة عليها طوال القرن الذي استغرقته مدة حكمهم. فنجد الملك المسمى «أبي ـ ايشوخ» الذي خلف سمسو ـ ايلونا (1711 ـ 1684ق.م) يصد هجوماً آخر قام به الكشيون، ومع نجاح هذا الملك في ذلك فقد تغلغلت جماعات من هؤلاء الكشيين في بلاد بابل على هيئة عمال وزراع. واستطاع القسم الأكبر منهم أن يؤسس كياناً سياسياً في منطقة عانة (خانة) على الفرات الأوسط. وحاول هذا الملك البابلي الجديد القضاء على دويلة «القطر البحري»، ولكنه لم يفلح، فبقيت هذه السلالة في الحكم رغم محاولات الملوك الذين جاؤوا من بعده في إخضاعها والقضاء على كيانها السياسي.

وإلى جانب هذه الأحداث سجلت الأخبار التاريخية التي وصلت إلينا من هؤلاء الملوك أعمالاً عمرانية كثيرة ومهمة، مثل تأسيس المدن والحصون وتجديد بناء المعابد المختلفة وتقديم تماثيلهم لآلهتها، وحفر أنهار الري وتنظيم إدارة الدولة والشؤون القضائية فيها بإصدار الأوامر أو المنشورات الملكية الخاصة بشؤون السكان المختلفة كالضرائب والديون، مثل المنشور (Edict) الذي أصدره الملك «عمي ـ صادوقا»، عاشر ملوك هذه السلالة (1646 ـ 1626ق.م)[1].

ومع أن الكشيين هم الذين خلفوا سلالة بابل الأولى في الحكم إلا أن الضربة القاضية التي أطاحت بها جاءت على أيدي الحثيين. فقد صادف قيام مملكة قوية في بلاد الحثيين (تركية) في حدود القرن السابع عشر ق.م. وقام منها ملوك أقوياء أشهرهم الملك المسمى «حاتوسيليس» (نسبة إلى عاصمة هذه

---

(1) حول هذا المرسوم الملكي انظر:

Kraus, *En Edikt des Konigs Ammi - Saduga*, (1958).

المملكة «حاتوشا» أو خاتوشا، بوغاز كوى الآن) وقد زحف هذا الملك على بلاد الشام واستولى على بعض مدنها المهمة مثل «الالاخ» (تل العطشانة الآن، بالقرب من إنطاكية)، ولكن مدينة حلب (Khalpa)، عاصمة المملكة الآمورية «يمخد» قاومته وصدته، ويبدو أنه قتل في المعركة، وخلفه في الحكم ابنه المسمى «مورسيليس» (1620 ـ 1950ق.م) فاستأنف الهجوم على حلب ففتحها ودمرها. واستولى كذلك على «كركميش» (جرابلس الآن)، واتجه من بعد ذلك جنوباً على طوال نهر الفرات إلى بابل نفسها، فاستولى عليها في عهد آخر ملوكها المسمى «سمسو ـ ديتانا» (1625 ـ 1595ق.م). ومما يقال عن هذا الحدث التاريخي المهم إننا نجهل ملابساته وتفاصيله، فلم تدونه الأخبار البابلية، بل اقتصر الأمر فيه على إشارة عابرة وردت في أحد التواريخ البابلية المتأخرة من أن «جيوش بلاد خاني زحفت على «سمسو ـ ديتانا» وعلى بلاد أكد»[1]. ولكن الرواية الحثية أوضح نوعاً ما إذ إنها تنص على أن «مورسيليس» بعد أن دمر مدينة حلب وأخذ منها الغنائم والأسرى قصد بابل واحتلها وأخذ منها الغنائم إلى خاتوشا[2]. ويروي لنا أحد الملوك الكشيين المسمى «اگوم كاكريمه» (1602 ـ 1585ق.م) طرفاً من حدث سقوط بابل هو أن من بين الغنائم التي أخذها الحثيون من بابل كان تمثال الإله «مردوخ» وتمثال زوجته (صر بنيتم)، ولكن لأسباب غير معلومة لم ينقلهما الحثيون إلى عاصمتهم بل تركوهما في خانة (عانة) فقام هذا الملك الكشي بحملة خاصة من أجل إعادة هذين التمثالين، وقد نجح في ذلك واحتفل بهذه المناسبة احتفالاً دينياً رسمياً. والأمر الغامض عن هذا الغزو الحثي لبابل أن الملك الحثي لم يبق في بلاد بابل، إنه انسحب لأسباب مجهولة فاغتنم هذه الفرصة الكشيون في منطقة الفرات الأوسط وجاؤوا إلى بلاد بابل وأسسوا فيها

---

(1) انظر: L. King, *Babylonian Chronicles*, II, P.22

(2) جاء ذلك في نص من نصوص الملك الحثي «تلبينوس» (حدود 1500ق.م):
Hrozny in *Boghazkōy Studien*, III, (1919), 202.

سلالتهم الحاكمة التي سميت بسلالة بابل الثالثة باعتبار أن سلالة القطر البحري التي ذكرناها كانت سلالتها الثانية. وسنوجز أحوال العراق في عهد هذه السلالة في موضع آخر من هذا الفصل.

وهكذا سقطت سلالة حمورابي في حدود العام 4/ 1595ق.م وقد دام حكمها كما قلنا زهاء الثلاثة قرون. ولا يسع المؤرخ أن يحدد الأسباب والعوامل التي أدت إلى انهيارها سوى ما تعارف عليه المؤرخون من تعداد الأسباب المتشابهة في سقوط الدول والأمبراطوريات. على أنه يصح أن نفرد بعض العوامل الخاصة بهذه الحالة، ومنها أن أمبراطورية حمورابي كانت من صنع رجل واحد هو حمورابي نفسه حيث اعتمد وجودها على ميزاته الشخصية، كما يجوز أن نختار من بين العوامل الداخلية التراث الذي تأصل في العراق القديم منذ ظهور أولى أنظمة الحكم فيه في مطلع الألف الثالث ق.م ونعني بذلك نظام دولة المدينة المفضل لدى سكان العراق القديم. وينبغي ألا ننسى بهذا الصدد أن حمورابي ضم إليه بالقوة ممالك ودول مدن كانت مستقلة وجعل منها وحدة سياسية كبرى. ومن العوامل الداخلية أيضاً سياسة حمورابي وخلفائه في حصر اهتمامهم بالعاصمة بابل وتركيز مختلف أوجه النشاط الاقتصادي والثقافي والديني فيها على حساب المدن والأقاليم الأخرى التابعة.

موجز خصائص العهد البابلي القديم من الناحية الحضارية:

يستحسن أن نتوقف قليلاً عن الاستمرار في إيجاز تاريخ العراق في العصور التي تلت العهد البابلي القديم لنعرض أبرز خصائص هذا العهد الحضارية بالنظر إلى التبدلات الأساسية التي ظهرت فيه وطبعت حضارة وادي الرافدين بمقومات حضارية خاصة استمرت فيها في العهود التالية، وبما أننا سنفرد في الجزء الثاني من هذا الكتاب فصولاً متنوعة عن عناصر حضارة وادي الرافدين وأوجهها المختلفة فنقتصر في عرضنا الآن على تعداد الأمور الجديدة التي ميزت العهد البابلي القديم من الناحية الحضارية.

1 ـ نكفي القارئ مشقة الرجوع إلى ما سبق أن ذكرناه عن أحوال هذا العصر السياسية فنكرر تعريفه من الناحية الزمنية بأنه العصر الذي أعقب سقوط أمبراطورية «أور» (سلالة أور الثالثة) في حدود 2004ق.م وشمل فترة زمنية طويلة إلى نهاية سلالة بابل الأولى (في حدود 1595ق.م) وقيام حكم الكشيين فيكون قد استغرق نيفاً وأربعة قرون، وكان من الناحية السياسية كما مر بنا عصر دول مدن أو دويلات حكمت متعاصرة ومتحاربة وتصفية إحداها للأخرى إلى أن تفردت بزعامة البلاد سلالة بابل الأولى في عهد ملكها السادس حمورابي (1792 ـ 1750ق.م) وتوحيده القطر في مملكة واحدة كبرى.

2 ـ ولعل أبرز ما لاحظه القارئ في كلامنا عن العهد البابلي القديم، هجرات الأقوام السامية، من الساميين الغربيين الذين سميناهم بالآموريين أو الكنعانيين الشرقيين إلى مختلف بلاد الشام ووادي الرافدين، فتغيرت الأبنية العامة لهذه الأقطار من النواحي القومية والسياسية واللغوية. وبإضافة هؤلاء الساميين الغربيين إلى الساميين القدامى الموجودين في وادي الرافدين طغى التحول القومي واللغوي في العراق إلى السامية على الطابع السومري القديم، ومثل ذلك يقال بالنسبة إلى الطابع السياسي، فقد انتهى السومريون من الناحية السياسية، وتفردت الأقوام السامية بالحكم منذ نهاية سلالة أور الثالثة إلى سقوط الدولة الكلدانية على يد الفرس الأخمينيين (539ق.م).

3 ـ إن هؤلاء الساميين الجدد من الفرع الغربي للساميين أي الساميين أو العرب السوريين، ولغتهم كما رأينا أحد فروع كتلة اللغات أو اللهجات السامية الغربية، أي الكنعانية والفينيقية والعبرانية والآرامية وغيرها. وبالنظر إلى هجراتهم الكبيرة إلى العراق كان من المتوقع أن تعم لهجتهم في وادي الرافدين وتصبح لغة التدوين بدلاً من السامية الشرقية التي سميناها باللغة الآكدية أي لغة سامي العراق قبل مجيء هؤلاء الساميين الجدد، ولكن هذا لم يقع وإنما استمرت اللغة الآكدية بصفتها لغة التدوين الرسمية، إذ لم يخلف الآموريون شيئاً مدوناً بلغتهم في العراق باستثناء ما سبق أن ذكرناه من أنها صارت بلا شك إحدى اللغات المحكية الرئيسية ودخول أسماء أعلام سامية

غربية كثيرة مع أسماء عدد من الآلهة. ومما له صلة بهذه الملاحظة اللغوية أن اللغة الآكدية تفرعت في العصر البابلي القديم إلى فرعين رئيسين هما اللغة البابلية القديمة واللغة الآشورية القديمة، وتطور كل من هذين الفرعين في العصور التالية مما ذكرناه في كلامنا على اللغات السامية.

3 ـ ولعل أبرز النتائج التي استتبعت زوال السومريين سياسياً واتساع التدوين باللغة الآكدية ميزة أخرى اتسمت بها حضارة وادي الرافدين في العهد البابلي القديم، هي ظهور حركة واسعة في التدوين والتأليف والنقل والترجمة، وفي مقدمتها تدوين المعارف والعلوم التي بدأت في طور نضجها. فكأن القوم قد شعروا بزوال الثقافة السومرية فأخذ المتضلعون بمعارف العصر يدونون مآثر السومريين وينقلون النصوص الأدبية واللغوية والدينية، ويثبتون تدوين أصولها إما باللغة السومرية أو بترجمة الكثير منها أو تحويرها لإنشاء قطع أدبية باللغة البابلية على هيئة نتاج فني أدبي جديد سترد نماذج منه في الجزء الثاني من كتابنا، مثل ملحمة جلجامش وأساطير الخليقة والأشياء إلى غير ذلك من القطع التي ألفت باللغة البابلية ولكنها ترجع إلى أصول سومرية. ومن أجل تعريف المصطلحات السومرية ووضع مرادفات لها في اللغة البابلية بدأ الكتبة منذ العهد البابلي القديم يؤلفون نصوصاً لغوية مهمة بعضها على هيئة معاجم لشرح العلامات المسمارية من ناحية قيمها الصوتية ومرادفاتها بالبابلية، كما شرحوا مبادئ مهمة في نحو اللغة السومرية وما يضاهي التراكيب اللغوية السومرية من اللغة البابلية، وقد خلفوا لنا نماذج متنوعة من هذه المعاجم، بعضها شرح للعلامات المسمارية وبعضها معاجم بأسماء النباتات والحيوانات وأسماء الأشياء والمواد المختلفة. ويجدر أن نذكر بهذا الصدد أن أثبات الملوك السومرية التي أوردنا ترجمتها قد دونت في العصر البابلي القديم، إذ سبق أن قلنا إن آخر نشرة لها قد تمت في عهد سلالة «أيسن» كما جمعت أثبات سلالات أخرى. كل ذلك جعل المآثر المدونة التي جاءت إلينا من ذلك العصر تتميز بالكثرة والتنوع، بحيث يمكن القول إن العصر البابلي القديم يتفرد من بين العصور الأخرى في تاريخ حضارة وادي الرافدين من ناحية التأليف والتدوين. وإلى هذه المدونات جاء من هذا العصر

الألوف الكثيرة من ألواح الطين المدونة بشؤون الحياة المختلفة والمعاملات التجارية المتنوعة مثل معاملات البيع والشراء والإجارات والقروض والرهان والأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والتبني والإرث، وقرارات المحاكم والشرائع المدونة مثل قانون «لبت ـ عشتار»، خامس ملوك سلالة «أيسن» وقانون مملكة «اشنونا» المكتشف في تل حرمل، وما يسمى بالقوانين الآشورية القديمة، مما سنفرد له فصلاً خاصاً في الجزء الثاني. وسيمر بنا في كلامنا عن العلوم والمعارف في حضارة وادي الرافدين كيف انتقلت المعارف الرياضية في العهد البابلي القديم من مراحل الممارسة والمعلومات العملية إلى طور النضج والتدوين ومرحلة العلم الصحيح.

٤ ـ القصر والمعبد:

من التغييرات المهمة التي انتهى إليها التطور السياسي للعراق القديم في هذا العصر تعاظم سلطة الملك وانفصال السلطة الزمنية المتعاظمة الممثلة بالقصر «ايكالم» عن السلطة الدينية الممثلة بالمعبد وطبقة الكهنة. ففي العصور القديمة من حضارة وادي الرافدين، ولا سيما عصر فجر السلالات (2800 ـ 2370ق.م)، كانت الصلة وثيقة بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية، حيث الحاكم كان يتصف بالصفة الدينية والزمنية المزدوجة رغم وجود طبقات الكهنة المختلفة. ومع أن بوادر الانفصال ما بين السلطتين وتعاظم سلطة الحكام قد بدأت في العصر الآكدي الذي أعقب عصر فجر السلالات، إلا أن ذلك الانفصال لم يتضح إلا في العصر البابلي القديم. وإذا كان الملك قد استمر في هذا العصر على صفته الدينية المقدسة لصلته الوثقى بالآلهة بكونه ممثلاً لها في حكم البشر، فإنه صار سيداً مطلقاً على جميع المملكة، وبلغت هذه الظاهرة أوجّها إبان حكم الملك «حمورابي» حيث تم نقل جميع السلطات من المعبد إلى القصر، وأصبح صنف القضاة وشؤون المحاكم علمانية[1].

---

(1) انظر البحث الآتي حول الموضوع:

Harris. «On th Process of Secularization under Hammurabi», in *JCS*, 15, (1961), 117ff.

ولعل أجلى ما يوضح لنا هذه الظاهرة الجديدة في بناء حضارة وادي الرافدين ضخامة القصور الملكية التي طغت على المعابد على الرغم من استمرار العناية بها من جانب ملوك ذلك العهد. ولكن صارت الأبنية الدينية لا تقارن بضخامة القصور واتساعها. ويمكن مقارنة هذين النوعين من الأبنية مما جاء إلينا من النماذج التي كشف عنها في أثناء التنقيبات في المدن المختلفة، مثل معبد الآلهة «عشتار كيتيتوم» (Ishtar - Kititum) في أشجالي (منطقة ديالى)[1]، والمعابد الصغيرة المكتشفة في تل حرمل[2]، ومعبد الآلهة «ننكال» في مدينة «أور» وغيرها من المعابد الصغيرة المؤلفة من مدخل المعبد والحجرة الأمامية التي تفضي إلى الساحة وفيها دكة القرابين ثم حجرة «المابين» (Ante - Cella) والحجرة المقدسة (Cella) وفيها المحراب (Niche) والدكة لإقامة تمثال الإله المخصص إليه المعبد. والمرجح أنه لأول مرة ظهرت عادة بناء معابد صغيرة وبعضها عبارة عن نماذج مصغرة للمعابد في بيوت السكنى لعبادة العائلة الخاصة، كما ظهرت المعابد الصغيرة المشيدة في طرقات المدينة المؤلفة من مجرد ساحة صغيرة ذات مذبح للقرابين ودكة لتمثال الإله. وقد وجدت في «أور» أمثلة طريفة لهذه المعابد المخصصة لبعض الآلهة القليلة الشأن مثل المعبد المسمى «با ـ ساگ» (Pa - Sag) والمعبد المخصص للإله «ننشوبر» (Ninshubur) والآلهة «لاما» (Lama)[3] كما وجد نموذج معبد مصغر في أحد بيوت السكنى في تل حرمل[4].

ويصح أن نستنتج من هذه الظاهرة اتجاهاً جديداً في الديانة يدور على تعلق الفرد بالآلهة لا عن طريق السلطة الرسمية، زمنية أو كهنوتية، وإنما كان

---

(1) *AAO.*

(2) انظر مجلة «سومر»، (1946)، القسم الإنجليزي.

(3) انظر Woolley, in *AJ*, x, (1930), 368ff.

Wiseman, «The Goddess Lama at Ur» in *IRAQ*, XXII, (1960), 166ff.

(4) انظر مجلة «سومر»، (1946)، القسم الإنجليزي.

منبعثاً من العلاقة الشخصية بين الفرد وإلهه، وبعبارة أخرى ما يصح أن نعده مظهراً من مظاهر العبادة الشعبية الجماهيرية، يعزز ذلك ما امتازت به الأختام الإسطوانية من هذا العصر، حيث نقشت فيها مشاهد تمثل تقديم شخص عابد، هو صاحب الختم، من جانب إلهه الحامي إلى إله آخر أعظم شأناً.

وبالمقارنة مع تضاؤل شأن المعبد حجماً وسعة ونفوذاً كشفت التنقيبات التي أجريت في جملة مواضع قديمة عن عدة نماذج من القصور الضخمة نذكر منها قصر الملك «بلالاما»، ملك «اشنونا» في تل أسمر (اشنونا القديمة)، وقصر ملك الوركاء «سين ـ كاشد» في الوركاء[1]، وقصر ملك مدينة ماري «زمري ـ لم»، ذلك القصر الذي يعد في سعته وكثرة حجراته وساحاته ومرافقه الكثيرة مدينة كاملة، إذ تبلغ مساحته زهاء سبعة إيكرات (أي نحو 28,000 متراً مربعاً) (450×650 قدماً). وقد تفرد من بين مآثر العصور القديمة بزخارفه وزينته وجمال تخطيطه[2]، ويبلغ ثخن جدرانه الخارجية (40) قدماً، وقد شيدت على أسس من حجر الكلس وتتخللها أبراج للدفاع، وبلغ عدد حجراته الداخلية أكثر من ثلاثمائة حجرة. ووجد المنقبون في هذا القصر أكثر من (20,000) لوح من ألواح الطين المدونة بالخط المسماري واللغة البابلية القديمة، وهي تسجل مختلف الشؤون الإدارية والاقتصادية، من بينها الرسائل الملكية التي أشرنا إليها مراراً، وهي تعود إلى زمن الملك «شمسي ـ أدد» وولديه «اشمي ـ دگان» و «يسمح ـ أدد»، ثم الوثائق الخاصة بعهد الملك «زمري ـ لم» من بعد استقلال «ماري» عن التبعية الآشورية.

٥ ــ المصادر:

إن ما نوَّهنا به من ميزات العصر البابلي القديم من اتساع حركة التدوين جعلت هذا العصر يتفرد أيضاً بميزة أخرى من بين العصور التاريخية الأخرى

---

(1) انظر .Lenzen, *UVB*, XIX, (1963)

(2) انظر .A. Parrot, *Mission Archéologique de Mari, le Palais,* (1958-9)

في حضارة وادي الرافدين، هي وفرة المصادر التي جاءتنا منه المؤلفة من الألوف الكثيرة من ألواح الطين المتنوعة في محتوياتها، مضافاً إلى ذلك البقايا والمخلفات الأثرية المتنوعة، كالبقايا المعمارية الكثيرة والآثار المادية الأخرى، مثل المعابد والقصور ودور السكنى، بحيث يصح القول إن العصر البابلي القديم لا يضارعه عصر آخر في تاريخ العراق القديم من ناحية وفرة مصادر معرفتنا بتاريخه وتنوع هذه المصادر، فيستطيع المؤرخ بفضل هذه المصادر أن يستخرج صورة شاملة عن حياة المجتمع في مختلف مقوماتها ومظاهرها.

وبالنسبة إلى التنقيبات التي أجريت في عدة مواضع أثرية من هذا العصر يمكن القول إنه على الرغم من أن ما تم من تحريات أثرية لحال التاريخ لم يكن بالمقياس الذي ينبغي أن تكون عليه التنقيبات الأثرية إلا أنها بالمقارنة مع العهود التاريخية الأخرى تعد وافية واسعة. هذا مع العلم بأن أكثر من عاصمة من عواصم الدول التي قامت في هذا العصر لم تتناولها التحريات الآثارية بعد، مثل مدينة «أيسن» ولارسة وغيرهما. أما مدينة بابل التي كانت عاصمة سلالة بابل الأولى وعاصمة أمبراطورية حمورابي وظلت عاصمة البلاد إلى آخر عهود التاريخ فإنه لم يكشف فيها عن بقايا العصر البابلي القديم بسبب ما ذكرناه من ارتفاع مستوى المياه الجوفية (ارتفاع مستوى النهر) مما جعل الطبقات الأثرية الممثلة لذلك العصر تحت مستوى الماء. فرغم أن المنقبين الألمان الذين أمضوا أعواماً طويلة في التنقيب في بابل (1899 ـ 1917) وبلغوا أعماقاً تحت السطح تقدر في بعض الأماكن بنحو (40) قدماً فإنهم لم يعثروا إلا على أجزاء قليلة من بقايا جدران وكسر من ألواح طينية يرجح أنها تعود إلى أواخر عهد سلالة بابل الأولى. ومع ذلك فإن التنقيبات الأثرية الأخرى قد تناولت مدناً ومواقع أخرى مهمة، نذكر على سبيل المثال بقايا القصور الفخمة العائدة إلى حكام مملكة «اشنونا» في مواضع ديالى مثل تل أسمر (مدينة اشنونا) حيث قصر الملك

«بلا لاما» الذي نوَّهنا به. ونذكر كذلك تنقيبات مدينة أور التي كشف فيها عن مجموعات كبيرة من دور لسكنى وشوارعها، وقد بلغت مساحة إحدى الحارات السكنية زهاء (10,000) ياردة مربعة[1]. وقد سبق أن ذكرنا التنقيبات التي أجريت في مدينة «ماري» والكشف عن القصر الفخم العائد إلى ملكها «زمري ـ لم» بالإضافة إلى حارات دور السكنى من العصر البابلي القديم. وننوِّه كذلك بالتنقيبات التي أجريت في مدينة «نفر» والوركاء وتل «حرمل» والضباعي وتل الدير وغيرها.

إن التنقيبات التي نوَّهنا بأشهرها لم تقتصر أهميتها على الكشف عن نماذج مهمة من البقايا المعمارية والمواد الأثرية الأخرى من العهد البابلي القديم، بل إنها كذلك كشفت عن مجموعات كثيرة ومهمة من النصوص المسمارية التي تأتي في مقدمة مصادرنا عن أحوال العصر البابلي القديم، مضافاً إليها الألوف الكثيرة من ألواح الطين التي استخرجت عن طريق الحفريات الغير مشروعة، أي حفريات سراق الآثار، فكان حصيلة كل ذلك ما عندنا الآن من مجموعات كثيرة من ألواح الطين لا يمكن تقدير عدد ما هو مخزون منها في مخازن المتاحف العالمية، ولعل الرقم 50,000 ـ 70,000 رقم قريب من الصحة.

ومع أن عهد سلالة أور الثالثة يضاهي العصر البابلي القديم من حيث وفرة المصادر المدونة التي جاءت إلينا، إلا أن هناك فرقاً مهماً بين محتويات الألواح الاقتصادية والإدارية من عهد سلالة أور الثالثة (وهي في حدود 20,000 لوح) وبين وثائق العصر البابلي القديم، ذلك أن أغلب ألواح أور وثائق رسمية خاصة بتسجيل الشؤون الإدارية لأملاك القصر والمعبد وإدارة الدولة بوجه عام، في حين أن قسماً كبيراً من ألواح العهد البابلي القديم وثائق شخصية، أي إنها وثائق تعود إلى أفراد المجتمع من عامة الناس وهي مدونة

---

(1) انظر A. Parrot, *Mission Archéologique de Mari, le Palais,* (1958-9-)

بمختلف شؤون الحياة اليومية، ومثل هذا يقال بالنسبة إلى الرسائل من كل من هذين العهدين.

ونختتم هذه الملاحظات العامة عن مصادر العهد البابلي القديم بتصنيف تلك الوثائق من حيث محتوياتها إلى الأصناف الرئيسة التالية:

١ ـ الكتابات الرسمية:

وما يعرف بالنصوص الملكية (Royal - Inscriptions)، وقد وجدت مجموعات متنوعة من هذه الوثائق[1] التي سجلت لنا نشاط ملوك ذلك العصر في البناء والإنشاء ولا سيما بناء المعابد أو تجديد أبنيتها وحفر أنهار الري والسدود وإقامة الأسوار والحصون. وقد دونت الأخبار المتعلقة بمثل هذه الأعمال في المسلات الحجرية أو في المخاريط الطينية أو ألواح الطين أو التماثيل أو الأساطين الطينية، وكان البعض منها يدفن في أسس المعابد أو القصور وغيرها من الأبنية الرسمية.

٢ ـ إثبات الحوادث المؤرخ بها:

مر بنا في كلامنا عن طرق تدوين الحوادث وتقويمها أسلوب التأريخ بالحوادث المشهورة بحسب سني حكم الملوك أي ما يصطلح عليه بـ (Date Formulae) وقد جاءتنا من هذه الأثبات نماذج كثيرة، منها قوائم الحوادث المؤرخ بها الخاصة بحكم ملك واحد، وبعضها جداول بالسني المؤرخ بها الخاصة بحكم سلالة خاصة من الملوك. وتعد هذه الوثائق على قدر كبير من الأهمية فإنها سجل بتسلسل الأحداث المهمة في حكم الملوك وتسلسل ملوك السلالات، كما أن الحوادث المتخذة للتأريخ منها ذات أهمية خاصة في معرفة تأريخ العصر، فنقرأ فيها حملات الملوك الحربية وفتوحهم

---

(1) تنقيبات «أور» (1930 ـ 1931):

Woolley, *Ur Excavations.; AJ*, XI, (1931).

الخارجية وعلاقاتهم مع غيرهم من الملوك والحكام، وأعمالهم العمرانية مثل بناء المعابد والقصور وإقامة الحصون وشؤون الري المختلفة، ونحت التماثيل للآلهة ولأنفسهم، وتعيين الكهنة والكاهنات وبوجه خاص من الأسرة المالكة في المعابد، وقد يؤرخ بموت حاكم صديق من الدويلات المجاورة، وخير مثال على هذا النمط من التأريخ ما اكتشف حديثاً في تل الضباعي القريب من تل حرمل (وكلاهما في المنطقة المسماة بغداد الجديدة). ومن هذا الصنف من اثبات الحوادث المؤرخ بها القوائم الآشورية الخاصة بعهود الملوك أي ما سميناه «لمو»، من تسمية السنين الخاصة بعهد الملك بأسماء كبار موظفي الدولة ابتداء من الملك.

ومن قبيل هذا النوع من المصادر التي جاءتنا من العهد البابلي القديم إثبات الملوك (King - Lists) التي سبق أن تكلمنا عنها في الفصل الخاص بتأريخ التحريات. ونذكر كذلك الشرائع المدونة والنصوص القانونية الأخرى التي امتاز هذا العهد بوفرة ما وجد منها، والنصوص الأدبية والدينية مثل مجاميع الصلوات والتراتيل والأدعية المخصصة للآلهة المختلفة. والأثبات الخاصة بأسماء الآلهة وأنسابها، ونصوص الأساطير والقصص[1].

٣ ـ النصوص الخاصة بتنبوءات الفأل

النصوص الخاصة بتنبوءات الفأل (Omen Texts) التي وجدت منها نماذج متنوعة منذ العصر البابلي القديم، وهذه عبارة عن سجلات بالمشاهدات الخاصة بالظواهر الطبيعية والطرق المختلفة المستعملة في العرافة والتنبؤ مثل فحص كبد الحيوان المضحى وخلط الزيت بالماء إلى غير ذلك من أنواع العرافة مما سنفصل الكلام عنها في الجزء الثاني من كتابنا. وهذه إلى جانب أهميتها من الناحية العقائدية والأسطورية ذات أهمية تاريخية خاصة لأنها كثيراً

---

(1) حول النصوص الملكية انظر: RISA. SAK. ZZB.
Gadd and Legrain, *Royal Inscriptions From Ur.*

ما تشير إلى حوادث تأريخية مما يتعلق بالسلالات الحاكمة وملوكها وقد سبق أن استشهدنا بأمثلة منها[1].

٤ ـ الأثبات الجغرافية:

من المدونات الطريفة التي بدأت تظهر في حضارة وادي الرافدين منذ العصر البابلي القديم ما يطلق عليه اسم الأثبات أو الجداول الجغرافية (Geographical Lists) وهي عبارة عن معاجم صغيرة بأسماء المدن والمواضع الشهيرة التي كانت ترتب إما بحسب تسلسلها الجغرافي أو بحسب كتابة أسمائها. ولعل أقدم ما وجد من هذه الأثبات اللوح الطيني الذي اكتشف في تل حرمل (مجلة سومر، المجلد الثالث). ومن قبيل هذا النوع من المؤلفات الجغرافية ذكر الطرق والمسالك الشهيرة وأسماء المدن والأمكنة التي تمر منها أي ما يصح أن نسميه «دليل السفر» (Itinerary)[2].

٥ ـ الرسائل:

يمكن تصنيف الرسائل التي جاءت إلينا من العهد البابلي القديم إلى صنفين رئيسين (1) الرسائل الرسمية (2) والرسائل الخاصة بين عامة الناس. ويتضمن الصنف الأول الرسائل المتبادلة بين الملوك، أو المرسلة من الملوك

---

(1) سيأتي تفصيل الكلام على هذه المواضيع الأدبية في القسم الثاني من كتابنا. ونحيل القارئ إلى المصدر الآتي حول ترجمة هذه النصوص: *ANET.*
وعن التراتيل والأدعية والصلوات: Falkenstcin und Von Soden, OP.CIT
راجع أشهر النشرات عن نصوص الفأل:
(1) A. Goetze in *JCS*, I, (1947).
(2) —— *Yale Oriental Series, X,*
(3) Falkenstein, in Bibliotheka Orientalis, VI, 181ff.

(2) حول الأثبات الجغرافية انظر:
(1) Chiera, *Sumerian Lexical Texts,* (1929).
(2) Goetze in *JCS*, VII, 51ff. SUMER, III, (1947).

إلى ولاتهم وعمالهم في الأقاليم التابعة لهم أو ما بين الولاة أنفسهم، والمثال على ذلك الرسائل المهمة الخاصة بالملك حمورابي والرسائل المكتشفة في قصر الملك «زمري ـ لم» في مدينة ماري[1]، ونذكر كذلك الرسائل المكتشفة في تل حرمل وهي تتضمن الصنفين من الرسائل (مجلة سومر، المجلد الرابع عشر 1958) ورسائل تل الذير، وغيرها من مجاميع الرسائل الرسمية والخاصة التي وجدت في المدن المختلفة.

6 ـ الوثائق والعقود الخاصة بالمعاملات اليومية المختلفة كالبيع والشراء والمداينات والإجارات ومختلف الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والتبني وقرارات المحاكم وغيرها، وقد وجدت مجموعات كبيرة من هذه الوثائق من المدن المختلفة[2].

٧ ـ النصوص الرياضية:

سبق أن ذكرنا في أول كلامنا على خصائص العصر البابلي القديم

---

(1) حول رسائل حمورابي بوجه خاص ورسائل العهد البابلي القديم بوجه عام انظر:

(1) King, *Letters and Inscriptions of Hammurabi.*

(2) Thureau - Dangin, Letters et Contracts de L'Epoque de la priémier Dynastie.

(3) -----, La correspondance de Hammurabi avec Shamash - Khasir.

(4) Lutz, Early Babylonian Letters from Larsa.

(5) Ungnad, Bab. Letters of the Hammurabi Period.

(6) Lutz, Bab. Letters of the Early Bab., Cassite and Neo - Bab. Periods.

(7) Goetze, «Fifty Old Bab. Letters From Harmal», in SUMER, XIV, (1958).

(2) فيما يأتي المراجع الأساسية عن الشرائع والوثائق القانونية:

(1) Kohler. Ungnad, *Hammurapi's Gesetz* (1909 - 1923).

(2) Schorr, *Altbabylonische Rechtsurkunden*, (1914).

(3) Waterman in *AJSL*, XXIX, 145ff. IBID, 286ff.xxx, 48ff.' XXXIII, 203ff.

(4) Simmons in *JCS*, XIII, XIV, (1959 - 60)' IX, (1955).

(5) Kraus, *JCS*, III.

(6) Lutz, *Legal and Economic Documents from Aschaiyali.*

الحضارية كيف أن المعارف العملية الخاصة بالرياضيات وغيرها من المعارف قد انتقلت من الطور العملي إلى طور التدوين في ذلك العصر. والواقع من الأمر أن القسم الأعظم من الألواح الرياضية التي جاءتنا من حضارة وادي الرافدين ترجع في زمنها إلى هذا العصر ثم العهد السلوقي (القرن الثالث ق.م) ولما كنا سنخصص بحثاً خاصاً للعلوم والمعارف في الجزء الثاني من هذا الكتاب فنكتفي بهذا التنويه مضيفين إليه المراجع الرئيسية عن الموضوع[1].

---

(1) عن الرياضيات انظر:

(1) Neugebauer, *Mathematische Keilschrifttexte.*

(2) ------ and Sachs, Cuneiform Mathematical Texts (1945).

(3) Thureau - Dangin, *Texts Mathematiques Babyloniens.*

نشر مؤلف هذا الكتاب الألواح الرياضية المكتشفة في تل حرمل والضباعي في مجلة «سومر»: 1949، 1950، 1951، 1953، 1963.

سلالات العهد البابلي القديم

سلالة «أور» الثالثة
(2112 ـ 2004)
أور ـ نمو (2112 ـ 2095)
شولكي (2094 ـ 2047)
أمار ـ سين (2046 ـ 2038)
شو ـ سين (2037 ـ 2029)
ابي ـ سين (2028 ـ 2004)
سلالة «أيسن»
(2017 ـ 1794)
اشبي ـ ايرا (2017 ـ 1985)
شو ـ ايليشو (1984 ـ 1975)
ادن ـ دگان (1974 ـ 1954)
اشمي ـ دگان (1953 ـ 1935)
لبت ـ عشتار (1934 ـ 1924)
أور ـ ننورتا (1923 ـ 1896)
بور ـ سين (1895 ـ 1874)
لبت ـ أنليل (1873 ـ 1869)
ايرا ـ ايميتي (1868 ـ 1861)
أنليل ـ باني (1860 ـ 1837)
زامبيا (1836 ـ 1834)
اتر ـ بيشا (1833 ـ 1831)
أور ـ دكودا (1830 ـ 1828)
سين ـ ماگر (1827 ـ 1817)
دامق ـ اليشو (1816 ـ 1794)
سلالة لارسة
(2025 ـ 1763)
نبلانم (2025 ـ 2005)
اميصم (2004 ـ 1977)
ساميئم (1976 ـ 1942)
زابيا (1941 ـ 1933)
گنگونم (1932 ـ 1906)
أبي ـ سارة (1905 ـ 1895)
سومو ـ ايل (1894 ـ 1866)
نور ـ أدد (1865 ـ 1850)
سين ـ ادنام (1849 ـ 1843)
سين ـ اريبام (1842 ـ 1841)
سين ـ اقيشام (1840 ـ 1836)
ضلى ـ أدد (1835)
ورد ـ سين (1834 ـ 1823)
ريم ـ سين (1822 ـ 1763)
سلالة بابل الأولى
(1894 ـ 1595ق.م)
سومو ـ آبم (1894 ـ 1881)
سومو ـ لئيل (1880 ـ 1845)
سابيئم (1844 ـ 1831)
آبل ـ سين (1830 ـ 1813)
سين ـ مبلط (1812 ـ 1793)
حمورابي (1792 ـ 1750)
سمسو ـ ايلونا (1749 ـ 1712)
ابي ـ ايشوح (1711 ـ 1684)
عمى ـ ديتانا (1683 ـ 1647)
عمى ـ صادوقا (1646 ـ 1626)
سمسو ـ ديتانا (1625 ـ 1595)
حكام دولة «اشنونا»
اتوريا
ايليشو ـ ايليا

نور ـ آخم
كريكيري
بلالاما
عشتار ـ رماشو
أوصر ـ أوسو
ازوزم
أور ـ ننمار
أور ـ ننگشزيدا
ابق ـ أدد الأول
شاريا
بيلاكم
عبد ايراخ(؟)
ورسا
اباليل الأول
ابق ـ أدد الثاني
نرام ـ سين
دادوشا
اباليل الثاني
(1761 ـ 1790؟)
بلاد آشور
زاريقم
. . . .
. . . .
بوزر ـ آشور الأول
شالم ـ آخم
ايلوشوما
ايريشم الأول
ايكونم
سرجون الأول
بوزر ـ آشور الثاني
نرام ـ سين
ابريشم الثاني
شمسي ـ أدد الأول
(1781 ـ 1813)
اشمي ـ دگان
(1741 ـ 1780)
سلالات مدن أخرى
سلالة مدينة «دير»
ندنوشا
انو ـ متبل
سلالة كيش
اشدوني ـ آرم
سلالة الوركاء
سين ـ كاشد
(1833؟ ـ 1860)
أنام
(1817؟ ـ 1821)
اردانيني
(1810؟ ـ 1816)
سلالة «ماري»
يگديلم (1830؟)
يخدن ـ لم
(1810 ـ 1825)
يسمح ـ أدد
(1780 ـ 1799)
زمري ـ لم
(1761 ـ 1778)

الكشيون (سلالة بابل الثالثة)

رأينا في كلامنا على سلالة بابل الأولى كيف انتهى حكم هذه السلالة على أثر غزو الحثيين بلاد بابل في حدود 5/ 1594ق.م وكيف أن من عرف في تاريخ العراق القديم باسم «الكشيين» قد جاؤوا من منطقة الفرات الأوسط (لعله من منطقة عانة الآن وخانة القديمة) إلى بابل وأقاموا سلالة حاكمة في البلاد عرفت باسم سلالة بابل الثالثة التي دام حكمها زهاء أربعة قرون، (1595 ـ 1162ق.م).

اسم هؤلاء القوم الجدد من الكلمة البابلية «كشو» التي لا يعلم أصل اشتقاقها بالضبط ولعلها تعني في هذه اللغة القوة والبأس، ويحتمل كذلك أنها مأخوذة من اسم الإله القومي للكشيين. كما لا يعرف أصل هؤلاء الكشيين على وجه التأكيد. أما موطنهم الذي نزحوا منه فيرجح أنه كان في مكان ما من الأجزاء الوسطى في جبال «زاجروس» (الفاصلة ما بين العراق وبين إيران). ولعله يمكن تحديده في المنطقة التي تعرف باسم بلاد اللر، أي لورستان في الجهات الجنوبية من إيران. وكان يجاورهم من جهة الشمال أقوام جبلية أخرى منهم الكوتيون و«اللولوبو» الذين سبق أن ذكرنا صلاتهم بسكان وادي الرافدين في العصر الآكدي، والمرجح أن يكونوا هم القبائل الجبلية الذين ورد ذكرهم في المصادر الكلاسيكية باسم «كوساي» (Kossaioi) وبما أنهم لم يخلفوا لنا من بعد حكمهم في العراق شيئاً مدوناً بلغتهم القومية بل إنهم اتخذوا اللغة البابلية، فليس في الوسع معرفة أصلهم القومي من الناحية اللغوية، وكل ما يمكن تخمينه في هذا الشأن أن جماعات محاربة «أرستقراطية» من الآريين أي الأقوام الهندية ـ

الأوروبية قد حكمت أولئك الكشيين ونظمتهم تنظيماً عسكرياً وقادتهم إلى الفتح. ولما برزوا في التاريخ بصفتهم قوة عسكرية في عهد سلالة بابل الأولى اتجهوا في توسعهم، لعله بسبب ضغط أقوام أخرى، إلى وادي الرافدين، ولكن خلفاء حمورابي ولا سيما «سمسو ـ ايلونا» و «ابي ـ ايشوخ» استطاعوا أن يصدوهم فاتجهوا عبر نهر ديالى ودجلة إلى الجهات الشمالية الغربية، وبدلاً من أن يتجهوا إلى بلاد آشور، لعله بسبب اعتراض أقوام أخرى في المنطقة، تمركزوا في منطقة الفرات الأوسط أي في منطقة عانة (خانة القديمة) وهي منطقة استراتيجية مهمة بالنسبة إلى بلاد بابل فكانت شرياناً حيوياً للاتصال ببلاد الشام. ولبثوا في هذه المنطقة ردحاً من الزمن لا يعلم مقداره بالضبط وهم يتحينون الفرص للانحدار إلى بلاد بابل وأخيراً حانت الفرصة المواتية على أثر غزو الحثيين لبابل كما بينا.

وهناك مشاكل تاريخية تعترض المؤرخ عن بدء الحكم الكشي في العراق وعلاقتهم بالحثيين الذين غزوا بابل. فأولاً أن بداية حكمهم لا تنطبق مع نهاية سلالة بابل الأولى، ولذلك فينبغي أن يكون الملوك السبعة الأوائل من السلالة الكشية ابتداء من «گنداش» المعاصر لملك بابل «سمسو ـ ايلونا» قد حكموا خارج بلاد بابل، أي في إقليم «خانة» (عانة) كما ذكرنا، وأن السلالة الكشية بدأ حكمها في بلاد بابل ابتداء من الملك الكشي المسمى «اگوم» الثاني «اكوم كاكريمة» (Agum Kakrime) وأن هذا الملك هو الذي انتهز فرصة الغزو الحثي فزحف على بابل في حدود 1595ق.م. ولكن ماذا كانت علاقة هذا الملك الكشي بالملك الحثي «مورسيليس» الذي غزا بابل ماراً من منطقة الفرات الأوسط؟ هل تحالف مع الملك الحثي فكانت حملة عسكرية مشتركة على بابل؟ ولعل التساؤل الثاني أقرب إلى الواقع التاريخي لأنه يفسر لنا سبب انسحاب الحثيين من بابل، كما أن بعض الغنائم التي أخذها الملك الحثي من بابل ومن بينها تمثال الإله مردوخ وتمثال زوجته قد تركها في بلاد «خانة».

والواقع لا يقتصر الأمر على بداية العهد الكشي في العراق بكونها من الفترات المظلمة من ناحية المصادر التاريخية بل إن هذا العهد كله يعد من هذه الناحية من الأدوار المظلمة بالمقارنة مع العصور التاريخية الأخرى. وهناك

ثغرات في سلالة الملكوك الكشيين وفي تسلسل بعض ملوكها. وتكاد مصادرنا الرئيسية عن هذا العصر تقتصر على بضعة نصوص ملكية (زهاء المائتي نص)[1]، وأن الكثير منها ليست على جانب مهم من الناحية التاريخية. وجاءنا أيضاً عدد من الرسائل والوثائق الاقتصادية والتجارية والقانونية. على أن هناك مصدراً مهماً عن هذا العصر لم يأت إلينا من بلاد بابل بل من وادي النيل، ونعني بذلك الرسائل الشهيرة باسم «رسائل العمارنة»[2]. ومن مصادرنا المهمة عن العصر الكشي ما يعرف باسم التاريخ التعاصري (Synchronistic History) بين ملوك بلاد آشور وملوك بلاد بابل، وقد جمعه أحد الكتبة الآشوريين في القرن السابع ق.م[3].

وإلى هذه المصادر الكتابية نضيف ما أظهرته التنقيبات في المواقع الأثرية المختلفة من آثار وبقايا بنائية في الطبقات الأثرية العائدة إلى العهد الكشي، حيث وجدت في جملة مدن قديمة مثل «أور» والوركاء ونفر وبابل وغيرها مآثر من ملوك السلالة الكشية في الفترة الواقعة ما بين نهاية سلالة بابل

---

(1) حول ذلك انظر:

(1) K. Jaritz, «Quellen zur Geschichte der Kassu - Dynastie» in *Mitteiliungen des Institute für Orientforschung*, VI, (1958), 187ff.

(2) F. el - Wailly in *SUMER*, X, (1954), 43ff.

(2) نسبة إلى موضع العمارنة في مصر الوسطى، حيث عاصمة الفرعون «اخناتون». وقد وجدت فيه عن طريق الصدفة في أواخر القرن الماضي زهاء (350) رسالة رسمية مدونة بالخط المسماري واللغة البابلية، باستثناء رسالتين باللغة الحثية ورسالة ثالثة باللغة الحورية، وكانت هذه الوثائق الرسائل التي تبودلت بين الفرعونين «أمنوفس» الثالث وابنه «أمنوفس» الرابع (أخناتون) في القرن الرابع عشر ق.م. وبين ملوك الشرق الأدنى وحكام سورية وفلسطين التابعين إلى مصر. حول ترجمة هذه الرسائل المهمة راجع المصدرين الأساسيين التاليين:

Knudtzon, *Die El. Amarna Tafeln* (1915).

Mercer, *The Tell - Amarna Tablets* (1939).

(3) انظر:

Peiser. Winckler, in *Keilschrift Bibliothek*, I, (1889).

الأولى والعصر البابلي المتأخر. وسننوّه بوجه خاص في الموضع الأثري المسمى عقرقوف الذي اقتصرت بقاياه على العهد الكشي.

وبالاستناد إلى المصادر التي عددناها، رغم قلتها، يمكن تأليف صورة لا بأس بها عن هذا العصر من تاريخ العراق القديم. وأول ما نذكر من هذه الصورة أن الملوك الكشيين حكموا القطر في مملكة واحدة من أقصى الجنوب إلى حدود بلاد آشور في الشمال، حيث كان يعاصرهم ملوك ما يسمى بالعصر الآشوري الوسيط (من حدود 1500 إلى القرن العاشر ق.م)، وقد نشأت صلات وعلاقات بين الدولتين الكشية والآشورية، بعضها علاقات حربية كانت الكفة تتأرجح بين الطرفين في الانتصار والاندحار، وبعضها صلات سلمية.

ويمكن القول إن العصر الكشي كان أطول فترة في تاريخ العراق القديم عمها الاستقرار النسبي وحكمت فيها مملكة القطر وليس دول المدن مما مر بنا إبان عصر فجر السلالات والعصر البابلي القديم. وكان الكشيون أقلية حاكمة بالمقارنة مع الغالبية من سكان البلاد، وقد طغت عليهم حضارتها فاندمجوا بها وصهرتهم في بودقتها فاتخذوا لغة البلاد وثقافتها العامة ولم يخلفوا لنا كما قلنا أشياء يعتد بها مدونة بلغتهم باستثناء أسماء أعلام كشية وأسماء ملوكهم وعدد من آلهتهم ومفردات كشية قليلة مترجمة إلى اللغة البابلية، ومنها يستدل ما سبق أن نوَّهنا به من أن أولئك الحكام كانوا من الأقوام الآرية. ومن الأمثلة على أسماء آلهتهم الآرية الأصل (الهندية ـ الأوروبية) والداخلة في تركيب أسماء أعلامهم ولا سيما أسماء ملوكهم الإله «شورياش» (Shuriash) المضاهي للإله الهندي القديم «سوريا» (Surya) و «ماروتاش» (Maruttash) المضاهي للإله الهندي «ماروت» (Marut) والإله «بورياش» (Buriash) المضاهي للإله الخاص بالرياح ولا سيما الريح الشمالية عند الإغريق «بورياس» (Boreas) وهناك آلهة كشية صرفة لا يوجد ما يضارعها من آلهة الأقوام «الهندية ـ الأوروبية» مثل «كشو»، الذي قلنا إنه يحتمل أن يكون أصل تسمية هؤلاء الأقوام، أي الكشيين، والإله «شباك» (Shipak) وخربي (Kharbe)، وغيرها. ولعل مثل هذه الآلهة الكشية الصرفة

والكلمات الكشية القليلة المترجمة إلى اللغة البابلية مما أشرنا إليها تمثل لغة جماهير الكشيين الذين لم يكونوا من الأقوام الآرية وإنما اقتصر العنصر الآري فيهم على الطبقة الأرستقراطية المحاربة التي تزعمتهم وحكمتهم.

ولعل أوضح ما يعبّر عن اندماج الكشيين وملوكهم بحضارة وادي الرافدين أن أول ملوكهم الذي حكم في بابل وهو «اگوم» الثاني الملقب «اكوم كاكريمة» (1602 ـ 1585ق.م) قام بحملة خاصة لاسترجاع تمثال الإله مردوخ وتمثال زوجته «صربنيتم» من أسرهما في منطقة عانة، واحتفل بهذه المناسبة احتفالاً ضخماً كما نوَّهنا بذلك من قبل، كما قام بإعادة بناء معبد هذا الإله في بابل وخلف لنا نصاً مطولاً مهماً عن هذا الحدث[1]. ومع أنه مما لا شك فيه أن يكون هذا الملك قد استهدف من وراء عمله هذا مداراة البابليين وكسب رضاهم عن الحكم الجديد وضمان استمرار سلطة الإله مردوخ وتفويضه إياه أن يحكم البلاد بالنيابة عنه، ولكن مع كل ذلك يشير عمله ذاك إلى انصهار بحضارة البلاد وأعرافه الدينية.

حكم من بعد «اگوم» السالف الذكر تسعة ملوك لا يعلم ترتيب عهودهم بوجه التأكيد، ثم يأتي من بعد ذلك حكم الملك المسمى «بورنا بورياش» الأول وخلفه في الحكم «أولام بورياش» في حدود 1500ق.م، وقد ميّز هذا الملك حكمه بقضائه على آخر ملوك سلالة القطر البحري المسمى «اياگامل»، أي سلالة بابل الثانية التي سبق أن ذكرنا أنها قامت في زمن الملك البابلي «سمسو ـ ايلونا»، خليفة حمورابي. وبهذا العمل أعاد «أولام ـ بورياش» الوحدة السياسية الكاملة في القطر واستعاد الأجزاء الجنوبية المهمة المتاخمة إلى الخليج فضمن بذلك الاتصال التجاري البحري مع الخارج.

أما علاقات الملوك الكشيين مع ملوك آشور فقد سبق أن نوَّهنا بها، ويمكن إيجازها أنها سارت على مبدأ التعايش السلمي ما دام الطرفان قويين متعادلين في

---

(1) انظر نص «اكوم كاكريمة» في:

P. Jensen in *Keilschrift Bibliothek*, III, (1892), 134ff.

القوة، وكان الوضع يتغير في حالة ضعف أحدهما. وأبرمت ما بين الطرفين معاهدات لإقرار الوضع الراهن وتحديد الحدود ما بين المملكتين، ولم تكن حدوداً طبيعية ثابتة بل كانت تتوقف في اتجاهها شمالاً أو جنوباً على قوة كل من الدولتين. وقد دونت أخبار التاريخ التعاصري (Synchronistic History) التي نوَّهنا بها على أنها من مصادرنا الأساسية عن تاريخ هذه الحقبة، إبرام تلك المعاهدات الخاصة بتسوية الحدود، وأقدمها المعاهدة التي أبرمت ما بين الملك الكشي «بورنا بورياش» الذي خلف «اگوم» الثاني معه الملك الآشوري «بوزر ـ آشور» الثالث لتثبيت الحدود ما بين المملكتين في الخط المار في منطقة سامراء تقريباً، وأبرمت معاهدة أخرى مماثلة من بعد نحو قرن واحد ما بين الملك الكشي «كرانداش» وبين الملك الآشوري «آشور ـ بيل ـ نشيشو» (في حدود 1430ق.م). وهكذا فيبدو أن أهم ما يميز العهد الكشي الطويل الأمد قلة ما وقع في أثنائه من اصطدامات حربية مهمة سواء كان ذلك مع الآشوريين المجاورين أم مع دول الشرق الأدنى المعاصرة مثل دولة «ميتابي» في شمالي ما بين النهرين أم مع الدولة المصرية في تلك الفترة التي تعرف في تاريخ وادي النيل باسم الدولة الحديثة أو الأمبراطورية. وسنتطرق إلى العلاقات الودية ما بين الملوك الكشيين وبين فراعنة مصر في هذا العهد.

ولذلك فبدلاً من النشاط الحربي شغل الملوك الكشيون أنفسهم في المشاريع العمرانية في مختلف المدن البابلية المهمة وفي مقدمة ذلك تجديد معابد الآلهة الكبيرة، حيث وجدت مآثرهم كما نوَّهنا في عدة مدن مثل «نفر» و«أور» و«لارسة» والوركاء. ففي منطقة المعابد في الوركاء المسماة «اي ـ أنا»، وجد من مآثر الملك الكشي «كرانداش»[1] معبد جميل شيدت واجهته من

(1) أعيد تركيب هذا الجدار في المتحف العراقي. انظر:
J. Jordan in *U V B*, I, (1930).
وحول هذا الأسلوب من الزخارف الجدارية انظر:
AAO, 36ff. P1.70a.

آجر مثلت فيه في قوالب الآجر قطعة قطعة أشكال وصور من النوع النافر أو البارز إذا جمعت تلك القطع بعضها إلى بعض. وهذا أسلوب من التزيينات الجدارية شبيه بأسلوب الزخارف الجدارية في باب عشتار في مدينة بابل من عهد متأخر، أي من زمن الملك نبوخذ نصر (القرن السادس ق.م)، فيكون الطراز الكشي السابق أصل هذا النوع من الفن المعماري الذي ورثه أيضاً الفرس الأخمينيون كما وجد في أبنية عاصمتهم «برسيبولس» (اصطخر قرب مدينة سوسة). ووجدت نماذج من هذا الآجر في أثناء تنقيبات مديرية الآثار في عقرقوف مما سنتطرق إليه بعد قليل.

اتخذ الملوك الأوائل من السلالة الكشية مدينة بابل عاصمة لحكمهم، ولكنهم أسسوا في منتصف عهدهم تقريباً مدينة جديدة ضخمة أطلق عليها اسم «دور ـ كوريكالزو»، وتعرف بقاياها الآن باسم عقرقوف، على بعد نحو 20 ميلاً غرب مركز بغداد. ويبدو أن هذه المدينة الجديدة أضحت عاصمة المملكة أو العاصمة المفضلة الثانية إلى جانب بابل. ويشير اسم هذه المدينة الذي يعني حصن أو مدينة «كوريكالزو» إلى أن مؤسسها أحد ثلاثة ملوك سموا باسم «كوريكالزو» من السلالة الكشية. وبالاستناد إلى نتائج التنقيبات التي قامت بها مديرية الآثار في الموضع (1943 ـ 1946)[1]، يرجح أن المدينة الأصلية شيدت في زمن قديم من العصر الكشي يرجع إلى ما بين القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م. والمرجح أن كوريگالزو الأول كان المؤسس الأول للمدينة ثم وسع فيها الملوك الذين خلفوه وبوجه خاص الملك «كوريگالزو» الثاني الذي يرجح أن يكون هو الذي شيد برج المدينة (الزقورة) ووسع في معابدها

(1) أشرف على هذه التنقيبات مؤلف هذا الكتاب. راجع التقارير التي نشرت عن نتائج هذه التنقيبات في المجلة الإنجليزية (IRAQ)، ملحق الأعوام 1944، 1945، 1946، وكذلك مجلة سومر. والمرجح أن اسم عقرقوف كلمة آرامية تعني موضع قضبان الخشب. وقد أبانت التنقيبات المشار إليها استمرار الاستيطان في الموضع إلى العصور المتأخرة، حيث وجدت في الطبقات العليا منه آثار من العصر البابلي الحديث والعصر الفارسي الأخميني والعصر الفرثي والعصر العربي الإسلامي.

وقصورها. وقد اشتهر هذا الملك بنشاطه في البناء والتعمير في مدن أخرى، منها أعماله العمرانية الواسعة في مدينة «أور»، من بعد ما أصابها من التدمير في عهد الملك «سمسو ـ ايلونا»، خليفة حمورابي في أثناء حربه مع مملكة القطر البحري في الجنوب.

كشفت التنقيبات التي أشرنا إليها عن جملة بقايا مهمة في مدينة «دور ـ كوريكالزو»، وفي مقدمة ذلك أجزاء من قصورها الفخمة ومعابدها الواسعة، وعثر في أثناء هذه التنقيبات على نماذج من الآثار المختلفة التي أسهمت في توضيح بعض الجوانب من حضارة وادي الرافدين في العصر الكشي. وأجريت التحريات في برج المدينة الذي بقي من ارتفاعه الآن زهاء ستة وخمسين متراً. ويعد برج عقرقوف نموذجاً مهماً من الأبراج المدرجة في حضارة وادي الرافدين، ولا سيما قاعدته السفلى وسلالم هذه القاعدة، والفن المعماري التي شيدت بموجبه. وإلى ذلك يعتبر هذا البرج حلقة مهمة في تطور الزقورات ما بين بداية ظهورها في عهد سلالة أور الثالثة حيث كانت مؤلفة من ثلاث طبقات مثل برج أور وبرج الوركاء وبين المرحلة النهائية التي تطورت فيها في العهود المتأخرة ولا سيما في العصر البابلي الحديث (القرن السادس ق.م) حيث أصبحت فيه على الأغلب ذات سبع طبقات مثل برج بابل الشهير. وإلى ذلك فإن أجزاء القصور التي تم التحري فيها أظهرت نواحي مهمة في الفن المعماري وفي مقدمة ذلك ضخامة الجدران، وقد تميزت جدران العهد الكشي بالضخامة المفرطة، فإن جدران قصور عقرقوف وجدران معابدها بلغ معدل سمكها (ثخنها) ثلاثة أمتار وهي مشيدة باللبن الكبير الحجم. ووجدت في بعض هذه الأجزاء من القصور نماذج مهمة من الزخارف الجدارية المصبوغة، وقد زين البعض منها بأشكال آدمية ذات أهمية خاصة من ناحية الأزياء والملابس. أما المعابد فقد أظهرت التنقيبات، على الرغم من عدم إكمالها، أنها كانت تتسم كذلك بالسعة وضخامة الجدران، وقد كشف عن بقايا عدة معابد شيدت للآلهة المختلفة في منطقة برج المدينة تجمعها ساحة مركزية واسعة وهيكل (Cella) مشترك، شيد على مصطبة تواجه زقورة المدينة باتجاه

سلمها المركزي. وقد خصصت المعابد الكبيرة (لعبادة الإله «أنليل» وزوجته «ننليل»)، وابنهما الإله «ننورتا». ويجد الزائر في جدران الممر الرئيسي المركزي لهذه المعابد الآجر المختوم باسم الملك «كوريكالزو» وتدوين إقامته المعابد إلى أولئك الآلهة مع أسمائها وأسماء معابدها. ووجدت في هذه المنطقة كسر كثيرة من تمثال ضخم للملك كوريكالزو نفسه، وهي منقوشة بخط مسماري يتسم بمسحة القدم وباللغة السومرية[1].

بعض العناصر الحضارية الجديدة في العصر الكشي:

1 ـ مع أن الكشيين، كما ذكرنا، ساروا على تراث حضارة وادي الرافدين العام واندمجوا به بيد أنه ظهرت أو أدخلت في عهدهم بعض الأمور أو العناصر الحضارية التي يصح عدها أنها ميزت هذا العهد. وأول ما نذكر من هذه الأشياء الجديدة الاسم الجغرافي الجديد الذي أطلقوه على بلاد بابل، وهو «كار ـ دنياش»، أي بلاد أو قطر «دنياش»، وهو اسم أحد آلهتهم. على أن ملوكهم احتفظوا أيضاً بألقاب الملوك القديمة مثل ملك «سومر وأكد» وملك بابل.

2 ـ يرى جمهور المؤرخين أن الكشيين هم الذين أدخلوا استعمال الخيل إلى بلاد وادي الرافدين على مقياس واسع بحيث أصبحت واسطة شائعة في النقل وفي الحرب وفي جر العربات، الأمر الذي أحدث تبدلات جوهرية في أساليب الحرب والقتال وسرعة المواصلات. ويرجح أن الكشيين اقتبسوا استعمال الخيل من الحثيين في آسيا الصغرى ومن الحوريين أيضاً. أما ما قبل العهد الكشي فلم تكن الخيول شائعة الاستعمال في العراق بل اقتصر ذلك على أمثلة قليلة. فقد جاء ذكرها في النصوص المسمارية ولا سيما من عهد

---

(1) نشر نص هذه الكتابة في «سومر» (1948)، القسم الإنجليزي. انظر أيضاً:

Kramer in *ANET*. 157ff.

وعن الآثار الأخرى التي وجدت في عقرقوف انظر مجلة IRAQ (1944 ـ 1946).

سلالة «أور» الثالثة (2112 ـ 2004ق.م)، وقد دعيت في هذه النصوص بالمصطلح السومري «انشو ـ كرا» (Anshu - Kur - Ra) أي «حمار الجبل» أو «حمار البلد الأجنبي»، ويرادف ذلك في اللغة الآكدية «سيسو» (Sîsû) كما ذكرت الخيول باسمها الآكدي في رسائل مدينة «ماري» الشهيرة (القرنان التاسع عشر والثامن عشر ق.م)[1].

3 ـ سبق أن ذكرنا في الفصل الخاص بتاريخ التحريات كيف أن الكشيين استبدلوا طريقة التاريخ بالحوادث المشهورة المتبعة في العهود السابقة للعصر الكشي بطريقة أسهل في تأريخ الحوادث وتقويمها، هي التأريخ بسني حكم الملوك، فصاروا يؤرخون ابتداء من السنة الأولى التي تعقب تتويج الملك الجديد ويستمرون يؤرخون بسني حكمه المتتابعة إلى الملك الجديد الذي يخلفه.

4 ـ شاع في العهد الكشي استعمال ما يسمى بأحجار الحدود أو أحجار تثبيت حدود الأملاك والعقارات، واسمها باللغة الآكدية «كودرو» (Kudurru) وقد ظهر استعمالها على نطاق ضيق في عصر فجر السلالات ولكن لم يستمر في العهود التالية. ومع أن الكلمة التي تطلق على هذا النوع من الوثائق تعني «الحد» أو «التحديد»، إلا أنها كانت في الواقع بالدرجة الأولى سجلات بقطائع الأراضي الزراعية، تسجل فيها حدودها وأوصافها وتودع عادة في المعابد مع وجود نسخ منها على ألواح الطين تكون في حوزة المالكين، وهي عبارة عن أحجار مخروطية الشكل في الغالب، ويقسم الحجر عادة إلى قسمين فيشاهد في أعلى الوجه صور منحوتة بالنحت البارز تمثل رموز الآلهة فيشاهد من أشهر هذه الرموز قرص الشمس، رمز الإله «شمش»، والهلال رمز الإله

---

(1) حول تاريخ استعمال الخيل في الشرق الأدنى والعراق انظر:

A. Salonen, *Hippologia Akkadia,* (1956).

وعن ذكر الخيل في رسائل ماري (العهد البابلي القديم):

ARM, I, 50; II, 123; IV, 38; 20.

القمر «سين» أو «ننا» والفأس أو المحراث الصغير، رمز الإله «مردوخ»، والكوكب، رمز الآلهة عشتار، مع صور الحيوانات العائدة إلى مثل هذه الآلهة، كل ذلك للتمسك بنصوص الوثيقة. وينقش في ظهر الحجر النص المطول بذكر اسم المالك صاحب القطيعة وتحديد الأرض والامتيازات الأخرى الممنوحة له وأسماء الشهود، وتذكر لعنات الآلهة المختلفة في ختام النص على من يكسر الحجر أو يبدل نصوصه[1].

وإلى الجانب التأريخي في أهمية هذه الأحجار فهي على قدر كبير من الناحية الفنية أيضاً، لما فيها من المنحوتات البارزة. ومن الآثار الأخرى التي تعيننا في فهم التطور الفني في العصر الكشي دمى الطين الكثيرة (Terra Cotta Figurines) التي وجدت في جملة مواقع أثرية، من بينها تنقيبات مديرية الآثار في عقرقوف، ونذكر أيضاً الأختام الإسطوانية الخاصة بهذا العهد، على أنها ليست في مستوى الجودة الفنية التي تمتاز بها أختام العصور السابقة، وأبرز ما يلفت النظر فيها طول النصوص الكتابية التي تنقش فيها. وقد سبق أن ذكرنا الصور الجدارية الملونة (Frescoes) مما وجد في قصور عقرقوف. ويشاهد في الصور الآدمية الممثلة أزياء جديدة في الألبسة ومنها لباس الرأس ويبدو عليها الزي الإيراني في اللباس الرأسي على الأقل[2].

5 ـ نوَّهنا في كلامنا على خصائص العهد البابلي القديم الحضارية بالنشاط الأدبي الذي ازدهر فيه في حقل التدوين والترجمة والنقل وتأليف القطع الأدبية بتحويل الأصول السومرية إلى نتاج أدبي. إلى غير ذلك من أوجه النشاط الأدبي. ولكن يبدو أن فترة طويلة مرت من بعد سقوط سلالة بابل

---

(1) نشرت نماذج كثيرة في: *King, Bab. Boundary stones*

(2) راجع تقارير المؤلف المنشورة في مجلة *IRAQ*، المجلد الثامن (1946) اللوح: 12 ش 5، واللوح 14، ش 7، واللوح 13، ش 6، واللوح 15، ش 9، وعن الأختام الإسطوانية من العصر الكشي انظر:

T. Beran in *Archiv für Orientforschung* XVIII, (1958), 255ff.

الأولى ركدت فيها الحركة الأدبية، ثم انبعثت هذه الحركة مرة أخرى من بعد قيام السلالة الكشية، فبرزت جهود الكتبة والمتضلعين بالشؤون الأدبية في مواصلة تدوين التراث الأدبي واستنساخ القطع الأدبية المشهورة، أي بعبارة أخرى صدرت نشرات جديدة لمثل هذه القطع، نذكر منها نسخة مهمة من ملحمة جلجامش ونسخة من قصة الطوفان المعنونة «اترا ـ حاسس»، والقصة الأدبية الطريفة التي سميت بقصة أيوب البابلي لمضاهاتها لقصة أيوب في التوراة، وقد عنونت بعنوان «لأمجدن رب الحكمة» وفي البابلية «لدلل بيل نميقي» (Ludlul Bel Néméqi). ووصلت إلينا من العهد الكشي أيضاً نصوص طبية مهمة ونصوص فلكية إلى جانب الكتابات الخاصة بالتنجيم ولا سيما خصائص الأيام المختلفة وما يتوقع فيها من سعد ونحس أي ما يسمى (Hemerologies). وقد وجد منها لوح كبير في تنقيبات عقرقوف. وظهر في العصر الكشي أيضاً اهتمام ملحوظ بأساليب نصوص التعاويذ والرقى، كما وصلت إلينا طائفة من الأثبات أو المعاجم بالعلامات المسمارية وقيمها السومرية والآكدية، وبعضها يتضمن شرح بعض المفردات الكشية باللغة البابلية.

6 ـ وانتشرت في العصر الكشي اللغة البابلية بخطها المسماري انتشاراً أوسع من العصور السابقة، بحيث اتخذت هذه اللغة لغة للمراسلات الدولية الدبلوماسية بين ملوك الشرق الأدنى وحكامه، كما تدل على ذلك مراسلات «العمارنة» الشهيرة الخاصة بفراعنة مصر في القرن الرابع عشر ق.م، حيث كان الفراعنة في أوج قوتهم واتساع مملكتهم، فلا يمكن تفسير اتخاذ اللغة البابلية من جانبهم بتسلط أو نفوذ من الملوك الكشيين. وانتشر مع استعمال اللغة البابلية أدب حضارة وادي الرافدين، وترجمت جملة قطع أدبية مشهورة مثل ملحمة جلجامش إلى اللغة الحثية والحورية. ومما لا ريب فيه أن يكون قد ظهرت مدارس للكتبة خارج بلاد ما بين النهرين لتعليم الخط المسماري واللغة البابلية. والجدير بالذكر بهذا الصدد أنه وجدت في موضع العمارنة السالف الذكر بالإضافة إلى المراسلات الملكية الرسمية ونصوص المعاهدات

مع الحثيين والميتانيين المدونة باللغة البابلية، قطع معروفة من أدب حضارة وادي الرافدين وأساطيرها مثل أسطورة «أدابا» وقصة سرجون الآكدي المعنونة «ملك الحرب»، مما أشرنا إليها في كلامنا على السلالة الآكدية.

ومن مظاهر إحياء التراث الأدبي من حضارة وادي الرافدين في العهد الكشي استعمال الأنماط الكتابية القديمة، حتى أن خط بعض النصوص التي وصلت إلينا من هذا العهد تشبه في علاماتها المسمارية خط حضارة وادي الرافدين من عصر فجر السلالات (مطلع الألف الثالث ق.م)، والمثال على ذلك الكتابة السومرية المنقوشة على كسر التمثال العائد إلى الملك «كوريكالزو» المكتشفة في عقرقوف.

العلاقات بين دول الشرق الأدنى في عهد الدولة المصرية الحديثة:

بعد أن أسس الكشيون دولتهم في العراق بزمن قصير قام في تاريخ حضارة وادي النيل ما يسمى بالمملكة الحديثة أو الأمبراطورية (في حدود 1500 ـ 1085ق.م) بعد أن طرد مؤسس الأسرة الثامنة عشرة الهكسوس من البلاد، ثم مطاردتهم إلى بلاد الشام وفتحها في عهد الفرعون «طوطمس» الثالث (1506 ـ 1461ق.م) وشمل هذا العهد في تاريخ مصر القديم حكم الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين. وكان يحكم في الشرق آنذاك جملة دول أشهرها وأقواها من بعد الدولة المصرية المملكة الحثية في بلاد الأناضول ثم يأتي من بعدها في القوة والأهمية الدولة الآشورية في شمالي العراق والدولة الكشية في بلاد بابل، ودولة «ميتاني» في الأجزاء العليا من بلاد ما بين النهرين وسرعان ما ظهر النزاع ونشبت الحروب بين هذه الدول ولا سيما بين المصريين والحثيين، ولما كنا سنتطرق مرة أخرى إلى هذه العلاقات الدولية المتشعبة في الفصل المخصص لتاريخ الآشوريين فنكتفي الآن من ناحية موضوعنا بإيجاز موقف الكشيين في العراق من ذلك النزاع الدولي، وكان موقفاً يتلخص في التزامهم سياسة الحياد التي أملتها عليهم حقيقة كونهم

دون الدولتين المصرية والحثية في القوة، وحتمت عليهم أيضاً اتخاذ مبدأ الموازنة بينهم وبين الآشوريين، ولذلك اتسمت علاقاتهم مع مصر بالصداقة والحياد كما تدل على ذلك الرسائل المتبادلة بينهم وبين فراعنة مصر. ولعل خير ما يوضح لنا موقف الكشيين الدولي وعلاقتهم مع الدولة المصرية الرسالة التي أرسلها الملك الكشي «بورنا بورياش» الثاني (1375 ـ 1346ق.م) إلى فرعون مصر «امنوفس» الرابع، أي أخناتون، (1367 ـ 1350ق.م) ونورد ترجمتها:

«إلى نفخوريريا»[1] ملك مصر

هكذا يقول «بورنا بورياش»، ملك بلاد بابل، أخوك

«إنني بخير، فعسى أن تكون أنت وبيتك وأزواجك وأولادك ونبلاؤك وخيلك وعرباتك بأحسن حال».

«حين عقد أبي وأبوك الصداقة ما بينهما كانا يتهاديان أثمن الهدايا، ولم يمنع أحدهما ما كان يطلبه الآخر مهما عز وغلا».

«والآن لقد أهدى إلى أخي «منين»[2] من الذهب. فكم تمنيت لو أنك أرسلت إلي ذهباً بقدر ما كان يرسله أبوك. وإذا كان لا بد من تقليل المقدار، فأرسل إلي نصف ما كان يرسله إلي أبوك. فلم اقتصرت على إرسال «منين» من الذهب فقط؟ إنني الآن باذل جهداً كبيراً في بناء المعبد، وسوف أنجز العمل بدقة، فأرسل إلي قدراً وافياً من الذهب، وإذا رغبت في شيء يوجد في بلادي مهما كان فابعث إلي رسلك ليأتوك به».

«في عهد أبي «كوريكالزو»، أرسل إليه الكنعانيون يقولون: «لنذهب إلى مصر ولنغزها جميعاً، وسوف نعقد معك حلفاً». أما أبي فقد أجاب على

---

(1) اسم «امنوفس» الرابع (أخناتون) الذي ينطق باللسان المصري القديم (نفر ـ خفيرو ـ رع).
(2) يزن «المنا» البابلي (ومنه كلمة المن العربية) نحو نصف كيلو غرام، ويساوي (60) شيقلاً بابلياً.

رسالتهم قائلاً: «ليكن الحلف ما بينكم، ولكن لتحذروا جانبي، إذ لما كان ملك مصر حليفي فمن ذا الذي يصدني عن غزوكم»؟

وهكذا من أجل أبيك لم يسمع أبي قولهم. أما ما يخص بعض الآشوريين من أتباعي (كذا!) أفلم أخبرك برسالتي في شأنهم، فلم دخلوا إلى بلادك؟ وبما أنك تحبني فيقيني أنك لن تدخل معهم في شيء (من التحالف) وأنك ستعمل على إحباط سعايتهم وجهودهم. وفي الختام لقد أرسلت إليك هدية: ثلاثة «منات» من حجر اللازورد وعشرة أفراس لخمس عربات».

بالإضافة إلى هذه الرسالة التي أوردنا ترجمتها وجدت رسائل أخرى بعث بها إلى فراعنة مصر بعض الملوك الكشيين قبل «بورنا بورياش» الثاني صاحب هذه الرسالة، مثل «كدشمن ـ خربي» و «كدشمن ـ أنليل»، وكذلك نسخ الرسائل المرسلة من البلاط المصري. وإن مواضيع رسائل الملوك الكشيين كلها تؤكد على الصداقة ما بين بلاد بابل وبين مصر وطلب المزيد من إرسال الهدايا من مصر ولا سيما الذهب لتزيين معابدهم وقصورهم ونسائهم ومقابل ذلك كان الملوك الكشيون يقدمون لفراعنة مصر حجر اللازورد والخيول والعربات، كما يتضح ذلك من الرسالة التي أوردناها. ونقرأ في مثل هذه الرسائل أيضاً تبادل الأميرات من الطرفين للزواج. والطريف ذكره بهذا الصدد أنه عثر في «أرشيفات» (دار المحفوظات) في موضع العمارنة على أثبات أو قوائم بالهدايا التي أرسلها فراعنة مصر إلى الملوك الكشيين، والهدايا المرسلة بالمقابلة إلى الفراعنة، ومنها يظهر أن صفقة الملوك الكشيين كانت هي الرابحة، ويظهر فيها إلى جانب ذلك جوانب مهمة عن النشاط التجاري والتبادل التجاري، وإرسال السفراء والرسل وانتظام طرق القوافل المارة من بلاد ما بين النهرين إلى وادي النيل عبر فلسطين.

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن موقف الملوك الكشيين من العلاقات الدولية في عهدهم بالتنويه بما جاء في رسالة الملك «بورنا بورياش» الثاني السالفة الذكر من التنافس ما بين الملوك الآشوريين وبينهم في كسب

صداقة فراعنة الدولة المصرية الحديثة. ولكن مع ذلك كان الملوك الكشيون يسلكون سبيل المداراة حتى مع منافسيهم الآشوريين، والمثال على ذلك اضطرار ذلك الملك الكشي على عقد صفقة زواج سياسي عندما تزوج ابنة الملك الآشوري القوي «آشور ـ اوبالط» (1365 ـ 1330ق.م)، الذي هدف من وراء ذلك التدخل في شؤون البلاد البابلي، وقد واتته الفرصة حينما قتل زوج ابنته في انقلاب عسكري، فنصب على العرش البابلي أحد صنائعه من البابليين.

نهاية العهد الكشي والسلالات البابلية التي أعقبته:

بدأت الدولة الآشورية بالتعاظم والقوة منذ القرن الرابع عشر ق.م، وقد رأينا كيف أن أحد ملوكها الأقوياء المسمى «آشور ـ اوبالط» (1365 ـ 1330ق.م) بلغ من القوة درجة بحيث إنه تدخل في شؤون بلاد بابل وفرض على الملك الكشي «بورنا بورياش» الثاني مصاهرة سياسية، ونصب على البابليين ملكاً اختاره هو من بين مناصريه من بعد مقتل حميه السالف الذكر. ومما زاد في نمو الدولة الآشورية وقوتها في عهد هذا الملك أنه استطاع أن يقضي مع الحثيين على مملكة «ميتاني». وخلفه ملوك أقوياء في القرن الثالث عشر ق.م، مثل «شيلمنصر» الأول (1274 ـ 1245ق.م)، فازداد نفوذ الدولة الآشورية وتدخلها في بلاد بابل التي حل فيها الضعف وساءت أحوالها الداخلية. وزاد في الطين بلة قيام سلالة حاكمة قوية في بلاد عيلام، العدو المأثور لبلاد بابل، فأخذت تتجدد أطماعها وتحرشها في عهد ملكها القوي المسمى «اونتاش ـ كال» (المشهور بأنه شيد الزقورة في الموضع المسمى جوغة زنبيل بالقرب من مدينة سوسة). وهكذا وجد الملك الكشي «كاشتلياش» الرابع (1242 ـ 1235ق.م) نفسه بين عدوين قويين لا قبل له إزاءهما. وتطور تحرش العيلاميين إلى معركة اندحر فيها الملك الكشي، ولم يخلص بلاد بابل من الاحتلال العيلامي إلا هجوم الملك الآشوري القوي «توكلتي ـ ننورتا» الأول (1244 ـ 1208ق.م) عليها والسيطرة عليها، وظلت بلاد بابل تحت

الاحتلال الآشوري طوال سبع سنوات نصب في أثنائها الملك الآشوري ثلاثة ملوك كشيين تابعين له. وقد خلد هذا الملك الآشوري فتحه لبلاد بابل بتشييده مدينة جديدة دعاها باسمه «كار - توكلتي - ننورتا»[1]، وألفت عن هذه المناسبة قطعة أدبية تعرف باسم ملحمة توكلتي - ننورتا[2]. واستعاد البابليون من بعد السيطرة الآشورية استقلالهم السياسي على أثر موت الملك «توكلتي - ننورتا» السالف الذكر. ولكن إذا كان البابليون قد سلموا من التسلط الآشوري فإنهم لم يسلموا من عدوهم الآخر. فقد جاءت الضربة القاضية من العيلاميين الذين هجموا على بلاد بابل وقضوا على السلالة الكشية في حدود 1168 أو 1162ق.م، على يد الملك العيلامي المسمى «شوترك - نختني» (Shutruk - Nakhunte) الذي دمر العاصمة بابل ومدناً أخرى ونهبها ونقل إلى بلاد عيلام جملة غنائم من بينها عدد من الآثار الفنية مثل مسلة الملك الآكدي «مانشتوسو»، ومسلة «نرام - سين» المعروفة باسم مسلة النصر، كما أخذ مسلات من شريعة حمورابي الشهيرة[3]. والمرجح أن هذا الملك العيلامي نصب ابنه ملكاً أو حاكماً نائباً عنه على بلاد بابل، ولكن استعاد استقلال البلاد أحد الأمراء الكشيين المسمى «أنليل - نادن - آخي» غير أنه لم يحكم سوى ثلاث سنوات، إذ انتهى حكمه بغزوة أخرى قام بها الملك العيلامي المسمى «شيلاك - انشو شناك» في عام 1162ق.م، فواصل التدمير والنهب،

---

(1) تعرف بقايا هذه المدينة باسم تلول العقر، بالقرب من موضع العاصمة القديمة آشور (قلعة الشرقاط).

(2) راجع:

(1) E. Weidner, *Die Inschriften Tukulti - Ninurta's Iund seiner Nachfolger,* (959).

(2) Lambert in *Archiv für Orientforschung,* 18, (1957 - 8), 38ff.

(3) *ARAB,* I, 145.

(4) King, *The Bab, Chronicles.*

(3) حول وجود أكثر من مسلة واحدة من شريعة حمورابي، راجع الفصل الخاص بالشرائع في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وأضاف إلى الغنائم التي أخذها سلفه إلى العاصمة العيلامية سوسة، تمثال الإله «مردوخ»، وهذا هو الأسر الثاني لكبير آلهة بابل، وكان الأسر الأول كما ذكرنا أخذ الحثيين لتمثاله قبل نحو 433 عاماً. وهكذا سقطت السلالة الكشية أو سلالة بابل الثالثة بعد أن دام حكمها نيفاً وأربعة قرون.

لم يدم احتلال العيلاميين لبلاد بابل في غزوهم الثاني فترة طويلة، فبعد أن انسحب الملك العيلامي السالف الذكر ترك حامية من جنده فيها، فاغتنم الفرصة زعماء مدينة «أيسن» وأعادوا استقلال البلاد وطردوا الحامية العيلامية، وقامت في البلاد سلالة حاكمة في «أيسن»، هي سلالتها الثانية التي دعيت بسلالة بابل الرابعة، وقد حكم منها بستة ملوك دام حكمهم زهاء القرن الواحد (1162 ـ 1041ق.م)، وأولهم الملك المسمى «مردوخ ـ كابت ـ أخيشو». وقد ساعدت أحوال المنطقة، ولا سيما ضعف الدولتين المجاورتين، الآشورية والعيلامية، ملوك هذه السلالة على إعادة شيء من الازدهار والقوة في البلاد، حتى أن بعض ملوكها بلغ من القوة درجة بحيث إنه استطاع أن يتدخل في شؤون بلاد آشور الداخلية. وانتهز ملكها الرابع المسمى «نبوخذ نصر» الأول (1124 ـ 1131ق.م) ضعف بلاد عيلام فجهز حملة حربية لغزوها، ولكنه أخفق في محاولته الأولى كما أخبرنا بذلك نفسه[1]، ثم أحرز النجاح في حملته الثانية، وبرز في المعارك قائد ورد اسمه في أخبار هذا الملك، هو «رتي ـ مردوخ»، ولعله كان أحد القواد العيلاميين المنشقين. وقد خلف «نبوخذ نصر» خبر حملته هذه مدوناً على حجر حدود (كدورو)[2] ضمنه، بالإضافة إلى وصف أحداث المعركة وصفاً أدبياً ممتعاً، القطائع والامتيازات التي منحها إلى ذلك القائد جزاء شجاعته وبطولته. ولعله من المستحسن أن

---

(1) انظر:

G. Cameron, *History of Early Iran, P.132.*

(2) انظر ترجمة النص في:

L. King, ***Bab. Boundary Stones,*** **(1912), no.IV, P.29ff.**

نورد الفقرة التالية من ذلك النص على أنها نموذج للأسلوب الأدبي الشعري الذي يميزه: «من دير مدينة «آنو» المقدسة، قفز مسافة ثلاثين «بيرو» (ساعة مضاعفة)، وسار في الطريق في شهر تموز. احترقت النعال وتوهجت كأنها النار. وتوهجت أحجار الطريق كأنها الأفران الحامية. جفت الآبار، واختفى الماء من الأودية. وهنت وتراخت أقوى الخيول، وترنح حتى الأبطال الشباب. ورغم ذلك سار في الطريق قدماً، الملك المختار المصطفى والمسند من الآلهة. أجل حث الخطى نبوخذ نصر، الذي لا يضارعه أحد. . .». ونشبت المعركة بين البابليين والعيلاميين عند نهر «اولا» (نهر الكرخا الآن)، وحلت الهزيمة بجموع الملك العيلامي.

على أن هذا النصر على بلاد عيلام لم يخلص بلاد بابل من خطر الأعداء الآخرين وفي مقدمتهم الدولة الآشورية، حيث وقع على خلفاء «نبوخذ نصر» مواصلة الدفاع إزاء هذه الدولة، إذ تميزت فترة القرن الثاني عشر ق.م بانتعاش ملحوظ في أحوال الدولة الآشورية ابتداء من حكم الملك «آشور ـ دان» الأول (1179 ـ 1134ق.م) وبلغت أوج قوتها في عهد الملك «ثجلاثبليزر» الأول (1115 ـ 1077ق.م). ولكن حدث في الوقت نفسه اندفاع هجرات القبائل الآرامية على طوال نهر الفرات فاصطدمت بالآشوريين وتوقف اندفاعها بعض الوقت وانحصرت تجولاتها في بوادي الشام. على أن الأحوال تدهورت في الدولة الآشورية من بعد ذلك العاهل القوي. واستأنف الآراميون تدفقهم إلى جميع أنحاء الشرق الأدنى حتى بلغوا مشارف بلاد آشور نفسها، مما سنتناوله مرة أخرى في كلامنا عن تاريخ الآشوريين في الفصل الآتي. أما بالنسبة إلى بلاد بابل فقد استطاعت قبائل من أولئك الآراميين التغلغل فيها وانتزاع الحكم من سلالة بابل الرابعة، حتى أن الملك الثالث من بعد عهد نبوخذ نصر الأول المسمى «أدد ـ أبا ـ ادن» (1067 ـ 1046ق.م) كان من أصل آرامي. واستطاعت جماعات أخرى من الآراميين التوغل إلى المناطق الجنوبية من بلاد بابل وأسست فيها عدة مشيخات وإمارات، وكانت

الدولة الكلدانية (التي اشتهرت بملكها نبوخذ نصر الثاني) من أصل آرامي أيضاً.

لا يعلم كيف انتهى حكم سلالة بابل الرابعة ولعلها انهارت من جراء ضغط جماعات أخرى من الآراميين، وأعقبتها في حكم البلاد جملة سلالات لا نعرف عن الكثير منها سوى رقم تسلسلها أي ترتيبها بالنسبة إلى السلالات الأخرى وأسماء ملوكها بحسب ما جاءت في أثبات الملوك البابلية. وليس أدل على تدهور الأوضاع السياسية في البلاد من أن ثلاث سلالات أخرى تلت سلالة بابل الرابعة وحكمت ما بين عام 1038 و991ق.م وعدد ملوكها سبعة ملوك، هي السلالة الخامسة والسادسة والسابعة وتفاقم خطر المشيخات الآرامية في نهاية السلالة السابعة وحكم السلالة الثامنة التي أسسها «نابو - موكن - أبلي» (990 - 995ق.م) وخلفه سبعة ملوك آخرهم «نابو - شم - أشكن» (762 - 747ق.م)[1] وبلغ ضغط الآراميين في عهد هذا الملك درجة بحيث إنهم بلغوا ضواحي مدينة بابل وضيقوا الخناق عليها. ومن طريف ما جاء في الأخبار البابلية عن ذلك أن «الإله مردوخ وابنه الإله نابو» لم يستطيعا الخروج من معبديهما للاشتراك في أعياد رأس السنة الجديدة في شهر نيسان[2].

وتلا ذلك حكم السلالة التاسعة التي خصص لها ملك واحد اسمه «نابو -

---

(1) من مشاهير سلالة بابل الثامنة الملك المسمى «نابو - ابلا - ادن» (885 - 852) المعاصر للملك الآشوري الشهير «آشور ناصر بال الثاني» (833 - 859ق.م) ويبدو أن الملك الآشوري لم يتدخل في شؤون بلاد بابل، الأمر الذي فسح المجال أمام الملك البابلي للقيام ببعض المشاريع العمرانية لتعمير ما خربته القبائل الآرامية ولا سيما القبيلة المسماة «سوتو» وقد خلف لنا هذا الملك أخبار أعماله البنائية ولا سيما إعادة بناء معبد الإله «شمش» المسمى (اي - ببارا) في سبار. وخلد هذا الحدث في لوح حجري جميل نحت في أعلاه مشهد يصور الإله شمش ورموزه وقدامه الملك. راجع:
King, *Babylonian Boundary Stones* (1912), 120ff.

(2) L. King, *Bab. Chronicles*, II, 81ff.

ناصر» (746 ـ 734ق.م) وأصبحت بلاد بابل في عهده تحت السيطرة الآشورية في عهد الملك الآشوري الشهير «تجلاثبليزر» الثالث (745 ـ 727ق.م) وبعد موت الملك البابلي ثار بعض القبائل الآرامية بزعامة الشخص المسمى «اوكن ـ زير» الذي جعلته أثبات الملوك البابلية مؤسس سلالة بابل العاشرة (732 ـ 730ق.م) وحكم من بعده «مردوخ ـ أبلا ـ ادنا» (721 ـ 711ق.م) وهو مردوخ بلادان المذكور في التوراة والذي سيرد ذكره مرة أخرى في حروبه مع الملك الآشوري «سرجون». وقد سبق للملك «تجلاثبليزر» الثالث أن حكم بلاد بابل حكماً مباشراً حيث توج ملكاً عليها وعرف لدى البابليين باسم «پولو» (فول المذكور في التوراة). وبعد فترة من تفرد «مردوخ بلادان» بالحكم أعيدت بلاد بابل إلى السيطرة الآشورية في عهد الأسرة السرجونية، أي سرجون وأولاد سنحاريب وأسرحدون وآشور بانيبال.

وبما أننا سنوجز أحوال بلاد بابل في هذه الفترة من السيطرة الآشورية في الفصل التالي الخاص بتاريخ الآشوريين فلا حاجة إلى تكرار هذه الأحداث هنا، كما أننا سنخصص فصلاً لتاريخ بلاد بابل في عهد آخر دولة قامت فيها، هي الدولة الكلدانية أو سلالة بابل الحادية عشرة.

الفصل الثامن

موجز تاريخ الآشوريين

الاسم، الموطن، الأصل

اسم الآشوريين على ما هو واضح من التسمية، مأخوذ من النسبة إلى آشور، هي كلمة أطلقت على أقدم مراكز الآشوريين، أي عاصمتهم المسماة «آشور» وسمي بها أيضاً إلههم القومي «آشور». ولا يعلم بوجه التأكيد أيهما أصل للآخر. على أنه يجوز الوجهان فإن نسبة السكان والأقوام إلى المدن استعمال مألوف مثل الآكديين نسبة إلى مدينة «أكد» والبابليين نسبة إلى مدينة بابل، كما شاع أيضاً تسمية بعض المستوطنات والمدن بأسماء الآلهة. ومهما كان الأمر فإن كلمة آشور كانت تكتب بصيغة قديمة على هيئة «آ ـ اوسار» (A - usar) التي يبدو وكأنها كتابة سومرية رمزية. ولكن الكتابة المألوفة الأخرى كانت بهيئة آشور (A - shur) يتبعها العلامة المسمارية الدالة على الأمكنة «كي» (Ki). وأقدم ما جاءنا من هذه الصيغة من النصوص الآكدية المكتشفة في مدينة «نوزي» (وكان اسمها في العصر الآكدي «كاسر» (Ca - sur). وغلب في الاستعمال في الأدوار الآشورية الحديثة أن يضعف حرف الشين فيقال «آشور» (Ash-shur). وللتعبير عن بلاد آشور أي القطر الآشوري كانت الكلمة تصدر بالعلامة المسمارية الدالة «مات» (Mat)، أي بلاد، فيقال: «مات آشور كي»، وكثيراً ما تضاف ياء النسبة المضاهية لياء النسبة العربية للتعبير عن الشخص الآشوري والآشوريين فيقال «آشوريو». وجاء الاسم في المصادر الآرامية والعربية على هيئة «آثور»، و«آفور». واستعمل المؤرخ

اليوناني هيرودوتس المشهور (القرن الخامس ق.م) مصطلح بلاد آشور (Assyria) استعمالاً خاطئاً إذ أطلقه على بلاد بابل والبابليين، مع أن اسم بابل وبلاد بابل كانا معروفين لدى اليونان بالإضافة إلى الآشوريين.

إن التسمية التي ذكرناها كانت على ما يرجح هي التسمية التي أطلقها الآشوريون على أنفسهم عندما حلوا في مطلع الألف الثالث ق.م في الموطن الذي عرف باسمهم. ويوجد اسم آخر لموطن الآشوريين يرجح أن يكون الاسم الأصلي الأقدم منه، هو «سوبارتو» أو «شوبارتو» أو «سوبر» (Subir)[1] نسبة إلى القوم الذين استوطنوا هذا الجزء من شمالي العراق منذ أبعد العصور التاريخية قبل مجيء الآشوريين الساميين إليه. والمرجح أن الآشوريين قضوا على جماعات من أولئك السوباريين وأزاحوا جماعات أخرى منهم إلى سفوح الجبال والمناطق الجبلية المجاورة، واندمج من بقي منهم مع الآشوريين. وكان موطن السوباريين يشمل كذلك الأجزاء الشرقية والشمالية من دجلة. ومما لا شك فيه أن الآشوريين تأثروا بهؤلاء السوباريين في النواحي القومية واللغوية والدينية، حتى أن بعض الآلهة السوبارية بقي في العبادة الآشورية[2]. ولكن الآشوريين تحاشوا إطلاق تسمية «سوبارتو» على بلادهم وعلى أنفسهم باستثناء استعمالها في نصوص قليلة وبوجه خاص نصوص الفأل والتنجيم (ومعظمها نسخ عن أصول بابلية)[3]، ذلك لأن تلك التسمية كانت تنطوي على مدلول شائن، إذ إنها ترادف مصطلح العبد في اللغة الآكدية (Subrum) كما تشير إلى ذلك النصوص التي جاءتنا من العهد البابلي القديم، ومنشأ هذا المدلول أن موطن السوباريين كان من بين المصادر المهمة لجلب الرق على

(1) راجع فصل المقدمة الخاص بأقوام العراق القديمة.

(2) راجع:

Cah, I, Part 2, (1971), P.732.

(3) ذات المصدر النص 733.

(1) Gelb, *Hurrians and Subarians*, (1944).

هيئة أسرى. على أن البابليين ظلوا يطلقون كلمة «سوبارتو» على الآشوريين وعلى موطنهم، ولا يستبعد أن يكون ذلك من باب الانتقاص. ويكفي أن نذكر مثالاً على ذلك الحادثة المؤرخ بها في حكم «دادوشا»، ملك «اشنونا» التي تذكر جيش الملك الآشوري «يسمح ـ أدد» الأول على أنه «جموع السوبارتو وخانة». ونجد «مردوخ ـ بلادان»، الملك البابلي (721 ـ 711ق.م) لا يسمي خصمه الملك الآشوري «سرجون» الثاني ملك الآشوريين بل ملك السوباريين، وجيشه جموع السوبارتو. ونذكر من نصوص الفأل التي اقتصرت فيها تسمية الآشوريين لبلادهم وأنفسهم على أنهم «سوبارتو» التقرير الذي قدمه أحد المنجمين الآشوريين إلى الملك الآشوري:

«إذا شوهد القمر في اليوم الثلاثين من شهر نيسان فإن بلاد «سوبارتو» سوف تتغلب على الاخلامو (إحدى القبائل الآرامية الكبرى) ويضيف ذلك المنجم موضحاً: «نحن السوباريين»[1].

الموطن:

سبق أن نوَّهنا بالموطن الذي حل فيه الآشوريون، وهو الجزء الشمالي الشرقي من العراق، حيث يخترقه دجلة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، والأراضي الكائنة على جانبيه من خط العرض السابع والثلاثين شمالاً. أما في الجنوب فلا توجد حدود طبيعية واضحة، ولعله يمكن اعتبار نهر العظيم الحد الجنوبي لذلك الموطن. ويحده من الشرق والشمال سفوح الجبال، بالإضافة إلى دجلة يمر في بلاد آشور الزابان، الزاب الأعلى والأسفل. وباستثناء السفوح الجبلية المحاددة لبلاد آشور شرقاً وشمالاً، لا توجد حدود طبيعية من الغرب إلى الخابور والفرات، أي القسم الذي عرف في جغرافية وادي الرافدين باسم ما بين النهرين أو الجزيرة. وكانت الحدود ما

(1) ذات المصدر النص 733.

(1) Gelb, *Hurrians and Subarians*, (1944).

بين بلاد آشور وبين بلاد بابل إلى الجنوب تتغير تبعاً لقوة أو ضعف البلدين. والغالب على أراضي موطن الآشوريين أنها من النوع المتموج (Undulating)، وتتميز بالخصب ووفرة مصادر المياه، ولا سيما مياه الأمطار الكافية لزراعة الغلال الشتوية، وفيه سهول ووديان زراعية كبرى مثل سهلي أربيل وكركوك، بالإضافة إلى السفوح الجبلية الصالحة للزراعة. وبالنظر إلى أسلوب الري المطري (الديمي) وكون الأراضي متموجة فإن بلاد آشور لم تعان من مشاكل الملوحة في تربة أراضيها الزراعية كما عانت بلاد بابل، أي القسم الرسوبي من بلاد ما بين النهرين المعتمد في زراعته على الري.

أصل الآشوريين وهجرتهم إلى موطنهم:

الآشوريون كما ذكرنا مراراً من الأقوام السامية أي المتكلمين بإحدى لغات عائلة اللغات السامية، وهي السامية الشرقية، التي سميناها اللغة الآكدية، وفرعها الثاني اللغة البابلية حيث تفرعت الآكدية «الأم» إلى هذين الفرعين في مطلع الألف الثاني ق.م. ومع أن نظرية كون الجزيرة العربية مهد الساميين لا تزال النظرية المعول عليها، بيد أن الكثير ممن سموا بالساميين، ومنهم الآشوريون والأموريون وغيرهم لم يأتوا رأساً من الجزيرة إلى شمالي العراق، وإنما المرجح أنهم استوطنوا من بعد هجرتهم البعيدة في موطن آخر، في بوادي الشام وبادية العراق وما بين النهرين، كما كان الحال مع الأموريين، ثم حلوا في زمن ما من الألف الرابع أو مطلع الألف الثالث ق.م في موطنهم الذي حددناه. وقد ذهب بعض الباحثين، ولا سيما القدامى منهم، إلى أن الآشوريين نزحوا إلى موطنهم من الجنوب، أي من بلاد بابل في زمن ما لعله إبان الهجرة الأولى للساميين إلى وادي الرافدين، فكان الآكديون في الجنوب، ثم هاجر قسم من هؤلاء الساميين وهم الآشوريون إلى الشمال، وفي التوراة (سفر التكوين الإصحاح الحادي عشر) ما يشير إلى ذلك. وقد سبق أن ذكرنا في أثناء كلامنا عن اسم الآشوريين أن هذا الفرع من الأقوام السامية وجد في الموطن الذي حل فيه أقواماً أخرى لا يعلم أصلها على وجه

التأكيد وفي مقدمتهم السوباريون والحوريون الذين أوردنا لهم تعريفاً موجزاً في كلامنا على أقوام العراق القديمة في الفصل الأول. وذكرنا كذلك أن بلاد آشور كانت تسمى أيضاً بلاد «سوبارتو»، وهو المصطلح الذي ظل مستعملاً في المصادر البابلية رغم تحاشي الآشوريين إطلاقه على مواطنهم[1].

الأدوار التاريخية في بلاد آشور:

سيكون كلامنا على التاريخ الآشوري بحسب الأدوار الآتية:

1 ـ عصور ما قبل التاريخ:

2 ـ دور سيطرة الدول البابلية إلى نهاية سلالة «أور» الثالثة (2500؟ ـ إلى حدود 2000ق.م).

3 ـ العصر الآشوري القديم (2000 ـ 1500ق.م).

4 ـ العصر الآشوري الوسيط (1500 ـ 911ق.م).

5 ـ العصر الآشوري الحديث (911 ـ 612ق.م).

آ ـ الأمبراطورية الآشورية الأولى (911 ـ 744ق.م).

ب ـ الأمبراطورية الآشورية الثانية (744 ـ 612ق.م).

وبضمنها السلالة السرجونية (721 ـ 612ق.م).

1 ـ عصور ما قبل التاريخ وعصر فجر السلالات:

إن ما ذكرناه في الفصل الخاص بعصور ما قبل التاريخ ينطبق بالدرجة الأولى على شمالي العراق، فقد رأينا كيف أن الأدوار القديمة من تلك العصور اقتصر وجودها على شمالي العراق ولا سيما العصور الحجرية القديمة

---

(1) انظر:

(2) Finkelstein, «Subartu and Subarians in Old Bab, Sources», in *JCS*, (1955), 1 ff.

والحديثة، دون السهل الرسوبي من وادي الرافدين، فنحيل القارئ على ذلك الفصل وكذلك الفصل الخاص بالعصر الحجري المعدني، ومثل ذلك يقال بالنسبة إلى عصر فجر السلالات الذي تطرقنا فيه إلى أدوار بعض المدن الآشورية مثل مدينة آشور ونينوى في ذلك العصر.

2 ـ بلاد آشور في العهد الآكدي وعهد سلالة «أور» الثالثة:

دخلت بلاد آشور في العصر الآكدي الذي تلا عصر فجر السلالات ضمن النطاق السياسي والثقافي للأمبراطورية الآكدية (2371 ـ 2330ق.م)[1]. وقد وجدت نصوص كتابية في بلاد آشور من هذا العهد. ففي الطبقة السادسة من معبد الآلهة «عشتار» في نينوى وجدت أسطوانات حجرية بعضها منقوش بكتابة من عهد الملك الآكدي «نرام ـ سين»، وهي شبيهة بما وجد في مدينة «نفر» للملك نفسه[2]، وجاء في كتابه للملك الآشوري «شمسي ـ أدد» الأول من العهد الآشوري القديم التالي أن الذي شيد معبد عشتار في نينوى قبله كان الملك الآكدي «مانشتوسو»، بن سرجون، ووجد في مدينة آشور (قلعة الشرقاط) بعض النصوص القصيرة باسم هذا الملك الآكدي وهو ملقب بلقب «ملك العالم» (Shar Kishshati)[3]. وتكرر ورود اسم مدينة آشور بهيئة «آ ـ شور» (A-shur) في النصوص المكتشفة في مدينة «نوزي» (يورغان تبه، قرب كركوك، وكان اسمها في العصر الآكدي «گاسر»، كما ذكرنا)، وقد ذكرت آشور في هذه النصوص بأنها كانت تدار من جانب حكام تابعين إلى الدولة الآكدية. ويبدو من جماع هذه الإشارات أن مدينة آشور كانت مركزاً إدارياً مهماً من مراكز الأمبراطورية الآكدية في بلاد آشور. ووجدت في أثناء التنقيبات التي أجراها الألمان في المدينة (1904 ـ 1914) أبنية ضخمة من العصر الآكدي، من بينها بقايا قصر واسع بجوار «زقورة» الإله أنليل، وهو

---

(1) وبتقدير آخر 2334 ـ 2154ق.م.

(2) راجع. *CAH.*, I, Part 2, (1971), P 733.

(3) راجع. *CAH.*, I, Part 2, (1971), P 733.

شبيه بالقصر أو الحصن الضخم الذي شيده «نرام ـ سين» في تل براك، في أعالي الخابور. ووجد في أحد البيوت الكبيرة في المدينة نفسها رأس دبوس (Mace head) من حجر «الهمتايت» (حجر الدم)، منقوش بكتابة قصيرة باسم الملك الآكدي «رموش»، وهو ملقب بملك العالم. وعثر في نينوى في معبد الآلهة عشتار على رأس من البرونز المسبوك يعد من القطع الفنية الفريدة، وهو يمثل أما مؤسس السلالة سرجون أو حفيده «نرام ـ سين».

ولعل أوضح تأثير ثقافي خلفه العهد الآكدي في بلاد آشور ما تركته اللهجة الآكدية في اللغة الآشورية القديمة المشتقة منها، بحيث يصح القول إن اللغة الآشورية من العصر الآشوري القديم (الألف الثاني ق.م) كانت أقرب إلى الآكدية القديمة من اللغة البابلية في العصر البابلي القديم المضاهي للعصر الآشوري القديم، وهو العهد الذي يحدد لظهور الآشورية القديمة والبابلية القديمة من الآكدية «الأم». وكذلك يقال بالنسبة إلى احتفاظ أسماء الأعلام الآشورية بالصيغ الآكدية القديمة، الأمر الذي حمل بعض الباحثين على القول بأن الكثير من الآشوريين في العصر الآشوري القديم ينتمون إلى أصل أكدي[1]. وفي الوسع الوقوف على أثر الثقافة الآكدية والوجود الآكدي في بلاد آشور من صيرورة الملوك الآكديين مثلاً أعلى يحتذى بهم من جانب الملوك الآشوريين في العصور التالية. والغريب في الأمر في هذا الباب أن ما تركه العهد الآكدي من ذكرى طيبة لدى الآشوريين المتأخرين كان على العكس مما كان في بلاد بابل نفسها، موطن الآكديين، في الأدوار التي أعقبت العصر الآكدي. فقد نسب البابليون إلى الملوك الآكديين الآثام والمعاصي إزاء الآلهة ومعابدها، وعزوا سبب سقوط السلالة الآكدية إلى غضب الآلهة وانتقامها نتيجة تلك الآثام ولا سيما كبير الآلهة «أنليل» الذي سلط الأعداء على الملوك الآكديين، وحتى كهنة بابل عزوا سقوط الآكديين إلى غضب الإله مردوخ. ولعله يمكن تفسير هذه الظاهرة أنه بالإضافة إلى عمق أثر الثقافة الآكدية في

(1) ذات المصدر، ص 735.

الآشوريين، واحتمال أن الكثير من الآشوريين أو الطبقة الحاكمة منهم على الأقل من أصل أكدي، بأن بلاد آشور لم ينشأ فيها نظام دول المدن في عصورها القديمة على غرار ما ظهر في بلاد بابل في عصر فجر السلالات وكان النظام الأنموذجي المحبب لدى سكان السهل الرسوبي في جنوبي العراق، فانصبت النقمة على ملوك السلالة الآكدية لأنهم حطموا نظام دول المدن وأقاموا بدلاً منه نظام مملكة القطر الموحدة، وكانت بلاد آشور وملوكها الذين جاؤوا من بعد الآكديين على العكس من ذلك بحيث إن الملوك الآكديين اعتبرهم الآشوريون وكأنهم ملوكهم القدماء، كما أن فكرة المملكة الموحدة الواسعة والأمبراطورية وما يتعلق بذلك من ألقاب سياسية أكدية قد تمسك بها أكثر من واحد من الملوك الآشوريين. فمن الألقاب الآكدية التي احتفظ بها ملوك بلاد آشور «ملك جميع الأقطار» (Shar Kishat Matati) و «ملك العالم» (Shar Kishshati)، وكان أقدم من استعمله من الملوك الآشوريين الملك «شمسي ـ أدد» الأول، وهي ألقاب لم يستعملها البابليون كثيراً، باستثناء الملوك الكشيين الذين أخذوها من الآشوريين على ما يرجح.

انتهى العهد الآكدي كما مر بنا بهجمات جموع الكوتيين من المناطق الجبلية الشرقية. والمرجح كثيراً أن الكوتيين دمروا بلاد آشور ولم تقل فداحة التخريب عما وقع في بلاد أكد، كما تشير إلى ذلك الأدلة الآثارية. ففي المدن التي جرت فيها التحريات الأثرية في بلاد آشور مثل معبد الآلهة عشتار في آشور ومعبد الآلهة نفسها في نينوى وجدت آثار تدمير واسع في نهاية الطبقات الممثلة للدور الآكدي. والمرجح أن جموع الكوتيين اجتاحت أولاً بلاد آشور في طريق اندفاعها إلى الجنوب، حيث مركز الدولة الآكدية نفسها. على أننا لا نعرف كيف آلت إليه أحوال البلاد الآشورية من بعد ترك الكوتيين لها، هل استقلت وقام فيها حكم محلي وطني أو أنها دخلت تحت سلطة ملوك الكوتيين.

أما في عهد سلالة «أور» الثالثة الذي أعقب فترة حكم الكوتيين فإن

الأدلة المستقاة من كتابات ملوك هذه السلالة تشير إلى دخول بلاد آشور ومعظم المناطق الشرقية والشمالية الشرقية ضمن الأقاليم التابعة إلى أمبراطورية «أور»، وقد جاءتنا أسماء بعض الحكام والولاة التابعين لملوك أور السومريين، مثل الحاكم المسمى «زريقم»، حيث وجدت كتابة في معبد الآلهة «عشتار» في مدينة «آشور» تذكر اسم هذا الحاكم وخبر بنائه معبداً لهذه الآلهة الملقبة «سيدة القصر» (Belat Ekallim) من أجل حياة سيده «أمار - سين»، ملك أور[1].

(1) عن «زاريقم» انظر: Hallo, in *JNES*, (1956), 220

العصر الآشوري القديم

العصر الآشوري القديم، مثل مصطلح العصر البابلي القديم الذي تكلمنا عنه فيما سبق، يطلق على الفترة الزمنية المبتدئة من نهاية سلالة «أور» الثالثة، وينتهي بالنسبة إلى التاريخ الآشوري في حدود منتصف الألف الثاني ق.م، حيث يبتدئ ما يسمى بالعصر الآشوري الوسيط منذ 1500ق.م. وقد رأينا في كلامنا على العصر البابلي القديم أن أهم ما حدث فيه وميزه من الناحية التاريخية تدفق هجرات الأقوام السامية الغربية، أي الأقوام الأمورية إلى بلاد ما بين النهرين، وقد أصاب بلاد آشور نصيب من تلك الهجرات وإن لم يكن بالقدر الذي أصاب بلاد بابل. واستتبع عن تلك الهجرات النتائج نفسها بالنسبة إلى التركيب السكاني في الأجزاء الوسطى والشمالية من وادي الرافدين، من حيث ازدياد نسبة الأقوام السامية فيها بإضافة جماعات جديدة وكثيرة منهم إلى السكان القدامى من الساميين الذين كانوا قد جاؤوا في هجرات أقدم. واستطاع بعض الجماعات من هؤلاء الساميين الجدد في بلاد آشور أن يقيم كياناً سياسياً كما حدث في بلاد بابل. وبعبارة أخرى اغتنمت بلاد آشور فرصة زوال سلطة «أور» على أثر تحطيم أمبراطوريتها من جانب الأموريين والعيلاميين فاستقلت وقام فيها ملوك وحكام، ولكن لا يعلم ترتيب تسلسلهم، وقد حكموا على هيئة مجموعات في فترات زمنية كما جاء ترتيبهم في أثبات الملوك الآشورية.

ولعل أقدم مجموعة من أولئك الحكام الذين استقلوا في بلاد آشور في الشطر الأول من هذا العصر، أي من بعد نهاية سلالة أور الثالثة يتصدرها اسم ورد بهيئة «سوليلي» (Sulili) ابن «أمينو» (Amino)، ثم يأتي من بعده «كيكيا»

(Kikkia) الذي ركز في أثبات الملوك الآشورية وفي كتابات الملكين الآشوريين «آشور ـ ريم ـ نشيشو» و «شيلمنصر» الثالث على أنه هو الذي شيد أسوار مدينة آشور. ثم يليه اسم الملك «بوزر ـ آشور» الأول الذي يرجح أنه أسس سلالة حاكمة مهمة، وقد ذكره شيلمنصر السالف الذكر بأنه كان من بين الملوك القدامى الذين أقاموا أسوار المدينة. ومن ملوك هذه الفترة الذين خلفوا «بوزر ـ آشور» الملك المسمى «شالم ـ آخوم»، ويليه على ما يرجح الملك «ايلوشوما» الذي حكم في حدود 1962 ـ 1942ق.م، وأعقبه في الحكم ابنه المسمى «ايريشم» الأول (الحارث) (1941 ـ 1902؟) وجاءت إلينا من هذين الملكين أخبار مدونة عن نشاطهما البنائي في مدينة آشور، منها تشييد معابد الآلهة «آشور» و «أدد» وعشتار[1]. وبلغ «ايلوشوما» مبلغاً من القوة استطاع فيه أن يدخل في معمعة النزاع ما بين دول المدن في بلاد بابل، فقد غزاها في عهد ملك سلالة «أيسن» المسمى «اشمي ـ دگان» (1953 ـ 1935)[2]. والمرجح أنه في عهد الملكين الآشوريين «ايلوشوما» و «ايريشم» ازدهرت المستعمرة التجارية الآشورية في بلاد الأناضول، وسنفرد وصفاً خاصاً بها بعد قليل. وجاء من بعدهما في حكم بلاد آشور الملك المسمى «ايكونم» ثم سرجون الأول الذي بلغت في عهده الدولة الآشورية اتساعاً ملحوظاً. ويعقب عهد هذا الملك فترة غامضة في تاريخ بلاد آشور في هذا العهد، وعانت الضعف والارتباك حتى أن إحدى الدويلات في بلاد بابل، وهي مملكة اشنونا، فرضت سلطتها عليها. وتذكر أثبات الملوك الآشورية من بين الملوك الذين حكموا في أثنائها الملك «نرام ـ سين»، الذي يرجح أن يكون «نرام ـ سين» مملكة اشنونا نفسه. ثم قامت سلالة حاكمة أخرى يرجح كثيراً أن بعض الأمراء من الساميين الغربيين هم الذين أسسوها، وظهر منها الملك الشهير «شمسي ـ أدد» الأول (1814 ـ 1782ق.م)، الذي يبدو أنه اغتصب السلطة من أخيه. وقد رأينا من كلامنا على دولة ماري في العهد البابلي القديم كيف استطاع هذا الملك القوي

---

(1) انظر: *ARAB*, I, 25 - 38.

(2) انظر: Edzard, *ZZB*, 90 ff.

أن يقيم له مملكة واسعة من بعد توطيد سلطته في بلاد آشور، حيث اتسعت إلى أمبراطورية شملت منطقة الفرات الأوسط ومركزها مدينة «ماري» الشهيرة، كما ضمت أجزاء مهمة من بلاد الشام، وقسمها، كما مر بنا، بين ولديه «اشمي ـ دگان» و «يسمح أدد». وكان يعاصر حمورابي الشهير. وأعقبه في الحكم ابنه «اشمي ـ دگان» (1780 ـ 1741) الذي حكم فترة طويلة من الزمن. وانتهى استقلال بلاد آشور من بعد حكمه إذ استطاع الملك البابلي «حمورابي» أن يضمها إلى أمبراطوريته الواسعة وظلت تحت السيطرة البابلية إلى أن استقلت في الفترة التي تلت عهد حمورابي، وسنواصل إيجاز تاريخ بلاد آشور في العصر الآشوري الوسيط من بعد إيجاز تاريخ المستوطنات الآشورية في بلاد الأناضول.

المستوطنات الآشورية في بلاد الأناضول:

بدأت الصلات، ولا سيما الصلات التجارية والحضارية، ما بين حضارة وادي الرافدين وبين بلاد الأناضول منذ عصور ما قبل التاريخ وازدادت اتساعاً في عصر دول المدن أو عصر فجر السلالات للمتاجرة بالمواد المهمة مثل الصوف والفضة وغيرها. وقد سبق أن مر بنا في أثناء كلامنا على الدولة الآكدية ذكر الأخبار التي تشير إلى اتصالات أوسع تطورت على ما يرجح إلى إرسال الحملات الحربية من جانب الملك سرجون وخلفائه. وقد نوَّهنا بالقصة الطريفة المتعلقة بالملك سرجون نفسه، المعنونة «ملك الحرب» أو «ملك النزال»، والتي تروي كيف أن هذا الملك أرسل حملة حربية إلى تلك البلاد لنجدة جالية من التجار الآكديين استغاثت به لرفع الاضطهاد الذي كانت تلاقيه من أهل البلاد. وتشير القصص المماثلة والأخبار التاريخية الأخرى إلى تسلط الملك «نرام ـ سين»، حفيد سرجون على بلاد الأناضول. والجدير بالذكر عن هذه القصص أن نسخاً منها اكتشفت في العاصمة الحثية «حاتوشا» أو «حاتوشاش» (بوغاز كوي) من عهد الملك الحثي «حاتوشيليش»[1].

---

(1) Guternock, in *JNES*, (1964), 1 ff. كذلك CAH., I, Part 2, (1971), 707.

واتسعت الصلات ما بين آشور وبين بلاد الأناضول في العصر الآشوري القديم، موضوع كلامنا. فقد قامت فيها جملة مستوطنات أو مستعمرات تجارية من التجار الآشوريين، في الأجزاء الشرقية من تلك البلاد التي دعيت في العصر الهلنستي (القرن الثالث ق.م) باسم «كبدوكية»، ولا يعلم بوجه التأكيد متى أسس الآشوريون تلك الجاليات التجارية، بيد أن أقدم أخبار مدونة وصلت إلينا عنها ترجع في تاريخها إلى زمن الملك الآشوري «ايريشم» الأول (1941 ـ 1902)[1] الذي مر ذكره. وقد اشتهر من هذه المراكز المدينة التي ورد اسمها في النصوص المسمارية المكتشفة في «كول تبة» بهيئة «كانيش»، وقد وجدت في هذا الموضع ألوف عديدة من ألواح الطين المسمارية[2]. كما اكتشفت مراكز أخرى لأولئك التجار الآشوريين مثل الموضع الأثري المسمى «على شار» وفي موضع العاصمة القديمة «حاتوشا» أو «حاتوشاش»، السالفة الذكر. ويؤخذ من الوثائق المكتشفة في هذه الأماكن الأثرية أن تلك المستوطنات الآشورية مرت بطورين في تاريخها: (1) الطور الأول القديم، ولعله بدأ منذ مطلع العصر الآشوري القديم، ويمكن تحديده من زمن الملك الآشوري «ايريشم» إلى حدود 1800ق.م، أي قبيل مجيء الملك «شمسي ـ أدد» الأول إلى العرش الآشوري، ودام زهاء القرن الواحد. (2) أما الطور الثاني فيبدأ من حكم ذلك الملك، أي «شمسي ـ أدد» وحكم

---

(1) وهناك تقدير آخر لحكم هذا الملك في 1906 ـ 1867ق.م.

(2) يقع الموضع الأثري المسمى «كول تبة» كانيش القديمة بالقرب من مدينة قيصرية (عند قرية قرة هيوك). وقد تحرت في الموضع بعثات أثرية مشتركة من الأتراك والجيكيين، وكشفت عن مساكن أولئك الآشوريين، ووجدت مجموعات كثيرة من الوثائق التجارية والرسائل المتبادلة. حول نتائج هذه التنقيبات انظر:

1 - S. Lloyd, *Early Anatolia*.

2 - *A. Goetze, Klein Asien* (1957).

3 - P. Garelli, Les Assyriens en Capadoce, (1963).

4 - *Inscriptions Cueiformes du Kul Tepe:* Hrozny, vol. I, (1952). Matoush, vol. II, (1963).

5 - H. Lewy, in *Orientalia*, 33, (1964). 181 ff.

ولديه «يسمح ـ أدد» و «اشمي ـ دگان»، وينتهي باستعادة استقلال مدينة ماري على يد ملكها الوطني «زمري ـ لم». على أن نشاط هذه المستعمرات على ما يبدو استمر من بعد ذلك، ولكن بأشكال مختلفة، حيث زال النفوذ السياسي الآشوري وحل محله ظهور المملكة الحثية القديمة، فأصبحت تلك المستعمرات تحت سلطة هذه المملكة.

وكانت «كانيش» (كول تبه)، مركز السلطة الآشورية في شرقي الأناضول، على هيئة دولة مدينة تتبعها جملة مراكز أخرى في الأنحاء المختلفة من الأناضول. وكانت بلاد الأناضول نفسها في هذه الفترة مؤلفة من عدة دويلات مدن يحكمها أمراء من أهل البلاد، كانوا على ما يبدو على علاقات سلمية مع المستعمرات الآشورية، ولا سيما عندما لا يعرقل أولئك الأمراء نشاط التجار الآشوريين. وقد جاءتنا نماذج من المعاهدات التي كانت تبرم ما بين السلطات الآشورية وبين تلك الدويلات الوطنية، وفيها أخبار المصاهرات والمساعدات العسكرية ما بين الطرفين. وصادف زمن قيام هذه المستوطنات الآشورية مجيء هجرات من الأقوام «الهندية ـ الأوروبية» إلى الأناضول، وقد أطلق عليهم اسم الحثيين. أما الأقوام الأصلية قبل مجيء هذه الهجرات والذين يطلق عليهم اسم «خاتيين» أو «حاتيين» فليس من الأصل الهندي ـ الأوروبي. واستطاع الباحثون أن يقسموا الحثيين، أي الأقوام «الهندية ـ الأوروبية» في الأناضول بحسب قدم هجراتهم ولغاتهم إلى ثلاث طبقات[1] أقدمها القوم الذين سموا «لوويون» (Luwian) الذين يرجح أنهم كانوا معاصرين

---

(1) اللوويون، كما ذكرنا، أقدم الأقوام الهندية الأوروبية في آسية الصغرى، وهم الذين حطموا حضارة العصر البرونزي التي كان عليها الأقوام الأصليون، أي «الخاتيون»، ثم جاء من بعدهم «الباليون» (Palaic) وأعقبهم «النيسيون» (Nesite). واستوطن اللوويون في الجهات الغربية من كيليكية، في الأجزاء الساحلية، والباليون أو الفاليون في مرتفعات هذا الإقليم، واستطاع «النيسيون» بعد عدة قرون أن يغزوا أواسط الأناضول، شرقي أنقرة، وهو القطر الذي سماه أهله الأصليون «خاتي»، فاستعملوا هذه التسمية وعرفوا باسم الحثيين.

إلى المستوطنات الآشورية، كما يستدل من أسماء الأعلام الواردة في الألواح المسمارية التي جاءت إلينا من التجار الآشوريين[1].

ويستدل من الوثائق التي نوّهنا بها أن عائلات وأسراً آشورية كثيرة أسست لها مراكز تجارية في الأناضول وكانت من الطبقات المثرية الأرستقراطية، والغالب أن عميد الأسرة كان يقيم في بلاد «آشور» ويدير شؤون أعماله التجارية في كبدوكية وغيرها من الأقاليم وكلاؤهم من أفراد أسرته حيث المراسلات كانت مستمرة ما بينه وبين هؤلاء الوكلاء، وقد خلف لنا أولئك التجار مجموعات مهمة من تلك الرسائل. وكثيراً ما كان يتم التزواج ما بين التجار الآشوريين وبين السكان الوطنيين. وشيد الآشوريون عدة معابد لعبادة آلهتهم القومية على رأسها كبير الآلهة «آشور». أما لغتهم المدونة فتغلب عليها مسحة القدم، بحيث إنها كانت أقرب اللهجات إلى اللغة الآكدية القديمة.

سمى التجار الآشوريون الهيئة التي كانت تحكمهم في آسية الصغرى بالمصطلح الآكدي «كاروم» (Karum) الذي يعني بالدرجة الأولى مركزاً تجارياً أو ميناءً. وظهرت عدة مراكز من هذا النوع. وقد خصص لحكومة «الكاروم» بناء خاص يقع في الغالب بالقرب من قصر الحاكم. وكانت وظائف «الكاروم» متنوعة متعددة، فكان بمثابة مجمع التجار أو ما يصطلح عليه الآن «الغرفة التجارية»، كما كان يقوم بوظيفة المحكمة ومجلس الشورى. وكان يترأسه رئيس يعاد انتخابه كل عام، كما وكان يجمع الضرائب والمكوس والكمارك من القوافل التجارية الداخلة وكان يتبعه موظفون خاصون لمراقبة طرق القوافل ومصادرة أموال التجار المهربين. ولهذا الغرض كان للكاروم مخازن للبضائع التجارية. وبالإضافة إلى هذه الأعمال المختلفة كان «الكاروم» يقوم كذلك بوظيفة المصرف للمداينات والقروض والشؤون المصرفية الأخرى.

ونشطت القوافل التجارية التي كانت تنقل البضائع وكانت الحمير

---

(1) نفس المصدر السابق.

والعربات وسائل النقل الرئيسية، فكانت دائبة التنقل ما بين بلاد آشور وبين تلك المراكز التجارية. وكانت الفضة والذهب والنحاس والأحجار الثمينة في مقدمة قائمة السلع المستوردة من الأناضول إلى بلاد آشور التي كانت تصدر المنسوجات الصوفية والقصدير أو الرصاص. أما القصدير[1] فالمرجح أن الآشوريين كانوا يجلبونه من آذربيجان، وكان الطلب عليه كثيراً في بلاد الأناضول لخلطه بالنحاس في صناعة البرونز.

---

(1) لم يعين بالضبط معنى الكلمة الآكدية «انكم» (Annakum) (المضاهية للكلمة العربية أنك)، فقد عدها جماعة من الباحثين أنها القصدير (Tin) واعتبره البعض الآخر معدن الرصاص. ولعل تعيينه بالرصاص أقرب إلى الصحة بالنظر إلى وجود كميات كبيرة من خامات الرصاص في وادي الزاب الأعلى، في منطقة العاصمة القديمة (آشور). ووجدت أدوات كثيرة ومتنوعة مصنوعة من الرصاص في آشور و «كول تبة» (موضع المستعمرة التجارية الآشورية كانيش)، في حين أنه لم يعثر على بقايا مصنوعة من القصدير. وأن الكميات الكبيرة من الفضة مما استعمله الآشوريون تشير إلى أن أهم استعمال للرصاص عندهم كان لاستخراج الفضة حيث توجد خامات من الرصاص تحتوي على نسب من الفضة يمكن استخلاصها بالطريقة المعروفة باسم (Cuppelation) (وفحواها أكسدة الرصاص الذي يتأكسد أسرع من الفضة). وإلى هذا فإن الرصاص كان يستعمل أيضاً في استخراج الفضة من خامات النحاس. حول هذا الموضوع راجع:

CAH,I,2, (1971), 725.

Laessoe, *The People of Ancient Assyria* (1963).

العصر الآشوري الوسيط

يحدد زمن ما سميناه بالعصر الآشوري الوسيط من نهاية العصر الآشوري القديم الذي أوجزنا الكلام عنه، أي من حدود القرن الخامس عشر ق.م وينتهي في أواخر القرن العاشر ق.م، حيث يبدأ العصر الآشوري الحديث بحكم الملك «أدد ـ نيراري» الثاني (911 ـ 891ق.م)، فيكون العصر الآشوري الوسيط قد دام زهاء أربعة قرون، وكان يعاصر العهد البابلي الوسيط الذي شغل معظمه بحكم السلالة الكشية أو سلالة بابل الثالثة كما بينا.

لقد سبق أن ذكرنا أن بلاد آشور استقلت من بعد سيطرة حمورابي عليها وقام فيها عدة ملوك أو حكام في عهد خلفاء حمورابي الذين لم يستطيعوا على ما يبدو الاحتفاظ بالسيطرة البابلية، وقد وردت أسماؤهم في أثبات الملوك الآشورية ولكن لا يعرف تسلسل حكمهم على وجه التأكيد، كما لم يصل إلينا من أخبارهم أشياء يعتد بها، نذكر منهم الملك المدعو «بوزر ـ سين» و «آشور ـ دكل»، ثم خمسة ملوك آخرين منهم الملك «اداسي» الذي يرجح أنه حكم في حدود القرن السابع عشر ق.م، وأنه كان مؤسس سلالة حاكمة في مطلع هذا العصر. ومنهم أيضاً الملك المسمى «ايريشم» الثالث الذي يرجح أنه حكم في القرن السادس عشر ق.م، وخلفه في الحكم على ما يرجح من الملوك المذكورين في أثبات الملوك الآشورية «شمسي ـ أدد» الثاني، و «اشمى ـ دگان» الثاني و «شمسي ـ أدد» الثالث و «آشور ـ نيراري» الأول أو «بوزر ـ آشور» الثالث الوارد اسمه في التاريخ «التعاصري» (Synchronistic history)[1].

---

(1) خلف بعض هؤلاء الملوك نصوصاً قليلة متعلقة بالبناء، انظر: *ARAB*, I, 57 - 59.

وقد انتهت هذه الفترة من تاريخ الآشوريين الوسيط بنكبة فادحة حلت في بلاد آشور، إذ استطاعت دولة «ميتاني» (أو خانيكلبات في ما بين النهرين العليا) فرض السيطرة عليها، في القرن الخامس عشر ق.م، وظلت تحت السيطرة الميتانية على الرغم من قيام عدة ملوك أو حكام فيها، فقد كانوا ضعفاء وخاضعين إلى نفوذ تلك الدولة. ويمكن تخصيص الاثني عشر ملكاً ابتداء من الملك «بوزر ـ آشور» الثالث إلى قيام الملك الشهير «آشور ـ اوبالط» الأول بأنهم حكموا في تلك الفترة المظلمة من تاريخ بلاد آشور التي يمكن وضع نهايتها في العام 1365ق.م، وهو العام الذي جاء فيه إلى العرش الآشوري الملك القوي «آشور ـ اوبالط» الأول السالف الذكر.

ولكي نقف على سير الأحداث في بلاد آشور في تلك الفترة فلا معدى لنا من أن نكرر بعض ما ذكرناه عن الدول الكبرى التي قامت في الشرق الأدنى في حدود ذلك الزمن. ففي مصر قامت من بعد طرد الهكسوس منها في حدود 1580ق.م مملكة قوية اتسعت إلى أمبراطورية ضمت إليها بلاد الشام حتى وادي الفرات الأعلى، ودامت زهاء خمسة قرون (1580 ـ 1085ق.م)، وقد سبق أن نوَّهنا بالعلاقات الدولية في زمن هذه الأمبراطورية في أثناء كلامنا على حكم الكشيين في بلاد بابل، وذكرنا تلك الوثائق الشهيرة التي عرفت باسم رسائل «العمارنة» وعصر العمارنة (نسبة إلى الموضع المسمى العمارنة في مصر الوسطى، حيث عاصمة الفرعون المصري امنوفس الرابع المعروف باسم أخناتون أيضاً). وظهرت في حدود هذا الزمن الأمبراطورية الحثية في الأناضول التي نازعت فراعنة مصر على بلاد الشام وجهات الفرات الأعلى. فنشبت من جراء ذلك حروب طويلة ما بين الطرفين دامت زهاء القرن الواحد، ولما لم تحرز إحداهما على الأخرى نصراً حاسماً لجأتا إلى مبدأ التعايش السلمي، وأبرمت معاهدة بين الفرعون «رعمسيس» الثاني (1290 ـ 1224 ق.م) وبين الملك الحثي «حاتوسيليس» الثالث تضمنت إحلال السلام والصداقة ما بين الدولتين. وقد دونت نسخ من هذه المعاهدة باللغة البابلية والفرعونية القديمة واللغة الحثية[1].

(1) انظر ترجمة هذه المعاهدة في: *ANET*, 199 ff.

لقد حالت هاتان الدولتان المعظمتان دون توسع المملكة الآشورية فانكمشت داخل حدودها وهي تترقب الأحداث والفرص المواتية وتدرأ عنها الأخطار الخارجية، وكان ينازعها، كما مر بنا، الدولة الكشية في بلاد بابل، ولم تخل العلاقات ما بين الطرفين من منازعات وحروب ومهادنة وإبرام المعاهدات أيضاً. وتعرض الآشوريون إلى خطر آخر نشأ من قيام دولة «ميتاني» التي سبق ذكرها، وكانت غالبية سكانها من الأقوام الحورية (الحوريين) تتزعمهم طبقات محاربة أرستقراطية من الآريين، وكانت عاصمتها المدينة المسماة «وشوكنى» (Washukkanni)[1]، وعرفت المملكة أيضاً ولا سيما في المصادر الآشورية باسم «خانيگلبات»، وقد بلغت من القوة درجة بحيث إنها بسطت نفوذها على بلاد آشور فترة دامت زهاء قرن ونصف القرن كما ذكرنا ذلك من قبل وكان الملوك الآشوريون الذين حكموا في أثنائها يدفعون الجزية إليها. ونشأت بين دولة «ميتاني» وبين فراعنة مصر في عهد الفرعون «طوطمس» الرابع (1413 ـ 1405ق.م) علاقات تحالف وصداقة استمرت إلى زمن الفرعون «امنوفس» الثالث (1405 ـ 1367ق.م) الذي تزوج من ابنة الملك الميتاني «شوتارنا» (راجع الرسالة رقم 29 من رسائل تل العمارنة). ولكن اضطربت الأوضاع الداخلية في مملكة ميتاني في عهد الفرعون «أمنوفس» الرابع (1367 ـ 1350ق.م)، وهو المعروف أيضاً باسم أخناتون، صاحب ثورة التوحيد الدينية في مصر، حيث نشب الصراع ما بين أفراد العائلة المالكة من الميتانيين، وتدخل الحثيون في شؤونها. وصادف تردي أوضاع الميتانيين أن ظهر في بلاد آشور ملك قوي هو «آشور اوبالط» الأول (1365 ـ 1330ق.م) الذي لم يقتصر دهاؤه على تخليص بلاده من

(1) كان يظن أن موقع العاصمة «وشوكني» في التلول المسماة «فخرية» الآن، على الخابور بالقرب من رأس العين. ولكن التحريات الأثرية الحديثة (الألمانية في عام 1940 والأمريكية في 1955 ـ 1956) لم تؤيد هذا التعيين. حول المعاهدة المبرمة ما بين الحثيين والمصريين انظر:
Rowton, «The Boundary Treaty Between Ramses II and Hattushilish III». in *JCS*, X111, 1 ff.

النفوذ الميتاني بل إنه أسهم في إسقاط تلك الدويلة وإزالتها من الوجود، منتهزاً الأوضاع الدولية وعلاقاته المزدوجة مع المملكتين المتعاديتين، مصر وبلاد الحثيين، يضاف إلى ذلك ضعف الدولة المصرية في عهد الفرعون «أخناتون»، السالف الذكر الذي سببت ثورته الدينية إضعاف المملكة في الداخل والخارج. واستطاع آشور اوبالط أيضاً أن يتدخل في شؤون بلاد بابل عن طريق المصاهرة، على ما بينا ذلك في كلامنا عن الكشيين. ويمكن القول إن هذا الملك الآشوري القوي وضع أسس الدولة الآشورية القوية، وحدد سياستها العامة إزاء الأخطار الخارجية التي ظلت تهددها في جميع عهودها، والتي يمكن حصرها في ثلاث جبهات: (1) الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية حيث الأقوام الجبلية الشديدة المراس مثل الكوتيين واللولوبو وغيرهم. (2) الجبهة الغربية والشمالية الغربية حيث الأقوام السامية القاطنة في بوادي ما بين النهرين، وكانت هذه جبهة حيوية للآشوريين، لأنها كانت واسطة الاتصال البري بموانئ البحر المتوسط. وسنرى كيف تفاقمت الأخطار على الآشوريين من هذه الجبهة إبان اندفاع القبائل الآرامية وتهديدها للوجود الآشوري نفسه. (3) وإلى الجنوب كانت بلاد بابل التي ما انفكت تنازع الآشوريين على توسعهم صوب الجنوب، لما في ذلك من خيرات وموارد واتصال بالخارج عن طريق الخليج، ويجاور بلاد بابل العيلاميون في الأجزاء الجنوبية من إيران (خوزستان) وكانوا مصدر خطر جسيم على البابليين والآشوريين على السواء.

وظل الآشوريون يقظين إزاء تلك الأخطار المهددة لكيانهم، وكانوا يكتسبون الخبرات العسكرية من تعرضهم إلى تلك التحديات الخارجية والداخلية، بحيث إنهم خرجوا من ذلك الامتحان شعباً محارباً قوياً، واستغرقت عملية التحول هذه جميع العصر الآشوري الوسيط، موضوع كلامنا، ولعله يصح مقارنة هذا العصر الآشوري الوسيط بأحوال الدولة الرومانية في عصرها الجمهوري، من حيث انشغال الرومان بأمر المحافظة على كيانهم إزاء الأخطار الناجمة من الأقوام المجاورة، واكتسابهم الحنكة والقوة إزاء مثل تلك التحديات الشديدة.

خلفاء آشور اوبالط:

خلف هذا العاهل القوي عدد من الملوك استمرت الدولة الآشورية في عهود معظمهم في النمو والتعاظم، وكان بعضهم من طراز «آشور ـ اوبالط»، كما أنهم نهجوا على نهجه من حيث توطيد الأسس التي قامت عليها أولى أمبراطورية آشورية، نخص بالذكر منهم الملك الرابع المسمى «شيلمنصر» الأول (1274 ـ 1245ق.م) الذي كان من أعاظم ملوك العصر الآشوري الوسيط، وقد اشتهر بفتوحه الخارجية وتقويته كيان الدولة، وخلف له شهرة واسعة لدى الملوك الذين جاؤوا من بعده، كما وصلت إلينا منه نصوص تاريخية عن حملاته الحربية إلى الجهات الشمالية والشمالية الشرقية، ولا سيما على الكوتيين. ونقرأ في هذه الأخبار إرسال حملة عسكرية إلى بلاد أرمينية (اورارطو) لأول مرة. كما أنه غزا موطن الحوريين، وجهات ما بين النهرين العليا (خانيكلبات) وورد في أخبار حملته هذه ذكر إحدى القبائل الآرامية الكبيرة باسم «احلاموا» أو «اخلامو» (ولعل معناها الأحلاف)[1]، ومن أعمال شيلمنصر المهمة التي ذكرتها أخبار الملوك الذين أعقبوه تأسيسه عاصمة أخرى جديدة للمملكة خصصها لتكون بالدرجة الأولى عاصمة عسكرية. وقد سماها «كالحو» (أو كالخو وهي كالح المذكورة في التوراة)، وتعرف بقاياها الآن باسم «نمرود» على بعد نحو (22) ميلاً جنوب الموصل. وقد أعاد بناءها ووسعها الملك الشهير «اشور ناصربال» الثاني (883 ـ 859ق.م)، وسنتطرق إلى ذلك فيما بعد.

وخلف شيلمنصر السالف الذكر ملك كفوء هو ابنه المسمى «توكلتي ـ ننورتا» الأول (1244 ـ 1208ق.م)، وكان ملكاً قوياً استمر في عهده تعاظم الدولة الآشورية، واشتهر من بين أعماله الحربية في غزوه لبلاد بابل في عهد ملكها الكشي «كاشتلياش» الرابع، وضمها إلى مملكته طوال سبع سنوات حكم

---

(1) انظر المصدر المرموز له بـ ARAB, 1, 116.

في أثنائها ثلاثة ملوك تابعين. وقد خلد «توكلتي ـ ننورتا» هذا الحدث بتأسيسه مدينة جديدة قرب العاصمة آشور سماها باسمه «كار ـ توكلتي ـ ننورتا» أي مدينة أو حصن «توكلتي ـ ننورتا»[1].

انتهى حكم الملك «توكلتي ـ ننورتا» باغتياله وهو محاصر في قصره إثر انقلاب دبره ابنه المسمى «آشور ـ نادن ـ أبلي» مع بعض الأمراء والقواد. وأعقب ذلك فترة ضعف حلت في المملكة الآشورية انكمشت في أثنائها وتقلصت حدودها، وقد دامت زهاء القرن الواحد (من حدود 1208 إلى 1115ق.م) وحكم فيها تسعة ملوك ضعفاء إلى بداية حكم «تجلاثبليزر» الأول (1115 ـ 1077ق.م).

ثجلاثبليزر الأول:

حصل بعض التحسن والانتعاش في أحوال البلاد الآشورية في عهد آخر ملوك الفترة المظلمة التي نوَّهنا بها، وهو الملك «آشور ـ ريش ـ ايشى» أبو «ثجلاثبليزر» الأول، الذي اضطلع حالما تبوأ عرش المملكة بأعمال جسيمة، وفي مقدمتها درء الأخطار المحدقة بها من الجبهات الثلاث التي نوَّهنا بها. فمن الأنحاء الشمالية زحفت من آسية الصغرى جموع قوم الـ «مشكى» (الذين يرجح بأنهم الأفريجيون الوارد ذكرهم في المصادر الكلاسيكية)، ومن الغرب بدأت القبائل الآرامية المتمركزة على طوال الفرات الأعلى في عبور هذا النهر والاتجاه إلى تخوم بلاد آشور نفسها. وفي الجبهة الجنوبية انتهزت بلاد بابل في عهد سلالتها الرابعة أحوال الضعف في بلاد آشور فمدت حدودها شمالاً على حساب الدولة الآشورية إلى قرب الزاب الأسفل. وعلى هذا تتجلى مقدرة الملك الجديد «ثجلاثبليزر» الأول في مواجهته تلك الأخطار الجسيمة

---

(1) تسمى بقاياها الآن تلول (العقر) شمال آشور بنحو ميل واحد، على الضفة اليسرى من دجلة، وقد نقبت فيها البعثة الأثرية الألمانية التي اشتغلت في آشور:

Andrae, *Das Wiedererstandene Assur.*

والتغلب عليها، ولم يكتف بذلك بل إنه عكس الآية فانتقل من موقف الدفاع إلى الهجوم، فدحر جموع الـ «مشكى» وأوقع فيهم المذابح، وهاجمهم في عقر دارهم وعرج من بعد ذلك على أرمينية ونصب له تمثالاً في منطقة بحيرة «وان»، وأوغل أحد جيوشه في جبال «زاجروس» إلى الإقليم الذي ورد ذكره باسم «مصري». كما أن جيوشه استطاعت أن ترد القبائل الآرامية إلى ما وراء الفرات وطاردتهم إلى معاقلهم في بوادي الشام ولا سيما في منطقة تدمر، وقد ورد اسم هذا الموضع في كتاباته[1]. والجدير بالذكر عن معاركه مع الآراميين أن الاسم «أرامو»، أي آراميين، ورد لأول مرة في النصوص المسمارية إلى جانب اسم القبائل الأخرى مثل «احلامو» أو «اخلامو»، وأن تجلاثبليزر وجه على الآراميين ما لا يقل عن ثمانٍ وعشرين حملة[2]. والمرجح أن هذا الملك غزا أيضاً سورية ووصل إلى الساحل الفينيقي، حيث يخبرنا أنه أخذ الأتاوة من المدن الفينيقية مثل «أرواد» وجبيل وصيدا[3] ووجه ضربة شديدة أيضاً على بلاد بابل في عهد ملك سلالتها الرابعة المسمى «مردخ نادن آخي» الذي خلف نبوخذ نصر الأول[4]. وأغرم هذا الملك الفاتح بصيد الحيوانات الوحشية، وهي الرياضة التي كانت محببة إلى الملوك الآشوريين. فقد جاء في أخباره المدونة أنه قتل أربعة ثيران وحشية في بلاد «ميتاني» (شمالي ما بين النهرين)، وعشرة أفيلة ضخمة في بلاد «حران» ومنطقة الخابور وقتل أيضاً (120) أسداً وهو راجل و (800) أسد وهو في عربته، واصطاد كذلك أفراس البحر في مياه البحر المتوسط بالقرب من «أرواد»[5].

إن تلك الانتصارات والأمجاد التي حققها «تجلاثبليزر» لبلاد آشور لم

---

(1) انظر: *ANET*, 257 ff. *ARAB*, I, 287.
(2) انظر: *ANET*, 257 ff. *ARAB*, I, 287.
(3) انظر: *ANET*, 257 ff. *ARAB*, I, 287.
(4) انظر: *ARAB*, I, 309.
(5) *ARAB*, I, 73.

تدم من بعده أمداً طويلاً، فإنه بعد أن اغتيل انتهت فترة حكمه المزدهرة، وأعقبتها فترة ضعف أخرى في حياة الدولة الآشورية، وكانت حقبة مظلمة سواء كان ذلك من ناحية قلة مصادرنا عنها أم من ناحية تعرض الآشوريين إلى أشد الأخطار التي جابهتهم في جميع أدوار تاريخهم، ونعني بذلك اشتداد اندفاع القبائل الآرامية وضغطها على الآشوريين، بحيث هددتهم في عقر دارهم. وشملت الأخطار أيضاً بلاد بابل حيث اتجهت إليها جملة قبائل من الآراميين، كما ذكرنا في كلامنا عن السلالات البابلية الأخيرة.

دامت هذه الفترة المظلمة زهاء (166) عاماً، منذ موت ثجلاثبليزر الأول (عام 1077) إلى بداية حكم الملك «أدد ـ نيراري» الثاني (911ق.م)، الذي جعلنا عهده بداية ما سميناه بالعصر الآشوري الحديث. وبما أنه ستتكرر الإشارات إلى الآراميين وإلى الدويلات الآرامية التي أقاموها في بلاد الشام في أثناء تتبعنا لسير الأحداث في بلاد آشور فيستحسن أن نقدم إلمامة عن الآراميين ودويلاتهم قبل أن نواصل إيجازنا للتاريخ الآشوري في العصر الآشوري الحديث.

الآراميون

الآراميون[1] من الأقوام السامية ولا سيما الساميين الغربيين، حيث تؤلف لغتهم مع اللغة الكنعانية (الأمورية) والعبرانية كتلة اللغات السامية الغربية، كما مر بنا في كلامنا على الأقوام القديمة في حضارة وادي الرافدين. ويأتي الآراميون من بعد الأموريين أو ربما ضارعوهم في ضخامة هجراتهم وكثرة قبائلهم وتنقلها في بوادي الشام والأجزاء الشمالية من بلاد ما بين النهرين (الجزيرة). وأثر الآراميون تأثيراً واسعاً في تاريخ الشرق الأدنى، سواء كان ذلك في التركيب السكاني أم اللغوي والحضاري. ونشأت بينهم وبين أقوام حضارة وادي الرافدين صلات كثيرة أثرت في كلا الجانبين تأثيرات قوية، وقد ساد تلك العلاقات الاصطدام والصراع ولا سيما مع الآشوريين، دام حقبة طويلة من الزمن. وقامت منهم جملة مشيخات أو سلالات حاكمة في بلاد بابل منذ مطلع الألف الأول ق.م، حتى أن مؤسسي الدولة الأخيرة التي قامت في بابل، وهي الدولة الكلدانية، كانوا من الآراميين. ولكن لا

---

(1) من المستبعد أن يكون اسم الموضع الوارد بهيئة «آرامي» (Arami) وأسماء بعض الأعلام على هيئة «أرامو» (Aramu) في نصوص العصر الآكدي وسلالة «أور» الثالثة لها صلة بالآراميين بالنظر إلى قدم العهد، ولذلك فيرجح أن يكون ذلك مجرد تشابه لفظي. ولا يعرف بوجه التأكيد معنى الكلمة «أرامي»، على أنه قيل في معنى «أرام» و «ارم» (ولعل للكلمة الواردة في القرآن صلة بالآرامين)، إنها تعني النجد أو الهضبة أو مجرد الأرض، وقد أضيفت إلى عدة مواضع في بلاد الشام مثل «أرام النهرين» و «أرام دمشق» و «أرام صوبا» و «أرام معكة» و «فدان أرام» ومعظمها مذكورة في التوراة، كما ورد مصطلح بلاد الآراميين في الكتابات الآشورية من العصر الآشوري الوسيط. انظر: ARAB, 1, 73, 239, 366.

يعلم بوجه التأكيد متى ظهر ذكرهم في أخبار حضارة وادي الرافدين[1] على أن التاريخ الشائع الذي يحدده المؤرخون لهجراتهم التاريخية الكبرى يقع ما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر ق.م. وكانوا من جملة مجموعات أو قبائل جاءت أسماء البعض منها في الكتابات الملكية الآشورية وفي رسائل العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م)، أشهرها قبيلة الأخلامو أو الأحلامو التي سبق ذكرها[2]، وقبائل الـ «سوخو» والـ «سوتو». وقد سبق أن ذكرنا أن أقدم ما جاءنا عن اسم «آراميين» (الأحلامو الآراميون) في كتابات الملك الآشوري «ثجلاثبليزر» الأول (1115 ـ 1077ق.م)، وهو الملك الذي مر بنا كيف استطاع أن يوقف اندفاع الآراميين إلى بلاد آشور. ولكن اسم قبائل الاخلامو أقدم من ذكر من هؤلاء الآراميين في المصادر الآشورية، حيث يذكر لنا الملك «أدد ـ نيراري» الأول (في حدود 1300ق.م) أن أباه حارب جموع الأخلامو في شمالي ما بين النهرين[3]. ونذكر من القبائل الآرامية التي اشتهرت في التاريخ القبيلة المسماة «كلدو» (وكذلك كشدو، وكاسديم) التي حلت في بلاد بابل. وتكونت منذ القرن الحادي عشر ق.م عدة مشيخات أو دويلات آرامية في الأجزاء الجنوبية من العراق، واشتهر من زعماء الآراميين في أواخر القرن السابع ق.م «نبو بولاسر» الذي كان حاكماً على الأجزاء الجنوبية وتابعاً لآشور بانيبال، الملك الآشوري، وأسس الدولة البابلية (سلالة بابل الحادية عشرة) وابنه الشهير نبوخذ نصر الثاني.

أشهر الدويلات الآرامية في بلاد الشام:

بعد تنقل القبائل الآرامية في بوادي الشام والصراع المتواصل الذي نشب بينها وبين الآشوريين نجحت جماعات منها في الاستيطان في عدة

---

(1) انظر الهامش في ص 491، والمرجح أن «اخلامو» جمع «خلم»، أي حلف فيكون معنى اسم القبيلة «الأحلاف».

(2) المصدر السابق.

(3) *ARAB*, I, 73

جهات من بلاد الشام منذ القرن الحادي عشر ق.م، ولا سيما في الأجزاء الداخلية منها لأن الكنعانيين (الأموريين الغربيين) صدوهم عن بلوغ الجهات الساحلية التي تمركزوا فيها. وقامت من الآراميين في بلاد الشام جملة دويلات ورد ذكرها كثيراً في أخبار الملوك الآشوريين الذين ضيقوا الخناق عليها من بعد تخلصهم من أخطار هجوم القبائل الآرامية، وحالوا دون قيام دولة كبرى منها، بل إنهم قضوا حتى على الكثير من دويلاتهم في بلاد الشام، ولا سيما في العصر الآشوري الحديث، حيث سيرد ذكر هذه الدويلات ولذلك فيستحسن تعدادها قبل كلامنا على هذا العصر.

1 ـ أرام نهرايم:

ويعني اسم هذه الدويلة أرام ما بين النهرين، أي الفرات والخابور. وورد ذكرها في المصادر المسمارية باسم «نهارينا»، ويبدو أنها اختفت من الوجود في حدود القرن التاسع ق.م عندما قضى الآشوريون على جميع الدويلات الآرامية تقريباً في تلك المنطقة[1].

2 ـ الدويلة المسماة فدان «أرام»، وكان مركزها في حران، وكانت أقل رقعة واتساعاً من دويلة «نهرايم» السالفة الذكر. ولكن حران كانت ذات أهمية كبرى لمرور طرق القوافل منها، وأن اشتقاق اسم المدينة يشير إلى ذلك[2]. وازدهرت اللغة الآرامية والثقافة الآرامية في هذه المنطقة، كما اشتهرت في التوراة بكونها موطن الآباء العبرانيين الأوائل قبل ذهابهم إلى فلسطين، والمرجح كثيراً أن إبراهيم وأحفاده من آرامي هذه المنطقة كما تشير إلى ذلك التوراة نفسها.

---

(1) حول أخبار هذه الدويلة انظر:
O, Callaghan, *Aram Nhraim*, (1948).

(2) قارن الكلمة الآكدية (البابلية) «خرانو» أو «حرانو» التي تعني الطريق ولعله كذلك مدينة على الطريق أي مدينة القوافل. حول أخبار حران في التوراة، انظر: سفر التكوين: 24: 4، 29: 21.

وقامت في الأنحاء الجنوبية من بلاد الشام جملة دويلات آرامية أشهرها:

3 ـ آرام ـ صوبا

والمرجح أن مدينة صوبا هي المذكورة في المصادر الكلاسيكية (اليونانية الرومانية) باسم «خلسيس» أو «كلسيس»، أي النحاس، مثل معنى الكلمة الآرامية «صوبا». ويعرف موقعها الآن باسم عنجر في البقاع، إلى الجنوب من زحلة. وقد حاربها الملك العبراني «شاؤول» كما تغلب الملك «داود» على ملكها المسمى «حدد عزير» (أو هدد عزير).

4 ـ آرام ـ معكة

وقد قامت في سفوح جبل الشيخ (جبل حرمون)، وكذلك «آرام ـ رحوب» في منطقة حوران.

5 ـ مملكة دمشق

من الدويلات الآرامية المهمة المملكة التي قامت في منطقة دمشق، حيث استوطنت جماعات من الآراميين فيها ما بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م. وجاء ذكر مدينة دمشق في حوليات الفرعون المصري «رعمسيس» الثالث (1198 ـ 1167ق.م) بصيغة «ترمسكي» و «ترمسكى» من الصيغة الآرامية «در ـ مشق» أو «دار ـ مشق»، أي حصن «مشق» أو «مشيق». وقبل هذا التاريخ ورد اسم المدينة في رسائل «العمارنة» الشهيرة (القرن الرابع عشر ق.م) بهيئة «دمشقا» و «تمشگى» أو «تمشقي»[1]. ولا يعلم بوجه التأكيد اشتقاق اسم دمشق، والمرجح أنه مركب من كلمتين: «در» أو «دار» أي حصن و «مشق»، ولعل الشق الثاني من الاسم اسم إله من الآلهة غير السامية. كما يحتمل أن «مشق» هو اسم أحد الأقوام المذكورة في المصادر الآشورية بهيئة

---

(1) Knudtzon, *El - Amarna Tafeln*, nos. 107, 197, 53

«مشكي» أو «موشكي» (من سكان شرقي الأناضول الذين عرفوا بعدئذٍ باسم (الفريجيين) وورد ذكر هؤلاء في التوراة (سفر التكوين 10: 23). على أنه يحتمل كذلك أن يكون لفظ «مشكي» أو «مشقي»، اسم إحدى القبائل الآرامية ممن لم يرد لها ذكر إلا بعد أن استوطنت هذه المنطقة من بلاد الشام.

واشتهرت مملكة دمشق في أواخر القرن الحادي عشر ق.م، في الفترة التي ظهرت مملكة العبرانيين، في عهد شاؤول وداود. وقد نمت وتوقفت على الكثير من الدويلات الآرامية الأخرى، وامتدت في سلطانها شرقاً إلى الفرات وإلى اليرموك جنوباً على حساب الدولة العبرانية، كما أنها كانت تتاخم الولايات والأقاليم التابعة إلى الأمبراطورية الآشورية من الجهات الشمالية. وقامت بين هذه المملكة وبين الدولة العبرانية عدة حروب كانت الغلبة في معظمها لها على دولة اليهود، بحيث إنها استطاعت أن تفرض سلطانها عليها ولا سيما من بعد انقسام المملكة العبرانية على أثر موت سليمان. وقضى الآشوريون على دولة دمشق في عام 732ق.م، على يد الملك «ثجلاثبليزر» الثالث.

6 ـ دولة شمال

ونجح الآراميون إبان القرنين العاشر والتاسع في الاستيلاء على إقليم «زنجرلي» (أو سنجرلي)، وهي سمأل أو شمأل القديمة، وأسسوا فيها عدة دويلات أشهرها دويلة «بيت اگوشي» أو «بيت اغوشي»، و «بيت أديني»، في منطقة «بارسب» القديمة (تل الأحمر الآن). وتقع شمأل إلى الغرب من «عيتاب»، في منتصف الطريق ما بين إنطاكية ومرعش. وقد أجرى فيها الألمان بعض الحفائر (1893)، ووجدت فيها أقدم النصوص الآرامية من حدود القرن العاشر أو التاسع ق.م. وقامت في أعالي ما بين النهرين دويلة آرامية أخرى سميت باسم «بيت بهياني»، وعاصمتها «گوزانا» (وهو اسم تل حلف القديم، وقد اشتهر تل حلف بإطلاقه على أحد أدوار العصر الحجري المعدني، كما مر بنا في كلامنا على هذا العصر في الفصل الرابع).

وفي ختام هذه الملاحظات الموجزة عن الدويلات الآرامية التي سيمر بنا ذكر علاقاتها مع الدولة الآشورية نكرر ما سبق أن نوَّهنا به من أن الضغط الآشوري على الآراميين وخنق دويلاتهم ومنعها من التوسع كان له أثر بالغ في مصائر الآراميين السياسية، إذ حال، كما قلنا، دون إقامة دولة كبرى منهم، كما أزيل من الوجود الكثير من دويلاتهم. ولكن مع إخفاق الآراميين السياسي فإن تراثهم اللغوي والثقافي قد فاق في عظم مقداره على تراث كثير من الشعوب القديمة، في أقطار الشرق الأدنى، وتميز الآراميون كذلك بنشاطهم التجاري الواسع، حيث كانت قوافلهم التجارية تجوب أنحاء الشرق الأدنى، ويمكن القول إنهم احتكروا التجارة العالمية طوال عدة قرون. وكان من نتائج ذلك النشاط التجاري الفذ انتشار اللغة الآرامية، وساعدها في ذلك الانتشار أنها دونت بحروف هجائية أخذها الآراميون من الفينيقيين، فانتشرت لغتهم انتشاراً واسعاً عجيباً بدون أن يدعم ذلك سلطان سياسي. وأصبحت الآرامية لغة تدوين ولغة الكلام إلى جانب اللغات القديمة حتى في الأمبراطورية الآشورية، ومن بعد ذلك في أرجاء الأمبراطورية الفارسية الأخمينية من تخوم الهند إلى بلاد الحبشة. وتركت الآرامية تأثيرات محسوسة في اللغتين البابلية والآشورية في أدوارهما الأخيرة، كما صارت لغة النبي عيسى وأتباعه، ودونت بها الأناجيل. ولم يقتصر هذا الانتشار الواسع على اللغة الآرامية بل انتشر معها استعمال الحروف الهجائية بشكلها الآرامي فاقتبسها أقوام شتى في أنحاء الشرق الأدنى وقارة آسية في كتابة لغاتها المختلفة. فمثلاً أخذ اليهود خطهم من الخط الآرامي ما بين القرنين السادس والرابع ق.م، وكانوا قبل هذا التاريخ يستعملون خطاً فينيقياً قديماً. كما أن العرب الشماليين أخذوا خطهم من الأنباط، والخط النبطي شكل من أشكال الخط الآرامي، وهو أصل الخط العربي الشمالي بجميع أطواره. واقتبس الأرمن والفرس والهنود خطوطهم من أصول آرامية. ونقل البوذيون الخط السنسكريتي (المشتق من الخط الآرامي) من الهند إلى الصين وإلى كورية.

العصر الآشوري الحديث

أولاً: الأمبراطورية الآشورية الأولى

«أدد ـ نيراري» الثاني:

رأينا فيما سبق كيف تدهورت أوضاع الدولة الآشورية من بعد موت الملك الآشوري القوي «ثجلاثبليزر» الأول (1077ق.م) حيث حلت في تاريخ الآشوريين فترة مظلمة عصيبة أحاقت بهم فيها عدة أخطار جسيمة، دامت زهاء (166) عاماً.

وكان رجل الساعة الذي خلص بلاد آشور من الأخطار المحدقة بها الملك «أدد ـ نيراري» الثاني (911 ـ 891ق.م). ولذلك يصح اعتبار حكمه بداية عصر جديد في تاريخ الدولة الآشورية، هو العصر الذي أطلقنا عليه اسم العهد الآشوري الحديث الذي دام إلى نهاية كيان الآشوريين السياسي من بعد سقوط نينوى في العام 612ق.م أي إنه دام زهاء ثلاثة قرون. وتسهيلاً لإيجاز الأحداث التاريخية في هذا العصر الجديد نقسمه إلى دورين متميزين، تكون في كل منهما أمبراطورية كبرى، هما الأمبراطورية التي وضع أسسها الملك «أدد ـ نيراري» الثاني وانتهت في حدود العام 745ق.م فتكون قد دامت زهاء القرن ونصف القرن (911 ـ 744ق.م)، وحكم فيها تسعة ملوك، من حكم أدد ـ نيراري إلى حكم «ثجلاثبليزر» الثالث (744 ـ 727)، وشغلت الأمبراطورية الثانية البقية الباقية من التاريخ الآشوري أي

من عام 745 إلى 612ق.م، وأشهر من حكم فيها ملوك السلالة السرجونية (سرجون وخلفاؤه).

ومما يقال عن هذا العصر الجديد بوجه عام إن الآشوريين بلغوا فيه من القوة العسكرية مبلغاً كبيراً مكنهم من أن يسيطروا على حياة الشرق الأدنى طوال معظم القرون الثلاثة التي دامها هذا العصر، وكونوا أمبراطورية كبرى كانت أوسع ما مر بنا من الأمبراطوريات في تاريخ العراق وتاريخ الشرق القديم. وقد شغل أوائل ملوك هذا العهد كما قلنا في القضاء على الخطر الآرامي من جوار بلاد آشور نفسها، ثم انتقلوا بعد فترة من الزمن إلى تسديد الضربات المميتة إلى الدويلات الآرامية التي سبق أن عددنا أشهرها. وصار من مستلزمات السياسة الحربية للآشوريين تكرار غزواتهم وفتوحهم بالاتجاهات الشمالية والشمالية الغربية: إلى بلاد الشام حيث الدويلات الآرامية، وإلى آسية الصغرى وإلى الجهات الشرقية والشمالية الشرقية، على الأقوام الجبلية في جبال «زاجروس»، التي كانت مصدر خطر دائم على الآشوريين. أما من الجهة الجنوبية فإن بلاد بابل أصبحت في هذا العهد الذي نتكلم عنه عاجزة ضعيفة، بحيث أدخلت تحت السيطرة الآشورية المباشرة وغير المباشرة.

ولحسن حظ الآشوريين أن الدول الأخرى في الشرق الأدنى في العصر الآشوري الحديث كانت دولاً ضعيفة عاجزة إزاء قوتهم المتعاظمة. فقد زالت الدولة الحثية من الوجود في القرن الثاني عشر ق.م على أثر هجرات الأقوام «الهندية ـ الأوروبية» الجديدة إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى. أما المملكة المصرية فقد سبق أن حل الضعف فيها قبل العصر الآشوري الحديث فلم تستطع منافستها في توسعها إلى بلاد الشام.

ويمكن القول إنه لم يكد ينتهي القرن التاسع قبل الميلاد، حتى شملت الأمبراطورية الآشورية جميع الشرق الأدنى. وصادف قيام هذه الأمبراطورية انتشار استعمال معدن الحديد في الشرق الأدنى، فاستغله الآشوريون في تكوين أضخم جهاز حربي عرفه العالم القديم، إذ صنعوا منه أسلحتهم الفتاكة

وآلات الحصار الضخمة كالدبابات والعربات مما ستتكرر الإشارة إليها في كلامنا على حروب ملوكهم المشهورين[1].

خلفاء «أدد ـ نيراري»

«توكلتي ـ ننورتا» الثاني (890 ـ 884 ق.م)

خلف «أدد ـ نيراري» على العرش الآشوري ابنه «توكلتي ننورتا» الثاني الذي لم يكن أقل من أبيه نشاطاً وقدرة، ولكن فترة حكمه القصيرة لم تمكنه من مد رقعة المملكة الآشورية أبعد مما كانت عليه في عهد أبيه. وكان من بين أعماله التي وصلت إلينا أخبارها بناؤه أسوار العاصمة «آشور»، وتكرار الحملات الحربية إلى الجهات الشمالية الغربية، على المناطق أو المستوطنات الآرامية. وكانت إحدى حملاته الحربية مجرد مظاهرة عسكرية ضخمة بغية الإرهاب ونشر الرعب بين الشعوب. فبدأ في مسيرته العسكرية من العاصمة واتجه غرباً لإرهاب المستوطنات الآرامية، وتجديد فرض الطاعة عليها، ثم عاد وسار إلى الأجزاء الجنوبية من بلاد بابل معيداً فرض السلطان الآشوري عليها. وقد دونت أخبار هذه الحملة في حولياته تدويناً مفصلاً، وتعد على قدر كبير من الأهمية التاريخية، ولا سيما الجغرافية التاريخية للعراق وبعض أجزاء الشرق الأدنى، لما ورد فيها من ذكر الأماكن التاريخية والمدن المهمة التي مرت بها جيوش هذا الملك.

---

(1) ندرج فيما يأتي المراجع الأساسية عن التاريخ الآشوري:

(1) *CAH*.

(2) Olmstead, History of Assyria, (1923).

(3) S, Smith, Early History of Assuria, (1928).

(4) ARAB.

(5) Wateman, *Royal Correspondence*... (1930 - 6).

(6) *IRAQ*, vols. 1950 ff.

وعن الأخبار الواردة في التوراة راجع بوجه خاص سفر الملوك ولا سيما الثاني وسفر الأيام الثاني أسفار الأنبياء.

لما توفي الملك «توكلتي ـ ننورتا» الثاني في العام 884 كانت تخوم الأمبراطورية الآشورية موطدة مستقرة، من شمالي العراق إلى جميع أطراف ما بين النهرين العليا، وإلى جبال «زاجروس» شرقاً.

آشور ناصر بال الثاني (883 ـ 859 ق.م)

ورث آشور ناصر بال الثاني عن أبيه «توكلتي ـ ننورتا» الثاني مملكة واسعة، وقوية موطدة. وقد جمع هذا الملك الآشوري الصفات الأنموذجية للملك الآشوري العسكري، والفاتح القاسي والإداري المنظم، والبناء الكبير. وتشير ملامحه المعبر عنها في تماثيله التي وجدت في «نمرود» (كالح القديمة التي سيأتي وصفها) إلى شخصية قوية حازمة وقاسية[1]. وكما جرت العادة بالنسبة إلى معظم الملوك الآشوريين الأقوياء، لم تخل أعوام حكمه من تكرار الحملات الحربية إلى الجهات المختلفة من الشرق الأدنى، وقد بلغ في إحدى حملاته إلى إقليم الفريجيين (مشكي) في شرقي الأناضول، وحصل على الغنائم والأسلاب الكثيرة، كما حارب الحثيين الذين أقاموا في شمالي سورية دولة من بعد زوال مملكتهم في آسية الصغرى (القرن الثاني عشر ق.م). وشيد جملة قلاع وحصون عسكرية في تخوم الأمبراطورية الشمالية. ونذكر من بين حملاته الحربية المشهورة تلك التي وجهها على بلاد الشام، وقد مهد لها بضرب بعض المنشقين عن طاعته في منطقة جبال «كاشياري» (طور عابدين ـ ماردين)، كما ضرب القبائل الجبلية في إقليم «زاموآ» أو «ساموآ» (منطقة السليمانية)، ومن بعد ذلك اتجه إلى بلاد الشام في عام حكمه الرابع (877ق.م)، واكتسح بعض الدويلات الآرامية في طريقه، ثم سار من «كركميش» (جرابلس) إلى سهل إنطاكية، وعبر نهر العاصي وسار بمحاذاة جبال لبنان إلى «البحر العظيم، بحر الأموريين» (البحر المتوسط). وهنا يكرر «آشور ناصر بال» ما جرى عليه الملوك الآشوريون الفاتحون في «غسل سلاحه» في هذا البحر وتقديم القرابين إلى الآلهة، وتقبل جزية المدن الساحلية مثل صور وصيدا وجبيل وأرواد وغيرها. وتضمنت الجزية الذهب والفضة

---

(1) حول تماثيل «آشور ناصر بال» انظر: AAO A. Parrot, *Assur*, (1961).

والقصدير والنحاس وأنسجة الكتان ذات الألوان الزاهية، وقردة صغيرة وكبيرة، والعاج والأخشاب النفيسة مثل الأبنوس والبقس والأرز. ورجعت الجيوش الآشورية عن طريق مرتفعات «امانوس»، حيث اقتطعت الأخشاب الجيدة منها وأرسلت إلى العاصمة آشور.

على أن تلك الحملات الحربية لم تشبع تعطش هذا العاهل الآشوري لسفك الدماء والقتل، فأضاف إلى ذلك صيد الحيوانات الوحشية كالأسود والثيران الوحشية. وخلف عن ذلك سجلاً حافلاً في أخباره المدونة وفي صور منحوتاته الكثيرة التي عثر عليها في قصره في مدينة كالح (نمرود). واشتهر أيضاً بولعه في جمع النباتات والحيوانات الغريبة في أثناء حملاته إلى الأقطار البعيدة وجلبها إلى عاصمة مملكته.

تجديد مدينة «كالح»

من الأعمال العمرانية التي اضطلع بها آشور ناصر بال الثاني في السنوات الأولى من حكمه إعادة بناء المدينة القديمة كالح (نمرود) التي أسسها الملك القديم «شيلمنصر» الأول (1274 ـ 1245ق.م)، ولكنها أهملت من بعده فحل فيها الخراب. ولذلك عزم آشور ناصر بال على تجديدها وإعادة بنائها واتخاذها عاصمة، وعلى الأخص عاصمته العسكرية، لتكون فيها ثكنات الجند والمعدات الحربية، ومنها كانت تسير الحملات الحربية. وكان موقع هذه المدينة، مثل العاصمة القديمة آشور، يتميز بأهمية استراتيجية خاصة، فإن دجلة يحميها من جانبها الغربي، ومن جهتها الجنوبية الزاب الأعلى الذي يتصل بدجلة بمسافة قصيرة جنوب نمرود، في الموضع الذي يسمى «المخلط».
وقد بذل هذا الملك جهوداً كبيرة في مشروعه هذا بحيث يصح القول إنه أسس المدينة من جديد، فقد سوى أنقاضها القديمة بالأرض ووسع من رقعة أبنيتها، وشيد حولها سوراً ضخماً مدعماً بالحصون وأبراج الدفاع بلغ محيطه زهاء (8) كيلومترات، والمدينة مستطيلة الشكل تقريباً مساحتها زهاء (3,5) كيلومتر مربع، واختار أحد المرتفعات الطبيعية في إحدى زوايا هذا المستطيل ليكون بمثابة «اكروبوليس»، حيث موضع «زقورة» المدينة (البرج المدرج) ومعابد المدينة وقصره الملكي. وجلب إلى المدينة جدول ماء من الزاب الأعلى لزيادة

حمايتها والإفادة منه في الري أيضاً في السهل الزراعي المجاور. وكانت نمرود من أولى المواقع الأثرية التي جرت فيها تنقيبات أوائل المنقبين، كما ذكرنا في الفصل الخاص بتاريخ التنقيبات، حيث حفر فيها «ليرد» ما بين عام 1852 و1854، ثم أعقبه «هرمز رسام»، ولوفتس (1854 ـ 1855) و «جورج سميث» (1872). واستخرجت من قصور المدينة المنحوتات الضخمة الكثيرة، من بينها الثيران المجنحة الشهيرة والأسود وما يسمى «الملاكات الحارسة»، وأعداد كثيرة من صفائح الحجر المنحوتة، وكثير من النقوش الكتابية، إلى غير ذلك من البقايا الأثرية النفيسة التي هي الآن من الكنوز المهمة في المتحف البريطاني. وبعد مضي ما يربو على القرن الواحد على تحريات «ليرد» استأنفت التنقيبات في المدينة بعثة بريطانية برئاسة الأستاذ «ملوان» (1949 ـ 1961)، فأعادت التحري في قصر آشور ناصر بال وفي حصن شيلمنصر الثالث، ابن آشور ناصر بال، الكائن في الركن الجنوبي الشرقي من المدينة، وهو حصن ضخم (300×200م)، كشف فيه عن مجموعات كثيرة من الآثار العاجية النفيسة. وإلى جانب هذه الآثار وغيرها من البقايا المعمارية الكثيرة، وجدت جملة منحوتات مهمة من بينها مسلة منحوتة للملك آشور ناصر، وهي منقوشة بكتابة تدون أعماله ووصف الولائم الملكية الفخمة التي أقيمت في المدينة احتفالاً بإكمال بنائها (عام 879ق.م). وقد بلغ عدد الضيوف، بحسب ما جاء في تلك المسلة، (69,574) شخصاً، أي سكان المدينة والصناع والعمال والسفراء، ودامت طوال عشرة أيام[1] وتحرى المنقبون أيضاً حصن شيلمنصر

---

(1) عن كتابة مسلة «آشور ناصر بال» انظر:

Wiseman , in *IRAQ*, XIV (1952), 24 ff.

عن التنقيبات القديمة في نمرود انظر:

A- H. Lxyard, *Nineveh and its Remains* (1849).

A- H. Lyard, *Nineveh and Babylon* (1882).

وعن نتائج التنقيبات البريطانية الحديثة راجع مجلة IRAQ منذ مجلد 1950 وأيضاً

D. Oates, «Fort Shalmaneser», *IRAQ*, XXI (1959). *IBID*.. XXIII, (1961), 1 ff.

الثالث، في الأجزاء المهمة منه، من بينها الثكنات العسكرية للتدريب والعرض العسكري، ومخازن الأسلحة ومواضع إقامة الضباط والجند[1].

شيلمنصر الثالث (858 ـ 824 ق.م)

خلف شيلمنصر الثالث أباه «آشور ناصر بال»، وقد ورث عنه أمبراطورية واسعة برهن على أنه كفوء ليس في المحافظة عليها حسب، بل إنه وسعها إلى حدود بعيدة لم تبلغها من قبل. وكان حكمه الذي دام خمسة وثلاثين عاماً سلسلة من حملات حربية جعلته سيد الشرق الأدنى وآسية الغربية من الخليج العربي ومناطقه جنوباً إلى جبال أرمينية شمالاً، ومن تخوم الأراضي الميدية (المادية) شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً، كما دخلت بلاد بابل تحت سيطرته. وفي حقل البناء والتعمير جدد الأبنية في العواصم الآشورية الثلاث، آشور ونينوى وكالح. وقد أضاف في المدينة الأخيرة، أي كالح، إلى أعمال أبيه سواء كان ذلك في قصورها، أم في بنائه القصر أو الحصن الضخم الذي نوَّهنا به في كلامنا على تجديد هذه المدينة في زمن أبيه، واستمرت العناية بهذا الحصن من جانب الملوك الآشوريين الذين جاؤوا من بعده لأنه كان، كما قلنا، مركز الجيوش الآشورية ومخازن أسلحتها وعدتها وذخيرتها، ومستودعاً لغنائم الملوك من حروبهم الخارجية. ونذكر من آثار شيلمنصر الفنية الأبواب البرونزية الجميلة التي اكتشفت في الموضع المسمى «بلاوات»، وهي «امكر بيل» القديمة (على بعد بضعة كيلومترات شمال شرقي نمرود). وقد تحرى في هذا الموضع «هرمز رسام»، مساعد «ليرد» (في عام 1878)، وظهر أنه كان أحد القصور التي شيدها آشور ناصر بال وجدد بناءه ابنه شيلمنصر. وكانت الصفائح البرونزية المكتشفة تغلف أبواب القصر الخشبية، وقد مثلت فيها بأسلوب الطرق (repousë) ومشاهد من حملات شيلمنصر الحربية وكتابات قصيرة في شرحها[2].

---

(1) للمقارنة ما بين مساحة مدينة «كالح» وبين المدن الأخرى القديمة المشهورة، راجع وصف مدينة بابل في الفصل التالي (التاسع).

(2) عن بوابات «بلوات» البرونزية راجع:

King, *Bronze Reliefs from the Gate of Shalmaneser*, Frankfort, *AAO*, Pls. 91 - 2.

وعثر في نمرود في أثناء التنقيبات القديمة التي أجراها «ليرد» على مسلة حجرية مهمة تعود إلى شيلمنصر، وقد سميت باسم المسلة السوداء، لأنها من الحجر المرمر الأسود، وهي الآن من آثار المتحف البريطاني المهمة[1]، ويبلغ ارتفاعها ستة أقدام وقد نحتت على هيئة البرج المدرج. ونقشت بكتابة مطولة عن خلاصة حملات شيلمنصر الحربية منذ اعتلائه العرش إلى عام حكمه الواحد والثلاثين. وزينت بخمسة أنطقة من المنحوتات البارزة في كل جانب من جوانبها تمثل مشاهد تقديم الخضوع والجزية من جانب الملوك والحكام والأمراء من مختلف الأقطار، وقد صور البعض منهم وهو ساجد أمام صورة الملك العظيم، وبضمنهم ملك إسرائيل المسمى «يهو» أو «ياهو». وعثر في أثناء التنقيبات التي أجريت في نمرود حديثاً على تمثال جميل للملك شيلمنصر، وهو في وضعية صلاة وتعبد (هو الآن في المتحف العراقي).

ونستطيع مما خلفه شيلمنصر من أخبار مدونة[2]، وآثار فنية منحوتة، أن نتتبع حملاته الحربية طوال الواحد والثلاثين عاماً من حكمه البالغ (35) عاماً. وقد وسع فيها من رقعة الأمبراطورية، وبلغ في فتوحه أقاليم لم تصل إليها الجيوش الآشورية من قبل: في جهات أرمينية، وجبال زاجروس وكيليكية (في آسية الصغرى)، وإلى قلب جبال طوروس وإلى أبعد الأجزاء الجنوبية في منطقة الخليج. ووجه إلى بلاد الشام عدة حملات حربية، وجرت معارك مع الدويلات المتحالفة أشهرها موقعة «القرقار»، على نهر العاصي في عام 853ق.م. وقد ورد في أخبار هذه المعركة ذكر اسم العرب، لعله لأول مرة

---

(1) عن كتابة المسلة راجع: *ANET,* وعن صورها AAO و *121 - 8.* Parrot, *Assur, pls.*

(2) ندرج فيما يلي المراجع الأساسية عن أخبار شيلمنصر:

(1) *ARAB,* I, 553 - 612.

(2) Cameron in *SUMER,* (1950).

(3) F. Safar in *SUMER,* (1951).

(4) Laessoe in *IRAQ,* XXI (1959), 38 ff.

(5) Michell, in *Die Welt des Orient,* (1947), (1952).

في أخبار ملوك العراق القديم، حيث كان من بين الأمراء المتحالفين «جندبو» العربي. ونذكر من أخباره الحربية الطريفة أنه قصد في إحدى حملاته الحربية إلى ينابيع الفرات ودجلة، وأقام عندها نصباً تذكارياً. ووجه شيلمنصر في عام 851ق.م على بلاد بابل حملة حربية في عهد سلالتها الثامنة، لنجدة الملك البابلي «مردوخ زاكر شومي» الذي كانت تهدده الدويلات الآرامية في الأجزاء الجنوبية من بلاد بابل، فدحر شيلمنصر المعتدين ودخل مدينة بابل وقدم القرابين لكبير آلهتها مردوخ في معبده «اي ـ ساگلا»، كما زار المعابد الأخرى وأحسن إليها، وطارد فلول الآراميين من قبائل «الكلدو» (الكلدانيين) إلى سواحل الخليج (النهر المر بحسب تعبيره).

فترة ضعف الدولة الآشورية

انتهى حكم شيلمنصر الثالث بثورة داخلية في بلاد آشور تزعمها أحد أبنائه المسمى «آشور ـ دانن ـ أبلى»، وانحازت إلى جانبه سبع وعشرون مدينة، من بينها مدينة «آشور» ونينوى وأربيل وأرابخا (كركوك). وبالنظر إلى شيخوخة الملك عهد إلى ابنه المسمى «شمسي ـ أدد» مهمة محاربة الثوار وإخماد الثورة. وقد دامت هذه الثورة والحرب الأهلية التي نجمت عنها أربع سنوات مات الملك الشيخ في أثنائها. فاعتلى العرش الآشوري «شمسي ـ أدد» في عام 824ق.م، وقد سببت هذه الحرب الداخلية الضعف والوهن في المملكة الآشورية، وحلت فترة ضعف وانكماش دامت زهاء الثمانين عاماً، أي منذ حكم الملك شمسي ـ أدد إلى حكم تجلاتبليزر الثالث (744 ـ 727ق.م)، وعلى الرغم من إخماد الثورة من جانب «شمسي ـ أدد» فإن الحرب الأهلية الطويلة استنزفت قوى الدولة ففقدت سلطتها في الأقاليم التابعة لها، حيث اغتنم الكثير منها فرصة اضطراب الأحوال في داخل بلاد آشور فنبذت تبعيتها وولاءها للملوك الآشوريين. كما أن الأسباب التي نشبت من جرائها تلك الثورة والحرب الأهلية كانت بالدرجة الأولى متأتية من ظلم كبار الموظفين والنبلاء وحكام الأقاليم واستغلالهم السكان الأحرار ولا سيما الفلاحين والمزارعين.

حكم «شمسي ـ أدد» الخامس اثني عشر عاماً (828 ـ 811ق.م) وقد سعى لإعادة هيبة الحكم والسلطان الآشوري في الأقاليم التابعة ولكن لم يواته النجاح التام. ومع أنه استطاع أن يعيد الاستقرار في داخل البلاد بيد أنه لم يفلح في القضاء على عوامل التذمر والسخط بين الناس، ومما زاد الطين بلة أن الذي خلفه على العرش كان ابنه الصغير المسمى «أدد ـ نيراري» الثالث (810 ـ 783ق.م)، وكان هذا قاصراً فصارت أمه الملكة المسماة «سمو ـ رمات» وصية على العرش وحكمت المملكة بالنيابة عنه طوال خمس سنوات. ولما أن بدأ يحكم من بعد فترة الوصاية أظهر قدراً من الكفاءة وقوة الشخصية، فقد استطاع أن يوجه حملة عسكرية إلى سورية، معيداً بذلك خضوع عدد من الأقاليم التابعة. ويدعي في أخباره المدونة بأنه أخضع عدداً من الأقاليم التابعة إلى الأمبراطورية. وقد حكم من بعده أربعة ملوك هم أبناؤه الذين ازداد ضعف المملكة في عهودهم. وأولهم شيلمنصر الرابع (782 ـ 772ق.م) الذي ازداد في عهده ضعف المملكة، فانتهز الفرصة معظم الأقاليم التابعة والموالية للانسلاخ عن التبعية الآشورية، مثل بلاد بابل، وتجرأت الدويلات الآرامية على التحرش ببلاد آشور نفسها، فلم يبد من هذا الملك سوى اتخاذ موقف الدفاع. وأعقبه في الحكم «آشور دان» الثالث (771 ـ 754ق.م)، واستمر في عهده تدهور أحوال الدولة، وازدادت الأخطار التي أخذت تهدد بلاد آشور، واتسع الاضطراب والضعف بحلول وباء جارف فتك بالسكان، وثارت في عهده جملة مدن آشورية، كما حدث في زمنه كسوف للشمس، ذكرته أثبات «اللمو»، وقد سبق أن ذكرنا كيف أن الحساب الفلكي الحديث استطاع أن يحدد زمن ذلك الكسوف في شهر حزيران عام 763ق.م، فكان هذا التاريخ من أهم النقاط الزمنية الثابتة لتحديد أدوار التاريخ الآشوري بالنسبة إلى عهد ثابت، هو العهد الميلادي.

جاء إلى العرش الآشوري من بعد «آشور دان» الثالث الملك المسمى «آشور ـ نيراري» الخامس (753 ـ 746ق.م). والمرجح أن ثورة اندلعت عليه في مدينة «كالح» (نمرود)، تولى العرش من بعدها أخوه المسمى «تجلاتبليزر»

الثالث (744 ـ 727ق.م) وسنوجز أخبار هذا الملك في كلامنا على الأمبراطورية الآشورية الثانية.

سميراميس

يكاد يكون من المؤكد أن الملكة الآشورية «سمو ـ رمات» التي ذكرناها على أنها كانت زوج الملك «شمسي ـ أدد» الخامس وتولت الوصاية على ابنها الصغير «أدد ـ نيراري» الثالث هي الملكة الأسطورية التي ذكرتها المصادر الكلاسيكية باسم الملكة «سميراميس» الشهيرة (وبالصيغة الآرامية شميرام)[1]، ونشأت حولها أساطير طريفة، كما نسبت إليها أعمال عجيبة في الفتوحات والبناء. فإليها نسب بناء بابل وإقامة جنائنها المعلقة، وبناء السدود ومشاريع الري العجيبة وفتح بلاد مصر والهند، واشتهرت كذلك بجمالها المنقطع النظير وحدَّة شهوتها ودعارتها وجبروتها وقسوتها، إلى غير ذلك من الأعمال العجيبة والصفات الممتازة بحيث يصح القول إن أعمال كثير من الملوك السابقين والمتأخرين قد نسبت إليها، وصارت رمزاً وعنواناً لأمجاد حضارة وادي الرافدين. ولعل أشهر أسطورة نسجت حول شخصيتها الأسطورة التي تجعلها ابنة آلهة نصفها سمكة ونصفها الآخر حمامة، كانت تعبد في مدينة «عسقلان» (عسقلون)، وبعد أن وضعت ابنتها سميراميس تخلت عنها فأخذها طير

(1) أقدم ما ذكر في الأساطير والحكايات عن سميراميس رواية هيرودوتس (القرن الخامس ق.م) في الكتاب الأول الفقرة 184. وذكرها المؤرخ الجغرافي «سترابو» (64ق.م ـ 19م)، وديودورس الصقلي (منتصف القرن الأول ق.م) وغيرهما. ولم تقتصر شهرة سميراميس على الكتاب اليونان والرومان بل ذكرها عدد كبير من الكتّاب في مختلف العصور، نذكر منهم على سبيل المثال «دانتي» في الكوميدية الإلهية، حيث جعلها من الشخصيات البارزة في جحيمه. ولفولتير مسرحية طريفة عن سميراميس، وكذلك «بول فاليري» وألف من أسطورتها «روسين» أوبرا شهيرة. ونظم عنها من الشعراء العرب عمر أبو رية والشاعران العراقيان محمد الهاشمي وبلند الحيدري. حول سميراميس انظر:

Olmstead, History of Assyria, p. 158.

F. Lenman, Semeramis and Ihr Zeit.

الحمام[1] ورباها ثم عثر عليها كبير رعاة الملك فتولى تربيتها ولما كبرت ورآها حاكم مدينة نينوى المسمى «أونيس» أحبها وتزوجها، غير أن الملك «نينوس» هام بها أيضاً فأكره زوجها أن يتخلى عنها، ففعل ذلك وانتحر حزناً وكمداً، وتزوجها الملك ونالت عنده حظوة ومقاماً رفيعاً وعظم نفوذها وشأنها في المملكة. واستغلت سميراميس مكانتها فاستعطفت زوجها الملك أن يتوجها على عرش المملكة مدة قصيرة، ففعل ذلك، ولكنها سرعان ما سجنت زوجها أو أنها قتلته، وتفردت بالملك وحكمت أكثر من أربعين عاماً وقامت بمثل تلك الأعمال الخارقة الأسطورية التي نوَّهنا بها.

وهنا يرد إلى الذهن تساؤل هو أنه إذا صحت المطابقة ما بين الملكة الآشورية التاريخية «سمو ـ رمات» وبين سميراميس الأسطورية فكيف تجمعت تلك الشهرة الضخمة العجيبة حول تلك الملكة الآشورية التي لم تحكم سوى بضع سنوات بصفتها وصية على ابنها الصغير، كما أنها لم تترك لها أثراً مهماً في سجلات الملوك الآشوريين[2]؟. الواقع من الأمر أن هذا من الألغاز التاريخية المحيرة، وقد ارتأى أحد الباحثين[3] تفسيراً محتملاً في أن هيرودوتس الذي كان أقدم من دوّن أسطورة سميراميس استقى معلوماته عنها من كهنة بابل. وإذا صح أن أصلها أميرة بابلية تزوجها الملك الآشوري «شمسي ـ أدد» فإن اعتزاز كهنة بابل بأميرتهم البابلية حملهم على المبالغة في شهرتها وأعمالها التي رووها لهيرودوتس، وأضاف هيرودوتس بدوره من خياله القصصي الخصب أشياء أخرى، وتراكمت الأعمال العجيبة من بعد هيرودوتس

---

(1) لعل لمنشأ هذا الجزء من الأسطورة صلة باسم الملكة الآشورية «سمو ـ رمات» المركب من كلمتين: سمو (Sammu) وتعني حمامة و «رمات» أي محبوبة فيكون معنى اسمها «محبوبة الحمام».

(2) وجدت لها مسلة مشوهة الكتابة في نمرود:
ARAB, I, 731, 745.

(3) راجع بحث الأستاذ «كوسينس» (Goossens) في المؤتمر السادس لعلماء الآثار المنعقد في باريس عام 1956.

وانتشرت شهرتها إلى أمم وأقطار بعيدة، حتى أن أحد الأنهار في أرمينية بالقرب من وان سمي بنهر «سميراميس».

ويجدر أن نذكر بصدد كلامنا على «سميراميس» أن هيرودوتس يذكر ملكة أخرى حكمت بلاد بابل من بعدها وسماها «نيتوكرس» (Nitocris) ونسب إليها أعمالاً جسيمة في البناء والتشييد ولا سيما أعمال الري والسدود، من بينها حفر خزان واسع في منطقة بابل وتحويل مجرى الفرات عند بابل، وأن حملة الملك كورش الفارسي على بابل وفتحه لها كانت في عهد ابنها الذي سماه «لابينيتوس» Labynetus، وهو بلا شك تحريف اسم الملك البابلي «نبونيدس» (آخر ملوك الدولة البابلية الحديثة). هذا ولا يعلم أصل اسم هذه الملكة أي «نيتوكرس»، لا سيما وأن اسم أم «نبونيدس» ذكر في نص شاهد قبر لها وجد في حران بهيئة «أدد ـ گپي» (Adad - Guppi) (ANET, 1969 وهيرودوتس، الكتاب الأول: 184 ـ 188)

الأمبراطورية الآشورية الثانية

ثجلاثبليزر الثالث:

تولى الملك «ثجلاثبليزر» الثالث الحكم (744 ـ 727ق.م) على أثر ثورة داخلية كما ذكرنا، فكان الاضطراب والتدهور يعمان البلاد، ولكن الملك الجديد برهن على أنه كفوء في إنقاذ البلاد من محنتها، وإلى ذلك استطاع أن يعيدها إلى سابق قوتها وكيانها باسترجاع سلطتها في كثير من الأقاليم التي كانت خاضعة لها. وقد مهد لذلك بالقيام بإصلاحات واسعة في الجيش ونظام إدارة الدولة. ولهذه الأسباب جعلنا حكم هذا الملك بداية دور جديد من العصر الآشوري الحديث، هو الذي أطلقنا عليه اسم الأمبراطورية الآشورية الثانية (744 ـ 612ق.م). وقد تميزت هذه الأمبراطورية بالقوة واتساع الرقعة، وقد شملت إصلاحات الملك الجديد الإدارية أموراً أساسية في نظام إدارة الدولة، وفي مقدمتها تقوية سلطة الملك والتقليل من نفوذ النبلاء وأمراء الإقطاع والحد من سلطاتهم، وضاعف في عدد الوحدات الإدارية والولايات وقلص من سعتها لتسهل إدارتها. وبالنسبة إلى الأقاليم المفتوحة عزل معظم ملوكها وحكامها وحول الكثير منها إلى ولايات يدير شؤونها حكام أو ولاة يعينهم الملك. وفي حالة الأقاليم التي لم يتم دمجها بالأمبراطورية عين الملك مع حكامها الوطنيين مراقبين آشوريين (اسم الواحد منهم قيفو qēru)، يضاف إلى ذلك وسائل منتظمة للمواصلات والاتصال ما بين البلاط وبين الولايات المختلفة، مثل السعاة أو الرسل الذين كانوا على اتصال دائم بينها وبين

العاصمة يحملون رسائل الحكام وأوامر الملك، وكثيراً ما كان الملك يرسل مبعوثاً خاصاً عنه في الحالات المهمة.

أما الإصلاحات التي أحدثها في نظام الجيش فإنه عدل عن النظام السابق في تجنيد الفلاحين والعبيد الذين كان يجهزهم نبلاء المملكة ومالكو الأراضي إبان الحملات الحربية السنوية، فأدخل بدلاً من ذلك نظاماً أشبه ما يكون بنظام التجنيد الإجباري بحيث أصبح الجيش جيشاً قائماً وبالمصطلح الآشوري (Kisir sharruti) ودخل أهل الأقاليم التابعة في سلك الجيش، فازداد عدد الجيوش القائمة، وأعفى الفلاحون الآشوريون من التجنيد فانصرفوا إلى شؤونهم الزراعية. ومن الأمور الجديدة التي أدخلها هذا الملك السياسة التي انتهجها إزاء الأقاليم المفتوحة التي تتكرر ثوراتها، فصار يهجر سكانها وينقلهم بالجملة إلى أقاليم أخرى، وإسكان أقوام أخرى في بلدانهم. وقد سار على هذه السياسة الملوك الذين خلفوا ثجلاثبليزر. وكانت هذه خطة عجيبة عملت على خلط شعوب الشرق الأدنى وأحلت البؤس والشقاء في ربوعها، وكثيراً ما صورت تلك المشاهد المؤلمة في المنحوتات الآشورية، ولنا أن نتصور مبلغ الشقاء والعذاب اللذين كانت تقاسيهما تلك الجموع البائسة وهي تساق مسافات طويلة مع شيوخها وأطفالها ومرضاها. على أن تلك السياسة القاسية التي بدأ بها هذا الملك لم تحقق الأهداف التي قصدت من ورائها، فإن ثورات الشعوب لم تنقطع، ولم تدفع هذه الأساليب القاسية الظالمة حلول النهاية الحتمية بالظالم.

أما إصلاحات «ثجلاثبليزر» الحربية فإنها تدل على حسن تنظيم وبراعة في القيادة، وكانت أولى أعماله العسكرية الحملة التي سيرها إلى جنوبي العراق لضرب الآراميين، كما جدد الملك البابلي «نبو ناصر»، مؤسس السلالة البابلية التاسعة ولاءه لملك آشور. ووجه حملة حربية كبيرة إلى سورية للقضاء على الدول المتنامية التي قامت فيها. وجدد ملوك هذه البلاد وأمراؤها ولاءهم وخضوعهم وقدموا الجزية والأتاوة. ثم غزا من بعد ذلك النواحي الشرقية من

جبال «زاجروس»، وأوغل في الأراضي الإيرانية وفي بلاد الماديين في منطقة جبال «هماوند» (وهي الجبال التي ورد ذكرها في المصادر الآشورية باسم «بكيني»). وأعاد الكرّة في توجيه حملة إلى بلاد الشام في عام 734ق.م، وكان مسرح عملياتها الحربية الأجزاء الساحلية وبلاد فلسطين وشرقي الأردن. واتصل في أثناء حملاته على بلاد الشام ببعض القبائل العربية، فقد جاء في أخباره أن الملكة العربية «شمسي» أدت له الجزية. وفتح دمشق عنوة وأزال الدويلة الآرامية فيها من الوجود في عام 732ق،م. كما ضم نصف مملكة إسرائيل إلى الدولة الآشورية، وعين «هوشع» ملكاً على السامرة بصفته تابعاً له.

وبعد أن ثارت بلاد بابل على السلطة الآشورية بزعامة أحد شيوخ الآراميين المسمى «اوكن ـ زير»، مؤسس سلالة بابل العاشرة (732 ـ 730ق.م) أرسل ثجلاثبليزر حملة عليها وقضى على حكم هذه السلالة، وقرر أن يحكم بلاد بابل حكماً مباشراً فتوج نفسه ملكاً على بابل في عيد رأس السنة الجديدة (729ق.م) وعرف باسم «بولو» (Pulu). وكان هذا خاتمة أعماله حيث توفي من بعد عامين (727ق.م)، وخلفه على العرش الآشوري ابنه «شيلمنصر» الخامس (726 ـ 722ق.م)، الذي لم يحكم سوى فترة قصيرة دامت خمس سنوات لا نعرف عن أحداثها إلا أشياء قليلة، وأهمها خلع الملك الإسرائيلي «هوشع» الطاعة وثورته على الآشوريين بتحريض الدولة المصرية فحاصر شيلمنصر مدينة السامرة مدة ثلاث سنوات، ولكن لا يعلم بوجه التأكيد هل فتحت في عهد هذا الملك أو في عهد الملك الذي خلفه، وهو سرجون الشهير الذي سيأتي الكلام عنه[1]. وبالنسبة إلى بلاد بابل سار شيلمنصر الخامس على سياسة أبيه حيث توج نفسه ملكاً عليها وعرف لدى البابليين باسم «اولولو».

---

(1) التوراة ـ سفر الملوك الثاني 17: 4ـ6، وعن قضية فتح السامرة راجع البحث المنشور في مجلة: *JCS*, (1958), 22 ff.

السلالة السرجونية

حكم من بعد شيلمنصر الخامس الملك الشهير «سرجون» الذي لا يعرف اسمه الحقيقي ولا أصله، فإنه انتحل الاسم التاريخي المشهور «سرجون» (Sharru - kin) أي «الملك الصادق»، الذي كان، كما مر بنا، أول من تسمى به سرجون الآكدي قبل أكثر من ألف وستمائة عام، ثم تسمى به أحد الملوك الآشوريين من العصر الآشوري القديم (في مطلع الألف الثاني ق.م). وكذلك لا تعرف علاقته بالملك السابق شيلمنصر الخامس، هل كان أحد أبنائه أو من ذوي قرباه أو أنه اغتصب العرش عن طريق الانقلاب. ومهما كان الأمر فإن سرجون أسس سلالة حاكمة من الملوك كان حكمها آخر عهود التاريخ الآشوري، حيث حكم من بعده أبناؤه وأحفاده، هم سنحاريب وأسرحدون وآشور بانيبال. وعلى هذا تسمى هذه السلالة الحاكمة باسم الأسرة أو السلالة السرجونية.

حكم سرجون ثمانية عشر عاماً (721 ـ 705ق.م)، وقضى السنة الأولى من حكمه في إخماد بعض الاضطرابات التي ظهرت في بلاد آشور نفسها، ولا تعلم ماهية تلك القلاقل سوى أن سرجون نفسه يخبرنا بأنه «حرر أهل آشور من التجنيد القسري ومن جباة الضرائب»، وهي العبارة التي وردت في النص التاريخي الذي اصطلح عليه اسم «براءة أو ميثاق آشور»[1]. وتفرغ من بعد

(1) ***ARAB***, II, 132 - 5.

ذلك لمعالجة قضايا مهمة في الأقاليم التابعة[1]، نشأ البعض منها من جراء تبدل الحكم، ونتج البعض الآخر، وهو الأهم، عن فتوحات الملك السابق ثجلاثبليزر البعيدة في بلاد إيران وتضييق الخناق على الدولة العيلامية. كما أن الاستيلاء على سورية وفينيقية وفلسطين انتزع من الدولة المصرية أهم مصادر مواردها الاقتصادية واتصالاتها البرية والبحرية، مضافاً إلى كل ذلك أن الدولة الأرمينية كانت تتحين الفرص للتخلص من النفوذ الآشوري. كل هذا جعل من هذه الدول الثلاث حلفاء طبيعيين ضد الآشوريين. وبدأت بوادر ذلك في تدخل الدولة العيلامية في شؤون بلاد بابل، وتدخل الدولة المصرية في بلاد سورية الساحلية بتحريض أهلها على الثورة، وقد أثمرت سياسة التدخل والتحريض ثمارها، الأمر الذي جعل من حكم سرجون سلسلة متتابعة من الحملات الحربية لإخماد ثورات الأقاليم التابعة إلى الدولة الآشورية.

ففي بلاد بابل استطاع أحد زعمائها المدعو «مردوخ ـ أبلا ـ ادنا» (مردوخ بلادان المذكور في التوراة) أن يستقل في مملكة بابل بتحريض العيلاميين ومساعدتهم، واعتلى العرش البابلي في العام الذي جاء فيه سرجون إلى الحكم (721ق.م)، فصمم سرجون على ضرب هذا الثائر، وبدأ بغزو بلاد عيلام نفسها في العام 720ق.م، ولكن تشير مجريات الأحداث إلى أن نتيجة المعركة التي نشبت عند مدينة «دير»، (عند الحدود العراقية الإيرانية بالقرب من بلدة بدرة) لم تكن في صالح سرجون رغم ادعاء المصادر الآشورية خلاف ذلك، وكذلك التناقض ما بين الرواية البابلية الواردة في كتابة مردوخ بلادان وبين الرواية الآشورية. وقد عثر على نص مردوخ بلادان في أثناء

---

(1) فيما يلي المصادر الأساسية عن حكم سرجون:

(1) *ARAB*, II, 1 - 230.

(2) Gadd, in *IRAQ*, XVI (1954). 172 ff.

(3) Lie, *The Inscriptions of Sargon... The Annals* (1929).

(4) Tadmor, «The Campaigns of Sargon» in *JNES*, (1958).

(5) Thureau - Dangin, *Une relation de la Huitieme campagne de Sargon*.

التنقيبات الحديثة التي تمت في كالح «نمرود»[1]. والطريف ذكره بهذا الصدد أن سبب وجود نص مردوخ بلادان في نمرود مرده إلى تزوير تاريخي متعمد من جانب الملك الآشوري سرجون نفسه، فإنه نقل ذلك النص الذي وجده في مدينة الوركاء إلى مدينة نمرود ووضع بدلاً منه نصاً آخر يختلف تمام الاختلاف عن النص الذي نقله إلى نمرود. ومما يؤيد ذلك أن مردوخ بلادان استمر في الحكم في بلاد بابل زهاء أحد عشر عاماً (721 ـ 711ق.م). والمرجح كثيراً أن سرجون اضطر إلى الانسحاب من بلاد بابل لمعالجة الموقف الناجم من الثورات التي اندلعت في سورية، إذ بادر بإرسال حملة ضخمة في عام 720ق.م إلى تلك الجبهة، واستطاع أن يسحق حلفاً عسكرياً بزعامة ملك حماة المسمى «ايلو ـ بعدي» واشتراك جيش مصري.

وجرد سرجون في عام 713ق.م حملة أخرى إلى بلاد إيران فاستولى على جملة أقاليم ومدن مهمة في إقليم «كرمنشاه» و«همذان». وفي حدود ذلك الزمن ثارت القبائل الإيرانية بتحريض الدولة الأرمينية ومساعدتها في عهد ملكها المسمى «روساس». فقاد سرجون بنفسه في عام 714ق.م حملة كبيرة على تلك الأقاليم ونال نصراً كبيراً، وهذه هي الحملة التي عرفت باسم حملة سرجون الثامنة (في عام حكمه الثامن). وقد دونت أخبارها المفصلة وجاءت على هيئة رسالة أرسلها الملك إلى الإله آشور والآلهة الأخرى على أنها تقرير حربي من سرجون بصفته القائد الأعلى لجيوش الإله آشور. وتعد هذه الرسالة على قدر كبير من علو الأسلوب الأدبي، كما يتجلى ذلك بوجه خاص في الوصف الشعري الرائع للجبال والأنهار والغابات التي مرت بها جيوش سرجون وما لاقته هذه الجيوش من أهوال ومصاعب[2].

---

(1) انظر:

IRAQ, XV (1953), 123 ff.

(2) حول الترجمة راجع المصدر الخامس في الهامش رقم (30)، والتعليق على الحملة في:

Wright, in *JNES*, (1943), 173 ff.

ومن الحملات العسكرية المهمة تلك التي أرسلها في العام 717ق.م على دولة «كركميش» (جرابلس) وقضى على استقلالها، كما أرسل في خلال الخمس سنوات التالية جيوشاً إلى آسية الصغرى وقضى على استقلال جملة دويلات فيها مثل كيليكية (قوئي (Quê) في المصادر الآشورية) وفريجية (موسكي (Muski) في الأخبار الآشورية) وجاء اسم ملكها على هيئة «ميتا» (وهو ميداس في المصادر الكلاسيكية). والمرجح أن سرجون تسلم، وهو في آسية الصغرى، هدايا من ملوك «ياتنانا» السبعة، أي من أمراء جزيرة قبرص على ما يرى الباحثون، ولعل مما يؤيد ذلك المسلة العائدة لهذا الملك التي وجدت في «لرناكا» (Larnaka) (في قبرص).

وخلاصة القول أصبح سرجون في العام 710ق.م سيد الموقف من بعد انتصاراته في مختلف الميادين، وخضعت له بلاد الشام وأزال دولة إسرائيل من الوجود ونقل الكثير من أهلها أسرى وأسكنهم في بلاد ماذى، وجلب بدلاً منهم جماعات من بلاد بابل ولا سيما من منطقة «كوثى». كما تغلب على «مردوخ بلادان» وأعاد بلاد بابل إلى سلطة الدولة الآشورية.

دور ـ شروكين (خرسباد):

لم يستقر سرجون في عاصمة واحدة من العواصم الآشورية، فقد اتخذ في أول حكمه مدينة آشور القديمة مركز الحكمة ثم انتقل إلى نينوى، بالإضافة إلى العاصمة العسكرية «كالح» (نمرود) حيث جدد فيها بناء القصر الذي شيده «آشور ناصر بال». ثم اتجه أخيراً إلى تأسيس مدينة جديدة فاختار لذلك موضعاً بكراً، عند قرية قديمة اسمها «مگانبا»، على بعد نحو 15 ميلاً شمال شرقي نينوى، بالقرب من القرية المسماة «خرسباد»، فشرع في وضع أسس المدينة الجديدة في عام 717ق.م، وقد سماها باسمه أي «دور ـ شروكين»، وجعل شكلها مربعاً تقريباً، كل ضلع منه زهاء الميل الواحد (ومساحتها بالضبط 1760×1675 متراً مربعاً) وسورها بسور ضخم جعل له سبعة أبواب، كل منها سمي باسم إله آشوري على غرار بوابات نينوى، وتزينها منحوتات من

الثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية، وكانت هذه بمثابة الملاك الحارس (Lamassu)، وجعلت شوارع المدينة مستقيمة متعامدة على نظام الـ (Grid) المتبع في المدن الرومانية. وشيد قصره فوق دكة أو مصطبة ارتفاعها (50) قدماً، وهو قصر واسع يحتوي على نحو مائتي حجرة وثلاثين ساحة، كما شيد في المدينة معابد للآلهة وبرجاً مدرجاً ذا سبعة طوابق، كل طابق منها ملون بلون خاص، ويرقى إليه بسلم حلزوني يدور حوله على غرار سلم المئذنة في سامراء التي يرجح اقتباسها من برج «خرسباد». وزين القصر الملكي بأنواع الزخارف مثل القاشاني المزجج الأزرق، والمزخرف بالصور والرموز المقدسة، بالإضافة إلى الثيران المجنحة التي كانت تزين المداخل، وألواح المنحوتات الحجرية الكثيرة المنحوتة بالمشاهد المختلفة والمنقوشة بالكتابات المسمارية. وقد قدر طول هذه المنحوتات، لو صفت الواحدة إلى جنب الأخرى، زهاء الميل ونصف الميل[1].

إن ما اكتشف في مدينة سرجون أضاف أشياء مهمة إلى معرفتنا بما بلغه فن البناء والعمارة وخطط المدن وفن النحت وسبك المعادن وصناعة التزجيج، أي الآجر المزجج. ويكفي أن نورد للتدليل على البذخ في تشييد هذه المدينة أن (26) ثوراً مجنحاً وجدت فيها، يزن كل منها معدل أربعين طناً، وتوجد نماذج جميلة منها في المتاحف العالمية. وقد بلغت المهارة في سبك المعادن وصبها درجة كبيرة، ولاسيما سبك معدن البرونز الذي صنعت منه الأسود والثيران. وعثر في مخازن القصر على آلات وأدوات حربية من الحديد تبلغ زنتها زهاء (200) طن. وقد أكمل بناء المدينة في مدة عشر سنوات، ولكن لم يتمتع بانيها بالسكن فيها أمداً طويلاً، إذ إنه توفي من بعد إتمام بنائها بعام

---

(1) كانت خرسباد كما ذكرنا في تاريخ التنقيبات والتحريات من أولى المواقع التي تحرى فيها أوائل المنقبين (من جانب الفرنسيين) في منتصف القرن التاسع عشر:

Bota, Flandin, *Les Monuments de Ninive* (1949-50).

V. Place, *Ninive et LAssyrie* (1867-70).

Loud, *Khorsabad,* (1936-8).

واحد (705 ق.م)، والمرجح أن سرجون لم يستطع السكنى فيها، كما أنه لم ينتقل إليها أحد من أبنائه الملوك الذين خلفوه، بل هجروها، ولعل بعضهم نقل جزءاً من منحوتاتها إلى قصورهم. أما نهاية سرجون فلا تعلم على وجه التأكيد، والمرجح أنه اغتيل، وحكم من بعده خلفاؤه من أسرته، وقد دامت السلالة التي أسسها زهاء القرن الواحد. ونوجز فيما يأتي أحداث التأريخ الآشوري في عهود خلفاء سرجون.

خلفاء سرجون

١ ــ سنحاريب:

خلف سنحاريب أباه سرجون في عام 704ق.م، وحكم إلى عام 681ق.م. وقد وجه نشاطه الحربي بالدرجة الأولى إلى الجبهة الغربية (بلاد الشام) وبلاد بابل. أما في الجبهتين الشمالية والشرقية اللتين صرف فيهما أبوه جهوداً كبيرة فقد سادهما شيء من الهدوء والاستقرار النسبيين في عهد سنحاريب. فاقتصر الأمر على إرسال حملات حربية ليست كبيرة إلى جبال «زاجروس» وآسية الصغرى ولاسيما إقليم «كيليكية». وجاء ذكر اليونان، وبوجه خاص اليونان الأيونيين، لأول مرة في أخبار الدولة الآشوري في كتابات سنحاريب[1].

وظهرت في زمن سنحاريب أقوام جديدة اندفعت من الأنحاء الجنوبية من روسية، وهم «الكميريون» (Cimmerians) الذين ورد ذكرهم في أخبار هذا الملك بهيئة «گميرايا» (Gimirrai). وقد عبرت هذه القبائل جبال القوقاس في نهاية القرن الثامن ق.م إلى آسية الغربية وبلاد الأناضول. وفي بلاد فينيقية

(1) حول أخبار سنحاريب ونصوصه الرسمية راجع:
(1) Luckenbill, *The Annals of Sennacherib*, (1924).
(2) *ARAB*, II, 231-496.
(3) A. Heidel, in *SUMER*, IX (1953), 117 ff.
(4) Waterman, *Royal Correspondence*.

وفلسطين أظهرت جملة دويلات العصيان والثورة على السلطة الآشورية، وقد جاء في هذه المرة جيش مصري لمساعدتها، وكان من بينها مملكة «يهوذا» في عهد ملكها المسمى «حزقيا»، فبادر سنحاريب إلى ضرب هذه الدويلات في عام حكمه الرابع (701ق.م). ولما أن تم له إخضاعها نصب بدلاً من الحكام والأمراء السابقين حكاماً جدداً. وضيق الخناق على مملكة يهوذا وحاصر عاصمتها أورشليم، وترك على حصارها كبير قواده الذي ذكر في التوراة باسم الـ«رابشاقة» (معناه كبير السقاة). وروت التوراة الحوار الطريف[1] الذي جرى بين اليهود المحاصرين وبين قادة الجيش الآشوري. وقد أبى الملك «حزقيا» الخضوع والاستسلام بتحريض النبي «اشعيا». ولا تعلم نتيجة الحصار بوجه اليقين، فتروي التوراة أن الجيش الآشوري حل فيه الوباء وفتك به، ولكن المرجح أن الجيش رفع الحصار عن أورشليم مقابل دفع جزية كبيرة من الفضة والذهب والنساء، من بينهن بنات الملك، كما جاء في حوليات سنحاريب[2].

ويبدو أن سنحاريب وضع الخطط وهو في فلسطين لغزو بلاد مصر، وشرع بالزحف في الطريق البري التأريخي من فلسطين حتى بلغ موضع العريش أو «رفح»، على بعد نحو (30) ميلاً شرقي القناة الآن ولكن هذه الحملة لم تحرز النجاح بسبب العواصف والزوابع الترابية التي حالت دون مواصلتها السير إلى داخل الأراضي المصرية، أما التوراة فتنسب إخفاق الحملة إلى التدخل الإلهي حيث إن «ملاك الرب خرج ليلاً وضرب مائة وثمانين ألف وخمسة آلاف». ويروي هيرودوتس رواية طريفة عن الموضوع إذ يعزو الإخفاق إلى أن حشوداً من الجرذان قضمت الجلود والحبال في سلاح الجيش، على أن المصادر الآشورية لم تذكر شيئاً عن ذلك الحدث.

وفي بلاد بابل أظهر سنحاريب القسوة البالغة إزاءها بسبب ظهور الثائر

---

(1) راجع سفر الملوك الثاني 18: 13، 19: 34، وسفر الأيام الثاني، 32: 1 ـ 2. وسفر اشعيا 36: 1ـ37.

(2) *ARAB*, II, 240.

القديم مردوخ بلادان الذي ثار في عهد أبيه واستقل في بلاد بابل فترة طويلة على نحو ما مر بنا. فعاجله سنحاريب في العام 703ق.م وقضى على جموعه، ولكنه استطاع الإفلات من الأسر. ونصب سنحاريب على بابل أحد أتباعه من البابليين المسمى «بيل ـ ابني» الذي نشأ وتربى في نينوى، على أن مردوخ ـ بلادان ظهر مرة أخرى من بعد ثلاث سنوات، ولكنه أخفق في مسعاه. وبعد ستة أعوام على هذه الأحداث صمم سنحاريب على غزو المدن العيلامية في سواحل الخليج، فجهز لهذا الغرض حملة بحرية وبرية ضخمة في عام 696 ق.م وطهر الأجزاء الجنوبية من الثوار من أنصار الثائر «مردوخ بلادان» والتقى من بعد ذلك الجيش البري بالأسطول الذي سيره الملك من نينوى إلى مدينة «اوبس» وعندها نقله إلى الفرات، وكان موضع الالتقاء المدينة المسماة «باب ساليميتي» القريبة من مصب الفرات بالخليج[1]، حيث كان النهران يصبان في الخليج منفردين. ونجح سنحاريب في غزو المدن العيلامية الساحلية، ورجع يحمل الغنائم وأسلاب الحرب الكثيرة، ولكن هذه الضربة لم تفض على تجدد الأطماع العيلامية ببلاد بابل، إذ إنها استمرت من بعد ذلك في تحريضها على العصيان، فثار البابليون في عام 689ق.م، وعندئذٍ صب سنحاريب جام غضبه على بلاد بابل فدمر المدينة المقدسة ودك حصونها وقصورها وسلط ماء الفرات على أنقاضها وأقسم أن بابل لن تقوم لها قائمة طوال 70 عاماً[2]. ولما ترك بلاد بابل عين ابنه أسرحدون والياً عليها بالنيابة عنه.

---

(1) حول «باب ساليميتي» وموضعي مصب النهرين قبل اتصالهما بالقرنة في الأزمان المتأخرة، راجع الفصل الخاص بالمقدمة.

(2) ومن الطريف ذكره بصدد هذا القسم أن «أسرحدون» لما خلف أباه في الحكم وعزم على إعادة بناء بابل، ولكي لا يحنث بقسم أبيه، فسر الرقم (70) بأنه رقم (11)، وكلا الرقمين يكتب بطريقة العدد الستينية بعلامتين مسماريتين متطابقتين مع تغيير مرتبتهما العددية.

طرف من أعمال سنحاريب العمرانية:

حكم سنحاريب ثلاثة وعشرين عاماً (704ـ681ق.م)، وقد مر بنا موجز بأبرز أعماله الحربية ولكنه إلى جانب ذلك اشتهر بنشاط كبير في حقل البناء والتعمير ومشاريع الري الزراعية في بلاد آشور. وأول ما نذكر من أعماله العمرانية أنه جعل نينوى العاصمة الرئيسية للأمبراطورية، ومن أجل ذلك وجه الشطر الأكبر من نشاطه العمراني إلى تجديد أبنيتها وتجميلها وتوسيعها وتحصينها. فقد زينها بإقامة المعابد والقصور الجديدة وعرس الحدائق الباسقة، وجعلها عاصمة تليق بالأمبراطورية الواسعة التي تطورت إليها المملكة الآشورية. فمن ناحية سعتها حولها من مدينة ذات محيط لا يتجاوز الميلين إلى مدينة بلغ محيطها زهاء ثمانية أميال، وضمت قسمين جديدين خصصهما الملك سنحاريب للقصور والمعابد، وهما الموضعان المعروفان الآن باسم تل «قوينجق» وهو القسم الشمالي من المدينة، وتل النبي يونس، في الجانب الثاني من المدينة على يمين الطريق الحديث من الموصل إلى بغداد.

وقد اقتصرت التنقيبات القديمة على الموضع الأول، أي تل قوينجق. أما منطقة تل النبي يونس فلم تمسه معاول المنقبين بعد.

وقد جعل في سور المدينة الداخلي خمس عشرة بوابة تحرسها الثيران المجنحة، وكل منها سمي باسم خاص منسوب على الأكثر إلى اسم أحد الآلهة المشهورة. وكان سنحاريب مولعاً بغرس الحدائق والبساتين فجلب لتجميل عاصمته الأشجار النادرة من أقطار مختلفة إلى حدائق نينوى. والمرجح أنه كان أول من أدخل زراعة القطن إلى العراق، وقد سماه الشجرة التي تحمل الصوف. وجلب إلى العاصمة ماءً عذباً من المنابع الخاصة بنهر الگومل بطريق قناة شيدها بأحجار الكلس، وهي تعبر المرتفعات والوديان فشيد لها القناطر في بعض الوديان مما لا تزال آثارها باقية. وتبدأ تلك القناة من الموضع المسمى «جروانة»، مسافة خمسين ميلاً

عن نينوى[1]. ونحتت عند صدر القناة (عند القرية المسماة خنس) على وجه حجرة شاهقة منحوتات تمثل الآلهة المختلفة مع كتابة موجزة عن هذا المشروع. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن سنحاريب خلف جملة منحوتات جبلية أخرى، مثل منحوتات «معلثاي»، في مدخل وادي دهوك، وفي جبل «جو دي داغ» عند الحدود العراقية ـ التركية[2].

أسرحدون:

تروي التوراة (سفر الملوك الثاني 19: 36 ـ 37) أن سنحاريب اغتاله أحد أبنائه. والمرجح أن نزاعاً أو حرباً أهلية نشبت على أثر ذلك، إلى أن استطاع ولي العهد «أسرحدون» وهو أصغر أبناء سنحاريب، إخمادها. ولعل مما يؤيد ذلك ما جاء في فاتحة حوليات أسرحدون نفسه[3] إذ يقول إن اتهامات إخوته ووشايتهم به أوغرت صدر أبيه عليه، بحيث إنه اضطر إلى الهرب والاختفاء. ومع أنه لم يذكر حادثة قتل أبيه إلا أن المحتمل، كما جاء في التوراة، أن أحد إخوته اغتاله، ويروي أسرحدون بهذا الصدد عنهم أنهم

---

(1) حول قناة سنحاريب التي تحراها جماعة من الآثاريين من جامعة شيكاغو انظر:
Jacobsen and Lloyd, *Sennacerib Aqueduct at Jerwan* (1935).
وعن المنحوتات الجبلية من عهد سنحاريب وغيره من الملوك الأشوريين:
W. Bachmann, *Felsreliefs in Assyrien*, (1927).

(2) حول قناة سنحاريب التي تحراها جماعة من الآثاريين من جامعة شيكاغو انظر:
Jacobsen and Lloyd, *Sennacerib Aqueduct at Jerwan* (1935).
وعن المنحوتات الجبلية من عهد سنحاريب وغيره من الملوك الآشوريين:
W. Bachmann, *Felsreliefs in Assyrien*, (1927).

(3) عن النصوص الخاصة بحكم أسرحدون بالإضافة إلى المرجع الأساسي المرموز له بـ ARAB, I انظر المراجع الآتية:
(1) C. Thompson, *The Annals of Esarhaddon and Ashur-banipal* (1931).
(2) A. Heidel, in *SUMER*, XII (1956), g ff.
(3) R. Borgar, *Die Inschriften Asarhaddons* (1956).
(4) S. Smith, *Bab. Historical Texts*, (1924).
(5) King. *Bab. Chronicles*, IV, 34-37.

صاروا من بعد ذلك «يناطح أحدهم الآخر كالتيوس لأخذ الملوكية». ومهما كان الأمر فإنه تغلب عليهم، واعتلى العرش الأشوري في عام 681 ق.م. وبعد أن استقامت له الأمور واستتبت أحوال المملكة كانت فاتحة أعماله إعادة بناء مدينة بابل من بعد تدمير أبيه لها كما مر بنا ولعله كان مدفوعاً باعتقاده أن ما أصاب أباه كان بسبب غضب آلهة بلاد بابل لانتهاك حرماتها. وقد استخدم أسرحدون أهل بابل في تجديد أبنيتها. وقد عثر في المدينة على نصوص مدونة وبقايا بنائية من عهد أسرحدون. بيد أن أعمال التجديد الجسيمة استغرقت وقتاً طويلاً استمر إلى بداية حكم ابنه وخليفته آشور بانيبال. وقد ضمن أسرحدون بأعماله المحسنة تجاه بابل رضا البابليين وتقبلهم لحكمه، فاستقامت له الأمور في بلاد بابل وعمها الاستقرار باستثناء ثورة جهيضة قام بها في عام 680ق.م ابن الثائر القديم «مردوخ بلادان» للاستيلاء على منطقة «أور».

ونشبت في الجبهة الغربية (بلاد الشام) ثورات لطرح النير الأشوري، ولكن أسرحدون استطاع أن يخمدها، نخص بالذكر منها الثورة التي قام بها ملك «صيدا» المسمى عبد ملكوتي في عام 677ق.م فكان مصيره الأسر والقتل ودمرت مدينته و«ألقيت في البحر» على حد تعبير حوليات هذا الملك، وأجلى سكانها إلى بلاد آشور؛ وأعطيت أراضيهم إلى أهل مدينة «صور»[1].

وبالنظر إلى هدوء الأحوال في بلاد بابل وفي بلاد الشام وجه «أسرحدون» نشاطه إلى الجبهتين الشمالية والشرقية. فإن الكميريين الذين رأيناهم يندفعون في عهد أبيه من جنوبي روسية ويعبرون القوقاز إلى آسية الصغرى وأرمينية وإيران قد التحقت بهم جماعات أخرى من أقربائهم جاءت من المهد نفسه في السنوات الأولى من حكم «أسرحدون»، وقد ذكر هؤلاء الأقوام الجدد في الأخبار الآشورية باسم اشكوزيين (Ishkuzai) وسكيثين (Scythians) في المصادر الكلاسيكية، وإن التقاء هؤلاء الاشكوزيين مع

---

(1) حول المعاهدة التي أبرمت مع ملك صور المسمى «بعلو» انظر:
R. Borgar, *Ibid., 107 ff.*

الكميريين جعل منهم قوة عظمى أخذت تهدد الولايات الآشورية وحامياتها في إقليم كيليكية وغيره (آسية الصغرى) في عام 679ق.م، وقد سبق لسرجون أن طرد الكميريين إلى ما وراء نهر «قزل ارمق» بيد أن أولئك الأقوام انقضوا على إقليم «فريجية» وقضوا على المملكة الحاكمة فيه بمساعدة الدولة الأرمينية. أما أسرحدون فقد اتبع سياسة المصالحة والتحالف مع تلك الأقوام، وقد أبرم معهم معاهدة سلم تزوج بموجبها أحد زعمائهم المسمى «بارتاتوا» من أميرة آشورية.

واستطاعت القبائل المادية المتمركزة في الهضبة الإيرانية، جنوب شرقي بحيرة أورمية، أن تستقل في عهد أسرحدون بزعامة أحد قوادها المسمى فرهارطس (Phraortes) في عام 680ق.م، وكانت سابقاً تابعة إلى الأمبراطورية الآشورية، فوجه أسرحدون عدة حملات حربية ولكنها لم تحرز النجاح التام.

فتح مصر:

نجح أسرحدون مرة بالحرب ومرة بالدبلوماسية أن يوطد الأمور في أرجاء أمبراطوريته الواسعة ـ في بلاد بابل وبلاد الشام، وفينيقية، وفي تخومها الشمالية والشمالية الشرقية المترامية، البالغة زهاء 1200 ميل. ولما استقامت له الأمور أخذ يعد العدة للبدء بمشروع حربي جسيم، سبق أن شرع فيه أبوه سنحاريب ولكنه لم يفلح، ونعني بذلك غزو مصر وضمها إلى الأمبراطورية الآشورية. ومهد لذلك بضمان ولاء القبائل العربية في بوادي الشام لسلامة مرور جيوشه الضخمة إلى سوريا ومنها إلى مصر، فعقد العهود مع بعض أمراء بادية الشام ومشايخها، مثل «دومة الجندل» (أدومو أو أدومتو في الأخبار الآشورية). وسار بجيوشه الجرارة في عام 679ق.م واستولى على المدينة التي ورد ذكرها باسم ارزاني في وادي العريش، وبلغ رفح (Rapihu) جنوب غزة، عبر صحراء سيناء. ويخبرنا في حولياته أنه لاقى الأهوال والعجائب في هذه الصحراء المخيفة، من أفاعٍ «ذوات رأسين» وحيوانات غريبة خضراء تفتك بضربات أجنحتها. وبعد مسيرة خمسة عشر يوماً بلغ حدود «مصر الخضراء»، وكان يحكمها تهارقا أو

«طهراقا» الحبشي (688ـ663ق.م) الذي لم يستطع صد الغزو الآشوري فهرب إلى جنوبي البلاد. ولعله من الطريف أن نورد جزءاً من نص أسرحدون عن غزو مصر: «من مدينة اشحفري (Ishupri) إلى العاصمة منفس (Mempi) وهي مسافة 15 يوماً قاتلت قتالاً متواصلاً جيش «طرقو» ملك مصر والحبشة، الملعون من جميع الآلهة. لقد أصبته خمس مرات بسهامي محدثاً به جراحاً لم يشف منها، ثم حاصرت ممفي، عاصمته وفتحتها في نصف يوم.. وغنمت الملكة وحرم قصره، وولي عهده وأولاده الآخرين، وجميع أمواله وخيوله وماشيته، وأخذت غنائم كثيرة إلى بلاد آشور، وأجليت جميع الأحباش عن أرض مصر، وعينت ملوكاً على أقاليم مصر، وحكاماً وموظفين ومراقبين للموانىء.. وفرضت عليهم الجزية السنوية تدفع إليّ بصفتي سيدهم»[1].

وعلى الرغم من تبجح أسرحدون لم يكن فتحه لمصر فتحاً دائماً، إذ عاد طهراقا من موضع اختبائه بعد عامين، واستعاد العاصمة «منفس» وشن الحرب على الحاميات الآشورية في الدلتا فأسرع أسرحدون يعد العدة للقضاء على طهراقا وسار بنفسه على رأس الجيش عبر سورية، ولكن عاجلته المنية وهو في حران في عام 669ق.م، فترك أمر مصر إلى خليفته في الحكم «آشور بانيبال»، الذي أعاد فتحها في 667ق.م مما سنذكره في كلامنا على حكمه.

قضية ولاية العهد:

قبل أن يتوفى أسرحدون بثلاثة أعوام رتب أمر ولاية العهد بين أبنائه،

---

(1) وجدت مديرية الآثار العراقية في نينوى عام 1955 في تل النبي يونس حيث بقايا قصر الملك أسرحدون، كسراً كثيرة من تمثال أو تماثيل الفرعون طهراقا، كما تدل على ذلك الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على بعض تلك الأجزاء، ووجدت كذلك كسراً من تمثال الآلهة المصرية أنوقت (Anuqet). ومما لا شك فيه أن تكون هذه البقايا وغيرها من بين الغنائم الحربية التي جلبها أسرحدون من مصر (انظر مجلة سومر، المجلد 11، 1955 والمجلد 12؛ 1956 وعن النصوص المتعلقة بفتح مصر، ولاسيما نصوص مسلة زنجرلي، انظر: (ANET, 293 ff.).

ولاسيما بين ولديه «شمش ـ شم ـ أوكن»، وهو الابن الأكبر، وابنه الأصغر «آشور بانيبال» الذي اختاره لتولي العرش. وعين الأول ملكاً على عرش بلاد بابل. وقد تمت هذه التسوية في اجتماع رسمي حضره الأمراء وقواد الجيش والسفراء وممثلون عن الأقاليم التابعة للأمبراطورية، وأخذ البيعة منهم في ولائهم لولي العهد آشور بانيبال، وأبرمت بهذا الشأن مع رؤساء الأقاليم التابعة معاهدة وجدت نسخة منها في نمرود في أثناء الموسم السادس من تنقيبات البعثة البريطانية 1955[1]. ويبدو أن ولي العهد المختار آشور بانيبال كان محبوباً مفضلاً من جانب جدته لأبيه الآرامية الأصل واسمها «نقية ـ زكوتو»، فحصلت من البابليين ومن حفيدها الثاني «شمش ـ شم ـ أوكن» على الولاء لآشور بانيبال.

ومع أن أسرحدون لم يقصد من وراء عمله ذاك تقسيم الأمبراطورية الآشورية بين ولديه، إلا أنه ضمن ولاء البابليين بتنصيب ملك عليهم ومنحه الثاني ـ آشور بانيبال ـ بجعله ملكاً على بلاد آشور وسائر الأقاليم والولايات التابعة لها.

آشور بانيبال:

وهكذا تبوأ آشور بانيبال عرش المملكة الآشورية (668ـ627ق.م) وتولى في الوقت نفسه أخوه «شمش ـ شم ـ أوكن» السالف الذكر عرش بلاد بابل، واستقامت الأمور ما بين الأخوين طوال سبعة عشر عاماً. وسنرى كيف آل الأمر ما بين الأخوين من بعد ذلك.

كانت أولى الأعمال التي اضطلع بإنجازها آشور بانيبال إعادة فتح مصر التي سبق أن رأينا كيف أنها ثارت من بعد عامين على فتحها من جانب أبيه الذي قلنا إنه جهز حملة لفتحها مرة أخرى ولكنه توفي في مدينة حران عام

---

(1) راجع نص المعاهدة في:
Wiseman, in *IRAQ*, XX (1958), g ff.

669ق.م. وكان أول ما شرع به آشور بانيبال في سبيل إنجاز هذه المهمة الحربية أن أرسل قائد الجيش الأعلى إلى سورية لاستنفار الجيوش وتعبئتها، فجمع جيشاً كبيراً أمدَّه به الملوك والأمراء التابعون، وسار من بعد ذلك إلى حدود مصر وأوقع الهزيمة بجيش الفرعون «طهراقا» فهرب من العاصمة «منفس» إلى طيبة، فلاحقه الجيش الآشوري وفتح هذه المدينة. وهكذا حقق الآشوريون في عهد آشور بانيبال عملاً عسكرياً يعد فريداً من نوعه بالنسبة إلى ذلك العصر، إذ إنهم فتحوا بلاداً نائياً تبعد أكثر من 1300 ميل عن موطنهم، تختلف عنهم في عاداتها وأوضاعها ويجهلون لغتها، الأمر الذي تعذر فيه حكمها حكماً مباشراً، ولذلك حذا آشور بانيبال حذو أبيه في تعيين ملوك وولاة من أهل البلاد من المناوئين لحكم الملك الحبشي «طهراقا» وإلى ذلك وضعت حاميات آشورية قوية في طيبة وفي منطقة الدلتا. بيد أن كل هذا لم يحقق الغرض، إذ ظهرت بوادر الثورة بعد فترة غير طويلة من جانب الكثير من أولئك الأمراء والملوك بالاتفاق مع طهراقا على اقتسام السلطة في البلاد. فأسرع القواد الآشوريون بمهاجمة المنشقين وأسروا الكثير منهم وأرسلوهم مكبلين إلى نينوى فقتلوا فيها. وأبقى الملك الآشوري على «نيخو» أحد ملوك الدلتا، إذ عفا عنه وأعاده إلى عاصمته في الدلتا، «سايس» (صا الحجر)، فاستعاد عرشه. ومع ذلك فقد تجددت الثورة في عام 655 بقيادة أحد أقرباء الملك الحبشي طهراقا الذي مات في أثناء هذه الحوادث. فجردت حملة آشورية أخرى ودخل الجيش الآشوري إلى طيبة للمرة الثانية ودمرت المدينة، وأخذت منها غنائم كثيرة من بينها مسلتان مغلفتان بالبرونز وانتهى الاحتلال الآشوري لمصر بظهور الملك الجديد المسمى «بسماتيك» الأول، الذي يرجح أنه كان ابن الملك نيخو، فأعلن هذا الاستقلال وطرد الحاميات الآشورية من الدلتا بمساعدة جند من مرتزقة الإغريق الآيونيين، وأسس الأسرة السادسة والعشرين (663ـ525ق.م). على أن المصادر الآشورية لا تذكر هذه الأحداث، بل مصدرنا عنها رواية هيرودوتس. أما آشور بانيبال فإنه لم يفعل شيئاً إزاء ذلك لأنه كان مشغولاً بحرب طاحنة في بلاد عيلام، وهكذا فإن

الاحتلال الآشوري لمصر لم يدم سوى فترة قصيرة لم تتجاوز الخمسة عشر عاماً (670ـ655ق.م).

الجبهات الأخرى:

كان للحملات العسكرية التي أرسلها آشور بانيبال إلى مصر ردود فعل من عدة جهات من الأمبراطورية الآشورية. فإن انشغال جزء غير قليل من الجيوش الآشورية في ميدان يبعد كما قلنا زهاء 1300 ميل سبَّب الضعف والوهن في القوات الآشورية وسرعان ما ظهرت بوادر العصيان والثورة في عدة ولايات مثل فينيقية وغيرها. ومع أن تسلسل الأحداث في السنوات الأخيرة من حكم آشور بانيبال غير مضبوط تماماً غير أنه يمكن تخمين ما وقع ما بين عام 665 وعام 655ق.م ومن ذلك تحالف هذا الملك مع الأشكوزيين (السكيتين)، والحرب في بلاد عيلام، واندحار الملك العيلامي المسمى «تيومان» الذي قتل في المعركة وقطع رأسه وأخذ إلى نينوى وعلق فوق شجرة في الحدائق الملكية، وقد جاء ذلك ممثلاً في إحدى المنحوتات من عهد الملك آشور بانيبال[1].

ونشبت في بلاد بابل ثورة عارمة قام بها أخو الملك نفسه، أي «شمش ـ شم ـ أوكن» الذي كان قد عين ملكاً على بلاد بابل من جانب أبيه، على ما ذكرنا. ولعل انشغال أخيه الملك في عدة جبهات أثارت أطماعه الكامنة بعد أن ظل موالياً له في الظاهر زهاء 17 عاماً. ولكي يضمن النجاح لثورته سعى بالمفاوضات السرية إلى الحصول على تحالف لمساعدته دخلت فيه بلاد فينيقية ومملكة يهوذا وبعض القبائل العربية في بادية الشام والكلدانيين الآراميين في الأجزاء الجنوبية من العراق والعيلاميين وحتى مصر وليديو (إحدى الولايات الشرقية في آسية الصغرى) وكان من المؤكد أن يوقع هؤلاء المتحالفون الضربة القاضية بالدول الآشورية لو أنهم بدؤوا العمل في وقت واحد، ولكن عيون

---

(1) Frankfort, *AAO*, pl. 114.

الملك اكتشفت المؤامرة. وبعد أن أنذر البابليين لردهم إلى الطاعة[1]، ولما لم يأبه بإنذاره البابليون نشبت الحرب الطاحنة بين الأخوين. وظلت المعارك تدور زهاء ثلاثة أعوام. ولما أدرك أخوه شمش ـ شم أوكن الموقف الميؤوس منه أضرم النار في قصره في بابل وقضى نحبه محترقاً وسط النيران، عام 648ق.م وحاول آشور بانيبال تهدئة بلاد بابل فعين أحد الزعماء الكلدانيين المسمى «قندلانو» نائباً للملك على عرش بابل (647ـ627ق.م).

وبعد الانتهاء من حرب بابل وتسوية قضية الحكم فيها على الوجه السابق جرد آشور بانيبال حملات على بعض القبائل العربية التي ساعدت أخاه في الحرب. ومما لا شك فيه أن جيوش الملك لم تستطع تحقيق النجاح التام في هذه الحملات، على أن الأخبار الآشورية تعدد جملة انتصارات مثل دحر رئيس القبيلة التي ورد ذكرها باسم «بني قيدار» ورئيسها أبي عاطي، وأنها غنمت أعداداً كبيرة من الجمال وجاءت بها إلى بلاد آشور وصار الجمل يباع بأقل من شيقل واحد من الفضة. وحصل حتى العمال والصناع والعبيد على هدايا من الجمال[2].

ووجهت حملة على ملك بلاد عيلام الذي وقف إلى جانب أخيه ودامت الحرب في عيلام زمناً طويلاً، انتهت بانتصار الجيش الآشوري في عام 639ق.م، ودمرت البلاد ونهبت العاصمة «سوسة»، وانتهكت حرمة معابدها وحطمت تماثيل آلهتها، ورميت بالنار، كما نبشت قبور ملوكها ونقلت عظامهم إلى بلاد آشور، لكي يحرم أشباح الموتى من الاستقرار فتنكل بالأحياء من أهل عيلام، ونثر الملح على أنقاض المدن المخربة. وبحسب تعبير الأخبار الرسمية «أحل الدمار في بلاد عيلام مسافة شهر و25 يوماً» وأخذت غنائم كثيرة من الذهب والفضة. وكانت هذه في الواقع ضربة ماحقة لم تقم من بعدها لبلاد عيلام قائمة.

---

(1) انظر الرسالة رقم 301 المنشورة في: Waterman, *op. cit*,

(2) *ANET*, 299.

سقوط الأمبراطورية الآشورية:

لم يكد يمضي زمن طويل على تدمير بلاد عيلام حتى أخذت ظواهر الأحوال تشير إلى أن الملك آشور بانيبال نجح في توطيد أركان أمبراطوريته الواسعة الممتدة من جبال طوروس وجنوبي الأناضول وأرمينية وبحر قزوين إلى جبال زاجروس وإلى الخليج العربي.

ولكن رغم الظواهر سرعان ما انهار ذلك البناء الشامخ الضخم. فكيف وقع ذلك؟ ومع أن سقوط الدولة الآشورية يشترك في علله وأسبابه العامة مع الكثير من الأسباب التي درج المؤرخون على تعدادها عن سقوط الدول والأمبراطوريات، بيد أن سقوط الأمبراطورية الآشورية يتفرد في بعض العلل الخاصة، منها ما كان خافياً ومنها ما كان ظاهراً للعيان. فمن الأسباب الظاهرة أن المتتبع للتأريخ الآشوري لا بد وأن تلفت نظره حقيقة بارزة فيه، تلك هي تطرف الملوك في سياسة الفتح والغزو والإغراق في النواحي العسكرية والروح الحربية. وتكاد تكون أعوام حكم ملوكها حروباً متواصلة، بحيث إنهم حملوا مواردهم فوق طاقاتها، ومدوا فتوحهم إلى جهات نائية يتعذر الاحتفاظ بها، ولعل أوضح مثال على ذلك فتح مصر الذي أنهك ماكنة الحرب الآشورية عدة سنوات. وإلى ذلك فإن سياسة القسوة والتدمير والقتل الجماعي والتمثيل بالأسرى التي سار عليها الملوك الآشوريون جرت على الآشوريين، رغم الإرهاب الذي كانت توقعه بالشعوب المفتوحة، نقمة الشعوب وسخطها، أما ولاؤها وتبعيتها لهم فلم يكن ليحصل إلا باستمرار الإرهاب والبطش إلى حد الإسراف. وابتدع ملوك الدولة الآشورية وسائل جهنمية في هذا الشأن، ومنها سياسة تهجير الشعوب والأقوام برمتها ومحو البعض منها، بحيث يصح القول إن مثل تلك المظالم قد برهنت على صحة الحكمة التأريخية القائلة «الظلم إذا دام دمر». وإلى هذا فإن التطرف والإغراق في العناية بفنون الحرب والفتك والدمار على حساب فنون السلم والبناء سبب إهمال تطوير موارد البلاد وتحميلها فوق طاقاتها.

ومهما كانت حقيقة الأسباب الخفية والظاهرة في سقوط الأمبراطورية

الآشورية فيجدر أن نوجز الأحداث المباشرة، فنقول إن السنوات الأخيرة من حكم آشور بانيبال (639-630) يكتنفها الغموض، فقد انقطعت حولياته منذ عام 639ق.م ولعل السبب في ذلك الاضطرابات الداخلية والنكسات العسكرية، ولذلك فيكون المؤرخ الشهير هيرودوتس مصدرنا الوحيد في ما رواه عن هجمات الماديين[1]، إذ يقول إن افراهاط ملك الماديين هاجم الآشوريين ولكنه قتل في المعركة (653ق.م) وخلفه ابنه كي‌اخسار (Cyaxares) الذي لم يواصل الحرب مع الآشوريين ولكن الاشكوزيين فرضوا سيادتهم على الماديين، وعبروا جبال زاجروس وغزوا بلاد آشور وسورية وفلسطين وكادوا أن يدخلوا إلى مصر لولا أن الفرعون «بسماتيك» دفع لهم الجزية، وبعد نحو 28 عاماً تمكن «كي‌اخسار» السالف الذكر من طرح نير الاشكوزيين عن قومه بقتله زعمائهم وهم ثملون في وليمة شرب، واستطاع هذا الملك المادي أن يكون من القبائل المادية جيشاً قوياً ضخماً، واتخذ «اكتبانا» (همذان) عاصمة له، ووسع حدود مملكته من بحيرة أورمية إلى منطقة طهران وبلاد فارس. وصادف في حدود ذلك الزمن أن البابليين استأنفوا محاولتهم لنيل الاستقلال عن التبعية الآشورية. وتزعمهم في هذه المرة حاكم «القطر البحري» (الأجزاء الجنوبية من بلاد بابل) المسمى نبو بولاصر وهو كلداني أي آرامي الأصل، فهجم على الحامية الآشورية في مدينة نفر 626ق.م ثم قصد بابل واستقل بعرشها وأخذ يصفي الحاميات الآشورية الأخرى في بلاد بابل، كما سبق له أن تحالف مع الملك المادي «كي ـ اخسار»، السالف الذكر، الذي توجه في حدود ذلك الزمن بجموعه إلى بلاد آشور. أما الملك آشور بانيبال فإنه توفي في العام 627 أو 626ق.م وخلفه على العرش ابنه المسمى آشور اطل ايلانسي الذي لم يدم حكمه زمناً طويلاً وتلاه في الحكم أخوه المسمى «سين شار ـ اشكن» الذي لم يستطع إنقاذ الوضع المتدهور سوى اتخاذه موقف الدفاع إزاء هجمات الملك البابلي «نبو بولاصر» فالتجأ إلى

---

(1) Herodotus, I, 102 ff.

طلب العون من ملك مصر، بسماتيك الأول، ولكن العون المصري جاء متأخراً في الوقت الذي كانت فيه العاصمة الآشورية «نينوى» مهددة بالسقوط من جانب «نبو بولاصر»، كما أن الجيوش المادية بلغت في زحفها في نهاية عام 615ق.م إلى منطقة كركوك، ثم مدينة «آشور» التي سقطت بأيديهم في عام 614ق.م. والتقى الملك البابلي بالملك المادي «كي ـ اخسار» عند أسوار هذه المدينة. وعقدت ما بين الملكين معاهدة تحالف وصداقة كان من نتائجها زواج ولي العهد البابلي نبوخذ نصر الشهير من ابنة الملك المادي المسماة «أميتس»[1] وزحف الجيش من بعد ذلك على العاصمة نينوى القريبة وكان الهجوم الأخير في عام 612ق.م قد قرر مصير الدولة الآشورية حيث سقطت العاصمة العظيمة، رغم ما أبداه المدافعون عنها من بسالة واستماتة في حصار دام طوال ثلاثة أشهر. وهكذا سقط ذلك «المارد الآشوري» بعد أن دوخ العالم القديم عدة قرون[2]. وانسحبت فلول الجيش الآشوري إلى مدينة حران، بقيادة أحد قواد الملك الآشوري «سين شار ـ اشكن» المسمى آشور أوبالط الثاني. وجاء عام 610ق.م جيش من مصر لمساعدة الآشوريين فأسرعت الجيوش البابلية والمادية إلى حران. وبعد حرب قصيرة استولت عليها، فكان هذا نهاية الفصل الأخير من تلك الدراما التأريخية.

موجز الخصائص الحضارية:

لما كنا سنخصص الجزء الثاني من هذا الكتاب للأوجه والمقومات المختلفة لحضارة وادي الرافدين وبضمنها الحضارة الآشورية، فإننا نكتفي في هذا الموجز بذكر أبرز الخصائص المميزة لهذه الحضارة، مثل نظام الحكم والحرب والفنون وغير ذلك من الأمور التي تفردت بها الثقافة الآشورية.

---

(1) حول هذه الأحداث انظر: Gadd, *The Fall of Nineveh*.

(2) حول صدى سقوط بلاد آشور عند اليهود راجع التوراة ولا سيما أسفار الأنبياء مثل سفر «ناحوم» 2 ـ 3 فما بعد، وسفر «زفانيا»، 2: 13 فما بعد، وسفر حزقيال 31: 3، 32: فما بعد.

وأول ما نذكر أن ننبه إلى ما يكون قد انطبع في ذهن القارىء مما أوجزناه عن التأريخ السياسي والحربي للآشوريين من أن ذلك التأريخ لم يكن سوى سلسلة من الحملات والحروب الدموية المدمرة، من جانب شعب طغى عليه هوس العظمة الحربية. ومع أننا لا ننكر أن الآشوريين كانوا في الواقع أمة حربية في جميع عهودهم، وتميزوا عن أقربائهم البابليين في هذه الناحية، وسجلوا بأنفسهم الفظائع والمظالم التي ارتكبها ملوكهم وقواد حربهم، إلا أنه يصح القول مع ذلك، وأرجو ألا يحمل مني ذلك على أني أدافع عن الحرب والتدمير، إن الآشوريين لم ينفردوا في هذه الأمور عن الأمم الحربية الأخرى، قديمها وحديثها، بل إن من الأمم الحديثة ولا سيما الأوروبية من فاقت الآشوريين في إحلال الدمار والهلاك بالشعوب المغلوبة. ونأخذ من الأمم القديمة على سبيل المثال الدولة الرومانية، سواء كانت في عهدها الجمهوري القديم المضاهي للعصر الآشوري الوسيط أم في العهد الأمبراطوري، المضاهي أيضاً لعصر الأمبراطورية الآشورية، فلم يكن الرومان أقل براعة من الآشوريين بل فاقوهم في أفانين التدمير والتعذيب، واللهو بقتل الأسرى، أو أنهم يدعون الأسرى بقتل بعضهم بعضاً أو تفترسهم الوحوش الضارية في ملاعبهم المشهورة (امفيثياتر) حيث النساء والشيوخ والأطفال يتسلون بمشاهد العذاب والدماء. ومع ذلك فالغريب في الأمر أن ينفرد الآشوريون دون سائر الأمبراطوريات القديمة بشهرة الظلم والقسوة، مما جعل اسمهم مرادفاً للصفات والنعوت البغيضة ولا سيما بين الشعوب الأوروبية. وعندي أن مرد ذلك إلى الدعاية والتشهير اللذين نالهما الآشوريون على أيدي مدوني التوراة، من جراء العلاقات العدائية بينهم وبين العبرانيين، والضربات الماحقة التي وجهها إليهم الآشوريون. ولا يخفى أن التوراة تأتي في مقدمة وسائل الدعاية في العالم الحديث، حيث يقرأها المسيحيون صغارهم وكبارهم ليل نهار، في حين نسيت مظالم الدول العسكرية الأخرى إلا لدى من يقرأ تأريخها.

وثمة ميزة تفردت بها الحضارة الآشورية استتبعت اتساع الفتوح الآشورية. فإن الثقافة الآشورية إلى جانب صلتها بالحضارة «الأم» (السورية

والبابلية) أثرت وتأثرت بدورها بثقافات شعوب أخرى كثيرة اتصل بها الآشوريون عن طريق الحرب والسلم، بحيث يصح أن يطلق على الآشوريين «ورثاء العصور». وكانت اتصالات الآشوريين الواسعة عاملاً مهماً في التقاء الثقافات والحضارات المختلفة واختلاطها. وإذا تذكرنا ما تميز به الملوك الآشوريون من الولع بتدوين أخبارهم الحربية والسلمية تدويناً مفصلاً في حولياتهم ورسائلهم ووثائقهم الرسمية المختلفة أدركنا أهمية أخبار الدولة الآشورية على أنها من أهم المصادر التأريخية، ونذكر على سبيل المثال الأخبار المهمة عن الأرمن وملوكهم وعن قبائل الاشكوزيين (السكيثيين) والكميريين والأقوام الإيرانية مثل الماذيين والأقوام الجبلية المختلفة في شمال العراق وشماله الشرقي وبعض القبائل العربية البدوية في بوادي الشام. ومثل هذا يقال حتى بالنسبة إلى الأمم الأخرى ذات التأريخ المدون، كالعبرانيين والمصريين والعيلاميين والحثيين والبابليين، وشعوب آسية الصغرى من بعد الحثيين. فإن ما وصل إلينا في المدونات الآشورية الرسمية يضيف إلى مصادر معرفتنا بتأريخ مثل هذه الشعوب أموراً على غاية من الأهمية.

والآشوريون حتى من بعد سقوطهم السياسي وزوال دولتهم تفرقوا واختلطوا بالشعوب المجاورة، فاستخدم الفرس الاخينيون الكثير من أصحاب الحرف والمهن والفنانين الآشوريين في تشييد مدنهم وتجميل قصورهم، فاستمر الكثير من تراث الحضارة الآشورية، وأخذت عنهم الأقوام الأخرى عناصر مهمة من النظم العسكرية والإدارية والسياسية. ولعل أبرز من أخذ عنهم الدولة البابلية الأخيرة، أي سلالة نبو بولاصر وابنه نبوخذ نصر. واقتبست الأمبراطورية الفارسية الاخمينية الشيء الكثير من التنظيمات الإدارية والعسكرية. ويجدر أن نذكر بهذا الصدد اتصال الآشوريين في عهد أمبراطوريتهم الأخيرة بالإغريق ولاسيما الأيونيين منهم منذ زمن سنحاريب[1].

---

(1) انظر:
King, «Sennacherib and the Ionians» in *Journal of the Hellenic Studies*, XXX, 327 ff.

الدولة والنظم السياسية والمجتمع:

كان الملك يقوم على رأس ماكنة الدولة الآشورية، وكان يجمع في شخصه كل السلطات الزمنية والدينية. فكان في قمة الهرم من سلطات الدولة، بل إنه كان الدولة نفسها. وأما جهاز الدولة من كبار الموظفين وصغارهم، مدنيين وعسكريين، فكانوا كلهم «خدم الملك العظيم، القدير، ملك بلاد آشور، ملك الكون»، بحسب التعبير المستعمل في ألقاب الملوك الرسمية. على أن الملك الآشوري، مثل الحاكم أي الأنسي السومري القديم والملك السومري والبابلي، كان يستمد سلطته من كبير الآلهة الآشورية «آشور» والآلهة العظام الأخرى، بطريقة التفويض الإلهي، فكان يحكم الناس بالنيابة عنه ويمثله على الأرض. وكان أول من اتخذ لقب الملك «شرام» Sharrum الملك الآشوري شمسي ـ أدد الأول (1813ـ1781ق.م) في حين أن الملوك والحكام القدامى قبله كانوا يلقبون أنفسهم باللقب السومري القديم «آنسي» المرادف للمصطلح الآكدي ـ الآشوري. . «اشاكم».

وأول ما يمتاز به النظام الملكي الآشوري أنه كان وراثياً، مثل النظام البابلي بوجه عام. فكان الملك يختار ولي عهده في أثناء حياته من بين أبنائه. ويفرض البيعة والولاء له على الأمراء من العائلة المالكة وعلى جميع وجهاء المملكة وكبار قواد الجيش، وأمراء الأقاليم التابعة. وكان يفترض في ذلك التعيين أنه تنفيذ لإرادة الإله «آشور» وبعد استشارة كبار الآلهة، مثل الإله «شمش» وسين عن طريق الفأل والكهانة. وحالما يتم اختيار أحد أبناء الملك ولياً للعهد فإنه يترك قصر أبيه الملك ويعيش في قصر خاص يطلق عليه اسم، بيت الخلافة أو بيت ولاية العهد، وبالآشورية «بيت ريدوتي» وقد عثر على بقايا مثل هذه القصور في الموضع المسمى «تربيصو» (تل شريف خان الآن شمال نينوى ببضعة أميال). وكان يتم في هذا القصر إعداد ولي العهد للحكم، فكان يعلم وظائف «الملوكية» وواجباتها وأساليب الحكم، وتعهد إليه مهمات عسكرية وإدارية مهمة، من بينها النيابة عن أبيه الملك عند غيابه. هذا بالإضافة

إلى تلقينه بمختلف فنون الحرب والقتال وفنون السلم. وقد نال بعض ولاة العهد تربية وتدريباً عاليين، نخص بالذكر منهم «آشور بانيبال» الذي يذكر في نصوصه أموراً مفصلة عن إعداده وتربيته ونورد منها قوله ـ «حصلت على الفنون الخاصة بالآلهة «ندابا»، واستقيت المعارف الخاصة بالكتبة، وحذقت آيات السماء والأرض (نبوءات الفأل). . . ودرست ظواهر السماء. واستطعت أن أحل قضايا عويصة في القسمة والضرب وأتقنت فن الكتابة السومرية، والكتابة الآكدية البالغة الصعوبة. . وكان يطيب لي أن أقرأ الأحجار والأنصاب المكتوبة من أزمان ما قبل الطوفان. وكنت طيلة يومي أمتطي فرسي بفرح وحبور، وأقصد موضع الصيد وأمسك قوسي فأرمي منه السهام الجديدة، وأقذف بالرماح الثقيلة، وأمسك بعنان خيل العربات، وأسرع فيها، وتعلمت استعمال التروس الثقيلة. . وفي الوقت نفسه كنت أجهد في تعلم الآداب والسلوك الملكية. فكنت أمثل بحضرة الملك، أبي، وأصدر الأوامر إلى النبلاء والأمراء، ولم يكن يعين حاكم بدون موافقتي ولا والٍ بدون حضوري»[1].

وجرت العادة أن الملك إذا مات أعلن الحداد في المملكة، وكان الملك المتوفى يدفن في العاصمة القديمة آشور فكانت هذه المدينة بمثابة المدينة المقدسة لدفن الملوك وتتويجهم فيها كما سنبين بعد قليل. وقد وجدت في أثناء التنقيبات التي أجراها الألمان فيها (1904ـ1914) جملة توابيت ثقيلة من الحجر المنحوت تحت القصر القديم[2]، وكان كل منها يحتوي على رفات مشاهير الملوك الآشوريين، وقد عين بعض هذه التوابيت بأنها تعود إلى الملك «آشور ـ بيل كالا»، وآشور ناصربال وشمسي ـ ادد الخامس، ولكنها وجدت فارغة، إذ عبث بها في الأزمنة القديمة. وبعد أن يدفن الملك بفترة كانت تقام مراسيم تتويج الملك الجديد التي كانت تجري في العاصمة القديمة «آشور»

---

(1) *ARAB*, II, 986.

(2) Haller, *Die Gräber und Grüfte von Assur*, (1954).

أيضاً. ولما كنا سنذكر تفاصيل الاحتفال بالتتويج في الجزء الثاني من هذا الكتاب فيكفي أن ننوّه هنا بأهم جزء فيها وهو أن الملك الجديد كان يحمل على عرشه ويتقدمه الكاهن الأعلى وهو ينادي ـ «آشور هو الملك.. آشور هو الملك» ثم يتوجه الموكب إلى معبد الإله آشور المسمى «اي ـ كور» فيدخل الملك إلى الحجرة المقدسة ويقدم كأساً من الذهب مملوءاً بالزيت و«منا» من الفضة وحلة موشاة فاخرة، ويسجد إزاء تمثال الإله وعندئذٍ يمسحه الكاهن الأعلى بالزيت ويسلمه شارات الملوكية، «تاج آشور وصولجان ننليل»[1]، ثم يتلو العبارة: التاج على رأسك فعسى آشور وننليل سيدا التاج وصاحباه، أن يجعلاه يدوم فوق رأسك مائة عام، وعساك أن تنال الرضا والقبول وأنت في معبد «اي ـ كور» ويداك مرفوعتان مبسوطتان تدعوان إلى إلٰهك آشور. فعليك أن توسع بلادك بصولجانك المستقيم، وعسى آشور أن يمنحك الرضا والطمأنينة والحكم العادل[2].

ويقصد الملك الجديد من بعد ذلك إلى القصر حيث يجتمع الأمراء وكبار رجال الدولة فيحيون الملك الجديد ويتخلون عن مناصبهم ورتبهم ويطرحون شارات وظائفهم وأوسمتهم، فيعيدهم الملك الجديد إلى مناصبهم إذا أراد.

واشتهر الملوك الآشوريون بسهرهم ويقظتهم في إدارة شؤون الدولة ويأتي في مقدمة الوسائل المحققة لذلك أنهم كانوا على اتصال دائم بولاتهم وحكام الأقاليم التابعة يومياً تقريباً عن طريق الرسائل المتبادلة ولنا أن نتصور كثرة عدد الكتبة والسكرتاريين الذين يكونون في صحبة الملك لإملاء الأوامر عليهم. وإلى هذا الواجب المرهق كان الملك يستقبل السفراء والمبعوثين

---

(1) الآلهة «ننليل» بالأصل زوجة الإله السومري الشهير «انليل» ولكن جعلت في بلاد «آشور» زوجة الإله (آشور).

(2) حول مراسيم التتويج راجع:
Frankfort, *Kingship and The Gods.*

الأجانب. وبصفته قائد الجيش الأعلى كان يضع خطط الحملات الحربية. أما في الأوقات الأخرى فإن رياضة الملوك المحببة كانت صيد الحيوانات الوحشية في الأراضي والغابات الملحقة في العادة بقصورهم أو في المواضع التي تتردد إليها تلك الحيوانات المفترسة كالأسود والثيران الوحشية والفيلة والحمر والخيول البرية. ولعل خير ما يمثل لنا ولع أولئك الملوك برياضة الصيد المنحوتات الشهيرة وما صور فيها بإبداع وبراعة فائقتين من مشاهد صيد الأسود، ويعد بعض تلك المنحوتات من قطع الفن الرفيع على المقياس العالمي، مثل مشهد اللبوة والأسد الجريحين ومشهد مطاردة الخيول الوحشية.

وكان الملك الآشوري يتفرد عن الملك البابلي بأنه كان علاوة على وظيفته الملكية المرهقة، الكاهن الأعلى للإله آشور ورئيس الكهنة الأعلى، فكان عليه أن يقوم بإجراء الشعائر والطقوس الدينية والسحرية المقدسة. فإلى جانب سهره على العناية بمعابد الآلهة وتجديد بنائها وضمان القيام بأداء أدوار رئيسية في بعض الأعياد الكبرى مثل عيد رأس السنة الجديدة. فبصفته ملكاً وكبير كهنة الآلهة كان يضطلع بالشعائر الخاصة بتقديم الطعام والشراب يومياً إلى الإله آشور وكبار الآلهة، وهو المصطلح المسمى بالآشورية «تاكلتو»، ثم تناول هذا الطعام المقدس بعد أن يأكل منه الإله بوجه رمزي، وعليه أن يقوم بالتطهير المقدس (بيت رمكى).

والملك مسؤول إزاء الآلهة عن صالح الناس وخيرهم. وكان عليه أن يصوم صوماً خاصاً إذا كانت نبوءات الفأل تنذر بشر يقع في البلاد. ولما كان وجود الملك بين البشر تتوقف عليه سلامتهم فقد حرص القوم على ألا يصيبه أي مكروه في حالات قرب وقوع الشر بطريقة إقامة الملك البديل pukh sharri وهو شخص يختار بموجب إرشادات الفأل ويتوج وينصب ملكاً فعلياً فترة من الزمن ما دامت نذر الشر قائمة لكي تقع عليه الأخطار فيدرأها بذلك عن شخص الملك الحقيقي، وقد سبق أن نوَّهنا بتلك الحادثة الطريفة في تأريخ

سلالة ايسن البابلية حينما اغتصب الملك البديل العرش وقضى على الملك الحقيقي.

ومع أن الملك الآشوري كان مطلق السلطة وغير مسؤول لأحد سوى الآلهة، بيد أن الواقع العملي أنه لم يكن ليستطيع أن يمارس سلطته هذه إلا بإسناد الطبقة الأرستقراطية أو بالمصطلح الآشوري «ماري بنوتي»، وقد مرت بنا حالات في التأريخ الآشوري نشبت فيها ثورات داخلية على الملك من جانب الطبقة الحاكمة وكثيراً ما تزعمها أحد أبناء الملك أو أحد من ذوي قرباه. كما أن الولاة وقواد الجيش وكبار موظفي الدولة كان يختارهم الملك من تلك الطبقة الأرستقراطية، وعلى ولائهم للملك كانت تقوم سلطته وحكمه.

ولم يكن للملك الآشوري ولا للملك البابلي أيضاً وزير أو وزراء بالمعنى الحديث لهذا المصطلح، بل كان يعتمد على مستشارين مقربين من كبار موظفي الدولة وقادة الجيش وعلى رأسهم ما يسمى بالآشورية «تورتانو» ـ القائد العام ـ والـ«ناگر ايكالي» nagir ekalli وغيرهم. والعادة أن مثل أولئك الموظفين الكبار يعينون في مناصبهم زمناً طويلاً (قد يدوم ثلاثين عاماً)، وكانوا يقطعون القطائع الكبيرة. وقد ورد الكثير من رتب كبار الموظفين في أثبات «اللمو» التي سبق أن تطرقنا إليها.

ويأتي في السلم الاجتماعي من بعد طبقة النبلاء، وهم الطبقة العليا في المجتمع، طبقة الناس الأحرار، وفي مقدمتهم ذوو المهن والحرف الأحرار Ummane كأصحاب المصارف والتجار والأطباء والكتبة والصناع، وبوجه الاختصار ما يسمى بالطبقة البرجوازية وكانوا منظمين في جمعيات أو نقابات على غرار نقابات القرون الوسطى في أوروبا، والغالب أن محلات معينة كانت تخصص لكل حرفة أو مهنة. أما الطبقة الاجتماعية التي كانت في العهد البابلي القديم والتي ورد ذكرها في شريعة حمورابي بمصطلح «مشكينو»، فإنها اختفت من الوجود تقريباً بصفتها الطبقة الوسطى من الأحرار، وصار المصطلح يستعمل بمعنى لغوي للفقير، مثل الكلمة العربية «مسكين» ويأتي من بعد الطبقة

الوسطى التي نوَّهنا بها عامة الناس من الفلاحين والأجراء ثم طبقة العبيد الكثيرة العدد في المجتمع الآشوري ومصدرها بالدرجة الأولى أسرى الحروب وكان الكثير من العبيد يعلمون الحرف والصناعات اليدوية لتنمية موارد أسيادهم.

الجيش:

سبق أن نوَّهنا مراراً كيف أن نظام الحرب والجيش[1] كان محور المجتمع الآشوري، ومثل أحسن الجيوش المشهورة في التأريخ كان الجيش الآشوري يقوم على نوعية جنده وإعدادهم وعدتهم ونظام التدريب والضبط الصارم وكان الجيش الآشوري في مبدأ أمره مكوناً بالدرجة الأولى من طبقة الفلاحين الأشداء من بلاد آشور نفسها. ولكن أصبح هذا المصدر للجيش الآشوري بمرور الزمان وباتساع رقعة العمليات الحربية لا يكفي لتزويد ماكنة الحرب الآشورية بالمادة الضرورية لها، فبدأ الملوك ولا سيما منذ مطلع عهد الأمبراطورية الثانية يؤلفون جيوشاً قائمة من أهل الولايات التابعة، إذ كان على كل والٍ أن يجهز الملك بالجند من إقليمه، واختصت الولايات المختلفة بإمداد جيش الملك بصنف خاص من المحاربين، مثل الخيالة من إيران وبلاد ماذي والقبائل الآرامية، والجمالة من القبائل العربية، والمشاة من بلاد الأناضول وبلاد الشام. أما الآشوريون من طبقة الأحرار فقد ظلوا يدعون إلى الخدمة العسكرية، ولكنهم كان باستطاعتهم أن يجهزوا الملك بعبيدهم وتجهيزهم بما يلزم لهم من سلاح وعدة وإلى ذلك كان الكثير من سكان الولايات التابعة يتطوعون في الجيش الآشوري بصفتهم جنداً مرتزقة.

ومع غزارة الأخبار الآشورية الخاصة بحملات الجيوش فإنها لا تمدنا بحقائق مهمة عن الجيش مثل حجمه وتنظيمه، وخططه العسكرية. فإن تلك

---

(1) فيما يأتي أهم البحوث عن الجيش الآشوري:

(1) Yadin, *The Art of the Warfare in Biblicad Lands,* (1963).

(2) Von Soden et, al, in *IRAQ,* XXV (1963).

الأخبار يندر أن تذكر عدد الجند في الحملات الحربية المشهورة، وهي إذ تبالغ في خسائر جيوش الأعداء لا تذكر خسائر الجيوش الآشورية. ونجهل أيضاً رتب قادة الجيش، ما عدا القائد العام مثل الترتانو والرابشاقة اللذين مر ذكرهما، وضباط من ذوي الرتب الصغيرة مثل رئيس السبعين ورئيس الخمسين.

أما أساليب القتال في الميدان فلا يمكن الوقوف عليها من أخبار الحروب الآشورية إلا في حالات قليلة، وبوجه عام أيضاً، مثل قتال نصب الكمائن وهجوم المباغتة[1]. وإزاء سكوت الأخبار المدونة عن هذه الأمور يستطيع الباحث أن يستنتج أموراً مهمة عن الجيش الآشوري من المنحوتات البارزة التي لا تحصى تقريباً مما عثر عليه في قصور الملوك الآشوريين، ولاسيما ما وجد منها في نمرود ونينوى وخرسباد. فإذا درسنا موضوع المشاهد الحربية في مثل هذه المنحوتات استطعنا أن نميز صنفين رئيسين من المشاة[2] مشاة مسلحين بأسلحة خفيفة مثل رماة السهام والمقاليع[3] ومشاة مسلحين بأسلحة ثقيلة مثل الرماحة. وكان الغالب على لباس الصنف الأول ما يصح أن نسميه الجلباب القصير، في حين أن الرماحة كانوا محميين بلباس الزرد ويحملون تروساً مستطيلة قد تكون أطول من الجندي في بعض الحالات. ويلبس رماة السهام والرماحة برؤوسهم بيضات مخروطية الشكل، وتكون البيضة في بعض الأحيان ذات عرف أو ريشة على غرار خوذ الحرب الإغريقية[4]. ويحمل القسم الأكبر من المشاة سيوفاً قصيرة أو فؤوساً أو

---

(1) انظر الرسالة المرقمة 1237 في:
Waterman, *op. cit.*

(2) راجع: *CAH.*, I, Part 2, (1971), P. 732

(3) ذات المصدر ص (733).
(1) Gelb, *Hurrians and Subarians, (1944).*

(4) عثر في نمرود (1957) على أنواع مختلفة من الأسلحة في قلعة شيلمنصر:
D. Stronach, in *IRAQ*, XX, (1958), 169 ff.

دبابيس mace وينتعلون ـ جزمة ـ نصفية. أما صنف الخيالة فكان جنده موحدي اللباس تقريباً، وسلاحهم الرماح الطويلة أو الحراب والفؤوس. وكانوا يمتطون الخيل عارية ـ أي بدون سرج ـ، ولكن الخيول صارت في عهد السلالة السرجونية تحمى بالزرد. ويوجد صنف ثالث من الجيش هم راكبو العربات الخفيفة ذوات العجلتين وكان يجرها فرسان أو ثلاثة، وتحمل كل عربة ثلاثة أو أربعة محاربين. والغالب أن الجيش كان يجهز بالمؤن والذخائر المحملة بالعربات مع الأتباع والخدم في مؤخرة الجيش.

آلات الحصار والهدم:

يعزى الكثير من نجاح الجيوش الآشورية في فتح المدن والحصون إلى ما كانت تزود به من آلات الحصار ودبابات النقض. وقد سبق أن نوَّهنا كيف أن الآشوريين استغلوا معدن الحديد في عصرهم الحديث إلى أبعد حدود الاستغلال في صنع آلاتهم ومكائنهم الحربية الرهيبة بالنسبة لذلك الزمان. وكان يدير شؤون هذه الآلات، صنف خاص من الجيش هم المهندسون والفنيون، الذين يعهد إليهم أيضاً مهام ردم خنادق المياه المحيطة بالمدن لحمايتها وحفر الأنفاق تحت الأرض للدخول إلى المدن المحاصرة في الوقت الذي يمطر الجند المهاجمون المحاصرين بوابل من القذائف وهم في أبراج ثابتة أو متحركة لحمايتهم، وتقوم الآلات الضخمة كالدبابات أو الكبأش Battering Ram بدك الأسوار، ويحاول الجيش المحاصر أن يدافع عن الحصن أو المدينة المحاصرة برمي المهاجمين بالقذائف النارية أو المشاعل ويتم الهجوم الأخير بتسلق أسوار المدينة بالسلالم أو من خلال الثغرات التي تحدثها آلات النقض في الجدران، فيدخل الجيش ويعمل في جندها وأهلها القتل والحرق والدمار. وقد مثلت مشاهد حصار المدن وفتحها في المنحوتات الآشورية بكثير من التفصيل والدقة.

وتعد هذه المنحوتات على قدر عظيم من الأهمية ليس في درس فن

الحرب بل إنها إلى ذلك مصادر أساسية لتفهم الحضارة الآشورية في أوجهها ومقوماتها المختلفة.

الفن:

اشتهر الفن الآشوري لدى العالم الحديث قبل غيره من العناصر الأخرى في حضارة وادي الرافدين لأنه كان أول ما عرف من هذه الحضارة قبل أكثر من مائة عام يوم كشفت عنه أولى التنقيبات في العراق في منتصف القرن الماضي، حيث رأينا في الفصل الخاص بتأريخ التحريات الأثرية كيف بدأت التنقيبات عن بقايا حضارة وادي الرافدين في العواصم الآشورية مثل نمرود ونينوى وانصراف جهود المنقبين الأوائل إلى الكشف عن المنحوتات الآشورية ولا سيما الضخمة منها لشحنها إلى أوروبا وعرضها في متاحفها المشهورة.

ومما يقال عن تأريخ الفن الآشوري إنه يمكننا تحديد زمن ولادته في القرن الرابع عشر ق.م، أي في العصر الآشوري الوسيط، أما ما قبل ذلك أي في العصور القديمة فإن ما ظهر من فن في بلاد آشور كان مقتبساً كله تقريباً من الفن البابلي في الجنوب بيد أن شخصيته أخذت تستقل وتتميز منذ العصر الآشوري الوسيط في طرزه وأساليبه وفي مواضيعه ولا سيما الشؤون الدنيوية الخاصة بالدولة وأعمال الملوك، أما في المواضيع الدينية فقد حافظ على المآثر القديمة. وفي وسعنا الوقوف على الخصائص المميزة للفن الآشوري من زمن الملك «توكاتي ـ نينورتا» الأول (1244ـ1208ق.م)، وفي مقدمة ذلك المشاهد العسكرية مثل الملك مع جنوده وعرباته الحربية، ومثل استعمال الآجر المزجج واستعمال رمز «الشجرة المقدسة»، وأخذ الفن الآشوري طابعه الخاص أخيراً في العهد الآشوري الحديث حيث طغى عليه تمثيل مشاهد الحروب والصيد والشؤون الملكية الأخرى مما كان يزين قصور الملوك، كحصار المدن ودك الحصون وتهجير السكان وسوق الأسرى والتمثيل بهم، إلى غير ذلك مما يمكننا أن نقرأ فيه تطور أساليب القتال وآلات الحرب والأسلحة. ومن الممكن تقسيم الفن الآشوري إلى ثلاث فترات أو أطوار،

فالطور الأول يمثل عهد الملك آشور ناصر بال الثاني (883ـ859ق.م) وعهد ابنه شيلمنصر الثالث (858ـ824ق.م) حيث جاءتنا من عهدهما قطع فنية ممثلة مما لم يكن معروفاً في السابق، أما الطور الثاني فيبدأ من القرن الثامن ق.م، من عهد الملك ثجلاثبليزر الثالث (744ـ727ق.م) وشيلمنصر الخامس (726ـ722ق.م) وسرجون (721ـ705ق.م) ويمثل الطور الثالث عهود خلفاء سرجون، وهم سنحاريب وأسرحدون وآشور بانيبال.

وعلى ضوء هذه اللمحة التأريخية نورد الملاحظات الموجزة التالية عن خصائص الفن الآشوري:

1 ـ حلّق الفن الآشوري في النحت البارز Reliefs أكثر منه في النحت المجسم. فبالإضافة إلى قلة الأمثلة من النحت المجسم، مثل تماثيل الملوك القليلة والثيران المجنحة، فإن هذه الأمثلة لا تضاهي روعة الفن البارز وقوة التعبير اللتين تميزانه.

2 ـ إن أسلوب النحت البارز أصيل وعريق في حضارة وادي الرافدين فقد ظهر منذ العهد الشبيه بالكتابي منتصف الألف الرابع ق.م، واستمر في تقدمه وتطوره في العصور التالية، فسار الآشوريون على هذا التراث القديم، ولكنهم لم يعنوا بتمثيل المواضيع الدينية عناية كبيرة، بل اتجهوا إلى تمثيل المواضيع الملكية الرسمية التي نوَّهنا بها، وبعبارة أخرى استخدم الفن الآشوري لأغراض الدعاية الملكية لإحداث الخوف والرعب والطاعة في قلوب من يشاهدونه عن عظمة الملك وقدرته وجبروته وبطشه وفتوحه، فأصبح بذلك فناً رسمياً أمبراطورياً، موضوعه الأساسي التعبير عن فكرة الملك الفاتح المنتصر.

3 ـ من الأشياء التي أضافها الآشوريون إلى فن النحت البارز مما استتبع الغرض الذي استخدم من أجله، استعماله بكثرة في تجميل جدران القصور الملكية، والمحتمل أن الآشوريين اقتبسوا هذا النمط من التزيينات

الجدارية من الحثيين في الأناضول، حيث كانوا يزينون قصورهم في الألف الثاني ق.م بتغطية أسافل الجدران بالمنحوتات البارزة.

4 ـ وجد الآشوريون المادة الضرورية لمنحوتاتهم الكثيرة في الأحجار المتيسرة في بلادهم، مثل حجر الحلان المشهور بنوعيه، أحدهما الضارب إلى الحمرة والنوع الضارب إلى الصفرة، وكلاهما من حجر الكلس.

5 ـ بلغ من النحت البارز أوج إبداعه في تمثيل المشاهد الحية، وقد وجدت منه قطع يحق لها أن تأخذ مكانها اللائق بها بين روائع الفن العالمي مثل مشاهد الصيد الذي ولع فيه الملوك الآشوريون وكان رياضتهم المحببة، ويكفي أن نذكر من مشاهد الصيد المنحوتة الأسد واللبوة الجريحين. ومطاردة الخيول الوحشية وغيرها من القطع الفنية المشهورة بين نقاد الفن بحيث يصح القول إن فن النحت الآشوري لم يتفوق عليه من فنون الحضارات القديمة سوى الفن اليوناني[1].

العاجيات:

كان فن نحت العاج أو قطعه معروفاً في حضارة وادي الرافدين من عصر فجر السلالات (مطلع الألف الثالث ق.م) كما تدل على ذلك النماذج التي وجدت في معبد الآلهة «عشتار» في مدينة ماري (تل الحريري عند الحدود العراقية السورية الآن، ولكن لم يشع استعماله في العصور التالية، ثم عاد إلى

---

(1) يوجد في معظم المتاحف العالمية نماذج من المنحوتات الآشورية، ولكن المتحف البريطاني ومتحف اللوفر (في باريس) ينفردان بكبر مجاميعهما. وندرج فيما يأتي المصادر الأساسية عن الموضوع:

(1) Frankfort, *AAO.*

(2) Parrot, *Assur,* (1961).

(3) Barnet and Ferman, *Assyrian palace Reliefs,* (1960).

(4) Gadd, *The Assyrian Sculptures,* (1934).

(5) S. Smith, *Assyrian Sculptures in the British Museum.*

الظهور مرة أخرى في منتصف الألف الثاني ق.م في بلاد الشام ولاسيما في الأجزاء التي كانت ضمن التأثيرات الحضارية من وادي النيل مثل فينيقية. وانتشر هذا الفن إلى بلاد أرمينية وإيران منذ الألف الأول ق.م ومع أن الكثير من الآثار العاجية التي وجدت في المدن الآشورية المشهورة مثل آشور وخرسباد ونمرود كان قد جلب على أنه غنائم حرب أو أنه استورد من بلاد الشام، إلا أنه وجدت قطع كثيرة يدل طرازها ومواضيعها وأسلوبها على أنها كانت مصنوعة صنعاً محلياً في بلاد آشور. وقد تضمنت العاجيات الآشورية قطعاً نفيسة كانت أجزاء من الأثاث الملكية مثل الكراسي والعروش والأسرة والأبواب. وبعضها عبارة عن صناديق صغيرة أو أوعية وملاعق ودبابيس للشعر والملابس والأمشاط. كما صنعت من العاج تماثيل وأشكال مجسمة أو المنحوتة نحتاً كثير البروز، وكان البعض منها مطعماً بالأحجار الكريمة وملبساً بالذهب، وقد مثلت في فن العاج مواضيع ومشاهد مختلفة، منها الدينية ومنها الدنيوية. وكشفت التنقيبات الحديثة في نمرود عن مجموعات كبيرة ومتنوعة من آثار العاج النفيسة، معظمها من حصن شيلمنصر، كما وجدت في أثناء التنقيبات القديمة مجموعات أخرى مهمة[1].

---

(1) حول عاجيات نمرود انظر:
Barnet, *A Catalogue of the Nimrud Ivories*, (1957).

الفصل التاسع

العهود الأخيرة من تأريخ العراق القديم

١ ـ الدولة الكلدانية، والعصر البابلي الحديث

قام في بلاد بابل في أواخر حكم الملك الآشوري «آشور بانيبال» (668 ـ 6/ 627 ق.م) آخر دولة بابلية، هي الدولة الكلدانية أو سلالة بابل الحادية عشرة، ويسمى عهدها أيضاً بالعصر البابلي الحديث الذي دام زهاء القرن الواحد (626ـ539ق.م). وكان آخر عهود بلاد بابل وهي دولة مستقلة، حيث تلته أدوار صار فيها العراق ولاية تابعة، أولاً إلى الفرس الأخمينيين (539 ـ 331ق.م) ثم إلى السلوقيين المقدونيين، خلفاء الإسكندر الكبير (331 ـ 126 أو 138ق.م). ثم الفرس الفرثيين أو الأرشاقيين (126 أو 138ق.م ـ227ب.م). وأخيراً الفرس الساسانيين (227 ـ 637م).

ومع قصر هذه الفترة في تأريخ بلاد بابل وهي دولة مستقلة إلا أنها خليقة بأن تعد من العهود المجيدة في تاريخ حضارة وادي الرافدين، وأنها آخر دور في حياة هذه الحضارة حصل فيه إحياء وانبعاث جديدان وخلف آثاراً وبقايا مهمة في معظم مدن العراق القديمة، بالإضافة إلى ما وصل إلينا من نصوص مدونة، سواء كانت سجلات ملكية رسمية أم وثائق خاصة كالعقود التجارية والاقتصادية إلى غير ذلك من السجلات الخاصة بشؤون الحياة والمعاملات اليومية، مما يضع بين أيدي الباحثين مادة قيمة لدرس الأوجه الحضارية المتنوعة.

نبو بولاصر:

رأينا مما مر بنا في كلامنا عن حكم الملك الآشوري «آشور بانيبال» كيف انتهى حكم هذا الملك وكيف قضى على الدولة الآشورية بتحالف قوى كثيرة من الولايات التابعة لهذه الدولة، وفي مقدمتها «الماذيون» في جهات إيران الشمالية الغربية والبابليون الذين تزعم ثورتهم على السلطة الآشورية أحد حكام الأجزاء الجنوبية (القطر البحري)، هو «نبو بولاصر» الذي يرجع في أصله إلى إحدى القبائل الآرامية في العراق، هي القبيلة المسماة «كلدو» (كشدو أو كسدو). فثار هذا الزعيم الكلداني في عام 627ق.م وأعلن ملوكيته عام 626ق.م، وكان حاكماً تابعاً للدولة الآشورية، وبعد أن قضى على الحاميات الآشورية في بلاد بابل وجه هجماته على بلاد آشور نفسها، فاستطاع مع حلفائه الماذيين، في عهد ملكهم المسمى «كي ـ اخسار» القضاء على الدولة الآشورية، وقد سقطت العاصمة نينوى في العام 612ق.م، ثم طوردت فلول الآشوريين إلى منطقة حران، وتم القضاء على البقية الباقية من الجيوش الآشورية في عام 610 أو 609ق.م.

ويبدو من مجريات الأحداث التي أعقبت القضاء على آخر مقاومة للآشوريين أن الماذيين لم يضموا بلاد آشور إلى بلادهم بل إنهم اكتفوا بالأسلاب والغنائم فانسحبوا إلى بلادهم تاركين حليفهم «نبو بولاصر» وشأنه ليقتطع ما يستطيع اقتطاعه من أقاليم الأمبراطورية الآشورية، فوجه اهتمامه الأول إلى الاستيلاء على سورية وفلسطين بالنظر إلى أهمية هذه المنطقة الحيوية لبلاد بابل، وليحول دون تغلغل الجيش المصري فيها، فقد سبق للفرعون المصري «نيخو» الثاني (610ـ595ق.م) أن جاء على رأس جيش إلى سورية لمساعدة حلفائه الآشوريين فاستولى عليها وبضمن ذلك دولة «يهوذا» في عهد ملكها «يوشيع»، ثم استولى على كركميش (جرابلس)، مسيطراً بذلك على نقطة استراتيجية، هي طريق نهر الفرات، الأمر الذي هدد الدولة البابلية تهديداً خطيراً. فأسرع الملك البابلي «نبو بولاصر» إلى إرسال حملة عسكرية كبيرة وعهد بقيادتها إلى ابنه وولي عهده «نبوخذ نصر»، لطرد الجيش المصري.

فباغته في عام 605ق.م في كركميش السالفة الذكر وأوقع فيه الهزيمة[1]، وهكذا انفتحت أبواب بلاد الشام وفلسطين أمام «نبوخذ نصر».

نبوخذ نصر (٦٠٤ ــ ٥٦٢ق.م):

وبينما كان ولي العهد نبوخذ نصر يعد العدة لمطاردة فلول الجيش المصري إلى داخل البلاد المصرية من بعد معركة «كركميش» وتقدم إلى حدود العريش بلغته الأنباء بموت أبيه فأسرع بالعودة إلى بابل ليتبوأ عرش المملكة، فتوج ملكاً عليها في 23 أيلول عام 604ق.م، ودام حكمه فترة طويلة (604ـ562ق.م) كانت من العهود المجيدة في تأريخ العراق القديم.

لم يمكث نبوخذ نصر في عاصمته بابل فترة طويلة بل إنه قصد بلاد الشام مرة أخرى من بعد عام من تتويجه، وفرض سلطته على الدويلات السورية، وأخذ الأتاوة والجزية من جملة مدن مثل دمشق وصور وصيدا وأورشليم، ولكنه دمر مدينة «عسقلون» (عسقلان) بسبب ثورة ملكها. ولا يعلم على وجه التأكيد متى عاد إلى بابل. وتروي التواريخ البابلية أن معركة كبيرة نشبت بعد ثلاث سنوات بينه وبين ملك مصر، ولكن لا يعرف أين وقعت، ولعله عند الحدود المصرية، كما يبدو أنها لم تكن حاسمة.

مملكة يهوذا والسبي البابلي:

لما رأى «يهوياكيم»، ملك مملكة يهوذا الموالي للفرعون المصري «نيخو» الثاني انتصارات نبوخذ نصر في بلاد الشام أظهر له الطاعة وقدم الجزية، ولكنه نكث العهد بعد فترة بتحريض ملك مصر (7/ 598ق.م)، على الرغم من نصائح النبي «أرميا» وانقطع عن دفع الجزية فأسرع نبوخذ نصر بإرسال جيش حاصر «أورشليم» فاستسلمت له في عام 597ق.م، وهلك ملكها «يهوياكيم» في أثناء

(1) عن أخبار هذه الحوادث في المصادر البابلية انظر:
Wiseman, *Baoylonian Chronicles*.
وراجع أيضاً التوراة ولا سيما سفر الملوك الثاني، 22:29، وسفر أرميا، وأسفار الأيام والأخبار وهيرودوتس الكتاب الثاني، 159 فما بعد.

الحصار، وأسر من اليهود (3000) أسير، ونصب «نبوخذ نصر» على مملكة يهوذا «صدقيا»، وكان هذا هو السبي الأول لليهود، وكان من بين الأسرى الذين أخذوا إلى بابل «يهوياكين» أو «يهوياقين» ابن الملك السابق.

إن هذه الأحداث وتوطيد السلطة البابلية في بلاد الشام جعلت ملك مصر المسمى «حوفرا» (ابريز Apris) (589 ـ 570ق.م) يدرك الأخطار التي أحاقت بمصالح مصر التجارية المعتمدة على الموانىء الفينيقية، قاعدة العدو لغزو فلسطين، وقد نجح باديء ذي بدء إذ استطاع أن يستولي على غزة كما أنه ضيق الخناق على صور وصيدا. فأسرع نبوخذ نصر بالتوجه على رأس جيشه إلى بلاد الشام، وجعل مقر قيادته في مدينة «ربلا» قرب حمص، ومنها كان يوجه العمليات الحربية. وكان ملك يهوذا «صدقيا» الذي نصبه نبوخذ نصر ملكاً عليها قد خلع ولاءه لملك بابل وانحاز إلى جانب الفرعون المصري. فضيق الحصار على أورشليم، فاستسلمت له من بعد (18) شهراً (عام 586ق.م)، وتشبث صدقيا بالهرب والنجاة ولكنه قبض عليه في مدينة «أريحا»، فأخذ هو وأولاده إلى معسكر الملك البابلي في «ربلاء»، وكان غضب الملك شديداً فأمر بذبح أولاده أمام عينيه، ثم فُقِئت عيناه وأخذ مكبلاً مع الأسرى اليهود الذين قدر عددهم بنحو (40,000) أسير، إلى بابل، ودمرت أورشليم ودكت معالم هيكل سليمان (سفر الملوك الثاني 25: 6ـ7، وسفر الأيام الثاني 36، 13 ـ 20). وهذا هو السبي البابلي الثاني لليهود الذين مكثوا في بلاد بابل إلى زمن الدولة الفارسية الأخمينية حيث رجع بعضهم إلى فلسطين. ومما يقال عن بقاء اليهود في بلاد بابل ما تركه من تأثيرات كبيرة في الديانة العبرانية، في تطور معتقداتها الأساسية بحيث يصح القول إن هذه الديانة بصفتها ديانة موحدة ونضج فكرة الوحدانية فيها إنما تمت في أثناء بقاء اليهود في بلاد بابل، كما بدأ فيها جمع أسفار التوراة وتدوينها ما بين القرنين السادس والخامس ق.م، ودون التلمود البابلي الشهير في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، هذا بالإضافة إلى ما أخذه اليهود من آداب حضارة وادي الرافدين ومعارفها وأساطيرها وقصصها.

بعد أن قضى نبوخذ نصر على الدولة اليهودية أخذ يعاقب المدن الفلسطينية والسورية الأخرى التي تمردت عليه ونبذت الطاعة، فأعاد عليها السلطة البابلية بسرعة، إلا مدينة صور التي قاومت حصاراً طويلاً روي أنه دام طوال ثلاثة عشر عاماً، إذ سقطت بيد الجيش البابلي في عام 571ق.م. أما مصر فإنها لم تتخل عن تحريض الدويلات السورية للثورة على السلطة البابلية، ولعل نبوخذ نصر صمم على غزو مصر في عهد الفرعون «أماسيس» (568ق.م) كما يشير إلى ذلك نص غير كامل في المتحف البريطاني[1]، ولكن لا يعلم مدى نجاح الحملة العسكرية التي أرسلها لذلك الغرض.

وسير نبوخذ نصر عدة حملات عسكرية لإخضاع بعض القبائل العربية في بادية الشام، ضماناً لسلامة الطرق التجارية التي تربط العراق ببلاد الشام ثم بموانىء البحر المتوسط، ويبدو أنه حقق خضوع بلاد الشام واستقامت له الأمور فيها طوال البقية الباقية من حكمه، أي زهاء عشر سنوات. وخلف نبوخذ نصر جملة بقايا تذكارية في جبال لبنان كما تشير إلى ذلك منحوتات نهر الكلب[2] ووادي «بريسا»[3].

---

(1) Wiseman, *op. cit.* 30, 94-5.

(2) منحوتات نهر الكلب والنقوش الكتابية المشهورة التي يمكن مشاهدتها الآن، بحسب تسلسلها التاريخي: (1) كتابة الفرعون «رعمسيس» الثاني القرن الثالث عشر ق.م (2) ستة نقوش آشورية أوضحها نقش الملك الآشوري «أسرحدون» (671ق.م) (3) نقش نبوخذ نصر (4) نقوش إغريقية مطموسة غير واضحة (5) نقش الأمبراطور الروماني «كراكلا» (Caracalla) (مطلع القرن الثالث الميلادي) (6) نقش عربي غير واضح (7) أزال الفرنسيون أحد النقوش المصرية ونقشوا بدلاً منه كتابة تسجل احتلالهم لبنان (1860ـ1862) (8) كتابة الجنرال الفرنسي «غورو» وبجانبه نقش الجنرال الإنجليزي «اللنبي» (9) تذكار جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية (1942) (10) وأخيراً نقش لبناني في ذكرى جلاء الفرنسيين من لبنان (1946).

(3) انظر:
King, *Die Neubabylonischen Königinschriften* (1912).

وإلى جانب الحروب الموفقة التي خاضها نبوخذ نصر فإنه كان من أعاظم الملوك في حقل البناء والتعمير، ولعله كان أعظم ملوك العراق القديم في هذه الناحية، بالنظر إلى همته وطول عهده (43 عاماً). وخصصت كتاباته الرسمية بالدرجة الأولى لتسجيل نشاطه العمراني في بابل وفي جميع مدن العراق المهمة، ويرينا الآجر المختوم باسمه والذي يجده المرء منتشراً في كل مكان من بلاد بابل أنه جدد بناء المعابد والقصور في كل مدينة ذات شأن في البلاد، على أنه خصص جهوده لإعادة بناء العاصمة بابل بعد أن تردت أوضاعها من جراء الإهمال وأعمال التدمير والتخريب إبان الحروب التي عانتها المدينة مما مر بنا، مثل تدمير سنحاريب والتدمير الذي رافق الحرب الأهلية ما بين الملك الآشوري «آشور بانيبال» وأخيه ملك بابل «شمش ـ شم ـ أوكن» ولذلك يصح القول إن نبوخذ نصر قد بناها من جديد، فإن ما كشفت عنه التنقيبات الألمانية (1899ـ1917) وما يشاهده الزائر الآن من بقايا إنما هي من أعمال نبوخذ نصر بالدرجة الأولى، أما بقايا المدينة القديمة فقد سبق أن نوّهنا بأنها تقع الآن تحت مستوى المياه الجوفية، وسنفرد وصفاً موجزاً لمدينة بابل.

خلفاء نبوخذ نصر:

بعد أن حكم نبوخذ نصر ثلاثة وأربعين عاماً (604ـ562ق.م) خلفه على عرش بابل بضعة ملوك لم يكونوا بالخلفاء الجديرين باسمه وبإدارة الدولة أو الأمبراطورية التي أقامها، وكان حكمهم في الواقع فترة ضعف سبقت انهيارها. وكانت السنوات الأخيرة من حكم نبوخذ نصر يكتنفها الغموض ولعله حدث في أثنائها بعض الاضطرابات الداخلية. وخلفه في الحكم ابنه المسمى «إميل ـ مردوخ» (أويل ـ مردوخ) المذكور في التوراة (سفر الملوك الثاني 25: 27، وسفر أرميا 42: 31) ولم يحكم هذا الملك سوى عامين (562 ـ 560ق.م)، ولا نعرف عنه سوى بعض الأمور الطفيفة وما جاء عنه في التوراة من أنه أظهر عطفاً على الملك اليهودي «يهوياقين» الذي كان قد

جيء به أسيراً إلى بابل[1]، كما يرجح أن إميل مردوخ قتل من جراء انقلاب داخلي دبره كهنة بابل. وتولى العرش من بعده قائد الجيش المسمى «نرجال ـ شار اوصر» (560 ـ 556ق.م) (وهو نرجلسار الوارد في سفر أرميا 34: 3) وكان زوج ابنة الملك «الملك نبوخذ نصر»، ولا يعرف عن هذا الملك سوى بعض أعماله البنائية، ولكن أحد التواريخ البابلية تذكر أنه أرسل حملة عسكرية عبر جبال طوروس إلى كيليكية. وخلفه في الحكم ابنه المسمى «لباشي ـ مردوخ» الذي لم يستطع الاحتفاظ بالعرش سوى بضعة أشهر، حيث لاقى حتفه في عام 556ق.م في أثناء انقلاب داخلي، ونصب الثوار ملكاً على بلاد بابل اسمه «نبونيدس» (نبونهيد) الذي كان على ما يبدو من كبار رجال الدولة في عهد «نبوخذ نصر» حيث كان قد بعث به في عام 585ق.م لتسوية النزاع ما بين الماذيين وبين مملكة «ليدية» (في آسية الصغرى). وكان أبوه المسمى «نبو ـ بلاصواقبي» أحد النبلاء والوجهاء في مدينة حران، وأمه الكاهنة العليا[2] في معبد الإله «سين» (الإله القمر) في تلك المدينة، ويرجح أنها كانت من أسرة آشورية أرستقراطية.

وكان المؤرخون المحدثون من الجيل القديم يهملون الكثير من جوانب شخصية الملك «نبونيدس» وأعماله ومآثره المهمة ويقتصرون على ناحية ولعه بالبحث عن أخبار الماضي واستخراج النصوص القديمة المطمورة في المدن القديمة مما جعلهم ينعتونه بأول أثري، وأنه إلى ذلك أهمل شؤون الدولة

---

(1) من الطريف ذكره بهذا الصدد أن ألواحاً من الطين وجدت في بابل من عهد «نبوخذ نصر» مدونة بسجلات الجرايات الخاصة بأسرى اليهود، ذكر من بينهم اسم «يائو ـ كينا» الذي يرجح أنه «يهوياقين»:

Saggs, *The Greatness That was Babylon*, p. 144.

(2) في نص شاهد قبر وجد في منطقة حران ذكر اسم أم هذا الملك بهيئة «أدد ـ كبي». وقد سبق أن ذكر في الفصل السابق في كلامنا على الملكة «سميراميس» أن هيرودوتس (الكتاب الأول: 184-188) يذكر ملكة بابلية أخرى خلفت سميراميس اسمها (نيتوكرس) وأنها أم الملك «لابينيتوس» (تحريف نبونيدس).

وقصر اهتمامه على شؤون الكهنة وعبادة الإله القمر في مدينة «حران»، ولكن الواقع من الأمر أن ما نشر من نصوص مسمارية جديدة أظهرت أنه إلى جانب ذلك كان إدارياً ورجل دولة من الطراز الأول، وأن قضايا خطيرة شغلته ووجه نشاطه لحلها، وكانت ذات طبيعة دينية واقتصادية. فعلى الصعيد الديني، ينبغي أن ينظر إلى اهتمام «نبونيدس» بعبادة الإله القمر (سين) على ضوء التيارات الدينية الجديدة التي تعرضت إليها المعتقدات الدينية في وادي الرافدين من جراء الاتصالات والتأثيرات من العبرانيين والماذيين، وبوجه خاص انتشار آراء التوحيد ومزاحمتها لمعتقدات الشرك وتعدد الآلهة وعبادة الأصنام وهي الصفة الطاغية على ديانة حضارة وادي الرافدين، فحملت هذه التيارات الجديدة «نبونيدس» على إحداث تغييرات في المعتقدات الدينية والشعائر الخاصة بها والتخفيف من حدة الشرك بجعل العبادة تتركز حول الإله القمر «سين»، ولكن دون نبذ عبادة الآلهة الأخرى، أما وقوع اختياره على هذا الإله فناشىء من أسباب عائلية وقومية. فإن جدته لأبيه وكذلك أباه وأمه كانوا من كهنة هذا الإله في حران. ثم إن عبادة الإله القمر كانت العبادة المفضلة عند الأقوام السامية البدوية من آرامية وعربية بخلاف عبادة إله بابل «مردوخ» الذي يرجع إلى أصول سومرية بعيدة عن أمزجتهم. ولذلك وجه عنايته إلى معابد الإله «سين»، وصرف الجهود الكبيرة على معبده في مدينة «أور»، كما أبانت التنقيبات الأثرية في هذه المدينة. وإلى هذا فإن اهتمام «نبونيدس» بمدينة حران وإقليم حران له وجه مهم آخر، هو أهميتها التجارية الكبرى بكونها ملتقى طرق تجارية مهمة وأحد مفاتيح التجارة العالمية إلى موانىء البحر المتوسط وآسية الصغرى. ولكن مدينة حران كانت تحت سيطرة الماذيين منذ عام 610ق.م، فعقد نبونيدس حلفاً مع الملك الفارسي الجديد «كورش» الثاني الذي أزال دولة الماذيين في بلاد فارس. وحصل بموجب ذلك الاتفاق على حران في عام 553ق.م، وشرع بأعماله البنائية فيها ولاسيما في معبد الإله «سين» ولكن تحالف نبونيدس مع كورش لم يدم زمناً طويلاً، لأن كورش وسع مملكته بالفتوحات البعيدة إلى أمبراطورية واسعة في مدى عشر سنوات، دخل فيها من

بين الأقاليم الكثيرة إقليم «كيليكية» الذي كان تابعاً إلى بلاد بابل فأدى ذلك إلى إنهاء الحلف ما بينهما، وانحاز نبونيدس إلى مملكة ليدية وحلفائها من المصريين وغيرهم، بيد أن هؤلاء الحلفاء لم يستطيعوا نجدة «كروسس» (قارون المشهور) ملك ليدية، إذ قضى كورش على مملكته (547ق.م)[1] ثم التفت من بعد ذلك إلى بلاد بابل التي آلت إلى حال من الضعف لم تستطع أن تقف إزاء قوته المتعاظمة، فوقعت بيده (539ق.م) على ما سنرى من كلامنا على سقوط بابل.

وقد ولد اهتمام «نبونيدس» في حران وغيابه الطويل عن المملكة في شمالي الجزيرة العربية تذمراً وتمرداً عامين في أرجاء مملكته، وفي مقدمتها سكان المدن الكبرى مثل بابل وبورسبا ونفر وأور والوركاء ولارسة وغيرها، كما يخبرنا «نبونيدس» نفسه[2] وتدهورت الأوضاع الاقتصادية والأحوال المعاشية ورافق ذلك انتشار القحط وارتفاع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً بلغ نسبة 50% ما بين عام 560 وعام 550ق.م، وازدادت النسبة إلى 200% ما بين عام 560 وعام 485. ويستطيع الفاحص لوثائق تلك الفترة الوقوف على تلك الأزمة الاقتصادية الخانقة.

نبونيدس في واحة تيماء:

حاول «نبونيدس» حل تلك الأزمة الاقتصادية بطرق شتى منها محاولته الحصول على موارد جديدة من الطرق التجارية في شمالي الجزيرة العربية الآتية من جنوبها، بعد أن سدت بوجهه الطرق التجارية عبر بلاد الشام وموانىء البحر المتوسط. فاستولى لذلك الغرض على ملتقى الطرق التجارية في شمالي الجزيرة، إذ إنه قاد جيشاً وسار به عبر بادية الشام وأخذ واحة

---

(1) حول قصة «كروسس» وعلاقته مع كورش انظر تاريخ هيرودوتس (الكتاب الأول).

(2) انظر أخباره في:

S. Smith, *Bab. Historical Texts,* (1924), I, 22, II, 2.

«تيماء» الشهيرة (الواردة في نصوصه على هيئة Temâ) حيث قتل أميرها واتخذها مركزاً له طوال عشر سنوات، وخلف على مملكة بابل ابنه المسمى «بيلشاصر» (BEL- SHAR- USSUR)[1]. وكان قد استولى قبل تيماء على الواحة الأخرى التي ورد ذكرها باسم «أدومو» (وهي دومة الجندل) الواقعة على بعد نحو (280) ميلاً شرق العقبة، وكانت بيد حامية آشورية. ويؤخذ من النصوص الجديدة المكتشفة في حران[2] أن «نبونيدس» وضع يده على واحات أخرى في شمالي الجزيرة إلى الجنوب من تيماء منها واحة «يتريبو» YATRIBU أي يثرب (المدينة)، وأنه أقام في تلك الواحات حاميات عسكرية، وأسس فيها مستوطنات أسكن فيها جماعات من بلاد الشام ومن بلاذ بابل، ولعل من بينهم يهوذا من الأسر البابلي.

والمرجح أن يكون غياب «نبونيدس» الطويل عن بابل مصدر الأسطورة التي نشأت عن نهاية الملك نبوخذ نصر بحسب الدعاية اليهودية (سفر دانيال، 4: 28 ـ 33) من أنه جن في السنوات الأخيرة من حكمه، بطريقة نقل التهم والدعايات التي وصم بها «نبونيدس» خصومه الكهنة ولا سيما الموالون منهم للفرس إلى شخص «نبوخذ نصر» للتشهير به بالنظر إلى العداء والحقد اللذين ظل يحملهما اليهود من أسرى بابل إزاء ذلك الملك الذي قضى على كيان مملكتهم.

واشتهر نبونيدس كما نوَّهنا بولعه في تقصي أخبار الملوك الماضين، إذ

---

(1) المرجح أن يكون الملك بيلشاصر هو الذي رأى «الكتابة على الحائط» كما جاء في سفر دانيال (105ـ9): «لما كان الملك بيلشاصر في وليمة خمر في قصره إذ ظهرت أصابع يد إنسان وكتبت إزاء النبراس في مكلس قصر الملك والملك ينظر إلى طرف اليد الكاتبة، فخاف ولم يستطع أحد من كهنته ومنجميه أن يفسر تلك الكتابة التي نصها: «منا، منا ثقيل وفرسين» فأحضر إليه دانيال الذي فسرها على الوجه الآتي: منا: أحصى الله ملكوتك وأنهاه. وثقيل: وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً. وفرسين: قسمت مملكتك وأعطيت لماذي وفارس».

(2) انظر:
Gadd, in *Anatolian Studies*, (1958), 57 ff.

إنه قام في الواقع بالحفر في أسس بعض المعابد والزقورات في جملة مدن مشهورة في بلاد بابل مثل سبار وأور. ولعل هذا مظهر من مظاهر اتجاه العهد البابلي الأخير إلى استنساخ النصوص القديمة وتقصي أخبار الماضي وجمع البقايا القديمة في القصور الملكية التي خصصت أجزاء منها لتكون بمثابة المتاحف، وأبرز مثال على ذلك قصر «نبوخذ نصر» الشمالي وقصر ابنة نبونيدس المسماة «بيل ـ شلتي ـ ننا» التي كانت الكاهنة العليا في معبد الإله القمر «سين» في مدينة أور. ففي القصر الأول وجد المنقبون الألمان في بابل بقايا أثرية من عهود قديمة ومن بلاد أجنبية، وقد فسر أسد بابل الشهير نفسه على أنه من بين تلك الآثار الأجنبية التي نقلها الملك نبوخذ نصر من أحد الأقطار الأجنبية. كما وجدت في قصر ابنة «نبونيدس» في أور آثار من أدوار قديمة مختلفة من بينها أحجار حدود من العهد الكشي وكسر من تمثال الملك «شولكي» ومخاريط من ملوك سلالة لارسة.

سقوط بابل:

بعد أن أمضى نبونيدس زهاء عشر سنوات في تيماء عاد إلى بابل (في حدود 546ق.م)، وكانت بوادر الخطر ماثلة في الأحداث الدولية المعاصرة. ولاسيما الأحداث التي استجدت في بلاد إيران، بقيام الملك الفارسي المسمى «كورش» الثاني وأخذه السلطة من الماذيين في عهد الملك الماذي «أستياجس» جده لأمه. واستطاع هذا الملك الجديد أن يكوِّن بسرعة عجيبة أمبراطورية واسعة شملت آسية الصغرى وبلغت إلى تخوم الهند، وقد ذكرنا فيما سبق كيف أن (نبونيدس) عقد اتفاقاً مع هذا الملك الفارسي ولكن بطل ذلك الاتفاق لما استولى كورش على كيليكية التابعة لنبونيدس. وبعد أن قضى كورش على «كروسس» (قارون) ملك ليدية (في آسية الصغرى) صار يضم الأقاليم التابعة إلى الدولة البابلية ومنها بلاد آشور التي استولى عليها في عام 547ق.م، ثم جاء دور مدينة بابل نفسها في العام 539ق.م. وقد عهد الملك نبونيدس إلى ابنه قائد الجيش أي «بليشاصر» بأن يتصدى لجيوش كورش عند

«أوبس» (سلوقية) فقتل في المعركة، ثم قصد الجيش الفارسي في العام نفسه مدينة «سبار» (أبو حبة قرب بلدة المحمودية). وكان يقود الجيش الحاكم البابلي «كوبرياس» الذي انحاز إلى كورش (واسمه في المصادر البابلية كوبارو) فسار هذا من بعد «سبار» إلى مدينة بابل ودخلها في 13 تشرين الثاني (539ق.م) بدون مقاومة تقريباً[1] وأخذ «نبونيدس» أسيراً ويحتمل أنه قتل وفي رواية أخرى أن كورش عينه حاكماً في أواسط إيران، ودخل كورش إلى مدينة بابل بعد أيام قلائل، وبدأ التاريخ الرسمي باسم الملك الجديد.

ومما لا شك فيه أن مرد السهولة التي تم بها فتح مدينة بابل إلى الأوضاع الاقتصادية المتردية التي نوَّهنا بها وإهمال الملك نبونيدس شؤون المملكة وغيبته الطويلة عنها يضاف إلى ذلك حرب الدعاية الناجحة التي شنها الملك الفارسي من التشهير بالملك البابلي في انتهاك حرمات معابد الآلهة، وساعده في ذلك اليهود الأسرى في بابل، يدل على ذلك أن اليهود اعتبروا كورش أنه المسيح الموعودون به في توراتهم، الذي سيعيد مملكة داود (سفر اشعيا: 44)، وسنذكر في كلامنا على العهد الفارسي الأخميني كيف عامل كورش يهود بابل وسمح للكثير منهم أن يعودوا إلى أورشليم (سفر عزرا، 6: 3ـ5)، كل هذه العوامل وغيرها جعلت سكان بابل يرحبون بالفاتح الجديد. ومثل غيره من الفاتحين في التاريخ سرعان ما نشر بيانه إلى الأهالي بأنه إنما جاء ليحررهم بأمر الإله مردوخ والإله «نبو» اللذين رحبا بحكمه، واتخذ الألقاب الرسمية لملوك بلاد بابل مثل، الملك العظيم، ملك العالم، الملك القوي، ملك بابل، ملك بلاد سومر واكد، ملك الجهات الأربع.. نسل

---

(1) يروي هيرودوتس رواية طريفة عن كيفية دخول الجيش الفارسي إلى بابل، فحواها أن الملك كورش جعل جيشه يجفف قاع نهر الفرات بتحويل مياهه إلى بحيرة أو منخفض ينسبه إلى أعمال الملكة «سميراميس» الأسطورية، فسار الجيش في قاع النهر الجاف وباغت أهل المدينة التي بلغت سعتها درجة بحيث إن الجيش لما دخلها لم يعرف ذلك أهلها الساكنون في وسطها (هيرودوتس، الكتاب الأول، 191) حول أخبار سقوط بابل انظر:
Olmstead, History of the Persian Empire (1944).

الملوكية منذ القدم، الذي يحبه الإله بيل (مردوخ) ويبارك في حكمه، كما جاء في بيانه المنقوش باللغة البابلية والخط المسماري على أسطوانة من الطين[1].

بعض الأوجه الحضارية المميزة للعهد البابلي الأخير:

١ ـ خصائص عامة:

على الرغم من قصر فترة العهد البابلي الأخير في حياة حضارة وادي الرافدين المديدة، ورغم أنها كانت آخر عهودها السياسية ـ حيث استمرت هذه الحضارة في الأدوار التي أعقبت العهد البابلي الحديث ـ إلا أنها تركت آثاراً مهمة في سير التأريخ العام. فإلى جانب البقايا المعمارية المهمة وفي مقدمتها بقايا مدينة بابل التي سنتكلم عنها في فقرة أخرى جاءتنا من هذا العهد مصادر مدونة تعد على جانب كبير من الأهمية والوفرة بالنسبة إلى قصر مدته، مما خلفه ملوكه من أخبار مدونة وما تركه عامة الناس من وثائق المعاملات المختلفة الخاصة بشؤون الحياة اليومية.

وقد سبق أن نوَّهنا بأن هذا العصر امتاز بالاتجاه إلى إحياء تراث الماضي، وشمل هذا الاتجاه الأساليب والاستعمالات اللغوية التي يمكن ملاحظتها في النصوص التأريخية والدينية، ونشطت الحياة الدينية التي اقترنت بنشاط كبير في تجديد المعابد وبروز نظام المعبد بصفته مركزاً للنشاط الاقتصادي والاجتماعي. ومع استمرار اللغة الآكدية في طورها المسمى «البابلية الحديثة» لغة التدوين الرسمية إلا أنه ظهرت فيها تأثيرات واضحة من اللغة الآرامية منذ الألف الأول ق.م، وقد سبق أن ذكرنا مراراً تغلغل القبائل الآرامية إلى وادي الرافدين في حدود ذلك الزمن وظهور جملة مستوطنات ومشيخات منهم في الأجزاء الجنوبية من القطر، وكان «نبو بولاصر» نفسه من أصل آرامي (كلداني) كما ذكرنا. ومع ضعف الملوك الذين خلفوا «نبوخذ

---

(1) انظر:

Weisbach, *Die Keilinschriften der Achaemeniden*, (1911), 2 ff.

نصر» على العرش البابلي إلا أن الفترة الطويلة التي دامها حكمه (زهاء النصف قرن) كانت من أزهى عصور حضارة وادي الرافدين، ويمثل عهده ذروة النشاط الحضاري والاقتصادي لهذا العصر.

٢ ــ الحياة الاقتصادية:

أ ـ المعبد: لم تقتصر عودة تعاظم أهمية المعبد في العهد البابلي الأخير على الحياة الدينية بل شملت كذلك الحياة الاقتصادية للمجتمع البابلي بدرجة تضاهي ما شاهدناه من أهمية المعبد الاقتصادية في عصر فجر السلالات قبل نحظو ألفي عام، وعلى عكس ما رأيناه من اتجاه العصر البابلي القديم ولا سيما عهد حمورابي (1792ـ1750ق.م) في تقليص سلطات المعبد وتعاظم سلطة القصر والفصل ما بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية. وإذا أعدنا إلى الأذهان ما ذكرناه عن عصر فجر السلالات بأنه دور ظهور حضارة وادي الرافدين الناضجة وأن فترة العهد البابلي الأخير آخر عهودها جاز لنا القول إنها لصدفة تاريخية عجيبة أن تكون هذه الحضارة قد ولدت وماتت في كنف الآلهة والمعبد.

وتشير الوثائق الاقتصادية الكثيرة التي وجدت في معابد هذا العصر مثل منطقة المعابد في الوركاء (أي ـ انَّا) إلى ازدياد أملاك المعبد واتساع نشاطه التجاري في داخل البلاد وخارجها، بحيث إنه كان مركزاً اقتصادياً واجتماعياً مستقلاً عن الحكومة تقريباً[1]. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن الإدارة في هذا

---

(1) حول النصوص الاقتصادية من العهد البابلي الحديث من الوركاء بوجه خاص انظر المراجع الآتية:

(1) Kaiser, *Letters and contracts from Erech,* (1918).

(2) Lutz, *Neo-Bab. Administrative Documents from Erech,...* (1927).

(3) Dougherty, *Archives from Erech,* (1923, 1933).

(4) Saggs, in *SUMER,* XV, (1959), 29 ff.

(5) *The Greatness that was Babylon,* (1962), 261 ff.

(6) Krückmann, *New Bagylonisches Rechts und Verwaltungs Texte,* (1933).

العهد تتميز بتقلص سلطة الحكومة المركزية وعلى رأسها الملك بخلاف ما مر بنا في عهد الأمبراطورية الآشورية، حيث استطاع المعبد في العصر البابلي الأخير أن ينافس سلطات الحكومة والملك ويستقل عنها، وألحقت به أصناف عديدة من الموظفين مثل مدير الشؤون الاقتصادية (Shatammu) والناظر (Qipu) والمسجلين والكتبة، إذ اتسعت أعمال المعبد الاقتصادية فشملت استئجار العمال والعبيد وحرث الحقول وحصدها وكري أنهار الري وحفرها في الأراضي الزراعية العائدة إليه، إلى غير ذلك من أوجه النشاط الاقتصادي الواسعة وبضمن ذلك الأعمال المصرفية الكثيرة. وكان للمعبد بالإضافة إلى الأجراء والعبيد المملوكين جماعات خاصة من بين الأفراد كانوا ينذرون لخدمته منذ صغرهم فيقومون بالخدمة بدون أجور باستثناء إيوائهم وإطعامهم وإكسائهم، وكانوا من الذكور والإناث[1]. وقد يكون للملك ممثل في إدارة مثل هذه الأعمال، ويكتفي من أرباح المعبد الطائلة بتخصيص حصة له من وارداته لعلها لا تزيد نسبة الـ20%. ولكن الملك «نبونيدس» عزم على وضع حد لاستقلال المعبد ووضعه تحت نظارة الحكومة أكثر مما كان عليه. فعين مثلاً في معبد «أي ـ أنّا» (في الوركاء) في عام 553ق.م موظفين ملكيين من رتبة عالية ليهيمنوا على شؤون المعبد الاقتصادية، ولكن تدخله هذا أثار سخط الكهنة عليه فشنوا عليه حرب التشهير والمعارضة التي وجدت أرضاً خصبة حيث البلاد كانت مهددة بالأطماع الإيرانية، ويعد هذا التدخل في شؤون المعبد من العوامل المهمة في سقوط الملك «نبونيدس».

ب ـ تدهور الحياة الاقتصادية وارتفاع الأسعار:

واستتبع الاحتكارات المعبدية التي نوَّهنا بها تضاؤل واردات الملك وحكومته إلى درجة لا تتماشى مع متطلبات الدولة إلى الإنفاق على المشاريع، وعلى رأسها نفقات الجيش الذي أصبح منذ عهد نبوخذ نصر جيشاً نظامياً

---

(1) يسمى الواحد من هؤلاء «شركو». انظر:
Doucherty, *The «Shirkutu» of the Babylonian Deities,* (1923).

قائماً يتطلب الإنفاق لإعالته وتجهيزه، فلم تسد الثروة الزراعية تلك الحاجة بالنظر إلى مزاحمة المعبد في امتلاك الأراضي الزراعية الواسعة، يضاف إلى ذلك تناقص الموارد التجارية التي كانت من أهم مصادر الرخاء في حضارة وادي الرافدين، فقد حرمت بلاد بابل من موارد تجارية مهمة من الأقاليم الشمالية والشرقية على أثر ظهور الدولة الماذية وأكثر من ذلك قيام الدولة الفارسية الأخمينية التي خلفتها والتي احتكرت الطرق التجارية في تلك الأصقاع، كما أن الثورات المتكررة في بلاد الشام حرمت الدولة من تجارتها البحرية، وإلى ذلك كله بدأ ينافس نشاط المدن الفينيقية المشهورة اتساع نشاط بلاد الإغريق التجارية وبداية سيطرتها على تجارة البحر المتوسط، ونقل مراكز الثقل التجارية من السواحل الشرقية لهذا البحر إلى الأجزاء الغربية منه، أي إلى بلاد اليونان ومنها المستوطنات الآيونية في غربي سواحل آسية الصغرى. وقد رأينا سابقاً كيف حاول الملك «نبونيدس» التعويض عن ذلك بإيجاد موارد تجارية أخرى بطريق السيطرة على تجارة الجزيرة العربية من جنوبيها إلى شماليها، واستولى لتحقيق هذه الأهداف على واحات شمالي الجزيرة مثل تيماء وأدومو (دومة الجندل) و«يتريبو» (يثرب) وغيرها.

جـ ـ ارتفاع الأسعار: وعلى ضوء هذه الحقائق يمكن تفسير الازدياد في ارتفاع الأسعار ما بين بداية هذا العهد ونهايته ارتفاعاً فاحشاً يمكن تتبعه من فحص الوثائق الاقتصادية الكثيرة التي جاءتنا من هذا العهد مثل سجلات البيع والشراء والأجور والقروض[1].

كما ارتفعت أسعار المواد الغذائية والحاجات اليومية الأخرى، ويصعب التأكد هل واكبت زيادة الأجور ارتفاع الأسعار، على أن الانطباع العام أنها لم تماشها في الارتفاع، بحيث التجأ عامة الناس إلى القروض من المعابد وغيرها من البيوت المالية، وكانت أسعار الأرباح عالية (من 20 إلى 33 بالمائة)،

---

(1) راجع عن موضوع الأسعار:
Dubberstein, «Comparative Prices in Later Babylonia» in *AJSL*, (1930), 20 ff.

وكثرت المصارف والبيوتات المالية الخاصة مستغلة حاجة الناس إلى النقد، وزاد من ازدهار العمليات المصرفية استعمال أوزان قياسية من الفضة أساساً للتعامل التجاري إذ لم يعم استعمال النقود الرسمية المسكوكة في العراق والشرق الأدنى إلا منذ عهد الملك الفارسي دارا الأول (521 ـ 486ق.م) بعد أن ظهرت في ليدية (آسية الصغرى) في القرن السابع ق.م، كما سنذكر ذلك في كلامنا على العهد الفارسي في العراق وسننوّه ببعض البيوتات المالية التي اشتهرت في هذا العهد. ومع أن استعمال المعادن وفي مقدمتها الفضة بأوزان معينة وأشكال خاصة كان شائعاً في العراق في مطلع الألف الثاني ق.م إلا أن العهد البابلي الحديث تميز باطراد استعمال الفضة وحدة للأسعار الأخرى، وتحديدها بالنسبة إلى الذهب بمقدار 14 و10 إلى واحد.

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن الأوضاع الاقتصادية في العصر البابلي الحديث بذكر ظهور اتجاه جديد في معاملة العبيد استمر إلى العهد الفارسي الأخميني التالي، بسماح ملاك العبيد لعبيدهم في امتلاك الأموال المنقولة وغير المنقولة والتصرف بها بشتى المعاملات التجارية شريطة دفع ضريبة أو نسبة معينة من أرباحهم إلى أسيادهم، على أن العبيد كانوا يظلون هم وأموالهم ملك أسيادهم من الناحية القانونية النظرية. وهذا يضاهي ما سار عليه الأسياد الرومان في معاملة بعض عبيدهم، مما يعرف في القانون الروماني بمصطلح حيازة المال (Peculium) ولا يخفى أن البواعث في كلتا الحالتين ليست البواعث الإنسانية وإنما المنافع الاقتصادية التي كان يحصل عليها ملاك العبيد[1].

---

(1) انظر أحدث الدراسات حول الموضوع:

H. Dandamayev, «The Economic and Legal Character of the Slaves, Peculium in the Neo-Babylonian and Achaemenian Periods», in XVIII Recontre Assyrio logique Internationale (1970), P. 35 ff.

وكذلك المرجع:

J. Mendelsohn, Slevery in the Ancient Near East (1949).

مدينة بابل:

نهي كلامنا عن العهد البابلي الأخير بذكر لمحة في وصف بابل لأنها خير ما يمثل لنا هذا العصر وبقاياه الأثرية، ولأنها غدت في عهد ملكها الشهير «نبوخذ نصر» الثاني (604ـ562ق.م) أكبر مدن الدنيا القديمة، وبهرت العالم القديم بحيث عدها المؤرخون والكتاب القدماء لا تضاهيها في عظمتها وسعتها مدينة أخرى كما وصفها المؤرخ الشهير «هيرودوتس»[1]، وبلغت هذه المدينة من الشهرة درجة بحيث صارت عنوان حضارة وادي الرافدين ونسب إليها القطر جميعه فقيل بلاد بابل (بابلونيا) وأهله «البابليون»، وعدت أسوارها وجنائنها المعلقة من عجائب الدنيا السبع المشهورة[2] وانبهر بها حتى أعداؤها من أنبياء بني إسرائيل حين قال عنها النبي «أرميا»: «كأس ذهب بيد الرب جعل الأرض سكرى» (سفر أرميا 41 : 7). واعتبر أرسطو المدينة أعجوبة في سعتها (Politics III 3). فلا عجب والحالة هذه إذا ما تبجح نبوخذ نصر ببابله فقال عنها كما جاء عن لسان حاله في التوراة: «أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك باقتداري ولجلال مجدي!». فهل أسفرت التنقيبات الواسعة التي أجراها المنقبون الألمان فيها (1899ـ1917) عما يبرر تلك الشهرة العريضة التي جعلت اسم بابل رمزاً لحضارة وادي الرافدين وعلماً معروفاً لدى العالم القديم والحديث؟ وموجز

---

(1) راجع تأريخ هيرودوتس، الكتاب الأول 178 فما بعد. وحول احتمال زيارة هذا المؤرخ لبابل (في حدود 460 ق.م) ووصفه لها انظر:

(1) Ravn, *Herodotus Description of Babylon*, (1924).

(2) W. Baumgartner, in *Archiv Orientalni*, XVIII, (1950), 69 ff.

(2) عجائب الدنيا السبع (The Seven Wonders of the World) تسمية أطلقها بعض الكتاب والسياح القدماء على مجموعة من المآثر والبقايا الفنية أشهرها وأقدمها ما ذكره الشاعر الصيداوي «انتيباتر» (القرن الثاني ق.م). وندرج فيما يلي هذه العجائب المتعارف عليها:
(1) أهرام مصر (2) منارة الإسكندرية (3) أسوار بابل وجنائنها المعلقة (4) معبد الآلهة «أرطميس» (ديانا) في أفسس بآسية الصغرى (5) تمثال الإله «زيوس» الضخم للنحات اليوناني الشهير «فيدياس» (6) الناووس الضخم «موزوليوم» العائد للملك «موزوليوس»، ملك كاريا بآسية الصغرى (7) تمثال جزيرة رودس الضخم.

الإجابة عن هذا التساؤل أن نتائج تلك التنقيبات مشفوعة بما ورد عن المدينة في النصوص المسمارية تبرر تلك الشهرة، وتجعل في إمكان الباحث أن يعيد إلى الوجود شكل المدينة الأصلي بشوارعها ومعابدها وقصورها وأسوارها وماذا كان يسمى به كل منها ومحلات السكن فيها، ولاسيما من عصر نبوخذ نصر. أما أدوار المدينة الأقدم فقد سبق أن نوَّهنا بأن ارتفاع مناسيب المياه الجوفية طمس تلك الأدوار القديمة الممتدة أبعد من العصر البابلي الوسيط أو العهد الكشي في منتصف الألف الثاني ق.م.

أما اسم المدينة «بابل» الذي لا نبالغ إذا قلنا إنه أضحى أشهر اسم في العالم القديم والحديث فكان أعم التسميات التي أطلقت في العصر القديم على مدينة «حمورابي» و«نبوخذ نصر». وقد ورد في النصوص المسمارية بهيئة «باب ايلى» و«بابيلم»، وبالسومرية بالصيغة «كاـ دنكرـ را» (Ká- Dinger- Ra) ومعنى كلتا الصيغتين البابلية والسومرية «باب الإله» أو «باب الآلهة»، ولكن أخذ الشك يحوم حديثاً حول معنى اسم المدينة «بابيلم» وأنه ليس سومرياً ولا بابلياً بل إنه من تراث أولئك القوم المجهولين الذين لم يكونوا سومريين ولا ساميين واستوطنوا السهل الرسوبي منذ أقدم عهود هذا الاستيطان وخلفوا في حضارة وادي الرافدين بعض الآثار اللغوية في مقدمتها أسماء المدن والأمكنة وأسماء طائفة من الحرف والمهن كما ذكرنا في فصل المقدمة. وبالإضافة إلى هذه التسمية المشهورة عرفت مدينة بابل بأسماء أخرى أقل استعمالاً وشهرة نذكر منها: (1) «تن ـ تر ـ كي» (Tin- Tir- Ki) الذي قيل في معناه بالسومرية إنه يعني «موطن الحياة»، وقد جاء له مرداف بالبابلية يشير إلى هذا المعنى أي «شبات بلاطي» (Shubat Balâti) (2) شو ـ أنا ـ كي (Shu- Anna- ki) الذي يعني «كف السماء» أو «يد السماء» وهو اسم إحدى محلات بابل أيضاً. (3) نن ـ كي (Nun-ki) وهو من أسماء مدينة «أريدو» أيضاً (4) «كشكلا» (Gishgalla) الذي يعني البوابة أو المدخل. وذكرتها التوراة بالإضافة إلى اسمها المألوف «بابل» باسم «شيشك» (سفر أرميا: 25، 26)، أما الإغريق فقد ذكروها باسمها الغالب في الاستعمال بهيئة «بابيلون» (Babylon) ومنها بلاد بابل (بابليونيا Babylonia).

ومما لا شك فيه أن بابل كانت إحدى القرى الكثيرة المنتشرة في عصر فجر السلالات في بلاد أكد (القسم الأوسط من السهل الرسوبي)، والمرجح أنها كانت من القرى التابعة إلى دولة مدينة كيش التي مر بنا أنها كانت أولى مدينة قامت فيها سلالة حاكمة من بعد الطوفان. وأقدم ذكر لبابل بصفتها مدينة أو بلدة يرجع إلى زمن سرجون، مؤسس السلالة الآكدية التي أعقبت عصر فجر السلالات كما مر بنا. وقد سبق أن ذكرنا في الفصل الخاص بالعصر الآكدي ما روته الأخبار البابلية المتأخرة كيف أن سرجون نقل تراب بابل أو أخذ من ترابها عندما شيد عاصمته الجديدة أكد التي ينبغي أن تكون غير بعيدة عن بابل. وجاء ذكر بابل أيضاً في الأحداث التي اتخذت لتأريخ أعوام حكم الملك الآكدي «شارل كالي شري» ويبدو أن المدينة أصابها شيء من التدمير في زمن سلالة أور الثالثة (2112 ـ 2004ق.م) حيث فتحها ثاني ملوك هذه السلالة «شولكي». ثم انقطعت أخبارها إلى قيام سلالة بابل الأولى (1894ـ1595ق.م) حيث اتخذها مؤسس تلك السلالة المسمى «سومو آبم» عاصمة له. وأخذت تتسع وتزدهر بالتدريج في عهود الملوك الذين خلفوه إلى أن غدت في زمن الملك السادس حمورابي (1792ـ1750ق.م) عاصمة أمبراطورية واسعة وظلت عاصمة البلاد إلى آخر عهود العراق التاريخية. ولما فتح الإسكندر الكبير العراق (331ق.م) حاول إعادة تعميرها وتجديد أبنيتها وبضمن ذلك إعادة بناء برجها المدرج الشهير، لتكون لائقة بأن تصبح العاصمة الثانية لدولته العالمية التي كان يحلم بإقامتها، كما سنذكر ذلك في كلامنا على عهد الإسكندر. ولما شيدت مدينة سلوقية دجلة (مطلع القرن الثالث ق.م) أخذ الاضمحلال والخراب يدبان فيها لانتقال مركز الدولة وأرباب التجارة والحرف إلى العاصمة الجديدة.

طبوغرافية المدينة:

صارت مدينة بابل في العصر البابلي الحديث، ولا سيما في زمن الملك الشهير «نبوخذ نصر» أكبر مدينة في العالم القديم، إذ بلغ محيطها زهاء ثمانية

عشر كيلو متراً ومساحتها نحو (2500) ايكر (أي نحو عشرة ملايين متر مربع). وقد بالغ هيرودوتس في تقدير محيطها بأربع مراتب تقريباً إذ جعله (480) فرلونك Furlong ويساوي الفرلونك 8/ 1 الميل تقريباً. وكانت مستطيلة الشكل تقريباً ويخترقها نهر الفرات من الشمال إلى الجنوب، ولا يمكن تقدير عدد سكانها في أزهى عهودها، بيد أن مساحتها تتسع لما لا يقل عن ربع المليون نسمة. ويتضح كبر المدينة وكونها أوسع مدينة عرفها العالم القديم من المقارنة الآتية بين مساحتها ومساحات المدن المشهورة:

1 ـ بابل: 2500 ايكر ومحيطها زهاء 18 كيلو متراً (الايكر يساوي نحو 4000 متر مربع).

2 ـ نينوى: 1850 ايكر ومحيطها 9 كيلو مترات.

3 ـ الوركاء: 1110 ايكر ومحيطها 9 كيلو مترات.

4 ـ آشور: 150 ايكر.

5 ـ كالح (نمرود): 800 ايكر.

6 ـ دور ـ شروكين (خرسباد): 600 ايكر.

7 ـ حاتوشا (حاتوشاش، عاصمة الحثين): 450 ايكر[1].

8 ـ أثينة: 550 ايكر (في زمن ثيمو ستقلس حيث بلغت أوج اتساعها).

فيبدو من هذه المقارنة أن بابل كانت أكبر مدينة في العالم القديم، فهي مثلاً أكبر من مدينة أثينة بنحو خمس مرات. وكان يحيط بها سوران ضخمان عدا كما قلنا من بين عجائب الدنيا السبع، ويتألف كل منهما من أكثر من جدار واحد. ويمكن مشاهدة بقايا السور الخارجي ابتداء من محاذاة ما يسمى بالقصر الصيفي (وهو تل بابل الآن على يمين الطريق الآتي من بغداد إلى

(1) L. Oppenheim, *Ancient Mesopotamia*, (1964), p. 140.

الحلة، حيث يقطع هذا الطريق السور الخارجي). ويمتد السور الخارجي بالقرب من الزاوية الشمالية الشرقية من هذا القصر باتجاه جنوبي شرقي مسافة نحو أربعة كيلو مترات ثم ينعطف إلى الغرب بزاوية قائمة تقريباً حتى الفرات. وكان هذا السور الخارجي من التوسعات الجديدة التي أضافها نبوخذ نصر إلى المدينة لزيادة مناعتها بالإضافة إلى سورها الداخلي الذي قواه وحصنه أيضاً. ويبلغ معدل المسافة ما بين السورين زهاء كيلو مترين، وقد خصصت المساحات التي بين السورين إلى ضواحي المدينة حيث البيوت القروية الريفية المشيدة من اللبن أو الطين وبساتين النخيل والأشجار المثمرة الأخرى. ولم يشيد فيها من المباني الضخمة الرسمية سوى بنايتين، أولاهما قصر نبوخذ نصر الصيفي الذي قلنا إن السور الخارجي يحاذيه من جهة الشمال والبناية الثانية على ما يرجح المعبد المخصص لأعياد رأس السنة المسمى بالبابلية «بيت أكيتو» (Bit Akitu).

يتألف السور الخارجي، ومحيطه زهاء 16ـ18كم، من ثلاثة جدران الواحد بعد الآخر، فكان الجدار الأول ابتداء من الداخل مشيداً باللبن وسمكه (7) أمتار ثم الجدار الثاني المشيد بالآجر وثخنه (سمكه) زهاء (7) أمتار أيضاً، وقدامه الجدار الثالث المشيد بالآجر وثخنه (3) أمتار وأمامه خندق الماء، وقد شيدت أبراج للدفاع في هذا السور. أما السور الداخلي فقوامه جداران ضخمان من الآجر تتخللهما أبراج للدفاع. وقد أطلق على الجدار الأول وهو الداخلي (وسمكه 6,5 متراً) اسم «امكر ـ أنليل» أو «امكر ـ بيل» والجدار الثاني، وثخنه (3,70 متراً) اسمه «نمتى ـ أنليل» أو «نمتى ـ بيل». ويقسم السور الداخلي مجموعة قصور المدينة إلى قسمين، القصر الجنوبي الذي يلي باب ـ عشتار الشهيرة إلى الجنوب أو الأصح إلى جنوبها الغربي، والقصر الشمالي، ويسمى القصر الرئيسي، ويقع شمال السور من بعد باب عشتار مباشرة، ويقع في هذا القصر أسد بابل الشهير.

لقد خططت المدينة الداخلية تخطيطاً منتظماً، يتميز بالشوارع الواسعة

المتعامدة التي تنتهي ببوابات المدينة الرئيسية. وقد وردت في النصوص المسمارية[1] أسماء ثمانية شوارع كبرى ولها ثماني بوابات كبيرة. وقد سميت كل بوابة وكل شارع باسم الإله الذي يقع معبده بالقرب منها. وإلى هذه الشوارع الرئيسية ذكرت النصوص المسمارية أسماء شوارع أخرى، حيث عدد للمدينة أربعة وعشرون شارعاً، وشارعان خاصان بمسيرة الجند (Girri) كما ذكرت ثلاثة جسور على نهر الفرات يعبر منها إلى القسم الثاني من المدينة على الضفة الغربية من نهر الفرات حيث المدينة الجديدة (Alû Eshshu). ونورد فيما يأتي أسماء بعض البوابات والشوارع الشهيرة:

1 ـ بوابة الإله «أدد» واسمها «أدد نفشتي أوماني أوصر» (Adad Napishti Ummane Usur) ومعناه «أدد يحمي نفوس الجند» وأطلق الاسم نفسه على الشارع المار من هذه البوابة، والمتجه من الغرب إلى الشرق.

2 ـ بوابة الإله «أنليل» واسمها «أنليل موكن شروتيشو» (Enlil Mukin Sharrutishu) ومعناه «أنليل مثبت ملوكيتها» (والضمير يعود إلى المدينة) وهكذا سمي الشارع المار منها. ويرجح أن يكون موقع هذه البوابة في الجهة الشرقية أو الجنوبية الشرقية من السور الداخلي، ويتجه الشارع من هذه الجهة إلى الشمال الغربي من المدينة.

3 ـ بوابة الإله مردوخ واسمها «شي آشو إريمو» (She Ashu Irimu) وكان يمر منها شارع مردوخ المسمى «مردوخ ريعو ماتيشو» أي «مردوخ راعي أرضها أو بلادها» (أي بلاد بابل)، ويبتدىء الشارع من هذه البوابة بالاتجاه الجنوبي الغربي حتى باب سور البرج المدرج ومعبد «أي ـ ساكلا». أما البوابات

---

(1) عن خلاصة نتائج التنقيبات والبحوث الخاصة بمدينة بابل راجع:

(1) E. *Unger, Babylon, Die Heilige Stadt,* (1931).

(2) , *RLA,* I, 330 ff.

(3) Koldewey, *Babylon,* (1914).

(4) Speiser in *Orientalia,* 25, (1956), 323 ff.

الخمس الأخرى فقد خصصت للآلهة «شمش» و«سين» و«أوراش» و«نبو» و«زبابا»، وأخيراً بوابة الآلهة عشتار الشهيرة التي جرى التنقيب فيها فيجدر أن نفرد لها بعض الملاحظات الخاصة.

بوابة عشتار وشارع الموكب والقصور الملكية:

ذكرت بوابة عشتار في النصوص المسمارية الخاصة بخطط مدينة بابل باسم «عشتار قاهرة أعدائها» (وبالبابلية Ishtar Shakipat Tebisha) واسم شارعها، الذي يسمى الآن شارع الموكب «عشتار حامية جيوشها» (أي جيوش المدينة) (وبالبابلية Ishtar Lamassu Ummâishu) والمرجح أن هذا الشارع الكبير يقسم إلى شطرين، شطر جنوبي وهو المسمى بهذا الاسم، وقسم شمالي أطلق عليه اسم Aibur shabu ومعناه «لن يعبر العدو».

وبوابة عشتار التي يمر منها هذا الشارع مدخل المدينة الشمالي أو الشمالي الغربي، وقد سبق أن نوَّهنا بأن التنقيبات تناولت هذا الباب وشارع الموكب، وكشفت عن أدوارهما البنائية، وأعادت قطع الآجر المزججة الجميلة التي كانت تزين جدرانهما وركبت منها الباب كما ينبغي أن يكون عليه في الأصل وبحجمه الأصلي، وهي الآن تزين متحف برلين، وأجمل ما فيها صور الحيوانات الزاهية الحمراء والبيضاء ذات الأرضية من الآجر الأزرق، منها الثيران، رمز الإله «أدد» والتنين الخرافي، رمز الإله مردوخ (واسمه بالبابلية Mushkhushshu أو Mushrushshu) وباب عشتار الضخم مكون من مدخلين أي إنه مدخل مزدوج، حيث مواكب أعياد رأس السنة (الأيام الاثني عشر الأولى من شهر نيسان) كانت تسير من منطقة معبد مردوخ (اي ـ ساكلا) وتجتاز باب عشتار شمالاً إلى حيث المعبد المخصص لهذه الاحتفالات أي «بيت ـ آكيتو». ويكون عرض الشارع في الجهة الشمالية من باب عشتار معدل (63) قدماً وقد بلط بصفاح من الحجر بعضه من حجر الكلس الأبيض وبعضه من حجر البريجا Breccia الأحمر، ويكتنف الشارع من الجانبين جداران ضخمان لا تقل روعتهما عن باب عشتار نفسها، وكان يزين كلاً منهما 60

أسداً (رمز الآلهة عشتار) وهي ذات لبد حمراء أو صفراء على أرضية من الآجر المزجج الأزرق.

وتقع خلف جداري الشارع قصور المدينة الضخمة وهي المسماة القصر الشمالي أو الحصن الشمالي. ووجد في هذا القصر الواسع عدد من المنحوتات تتراوح عهودها من الألف الثاني إلى القرن الخامس ق.م، من بينها أسد بابل الشهير المنحوت من قطعة واحدة من حجر البازلت، وهو على هيئة أسد رابض على إنسان، ولا يعلم تاريخه على وجه التأكيد ولعله إحدى الغنائم الحربية التي جلبها «نبوخذ نصر» من حروبه الخارجية، وبالنظر إلى وجود قطع أخرى مختلفة العهود والمصادر فقد فسر هذا الجزء من القصر على أنه كان بمثابة متحف ملكي لحفظ الأشياء الغريبة والغنائم الحربية.

ويستمر شارع الموكب من بعد باب عشتار باتجاه الجنوب، ويأخذ عرضه بالضيق قليلاً، ويمر من الحافة الشرقية للقصر الجنوبي، ويعبر القناة أو النهر المسمى (جالب الخير) Libil Khegalla ويستمر جنوباً بمحاذاة سور الزقورة (البرج) ومعبد «اي ـ ساكلا» ثم ينعطف غرباً حتى يصل إلى الفرات، وقد شيد على النهر جسر حجري أقيم على دعائم من الحجر (Piers) وجد بعض بقاياها.

أما القصر الجنوبي الذي ذكرناه فكان من أضخم القصور التي شيدها «نبوخذ نصر» بجانب قصر أبيه الأصغر منه والمحاذي لحافته الشرقية، وتبلغ مساحة القصر 310×200م (ما عدا قصر «نابو بولاصر» والبناية الغربية التي تسمى البناية الفارسية). ويدخل إلى القصر من شارع الموكب من مدخل كبير معقود، ويحتوي على مئات من الحجرات والمرافق الأخرى وأبرز ما فيه خمس ساحات كبرى، وقد خصص القصر ليكون المقر الرسمي للملك، وقد عينت الساحة الثالثة (ومساحتها 60×55م) بأنها قاعة العرش حيث يوجد في الجدار الجنوبي منها محراب (Cella) كان موضع عرش الملك.

ما يسمى بالجنائن المعلقة:

في الركن الشمالي الشرقي من القصر الجنوبي وجد المنقبون بناية غريبة التخطيط على هيئة مستطيل غير منتظم (42×30م) ينخفض في مستواه عن أرضية القصر الذي تكون هذه البناية جزءاً منه، وتتألف من حجرات صغيرة (معدل سعة الواحدة منها 2,2×3م)، مؤلفة من صفين على جانبي ممر ضيق (Corridor) كما توجد ممرات أخرى، وعثر في إحدى الحجرات الوسطى على بئر ذات ثلاث حفر الواحدة بجنب الأخرى، فسرت بأن الماء كان يرفع منها بواسطة دولاب. وقد فسر المنقبون هذه البناية الغريبة باحتمال كونها موضع الجنائن المعلقة التي اشتهرت بها مدينة بابل وعدت إحدى عجائب الدنيا السبع كما ذكرنا، وأن نبوخذ نصر شيدها لزوجته الفارسية (الماذية) «اميتس»، وأنها كانت عبارة عن سطوح مقامة فوق عقادات تلك الحجرات التي وجدت في أثناء التنقيبات حيث كانت الأشجار والأوراد تغرس فوق تلك السطوح المغطاة بالتربة.

والواقع أننا لا نعرف شيئاً مؤكداً عن تلك الجنائن من المصادر المسمارية ولا من نتائج التنقيبات باستثناء تلك الحجرات التي يمكن تفسيرها أيضاً على أنها نوع من «السراديب» لخزن خمور القصر. وجاء ذكر الجنائن في أخبار الكتاب اليونان والرومان، ولكن هيرودوتس لا يذكرها. وأقدم من ذكرها الكاهن البابلي «بيروسس» الذي ألف كتاباً بالإغريقية في تأريخ بلاد بابل في مطلع القرن الثالث ق.م ضاع أصله ولكن اقتبس منه عدد من المؤلفين الكلاسيكيين. فمثلاً ذكرها «سترابو» (64ق.م 19م) بالمصطلح اليوناني (Krematos kepos) أي ما يمكن ترجمته بالجنائن المعلقة، وسماها الكاتب اللاتيني «كورتيوس روفس» (القرن الأول الميلادي) بالمصطلح اللاتيني Pensiles horti ومن هذه التسمية على ما يرجح منشأ ترجمتها إلى الإنكليزية The Hanging Gardens ودعاها المؤرخ اليهودي «جوزيفس» باسم Pensile Paradise المضاهي للتسمية الأولى. وينسب بناءها بعض المؤرخين إلى الملك

الفارسي «كورش» (ديودورس الصقلي، القرن الأول ق.م)، كما ينسبها البعض الآخر إلى «سميراميس».

معابد المدينة:

تعدد النصوص المسمارية لمدينة بابل نحو 1179 معبداً، منها الصغير ومنها الكبير، وبلغ عدد المعابد الكبيرة المخصصة لمشاهير الآلهة (153) معبداً، بالإضافة إلى المزارات الصغيرة وأماكن القرابين. وقد تم الكشف في أثناء التنقيبات عن خمسة معابد كبيرة هي: (1) المعبد الرئيسي الضخم المخصص لعبادة الإله مردوخ، واسمه «اي ـ ساگلا» (é-sag-ila) (2) معبد الإلهة ننماخ المسمى «اي ـ ماخ» (é-makh) وموقعه بجوار باب عشتار في الجهة الجنوبية الشرقية منها (3) معبد الإلهة «عشتار» وموضعه في الحارة المسماة «المركز»، حيث حارات السكن (4) معبد الإله «ننورتا» (5) معبد الإلهة «گولا»، ويقع هذان المعبدان في الجزء الشمالي من المدينة، في المحلة المسماة «كلّاب».

وكانت المدينة مؤلفة من قسمين يفصل ما بينهما نهر الفرات، فالقسم الأكبر، وهو الجزء الشرقي، كان المدينة القديمة الرئيسية، ويقع الجزء الثاني على الضفة الغربية من النهر، وقد سمي باسم المدينة الجديدة أو الحديثة alû eshshu ويقع فيها سبعة معابد من بينها معبد الإله «شمش»[1].

برج بابل ومعبد «اي ـ ساگلا»:

إلى الجنوب من منطقة القصر الجنوبي الذي مر ذكره تقع الحارة المخصصة لبرج بابل الشهير، وإلى جنوب البرج بقليل موضع المعبد الكبير الخاص بعبادة كبير آلهة بابل مردوخ، أي المعبد المسمى «اي ـ ساگلا» كما

---

(1) جاء ذكر اسم هذا المعبد بهيئة é-di-tar kalamma ويمكن قراءته بهيئة é-sa-kud-kalamma ومعناه «بيت قاضي البلاد». راجع RLA. II.

قلنا. وسمي برج بابل بالعبارة السومرية «اي ـ تمن ـ آن ـ كي» é-temen-an-ki التي تعني «بيت أسس السماء والأرض» ولا يعلم متى شيد هذا البرج المدرج (الزقورة) الذي اشتهرت به مدينة بابل، فإنه لم يرد ذكره في شريعة حمورابي الشهيرة التي عددت في مقدمتها أسماء معظم معابد القطر ومنها معبد «اي ـ ساگلا»، ولكن هذا لا يعني مطلقاً على أن البرج لم يكن موجوداً في زمن حمورابي. واشتهر برج بابل في العالم باقترانه بأسطورة «بلبلة الألسن» المذكورة في التوراة (سفر التكوين 11 : 1ـ9)، وقد نوَّهنا سابقاً كيف حاول الإسكندر الكبير (القرن الرابع ق.م) إعادة هذا البناء الشامخ ولكن الموت المفاجىء حال دون تحقيق عزمه، وازداد الخراب والعبث فيه في العصور التالية من جراء نقض آجره وهي عملية استمرت إلى العصور الحديثة بحيث إن المنقبين لم يجدوا من بقاياه سوى أسس قاعدته السفلى العميقة، ولا يجد الزائر لأطلال بابل الآن من هذه البقايا سوى قلب تلك القاعدة يحيط بها خندق مربع، كان بالأصل أسس جدران القاعدة. وإذا جمعنا القياسات والمعلومات الأخرى التي سجلها المنقبون عن قاعدة البرج ومخطط سلمه ووصف هيرودوتس له والأخبار الواردة عنه في النص المسماري الذي جاءنا من العهد السلوقي (القرن الثالث ق.م)، نقول إذا جمعنا كل ذلك وما نعرفه عن الأبراج المدرجة من الأمثلة التي بقيت منها أمكننا أن نكوِّن الخطوط العامة عن هذا البرج الشهير. فهو من نوع الأبراج المربعة القاعدة (91,55×91,55م)، وبني هيكله الداخلي باللبن وغلف بالآجر بغلاف لا يقل ثخنه عن (15م). والقاعدة في الأبراج المربعة أن يكون ارتفاعها بقدر ضلع قاعدتها، وكان يتألف في الأطوار الأخيرة ولا سيما زمن نبوخذ نصر من سبع طبقات كل طبقة أصغر من سابقتها، ويرقى إلى هذه الطبقات بسلمين: وسطي طوله نحو 62 متراً وعرضه (9) أمتار وسلمين جانبيين يتصلان به في الأعلى عند الطبقة الثانية أو الثالثة حيث شيد في القمة معبد أو مزار.

أما المعبد الرئيسي (اي ـ ساگلا) الذي يعني البيت الشامخ أو الرفيع،

فكان في الواقع مجموعة كبيرة من الأبنية، قوامها الساحات والحجرات الكثيرة. ويستطيع الزائر أن يشاهد موضعه تحت الأنقاض المتراكمة في المنطقة المسماة «عمران بن علي». وتتبع المنقبون مخططاته ومرافقه المختلفة تحت طبقات من الأنقاض ثخنها زهاء (21) متراً من أدوار السكن المتأخرة.

وصف هيرودوتس للبرج والمعبد:

جاء في تاريخ هيرودوتس (الكتاب الأول، 181ـ183) ما يأتي:

الفقرة 181: يؤلف السور الخارجي وسائل الدفاع الرئيسية للمدينة. ولكن يوجد بالإضافة إلى ذلك سور آخر داخلي، أقل من الأول ثخناً، ودونه في القوة والمناعة. ويشغل مركز كل قسم من المدينة حصن، يقوم عند أحدها قصر الملك الذي يحيط به سور عظيم القوة والسعة. وعند الحصن الثاني تقع حارة الإله «جوبتر ـ بعل» المقدسة وهي فناء مربع طول كل ضلع من أضلاعه 1/2 الميل، وذو أبواب من البرونز الصلد، وكانت ما تزال باقية في زمني، ويقع وسط ذلك الفناء أو الساحة برج ذو بناء صلد طوله 1/8 الميل وعرضه 1/8 الميل أيضاً، أقيم فوقه برج ثانٍ وعلى هذا برج ثالث وهكذا إلى البرج الثامن الأعلى. وكان الصعود إلى القمة من الخارج بواسطة سلم يدور حول جميع الأبراج. وعندما يبلغ المرء منتصف المسافة (في صعوده) فإنه يجد موضعاً للاستراحة حيث اعتاد الناس الجلوس بعض الوقت وهم في طريق ارتقائهم إلى القمة. ويوجد فوق الطبقة العليا معبد فسيح وضع في داخله سرير ذو حجم غير اعتيادي ومزين بزينة فاخرة، وبجانبه منضدة من الذهب. ولا يوجد أي تمثال في هذا المعبد، كما لا يشغل الحجرة في أثناء الليل أحد سوى امرأة يقول عنها كهنة هذا الإله إن الإله اصطفاها لنفسه من بين نسوة البلاد.

الفقرة 182: «ويقولون أيضاً ـ ولكنني لا أصدق ذلك ـ إن الإله ينزل بشخصه إلى تلك الحجرة وينام في ذلك السرير. وهذه تشبه الحكاية التي

يرويها المصريون لما يحدث في مدينتهم طيبة، حيث تمضي امرأة الليل في معبد «جوبتر» الطيبي، وفي كل حالة قيل إن تلك المرأة محظور عليها الاتصال بالرجال. وشبيه بهذا العادة التي يمارسها «البتارا» في ليقية (Lycia) حيث يحجز في داخل المعبد على المرأة التي تعلن النبوءات في أثناء قيامها بعملها. . .».

الفقرة 183: «وأسفل من ذلك في الحارة نفسها يوجد معبد ثانٍ وضع فيه تمثال قاعد من الذهب الخالص للإله «جوبتر»، وتقوم قدام التمثال منضدة كبيرة من الذهب أيضاً، وكذلك العرش الذي يجلس فوقه والقاعدة التي يقوم فوقها، كلها من الذهب. وقد حدثني الكلدانيون أن وزن الذهب هذا يبلغ ثلاثمائة وزنة[1]. ويقوم خارج المعبد مذبحان، أحدهما من الذهب الصلد والآخر مذبح اعتيادي، ولكنه كبير الحجم، وعليه كانت تضحى الحيوانات وتحرق البخور، وكان يقدم منها كل عام ما زنته ألف وزنة في أعياد الإله. وفي زمن (الملك) كورش كان يوجد في المعبد أيضاً تمثال إنسان ارتفاعه اثنا عشر ذراعاً كله من الذهب الصلد. ولكنني لم أشاهد هذا التمثال، بيد أنني أروي ما يتحدث عنه الكلدانيون. وقد أراد «دارا»ابن «هستاسبس» أن يأخذ التمثال، ولكنه لم يجرؤ، على أن «احشوبرش» ابن «دارا» قتل الكاهن الذي أنذره ألا يأخذ التمثال ولكنه أخذه. .».

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن برج بابل بإيراد القياسات التي سجلها اللوح السلوقي الذي نوّهنا به[2] عن قياساته (الأبعاد بالأقدام):

---

(1) زهاء 3 أطنان. والمقصود بجوبتر في رواية هيرودوتس الإله البابلي «مردوخ».

(2) يعرف هذا اللوح باسم لوح «اي ـ ساگلا»، ويؤرخ من عهد سلوقس الثاني في حدود 229ق.م وهو موجود الآن في متحف اللوفر بباريس.
انظر: Unger, Babylon, (1931), 239.
ويوجد في المتحف البريطاني نص مماثل هو الآن في طريقه إلى النشر من جانب الأستاذ «وايزمان».

	الطول	العرض	الارتفاع
الطبقة الأولى	295	295	108
الطبقة الثانية	256	256	59
الطبقة الثالثة	197	197	19 3 /4
الطبقة الرابعة	167 1 /2	167 1 /2	19 3 /4
الطبقة الخامسة	138	138	19 3 /4
الطبقة السادسة	108 1 /2	108 1 /2	19 3 /4
الطبقة السابعة	79	79	49

العراق في العصر الفارسي الأخميني

١ ـ موجز الأحوال السياسية والإدارية:

يبتدىء العهد الفارسي الأخميني في العراق منذ فتح الملك الفارسي كورش الثاني لبابل عام 539ق.م وينتهي بفتح الإسكندر عام 331ق.م، فيكون قد دام زهاء القرنين من الزمان، صار فيه العراق ولاية تابعة إلى الأمبراطورية الأخمينية.

والفرس الأخمينيون من الأقوام «الهندية ـ الأوروبية» التي استوطنت بلاد إيران في مطلع الألف الأول ق.م في الجزء الذي دعي باسم بلاد فارس، وهو الجزء الجنوبي الغربي من إيران، فكان هؤلاء الفرس يجاورون العيلاميين الذين لم يكونوا من الأقوام «الهندية الأوروبية» واستوطنوا في إيران إقليم «خوزستان» (الأهواز أو الأحواز ومنها منطقة عبادان أو عربستان الآن) منذ أبعد العصور التاريخية وكونوا حضارة مشتقة في أسسها وأصولها من حضارة وادي الرافدين. وعاش في حدود ذلك الزمن أيضاً أي الألف الأول ق.م، قبيلة إيرانية أخرى، هي قبيلة الماذيين (المادِاي) في الأجزاء الشمالية الغربية من إيران وعاصمتهم فيها «اكبتانا» (همذان الآن)[1]، وبالنظر إلى ضعف الدولة

---

(1) أول إشارة تاريخية إلى القبيلتين «الماذية» والفارسية جاءتنا في أخبار الملك الآشوري «شيلمنصر الثالث» في عام حكمه السادس عشر والرابع والعشرين (843 و8350ق.م)، حيث اتصلت الجيوش الآشورية بجملة قبائل إيرانية منها القبيلتان «مادا» أو (مادى) وبرسوا أو برسا (فارس) (انظر ARAB).

العيلامية لم يقم في وجه الفرس عائق في إنشاء كيانهم السياسي، ولكن المزاحمة كانت شديدة من جانب الماذيين الذين كانت لهم السيادة والسلطة في مبدأ الأمر. وظهر بين الفرس في منتصف القرن السابع ق.م أسرة مالكة أسسها «هاخمانيش» ومنه تحدرت السلالة الأخمينية الحاكمة، وقد استطاع ابنه المسمى «كورش» الأول (Kurash) (640ـ600ق.م) أن يستقل بعض الوقت عن التبعية الماذية، ولكنه عاد فاعترف بسيادة الملك الماذي القوي «كي ـ اخسار» الذي رأيناه يحالف الزعيم الكلداني والملك البابلي «نابو بولاصر» ويهاجم معه بلاد آشور (614 ـ 610ق.م) ويقضيان على الدولة الآشورية. وجاء من بعد كورش الأول ابنه «قمبيز» الأول الذي تزوج ابنة الملك الماذي «أستياجز» خليفة «كي ـ اخسار» وجاء من هذا الزواج «كورش» الثاني الذي لقب فيما بعد بلقب «كورش» الأكبر (558 ـ 530ق.م)، وقد تمرد على جده لأمه الملك الماذي[1]، وحاربه واستطاع في النهاية أن يستولي على عاصمته «اكبتانا»، وبذلك تفرد الفرس الأخمينيون بحكم بلاد إيران، وسرعان ما استطاع هذا الملك الفارسي القوي أن يؤسس أمبراطورية واسعة شملت معظم العالم القديم، تمتد من تخوم الهند إلى بحر إيجه وآسية الصغرى ودخلت (بلاد بابل وبلاد آشور) ضمن أمبراطوريته منذ فتح بابل في عام 539ق.م، كما مر بنا.

بلاد بابل ولاية أخمينية:

اشتهر مؤسس الدولة الأخمينية «كورش» بسياسة التسامح والتساهل إزاء الأقاليم المفتوحة، وتحاشى التدمير والبطش ما دامت موالية خاضعة، ويصدق ذلك بالنسبة إلى بلاد بابل، حيث المعاملة الحسنة لأهلها وتركها وشأنها في ممارسة شعائرها الدينية وعاداتها الخاصة بها. ومع أنه لا يشك في أنه كانت

---

(1) اقرأ رواية هيرودوتس الطريفة عن قصة كورش مع جده لأمه الملك الماذي «أستياجز»، (الكتاب الأول 107 فما بعد).

جماعات من أهل بابل تنظر إلى فتح كورش على أنه حكم أجنبي ولاسيما الطبقة الحاكمة وأتباعها، بيد أن عامة الناس لم تنظر إلى الحكم الأخميني سوى أنه تبدل في السلالة الحاكمة والإدارة وأسلوب الحكم. وظهرت بوادر هذا التبدل في تاريخ الحوادث، حيث صارت العقود والمعاملات المدونة تؤرخ بسني حكم الملك الجديد وسني خلفائه. وعهد كورش في السنة الأولى من حكمه بإدارة بلاد بابل إلى «كوبرياس»، أحد قواد الملك البابلي «نبونيدس»، وقد مر بنا كيف أن هذا القائد انحاز إلى الملك الفارسي في الهجوم على بابل. ثم عين كورش في السنة التالية (538ق.م) ابنه وولي عهده «قمبيز» حاكماً نائباً عنه في حكم بلاد بابل.

توفي كورش في عام 530ق.م في أثناء إحدى غزواته البعيدة فيما وراء النهر (منطقة سيحون وجيحون)، فخلفه في الحكم ابنه قمبيز الثاني (قمبوزيا) (530 ـ 522ق.م)[1] الذي كان عهده في بلاد بابل فترة هدوء واستقرار، وكان لقمبيز أخ اسمه «بارديا» (Bardia) (وفي المصادر اليونانية سميردس) كان قد عينه أبوه حاكماً على الولايات الشرقية، ولما تولى قمبيز العرش نشب النزاع بين الأخوين، فدبر قمبيز اغتيال أخيه هذا وتم القضاء عليه على ما يرجح.

دارا الأول:

توفي الملك «قمبيز» (522ق.م) وهو في طريق عودته من مصر ولا يعلم الموضع الذي توفي فيه ولا كيفية موته، وأعقب ذلك فترة اضطرابات عمت أرجاء الأمبراطورية وشملت بلاد بابل أيضاً، وقد نشبت ثورة قام بها مدعٍ بالعرش اسمه «غوماتا» (المجوسي)، وكان يشبه «بارديا» أخا قمبيز الذي قلنا عنه إنه اغتاله، فادعى هذا بأنه «بارديا» وانحاز إلى جانبه كثير من الولايات

---

(1) اشتهر الملك قمبيز بفتحه لبلاد مصر (522ـ521ق.م)، وبقيت مصر تابعة إلى الأمبراطورية الأخمينية إلى فتح الإسكندر لها (332ق.م).

وتقبلت دعوته، وبرز إبان هذه الاضطرابات أمير من الأسرة المالكة الأخمينية اسمه «دارا» فجمع حوله الأتباع ونازل ذلك الدعي وتغلب عليه كما حارب الحكام المنشقين بحيث إنه اضطر إلى إعادة فتح معظم ولايات الأمبراطورية ومن بينها بلاد بابل، حيث اغتنم بعض الوطنيين من أهلها ظروف تلك الاضطرابات فأعلنوا استقلال البلاد بزعامة الثائر المسمى «ندنتو ـ بيل» وادعى أنه من نسل «نبونيدس» وسمى نفسه نبوخذ نصر الثالث[1]، وحكم من تشرين الأول عام 522ق.م إلى كانون الثاني من العام (521)، وقد جاءتنا ألواح من الطين مؤرخة بهذه الفترة القصيرة من حكمه، وتطلبت ثورة بابل أن يتوجه دارا بنفسه لإخمادها ويروي هيرودوتس أن المدينة صمدت طوال عامين، ولكن ألواح الطين المؤرخ بها تشير إلى أن الملك البابلي استسلم في عام 521ق.م. وبعد فترة وجيزة من إخماد هذه الثورة وبينما كان دارا يحارب في بلاد ماذي لتصفية فلول الثوار، ثارت بابل مرة أخرى في شهر آب (عام 521ق.م) وادعى الثائر بأنه «نبوخذ نصر» ابن «نبونيدس»، ولكن الواقع أنه كان أرمني الأصل اسمه «أراخا» ابن «خلديتا» كما جاء في كتابة بهستون الشهيرة، ومهما كان الحال قضى على نبوخذ نصر الرابع في تشرين الثاني من العام نفسه، وقد نكل به وبالثائرين الآخرين.

ووجدت بقايا من عهد دارا في جملة مدن شهيرة، مثل تجديد منطقة المعابد (اي ـ أنا) في الوركاء، وشيد في مدينة بابل التي اتخذها مقره الشتوي في بعض الأحيان، دارا للصناعة وقصراً لولي العهد وآخر لسكناه (البناية التي يطلق عليها اسم) «أبادنا» Apadanna وكلاهما يقع بمحاذاة قصور «نبوخذ نصر» إلى الغرب.

---

(1) حول هذه الأحداث في بلاد بابل انظر:

(1) Olmstead, ***History of the Persian Empire.***

(2) A. Poebel, in ***AJSL,*** 56, (1939), 121 ff.

(3) Parker and Dubberstein, ***Babylonian Chronology,*** 626 ***B.C*** -75 ***A.D.*** (1956).

(4) G. Cameron, in ***AJSL,*** (1941), 314 ff.

تنظيمات الملك «دارا» الإدارية وولاية «بلاد بابل»:

استقامت الأمور لدارا في مطلع عام 520ق.م بعد أن قضى على جميع الثوار في أرجاء الأمبراطورية المختلفة[1]، وقد علمته تلك الثورات دروساً مهمة في أسلوب الحكم والإدارة، حيث التزم السياسة الحازمة الحكيمة في ضبط الأقاليم التابعة، كما قام بسلسلة من التنظيمات والإصلاحات الإدارية وفي مقدمة ذلك إعادة تنظيم الولايات التابعة مقتفياً في ذلك التراث المهم الذي خلفه الآشوريون في هذا الباب بعد إدخال التحسينات الملائمة للظروف السائدة، وزاد في عدد الولايات وجعلها عشرين ولاية يحكم كل منها والٍ يعينه الملك اسمه «ستراب»[2] كان يختار في الغالب من طبقة النبلاء. وبعضهم من العائلة المالكة، وكان الولاة مسؤولين مباشرة إلى الملك. وقسمت سلطات الولايات بتعيين قواد عسكريين لجيش الولاية مستقلين عن الوالي، وعين فيها أيضاً جباة للضرائب ونظاراً أو مفتشين يرسلهم الملك سنوياً تقريباً لفحص شؤون الولاية. وأنشأ جهازاً منتظماً للاتصال والمواصلات والبريد الذي اشتهر بسرعته العجيبة وشبكات من الطرق ما بين أرجاء الأمبراطورية والعاصمة «برسيبوليس» (اصطخر)، وفرض نظاماً قانونياً موحداً على الولايات. ووطد النظام المالي بإدخال استعمال النقود المسكوكة التي اطرد استعمالها على أساس الذهب، وصارت واسطة للتعامل التجاري والمصرفي، وعم استعمال الدينار الذهبي «الداري» (Daric) نسبة إلى «دارا» وجعل سعره مساوياً لعشرين «شيقلاً» من الفضة.

---

(1) لا مجال لذكر الأحداث الأخرى في حكم دارا الأول، ويجد القارىء المهتم ذلك في كتب التاريخ القديم الأخرى ومنها المجلد الثاني من كتابي «مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة» (1955)، فمن هذه الأحداث اصطدام الفرس في عهده باليونان على أثر ثورة الأيونيين التابعين إلى الأمبراطورية الفارسية، وإرسال الحملة العسكرية الشهيرة على «أثينة»، وإحراز اليونان ذلك النصر العجيب في موقعة «مراثون» (490ق.م)، ولم يستطع دارا استئناف الحرب لانشغاله في إخماد ثورة قامت في مصر، ثم موته في عام 486ق.م.

(2) «ستراب» باليونانية وتعني الوالي أو المحافظ من الفارسية القديمة «خشاثربان» Khshashtharapvan أي «المرزبان» المذكور في المصادر العربية.

أما بلاد بابل فقد عمها الهدوء والاستقرار من بعد إخماد الثورات التي قامت في بداية حكم «دارا» وأصبحت الولاية الحادية عشرة في ترتيب الولايات العشرين التي قسمت إليها الأمبراطورية وهي: (1) مصر (2) فلسطين (3) سورية (4) فينيقية (5) ليدية (6) فريجية (7) آيونية «المدن والمستوطنات اليونانية في سواحل الأناضول الغربية» (8) كبدوكية (9) كيليكية «الجهات الشرقية من الأناضول» (10) أرمينية (11) بلاد بابل وآشور[1] (12) بلاد ماذي (13) بلاد فارس (14) بلاد القوقاس (15) أفغانستان وبلوجستان (16) الهند (17) بلاد الصغد (18) بلاد البخت (19) مساغيتا (20) ولاية أواسط آسية التركمانية.

وكانت ولاية الهند في مقدمة الولايات في مقدار جبايتها وخراجها السنوي إذ كانت تدفع إلى خزانة «ملك الملوك» (4680) وزنة (Talent) من الفضة، وتأتي من بعدها ولاية بابل وآشور ومقدار جبايتها (1000) وزنة ثم مصر وجبايتها 700 وكيليكية 360 وزنة، وولايات بلاد الأناضول الأربع 1760 وزنة. وبالإضافة إلى هذه الجبايات السنوية كان على كل ولاية أن تزود الملك بالمؤن والطعام. فكان على بلاد بابل مثلاً أن تجهز جيوش الملك بالمؤن طوال أربعة أشهر من السنة. وعين «احشويرش» (Xerexes) حاكماً نائباً عن أبيه الملك (دارا) الأول في بلاد بابل وظل في هذا المنصب طوال 12 عاماً.

خلف دارا الأول على عرش فارس ابنه «احشويرش» الأول (486-465ق.م) بتعيين أبيه له وهو في حياته. وبدأ أولى أعماله بإخماد الثورة التي نشبت في مصر في عهد أبيه. وحدثت في بلاد بابل في عام حكمه الرابع (482ق.م) ثورة قادها أحد الزعماء البابليين المسمى «بيل - شماني» فاستقل

---

(1) يؤخذ من أخبار «زينفون» الذي سيأتي ذكره أن الولاية المتضمنة بلاد بابل وبلاد آشور جزأت في عام 478ق.م إلى ولايتين ولاية بابل وولاية آشور التي ألحقت بالولاية التي سميت «عبر النهر» (عبر نهارا) (وتشمل سورية وفلسطين وقبرص).

فترة قصيرة لم تتجاوز الشهر الواحد (شهر آب)، وقد جاءتنا جملة عقود مؤرخة في هذا الشهر الذي دام حكمه من بعض المدن البابلية مثل «دلبات» و«بورسبا» و«بابل». ويبدو أن شخصاً آخر استقل في الحكم أيضاً اسمه «شمس ـ ايريبا»، دام حكمه شهر (أيلول) فقط من العام نفسه، ويؤخذ من المصادر الخاصة أن الثورة كانت عنيفة حتى أن الوالي الفارسي المسمى «زوفيروس» قتل في أثنائها، ولذلك كان غضب الملك شديداً إذ أرسل القائد المسمى «ميكابيسوس» Megabysus فسحق الثورة بعنف وقسوة بالغين، ونكّل بالثوار تعذيباً وقتلاً.

ولكنه لا يعلم بوجه التأكيد مبلغ التخريب الذي حل بمدينة بابل والمدن الأخرى في أثناء هذه الثورات. على أن روايات المؤرخين الكلاسيكيين تكاد تجمع أن بابل دمرت ودكت حصونها[1]. وأن «احشويرش»، كما يروي «هيرودوتس»[2]، أخذ تمثال الذهب الضخم الذي يمثل الإله مردوخ (زيوس بحسب تعبير هيرودوتس). ويجدر أن ننوّه بمناسبة ذكر هيرودوتس أن وصفه لبابل بعد عشرين عاماً تقريباً من ذلك الحدث لا يشير إلى آثار تدمير واضحة ويقتصر على قصة أخذ احشويرش لتمثال الإله وقتله كاهن المعبد الذي حذره مغبة عمله.

أما بالنسبة إلى الأمبراطورية بوجه عام فإن بوادر التدهور بدأت تظهر منذ عهد «احشويرش» الذي حصر اهتمامه وهمه في بلاد فارس وأصبحت الولايات مجرد رعايا تابعة لها، وشمل ذلك بلاد بابل، ومما زاد الطين بلة إنهاك موارد الدولة في الحرب التي استأنفها «احشويرش» على بلاد اليونان إذ

---

(1) انظر:

(1) Parker and Dubberstein, *op. cit*, p. 17.

(2) Strabo, XVI, I, 5.

(3) Arrian, *Anabasis*, VII, 8, 2.

(4) Diodorus, II, 19, 4 ff.

(2) انظر: هيرودوتس، الكتاب الأول، 183.

جرد حملة ضخمة، وبعد عبوره البسفور انحدر على بلاد اليونان الشمالية وقضى على تلك المقاومة البطولية التي أبداها المدافعون الإسبارطيون القلائل عن مجاز «ثرموبيلي» الشهير، ثم أخذ مدينة أثينة، بيد أن هذه الانتصارات البرية لم تجده نفعاً ولم تقض على مقاومة اليونان، إذ حطم أسطولهم الأسطول الفارسي في معركة سلاميس الشهيرة (480ق.م) فانهارت معنويات الملك وانسحب بجيوشه البرية تاركاً بلاد اليونان تتمتع بحريتها من بعد نصرها العجيب على أضخم أمبراطورية عرفها العالم القديم. وأعقب هذه الأحداث الخطيرة تزايد الانحلال في جسم الدولة وحكامها ملوكاً وأتباعاً واغتيل «أحشويرش» على يد حجاب قصره (465ق.م) وأصبحت مؤامرات القصر من الوسائل المألوفة في تولي الحكم. وخلف أحشويرش جملة ملوك كانوا ضعفاء فازداد في عهودهم تدهور المملكة، وأولهم «أرتحششتا» الأول Artaxrexer (465ـ424ق.م) الذي قتل جميع إخوته لأن أحدهم ثار عليه في ولاية بلاد «البخت»، أما بالنسبة إلى بلاد بابل فلم يأتنا من أخبارها ما يستحق الذكر سوى ازدياد ظاهرة استيطان بعض الجماعات الفارسية فيها من بينهم كهنة من المجوس، كما أقطعت القطائع إليهم وفرضت الضرائب الثقيلة على السكان، واقتصرت إدارة الولاية على الموظفين الفرس. وعادت في عهد هذا الملك جماعات أخرى من اليهود من بقايا الأسر البابلي إلى فلسطين بزعامة الكاتب «عزرا» حيث أعيد بناء الهيكل في أورشليم (445ق.م).

وساءت أحوال المملكة في عهد خلف «أرتحششتا» المسمى «أحشويرش» الثاني (424ق.م)، وقد اغتاله أخوه بعد فترة قصيرة من اعتلائه العرش، وجاء إلى الحكم «دارا» الثاني (424ـ404ق.م) الذي شغل عهده بالمؤامرات والثورات وعم الفساد، وبذرت الأموال والجهود على التدخل في الحرب ما بين اسبارطة وأثينة المعروفة بالحروب «البيلوبونيزية». وخلف دارا الثاني ابنه المسمى «أرتحششتا» الثاني (404ـ359ق.م)، وقد حكم فترة طويلة دامت زهاء نصف قرن، ولكن ازدادت في أواخر حكمه الثورات

والاضطرابات في جميع أرجاء الأمبراطورية، وخلفه في الحكم «أرتحششتا» الثالث الذي اشتهر بالقسوة والشدة، وكان أول عمل قام به القضاء على جميع إخوته وأخواته، واستطاع أن يعيد إلى الطاعة بعض الولايات مثل مصر، ولكن المؤامرات لم تنته فقد مات مسموماً وكذلك ابنه الذي خلفه وتولى العرش «دارا» الثالث الملقب «كودومانوس» وهو آخر ملوك السلالة الأخمينية حيث قضى عليه الإسكندر الكبير على ما سنوجز ذلك بعد قليل.

لم يكن للملوك الأوائل من هذه السلالة عاصمة ثابتة واحدة. فقد اتخذ كورش الثاني أولاً مدينة «سوسة»، العاصمة العيلامية الشهيرة، لتكون مركز إدارته حينما كان والياً على إقليم «أنشان» في عهد تبعيته للملك الماذي. وبعد أن قضى على الدولة الماذية اتخذ عاصمتها «اكبتانا» (همذان) كما جعل مدينة بابل من بعد فتحها مركزاً له ولاسيما إبان فصل الشتاء. وقد اعتاد كورش أن يمكث في كل هذه العواصم فترة من الزمن وأخيراً شيد ما بين عام (559 ـ 550ق.م) عاصمة جديدة هي «بزرگاده» أو «بسرگاده» (Pasargade) الواقعة على بعد نحو 50 ميلاً شمال برسيبوليس (اصطخر)، وتعرف بقاياها الآن باسم «مشهدي مزغاب».

وقد مر بنا كيف أن دارا الأول اتخذ بابل مركزاً له بعض الوقت وعاش فترة من الزمن في قصر الملك «نبوخذ نصر» وقد وجدت له في بقايا هذا القصر مسلة منقوشة باللغة البابلية[1]. ولكنه شيد من بعد ذلك في بابل قصراً خاصاً به يقع بمحاذاة الجبهة الغربية من قصر نبوخذ نصر الجنوبي. وكان هذا القصر الفارسي الجديد ذا أعمدة وأطلق عليه «ابادانا» (Appadanna) وقد وجدت بقاياه وبعض آثاره في أثناء التنقيبات التي أجريت في المدينة. وأخيراً شيد دارا عاصمة جيدة شهيرة ضخمة، هي التي سماها اليونان «برسيبوليس» (أي مدينة الفرس) وهي اصطخر (اصطخرا (Stakhra) أي الحصن)، وشرع

(1) Koldewey, *Babylon*, (1914), p. 166.

ببنائها في عام 520ق.م، ولكن لم يكمل بناؤها إلا في عهد «أرتحششتا» الأول في حدود 460ق.م[1].

زينفون وحملة العشرة آلاف إغريقي:

كان يحكم في ولايات آسية الصغرى الأمير الفارسي «كورش» الملقب بكورش الأصغر (Cyrus The Yonger) بالنيابة عن أخيه الملك «أرتحششتا» الثاني (404ـ359ق.م)، وقد سبق لكورش هذا أن حاول قتل أخيه الملك، ولكن هذا عفا عنه وعينه حاكماً في آسية الصغرى كما قلنا، بيد أن ذلك التسامح من جانب أخيه لم يردعه عن التخلي عن أطماعه بالعرش، فجدد محاولته لأخذ الملك وهو في آسية الصغرى، فألف جيشاً لهذا الغرض معظمه من الجند المرتزقة، ولاسيما مرتزقة من الإغريق اشتهروا في التاريخ باسم حملة العشرة آلاف إغريقي، تلك الحملة التي اقترنت باسم «زينفون» (Xenophon)، وهو القائد الذي اختاره جند الحملة في أثناء تقهقرهم من بلاد بابل بعد فشل حملة كورش الأصغر ومقتله.

وقد دون «زينفون» وقائع رجوع اليونان إلى بلادهم (401ق.م) في كتاب[2] وردت فيه أمور مهمة عن الأمكنة والمواقع التي مر بها وجوانب مهمة من أحوال البلاد في أواخر العهد الفارسي الأخميني، وتعد من مصادرنا المهمة عن هذه الفترة من تأريخ العراق بوجه خاص وبعض أجزاء الأمبراطورية الفارسية الأخرى. ويؤخذ من ذكره لبعض المدن القديمة في بلاد آشور التي مر بها أن الكثير منها كان أنقاضاً وخرائب، فيذكر مثلاً أن مدينة «لرسًا» (Larissa)

---

(1) حول تنقيبات جامعة شيكاغو (المعهد الشرقي) راجع:

E. Schimidt, *The Treasury of Persepolis*, (1939).

G. Ghirshman, *IRAN*, (1954)& 165 ff.

(2) انظر:

(1) Xenophon, *Anabasis The Expedition of Cyrus The Younger*.

(2) D. Oates, *Studies in the Ancient History of North Iraq, (1968)*.

التي يرجح أنها «كالح» (نمرود) كانت خرائب مهجورة. أما نينوى العظيمة فإنه لم يذكرها باسمها بل مجرد كونها بقايا حصون وأسوار ضخمة بالقرب من بلدة ذكرها باسم «مسيلا» (Mescila)[1] التي يرجح كثيراً أنها الموصل.

موجز عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية:

أ ـ المصادر:

بالإضافة إلى المصادر الكلاسيكية التي نوَّهنا بها مراراً عن أحوال الدولة الفارسية بوجه عام وأحوال العراق في عهدها بوجه خاص جاءتنا من مدن العراق القديمة مثل بابل وبورسبا وكيش ونفر والوركاء وأور وغيرها مجموعات كبيرة من الوثائق التجارية والاقتصادية والقانونية. فيعد هذا العهد في هذه الناحية من أغزر العهود التاريخية في الوثائق وقد قدر ما جاء منها ما بين عام 625ق.م (بداية العهد البابلي الأخير) وبين الشطر الأول من العهد الفارسي الأخميني زهاء عشرة آلاف وثيقة، درس ونشر معظمها، يضاف إليها نحو (600) رسالة. على أن هذه الفترة كانت فقيرة من ناحية النصوص الملكية الرسمية، باستثناء بضعة نصوص وفي مقدمتها الإسطوانة التأريخية المدونة بأخبار كورش التي أشرنا إليها سابقاً[2].

ب ـ طرف من الحياة الاقتصادية:

رغم الثورات التي قامت بها بابل فإن أوائل الملوك الأخمينيين اهتموا بشؤونها واضطلعوا بالواجبات التي اعتاد أن يضطلع بها ملوك بابل، في

---

(1) انظر كتابه «الحملة» (Anabasis, III, 4).

(2) نذكر فيما يأتي المراجع الأساسية عن هذه الوثائق:

(1) A. T. Clay, *Legal and Commercial Transactions Dated in the Assyrian, Neo-Bab. and Persian Periods*, (1908).

(2) Tremayne, *Records from Erech, Time of Cyrus and Cambyses*, (1925).

(3) Dubberstein, in *AJSL*, (1939), 20 ff.

(4) , in *JNES*, (1944), 38 ff.

التعمير والإنشاء ومشاريع الري والحياة العامة. ولكن لما دبَّ الانحلال في نظام الحكم المركزي وساءت الأحوال الاقتصادية في الأمبراطورية شمل ذلك أيضاً بلاد بابل، وقد رأينا الجباية الباهظة التي فرضت على ولاية بلاد بابل البالغة (1000) وزنة من الفضة سنوياً عدا تزويد الحكومة المركزية بالمؤن طوال أربعة أشهر من العام، هذا بالإضافة إلى عبء إشباع الحاكم المحلي وإدارته. وقد روى هيرودوتس أن والي بلاد بابل كان يقبض من الولاية يومياً ما لا يقل عن الإردب الواحد من الفضة[1] وأن يزود العلف لما لا يقل عن (800) حصان و(16,000) فرس في حين أن كلابه الهندية كان إطعامها يتطلب واردات أربع قرى (الكتاب الأول، الفقرة 192) يضاف إلى هذا ما ذكرناه من فقر موارد البلاد الاقتصادية من التجارة الخارجية من جراء تبدل الطرق التجارية العالمية، إذ حرمت بلاد بابل من موارد الأقاليم القديمة مثل بلاد الشام والأقاليم الشرقية، وحتى الطريق «الملكي الشهير» الآتي من «ساردیس» (في الأناضول) إلى سوسة (بلاد عيلام) صار يمر من سفوح الجبال الشرقية متجاوزاً مدينة بابل إلا نادراً.

ولعل أبرز ظاهرة اقتصادية ميزت العهد الفارسي الأخميني ما أشرنا إليه من استعمال النقود المسكوكة، وجعل دينار الذهب «الداري» المعادل لعشرين شيقلاً من الفضة أساس التعامل التجاري، واستتبع ذلك نشاط الحركة المصرفية والائتمان (Credit) وظهرت المصارف الخاصة بالإضافة إلى مصارف المعابد التي كانت عامة في حضارة وادي الرافدين في العصور التأريخية السابقة ونشطت نشاطاً ملحوظاً في العصر البابلي الأخير واستمرت إلى العهد الفارسي. وقد استغل أصحاب الأموال تدهور الأوضاع الاقتصادية وارتفاع

---

(1) حول هذه السجلات راجع:

(1) Gardacia, *Les Archives des «Murashû»* (1951).

(2) *The Bab. Exped. of the University of Pennsylvania*, XI.

(3) Helprecht and Clay, *Business Documents of «Murashû» Sons of Nippur*, (1898).

الأسعار فصاروا يقرضون المحتاجين بأرباح فاحشة حيث بلغت الفوائد على الأموال المقرضة من 40% إلى 70% وكان معظم طبقات الشعب بحاجة مستمرة إلى الاستقراض ولاسيما أصحاب الأراضي لاضطرارهم إلى دفع الجبايات الباهظة إلى الملك وموظفيه. وجاءتنا أسماء بعض المصارف المشهورة من هذا العصر مثل مصرف «أولاد مراشو» في نفر (460ـ400ق.م) وكان أصحابه على الأرجح عائلة يهودية ازدهرت أعمالها المصرفية في نفر والمدن المجاورة الأخرى، وقد عثر على سجلات معاملاتها المختلفة في مدينة «نفر» ووجد لها فرع في مدينة «الوركاء» في أثناء موسم التنقيبات لعام 1960، وكانت تمتلك المزارع الواسعة ومصائد الأسماك والمواشي ورهونات العقار والأراضي. وكانت الظاهرة التي لاحظناها من ارتفاع الأسعار في العهد البابلي الأخير (627ـ539ق.م) قد استمرت وتفاقمت، بحيث يمكن القول إن أسعار المعيشة قد تضاعفت في خلال القرن الذي أعقب موت دارا الأول بدون أن يواكب ذلك زيادة في الأجور.

واشتهرت عائلة مصرفية أخرى باسم «بيت ايگيبي» Egibi ومركزها في مدينة بابل، والمرجح أن تكون عائلة يهودية أيضاً اسمها محرف من «يعقوب»[1]. ويؤخذ من وثائق هذا العهد أن الطبقات الأرستقراطية الفارسية كانت تمارس الأعمال التجارية ومعاملات القروض والارتهان في بلاد بابل، ومن بينها أفراد العائلة المالكة عن طريق وكلاء من البابليين والآراميين واليهود والمصريين، وقد جاءتنا وثيقة تشير إلى أن «قمبيز» بن كورش كان يتعامل بالقروض والرهان وهو ولي للعهد، وتشير وثائق هذا العهد أيضاً إلى تملك القطائع والقرى من جانب هذه الطبقات الأرستقراطية، وكان مثل هذه القطائع معفاة من الضرائب، ولكن كان على أصحابها أن يؤدوا الخدمة العسكرية إلى الملك، واستعمل في هذا الشأن المصطلح البابلي القديم «الكو» (ilku)

(1) حول هذه العائلة وعائلة «أولاد موراشو» انظر:
Olmstead, *History of the Persian Empire*, (1948), 83 ff.

والمصطلح الآرامي المضاهي له «هالاك». وخصص بعض الأراضي الزراعية إلى الملك نفسه وكان يقوم بخدمتها عبيد الملك أو أنها تعطى بالإجارة[1]، وبالإضافة إلى الأراضي الزراعية كان الملك أيضاً يملك الأنهار وجداول الري فيؤجرها إلى المزارعين وكثيراً ما كانت البيوت المصرفية مثل «أولاد مراشو» يستأجرونها من الملك ويؤجرونها بدورهم إلى المزارعين.

وبالإضافة إلى الضرائب بالفضة والمؤن التي تجبى من الولايات المختلفة، كان على هذه الولايات أن ترسل جماعات من أولادها للخدمة في قصر الملك، فكان على ولاية بابل وآشور (هيرودوتس، الكتاب الثالث، 92) أن تجهزا (500) ولد سنوياً (ويسميهم هيرودوتس خصيان). ونقرأ في سفر «استير» أن على رعايا الملك أيضاً أن يجهزوه بالسريات. وتغيرت وضعية المعبد البابلي في العهد الأخميني حيث صار على المعابد أن تؤدي الضرائب إلى الملك من المواد الغذائية والخمور والزيوت والعبيد والعمال.

ويجدر أن نذكر في ختام هذه الملاحظات عن الأوضاع الاقتصادية في بلاد بابل في هذا العهد أن كميات النقود الهائلة التي كانت تدفع ضرائب إلى الدولة على هيئة مرتبات إلى موظفي الدولة من جانب الولايات كانت تخزن بالدرجة الأولى ولا يصرف منها إلا الشيء القليل، فكان هذا من معوقات نمو التعامل النقدي وقلة النقود المتداولة مما اضطر عامة الناس إلى الاستقراض على الدوام. والطريف ذكره بهذا الصدد أن الإسكندر الكبير لما فتح بلاد فارس وجد أكداس الأموال مخزونة في قصور الملوك، وأن إعادة توزيعها من جانب الإسكندر سبب أزمة عالمية في النقد، إذ تضخمت كميات النقد المتداولة وانخفضت أسعاره انخفاضاً كبيراً.

---

(1) عن أحوال العراق الاقتصادية في هذا العهد انظر:
Muhammad Dandamayen in Diakonoff, *Ancient Mesopopotamia.*

جـ ـ التغيرات اللغوية والسكانية:

صارت بلاد بابل منذ الألف الأول ق.م خليطة السكان، فقد رأينا القبائل الآرامية الكثيرة تستوطن الأجزاء الجنوبية من العراق وتقوم منها سلالات حاكمة، بيد أن أولئك الآراميين رغم اختلاف لهجاتهم عن اللغة البابلية لم يكونوا في الواقع عناصر أجنبية عن أهل البلاد الساميين الأصليين، وازداد اختلاط السكان أكثر في القرن السادس ق.م، في عهد الدولة البابلية الأخيرة، فبالإضافة إلى الآراميين والعرب، أقرباء البابليين من السكان الأصليين، دخلت إلى البلاد عناصر جديدة مثل العبرانيين والمصريين والسوريين وحتى جماعات قليلة من اليونان، واستمر اختلاط السكان في الازدياد منذ العهد الفارسي الأخميني بالنظر إلى طبيعة تركيب الأمبراطورية الفارسية وجيوشها، فتشير الوثائق التي جاءتنا من هذا العهد إلى وجود عدد ليس بالقليل من الأسماء الإيرانية. على أنه ليس من السهل معرفة هل كان مثل هذه الأسماء من أصل إيراني صرف أو أن بعض البابليين بدؤوا يسمون أولادهم بأسماء إيرانية. وقد يصح القول كما رأى أحد الباحثين[1] إن أسماء الأعلام الإيرانية في الوثائق العائدة إلى زمن «كورش» و«قمبيز» ولعله «دارا» الأول كان أصحابها إيرانيين، في حين أن الأسماء الأخرى من العهود التالية لا يمكن تعيين أصل أصحابها، فقد يكونون بابليين اتخذوا الأسماء الإيرانية أو إيرانيين في الواقع. ومع أن عبادة الآلهة المحلية استمرت تمارس في بلاد بابل على الرغم من فرض الملك «احشويرش» عبادة الإله الفارسي «اهورامزدا»[2]، إلا أن تسمية بعض البابليين أبناءهم بأسماء إيرانية تدخل في تركيبها الآلهة الإيرانية لها دلالتها على تساهل القوم في التمسك بآلهتهم.

وقد حقق انتشار اللغة الآرامية في أرجاء الأمبراطورية الفارسية حاجة شعوب هذه الأمبراطورية الواسعة إلى وسيلة مشتركة للتفاهم، فازدهرت

---

(1) ذات المصدر (رقم 24) ص298.

(2) راجع نص المرسوم في: *ANET*, p. 457.

الآرامية، واتخذها ملوك هذه الأمبراطورية لغة رسمية إلى جانب اللغة الفارسية القديمة واللغة البابلية ولاسيما في بلاد بابل، حيث استمرت البابلية لغة تدوين، على أن معرفتها واتقانها اقتصرت تقريباً على الكتبة البابليين ورجال الدين، وانحصر استعمالها بالدرجة الأولى في تدوين النصوص الأدبية والدينية والتأريخية ووثائق المعاملات التجارية والاقتصادية.

ونختتم هذه الملاحظات عن أحوال العراق في العهد الفارسي الأخميني بذكر حقيقة تأريخية مهمة في حياة حضارة وادي الرافدين، تلك هي أنه على الرغم من خضوع بلاد بابل إلى الأمبراطورية الفارسية فقد استمرت هذه الحضارة على شيء من الازدهار في جوانب مهمة من المعارف العلمية، ولا سيما الفلك والرياضيات، كما يستدل على ذلك من النصوص الفلكية المهمة التي وصلت إلينا من هذا العهد. واشتهر بوجه خاص فلكيان بابليان لدى الإغريق هما «نابوريانوس» (Nabu-rimani) والثاني الفلكي «كيدنو» (Kidinu) (أو كيديناس (Cidenas) في المصادر اليونانية)، وكلاهما عاش في القرن الرابع ق.م. وقد جاء من الأول منهما أزياج أو تقاويم فلكية مهمة Ephemerides تتعلق بالحسابات الخاصة بالقمر والشمس، وكانت حساباته عن الخسوف والكسوف مضبوطة. أما «كيدينو» (الذي عاش في حدود 357ق.م)، فقد خلف أيضاً أثباتاً فلكية مهمة، ومنها حسابه مقدار السنة الشمسية بدرجة مضبوطة بحيث لا ينقص عن المقدار الفلكي الحقيقي إلا بأربع دقائق ونصف الثانية. وكان حسابه لمقدار حركة الشمس مما يسمى الـ«نودان»[1] أقل من الخطأ الفلكي الحديث المسمى «أوبولزر» (Oppolzer)[2]. واتخذ تقويم فلكي مضبوط ما بين عام 388 و365ق.م في حساب إضافة سبعة أشهر قمرية في دورة زمنية مقدارها (19) سنة قمرية. إن هذا التقويم الفلكي المضبوط تم

(1) النودان (Node) في علم الفلك نقطة تقاطع مدار كوكب معين مع دائرة سمت الشمس أو منطقة البروج.

(2) Olmstead, *op. cit.* p. 457.

التوصل إليه بطريق الحسابات الرياضية الفلكية من جانب الفلكيين البابليين من أهل القرن الثامن ق.م إذ يرجح كثيراً أنه يرجع في زمنه إلى زمن الملك «نابوناصر» في حدود 747ق.م[1] وهو من جملة الأمثلة الكثيرة على استعمال الحسابات الرياضية في الفلك.

(1) نورد هذا التقويم الطريف مع العلم بأن أرقام السنين التي إلى جهة اليمين هي السنين التي يضاف إلى أشهرها القمرية شهر ثالث عشر، حيث يضاف إلى آخر السنة ما عدا السنة الأولى التي يضاف الشهر الكبيسي في أولها:

1 2
3 4 5
6 7 8
9 10
11 12 13
14 15 16
17 18 19

العراق في عهد الإسكندر وخلفائه من السلوقيين

انتهى العهد الفارسي الأخميني بفترة فتح الإسكندر الكبير للشرق والعراق، ثم تلاها العهد السلوقي نسبة إلى «سلوقس» أحد كبار قواد الإسكندر الذين اقتسموا أمبراطوريته من بعد موته في بابل عام 323ق.م، حيث صارت سورية والعراق وإيران من حصة ذلك القائد. ويبدأ العهد السلوقي بالنسبة إلى العراق القديم في 3 نيسان 311ق.م، حيث اتخذ هذا التأريخ عهداً ثابتاً يؤرخ منه لأول مرة في تأريخ العراق القديم. ودام هذا العهد زهاء القرنين من الزمان، إلى حدود 139ق.م أو 126ق.م حيث انتزع الفرس الفرثيون العراق من السلوقيين على ما سنبين ذلك في الصفحات الآتية:

موجز فتح الإسكندر للشرق والعراق:

لما كان ليس من موضوعنا إسهاب القول في تأريخ المقدونيين الذين ينتمي إليهم الإسكندر الكبير ولا تأريخ هذا الفاتح العظيم فنكتفي بإيجاز الأحداث التي استتبع عنها دخول العراق أولاً في حوزة الإسكندر ثم تحت سلطة أحد قواده الذي ذكرناه أي «سلوقس» الأول «نيقاطور» (305 ـ 281ق.م ولكن حكمه في العراق بدأ كما قلنا في 311ق.م).

ولد الإسكندر بن فيليب المقدوني في عام 356ق.م وقد سبق لأبيه أن أعد قومه إعداداً عسكرياً وكوَّن منهم مملكة قوية في مقدونية واستطاع في مدى خمس عشرة سنة أن يخضع معظم الدويلات اليونانية، ورضي الإغريق في النهاية بأن يختاروه قائداً عاماً لجميع بلاد اليونان ليقود الحملة العسكرية على

آسية وبلاد فارس. فقد تشجع اليونان بعد أن استطاعوا قبل زمن فيليب أن يصدوا غزو الفرس لبلادهم ووقفوا على مواطن الضعف عندهم، فتحول الاتحاد الجديد بين المقدونيين وبين اليونان وهم تحت قيادة فيليب الحازمة من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم إزاء الأمبراطورية الفارسية. وقبيل أن يشرع فيليب بحملته الجريئة اغتيل فخلفه ابنه الشاب الإسكندر في عام 336ق.م، وكان عمره (23) عاماً. ووافق المقدونيون واليونان على أن يتولى الملك الجديد قيادة الحملة، فشرع الإسكندر بزحفه على الشرق في عام 334ق.م. واستطاع في مدى ثلاثة أعوام أن يحطم جحافل الأمبراطورية الفارسية الضخمة ويضم أقاليمها إليه، ويغير مجرى التأريخ البشري، ويكون واسطة الاتصال المباشر بين حضارات الشرق القديم وبين الحضارة اليونانية فتفاعلت معها وتمخض عن ذلك ظهور ثقافة عالمية جديدة عاش في كنفها العالم قروناً طويلة، هي الحضارة التي أطلق عليها اسم الحضارة الهلنستية، أي الشبيهة بالهلينية (اليونانية الصرفة).

ومما لا مراء فيه أن هناك عوامل مهمة هيأت للإسكندر تحقيق فتوحه الخاطفة التي لم تضاهها في سرعتها وقصر زمنها فتوح أخرى في التأريخ العالمي في عصوره القديمة. وتأتي في مقدمة تلك العوامل المساعدة صفات الإسكندر الشخصية وقابلياته وتربيته العسكرية الخاصة، وما ناله من ثقافة وهو في حداثته (بسن 13)، وقد تولى جانباً منها الفيلسوف اليوناني «أرسطو» وكان محباً لأعمال البطولة والأبطال، حيث كان يقرأ على الدوام إلياذة هوميروس في النسخة التي هيأها له معلمه الكبير «أرسطو». وإلى ذلك كان مطلعاً على أحداث التاريخ الخاصة بالحروب «اليونانية ـ الفارسية» كما عرضها هيرودوتس المعروف، وكانت موضوع تأريخه الأساسي، وما أودعه في كتابه عن أحوال الدولة الفارسية والدعاية والتحريض على اتحاد اليونان وإمكان أخذ الثأر من بلاد فارس بغزوها، بالإضافة إلى الغنائم والثروات التي سيجنونها. كما وردت في حملة «زينفون» المشهورة (401ق.م) إلى بلاد بابل مما نوَّهنا به سابقاً معلومات مهمة عن أحوال الفرس ومواطن ضعفهم وقوتهم. ثم إن «فيليب» أبا

الإسكندر قد مهد للنجاح العسكري بما أحدثه من تحسين وتجديد في نظام الجيش وأساليب القتال والمناورة، فبالإضافة إلى تحسين نظام الصف (Phalanx) القديم جعل صنف الخيالة أي الفرسان منظماً تنظيماً بارعاً، وجعله عنصراً مهماً في القتال، كما تجلى ذلك في معركة «أربيل» الشهيرة ما بين دارا وبين الإسكندر (331ق.م) وكانت فيها النهاية الحاسمة في حياة الأمبراطورية الفارسية. وإلى كل هذه العوامل وغيرها يضاف عامل الانحلال والتفسخ في الدولة الفارسية وعلى رأسها الملوك والطبقة الحاكمة[1].

نقل الإسكندر جيشه عبر الدردنيل ولاقى أول جيش فارسي في معركة نهر «الغرانيق» Granicus في عام 334ق.م، ثم التقى بالملك دارا الثالث نفسه في المعركة الثانية التي وقعت في «ايسوس» وتحطم فيها الجيش الفارسي. ولكن الإسكندر لم يلاحق دارا في تقهقره بل قصد مصر وسوريا وفتحهما (332 ـ 331ق.م). وأسس في مصر أولى المدن الكثيرة التي سميت باسمه، ونعني بذلك اسكندرية مصر الشهيرة (322ق.م) حيث يقال إنه خططها بنفسه ما بين بحيرة مريوط والساحل. وفي أثناء وجوده في مصر زار واحة «سيوا» الشهيرة وقرب إلى معبد الإله «أمون» فيها، وأخبره هذا الإله على لسان عرافه بأنه سيحكم العالم وأنه نفسه «ابن أمون».

فتح العراق:

ثم اتجه الإسكندر في عام 331ق.م إلى العراق لغزو قلب الأمبراطورية الفارسية، وكان «دارا» قد جمع في سهل أربيل جيشاً لجباً قيل إنه بلغ المليون. وكانت خيالته وحدها تربو على جيش الإسكندر الذي بلغ زهاء

---

(1) نكتفي من المراجع الكثيرة التي كتبت عن الإسكندر بالمصدرين الأساسيين:
Tarn, *Alexander the Great*, (1947).
ومن المؤرخين الكلاسيكيين:
Arrian, *Anabasis of Alexander the Great*.

(40,000) من المشاة ونحو (7000) فارس. وعبر الإسكندر الفرات عند الموضع المسمى «ثبساكوس» (Thapsacus) قرب دير الزور، فسار شرقاً في جزيرة ما بين النهرين إلى دجلة وعبره بمسافة قليلة شمال الموصل، في الموضع المسمى «بيزبدا»، ووصل إلى سهل أربيل، وكان دارا وجحافله في الموضع المسمى «گوگميلة» بالقرب من أربيل[1]، فنشبت المعركة الكبرى عند «گوگميلة» (331ق.م) ولكنها عرفت بمعركة «أربيلا» (أربيل القريبة من كوكميلة) وهنا حلت الهزيمة بجيوش دارا وتقرر مصير آسية والعالم القديم.

وبعد أن تمهل الإسكندر قليلاً في أربيل اتجه إلى بابل وفتحها في العام نفسه (331ق.م). وقبل أن نذكر بعض الملاحظات عن الإسكندر في بابل نواصل إيجازنا عن مصير الملك الفارسي دارا من بعد هزيمته في معركة أربيل. فقد هرب إلى العاصمة البعيدة «أكبتانا» (همذان) ولاحقه الإسكندر إلى بلاد فارس فدخل إلى سوسة ثم العاصمة العظيمة «برسيبوليس» ومكث فيها أربعة أشهر، ويروى أنه وضع يده على الكنوز الضخمة التي كدسها ملوك فارس، وجرت حادثة طيش مؤسفة هي أن الإسكندر، وهو ثمل في حفل شرب ورقص، أمر بإحراق عاصمة الأمبراطورية الفارسية بإشارة من الراقصة «تاييس» إلى القوم الثملين إذ حرضتهم على أخذ الثأر من القصر الذي طالما دبرت فيه خطط تدمير اليونان. فبدأ الإسكندر بالشعلة الأولى وتوهج البناء الشامخ بالنار التي التهمت أخشاب الأرز النفيسة. ثم واصل الإسكندر في ربيع عام 330ق.م ملاحقته لدارا إلى مدينة (أكبتانا) ولما أن شارف جيش الإسكندر على المدينة قبض على دارا أتباعه وقتلوه. واستمر الإسكندر من بعد ذلك في حملات بعيدة موغلاً في بلاد البخت والصغد وغيرهما من أقاليم ما وراء النهر وأواسط آسية. وعند عودته مر ببلاد السند، وأسس في هذه الأنحاء

---

(1) يرى بعض الباحثين أن موقع «گوگميلة» قرب بلدة «كرمليس» الآن:

A. Stein, «Notes on Alexander's Crossing of the Tigris and the Battle of Arbela» in *Geographical Journal*, (1942).

اسكندريات أخرى منها اسكندرية «قندهار» (المرجح أنها محرفة عن اسم اسكندرية)، وكان من مغامراته الجريئة أنه عبر جبال «هندوكوش»، وكانت هذه مجازفة تضاهي عبور «هانيبال» القرطاجني جبال الألب، ثم غزا الهند (ما بين 327 ـ 325ق.م) ولما أن بلغ نهر «الكنج» ظن أن ذلك نهاية العالم. وعندئذٍ ظهر تذمر قواده وجيشه من هذه المجازفات البعيدة عن أوطانهم. فرضخ الإسكندر وعاد أدراجه، وعبر جيوشه بأساطيل في دلتا نهر السند (325ق.م) ثم واصل رجوعه براً، تاركاً قائده المشهور «نيرخس» Nearchus ليستكشف طريق البحر إلى الخليج العربي. ولما وصل الإسكندر سوسة (325 ـ 324ق.م) شرع في تنفيذ خططه ومشاريعه في إنشاء أمبراطورية أو دولة عالمية تضم جميع القوميات والشعوب وتتآخى فيها. ودشن خططه هذه بأن تزوج من ابنة دارا المسماة «ستاتيرا»، كما تزوج الكثير من قواده وجنده نساء فارسيات. ووضع الخطط لإنشاء مواصلات بحرية بين نهر السند ودجلة والفرات وخليج السويس.

الإسكندر في بابل وموته فيها:

لم يلق الإسكندر مقاومة من الحاكم الفارسي في بابل «مازيوس» بل سلمه مفاتيح المدينة (331ق.م) ورحب به السكان على أنه محررهم، ولكنه لم يبق في بابل سوى شهر واحد حيث ذهب إلى سوسة كما ذكرنا، ولما عاد إلى بابل، من بعد تسع سنوات من حملاته البعيدة في الشرق والهند كان مشبعاً بأفكار وأحلام في جعل العالم دولة واحدة كما نوَّهنا وأن تكون بابل والإسكندرية عاصمتي تلك الدولة العالمية والاتصال ما بينهما عن طريق البحر حول الجزيرة العربية، وتطهير نهر الفرات لجعله صالحاً للملاحة إلى الخليج، ولذلك نراه يعهد إلى قائد أسطوله «نيرخس» السالف الذكر باستكشاف المحيط الهندي لربط الأجزاء الشرقية من دولته العالمية. ووضع الخطط لإنشاء ميناء ضخم في مدينة بابل وميناء آخر في أسافل نهر الفرات عند انصبابه في البحر. ولكي تكون بابل لائقة لأن تصبح عاصمة دولته الثانية صمم على إعادة بناء

قصورها ومعابدها وحتى برجها الشهير. وقد فسر التل المعروف الآن باسم «الحميرة» على أنه من بقايا الأنقاض التي رفعت بأمر الإسكندر من حوالي برج بابل تهيئة لإعادة بنائه. ويوجد بالقرب من هذا التل موضعان مرتفعان من التراب فسرا بأنهما موضعا النار التي أضرمت لحرق جثث بعض قواد الإسكندر ممن توفي في بابل.

وبينما كان الإسكندر متهيئاً للشروع بحملة حربية إلى الجزيرة العربية وفي أثناء الولائم والحفلات التي أقيمت في تلك المناسبة مرض بالحمى وتوفي في 13 حزيران من عام 323ق.م، وهو في سن (32) عاماً. وقد مات في قصر نبوخذ نصر ولم يجد عرضه، وهو مسجى على فراش المرض، على مزار الإله «ايا» في معبد «اي ـ ساگلا» الكبير لشفائه من مرضه. وهكذا انتهت حياة هذا الشاب العجيب الذي «جمع في عمر اثنين وثلاثين عاماً همم أعمار كثيرة وتجاربها وإنجازاتها، ولم يكن موته نزوة من نزوات القدر بقدر ما كان نتيجة للشدة التي احترقت فيها طاقته الحيوية». وقد عرفت القرون القليلة التي أعقبت موته باسم العصر «الهلنستي» حيث عمت فيها كما نوَّهنا حضارة خليطة من حضارات الشرق القديم وحضارة اليونان.

ولعله كان من حسن حظ تلك الشخصية الفريدة في التأريخ البشري أن يموت وهو في عنفوان شبابه وأوج مجده، إذ لم يكن من المتوقع أن يضيف إلى شهرته وأمجاده، بل الواقع أن بوادر الغرور البشري والعجب بالنفس والثمل بالنصر وحب العظمة، التي قاربت تأليهه لنفسه، أخذت تظهر واضحة في سلوكه. ولو أنه عاش أكثر مما عاش لارتكب حماقات تحط من شهرته الفذة، ومن هذه البوادر ما كان يظهر على سلوكه من نزق وطيش وحب تملق، وقد قتل بعضاً من خيرة قواده وأصحابه، كما قتل الفيلسوف المشائي (من أتباع مدرسة أرسطو) المسمى «كليسيثنيز» الأمر الذي أوغر صدور أتباع «أرسطو» عليه فراحوا يغمزونه ويشنعون عليه.

وغدت شخصية الإسكندر موضوعاً شائعاً للحكايات والأساطير عند كثير

من الشعوب في مختلف عهود التاريخ، شأنه في ذلك شأن الأبطال الآخرين، ومن بين ذلك الآداب والقصص العربية حتى أن بعض المفسرين يطابقون الإسكندر المقدوني بذي القرنين المذكور في القرآن، وأنه صاحب سد «جوج وماجوج»[1].

السلوقيون:

لما توفي الإسكندر (في عام 323ق.م) لم يكن من يخلفه على العرش سوى أخ له مضطرب العقل، وقد صار ملكاً فترة قصيرة على بلاد مقدونية، وابنه الذي لم يكن قد ولد إبان وفاته، ولما ولد ضاع حقه في الملك في خضم المنازعات التي نشبت ما بين مشاهير قواد الإسكندر. وبعد فترة طويلة من الحروب ما بين أولئك القواد دامت زهاء (42) عاماً، اقتسم ثلاثة منهم أمبراطوريته الواسعة، وهم «سلوقس» (Seleucus) و«بطليموس» (Ptolemy) الذي أسس مملكة البطالسة أو البطالمة في مصر و«انتيكونس» حاكم آسية الصغرى (إقليم فريجية)، وصارت بلاد بابل وآشور وسورية من حصة سلوقس كما دخلت فيها إيران والأجزاء الشرقية من آسية الصغرى. ولكن لم تتوطد سلطة سلوقس في بلاد بابل إلا في عام 312ق.م واعتبر عام 311ق.م التأريخ الرسمي للعهد السلوقي في العراق كما بينا سابقاً.

كانت المملكة السلوقية في واقع الأمر أمبراطورية كبيرة تمتد من تخوم الهند إلى حدود مصر، ومن البحر الأسود إلى الخليج العربي، فكان ينقصها التماسك، حتى أنها تجزأت منذ بداية نشأتها إلى قسمين كبيرين: القسم الشرقي وكان يتضمن العراق والأقاليم الشرقية، وقد أسست له عاصمة جديدة هي «سلوقية دجلة»، والقسم الغربي ويتضمن بلاد الشام وتوابعها وجعل مركز

---

(1) عن الإسكندر في الأخبار العربية انظر:
M. Lidzbarski in *ZA,* (1893), 263 ff.
Andersen, *Alexander's Gate, Gog and Magog and the Enclosed Nations,* (1932).

إدارته في عاصمة جديدة هي مدينة «إنطاكية» الشهيرة التي أسسها سلوقس في عام 300ق.م على العاصي وسماها باسم أبيه «أنطيوخس». وأشرك سلوقس الأول ابنه المسمى «أنطيوخس» في الحكم حيث صار ملكاً نائباً عنه في القسم الشرقي من الأمبراطورية، وعاصمته سلوقية كما ذكرنا.

وبينما كان سلوقس عائداً من إحدى حروبه في آسية الصغرى اغتاله أحد أبناء «بطليموس» ملك مصر في عام 281ق.م، وخلفه في الحكم ابنه «أنطيوخس» الأول (281 ـ 261ق.م). واستمرت في عهده الحروب والنزاع ما بين السلوقيين وبطالسة مصر للاستيلاء على بلاد فينيقية وفلسطين، حيث استطاع من بعده الملك السلوقي «أنطيوخس» الثالث الكبير (223 ـ 187ق.م) أن يضمها إلى مملكته في عام 200ق.م. وكان هذا أشهر الملوك السلوقيين وأعظمهم وقد خاض حروباً كثيرة في النواحي الشرقية لإخماد الثورات التي نشبت فيها، وانتصر على الملك الفرثي «ارشاق» مؤسس السلالة الفرثية أو الارشاقية التي سنتكلم عنها. وبلغ في حروبه إلى تخوم الهند، كما دخل في نزاع مع رومة بسبب غزواته في آسية الصغرى وتهديده مصالح الرومان في عهدهم الجمهوري. ولما أراد فتح بلاد اليونان تصدوا له ودحروه (عام 199ق.م) بقيادة القائد الروماني «سكبيو» (Scipio). ولما توفي أنطيوخس الثالث في عام 187ق.م دب في جسم المملكة السلوقية التدهور والانحلال، وانفصلت الولايات الشرقية عنها تحت حكم السلالة الفرثية التي قامت في حدود 250ق.م واستطاعت أن تنتزع العراق من السلوقيين ما بين عام 139ق.م و126ق.م. وأخيراً فتح القائد الروماني الشهير «بومبي» بلاد الشام وضمها إلى رومة (65ـ63ق.م)، فانتهى الحكم السلوقي في سورية أيضاً.

لمحة عن أحوال العراق في العهد السلوقي:

لم تنقطع مصادرنا المسمارية عن تأريخ العراق في العهد السلوقي، فقد وصلت إلينا مجموعات من الوثائق التجارية والاقتصادية من المدن المشهورة مثل الوركاء ونفر وغيرهما، كما جاءت نسخ من بعض النصوص الأدبية

القديمة ونصوص خاصة بتنبوءات الفأل (Cmens) وبعض النصوص الثنائية اللغة أو المزدوجة اللغة (أي سومرية وبابلية)، وجملة كتابات تأريخية من بينها جدولان أو ثبتان بأسماء الملوك، ونصوص رياضية وفلكية مهمة. وبالنسبة إلى العلوم الرياضية والنصوص الرياضية يعد العصر السلوقي العهد الثاني من بعد العصر البابلي (الألف الثاني ق.م) في ازدهار هذه العلوم، كما تقدمت الدراسات الفلكية واستخدمت فيها الحسابات الرياضية، والمرجح كثيراً أن استعمال علامة أو رمز للصفر قد ظهر في هذا العهد أو قبله بقليل.

ووصل إلينا من زمن الملك «أنطيوخس» الملقب «سوطير» نص تأريخي مهم يدون طائفة من الأحداث المهمة المعاصرة في بعض المدن مثل بابل و«كوثى» و«بورسبا». وألف في مطلع العهد السلوقي الكاهن البابلي «بيروسس»، كاهن الإله مردوخ في بابل، كتاباً باليونانية عن تأريخ العراق وكرسه إلى الملك «أنطيوخس» الأول. وقد فقد هذا الكتاب ولكن مقتبسات كثيرة منه وردت في المؤلفات الكلاسيكية[1].

وتميز العهد السلوقي في العراق وفي أقطار الشرق الأدنى الأخرى في نشوء المدن الجديدة يقابل ذلك تضاؤل شأن الكثير من المدن القديمة وموت البعض الآخر منها، باستثناء تلك المدن القديمة التي ظلت محافظة على كيانها لأسباب خاصة مثل وقوعها على الطرق التجارية المهمة كما كان الحال في مدينة «كالح» الآشورية (نمرود) إذ حصل فيها بعض الازدهار لوقوعها على طريق دجلة[2]، وماري وإرسلان طاش[3]، ولكن مدناً قديمة أخرى مثل «أور» دب فيها الاضمحلال من جراء تبدل مجرى الفرات ومزاحمة المدينة الجديدة

---

(1) سمّى «بيروسس» كتابه (Babylonica) انظر:
Schnabel, *Beroses und Babylonisch- Hellenistische Literratur*, (1923).

(2) حول نمرود في العصر الهلنستي انظر:
D. Oates in *IRAQ*, (1958), 114 ff.

(3) عن بقايا المعبد اليوناني في «إرسلان طاش» انظر:
Thureau- Dangin, *Arsalan Tash*, (1931).

لها المسماة «الإسكندرية ـ الكرخ» (Alexandria- Charax) أما مدينة بابل فقد حلت بها الضربة القاضية من بعد تأسيس العاصمة الجديدة سلوقية، وانتقال الدوائر الحكومية والمصالح التجارية إليها، ولاسيما في عهد «أنطيوخس» الأول الذي فرض على الكثير من سكانها الانتقال إلى العاصمة الجديدة، بيد أن بعض ملوك السلالة السلوقية حاول إعادة الحياة إليها، فنجد حتى أنطيوخس الأول السالف الذكر يلقب نفسه، مثل ملوك بابل في عهدها الأخير: «حامي أو مزين اي ـ ساگلا» و«اي ـ زيدا» (Zanin Esagila ü Ezida) وأنه جلب بيديه الآجرات الأولى من بلاد الحثين لهذين المعبدين[1] أي معبد الإله مردوخ في بابل ومعبد الإله «نابو» في مدينة «بورسبا». ويؤخذ مما ورد في لوح من عهد الملك «سلوقس الثالث» (226 ـ 220ق.م) أن القرابين كانت تقدم إلى عدد من الآلهة البابلية في معابدها الخاصة، كما عثر على بقايا من البناء من العهد الهلنستي فوق التل المسمى «تل بابل» (وهو موضع قصر نبوخذ نصر الصيفي). وفي زمن الملك أنطيوخس الرابع الملقب «أبيفانس» (175ـ164ق.م)، الذي اشتهر بحماسه في نشر الثقافة الهلنستية، شُيِّد في بابل ملهى وملعب على الطراز اليوناني، وقد جُدِّد ووسع في العصر الفرثي التالي[2].

أما المدن البابلية الأخرى فلا يعرف عن أحوالها أشياء مهمة يستثنى من ذلك مدينة الوركاء التي سماها الإغريق «أورخوي» (Orchoi) فإنها نالت شيئاً من الانتعاش والازدهار كما يستدل على ذلك من المباني التي شيدت فيها في هذا العصر. ومن ذلك بقايا مصطبة ضخمة أقيمت حول منطقة الزقورة في منطقة المعابد «اي ـ أنّا»، وشيد معبدان كبيران، هما المعبد المسمى «ايريگال» (Irigal) أو «ايش ـ گال» (Esh-gal) إلى الإلهة عشتار، والمعبد المسمى «بيت ـ ريش» (Bit-Resh) للإله «أنليل»، وقد شيد هذان المعبدان على

---

(1) انظر: ANET, p. 317.

(2) Koldewey, *Babylon*, (1914).

الطراز البابلي المأثور. ووجدت على الآجر المزجج في حجرة العبادة المقدسة (Cella) الخاصة بمعبد «ايريگال» كتابة بالخط الآرامي واللغة الآرامية. وتشير الوثائق التجارية والعلامات (Bullae) الطينية، التي كانت تربط بالوثائق لتعيين مضامينها وعلى بعضها كتابات إغريقية وآرامية إلى أن جماعات من الإغريق كانت تعيش في مدينة الوركاء التي يبدو أنها كانت تتمتع بشيء كبير من الاستقلال الإداري والاقتصادي[1].

أشهر المدن السلوقية الجديدة:

أشرنا فيما سبق إلى اشتهار العهد السلوقي بظهور المدن الجديدة في مختلف أنحاء الشرق الأدنى، وقد بدأ هذا النشاط منذ زمن الإسكندر وسار على خطاه خلفاؤه من السلوقيين. وقد أسست هذه المدن على غرار المدن اليونانية، وكان سكانها خليطاً من الشرقيين ومن الإغريق والمقدونيين، وكان الاختلاط السكاني والحضاري سمة هذا العصر. وقامت هذه المدن بأدوار مهمة في ازدهار الحضارة الهلنستية بجميع أوجهها ومقوماتها العلمية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية، وهكذا برز دور نظام المدينة مرة أخرى على غرار ما شاهدناه في حضارة وادي الرافدين في عصر فجر السلالات (الألف الثالث ق.م) ونظام دول المدن اليونانية[2]. وقد استمر الكثير من هذه المدن الكبيرة بمساحتها وعدد سكانها إلى العهود التالية وهي في تعاظم وازدهار متزايدين، هذا بالإضافة إلى إعادة تسمية بعض المدن القديمة بأسماء يونانية وتجديد أبنيتها وستأتي الأمثلة على ذلك. وغلب على أسماء المدن

---

(1) حول الألواح التي وجدت في الوركاء من العهد السلوقي راجع:
M. Ruthen, *Contracts de L'Epoque Séleucide*... (1935).

(2) حول أهمية المدن التي ظهرت منذ فتح الإسكندر للشرق واعتبار مدة الألف عام، من ذلك الفتح إلى العهد العربي الإسلامي (القرن السابع الميلادي) حقبة ثقافية مهمة، متميزة انظر البحوث المنشورة في «ندوة» المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو:
Kraeling et al, Invincible City... (1958), 190 ff.

الجديدة التسميتان «سلوقية» و«انطاكية»، حيث أطلقت هاتان التسميتان على عدة مدن في الشرق والغرب بالإضافة إلى سلوقية دجلة وإنطاكية العاصي، واشتهر من الملوك السلوقيين في هذا المضمار ثلاثة ملوك هم: سلوقس الأول (311 ـ 281ق.م) وأنطيوخس الأول (281 ـ 260ق.م) وأنطيوخس الرابع (175 ـ 164ق.م).

سلوقية دجلة:

أسست في وادي الرافدين في العهد السلوقي عدة مدن جديدة ابتداء من أعالي ما بين النهرين حيث المدينة المهمة «أديسا» (الرها) و«دورا ـ يوروبس» (الصالحية على الفرات) وإنطاكية على العاصي، إلى أقصى الجنوب حيث مدينة «كراكس» أو «الكرخ ـ الإسكندرية» على الخليج العربي. وأشهر تلك المدن في العراق «سلوقية» التي دعيت باسم مؤسسها سلوقس الأول أي (Seleucia) وتوطدت في عهد ابنه وخليفته أنطيوخس الأول في حدود 247ق.م. ويرجح كثيراً أنها شيدت فوق أنقاض المدينة البابلية القديمة «أوبس» (Upi) أو بالقرب منها، وتعرف بقاياها الآن باسم «تل عمر» على ضفة دجلة الغربية مقابل طيسفون (طاق كسرى) على الضفة الشرقية. وكانت سلوقية أكبر مدينة ليس في العراق فحسب بل في جميع أنحاء الشرق الأدنى، فقد قدر عدد سكانها في حدود (600,000)، وأظهرت الصور الجوية التي أخذت لبقاياها أنها صممت على هيئة شبكة المربعات (Grid Plan) حيث بيوتها وحارات السكن فيها على شوارع وطرقات مستقيمة متعامدة على غرار الكثير من المدن الرومانية. وقد عثر في أثناء التحريات القصيرة الأمد[1] على مجموعات من التماثيل الصغيرة ودمى الطين Terra Cotta figurines والنقود، كما كشف عن بقايا أبنية مهمة ولاسيما من العصر الفرثي الذي تلا العهد

---

(1) حول تحريات جامعة «مشيغان» الأمريكية في سلوقية (1927ـ1932، 1936ـ1937) انظر:
Waterman, *Preliminary Report on the Excavations at Tell Umar,* (1931, 1933).
G. Hopkins, in *Antiquity,* (1939), 440 ff.

السلوقي، حيث ازدهرت المدينة ازدهاراً محسوساً في العصر الفرثي شأنها في ذلك شأن المدن السلوقية الأخرى. وشرعت في السنوات الحديثة الماضية بعثة تنقيبات إيطالية من جامعة «تورينو» تتحرى في سلوقية برئاسة الأستاذ «گوليني» (Gullini) وكان موسم عملها الثامن في عام 1971 ـ 1972.

وأسست جملة مراكز ومدن مهمة على الطريق المهم ما بين سلوقية وبلاد إيران، وهو الطريق التجاري القديم الذي كان يمر من كرمنشاه وهمذان (اكبتانا القديمة). ولكي يوصل هذا الطريق بالبحر بواسطة الخليج العربي أقيمت ما لا يقل عن تسع مدن في سواحل هذا الخليج، من أشهرها المدينة التي دعيت «إنطاكية» (مدينة بوشير) ومدينة «الكرخ» (كراكس) في منطقة المحمرة أو أن المحمرة قامت على أنقاضها. واستوطن بعض الجزر في ساحل الكويت مثل جزيرة «فيلكا» التي دعيت على ما يرجح «ايكاروس». كما أعيد تأسيس مدينة «اكبتانا» القديمة (همذان)، وأسست إلى الجنوب منها مدينة جديدة سميت باسم اللاذقية المنسوبة، مثل لاذقية سورية، إلى «لوديقية» (Laodicea) أم سلوقس الأول، وأعيدت تسمية مدينة الري القديمة باسم «يورويس».

وقامت في العهد السلوقي في القسم الجنوبي من العراق، عند ساحل الخليج، دويلة اسمها «كراكينة» أو «كرخينة» (Carakene) أو (Caracene)، وهي التي ورد اسمها في المصادر الآرامية (السريانية) والعبرانية بهيئة «ميسان» والعربية «ميسان» وفي الفارسية «ميشون»، وفي المصادر الكلاسيكية (Mesene)، وقد نالت استقلالها وانفصلت عن تبعيتها إلى الدولة السلوقية في عهد أنطيوخس الثالث (223 ـ 187ق.م) على أثر اندحاره على أيدي الرومان، وتدرجت في النمو والازدهار حتى غدت في العهد الفرثي التالي من الدويلات المهمة، وكان جل سكانها من الآراميين[1].

---

(1) حول هذه الدويلة الآرامية انظر:

S. A. Nodelman, *A Preliminary History of Characene*, (1960).

Weisbach, "Mesen" in *Pawly Wissowa Encycl.*

وتأريخ الطبري.

ومن الدويلات المهمة التي قامت في العصر السلوقي دويلة «البتراء» العربية، وأهلها من الأنباط (من العرب المتكلمين باللغة الآرامية أو الذين استعملوا الآرامية في الكتابة). وقد اغتنم أهلها الظروف الناشئة من النزاع ما بين بطالة مصر وبين السلوقين، فأقاموا لهم مملكة مركزها في البتراء (سلع القديمة). وازدهرت هذه الدويلة طوال ثلاثة قرون، من القرن الثاني ق.م (في حدود 164ق.م) إلى أن ضمها الأمبراطور الروماني «تراجان» إلى الأمبراطورية الرومانية (القرن الثاني الميلادي). وكان أهل البتراء يسيطرون على طرق البادية المهمة الموصلة إلى موانىء البحر المتوسط وموانىء جنوبي الجزيرة العربية، ونافسوا التجار الإغريق من أهل الإسكندرية في تجارتهم إلى الهند وأجزاء الأمبراطورية الرومانية.

وأسس سلوقس الأول المدينة الشهيرة «دورا ـ يوربس» (Dura- Europus) القريبة من بلدة الصالحية في سورية، وقد أقيمت على بقايا حصن أو قلعة آشورية، ومن هنا منشأ اسمها المركب من كلمتين: «دورا» التي تعني الحصن في اللغة الآشورية و«يوروبس»، اسم الموضع الذي ولد فيه سلوقس في مقدونية. وأظهرت التنقيبات التي أجريت في بقايا المدينة نتائج مهمة ولاسيما بقاياها من العهد الفرثي الذي أعقب العهد السلوقي حيث ازدهرت فيه ازدهاراً كبيراً، واستمرت المدينة إلى العصور التالية الأخرى وانتزعها الرومان من الفرثيين إلى أن دمرها الملك الفارسي الساساني شابور الأول (241 ـ 272م) في عام 256م.

العراق في العهد الفرثي (الارشاقي)

أعقب الملوك السلوقيين المقدونيين في حكم العراق الملوك الفرثيون الإيرانيون في منتصف القرن الثاني ق.م (138ق.م، 126ق.م) ودام حكمهم إلى العام 227ق.م، فيكون العهد الفرثي قد دام في العراق زهاء الثلاثة قرون ونصف القرن، حيث حل محلهم الفرس الساسانيون (227 ـ 637م) إلى زمن الفتح العربي الإسلامي. والفرثيون يرجعون في أصلهم إلى القبائل «الهندية ـ الأوروبية» في آسية، ويمتون بصلة إلى «الاشكوزيين» أو «السكيثيين» (Scythians) الذين ورد ذكرهم في كلامنا على الدولة الآشورية. وكان موطن الفرثيين في السهوب الممتدة ما بين بحر قزوين وبحر «أرال» واشتهروا بالفروسية والحرب. أما اسمهم أي الفرثيون أو البارثيون فمشتق من اسم الإقليم الذي استولوا عليه بعدئذٍ في إيران المسمى «پارتوا» (إقليم خراسان تقريباً)، حيث ظهروا في التأريخ في حدود 250ق.م[1] وقد ورد ذكر هذا الإقليم في عهود أقدم قبل أن يستوطنه هؤلاء الأقوام في أخبار الفرس الأخمينيين وفي الأخبار الآشورية مثل حوليات الملك الآشوري أسرحدون (القرن السابع ق.م). وذكر اسم بلاد «برتوكا» أو «بارتوا» في أخبار كورش. ولا تعرف لغتهم الأصلية قبل استيطانهم البلاد التي سموا بها. ومهما كان الحال فإنهم تكلموا بإحدى اللهجات الإيرانية القديمة المسماة «بهلويك»

(1) وعرف الفرثيون أيضاً باسم الاشغانيين، أو الاشكانيين، ولغتهم البهلوية «الاشكانية» وقد عثر على بعض نصوص منها في منطقة جبال هورمان في شمالي العراق.

(البهلوي الفرثي) وهي قريبة الصلة باللغة الفارسية الساسانية (پارسيك) وكلتا اللهجتين من الفارسية القديمة. واتخذ الفرثيون الخط الآرامي لكتابة لغتهم على الرقوق بالدرجة الأولى مما كان سبباً في تلف معظم مآثرهم المدونة، ويجدر أن نذكر بهذا الصدد أن نصوصاً فرثية وجدت في منطقة جبال «هورمان» في جهات حلبجة كما ذكرنا.

ظهر الفرثيون في المسرح السياسي في حدود 250ق.م، حينما ظهر من بينهم زعيم مقتدر اسمه «أرشاق» (Arsaces)، فقاد جموع قومه مع أخيه المسمى «تيريداتس» واستولى على إقليم خراسان من الحاكم السلوقي حيث كانت إيران تابعة إلى الأمبراطورية السلوقية كما مر بنا. وعد العام 247ق.م بداية العهد الفرثي الرسمي في بلاد إيران. على أن الحروب استمرت بين الفرثيين والسلوقيين للاستيلاء على الولايات الشرقية وعلى العراق وشغلت حكم «تيريداتس» الأول (248ـ211ق.م) الذي تلا أخاه أرشاق في الحكم (250ـ 248) وحكم «أرطبان» الأول (211 ـ 191ق.م) و«فريافاطوس» (191ـ 176ق.م) وافراهاط الأول (176 ـ 171ق.م) ومثراداتس الأول (171ـ 138ق.م)[1]، وكانت هذه الحروب سجالاً بين الجانبيين ولكن باستمرار رجحان الكفة بجانب الفرثيين بسبب الضعف المتزايد الذي حل بالسلوقيين من جراء نزاعهم المستمر مع بطالسة مصر ومع رومة. وأخيراً استطاع مثراداتس الأول فتح العراق في حدود 141ق.م، ولكن السلوقيين حاولوا استعادته منهم ولاسيما في عهد الملك السلوقي أنطيوخس السابع «سديتس» (138ـ129ق.م) الذي أحرز نجاحاً موقتاً. على أن الملك الفرثي افراهاط الثاني (128ـ124ق.م) استطاع أن يتغلب على الجيوش السلوقية في إيران وأن يقضي على الملك السلوقي واستتب حكم الفرثيين في العراق في

---

(1) حول تسلسل الملوك الفرثيين وأخبارهم انظر:

(1) Debevoise, *A Political History of Prathia*, (1938).

(2) E. Bickerman, in *Berytus*, (1943-4), 73 ff.

(3) J. Wolski, in *Ibid.*, (1956-8), 35 ff.

عهد أرطبان الثاني (128ـ124ق.م) بحيث اعتبر بعض الباحثين حكم الفرثيين المتواصل في العراق من عهد هذا الملك، في حدود 126ق.م.

ولما لم يكن من موضوعنا الدخول في سرد تأريخ الفرثيين فنختار أبرز النقاط التي تخص تأريخ العراق في هذا العهد. وفي مقدمة ذلك أن العهد الفرثي في العراق تميز بكثرة الحروب أولاً مع السلوقيين كما قلنا ثم مع الرومان. وكان شمالي العراق ميدان الكثير من المعارك التي نشبت ما بين الفرثيين والرومان، فبرزت في أخبار هذه الحروب جملة مدن مهمة على الحدود في شمالي ما بين النهرين مثل إنطاكية وحران ونصيبين وغيرها.

وبدأت العلاقات الحربية ما بين هاتين الدولتين منذ عام 92ق.م في عهد القائد الروماني «سولا» (Sulla). وكانت أولى المعارك الكبرى في عهد الملك الفرثي «أورود» الثاني (57 ـ 37ق.م) وكان الحاكم الروماني في سورية «كراسوس»، فنشبت معركة حران الشهيرة (53ق.م) التي اندحر فيها الرومان وفني معظم جيوشهم وقتل القائد «كراسوس» نفسه. وانتهز الفرثيون اضطراب الأحوال الذي عم رومة بعد مقتل قيصر فوسعوا فتوحهم إلى الغرب، واستولوا على سورية وفينيقية، فأرسل القائد الروماني «مارك أنطوني» الذي كان في مصر حملة كبيرة لوقف الزحف الفرثي، أحرزت النصر على جيش الملك الفرثي «أفراهاط» الرابع (37 ـ 2ق.م). وتوقف النزاع من بعد ذلك فترة ما، عقدت فيها معاهدات سلم ما بين الطرفين، وكانت هذه الفترة التي بدأت من العهد الميلادي فترة مظلمة في تأريخ الفرثيين بوجه عام وتأريخ العراق بوجه خاص، وضعفت الدولة الفرثية بسبب المؤامرات الكثيرة في البلاط، وظل الضعف ملازماً لها إلى أن تولى العرش الملك أرطبان الثالث (11ـ38م) الذي حصل في عهده شيء من الانتعاش في حياة المملكة الفرثية الأمر الذي جعل الرومان يترددون في تدخلهم بشؤون الولايات الغربية التابعة للمملكة الفرثية. ولعل الثورة التي اندلعت في العراق من جانب مدينة سلوقية في عهد أرطبان الثالث وقد دامت زهاء سبع سنوات كانت بتحريض الرومان.

انتهى السلم ما بين الفرثيين والرومان في زمن الأمبراطور الروماني

تراجان (98 ـ 117م) المعاصر للملك الفرثي خسرو (Osroes) (109ـ128م). فبدأت الحملات الرومانية تسير إلى الفرات وكثيراً ما هاجمت الفرثيين في أراضي العراق، كما نهبت العاصمة «طيسون» مراراً. وبدأ تراجان حملته من إنطاكية، قاعدة الجيوش الرومانية في بلاد الشام، وعبر الجيش الروماني دجلة بعد تغلبه على مقاومة ضعيفة، بيد أن «تراجان» لم يزحف على العاصمة «طيسفون» رأساً بل إنه رجع فعبر دجلة واتجه غرباً قاطعاً بادية ما بين النهرين ومر بمدينة الحضر (116) فلم يستطع فتحها لمقاومتها الشديدة ومناعة أسوارها فتركها إلى الفرات واتصل بأحد الأسطولين الآتي أحدهما في الفرات والثاني في دجلة فسار بالأسطول إلى بابل، وكان الملك الفرثي يرقب الأمور عن كثب ولم يلتحم بالجيش الروماني بل ترك تراجان يهاجم طيسفون ويغنم كنوزها. وسار تراجان من بعد ذلك في النهر إلى أسفل دجلة والخليج، وبينما كان في هذه الرحلة النهرية غارقاً في أحلامه بمحاكاة الإسكندر الكبير في فتح الهند بلغته أنباء مروعة عن أن الملك الفرثي أخذ يستعيد جميع المدن التي أخذها الجيش الروماني، فأسرع الأمبراطور بالعودة في حر الصيف وقد أحاط به الأعداء في كل مكان، فحلت الكارثة به ومات في المعارك واضطر خلفه الأمبراطور هادريان (117 ـ 138م) إلى التنازل عن جميع الأقاليم المفتوحة إلى الفرثيين وعاد بالجيش عبر الفرات إلى سورية. ولكن الرومان أعادوا غزو العراق في عهد الأمبراطور الروماني «مرقس أوريليوس» (161 ـ 169م) المعاصر إلى الملك الفرثي «أولغاش» الثالث (Vologases) كما قاد الأمبراطور الروماني «سبتيموس سويروس» (193 ـ 211م) حملة حربية أخرى وحاصر مدينة الحضر في عهد «أولغاش» الرابع (191 ـ 207م) فعز عليه فتحها. وعاود الحرب الأمبراطور «كراكلا» (211 ـ 217) ابن الأمبراطور «سبتيموس سويروس»، وحاصر طيسفون، وكان هذا فاتحاً قاسياً استدرج سكان المدينة إلى الخروج من أسوار مدينتهم بحجة إبرام الصلح والاحتفال بزواجه من ابنة الملك الفرثي «أولغاش» الخامس (207 ـ 222) ولما خرج الناس أوقع المهاجمون فيهم القتل وكانت آخر حرب بين الطرفين هي التي نشبت قرب

نصيبين بين آخر الملوك الفرثيين المسمى أرطبان الخامس (208 ـ 226) وبين الأمبراطور الروماني «مكرينيوس» (Macrinus) (217 ـ 218م) وقد انتهت بإبرام الصلح. وهكذا فشلت محاولات الرومان في الاستيلاء على العراق وإيران من الفرثيين. ولكن حياة الفرثيين السياسية انتهت بعد تلك المعركة حيث دخلت بلاد إيران والعراق تحت حكم السلالة الفارسية الجديدة، هي السلالة الساسانية (227 ـ 637م) التي استمرت في عهدها الحروب مع الرومان.

موجز التنظيمات الإدارية وأحوال العراق في العهد الفرثي:

كان اعتماد الملوك الفرثيين في حكم الأقاليم التابعة إلى أمبراطوريتهم على الأسر الأرستقراطية، وكان الفرثيون في مبدأ أمرهم، كما نوَّهنا سابقاً أقرب ما يكونون إلى البدو منهم إلى الحضر، حتى ليمكننا أن ننظر إلى انتقال السلطة إليهم على بلاد إيران على أنه كان انتصار الإيرانيين البدو الشماليين على الإيرانيين الحضر في الجنوب. وكان أساس الحكم عندهم النظام الإقطاعي، حيث تقوم فوق هرم السلطة أسر أرستقراطية قليلة (زهاء سبع أسر) وعلى رأسها الأسرة الأرشاقية المالكة، ويأتي الملك في قمة الهرم. وكان يتبع تلك الأسر سلسلة طويلة من الأمراء والرؤساء والفرسان، إلى أن نصل إلى أسفل قاعدة الهرم حيث الطبقات الدنيا من المحاربين الأتباع والفلاحين. ولم يسر الفرثيون على نظام ثابت معين في تولي العرش، على أن الطبقات العليا النبيلة كانت عاملاً حاسماً في اختيار الملك الجديد، وكان هذا الاختيار يتم في مجلس خاص بهم أشبه ما يكون بمجلس الشيوخ الروماني (السنات) حيث كان يمنح السلطات أو يحددها، كما كانت طبقة النبلاء هذه من العوامل الحاسمة في إسقاط الملك، وإلى جانب ذلك كان يوجد مجلس آخر للدولة ذو مهمة استشارية للملك، ويتألف بالدرجة الأولى من الكهنة المجوس والحكماء والمقربين إلى الملك[1]. وكان لكل أمير إقطاعي جيشه الخاص به من أتباعه

---

(1) انظر: Ghirshman, *IRAN*, (1954)

المحاربين، ويقدم إلى الملك في حالة الحرب خدماته مع أتباعه. وعلى هؤلاء النبلاء كان يقع واجب تجهيز الجيش بالفرسان المسلحين بالرماح والسيوف والمحميين بدروع الزرد (Cataphract). أمّا صغار النبلاء فكانوا يجهزون جيش الملك بالفرسان المسلحين بأسلحة خفيفة (Sagitarra) مثل السهام والقسي، وجرت العادة أن هؤلاء كانوا هم الذين يبدؤون المناورة بالرمي. أو يوجد صنف ثالث من الجند في الجيش الفرثي، وهو ء ف المشاة الذي كان مصدره بالدرجة الأولى من الفلاحين والعبيد.

أما عن ديانة الفرثيين فلا تسعفنا المصادر التي بين أيدينا لمعرفة كثير من الأمور عنها ولاسيما ما أدخلوه إلى إيران من معتقدات جديدة. على أنه الأخمينيين، لم تنتشر واسعاً بين الفرثيين، غير أن عبادة بعض الآلهة الأخمينية المشهورة استمرت تمارس عندهم، وفي مقدمة ذلك عبادة الإله «مثرا» والآلهة يمكن القول بوجه عام إن ديانتهم كانت تدور على عبادة القوى الطبيعية كالشمس والقمر. وأظهرت الدراسات الحديثة أن «الزرادشتية»، ديانة الفرس «أناهيتا» و«أهورا مزدا». وقد شيدت لعبادة «أناهيتا» جملة معابد، أحدها في مدينة «سوسة» (عيلام) وعبدت تحت اسم «نانيا» (وهو الاسم البابلي، لأناهيتا أي عشتار)، وانتشرت عبادتها إلى آسية الصغرى وأقاليم البحر الأسود. ومن ناحية الشعائر الدينية الخاصة بدفن الموتى لم يتبع الفرثيون العادة الفارسية المجوسية في تعريض الجثث فوق المرتفعات لتنهشها الجوارح، وإنما اتبعوا طريقة الدفن المألوفة كما تشير إلى ذلك القبور التي وجدت من هذا العهد ولاسيما التوابيت (Sarcophagus) الفرثية المزججة عادة والتي تشبه في أشكالها الحذاء وكثيراً ما تزخرف ببعض الصور في خارجها. واشتهر الملوك الفرثيون بتساهلهم الديني إزاء الأقاليم التابعة إليهم، بالمقارنة مع اضطهاد السلوقيين والرومان لليهود وغيرهم. ومن قبيل هذا التساهل اقتباسهم أشياء كثيرة من المقومات الحضارية من السلوقيين، كالنظم الإدارية والاجتماعية، كما اشتهروا في تعلقهم بالثقافة الهلنستية.

وازدهرت الحياة الاقتصادية وتجمعت الثروات الطائلة لدى الفرثيين والأقاليم التابعة لهم ومن بينها بلاد ما بين النهرين، وكان العامل الرئيسي في ذلك اتساع التجارة الخارجية والسيطرة على معظم طرق القوافل التجارية العالمية المشهورة مما كان يربط بين قارة آسية وبين العالم الغربي، وكانت إيران والعراق مركزين ضخمين للتجارة الدولية ما بين الشرق والغرب، واحتكر الفرثيون تجارة الهند والصين وأواسط آسية. ومما ساعد على ازدهار التجارة التحسن البارز في وسائل النقل والعناية بالطرق وسلامتها، فكانت طرق القوافل في البادية تجهز بالآبار والمنازل. وشيدت في المدن التجارية المهمة مثل سلوقية وتدمر و«دورا يوربس» والبتراء البيوت والخانات (المنازل) الخاصة بإيواء التجار. وتشير الوثائق التي وجدت في «دورا يوربس» إلى أن شرطة خاصة أنشئت للمحافظة على أمن الطرق التجارية. كما استفاد الفرثيون من جهاز البريد المنتظم الذي أنشأه قبلهم الفرس الأخمينيون، ولاسيما إقامة محطات الطرق لتبديل خيول العربات لضمان السرعة. فيقال مثلاً إن الملك (Vardanes) وقد شيد على قطع مسافة 350 ميلاً في يومين لما جاء لخلع أخيه «جوتارز». واستعمل نعل الخيول لأول مرة في هذا العهد.

موجز أحوال العراق:

كان من نتائج هذا النشاط التجاري والازدهار الاقتصادي اللذين نوَّهنا بهما ظهور آثارهما في العراق ولاسيما إبان القرن الثاني والأول ق.م، واتساع الحركة العمرانية. فإن المدن التي أسست في العصر السلوقي السابق استمر معظمها في الازدهار والاتساع وتضاعف العمران فيها كما أبانت التنقيبات الأثرية. وإلى هذا فإن كثيراً من المدن القديمة مما قبل العهد السلوقي التي هجرت واضمحلت قد أعيدت إليها الحياة وتجدد الاستيطان والعمران فيها. ففي الأجزاء الجنوبية من العراق وجدت آثار العهد الفرثي في معظم المدن القديمة التي جرى التنقيب فيها مثل بابل وكيش ونفر والوركاء، وفي مدن

مهجورة قديمة مثل منطقة لجش[1]. ففي الوركاء نشط الاستيطان ووجدت فيها بقايا معبد شيد للإله الإيراني «كاروس» (Gareus) الفرثي «وردان» طراز روماني تقريباً، كما وجدت بناية أخرى يرجح أنها معبد للإله «مثرا»[2] وعثر في مدينة «نفر» على معبد ضخم للإلهة «أنانا» (عشتار) من العهد الفرثي بالإضافة إلى أبنية أخرى. ومما تجدر ملاحظته في تمييز الأبنية من الدور الفرثي ما تتصف به من ضخامة الجدران وحجم اللبن الكبير المستعمل فيها.

أما في الأجزاء الشمالية من العراق فقد أعيد الاستيطان والازدهار في عدة مدن قديمة، مثل نوزي (يورغان تبه قرب كركوك) وكاكزو (تركلان قرب كركوك أيضاً) وتبه كورا (شبانبا القديمة). ويمكن القول إن مدينة آشور القديمة قد شيدت من جديد تقريباً فأصبحت في هذا العهد مدينة كبيرة، ولكن الواقع أن إعادة بناء آشور وغيرها من المدن القديمة لم تسر على الخطط القديمة بل إن مدناً جديدة أقيمت فوق أنقاضها القديمة أو بالقرب منها. ويتجلى ذلك في مدينة آشور التي قلنا إنها أصبحت مدينة جديدة ذات شوارع مستقيمة واستعملت في أبنيتها الأعمدة وشيدت فيها الأغورات (Agora) أو الأسواق على غرار «الأغورا» اليونانية، واستعملت في أبنيتها الحجارة المهندمة (Ashlar) بدلاً من اللبن والآجر كما ظهر استعمال الأواوين المفتوحة من الأمام، والساحات المحاطة بالعمد (Peristyle)[3].

وشمل هذا النشاط العمراني تجديد معابد الآلهة القديمة مثل معبد الإله آشور في مدينة آشور والإله «نابو» في بورسيا. أما معبد الإله «مردوخ» في بابل (اي ـ ساگلا) فيبدو أنه لم ينل العناية الكافية في تجديده، كما أن المدينة نفسها استمر فيها الإهمال والتدهور باستثناء دور السكن من هذا العهد. ولعل هذا

---

(1) وجدت في تلول بقايا قصر يرجع في تأريخه إلى العهدين السلوقي والفرثي (القرن الثالث ق.م) وقد نقش بعض أجره باليونانية باسم ملك آرامي اسمه «أدد ـ نادن ـ آخي» انظر:
Parrot, Tello, (1948), 309.

(2) انظر تقارير تنقيبات الوركاء لعام 1935 و1940 و1956 و1958 و1960.

(3) انظر: Lenzen, *Die Parther Stadt Assur*, (1933)

الإهمال يعزى إلى الثورة التي قامت بها بابل من جانب شخص اسمه «هيميروس» (Hymeros) في عام 127ق.م. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن الأمبراطور الروماني تراجان لما زارها في عام 115م لم يجد فيها ما يستحق الذكر سوى أنه «قدم القرابين لروح الإسكندر» وعندما مر بها الأمبراطور الروماني «سبتيموس سويروس» (عام 199م) وجد مدينة نبوخذ نصر مهجورة يعمها الخراب[1].

ومن ناحية التركيب السكاني لمثل هذه المدن أضيف إلى السكان الأصليين والمستوطنين الإغريق من العصر السلوقي السابق عناصر جديدة من السكان من إيران وبعض الأقطار الشرقية. ومع الاختلاط بين هذه العناصر فيبدو أن كل جماعة حافظت على مآثرها وعباداتها يشجعها في ذلك ما سبق أن ذكرناه من روح التساهل الديني الذي امتاز به الحكام الفرثيون. ففي بعض المدن مثل «دورا يوروبس» وجدت معابد إغريقية ومعابد آرامية وكنيسة مسيحية وكنيس يهودي ومعبد لعبادة الإله الإيراني مثرا. ونجد مثل هذه الصورة الطريفة في مدينة الحضر حيث عبادة الإله البابلي ـ الآشوري القديم «نرجال» جنباً إلى جنب مع عبادة الإله اليوناني «هرمز» والإلهة الآرامية «عتار غاتس» والإلهة العربية «اللات» (المضاهية للآلهة اليونانية أثينا).

أما الوثائق المسمارية التي جاءتنا من هذا العهد فلم تكن بأعداد كبيرة بحيث إنها لا تتجاوز بضعة عقود تجارية وزهاء المأتي نص من النصوص الفلكية والتنجيمية، وأجزاء غير كاملة مما يسمى «التواريخ» (Chronicles) وثبت صغير بالمفردات الإغريقية والبابلية[2]. وهكذا فيبدو أن الخط المسماري واللغات التي دونت به في مدى ثلاثة آلاف عام كان في آخر أطواره إلى

---

(1) انظر: .Dio Cassius, LXXI, 2
Ammianus Marcellinus, XIII, 4, 34.

(2) حول النصوص المسمارية القليلة التي جاءتنا من العهد الفرثي انظر:
(1) Strassmair, «Arsakiden inschriften.», in *ZA*, (1888).
(2) Kohler und Ungnad, *100 Ausgewälte Rechtsurkunder der Spätzeit...* (1909).
(3) Sachs and Schaumberger, *Late Bab. Astronomical and Related Texts* (1955).

الاحتضار والموت، وكان آخر ما وصل إلينا قد دون ما بين العامين 74 و75 للميلاد على هيئة تقويم فلكي[1].

المدن الجديدة ومدينة الحضر:

لم يشيد الفرثيون، على ما جاءنا لحد الآن مدناً جديدة كثيرة. فمن المدن التي أسست في عهدهم خارج إيران نذكر طيسفون (طاق كسرى) التي اتسعت كثيراً في العهد الساساني الذي أعقب العصر الفرثي والحضر وأولغاشية (Vologesia) نسبة إلى الملك الفرثي «أولغاش الأول» (51 ـ 78م)[2] وأسسوا في إيران المدينة المسماة «درب جرد» (Derbagard) و«جور فيروز آباد»، جنوب شيراز، التي شيدها أول الملوك الساسانيين يوم كان حاكماً تابعاً لآخر الملوك الفرثيين. والغالب على مثل هذه المدن الجديدة أنها كانت مدورة أو شبه مدورة وأنها كانت بالأصل معسكرات للجيوش.

ونختتم كلامنا على العراق في العصر الفرثي بذكر نبذة عن مدينة الحضر التي شيدت في هذا العصر في حدود القرن الثاني أو الثالث ق.م على ما يرجح، وظلت مزدهرة إلى منتصف القرن الثاني الميلادي، حيث دمرها الملك الساساني «سابور» الأول في عام 239 أو 250م. وتقع بقايا الحضر في البادية الواسعة ما بين النهرين، على بعد نحو 3كم عن الضفة الغربية من وادي الثرثار، وعلى بعد نحو 125كم شمال غربي بلدة بيجي و58كم شمال غربي بلدة الشرقاط، موضع مدينة آشور القديمة. ولا يعرف بالضبط مؤسس هذه المدينة، على أن مما لا شك فيه أنها كانت بالأصل مستوطناً لعرب البادية، ولعلها كانت مركزاً مقدساً للقبائل المنتشرة في المنطقة شيد فيه موضع لعبادة بعض الآلهة حول مجموعة من آبار المياه، ولاسيما عبادة الإله الشمس، ثم

---

(1) انظر:
Sachs and Schaumberger, *Ibid.* No. 1201.

(2) وصفت «أولغاشية» بأنها بالقرب من بابل. ومن الباحثين من يعينها بمدينة الكوفة انظر:
Pawly- *Wissowa Encyct.*, 17, (1961), 707.

ازدهرت وحكمت فيها سلالة عربية أصل ملوكها على ما يرجح من الكهنة، وشيدت فيها المعابد الضخمة والمباني والقصور، ودامت في الحكم زهاء أربعة قرون. ولعل أول ملوكها المشهورين الملك المسمى «سنطروق» الذي يلقب نفسه في الكتابة المكتشفة في المدينة في عام 1961 «ملك العرب»، وجاء اسم أبيه «نصر» الكاهن الأعلى، ويرجح أن هذا الملك هو الذي شيد معابد الحضر الكبيرة. وازدهرت المدينة كثيراً بسبب وقوعها على طرق البادية المهمة الموصلة ما بين وادي الرافدين وأعالي ما بين النهرين إلى سورية والبحر المتوسط. واشتهرت المدينة بمناعة أسوارها وشجاعة أهلها، وقد مر بنا كيف فشل الأمبراطوران الرومانيان تراجان وسبتيموس سويروس في فتحها. واشتهرت كذلك في أخبار المؤرخين والبلدانيين العرب الذين نسبوا أبنيتها إلى ملك اسمه الساطرون الذي يرجح أنه محرف عن سنطروق السالف الذكر.

ومدينة الحضر شبه مدورة ومحاطة بسورين أحدهما خارجي واطىء من التراب أو الطين يبلغ قطره نحو 3كم، وسور داخلي مشيد من الحجارة المحلية على مسافة (500) من السور الخارجي. وللسور الداخلي أربعة أبواب في الاتجاهات الأربعة على وجه التقريب. وتمتاز هذه الأبواب بمناعتها وطريقة بنائها، فقد صممت لجعل اقتحامها والدخول منها يعرض المهاجمين إلى الهلاك. ويقوم في وسط المدينة المعبد الكبير الذي خصص لعبادة الإله الشمس، كما شيدت عدة معابد أخرى للآلهة التي عبدها أهل الحضر، وتكثر فيها القبور البرجية. وكانت أولى تحريات أثرية فيها ما أجرته بعثة التنقيبات الألمانية التي كانت في مدينة آشور في عام 1912. ثم شرعت مديرية الآثار العراقية تنقب فيها منذ عام 1951 واستمرت إلى حال التأريخ، وقامت بأعمال صيانة مهمة. وأسفرت هذه التنقيبات الكشف عن بقايا مهمة من معابد المدينة ومعرفة أبوابها كما وجدت مجموعات نفيسة من التماثيل الكبيرة والصغيرة مما يزين المتاحف العراقية[1] وسجلت فيها مجاميع مهمة من النصوص الآرامية.

---

(1) نحيل القارىء إلى مجلة سومر منذ عام 1952 حول نتائج هذه التنقيبات.

نهاية الحكم الفرثي وخلاصة العصر الساساني:

انتهى الحكم الفرثي في عام 227م أو 226م بظهور سلالة فارسية حاكمة جديدة في إيران هي السلالة الساسانية (227 ـ 637م) نسبة إلى جدها المسمى «ساسان» الذي كان الكاهن الأعلى في معبد الإلهة «أناهيتا» في اصطخر في زمن الحكم الفرثي، واستطاع حفيده المسمى «أردشير» الاستيلاء على جميع بلاد إيران في حدود 226، حيث كان آخر ملك فرثي «ارطبان» الخامس، ودام الحكم الساساني نيفاً وأربعة قرون، ودخل العراق تحت حكم هذه السلالة إلى الفتح العربي في موقعة القادسية (637م) وقام منها ملوك عظام من مشاهيرهم سابور أو شابور الأول الذي خلف «أردشير»، ودام حكمه نصف قرن تقريباً (241 ـ 272م)، وسابور الثاني (309 ـ 379م) الذي سماه العرب «سابور ذا الأكتاف»، ومن أواخر ملوكهم المشهورين كسرى الأول (531 ـ 579) الذي لقب «أنوشروان»، والذي اشتهر بعدله وصلاحه، وفي عهده ولد النبي محمد (ص) في أواخر سني حكمه (570م)، وآخرهم الملك يزدجرد الثالث (632ـ651م) الذي انتهت في عهده الدولة الفارسية على أيدي العرب المسلمين.

وإذا كان يتعذر ذكر أحوال هذه الدولة لأنها خارج موضوع كتابنا فنقتصر على بعض النقاط الأخرى البارزة وأهمها ما تميزت به الدولة الساسانية من إحياء وبعث للتراث الفارسي القديم من مآثر الفرس الأخمينيين في حقل اللغة والديانة حيث انتعشت الديانة الزرادشتية ودونت في زمنها الافستا (الاستاق المشهورة)، وظهرت حركات دينية جديدة نخص بالذكر منها «المانوية» التي ظهرت في عهد شابور الأول (منتصف القرن الثاني الميلادي) لمؤسسها «ماني» الذي يرجح أن أصله من جنوبي العراق (من دويلة ميسان)، وهي ديانة خليطة من العبادات البابلية القديمة ومن الزرادشتية والمسيحية وحتى البوذية، وتقوم على مبدأ «الثنوية» والصراع ما بين مبدأين، النور والظلام، والخير والشر، وظهرت أيضاً الحركة المزدكية في عهد قباذ الأول (488ـ531م)، وتعزى إلى

مؤسسها «مزدك» وقد تبعها جماهير الناس وأبدى الملك حيالها تساهلاً في مبدأ الأمر بل ساندها ولكنه اضطهدها من بعد ذلك وقضى على مؤسسها وكانت في جوهرها مشاعية وفيها بعض الجوانب من الشيوعية.

واستمرت الحروب الكثيرة ما بين الرومان والساسانيين، وكان شمالي ما بين النهرين وبلاد بابل مسرحاً لها، وقاست الأجزاء الشمالية من العراق التدمير من جراء تلك الحروب المتواصلة، فبالإضافة إلى تدمير مدينة الحضر من جانب سابور الأول كما ذكرنا دمرت مدينة آشور أيضاً في عام 256م. وازدهرت في العهد الساساني مدينة طيسفون التي بدأ تأسيسها في العهد الفرثي السابق، وصارت مقر الأكاسرة، كما عثر على بقايا قصر ملكي في مدينة كيش[1]، وعثر في الوركاء في عام 1956-1957 بالقرب من أسوار المدينة على تاج من أوراق الذهب لعله يعود إلى أحد الحكام من العصر الساساني[2].

ومما يجدر ذكره في ختام هذه الملاحظات الموجزة عن العراق في العصر الساساني أن التلمود البابلي دون في بلاد بابل في هذا العصر وفيه معلومات مهمة عن أحوال العراق، وأخبار الجاليات اليهودية مثل بابل ونفر، كما توجد في كتب المؤرخين والبلدانيين العرب معلومات مهمة ومفيدة عن أحوال الدولة الساسانية بوجه عام وأحوال العراق في العصر الساساني بوجه خاص، وكيف تدهورت الأحوال في أواخره وأهملت شؤون الري والسدود فانبثقت الأنهار وتكونت ما يسمى بالبطائح (عام 628 و629م أي عام 6 و7 للهجرة).

وقامت في بداية القرن الثالث الميلادي في البادية المحاددة للفرات في

---

(1) انظر:
Langdon, «Excavations at Kish», *IRAQ*, I, (1934), 113 ff.

(2) انظر:
Lenzen, in *SUMER*, XIII, (1957), 205 ff.

منطقة الكوفة دويلة عربية مهمة هي مملكة الحيرة، وأصل أهلها وملوكها من عرب اليمن، عرفوا بالمناذرة واللخميين، وتقع الحيرة، عاصمتها على بعد نحو 3 أميال جنوب الكوفة، وكان أهلها نصارى على المذهب النسطوري، وكان ملوكها موالين أو محالفين لملوك الدولة الساسانية، ومن ملوكها الأوائل امرؤ القيس الأول (القرن الرابع الميلادي) والنعمان الأول ابن امرؤ القيس والمنذر الأول (418 ـ 462) ابن النعمان، وقد عظم في زمنه شأن الحيرة، والمنذر الثاني (505 ـ 554) وهو الذي سماه العرب «ابن ماء السماء»، وأعقبه ابنه المسمى عمرو بن هند (554 ـ 569م) الذي خلده شعراء العرب من الجاهلية مثل طرفة بن العبد والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم. وانتهى حكم السلالة في حكم النعمان الثالث الذي يكنى «أبو قابوس» (580 ـ 602)، صاحب النابغة الذبياني، حيث صار الملوك الساسانيون يتدخلون في شؤونها، وأخيراً انحاز عرب الحيرة إلى خالد بن الوليد في فتحه العراق (عام 633م).

السلالات الحاكمة من بعد العصر البابلي القديم

1 ـ الكشيون:
(سلالة بابل الثالثة 1700؟ـ 1168، 1157ق.م. وفي بابل من 1595ق.م. إلى 1157).

1 ـ كنداش.
2 ـ آكوم الأول.
3 ـ كاشتلياش الأول.
4 ـ أوشي.
5 ـ أبي ـ رتاش.
6 ـ كاشتلياش الثاني.
7 ـ أورزي كرماش.
8 ـ حربي ـ شباك.
9 ـ تبتاكزي.

الكشيون في بلاد بابل:

10 ـ آكوم الثاني كاكريمة (1595ـ1585ق.م.).
11 ـ بورنابورياش الأول.
12 ـ كاشتلياش الثالث.
13 ـ أولام بورياش.
14 ـ آكوم الثالث.
15 ـ كدشمن حربي الأول.
16 ـ كره انداش.
17 ـ كوريكالزو الأول.
18 ـ كدشمن أنليل الأول.
19 ـ بورنابورياش الثاني (1375ـ1347).
20 ـ كره خرداش.
21 ـ نازي بوكاش[1].
22 ـ كوريكالزو الثاني (1345ـ1324).

---

(1) ترتيب الملوك الواحد والعشرين الأوائل غير مؤكد حول ذلك راجع:
Rowton, CAH, I, (1962). chap. 6.
Weidner, in AFO (1959-60). p.318.
لم يطبع.

23 ـ نازي ـ مارتاش (1298ـ1323).

24 ـ كدشمن ـ تركو (1280ـ1297).

25 ـ كدشمن أنليل الثاني (1265ـ1279).

26 ـ كودر أنليل (1256ـ1264).

27 ـ شكار كتيشرياش (1243ـ1255).

28 ـ كاشتلياش الرابع (1235ـ1242).

سيطرة الملك الآشوري «توكلتي نِنورتا الأول» (1228ـ1234).

29 ـ أنليل نادن شومي (1225ـ1227).

30 ـ كدشمن حربي الثاني (1225ـ1227).

31 ـ أدد ـ شم ـ أدنا (1219ـ1224).

32 ـ أدد ـ شم ـ أوصر (1189ـ1218).

33 ـ ميلي ـ شباك (1174ـ1188).

34 ـ مردخ بلادان الأول (1161ـ1173).

35 ـ زبابا ـ شم ـ ادن (1160).

36 ـ أنليل ـ نادن ـ آخي (1157ـ1159).

2 ـ سلالة «القطر البحري» (سلالة بابل الثانية):

1 ـ ايلوما ايلو.

2 ـ اني ـ ايلي ـ نيبي.

3 ـ دامق اليشو.

4 ـ اشكيبال.

5 ـ شوشي.

6 ـ كل ـ كيشار.

7 ـ بشكال درماش.

8 ـ ادارا ـ كلاملا.

9 ـ اكور ـ اورلما.

10 ـ ميلام كركرا.

11 ـ ايا ـ كامل.

3 ـ سلالة ايسن الثانية (= سلالة بابل الرابعة 1156ـ1025):

1 ـ مردوخ ـ كابت ـ أخيشيو (1139ـ1156).

2 ـ أتي ـ مردوخ ـ بلاطو (1131ـ1138).

3 ـ ننورتا نادن شومي (1125ـ1130).

4 ـ نبوخذ نصر الأول (1103ـ1124).

5 ـ أنليل نادن أبلي (1099ـ1102).

6 ـ مردوخ ـ نادن آخي (1081ـ1098).

7 ـ مردوخ ـ شابك ـ زيري (1068ـ1080).

8 ـ أدد ـ أبلا ـ أدنا (1046ـ1067).

9 ـ مردوخ ـ آخي ـ أريبا (1045).

10 ـ مردوخ ـ زير. . . (1033ـ1044).

11 ـ نابو ـ شومو ـ ليبور (1025ـ1032).

4 ـ سلالة القطر البحري الثانية (= سلالة بابل الخامسة):

1 ـ سمبار ـ شباك (1007ـ1024).

2 ـ أيا ـ موكن ـ زيري (1007).

3 ـ كشو ـ نادن ـ آخي (1004ـ1006).

5 ـ سلالة «بازي» (= سلالة بابل السادسة):

1 ـ آي ـ أولماش شاكن شومي (987ـ1003).

2 ـ ننورتا كدوري أوصر الأول (984ـ986).

3 ـ شركتي ـ شوقامونا (984).

6 ـ سلالة بابل السابعة:

1 ـ ماربيتي ـ أيلا ـ أوصر (978ـ983).

7 ـ سلالة بابل الثامنة:

1 ـ نابو ـ موكن ـ ايلي (943ـ977).

2 ـ ننورتا ـ كدوري أوصر الثاني (942).

3 ـ مربيتي ـ آخي ـ أدنا (941ـ؟).

4 ـ شمش ـ مدمق.

5 ـ نابو ـ شم ـ أوكن الأول.

6 ـ نابو ـ أبلا ـ أدنا.

7 ـ مردوخ ـ زاكر ـ شومي.

8 ـ مردوخ ـ بلاصو ـ أقبي.

9 ـ بابا ـ أخا ـ أدنا.

10 ـ 14 ـ أسماؤهم مخرومة.

15 ـ ننورتا ـ أبلا. . .

16 ـ مردوخ ـ بيل ـ زيري.

17 ـ مردوخ ـ أبلا ـ أوصر.

18 ـ أريبا ـ مردوخ.

19 ـ نابو ـ شم ـ اشكن.

8 ـ سلالة بابل التاسعة:

1 ـ نابو ناصر (734ـ747).

2 ـ نابو نادن زيري (732ـ733).

3 ـ نابو شم أوكن الثاني (732).

9 ـ سلالة بابل العاشرة:

1 ـ نابو موكن زيري (729ـ731).

2 ـ فول (پولو) (ثجلا ثبليزر الآشوري) (727ـ728).

3 ـ أولولو (شيلمنصر الآشوري) (722ـ726).

4 ـ مردوخ بلادان الثاني (710ـ721).

5 ـ سرجون (الآشوري) (705ـ709).

6 ـ سنحاريب (الآشوري) (703ـ704).

7 ـ مردوخ زاكر شومي الثاني (703).

8 ـ مردوخ بلادان (703).

9 ـ بيل ـ ابني (700ـ702).

10 ـ آشور ـ نادن ـ شومي (694ـ699).

11 ـ نرجال ـ أوشزب (693).

12 ـ موشزب ـ مردوخ (689ـ692).

13 ـ سنحاريب (681ـ688).

14 ـ أسرحدون (669ـ680).

15 ـ شمش ـ شم ـ أوكن (648ـ668).

16 ـ قندلانو (627ـ647).

10 ـ سلالة بابل الحادية عشرة (السلالة الكلدانية):

1 ـ نابو بولاصر (605ـ626).

2 ـ نبوخذ نصر الثاني (562ـ604).

3 ـ اويل ـ مردوخ (560ـ561).

4 ـ نرجال شار اوصر (556ـ559).

5 ـ لباشي ـ مردوخ (556).

6 ـ نبو نيدس (539ـ555).

استيلاء كورش على بلاد بابل (539).

11 ـ الملوك الأخمينيون:

1 ـ كورش الأول (600ـ640).

2 ـ قمبيز الأول (559ـ600).

3 ـ كورش الثاني (530ـ559).

4 ـ قمبيز الثاني (522ـ529).

5 ـ بارديا (522).

6 ـ دارا الأول (521ـ486).

7 ـ احشويرش الأول (485ـ465).

8 ـ أرتحشتا الأول (464ـ424).

9 ـ دارا الثاني (423ـ405).

10 ـ أرتحشتا الثاني (404ـ359).

11 ـ أرتحشتا الثالث (358ـ338).

12 ـ أرسيس (337ـ336).

13 ـ دارا الثالث (335ـ331).

12 ـ المقدونيون:

1 ـ الإسكندر الكبير (336ـ323).

2 ـ فيليب أرهيديوس (323ـ316).

3 ـ الإسكندر الرابع (316ـ307).

13 ـ الملوك السلوقيون:

1 ـ سلوقس الأول نيفاطور (311ـ281).

2 ـ أنطيوخس الثاني (281ـ260).

3 ـ أنطيوخس الثالث (260ـ246).

4 ـ سلوقس الثاني (245ـ226).

5 ـ سلوقس الثالث (225ـ223).

6 ـ أنطيوخس الثالث الكبير (222ـ187).

7 ـ سلوقس الرابع «فيلوباطر» (187ـ175).

8 ـ أنطيوخس الرابع «أبيفانس» (175ـ164).

9 ـ أنطيوخس الخامس (164ـ162).

10 ـ ديمتريوس الأول (162ـ150).

11 ـ الإسكندر بالس (150ـ145).

12 ـ ديمتريوس الثاني (145ـ140).

13 ـ أنطيوخس السادس (145ـ143).

14 ـ أنطيوخس السابع (138ـ129).

15 ـ سلوقس الخامس (129ـ126).

16 ـ أنطيوخس الثامن (126ـ96).

17 ـ سلوقس السابع (96ـ95).

18 ـ أنطيوخس الحادي عشر فيلادلفس.
19 ـ فيليب الأول (95ـ83؟).
20 ـ ديمتريوس الثالث (95ـ88).
21 ـ أنطيوخس الثاني عشر (86؟ـ85؟).
22 ـ أنطيوخس العاشر (95ـ83).
23 ـ أنطيوخس الثالث عشر (69ـ65).

14 ـ الملوك الفرثيون (الارشاقيون):

1 ـ ارشاق (250ـ248).
2 ـ تيريداتس الأول (248ـ211).
3 ـ ارطبان الأول (211ـ191).
4 ـ فريا فاطوس (191ـ176).
5 ـ افراهاط الأول (176ـ171).
6 ـ مثراداتس الأول (171ـ138).
7 ـ افراهاط الثاني (138ـ128).
8 ـ ارطبان الثاني (128ـ124).
9 ـ مثراداتس الثاني (123ـ88).
10 ـ جوتارز الأول (91ـ81).
11 ـ أورود الأول (80ـ76).
12 ـ سنا طرق (76ـ70).
13 ـ افراهاط الثالث (70ـ57).
14 ـ مثراداتس الثالث (57ـ54).
15 ـ أورود الثاني (57ـ37).
16 ـ افراهاط الرابع (37ـ2ق.م).
17 ـ تيراداتس الثاني (30ـ25).
18 ـ افراهاطاق (2ق.م ـ4م).
19 ـ أورود الثالث (4ـ6م).
20 ـ أونون الأول (8ـ22م).
21 ـ ارطبان الثالث (11ـ38م).
22 ـ تيريداتس الثالث (36م).
23 ـ كيناموس (37م).
24 ـ جوتارز الثاني (38ـ51).
25 ـ وردان (39ـ47).
26 ـ أونون الثاني (51).
27 ـ ولغاش الأول (51ـ78).
28 ـ فاقور (78ـ115).
29 ـ أرطبان الرابع (80ـ81).
30 ـ خسرو (109ـ128).
31 ـ فرثامسباتس (117).
32 ـ ولغاش الثاني (106ـ147).

33 ـ مثراداتس الرابع (147ـ128).

34 ـ ولغاش الثالث (162ـ148).

35 ـ ولغاش الرابع (107ـ191).

36 ـ ولغاش الخامس (222ـ207).

37 ـ أرطبان الخامس (226ـ208).

15 ـ الملوك الساسانيون:

1 ـ أردشير الأول (241ـ226م).

2 ـ شابور الأول (272ـ241).

3 ـ هرمزد الأول (273ـ272).

4 ـ بهرام الأول (276ـ273).

5 ـ بهرام الثاني (293ـ276).

6 ـ بهرام الثالث (293).

7 ـ نرسي (نرسيس) (302ـ293).

8 ـ هرمزد الثاني (309ـ302).

9 ـ شابور الثاني (379ـ309).

10 ـ أردشير الثاني (383ـ379).

11 ـ شابور الثالث (388ـ383).

12 ـ بهرام الرابع (399ـ388).

13 ـ يزدجرد الأول (420ـ399).

14 ـ بهرام الخامس (438ـ420).

15 ـ يزدجرد الثاني (457ـ438).

16 ـ هرمزد الثالث (459ـ457).

17 ـ فيروز (484ـ457).

18 ـ بالاش (488ـ484).

19 ـ قباذ الأول (497ـ488).

20 ـ مدع بالعرش (499ـ496).

21 ـ قباذ الأول (531ـ499).

22 ـ كسرى الأول (579ـ531).

23 ـ هرمزد الرابع (590ـ579).

24 ـ كسرى الثاني (628ـ590).

25 ـ بهرام السادس (591ـ590).

26 ـ بسطام (595ـ591).

27 ـ قباذ الثاني (628ـ627).

28 ـ أردشير الثالث (630ـ628).

29 ـ بوران (631ـ629).

30 ـ هـرمـزد الـخـامـس (632ـ631).

31 ـ كـسـرى الـثـالـث (633ـ632).

32 ـ يـزدجـرد الـثـالـث (651ـ633).

16 ـ ملوك بلاد آشور:

1 ـ توديا.

2 ـ أدامو.

3 ـ يانكي.

4 ـ كتلامو.

5 ـ خرخارو.

6 ـ مندارو.

7 ـ امصو.

8 ـ خرصو.

9 ـ ددانو.

10 ـ خانو.

11 ـ زوآبو.

12 ـ نوآبو.

13 ـ أبازو.

14 ـ بيلو.

15 ـ أزارح.

16 ـ أوشبيا.

17 ـ ابياشل.

18 ـ هاله.

19 ـ سمانو.

20 ـ حيانو.

21 ـ ايلو ـ مير.

22 ـ يكميسي.

23 ـ يكيمني.

24 ـ يذكر ـ ايلو.

25 ـ ايلا ـ كبكبي.

26 ـ أمينو.

27 ـ سوليلي.

28 ـ كيكيا.

29 ـ أكيا.

30 ـ بوزر آشور الأول.

31 ـ شالم ـ أخم.

32 ـ ايلو شوما.

33 ـ ايريشم الأول (الحارث).

34 ـ ايكونم.

35 ـ سرجون الأول.

36 ـ بوزر آشور الثاني.

37 ـ نرام ـ سين.

38 ـ ايريشم الثاني.

39 ـ شـمـسـي أدد الأول (1781ـ1813).

40 ـ اشـمـي ـ دكـان الأول (1741ـ1780).

41 ـ آشور ـ دوكل.

42 ـ آشور ـ أيلا ايدي.

43 ـ ناصر ـ سين.

44 ـ سين ـ نامر.
45 ـ ابقي ـ عشتار.
46 ـ أدد ـ صلالو.
47 ـ أداسي.
48 ـ بيلو ـ باني.
49 ـ لبايا.
50 ـ شرما ـ أدد الأول.
51 ـ بازيا.
52 ـ ابطار ـ سين.
53 ـ للايا.
54 ـ كدن ـ نينوآ.
55 ـ شرما ـ أدد الثاني.
56 ـ ابريشم الثالث.
57 ـ شمسي ـ أدد الثاني.
58 ـ اشمي ـ دكان الثاني.
59 ـ شمسي ـ أدد الثالث.
60 ـ آشور ـ نيراري الأول.
61 ـ بوزر ـ آشور الثالث.
62 ـ أنليل ـ ناصر.
63 ـ نور ـ ايلي.
64 ـ آشور ـ شدوني.
65 ـ آشور ـ رابي.
66 ـ آشور نادن آخي الأول.
67 ـ أنليل ناصر الثاني (1427ـ1432).
68 ـ آشور ـ نيراري الثاني (1420ـ1426).
69 ـ آشور بيل ـ نشيشو (1411ـ1419).
70 ـ آشور ريم ـ نشيشو (1403ـ1410).
71 ـ آشور نادن آخي الثاني (1393ـ1402).
72 ـ أريبا ـ أدد الأول (1366ـ1392).
73 ـ آشور أوبالط الأول (1330ـ1365).
74 ـ أنليل ـ نيراري (1320ـ1329).
75 ـ ارك ـ دين ـ ايلي (1308ـ1319).
76 ـ أدد ـ نيراري الأول (1275ـ1307).
77 ـ شيلمنصر الأول (1245ـ1274).
78 ـ توكلتي ـ ننورتا الأول (1208ـ1244).
79 ـ آشور نادن أبلي (1204ـ1207).
80 ـ آشور نيراري الثالث (1198ـ1203).

81 ـ أنليل كودوري أوصر (1193ـ1197).

82 ـ ننورتا آبل ايكور (1180ـ1192).

83 ـ آشور دان الأول (1134ـ1179).

84 ـ ننورتا توكلتي آشور.

85 ـ متكل ـ نسكو.

86 ـ آشور ـ ريش ـ ايشي (1116ـ1133).

87 ـ تجلا ثبليزر الأول (1077ـ1115).

88 ـ أشارد آبل ايكور (1075ـ1076).

89 ـ آشور بيل كالا (1057ـ1074).

90 ـ أريبا ـ أدد الثاني (1055ـ1056).

91 ـ شمسي ـ أدد الرابع (1051ـ1054).

92 ـ آشور ناصر بال الأول (1032ـ1050).

93 ـ شيلمنصر الثاني (1020ـ1031).

94 ـ آشور ـ نيراري الرابع (1014ـ1019).

95 ـ آشور رابي الثاني (973ـ1013).

96 ـ آشور ريش ايشي الثاني (968ـ972).

97 ـ تجلا ثبليزر الثاني (935ـ967).

98 ـ آشور دان الثاني (912ـ934).

99 ـ أدد نيراري الثاني (891ـ911).

100 ـ توكلتي ـ ننورتا الثاني (884ـ890).

101 ـ آشور ناصربال الثاني (859ـ883).

102 ـ شيلمنصر الثالث (824ـ858).

103 ـ شمسي ـ أدد الخامس (811ـ823).

104 ـ أدد ـ نيراري الثالث (783ـ810).

105 ـ شيلمنصر الرابع (773ـ782).

106 ـ آشور دان الثالث (755ـ772).

107 ـ آشور ـ نيراري الخامس (745ـ754).

108 ـ تجلا ثبليزر الثالث (727ـ744).

109 ـ شيلمنصر الخامس (722ـ726).

110 ـ سرجون الثاني (705ـ721).

111 ـ سنحاريب (681ـ704).

112 ـ أسرحدون (669ـ680).

113 ـ آشور بانيبال (668ـ6/627).

114 ـ آشور ـ أطل ـ ايلاني (624ـ626؟).

115 ـ سين شومو ليشر.

116 ـ سين ـ شار ـ اشكن (؟ـ612).

117 ـ آشور ـ أوبالط الثاني (609ـ611).

فهرست الأماكن

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـــ ع ـــ

ـــ غ ـــ

ــ ك، گ ــ

— ل —

— ن —

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهرست الأعلام

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ل ـ

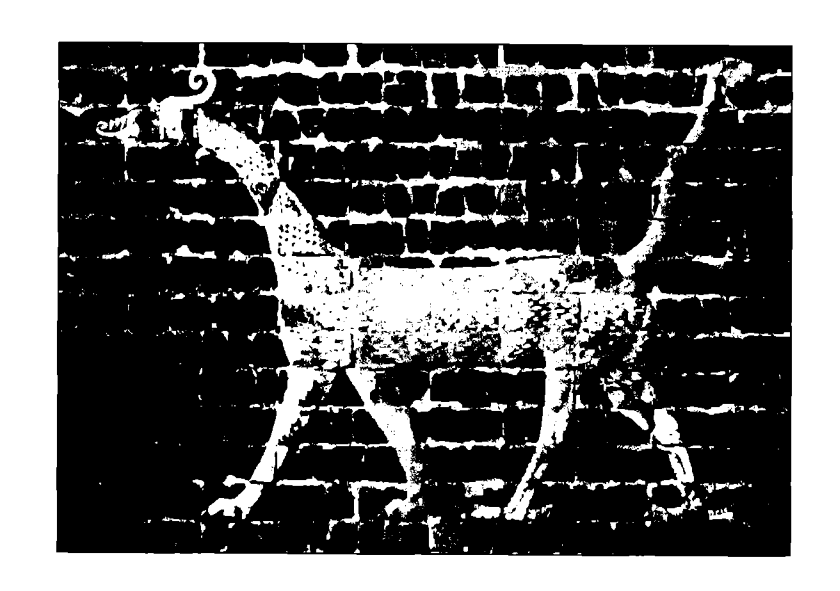
ـ م ـ

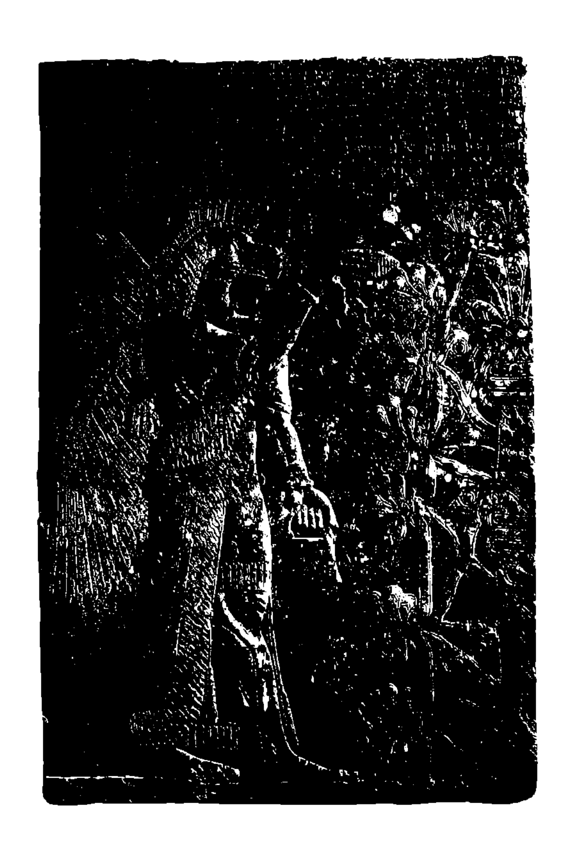
ـ ن ـ

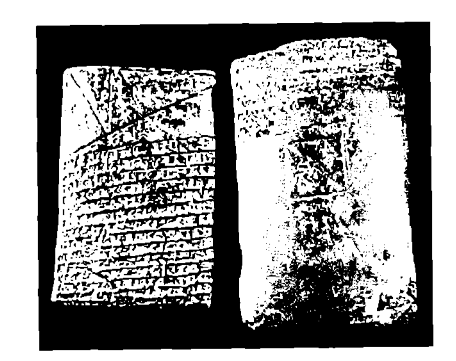
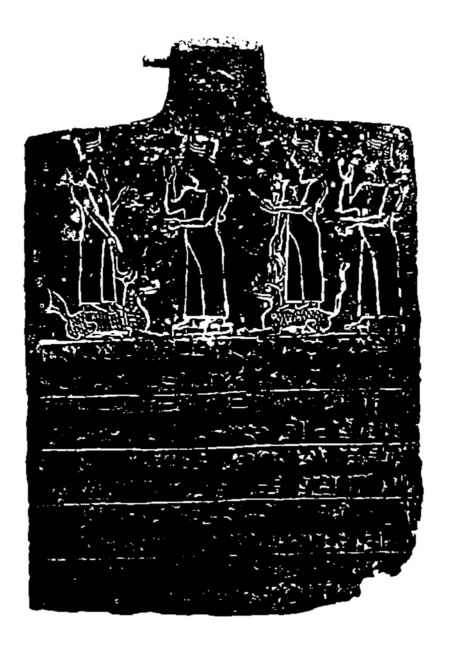
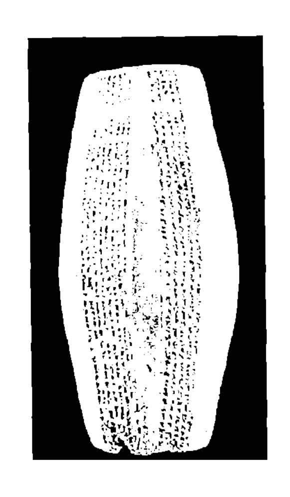
ـ هـ ـ

ـ و ـ

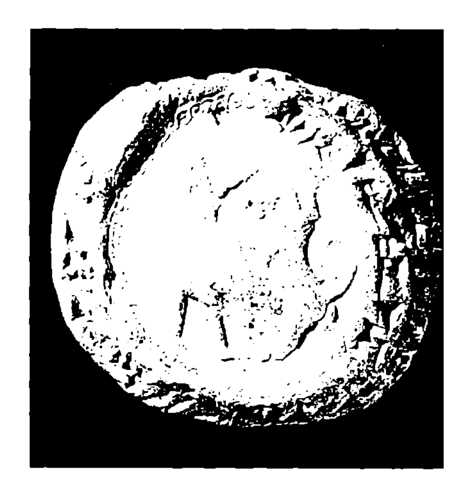
ـ ي ـ

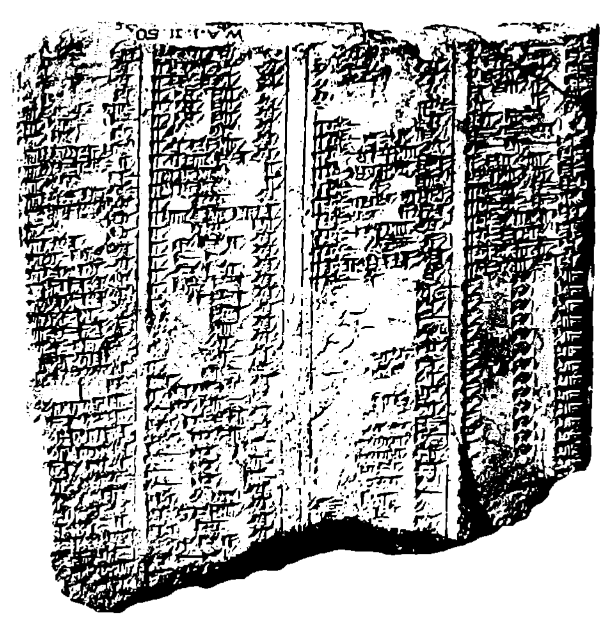


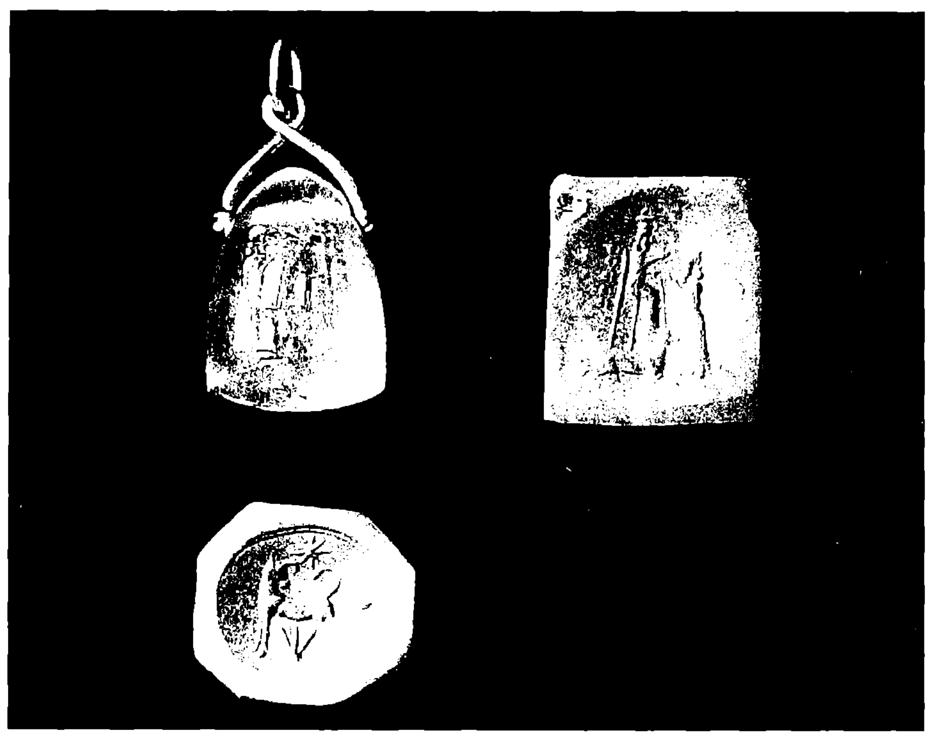


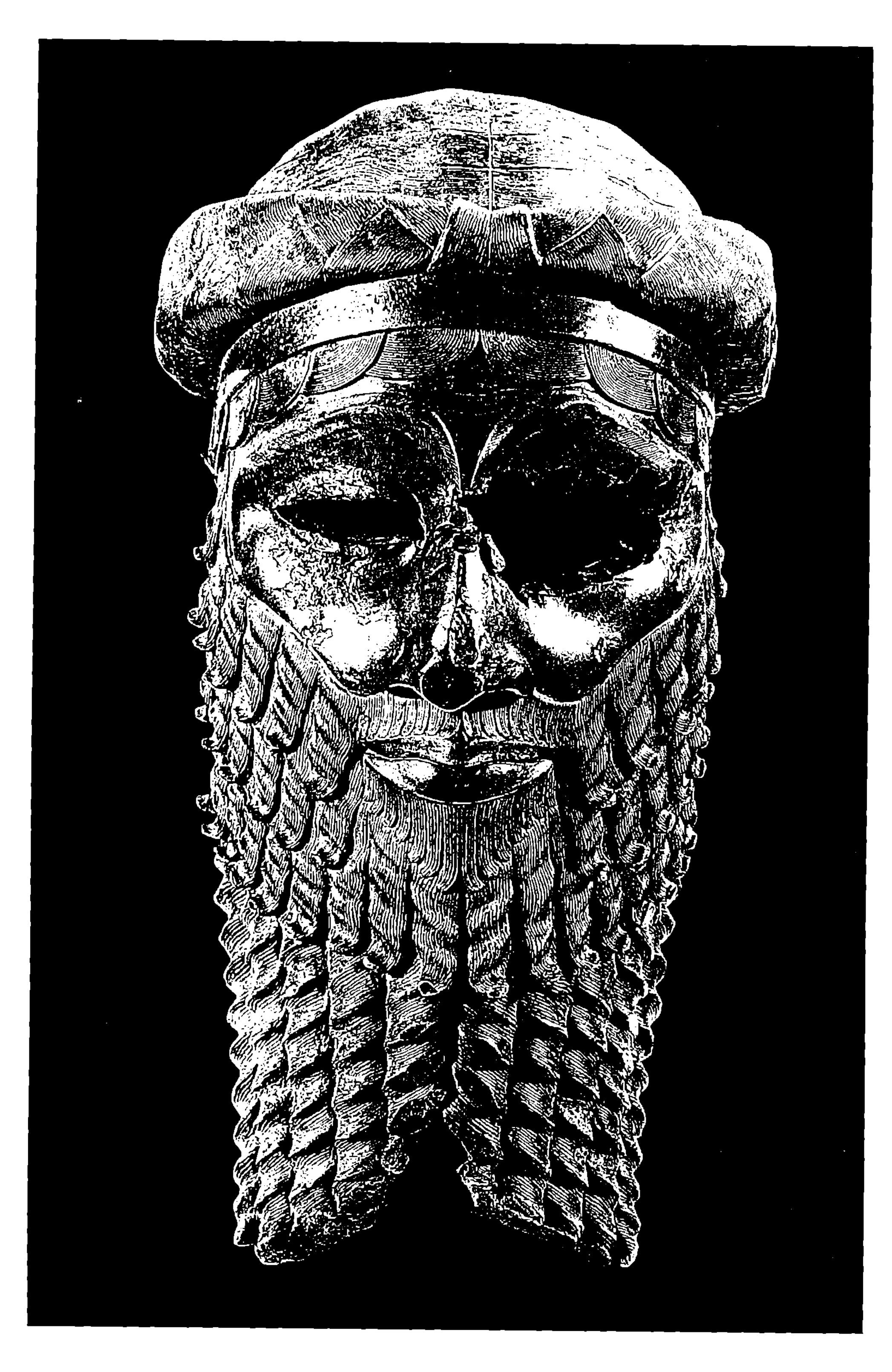


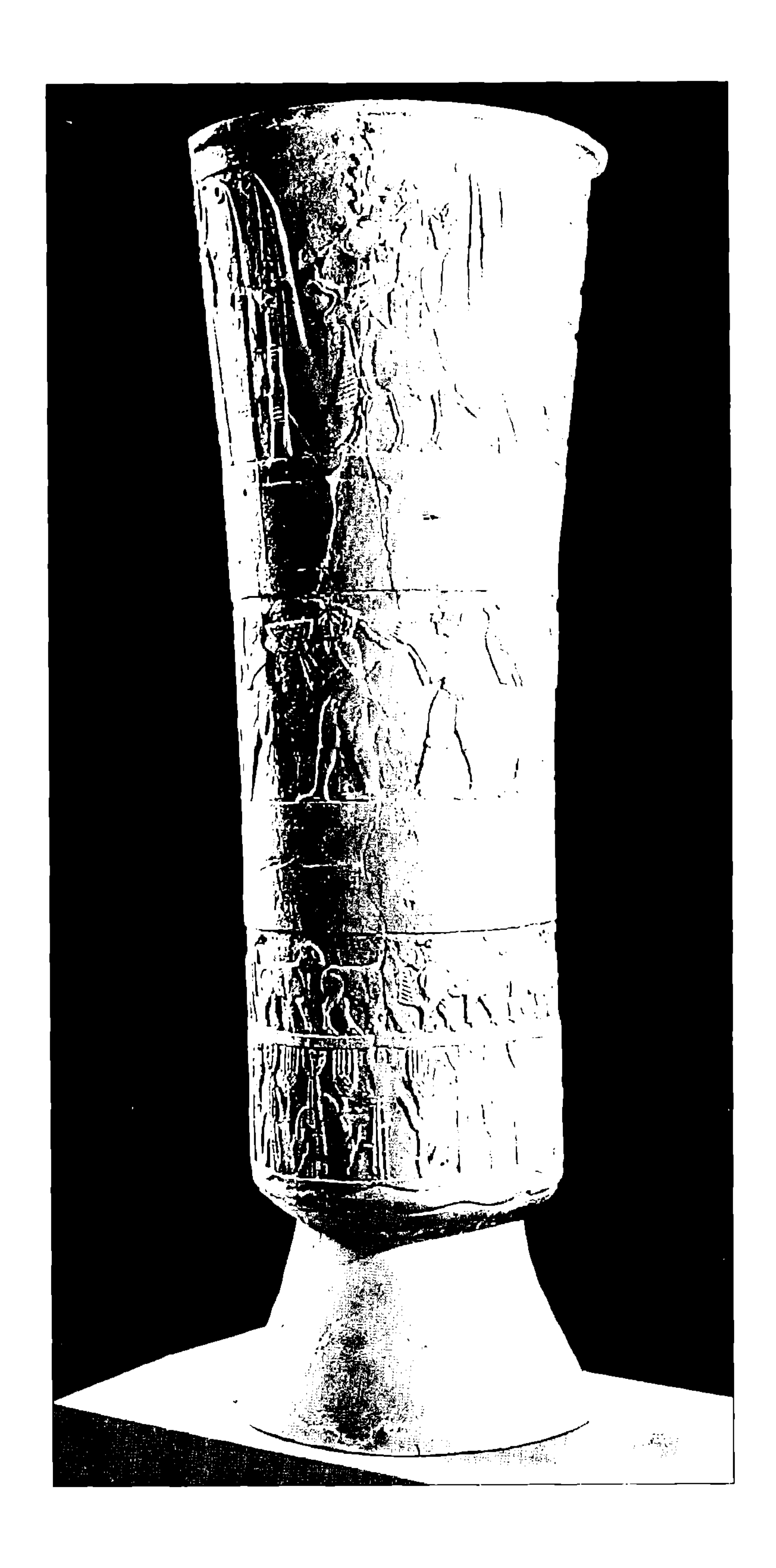


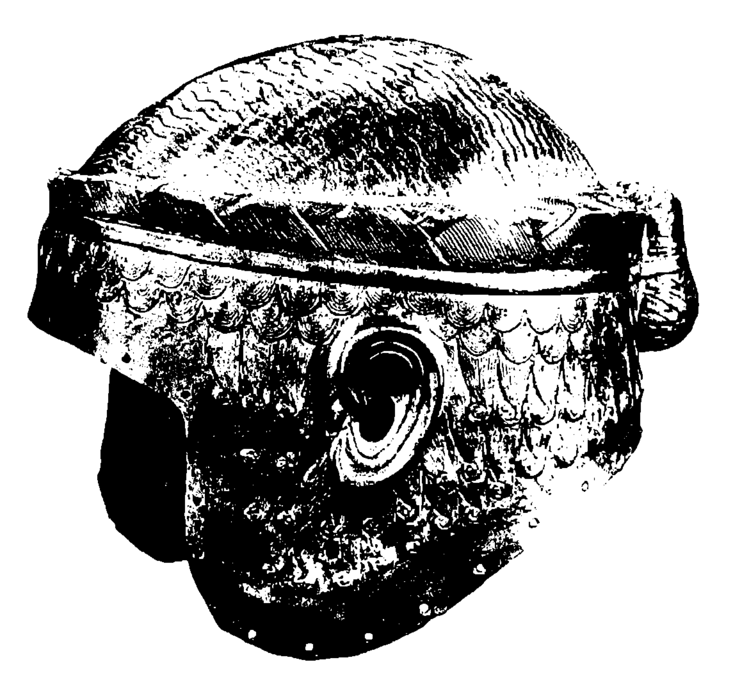














هذا الكتاب

إن سعة المادة التي تجمعت لدي عن حضارة وادي الرافدين استلزمت توزيع هذه المادة في جزأين، خصصت الجزء الأول منهما، وهو الذي أقدمه للقُراء الآن، لتأريخ العراق القديم منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ إلى نهاية العصر الساساني أي بداية الفتح العربي الإسلامي، موجزاً فيه عهود هذا التأريخ المتطاول في القدم، وخلاصة الأحداث السياسية والحضارية والسلالات والدول التي حكمت فيها وما صاحب ذلك من تغييرات اقتصادية واجتماعية وفنية، بإيجاز الخصائص الحضارية والثقافية لكل دور من أدواره التأريخية. أما القسم الثاني، فقد خصصته للأوجه والمقومات الحضارية المختلفة من ديانة ومعتقدات، وشرائع وآداب، ومعارف وعلوم، ونظم ومؤسسات اجتماعية وسياسية واقتصادية. وثانياً استتبع عن هذا التقسيم أني غيّرت طريقة عرض المادة التي اتبعتها في كتابي القديم، الذي كنت قسمت الجزء الأول منه الخاص بحضارة وادي الرافدين أما الجزء الثاني فقد تناول حضارات الشرق القديم. إلى قسمين، تناول القسم الأول منهما إيجاز الأدوار التأريخية من الناحية السياسية، وخصص القسم الثاني للأوجه الحضارية المختلفة. ومع أن هذا التقسيم لا يزال متبعاً في كتابي الجديد، بيد أن ما ذكرته من ازدياد مادة الكتاب وحجمه من جهة، ومتطلبات المنهج التأريخي الجديد الذي اتبعته في طريقة العرض، كل ذلك جعلني أوجز في الجزء الأول من كتابي الجديد المخصص للأدوار السياسية الخصائص والميزات الحضارية العامة في نهاية كل عصر من العصور التأريخية، مرجئاً التفصيل والإسهاب إلى الجزء الثاني الذي سيتناول المواضيع الحضارية كلاً على انفراد، ويتتبع كل موضوع حضاري منها وتطوره عبر الأدوار التأريخية المختلفة في تأريخ حضارة وادي الرافدين. ولعله لا يخفى على القارئ ما لهذا الأسلوب الجديد في العرض من فوائد وميزات، في جعله يلم بمقومات حضارة وادي الرافدين في كل عصر من عصورها المعروفة، ويتابع تبدلاتها وتطورها عبر تلك العصور، بحيث يستطيع قارئ الجزء الأول ممن لا يريد التبسط والتوسع أن يؤجل إلى حين قراءة القسم الثاني المخصص لتلك المقومات والأوجه الحضارية كما ذكرنا.

وإذا كان كتابي هذا قد وضع بالدرجة الأولى ليفي بحاجة طلاب التأريخ القديم وفرع الآثار والحضارات القديمة في كليات الجامعات العراقية، وبحاجة غير المختصين في الموضوع أيضاً، فإنني لعلى يقين من أنه سيحقق إلى ذلك حاجة المختصين وعامة المثقفين ويغنيهم عن مراجعة المئات من البحوث والنشرات المختلفة المتفرقة في عشرات المجلات الآثارية في اللغات الأوروبية.

ورغم ما قد يحمل مني محمل التبجح لا معدى لي من القول إنني وفيت الكثير من تلك الدراسات والبحوث حقها من الدرس والمتابعة، آخذاً منها أهم المطالب والآراء الجديدة، كما تشير إلى ذلك المراجع والمظان الكثيرة التي استشهدت بها في كل صفحة تقريباً، وإن كتابي هذا ثمرة اشتغالي في حقل الآثار والتأريخ، تنقيباً وبحثاً وتدريساً ونشراً طوال أكثر من ربع قرن من الزمان. وإلى المادة الجديدة التي نوهت بها أضفت إلى الجزء الأول أثباتاً تأريخية مفصلة بالأدوار التأريخية والسلالات الحاكمة وأسماء ملوكها مما يحتاج إلى الرجوع إليها المختصون وغير المختصين.

ISBN 978-1-900700-45-0



9 781900 700450

Alwarrak Publishing Ltd.

دار الوراق للنشر

مُقدّمة في تاريخ الحضارات القديمة

حضارة وادي النّيل

وبعض الحضارات القديمة

فارس - الإغريق - الرّومان...





طه باقر

مقدمة

في تأريخ الحضارات القديمة

الجزء الثاني

حضارة
وادي النيل

جزيرة العرب وبلاد الشام ـ بعض الحضارات والأمم القديمة ـ بلاد إيران والإسكندر والسلوقيون ـ اليونان والرومان

تأليف
طه باقر



* الكتاب: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ـ حضارة وادي النيل ـ الجزء الثاني
* تأليف: طه باقر
* الطبعة الأولى لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة: 2011 .

* تنفيذ الغلاف: شركة دار الورّاق للنشر المحدودة.
* الناشر: شركة دار الورّاق للنشر المحدودة.

WWW.alwarrakbooks.com

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD - UK
Fax: 0044 208-7232775
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 6435-113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

بيت الورّاق
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ تلفون: ٠٠٩٦٤٤٧٧٠٢٧٤٩٧٩٢ ـ ٠٠٩٦٤٧٨٠١٣٤٧٠٧٦

فهرس الجزء الثاني

الجزء الثاني
القسم الأول
حضارة وادي النيل

القسم الثاني
تاريخ الجزيرة العربية وبلاد الشام

القسم الثالث
موجز في تاريخ بعض الحضارات والأمم القديمة

القسم الرابع
بلاد إيران
العيلاميون ـ الفرس والإخمينيون ـ الإسكندر والسلوقيون ـ الفرثيون ـ الساسانيون

القسم الخامس
اليونان والرومان

الفهارس العامة

مقدمة الجزء الثاني

ليس لدي ما أضيفه هنا إلى ما ذكرته في مقدمة الطبعة الثانية المثبتة في الجزء الأول من هذا الكتاب سوى التنويه مرة أخرى بالإضافات والتنقيحات الأساسية التي أدخلتها على الجزء الثاني بحيث يبدو بالمقارنة مع الطبعة الأولى كتاباً جديداً في فصوله وعرضه. وثمة ملاحظة أخرى يحسن التنويه بها تلك هي ما قد يبدو على الكتاب بجزأيه من التطويل والإسهاب فوق ما يتحمله منهج سنة واحدة من تأريخ الحضارات القديمة كما هو المتّبع في كلّية دار المعلمين العالية، ولكنني لم ألتزم بمنهج مدرسي معين وإنما راعيت قبل كل شيء أن يكون كتابي مقدمة شاملة في التعريف بالحضارات والمدنيات القديمة ليكون مرجعاً أساسياً في الموضوع يتصرف بمادته من يدرس الموضوع من ناحية الإسهاب والإيجاز والحذف أو التوسّع بالاستعانة بالمراجع الأساسية التي أثبتّها في نهاية البحوث الرئيسية.

ولا بدّ لي في نهاية هذه الملاحظات الموجزة أن أكرّر ما سبق لي أن ذكرته من أملي بأن يسدّ هذا الكتاب حاجة ماسة في المكتبة العربية لانتفاء وجود كتاب حديث في الموضوع في اللغات الأجنبية أو في العربية.

بغداد 1956 — **طه باقر**

الجزء الثاني

القسم الأول

حضارة
وادي النيل

الفصل العشرون

عصور ما قبل التاريخ
وبداية الحضارة المصرية

1 ـ مقدمة في جغرافيا وادي النيل:

لكي نفهم قصة الحضارة في وادي النيل وسير تأريخها من نشوئها وتطورها وأدوارها ينبغي لنا أن نلمّ بأبرز الخصائص المميزة لمسرح حوادث تلك الحضارة مما كان له أثر بارز في طبع تلك الحضارات بميزاتها ومقوماتها الخاصة. ولما كان الغرض من هذه المقدمة الجغرافية الاستعانة بها لفهم حوادث التأريخ المصري القديم فسنكتفي من جغرافيا وادي النيل بالأمور البارزة الموضّحة لتلك الحوادث.

تقع مصر[1] في الجانب الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، وإن أبرز ما

(1) اسم بلاد مصر في اللغات الأوروبية (Egypt) مأخوذ من اسمها باللاتينية (Aegyptus) المشتقّ بدوره من الاسم اليوناني (Aiguptos) الذي يرجّح أن أصله من أحد أسماء مدينة «منفس» القديمة «حت ـ كا ـ فتاح» (Het-Ka-Ptah) (ويلفظ آيكو فتاح) ويعني (معبد «كا» العائد إلى الإله فتاح)، ومن هذه الصيغ اشتقّ اسم «قبط». أما الاسم الشائع عند المصريين القدماء فكان اسم «قيم» أو «قيمي» (وبالقبطي خم، خيمي) ويعني الأرض السوداء أي السواد إشارة إلى لون تربة وادي النيل الخصبة، وهناك اسم آخر شائع لدى قدماء المصريين هو «تو ـ ميري» (To-Mere) أو تاميري ومعناه أرض الفيضان.
أما الاسم «مصر» فالمرجّح كثيراً أنه اسم سامٍ ويعني ما تعنيه الكلمة العربية «مصر»، وقد ورد هذا الاسم بصيغة «مُصُر» بضم الميم والصاد وبصيغة «مصري» في الوثائق الآشورية وفي رسائل العمارنة الشهيرة انظر (Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, 294).
وورد في الآداب السامية الأخرى ولا سيما التوراة بصيغة التثنية «مصرايم» (سفر التكوين 5: =

يميّز مصر، في جغرافيتها وتأريخها، نهرها العظيم «النيل»[1] مصدر الحياة والخصب بحيث يصحّ القول مع هيرودوتس المأثور «إن مصر هبة النيل»، إذ لولاه لأصبحت مصر صحراء جرداء، فهي قطر عديم المطر بوجه أساسي، فيكون النيل وما على جانبيه من الأراضي الضيّقة بلاد مصر التي يمكن فيها الحياة والعيش وهي شقة خضراء ضيّقة يكون فيها الحدّ الفاصل بين الحياة والزرع وبين الصحراء وعدم الحياة حدّاً واضحاً وبوناً صارخاً بين «المزروع» والصحراء. وقد عمل ضيق هذه الشقة الخضراء على تكاثف قرى الفلاحين، وجعل القرية تكون لصق القرية اقتصاداً بالأراضي القابلة للزراعة. ولكن إذا ما بذلت العناية المقتضية فإن هذه الأراضي تدرّ على سكان مصر خيرات زراعية عميمة. ومع ذلك فلأن الأرض الزراعية الخصبة محصورة في وادي نهر النيل فإن ما يمكن زراعته من المملكة المصرية لا يتعدّى زهاء 3,5% (نحو 1/ 30 من الأرض) من مساحة هذه المملكة، وما بقي من الأراضي (96,5%) بادية جرداء غير قابلة للسكنى، ويعيش الآن نحو 99% من سكان مصر على هذا الجزء الصغير من الأراضي القابلة للزراعة، وعلى هذا فتكون كثافة السكان في

= 11) إشارة إلى قسمي البلاد السفلي والعلوي، ويرى البعض أن هذه الصيغة من اسم «مصرايم» بن حام كما جاء في التوراة (سفر التكوين 1: 6، 13 وسفر الأيام الأول 1: 11)، ولعل صيغة «مصرايم» السامية كما وردت في التوراة ترجمة لكلمة «تاوي» أحد أسماء مصر القديمة التي تعني «الأرضين» (ولعل ذلك إشارة إلى مصر السفلى ومصر العليا) (حول ذلك راجع:

(1) The British Museum Guide, 4.

(2) مجلة المقتطف عدد يونيو 1942).

(1) كلمة النيل ليست من أصل مصري قديم. والمرجّح كثيراً أنها من الكلمات السامية القديمة المشتقة من «نهر» أو «نهل» أو «نخل» (بإبدال الراء لاماً) فصارت الكلمة الثانية بصيغة «نيل» ومنها الكلمة اليونانية (Neilos) واللاتينية (Nilus). أما المصريون القدماء فقد سمّوا نهر النيل وكذلك الإله الخاص بنهر النيل باسم «حعف» أو «حعفي». وفي الأزمان المتأخرة صار يُلفظ بهيئة (هوفي وأوفي وحوفي) ولا يُعلم معنى هذا الاسم المصري القديم، وقد أُلّه النيل ونظمت في تمجيده التراتيل الدينية وخُصّصت له بعض الأعياد الدينية.

مصر الآن على أشدها[1]. هذا ولا نعلم بوجه التأكيد عدد سكان مصر القديمة، ولعله كان نحو عشر السكان الحاليين.

ولعل أهم ما يميّز النيل مما كان له أثر عظيم في حياة مصر وتأريخها فيضان هذا النهر وموعد فيضانه، فعلى هذا الفيضان وعلى موعده تعتمد حياة مصر وخصبها. يكون النيل في مصر في نهاية شهر أيار على أخفض مستوى له، ولكنه يبدأ في خلال شهر حزيران الارتفاع فيما بين القاهرة وأسوان، وتظهر عند ذاك كمية من الماء الأخضر يُظَنّ أن سبب خضرتها ما يحمله النهر من الكميات الكبيرة من نوع الحشائش المائية الدقيقة (Algae) التي تتحجر وتختفي بعدئذ. ويرتفع النهر سريعاً في خلال شهر آب وتتّخذ مياهه لوناً أحمر كدراً بسبب التربة الغرينية العالقة بها التي يحملها إلى نهر النيل، النيل الأزرق ونهر عطبرة. وتستمر مياه النيل بالارتفاع إلى منتصف أيلول حيث تستقر ثانية في مستواها زهاء أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. ويحدث في شهر تشرين الأول ارتفاع آخر في النهر، ومن ثم تبدأ المياه بالهبوط وتستمر في هبوطها حتى تصل إلى أوطأ مستوى لها في أيار القادم وهكذا تبدأ دورة النيل من جديد. إن سبب هذا الفيضان معروف. وكان «أرسطو» أول من أشار إلى السبب الحقيقي وأنه متأتٍ من أمطار الربيع وأمطار بداية الصيف في جبال الحبشة وجنوبي السودان حيث تدخل هذه الأمطار إلى روافد النيل بهيئة تيارات وسيول عنيفة.

فيبدو أن النيل منتظم في فيضانه بحيث إن دورة النيل قد اتّخذت في التقويم المصري على ما يتبيَّن فيما بعد، ومع انتظام هذا الفيضان فإن الفائدة منه لا تتمّ إذا لم يحافظ على مياه الفيضان إذ إنها وما تحمله من الخصب تذهب عبثاً مع النيل إلى البحر، وإن معظم الفلاحين في مصر يسقون في الربيع من الآبار. ومما يقال في النيل وفيضانه أنه على الرغم من أنه أقلّ عنفاً من

---

(1) أكثر من 1200 نفس في الميل المربع بالمقارنة مع بلجيكا (900 في الميل المربع) التي تعدّ أشد الأقطار الأوروبية في كثافة السكان.

.(J.A. Wilson, The Burden of Egypt; Before Philosophy)

نهر دجلة مثلاً وأكثر انتظاماً منه في فيضانه إلا أنه قد يكون متقلباً من حيث الزيادة والنقصان في كمية فيضانه، ففي حالة الزيادة فوق المعتاد يكون التدمير والتخريب وفي النقصان القحط والمجاعة، والفرق بين الحالين بضع «انجات» من ناحية الزيادة أو النقصان[1]، ولذلك لزم السهر واليقظة في حالة الارتفاع العالي المخرب، فلا عجب إذا ما وجدنا المصريين القدماء يقدّسون النيل ويجعلونه إلٰهاً من آلهتهم خصّوه بالتمجيد ونظموا له التراتيل الدينية[2] كما أنهم خصصوا لعبادته عيدين مهمين، كان الأول منهما يقع في حزيران واسمه «ليلة الدمعة»، حيث اعتقدوا أن الإلهة «إيسيس» ناحت وبكت على جثمان زوجها «أوسيريس» الميت، وسقطت دموعها في النهر وسبّبت ارتفاع مياهه، وقد استمر هذا العيد الوثني في مصر إلى العصور الحديثة، حيث يعرف بليلة النقطة إذ اعتقدوا أن نقطة ماء تقع بمعجزة في النيل وتسبّب ارتفاعه. وكانوا يحتفلون بالعيد الثاني في حدود منتصف آب وله ما يضاهيه في مصر حديثاً فيما يسمى «بكسر السد» (قطع السد) حيث يُبنى سدّ من التراب ارتفاعه نحو 23 قدماً في

---

(1) ولتوضيح ذلك نقول إنه قبل بناء خزان أسوان كان ارتفاع النيل في الشلال الأول إذا بلغ مقدار 25 أو 26 قدماً فوق الصفر (Zero-dotum) فيكون ارتفاعاً مفيداً ملائماً يسهل ضبطه ويكفي لإرواء مساحات كافية لإنتاج غلة حسنة، وإذا كان ارتفاعه بنحو (30) «انجاً» تحت ذلك المستوى المعدل المعتاد فإنه لا يساعد على إنماء غلة ملائمة بل تكون سنة قاسية، وإذا بلغ الانخفاض (60) انجا (80% عن المعدل) كان معنى ذلك القحط والمجاعة، والواقع أن قصة السنين السبع العجاف قد حدثت في تاريخ مصر أكثر من مرة مثل المجاعة التي حلّت في عام 1066 ـ 1072 للميلاد وقصة السنين العجاف المذكورة في التوراة (سفر التكوين 41)، للميلاد وقصة حلّت في عهد قديم جداً يرجّح أن يكون في زمن السلالة الثالثة المصرية (في عهد الملك زوسر). أما إذا ارتفع النيل بمقدار (30) قدماً (أي نحو 20%) فوق المستوى المعدل فإن النهر يجرف السدود والضفاف ويخرب القرى. انظر:

(Wilson, The Burden of Egypt, 10-11).

(2) انظر الترتيلة الخاصة بالإلٰه النيل في:

British Museum Guide, 10.

Ancient Near Eastern Texts.

خليج القنال وإذا ما بلغ مستوى النيل أعلاه يزال القسم الأعلى من السد وقت شروق الشمس ثم يحدر قارب من فوق السد المكسور[1].

واشتق المصريون القدماء من ملاحظتهم لنيلهم المهم من عودة ولادته السنوية ودورة الشمس اليومية من غروب و«ولادة» جديدة (شروق) تصوراتهم الأساسية عن الكون والخليقة (على ما سنفصّله في مبحث الديانة)، وإن اطراد فيضان النيل بوجه نسبي وعزلة مصر الجغرافية جعلتهم يتصورون مصر على أنها مركز الكون، وأن الحياة أو بالأحرى عودة الحياة لهي المتغلبة على الموت، واتخذوا من بيئتهم التي على رأسها النيل الصورة الأنموذجية لما ينبغي أن تكون عليه البيئات الأخرى وأنهارها. فمثلاً نجدهم يستعملون نفس الكلمة التي تعني «الاتجاه شمالاً» في معنى «اتجه مع التيار» (أي اتجاه النهر) ولكلمة الجنوب أو الاتجاه إلى الجنوب كلمة «اتجه ضد التيار»، ولما تعرفوا على نهر مثل الفرات الذي يجري إلى الجنوب، استغربوا أمره فاعتبروه النهر الشاذ الذي يجري مع تيار النهر في اتجاهه ضد التيار أي إنه نهر معكوس أو مقلوب. ونجد أثر النيل أيضاً في عقائد المصريين في عالم ما بعد الموت، ففي الملاحة في النيل تضع السفن المنحدرة إلى الجنوب الأشرعة ليساعد سيرها الريح الآتي من الشمال حيث يسيرها عكس التيار وبالقياس إلى ذلك جرى المصريون القدماء على وضع قاربين في قبور موتاهم للملاحة في العالم الآخر، أحدهما مرفوع الشراع للرحلة صوب الجنوب والآخر مخفوض الشراع للرحلة مع التيار صوب الشمال.

ومن الميزات البارزة في جغرافية مصر عزلتها الجغرافية حيث تكاد تكون إقليماً مقفولاً يشبه الأنبوب المختوم المعزول من الخارج فإلى الشرق والغرب من الوادي توجد صحارى منيعة صعبة لا يمكن عبورها إلّا للقوافل الصغيرة من التجار، ولكنها تكون موانع حاجزة للجماعات الكبيرة التي تريد اقتحام

---

(1) British Museum Guide, (1930) 12-13.

البلاد بالقوة، كما توجد إلى جهة الشمال صحراء سيناء التي كانت تحجز مصر نوعاً من الاتصال بقارة آسيا، أما الساحل الليبي فلم يكن صالحاً لغير تنقل الرعاة تنقلاً سليماً، وكان يقتضي للاتصالات البرية شرقاً وغرباً زهاء خمسة أيام إلى ثمانية أيام من السير في الصحراء ـ من سيناء إلى فلسطين ومن وادي حمامات إلى البحر الأحمر أو إلى أقرب الواحات الغربية، والبحر في الشمال لا يمكن أن يعبره إلى مصر إلّا قوة بحرية تعتمد على السفن الكثيرة وبمقياس كبير. وإلى جهة الجنوب توجد حواجز مانعة أيضاً، فمع أنه من الممكن عبور الشلال الأول بالسفن إلا أن الوضع إلى جنوبه صعب حيث تضيق الأرض على جانبي النيل من جهة الصحراء، كما أن الزراعة تكون متعذرة بين الشلال الأول والثالث، ومع أن الأرض تتّسع إلى الجنوب من هذا الشلال وتنبت فيها الحقول الواسعة إلا أن هذا الشلال وكذلك الشلال الثاني والصحارى النوبية تكون موانع صعبة العبور شمالاً أو جنوباً، بحيث تستطيع أية حكومة ولو كانت ضعيفة أن تصدّ أي هجوم يقع على مصر بالقوة من هذا الجانب ولكن هذا لا يعني أن مصر قد سلمت بالمرة من غزوات الأجانب، إلا أن هذه الغزوات كانت قليلة بالنسبة إلى تأريخ مصر الطويل وبالمقارنة مع مواطن الحضارات القديمة مثل العراق وبلاد سوريا. وإذا أضفنا إلى هذه العزلة الضمان الذي كان يشعر به المصريون القدماء نوعاً ما بالنسبة إلى توفّر مياه الإرواء بالنيل وانتظام دورته بوجه معتاد، وضمان العيش في بيئة أقلّ عنفاً وتقلّباً من بيئة وادي الرافدين اتّضح لنا ما سنلاحظه من بعض الأوجه البارزة في حضارة مصر القديمة، كاعتدادها بالنفس وبما أنجزته من السيطرة على مياه الإرواء وعلى مواردها الطبيعية وشعورها بالحماية والطمأنينة حتى أنها جعلت رأس المجتمع إلٰهاً، كما أن ما ورد فيها من أساطير وقصص عن الخليقة تمتاز بالهدوء وعدم العنف بالمقارنة مع ما يضاهيها في حضارة وادي الرافدين، كما مرّ بنا في الجزء الأول، ولعله من الممكن تفسير مظاهر أخرى في حضارة مصر على ضوء خصائصها الجغرافية كعقائدها فيما بعد الموت وما امتازت به

من الشعور الوطني ونظرتها المترفعة إلى البشر الآخرين من غير المصريين واحتقارها وكرهها للأجانب، على ما سيتضح لنا ذلك وغيره فيما بعد.

ومع أن وادي النيل يشترك بنهر واحد إلا أنه ليس وحدة من الناحية الطبيعية، فتنقسم بلاد مصر بوجه عام إلى قسمين جغرافيين متميزين القسم العلوي (أرض الصعيد) والقسم السفلي (الدلتا البحرية)، وكان هذان القسمان واضحين من الناحية الطبيعية والاجتماعية من حيث السكان والعادات وأساليب العيش. فالقسم العلوي هو الجنوب (تو ـ ريس بالمصرية القديمة) وكان حده الشمالي قرب القاهرة الآن، والقسم الشمالي (تو ـ ميحت) هو مصر السفلى أي الدلتا وحدّه الجنوبي إلى القاهرة. والدلتا مثلثة الشكل تسقيها فروع النيل والترع المتشعّبة منها، وعرض الدلتا نحو (200) مائتي ميل وطولها نحو (100) مائة ميل (وكان الفرع الشرقي للنيل يدعى قديماً باسم «تانتي» والغربي طانوبي، ولكن الدلتا الحالية محصورة بين فرع دمياط شرقاً وفرع رشيد غرباً). والدلتا أرض غرينية رسوبية تكوّنت بفعل الترسبات النهرية. أما أرض الصعيد فخصبة جداً ولكنها عبارة عن شقة ضيّقة لا يزيد عرضها في جانبي النيل على عشرة أميال، ويحدّ وادي النيل غرباً وشرقاً سلسلة تلال حجرية يتراوح علوّها بين 300 و1000 قدم وتكون هذه بهيئة جدران حجرية يقوم فوقها نجد صحراء بلاد العرب والصحراء الليبية. ومع أن هذين الجدارين يكونان حاجزين منيعين إلا أنه ينفذ من كل منهما في عدّة مواضع فتحات كانت بالأصل مجاري سيول وأنهار كانت تصب في النيل وتأتي من كلا النجدين في الأزمان الممطرة في العصور الجليدية[1]، ولكنها أصبحت في العصور التالية مداخل إلى وادي النيل للقوافل الآتية من سواحل البحر الأحمر أو من سلسلة الواحات الكائنة في الأرض المنخفضة المحاذية لمجرى النيل من جهة الغرب.

هذا وقد كنا ذكرنا أن معظم مصر الآن قطر عديم المطر تقريباً ولكن

(1) انظر الجزء الأول، الفصل الثاني.

الأحوال الجغرافية كانت تختلف تمام الاختلاف في العصر الجيولوجي المسمى «بلايستوسين» الذي حدثت فيه العصور الجليدية في أوروبا. وكان يقابل هذه العصور الجليدية عصور ممطرة في معظم أنحاء الشرق الأدنى، حيث كانت المياه وافرة في مصر وتملأ مجاري المياه اليابسة الآن، وكانت النباتات والحيوانات كثيرة في مناطق الصحارى[1]، وسنتطرق في بحثنا عن العصور الحجرية في مصر إلى آثار الصيادين التي تركوها في ضفاف النيل. وبعد أن حلّ الجفاف منذ نهاية العصور الجليدية (ونهاية العصور الحجرية القديمة) التجأ صيادو العصر الحجري القديم من جانبي وادي النيل إلى قرب النهر وأخذوا في زرع الأرض وتدجين الحيوان في العصر التالي. وكانت البيئة الطبيعية التي التجأ إليها الإنسان بيئة وحشية قبل أن تعمل يد الإنسان على ترويضها وتدجينها، فكانت معظمها غابات وأحراشاً نهرية وأهوار قصب. وقبل أن يجفف الإنسان الأهوار كان قد اصطيد هو نفسه بين الصحراء التي هرب منها وبين أحراش النيل ومستنقعاته، فعمل الإنسان على تجفيف الأهوار وتطهير الغابات وتنظيم مياه الإرواء ولعل هذا الجهد قد شغل ألوفاً كثيرة من السنين واستغرق معظم عصور ما قبل التأريخ. وعلى كل فلم تكن البيئة التي نشأت فيها الحضارة المصرية بيئة سهلة في مبدأ الأمر كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكن أصبحت مروّضة بعد أن عملت فيها يد الإنسان وجهوده.

ومن الأمور البارزة التي تفيدنا معرفتها في فهم بعض النواحي الخاصة من حضارة وادي النيل حالة آثارها الباقية. فكثيراً ما تُوصف هذه الحضارة بأنها حضارة الموت والموتى لأن معظم الآثار التي خلفتها لنا وكانت مصادر معرفتنا بها قد عثر عليها في القبور سواء ما كان منها القبور الملكية والمعابد الخاصة بها أو في قبور عامة الشعب. وثمة سبب مهم لبقاء آثار القبور وكثرتها

---

(1) حول مناخ مصر وحيواناتها ونباتاتها في عصور ما قبل التاريخ انظر:

Newberry, Egypt as a Field for Anthropological Research 1924; K.S. Sandford in AJSL. XLVIII (1932); 70.

عدا سبب اهتمام المصريين القدماء بالحياة الأخرى، ذلك هو أن البشر الذين استوطنوا وادي النيل الضيق قد اتخذوا حافة الصحراء لدفن موتاهم وإيداع ما يحتاجون إليه في العالم الآخر في قبورهم في حين أنهم اقتصروا في الأراضي الزراعية العزيزة على الزرع والسكنى فسلمت بذلك قبورهم والآثار التي أودعوها فيها بسبب جفاف حافة الصحراء، أما الآثار الأخرى التي يحتمل أنها تركت في بيوت السكنى فقد أصابها البلى بسبب عامل التربة، كما أن معظم آثار الحضارة المصرية قد جاءتنا من مصر العليا ذات الرمال الجافة المحافظة على الآثار، في حين أن آثار مصر السفلى (الدلتا) تكاد تكون معدومة ومصادر تأريخها مأخوذة من مصر العليا[1].

وإذا قارنّا بين بيئة وادي النيل وبين بيئة وادي الرافدين من ناحية توفر بعض المواد المهمة المستعملة في الحضارة ألفينا أن مصر كانت أحسن وضعاً في هذه الناحية ففيها الحجارة الفاخرة التي مكّنتها من إشادة مآثر مهمة من الحجر كالأهرام والمعابد والمنحوتات كما أن بعض المواد الأخرى كالأخشاب وجملة معادن مهمة مثل النحاس والذهب كانت في متناول يدها في الجهات القريبة مثل طور سيناء والحبشة والسودان ونوبية. هذا وقد سبق أن لاحظنا فقر القسم الجنوبي من العراق من ناحية مواد البناء الأولية، وهو القسم الذي تكوّنت فيه أولى حضارة ناضجة.

وسنذكر بعض الملاحظات المفيدة عن سكان وادي النيل مما سيعيننا على فهم أصلهم وعلاقتهم بأقوام الشرق الأدنى ونكتفي في هذه المقدمة الآن بالتنويه بأن سكان مصر هم بالدرجة الأولى من أصل أفريقي مثل الجماعات «السمر» التي تقطن القسم الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، وهم من الحاميين القريبين من الأقوام السامية، وتوجد عناصر أيضاً من الأقوام الجنوبية كالأحباش والزنج والنبط، والغالب عليهم بوجه عام عرق البحر المتوسط.

---

(1) J.A. Wilson, The Bruden of Egypt, 15-16.

وقد سبق أن نوّهنا في الجزء الأول من هذه البحوث في كلامنا على الساميين أن هجرة سامية مهمة قد دخلت مصر في الألف الرابع واختلطت بالسكان الأصليين وتكوّن من ذلك المصريون كما نعرفهم في التأريخ. كما يجدر التنويه بالشبه الكبير الموجود بين مجموعة اللغات السامية واللغات الحامية ولكن مع ذلك فإن اللغة المصرية القديمة لم تكن من اللغات السامية بل الرأي الراجح أن كتلة اللغات الحامية وكتلة اللغات السامية كانتا في أصلهما البعيد من عائلة لغوية واحدة، ولكن اللغة المصرية القديمة انفصلت عن كتلة اللغات السامية قبل تطور المجموعتين اللغويتين ونضجهما في الأدوار التأريخية. والذي يبدو أن اللغة المصرية القديمة قد تمّ نموها ونضجها «فتثبتت» في عهد قديم جداً ولكن اللغات السامية سارت في تطورها وتغيرها أكثر وأبعد مما طرأ على اللغة المصرية القديمة.

2 ـ مصادر معرفتنا بالحضارة المصرية وضبط أدوارها:

يرجع الفضل في معرفتنا بالحضارة المصرية القديمة التي ازدهرت في وادي النيل إلى التحريات والتنقيبات الآثارية التي قام بها العلماء في مواطن الحضارة في مصر منذ منتصف القرن الماضي. وقد سبق طور التنقيبات الآثارية، كما في العراق، طور تعرّف فيه الغرب على آثار مصر من السياح وهواة الآثار وسراقها، حيث انتقلت عنهم إلى الغرب مجموعات مهمة من آثار حضارة وادي النيل، ويمتد هذا العهد إلى أزمان طويلة إلى العهود اليونانية والرومانية، حيث جرى كثير من أباطرة الرومان على نقل المسلات الفرعونية إلى روما وغيرها من مدن إيطاليا. وقد صاحب التنقيبات عن الآثار المصرية واستخراجها البحوث العلمية الواسعة في درسها وفهمها، ومن ذلك الجهود العلمية التي بذلت في حلّ رموز الخط الهيروغليفي (وسنذكر كيفية ذلك في موضع آخر). ومما يقال في الآثار المصرية إن البحث فيها بدأ قبل البحث في آثار وادي الرافدين، فنشأت في مصر طرق البحث والتنقيب العلمية قبل مواطن الحضارات الأخرى في الشرق، وكان من أسباب ذلك طبيعة الآثار المصرية

نفسها من كونها بقيت معظمها سالمة محفوظة والكثير منها بقي شاخصاً يجلب إليه الأنظار كالمسلّات والأهرام ومعابد القبور الكبيرة، كما أنه كان لمناخ مصر الجاف دخل كبير في المحافظة على الآثار المطمورة مما جعل عمل المنقّبين مضموناً في عثورهم على الآثار القيمة. وقد سبق أن ألمحنا إلى أن البحث العلمي عن آثار الحضارات القديمة قد سبقه طور لم يعن فيه بطرق التنقيبات المنتظمة، وإنما كان الهم محصوراً في نبش القبور واستخراج الآثار قصد بيعها وتهريبها خارج مصر، فأوقع ذلك أضراراً جسيمة في تراث حضارة وادي النيل، ولكن الوطأة خفّت منذ أن تأسس المتحف المصري أولاً في «بولاق» (في ضواحي القاهرة) ثم في القاهرة عام 1858 فأخذت آثار مصر القديمة تودع في مواضعها اللائقة بها منذ ذلك الحين. ونذكر من أوائل الباحثين المؤسسين لعلم المصريات (البحث في الآثار المصرية) العالم الآثاري «شامبليون» الذي شرع في حلّ رموز الخط الهيروغليفي منذ عام 1821، ونذكر أيضاً المنقِّب الشهير «فلندرز بتري» الذي يعدّ مؤسس طريقة البحث العلمية ولا سيما من ناحية ضبط أدوار الآثار. وقد تتابعت بحوث العلماء الآخرين في الحقول والنواحي المختلفة من حضارة وادي النيل، ونخصّ منها ضبط تسلسل أدوارها وكتابتها ومعرفة أدوارها القديمة ولا سيما عصور ما قبل التأريخ فيها وأصولها وأسسها الممتدة إلى العصور الحجرية مما سنوجزه في الصفحات الآتية.

وقد ساعدتنا الوثائق المكتوبة التي خلّفها لنا المصريون القدماء على ضبط أدوار التأريخ في حضارة وادي النيل. وأشهر ما نذكر من هذه الوثائق التأريخية المدوّنة إثبات سلالات الملوك المصريين التي جمعها الكاهن المصري «مانيثو» حيث ألّفها باليونانية في عهد البطالمة (البطالسة) في مصر في القرن الثالث ق.م. (في عهد بطليموس فيلادلفوس). وجاءتنا أيضاً أجزاء من تواريخ ألّفها المصريون القدماء على هيئة أثبات ملوك وحوليات بأخبار الملوك ومن بين ذلك الوثيقة الشهيرة المعروفة باسم «بردية تورين» (نسبة إلى موضع حفظها في إيطاليا) التي ترجع في زمن تدوينها إلى حدود 1300 ق.م. وهي

تتضمن بحالتها الكاملة، أسماء نحو 300 ملك مع أطوال حكمهم بالسنين والأشهر والأيام، وجاءتنا أيضاً أثبات أخرى بأسماء الملوك من بينها وثيقة قديمة جداً منقوشة على الحجر وتعرف باسم حجر «بالرمو» حيث يرجع أصلها إلى حدود 2700 ق.م، هذا بالإضافة إلى حوليات الملوك المختلفة ونقوشهم التأريخية في جدران المعابد والقبور. وقد استطاع الباحثون بمثل هذه الوثائق وأشباهها من تعيين تأريخ الآثار المصرية وأدوارها منذ بداية الألف الثالث ق.م. فما بعد، أي منذ بداية العهد التأريخي الذي يبدأ بظهور المملكة المصرية التي وحّدها «منا» وهو الذي يعزى إليه تأسيس أول سلالة مصرية حكمت على القطر المصري. أما ما قبل هذا العهد أي عصور ما قبل التأريخ فقد استطاع العلماء من تعيين أزمانها بوجه التقريب من دراساتهم للآثار الممثلة للأدوار المختلفة ومضاهاتها مع غيرها من آثار الشرق الأدنى كما استعين مؤخراً بطريقة خاصة بالإشعاع الذري مما ذكرناه في مقدمة الجزء الأول، وهي الطريقة المعروفة باسم (C14)، ومما ساعدنا على ضبط الأدوار التأريخية طريقة التقويم المصري حيث ابتدعوا طريقة صحيحة موافقة للسنة الشمسية تقريباً (انظر بحث ذلك في موضع آخر)، كما أنهم ألفوا أيضاً أثباتاً بأسماء السنين بالنسبة إلى الحوادث المؤرخ بها، كما كان الحال عليه في العراق القديم.

لقد قسّم المؤرخ «منيثو» الذي ذكرناه سابقاً فراعنة مصر والسلالات التي حكمت منذ أول سلالة إلى نهاية التأريخ المصري إلى 31 سلالة وقد اتبع تقسيمه جميع الباحثين المحدثين ولكن لما كانت نهاية كل سلالة لا تتميز على الدوام بتغييرات سياسية بارزة وبتطورات حضارية أو فنية مميزة فقد ارتأى الباحثون في التأريخ المصري تقسيم تأريخ مصر القديم إلى ثلاثة عصور كبرى تتميز بأكثر من وجه واحد من النواحي السياسية والفنية والاجتماعية، والمتّفق عليه أن هناك ثلاثة عصور كبرى رئيسية مع فترات اضطراب سياسي تفصل ما بين بعضها، وهي عصر المملكة القديمة وعصر المملكة الوسطى وعصر المملكة الحديثة (ويشمل هذا العهد الأمبراطورية

المصرية) وإذا أدمجنا مع هذه العصور التأريخية عصور ما قبل التأريخ فتحصل لدينا الأدوار المميزة لتأريخ مصر القديمة منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ على الوجه الآتي:

أولاً ـ عصور ما قبل التأريخ:

1 ـ العصور الحجرية القديمة: وادي حلفا، العباسية، السبيل.

ب ـ العصر الحجري الحديث (المتأخر) ـ «طاسة»، «الفيوم»، «مرمدة».

ج ـ العصر الحجري المعدني: «البداري»، «الأماري»، (نقادة الأولى) «الجرزي» (نقادة الثانية).

ثانياً: عصر المملكة القديمة:

أ ـ بداية السلالات (3100 ـ 2780 ق.م) السلالة الأولى والسلالة الثانية.

ب ـ عصر الأهرام (2780 ـ 2270 ق.م) (السلالات من الثالثة إلى السادسة).

ثالثاً: عصر النبلاء وأمراء الإقطاع (الفترة المظلمة الأولى) (2270 ـ 2100 ق.م)

ويشمل السلالات من السابعة إلى العاشرة.

رابعاً: عصر المملكة الوسطى (2100 ـ 1788 ق.م)

ويشمل السلالتين الحادية عشرة والثانية عشرة.

خامساً: عصر الهكسوس (الفترة المظلمة الثانية) (1788 ـ 1573 ق.م).

ويشمل السلالات الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة.

سادساً: عصر المملكة الحديثة (عهد الأمبراطورية) (1573 ـ 1085 ق.م)

ويشمل السلالة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والسلالة العشرين.

سابعاً: عصر المملكة الأخيرة (عهد الضعف والتدهور) (1090 ـ 663 ق.م)

ويشمل السلالات الحادية والعشرين والثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين والخامسة والعشرين.

ثامناً: فترة انتعاش (663 ـ 525 ق.م).

ويشمل السلالة السادسة والعشرين.

تاسعاً: العهد الفارسي الإخميني (525 ـ 332 ق.م)

من عهد قمبيز إلى دارا الثالث (ويشمل السلالات السابعة والعشرين إلى الواحدة والثلاثين).

عاشراً: الإغريق والعهد الهلنستي (البطالسة) (332 ـ 30 ق.م).

أحد عشر: العهد الروماني 30 ق.م. ـ 639 ب.م (الفتح العربي).

٣ ــ العصور الحجرية

العصر الحجري القديم:

تمتد بداية القصة عن حضارة وادي النيل إلى فجر الحياة البشرية في هذه الكرة الأرضية حيث بدأ استيطان الإنسان الأول في وادي النيل منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ، أي العصور التي أطلقنا عليها اسم العصور الحجرية القديمة. فبعد تكوين نهر النيل في الدهور الجيولوجية البعيدة واتخاذه شكله الحالي في العهد الجيولوجي المسمى «بليوسين» (Pliocene) كانت الأحوال المناخية تختلف تمام الاختلاف عمّا هي عليه الآن، فقد كانت أفريقيا ومعظم

أجزاء الشرق الأدنى القاحلة الآن تتمتع بأمطار كثيرة غزيرة وكانت العصور الممطرة (Pluvial Period) تحلّ إبان العصور الجليدية في أوروبا، أما في الفترات الجليدية فكانت تحدث أزمان جفاف. وكانت حياة الحيوان والنبات مزدهرة في شمالي أفريقيا وفي منطقة الصحارى وقد وجدت آثار الإنسان الصياد هنا، وكثيراً ما كان الصيادون يترددون على النجاد المرتفعة في وادي النيل وقد وجدت آثارهم في شرفات نهر النيل. وتمثل لنا هذه الشرفات أي الشطآن (Terraces) العصور الممطرة وعصور الجفاف التي ذكرناها، إذ هي عبارة عن شطآن النيل القديمة متسلسلة من الأعلى وتقلّصت بالتدريج إلى عقيق النهر الحالي[1]، وقد درست هذه الشطآن المختلفة من الناحية الجيولوجية والأثرية فوجد للنيل ثمانية شطآن قديمة تبتدىء من مرتفعات حجارة الكلس العالية إلى عقيق النهر الحالي، هذا ولم يجد المتحرون في الشطآن الأربعة الأولى آثاراً لاستيطان الإنسان إلّا في الشاطىء الخامس (الشرفة الخامسة) وتمثل لنا هذه المرحلة بداية قصة الإنسان في وادي النيل من أول أطوار العصر الحجري القديم حيث وجدت أدوات الحجارة كالفؤوس اليدوية من الدور المعروف باسم الدور «الشيلي»[2] وقد خلف لنا الإنسان بعض عظامه وهكذا تستمر آثار الإنسان في الشواطىء التالية، حيث نجد في الشاطىء السادس أدوات الحجارة الشبيهة بأدوات الحجر من العهد الآشولي في أوروبا، وفي الشاطئين التاليين وجدت آثار من العصر الحجري القديم أحدث

---

(1) إن هذه الظاهرة قد لوحظت في جملة أنهار، وتختلف عدد الشرفات باختلاف الأنهار، وإذا كان العدد المطّرد يلزم أن يكون أربع شرفات تطابق العصور الجليدية الأربعة في أوروبا فإن لبعض الأنهار شرفات ثانوية تمثل أدواراً ممطرة ثانوية وعهود جفاف ثانوية. هذا ولم تدرس وديان الأنهار في العراق دراسة جيولوجية وافية من هذه الناحية وإذا كانت قد درست دراسة خاصة إلا أنه لم ينشر شيء عن نتائج هذه الدراسة، ولكن المشاهدات الشخصية واتصالاتي الشخصية ببعض الجيولوجيين الأجانب أوقفتني على وجود مثل هذه الشرفات في وادي دجلة والزاب الأعلى والأسفل والفرات في سوريا، ويبلغ معدل هذه الشرفات الرئيسية أربعة.

(2) انظر الجزء الأول حول الأدوار الخاصة بالعصر الحجري القديم.

عهداً شبيهة بما يُعرف في أوروبا باسم الدور «اللفالوازي» (Levalloisian) والمستيري (Mousterian) ومن بعد هذا الدور يأتي عقيق النيل الحالي[1]. ووجدت حديثاً أدوات وآلات حجرية من الصنف الثاني من العصر الحجري القديم في موضع يُسمّى «سبيل» شمال جبل سلسلة بقليل وكذلك قرب الفيوم[2]. ومما يقال عن العصور الحجرية القديمة في وادي النيل إن آثارها وأدوارها معروفة معرفة أكثر مما عليه الحال في العراق القديم، لكثرة التحريات والبحوث التي تمّت في هذا الباب. هذا وقد سبق أن قلنا إن شمالي أفريقيا وجنوبي غربي آسيا (مثل بلاد سورية وكردستان) كانت في العصور الجليدية في أوروبا تتمتع بخصب ووفرة أمطار مما جعلها مكتظة بالنبات والحيوان والإنسان، حيث وجدت آثار إنسان العصر الحجري القديم مما تضاهي الأدوات المستيرية في أوروبا، ولكنها أحسن منها صنعاً، وقد قرنت هذه الأدوات ولا سيما في مراكش[3] وأفريقيا الشمالية مع نوع من الإنسان يعود إلى نوع النياندرتال، وبالنظر لوجود أدوات العصر الحجري القديم من النصف الثاني منه في مصر وإلى شمالي أفريقيا فيستنتج من ذلك وجود نوع الإنسان الحديث أيضاً.

---

(1) لقد قام بهذا التحريات المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو (1929 ـ 1930) وكذلك قام بتحريات أخرى عن آثار العصر الحجري القديم انظر:

(1) K.S. Sandford in AJSL. LVIII (1932), 170 ff.

(2).., Palacolithic Man and the Nile Valley in Upper and Middles Egypt (Oriental Institute Publications, vol. XVIII).

(2) انظر:

Vignard, in Bullt. Inst. Franc. Caire, XXII; Huzayyin in AJA (American Journal of Archeology), LI (1947).

(3) انظر:

(1) Childe, New Light on the Most Ancient East (1952) 16 ff.

(2) Howe and movius, «A stone Age Cave Site in Tangier» Peabody Museum Papers, XXVIII, (1947).

العصر الحجري الحديث:

لقد سبق أن نوّهنا بحدوث عهد الجفاف في نهاية العصر الحجري القديم في المناطق التي كانت مأهولة بالحيوان والنبات في البوادي المجاورة للنيل، كما ذكرنا تردد صيادي العصر الحجري القديم على شطآن وادي النيل، ولما ازداد الجفاف في أفريقيا وفي وادي النيل[1] التجأت جماعات أخرى من أهل العصر الحجري القديم إلى ضفاف النيل ذات المياه الدائمة وإلى الواحات القريبة فتحفّز الإنسان في هذه الأحوال الجديدة على الانتقال من طور الصيد وجمع القوت إلى طور الفلح والزراعة وتدجين الحيوان أي انتقل إلى الطور الذي دعوناه باسم «إنتاج القوت». وكانت الأحوال مؤاتية لحدوث ذلك الانقلاب الخطير في حياة سكان وادي النيل الأقدمين، فإلى عامل تحدي الجفاف وتحفيزه الإنسان على حلّ الأزمة الراهنة، فقد كانت تنبت في حدود الوادي الأعشاب الكثيرة البرية، ولا سيما الحنطة البرية والشعير البري، يُضاف إلى ذلك خصب الوادي وانتظام فيضان النيل.

لقد أسفرت التحريات الآثارية في مواطن الإنسان في هذا العهد عن اكتشاف جملة مواضع في وادي النيل تمثّل أطوار العصر الحجري الحديث مما تمثل لنا أدوار التدرج والتقدم إلى عهد الحضارة فمن هذه المواضع الممثلة لمرحلة انتقال الإنسان إلى عهد الزراعة الموضع المعروف باسم «طاسة» (أو دير طاسة) القريب من «بداري» ومن ضفة النيل الشرقية[2] حيث ثبت أن المستوطنين في هذا الموضع عرفوا زراعة الحنطة والشعير، كما وجدت حبوبهما في بيوت مستوطنهم، كما أنهم استعملوا رحى الحجر البسيطة لطحنها. هذا ولا يعلم بوجه التأكيد كيف كانوا يروون مزارعهم أمن نهر النيل أم من وديان الأنهار الصابّة فيه، كما لا يعرف أيضاً هل عرفوا تدجين الحيوان

(1) انظر:

S.A. Huzzain, The Place of Egypt in Prehistory, 1941.

(2) Brunton, Mostagedda, (1937), 26 ff.

بمقياس واسع، ولكن وجدت في مقارهم عظام غنم ومعز. والذي لا شك فيه أن هؤلاء الفلاحين القدامى لم تكن زراعتهم بمقياس واسع وإنما كما ذكرنا كانوا ينتجون قوتهم فقط، كما لم يوطد استقرارهم واستيطانهم كما يشير إلى ذلك تبعثر القبور. وقد بقي صيد الحيوان والسمك قوتاً أساسياً عند هؤلاء «الطاسيين». ومن عدّتهم أنهم عرفوا صنع أواني الفخار، ولكنها كانت خشنة الصنع ساذجة، وقد وجدت آثار ضئيلة من نسيج الكتان، ولكننا لا نعرف هيئة لباسهم، وقد استعملوا الخرز والمحار والصدف للزينة.

ومن المستوطنات الممثلة للعصر الحجري الحديث في وادي النيل مستوطن وجد في الفيوم[1] الممتد على طول حافة البحيرة الجافة المعروفة باسم الفيوم التي كانت تملؤها المياه فيما مضى. وقد ثبت أن أهل هذا المستوطن زرعوا الحبوب بصورة أكثر انتظاماً من أهل المستوطن الأول، وزرعوا القنّب، وكانوا يحصدون غلّتهم بمناجل مصنوعة من الصوان المسنن المثبتة بالخشب ويخزنونها في حفر في الأرض، كما استعملوا الرحى لطحن الحبوب، ودجنوا جملة حيوانات منها الخنزير والماشية والغنم والماعز، وظلّوا يمارسون صيد الحيوان والسمك، واستعملوا القوس والسهم والفؤوس الحجرية، واستمروا على صناعة أواني الفخار كما في العهد السابق، واستعملوا الخرز والصدف والمحار زينة وحلية، وقد جلبوا المحار من سواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط.

ووجد طور ثالث من طور العصر الحجري المتأخر أطلق عليه اسم «مرمدة» في الحافة الغربية من الدلتا[2]، ويشغل هذا المستوطن طنفاً رملياً يبعد الآن كيلومترين غربي فرع رشيد ومساحته نحو (400×100 م)، وقد وجدت

---

(1) Cahoh-Thompson, The Desert Fayum (London, 1934); Childe, op. cit., p.35 ff.

(2) لقد حفرت هذا الموضع بعثة آثار نمساوية. انظر التقارير المنشورة في:

Anzeigerd. Akad. d. Wiss. Wien, Phil. -hist. (1929-1940)

المشار إليها: Childe, op. Cit., p.36.

فيه آثار أكواخ من الطين والحصر، وقد تحسن بناؤها بمرور الأزمان ولا سيما تحسّن بناء جدرانها من الطين السميك، وقد استمرّت عدة العهدين السابقين كزراعة الحبوب وطريقة حصدها بمناجل الصوان، واستمرّت نفس الحيوانات في الاستعمال وصيدها بالقوس والسهم، وتحسّنت صناعة الفخار نوعاً ما، حيث لوّنت بألوان حمر وسود، ووجدت مغازل تدلّ على الحياكة، واستمر سكان هذا الموضع على استعمال الزينة وأضافوا إليها حلية متّخذة من العاج ومن عظام ناب الخنزير. وقد وجدت القبور في داخل بيوت السكنى ولكن لم توجد في داخلها الأدوات العائدة إلى الأموات وقد فسّر ذلك بأن أشباح الموتى كان باستطاعتها التزوّد من زاد الأحياء على عكس ما إذا كانت القبور خارج بيوت السكنى. وقد وجد المنقّبون حديثاً موضعاً رابعاً يمثّل طوراً رابعاً أيضاً من العصر الحديث في وادي النيل حيث عُثر على قرية من قرى هذا العصر قرب حلوان في موضع يدعى «العوماري»[1] الذي يقع بنحو 7 كيلومترات من ضفة النيل الشرقية، ويشبه في عدّته ما وجد في «مرمدة». ومما يقال في العصر الحجري الحديث في وادي النيل إن أطواره وآثاره غير مستمرة في مصر السفلى، بخلاف ما عليه الحال في مصر الوسطى والعليا حيث الأطوار الآثارية مستمرة من الدور «الطاسي» فيما بعد، واستمرّت إلى الأطوار التي سنذكرها تحت أطوار العصر الحجري المعدني.

العصر الحجري المعدني:

لقد سبق أن ذكرنا[2] أهم خصائص هذا العهد الذي اصطلحنا على تسميته أيضاً باسم فجر الحضارة لأنه كان مقدمة تمهيدية لظهور الحضارة الناضجة، كما نوّهنا بتشابه أطواره في مراكز الحضارات القديمة، وأهم ما في

---

(1) عثر على هذا الطور في عام 1942 انظر:
Annals du service des Antiquités de l'Egypt (Cairo, 1948).

(2) انظر الميزات العامة لهذا العهد الحضاري في الفصل الثالث من الجزء الأول.

ذلك توطد الحياة المستقرة واتساع الزراعة والقرى ومعرفة التعدين وصنع الأدوات المعدنية ولا سيما النحاس، وظهور طلائع الدويلات والوحدات السياسية في دول المدن التي اتحدّت بعدئذ وكوّنت مملكة القطر في العهود التالية.

وقد وجد المنقّبون في وادي النيل آثار قرى متعددة تمثل أدوار هذا العهد حيث يميز كل دور بآثاره الممثلة وأشكال أوانيه الفخارية وأطرزة زخرفتها وقد سُمِّيت هذه الأدوار كما في العراق بالأسماء الحديثة للمواضع التي نقب فيها أول مرة ووجدت فيها الآثار المميزة لكل دور.

فيعرف أقدم أدوار هذا العهد باسم الطور «البداري» لأن آثاره[1] وجدت لأول مرة في مواضع ومقابر قرب الموضع المسمى «بداري» في مصر الوسطى، ويمكن اعتبار هذا الدور تطوراً من العهد الحجري الحديث ولا سيما الطور «الطاسي» ووجدت آثاره أيضاً منتشرة في بقاع متعددة من مصر العليا. ونذكر أبرز ما يميِّز هذا الدور تاركين التفصيلات الفنية، فأول ما يجلب انتباه الدارس لآثاره كثرة المواد المستوردة بالتجارة الخارجية ولا سيما من جهات طور سيناء ونوبية ولعله من سوريا. ونجد لأول مرة أيضاً أن سكان وادي النيل عرفوا معدن النحاس ولكنها كانت معرفة بدائية أولية. وتشير نماذج القوارب المصغرة من الفخار إلى معرفة بالملاحة. ونلاحظ أيضاً تقدماً محسوساً في صناعة الأواني الفخارية ولا سيما الأواني المودعة في القبور مع الموتى، كما أنهم بدأوا يزوّقون هذه الأواني وينقشونها، وصنعوا من العاج ومن الطين المطبوخ دمى طين تمثل نساء يرجّح أنها نوع من آلهات مما يعرف بالآلهة ـ الأم.

لقد أعقب الدور البداري أدوار أخرى من العصر الحجري المعدني دعيت بالترتيب الآتي «الأماري» و«الجرزي» (وقد سميا أيضاً بأسم دور «نقادة»

---

(1) Brunton G.C. Thompson, **The Badarian Civilization** (1928); Childe, **Op. Cit.**, 42 ff.

الأول والثاني)[1]. والمرجّح أن الدور «الأماري» الذي وجد ممثلاً في مواضع في مصر العليا قد تطور عن الطور السابق «البداري» كما أن سكان وادي النيل في هذا العهد قد بدأوا في زراعة الري المنتظمة في وادي النيل وتركوا زراعة وديان الصحراء، وبعبارة أخرى اتّسعت الزراعة في هذا العهد مما أدّى إلى اتساع المستوطنات وتكاثر السكان، كما أن القرى أخذت تصبح مدناً صغيرة مسوّرة. ويرى كثير من الباحثين أن هذه القرى اتخذت نظام الطوطمية حيث كان لكل قبيلة أو قرية حيوانها المتّخذ طوطماً، وقد وجدت بعض الحيوانات منقوشة على أواني الفخار مثل التمساح والعقرب وحيوانات أخرى وقد فسرت بأنها تشير إلى نظام «الطوطم»[2] كما يلاحظ التخصص واتساع التجارة أيضاً، وعرفت صناعة السفن من البردي. اعتنى الناس في رسوم الدفن مما يدل على تبلور المعتقدات الدينية حيث جهّزت القبور بالأثاث وبالأدوات الضرورية. وتنوّعت زخرفة الأواني الفخارية واستعمل الحجر لنحت الأوعية، واستمرّ الناس في تفننهم بالزينة ولا سيما استعمال «كحل» العيون، ومارسوا الوشم، والقلائد من قشور بيض النعام وحجر العقيق والحجر الأخضر[3].

ومما يقال عن الطور «الجرزي» أنه تمّ فيه تقدم أساسي في الحياة الاقتصادية، حيث انتشرت المخترعات الصناعية واتّسعت التجارة الخارجية والاتصالات الثقافية التي سنذكرها فيما بعد. وإذا كان الطور الأماري السابق يتميز بالإنتاج الخليط من الزراعة والصيد (جمع القوت) فقد أصبحت الزراعة

---

(1) لقد وضع الباحثون دوراً ثالثاً يعقب الدور الجرزي سموه باسم الطور السميني (Semainian) ودعوه باسم دور نقادة الثالث ولكن البحث الحديث أبان بأنه لا مجال لإضافة هذا العهد الجديد من الناحية الأثرية. انظر:

Helen J. Kantor, «Gerzean or Semainian» in JNES. III (1944), 110 ff.; Childe, Op. Cit., 99.

كما وجد موضع آخر جنوبي القاهرة بقليل يدعى «معادي» لا يعلم مكان دوره بالنسبة إلى الدور الجرزي في مصر العليا ولعله يضاهيه في الزمن ويعقبه قليلاً (Childe, Op. Cit., 75).

(2) انظر تعريف الطوطم في الجزء الأول.

(3) انظر: Childe, Op. Cit., 50 ff.

في العهد الجرزي أساس الحياة الاقتصادية لجماهير الفلاحين، كما أنها استندت إلى الإرواء، وتحسّن بناء بيوت السكنى، وظهرت في هذا العهد على أسس القرى السابقة المدن الصغيرة مثل «نقادة» و«هيراكو نبوليس»، كما أن استعمال النحاس بكثرة استلزم استمرار الاتصال بمصادر خامه في الصحراء الشرقية وفي سيناء، وإلى جانب السفن استعملوا بعض الحيوانات للحمل كالحمير بوجه خاص. وقد ازداد استغلال وادي النيل من ناحية إمكانياته الاقتصادية، كما كثرت الحاصلات الزراعية فوق حاجة الفلاحين الاستهلاكية لإعالة طبقات الصنّاع وأهل الاختصاص والتجّار، وقد أدّى كل ذلك إلى ازدياد الثروة، كما يتّضح ذلك من بقايا هذا العهد ولا سيما ما وجد في المقابر. ومن الأمور المهمة التي يجدر ذكرها عن أواخر العصر الحجري المعدني ظهور المدن وأوائل الحكّام في كل من مصر العليا والسفلى وكانوا يحكمون في دويلات وإمارات مستقلة بعضها عن بعض، وظهرت طلائع الكتابة الهيروغليفية الصورية التي استعملت لتدوين الشؤون الملكية بوجه خاص في عهد السلالة الأولى التي تبدأ بقيام العصور التأريخية وظهور الحضارة الناضجة.

وقبل أن نترك الكلام على أواخر العصر الحجري المعدني نذكر ما أسفر عنه البحث الحديث من وجود صلات حضارية بين مصر وبين مواطن الحضارات الأخرى في الشرق الأدنى وبوجه خاص صلاتها مع حضارة وادي الرافدين في العهد الجرزي وفي عهد السلالات الأولى.

لقد تناول الباحثون المختصّون العلاقات الثقافية بين مصر والعراق في أزمان تكوين حضارتيهما وكتبوا في ذلك بحوثاً مسهبة[1]. وموجز القول في

---

(1) انظر المراجع الأساسية الآتية:

(1) H.J. Kantor, «Further Evidence for Early Mesopotamian Relation with Egypt» in JNES, XI, (1952), 239 ff.

= (2) Frankfort in AJSL. LVIII (1941), 354 ff.; The Birth of Civilization in the Near East (1951).

هذه الصلات أنه لم يجد الباحثون من حضارة وادي الرافدين ما يمكن أن يكون من أصل مصري، ولكنهم وجدوا في حضارة مصر وبوجه خاص من العهد الجرزي وعهد السلالات الأولى جملة عناصر حضارية خاصة بحضارة وادي الرافدين، وبالنسبة إلى العهود التي درسناها في حضارة وادي الرافدين يرجع زمن هذه التأثيرات إلى العهد الذي سمّيناه بالعهد الشبيه بالكتابي أو التأريخي (طوري الوركاء وجمدة نصر)، حيث انتشرت التأثيرات الحضارية من وادي الرافدين في معظم أجزاء الشرق الأدنى، وقد وجد أن معظم هذه العناصر المقتبسة من حضارة وادي الرافدين كان وجودها مؤقتاً غير دائمي في حضارة مصر[1] باستثناء عنصرين تمثلتهما هذه الحضارة وهما طراز خاص في

=

(3) Scharff in Der Alte Orient, XLI (1941).

(4) J.A. Wilson, The Burden of Egypt (1950).

(5) Childe, New Light on the Most Ancient East (1952), 66, 72 - 73, 79, 100.

(1) وإذا كان خارج نطاق هذا الكتاب البحث في هذه العناصر الحضارية المقتبسة فإننا نكتفي في تعدادها ففي العهد «الجرزي» نفسه نجد العناصر الثقافية الآتية المماثلة لما في حضارة وادي الرافدين.

(1) طراز خاص في الأواني.

(2) الخواتم الأسطوانية وإلى ذلك أضيفت في أواخر العهد الجرزي وفي بداية عهد السلالات العناصر الآتية:

(3) نوع من السفن الأجنبية عن حضارة وادي النيل.

(4) طراز لباس الأبطال المصورين على الآثار.

(5) نوع من الكلاب.

(6) استعمال رؤوس الدبابيس الحجر الخاصة بحضارة وادي الرافدين (Mace - Heads).

(7) أطرزة فنية خاصة في تمثيل الأشخاص والحيوانات وكيفية جمعها (كما يتجلى ذلك في الأثر المشهور المسمى بسكين جبل العرق). وفي عهد السلالة الأولى نجد التأثيرات واضحة في:

(8) طراز العمارة في أبنية الآجر مما أشرنا إليه في المتن ويتّضح ذلك جلياً في المصاطب التي كانت قبور ملوك السلالة الأولى.

(9) حملة أشكال خاصة من أواني الفخار.

(10) استعمال العلامات الكتابية الصورية استعمالاً صوتياً.

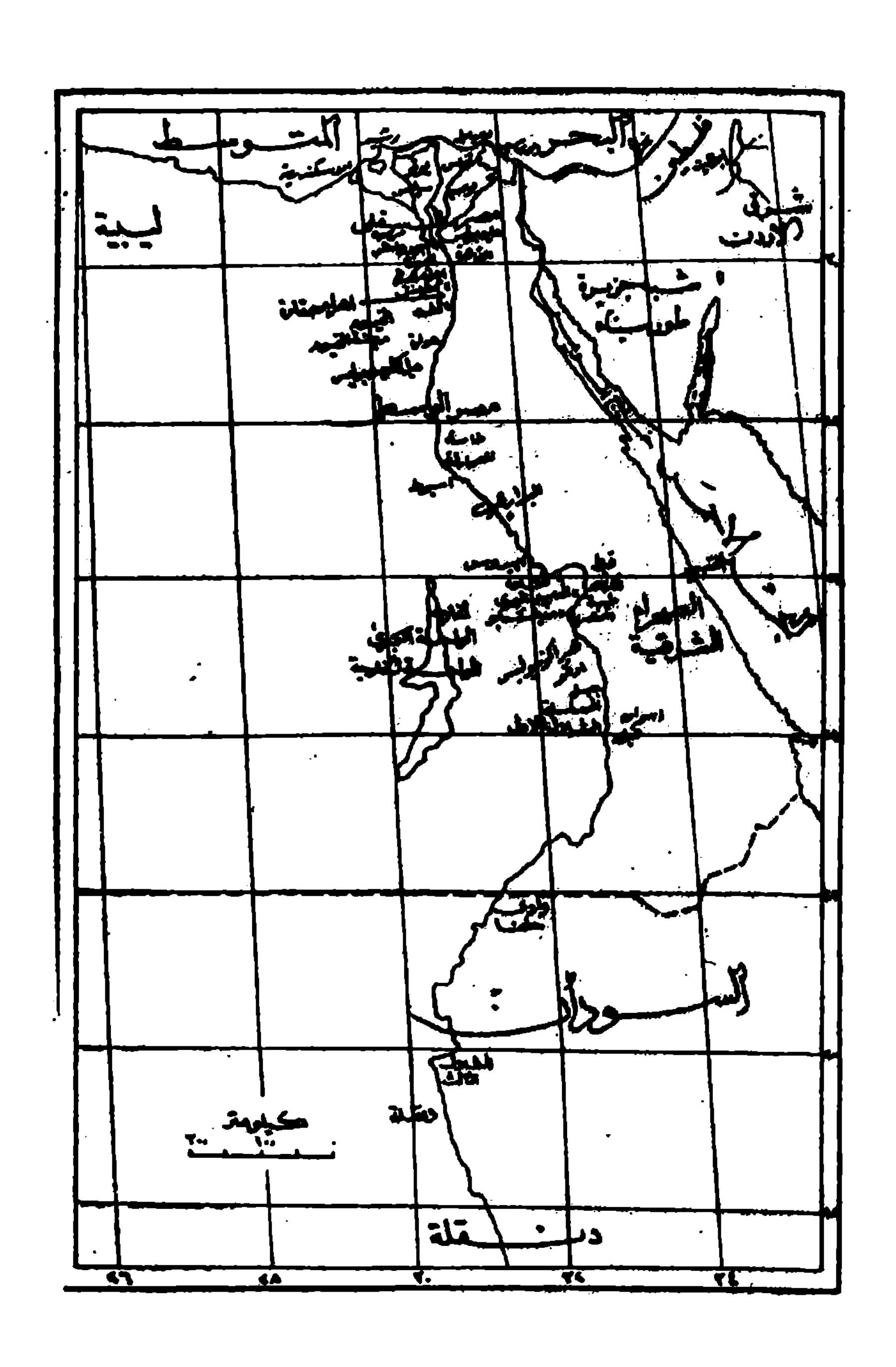
=

فن العمارة يمتاز بالحزوز في الجدران على هيئة طلعات ودخلات وهو طراز خاص بعمارة وادي الرافدين القديمة، والعنصر الآخر استعمال الأختام الأسطوانية التي كانت تستورد في مبدأ الأمر من العراق ولكن أخذ المصريون القدماء يصنعونها في الفترة التي أعقبت عصر المملكة القديمة على الرغم من أن الخواتم التي بهيئة «الجعلان» (Scarab) أصبحت في عهد المملكة الوسطى النوع الشائع المألوف من الخواتم الأسطوانية، وهناك عنصر ثالث يحتمل أنه ظلّ جزءاً مهماً في حضارة وادي النيل، ذلك هو احتمال تأثر المصريين القدماء في الخط المسماري الصوري وأخذهم منه الحافز على إيجاد خطهم الهيروغليفي الخاص. أما كيفية انتشار هذه العناصر وهل حصلت بالتجارة والاتصال المباشر أو بالغزو فلا نعلم بوجه التأكيد.

= انظر حول ذلك بوجه خاص:

(1) Childe, **Op. Cit.,** 100 - 101.

(2) Frankfort, **The Birth of Civilization,** p.109.


البحر المتوسط
ليبية
شرق الأردن
شبه جزيرة طور سيناء
الصحراء الشرقية
السودان
دنقلة
كيلومتر
٢٠٠
١٠٠
٢٦
٢٨
٣٠
٣٢
٣٤



نموذج من الكتابة المصرية في طورها الصوري الرمزي. حيث يرمز الصقر إلى الملك ساحباً رأس إنسان بحبل وتوجد خلف رأسه ست ورقات من «اللوتس» تقوم كل ورقة منها برقم 1000. ويوجد تحت الصورة شكل مستطيل فوقه آلة الخطاف أو الحربة ومعنى الصورة بأكملها «أن الملك الصقر قد أسر 6000 رجل من أرض بحيرة الخطاف أو الحربة».

الفصل الحادي والعشرون

المملكة القديمة وعصر الأهرام

بداية عهد السلالات:

لقد سبق أن نوّهنا بتقسيم تأريخ وادي النيل منذ ظهور أولى السلالات الحاكمة إلى عصور كبرى أو أدوار رئيسية أقدمها يعرف باسم عصر المملكة القديمة الذي يقسم بدوره إلى عهدين يطلق على أولهما وأقدمهما اسم بداية السلالات الذي يتضمن بوجه عام السلالة الأولى والثانية ومن الباحثين من يدرج السلالة الثالثة في هذا الطور أيضاً. أما الطور الثاني من عهد المملكة القديمة فيطلق عليه اسم عصر الأهرام (2780 ـ 2270 ق.م) ويشمل السلالات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، إذا لم تلحق السلالة الثالثة بالطور الأول (أي طور بداية السلالات). وسنوجز الكلام على خصائص كل من هذين العهدين المهمين في تأريخ حضارة وادي النيل.

وقبل أن نذكر ما نعرفه عن أولى السلالات الحاكمة التي تمّ في عهدها أول توحيد لمصر في مملكة واحدة نقول شيئاً موجزاً عمّا نعرفه عن الأحوال السياسية في وادي النيل قبيل توحيد المملكة المصرية الذي تعزوه المآثر إلى السلالة الأولى، وبوجه خاص إلى مؤسسها «منا» المأثور.

فقبل أن يتمّ هذا التوحيد المأثور بدأت الحياة السياسية في مصر في فجر التأريخ بهيئة إمارات ودويلات مدن كثيرة منتشرة في كل من مصر العليا والسفلى. وقد عرفت هذه الأجزاء السياسية في العصور التالية باسم الولايات أو الأقاليم أو بالمصطلح اليوناني «نومي أو نوموس» (nome, nomus). هذا ولا

يعلم عدد هذه الوحدات الإقليمية قبل أن يوحد «منا» القطر في مملكة واحدة، ولكن الظاهر أن عددها عندما وحّد البلاد كان نحو 42 «نوما» (22 واحداً منها في مصر العليا، و20 في مصر السفلى)، وكان لكل ولاية ديانتها الخاصة وإلهها أو آلهتها الخاصة ورمزها الديني السياسي. ومما لا شك فيه أن تكون تلك الولايات أو الدويلات في حروب بعضها مع بعض للسيطرة، وظلت كذلك حتى تقلص عدد الولايات الحاكمة بالفتح والضم وصارت قبيل السلالة الأولى مملكتين منفصلتين، مملكة جنوبية في مصر العليا تمتد من أسوان إلى قرب «منفس»، والثانية تشمل باقي مصر في مصر السفلى (أي المملكة الشمالية) وبضمن ذلك الدلتا وكانت عاصمة مصر العليا، أي عاصمة المملكة الجنوبية، في الموضع المسمى «هيراكو نبوليس» (واسمها المصري القديم «نخين» أو نخيت). وعاصمة مملكة الشمال (المملكة السفلى) في المدينة المسماة «بوتو» في الدلتا. وقد وردت أسماء جملة ملوك من مملكة الشمال في المسلة المعروفة باسم مسلة «بالرمو»، والظاهر أن سكّان هذه المملكة من الساميين والليبيين كما يرجّح أن تكون أكثر تقدماً في الحضارة من مملكة الجنوب وكان رمز مملكة الشمال «الحية» ورمز مملكة الجنوب «النحلة» وعندما تمّ توحيد هاتين المملكتين في مملكة واحدة اتّخذ أول ملك لقبي المملكتين واتّحد رمزاهما أيضاً.

السلالة الأولى:

وبعد أزمان لا يعلم طولها ظهر ملك قوي من مملكة الجنوب ونجح في ضم مملكة الشمال وتوحيد المملكتين في مملكة متحدة لقب ملوكها أنفسهم بملك «مصر العليا والسفلى». وتنسب المآثر هذا التوحيد السياسي إلى أول ملك من السلالة الأولى الذي سمي «منا» (وبالصيغة اليونانية منيس)، والواقع التأريخي عن هذا الملك غير معروف، ولكنه يبدو أنه كان شخصية مركبة يدخل فيها لا أقل من ثلاثة ملوك وهم الملك الملقّب بالعقرب والملك نارمر و«عجا» (أي المحارب) الذين تمّ في عهد حكمهم غزو الشمال وضمّه إلى

مملكة الجنوب ولا يعلم من منهم «منا» المخصوص، وقد ذكرت أثبات سلالات الملوك أسماء ملوك آخرين لهذه السلالة ووجدت لبعضهم آثار خاصة وقبورهم الخاصة، نذكر من هذه بوجه خاص اللوح الخاص بالملك «نارمر» (نعرمر)[1].

وتروي المآثر المصرية المتأخرة أيضاً أن مدينة «منفس» قد بُنيت في موضع استحصله من النيل الملك «منا» مؤسسة السلالة الأولى المأثور بسده النيل وتحويل مجراه الأصلي إلى الشرق. ومهما كانت صحة تفاصيل هذه المآثر فالذي لا شك فيه أن أحد ملوك السلالة الأولى الملقّب بلقب «منا» (أو مني أي الثابت) هو الذي أسس «منفس» لأن الآثار الخاصة بالسلالة الأولى تكثر في جوار المدينة ولم يعثر بعد على آثار مما قبل ذلك العهد[2]، هذا لا يعلم بوجه التأكيد هل اختار مؤسس «منفس» هذه المدينة لتكون عاصمة المملكة الموحدة أو أنها اختيرت لتكون مجرّد حصن بالنظر لموقعها المسيطر على المملكتين ثم صارت عاصمة البلاد للسبب المذكور أي بالنظر إلى موقعها الجغرافي حيث تقع تقريباً في الحد الفاصل بين مصر العليا والسفلى، وكان هذا في الواقع اختياراً موفقاً لتوطيد الاتحاد السياسي المنجز حديثاً ولسهولة إدارة المملكتين. ولكن مع هذا التوحيد واستمراره في عهد السلالات القوية إلا أن حقيقة أن مصر كانت مقسمة إلى جزأين أو مملكتين متميزتين لم تختف من الوجود في العهود التالية، حتى أنه كان من الألقاب الرسمية المهمة للفراعنة لقب ملك «مصر السفلى والعليا». ومع أننا نجهل أساليب الإدارة التي اتبعها ملوك السلالة الأولى في إدارة المملكة إلا أن المرجّح كثيراً أنهم اتبعوا الإدارة المركزية والسلطة المطلقة. وقد وجد في التنقيبات التي أُجريت حديثاً في المقابر الكائنة في صقارة عدد كبير من قبور الموظفين والحجاب والتابعين لبلاط الملك في عهد السلالتين الأوليين، مما يشير إلى أن الفرعون كان يتبعه

---

(1) انظر: **The British Museum Guide,** (1930), 279 ff.

(2) انظر: Edwards, **The Pyramids of Egypt,** 17 ff.

ويساعده في حكومته المركزية عدد كبير من الموظفين المربوطين بالبلاط. ومع أن الأقاليم السابقة (النومات) قد توحّدت الآن في حكومة مركزية إلا أن ملوك هذه السلالة قد سمحوا لها بالمحافظة على كياناتها، ولكنهم عيّنوا حكّاماً يديرونها من قبلهم، وكان مثل هؤلاء يحكمون بالتعيين وظل الحال في عهد السلالات التالية، ولكن وظيفتهم صارت بالتدريج وراثية خاصة بأسر معينة، وهكذا نشأت في مصر القديمة منذ فجر التأريخ طبقة خاصة من حكّام الأقاليم أخذت تهدد سلطان الفرعون[1] بعد ضعف المملكة القديمة حتى استقلّ هؤلاء في أقاليمهم في نهاية السلالة السادسة (أي في نهاية عصر الأهرام).

واشتهر عهد السلالة الأولى بأن حكّام مصر منذ هذا العهد أو ما قبل ذلك بقليل بدأوا يفكرون بطريقة للدفن تضمن عدم تلف قبورهم وتخريبها فبنوا فوق حفرة الدفن بناء ظاهراً فوق الأرض مشيّداً من اللبن وقد عرف هذا النوع من القبور باسم «المصطبة»، وقد وجدت نماذج من هذه القبور في صقارة بعضها يرجع إلى بعض ملوك السلالة الأولى مثل «أخا»، وكانت العادة أن يزيّنوا خارج بناء المصطبة بطراز عماري من «الطلعات» و«الدخلات» على غرار طراز العمارة في حضارة العراق القديم مما ألمحنا إليه سابقاً.

السلالتان الثانية والثالثة:

لقد وردت في أثبات سلالات الملوك أسماء جملة ملوك خصصوا إلى السلالة الثانية، ووجدت لبعضهم آثار فيها نقوش كتابية مثل «حتف ـ سخموي» و«رع ـ نيب» الخ، وطرأ تطور في طريقة الدفن الملكية في عهد هذه السلالة،

---

(1) معنى كلمة فرعون (فير ـ عو) المصرية (البيت العظيم) وكان أقدم ذكر لهذا المصطلح في النصوص المصرية من عهد خفرع (السلالة الرابعة) (دليل المتحف البريطاني 1930 ص 292) ولكن كان هذا اللقب يشير إلى القصر ولم يستعمل لقباً للملك بصورة رسمية إلّا في عهد السلالة الثامنة عشرة (عهد الأمبراطورية).

(Wilson, **The Burden of Egypt,** 102).

فإن القبر مع بقائه بهيئة مصطبة إلا أن البناء الظاهري فوق حفرة الدفن صار صلداً غير مجوّف (أي لا يتكوّن من بناء من حجرات كما كان الحال عليه في عهد السلالة الأولى) وإنما كانوا يملأون داخل المصطبة باللبن وكسر الحجارة ويغلف وجهها بالآجر، ولكنهم وسعوا من حفرة الدفن تحت المصطبة بحيث صارت تحتوي على جملة حجرات لخزن الأثاث والأشياء التي كانت تودع فيما مضى في حجرات البناء المجوّف الظاهر في قبور السلالة الأولى، أما ملوك السلالة الثالثة فإنهم بدأوا يستعملون الحجر في قبورهم، وقام أحد ملوك هذه السلالة المسمى «زوسر» ببناء جديد هو الهرم المدرج الذي تطور عن المصطبة وتطور عن هذا الهرم المدرج الهرم الصحيح الذي كان أول ما ظهر في عهد السلالة الرابعة، أي في عصر الأهرام الذي سنذكره في موضع آخر. ويعزى إلى عهد السلالتين الثانية أو الثالثة أصل التقويم الرسمي.

وتشير مجريات الأحوال التأريخية إلى أن الوحدة السياسية التي أنجزتها السلالة الأولى لم تكن موطدة دائمية وظل النزاع بين الجنوب والشمال مستمراً في عهد السلالة الثانية إلى أن استطاع أحد ملوك السلالة الثالثة من غزو الشمال (وأصله من مصر العليا) واسمه «خع ـ سخموي» ويبدو أن هذا استمرّ في الحكم من منفس، وكان ابنه المسمى «زوسر» (أي المقدس) أعظم ملوك السلالة الثالثة، وقد سبق أن قلنا إنه اشتهر ببناء أول هرم مدرج في تأريخ مصر في صقارة وسيأتي وصفه في موضع آخر. وقد وجدت في ذلك الهرم آثار نفيسة من الفن المصري. واشتهر في عهد هذا الملك معمار اسمه «يمحاتب» (أو أمحوتب) تعزو إليه المآثر بناء الهرم المدرج كما عزت إليه المآثر المتأخرة أنه كان مؤلفاً وساحراً وطبيباً.

وفي وسعنا أن نجعل عهد السلالة الثالثة عهد الوحدة السياسية الموطدة التي شملت جميع القطر المصري، واستمرّت هذه الوحدة بمقياس أوسع وتوطدت أكثر في عهد يعدّ من أعظم العصور المصرية، ألا وهو عصر الأهرام الذي سنأخذ بعض الأمور المفيدة عنه.

عصر الأهرام

وهو العصر الذي سبق أن عرفناه بالنسبة إلى السلالات الحاكمة وإلى زمنه التأريخي بأنه العهد المبتدأ بالسلالة الثالثة أو الرابعة والمنتهي بنهاية السلالة السادسة، وقد سبق أن رأينا كيف كانت الأوضاع السياسية في عهد السلالة الثالثة حيث تمّ في عهدها إعادة توحيد البلاد بغزو قام به أحد ملوك هذه السلالة فتوطّدت الوحدة السياسية في عصر الأهرام، وإذا اعتبرنا الهرم المدرج الذي شيّده «زوسر» أحد ملوك السلالة الثالثة من الأهرام، فبإمكاننا دمج هذه السلالة في عصر الأهرام، ولكن الأهرام الصحيحة الضخمة التي اشتهرت بها مصر لم تبدأ إلّا في عهد السلالة الرابعة، وهذا هو سبب تسمية هذا العهد بعصر الأهرام، لأن ملوك هذا العهد وملكاته، باستثناءات قليلة، قد دفنوا في قبور تقوم فوقها أبنية عالية شاهقة هي الأهرام. أما في العصور الأخرى غير عصر الأهرام فإن غير واحد من ملوكها قد شيدوا أهراماً أيضاً ولكن مثل هذه الأهرام قد صَؤُلت من ناحية الحجم وأصبحت مجرد عادة تقليدية تُقام قرب القبور، وليس لها تلك الميزات الخاصة بأهرام عصر الأهرام، كما أنها فقدت الكثير من المغزى الديني، وأصبحت إلى جانب صغر حجومها مجرد رموز أو بمثابة شواهد قبور، ولذلك خصّ العهد الذي نتكلم عنه الآن بآسم «عصر الأهرام».

ومما يقال في عهد المملكة القديمة بوجه عام وعصر الأهرام بوجه خاص أنه كان عهد ازدهار الحضارة المصرية وعنفوانها وعهد نضجها أيضاً كما أنه كان عهد توطيد الوحدة السياسية والنمو السياسي والسلطان المركزي

وسلطة الملوك المطلقة، وأن أساس الحكم كان يقوم على حكم «الملك الإله»، والواقع من الأمر أن أساس الفكرة من بناء الهرم «ألوهية الملك»، وكان يخدمه النبلاء وأشراف المملكة وكبار الموظفين حيث ينالون السعادة في عالم ما بعد الموت من جرّاء هذه الخدمة، ويخدم طبقة النبلاء الطبقات الدنيا من فلاحين وصناع وغيرهم، ويصيرون كذلك خداماً سعداء لهم في عالم ما بعد الموت. وقبل أن نذكر شيئاً عن الأهرام والميزات البارزة في حضارة مصر في هذا العهد نوجز أبرز الأمور المهمة عن السلالات الحاكمة في هذا العهد.

السلالة الرابعة:

تبدأ السلالة الرابعة بحكم ملك من مشاهير ملوك هذا العهد هو «سنفرع»، وكان هذا الملك أول من استعمل ما اشتهر في تأريخ مصر باسم «الخرطوش» (Cartouche)[1] وهو عبارة عن ختم الملك المتضمن اسم الملك ولقبه، وقد غزا «سنفرع» طور سيناء ونحت نحتاً بارزاً في الحجر هناك كما أنه غزا نوبية إلى الجنوب من أسوان وأسر جماعات كبيرة، وهو الإقليم الذي كان «زوسر» من ملوك السلالة الثالثة قد غزاه ويرجّح أن «سنفرع» قد دفن في الهرم الكائن في «ميدوم» المسمى بالهرم المدرج إذ إنه هرم مدرج مكوّن من ثلاث طبقات كما أنه بنى هرماً في «دهشور». وأعقب «سنفرع» الملك الشهير «خوفو» الذي كان أعظم ملوك السلالة الرابعة، ويخصّص له هيرودوتس حكماً دام (63) سنة، ولكن المرجّح أنه لم يحكم أكثر من 23 سنة ولعله كان مثل سنفرع محارباً كبيراً كما وجد له نصب منحوت في طور سيناء، ولكن شهرته الأساسية أتت من كونه أعظم بناء خلد شهرته الهرم الأكبر طوال ألوف من السنين. وخلفه في الحكم ابنه الشهير «خفرع» الذي اشتهر أيضاً في بناء ثاني الهرمين الكبيرين في الجيزة وقد سبق أن نوّهنا، بأنه يرجع إلى عهد هذا الملك

(1) يرجّح أن شكل الخرطوش المستطيل مأخوذ من شكل الختم الأسطواني الخاص بحضارة وادي الرافدين.

أقدم الإشارات إلى لقب «الفرعون» (البيت العظيم) على الرغم من أنه لم يستعمل لقباً رسمياً للملوك إلّا في عهد الأسرة الثامنة عشرة كما أشرنا إلى ذلك من قبل. وقد بلغ فن النحت في عهد السلالة الرابعة بوجه عام وفي عهد خفرع بوجه عام الذروة في الرفعة كما يدل على ذلك تمثال هذا الملك المنحوت من حجر الديوريت الموجود في متحف القاهرة حيث وجد بالأصل في معبد «أبي الهول» الذي هو أيضاً تمثال للملك بهيئة رأس بشر وجسم أسد[1] وجاءتنا قطع فنية نفيسة أخرى مثل تمثال «شيخ البلد المشهور». ولقد حكم خفرع 56 عاماً بحسب هيرودوتس وخلفه في العرش «منكورع» الذي حكم زهاء 20 عاماً على الرغم من عزو الإغريق إليه حكماً طويلاً. واشتهر هذا الملك بكونه باني الهرم الثالث في الجيزة الذي يبلغ ارتفاعه نحو 215 قدماً، وينبغي أن تكون المحاولة التي جرت في زمن الخليفة المأمون لحفر الهرم قد كانت في هذا الهرم. وكان آخر ملوك السلالة الرابعة «شيبسيسكاف»، وقد بدأت في أواخر عهد هذه السلالة أهمية عبادة الإلٰه «رع» تطغى على عبادة الفرعون يتدخل كهنة الإلٰه رع في هليوبوليس (مدينة عون المذكورة في التوراة) حتى أنه ليقال إن أصل ملوك السلالة الخامسة كانوا من زوجة كاهن من كهان الإلٰه «رع» ولدته من هذا الإلٰه بمعجزة إلٰهية.

---

(1) لا يعلم أصل هذا النوع من التمثيل الخاص بأبي الهول (Sphinx) والذي تجدر ملاحظته عن هذه الأنواع الخاصة بمصر أنها على العموم من نوع أبي الهول المذكر، وقد صنعت في سوريا وبلاد اليونان مثل هذه المنحوتات المركبة التي كانت تمثل نساء بأجسام الحيوانات (الأسود) وهي مجنحة على الغالب، وهناك أسطورة طريفة عن أبي الهول اليوناني (أو أم الهول)، إذ عرف باللغز الشهير بلغز «أبي الهول» (The Riddle of the Sphinx) وكان هذا لغزاً مهلكاً وضعته تلك المخلوقة الخاصة بطيبة (في اليونان) لمن يمرّ بها من الناس فمن لم يحله قتلته. وقد حزره الملك «أوديب» فأنتحرت «أم الهول» وصار «أوديب» ملكاً. أما اللغز فهو على الوجه الآتي: «ما ذلك المخلوق الذي يمشي على أربع في الصباح وعلى قدمين في الظهر وعلى ثلاثة أقدام في المساء؟» وجواب اللغز «الإنسان» فهو يمشي في طفولته على أربع (قدميه ويديه) ثم على قدميه لما يشب وعلى ثلاثة حين يشيخ. على قدميه وعلى عكازته!

السلالة الخامسة:

أما أول ملوك السلالة الخامسة المسمى «يوسر كاف» فيرجّح كثيراً أنه جاء إلى العرش بنتيجة ثورة قام بها، والمرجّح أيضاً، كما ألمحنا إلى ذلك، أنه كان الكاهن الأعلى للإله «رع». وقد حدث في عهد هذا الملك تبدل مهم في مركز عبادة هذا الإله حيث صارت هي السائدة في البلاد، كما أن هذا الإله قد طغى على الإله الفرعون الذي صار مجرد «ابن رع» وهو لقب رسمي تسمى به الفرعون منذ السلالة الخامسة. وهذه نقطة مهمة في تأريخ مصر القديمة إذ تشير إلى تبدّل مركز الفرعون. فبعد أن كان الفرعون الإله العظيم صار الإله الشمس مركز الكون، ويمكن الوقوف على هذا التبدّل بمقارنة حجوم الأهرام مع سعة «قوارب الشمس» التي كانت تحفر بالقرب من الهرم لاستعمال الفرعون المتوفى في سفره مع الإله الشمس. فقد كانت هذه صغيرة الحجم يطغى عليها حجم الهرم في عهد السلالة الرابعة ولكن بدأ الوضع ينعكس منذ السلالة الخامسة. وكذلك صار يبالغ في حجم المسلات الخاصة بالإله «رع» بالنسبة إلى حجم الهرم الخاص بالفرعون. وقد بنى «يوسر كاف» له هرماً في «أبو صير» كما فعل ذلك بعض الملوك الآخرين من هذه السلالة وإلى ذلك بنى كل منهم معبداً خاصاً للإله الشمس «رع»[1]. ومما يقال في الحضارة المصرية في عهد هذه السلالة أنها لم تكن لتمتاز عمّا كانت عليه في عهد السلالة الرابعة باستثناء ما ذكرنا من التبدّل الديني في بروز أهمية عبادة الإله «رع» وكذلك بداية تضاؤل سلطة الفرعون السياسية. ومن ناحية الفن سارت السلالة الخامسة على مآثر السلالة السابقة ووصل الفن إلى ذروته. وقد اشتهرت السلالة الخامسة بمقابر ملوكها الهرمية في أبو صير جنوب الجيزة،

---

(1) أبرز شيء في هذه المعابد الشمسية «المسلات» (Obelisk) حيث تقام مسلة قائمة وحدها فوق دكة تشبه المصطبة، وقد خصصت كهانة هذه المعابد إلى طبقة خاصة من الشرفاء والنبلاء. وأحسن نماذج ممثلة لمثل هذه المعابد مما بقي محفوظاً المعبد الموجود في الموضع المعروف باسم «أبو غراب» بين الجيزة وأبو صير وهو المعبد الذي بناه الفرعون نيسور ـ رع.

ولكن لا يمكن مقارنة حجومها ولا جودة بنائها بأهرام ملوك السلالة الرابعة، واشتهرت من أهرام السلالة الخامسة ثلاثة أهرام خُصِّصت لقبور الملوك الثلاثة وهم «سحو رع» و«نفير يركا رع» و«نيسور ـ رع»، وقد أمدتنا المعابد المخصصة لعبادة الفرعون الملحقة بهذه الأهرام بنتائج مهمة عن الحضارة المصرية وفنها في عهد المملكة القديمة، ولا سيما المنحوتات البارزة في جدران هذه المعابد التي تعدّ أقدم منحوتات بارزة في تأريخ الفن المصري القديم، وقد سجلت لنا هذه المنحوتات حوادث مهمة في حياة هؤلاء الفراعنة[1]. وكان «أوناس» أو «أونيس» آخر ملوك السلالة الخامسة، وقد اشتهر بنائه هرماً له في صقارة وقد كان أول من أوجد عادة نقش الجدران الداخلية للقبر بكتابات دينية، وقد نقلت مثل هذه الصور في أهرام السلالة السادسة، وهي عبارة عن مجموعة من الأدعية والتعاويذ السحرية والرقى لجلب السعادة والسلامة لروح الفرعون في العالم الثاني، وقد صارت هذه أساس ما يعرف في تأريخ مصر بآسم «كتاب الأموات»، وتوقفنا تلك «النصوص الهرمية» ومنحوتات المعابد الملحقة بالأهرام أيضاً على أشياء مهمة عن الحياة المصرية القديمة ومن ذلك الحياة الدينية والآلهة المعبودة حيث نجد معظم آلهة مصر قد عُبدت في ذلك العهد.

السلالة السادسة:

وأعقب «أوناس» الملك «تيتي» أو «تيتا» مؤسس السلالة السادسة التي كان أصل ملوكها من «منفس»، وقد بنى له قبراً هرمياً في صقارة وزود جدران حجراته الداخلية بالنصوص السحرية من التعاويذ والرقى، وكذلك اتبع هذه العادة ملوك السلالة السادسة الذين أعقبوه، وأشهر هؤلاء وأعظمهم بيبي الأول (مري ـ رع) لما قام به من أعمال وإنجازات كبيرة كاستغلاله لمورد حجر

---

(1) يوجد وصف موجز لنتائج التنقيبات التي قام بها الألمان في المرجع السهل الآتي:
H.R. Hall, The Ancient History of the Near East (1936), 131.

«الغرانيت» في أسوان وتثبيت سلطانه في سيناء، وازدهرت في عهده التجارة والصناعة بتشجيعه، كما أنه أرسل حملة حربية لإخضاع القبائل القاطنة في الصحراء الشرقية. وخلفه في الحكم أحد أبنائه ثم ابنه الثاني «بيبي» الثاني «نفير ـ كا ـ رع» المشهور بطول حكمه حيث يروي هيرودوتس أنه حكم زهاء (90) عاماً إذ حكم وهو في سن السادسة ومات وعمره زهاء القرن الواحد، وبمماته في حدود عام 2180 ق.م. انتهت السلالة السادسة فكانت نهاية العهد الذي سميناه بعهد المملكة القديمة وعصر الأهرام، وبدأ عهد من الفوضى السياسية سنوجز أهم ما فيه في موضع آخر. ومع أن «بيبي» كان من أعاظم هذا العهد وكانت مصر في عهده في ازدهار ظاهر من جرّاء نشاط هذا العاهل إلا أن عوامل أخرى كانت تفعل فعلها في انهيار البناء السياسي للمملكة القديمة. ولكي نكشف بعض هذه العوامل نوجز ما سبق أن نوّهنا به عن الأسس التي قامت عليها المملكة القديمة. فكانت هذه المملكة تقوم على سلطة ملك مطلق السلطان كان هو الدولة، أما أعيان المملكة ونبلاؤها فلم يكونوا سوى حاشية الملك وخدامه في البلاط حيث كانوا يعيشون حواليه وإذا ماتوا دفنوا قربه لينالوا حظوة السعادة في العالم الآخر باستمرارهم في خدمة سيدهم أو «الملك الإله» في ذلك العالم. وكان هذا الملك الإله يملك مصر وما فيها، وإذا تعذّرت عليه إدارة أملاكه جميعها بنفسه فإنه كان يعين في إدارة أقاليم المملكة وكلاء عنه يديرون أملاكه له ويجبون له غلاتها، كما تدل على ذلك أسماء الموظفين الذين كان يعينهم الفرعون مثل لقب «حامل أختام الملك» و«ناظر أشغال الملك» و«مدير أملاك القصر» إلى غير ذلك من عناوين الموظفين في عهد المملكة القديمة. وكذلك يقال بالنسبة إلى ولاة الأقاليم الذين لم تكن وظائفهم وراثية إقطاعية على ما يرجّح. هذا وقد سبق أن ألمحنا إلى ظهور عناصر أخرى من المجتمع نازعت سلطة الملك الإله، وهم طبقة كهنة الإله «رع» في هليوبوليس، والذي لا مراء فيه أن عادة بناء الأهرام الهائلة منذ السلالة الرابعة قد عملت أيضاً على تضاؤل سلطان الفرعون وانتقال السلطة المركزية إلى اللامركزية في ولاة الأقاليم، فإن هذه المشاريع غير

الاقتصادية التي لا تدر على المملكة بشيء وتخصيص واردات هائلة لبنائها والوقف عليها لعبادة الفرعون المتوفى، كل ذلك عمل على استنزاف موارد الدولة وصرف الثروة التي حصل عليها المصريون القدماء من استغلالهم لبيئتهم الطبيعية والسيطرة على مواردها منذ السلالات السابقة لعصر الأهرام، ولكن بذرت هذه الموارد والقابليات الفنية على مشاريع غير مدرة. ومما لا شك فيه أن يكون النبلاء أول من شعر بوطأة هذه الأعباء الفادحة، وإذا كانوا في عهود السلالات القوية عالة على الملك في عيشهم إلا أنهم أخذوا يستقلون بالتدريج في كفاءتهم الاقتصادية واستقلالهم الذاتي، وإذا كان الاحتياطي من الثروة القومية قد بذره ملوك عصر الأهرام فإنهم إلى ذلك لم يوجدوا مورداً مدراً آخر، وإذا أضفنا إلى ذلك تناقض موارد التجارة الخارجية[1] أدركنا أسباب انهيار البناء السياسي للمملكة القديمة. ويتجلى ذلك في تبدل علاقة النبلاء في أواخر هذا العهد مع الفراعنة، فبدلاً من عيش هؤلاء في بلاط الفرعون وخدمتهم له، وبدلاً من اتخاذ مقابرهم قرب أهرام أسيادهم، استقلّ معظمهم في إقطاعياتهم وبنوا لهم قبوراً خاصة في أملاكهم، فكانت ما دعوناه في تأريخ مصر بأسم الفترة المظلمة الأولى التي سنلخص أحوالها السياسية فيما بعد.

وعلى ذكر التجارة ننوّه بأمر مهم عن واسطة التعامل التجاري في عهد المملكة القديمة، فقد كان النشاط التجاري والمعاملات التجارية المختلفة تتم بالدرجة الأولى بطريق المقايضة العينية، واستعملت المعادن أيضاً بهيئة قطع

---

(1) كانت تجارة مصر الخارجية في هذه العهد متمركزة في وادي النيل بالدرجة الأولى وفي ليبيا والسودان وطور سيناء لاستغلال مناجم النحاس. وكثيراً ما كانوا يرسلون البعوث الحربية ولكن كانت لغرض التجارة ولم تكن لغرض الضمّ السياسي. أما في بلاد الشام فكانت تجارة مصر ونفوذها السياسي محصورين في الساحل اللبناني، وكانت جبيل المستعمرة التجارية الوحيدة، ولعل جماعة من التجار المصريين كانت تقيم هناك كما يدل على ذلك وجود معبد مصري فيها. وباستثناء هذا الموضع اللبناني لم يتغلغل النفوذ السياسي والتجاري والثقافي في بلاد الشام كما صار عليه في عهد المملكة الوسطى وأكثر من ذلك في عهد الأمبراطورية.

ذات وزن معين واسطة للتعامل، أما النقود المسكوكة فلم تعرف في مصر إلّا في العهود المتأخرة جداً (منذ عهد البطالسة). وقد كانت الحكومة الفرعونية تقوم بإحصاء مالي سنوي أو نصف سنوي أي إحصاء رسمي للأراضي والماشية والحبوب والمعادن الثمينة وأنواع الأموال الأخرى وعلى أساس هذه التقديرات كان يجرى دفع الضرائب عيناً إلى البلاط الفرعوني.

الأهرام:

نتوقف قليلاً عن تتبّع أحوال المملكة المصرية في الفترة المظلمة التي أعقبت عصر الأهرام لتذكر بعض الأشياء الموجزة عن هذه الأهرام التي اشتهرت بها حضارة مصر وتخلّدت بها بين الحضارات القديمة وكانت من العوامل المهمة التي عملت على انهيار المملكة المهمة. لقد اتّضح لنا من تعريف عصر الأهرام أن الأهرام كانت قبوراً للملوك المصريين من ذلك العصر، وأشهر هذه الأهرام أهرام السلالة الرابعة الواقعة في الجيزة في ضفة النيل الغربية بنحو خمسة أميال من النهر حيث الهرمان العظيمان، هرم خوفو وخفرع (جنوب غربي القاهرة بأميال قليلة وقرب العاصمة منفس)، وتلي هذه الأهرام في الحجم وجودة البناء وضخامته أهرام السلالة الخامسة التي يقع بعضها في موضع أبو صير وبعضها في صقارة حيث توجد أهرام السلالة السادسة. وتوجد مجموعات أخرى من الأهرام الصغيرة من عصر الأهرام كانت قبوراً للأمراء والنبلاء التابعين للفرعون. أما الأهرام من العصور الأخرى فهي وإن استمرّت في أشكالها إلّا أنها فقدت وظيفتها وصارت كما قلنا رموزاً أو شواهد قبور تُبنى قرب معبد القبر.

وكان الدافع لتشييد هذه الأبنية الضخمة اعتقاد المصريين القدماء بوجود حياة أخرى بعد الموت ولا سيما رجوع الروح إلى الجسم ولكن كان ذلك يتوقف على بقاء الجسم سالماً في القبر غير معبوث به، ولذلك بالغ فراعنة عصر الأهرام في ذلك، وبالنظر إلى ثرواتهم الطائلة فقد بنوا هذه الأبنية التذكارية الهائلة حيث أخفوا تحتها أجسادهم المحنّطة ومعها الأثاث الفاخر

والحلي النفيسة وألحقوا بها المعابد الفخمة لعبادة الفرعون المتوفى وتقديم القرابين له. ولنصف الآن هرماً أنموذجياً من أهرام الجيزة حيث الهرم الأكبر لخوفو وهرم الفرعون خفرع وهرم منكورع أشهر ملوك السلالة الرابعة. فالهرم بناء صلد من الحجر مربع القاعدة هرمي الشكل، مشيَّد من الحجارة الضخمة. وكانت في مصر قبل زمن خوفو أنواع من الأهرام تختلف عن الهرم الصحيح الذي ظهر منذ عهد السلالة الرابعة، فكانت الأهرام المدرجة والمعوجة، ولكن الملك خوفو بن «سنفرع» بدأ ببناء أول هرم صحيح وأعظم هرم اشتهرت به مصر، ولعله تأثر بالأهرام التي شيّدها أبوه في «ميدوم» و«دهشور». فاختار نجداً يقع في حافة الصحراء يبعد بنحو خمسة أميال غربي الجيزة وشيّد فيها هرمه الأكبر، وأتبعه من بعد ذلك ملكان وهما خفرع ومنكورع فبنيا هرميهما إلى الجنوب من هرم خوفو بقليل. لقد بني الهرم الأكبر بالحجارة الضخمة حيث تزن الحجرة الواحدة معدل الطنين ونصف الطن، وقدرت الحجارة بنحو 2,300,000 حجرة ويبلغ طول ضلع قاعدته 755 قدماً[1] وارتفاعه نحو 500 قدم، ويشغل مساحة من الأرض تبلغ نحو (12,5) إيكرا. وقد تفنّن الكتّاب والعلماء الذين زاروا الهرم من مختلف العصور في تقدير كمية الحجارة المستعملة في بناء الهرم الأكبر، فحسب بعضهم حساباً طريفاً هو أنه لو قطعت الحجارة المشيّد بها هذا الهرم وجعلت بحجم قدم مكعب ووضعت جنباً إلى جنب لامتدت مسافة تبلغ ثلثي محيط الأرض في خط الاستواء، ونسب تقدير مماثل إلى نابليون في أثناء حملته الشهيرة على مصر إذ يروى أنه قال لبعض قواده الذين تسلقوا الهرم (ولم

---

(1) بموجب القياسات الحديثة التي قامت بها مصلحة المساحة المصرية (Survey of Egypt, Paper, No. 39, 1952).

تبلغ أضلاع القاعدة الأصلية بصورة مضبوطة الأبعاد الآتية:

ـ الجانب الشمالي 755,43 قدماً، والجانب الجنوبي 756,08 قدماً والجانب الشرقي 755,88 قدماً والجانب الغربي 755,77 قدماً. وتتجه هذه الأضلاع إلى الجهات الأربع الأصلية اتجاهاً صحيحاً والخطأ فيها ضئيل جداً.

يتسلقه هو) بعد نزولهم أنه حسب أن أحجار الأهرام الثلاثة لتكفي لبناء جدار علوه (10) عشرة أقدام وثخنه قدم واحد، يحيط بجميع فرنسا، ويروى أيضاً أن العلماء الرياضيين الذين صحبوا الحملة قد أقرّوه على حسابه[1]. ويمكننا عدّ الأهرام، ولا سيما الهرم الأكبر، أكثر الأبنية القديمة التي كثر قياسها ودرسها منذ حملة نابليون إلى التحريات الأثرية الحديثة. ومع أن الهرم الأكبر يبدو لو نظر إليه المرء من بعيد سالماً إلا أنه بالفحص القريب يظهر أنه قاسى كثيراً من قالعي الأحجار من مختلف العصور، فقد أزيلت جملة مسافات من قمته كما حدثت بعض التخريبات في جوانبه، ويوجد ثقب كبير في الوجه الشمالي أسفل الهرم.

أجزاء الهرم:

يتألف الهرم بصفته لحداً للفرعون المتوفى من جملة أجزاء عمارية بعضها مخفية تحت الهرم وفي باطنه وبعضها على هيئة معابد متصلة به لعبادة الفرعون وإقامة الشعائر الخاصة بذلك. ولنصف هذه الأجزاء المختلفة بإيجاز. ففي الجانب الشرقي من الهرم بُني معبد مهيب فخم زُيِّن بالمنحوتات والنقوش وصفوف العمد المزخرفة البديعة (انظر الصورة آخر الفصل) وهذا هو المعبد الذي شيّد لعبادة «الملك الإلٰه» بعد مماته ولتقديم ما يحتاج إليه من القرابين[2]. ويوجد في جهة الشمال والجنوب من هذا المعبد حفرتان كبيرتان محفورتان في الأرض الحجرية كما وجدت آثار حفرة أخرى قرب المعبد، وجعلت هذه الحفر على هيئة سفن ولعلها كانت مبطنة ومسقفة بالخشب الذي بلي ولم يبق منه شيء، والغرض من هذه السفن الرمزية أن الفرعون الميت يستعملها في سفرته في العالم الثاني في مرافقته للإلٰه الشمس في رحلته اليومية

(1) انظر: Edward, The Pyramids (1947), 86.

(2) ويُسمّى هذا المعبد في الكتب الحديثة باسم «المعبد الجنائزي» (Mortuary Temple).

في السماء[1]، كما أن هناك اعتقاداً آخر لحاجة هذه السفن في حج الملك المتوفى إلى مقام أوسيريس المقدس في أبو صير.

ولما كان الهرم والمعبد المشيّد لصقه قد بنيا في النجد بعيدين عن المدينة الملكية الواقعة في الوادي إلى الشرق من الهرم لذلك وصلوا بين الهرم ومعبده وبين جوار المدينة الملكية برواق (Couseway) أو ممر مهيب طويل بُني من الحجارة، وبنوا في نهاية هذا الممر قرب المدينة الملكية معبداً آخر يجدر أن نسميه باسم «معبد الوادي» (انظر الصورة آخر الفصل) وكان هذا المعبد أيضاً ضخماً جميلاً شيّد من حجر الغرانيت. وقد شيّد أيضاً لعبادة الملك الملحود، وزيّن بتماثيل نفيسة ضخمة.

ويصف هيرودوتس «الممر» بأنه كان مشيّداً من الحجر الصقيل المنحوت بمنحوتات مختلفة. وقد شكّ الباحثون في صحة هذا القول إلا أن التحريات الحديثة أثبتت وجود آثار من هذه المنحوتات[2] وكانت بعض هذه الممرات مسقفة. وبإمكان الزائر لأهرام الجيزة الآن أن يشاهد في جانب «معبد الوادي» العائد إلى هرم الملك «خفرع» تمثالاً ضخماً يمثل خفرع نفسه هو «أبو الهول» الشهير الذي يمثل الملك بجسم أسد رابض ورأس إنسان هو رأس «خفرع» نفسه. ويعدّ أبو الهول نفسه أضخم تمثال صنعته يد الإنسان القديم، فإن علوّ رأسه وحده يبلغ (65) قدماً وطول جسمه حوالي 187 قدماً وعرض وجهه 14 قدماً وعلى رأسه اللباس الملكي الرسمي كما توجد في ناصيته شارات ملكية أخرى. ومع أن وجه أبي الهول «مشوه»[3] إلا أنه لا يزال يشبه وجه خفرع شبهاً كبيراً بالقياس إلى تمثيله في المنحوتات الأخرى. ويشاهد الزائر الآن بين الكفين الأماميين صفيحة من الحجر كبيرة منقوشة بكتابة هيروغليفية فيها سجل طريف لحلم رآه الفرعون طوطمس الرابع من السلالة الثامنة عشرة فيذكر النقش

---

(1) يُشار إلى الاكتشاف الجديد الذي عثر عليه في منطقة الأهرام لسفينة الشمس في عام 1954.

(2) Edwards, Op. Cit., 102.

(3) وقد حدث هذا التشويه من جرّاء كسر أنفه ولحيته بطلقة مدفع في عهد المماليك.

أن الملك لما كان أميراً قبل اعتلائه العرش كان في رحلة صيد فمرّ عند أبي الهول واستراح في ظله في الظهيرة، فظهر له أبو الهول في الحلم (وكانوا يعدون أبا الهول تجسيداً للإله الشمس في زمن طوطمس) ووعده بإعطائه تاجي مصر إذا هو أزاح عنه الرمال التي كانت تغطي جسمه. ومما يؤسف له أن نهاية النقش الكتابي مخرومة مُزالة، ولكن باستطاعتنا أن نحزر أن رغبة الإله «أبي الهول» قد حققها الملك كما أنه جازى الأمير بإعطائه تاجي مصر. ولعل طوطمس أصلح أيضاً من شأن التمثال، ولا تزال صيانته والمحافظة عليه مستمرتين في العصر الحاضر.

ومن أجزاء الهرم المهمة القسم المخصص لجثمان الملك تحت الهرم. وإذا كان ليس في وسعنا وصف الأروقة والممرات المشيّدة داخل الهرم وصفاً مفصلاً فإننا نكتفي بالقول بأن العادة كانت أنهم يتركون مدخلاً إلى هذه الأبنية الداخلية في أحد أوجه الهرم، ففي هرم خوفو مثلاً يكون المدخل في الوجه الشمالي بارتفاع 55 قدماً عن مستوى الأرض وينحدر من المدخل رواق عرضه ثلاث أقدام وخمسة إنجات وينحدر في بطن الهرم ثم يخترق الأرض الحجرية وبعد مسافة نحو 345 قدماً من المدخل يستمر الرواق أفقياً ثم ينتهي بمجموعة من الحجرات والدهاليز، وقد خصصوا إحدى هذه الحجرات لتضم تابوت الملك المدفون وخصّص بعضها لإيداع أثاثه[1] ومن الملاحظات المهمة عن مجموعة الأهرام في الجيزة أن أحسن نموذج للهرم المصري بكامل أجزائه التي وصفناها هو هرم «خفرع» حيث بقيت معظم أجزائه سالمة مثل المعبد المبني لصق الهرم والممر ومعبد الوادي. ولأن هذا الهرم مرتفع عن الأرض أكثر من هرم «خوفو» فيبدو أعلى منه، ولكن الواقع أنه أوطأ منه بحاله الحاضرة بنحو ثلاث أقدام (ارتفاعه الحالي 447,5 قدماً)، ويشغل مساحة قدرها 690 قدماً مربعاً،

---

(1) حول إيجاز وصف هذه الأبنية الداخلية انظر المرجع السهل الآتي:
Edwards, **The Pyramids of Egypts** (1947).

ويختلف في ترتيب أروقته وحجراته الداخلية عن الهرم الأكبر. ويقرب هذا الهرم الهرم الثالث من أهرام الجيزة العائد إلى «منكورع» الذي يشغل مساحة أقل من نصف مساحة الهرم الأكبر وعلوّه الآن زهاء 204 أقدام (وعلوه الأصلي نحو 218 قدماً) وتوجد قربه (إلى الجنوب منه) ثلاثة أهرام صغيرة غير كاملة لا يعلم أصحابها بوجه التأكيد.

ملاحظة عن بناء الأهرام وتطورها:

1 ـ لقد أشرنا فيما سبق إلى أن الأهرام نشأت من العقائد المصرية القديمة فيما بعد الموت التي جعلت المصريين القدماء يهتمون بالموت وبالقبور الخاصة بهم منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ أكثر من اهتمامهم ببيوت السكنى، حتى أن معظم الآثار النفيسة التي تزيِّن المتاحف العالمية الآن مصدرها من القبور بالدرجة الأولى، لأن القبور هي التي بقيت سالمة وقد زوّدتنا بنماذج منها خلال ثلاثة آلاف عام عدا الأهرام، في حين أنه لم يسلم من بيوت السكنى سوى القليل. وإن عواصم شهيرة معظمة قد اختفت تقريباً ولم تترك لها سوى آثار ضئيلة، ولم يبق من قصور الفراعنة الذين شادوا الأهرام أثر ما، بحيث إننا لا نعرف هل بُنيت في منفس أو في مواضع قريبة من الأهرام، والسبب في ذلك أنهم لم يهتموا في مادة بنائها مثل اختيار مادة بناء قبورهم، فكلها شيّدت باللبن والخشب. وقد يبدو غريباً متناقضاً أن قطراً غنياً بالحجارة مثل مصر قد عاش حكّامه في أبنية مشيدة بمادة فقيرة دون المادة المتينة التي استعملوها في قبورهم الهرمية وغير الهرمية. ويزول استغرابنا هذا لو نحن وقفنا على وجهة نظر المصريين القدماء. فقد كان الغرض من بناء بيت السكنى أو القصر أن يدوم عدداً محدوداً من السنين ومن الممكن تجديد بنائه أو إقامة بناء آخر بدله، ولكن كان الغرض من القبر الذي سموه بالحصن أو بالبيت الأبدي أن يدوم إلى الأبد. والعادة أن بناء القبر الخاص بالشخص كان يتم وهو على قيد الحياة، وكانوا في حالة موته قبل إكمال قبره يختصرون في

مخططه لسرعة إتمامه، وكان المصريون يخصصون من أموالهم قدراً مهماً لشؤون ما بعد الموت.

2 ـ ولما كنا سنذكر عقائد ما بعد الموت عند المصريين في بحث خاص بحضارة وادي النيل فإننا نكتفي هنا بذكر إيجاز هذه العقائد مما يوضّح الموضوع الذي بين أيدينا. فبأستثناء الملك الإله الذي يكون بعد الموت بصحبة الآلهة ويتخلّد في السماء مع الإله «رع» فإن البشر العاديين لم يكن بمستطاعهم أن يصيروا إلى هذا المصير السعيد. فكان اعتقاد المصريين في البشر أن الإنسان مكوّن من عنصرين متميزين من جسم وروح، وإذا ما مات الشخص ظل جسمه في القبر أما روحه فتأخذ وجوداً مستقلاً، ولكن يعتمد هذا الوجود المستقل على المحافظة على الجسم المادي سالماً، ومن هنا منشأ العناية الفائقة بالمحافظة على الجسم ونشوء التحنيط، أي العناية الشديدة بحفظ الجسم في قبور محكمة تمنع العبث بالجسم والمحافظة على هذا الجسم من البلى بالتحنيط.

وعلى ضوء هذه العقائد التي أوجزناها نستطيع أن ندرك الغرض وراء الأهرام بصفتها قبوراً خاصة ونفهم أيضاً العناية ببناء أنواع القبور الملكية الأخرى.

3 ـ كان سكان وادي النيل في عصور ما قبل السلالات (ما قبل التأريخ) يدفنون موتاهم في حفر مستطيلة أو بيضوية تُحفر في الأراضي الجافة، في الرمال، ويصنعون مع الميت ما يحتاج إليه الجسم، ويخفون القبر بدفنه، ولكن هذه الطريقة غير مضمونة للمحافظة على الجسم، وبعد تمكّن معتقدات ما بعد الموت منذ بداية عهد السلالات تلافى الأمراء الحاكمون والنبلاء هذا الخطر، أي خطر تلف أجسامهم وتخريب قبورهم ونبشها بأن بنوا فوق حفرة الدفن بناء ظاهراً فوق الأرض مبنياً من اللبن مما يُعرف في تأريخ آثار مصر باسم «المصطبة» التي تخفي تحتها حفرة الدفن المستطيلة المسقفة والمقسمة بقواطع إلى عدّة أجزاء يودع في أحدها الجسم وهو موضوع في تابوت من

الخشب وتوضع في الأجزاء الأخرى الحاجيات الخاصة بالملك أو الأمير. أما المصطبة الظاهرة فوق هذه الحفرة فكان يُبنى في داخلها جملة حجرات لخزن جرار الخمر وأواني الطعام واللوازم الأخرى، وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذه المصاطب كانت تزين من الخارج بطراز من العمارة يضاهي الأطرزة العمارية في حضارة وادي الرافدين مما يعرف «بالطلعات» و«الدخلات» (Buttresses Gerecesses)، وهذه هي أنواع القبور الملكية التي وجدت من عهد السلالة الأولى.

4 ـ وحدث تطور آخر في مثل هذه القبور «المصطبية» في قبور حكام السلالتين الثانية والثالثة. فمع أن شكل القبر الخارجي بقي على هيئة المصطبة إلا أن بناء المصطبة صار صلداً غير مجوّف أي ليس فيه حجرات داخل المصطبة كما في قبور السلالة الأولى، وإنما صاروا يملؤون داخل المصطبة باللبن (الآجر) ولكنهم وسعوا من مرافق الحفرة التحتية بحيث أصبحت مكوّنة من صالة وعدة حجرات وصار يخزن فيها الأشياء اللازمة، وكانت هذه الحجرات الداخلية تحفر في الأرض الحجرية، وتتّصل بالخارج (بسطح الأرض) بمنحدر عمودي مكوّن من سلالم ويسدّ موضع الاتصال بصفيحة ثقيلة من الحجر كما كانوا يعملون على إخفاء المدخل. وظلت مثل هذه القبور المصطبية في الاستعمال مع بعض التحسينات في عهد السلالة الرابعة والخامسة والسادسة تُستعمل للنبلاء والأشراف وذوي اليسار. أما الفراعنة فقد ابتنوا الأهرام كما سبق أن عرفنا. وأدخلت في القبور أشياء جديدة منها دفن تمثال يمثل الميت مع تماثيل أسرته وكتابتها بأسمائهم، كما أنهم صاروا يزينون جدران الحجر الداخلية المخصصة لوضع القرابين والأثاث بمنحوتات بارزة وبنقوش عرفتنا بحياة المدفونين اليومية وبأهم النواحي في حضارة عصر القديمة.

5 ـ وحصل تطور مهم آخر في فنّ بناء القبور قبل ظهور الهرم الصحيح في عهد السلالة الرابعة، وذلك هو ظهور ما يُعرف بالهرم المدرج

(Step Pyromid) في عهد السلالة الثالثة، وهو عبارة عن هرم مؤلف من عدة طبقات أو مصاطب قد يرتفع إلى ست طبقات غير متساوية الارتفاع ويشبه الزقورة (الصرح المدرج) في شكله الظاهري، وكانت هذه الطبقات المؤلفة للهرم المدرج تقوم فوق حفرة الدفن المكونة أيضاً في داخل الأرض من عدة أجزاء. وكان أول من شيّد مثل هذه الأهرام الملك «زوسر» من السلالة الثالثة وتنسب المآثر بناءه إلى معمار شهير اسمه «امحوتب» كما ألمحنا إلى ذلك من قبل، وقد شيّده في موضع مرتفع من الأرض في صقارة يطل على «منفس» ويشغل مساحة (597) ياردة من الشمال إلى الجنوب و(304) ياردات من الشرق إلى الغرب، ويتألف من ست طبقات وارتفاعه 204 أقدام وقاعدته 411 قدماً (من الشرق إلى الغرب) و358 قدماً (من الشمال إلى الجنوب) وأُلحق بالهرم أيضاً معبد خارجي في الجانب الجنوبي منه، وكان يحيط به سور ارتفاعه نحو 33 قدماً ومحيطه نحو ميل واحد[1]. ويُعدّ الهرم المدرج الذي استعمل فيه الحجر لأول مرّة، من أهم المآثر البنائية التي شادها المصريون القدماء، حتى أن معمار هرم «زوسر» قد أُله، على ما بيّنّا، كما أن طريقة هذه العمارة لا سابقة لها في تاريخ مصر.

6 ـ قبل أن يشيد ملوك مصر الهرم الصحيح في عهد «خوفو»، في زمن السلالة الرابعة بُنيت في مصر ما لا يقل عن أربعة قبور هرمية بالإضافة إلى هرم «زوسر» المدرج الذي وصفناه، اثنان منهما يقعان في الموضع المعروف بزاوية العريان، ومع أن شكلهما غير واضح تماماً إلا أن المرجّح أن يكونا من نوع الهرم المدرج، وبني الثالث في الموضع المعروف باسم «دهشور»، وهذا أيضاً غير واضح، ولكن المرجح كثير أنه نوع جديد من الأهرام دعي بعدئذٍ باسم الهرم المعوج (Bent Pyromid) أو الهرم المزيّف أو المثلوم حيث يبدو

---

(1) يرجح كثيراً أن «زوسر» قد دفن داخل هرمه المدرج، ولكنه مع ذلك ابتنى له قبراً آخر قريباً من الهرم. والجدير بالذكر بهذا الصدد أن غير واحد من ملوك المصريين القدماء قد جرى على بناء أكثر من قبر واحد لإخفاء محل الدفن الحقيقي.

معوجاً مائلاً إلى الداخل بهيئة فجائية بدلاً من أن يستمر في الارتفاع إلى أن يصل إلى علوّه المحسوب ويكون هرماً صحيحاً. وليس هناك من تفسير واضح لهذه الظاهرة، إلا أنه ارتأى غير واحد من الباحثين أن هذا الاعوجاج إنما نشأ من اختصار ارتفاعه بعد بداية بنائه وبلوغه فوق منتصف ارتفاعه بقليل، فاضطرّ بناؤه إلى اختصار ارتفاعه بإمالته إمالة فجائية إلى الداخل بدلاً من تدرجه في الارتفاع، ذلك التدرج الذي لو ساروا فيه إلى النهاية لنتج عندهم هرم صحيح. ويعتبر الهرم المعوج في أجزائه ومرافقه المختلفة أصل الأهرام الصحيحة من حيث احتوائها على الهرم نفسه القائم في داخل سور وعلى المعبد المبنى لصق الهرم ومعبد الوادي والممر، والدهاليز والأروقة والحجرات داخل الهرم.

وعلى ضوء هذا الاستعراض الموجز لأنواع القبور التي ظهرت في مصر منذ عصور ما قبل التاريخ يتضح لنا أن المراحل السابقة لبناء الأهرام يمكننا إيجازها على الوجه الآتي: (1) قبور المصاطب بكلا نوعيها (قبور ملوك السلالات الثلاث الأولى) (2) قبور الأهرام المدرجة (منذ السلالة الثالثة) (3) قبور الأهرام المموجة (السلالة الثالثة) (4) قبور الأهرام الصحيحة (أهرام السلالات الرابعة والخامسة والسادسة). وإتماماً للفائدة نقول إن قبور الملوك مما بعد عصر الأهرام لم تعد أهراماً على الرغم من أن بعض ملوكهم بنوا الأهرام قرب مقابرهم بصورة مصغرة رمزية، كما في أهرام السلالة الثانية عشرة المشيدة في «لشت». ونشأت عادة طريقة جديدة في بناء القبور الملكية في عهد السلالة الثامنة عشرة، حيث اعتاد ملوكها على إقامة أهرام رمزية قرب مقامات (قبر خال Centaph) ولكن القبر الحقيقي كانوا يقيمونه في موضع آخر كما فعل أحموسة مؤسس تلك السلالة. وكفّ الملوك الآخرون من هذه السلالة عن اتباع هذه العادة تجنباً للعبث بقبورهم، فشيّدوا المعابد الخاصة بقبورهم في وادي النيل، ثم كانوا ينتخبون المرتفعات الحجرية الغربية لحفر حفر قبورهم لكي يبقى موضع القبر الحقيقي سرّاً لا يعرفه غير من بناه، أي عدد قليل من الموظفين الرسميين وأفراد الأسرة الملكية، وبهذا الوجه تكوّنت مقبرة ملكية مهمة في الموضع الذي صار يُعرف باسم «وادي الملوك»، وهو

واد يوازي ويحاذي النيل خلف «الدير البحري». ويصف لنا المعمار الذي شيّد أول نوع من هذه القبور سرية موضع القبر بقوله: «لقد أشرفت على حفر قبر جلالته (ويقصد قبر طوطمس الأول) وحدي فلم ير أحد ولم يسمع أحد». ولكن لم يكن ليدور بخلد طوطمس الأول ولا بخلد معماره الذي أشرف على الحفر أن الوادي المنعزل الذي اختاراه قد صار فيما بعد مقبرة عامة للفراعنة طوال أجيال كثيرة، فأنكشف سرها ووقعت فيها السرقات، ولم يسلم من بين نحو ستين قبراً ملكياً في ذلك الوادي إلّا قبر «توت عنخ أمون» الشهير الذي أدهش العالم الحديث بما احتواه من كنوز، وقد كان سبب ذلك من صدفة حسنة ذلك أن رعمسيس السادس حفر قبره في المنحدر الجبلي فوق حفرة قبر «توت عنخ أمون» مباشرة مما جعل مدخل قبره ينسد بأنقاض الحجارة المتساقطة من القبر الذي فوقه.

كيفية بناء الأهرام:

7 ـ أما عن كيفية بناء الأهرام فلا يوجد من بين سجلات مصر وآثارها الكتابية ما يكشف لنا عن الأساليب التي اتبعها قدماء المصريين في بناء أهرامهم، ولكن فحص هذه البنايات وتحريها في الأزمان الحديثة ومعرفتنا بالمستوى الذي بلغته حضارة وادي النيل في الأساليب الفنية الصناعية مكّنت الباحثين المحدثين من معرفة الأصول الأساسية في ذلك، وإذا كان خارج موضوع مثل هذا الكتاب المدرسي الدخول في التفاصيل الفنية المعمارية[1] فإننا نوجز بعض الأمور العامة المفيدة:

---

(1) نحيل القارىء الذي يريد الوقوف على مثل هذه التفاصيل إلى مرجع سهل استشهدنا به هو:
(Edwards, **The Pyramids of Egypts**).
والمراجع الموسعة الآتية:
(1) Flinders Petrie, **The Pyramids and Temples of Gizeh**.
(2) Vyse G. Perring, **The Pyramids of Gizeh (3 vols.)**.

أ ـ ومن ذلك انتخاب الموضع الصالح للهرم، كوجوب كونه غرب النهر (أي في جهة مغرب الشمس)، ولزوم كونه فوق النهر ولكن غير بعيد عن ضفته الغربية، كما يلزم أن تكون طبقات الحجارة الأرضية خالية من العيوب، قوية لا تنهار تحت ثقل الهرم. ويلزم أيضاً أن يكون غير بعيد عن موضع المدينة الملكية (العاصمة) ولعله قريباً من قصر الملك أيضاً الذي يرجّح أنه كان يشيد خارج العاصمة، فنجد مثلاً أن مواضع الأهرام التي اختارها فراعنة المملكة القديمة (صقارة وأبو صير) تقع قريباً من العاصمة منفس إلى مدى الرؤية تقريباً، ويقع موضع «دهشور» بنحو خمسة أميال إلى الجنوب. وكان موضع الهرم قرب النهر أمراً مهماً بالنظر إلى الحاجة إلى نقل الكميات الكبيرة من الحجارة.

ب ـ وبعد أن يتمّ اختيار الموضع الصالح يبدأ المعمارون بتهيئته كإزالة الطبقة الثخينة من الرمال والحصى لكي يكون الهرم قائماً على أسس متينة من الأرض الحجرية الصلدة، ثم يسوون الأرض، وقد أبدع بناة الأهرام في عملية التسوية (levelling) بحيث إن أرضية الهرم الأكبر ليس فيها من خطأ بالنسبة إلى المستوى الأفقي إلّا بنحو 0,5 «انج»[1].

ج ـ ثم تأتي عملية تربيع القاعدة وجعلها مربعاً صحيحاً ذا زوايا قائمة مضبوطة، وبحيث يكون كل ضلع من أضلاع القاعدة باتجاه جهة من الجهات الأربع الأصلية. وكانت النتيجة مضبوطة مدهشة، فلم يكن الفرق بين أطول ضلع وأقصر ضلع سوى 8 إنجات (وهذا خطأ ضئيل في الواقع بالنسبة إلى طول ضلع يبلغ 9000 إنج)، وقد استنتج الباحثون المحدثون أن ضبط توجيه الأضلاع إلى الجهات الأربع الأصلية قد تم بواسطة رصد بعض الأجرام السماوية[2] بالنظر لأن البوصلة المغناطيسية لم تكن معروفة في ذلك العهد.

---

(1) حول إنجاز هذه العملية بطريقة غمر أرضية الهرم بالمياه انظر:

Edwards, The Pyramids of Egypts.

(2) Edwards, **Op. Cit.**, 210.

وكانت النتيجة مضبوطة أيضاً بخطأ قليل (خطأ مقداره 6 2 5 في الهرم الأكبر في اتجاه الضلعين الشرقي والغربي).

د ـ ونذكر قضية تهيئة حجارة البناء من ضفة النيل الشرقية من موضع صالح للحجارة الجيدة في جبل المقطم. وكان هذا يتطلب استخدام حشود من العمّال، وقد ترك لنا جماعات العمال هنا أسماءهم مرسومة في كتل الحجارة. كما أن جماعات أخرى من العمال كان يقتضي استخدامها في استخراج حجر الغرانيت في أسوان البعيدة لاستعمالها في الأعمدة واسكفات الأبواب والعوارض وللنواويس أيضاً. واستخدم العمّال في قطع الحجارة الأدوات النحاسية كالأزاميل والمناشير والأوتاد، وقد عرف المصريون في عهد المملكة القديمة كيف يقوون النحاس بخلطه بالقصدير، أي عرفوا صنع البرونز. ونذكر أيضاً قضية نقل هذه الأحجار إلى موضع بناء الهرم، وهذه قضية لا يُستهان بها بالنظر لحجومها الكبيرة وكثرتها الهائلة.

هـ ـ وإذا ما تهيأت مواد البناء اللازمة وجُلبت إلى موضع بناء الهرم فتبقى أيضاً مشكلة أساسية هي رفع مثل هذه الأحجار الضخمة (التي قلنا إن الواحدة منها تزن معدل الطنين ونصف الطن في الهرم الأكبر). وبالنظر لتعذر معرفة المصريين بالآلات التي تشتغل على مبدأ البكرات فالمحتمل أن طريقة الرفع التي ابتكرها بناة الأهرام تدور على مبدأ المنحدرات (ramp) المكوّنة من الآجر والتراب، حيث كانوا يعلونها منحدرة إلى الأعلى من مستوى الأرض إلى الارتفاع المطلوب، وبعد إكمال البناء تُرفع مثل هذه المنحدرات وبالإمكان رفع الأحجار الكبيرة وإيصالها إلى أعلى ارتفاع من المنحدر بواسطة الزلاجة (sledge)، كما استعملوا العتلات لرفع الحجرة ووضعها وضعاً متقناً في الموضع المراد بناؤها فيه[1].

---

(1) انظر:

A. Lucas, **Ancient Egyptian Materials and Industries** (1934).

ولا بدّ أن ننوّه هنا بمبلغ الجهود الهائلة التي صُرفت على بناء الأهرام بحيث إنها تركت أثراً بالغاً في ذاكرة الأجيال المتأخرة فيروي لنا هيرودوتس[1] مثلاً أن بناء الهرم الأكبر في الجيزة قد تطلّب تشغيل مائة ألف عامل، واستمر العمل فيه مدة عشرين عاماً، وإن كل مائة ألف عامل كانوا يشتغلون ثلاثة أشهر في العام لنقل الحجارة فقط، وكان هناك جماعات أخرى من العمال الماهرين في بناء الهرم، ناهيك عن الفنانين الذين نحتوا التماثيل والمنحوتات الأخرى والصُّنّاع الماهرين الآخرين الذين صنعوا الأثاث الفاخرة وزيّنوا المعابد الملحقة بالهرم بالنقوش والرسوم، كذلك نذكر مهارة الصاغة والجوهريين. فإذا علمنا ذلك أدركنا لماذا جعل غير واحد من المؤرخين بناء الأهرام سبباً رئيسياً من أسباب تدهور المملكة القديمة وقيام دور من الفوضى السياسية والاجتماعية.

8 ـ لقد سمى المصريون القدماء الهرم باسم «مير» (Mer) وهي كلمة لا يعلم معناها بالضبط. أما الاسم المتداول في اللغات الأوروبية أي (Pyramid) فمأخوذ من الكلمة اليونانية (Pyramis) وجمعها (Pyramides)، وهي كلمة قيلت في أصلها جملة تفاسير ترجع إلى كلمات مصرية قديمة، من بين ذلك مصطلح رياضي هندسي لفظه بالمصرية القديمة «بير ـ إيموس» (Per-em-us) التي أطلقها الرياضيون المصريون القدماء على الارتفاع العمودي للهرم[2]، وقد يجوز أن لا تكون هناك علاقة اشتقاقية بين هذه الكلمة وبين الكلمة اليونانية «بيرميس».

أما لماذا اختار فراعنة مصر شكل البناء المقام فوق قبورهم بهيئة هرمية صحيحة وعدلوا عن شكل الهرم المدرّج ففي تفسير ذلك عدّة آراء، منها أن شكل الهرم مقدس، إذ إنه رمز الإله الشمس كما يقوم في المحراب المقدس في معبد هذا الإله في «هليوبوليس» وأن هذا الرمز الهرمي يمثّل أشعة الشمس

---

(1) (Herodotus, Bk. II, 124).

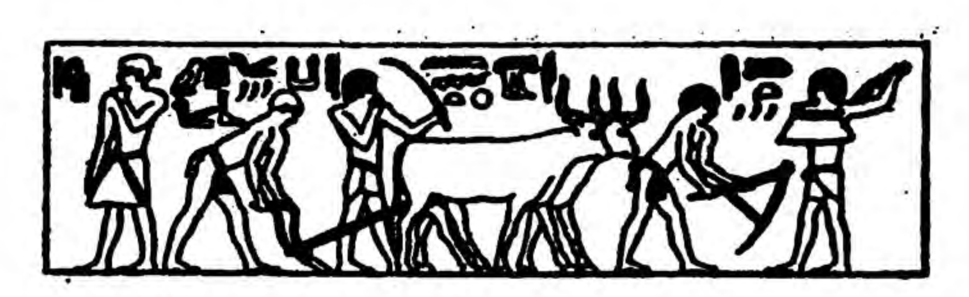
(2) كما ورد هذا المصطلح في مؤلف مصري في الهندسة فيما يعرف باسم «بردية رند» (The Rhind Papyrus) انظر الكلام على العلوم في حضارة وادي النيل في هذا الكتاب.

ـمنبعثة من مصدرها[1]، وتصف لنا «النصوص الهرمية» صعود الملك إلى ـسماء بأنه يحمل على أشعة الشمس، فيكون الهرم واسطة اتصال الفرعون ـالسماء وارتقائه إليها، كما أن بعض الباحثين ذهبوا في معنى كلمة الهرم ـمصرية «مير» أنها تعني موضع «الصعود» أو المعراج إلى السماء[2]، وأن فكرة العلو والاتصال بواسطة بناء مرتفع بالآلهة في السماء فكرة مألوفة في حضارات الشرق القديم، ومن ذلك فكرة الصرح المدرج (الزقورة) في حضارة وادي الرافدين، ولعل بعض أسماء الزقورات مثل اسم زقورة «سبار» (بيت ـنم السماء البهية) تفسّر لنا معنى اسم الهرم المقترح أي «موضع الصعود» (إلى السماء) أو واسطة الاتصال بين الأرض والسماء، ومن الباحثين من رأى ـن شكل الهرم يرمز إلى شكل الموضع الذي تمّت فيه الخليقة بحسب الأساطير ـمصرية، حيث كان ذلك فوق «ربوة» أو «تل» وجد فوقه الإله الخالق «أتوم».

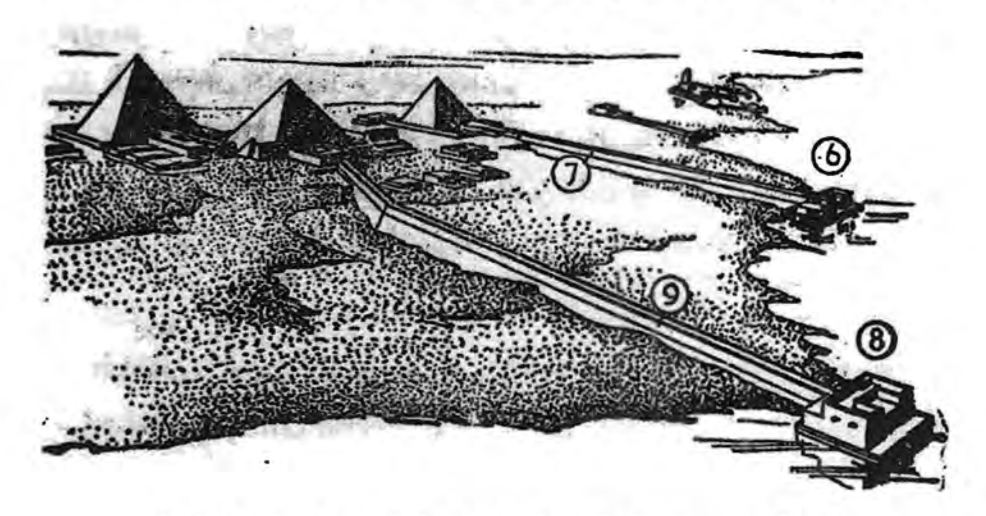
---

(1) Breasted, **The Development of Religion and Thought in Egypt** (1912), p.72.

(2) Edwards, **Op. Cit.**, 237.



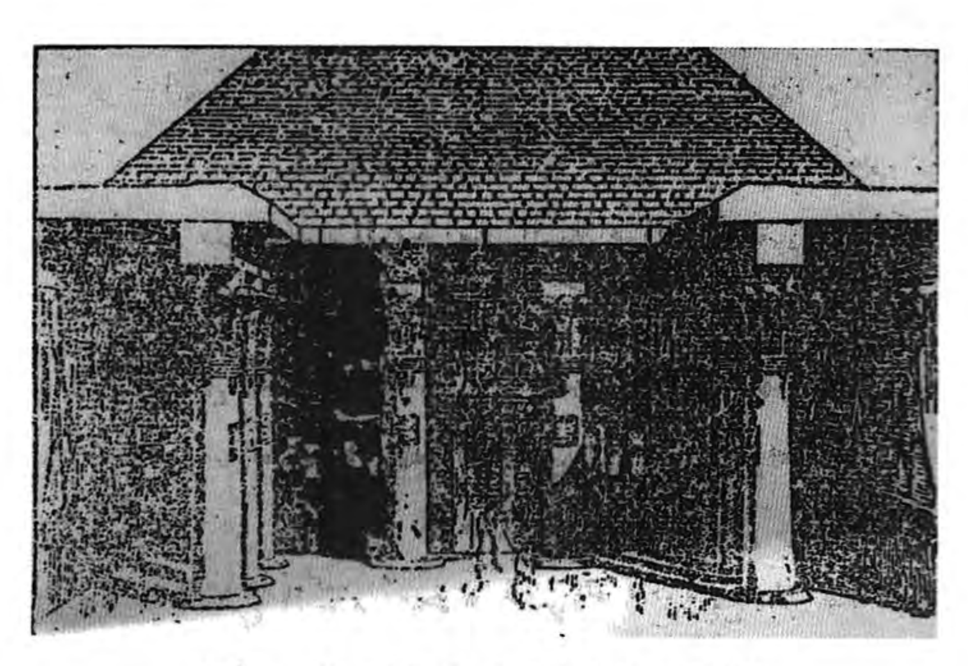
صورة تمثل حرث الحقل وبذره في عصر الأهرام وجدت مصورة في جدران قبر أحد النبلاء.



أهرام أبو صير على ما كانت عليه في الأصل في عهد السلالة الخامسة.



صورة أهرام الجيزة مأخوذة بالطائرة (من الجو).



ساحة المعبد المشيّد لصق الهرم كما كانت عليه في الأصل
وهي ترينا صفوف الأعمدة المهيبة (من عصر الأهرام).



الهرم المدرج (Step Pyramid) في صقارة.

الفصل الثاني والعشرون

عهد المملكة الوسطى

نهاية عصر الأهرام وفترة الإقطاع المظلمة:

دام عصر الأهرام، كما بيّنا سابقاً، زهاء خمسة قرون (2780 ـ 2270) كانت المملكة المصرية في خلاله، كما رأينا، موحّدة تدور إدارتها على سلطة الفراعنة المركزية، يساعدهم موظفو البلاط. وكانت طبقة النبلاء والأمراء كذلك تقوم عليها إدارة الدولة، وهي متعلقة بالفرعون والعرش. وتعيش في قصورها بجوار بلاط الملك، وإذا مات النبلاء دفنوا حول قبر ملكهم أي حول الهرم الكبير رمز تعلّقهم بالملك في الحياة الأخرى. وكان النبلاء والأمراء يحكمون المملكة خارج العاصمة ويعين الملك منهم من يعتمد عليه. فكانت وظائف هؤلاء النبلاء في بادىء الأمر غير وراثية وسلطتهم مستمدة من سلطة الملك. ولكن النبلاء استقلوا في أواخر عصر الأهرام فانتقلت المملكة من حكومة ذات سلطة مركزية بيد الملك ووزرائه وموظفيه إلى حكومة لا مركزية استقل فيها حكّام المقاطعات من النبلاء بأقاليمهم وقد أدّى ضعف الفراعنة إلى ترك هؤلاء النبلاء وشأنهم فعاد الحال في مصر إلى ما كان عليه قبل عصر الأهرام، يوم كان القطر مجزّءاً إلى دويلات ولعل ما أصاب موارد الدولة من الإرهاق وتشييد الأهرام الكثيرة وتخصيص جهود المنتجين على صرف تلك الموارد على عبادة الملوك والأمراء المتوفين قد شلّ من حيوية المصريين وأضعفهم حتى أنه لم تنته السلالة السادسة إلّا والبلاد في فوضى ضاربة بحيث أهملت الزراعة فحدثت المجاعات. فحل عهد مظلم دام زهاء 170 عاماً،

وشمل حكم أربع سلالات، من السلالة السابعة إلى العاشرة (2270 ـ 2100 ق.م)، تجزأت فيه البلاد إلى أقاليم ودويلات يحكم فيها أمراء مستقلون أما الملوك الذين كانوا في هذا العهد فكانوا بالخيال أشبه منهم بالحقيقة وليس لهم سوى الاسم، ولم يقتصر أمراء الإقطاع على الاستقلال عن الفراعنة، بل صار كل منهم بمثابة فرعون في مملكته الصغيرة، وقد ذكر «مينثو» سلالتين حكمتا في «منفس» كان ملوكها قصيري الحكم وهما السلالة السابعة والثامنة وكانت سلطتهما محلية محصورة في إقليم منفس. وتحسّن الوضع قليلاً في عهد السلالة التاسعة والعاشرة ولكنهما لم تستطيعا من بسط سلطانهما على جميع القطر. وقد كان هؤلاء النبلاء في حروب مستمرة فيما بينهم حيث كانت المدن تحترب لبسط سلطانها على سائر القطر، وقد استطاعت إحدى هذه المدن وهي مدينة «طيبة» أن تخضع في آخر الأمر معظم المدن وتبسط سلطانها على سائر القطر المصري. فقام فيها سلسلة من الملوك حكمت جميع البلاد وضمّتها في مملكة واحدة. فبدأ عهد جديد في تأريخ مصر القديم عرف بعهد المملكة الوسطى (2100) وهي المملكة الموحدة القوية بعد المملكة القديمة في عصر الأهرام.

وازدهرت في هذا العهد سلالتان اشتهرتا في تأريخ مصر، وهما السلالتان الحادية عشرة والثانية عشرة ويُعاصر هذا العهد سلالة أور الثالثة والعهد البابلي القديم في العراق . وتعاصر السلالة الثانية عشرة سلالة بابل الأولى بوجه خاص. وقد خلفت لنا السلالة الثانية عشرة آثاراً جليلة ولا سيما في المعابد الشهيرة المشيّدة للإله «أمون» في «الكرنك» وللإله «رع» في مدينة الشمس (هليوبوليس). وقد استأنفت مصر في عهد المملكة الوسطى، ولا سيما في عهد السلالة الثانية عشرة، علاقاتها مع العالم الخارجي حيث أرسل الفراعنة حملات وبعثات تجارية إلى «ليبيا» لجلب الأحجار وإلى طور سيناء لجلب بعض الأحجار الكريمة مثل الزبرجد والفيروز وإلى غابات سوريا ولبنان لجلب الأخشاب وإلى الجنوب لجلب الذهب وقد وجدت في جزيرة كريت (اقريطش) آثار من أواني الفخار تضاهي ما يماثلها من الآثار المصرية في عهد

السلالة الثانية عشرة. وقد تمكّن النفوذ السياسي والثقافي في سوريا ولا سيما في البلاد الساحلية. وقد أعقب ذلك النفوذ السياسي والثقافي البابلي في عهد سلالة بابل الأولى. وقد التقى نفوذ الحضارتين المصرية والعراقية عند مدن سوريا الساحلية مثل جبيل وأوغاريت بدون أن يحدث بين الحضارتين تصادم مسلح. ومن الأشياء الطريفة التي أظهرها البحث الحديث أن ملك سوريا اسمه حمورابي أيضاً كان يعاصر حمورابي البابلي وقد كان بين الاثنين حلف وصلات طيبة. وكانت مملكة حمورابي السوري تسمى «يمخد» وعاصمتها في حلب.

وفيما كان عالم الشرق الأدنى ينعم بالاستقرار في زمن السلالة الثانية عشرة المصرية وسلالة حمورابي في بابل كانت براري «أوراسيا» (أوروبا ـ آسيا) تموج بالكتل البشرية الهمجية وتندفع بهيئة موجات إلى الشرق الأدنى مركز العالم المتمدن آنذاك فأحدثت فيه الارتباك والفوضى، واستوطنت فيه أقوام جديدة كالحثيين الذين حلّوا في الأناضول وشمالي سوريا والكشيين في العراق بعد سلالة حمورابي والهكسوس الذين قضوا على المملكة الوسطى، وظهر بعد حين إلى عالم السياسة الدولية الآشوريون، وسنأخذ شيئاً موجزاً عن الحالة في مصر في عهد الهكسوس وما أعقبه من نشوء الأمبراطورية المصرية.

شيء عن الحضارة المصرية في عهد المملكة الوسطى:

رأينا فيما سبق كيف انتهى عهد النبلاء بقيام سلالة طيبة، وهي السلالة الحادية عشرة التي بدأت عهد المملكة الوسطى. وبعد حروب كثيرة مع دويلات النبلاء قبلت جميع مصر زعامة طيبة.

وعلى الرغم من جهلنا بأمور كثيرة عن السلالة الحادية عشرة ولا سيما أمر ملوكها وتسلسلهم الزمني فقد جاءنا من أحد ملوك هذه السلالة معبد خُصِّص لعبادته بعد موته في «الدير البحري» في المقبرة الغربية قبال طيبة وقد أفادتنا المنحوتات التي وجدت في هذا المعبد فوائد جليلة عن الفن المصري في زمن المملكة الوسطى، ونشاهد فيها تقليداً موفقاً لفن عصر الأهرام ولا

سيما من زمن السلالتين الخامسة والسادسة. ولكن كان الفن المصري في بداية السلالة الحادية عشرة يظهر عليه طابع السذاجة، بيد أنه أخذ في التحسّن بمرور الزمن. ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أننا نعرف بعض الفنانين من هذا العهد فقد أخبرنا أحدهم المسمى «مرتسين» في مسلته التي خلفها من بعد موته شيئاً عن حياته إذ يقول: «لقد كنت فناناً ماهراً في فني. إنني أعرف فني وأعرف كيف أمثِّل الصور والأوضاع التي تمثل الحركة من ذهاب وإياب، بحيث يكون كل عضو وجارحة في موضعه الصحيح. وأعرف كيف أمثّل صورة إنسان كأنه يمشي وصورة عربة المرأة. . . الخ».

وازدهرت الحياة في عهد السلالة الثانية عشرة. وقد عرف ملوك هذه السلالة بأحد اسمين «امينمحيت» و«سنوسرت» وقد قدّس ملوك هذه السلالة الإلٰه «أمون» إلٰه طيبة وكذلك الإلٰه «سبيك» وهو الإلٰه الذي يمثله التمساح الخاص بالفيوم وتمتاز السلالة الثانية عشرة عن السلالة السابقة بكثرة معلوماتنا التأريخية عن عهود ملوكها وأسمائهم وأعمالهم، وقد حكمت زهاء القرنين من الزمان. ومما يقال عن عهد هذه السلالة إنه كان عهد سلم ورخاء واتحاد في القطر المصري بالنسبة إلى العصور التي سبقته. وقد عمل ملوكها على تحديد حدود الولايات وتحديد سلطات النبلاء. وقد وضع بعض ملوكها الأقوياء أسس الإدارة والحكومة القوية التي سنشاهدها في أيام الأمبراطورية. ولم يسر ملوك السلالة الثانية على خطا ملوك السلالة الحادية عشرة بجعل العاصمة طيبة حيث يصعب إدارة الدولة فيها بل نقلوا العاصمة إلى الشمال ولا يعلم موضعها بالضبط.

وبوسعنا أن نفهم مقدار الثروة والقوة التي تمتع بها ملوك السلالة الثانية عشرة من الأبنية والعمارات التي خلفها هؤلاء الملوك ولا سيما في المعابد المخصصة للإلٰه «أمين» أو «أمون» في الكرنك وللإلٰه «رع» في هليوبوليس ومعابد آلهة أخرى مثل معبد الإلٰه «حيرشوف» في هيراكليوبوليس. وشيّد الملك «سنوسرت» الأول أولى المسلّات العظيمة في مصر إزاء معبد «هليوبوليس»

وشيّد «أمينمحيت» الثالث معبداً فخماً كثير المرافق، وهذا هو المعبد الذي دهش له هيرودوتس في «هواره» ووصفه «ديودور» و«سترابو» و«بليني». وقد شيّده الملك إزاء هرمه في «هواره» ليكون معبداً لعبادته عند دفنه في الهرم.

ومما يقال عن الفن في عهد السلالة الثانية عشرة أنه وصل الذروة ولا سيما في العهد الأخير من أيامها، وامتاز بالواقعية ومحاكاة الطبيعة، ولم يصل الفن المصري إلى مثل هذا التطور إلّا في زمن الملك المصري أخناتون من عهد الأمبراطورية. وبلغ الفنانون مهارة ودقة وذوقاً راقياً، وكانوا في التناسب يشبهون فناني الإغريق.

وامتاز عهد المملكة الوسطى عن المملكة القديمة بظهور بعض الآلهة الجديدة منهم «أمين» (أمون)، وكان هذا هو الإله الحامي الخاص بأمراء طيبة. وقد طوبق مع الإله «رع» في بداية عهد السلالة الثانية عشرة، وهو الإله القديم الخاص بملوك «منفس» في عهد المملكة القديمة. وكذلك عبد الإله المسمى «سبيك» الذي يمثّل بالتمساح، وهو الإله الخاص بالفيوم وشاعت عبادة الإله «أوسيريس» وعظم شأنه وصار إله عالم الأموات وسيد هذا العالم وسوف نتطرق مرة ثانية إلى عبادة الإله «أوسيريس» وعلاقته بالإله الشمس «رع».

وسنشير إلى بعض الأمور المهمة في تطور الحضارة المصرية في هذا العهد ولا سيما في حقل الآداب والفن والاتجاهات الاجتماعية، كنشوء الاتجاه الجديد في العدالة الاجتماعية بالنسبة إلى الناس الاعتياديين كما ينعكس في أدب هذا العهد مما سنذكره في مبحث الحضارة[1].

الهكسوس:

أصل الهكسوس[2] ومهدهم من القضايا التي لا تزال موضع خلاف بين

---

(1) انظر: **Ancient Near Eastern Texts,** 7, 407.

(2) أصل اسمهم من المصطلح المصري «هيكوشوسويت» (heku shoswet) الذي يعني حكّام البلاد الأجنبية.

المؤرخين ولعل أسلم الافتراضات أنهم كانوا خليطاً «فاضوا من بوتقة انصهار الشعوب» من شرقي البحر المتوسط على الحافة وانجرفوا بعدئذ إلى مصر وأنهم عندما جاؤوا إلى مصر كان كثير منهم يتكلم إحدى اللغات السامية الغربية. وقد كان الهكسوس بوجه عام نتيجة عن هجرات الأقوام العامة في الألف الثاني ق.م. من براري آسيا الوسطى وأوروبا ومن ذلك مجيء موجات إلى جهات الشرق الأدنى، وكان من جملة هؤلاء الأقوام الهكسوس الذين غزوا سوريا وفلسطين وكوّنوا هناك دولة وقتية وقد اختلطوا هنا بالساميين والتحق بجمعهم كثير من الساميين عندما غزوا مصر فكان العنصر المركزي فيهم من الكنعانيين والأموريين وهذا ما جعل المصريين القدماء يسمونهم بالهكسوس (ويعني ذلك الأمراء البدو أو أمراء الصحراء) وسمّاهم الكاهن المصري «منيثو»، الذي عاش وكتب تأريخه المشهور في حدود 280 ق.م. بالملوك الرعاة وبالفينيقيين وبالعرب أيضاً. وسبب ذلك يرجع كما قلنا إلى مدة بقائهم في ديار الشام والتحاق جماعات كثيرة من الساميين بهم واختلاطهم أنفسهم بالساميين في أثناء بقائهم هناك واستعدادهم لغزو مصر. وقد اتّخذوا في الواقع سوريا وفلسطين قاعدة غزوا منها مصر وقد شملت ثقافة الهكسوس في بلاد الشام القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م. وتركوا فيها آثار حصونهم الخاصة كما وجدت في الموضع القديم المسمى «قطنا» الذي يرجّح أنه كان عاصمتهم في بلاد الشام، وكذلك في «قاديشا» و«أريحا» في فلسطين. وتميّز حكمهم في سوريا بالنظام الإقطاعي العسكري. وقد كانت المملكة المصرية الوسطى آنذاك تسير إلى التدهور بسبب النزاع الداخلي بين النبلاء والأمراء ولا سيما النزاع الحاد بين الشمال والجنوب، أي بين مصر العليا ومصر السفلى، فانتهز الهكسوس فرصة الضعف هذه وغزوا مصر السفلى ولا سيما الدلتا وثبتوا سلطانهم فيها حيث ابتنوا عاصمة جديدة هناك. واستمروا يحكمون مصر زهاء القرنين أي من عام 1788 حتى 1580 ق.م. وكان الهكسوس دون البلاد التي فتحوها حضارة فاقتبسوا الحضارة المصرية وأصبح ملوكهم فراعنة مثل ملوك مصر. وقد أدخلوا إلى مصر بعض الأشياء الجديدة

المهمة مثل استعمال الخيل للركوب والعربات الحربية التي تجرها الخيول مما ساعدهم على الفتح والقضاء على مقاومة المصريين. ويشير استعمالهم الخيل للركوب إلى علاقتهم بالأقوام الهندية الأوروبية التي جاءت منها موجات إلى أجزاء الشرق الأدنى في حدود هذا العهد وكان للخيل عند الهكسوس مقام رفيع. وقد أدخل الهكسوس إلى مصر أيضاً السيف «المقوّس» المصنوع من الحديد والقوس المركّب، وهو القوس الذي ظهر لأول مرة في العراق في عهد السلالة الآكدية، وقد أدخلت تحسينات مهمة في فن التعدين. ومما يقال في عهد الهكسوس في مصر إن شرهم فيها مبالغ فيه. فبالإضافة إلى الأشياء الجديدة التي أدخلوها إلى مصر ترجع إلى عهدهم طائفة مهمة من التآليف العلمية التي كانت نسخاً عن أصول أقدم، ولكنها دوّنت في هذا العهد، كما أن جزءاً مهماً من معرفتنا بالرياضيات المصرية مستمد من نصوص عهد الهكسوس في مصر. والمرجّح كثيراً أن سكنى بعض الإسرائيليين في مصر وقصة «يوسف» كما جاءت في التوراة ترجع إلى عهد الهكسوس أيضاً.

لم تعم سلطة الهكسوس مصر جميعها وإنما انحصرت بالدرجة الأولى في الدلتا في موضع يسمى «أفاريس» التي سُمِّيت أيضاً باسم «تنيس» وموضعها الآن في «صان الحجر». وكانت مصر العليا على شيء من الاستقلال فقد حكم في العاصمة المقدسة «طيبة» أمراء مصريون مستقلون كانوا يشعرون بوطأة الحكم الأجنبي ويعدّون العدّة للقضاء على الأجانب وتحرير البلاد من ملوك الهكسوس. فثار عليهم نبلاء من أواخر السلالة السابعة عشرة واستمرت الحرب سجالاً بين الطرفين زهاء نصف قرن حتى تمّ طردهم من البلاد نهائياً وتحرير مصر منهم على يد القائد المشهور «أحموسة» الذي كوّن سلالة جديدة هي السلالة الثامنة عشرة. فٱبتدأ عهد جديد في تأريخ مصر هو عهد الأمبراطورية.

عهد الأمبراطورية

لقد خلقت حرب التحرير التي شنّها المصريون على الهكسوس روحاً قوية في مصر الوطنية والإنتاج. فلم يكتف ملوك السلالة الثامنة عشرة بطرد الأجانب من مصر بل لاحقوا فلولهم إلى سوريا وحاربوهم هناك في مقرّهم القديم الذي غزوا منه مصر. فأستطاع أحد ملوك السلالة الثامنة عشرة وهو «طوطمس» الثالث (1506 ـ 1461 ق.م) أن يقضي على قوة الهكسوس قضاءً نهائياً في بلاد الشام في معركة كبرى وقعت في «مجدو» (1478 ق.م) فتثبت النفوذ المصري هناك وتكوّنت الأمبراطورية المصرية في سوريا، ومن مشاهير فراعنة هذه السلالة «أمنحوتب» الثالث الذي حكم حكماً طويلاً مزدهراً شمل أمبراطورية واسعة.

يعدّ هذا العهد الجديد من العصور المهمة في تأريخ مصر من حيث القوة والبأس والثروة، وقد دامت الأمبراطورية زهاء خمسة قرون (1580 ـ 1085 ق.م) من قيام الملك «أحموسة» الأول وتكوينه السلالة الثامنة عشرة إلى مجيء الفرعون «حاريحور» أو «هاريهور». وقد شملت الأمبراطورية عهد ثلاث سلالات وهي الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون. ولكن دبّ الانحلال والتفسّخ في الأمبراطورية منذ نهاية السلالة التاسعة عشرة التي أسسها «رعمسيس» الأول، وقضى ابنه وخلفه «سيتي» الأول معظم حكمه في الحروب في آسيا الغربية، وخلفه رعمسيس الثاني المشهور الذي دخل مع الحثيين في حرب طويلة وانعقدت في النهاية معاهدة السلم بين الجانبين. وخلف لنا آثاراً مهمة عنه كالتماثيل والعمارات. وانحطّت مصر في أواخر

السلالة التاسعة عشرة، ولكن رعمسيس الثالث مؤسس السلالة العشرين أعاد إلى مصر قوتها نوعاً ما واشتهر بانتصار حربي أحرزه على مجموعات كبيرة خليطة من الأقوام الآسيوية ومن فلول الإيجيين حيث هاجموا سواحل مصر من البحر، ولكن سرعان ما انهارت سلطة مصر بعد موت هذا العاهل، وانتهى العهد الجديد بعود الانقسام في المملكة المصرية إلى مملكة في الجنوب عاصمتها «طيبة» وأخرى في الدلتا عاصمتها «تنيس» وتقلص النفوذ المصري في نهاية السلالة التاسعة عشرة في البلاد الشامية وزال نهائياً وحلّ محله سلطان الآشوريين الذين تفرّدوا بالسلطة على جميع الشرق الأدنى. ولم تسلم مصر من هذا التدهور فانكمشت في داخل بلادها واستمرّ الضعف فيها حتى آل الأمر إلى أن غزاها الملوك الآشوريون في القرن السابع ق.م. وحلّ في البلاد بعض الانتعاش بعد زوال الآشوريين، ولكن مصر القديمة لم تستطع أن ترجع سالف عزّها. وغزاها الفرس في عهد «قمبيز» خليفة «كورش». وسنوجز العهود المتأخرة في تأريخ مصر فيما بعد.

العلاقات الدولية بين ممالك الشرق الأدنى

في عهد الأمبراطورية المصرية (1580 ـ 1085 ق.م):

لقد سبق أن ذكرنا (في الجزء الأول) أن الكشيين اندمجوا بالبابليين في العراق وطغت عليهم الحضارة البابلية وأسسوا سلالة دامت نيفاً وخمسة قرون. أما في مصر فبعد أن حكم الهكسوس في الدلتا زهاء القرنين ثار عليهم آخر نبلاء السلالة السابعة عشرة وتمّ طردهم وتحرير البلاد منهم بقيام السلالة الثامنة عشرة كما بيّنا من قبل. ولكن لم يكتف ملوك هذه السلالة بطردهم بل لاحقوهم إلى فلسطين وسوريا التي منها غزا الهكسوس البلاد المصرية. فنتج ذلك تكوين الأمبراطورية المصرية. وبدأ طور جديد في تأريخ الشرق الأدنى انمحت فيه الحواجز في العالم القديم واتصلت الشعوب بعضها ببعض ودخلت في علاقات مباشرة وتكوّنت بين الدول صلات دبلوماسية هي الأولى من نوعها في تأريخ العلاقات الدولية ودخلت الحضارة في طور عالمي في أكثر مظاهرها وأوجهها. وتتميز العلاقات في هذا العهد إلى سعتها وشمولها بكثرة النصوص والوثائق التأريخية مما جاءنا من السجلات الرسمية الملوكية ولا سيما من مصر ومن عاصمة الحثيين «حاتوشاش». وقد اشتهرت الرسائل الرسمية التي عثر عليها في «تل العمرانة» عاصمة الفرعون «أخناتون» شهرة عظيمة بحيث أُطلق اسم «العمرانة» على قسم من هذا العهد التأريخي.

إن اتساع العلاقات بين دول الشرق الأدنى في هذا العهد (عهد الأمبراطورية المصرية) يجعل من المتعذر تفصيل القول في أوجهها المختلفة

ولا سيما الأوجه السياسية والثقافية، لذلك نجتزىء هنا بذكر أبرز تلك الأوجه.

فأولاً اتّصفت العلاقات السياسية والحربية بتوازن القوى الدولية في النزاع بين المصريين والحثيين والميتانيين والآشوريين للسيطرة على الشرق الأدنى ثم انحصر النزاع بين الآشوريين والبابليين والآراميين بعد ضعف المملكة المصرية وزوال الحثيين والميتانيين من ميدان النزاع. ونتج من تلك العلاقات المتشابكة المعاهدات والمحالفات والعلاقات «الدبلوماسية» الواسعة مما لم نعرف له مثيلاً في تأريخ الشرق القديم فيما قبل هذا العهد. وثانياً نتجت عن هذه الصلات المباشرة الواسعة اتصال حضارات الشرق القديم بعضها ببعض اتصالاً قوياً جديداً فأثرت بعضها في بعض تأثيراً متبادلاً جعلها تدخل في طور أصحّ ما يتميّز به الوحدة في الحضارة: في الفن وفي العادات والمعتقدات وحتى في اللباس والأزياء وقد استعمل الناس لغة واحدة هي اللغة البابلية بالخط المسماري في معاملاتهم التجارية والملوك في تثبيت علاقاتهم السياسية وفي تدوين مراسلاتهم. وهذا يشير بلا أقل ريب إلى مبلغ تغلغل حضارة العراق القديم في جميع الشرق الأدنى لأن استعمال اللغة البابلية لغة الدبلوماسية العالمية لا يمكن تفسيره بنفوذ البابليين السياسي أو الحربي في هذا العهد الذي حكم فيه العراق الكشيون وهم دون ملوك مصر وملوك الحثيين في القوة العسكرية.

وبلغ أمر الاتصال بين الشعوب والدول من الشدة بحيث ذاعت المعتقدات الدينية فكانت تماثيل الآلهة يتبادل إرسالها ملوك ذلك الزمان. فمن الحوادث الطريفة في هذا الصدد أن الملك المصري «أمنوفس» أو «أمنحوتب» الثالث مرض مرة فأرسل إليه الملك الميتاني «تشراتا» تمثال الإلهة الآشورية «عشتار» من نينوى لتشفيه من مرضه وكان يصحب هذا التمثال على ما يرجّح أطباء آشوريون. وأرسل الملك البابلي مرة طبيباً وراقياً (عرافاً) إلى الملك

الحثي. وكان أطباء مصر الذين اشتهروا بحذقهم يزورون «بلاطات» الملوك في الشرق الأدنى.

ولنأخذ نموذجاً مختصراً من المخاطبات الدبلوماسية بين ملوك ذلك الزمان، من إحدى رسائل «العمرانة» وهي الرسالة التي كتبها الملك البابلي الكشي «بورنابورياش» إلى فرعون مصر «أمنوفس» الرابع (أي أخناتون) وهذه ترجمتها:

إلى (نفخوريريا)[1] ملك مصر.

«هكذا يقول بورنابورياش، ملك بابل، أخوك.

«إنني بخير، فعسى أن تكون أنت وبيتك، وزوجاتك وأولادك ونبلاؤك وخيلك وعرباتك بأحسن حال.

«منذ أن عقد أبي وأبوك الودّ فيما بينهما كانا يتهاديان أنفس الهدايا ولم يمنع أحدهما ما كان يطلبه الآخر مهما عزّ وغلا.

«والآن لقد أهدى إليَّ أخي «منين»[2] من الذهب. فوددت لو أنك أرسلت إلي ذهباً بقدر ما كان يهديه أبوك. وإذا كان لا بدّ من تقليل المقدار فأرسل إلي نصف ما كان يرسله أبوك. فلِمَ أرسلت «منين» من الذهب فقط؟ إنني الآن باذل جهداً كبيراً في بناء المعبد. وقد تعهدت العمل بقوة وسوف أنجزه بالدقة فأرسل إلي قدراً كبيراً من الذهب. وإذا رغبت في شيء من بلادي مهما كان فأبعث رسلك يأتوك به.

«في عهد أبي «كوريكالزو» أرسل إليه الكنعانيون يقولون: «لنذهب إلى حدود مصر ولنغزها جميعنا وسوف نعقد معك حلفاً». أما أبي فقد أجاب على هذه الرسالة قائلاً: «كفوا عمّا تنشدونه من الحلف. إذا كنتم أعداء ملك مصر،

(1) وهو اسم أمنوفس الرابع الذي ينطق باللسان المصري القديم «نفر ـ خفيرو ـ رع».
(2) يزن «المنّ» البابلي نحو نصف كيلو غرام من أوزان الزمن الحاضر.

أخي، فليكن الحلف فيما بينكم. ولكن لتحذروا جانبي. إذ لما كان ملك مصر حليفي فمن ذا الذي يصدّني عن أن أغزوكم؟».

«وهكذا فلأجل أبيك لم يسمع أبي مقالتهم. أما ما يخصّ بعض الآشوريين من أتباعي (كذا) أفلم أخبرك برسالة في شأنهم؟ فلِمَ دخلوا بلادك؟ وبما أنك تحبني فيقيني أنك لن تدخل معهم في شيء وأنك ستعمل على إحباط جهودهم وسعايتهم.

و(بالختام) لقد أرسلت إليك هدية، ثلاثة «منات» من اللازورد وعشرة أفراس لخمس عربات من الخشب».

إن هذه الرسالة جزء من قصة طويلة في تأريخ العلاقات السياسية بين أقطار الشرق الأدنى. ولعل أحسن سبيل لفهم فحواها تقسيمها إلى فصلين يؤلفان حقبتين في تأريخ تلك العلاقات. أما الفصل الأول فيبدأ بتكوين الأمبراطورية المصرية منذ السلالة الثامنة عشرة (في القرن السادس عشر ق.م). وينتهي بزوال تلك الأمبراطورية بعد عهد «رعمسيس» الثالث (وهو آخر عاهل قوي في السلالة العشرين) في نهاية القرن الحادي عشر ق.م. ويبدأ الفصل الثاني بزوال الأمبراطورية المصرية في بداية السلالة الواحدة والعشرين (في حدود 1085 ق.م). ويتميز هذا العهد بضعف المملكة المصرية وتعاظم الآشوريين وسيطرتهم على الشرق منذ زمن «شيلمنصر» الأول (القرن الثالث عشر ق.م) و(تجلاثبليزر) الأول (في حدود 1150 ق.م). وقد انتهى بالنزاع المسلح بين الآشوريين والمصريين في القرن السابع ق.م. ولعل الفصل الأول أمتع قصة في التأريخ البشري وأطرف حقبة في العلاقات الدولية في العالم المتمدن آنذاك. فعندما تكوّنت الأمبراطورية المصرية في البلاد الشامية انحصر النزاع الحربي في بادىء الأمر بين فراعنة السلالة الثامنة عشرة من جهة وبين الأمراء الشاميين وملوك الحثيين من الجهة الثانية. ولم تكن دول الشرق الأدنى الأخرى في هذا الطور على قدر كبير من القوة السياسية فلم تدخل في المراحل الأولى

من هذا النزاع الدولي. فالملوك الكشيون في العراق كانوا ضعفاء بالنسبة إلى المصريين وإلى الحثيين ولعل ذلك جعلهم يلتزمون الحياد من جهة ويركنون إلى صداقة الملوك الفراعنة على الدوام، وكذلك كانوا مع الملوك الحثيين وكان الآشوريون في بدء قوّتهم السياسية يتربصون الفرص ويعدّون العدة للدخول في النزاع المسلح. وحانت للحثيين أحوال مناسبة في نهاية حكم «أمنوفس» الثالث في حدود (1390 أو 1380 ق.م) حيث خلفه على العرش المصري (أمنوفس) الرابع (أخناتون) الذي شغلته ثورته الدينية عن شؤون الملك في الداخل وفي الخارج. ولكن اعتلى العرش الحثّي ملك هو (شوبيلوليوما) وكان على جانب كبير من المقدرة والدهاء. وكان في الشرق الأدنى في هذا العهد دولة صغيرة تدعى دولة (ميتاني) عرفها المصريون باسم (نهارين) في شمال العراق بجوار الآشوريين. وكانت هذه الدولة بمثابة «دولة حاجزة» ومفتاح النزاع والتنافس بين مصر والحثيين على بلاد الشام. وانضم إلى الدول المتنافسة الآشوريون الذين كانوا يخشون ضغط الدولة الميتانية وتوسعها على حسابهم. وقد رأت مصر تجاه خطر الحثيين والآشوريين أن تكسب صداقة الدولة الميتانية فكانت بين الطرفين مصاهرات سياسية. ولكن ذلك لم يخلص الميتانيين من تدخل الحثيين والآشوريين. ففرض الحثيون أولاً حمايتهم على «ميتاني» بعد انقسام في البيت المالك فيها ثم قضى عليها الآشوريون عندما صفا لهم الجو السياسي بعد الحثيين.

بدأ الملك الحثي «شوبيلوليوما» نزاعه مع مصر على سيادة البلاد السورية بإثارة المعارضين من أمراء سوريا للنفوذ المصري. ثم بدأت من بعد ذلك بين الطرفين حروب ومعارك دامت زهاء القرن الواحد (1380 ـ 1278 ق.م) آخرها المعركة المشهورة التي وقعت في «قاديش» في سوريا بين (رعمسيس) الثاني والحثيين مع أحلافهم من الأمراء السوريين، وعلى الرغم من أن المعركة لم تكن حاسمة فإن الإعياء الذي أصاب الجانبين وخوف الحثيين من خطر التوسع الآشوري الذي داهمهم في زمن (شيلمنصر) الأول، كل ذلك

عمل على وقف النزاع المسلح وعقد معاهدة[1] بين رعمسيس الثاني والملك الحثي (حاتوسيل) (في حدود 1278 ق.م) تنطوي على إحلال الصداقة وعدم الاعتداء بين المصريين والحثيين وقد تزوج على أثرها الفرعون المصري بأميرة حثّية وكان من نتائج وقف النزاع بين مصر والحثيين عود العلاقات السلمية في الشرق الأدنى فكانت فترة هدوء وسلام، واعترفت المعاهدة بالسيادة الحثية على سوريا وشمالي فينيقيا والسيادة المصرية على فلسطين وفينيقيا الجنوبية.

ولكن لم يدم هذا السلم أمداً طويلاً إذ حلّ اضطراب جديد في الشرق الأدنى مبعثه من الخارج بنتيجة هجرات الأقوام (الهندية ـ الأوروبية) التي أزاحت موجات أخرى من الأقوام ودفعت بهم إلى أقطار الشرق الأدنى. فقد أزاحت القبائل الإغريقية الإيجيين من مواطنهم في جزر بحر إيجه واندفعت فلول من هؤلاء الإيجيين إلى الشرق الأدنى إلى سوريا وفلسطين فغزت بعض المدن الفينيقية في الساحل مثل جبيل وأوغاريت (رأس شمرة الآن) وهدّد قسم منهم الحدود المصرية مما اضطر رعمسيس الثالث (أول ملوك السلالة العشرين كما نوّهنا بذلك من قبل) إلى الاشتباك معهم بمعارك برية وبحرية لدرء الخطر عن أبواب مصر. ومن النتائج الخطيرة لتلك الهجرات تحطيم المملكة الحثّية وإزالتها من الوجود (في حدود 1200) وتمكّن قسم من فلول الإيجيين، وهم

---

(1) انظر حول وثيقة المعاهدة في:

W.M. Mueller, Der Bundnisvertrag Ramses II und des Chetiterkoenigs.

وفي ترجمة «مصر في العصور القديمة لأدولف أرمان وهرمان رانكة» 616 فما بعد وكذلك أحدث ترجمة لها في الأصل البابلي والنسخة المصرية في: **Ancient Near Eastern Texts, 199 ff.**

وكانت هذه المعاهدة قد كُتبت بالأصل بالبابلية والخط المسماري في لوحة من الفضة ولها نسخة مترجمة إلى المصرية حيث نُقشت في جدران معبد أمون في الكرنك ووجدت النسخة الحثية في بوغاز كوي. وتبدأ المعاهدة بألقاب الملكين المتعاهدين ثم المقدمة وخلاصة العلاقات بين البلدين إلى زمن إبرام المعاهدة، ثم إحلال السلم بين المملكتين وعدم الاعتداء من الجانبين وذكر فيها الدفاع والمساعدة التي يجب أن يسديها أحد الطرفين إلى الآخر. وفيها مواد في تبادل تسليم المجرمين والثائرين من أحد الجانبين إلى الآخر.

الفلسطينيون المذكورون في العهد القديم، من تأسيس دويلات في بعض مدن الشام الساحلية كغزة وعسقلون وغيرهما واشتقّ اسم «فلسطين» من اسم هذه القبيلة، ومما زاد في اضطراب الأحوال قبل هذا الزمن مجيء هجرات أخرى من الساميين وهم الآراميون والعبرانيون. وقد بدأ الآراميون يثبتون أقدامهم في ربوع الشرق الأدنى ودخلوا في نزاع رهيب عنيف مع الآشوريين شغل طوال القرنين الحادي عشر والعاشر وقد كاد يقضي على كيان الآشوريين كما ذكرنا ذلك من قبل.

وإلى هنا نكون قد بدأنا في الفصل الثاني من قصة العلاقات بين أقطار الشرق الأدنى، وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الفصل يبدأ بزوال الأمبراطورية المصرية في عهد السلالة الواحدة والعشرين (في حدود 1085 ق.م) وقد صفا الجو للآشوريين الذين بدأوا بتعاظمهم الحربي وفرض سيطرتهم على الشرق الأدنى منذ القرن الثالث عشر ق.م. ولم يتصدّ لتحديهم من شعوب العالم القديم بعد ضعف المملكة المصرية وزوال المملكة الحثية إلّا الآراميون الذين ألفوا دويلات ومدناً مزدهرة في شمال العراق وفي سوريا وهددوا كيان الآشوريين فكانت بين الطرفين حروب طاحنة دامت طوال القرن الحادي عشر والعاشر ولم يستطع الآشوريون رغم جهازهم الحربي الرهيب من كسر مقاومة الدويلات السورية إلّا في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م.

أما المملكة المصرية فإنها مع الضعف الذي حلّ فيها وانكماشها في داخل بلادها لم تنفض يديها من مشاكل الشرق الأدنى بالمرة. فقد كانت تلتزم جانب الدويلات السورية الآرامية في النزاع بينها وبين الآشوريين. فإلى إرسالها الجيوش في بعض الأحايين لمساعدة هذه الدويلات في مقاومتها الآشوريين كانت كثيراً ما تحرضها على الثورة للتخلص من الحكم الآشوري القاسي مما حدا بالآشوريين في آخر عهدهم إلى الركون إلى مغامرة حربية، هي غزو مصر في زمن الملكين الآشوريين «أسرحدون» و«آشور بانيبال» في القرن السابع ق.م. في زمن السلالة المصرية الخامسة والعشرين. وبالرغم من

أن هذا الغزو لم يحقق غاية الآشوريين من إدماج مصر إلى الأمبراطورية الآشورية زمناً طويلاً فإن مجرى الحوادث يشير إلى تكوين طور جديد في العلاقات المصرية الآشورية يتميز بالصداقة التي تكوّنت في أواخر أيام الآشوريين. إذ يحدثنا التاريخ أن بعض فراعنة مصر (من السلالة السادسة والعشرين) قد ساعد الآشوريين في حروبهم مع الكلدانيين والماذيين ومع هذا فإن هذه المساعدة لم تخلص نينوى من المصير المحزن عندما ضربها الماذيون والكلدانيون في العام 612 ق.م.

حضارة مصر في عهد الأمبراطورية:

استمرت العاصمة المقدَسة (طيبة) في زعامتها على القطر المصري بعد نشوء الأمبراطورية فيها، حيث صارت عاصمة الأمبراطورية. ونستطيع من المآثر الفخمة التي خلّفها لنا فراعنة هذا العهد في طيبة أن تستخرج معلومات ثمينة عن حضارة مصر القديمة في عهد الأمبراطورية. ومن مآثر هذا العهد المعابد الفخمة في (الكرنك) وكذلك المقابر الواسعة المبنية في الجانبين الغربي والشرقي في المدينة. فلو ساعدك الحظ بزيارة لمصر فلا تنس أن تأخذ القطار الصاعد صوب الجنوب، وبعد أن يسير بك مسافة تزيد على 400 ميل جنوبي القاهرة تلمح الآثار الشامخة من العمد المرتفعة التي تطلع عليك من بين أشجار النخيل في الجهة الشرقية من النهر حيث موضع معبد الكرنك العظيم. وستجد أن هذا المعبد من أبدع ما شيّدته الحضارات القديمة، وقد زينت جدران المعبد بمنحوتات كثيرة كبيرة تمثل بالنحت البارز مشاهد الحروب التي خاضها فراعنة الأمبراطورية في آسيا ولا سيما في بلاد الشام، وتطغى صورة الفرعون التي بولغ في حجمها على مشاهد تلك الحروب، فنراه وهو في عربته الحربية التي تجرّها الخيول يفرّق جموع الأعداء. والعربة والخيول من المشاهد التي لا يمكن أن نراه في مآثر الأدوار التي سبقت عهد الأمبراطورية، لأن المصريين لم يعرفوها إلّا بعد عهد الهكسوس. وإلى التحسن في آلات الحرب في عهد الأمبراطورية تغير نظام الجيش حيث أوجد الفراعنة نظام

الجيش القائم قوامه النبّالة والعربات الحربية والخيالة، وكان كثير من فراعنة هذا العهد قواداً عسكريين أتقنوا فنون الحرب وقادوا الجيوش بأنفسهم.

وفي وسعنا أن ندرك من زيارتنا للمعابد والقبور في طيبة مبلغ الثروات الكثيرة التي جناها الفراعنة من فتوحهم الخارجية في آسيا وفي البلدان الواقعة جنوب مصر. والواقع أن فصلاً جديداً في تأريخ العمارة الفخمة والفنون قد افتتح في عهد الأمبراطورية ففي قاعات معبد الكرنك شيّد الفنانون أفخم صفوف من الأعمدة عرفتها الحضارات القديمة. ويبلغ ارتفاع بعضها وهي الأعمدة الوسطى (69) قدماً وتبلغ سعة تيجان الأعمدة بحيث (يستطيع مائة رجل أن يقف عليها وهم متراصفون) كما يقول المؤرخ (بريستد). ويستطيع الزائر أن يشاهد بالإضافة إلى هذه العمد في معابد الكرنك صفوف المسلّات والتماثيل الضخمة التي تمثل فراعنة عهد الأمبراطورية، ويشاهد كذلك صفوفاً من تماثيل الحيوانات وبخاصة (الخراف) وهي تمتد من معبد الكرنك إلى النيل.

ويرجع الفضل في الروعة التي نشاهدها في العمارة المصرية إلى النحات والرسام، فقد زوقت تيجان الأعمدة بألوان زاهية لتكون التيجان مشابهة للأشجار التي تمثلها. ولوّنت مشاهد الحروب والقتال التي نُحتت على جدران المعبد بألوان زاهية برّاقة. وقد تبلغ ضخامة تماثيل الفراعنة المنصوبة أمام المعابد مبلغاً بحيث تعلو على أبراج المعبد نفسه. واستطاع النحّاتون أن ينحتوا مثل هذه التماثيل الضخمة من حجرة كبيرة مكوّنة من قطعة واحدة. وقد يبلغ ارتفاع بعضها ثمانين أو تسعين قدماً وزنته قد تبلغ المائة طن. ونشاهد في الجانب الغربي من طيبة بعض هذه التماثيل الضخمة ولا سيما تمثال الملك «أمنوفس» الثالث الذي كان من أعاظم ملوك السلالة الثامنة عشرة. ونشاهد في الجانب الغربي كذلك مئات من معابد القبور وقد قطعت وحفرت في الحجر وهي تعود إلى مقابر كبار رجال الأمبراطورية من القوّاد والنبلاء والفنانين. وقد دوّنت في بعض المعابد أسماء أصحابها ولمح من تأريخ حياتهم. فنقرأ مثلاً

قصة ذلك القائد الذي خلص حياة الفرعون «طوطمس الثالث» عندما كان يصطاد الفيلة في آسيا (في الفرات الأعلى) وذلك بأن قطع خرطوم الفيل الذي أوشك أن يقضي على الملك. ونقرأ في قبر آخر قصة القائد الذي فتح مدينة «يافا» في فلسطين على حين غرة بأن خبأ رجاله في صناديق محملة على الحمير وأدخلهم إلى المدينة بصفتهم بضاعة تجارية وهي قصة تذكرنا بقصة «علي بابا والأربعين حرامي» في ألف ليلة وليلة، وقصة الزبّاء العربية.

وقد دفع المصريين اعتقادهم بالحياة الأخرى بعد الموت، كما ذكرنا فيما سبق، إلى إيداع أنفس الأثاث والأدوات في قبور الموتى. وهذا ما نجده في قبور العظماء في الجانب الغربي من طيبة، إذ وجد المنقبون فيها أثاثاً ورياشاً تعدّ على جانب عظيم من الروعة الفنية وتشهد بما بلغه الفن المصري من الرفعة والبذخ والأناقة في عهد الأمبراطورية. ونستطيع بدراسة هذه المقابر أن نقف على تطور الديانة المصرية منذ عهد الأهرام. فنجد في عصر الأمبراطورية فكرة البعث والقيامة والحساب فيما بعد الموت أوضح مما كانت عليه في عهد الأهرام. وكان الإله الذي يحاسب الموتى هو «أوسيريس» القاضي العظيم. فبأستطاعة الرجل الصالح أن ينال الخلود فيما بعد الموت ولكن كانت روحه توزن في ميزان يوضع في إحدى كفتيها رمز العدل والصدق وفي الكفة الأخرى قلبه (انظر الصورة آخر الفصل). وكانوا يضعون في قبر الميت لفة من ورق البردي المكتوب بأدعية وصلوات ورقى لتساعد الميت في العالم الآخر وكانوا يضعون مع هذا الكتاب الذي يدعى «كتاب الأموات» صورة تمثل الحساب بوزن النفس، فصار الخلود ليس ببناء الأهرام فحسب بل بالأعمال الصالحة التي يقوم بها البشر في هذه الحياة، وسنطرق هذا الموضوع في مكان آخر.

وحدثت في عهد الأمبراطورية، بعد مضي ما يقرب من القرنين، ثورة دينية في مصر تعدّ على قدر عظيم من الأهمية في تأريخ البشر وقد قام بهذه الثورة الفرعون المصري «أمنحوتب» أو «أمنوفس» الرابع الذي عرف باسم

أخناتون. فقد اعتقد هذا الملك بإله واحد لا إلٰه غيره، وهو الإلٰه الذي تصوَّر أن قرص الشمس مظهر من مظاهره وبلغ من تحمس هذا الملك لدينه الجديد مبلغاً جعله يناوىء الآلهة الأخرى ويحاول القضاء على عبادتها وحمل الناس على قصر العبادة على ذلك الإلٰه الواحد الذي سماه «أتون». وأراد أن يفرض عبادته على جميع أنحاء الأمبراطورية. وقد عمد على سدّ المعابد الخاصة بالآلهة الأخرى وإقصاء كهنتها ومحو أسماء الآلهة. وقد وجّه غضبه بالدرجة الأولى على الإلٰه (أمين) (أمون)، إلٰه طيبة العظيم الذي شيّد لعبادته معبد الكرنك الفخم، ولكرهه لهذا الإلٰه ولأن اسمه يدخل في تركيب اسمه (أي أمين - حوتب ومعناه أمين - يستقر) عمد إلى تغيير اسمه إلى (أخناتون، ومعناه: أتون راض) وهجر أخناتون العاصمة المقدسة طيبة وابتنى له عاصمة جديدة في موضع العمرانة الآن وسماها (أخت - أتون) (أي أفق الشمس)، ونقل إليها مقرّ العاصمة وأعمال الحكومة. وقد وجدت في هذه العاصمة السجلات الملكية الشهيرة ومن بينها الرسائل المرسلة إليه وإلى أبيه من ملوك الشرق الأدنى وحكام الأمبراطورية في بلاد الشام، وهي مدوّنة بالخط المسماري واللغة البابلية كما أشرنا إلى ذلك في بحث العلاقات الدولية في زمن الأمبراطورية. ووجد في هذه العاصمة كذلك نماذج جميلة من المنحوتات وفيها روح جديدة من التمثيل الواقعي والانطلاق من القيود القديمة فكأن هذه الثورة الدينية قد نفخت في الفن روحاً جديدة.

وثورة أخناتون الدينية في الواقع تُعدّ الأولى من نوعها في تأريخ الأديان البشرية، وهي بروحها توحيد خالص وتجريد لتصور البشر عن هذا الإلٰه. والذي لا شك فيه أن لهذه الثورة الدينية علاقة وثقى بالديانة العبرانية ولا سيما فكرة التوحيد وتجريد فكرة الله من شائبة الشبيه والتمثيل التي كانت عليها معظم الحضارات القديمة. وقد ذهب البعض إلى أن العبرانيين قد أخذوا عبادة أخناتون وأن موسى نفسه هو مصري من أتباع هذه الديانة الجديدة[1]. ونحن

(1) (Sigmund Freud, **Moses and Monotheism** (London 1940).

لا يسعنا أن نسهب القول في العوامل التي أدّت إلى هذه العقيدة التي تعدّ ثورة في تأريخ البشر، ولعل لنشوء الأمبراطورية علاقة بإيحاء هذه الفكرة إلى هذا الملك أو النبي الجديد فقد اعتقد بأن هذا الإله الأوحد قد خلق جميع الخلق والبشر باختلاف أشكالهم وألوانهم، وقد تصوّره هذا الملك بأنه إله رحيم عادل يشمل بعطفه ورحمته جميع المخلوقات. وقد ألّف لعبادته وتمجيده صلوات وأدعية هي من أصفى أنواع التوحيد والتجريد، لأنها تمثل مبدأ الوحدانية تمثيلاً صادقاً.

سبّبت هذه الثورة الدينية ارتباكاً في داخل مصر وضعفاً في أجزاء الأمبراطورية، وقد سبق أن لخصنا ذلك في بحث العلاقات الدولية في عهد الأمبراطورية. وبعد أن مات أخناتون قضي على ديانته ورجعت مصر إلى ديانتها الوثنية، ولكن الضعف المستمر في أنحاء الأمبراطورية وإلى ذلك كانت الأمبراطورية الحثية التي نازعت المصريين السلطة على بلاد الشام في أوج قوتها (راجع بحث العلاقات الدولية)، وعلى الرغم من نجاح ملوك السلالة التاسعة عشرة في إرجاع قسم من قوة الأمبراطورية إلا أن النزاع مع الحثيين قد أنهك قوى الدولة المصرية، فعقدت بين الطرفين معاهدة صداقة وعدم اعتداء، وما إن تخلصت الدولة المصرية من الخطر الحثي حتى جابهت خطراً أعظم وهو نشوء الدولة الآشورية وبداية تعاظم قوتها منذ القرن الثاني عشر ق.م. (راجع بحث الآشوريين).

أحوال الدولة المصرية بعد الأمبراطورية:

بدأ الانهيار والتفسخ في الأمبراطورية المصرية في أيام السلالة الواحدة والعشرين التي كان مركزها في الدلتا، كما ألمحنا إلى ذلك فيما سبق. وقد بدأ في عهد هذه السلالة نفوذ الليبيين في المملكة المصرية، حتى أنهم أسسوا سلالة منهم هي السلالة الثانية والعشرون (950 ق.م) كما تدل على ذلك أسماؤهم وأنسابهم واشتهرت هذه السلالة بحكم الفرعون القوي «شيشنك» وهو «شيشك» الوارد في التوراة الذي تدخل في شؤون المملكة الإسرائيلية من

بعد موت سليمان، ومما يشير إلى تدهور الوضع أن ملوكاً منافسين لهذه السلالة كانوا يحكمون في البلاد. ودخل الأمراء والنبلاء في نزاع وحروب فيما بينهم، وكانت السلالة التي حكمت من بعد ذلك أي السلالة الثالثة والعشرون على درجة من الضعف بحيث لم تستطع أن تسيطر على هؤلاء. ومما زاد في الطين بلة أن مملكة منفصلة قد تأسست في نوبية يرجّح أن يكون مؤسسها زعيماً من «ليبيا» فأزدادت الفوضى والنزاع بين الدويلات والأسر الحاكمة، واستمرّ سوء الوضع في عهد السلالة الرابعة والعشرين التي لم تتألف إلّا من ملك واحد، وامتاز عهد السلالة الخامسة والعشرين بتمكين حكم الأحباش وحصل اتحاد في البلاد، أي أصبحت الحبشة ومصر تحت حكم سلالة واحدة من الحبشة وبدت على البلاد بوادر القوة والانتعاش، ولكن صادف ذلك بلوغ الأمبراطورية الآشورية ذروة قوّتها واتساعها، فبدأ الخطر على مصر يهدد كيانها، ولما لم يسغ ملوك مصر الدخول في النزاع المباشر مع الآشوريين فإنهم صاروا يساعدون بلاد سوريا في كفاحها ضد سلطان الملوك الآشوريين، من سرجون وسنحاريب. واشتهر من ملوك هذه السلالة (ترهاقة) أو «طهراقا»[1] الحبشي الذي أبدى عزماً في مقاومة اندفاع الآشوريين، ولكن أسرحدون الآشوري دمر جيشه في 671 ق.م. في حدود مصر، واستولى على منفس وأخذ غنائم كثيرة، ويبدو أن من جملة الأسباب لتخاذل الدفاع ضد الآشوريين وجود جماعات كبيرة في مصر تبغض حكم الأحباش ولا سيما في القسم الشمالي من القطر، ولكن ترهاقة بذل الجهود لمصافاة أعدائه وجلبهم إلى جانبه في أثناء استعداده لطرد الآشوريين. بيد أن الآشوريين قاموا بمناورة بارعة لإحباط مشروعه، بأن عيّنوا في إدارة حكم البلاد وفي جباية الضرائب أمراء من أهل البلاد، ومع ذلك فإن ترهاقة كان حاكماً من الطراز الأول، فبعد أن ترك أسرحدون مصر بزمن قليل انقض ترهاقة على الحاميات الآشورية

(1) انظر خبر اكتشاف أجزاء من تماثيل فرعونية في نينوى تعود إلى هذا الملك في الجزء الأول.

وأوقع فيها السيف. ولكن «آشور بانيبال» الذي خلف أسرحدون أوقع الهزيمة في جيش ترهاقة وأعاد حكم الآشوريين في مصر، وجعل الملك الآشوري على رأس حكومة مصر الملك المصري (نيخو) المعادي للحكم الحبشي، ولكن مصر العليا ظلت موالية لترهاقة الحبشي، وقد استطاع ابنه أن يثور ويحاصر منفس ولعله قتل (نيخو) الصنيعة الآشورية، فأعاد الكرة «آشور بانيبال» وطرد الملك الحبشي ولاحقه إلى مصر العليا ودمّر مدينة طيبة. وخلف نيخو ابنه (بسماتيك) (664 ـ 610 ق.م) وكان تابعاً للآشوريين في حكم مصر. ولكن صادف حكم هذا الملك انهيار الأمبراطورية الآشورية وصادف عهد تدمير نينوى فاستطاع أن يؤسس حكماً ازدهرت فيه المملكة المصرية، وقويت ووسع سلطانها إلى مصر العليا ولم يكد يمضي على حكمه عشر سنين، وقد ظل مخلصاً في ولائه للآشوريين حتى أنه أرسل جيشاً في أواخر حكمه لمساعدة الآشوريين في دفاعهم ضد الماذيين والبابليين. وخلف بسماتيك ابنه المسمى (نيخو) (610 ـ 594 ق.م)، وقد رأينا هذا الملك يرسل بعد سقوط الدولة الآشورية جيشاً لاستعادة البلاد السورية إلى مصر، فلم يجد إلّا مقاومة طفيفة من ملك (يهوذا) الذي اندحر وقتل في المعركة، فسار نيخو إلى الفرات، فلاقاه في كركميش ولي العهد البابلي نبوخذنصر الثاني الذي أرسله أبوه (نبوبولاسر) لصدّ الجيش المصري، فاندحر هذا الجيش، وكادت تكون الكارثة أعظم لو لم يرجع نبوخذنصر على أثر سماعه بموت أبيه وتولّيه العرش. وقد أعقب (نيخو) ملكان هما بسماتيك و(حوفرا) أو (افريز)، وقد حرّض الأخير مملكة يهوذا على الثورة ضد سلطان البابليين في عهد «نبوخذنصر» الثاني، فكانت النتيجة تدمير المملكة اليهودية والفتك باليهود ونقلهم أسرى إلى بابل، كما ذكرنا ذلك من قبل (راجع الفصل الخاص بالعهد البابلي الأخير، وكذلك الكلام عن العبرانيين). ومن ملوك هذا العهد في مصر (أماسيس) الثاني (570 ـ 525 ق.م)، ومما يذكر عنه أنه انضم إلى أعداء الملك الفارسي (كورش). ولكنه لحسن حظه لم ير بعينه انتقام الفرس منه، إذ إن (قمبيز) غزا مصر بعد موته بتسعة أشهر (525 ق.م).

وقد أبدى قمبيز في بادىء أمره تساهلاً في حكم مصر فقد احترم ديانة البلاد، ولكنه غيّر هذه السياسة تغييراً تاماً ولا سيما بعد حملته الفاشلة إلى الحبشة فسحق البلاد ودمرها وارتكب الفظائع. ولكن دارا الثاني أبدى تساهلاً وصالح السكان حتى أنه بنى معبداً لأمون في الواحة الكبرى (واحة سيوا)، وعلى الرغم من الضرائب الفادحة فإن ولاية مصر ازدهرت نوعاً ما في عهد دارا، ولكن بعد كارثة (مراثون) ثارت مصر فأخمد الثورة أحشويرش بالشدة. وقد استمر العهد الفارسي حتى 332 ق.م. حيث فتح البلاد الإسكندر الكبير بعد موقعة (ايسوس) الشهيرة وبعد فتح فينيقية. وكان فتح الإسكندر بدون أي مقاومة لأنه لم يكن عند الوالي الفارسي قوة يعتدّ بها. ومما يؤثر عن الإسكندر احترامه لديانة البلاد وتقاليدها، وقد زار معبد الإلٰه أمون وأسس الإسكندرية. وقد أعلن (كهنة) الإلٰه «أمون» أن الإسكندر (ابنه)، متبعين في ذلك سنة الملوك المصريين.

وعند اقتسام أمبراطورية الإسكندر في عام 323 ق.م. صارت مصر حصة (بطليموس) بن (لاجوس) مؤسس سلالة (البطالسة أو البطالمة) في مصر، وقد امتاز عهدهم بكثرة الضرائب وفداحتها، وقد اصطبغت مصر بالصبغة اليونانية، كما أن الحضارة المصرية قد أثرت في الحضارة اليونانية فنشأ من تفاعل حضارات الشرق ولا سيما حضارة مصر وحضارة العراق حضارة خليطة هي (الهلنسية) التي سنأخذ موجزاً عنها في موضع آخر من هذا الكتاب. ومما يجدر ذكره عن عهود البطالسة في مصر التنويه بازدهار العلوم والتحريات والبحوث العلمية حيث صارت الإسكندرية مركزاً مهماً لهذه البحوث ومحطاً لمشاهير العلماء، فقد أولع «بطليموس» الأول مؤسس السلالة في مصر، في تشجيع العلم والعلماء وصرف في سبيل ذلك الأموال الطائلة. فأسس «متحف الإسكندرية» الشهير حيث كان أكاديمية للبحوث العلمية، واستمرّ الولع في العلوم في عهد بطليموس الثاني، بحيث يصحّ القول إن الولع في البحث العلمي ممثلاً بمتحف الإسكندرية، لم يعرفه البشر مرة أخرى إلّا منذ القرن السادس عشر للميلاد. وتأسست في عهد بطليموس الأول أيضاً

«مكتبة الإسكندرية» الشهيرة في استنساخ الكتب المهمة وحوت مكتبتها من هذه النفائس ما جعلها تشتهر في تأريخ تطور الفكر الإنساني[1] ولكن مما يؤسف له أن هذا البحث العلمي لم يستمر طويلاً لأن معهد الإسكندرية (المتحف) كان مؤسسة ملكية يموّلها الملك، فسارت الأمور على خير ما يرام في عهد بطليموس الأول الذي كان تلميذاً لأرسطو وأخذ عنه شغفه بالبحث، ولكن البطالسة من بعد بطليموس الثاني لم يهتموا كثيراً بتشجيع العلماء. وسيتبين مما سنذكره من مشاهير العلماء الذين أمّوا معهد الإسكندرية مقام هذا المعهد وأثره في تأريخ العلوم، فمن هؤلاء المشاهير إقليدس (Euclid) الرياضي الشهير في بداية القرن الثالث ق.م. «اراتوسثينيز» (Eratosthenes) الذي قاس محيط الأرض ووصل إلى نتيجة قريبة جداً من المقدار الحقيقي و«أبولونيوس» (Apollonius) الذي ألف في الرياضيات واشتهر ببحثه الخاص في المقاطع المخروطية (Conic sections) و«هبارخوس» (Hipparchus) الفلكي المشهور الذي كان أول من رسم خارطة للأجرام السماوية و«هيرون» (Heron) الرياضي المشهور بالجبر وبتطبيقه العلوم على الاختراعات الميكانيكية حيث اخترع أول ماكنة للبخار كما أن «أرخميدس» قد جاء من «سرقوسة» ليدرس في متحف الإسكندرية، وكان يراسل علماءها الدائميين.

---

(1) حول هذه المكتبة الشهيرة انظر:

E.A. Parson, **The Alexanderian Library, A Glory of the Hellenic World** (1952); **Antiquity, II** (1928), 196 ff.

وقد احترقت هذه المكتبة ويا للأسف في أثناء الحروب في زمن يوليوس قيصر في عام 48 ق.م.، كما أن المكتبة الثانية التي نشأت من بعدها قد أحرقها الأمبراطور ثيودوسيوس في عام 389 للميلاد ولكن نسب حرقها إلى إيعاز للخليفة عمر إلى واليه على مصر، غير أن البحث الحديث أثبت بطلان هذه الرواية الأسطورية. انظر حول ذلك:

(1) P.K. Hitti, **History of the Arabs** (1937), 166 ff.

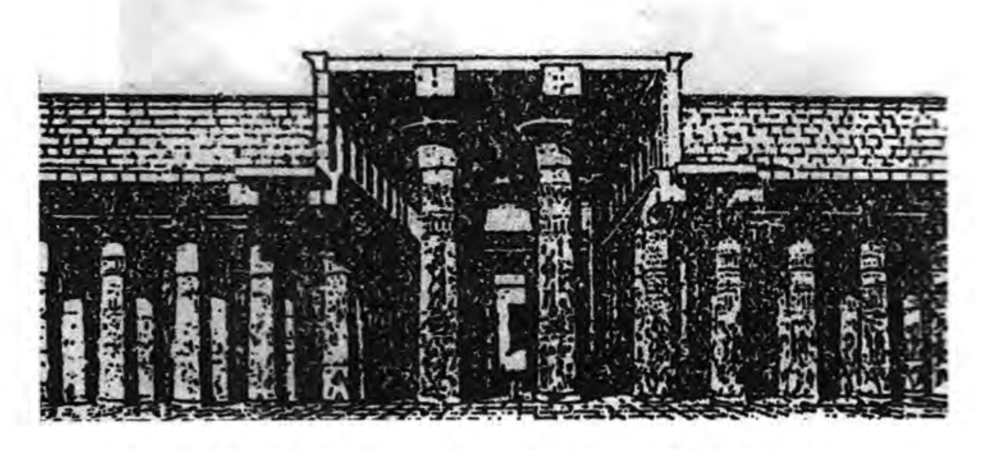
(2) Butler, **The Arab Conquest of Egypt.**

الذي نقله إلى العربية محمد فريد أبو حديد (القاهرة 1933).

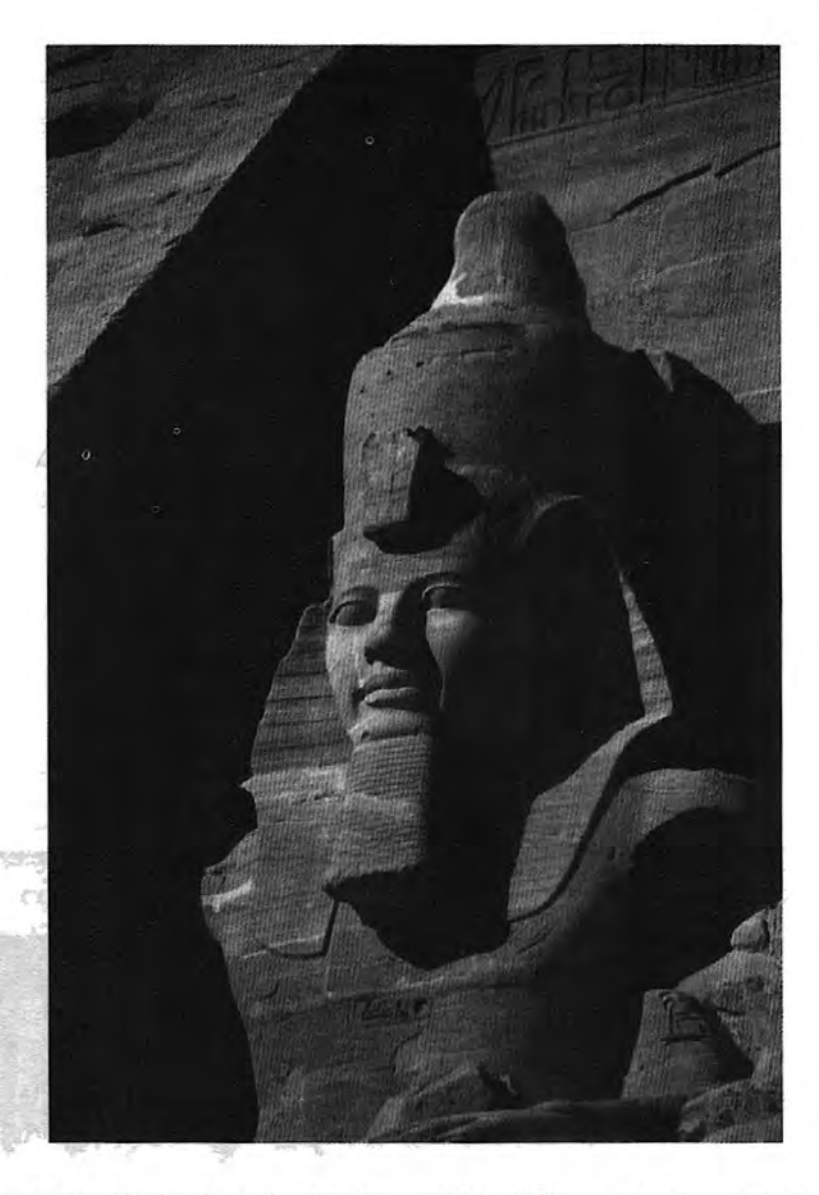
ودام عهد البطالسة في مصر إلى 30 ق.م.، حيث فتح (أوغسطس) الروماني مصر في ذلك العام، فحل العهد الروماني. ومما يقال في هذا العهد أن نظام الإدارة في عهد البطالسة قد ظل معمولاً به ولكن الموظفين الرومان أخذوا يشغلون المناصب العليا بالتدريج. وقد اعتمدت روما على مصر في تجهيزها بالحبوب بحيث كان مصدر غذائها الرئيسي من هناك ولذلك عني الأباطرة الرومان عناية كبيرة في ضبط حكم هذا الإقليم وضمان عدم القيام بالثورات من جانب الحكام الرومان، إذ كان معنى ذلك إحلال المجاعة في روما. وقد تدهورت البلاد في العهود الأخيرة بسبب التجاء الرومان إلى حكم البلاد حكماً عسكرياً صرفاً، وبسبب تقريب الرومان الجاليات الإغريقية ولا سيما سكان الإسكندرية الذين كانوا أجانب عن البلاد ولا يمثلونها، وقد ساء الوضع في عهود الأباطرة الضعفاء حيث تعرّضت البلاد إلى هجمات البدو وتخريبهم، وعمّ فساد الإدارة، فأنقذت البلاد بالفتح العربي على يد القائد المشهور عمرو بن العاص في عام 639 للميلاد في زمن الخليفة عمر وبذلك بدأ عهد جديد انطوت فيه الصحائف الأخيرة التي تميّزت بالتدهور والانحطاط، ودخلت مصر في حظيرة الحضارة العربية الإسلامية وقد ساهمت في بناء تلك الحضارة مع من ساهم من أقطار الشرق الأدنى.



طوطمس الثالث (1490 ـ 1436 ق.م)
الذي كان أعظم ملوك الأمبراطورية (السلالة الثامنة عشرة).



صورة ترينا القاعة الكبرى ذات الأعمدة في معبد الكرنك، في طيبة القديمة
وهو أعظم بناء في عهد الأمبراطورية المصرية.



نحت ضخم يمثل رعمسيس الثاني (1301 ـ 1234 ق.م) من السلالة التاسعة عشرة، نحت في وجه الحجارة الشاهقة في «أبو سمبل» (في نوبية من الجانب المصري)، ويزين التمثال البالغ ارتفاعه زهاء 75 قدماً واجهة المعبد الخاص بذلك الفرعون.

بعض الأوجه المختلفة من حضارة مصر

الفصل الثالث والعشرون

الديانة

1 ـ الآلهة وأصلها:

مع كثرة مصادرنا عن الديانة المصرية أو لعله بسبب كثرة هذه المصادر وتضارب وجهات نظرها لا يزال كثير من أوجه الديانة المصرية غامضاً لدينا، ولا سيما قضية أصل الآلهة وعلاقاتها بعضها ببعض وصفاتها ووظائفها، واختلاف ذلك بحسب عصور الحضارة المصرية المتطاولة.

ومن الأمور العامة التي تميِّز هذه الديانة من ناحية آلهتها تعدد هذه الآلهة وكثرتها الساحقة على نحو ما رأينا في ديانة حضارة وادي الرافدين مما سميناه بمبدأ الشرك أو تعدد الآلهة فلم يصل تطور الديانة في حضارة وادي النيل إلى فكرة التوحيد، اللَّهُمّ إلّا في عهد الفرعون الشاذ «أخناتون» الذي ذكرنا خبر «وحدانيته» في موضع سابق، ولكن كانت هذه فكرة يصحّ أن نسميها «جهيضة» إذ إنها ماتت بموت صاحبها وعادت مصر إلى ديانتها الوثنية السابقة. كما أن مراكز الآلهة كانت تتغير في أهميتها مع التبدلات السياسية، بالنسبة إلى السلالات المختلفة ومراكز حكمها. وكثيراً ما عمد الكهنة أيضاً إلى التوفيق بين وظائف الآلهة ومطابقتها بعضها ببعض فتندمج بهذا الوجه جملة آلهة (وقد يبلغ عددها أكثر من الثلاثة) في إله واحد يتركب اسمه من أسماء هذه الآلهة مثل «اتوم ـ رع»، ولكن مع ذلك لم يصل القوم إلى فكرة التوحيد الخالصة وإنما يصحّ أن نطلق على مثل هذه المحاولات مصطلح «التفريد» (Henotheism). كما أن هؤلاء الكهنة كانوا المنظمين للمعتقدات الدينية وفق

لاهوت رسمي، وبإمكاننا إرجاع نمو الديانة الرسمية وتثبيتها إلى عصر الأهرام، حيث نشأت هذه الديانة الرسمية من عبادة معبد مهم في «هليوبوليس» (مدينة الشمس وسمّاها المصريون القدماء باسم عون، وهكذا وردت في التوراة) وكانت هذه مركز عبادة الإلٰه الشمس.

والمتّفق عليه من جهة أصل هذه الآلهة الكثيرة أنها في أصلها من القوى الطبيعية المهمة التي كانت ذات أثر مهم في حياة سكان وادي النيل الأقدمين حيث جسّموا وشخّصوا هذه القوى بعدئذ وعبدوها على هيئة آلهة أهم ما تتّصف به صفة التشبيه أي إنها كالبشر من ناحية الصفات الروحية والجسمية ولكنها أعلى وأسمى من الإنسان وبيدها القدرة ومصير الكون والطبيعة والإنسان، كما أنها تتّصف بالخلود بوجه عام. وقد حلل الباحث «فرنكفورت»[1] القوى الطبيعية المهمة التي كانت أصل الآلهة المصرية وأرجعها إلى ثلاثة مصادر رئيسية:

(1) القوى المستمدة من الشمس.

(2) القوى المستمدة من الأرض.

(3) القوى المستمدة من ذلك الصنف من الحيوانات التي كانت أهم مورد اقتصادي في حياة البشر الأولين ولا سيما الأنعام والماشية. وقبل أن نعدّد أهم الآلهة المشتقة من كل مصدر من هذه المصادر الثلاثة نشير هنا إلى أن هذه القوى والآلهة المشتقة منها كثيراً ما تتداخل في مظاهرها ووظائفها، مثل تداخل مظاهر قوى الشمس بالقوى المستمدة من الأرض والحيوانات كالإشارة إلى الشمس أو إلى الإلٰه الشمس بأنه «العجل الذهبي المحمول على

---

(1) انظر المرجع المهم الذي وضعه الباحث المذكور:

H. Frankfort, **Kingship and the Gods**, ch.12.

وانظر أيضاً:

Wilson, **Before Philosophy**, 43, ff.

البقرة السماوية» ووصف «خفرع» (وهو من أسماء الإلٰه الشمس) بأنه «العجل أو الخنفساء التي تظهر من الأرض أو التراب».

الآلهة الشمسية

عبد المصريون الأقدمون الإلٰه الشمس بأشكال وأسماء متعددة، وقد سبق أن ذكرنا أن عبادته الرسمية نشأت ونمت في معبد مدينة الشمس «هليوبوليس» وبين كهنته، وكان من أسمائه التي اشتهر بها «رع» و«أتوم» ومعنى الاسم الثاني «الكل»، ولعل هذين الاسمين يمثلان إلٰهين منفصلين على ما يرى بعض الباحثين. وعرف الإلٰه الشمس أيضاً باسم «خفري» أو خفرع و«هور أختي» (أي هورس الأفق). وقد جعل كهنة هليوبوليس فروقاً بين هذه الأشكال من الآلهة الشمسية فجعلوا «خفرع» مثلاً مظهر الإلٰه الشمس وهو في الصباح و«رع ـ أتوم» الإلٰه الشمس وهو في المساء. أي إن كهنة الديانة القديمة قد جعلوا الإلٰه الشمس مركباً ذا أوجه ومظاهر كثيرة، وقد اشتقت صفاته وميزاته المختلفة من الآلهة الشمسية المحلية المختلفة التي كانت منفصلة متميزة ثم وحِّدت في إلٰه شمسي واحد هو «رع» الخاص بهليوبوليس عند نشوء الديانة الرسمية، ولذلك نجد في صفات الإلٰه الشمس تصورات مختلفة، فتصوروا أن الإلٰه الشمس في سيره عبر الأرض يسير بقارب الشمس عبر الأرض، وكذلك اعتقدوا أن القمر والكواكب تسير في السماء في سفن أيضاً. وبموجب معتقدات أخرى يحمل الإلٰه الشمس في سيره السماوي على جناحين كالطير، وهذا المعتقد يقترن بشكل الإلٰه الذي قلنا إن اسمه «هور أختي» فتصوروه بهيئة «صقر». ومن التصورات الطريفة الخاصة بسير الشمس في السماء تخيلهم لها على هيئة «جعل» (أبو الجعل) وهذا هو الإلٰه الشمس باسمه «خفري أو خفرع» وقد اشتق المصريون القدماء هذه الصورة السمجة من الجعل وهو يدحرج «كرة القذارة»، حيث تخرج الجعلان الصغيرة من هذه الكرة كما تنبثق الحياة من الإلٰه الشمس الذي تصوروه على هيئة جعل هائل الحجم يدحرج الشمس ويسيرها في الفضاء. ومن المعتقدات الخاصة بالشمس والإلٰه الشمس أن

الشمس تمضي ساعات الظلمة وهي تجتاز العالم الأسفل (الذي دعوه «دات») في سفينة قبل أن تعود إلى الظهور فوق الأرض كل يوم وقت الشروق، وتصوروا السماء مؤلفة من جسم الإلهة «نوت» الممتد على الأرض بهيئة قوس هائل، ورأسها يلامس الأفق الغربي وصلبها في الأفق الشرقي، وذراعاها ورجلاه ممتدة إلى ما وراء الأفق، فتبتلع هذه الآلهة الشمس في كل مساء وتمر الشمس من داخل جوفها في خلال الليل حيث تولد من جديد وقت الشروق.

وكما سيتضح لنا في الكلام على الخليقة كان الإلٰه الشمس أول ملك بصفته الإلٰه الخالق، والفرعون خليفته، والإلٰه الشمس بصفته الإلٰه الخالق كان أول شيء ظهر من المياه الأولى (نون) أو «نو» فوق «تل الخليفة»، حيث خلق رابية كانت أول ما ظهرت من اليابسة من المياه الأولى، وعدّ المصريون الإلٰه الشمس الإلٰه الخاص بالعدل كما كان الإلٰه الشمس في حضارة وادي الرافدين. وقد جسّموا العدالة وجعلوها ابنة الإلٰه الشمس وسمّوها باسم «مات» وقد دعي قرص الشمس الظاهر باسم «أتون» الذي رأى فيه أخناتون مظهر الإلٰه الواحد الذي تصوره.

ومن الآلهة التي أدمجت أو طوبقت مع الإلٰه الشمس الإلٰه «أمون»، إلٰه طيبة العظيم، ولقب بملك الآلهة، وتصوروه يتجسّد أو يظهر في الكبش وقد عرفت عبادته في عهد المملكة القديمة، واكتسب أهمية خاصة في عهد المملكة الوسطى وفي عهد الأمبراطورية. وسمي باندماجه مع الإلٰه الشمس «أمون ـ رع»، وعدّ السبب الأول في الخلق وأصل الحياة، كما عدّ أيضاً الإلٰه الخالق الذي كان أول من خرج من المياه الأولى (نون) أو «نو» وأنه أبو الآلهة، وبضمنهم الإلٰه «رع» وأكمل نفسه وصار الإلٰه الكامل «أتوم».

الآلهة المشتقة من أصل حيواني:

لا تبدو عبادة الحيوانات (Zoolatry) من جانب المصريين القدماء غريبة إذا علمنا أن الفكرة الكامنة وراءها هي أن الآلهة تتجلى أو تتجسّد في

الحيوانات ولذلك اتّخذت أشكال الحيوانات (Theriomorhpism) وتتعدد الحيوانات التي اتّخذت آلهة مجسدة كفرس النهر والتمساح، والأسد والثور والكبش والقرد الذي رأسه رأس كلب، والكلب والذئب وابن آوى والصقر، والنسر، والحمامة والجعلان الخ. كما أن الآلهة الأخرى تشبّه بالحيوانات كنعت الملك «بالعجل القوي» والملكة «بالبقرة الحاملة للعجل» وينعت الإلٰه الشمس بالعجل السماوي، وتمثل السماء على هيئة بقرة كبيرة هائلة يمتد جسمها على طول أفق السماء وتتعلق في جسمها الأجرام السماوية. ومنشأ تقديس الحيوانات وعبادتها كما ذكر من أثرها العظيم في حياة القوم الاقتصادية، وهي فكرة متأصلة عن الأقوام البدائية في القارة الأفريقية. وأهم مظهر لهذه العبادة في ديانة مصر تقديس العجول وعبادتها[1]، وتمثل هذه العبادة على ما يضمن العبادة البدائية في عصور ما قبل التأريخ. ونذكر من هذه العجول العجل الشهير «ابيس» (واسمه بالمصرية حعفى)، وهو تجسيد للإلٰه «فتاح ـ أُوسيريس» في منفس وقد عبد في هذه المدينة، ونعت بأنه رسول الإلٰه «فتاح» والإلٰه «رع» وكانت مواضع عبادة العجول مراكز للعرافة والكهانة. ومن العجول الشهيرة التي عُبدت العجل «منيفس» الخاص بمدينة هليوبوليس والعجل «بوخى» (بوخس). وهناك آلهة مهمة هي «هانور» التي تصورها المصريون القدماء بهيئة بقرة، وأنها الآلهة الخاصة بالجو، وهي تشبه الإلهة عشتار أيضاً من كونها إلهة الحب، ومن الآلهة الحيوانية الإلٰه «أنوف» (أنوبيس) وهو على هيئة ابن آوى، حيث كان إلٰهاً للأموات في «أبيدوس»، ونذكر أيضاً الإلٰه الكبش «خنوم» خالق الفخاريين.

الآلهة المشتقة من الأرض:

معظم الأقوام القديمة أدركت أثر القوى الأرضية فجسّمتها وعبدتها، ولكن كلّاً منها تصور هذه القوى بصور وهيئات مختلفة، فقد رأينا أن سكان

---

(1) Eberhard, **Beiträge Zur Geschichte der Stierkulte in Agypten** (Leipzig, 1938).

وادي الرافدين رأوا فيها مبدأ الخصب وعبدوها بهيئة «الإلهة ـ الأم»، ودعوها بأسماء مختلفة أشهرها الإلهة عشتار. وكذلك جسّم اليونان مبدأ الخصب في الأرض بهيئة إلهة أنثى. ولكن المصريين القدماء شخصوا الأرض وعبدوها بهيئة إلٰه وليس إلهة، وكان هذا الإلٰه من آلهتهم العظيمة، ودعوه باسم «جيب (Geb)»، وباسم «فتاح» وكان الإلٰه الأخير بحسب لاهوت الخليقة الخاص بمدينة «منفس» هو الإلٰه الخالق. وقد ورد في الآداب الدينية أن الغلة تنمو على أضلاع الإلٰه «جيب».

ومن الآلهة المهمة المتعلقة بقوى الأرض الإلٰه الشهير «أوسيريس» (ولفظه بالمصرية أسارى)، ولا يعلم أصل هذا الإلٰه بالضبط ولعله من أصل أجنبي دخل إلى مصر عن طريق الدلتا، له علاقة بالإلٰه السومري البابلي «تموز»، وقد عين ملك عالم الأموات وقاضي الأموات، كما يلقب بالملك الميت، وأبواه «نوت» الإلهة السماء و«جيب» الإلٰه الأرض، وابن أوسيريس الإلٰه «هورس» الذي ولدته الإلهة «إيسيس» أخت أوسيريس وزوجته. ويتجسّد الفرعون المتوفى بالإلٰه «أوسيريس» أما الملك الجديد الذي يخلفه فيتجسد في الإلٰه «هورس». ويمثل «أوسيريس» بوجه عام الغلة والخضار، وهو مثل الإلٰه البابلي «تموز» يظهر ويموت مع الغلة، كما قرن أوسيريس أيضاً بالنيل وخصبه.

وإذا كانت الديانة الشمسية هي السائدة في عصر الأهرام فإنها اضطرت إلى إفساح المجال إلى عبادة الإلٰه أوسيريس حيث كانت تزاحمها، وهما من أصلين مختلفين تمام الاختلاف، فإن «رع» بالدرجة الأولى إلٰه الأحياء الذي يمكن أن يقترن به ويتخلّد معه بعض الأشخاص من ذوي الامتياز كالفراعنة مثلاً من بعد مماتهم، أما أوسيريس فكان بالدرجة الأولى إلٰه الأموات المباركين وإلٰه عالم الأموات، ولكن مع اختلاف هذين الإلٰهين فإنهما يشتركان بميزة مهمة هي مسألة القيامة والعودة إلى الحياة من بعد الموت، فإن «رع» يموت موتاً مؤقتاً في أثناء مغيب الشمس ويعود إلى الحياة عند مشرقها،

وكذلك عاد أوسيريس إلى الحياة من بعد مقتله، ويعود دوماً إلى الحياة أيضاً بصفته إلٰه الخضار. ولكن مع هذا التشابه بين هذين الإلٰهين إلا أنه توجد فروق جوهرية في عبادتيهما الأصليتين. أما هذه الفروق فتدور على الاتصال التي تقدمها كل من الديانتين إلى أتباعها فيما بعد الموت. وكما أن أوسيريس إلٰه الجماهير في هذه الحياة فإنه كان يحكم كذلك جماهير الموتى في عالم الأرواح تحت الأرض، وبيده مصير هذه الأرواح من ناحية التخفيف عنها في عالمها الثاني. أما الإلٰه «رع» فإنه يقدم أكثر من ذلك ويبذّ منافسه في طمع الآمال. إذ إنه يخلص أتباعه من الموت ويرفعهم أحياء إلى السماء، أي يصيّرهم بمثابة آلهة خالدين. ولكن يكمن في هذه النقطة جوهر الاختلاف لأن هذا التألّه وقف على من يستطيع أن يدفع ثمنه وهو ثمن باهظ كان يرتفع على الدوام حتى أصبح الخلود «الشمسي» وقفاً واحتكاراً على الفرعون نفسه وحاشية بلاطه وأقربائه ممّن يدفع عنهم ثمن الخلود وجهاز خلودهم وعدته. وما شيّدت الأهرام إلّا لهذه الغاية، أي لتضمن خلود الفرعون الشخصي عن طريق الإسراف في البناء والعمارة. ولذلك فقد انتشرت ديانة «أوسيريس» وتمكّنت من سواد الشعب لأنها كانت العزاء الوحيد للجماهير والأمل لهم فيما بعد الموت، وهم تحت الإرهاق فيما يصيبهم في هذه الحياة لكي يحصلوا على الخلود لأسيادهم. تمكّنت ديانة «أوسيريس» بالرغم من أن الأمل الذي قدمته قد يكون شيئاً طفيفاً لو قيس بالسكنى والخلود في سماء الإلٰه «رع». وقد راع كهنة «هليوبوليس» سلطان «أوسيريس» فعمدوا إلى درء هذا الخطر بوسيلة طريفة بأن أدخلوا «أوسيريس» في شركة الإلٰه «رع». ومع ذلك فإن «أوسيريس» استطاع بهذه الصفقة أن يأخذ أكثر مما أعطى، فعندما دخل في المشاركة مع عبادة الفرعون الشمسية أخذ يستحوذ على كثير من الشعائر الخاصة بالإلٰه الشمس، وأخذ أعظم شيء عنده وهو رفع الجماهير من البشر، وهم أتباعه الأصليون، إلى التألّه والخلود. ونجد هذا التوفيق العجيب بين الديانتين المتناقضتين فيما يسمى في تأريخ الحضارة المصرية باسم «كتاب الأموات»، وهو «دليل كل فرد إلى الخلود» وقد طغت هذه الشعائر والعقائد على الحضارة

المصرية طوال ألفي عام. فقد عمّت العقيدة بأن الإلٰه (رع) يريد التقوى والصلاح دون الأهرام، ولذلك فبوسع الجماهير أن تنال الخلود الذي كان فيما مضى ذا ثمن باهظ لا يستطيع دفعه إلّا الفرعون والطبقة الحاكمة، وصار أوسيريس بموجب هذا التوفيق والمصالحة قاضي عالم الأموات الذي يقدر على البشر المصائر التي يستحقونها بموجب حياتهم على هذه الأرض.

وبالنظر إلى أهمية العبادة الأوسيرية في الحضارة المصرية نختتم كلامنا على الآلهة المصرية بذكر بعض الأساطير التي تدور على عبادة «أوسيريس» لأنها توضّح لنا عقائد مهمة في ديانة مصر القديمة.

وردت في النصوص الدينية المصرية عدّة إشارات إلى الأسطورة التي قامت عليها عبادة الإلٰه «أوسيريس» ولكن لما يأتنا نص كامل عن تلك الأسطورة الطريفة التي شاعت في الأزمنة المتأخرة وحفظت منها صورة كاملة في كتاب «فلوطرخ» (Plutarch) المعنون «إيسيس وأوسيريس»[1] التي وإن اختلفت في التفاصيل مع الروايات المصرية المتفرقة القصيرة إلا أنها تتّفق معها في الأسس، ونوجز فيما يأتي تلك الأسطورة كما وردت في فلوطرخ وفي النصوص المصرية:

«كان أوسيريس الابن الأكبر للإلٰه الأرض «جيب»، (Geb) وللإلٰهة الجو أو السماء «نوت»، وقد صار ملكاً عادلاً يحكم جميع الأرض، وعلّم البشر الفنون والصناعات والحرف المختلفة، فأستطاع أن يحوّلهم من حال الهمجية إلى المدنية والحضارة. وحدث بعد مضي زمن على حكمه أن أخاه الإلٰه «سيث» (Seth) حسده وأبغضه فقتله غيلة ويروي فلوطرخ تفصيل المؤامرة والقتل، فقد أولم «سيث» لأخيه وليمة ليكرمه بعد عودته من سفر قام به ودعا إلى تلك الوليمة التكريمية اثنين وسبعين من أصدقائه. وقد أحضر «سيث» صندوقاً مصنوعاً صنعاً عجيباً وقدّمه إلى الضيوف على أن يهديه إلى من يدخل

---

(1) Plutarch, **De Iside et Osiride.**

في داخله ويكون مطابقاً ملائماً لحجمه، وبموجب ما بيّت سابقاً جرّب جملة ضيوف الدخول في الصندوق ولكن لم يلائم حجم أي واحد منهم وأخيراً دخل أوسيريس فوجده بمقداره تماماً، وفيما كان لا يزال في داخل الصندوق قتل وأغلق عليه الصندوق ورمي في أحد مصبات النيل من فروع الدلتا، فحمله إلى البحر وطاف الصندوق في البحر وآل به المطاف إلى الرسو في جبيل ولما علمت زوجته «إيسيس» بقتل زوجها صارت تبحث عنه فوجدته في جبيل في الصندوق، الذي في داخله جثمان «أوسيريس» فأخذته وعادت به إلى أهوار الدلتا وانتظرت هنا ولادة طفلها «هورس»، وفيما كانت منتظرة ذلك الحدث كان «سيث» يتصيد قرب الموضع فعثر على الصندوق وأخرج منه الجسم وقطعه إلى أربع عشرة أو ست عشرة قطعة وبعثرها في جهات مختلفة من وادي النيل فأخذت «إيسيس» تبحث عن قطع جثمان زوجها، وكانت كلما وجدت جزءاً منه دفنته في الموضع الذي تجده فيه. فقد دفنت رأسه مثلاً في «أبيدوس» ورقبته في هليوبوليس، وهكذا فعلت في الأجزاء الأخرى ما عدا «عضو التناسل» الذي رماه «سيث» في البحر وابتلعه نوع من السمك.

وتروى صورة أخرى من الأسطورة أنه بعد أن وجدت «إيسيس» جثمان «أوسيريس» أمر الإله الشمس «رع» الإله «أنوبيس» (الإله الذي يمثل بهيئة ابن آوى) أن يحنّطه، ثم رفرفت إيسيس بجناحيها فوق جسمه وعملت على إعادته إلى الحياة، وبعد قيامته من الموت صار ملكاً على الأموات وعلى موطن الأموات. وكانت هذه صفته المميزة في جميع العصور التأريخية، أما بقية الأسطورة كما جاءت مدوّنة على بردية من عهد الأمبراطورية[1] فتروي لنا الصراع العنيف بين «هورس» بن «أوسيريس» وبين عمه «سيث» حيث صمّم «هورس» على الثأر لأبيه، واستطاع «سيث» في القتال العنيف الذي نشب

---

(1) انظر ترجمتها في:

(1) **Ancient Near Eastern Texts.**

(2) Edwards, **The Pyramids of Egypt,** 25 ff.

بينهما أن يتلف عيني «هورس» ولكن هذا تغلب على عمه وقتله واعتلى عرش أبيه، وأعيدت عينه المتلفة حيث أعادها الإلٰه «ثوث» وهو الإلٰه القمر وصادق على خلافته لأبيه آلهة مدينة «هليوبوليس». وصار هورس المثل الأعلى لحب الابن لأبيه ومضرباً للأمثال بالتضحية من أجله، كما صارت عينه الهلال»[1].

(1) وتوجد أسطورة طريفة عن تحريم الخنزير لكونه دنساً للآلهة، وتدور هذه الأسطورة على أن الإلٰه رع حرم الخنزير على الآلهة وأتباعهم لأن «سيث» اتّخذ شكل الخنزير في قتاله مع «هورس» يوم فقأ عينه. فجعله حيواناً دنساً محرماً من أجل هورس..

طرف من العقائد والعبادات الدينية

عقائد ما بعد الموت:

لقد تكرّرت الإشارات الخاصة بعقائد المصريين بحياة ما بعد الموت وكثيراً ما أكّدنا على أهمية عودة الحياة فيما بعد الموت والخلود مما طبع الحضارة المصرية القديمة بطابع خاص هو اهتمامها المفرط بشؤون ما بعد الموت، من قبور وطرق دفن والمحافظة على الأجسام الملحودة مما تطرّقنا إليه سابقاً. وذكرنا أيضاً علاقة بعض الآلهة بعودة الحياة والخلود ولا سيما الإلٰه الشمس «رع» والإلٰه «أوسيريس»، وإذ اعتقد المصريون القدماء بإمكان عودة الحياة ما بعد الموت ونيل الخلود في حياة أخرى، إلا أن ذلك لم يكن عندهم من الأمور الطبيعية «الأوتوماتيكية» التي تقع من بعد الموت بدون أن يقوم البشر بعمل أي شيء. بل إن الأمر كان يتوقف على قيام البشر بأمور «طقوسية» مهمة، وتزويد الميت بجميع العون المادي، كتهيئة القبر بوجه عام، سواء كان القبر حفرة عادية أو مصطبة أو هرماً على نحو ما رأينا سابقاً، وكذلك مراعاة أصول الدفن الخاصة. وقد اعتقد المصريون القدماء منذ أقدم أزمانهم التأريخية بأن الإنسان مكوّن من عنصرين متميزين هما الجسم والروح، على ما بيّنا من قبل، واعتقدوا أيضاً بإمكان بقاء الروح حية من بعد موت الجسم الطبيعي إذا حُفظ الجسد سالماً وجُهّز بما يحتاج إليه. ولا يعلم بالضبط كيف تصور المصريون الموضع الذي تذهب إليه الأرواح من بعد الموت، والمفترض أنه العالم الأسفل الذي يتصل بالقبر، لذلك دفنوا مع

الميت في القبر كل ما كان يحتاج إليه في هذه الحياة بحسب اقتدار الميت. ولكن نشأت معتقدات مهمة عن عالم ما بعد الموت اشتقّت من عبادة الإلٰه «أوسيريس»، حيث تصوروا عالم ما بعد الموت «الأوسيري» (ودعوه مملكة أوسيريس) موضعاً هو المثل الأعلى للخلود، وموضعه في «حقل» السلام الذي هو جزء من «حقل القصب»، وعرّفه الإغريق القدماء باسم «الحقل الإليزي» (Elysian Fields) حيث موضع خلود الآلهة وموضع السعادة الأبدية. وقد خصّص في هذه المملكة التي يحكم فيها أوسيريس موضع خاص للحساب والدينونة (قاعة الحساب). حيث تحضر نفس كل إنسان هناك وتوزن في «الميزان الأعظم» بمحضر من الإلٰه «ثوث» سكرتير الآلهة وكاتبها، وقد وردت لهذا المشهد صور متعددة مثلت بها النفس أو الروح البشرية بالقلب حيث وضعت في إحدى كفّتي الميزان ووضعت في الكفة الثانية «ريشة» هي رمز العدالة والصلاح (مات أو معت)، فإذا لم يرجّح وزن القلب على «الريشة» فإنه يُرمى إلى وحش خاص ليلتهمه (اسمه آكل الموتى)، وهو حيوان مركّب، بعضه تمساح وبعضه أسد وبعضه فرس النهر، وإذا ما تعادل وزن القلب والريشة، فيعلن عندئذ الإلٰه «ثوث» إلى الآلهة، فتؤخذ نفس الميت إلى حضرة الإلٰه «أوسيريس» حيث يجازي الميت بحسب ما يستحقه. ويبدو من النصوص الخاصة بهذه الأمور أنه قبل أن تجري عملية وزن القلب كان الميت يمرّ من «قاعة» أوسيريس وهنا يقوم «بالاعتراف» بمحضر (42) قاضياً من قضاة الموتى، والظاهر أن كل واحد من هؤلاء يستنطق الميت عمّا إذا كان قد ارتكب إثماً معيناً فيجيب الميت بأجوبة سالبة أي إنه لم يرتكب الذنوب المعيّنة (كما جاء في «كتاب الأموات»)[1]، وكان هناك عقاب وثواب، فالثواب كان في منح الخلود والسعادة الأبدية في مملكة أوسيريس السعيدة، أما العقاب، فكان بطريق إفناء الروح وليس بالعذاب الأبدي.

---

(1) **The Book of the Dead,** ch. CXXV.

انظر: **Ancient Near Eastern Texts** (1950), 34 ff.

ولأن عبادة الإلٰه «أوسيريس» تمركزت في أبيدوس فأصبح هذا الموضع ذا أهمية خاصة في عقائد ما بعد الموت، فتروي لنا المآثر المصرية أن رأس الإلٰه أوسيريس قد دُفن في «أبيدوس»، وبحسب رواية أخرى أن «إيسيس» دفنت جميع جسمه هناك، فكانوا يقيمون في «أبيدوس» كل عام رسوماً دينية من بينها تمثيل ما قاساه الإلٰه في موته ثم قيامته وعودته إلى الحياة. وكان يحجّ إلى موضع «أبيدوس» جمع غفير من جميع أنحاء مصر، وقد وجد الموضع مملوءاً بكسر الفخار التي هي بقايا ما كان يقدمه الحجاج من قرابين للإلٰه. وكان الحج إلى «أبيدوس» ضرورياً للبشر أيضاً فيما بعد الموت، ولذلك نشأت العادة من بعد عهد المملكة القديمة أن المصريين صاروا يجهّزون موتاهم بقوارب يدفنونها مع الميت مع اللوازم الأخرى التي يحتاج إليها، ليتمكّن الميت من السفر والحج إلى «أبيدوس». ونشأت عادة أخرى أيضاً منذ عهد المملكة الوسطى في قيام الأفراد المتمكنين بتشييد قبور خالية لهم أو مقامات (Cenotaph) في «أبيدوس» لتتمكن أرواحهم من العيش بجوار مقام «أوسيريس» وتشترك بالمراسيم السنوية الخاصة به. فمثلاً شيّد «سنو سرت» الثالث أعظم ملوك المملكة الوسطى مقاماً له في أبيدوس، ولكن جثمانه دُفن في لحده في «دهشور»، وكان من لم يستطع إقامة «مقام» له يقيم شاهد قبر له قرب مزار أوسيريس، وكانوا ينحتون مثل هذه الشواهد بنحت بارز ويكتبونها بأسمائهم.

واعتقد المصريون القدماء بالسحر وأثره العظيم في هذه الحياة وما بعد الحياة، فاعتمدوا عليه في شؤونهم حتى أنهم اعتقدوا أن الدساتير السحرية تمكّنهم من التأثير حتى في الآلهة، وأحسن ما يوضّح لنا ذلك «الكتابات السحرية» التي كانوا ينقشونها على جدران حجرات الأهرام وممراتها منذ عهد السلالة الخامسة والسادسة. كما نشأت عادة وضع اسم الإلٰه «أوسيريس» بهيئة لقب قبل اسم الميت لتحويل الميت إلى مادة الإلٰه من حيث إمكان القيامة والحياة بعد الموت، أو حتى لتأليه الميت. فكان الفرعون في أثناء الحياة يُطابق ويُعادل بالإلٰه «هورس» بن «أوسيريس»، وعند الموت يصير أوسيريس، ويصير ابن الملك الذي يعتلي العرش في مكان أبيه الميت الإلٰه «هورس». ثم توسعوا

في هذا الامتياز، وجعلوه يشمل أعضاء الأسرة المالكة، ثم صفوة مختارة خارج دائرة العائلة المالكة، وأخيراً صار الاتصال بأوسيريس من حق جميع الناس. ولكن الفرعون يتّحد مع الآلهة في السماء ويصير إلهاً مثلهم. هذا وقد سبق أن نوّهنا بأن العنصر غير المادي من الإنسان يأخذ وجوداً مستقلاً وقد سموا هذا العنصر بمصطلح تصعب ترجمته هو «با»، (ولعله يعني النفس أو الروح) وكانوا يكتبون هذا الرمز في الخط الهيروغليفي القديم بصورة «لقلق»، ثم مثلوه بعدئذ بهيئة طير جسمه جسم إنسان ملتحٍ وأمامه سراج ضوء. وقد تصوروا النجوم بأنها عدد لا يحصى من (الباءات) (جِمع با) مُضاءة بسرج من النور. ومع انفصال (البا) عن الجسم المادي إلا أن استمرار وجوده كان يتوقف على المحافظة على الجسم، ومن هذا منشأ فن التحنيط. واعتقد المصريون القدماء بعنصر أو ماهية أخرى غير مادية علاوة على عنصر «البا»، وكان ذا خطورة أيضاً في ضمان حياة ما بعد الموت، وبوجه خاص في خلود الفرعون وقد سموا هذه الماهية باسم «كا»، ورمزوا لها بهيئة إنسان ملتح متوّج بتاج مؤلف من ذراعين مرفوعين وملتويين عند المرفق، ويمثل أحياناً بهذين الذراعين فقط دون الشكل البشري. ويجيء هذا العنصر إلى الوجود منذ ولادة الشخص ويبقى معه من بعد الموت، وعقيدة وجود «الكا» واضحة بوجه خاص بالنسبة إلى الملك، وقد اختلف في تفسيرها الباحثون فمنهم من يرى أنه يمثل «شخصية» المرء الثانية أو أنه يمثل «القوة» الحيوية في الإنسان، تلك القوة الغامضة التي تميِّز الحي من غير الحي، ورأى آخرون أنه بمثابة الملاك الحارس.

التحنيط:

لقد سبق أن نوّهنا بالتحنيط بأنه ابتدع بنتيجة عقيدة المصريين القدماء بحياة ما بعد الموت وضمان هذه الحياة بالمحافظة على الجسم في القبر سالماً محفوظاً غير معبوث به. وبما أننا تكلمنا بعض الشيء عن القبور وعنايتهم الفائقة بها فننوّه أيضاً بالطريقة الأخرى التي ابتدعوها للمحافظة على هيكل الجسم من البلى بالتحنيط، والتحنيط مصطلح عام يعني المحافظة على

الجسم[1] أما الجسم المعالج بالتحنيط فيطلق عليه مصطلح «مومياء»[2]واختلفت أساليب التحنيط الفنية عندهم من عهد إلى عهد بل من سلالة إلى أخرى كما أنه لا تزال هناك جملة أمور في هذه الطرق لم يتوصّل البحث الحديث إلى حلها حلاً نهائياً، ولكن الذي يمكن قوله بوجه عام أن المصريين استعملوا جملة طرق وعدة مواد حافظة للمحافظة على الجسم من البلى، منها تجفيف الجسم وحفظه بالبهار والصموغ والنطرون والقار (الزفت)، كما أنهم في الطرق الغالية من التحنيط كانوا يفتحون الجسم ويحشونه بالصبور بعد رفع الأحشاء الداخلية التي كانوا يحفظونها (يحنطونها) بوجه مستقل، وفي الطرق الرخيصة المستعملة كانوا يقتصرون على عمليات التجفيف بالأملاح أو بالأملاح مع القير، وفي الأزمان القديمة جداً كانوا يتركون الأجسام لتجفّ بصورة طبيعية واستعملوا الملح والصودا في عهد المملكة الوسطى وأضيف «المر والبهار» في عهد السلالة الثامنة عشرة، أما استعمال القير فإنه لم يستعمل في التحنيط بمقياس كبير قبل السلالة الواحد والعشرين (في حدود 900 ق.م). ودعا المصريون القدماء الجسم المحنط الملفوف والمعصّب بالكتان باسم «قس» (بفتح القاف) الذي صار بالقبطية بصيغة «كوس».

وإذا ما رجعنا إلى النصوص المصرية[3] فهي لا تزوّدنا بأشياء مفصلة عن الطرق التي استخدمها المصريون القدماء في التحنيط، ولكن الكتّاب الرومان واليونان (الكتّاب الكلاسيكيين) وصفوا لنا طرق التحنيط بالتفصيل نوعاً ما، وقد ظهر أن رواياتهم صحيحة بوجه عام كما أثبت ذلك الأجسام المحنطة (الموامي جمع موميا) التي وجدت وفحصت. فيروي لنا هيرودوتس مثلاً أن الكاهن الخاص بفتح «البطن» يستعمل في هذه العملية الحجر الحاد المسمى

---

(1) (Embalming) (من Embalm) أي حافظ على الجسم من البلى بطرق التحنيط المختلفة.

(2) أي مصطلح (mummy) ومنه (mummification) المشتق في أصله من الكلمة العربية (أو بالأحرى المستعربة) «مومياء» أي الزفت والقير لاستعماله في طرق التحنيط (من «موم» الفارسية التي تعني الشمع).

(3) انظر **The British Museum Guide,** 288 ff. الذي اعتمدنا عليه في هذا الموجز.

«بالحجر الحبشي» وبعد أن يشقّ البطن يرمي «حجره أو سكينه» ويفرّ هارباً لا يلوي على شيء، ولعل سبب استعمال الحجر اعتبار المصريين للمعدن بأنه شيء نجس في هذه العملية كما أن هرب الكاهن يشير إلى تخوّف القوم وتهيبهم من فتح الجسم الإنساني.

وحسب ما روى هيرودوتس أيضاً[1] كانت ثلاث طرق للتحنيط مستعملة في زمنه. فبموجب الطريقة الأولى، وهي أغلى الطرق وأدقها، كانوا يشقون البطن في الجانب «بالحجر الحبشي» ثم ترفع الأحشاء الداخلية والدماغ[2] من الجسم الذي يُنظف ويُغسل بعناية بخمر التمر ثم يرش عليه دقيق البهار، ثم يملأ تجويف الرأس والجسم بالمر المسحوق والقاشيا وببهارات أخرى ثم يُخاط الشق المحدث في البطن الذي أُحدث لاستخراج الأحشاء منه. ثم يهيأ حوض من محلول الملح أو محلول الصودا وينقع فيه الجسم الذي هيأ بالخطوات الأولى زهاء سبعين يوماً. ثم يؤخذ بعد نهاية هذه المدة من المحلول ويجفّف ويمسح ويدهن بمراهم ذات روائح عطرية. أما في الطريقة الثانية فكانت الأحشاء تزال بواسطة دهن الأرز وكان اللحم يُذاب ويزال عن العظام باستعمال محلول الصودا، بحيث إن «الموميا» المحنطة على هذا الوجه لا يبقى منها سوى العظم والجلد. واقتصروا في الطريقة الثالثة على الموتى من الفقراء وكان الجسم بموجبها يُنقع بمحلول الصودا مدة سبعين يوماً ثم يسلم إلى أقربائه.

---

(1) الترجمة الإنجليزية من قبل رولنصن: Herodotus, Bk. II, 85.

(2) إن هيرودوتس ودبودورس لا يخبراننا بشيء عمّا كان يصنع بالأحشاء والدماغ إلا أننا نعرف أنها كانت تنظف وتلف بالكتان مع مساحيق البهار الحافظة والملح وكانت توضع في أربع جرار مصنوعة من الحجر إما من حجر الرخام أو الكلس أو من الفخار، وكانت كل جرة تخصص إلى أحد أبناء الإله «هورس» الأربعة أو أبناء أوسيريس، الذين كانوا آيضاً آلهة الجهات الأربع الأصلية. وصارت هذه الجرار من بعد السلالة الثانية عشرة تُغطّى بغطاء مصنوع على هيئة رأس الإله الخاص، أما ما قبل ذلك فكانت هذه الأغطية بهيئة رؤوس آدمية. وترجع عادة تحنيط الجوارح الداخلية منفصلة عن الجسم إلى عهد السلالة السادسة وذكرت عادة تخصيصها إلى الآلهة الأربعة في كتابات ملوك السلالة الخامسة والسادسة.

ويروي لنا «ديودورس» (أو ديودور) (الذي عاش في حدود 40 ق.م) أن طرق التحنيط عند المصريين ثلاثة، وكانت الطريقة الأولى تكلف «وزنة من الفضاء» (Talent) أي نحو 250 ديناراً والثانية تكلف زهاء (60) ديناراً، والثالثة قليلة النفقات جداً.

وكانت المدة الفاصلة بين موت الشخص ودفنه تختلف في طولها فيؤخذ من الكتابات المصرية القديمة أنه في حالة خاصة استغرق التحنيط 16 يوماً وعملية تعصيب الجسم ولفه بالكتان 35 يوماً والدفن 70 يوماً، فيكون مجموع المدة الفاصلة 121 يوماً. وفي حالة أخرى استغرقت عملية التحنيط 66 يوماً وتهيئة الدفن 4 أيام والدفن 26 يوماً. وتروي لنا التوراة (سفر التكوين 3) أن تحنيط «يعقوب» استغرق 40 يوماً ولكن مدة إقامة المأتم والحزن استغرقت (70) يوماً.

ولم يقتصر التحنيط على الملوك والناس الآخرين بل إن المصريين القدماء حنطوا أجسام بعض الحيوانات المقدسة كالقطط والصقور والقردة والكباش والعجول والتماسيح، واتبعوا في ذلك نفس الطرق المتّبعة في تحنيط الآدميين.

وبعد أن أوجزنا هذه الأشياء عن التحنيط نقدم عرضاً موجزاً عن تأريخ نشوء التحنيط عند قدماء المصريين. فإلى المعتقدات الدينية الخاصة بعودة الحياة فيما بعد الموت ولا سيما العقائد المشتقة من عبادة الإلٰه أوسيريس[1] يلزم أن يضيف المؤرخ عامل البيئة الجغرافية الجافة المساعدة على حفظ

---

(1) لقد سبق ذكر أسطورة موت أوسيريس وكيف أن جسمه المقطع قد أعيد إلى سابق وضعه بالطرق السحرية (حسب إحدى روايات الأسطورة) حيث قامت بذلك «إيسيس» وأعوان ابنه (هوروس)، ثم حنط جسمه وحفظ من البلى، وبالقياس إلى ذلك استنتج المصريون القدماء إمكان حفظ أجسامهم من البلى بالتجارب المختلفة التي قاموا بها في التحنيط، ومما لا شك فيه أن الذي ساعدهم على محاولة هذه التجارب ما كانوا يشاهدونه من أن الجسم الذي يدفن في الرمال في التربة الجافة يجف جفافاً طبيعياً ويبقى محافظاً على هيئته.

الأجسام بصورة طبيعية، مما عمل على نشوء فن التحنيط عند قدماء المصريين. فقبل نشوء فن التحنيط المعقد اعتاد المصريون القدماء قبل عهد السلالات أن يجففوا أجسام موتاهم في الشمس ثم يدفنونها، وكانوا يلفونها في بعض الحالات بجلود بعض الحيوانات أو بحصر من القصب. وبعد عهد السلالات بقليل حين نشأت العقائد الخاصة بالإلٰه أوسيريس ونضجت ابتدأ المصريون في محاولاتهم وتجاربهم في فن التحنيط. وتشير أقدم الأجسام المحفوظة التي جاءتنا من هذا العهد إلى أنهم كانوا يرفعون الأحشاء الداخلية ثم يجففون الجسم بالشمس أو يملّحونه. ثم صاروا يلفون الجسم بالعصائب ولا سيما أجسام الملوك. ومما لا شك فيه أن المحافظة على أجسام الملوك بالتحنيط قد بدأت في زمن قديم من عهد السلالات، ويرجّح أن يكون ذلك في عهد السلالة الثانية. ولكن أحسن «مومياء» سالمة محفوظة هي التي جاءتنا من عهد السلالة الخامسة. وتوجد بقايا من «مومياء» يظن أنها تعود إلى الملك «منكورع» (من فراعنة السلالة الرابعة) ولكن صحة ذلك مشكوك فيها. وكثرت «المومي» من عهد السلالة الحادية عشرة، واقتصرت معالجتها على النطرون (صودا قوية)، وكذلك كثرت الأجسام المحنطة في عهد السلالة الثانية عشرة. ولم تظهر عادة رفع الدماغ إلّا في عهد السلالة الثامنة عشرة، واستعملت في هذا العهد البهارات والراتنج (resin) كما تفنَّنوا في العصائب. ومما يقال في هذا العهد أن نماذج التحنيط منه كثيرة وهي في حفظ جيد. وفي نهاية السلالة الثامنة عشرة صاروا يحشون الجسم بكميات كبيرة من المواد الراتنجية بحيث تبدو الجثة غير ضامرة وكأنها الشخص الحي، كما أن محاجر العيون كانت تُحشى بالكتان وتطبق عليه الأجفان ولعل أحسن «مومياء» من هذا الطراز مومياء جد الملك «أخناتون» ومومياء الملك «سيتي الأول» (وكلاهما في متحف القاهرة). وفي عهد السلالة الواحدة والعشرين اطرد استعمال الضماد لتحشية الجسم واستعملت لهذا الغرض جملة مواد متنوعة كالكتان والراتنج ونشارة الخشب. وكان القلب يُترك في داخل الجسم في هذا العهد ومثل ذلك

يقال بالنسبة لبعض الأحشاء الأخرى، وكثيراً ما كانت «المومياء»، تلوّن وتُصبغ لتضاهي الجسم الإنساني وهو حي.

ومما يقال في العهود الأخرى المتأخرة إن فن التحنيط انحط فيها، ووجدت أجسام اقتصر في تحنيطها على حشوها بالقير. وفي العهود الرومانية عثر على بعض الأجسام المحنطة تحنيطاً جيداً، واستمر المصريون في ممارسة عادة التحنيط حتى في العهود المسيحية بعد تحولهم إلى المسيحية ولكن هذه الممارسة بطلت من الاستعمال تقريباً في نهاية القرن الرابع للميلاد من جرّاء أثر العقيدة المسيحية، ومع موت هذه العادة استمرّ الناس في دفن الميت مع البهار وبعض المواد الحافظة، مما جعل كثيراً من الأجسام في العهد القبطي تبقى محفوظة لا سيما إذا كان الدفن في مواضع جافة. كما أنه لا يستبعد أن تكون عادة «غسل» الميت المتّبعة الآن من تراث التحنيط المصري القديم. وعلى ذكر تراث هذا التحنيط ننوّه بأمر مهم هو ما أفاده الطب الحديث من الأجسام المحنطة التي وصلت إلينا سالمة حيث أمكن بدرسها معرفة تأريخ جملة أمراض مهمة مثل مرض الحصباء (calculi) ومرض البلهارزيا (Bilharzia) والأمراض الشريانية (Arterial diseases) ومرض التدرّن (Tuberculosis) والتهاب المفاصل (Arthiritis) وجملة أمراض أخرى تخص العظام[1].

وننهي بحثنا عن التحنيط عند قدماء المصريين بذكر شيء مهم متمّم لطرق حفظ الجسم عندهم ذلك هو أنواع التوابيت المستعملة لذلك الغرض. فمن ناحية التطور التأريخي كان المصريون في العصور القديمة جداً يدفنون موتاهم بتكفين الجسم بحصير أو جلد أو نسيج وإيداعه في الحفرة بهيئة مقلصة، واستعملوا السلال بعدئذ وظهر استعمال الصندوق الخشبي في عهد السلالة الأولى وكان أصل التابوت، وحصل بعض التطور في صناديق التوابيت في عهد السلالتين الثالثة والرابعة من ناحية الصنع وزخرفتها بحيث تظهر

(1) انظر المرجع الآتي: **The Legacy of Egypt** (1942), 196 f.

وكأنها بيت سكني ذو باب وشبابيك وستائر وقلدت مثل هذه الصناديق في نواويس الحجر. وكثرت الصناديق والتوابيت منذ عهد السلالة السادسة إلى السلالة الثانية عشرة، وتفننوا في صنعها من الأخشاب الثمينة كخشب الأرز، وتلوين خارجها وزخرفته بأسماء أصحابها ونقشه بأدعية وصلوات إلى آلهة الأموات وإلى أطفال هورس الأربعة حيث رُتِّبت مثل هذه الكتابات بحقول متوازية منتظمة، كما رُسمت في داخله خرائط طريفة للعالم الأسفل (العالم الآخر) وأودعت تعاويذ سحرية لإرشاد الميت والمحافظة عليه من أخطار ذلك العالم، كما كانوا يرسمون في خارج التابوت صورة بيت مختصرة وعينين كبيرتين وصور لرأس الميت وعينيه. وكان الجسم المودع داخل التابوت يغطّى جزئياً بقناع (من قطع الكتان المصمغة معاً والمغطاة بالبورق) وكان هذا القناع يعمل بهيئة الرأس والكتفين ويلون ويذهّب. وكان يودع مع التابوت بالإضافة إلى المقتنيات الشخصية كالأسلحة والمرايا وعدد كبير من النماذج المصغرة الملوّنة التي تمثل البيوت وأهراء الغلة والعمال والصنّاع الممثلين وهم ماضون في عملهم والخدم وهم يحملون الطعام والقوارب المصغرة بأشرعتها ومجاذيفها. إن هذه الأشياء المصغّرة على قدر كبير من الأهمية إذ إنها توقفنا على نواح مهمة متعددة من حضارة وادي النيل، سواء كان ذلك من ناحية الأشياء التي استعملها المصريون القدماء أو من ناحية أشكالهم وهيئاتهم، كما أن ما وجد في المقابر المصرية من ملكية واعتيادية تكاد تكون المصدر الوحيد لمعرفتنا بحضارة مصر القديمة.

بعض الأساطير الدائرة حول أصل الآلهة والأشياء

1 ـ الكون (السماء والأرض):

من الصعب تحديد صورة واحدة مطردة عن الكون وأصل الأشياء والآلهة (Cosmology) عند المصريين القدماء، وهذا أمر متوقع بالنسبة إلى عقائد شغلت من الزمن زهاء (3000) عام من عصور التأريخ بالإضافة إلى بقايا متحدرة من عصور ما قبل التأريخ. فينتظر من هذا التأريخ المتطاول أن يحدث تغيراً وتبدلاً في مثل هذه الآراء، كما أن المصريين القدماء لم يخلفوا لنا دساتير أو عقائد مطردة، وإنما الذي عندنا صور مختلفة لا يضيرها أو يقلّل من قيمتها أن تكون متناقضة كثيراً أو قليلاً عند المصريين القدماء. ولنضرب لذلك مثلاً في تصورهم للسماء وكيفية استنادها، فهناك صورتان مختلفتان، صورة تمثل لنا السماء وقد رفعها وسندها إلٰه الهواء «شو»، وصورة أخرى ترينا السماء مقامة على أربعة عمد[1].

وقد تصوّر المصريون الأرض على هيئة صحن أو «ماعون» منبسط ذي حافة ضلع. فقعر هذا الصحن أرض مصر الغرينية المستوية، أما الحافة المضلعة فهي سفوح الأراضي الجبلية التي تكوّن البلدان الأجنبية. إن هذا الصحن عائم في المياه. وتوجد مياه سفلى (وهي المياه الأولى) إلى أسفل الماء الظاهر. وتدعى هذه المياه السفلى باسم «نون» وحسب بعض العقائد المصرية كانت هذه هي

(1) J.A. Wilson, **Before Philosophy** (1951), 51 ff.

المياه الأولى التي ظهرت منها الحياة بجميع أشكالها، وأول ما ظهر منها الآلهة على ما سيتضح فيما بعد. ولا تزال هذه المياه مصدر الحياة، لأن الشمس تولد ولادة جديدة كل يوم منها، كما أن النيل ينبع من الينابيع التي تغذيها هذه المياه السفلى. والمياه السفلى تحيط بالأرض أيضاً.

ويعلو فوق الأرض صحن السماء الذي هو مثل صحن الأرض إلا أنه بهيئة مقلوبة، والسماء تحدّد النهاية البعيدة للكون. وتصوروا سماء سفلى تحت الأرض تحدد نهاية الأرض السفلى. وقد سبق أن ذكرنا كيفية إسناد السماء بأعمدة أربعة موضوعة في الجهات الأربع، ورأى المصريون في هذا الإسناد للسماء أنه مضمون أكثر من سند الإلٰه الهواء «شو» لها، ووظيفة هذا الإلٰه أن يقف ثابتاً على الأرض ويحمل السماء كما جاء في النصوص الهرمية. وقد جسَّموا السماء بهيئة آلهة دعوها باسم «نوت» وتمثل هذه وهي منحنية على الأرض حيث تلامس أصابع يديها ورجليها الأرض وتزين الشمس والقمر والكواكب النيِّرة جسمها. وهذه صورة ثالثة لكيفية استناد السماء أي إن هذه الإلهة السماء هي التي تسند جسمها وأنها علاوة على ذلك يساعدها الإلٰه الهواء في ذلك وقد يمثلون القبة السماوية أيضاً على هيئة بطن بقرة سماوية هائلة وهي مرصّعة بالنجوم والكواكب، وهي تجرّ المجرة حيث تجري سفينة الشمس (سفينة الإلٰه الشمس) في سيرها في السماء. وقد خصصوا جملة من مجموعات الكواكب وألّهوها، ومن ذلك مجموعة نجم القطب الشمالي حيث وصفت بأنها النجوم التي لا تعرف الموت وموطن الحياة الأزلية الخالدة وسمّوا هذا الموضع باسم «دات» الذي هو موضع الأرواح الخالدة. وبانتشار العبادة الشمسية تغير موضع الأرواح الخالدة من القسم الشمالي من السماء وصار في العالم الأسفل، وصار موضع دخول الأرواح إليه من الغرب كما تدخل الشمس عندما تموت في المساء حيث تدخل في سيرها اليومي تحت الأرض وتبعث من جديد من المشرق. وتصوروا سير الإلٰه الشمس بأنه يتمّ في قاربين، واحد لسيره النهاري وواحد لسيره الليلي تحت الأرض، وألحقوا بذلك مجموعة من الآلهة تكون في سفينة الشمس على هيئة ملاحين. وقد

يتعرض الإله الشمس في سيره السماوي إلى أخطار جسيمة، ومن ذلك أن ثعباناً هائلاً يتربص به فتنشب معركة بين الاثنين، وإذا ما تغلب هذا الثعبان على الشمس فيقع الكسوف.

وكان الإله الشمس بصفته سيد الآلهة وأول ملك في الكون كثيراً ما «يعير نفسه» إلى الآلهة الأخرى لزيادة قدرتها، ومن مظاهر هذه العقيدة نجد اسم الإله «رع»، وهو اسمه كما عبد في هليوبوليس، يدخل في أسماء الآلهة الأخرى بهيئة مركبة مثل «رع ـ أتوم» و«رع ـ هورس» وفي مواضع أخرى عُرف بالإله الصقر «مونتو ـ رع» والإله التمساح «سوبيك ـ رع» والإله الكبش «خنوم ـ رع»، كما صار «أمون ـ رع» بصفته ملك الآلهة في مدينة طيبة.

2 ـ أساطير الخليقة:

كما يتعذر أن نجد صورة واحدة مطّردة من عقائد المصريين عن الكون كذلك لا يوجد رأي واحد أو أسطورة واحدة حول بداية الأشياء وإنما توجد جملة آراء وأساطير مختلفة، وكانت مثل هذه الأساطير مقبولة عند المصريين القدماء بالرغم من اختلافها وتناقضها. ومن الملاحظات المهمة التي يجدر التنويه بها ما قد يجده الباحث من تشابه وتناظر بين الروايات البابلية وبين الروايات العبرانية فيما يخصّ الخليقة وأصل الأشياء، ولكن الأساطير المصرية بعيدة الشبه بكل من هذين المصدرين، مما يدلّ على أن مصر كانت مستقلة منفصلة في تطور آرائها بهذا الشأن.

وقد تصور المصريون موضع الخليقة، أي المكان الذي جاءت فيه الآلهة والأشياء إلى الوجود في رابية هي «رابية الخليقة» أو «تل الخليقة». ولا يستبعد أن يكون أصل هذا التصور من ظاهرة فيضان النيل وانحسار المياه بعد الفيضان حيث أول ما يظهر إلى الوجود الروابي الترابية وهي حاملة أولى بشائر الحياة من حياة الخضار والنبات، وفكرة منشأ الحياة من التراب والطين فكرة شائعة بين الأمم أما كيفية ظهور الحياة فوق «التل الأول» فقد رأى المصريون أن أول ما ظهر عليه في الوجود «الإله الخالق» وهو «رع ـ أتوم». ومن هنا منشأ

تقديس المواضع المرتفعة، وقد سبق أن ذكرنا أن من جملة الآراء في تفسير شكل الأهرام أنها ترمز إلى «تل الخليقة الأول»، حيث ظهر أول إلٰه فوق «تل الخليقة». أما كيفية مجيء الآلهة إلى الوجود فتوجد عدة روايات، فرواية (كما جاءت في كتاب الأموات) تقول إن أول من ظهر إلى الوجود الإلٰه الشمس، وقد ظهر من تلقاء نفسه أي إنه هو الذي أوجد نفسه ثم عمل إلى إيجاد الآلهة الأخرى ليصيروا أتباعه وكان أول ملك على الكون، وتنص رواية أخرى على أن الآلهة الأولى كانت موجودة وهي من مادة المياه الأولى، وكان عددها ثمانية آلهة ذكر كل زوجين منها على حدة[1]، ويقابل هذه «الآلهة الثمانية» التي تمثل العماء والفوضى مجموعة آلهة أخرى عددها تسعة، يرأسها الإلٰه الشمس، وهي عائلته، وإذ كانت المجموعة الأولى تمثل الفوضى والعماء في الكون فإن هذه «الآلهة التسعة» تمثل النظام في الكون، وهي الإلٰه الهواء «شو» والإلٰه الذي يمثل الرطوبة «تفنوت» و«جيب» الإلٰه الأرض والإلهة «نوت» التي تمثل السماء والإلٰه أوسيريس وإيسيس وسيث ونفثايس (زوج الإلٰه سيث).

ويعني اسم الإلٰه الشمس «أتوم» وهو الإلٰه الخالق «كل شيء»، ويعني لا شيء أيضاً، ولا يوجد في ذلك تناقض بالنسبة إلى أصحاب اللاهوت في مصر القديمة فإن كلمة «أتوم» تعني «الشيء الكامل الذي انتهى صنعه. أي الشيء الذي لا يوجد سواه ولا يوجد بعده شيء وهو كل شيء». ومن روايات أساطير الخليقة رواية تنصّ على أن الإلٰه «أتوم» وهو «في مجده فوق تل الخليقة» بصق فظهر الإلٰه الهواء «شو» ثم نفخ بصاقه فظهر الإلٰه الرطوبة «تفنوت» أو إنه «عطس» فظهر هذان الإلٰهان. ثم ولد هذان الإلٰهان الأرض والسماء والجو، ثم اتّحد الإلٰه الأرض (وهو الإلٰه المذكر) مع الإلهة السماء، فأولدا أربعة آلهة وهم أوسيريس وزوجته إيسيس وسيث وزوجته «نفثايس».

---

(1) وهي «نون» و«نونت» ويمثلان المياه السفلى.
و«هو» و«هوهت» يمثلان الامتداد المادي الذي ليس له صورة معينة.
و«دكوك» و«كوكت» ويمثلان الظلام.
و«أمون» و«أمونت» ويمثلان المادة الأولى المختلطة (العماء).

ومن أساطير الخليقة المهمة ما يُعرف باسم «نص منفس» وهو يختلف عن الروايات الأخرى وله أهمية خاصة. ومع أن النسخة الموجودة منه يرجع عهدها إلى حدود 700 ق.م.، ولكنه كما يقول الملك الذي أمر باستنساخه، يعود إلى أزمان أقدم من التأريخ المصري، في الزمن الذي اتحدت فيه السلالات الأولى المصرية واتخذت عاصمتها في مدينة «منفس»، وهي المدينة الخاصة بالإِلٰه «فتاح»، وبما أن هذه المدينة لم تكن ذات شأن ديني مهم لا سيما وهي قريبة جداً من مركز عبادة الإِلٰه الشمس رع في «هليوبوليس» (حيث لا تبعد عنها سوى 25 ميلاً)، فلزم تبرير مركزها الديني الجديد بصيرورتها عاصمة المملكة الموحدة، فعمد كهنتها على تحوير بعض أساطير الخليقة وتخصيص دور مهم بارز إلى إلهها «فتاح». ولكن الغريب في أمر أسطورة «منفس»[1] اختلافها عن الأساطير المصرية الأخرى المألوفة حيث تكاد تتّفق جميعها، باستثناء أسطورة منفس، على أن عملية الخلق كانت عملية مادية صرفة أي قيام إِلٰه أو آلهة معيّنة بعملية الخلق بصورة عملية مادية، ولكن نجد في هذه الوثيقة الجديدة فكرة الخلق وهي تتم بوجه فلسفي أي بمجرد تفكير الإِلٰه بالخلق وإرادته له ثم خروج «كلمة» الإِلٰه التي حوّلت فكرته إلى فعل الخلق. ويرى أكثر من واحد من الباحثين شبهاً كبيراً بين هذه الفكرة وبين فكرة «الكلمة» (اللوجوس «Logos») اليونانية الموجودة في الإنجيل (إنجيل يوحنا): «في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت عند الله، وكانت الكلمة الله». ومما يجدر ذكره عن هذه الأسطورة المصرية الخاصة بمنفس أنها لا تهمل أساطير الخليقة الأخرى الشائعة وإنما تدمجها برواياتها وتعلّلها تعليلاً يكاد يكون فلسفياً. وأهم ما في هذه الأسطورة أولاً معادلة الإِلٰه «فتاح» بالإِلٰه «نون»، أي بالمياه الأولى التي خرج منها الإِلٰه «أتوم» (الإِلٰه الشمس)، وهو الإِلٰه الخالق بحسب الأساطير المصرية الأخرى. وهذا معناه أن الإِلٰه فتاح قد

---

(1) انظر أحدث ترجمة لها في المرجع الآتي:

Ancient Near Eastern Texts, 4 ff.

سبق في وجوده الإلٰه الشمس وأنه هو الذي أوجده، ثم أوجد الآلهة الأخرى وجميع الأشياء بمجرد أن أراد ذلك وقال «الكلمة»، ثم استراح الإلٰه «فتاح» بعد أن خلق كل شيء.

خلق الإنسان:

أما عن خلق الإنسان فلا يوجد في أساطير الخليقة المصرية نص واضح عن كيفية خلق البشر بوجه واضح. فهناك نصوص تسمي الإلٰه الشمس بأنه هو الذي أوجد «البشر»، ويوجد نص آخر يقول إن الإنسان خُلق على صورة الإلٰه، ويمجّد هذا النص إحسان الإلٰه الخالق لعنايته بالمخلوقات البشرية التي يسميها «ماشية الإلٰه» ومن النصوص الخاصة بخلق الإنسان أن الإلٰه الكبش «خنوم» هو الذي خلق البشر بواسطة دولاب الخزاف الخاص به، وقسّمت أسطورة قديمة الجنس البشري إلى أربعة عروق أو أجناس وهم جنس «الرومت» أي البشر وهؤلاء هم المصريون و«العامو» وهم سكان الصحراء الشرقية و«الثميحو» وهم الليبيون و«النحيسو» وهم السود والسمر (الزنوج) في السودان، وقد تكوّن الصنف الأول من دموع سقطت من عين الإلٰه «رع» التي سقطت على أعضاء جسمه فتكوّن منها الرجال والنساء، وأوجد الإلٰه الأجناس الأخرى من جسمه بطرق غير معروفة.

وتوجد أسطورة[1] طريفة جاءتنا من عهد المملكة الوسطى وهو العهد الذي سبق أن قلنا إنه يمتاز، من جملة ما يمتاز به، ظهور الاعتراف بالعدالة الاجتماعية وكذلك الاعتراف بحقوق الناس العاديين، وبموجب هذه الأسطورة أمر الإلٰه الخالق بتساوي البشر بالنسبة إلى ضروريات الحياة، فقد صنع الرياح الأربعة لهم، وجعل لهم فيضان النهر الذي يكون حق الفقير فيه مثل حق العظيم، وأنه صنع كل إنسان بحيث إنه يشبه أخاه الإنسان، وإنه لم يصنع شراً ولكن قلوب البشر هي التي تعصي ما أمر به.

---

(1) انظر: **Ancient Near Eastern Texts, 12 ff.**

ومن الأساطير الخاصة بالبشر أسطورة تتعلق بخلاص البشر من الدمار والهلاك. فبعد أن حكم الإلٰه «رع» الكون دهوراً طويلة، بدأ البشر يجدِّفون باسمه ويرتكبون الذنوب والمعاصي، فجمع «رع» الآلهة وأخذ يشاورهم في الأمر فكانت نتيجة الشورى أنه أرسل بين البشر «عينه» التي خلق البشر منها وهي بهيئة الإلهة «هاثور» لتعمل على إهلاك البشر، فجاءت هذه الإلهة وأخذت تفتك بالبشر وهم منهزمون في البادية، وكون شكلاً آخر لهاثور بهيئة إلهة اسمها «سخمت» حيث صارت تساعد هاثور وتخوض بدماء البشر. وبعد مضي مدة من القتل والتدمير هدأ غضب الإلٰه فأوقف قتل البشر ولكن بأسلوب طريف (يكاد يكون صبيانياً) إذ إنه أمر بإحضار (مغر) أحمر خلطه بالجعة (البيرة) فصار مظهره مثل دم البشر، وملأ منه سبعة آلاف جرة ووضعها في الحقول في المواضع التي كانت الإلهة ماضية في تدمير البشر، فأمتلأت الحقول بهذا السائل الأحمر، فشربت منه وسكرت وفقدت وعيها فلم تعد ترى البشر وكفّت عن تدميرهم.

والجدير بالذكر عن هذه الأسطورة أن بعض الباحثين يسميها بأسطورة الطوفان ولكن الواقع لا يصحّ إطلاق هذا الاسم عليها، وإن أدب وادي النيل خال من أية أسطورة أو قصة عن الطوفان بخلاف ما رأيناه في حضارة وادي الرافدين، والسبب في ذلك على ما نرى اعتدال فيضان النيل، وأنه حتى في حالة الفيضان المدمر فإنه لم تبلغ شدة التدمير الذي يحدثه فيضان الرافدين في العراق.

ونختتم بحثنا عن ديانة وادي النيل والأساطير الموضّحة لها بذكر أسطورة طريفة مفيدة لفهم جوانب مهمة عن عقائد المصريين في آلهتهم وتدور هذه الأسطورة[1] على أن للآلهة العظام أسماء «سرية» تكمن فيها قدرتهم الإلٰهية، ولا يعرف سر هذا الاسم «الأعظم» سوى الإلٰه الخاص به وحده.

(1) انظر أحدث ترجمة لها في: **Ancient Near Eastern Texts (1950), 4 ff.**

ويرجع تأريخ النص إلى عهد السلالة التاسعة عشرة (1350 ـ 1200 ق.م).

فكان للإله العظيم «رع» أسماء كثيرة، ولكن أحدها كان سرياً وكان مصدر قدرته. وملخص الأسطورة أن الإلهة البارعة «إيسيس» صممت على معرفة هذا الاسم وسرقته من الإله العظيم. وكان من عادة الإله «رع» أن يأخذ مجلسه في عرشه كل يوم بين المشرق والمغرب. وكان هذا الإله في شيخوخته، فجمعت الإلهة «إيسيس» البصاق الذي كان يبصقه الإله الشيخ وعجنته بالتربة وصنعت منه ثعباناً عظيماً ووضعته في طريق الإله الذي يسير فيه بين بلاديه (مصر العليا والسفلى)، وفيما كان يتمشى على عادته عضّه الثعبان، فأحدثت فيه العضة ألماً ممضاً وصار جسمه كالنار وصار يصرخ من الألم فاَجتمعت حاشيته من الآلهة التسعة وشكى لهم حاله عساهم يزيلون ألمه بالسحر، وجاءت «إيسيس» مع الآلهة فسألته عن سبب ألمه فشرح لها ما حدث له من الألم المفاجىء، فطلبت منه هذه الإلهة أن يعلمها «باسمه» لتتلوه وتعمل منه سحراً يزيل آلامه، فأخذ يعدِّد لها ما قام به من عمليات الخلق في الكون، وأن اسمه «خفرى» في الصباح و«رع» وقت الظهيرة و«أتوم» في المساء، ولكن آلامه لم تهدأ فقالت له «إيسيس» إن اسمه الحقيقي لم يكن من بين الأسماء التي عدّدها، فإذا أخبرها به فإن مفعول السم سيزول عنه. ولما ازداد مفعول السم في جسم الإله أمر الإلهة أن تقترب منه وأخذ يسرها باسمه العظيم «وهو السحر الأعظم» فأخذت إيسيس تتلوه فزال عنه الألم[1].

الكهنة:

إذا استعدنا إلى أذهاننا المنزلة الكبرى التي كان عليها الدين في حضارة وادي النيل من تغلغله القوي في حياة الدولة والشعب أدركنا مبلغ ما وصل إليه الكهنة من النفوذ والمكانة في تلك الحضارة، ومن الممكن القول إن وظائف الكهنة والتفرغ إلى هذه الوظائف والتخصص بها لم تكن واضحة قوية في

---

(1) إن هذه الأسطورة جاءت بهيئة رقية ضد لسع العقرب، وتنتهي بإرشاد في كيفية استعمالها (انظر المرجع المذكور في الهامش رقم 1 ص 113).

العصور القديمة، فكانت العادة أن أغلب الناس من ذوي المكانة في المجتمع يشغلون إلى جانب أعمالهم ووظائفهم الأخرى منصباً كهنوتياً، فالقضاة مثلاً كانوا كهاناً لإله العدل وكان الأطباء كهنة الإله «سخمت»، كما أن كثيراً من الوظائف الكهنوتية كانت متوارثة في الأسر النبيلة، وكان النساء يشتركن في الوظائف والأعمال الكهنوتية أيضاً.

ولكن إلى جانب هذه الوظائف الإضافية كانت هناك أعمال ومراسيم دينية تقتضي التفرغ لها والخدمة المستمرة من جانب رجال الدين المحترفين، وكان كبار الكهنة ذوي مراكز عالية في الدولة. واستمرت عادة إشغال كبار الموظفين مناصب كهنوتية إلى جانب وظائفهم المدنية في عهد الدولة الوسطى، ولكن تضاءل شأنهم وأخذت شؤون الدين تُحتكر من جانب كهنة محترفين متخصصين. وكان لكل معبد مجمع كهنوتي يشرف عليه من الوجهة النظرية أمير الإقليم أو حاكم الإقليم الموجود فيه ذلك المعبد. وكانت هيئة الكهنة في كل معبد متنوّعة الوظائف ومختلفة في الدرجات فمنهم الكاهن الأعلى ورئيس خزينة الإله وكاتب بيت الإله والكاهن المرتل الخ.

ووقع في عهد الأمبراطورية تبدّل أساس في مركز الكهنة، فقد ارتفع مركزهم في الدولة وازداد عددهم وطبقاتهم وثرواتهم ازدياداً كبيراً. ونستطيع أن ندرك ذلك في كهنة معبد الإله «أمون» في طيبة، حيث صار لهؤلاء الكهنة نفوذ واسع وكان أبرز عامل في تعاظم نفوذ الكهنة في عهد الأمبراطورية ثراؤهم المفرط الذي حصلوا عليه في هذا العهد وكان مصدر هذا الثراء من الهدايا الجسيمة التي يقدّمها الملوك إلى معابد الآلهة وكانت هذه العادة موجودة منذ عهد المملكة القديمة إلا أنها ازدادت في مقياسها في عهد الأمبراطورية بالنظر إلى الثروات الهائلة التي جناها الفراعنة من حروبهم وغنائمهم خارج مصر، وكانت الهدايا لا حصر لأنواعها ولكن المهم منها يتألف من الحقول والبساتين والأملاك والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة والثروة الحيوانية الهائلة. فكانت هذه الأملاك الواسعة والنفوذ المتزايد تتطلّب

الإدارة الواسعة، فصارت المعابد في الواقع تؤلف ممالك مصغرة في إدارتها، ولا سيما معبد أمون في طيبة فكان لهذا الإلٰه إدارة عامة لأملاكه ودائرة خاصة للخزينة وإدارة للأراضي الزراعية العائدة له وإدارة لمخازن الحبوب وللماشية، وكان لكل إدارة رئيس وكتّاب وموظفون. كما أنه كان للمعابد إدارة خاصة للبناء والترميم وكان للمعابد أيضاً قوة عسكرية خاصة من الضباط والجنود، والسجون والمحاكم ولنا أن نتصور عدد المباني الملحقة بالمعابد لإيواء مثل هذا العدد الهائل من الموظفين، وهكذا بمرور الأزمان استطاعت طبقات الكهنة أخذ زمام السلطة في الدولة ولعل هذا ما حدا بأخناتون إلى الثورة على عبادة الآلهة القديمة ومناوأته لعبادة الإلٰه «أمون» وكهنته، ولكن هذا لم يفلح في صدّ التيار إذ عاد مرة أخرى نفوذ الكهنة في عهد «توت عنخ أمون»، وانتقلت السلطة الفعلية إلى أيدي كبار الكهنة في عهد السلالة الواحدة والعشرين.

المعابد:

كان المعبد من مستلزمات الديانة وعبادة الآلهة، فلم يكن باستطاعة المصريين القدماء أن يتصوروا إلهاً من غير «بيت» خاص يعيش فيه وتقام فيه شعائره والأعياد الخاصة به، وتقام به الصلاة وتلحق به مخازنه لإدارة أملاكه. هذا وقد سبق أن نوّهنا بنوع من المعابد المصرية مثل المعابد «الجنائزية» الملحقة بقبور الملوك، سواء كانت هذه القبور بهيئة أهرام (كما في عصر الأهرام) أو على هيئة قبور اعتيادية كما ذكرناه فيما سبق. ونذكر هنا شيئاً موجزاً عن المعابد التي شيّدوها لعبادة الآلهة. وكان الموضع الذي يشيّد فيه المعبد «مكاناً مقدساً»[1]، ويظل موضعاً مقدساً تُقام فيه المعابد من الأدوار المختلفة فوق أسس المعابد وأنقاضها، وهذا هو السبب في أننا لا نعرف شيئاً

---

(1) اعتمدنا في إيجاز هذا البحث على ترجمة كتاب «مصر والحياة المصرية القديمة»، لأدولف أرمان وهرمان رانكه، ص 302 فما بعد.

يعتدّ به عن معابد الآلهة في عهد المملكتين القديمة والوسطى لأنها كلها تقريباً قد قامت فوقها أبنية عهد الأمبراطورية الضخمة الواسعة. ونذكر من أمثلة المعابد من عصر الأهرام المعابد التي شيّدها ملوك السلالة الخامسة للإلٰه الشمس «رع» في «هليوبوليس» وقد كشفت التنقيبات عن أحدها، فهو يختلف في شكله بوجه عام عن معابد الأزمان التالية فمثلاً لا يوجد فيه ما يميِّز المعابد النموذجية من هذه الأزمان، أي الحجرة المقدسة المظلمة التي يوضع فيها تمثال الإلٰه، وبدلاً من ذلك يكون معبد الشمس قائماً وسط فناء واسع يحيط به ممر من الحجر، وكان أبرز جزء في هذا الفناء رمز الإلٰه الشمس الذي هو عبارة عن مسلّة حجر تقوم على قاعدة عالية، حيث تتوهج قمة المسلة المدبّبة المموّهة بالذهب في أشعة الشمس، فكان هذا الرمز هو الذي يمثل الإلٰه الشمس، والهرم بموجب أحد التفاسير ليس إلّا رمزاً لهذا الإلٰه، ويقوم قرب هذه المسلة المقدسة «مذبح» ضخم كانت تُقدّم فوقه القرابين إلى الإلٰه الشمس في الهواء الطلق، ويقوم إلى جانب المعبد شكل سفينة عظيمة كانت جدرانها من اللبن، أما هذه السفينة فكانت لغرض سير الإلٰه الشمس فيها كل يوم في المساء، وكانت الجدران في جانب الممر المفضي إلى قاعدة المسلة تزين بنقوش ذات ألوان زاهية متنوّعة تمثل حياة الطبيعة في فصولها المختلفة.

والبقايا القليلة من معابد المملكة الوسطى تتفق في أسسها مع شكل معابد عهد الأمبراطورية. ولنصف الشكل العام لمعابد زمن الأمبراطورية. فأولاً هناك الممر أو الطريق المؤدي إلى المعبد، وكان مبلطاً ويحيط به من جانبيه صفان من تماثيل أبي الهول، ويقوم أمام المعبد صرح أو جملة صروح (Pylon) وكانت هذه عبارة عن بوابات ضخمة وترتفع مع الأبراج الحجرية المحيطة بميل أو انحدار قليل. وقد أقيمت هذه الأبراج للرهبة والزينة حيث جدرانها الملوّنة وساريات الأعلام والمسلات التي أمامها كل ذلك مما يحدث أثراً رهيباً في تأكيد قدسية الموضع.

ويأتي من بعد الصرح مباشرة فناء (ساحة) المعبد الواسع الذي تحيط به

(بوائك) ذات أعمدة ضخمة، ويقع في الجدار الخلفي لهذه الساحة المدخل إلى قاعة مؤلفة من الأعمدة وتستمد نورها من نوافذ في السقف. وفي هاتين الساحتين، أي الساحة الأولى وقاعة الأعمدة كانت تُقام الاحتفالات الدينية الخاصة بالإلٰه وتقدم فيهما القرابين. أما مقر الإلٰه فكان في المقصورة الوسطى المؤلفة من ثلاث مقاصير صغيرة مظلمة تقع خلف قاعة الأعمدة وكان يودع في المقصورة الوسطى قارب الإلٰه وتمثاله، وخصصت المقصورتان الجانبيتان لِزَوجة الإلٰه وابنه، وكانت هذه المقاصير الثلاث أقدس جزء في المعبد، وهو قدس الأقداس وقد كتب على جوانب أبوابها أن «على من يدخل المعبد أن يكون طاهراً» وقد كررت هذه العبارة أربع مرات. والعادة الغالبة أن لهذا الجزء المقدس من المعبد مدخل ثان في الجانب الخلفي، وتقع وراء ذلك حجرات عديدة مختلفة لخزن أدوات المعبد وحاجياته.

إن هذا الوصف الموجز لتخطيط المعابد المصرية من عهد الأمبراطورية ينطبق على جميع المعابد الكبرى مثل معبد الإلٰه أمون الشهير في الكرنك، أما المعابد الصغرى فكانت تشبه ذلك من حيث أسس تخطيطها، ولكن كانت تختلف في الاختصار في عدد الحجرات أقل مما هو موجود في المعابد الكبرى، وكذلك يُقال في عدد القاعات.

وكان المعبد يزيّن بالزخارف الملائمة لقدسية الإلٰه المعبود فيه فإذا استثنينا نقوش الجدران الخارجية، فإن مواضيع النقوش دينية صرفة فكانت الجدران والأعمدة تغطى كلها بصور الآلهة بألوان زاهية مما تجعل أرجاء المعبد ذا مظهر رائق. ويغلب تكرار الصور كثيراً، ومن بين المواضيع المكررة مثلاً صورة الملك الذي يرتدي رداءه التقليدي ويقف بين أيدي آلهة المعبد العظام والإلٰه الرئيس الذي بنى له المعبد حيث يقدم له هذا الإله رمز الحياة وتباركه الآلهة الأخرى وروعي في الكتابات أن تكون زخرفة. ومن المواضيع المعادة المكررة النقش الكتابي الذي يؤكد فيه الإلٰه للملك بقوله: «إني سأهبك سنين حتى الخلود، وحكماً على القطرين في سرور، وما بقيت أنا حياً فستبقى

أنت حياً أيضاً على الأرض، متألقاً كملك للوجه القبلي وملك للوجه البحري على عرش هورس الخاص بالأحياء، وسيظل اسمك ما بقيت الحياة باقياً مستمراً في الخلود جزاء وفاقاً على هذا الأثر التذكاري الجميل الكبير الطاهر المكين الجليل الذي أقمته لي حتى تحيا حياة الخلود» الخ. . . ومن يقرأ مثل هذا النقش وغيره من النقوش في جدران المعابد المصرية لا بدّ وأنه يحسب أن المعبد قد أُقيم لتمجيد الملك أكثر من تمجيد الإله، ويؤيد هذه الفكرة أسماء المعابد التي صارت تقترن بأسماء الملوك.



مشهد يمثل حساب الموتى في عالم ما بعد الموت حيث الميزان الذي توزن به روح الميت وأعماله في كفة مقابل رمز العدل والصلاح. لاحظ الإله الممثل بهيئة ابن آوى الموكّل بالوزن (وهو الإله أنوبيس) وكذلك الوحش الموجود في الجهة اليمنى وهو منتظر نتيجة الوزن ليلتهم الميت إذا وجد ناقصاً في الميزان. ويوجد في الحقل الأعلى من الصورة مجلس الآلهة الموكلين باستنطاق الميت عمّا ارتكبه من الخطايا والذنوب.

الفصل الرابع والعشرون

«الأدب ـ الفن ـ القانون والشريعة»
وشيء عن العلوم والمعارف

1 ـ الخط الهيروغليفي وحل رموزه:

لكي يلمّ الدارس لحضارة وادي النيل بشيء عن آدابها المدوّنة وعلومها فإنه يلزم عليه أن يعرف الوسائل التي دوّنت بها تلك الآداب والعلوم، أي يتعرف على كتابتها لأن هذه الكتابة، مثل الخط المسماري، تدخل في صلب فهم اللغة والحضارة وليست من قبيل الحروف الهجائية التي يُستغنى عن معرفتها.

اشتهرت حضارة وادي النيل بخطها المشهور بالخط الهيروغليفي حيث يجده المرء في المآثر التي خلفتها تلك الحضارة ويحسبه نوعاً من الزخرفة والزينة الصورية. ولكن الواقع أن الخط الهيروغليفي يمثّل لنا أقدم الخطوط التي ابتدعتها الحضارة المصرية في تدوين شؤونها المختلفة، وقد نشأ ذلك الخط في مصر في أواخر ما سميناه بالعهد الحجري المعدني وفي بداية عهد السلالات، ويعزى نشوؤه، كما رأينا في الخط المسماري، إلى الحاجات التي استتبعت نشوء الحياة المصرية في وادي النيل. ولكن هناك فرقاً مهماً بين الخط الهيروغليفي والخط المسماري من ناحية الأصل. إذ إن أصل هذا الخط غير واضح وضوح أصل الخط المسماري الذي وُجدت أصوله البسيطة الأولى لما كان بهيئة صور تمثل الأشياء.

أما ما جاءنا من الخط الهيروغليفي إلى حال التأريخ فلا يمثل لنا بداية هذا الخط فإن أقدم نماذج جاءتنا عنه لا تمثّل لنا مراحل نشوئه الأولى وإنما

طور نضجه وانتقاله من الطور الصوري المحض إلى الطور الكتابي الرمزي. ولكن على الرغم من عدم وجود نماذج من الأطوار النشوئية الأولى للخط الهيروغليفي فالمرجّح عندنا أن ذلك الخط ابتدعه المصريون القدماء أنفسهم منذ السلالات الأولى[1] من المقابر الملكية العائدة إلى هذه السلالات، وأقدم نماذج منه ما جاءنا من عهد السلالة الأولى في النقوش المحفورة على نوع خاص من صفائح الحجر التي وجدت في «هيراكونبوليس» الواقعة بنحو (50) ميلاً جنوب طيبة، وأشهر هذه الأحجار المكتوبة ما يُعرف باسم حجر «نارمر» نسبة إلى «نارمر» الذي قلنا إنه كان أحد ملوك السلالة الأولى، ولعله أحد الملوك الذين أطلق عليهم اسم «منا» مؤسس هذه السلالة وموحّد المملكة المصرية المأثور.

وعلى الرغم من جهلنا بأبسط أطوار الخط الهيروغليفي فإن هذا الخط، قياساً على أقدم نماذج له، كان أصله صورياً، ثم تطوّر إلى ما سميناه بالطور الرمزي أي إن العلامات الهيروغليفية صارت تقوم مقام كلمات ومعان لها علاقة بأصل العلامة الصوري، وتطور الخط الهيروغليفي منذ أقدم الأزمان التأريخية إلى الطور الصوتي (ولعل ذلك بتأثير حافز الكتابة المسمارية) حيث استعملت العلامات بهيئة مقاطع لكتابة الكلمات المختلفة، وكانت هذه الطريقة شبيهة بطريقة الكتابة الهجائية إلا أنها لم تكن هجائية صرفة. فمثلاً خصّص المصريون القدماء مجموعتين من العلامات الصوتية الشبيهة بالهجائية، تتألف المجموعة الأولى من 24 علامة قوام كل منها حرف صحيح مقروناً به أي حرف علة من حروف العلة الموجودة في أصوات اللغة المصرية. فمثلاً الحرف (م) يمكن أن يُقرأ بهيئة «مو» أو «ما» أو «مي»، وينتخب حرف العلة اللائق بحسب القرينة في كتابة الكلمات المختلفة. والمجموعة الثانية مؤلفة من نحو (80) علامة هي علامات مقطعية صوتية شبيهة بالحروف الهجائية وقوام

(1) يرى بعض الباحثين احتمال أخذ الحافز على نشوء الخط الهيروغليفي من الخط المسماري. انظر ما ذكرناه سابقاً عن الموضوع، وانظر المرجع الآتي: (The Legacy of Egypt, p.42).

كل علامة حرفان صحيحان مقروناً بهما (في الوسط أو في الآخر) أي حرف علة[1]. وبقيت الكتابة المصرية القديمة خليطة من الكتابة الرمزية والكتابة الصوتية المقطعية (الشبيهة بالهجائية) ولم تصل إلى المرحلة الهجائية الصرفة. ولكن حدث في شكل خطها تطورات وتبدّلات مهمة مما أدّى إلى ظهور جملة أنواع من الخطوط نوجزها على الوجه الآتي:

أنواع الخطوط المصرية:

توجد ثلاثة أنواع متميزة من خطوط الكتابة في حضارة وادي النيل هي بحسب ظهورها التأريخي:

(1) الخط الهيروغليفي (Hieroglyphic).

(2) والخط الهيراطيقي (Hieratic).

(3) والخط الديموطيقي (Demotic).

1 ـ الخط الهيروغليفي:

الخط الهيروغليفي هو الخط المقدس[2] الذي كان أقدم أنواع الخطوط المصرية القديمة وقد ظل في الاستعمال منذ أقدم أطواره (2900 ق.م) إلى نحو 100 ق.م.[3]، وظل محافظاً على شكله الصوري (أي شبه العلامات

---

(1) ففي المقطع (Tm) مثلاً يمكن قراءته بأوجه كثيرة مختلفة مثل T(a) m(a) وT(u) m(u) وT(e) m(e) وT(i) m(i) الخ. وتسمى مثل هذه العلامات بمصطلح (alphabeto-syllabic). حول أحدث البحوث والآراء في الكتابة الهيروغليفية راجع:

Gelb, **The Study of Writing** (1952).

وانظر كذلك:

The British Museum Guide (1930).

(2) مصطلح هيروغليفي كلمة يونانية مركبة من كلمتين كلمة «مقدس» (hieros) وكلمة حفر أو نقش على الحجر (glyphein).

(3) ظل الهيروغليفي في الاستعمال قليلاً أزماناً أخرى، وبإمكاننا تأريخ بطلان استعماله وموته نهائياً في القرن الثالث للميلاد.

المستعملة بالصور)، واستعمل لنقش المآثر والكتابات المقدسة في المعابد والقبور والتماثيل. والعادة في تنظيم هذا الخط أنه يدون بحقول متوازية عمودية تبدأ قراءتها من اليمين، ومن الممكن كتابة الخط الهيروغليفي أيضاً بهيئة معكوسة بصورة أفقية ومن اليسار إلى اليمين، وهي الطريقة المتّبعة الآن عند الباحثين المحدثين (لملاءمة ذلك للحروف اللاتينية).

2 ـ الخط الهيراطيقي:

معنى اسم هيراطيقي «كتابة أو خط الكهنة» ومنشؤه التأريخي من تبسيط الخط الهيروغليفي واختصاره. إذ إن القوم شعروا منذ أزمان قديمة أن الكتابة الهيروغليفية ثقيلة سمجة، كما أنها لا تصلح أن تكتب كتابة سريعة في ورق البردي بالحبر والقلم، لصعوبة ضبط تأدية الصور على مثل هذا الورق، فبدأ الكتبة يحوِّرون في الهيروغليفية الصورية ويبسطون فيها واختصروا فيها أيضاً فنشأ بمرور الأزمان الخط الهيراطيقي وهو طريقة سريعة في الكتابة ونسخية، وكان أقدم استعمال له في استنساخ المؤلفات الأدبية في ورق البردي منذ السلالتين الخامسة أو السادسة (في حدود 1900 ق.م) وظل في الاستعمال في كتابة بعض الشؤون المهمة كالعقود والصكوك والمصالح العامة والآداب والمعارف المختلفة. وبالإمكان كتابة الخط الهيراطيقي بهيئة حقول عامودية أو بصورة أفقية من جهة اليمين على الدوام (وليس من اليسار مطلقاً).

3 ـ الخط الديموطيقي:

معنى اسم هذا الخط «خط العوام أو الجمهور»، ونشوؤه التأريخي من تبسيط الخط الهيراطيقي وإيجازه مرحلة أبعد، حيث بدأ الكتبة في نهاية السلالة الثانية والعشرين وفي عهد السلالة السادسة والعشرين (947 ـ 663 ـ 525 ق.م) (أي منذ القرن العاشر والتاسع ق.م) يبسطون ويختصرون في الخط الهيراطيقي مراحل أبعد، فأوجدوا منه علامات اصطلاحية، حذفت منها جميع العلامات الباقية من الهيروغليفية مما ظل محافظاً على شكله الصوري

وحلّ الديموطيقي محل الهيراطيقي. والجدير بالذكر أن هيرودوتس لم يذكر من خطوط الكتابة المصرية سوى خطين وهما الخط الهيروغليفي والخط الديموطيقي ولم يذكر الخط الهيراطيقي والسبب في ذلك أن هذا الخط قد اختفى من الاستعمال في عهد «هيرودوتس»، ولكن الهيروغليفي ظل مستعملاً في المآثر المقدسة كما ذكرنا. واستعمل الخط الديموطيقي للكتابة على البردي والحجر، وكان يكتب بهيئة أفقية، ومن جهة اليمين، وظل في الاستعمال إلى ما بعد القرن الثالث الميلادي بقليل، وقد بدأت الحروف الهجائية اليونانية تشيع في الاستعمال وأخذت تحلّ محل الخطوط القديمة الصعبة السمجة، وكُتبت بهذه الحروف اللغة القبطية (إحدى اللهجات المصرية المتأخرة) مع إضافة نحو (7) علامات إلى الحروف اليونانية، فذهبت معرفة الناس بالخطوط القديمة وظلت مجهولة لدى العالم إلى أن حُلّت رموزها في بداية القرن التاسع عشر للميلاد كما سنذكره بعد قليل.

ولكن قبل التنويه بحل رموز الكتابة في مصر القديمة نذكر شيئاً عن اللغة المصرية القديمة. فمما يقال عن ذلك بوجه الإيجاز ما سبق أن ذكرناه عن الشبه الكبير بين اللغة المصرية (التي هي من فروع اللغات الحامية الكبرى) وبين اللغات السامية مما جعل جماعة من الباحثين يرجعون اللغات الحامية واللغات السامية إلى أصل واحد بعيد. كما ذكرنا أيضاً ما طرأ على اللغات السامية من استمرار تطوّرها وتبدلها في حين أن اللغة المصرية القديمة كانت أقلّ تعرضاً لمثل هذه التغييرات إذ تمّ نموّها ونضجها في عهد قديم. واللغة المصرية معروفة لدى الباحثين بخمسة أطوار كما جاءت ممثلة في النصوص الكتابية المختلفة منذ عهد المملكة القديمة. وأول هذه اللغات (1) لغة المملكة القديمة (وهي اللغة العتيقة) (2) ولغة عهد المملكة الوسطى وهي اللغة المصرية المأثورة (الكلاسيكية) (3) واللغة المصرية الحديثة التي استعملت في المعاملات وشؤون الناس الاعتيادية من حدود 1600 ق.م. وفي النقوش الكتابية من 1300 ق.م. إلى حدود 850 ق.م. (4) واللغة العامية الدارجة من حدود 800 ق.م. إلى نهاية العهد الروماني وهذه هي لغة

الخط الديموطيقي، وأوجدوا لهجة مشتقة من المصرية الحديثة في كتابات الخط الهيروغليفي من هذا العهد (5) وظهرت من بعد عهد المسيح أيضاً لهجة حديثة اعتيادية هي اللغة القبطية، وقد بطل استعمال القبطية كلغة محكية في حدود القرن السادس عشر للميلاد، ولكن الإنجيل والصلاة عند مسيحيي مصر الأقباط لا تزال بالقبطية[1] على الرغم من أن معظم الناس لا يعرفون معناها.

حلّ رموز الخط الهيروغليفي:

لقد سبق أن نوّهنا بأن الكهنة ظلوا يمارسون الخط الهيروغليفي إلى نهاية القرن الثالث للميلاد، ولكن بطل استعماله من بعد هذا التأريخ وظل الخط مجهولاً إلى محاولة حلّ رموزه في بداية القرن التاسع عشر.

وقد جرت قبل ذلك في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر محاولات عديدة من جانب الباحثين لقراءة نقوش الكتابة المصرية، ولكن هذه المحاولات لم تُسفر عن نجاح ما وظل الأمر كذلك إلى أن اكتشف حجر رشيد المشهور.

فما هذا الحجر المشهور في تأريخ الحضارة البشرية؟ إنه عبارة عن جزء من مسلة من حجر البازلت (قياسها ثلاثة أقدام وتسعة إنجات في قدمين وأربعة ونصف من الإنجات) وقد نُقشت بأربعة عشر سطراً من الكتابة الهيروغليفية و32 سطراً من الكتابة الديموطيقية و54 سطراً من الكتابة اليونانية. وقد عثر عليه في عام 1798 ضابط فرنسي من المدفعية اسمه «بوسار» (Bousard) في أثناء حملة نابليون الشهيرة، إذ وجد بالقرب من فرع رشيد من النيل، ونقل في عام 1799 إلى القاهرة ليُفحص من جانب العلماء الذين رافقوا حملة نابليون. وقد أمر نابليون أن تعمل من الكتابة نسخ يزوّد بها العلماء المختلفون في

(1) وتنقسم القبطية بدورها إلى لهجات أربع هي لهجة مصر العليا (اللهجة الصعيدية) واللهجة البحرية واللهجة الفيومية واللهجة السوهاقية.

أوروبا. وفي عام 1801 أخذت السلطات البريطانية هذا الحجر وأرسلته إلى بريطانيا (في عام 1802) وحفظ في المتحف البريطاني.

إن أول كتابة حُلّت رموزها في هذا الأثر القيم هي الكتابة اليونانية، فتبيّن أن المسلة أُقيمت بقرار من مجلس كهنة مصر المنعقد في «منفس» لتخليد ذكرى اعتلاء بطليموس الخامس (ابيفانس) ملك مصر (من البطالسة)، وقد تمّ ذلك في عام 196 ق.م.

وأعقب هذه الخطوة الأولى نجاح بعض الباحثين في عام 1802 في حلّ بضعة أسطر من الكتابة الديموطيقية وتعيين بعض أسماء الأعلام الواردة فيه، وبعد بضع سنين (في عام 1819) نجح بعض الباحثين في حلّ جزء من رموز الكتابة الهيروغليفية في هذا الحجر ولا سيما قراءة اسم «بطليموس»، وكان أبرز الباحثين الناجحين فرانسوا شامليبون الشهير (1822) حيث أضاف كثيراً إلى معرفة الهيروغليفية وألّف فيها وفي نحوها وساعدته في ذلك معرفته باللغة القبطية. وقد ظهر مؤلفه قبيل موته (في عام 1832). وجاء من بعده العلماء الباحثون فاْستمروا في دراسة الخطوط المصرية ومعرفة لغتها حتى استطعنا معرفة أهم عناصر حضارة وادي النيل.

ونختتم بحثنا في الخطوط المصرية بالتنويه بمادة الكتابة عند قدماء المصريين. فعدّة الكتابة وأدواتها تتألف من ورق البردي (البابيروس) ولوحة الألوان (Palette) وأقلام القصب والدواة. وبالإضافة إلى الحجر الذي استعمل في نقش الكتابات التذكارية والكتابات المقدسة في جدران الأهرام والمقابر والمعابد فإن المادة الشائعة في الكتابة كانت كما ذكرنا ورق البردي الذي كان يصنع من سيقان نبات «البابيروس» (Papyrus)[1] الذي كان ينمو في أهوار مصر وغياضها قرب النيل، ولا يُزرع الآن في مصر ولكنه موجود في السودان حيث

(1) واسم هذا النبات العلمي (Cyperus Papyrus) ولا يعلم أصل كلمة بابيروس ولعلها من كلمة مصرية قديمة.

ينمو إلى ارتفاع (20 ـ 25 قدماً). وطريقة صنع ورق البردي أن ساق النبات كان يقطع إلى شرائط رقيقة وتوضع هذه جنباً إلى جنب بهيئة أفقية، ويوضع فيما بينها محلول خفيف من الصمغ وتضغط من بعد ذلك الصحائف المعمولة على هذا الوجه وتجفّف ويمكن صنع لفات كبيرة من هذا الورق بوصل عدة صفائح منها. ولدينا الآن أطول لفة من البردي موجودة في المتحف البريطاني (طولها 135 قدماً وعرضها قدم واحد وخمسة إنجات).

ومما يقال في مثل هذه المادة من الكتابة أنها ساعدت الكتبة المصريين على تدوين النصوص المطولة المستمدة مما كان أصل «الكتاب»، بخلاف مادة الكتابة عند العراقيين القدماء التي لم تساعدهم في هذا الأمر، لأنه لا يمكن كتابة نص مطول في ألواح الطين بالمقارنة مع أوراق البردي، كما أن جملة ألواح يصعب حفظها بعضها مع بعض مما جعل العراقيين القدماء ينشئون أولى دور للسجلات (Archive) في تأريخ الحضارات.

الأدب:

لقد سبق أن ذكرنا شيئاً موجزاً عن الكتابة المصرية القديمة، فنذكر من بعد هذا بحثاً مختصراً عن الأدب عند المصريين القدماء، وقبل أن نبدأ بذلك نشير إلى تراث مصر القديمة في الحضارة اليونانية من جهة الكتابة ولعله الأدب أيضاً. فقد أخذ اليونان عن المصريين مواد الكتابة (أي الورق المصنوع من البردي) حتى أن اسم «الكتاب» بالإغريقية (أي بيبليوس) مشتق من المدينة الفينقية «بيبلوس» (وهي جبيل) لأن مصدر الورق البردي عند الإغريق كان من هذه المدينة[1]. ويعدّ بعض المؤلفين من الإغريق أن مصدر الفلسفة عندهم هي مصر. وإذا كان هذا الرأي لا يصمد أمام النقد، إلا أنه يشير إلى تأثر الإغريق بكثير من أوجه الحضارة المصرية، ولكن نقض هذا الرأي لا يمنع أن تكون الآداب المصرية والبابلية القديمة قد حفّزت الإغريق بصورة غير مباشرة إلى

(1) وهكذا اشتقاق اسم التوراة أي (Bible).

إبداعهم في حقل الأدب الرفيع، وكان الفينيقيون من جملة هذه الطرق غير المباشرة، والطريق المهم الآخر بلاد فلسطين التي تأثرت بالحضارة المصرية تأثراً عظيماً، ويبدو أثر ذلك في الكتابات العبرانية المقدسة (في التوراة)، وهي الكتابات التي يظهر فيها أثر الآداب المصرية القديمة ولا سيما في باب الحكم والأمثال مثل أمثال سليمان التي يوجد لأكثرها أمثال مصرية مضاهية[1].

وأول أمر تجدر ملاحظته عن الأدب المصري القديم هو أنه كان نتاجاً مصرياً صرفاً، نشأ ودرج في وادي النيل، فهو والأدب القديم في وادي الرافدين أقدم أدب للإنسان ظهر في التأريخ. ويشبه الأدب المصري القديم من ناحية نشوئه وترعرعه في أرض مصر عناصر الحضارة الأخرى التي بذرت بذورها في تربة وادي النيل منذ أقدم عهود التأريخ. هذا ولا يستبعد وجود نوع من الأدب الشعبي كالقصص والتراتيل الدينية والشعائر وما إلى ذلك قبل ظهور فن الكتابة في مصر. ولعل أقدم نموذج أدبي مكتوب هو من نوع التراجم الشخصية (Autobiography) ويرقى هذا الفن إلى عهد ملوك السلالة السادسة. وجاءت من عصر الأهرام كتابات دينية هي «النصوص الهرمية» التي كانت أشبه ما تكون بالرقى والتعاويذ الدينية، واشتهرت في عصر الأهرام مجاميع الأمثال والحكمة وجاءتنا أسماء من حكماء هذا العهد أمثال «أمنحوتب»، كما جاءتنا قطع قصيرة من القصائد الشعرية، وهي تمتاز بالإعادة والتكرار اللذين يكونان

(1) انظر بوجه خاص مجموعة الحكم والأمثال المصرية المعروفة باسم إرشاد (امنم اوفت) (من حدود القرن العاشر ـ السادس ق.م)، انظر ترجمتها في:

Ancient Near Eastern Texts, 421 ff.

ومن القصص المشهورة الموجودة في الكتب المقدسة (التوراة والقرآن) قصة السنين السبع العجاف في مصر. وقد نقش هذا الخبر عن هذه السنين التي حلّت في مصر في الحجر في بحيرة قرب الشلال الأول، كما توجد إشارات في النصوص الأخرى إلى هذا السنين. ومع أن النقش المذكور يرجع في تأريخه إلى عهد البطالسة إلا أنه ينصّ على أن الحادثة وقعت في عهد السلالة الثالثة (في زمن الملك زوسر).

(انظر ذات المصدر ص 31 فما بعد).

مملين في بعض الأحيان. وقد رأينا هذه الصفة في الشعر البابلي، والإعادة والتكرار من ميزات الشعر المصري القديم حتى في الأزمان المتأخرة. ومهما يكن من أمر فإنه لم تأتنا من الأدب المصري القديم من عهد المملكة القديمة إلّا نماذج جد قليلة. وبعد نهاية عصر الأهرام في ختام السلالة السادسة جاءتنا نماذج مهمة من نتاج الأدب القديم، وقد وصل فن الأدب درجة الارتقاء والاتساع منذ ذلك الحين، وبلغ في عهد المملكة الوسطى شأواً عالياً. ولعل أبلغ قطعة أدبية من عهد المملكة الوسطى هي القصة المعروفة بقصة «سينوهي» وهي قصة مصري هرب إلى فلسطين على أثر اكتشافه مؤامرة لاغتيال الملك، وقد وصف هربه بوصف تصويري أخّاذ. وفي القصة قطعة جميلة تصوِّر لنا كيف استبدّ ببطل القصة الحنين إلى وطنه عندما تقدم في السن على الرغم مما أصابه من نجاح وثروة في موطنه الجديد، فبثّ لواعجه وشجونه في شعر حزين ما إن طرق أسماع الفرعون إلا وأرسل يستدعيه إلى الوطن الحبيب، وتصف لنا القصة وصفاً بارعاً تشوبه العاطفة والأحاسيس عودة ذلك الغريب إلى بلده وكيف استُقبل في بلاط الفرعون بحفاوة وتكريم، وقبل ذلك تصف القصة مشهداً لطيفاً مؤثراً يبدو فيه الفرعون وزوجته وبناتها الأميرات وقد أنكرن حال «سينوهي» وتبدله وهو يلبس في وعثاء السفر لباساً أجنبياً غريباً: «قال جلالته لزوجه الملكة: انظري «سينوهي» ترى أنه قد جاء وكأنه آسيوي، من نسل قوم السيتو. فصرخت صرخة كبيرة، وصرخ الأمراء الأطفال جميعاً وقالوا لجلالته: «حقاً إنه ليس هو، يا ذا الجلال والسلطان» فأجاب جلالته: «نعم إنه هو»[1].

ومن القصص التي جاءتنا من عهد المملكة الوسطى وتكاد تكون كاملة قصتان إحداهما تشبه قصة السندبان البحري ويمكننا أن نعنونها «الملاح التائه» والثانية «الفلاح البليغ» فتروي لنا القصة الأولى رواية ملاح تحطمت سفينته فالتجأ إلى جزيرة جرداء وقد لاقى فيها أهوالاً وعجائب، ومن ذلك حديث له

---

(1) انظر أحدث ترجمة للقطعة في: **Ancient Near Eastern Texts, (1950), 18 ff.**

مع ثعبان هائل الحجم. وتتلخص القصة الثانية بوصف شكاة فلاح قد سرقت منه بضاعته. وتدور هذه القصة الممتعة على فكرة العدالة الاجتماعية التي شاعت في عهد المملكة الوسطى، ووجوب شمولها الطبقات الوسطى والدنيا. وملخص القصة أن فلاحاً كان يعيش في «نطرون» عزم مرة على الذهاب إلى المدينة في مصر العليا ليختار بضاعة له، فأخذ من نتاج حقله وحمله على الحمير وبدأ في رحلته، فلما أن بلغ في الطريق موضعاً معيّناً التقى برجل في شاطىء النهر، وكان هذا وكيل الأرض الخاصة بأحد الأثرياء، فلما رأى هذا الوكيل بضاعة الفلاح المحملة سوّل له الطمع والجشع سلبها. وكان بيت الوكيل يقع على طريق ضفة النهر الضيق الذي ينبغي أن يسير فيه الفلاح مع بضاعته، وكان بعضه مزروعاً بغلة الوكيل، والجزء الآخر يحاذي النهر، وقبل أن يمرّ الفلاح منه جلب الوكيل رداء وفرشه في شقة الطريق غير المزروعة الضيقة. فاْقترب الفلاح واجتاز الطريق ببضاعته واضطر أن يطأ الرداء الموضوع، فصاح به الوكيل قائلاً: «كيف تجرؤ أيها الفلاح على أن تطأ فراشي بحميرك؟». فاْعتذر الفلاح وقال: حسناً سأتحاشى السير فوق الفراش، فحاد في اتجاهه إلى الشقة المزروعة المحاذية للقسم المفروش، وعند ذلك نهره الوكيل وقال له: «كيف تجرؤ على دوس زرعي؟». فأجابه الفلاح وقال: «إنني أسير في السبيل العام»، وفيما كان الفلاح يحاوره إذا بأحد حميره ينهش من زرع الوكيل قبضة من الزرع، فكان ذلك حجة للوكيل حيث أراد الاستحواذ على حمار الفلاح الذي أخذ يحتج وقال للوكيل: إنني لم أسئ إليك وإنما سرت في الطريق العام، ولا يجوز أن تأخذ حماري بقبضة زرع. ثم إنني أعرف مالك هذه الأرض. إنه الموكل بإيقاع العقاب بكل سارق في جميع هذه البلاد. فهل أُسلب في أرضه؟». فأخذ الوكيل هذا الجواب حجّة على الفلاح متهماً إياه بالطعن في سيد الأرض، فلم يحاججه أكثر من ذلك وإنما أخذ هراوة غليظة وانهال بها ضرباً مبرحاً على الفلاح واغتصب منه حميره وبضاعته، فأخذ الفلاح بالبكاء والصراخ، وعندها هدّده الوكيل بأنه سيزيد من ضربه لأنه يهين السيد صاحب الأرض بما أحدثه من صراخ وضوضاء مزعجاً

بذلك «سيد الصمت والهدوء»[1]. وعندها أجاب «الفلاح البليغ»: لقد ضربتني، وسلبت بضاعتي، ثم تريد أن تمنعني حتى من الشكوى. يا «سيد الصمت والعدالة» أدعوك أن تردّ إليّ بضاعتي، فلا أبكي وأصرخ وأزعجك».

وهكذا ظل الفلاح طوال عشرة أيام وهو يتوسل بوكيل الأرض فلم يسمع شكاته. فذهب الفلاح إلى مدينة «هيراكليوبوليس» ليشتكي إلى سيد الأرض في تلك المدينة، فأدركه وهو عازم على القيام برحلة رسمية مع بطانته من الموظفين، فسمح له هذا السيد عرض شكاته على أحد هؤلاء الموظفين، فسجل شكوى على الوكيل، ولكن الموظفين استهانوا بخطر الدعوى، وأن هذا الفلاح قد يكون من فلاحي الوكيل، وفي هذه الحالة يمكن تسوية القضية تسوية سهلة. ولكن الفلاح أصرّ على الشكوى وأخذ يتكلم بحكمة وبلاغة جريئتين. والظاهر أن «السيد» الكبير أُعجب بجرأة الفلاح وبلاغته فأوصل الأمر إلى ملك البلاد[2] فأمر هذا الملك أن تُكتب شكوى الفلاح وحججه وتقدم إليه وأن تكفل معيشته حتى ينظر في أمره. فقدّم الفلاح شكاته البليغة المملوءة بحكم العصر وأمثاله عن العدالة. وكانت نتيجة الحكم أن صودرت أملاك الوكيل وجرّد من وظيفته وسلّمت إلى الفلاح البليغ[3].

ومن النماذج الأدبية الطريفة قطع خصصت للإشادة بفن الكتابة وسموّ مقام الكتبة. ومن هذه القطع نصيحة أو وصية من والد اسمه «دواف» إلى ولده «خيتي» الطالب في المدرسة وهي ترينا مركز المتعلمين في المجتمع وأخذهم وظائف الدولة، وكان الأب عاملاً في السفن في عهد الأمبراطورية على ما يبدو. وإليك نماذج من هذه النصائح الطريفة: «لقد رأيت من يُضرب، فعليك أن تقبل بكل قلبك على تعلّم الكتابة، فلا شيء يفوق الكتابة. سأعمل على

---

(1) المقصود بسيد الصمت هنا الإله أوسيريس، إله الموتى، وكان قد أقيم له مزار قرب هذا الموضع الذي جرت فيه حوادث الرواية، وكان أوسيريس في الوقت نفسه إله العدل.

(2) وكان هذا أحد الملوك الذين حكموا في الفترة المظلمة من بعد عصر الأهرام.

(3) انظر نص القصة في: Ancient Near Eastern Texts, 407 ff.

جعلك تحب الكتابة أكثر من حبك لأمك. إنها أعظم من أي وظيفة... لقد رأيت المعدِّن وهو في عمله بجوار فتحة فرنه، إن أصابعه لتشبه التماسيح، إنه مضني متعب أكثر من عامل الفأس.. وهذا المشتغل بالأحجار الثمينة، فحين ينهي صنع شيء نفيس تموت ذراعاه... وذاك الحلاق إذ يشتغل متجولاً إلى الغسق. والتاجر المترحل الذي يسير بالسفينة إلى الدلتا، فإذا أنهكه التعب وأراد الراحة فإن البعوض والذباب يهلكه.. والبنّاء الصغير وصانع اللبن، إنهما أقذر من الخنزير. ودعني أخبرك بحال باني الجدران. إن الألم يمضّ جنبيه، وذراعاه كليلتان من العمل. ولا يغتسل إلّا في كل موسم. إنه تعس شديد التعاسة».

وبعد أن يعدّد الأب تعاسة أصحاب الحِرف الأخرى يعيد على ولده النصح من أنه ينبغي له أن يقبل على تعلم الكتابة ليصبح «كاتباً» فيستطيع أن يدخل في سلك القضاة، فإن حرفة «الكاتب» لا تفوقها حرفة. فهو وافر العيش من بيت الملك[1].

وجاءنا نوع آخر من هذا الأدب القديم تطغى عليه روح التشاؤم، وتبدو فيه حيرة الإنسان وجزعه من نفسه. وقد جاءتنا عن ذلك قطعة أدبية طريفة تدور على حوار بين إنسان جازع من الحياة والعيش وبين «نفسه» فلما أن وجد ذلك الشخص الحياة لا تُطاق فكر في الانتحار، وأخذ يقنع نفسه بالأمر، وكانت نفسه مترددة، فقد وافقت في مبدأ الأمر، ولكنها خشيت العاقبة من أن صاحبها سوف يُحرم من إقامة الشعائر الخاصة بالدفن من بعده فيصيبها الهلاك من جرّاء ذلك، فزيّنت له الانغماس في الحياة وفي حسراتها ولذاتها، وأنها ستظل ملازمة له، وتتمثل في أقوال تلك «النفس» نصائح الحكماء الذين وصفوا هذه الحياة بالفوضى، وأن كل شيء فيها معوج لا يسير على الوجه الصحيح، ولا تكون فيها الأشياء والأمور في مواضعها الصحيحة، ولا وجود للحرمة وللفضيلة في أي مكان. وكانت روح العصر تتطلع إلى منقذ ومخلص.

---

(1) Ancient Near Eastern Text, 413 ff.

وإذا ما أتينا إلى عهد الأمبراطورية، فإن أحسن نماذج جاءتنا من هذا العهد كانت من السلالة الثامنة عشرة، ويمثل ذلك أحسن تمثيل الأغاني والتراتيل الدينية المنسوبة إلى أخناتون وهو الملك الذي قام بأعظم ثورة دينية وأول من وحّد على ما بيّناه سابقاً، وكان نفسه شاعراً «فناناً» ذا شعور مرهف وخيال واسع. ولنأخذ بعض القطع المختارة من «ترتيلة أتون» الشهيرة التي نظمها أخناتون، وهي ترتيلة سامية في أفكارها ومعانيها وفي صفاء فكرة توحيدها. وقد وجد غير واحد من الباحثين تناظراً وشبهاً بين هذا الشعر وبين المعاني السامية الواردة في المزامير (ولا سيما المزمور الرابع بعد المائة)[1]:

ما أبهى وأجمل شروقك في أفق السماء ـ يا «أتون» الحي يا مبدأ الحياة!

حين تطلع في الأفق الشرقي تملأ كل أرض بجمالك وجلالك.

أنت رحيم، عظيم، سني مضيء، تعلو فوق كل أرض.

تحتضن أشعتك جميع الأرضين وجميع ما صنعت.

أنت «رع» وأنت «الكل». أنت متسامٍ في البعد!، ولكن نور أشعتك فوق الأرض.

وحين تغرب في الأفق الغربي من السماء، يلفّ الظلام الأرض كالموت، وتكنّ المخلوقات كلّ ما في مأواه، والظلام كالكفن، والأرض في صمت وسكون. لأن الذي صنع الكل مستقر في أفقه.

وعند بزوغ الفجر، حين تظهر في الأفق، وحين تشرق مثل «أتون» في النهار، فتطرد الظلمة، وتزهو «الأرضان» فتدبّ الحياة والحركة، وينهضون على أقدامهم لأنك أقمتهم.. ويرفعون بأيديهم يمجدون ظهورك».

ويستمر في بيان كيف تدبّ الحياة في جميع المخلوقات التي تكون في غبطة وحبور في تمجيد الخالق العظيم، ثم ينوّه بخلق الإنسان وجميع الأشياء وكيف أن خلقه كثير لا يحصى محجوب عن أعيننا فلا ندرك جميعه. وأنه

---

(1) انظر ترجمة الترتيلة والتعليق عليها في: **Ancient Near Eastern Texts, 369 ff.**

الإله الأوحد الذي لا مثيل له في القدرة والحول. ويصف كيف أنه أوجد نيلاً في الأعماق لأهل مصر وأوجد نيلاً في السماء للبلدان الأخرى لكي يزوّدهم بالماء والحياة. ثم ينوّه بوحيه لأخناتون الذي يتفرّد بمعرفته وحده من دون الخلق، فهو ابنه الذي وهبه الحكمة.

وإلى ذلك خلف لنا المصريون القدماء من عهد الأمبراطورية نماذج متنوعة من الأدب القصير، كالرسائل وقطع الإنشاء القصيرة المتنوعة. وأكثر ما يجلب انتباه القارىء فيها الناحية النفسية والثقافية، وهما الناحيتان اللتان تطغيان عليها أكثر من الأدب الصرف وشاع عندهم نوع من رسائل الهجاء والسخرية التي كان يتقاذف بها الكتبة، ومن أنواع الأدب المهمة «الشعر الغنائي»، ولا سيما شعر الغزل الرقيق، وقد جاءتنا منه بعض النماذج الجميلة. ونوع آخر من الشعر نجد فيه روح عدم الاكتراث بالموت والترحيب به، وتبدو عليه الروح الأبيقورية، ومبدأ «كل واشرب وكن مسروراً، فغداً تموت» وهذا يضاهي ما ورد في قصيدة «جلجامش» البابلية.

وبإمكاننا أن نقرر بوجه الإجمال أنه كان للمصريين أدب هو من أقدم الآداب العالمية، وأنه ذو مكانة سامية حتى لو قيس ووزن بمقاييس الأدب العالمي على الرغم من أن النماذج التي جاءتنا قليلة جزئية، وإن قسماً مما جاءنا غير كامل، ومع ذلك فهي تمكننا من أن نكوّن صورة لا بأس بها عن أقدم محاولات للإنسان للتعبير عن شعوره وأحاسيسه وعلاقة ذلك بالبيئة التي يعيش فيها[1].

---

(1) لقد ترجمت أغلب القطع الأدبية في:

. A. Erman. **The Literature of The Ancient Egyptians**

وقام بعض الباحثين بدرس مقارن بين الآداب القديمة وعلى رأسها الأدب المصري والبابلي راجع:

T.E. Peet. **A Comparative Study of the Literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia,** (London 1931).

وكذلك ترجمت القطع الأدبية أحدث ترجمة في المصدر الذي أشرنا إليه كثيراً وهو:

Ancient Near Eastern Texts, (1950).

الفن

لعل أول ما يجلب انتباه الباحث في حضارة مصر القديمة أن أبرز عنصر فيها «الفن» وأن هذا الفن قد بلغ مرحلة باهرة من النضج في عهد قديم جداً من عهود الحضارة المصرية، وهو عهد المملكة القديمة، فقد سبق أن نوّهنا بشيء عن الفن في عصر الأهرام، وأن أصول هذا الفن مجهولة يحجبها الظلام حتى الآن، فتبدأ معرفتنا به في عهد المملكة القديمة وهو في طور الازدهار، ولكن ينبغي أن يكون قد سبقته عهود تطور فيما وراء ذلك، مما نجهلها الآن. والأمر الثاني المهم الذي تجب ملاحظته عن الفن المصري أنه لم يكن فناً جامداً ثابتاً ظلّ على وتيرة واحدة منذ عهد ازدهاره، كما توهّم بعض الباحثين، بل إنه مرّت عليه أطوار مختلفة منذ عصر الأهرام خضع فيها إلى التغيير والتطوّر، كما تشهد على ذلك مآثر المملكة الوسطى والآثار الفنية التي جاءتنا من عهد «العمرانة» (عهد الأمبراطورية). وقد قلبت الاكتشافات المثيرة في قبر «توت عنخ آمون» (في عام 1922 ـ 1923) تلك الآراء القديمة، حيث زوّدتنا بنفائس من الفنون الفرعية، كالصياغة والمجوهرات وغير ذلك مما ألقى ضوءاً عظيماً على الفن المصري في عهد السلالة الثامنة عشرة.

ونقطة ثالثة تجلب انتباهنا حول الفن المصري هو أن معرفتنا به وبنماذجه من أغلب عهوده مستقاة مما خلفه لنا المصريون في القبور والمعابد الملحقة بالأهرام والقبور، وقد دعا هذا الأمر البعض إلى اعتقاد خاطىء هو أن وادي النيل كان أرض الأموات وحضارته حضارة الموتى. فالواقع أن مصدرنا الأساس عن مظاهر الفنون من القبور والمعابد، ولكن ذلك يدل على عناية القوم واهتمامهم الشديد بالفنون، وإلّا لما شغل الفن هذه المكانة المهمة التي كان عليها الفن في حياة الناس، وهو أمر تعكسه لنا شعائر الدفن وما يتعلق بالقبور لأن هذه القبور نسخة ثانية لهذه الحياة، حيث أودع فيها الفراعنة والأمراء والنبلاء كل ما كانوا يحتاجون إليه في هذه الحياة، ومن بين ذلك الصور والرسوم الزاهية التي تزيّن جدران المعابد الملحقة بالأهرام وفي جدران

القبور مما وجد في عهد المملكة القديمة. وهناك أمر فيه شيء من سوء الفهم لتقدير الفنون القديمة، ولا سيما فن الرسم والتصوير عند المصريين وعند سكان وادي الرافدين وقد سبق لنا أن نوّهنا به في الفصل الخاص بالفن في حضارة العراق، ويدور هذا الأمر على تطبيق القواعد والأصول الحديثة في فن الرسم على تلك الفنون القديمة، وهو أمر لو فعلناه لما استطعنا أن نقدر تلك الفنون كما ينبغي لها أن تُقدّر. فهناك، كما ذكرنا، طريقتان لرسم الأجسام وتصويرها في السطوح المستوية. فالطريقة الأولى يصحّ أن نسميها بطريقة الرسم الهندسي (Geometrical)، والثانية طريقة رسم الشيء كما ينظر إليه الرائي (فن المنظور Perspective)، فالطريقة الثانية وهي أحدث الطريقتين تمثّل الأجسام ذات الأبعاد الثلاثة كما تبدو للرائي في المكان، أي تمثل الأجسام كما تتراءى لنا، ولكن الطريقة الأولى، عكس ذلك، تمثل تلك الأجسام كما هي بحقيقتها لا كما ينظر إليها الرائي، وسارت على الطريقة الأولى الفنون القديمة إلى أن اخترع الإغريق «فن المنظور». فإذا ما أردنا أن نجعل من أنفسنا نقّاداً للفنون القديمة فنصيب كبد الحقيقة في نقدنا لتلك الفنون وجب علينا أن نجرّد أذهاننا من جميع ما نعرفه عن قواعد الرسم الحديثة. ولأن كثيراً من الدارسين للفنون القديمة لم يفعلوا ذلك فقد أصدروا حكماً خاطئاً فيما يخصّ الأساليب الخاصة بالرسوم المصرية القديمة. وهكذا كان الحال في الفنون التصويرية مما خلفته لنا حضارات وادي الرافدين. ومن الملاحظات العامة التي يجدر ذكرها عن ميزات الفن ومكانته في حضارة مصر، أن فن العمارة أبرز فرع برعت فيه تلك الحضارة ويليه فن النحت الراقي بكلا نوعيه المجسم والنحت البارز، أما النقش والرسم (Painting) فكان أقل شأناً من النحت وكان يُستخدم للتزويق والتجميل بالدرجة الأولى، ونذكر من نماذج فن العمارة، المعابد الضخمة الملحقة في القبور والأهرام، وفن العمد الضخمة في «الأقصر» والكرنك من عهد السلالة الثانية عشرة وعهد الأمبراطورية (انظر الشكل آخر الفصل) إلى السلالة الثانية والعشرين. ويصحّ أن نقول بالنسبة إلى فن العمارة والنحت إن المصريين القدماء كانوا أعظم بنائين ونحاتين في

التأريخ وقد حدث انحطاط وتوقف في الفترة المظلمة من بعد عصر الأهرام ولكن استأنف الفن حيويته في عهد المملكة الوسطى ولا سيما في زمن السلالة الثانية عشرة.

ونبدأ الآن بأخذ بعض النماذج من الفنون المصرية بحسب أدوارها منذ أقدم العهود:

قبر «زوسر»:

تقوم الآن في صقارة جدران عظيمة من حجر الرخام تحيط ببناء مقدس (مساحته 490-295 ياردة)، وقد زيّنت هذه الجدران من الخارج بنوع من الزينة المعمارية من دخلات وطلعات (Recesses and Buttresses) بموجب طراز أبنية العراق القديم. ويقوم وسط البناء هرم مكوّن من سبع طبقات تخفي تحتها غرفة من حجر «الغرانيت». وكان الهرم المصري على هذا الطراز مدرجاً بهيئة طبقات بخلاف الأهرام التي نشأت منذ عهد السلالة الرابعة التي لم تكن مدرجة بل كانت سطوحها ملساء. وترقد في تلك الحجرة المذكورة «مومياء» الملك العظيم «زوسر»، من أعاظم ملوك السلالة الثالثة، ويزوّدنا هذا البناء بفكرة جلية عن الفن المصري القديم، ولا سيما فن العمارة، إذ إن هذا الموضع في الواقع مدينة مكوّنة من قصور ومعابد فخمة تبدو عليها المهابة في صفوف العمد الجميلة، وقد صنعت هذه العمد بهيئة حزمة من البردي وهي ذات طراز لا يوجد ما يضاهيه في أطرزة العمارة من الأدوار التي أعقبت زمن السلالة الثالثة. ولعلّ أول ما يؤثر في الدخل إلى تلك البناية فخامة البناء والتناسب والتناسق والبساطة في الزينة. وتشاهد بعض الأعمدة وقد زيّنت بخطوط محفورة على طولها (Fluted) وهو الطراز المعروف «بالدوري» في العمارة الإغريقية. وزيّنت سقوف حجرة اللحد المعقودة بزخرفة من الخزف البراق ونُحتت بالنحت البارز بصور من بينها صورة تمثل الملك زوسر» وهو يقوم ببعض الشعائر الدينية. ووجد في الحجرات قرب الهرم تمثال نفيس من الحجر للملك نفسه.

الأهرام:

لقد سبق وصف هذه الأهرام في موضع آخر من هذا البحث فأرجع إليه فلم يبق إلّا أن نذكر شيئاً مختصراً عن الفنون التي وجدت فيها علاوة على ما ذكرناه من قبل. فقد سبق أن ذكرنا أن المعابد الملحقة بالأهرام لعبادة الفرعون الميت كانت مزيّنة بالمنحوتات والتصاوير مما يمثل لنا نواحي مهمة من الحضارة المصرية والحياة الاجتماعية عند المصريين القدماء. ومثل ذلك يقال في المزارات والمعابد الخاصة المعروفة «بالمصاطب». فنجد في هذه البنايات مجموعات كبيرة من تماثيل الأشخاص التي تمثلهم تمثيلاً واقعياً كما كانوا في الحياة. وكان يؤم هذه التماثيل في إبان الأعياد الدينية الكهنة وأقرباء الملك. ويقيمون لها بعض الشعائر الدينية حيث اعتقدوا أن أرواح الموتى الذين تمثلهم هذه التماثيل تحلّ فيها بفعل الأعمال السحرية. وقد وضعت تلك التماثيل في حجرات صغيرة هي بمثابة سراديب يكون الاتصال بها بواسطة كوى ضيقة. وتعدّ بعض هذه التماثيل من القطع الفنية الممتازة في الفن المصري، ومن بين ذلك تمثال الملك خفرع نفسه. وتمتاز هذه التماثيل أكثر ما تمتاز به بالتمثيل والتعبير الواقعي وتدلّ على مهارة النحاتين.

وزوّدتنا مقابر المملكة القديمة بأنفس النماذج من النحت البارز (Bas relief). ومما يدهش في المشاهد التي تمثلها هذه المنحوتات أنها لا تمثل لنا الآلهة أو الملوك أو الأمراء بالدرجة الأولى بل صوراً من عامة الشعب ـ كالفلاحين والصيادين وصائدي السمك والصُنّاع والملاحين والخدم، وقد مثلوا وهم مزدحمون أمام قبر سيدهم ليزودوه بما يحتاج إليه في عالم الخلود. وبرع الفنانون في تصوير المشاهد الطبيعية المألوفة في وادي النيل ـ كالنهر والسفن التي تجري فيه والبحيرات والجداول وما فيها من أزهار وأطيار، وكذلك الصيد في البادية وقد وفق الفنان توفيقاً عظيماً في تصوير الحيوان والطيور وحركاتها، وكذلك وفق في الصور الآدمية. ولكنه استعمل الطريقة الهندسية التي أشرنا إليها إذ إن فن المنظور لم يصل الفنان القديم إلى معرفته.

ومن الأمثلة على فن النحت بعض القطع الفنية الخالدة مثل تمثال الملك خفرع المنحوت من حجر الديوريت الذي يزيّن متحف القاهرة الآن وكذلك تمثال زوسر (السلالة الثالثة) وتمثال منكورع، وتمثال «شيخ البلد» المشهور، وتمثال الكاتب (الموجود في متحف اللوفر).

المملكة الوسطى:

واشتهرت القبور من عهد المملكة الوسطى بما احتوت عليه من نماذج مصغرة للبيوت والسفن والمخازن والخدم والأشياء الأخرى مما كان يُدفن في القبر ليقوم مقام الأصل، وقد نجد في بعض الأحايين نماذج لحدائق غنّاء وفيها مشاهد الأنس والطرب، وكانت القوارب أكثر ما جاءنا من هذه النماذج المصغرة وهي ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى صناعة السفن في مصر القديمة، ونجد من بينها «الذهبية» الخاصة بالنبيل والقوارب الخاصة بالحشم والخدم وقد زوّدت بأدوات الطبخ. ومما يقال في الفن في عهد المملكة الوسطى ما سبق أن نوّهنا به من انتعاش الفن وانطلاقه من قيود العرف الديني، ذلك العرف الذي جعله جامداً في عهد الفترة المظلمة السابقة التي أعقبت عصر الأهرام، ونذكر من الأمثلة على فن النحت في عهد المملكة الوسطى، ولا سيما عهد السلالة الثانية عشرة، بعض المنحوتات التي تمثل مشاهير ملوك هذه السلالة مثل رأس أمنمحيت الثالث من حجر الديوريت الأسود وتمثال سنوسرت الثالث الضخم. وتدهور الفن في عهد الهكسوس بحيث يصحّ القول إنه زال من الوجود تقريباً.

عهد الأمبراطورية: الكرنك:

لقد سبقت الإشارة إلى معبد الكرنك في طيبة الذي لا يضاهيه أثر في العالم. وبوسع من يزور الكرنك زيارة فاحص أن يقف على آثار ثلاثين قرناً من التأريخ، وبوسعه أن يقرأ أخبار أكثر من حضارة واحدة.

ونجد في جدران معبد الكرنك وصفوف عمده الشامخة النفيسة فصولاً

من التأريخ البشري قد نُقشت على تلك الجدران، ونقف فيها على الكفاح بين الأمبراطوريات التي قامت في الشرق القديم وهي تتنازع على سيادة العالم القديم مثل الأمبراطورية المصرية والحثية. إن كل ذلك قد خلّده لنا الفنان المصري والكاتب المصري الذي لم يقل عن زميله في الزخرفة الكتابية. وينبغي للزائر أن يكون على معرفة بلغة تلك الآثار الجليلة وإلّا طغت عليه فكرة الفخامة والضخامة فيصعق بروعة ذلك التأثير وتفوت عليه معاني تلك الفصول المدوّنة في التأريخ البشري. والضخامة والفخامة أبرز ما في فن العمارة في مصر القديمة. فكأن من أشاد تلك الأبنية وتصور فكرة بنائها لم يكن من البشر العاديين بل جنساً من العماليق طول الرجل «منهم مائة قدم»، كما قال شامليون (ص 136).

الدير البحري (عهد الأمبراطورية أيضاً):

وهذا موضع آخر يحوي العجائب من حضارة مصر القديمة. وهو في الواقع «أرض الأموات»، إذ يكاد لا يخلو منه شبر واحد لم يستعمل في حفر موضع لحد أو يخلو من آثار النبش لسرقة الكنوز التي أودعها أولئك الناس القدامى في قبورهم. وإلى ذلك فإن الدير البحري موضع معبد مهم يسمى كذلك بالدير البحري وهو اسم دير قبطي حديث يقوم فوق خرائب المعبد القديم. وبوسعنا أن نحصّل من زيارتنا لهذا المعبد على صور تتمّم ما حصلنا عليه من الكرنك والأهرام فنشاهد في هذا الموضع صفوف العمد والأروقة والأواوين والقاعات الفخمة، مما يساعدنا على تكوين فكرة عن الفنون في عهد الأمبراطورية. وقد أقامت الملكة «حاتشبسوت» هذا المعبد الفخم تخليداً لذكرى والدها.

ويحسن بنا أن نذكر إلى جانب الدير البحري، المآثر المهمة الموجودة في «أبو سمبل» حيث نجد مآثر الأمبراطورية، ومن ذلك تماثيل الآلهة الضخمة ومن بينها تمثال الملك «رعمسيس» الثاني وهو الذي أقام ذلك البناء التذكاري.

قبر توت عنخ آمون:

اتجه اهتمام العالم في شتاء عام 1922 ـ 1923 إلى «وادي الملوك» في طيبة. فقد تحقّق هنا اكتشاف فريد في بابه، وهو أنهم وجدوا قبر الفرعون «توت عنخ آمون» سالماً لم يُعبث به. والذي زاد في خطورة الاكتشاف أن الفرعون الذي عثر على قبره لم يكن من الملوك العاديين بل إنه مشهور بأنه خلف «أخناتون» وكان حكمه نهاية عهد «العمرانة». ويمثل قبره عهداً بلغ فيه الفن المصري في عهد الأمبراطورية الذروة والأوج.

ويتألف القبر الملكي الذي أثار اكتشافه رجّة حماس في العالم من أربعة حجرات وجدت ملأى بالآثار من مختلف الأصناف والأشكال، بعضها حلي وجواهر من قصر الملك، وبعضها نسخ عن كنوز قيمة يرجّح أن الملك الذي أعقب الفرعون الميت قد احتفظ بها لنفسه وأودع بدلاً منها في قبره تلك النسخ وهناك أدوات وأشياء كثيرة صُنعت بوجه خاص لتلك المناسبة، أي لتُدفن في قبر الملك الراحل، ومن ذلك توابيت بعضها داخل بعض، وصنع التابوت الذي في باطن الجميع من الذهب الخالص وهو يعدّ، إلى قيمته المادية، نصراً عظيماً في فن الصياغة، ومن النفائس التي وجدت داخل التابوت الباطني الصندوق الذي يحتوي على جسم الملك المحنط، وهو مصنوع من الخشب المظفور بالذهب والميناء ومعه أربعة تماثيل صغيرة تمثل آلهة هي على قدر عظيم من دقة الفن وروعته وعندما رفع غطاء الصندوق، ظهرت أربعة رؤوس من المرمر المنحوت الملوّن تمثل شخصيات ملكية، يمكن عدّها أنها تمثل صوراً من الملك الراحل من أدوار مختلفة من شبابه، وقد وضعت لتغطي أحشاء الملك الميت التي أودعت في صناديق مزينة بالجواهر. هذا ولا تقتصر هذه الآثار وغيرها من الأدوات والمجوهرات على إظهارها مبلغ الثروة والبذخ في عهد الأمبراطورية بل تصوّر لنا كذلك تصويراً جلياً الذروة التي وصل إليها الفن المصري القديم[1].

---

(1) إليك مرجعاً سهل المتناول حول الفن المصري وهو الفصل الرابع من كتاب:
J. Capart in **The Legacy of Egypt** (1942).

لم يأتنا فيما قبل عهد الإسكندر الكبير من عهود الحضارة المصرية إلا أشياء قليلة عن الشرائع المصرية والأنظمة القضائية. وباستطاعتنا أن نقول إنه لم تأتنا حتى الآن شريعة مدوّنة من مصر القديمة على طراز ما مرّ بنا من شرائع العراق. وفيما خلا الإشارات والأدلة غير المباشرة عن وجود بعض المواد المكتوبة في العهود القديمة فإننا لا نعرف شيئاً آخر عنها. وسبيلنا في معرفة شرائع مصر القديمة ينحصر في الوثائق القانونية. وإذا ما بدأنا بعهد المملكة القديمة فإننا لا نجد إلّا القليل من هذه الوثائق مما حفظ بأصله في ورق البردي من ذلك العهد وأقدم وثيقة في هذا الباب حكم قضائي مدوّن من عهد السلالة السادسة (2420 ـ 2294). وهذا يعني أن الدلالة على وجود القانون في مصر لم تظهر إلّا بعد عدّة قرون عن وجودها في الحضارة السومرية. ولعل ذلك يعزى إلى صدفة الاكتشاف. ومن الإشارات إلى القانون المصري الوثائق التي جاءتنا من كتابات القبور والمسلات التي تشير إلى وجود عقود قانونية. وتشير هذه الأدلة وغيرها إلى أن النظم القانونية في مصر القديمة تبدأ وهي في طور من النضج منذ أقدم عهود معرفتنا بها.

شيء عن النظم القانونية في عهد المملكة القديمة والوسطى (3188 ـ 1700 ق.م)

كان يحكم مصر في عهد المملكة القديمة حكومة ملكية مطلقة السلطان. فالفرعون كان المشرّع الوحيد ومصدر القانون. وقد عبد الفرعون وجعل إلٰهاً تجب طاعته، فكانت إطاعة أوامره واجباً دينياً مقدساً. ولم تقتصر سلطة الفرعون على أنه كان بيده السلطان المطلق على حياة رعيته وموتها، بل إنه يسيطر على جهودهم وعملهم وملكهم. وكانت الأرض بوجه عام ملكاً للفرعون ولكن مع ذلك كانت بعض الأراضي تخضع للمعاملات القانونية الفردية وتكون ملكية الأشياء المنقولة حرة أكثر من الأراضي والعقار، وكانت الأموال المنقولة قابلة للنقل من حوزة شخص لآخر بموجب عقد خاص. ومما يميز النظم القضائية بوجه عام من ناحية الملكية أنها تكاد تحرم الهبات وتحول

دون معاطاتها. وهكذا فعلت شريعة حمورابي. وكانت معاملات البيع والشراء تجري وفق عقود خاصة يزكيها ثلاثة شهود. وكان يشرف على العقد موظف خاص يلف «ورقة البردي» بعد كتابتها ويثبتها بالختم تحاشياً من التلاعب بها. وكانت الالتزامات تشفع بقسم باسم الملك بصفته إلٰهاً.

وكان للدين المصري تأثير عميق في نظمهم الشرعية ومعاملاتهم القانونية ومنشأ هذا التأثير من هذه الناحية الاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت. فقد رأينا كيف كان المصريون القدماء يعنون بشؤون الموتى في قبورهم وفي تقديم القرابين والخيرات لهم. ولكي يضمن الميت إجراء تلك المراسيم له وقيام ورثته أو غيرهم بتقديم القرابين كان يكتب عقداً خاصاً بتنفيذ ما يحتاج إليه فيما بعد الموت. ولأجل القيام بتلك الشعائر على الوجه الأكمل نشأ عند المصريين طبقة خاصة من الكهنة تقوم بتلك الالتزامات وكان الميت يخصّص جزءاً من أملاكه يوقفه لشؤون ما بعد الموت وقد سمى المصريون الملك الموقوف لتلك الأغراض الدينية «الملك المؤبد»، وهذا هو الوقف الخيري في النظم القضائية في الإسلام. وشبيه بذلك أيضاً قانون العصور الوسطى في أوروبا حيث يقوم بوظيفة إدارة الأوقاف الخيرية رئيس الدير أو بعض كهنته.

ومما يحسن ذكره عن النظام القانوني في عهد المملكة القديمة والوسطى قانون الضرائب فيما يتعلق بواردات الدولة، وفرضت الحكومة نوعاً من ضريبة الأشخاص يدفعها الفرد، وقد خلّف لنا المصريون إثباتاً بالعوائل فيما يتعلق بدفع تلك الضريبة الشخصية، ويبدو منها أن الضرائب كانت تشمل جميع أفراد العائلة من جميع الأعمار.

عهد الأمبراطورية والعهود التي بعدها:

إن الوثائق القانونية التي جاءتنا من هذا العهد أكثر عدداً من العهد السابق. فقد جاءتنا وثائق فيما يتعلق بالمحاكم والقضاة، وكان يرأس بعض المحاكم وزير خاص. وجاءنا كذلك جزء من قانون يتعلق بالمراسيم الملكية

الخاصة بالبلاط (نظام التشريفات)، فقد ذكر في أحد هذه الأجزاء ما ينبغي للملك أن يقوله عند تعيينه لوزيره، ويذكر جزء آخر الأنظمة الخاصة بوظائف الوزراء وواجباتهم. وجاءت في مسلة الملك «حرمحيب» (1349 ـ 1314 ق.م) في الكرنك مادة قانونية أصدرها الملك بحق بعض الموظفين الذين يعملون وفق أهوائهم وتحكماتهم، وقد فرض فيها العقوبات الصارمة. ومما يمتاز به هذا العهد النظام المركزي في الإدارة، يدل على ذلك إشراف الوزير على أعمال كثيرة كان يشرف عليها في عهد المملكة الوسطى بعض الموظفين. وجاءنا من عهد الأمبراطورية والعهود التي أعقبته أنواع كثيرة من عقود المداينات، والذي يدهش فيها أن الربا كان فاحشاً بحيث كان يصل في كثير من الحالات إلى مائة بالمائة سنوياً، وكان الربح يُضاف في نهاية السنة إلى رأس المال. وكان المدين يقدم ضمانات بالإيفاء، ومن الضمانات الطريفة أنه يتعهد في حالة عدم الإيفاء أن يجلد مائة جلدة، وهذا يذكرنا بالعقوبات القاسية الواردة في القانون الآشوري التي يتعهد بموجبها المدين في بعض الحالات بأن يضحي ابنه الأكبر إلى الآلهة. ولدينا سجل طريف عن قضية جريمة وقعت في عهد السلالة العشرين تلقي لنا ضوءاً على طريقة محاكم القضاء والشرطة وكيفية تعقّب المجرمين ومحاكمتهم في عصر رعمسيس التاسع في حدود (1156 ـ 1136 ق.م)، والقضية تدور على مطاردة عصابة للصوص المقابر في مدينة طيبة أي في قلب العاصمة، وكان الوزير على رأس الحكومة كما كان المعتاد في أغلب عهود التأريخ المصري، ويحكم باسمه في نفس العاصمة حاكمان أحدهما أمير القسم الشرقي ويدير القسم الغربي حاكم بوليس خاص للإشراف على مدينة الأموات وقد جاءتنا القضية مدوّنة بتفاصيلها[1].

ولا نعرف كيف كانت عقود الزواج في هذا العهد، إنما جرت العادة

(1) انظرها في كتاب «مصر والحياة المصرية في العصور القديمة» تأليف أدولف أرمان وهرمان رانكه وترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص 130، فما بعد.

على ضمانات مالية لحماية حقوق الزوجة المالية وحماية أبنائها. وكنا ذكرنا أن الزواج عند البابليين لم يكن يعدّ زواجاً شرعياً بدون عقد ومهر، كما أشار إلى ذلك قانون حمورابي، ولا نعلم هل كان الزواج عند المصريين يجري على هذا النمط. وإذا أراد الرجل أن يتزوج بعد وفاة زوجته فعليه أن يتّفق مع أبنائه من الزوجة الأولى فيعطى بموجب ذلك الثلثين من الضمان المالي للأولاد ويأخذ الزوج الثلث الباقي. وكان الطلاق ممكناً بعد دفع الضمان.

وكانت المحاكم عادة تتألف من الوجهاء في كل موضع وإقليم ويرأسها موظف في أثناء المحاكمة، ويرأس مثل هذه المحاكم في العاصمة الوزير نفسه، وفي حالات استثنائية، مثل المؤامرة لاغتيال الملك رعمسيس الثالث (1204 ـ 1172)، أمر الفرعون بتأليف محكمة خاصة. ونشاهد في أصول المرافعات تقدماً وتطوراً منذ عهد المملكة القديمة، حيث طغى أسلوب الكشف عن الحقيقة على الأسلوب الرسمي المقتصر على البنية الرسمية، فقد اتخذت جميع أنواع البراهين والأدلة وأخذ القضاة في نظرها ونقدها. وكانت القرارات تُعطى بهيئة تصريح موجز من المحكمة بأن فلاناً في جانب الحق والفلان الآخر في جانب الباطل، ويلحق ذلك اعتراف المحكوم عليه بما يترتب عليه من نتيجة الحكم.

ومما يُلاحظ في القانون الجنائي القسوة المتناهية في العقوبات، فكان التعذيب مألوفاً في باب العقوبات، وكان يشمل في بعض الأحايين الشهود أنفسهم ويبدو أن أنواعاً غريبة من عقوبات الإعدام كانت تُستعمل في بعض الأحايين، مثل ترك المحكوم عليه لتأكله التماسيح، وقد يحصل بعض المحكومين على امتياز خاص بأن يسمح لهم بالانتحار، ونسمع بعدد ممّن عوقبوا بقطع أعضائهم أو بترها ثم وضعوا في الأعمال الشاقة في معسكرات اعتقال خاصة. ويشبه العرف في القانون المصري شريعة حمورابي بالنسبة إلى التعويض عن السرقات بدفع الشيء المسروق مضاعفاً عدّة مرات، ونجد مثل هذا العرف في أقدم القوانين الرومانية.

وبإمكاننا أن نجد أمثلة للقانون الدولي في عهد الأمبراطورية[1]، فقد مرّ بنا فيما سبق ذكر المعاهدة الشهيرة التي أُبرمت بين الفرعون رعمسيس الثاني (1297 ـ 1231 ق.م) وبين الملك الحثي «حاتوسيل» الثالث. وقد جاءنا نص هذه المعاهدة الدولية مدوّناً باللغة البابلية وبالخط المسماري، وهي معاهدة صلح وحلف تتضمّن المساعدات العسكرية بين الطرفين المتعاهدين، وقد اتّفق الطرفان كذلك على تسليم المجرمين واللاجئين من كل بلد إلى بلد الطرف الثاني.

وتأثّرت مصر بالقوانين اليونانية من بعد فتوح الإسكندر في الشرق وكذلك أثرت مصر في تلك القوانين التي طبّقت على المكدونيين الذين سيطروا على القطر، وحدثت تغييرات في العرف القانوني في عهد البطالسة، خلفاء الإسكندر في مصر وبخاصة في تشكيل المحاكم وفيما عدا ذلك فإن ملوك البطالسة على ما يبدو لم يتدخلوا تدخلاً كبيراً في قانون مصر الخاص، وقد أصبح القانون الجنائي في هذا العهد أخفّ قسوة وأكثر إنسانية من ذي قبل[2].

---

(1) لقد سبق أن أشرنا إلى أقدم تحكيم في النزاع بين الدويلات في عصر فجر السلالات في العراق القديم.

(2) حول القوانين المصرية راجع المأخذ السهل الآتي:

The Legacy of Egypt, chap, 8.

شيء عن العلوم والمعارف

نشأت العلوم والمعارف في حضارة وادي النيل، كما كان الحال في وادي الرافدين، منذ أن انتقل الإنسان إلى طور الحضارة في بداية الألف الثالث، وكانت بذورها تمتد إلى ما قبل ذلك إلى الأزمان التي تعلَّم فيها الإنسان الزراعة وصناعة الفخار واستعمال المعادن، وأخذت مثل هذه المعارف العملية تنضج بالتدريج، ولما أن نشأت الكتابة واتّسع استعمالها في شؤون الحياة المختلفة منذ عصر الأهرام، بدأ القوم في تدوين مثل هذه المعارف، مثل الرياضيات والطب وبعض الصناعات الكيماوية والفلك والتنجيم، وملاحظاتهم العامة عن الحياة، مما درسناه تحت موضوع الآداب. وقد خلّف لنا المصريون مدوناتهم في هذه المعارف من مختلف العهود، وكانت حتى النسخ المتأخرة منها ترجع إلى أصول قديمة. ولكن أكثر الوثائق العلمية وأهمها هي التي جاءتنا منذ عهد المملكة القديمة فما بعد. وقد كُتبت هذه النسخ بمختلف الخطوط الثلاثة التي تطوّرت إليها الكتابة المصرية على ما رأينا من قبل. وكان للمعارف العلمية التي وصل إليها المصريون القدماء تراث ملحوظ في معارف البشر عن طريق الأمم القديمة التي جاءت من بعدهم كاليونان والرومان.

التقويم:

بعد أن تعلّم المصريون الزراعة في شواطىء النيل احتاجوا إلى ضبط مواسم الفيضان في النيل ومواسم الزرع، فأخذوا يجربون في ابتداع وسائل

للتقويم وقد استعملوا في مبدأ الأمر الأشهر القمرية، ولكنهم وجدوا أن مثل هذا التقويم لا يصلح لضبط المواسم ومواعيد الزراعة التي تستند إلى موعد فيضان النيل، وبالاستجابة إلى أحوال النيل الخاصة ابتدع المصريون تقويماً رسمياً صحيحاً، لا يختلف عن التقويم الحديث إلّا بتصليح قليل قام به يوليوس قيصر والبابا غريغوري. فكانت سنتهم الرسمية مكوّنة من اثني عشر شهراً، كل شهر منها ثلاثون يوماً وأضافوا إلى ذلك خمسة أيام كبيسة (خصّصوها للأعياد) فحصلوا بذلك على سنة مقدارها 365 يوماً. أما كيفية اكتشافهم لهذه السنة الصحيحة فمن ملاحظاتهم لفيضان النيل، كما نوّهنا بذلك، إذ كانت دورة الزراعة المصرية يسيطر عليها فيضان النيل السنوي الذي يحدث بأوقات مطردة منتظمة مما لا يضاهيه نهر آخر. ولذلك فإن ملاحظة خمسين عاماً لأوقات فيضانه كانت تكفي لأن تبيّن للمصريين القدماء أن المدة المضبوطة بين فيضان وفيضان آخر تبلغ 365 يوماً إلى أقرب عدد صحيح[1] ومن كان يعرف هذه الحقيقة كان باستطاعته أن يتنبأ متى يجب أن تبتدئ الدورة الزراعية. والمرجّح كثيراً أن أوائل ملوك السلالة الأولى هم الذين أسسوا هذا التقويم الرسمي ووضعوه محل التقويم القمري[2]. وكانت السنة المصرية (ذات الـ 365 يوماً) تتألف من ثلاثة فصول، كل فصل منها مكوّن من أربعة أشهر. فالموسم الأول هو موسم الفيضان (واسمه بالمصرية القديمة أخيت Akhet) حيث يبدأ التقويم المصري باليوم الأول من الشهر الأول من ارتفاع النيل، في حزيران (وأول شهر من الفصل شهر ثوث)، وبعد أربعة أشهر ينتهي فيضان النيل فيبدأ القوم بزرع

---

(1) انظر: O. Neugebauer, in **Acta Orintalia, XVII** (1938), 169 ff.
المشار إليه في: Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952).

(2) ومما يقال بهذا الصدد إنه كان للمصريين القدماء جملة تقاويم أخرى محلية بعضها خاص بالأعياد والطقوس الدينية. ولا يعلم بوجه التأكيد متى أوجد التقويم الرسمي المستند إلى تسجيل أحوال فيضان النيل مما يستلزم معرفة بالكتابة. فهل تمّت هذه السجلات في زمن «منا» موحد مصر المأثور؟ أو هل أن هذا الملك استغل تلك السجلات في إدخاله التقويم الرسمي؟

الحقول فيبدأ الفصل الثاني، وهو موسم «الظهور» أي بداية ظهور الزرع من الأرض (واسمه فيرويت Peroyet)، والموسم الثالث موسمُ الشحّ أو الحصاد (أي شحّ الماء واسمه بالمصرية القديمة شومو Shomu).

وبمقارنة السنة المصرية المكوّنة على هذا الوجه من 365 يوماً مع السنة الشمسية الدقيقة فإنها على ما نعلم تنقص عنها بمقدار ست ساعات (ربع يوم) في كل سنة، ويكون الخطأ المتراكم في مدة قرن واحد 25 يوماً. فلا بدّ أن يكون هذا النقص قد ظهر لقدماء المصريين بعد مائة عام على اتخاذ التقويم الرسمي واستعماله، بحيث إن تقسيم السنة المصرية إلى الفصول الثلاثة التي بيّناها (أي فصل الفيضان، وفصل البذر وفصل الحصاد)، لم تعد تطابق الواقع العملي في الزراعة. ومع ذلك فقد ظلّ التقويم القديم معمولاً به بسبب قوة التقاليد واستمرار المآثر. ومما جعل السلطات الرسمية لا تهتم بإصلاح التقويم القديم أن موظفي الفرعون استطاعوا في عهد المملكة القديمة أن يبتدعوا طريقة لتسيير العمليات الزراعية بحسب مواسمها المضبوطة، فقد وجدوا أن في خط العرض المار من منفس يكون ظهور كوكب الشعرى[1] مطابقاً لبداية فيضان النيل، فقامت الجهات الرسمية برصد الشعرى واستعملت نتائج الأرصاد في إرشاد الناس إلى بداية موسم الزرع. وينطبق زمن طلوع الشعرى بالنسبة إلى شروق الشمس وغروبها مع بداية السنة المصرية الرسمية في دورة (1461) عاماً، فسُمِّيت هذه الفترة من الزمن باسم «الدورة السوئية» (Sothic cycle)، وقد بدأت مثل هذه الدورة في عام 139 للميلاد. وقد خلف لنا المصريون القدماء سجلات بيّنوا فيها العلاقة بين السنة الرسمية وبين هذه السنة النجمية التي يحددها كوكب الشعرى، وذلك منذ عهد السلالة الثامنة عشرة، ومن عهد الملك «سنوسرت» من السلالة الثانية عشرة. فكانت مثل هذه السجلات من جملة الطرق الموثوق بها في تعيين تأريخ السلالة الثانية عشرة بالاستناد إلى

(1) (Serius) والشعرى (العبور) هي الآلهة سوئيس المصرية. ويعرف ظهور الشعرى بالنسبة إلى الشمس بمصطلح (Heliacal rising).

أثبات الملوك، وقد أمكن وضع زمن هذه السلالة في حدود 2000 ق.م.، واستعين بهذا التأريخ في تعيين تواريخ العهود المصرية الأخرى.

الرياضيات:

كانت الرياضيات، وبالدرجة الأولى المعلومات الحسابية، نتيجة للحاجات الاقتصادية التجارية التي تولّدت بعد نشوء الحضارة في كل من العراق ومصر، وكانت هذه أيضاً العوامل التي دفعت إلى اختراع الكتابة فالحاجة إلى تدوين المعاملات والشؤون التجارية المتعلقة بالمعابد والمباني العامة دعت إلى توحيد الموازين والمكاييل والقياسات وابتداع طريقة للعدّ وقواعد لحساب المعاملات، وكانت بداية هذه الأمور في عصور ما قبل التأريخ. ويظن أن البشر أسس طريقة عدّه على عدد أصابع يديه ولذلك اتّخذ معظم البشر طريقة العد العشرية واستعمل المصريون الطريقة العشرية منذ زمن قديم، لعله منذ السلالة الأولى (ولكن السومريين استعملوا الطريقة الستينية). واتخذت علامات لتسمية الأعداد في كل من العراق ومصر منذ أقدم الأزمان. فنجد أن المصريين قد استعملوا علامة للواحد يكتبون بها الأعداد إلى التسعة ثم علامة خاصة بالعشرة والمائة والألف ولعل أقدم نماذج في مصر لهذه العلامات قد جاءتنا من زمن السلالة الأولى. واستعملت علامات خاصة قليلة لتعيين بعض الكسور مثل النصف والربع والثلث والثلثين، ولكنهم لم يبتدعوا علامة للتعبير عن الصفر.

وبوسعنا أن ندرك نوع القضايا الرياضية التي اهتم بها المصريون القدماء من مسألة جاءتنا مدوّنة على ورق البردي من حدود 1200 ق.م. ويظهر من فحوى المسألة أن السائل يتحدّى رياضياً آخر ويسخر منه:

«أنت تقول: أنا الكاتب الذي يُصدر الأوامر إلى جموع الجنود والعمّال فلو طلب منك أن تحفر مخزناً. ولكنك جئت إليّ تستفهم مني عن مقدار الجرايات للجنود وتقول لي: «احسبها». أنت تركت مقرّ وظيفتك ووقع عبء تعليمها لك علي».

«أنت أيها الكاتب الماهر على رأس جمع. وأريد بناء منحدر طوله 730 ذراعاً وعرضه 55 ذراعاً وفيه 120 حفرة مملوءة بالقصب والقضبان. . وقد طُلب من قواد الجيش معرفة عدد الآجر لتشييده، ولم يستطع أحد من الكتبة أن يعرف الجواب بل إنهم اعتمدوا عليك قائلين: «أنت الكاتب الماهر، فأجبنا كم عدد الآجر الذي نحتاج إليه؟»».

وعلى الرغم من أن ذلك الرياضي الساخر لا يحلّ هذه القضية فإنه بإمكاننا أن نعرف منها نوع المسائل العملية التي كانت تجابه الرياضيين عند إنشاء المشاريع العمرانية كإقامة الأهرام والمعابد وحفر المخازن وإدارة العمال والصنّاع. وقد تبدو بعض هذه القضايا بسيطة وفي مقدور طلاب المدارس المبتدئين بالرياضيات ولكن يجب أن نتذكر أنه لولا الأسس التي وضعها المصريون والعراقيون الأقدمون وما خلفوه من تراث إلى الإغريق وأخذنا في الزمن الحاضر عن الإغريق والعرب لما بدت لنا مثل هذه القضايا ساذجة. فالواقع أن السومريين والمصريين كانوا يجربون في حقول لم يطرقها البشر من قبل. ويبدو أن الرياضيين المصريين لم يعرفوا جداول الضرب بخلاف السومريين والبابليين الذين خلفوا لنا جداول مطوّلة بهذا الموضوع وكانت عمليات الضرب تجري عند رياضيي المصريين بإضافة المضروب إلى نفسه مرات بقدر عدد المرات المراد ضربه فيها أي إنها كانت تجري على أساس العدّ والجمع، فإذا أرادوا ضرب 12×12 مثلاً فإنهم يفعلون ما يأتي:

	1		12
	2		24
×	4	×	48
×	8	×	96
			144 المجموع

ففي هذه المسألة تضع 1 أمام المضروب به، ثم ضاعف كل جهة حتى

تصل في الحقل الأول على أعداد مجموعها بقدر المضروب به فتؤشر على الرقمين المطلوبين أي 4، 8 وتؤشر في الحقل الثاني على ما يقابلهما من الأعداد أي 48+96. وفي حالة القسمة تنعكس العملية. حيث كانت تجري أيضاً على أساس العدّ والجمع، فلقسمة 20 على 3 مثلاً يعدّ الحاسب 3 حتى يصل إلى 20. فلقسمة 550 على 9 تجري العملية كما يأتي:

9	1	
18	2	
36	× 4	×
72	× 8	×
144	× 16	×
288	× 32	×
576	× 64	×
—	—	
549	ـ 61	

1 + 4 + 8 + 16 + 32 = 61، فيكون خارج القسمة 61 والباقي 550 ـ 549 = 1.

وملخص العملية أنهم يضعون واحداً في جهة وبجانبه المقسوم عليه، ثم يضاعفون الأرقام في الجهتين حتى يحصلوا في الجانب الأيسر على أعداد يكون مجموعها مساوياً للمقسوم أو عدداً يقاربه ويجمعون الأعداد في الحقل الأيمن ويكون الحاصل خارج القسمة المطلوب.

وقد كان المصريون يكتبون الكسور التي مقاماتها الواحد بوضع إشارة على البسط. وقد رأينا فيما سبق أنهم وضعوا علامات خاصة للنصف والثلث

والثلثين ولكن يتعذّر بموجب طريقة الكسور المصرية كتابة مثل 5/ 2 أو 20/ 7 والواقع أن المصريين لم يعرفوا الكسور المركّبة فكانوا يكتبون مثل هذين الكسرين بتجزئتهما إلى كسرين بسيطين مقامهما واحد فالكسر 2/ 5 مثلاً 3/ 1 +25/ 1، أو بحسب الطريقة المصرية 3+15، والكسر 8/ 3 يكتب بهيئة 4/ 1+8/ 1، وهكذا.

ومما يقال عن الرياضيات المصرية بوجه عام إن المصطلحات فيها غير مطردة دائماً وتختلف باختلاف الكتابات بخلاف مصطلحات الرياضيات البابلية التي كانت أدقّ وأعمّ.

ووردت إلينا من رياضيي المصريين القدماء نماذج من المسائل الهندسية المتعلقة بأخذ مساحات الحقول، ووصل السومريون في الألف الثالث ق.م. إلى طريقة صحيحة لمساحة الحقول المستطيلة بضرب الطول بالارتفاع. أما في مصر فالظاهر أن الرياضيين لم يصلوا إلى حلّ صحيح. فكانوا يأخذون مساحات الحقول المربعة حتى في زمن الأمبراطورية بطريقة قوامها مجموع ضلعين متجاورين مضروباً في نصف مجموع الضلعين الآخرين. وفي حالة المثلث كانوا يضيفون أطوال ضلعين ثم ينصفون المجموع ويضربون الناتج بنصف طول الضلع الثالث. ولكنهم وصلوا من الجهة الثانية إلى طريقة صحيحة لقياس حجوم الأهرام ولا سيما الناقصة المربعة القاعدة فقد خلفوا لنا من ذلك قضية مشهورة: «مثال في حساب الهرم المقطوع» لو قال لك قائل: هرم ناقص ارتفاعه 6 أذرع و4 أذرع للجانب الأسفل وذراعان للجانب الأعلى»: ربع (أرفع إلى القوة الثانية) 4 فتحصل على 16 اضرب 4 بـ 2 فتحصل على 8. ربع 2 فتحصل على 4 واجمع 16 و8 و4 فتحصل 28. وخذ 3/ 1 الـ 6 فتحصل على 2 فاَضرب 28 بـ 2 فتحصل على 56. فاَنظر أنه 56 لقد حصلت على الجواب».

وباستطاعتنا أن نعبر عن هذه الطريقة بالمعادلة الآتية: (ح الحجم)

ح = 3/ 1ع (أ^2+أب+ب^2) وهي المعادلة الصحيحة لحجم الهرم

المقطوع، باعتبار أن (ع) الارتفاع و(أ، ب) طول ضلع كل من القاعدتين المربعتين السفلى والعليا. ويرجع تأريخ هذه المسألة إلى 1850 ق.م. ولا يعلم كيف وصل الرياضيون المصريون إلى هذا الحل العجيب. ولو صحب طريقة الحل هذه برهان على كيفية إيجادها لكان أعظم اختراع في علم الرياضيات، ومهما كان الحال فإنه حتى الاهتداء إلى هذا الدستور بطريقة عملية يدلّ على مقدرة عظمى في الرياضيات[1]. هذا ولا توجد دلالة مباشرة على أن الرياضيين المصريين عرفوا حجم الهرم الكامل (الحجم = 1/3 مساحة القاعدة × الارتفاع)، وهو دستور يعزى إلى ديموقريطس اليوناني (640 ق.م).

وقد عرف المصريون العلاقة بين محيط الدائرة وقطرها وهي التي ندعوها بالنسبة الثابتة، ووصلوا إلى قيمة تقريبية كما عرفوا دستور حجم الأسطوانة الصحيح. وليس لدينا أدلة مباشرة على أن المصريين عرفوا النسبة بين أضلاع المثلث القائم الزاوية أي نظرية فيثاغورس، وجاءتنا حالة تشير إلى معرفتهم بمبدأ المتواليات الهندسية.

والمرجّح كثيراً أن الرياضيات المصرية قد وصلت إلى الطور الذي نعرفها فيه في عصر الأهرام، وتوقفت عن النمو والاستمرار في التجارب، بالنظر لكفايتها للحاجيات العملية في المستوى الذي بلغته آنذاك.

وقد لاحظ سكان مصر حركات الأجرام السماوية لحاجات الملاحة والزراعة وضبط مواسم الزرع والفيضان على نحو ما رأيناه في وادي الرافدين. وقد نتج عن النجاح أن في استطاعة الإنسان أن يتنبأ عن وقوع مواسم الزرع والفيضان إن حاول استعمال هذه الأجرام السماوية في التنبؤ بحادثات وأمور أخرى غير الزرع والفيضان ولعل ذلك منشأ التنجيم. وقد عنيت الدولة بمثل تلك الملاحظات والأرصاد لأهميتها في مصالح المملكة، وقد دوّنت نتائج

---

(1) انظر: E.T. Bell. **The Development of Mathematics** (1945), pp.43-44

تلك الأرصاد وخلف لنا المصريون القدماء منها نماذج كثيرة. وانحصر الفلك في مصر في ضبط أمور الزراعة، وقد ذكرنا فيما سبق اهتداء المصريين القدماء إلى التقويم السنوي الرسمي من تقسيمهم السنة إلى اثني عشر شهراً، في كل شهر ثلاثون يوماً وإضافة خمسة أيام كبيسة. وقد قسم المصريون كلّاً من النهار والليل إلى اثني عشر قسماً أما البابليون فقد قسّموا اليوم جميعه إلى اثني عشر قسماً كل قسم يعادل ساعة مضاعفة من ساعاتنا. ولتحديد ساعات النهار استعمل كل من العراقيين والمصريين مبدأ تغيير الظل بحسب أجزاء اليوم وهو مبدأ المزاولة أو الساعات الشمسية. ولضبط ساعات الليل استعملوا الساعات المائية، فقد كانوا يقيسون في كلا القطرين الزمن الليلي بمقادير الماء التي تجري أو تدخل في أوعية خاصة مدرجة وكانت الأوعية المستعملة في مصر لهذا الغرض مخروطية الشكل ولذلك كانت القياسات الناتجة منها غير مضبوطة. وقد عرف المصريون الفروق في أطوال الليل والنهار بالنسبة إلى الفصول، وكذلك فعل البابليون. وقد وضع أحد المصريين نسبة 14 : 12 لطول ليالي الشتاء بالنسبة إلى ليالي الصيف ولذلك صنعوا ساعة مائية خاصة لقياس ساعات الليل في جميع فصول السنة. أما الساعات المائية البابلية فكانت أسطوانية ولذلك كانت قياساتها أضبط وقد جاءتنا مسألة رياضية تتعلّق بتدريج مثل هذه الأسطوانات.

وقد قسّم المصريون السماء إلى مناطق ودوّنوا أثباتاً بأسماء النجوم وصنّفوا النجوم إلى مجموعات ولكن ذلك التصنيف لا يشبه ما هو متّبع في الوقت الحاضر، وهو التصنيف المستند بالدرجة الأولى إلى حضارة وادي الرافدين[1] ونقصد بذلك مبدأ الأبراج الاثني عشر الذي لم يعرف في مصر قبل العهد اليوناني. ومما يؤسف له أنه لما تأتنا كتابات فلكية من مصر ما عدا الرسوم والصور الموجودة على توابيت الموتى، فلم يخلف لنا المصريون سجلاً عن الكسوف والخسوف بخلاف الكتابات البابلية التي دوّنت لنا أطول

---

(1) انظر: **The Legacy of Egypt** (1942), 161.

وأقدم أزياج في تأريخ الأرصاد الفلكية. وبدلاً من مبدأ الأبراج الاثني عشر (Zodaic)، استعمل الفلكيون في مصر المبدأ المعروف باسم (dekan) لتقسيم السنة و«الديكان» (أي العشري) مجموعة من الكواكب أو كوكب بارز تطلع في ساعات معينة من الليل في خلال 36 ساعة مدداً متعاقبة كل مدة ذات 10 أيام تبدأ بطلوع «الديكان» الثاني في الأفق الشرقي، وقد جمعوا أثباتاً تمثّل هذه المجموعات لتعيين الزمن في الليل إذا علم تأريخ التقويم أي اليوم الخاص في الشهر، أو لتعيين «الديكان» الخاص إذا عُلمت الساعة المعينة في الليل، وبإمكاننا تتبع نظام «الديكان» إلى عهد السلالة الثالثة.

الطب:

ومما لا شك فيه أن الحاجة لتداوي الأمراض وشفائها قد نشأت عند سكان وادي النيل والرافدين منذ عصور ما قبل التأريخ، ولا ندري بوجه التأكيد هل أن أصل الطب من السحر وما يتعلق بالطرق السحرية، والراجح أن الطب بدأ بالتجربة مقرونة بالأعمال السحرية فقد عزوا الأمراض إلى الأرواح والشياطين. ومما يؤيد علاقة الطب بالأعمال السحرية والطرق الروحية أن الطب في كلا القطرين (وادي النيل ووادي الرافدين) لم يستطع أن يتخلّص تخلصاً تاماً من الرقى والتعزيم في أزمان نضجه في العصور التأريخية. ولما كان الأطباء في مصر والعراق على الغالب متضلعين في الكتابة ومن صنف الكتبة فقد دوّنوا لنا ملاحظاتهم وبحوثهم الطبية وجاءنا منها نماذج كثيرة. وقد ورد ذكر الكتابات الطبية في مصر في أزمان قديمة ترجع إلى زمن السلالة الثالثة. وجاءتنا نماذج من هذه الكتابات الطبية المصرية فيما بعد 2000 ق.م. أما النماذج البابلية فإنها متأخرة بالنسبة إلى تأريخ الكتابات المصرية الطبية، ولكن كثيراً من هذه النماذج البابلية المتأخرة (من أواخر الألف الثاني ق.م) نسخ من كتابات أقدم منها. والجدير بالذكر أن الكتابات الطبية من كلا القطرين كانت أشبه ما تكون بكتب «الوقائع والحالات الطبية» في وقتنا هذا ولم تصلنا بعد تآليف عن التشريح ووصف الأعضاء ووظائفها. ومع ذلك فإن

المصريين قد اكتسبوا معرفة لا بأس بها عن الجسم الإنساني من ممارستهم التحنيط ولكن الغريب في ذلك أن أسماء أعضاء الجسم الإنساني مأخوذة من أسماء أعضاء الحيوان، ولعلّ سبب ذلك أن تسمية هذه الأعضاء بدأت قبل معرفة التحنيط.

وقد اشتهر المصريون لدى اليونان بمعرفتهم الطبية، والذي لا مراء فيه أنهم كانوا يستحقون مثل هذه الشهرة. ولكي يدرك الطالب مصادر معرفتنا بطب المصريين القدماء، فعليه أن يعرف أن درج البردي (لفات أوراق البردي) الخاصة بالطب المصري يمكن تقسيم محتوياتها إلى صنفين:

(1) مؤلفات طبية صرفة.

(2) مؤلفات لأغراض سحرية وفيها وصفات طبية، ويدخل في هذا الصنف الوصفات الطبية الشعبية. وننتخب فيما يأتي أشهر هذه الوثائق، مما هو موجود الآن في متاحف العالم الشهيرة:

(1) فأول ما نذكر النص الطبي المشهور باسم «بردية ايبرس» (Ebers Papyrus) وهو أشهر وأطول مصدر طبي، وقد وجد في عام 1862 واقتناه الشخص المنسوب إليه، وهو الآن محفوظ في جامعة «لبسك» (Leipsic)، ومحتوياته طبية وسحرية، وفي ظهره أمور عن التقويم، وقد كُتب في عهد السلالة الثامنة عشرة ولكن الأدلة الداخلية تشير إلى أنه نسخة عن أصل أقدم بعدة قرون. وعلى كل حال فلا ينبغي لنا أن نقيسه بالتآليف اليونانية أو الحديثة، وإنما هو مجموعة من الوصفات المأخوذة من عدّة مصادر ولم تشخص الأمراض الموصوفة إليها تلك الأدوية. وذكرت فيها العقاقير ومقاديرها وكيفية استعمالها. ومن الأمراض الواردة فيها أمراض خاصة بالمعدة والقلب وأوعيته، وكذلك العلاجات الجراحية الخاصة بالمثانة، وتتخلل الوصفات الطبية رقى وتعاويذ سحرية.

2 ـ ويوجد نص شهير آخر معروف باسم «بردية أدون سمث

الجراحية»[1]. وهو الآن في حيازة الجمعية التأريخية في نيويورك، وقد نشره نشراً علمياً العلامة «بريستد»، ويحتوي على مسائل جراحية في معالجة الجروح والكسور وطرق تجبيرها، ويحتوي هذا النص على شروح موضّحة للمصطلحات الفنية الغريبة. والطريف ذكره في هذين النصين أنهما يحتويان على وصف وظائف القلب، وكيف أن القلب «يتكلم» بواسطة الأعضاء المختلفة من الجسم الإنساني، فيستطيع الطبيب أن يجسّ القلب من النظر في تلك الأعضاء، ولا يعلم بوجه التأكيد هل هذا يدلّ على معرفة بالدورة الدموية، ولكن معظم الباحثين لا يميلون إلى الإيجاب[2]، ومهما كان الحال فإن معرفتهم بعلاقة القلب العضوية بأعضاء الجسم وبأهميته بصفته منبع الحياة، لهي في حدّ ذاتها ذات أهمية خطيرة في تأريخ التشريح والفسلجة.

---

(1) The Edwin Smith Papyrus.

(2) حول موجز المصادر الطبية الأخرى انظر:

Wilson, The Burden of Egypt, 56.

The Legacy of Egypt.



مشهد وجد مصوراً في معبد قبر أحد النبلاء (من عصر الأهرام)، ويمثل لنا عمليات نجارية في صنع صناديق الخشب. لاحظ أدوات النجارة والكتابة الهيروغليفية.



العمد الضخمة في صحن القاعة الكبرى في معبد الكرنك من عهد الأمبراطورية.



تماثيل ضخمة جسيمة لأحد الفراعنة من عهد الأمبراطورية
يبلغ علوّها زهاء سبعين قدماً وتزين واجهة المعبد
الموجود إلى الخلف.

الفصل الخامس والعشرون

شيء عن الدولة والمجتمع

الملك:

كان الملك، كما سبق أن نوّهنا مراراً، رأس المجتمع والدولة في مصر القديمة في جميع أدوار تأريخها، كما وقد سبق أن رأينا أيضاً أن نظام الحكم الملكي قد ظهر في وادي النيل منذ نهاية عصور ما قبل السلالات، وتمتد جذوره إلى أبعد من ذلك حيث نظام الرئاسة القبلية ومشيختها متأصل في قارة أفريقيا منذ عصور ما قبل التأريخ. وتقول المآثر المصرية إن أول ملك في مصر هو الذي كان ملكاً على أول سلالة في تأريخ البلاد، أما ما قبل عهده فتروي هذه المآثر أيضاً أن الحكّام كانوا نوعاً من الأرواح الشبيهة بالآلهة، وقد سبق هذا العهد زمن كانت الآلهة أنفسها تحكم البلاد، وكان أول ملك في الكون وفي مصر الإلٰه الخالق «أتوم ـ رع» حيث صار ملكاً على الخليقة التي أوجدها، وهكذا فإن الملوكية عريقة في القدم وظهرت منذ الخليقة. وللمقارنة بهذا الأصل النظري للملكية في مصر القديمة كانت الصورة التي كوّنها سكان العراق الأقدمون مختلفة عن ذلك تمام الاختلاف، فإن الملكية لم تكن من أصل نظام الكون بل كانت طارئة نشأت بسبب الأزمة التي حلّت في الكون بعد مجيء الآلهة على نحو ما فصلناه في كلامنا على حضارة وادي الرافدين. وإذ كانت الملكية في العراق القديم مقدسة وأصلها من الآلهة إلا أن الذي كان يتقلّدها من البشر كان بشراً اعتيادياً وقد يقدس لأنه يحمل حملاً مقدساً أو وظيفة مقدسة، ويقابل ذلك في مصر أن الذي يتقلّد الملوكية من البشر كان إلٰهاً

نفسه، وهذا هو جوهر الاختلاف في الأصل النظري للملوكية في كلتا الحضارتين. فالفرعون كان إلٰهاً بالتجسيد (incarnate god) منذ ولايته للعهد، وإذا كان الملك في حضارة وادي الرافدين مفوضاً من قبل الآلهة ووكيلها والواسطة بين المجتمع البشري وبين الآلهة ليجعل علاقات البشر منسجمة مع القوى فوق الطبيعة، فإن الملك في حضارة مصر كان من مجمع الآلهة، أي إنه إلٰه نزل وتجسد في الفرعون ليحكم الناس، ولما كان رأس المجتمع المسؤول عن إدارته إلٰهاً، فإن شعور هذا المجتمع بالضمان في هذه الحياة إنما هو شعور الاطمئنان. لقد عبد المجتمع الملك بصفته إلٰهاً لضمان الانسجام بينه وبين القوى الطبيعية. وقد سبق أن نوّهنا بتفسير هذا البون بين الحضارتين بالمقارنة بين البيئتين الجغرافيتين اللتين نشأتا فيهما، وإذ سلم سكان وادي الرافدين من عبادة الملوك وتأليههم فإنهم لم يسلموا من شعور عدم الاطمئنان إزاء ما تفعله الآلهة والقوى الطبيعية. ونجد انعكاس ألوهية الملك واضحة في التعبير الفني في مصر حيث الملك يمثل في المشاهد الحربية وحده على الغالب بدون جيش (كما في تمثيل صفحة الملك نارمر)[1] وفي منحوتة طوطمس الثالث في الكرنك. وعلى النقيض من ذلك تمثيل الملوك في العراق القديم وهم على رأس الجيش، ويماثل تمثيل الفراعنة في الفن المصري تمثيل الآلهة في فن العراق القديم، ففي المسلة الشهيرة المسماة «نصب النسور» لايانانتم، تشاهد هذا الحاكم السومري وهو على رأس جيشه، ولكن تشاهد في الوجه الثاني من اللوحة نفسها الإلٰه «ننجرسو» ممثلاً وحده وقد اصطاد الأعداء في شبكته المقدسة.

وتتضمّن فكرة ألوهية الفرعون بالتجسيد جيلين من الفراعنة. فإن اعتلاء الملك الجديد للعرش يعني اندماج قوى الملك الراحل بالملك الجديد، ويستمر الملك الميت في حكم البشر الأموات. إذ إن الملك الميت يصير

---

(1) انظر بحث ذلك في:

H. Frankfort, The Kingship and the Gods 54;

بالتجسيد بمثابة الإلٰه «أوسيريس»، أما الملك الذي يخلف الملك الميت فيصير الإلٰه «هورس» بن أوسيريس الذي أعقب أباه وصار ملكاً أيضاً، كما أن الملك الجديد يتجسد أيضاً بالإلٰه الشمس «رع»، أو يصير ابنه، وهكذا تستمر الدورة. وكان الفرعون يسمى في كثير من النصوص باسم الإلٰه (نيتجير «netjer») أو «الإلٰه الخيِّر الطيب»، ولما كان الفرعون مجسداً للإلٰه هورس، فصار رمزه المقدس طير النسر، وهو الحيوان الذي يرمز إلى الإلٰه هورس أو أن هذا الإلٰه حلّ فيه (انظر الشكل آخر الفصل). ويرى أكثر الباحثين أن السبب في جعل الملك يتجسد في الإلٰه هورس سياسي في أصله، فإن أولى سلالة حكمت في مصر أصلها من موطن كان يعبد فيه الإلٰه الصقر «هورس». ويجوز أن يلقّب الفرعون بابن أي إلٰه من الآلهة أو ابن أية إلهة. وقد صار شخص الملك بسبب ألوهيته مشحوناً بالقدسية المحظرة بالنسبة إلى البشر الآخرين من ناحية الاقتراب منه ومخاطبته، فكانوا لا ينطقون باسمه بل يشيرون إليه بصفات التعظيم كصاحب الجلالة. وقد سبق أن ذكرنا أنهم صاروا يشيرون إليه في عهد الأمبراطورية (منذ السلالة الثامنة عشرة) باسم الفرعون أي «البيت العظيم»، وهي الكنية التي أُطلقت على جميع ملوك مصر. وكان أشهر ألقاب الملك منذ عهد المملكة القديمة «ابن - رع» وبلاد مصر «ابنة رع»، أما كيفية نسبته بصلة البنوّة إلى الإلٰه «رع»، فهو أن أمه من البشر ولكن زوجها هو الإلٰه «رع» الذي تجسّد في زوجها الملك لينجب ابنه الملك الجديد، وعندما يموت الملك الحاكم يقوم إلى الحياة ويتّصل بأبيه الإلٰه الشمس. وكثيراً ما وصف الفرعون بصفته إلٰهاً بصفات متضادة متقابلة كالرحمة والشدّة، والعدل والعقاب، وكذلك تكون الدولة التي يرأسها الفرعون، والتي هي الفرعون نفسه، ونلاحظ ذلك في صفات القوى الطبيعية التي ألفها المصريون القدماء كالنيل الذي يكون رحيماً محسناً إذا كان منتظماً في دورة فيضانه وفي مقدار فيضانه، ويكون جباراً شديداً إن شذّ في مقدار الفيضان من ناحية القلة والكثرة على نحو ما بيّناه في كلامنا على جغرافية وادي النيل.

واستتبع ألوهية الفرعون أيضاً أمور أخرى مهمة في حياة الدولة المصرية

ونظامها وفي حياة الشعب. فكان الفرعون بصفته إلهاً مطلق الحكم والسيطرة في البلاد وفي سكانها، حيث يملك جميع البلاد (بصورة نظرية في بعض الأحايين وبصورة عملية في أحايين أخرى) والملكية الفردية غير ممكنة إلّا بنتيجة منح الملك إياها للأشخاص الذين يتصرفون بها، ويصدق ذلك أيضاً على حرية الأفراد الشخصية وعلى مكانتهم في المجتمع، فكان كل ذلك رهن إرادة الملك.

كما أن الملك كان ينبوع العدالة والشريعة إذ إنها تصدر عن إرادته ومشيئته، وإذا احترم الملك من الوجهة النظرية مآثر البلاد وحقوق الناس إلا أنه لا يمكن أن يكون هناك عدل أو شريعة مستقلين خارج سلطة العرش وإرادته. وكان الملك على الرغم من سلطته المطلقة أيضاً مقيّداً من الوجهة النظرية على الأقل أن يسير وفق العدل والحق، وقد سبق أن رأينا أن المصريين جسّموا العدل وجعلوه باسم إلهة هي «مات» (ابنة الإله رع) التي تعني النظام الصحيح والحق والصدق، مما ينبغي أن يتحلّى بها الملك بصفته إلٰهاً، وإلى هذه الصفات الواجب توفرها في الملك الإله فإنه مزوّد أيضاً بالإرادة الإلٰهية أو ما يصحّ ترجمته «القول الخالق» (بالمصرية القديمة «هو»)، وبالإدراك والفهم (بالمصرية «سيا»)، والملك على ذلك مسؤول عن تردّي الأحوال في المملكة، ولكن بما أنه إله فلا يستطيع المجتمع أن يحاسبه أو يثور ضده من الوجهة النظرية. فلم يكن هناك طريقة شرعية يبدل بها الملك الحاكم بغيره، كما أننا لا نجد في سجلات مصر ما يشير إلى ما يمكن تسميته بالثورة الشعبية على الملك الإله، وكل ما نجده في سير التأريخ المصري مؤامرات في البلاط بين أمراء البيت المالك أو الأمراء من السلالات الملكية، وكان يسهل للناجح منهم أن يبرّر اعتلاءه العرش من الناحية الشرعية بنظرية التجسد الإلٰهي، وعلى هذا فلم يكن في تأريخ مصر مدّعون أو غاصبون للعرش من الوجهة النظرية بخلاف ما مرّ بنا في حضارة وادي الرافدين.

هذا وإن سلطة الملك على رعيته لا تنتهي بالموت، فإن حمايته لهم

وعلاقتهم به تمتد إلى العالم الآخر حيث يتجسّد الملك بالإله «أوسيريس» ملك عالم الأموات، وتوجد حالات قليلة في عهد السلالة الأولى كانت يضحي فيها البشر من أتباع الملك عند موته، ولكن هذه العادة بطلت منذ عهد السلالة الرابعة[1]، وصار قبر الملك بدلاً من ذلك مركزاً لقبور أتباعه من الأمراء وكبار رجال الدولة ليشملهم بحمايته في العالم الآخر ولأنه يحتاج إلى خدمتهم في ذلك العالم. كما يجب على أفراد المجتمع الآخرين أن يعبدوا الفرعون الميت. ولم تقتصر سلطة الملك بصفته إلٰهاً على البشر بل كانت تشمل حتى القوى الطبيعية ومن ذلك الظواهر الطبيعية التي تتوقف عليها حياة مصر مثل ضمان فيضان النيل. وقد ميّزوا الملك عن البشر العاديين بالنسبة إلى قدراته الخارقة حتى في مسألة العنصرين الحيويين اللذين قلنا إن المصريين القدماء جعلوهما العنصرين الروحيين المكوّن منهما الجسم الإنساني، حيث إن هذا الجسم مكوّن عدا العنصر المادي من عنصرين آخرين هما الروح «الكا» والنفس «البا» وهما مصطلحان لا يمكن ترجمتهما ترجمة دقيقة، فيجوز أن تعني «الكا» قوة الحياة ويفسر المصريون الموت بأنه شيء مؤقت يحدث بسبب ترك «الكا» للجسم حيث يعبرون عن ذلك بأنها «استراحة» مؤقتة، إذ تعود إليه من بعد الموت. ومع وجود هذين العنصرين عند سائر الناس إلا أنهما عند الملوك من عنصر وماهية خاصيتين. والجدير بالذكر بهذا الصدد أن المصريين لم يصوّروا لنا «الكا» الخاصة بالناس العاديين من غير الملوك، بخلاف «البا» التي كثيراً ما مثّلوها على هيئة طائر ذي رأس بشري وهو حاط على بركة ماء، فهي بحسب هذا التصوّر أليق أن تسمى بشبح الميت كما عند بعض الأقوام الأخرى مثل البابليين. ولكنهم صوّروا لنا الـ «كا» الخاص بالملك على هيئة «قرين» يلازمه في الحياة بهيئة ملاك حارس، ويشارك الملك فيما بعد الموت.

---

(1) انظر: H. Frankfort, **Kingship and the Gods**, 6 ff.

G.A Reisner, **The Development of the Egyptian Tomb**, 117 ff.

بعض الاحتفالات والرسوم الخاصة بالملكية:

مع أن كثيراً من الرسوم والطقوس الدينية لها علاقة بالملك والملكية إلا أنه هناك جملة احتفالات ورسوم خاصة بالملك نذكر منها الاحتفال بالتتويج والاحتفال الخاص المعروف باسم عيد «سيد». أما الاحتفالات الخاصة بإعلان الملك الجديد وتتويجه فيمكن الوقوف عليها من جملة مصادر مهمة أهمها المنحوتات البارزة الممثلة لمشاهد الاحتفال التي جاءتنا من عهد الأمبراطورية والنصوص الكتابية الشهيرة باسم «النصوص الهرمية» (Pyramid Texts) والمصادر الخاصة بوصف تمثيلية التتويج.

وهناك نوعان من الاحتفالات الخاصة بتبوّء الملك الجديد للعرش أحدهما يخص إعلان الملك الجديد والآخر يخص تتويج هذا الملك الجديد، والغالب أن الحادثتين أو الاحتفالين لا يقعان في زمن واحد. فضماناً لصفة الملوكية وتأكيداً لألوهيتها وقطعاً لظهور منازع من أمراء البيت المالك كان الملك وهو في أثناء حكمه في الحياة يعيّن خليفته على العرش على هيئة نائب له أو شريك له في الحكم (Coregent)، وكانت هذه العادة متّبعة بين جميع ملوك المملكة الوسطى وملوك الأمبراطورية بحسب ما جاءنا من نصوص، ولعل ذلك كان متّبعاً في العهود القديمة أيضاً. ويعقب تخليف الملك الجديد بعد موت الملك والانتهاء من مراسيم دفنه (ويستغرق ذلك زمناً طويلاً) الاحتفال بالتتويج (Coronation) الذي يثبت انتقال السلطة إلى الملك الجديد. وكانوا يختارون ليوم التتويج في الغالب أما في بداية الصيف (وهو الفصل الأول من التقويم المصري) أو الخريف (الفصل الثاني)، وتخصص الفترة ما بين موت الملك وتتويج الملك الجديد في تهيئة دفن الملك وتهيئة معبده وتحنيطه ثم دفنه. وفي اليوم الذي يسبق التتويج يحتفلون بإنهاء مراسيم الدفن، وحالما يوضع الملك الراحل في لحده يكون ذلك بعثه وقيامته وانتقاله إلى ملكوت الإله الشمس. فكان الدفن عند المصريين القدماء يرادف القيامة أو الحياة الأخرى، ويصير الملك الملحود الإله «أوسيريس» بالتجسد والملك

المتوج «هورس». وقد خلف لنا المصريون القدماء عدا الوثائق العامة المتعلقة بتعيين خليفة الملك وتتويجه وثيقة خاصة تصف لنا بصورة واقعية خلافة «سنوسرت» الأول، من ملوك المملكة الوسطى، وقد جاءت على هيئة احتفال أو تمثيلية كان يقوم بأدوارها الملك الذي سمي في هذه الوثيقة بعبارة «الملك الذي سيحكم» وأمراء الأسرة المالكة وكبار الموظفين والكهنة، وبالإمكان تقسيمها إلى ستة فصول يحتوي كل فصل منها على عدّة مشاهد، ويحتوي الفصل السادس منها على الاحتفال بيوم التتويج[1].

ومن الاحتفالات المهمة الخاصة بالملك العيد المسمى بعيد «سيد» أي عيد الثلاثين (The Sed Festival) ولهذا العيد علاقة بالإلٰه «أوسيريس» إذ المرجّح أن الملك إنما كان يحتفل به لكونه قد تجسّد بالإلٰه أوسيريس، فيحتفل بحياته بهذه الصفة وهو في قيد الحياة وفي الغالب بعد مضي ثلاثين عاماً على تبوئه العرش، ويرجع زمن ممارسة هذا العيد إلى أحد ملوك السلالة الأولى القدامى المسمى «دين سيمتي» الذي يرجّح أيضاً أنه أول ملك اعتقد فيه بتجسده بالإلٰه «أوسيريس» حيث اتخذت عبادته أهمية خاصة في عهد هذا الملك، وتعزو إليه المآثر أن فصولاً من «كتاب الأموات» قد دوّنت في عهده، كما وجد له لوح منقوش بكتابة هيروغليفية وصورة للملك تمثّله في حالة رقص أمام الإلٰه «أوسيريس»، مما يحتمل أن يكون هذا جزءاً من مراسيم عيد «سيد»[2]. ومع أن اسم العيد يعني «عيد الثلاثين» إلا أن كثيراً من الملوك احتفلوا به مرات متعددة بفترات أقصر، وخصص للاحتفال به أول شهر من

---

(1) لقد ترجمت هذه التمثيلية بالمصطلح الإنجليزي: «The Mystery Play of Succession».
«أي رواية خلافة الحكم السرية»، ولا يسع مجال هذا الكتاب حتى إيجازها فنحيل من يريد الوقوف عليها إلى أحدث المصادر والترجمات في المرجع الآتي:
Frankfort, **Kingship and the Gods**, ch. 11.

(2) انظر: **British Museum Guide**, 282-83.
وحول هذا العيد انظر:
Journal of Egyptian Archeology, (1944), 30 ff.

الفصل الثاني المسمى «فصل الظهور» أي ظهور الخضار والحياة من بعد فيضان النيل مما يشير إلى ارتباط العيد بعبادة «أوسيريس» الذي يمثّل حياة الإنبات والخضار بوجه عام. وكان الملك يقوم في هذا العيد بعمل أشياء كثيرة منها إقامة معبد جديد أو إقامة مسلة من الحجر، وإذا لم يشيَّد معبد جديد فتخصص إحدى قاعات المعابد الشهيرة، كما تُخصص الهدايا للإله، وتكون عاصمة الملك في شغل شاغل في التهيؤ والقيام بعمليات التطهير والتنظيف وإضاءة المواضع المعدّة للاحتفال، وتحمل السفن تماثيل الآلهة من مختلف أنحاء القطر حيث يستقبلها الفرعون ورجال بلاطه، وكذلك يحضر كبار موظفي الدولة من الأقاليم.

وبعد الانتهاء من الاستعدادات وفي اليوم الأول من فصل «الظهور» يبدأ الاحتفال الرسمي بسير موكب مهيب يمشي فيه الملك وتماثيل الآلهة وكهنتها، وتقدّم القرابين إلى الآلهة، وبعد ذلك يتقدم الكهنة من الملك وهو على عرشه وهم يحملون رموز الآلهة معهم، ويرد الملك زيارتهم بأن يزور كل إله في مزاره الخاص، ويستمر هذا التزاور المتبادل طيلة يومين. ومن بعد ذلك يقدم إلى الملك كبار الدولة وأمراء السلالة المالكة خضوعهم وهو على عرشه[1].

وقبل أن ننهي بحثنا عن الملك وننتقل إلى ذكر أشياء موجزة عن الموظفين التابعين له ننوّه هنا بشيء مهم يتعلق بألقاب الملك الرسمية مما له علاقة بجغرافية مصر. فقد سبق أن رأينا انقسام وادي النيل إلى القسمين المتميزين الوجه البحري، وهو الدلتا الواسعة الرقعة، ثم الوجه القبلي مما تحت القاهرة، المكوّن من شقة وادي النيل الضيقة. ومع اختلاف هذين القسمين وتميزهما بعضهما عن بعض في أوجه كثيرة إلا أنهما يجب أن يؤلفا وحدة اقتصادية وسياسية لاشتراكهما في المصالح الكثيرة واعتمادهما على مصدر واحد من المياه هو النيل، فكان من المشاكل المهمة التي اعترضت

---

(1) انظر موجز وصف العيد وتحليل مغزاه وأهميته في المرجع:

H. Frankfort, **Kingship and the Gods**, ch.6.

الحضارة المصرية في أثناء نموّها توحيد هذين القسمين من القطر في مملكة قومية موحدة. وكانت هذه الوحدة من المظاهر المرغوبة في نظام الملكية ومقياساً لازدهار الحكم وقوّته. وكان لاختراع نظام الحكم الذي يدور على فكرة «الملك الإلٰه» أثر بالغ في توحيد هذين القسمين، وصار من ألقاب الملك الرسمية المهمة لقب «ملك القطرين» حيث جمع في تاجه شعاري القسمين، حيث لقب «بالسيدتين» إشارة إلى جمع الآلهتين الحاميتين لكل من مصر العليا والسفلى.

حكومة الفرعون:

إذا كان الملك مصدر الحكم والسلطة ومنبع العدالة فمن البديهي تعذر قيامه بإدارة شؤون الدولة جميعها، إذ الواقع أن الملك كان بعيداً عن جزئيات إدارة المملكة والحكومة، فكان يفوض في ذلك كبار موظفيه وعلى رأسهم أهم موظف في الدولة من بعد الملك ذلك هو «وزير الملك»، ثم كبار موظفي الدولة الذين يكونون في حالات كثيرة من أعضاء الأسرة المالكة أو ممّن يمتّ إليها من الأمراء الذين يكونون أعلى طبقة في المجتمع، ويكون فيهم بسبب صلتهم بالملك جزء من تلك الصفة الإلٰهية المقدسة التي تميّز الملك. وقد بلغ الحال مثلاً في عهد السلالة الرابعة أن الوزراء وكبار الكهنة كانوا من أبناء الملك أو من أبناء عمومته أو أبناء خاله الخ. ومما يقال عن طبقات المجتمع بالنسبة إلى الملك أن جميع المصريين كانوا بالنسبة إليه من العوام ومن طبقة غير طبقته باستثناء أولئك الذين يجري في عروقهم الدم الملكي مهما بعدت صلاتهم بالأسرة المالكية. وإذا كان الوزير وكبار الموظفين يساعدون الملك في إدارة الدولة بتفويض منه إلا أن الشؤون والقرارات المهمة كانت تعرض أمام الملك للبتّ فيها. وكان على الوزير الأول أن يمثل أمام الفرعون صباح كل يوم ليطلعه على شؤون الدولة. وكان الملك يفوض وزيره أيضاً في سماع الشكاوى التي تستأنف إلى الملك بصفته منبع العدالة. ويجدر التنويه بهذه المناسبة بأنه لم يكن هناك تمييز بين السلطتين التشريعية والتنفيذية لأن كل

السلطات مصدرها الملك. ومما يدلّ على سعة سلطة وزير الملك ألقابه المهمة مثل تسميته باسم «رئيس كبار موظفي الوجهين القبلي والبحري»، وكان الوزير كبيراً للقضاة ومن ألقابه المهمة «ناظر جميع أشغال الملك» و«المشرف على ما تعطيه السماء وتخرجه الأرض ويقدمه النيل والمدير لكل ما في البلاد جميعها»، ومن اختصاصاته إصدار المراسيم القانونية باسم الملك والتعيين في وظائف الدولة، والتصديق على وثائق الحدود بين الأملاك والأراضي.

ومما يقال في حكومة الملك ونظام الإدارة فيها إنها تتميز بالبيروقراطية الشديدة، فهناك العدد الكبير من الكتبة ورؤسائهم ورتب الموظفين الآخرين، وكان من بين كبارهم حاكم الإقليم، فقد كانت البلاد مقسّمة إلى ولايات، كما أن إدارة البلاد ظلت متميزة من ناحية تقسيمها إلى القسمين الكبيرين، الوجه القبلي والبحري، بحيث إن وزيراً خاصاً كان يعين لكلّ منهما في بعض الأحايين. وكان حاكم الإقليم قائد الجيش الخاص بإقليمه أيضاً، ويكون دولة مصغرة من ناحية الإدارة والموظفين الخاصين بها. وهناك وظيفة مالية كبيرة هي «بيت الخزينة» أي إدارة المالية، وعلى رأسها «أمين خزينة الإلٰه». وقد ازداد الموظفون وتضخّم عددهم في عهد المملكة الوسطى كما ازدادت عدد الوظائف والأعمال المُناطة بالموظفين الكبار مما أدّى إلى إرباك ماكينة الدولة.

وطرأت تغييرات مهمة في عهد الأمبراطورية في حكومة الملك وإدارتها على الرغم من بقاء معظم الألقاب القديمة في الاستعمال، ولكن أسس الإدارة وتنظيمها قد تغيّرت. فمن الأمور المهمة نشوء الموظفين الملكيين بدلاً من الأرستقراطية القديمة المكوّنة من النبلاء والأشراف، كما أن ملكيات الأراضي الكبيرة انتقلت من حوزة الأسر القديمة إلى التاج وإلى المعابد الكبرى. لقد طرأت مثل هذه التغييرات من جرّاء طرد الهكسوس بالحرب والاستيلاء على أملاكهم أي إن السلالة الثامنة عشرة إنما قامت على أثر حرب أهلية بدلت كثيراً من الأوضاع السابقة. ولعل أحموسة مؤسس هذه السلالة قد انتهز فرصة حرب التحرير فسلب أملاك النبلاء السابقين وقضى على امتيازاتهم، ومنح

قسماً من أملاكهم إلى الذين ساعدوه في حربه ضد الهكسوس. وإذا كنا قلنا سابقاً بأن مصر كانت ملك الفرعون، فإن ذلك لم يكن كله صحيحاً من الوجهة النظرية إلّا في عهد الأمبراطورية. وبما أن الدولة الحديثة قامت بقوة السلاح قد استتبع ذلك تعاظم شأن الجند، كما أن الجيش صار قوة نظامية أكثر دواماً وأنظم مما كان عليه في العصور السابقة. ثم إن تأسيس الأمبراطورية قد اقتضى أن يكون هناك جيش قائم وأن تؤسس الحصون والثغور وتعين فيها الحاميات مما لم يكن معروفاً في العهود السابقة بمقياس كبير. ودخل في الجيش أيضاً نظام الجند المرتزقة كالليبيين مما كان له أثر سيئ في المملكة حيث استطاع هؤلاء بعد أزمان أن يأخذوا زمام السلطة بأيديهم. وكان الملك يشترك شخصياً في القتال كما ترينا الصور المنقوشة على جدران المعابد من عهد الأمبراطورية. وبلغت مصر أوجها في المقدرة العسكرية في عهد الأمبراطورية وبوجه خاص في عهد السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، ولكن هذه السلالة الأخيرة جابهت آنذاك دولة عظمى هي الأمبراطورية الحثية ودخلت معها في حروب مضنية.

شيء عن المجتمع والحياة الاجتماعية:

إذا استثنينا الملك ومعه أفراد الأسرة المالكة الذين كانوا فوق طبقات الشعب فبالإمكان تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات، الطبقة العليا المؤلفة من النبلاء والأشراف وكبار الموظفين والكهنة، وكان هؤلاء بيدهم مقاليد الأمور والثروة، ويليهم طبقة يمكن تسميتها بالطبقة الوسطى وأهم أفرادها الصنّاع والعمّال الأحرار والفلاحون الأحرار ثم تأتي جماعات الأرقّاء. وكانت الحروب الخارجية مصدراً مهماً لجلب الحشود من المسترقين، فيخبرنا رعمسيس الثالث أنه أهدى (113000) عبد إلى المعابد المهمة في أثناء حكمه، وإذا أضفنا إلى مثل هذه الحشود من الأرقّاء العمل القسري الذي كان يفرضه الملوك والحكّام على الطبقات الدنيا من الفلاحين والعمّال في مشاريعهم الجسيمة أدركنا مصدر العمل الغزير في مصر القديمة.

وكانت العائلة أساس المجتمع، والغالب في الزواج في مصر القديمة الاقتصار على الزوجة الشرعية الواحدة التي كانت سيدة البيت، أما تعدد الزوجات فكان من الحالات القليلة المقصورة على العائلة المالكة وطبقة الأشراف والنبلاء، كما أن الرجل العادي يستطيع أن يتّخذ محظيات (سريات) من الجواري والإماء، ولكن يندر الجمع بين زوجتين شرعيتين في آن واحد. ويبدو أن التعلّق بالعائلة وتأسيس الأسرة كانت من الأمور المحبّبة المثالية لدى المصريين القدماء. وقد جاء في كتاب الحكمة الذي ألّفه «فتاح حيتي» «أن الرجل يكون حكيماً حين يؤسّس لنفسه منزلاً ويحب زوجته». هذا ولم يكن هناك سن قانوني للزواج، فقد يكون من سن الخامسة عشرة للشبان وسن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة للبنات، والمرجّح كثيراً قياساً على العصور المتأخرة أن الزواج كان يتمّ بالخطبة وبالعقد الكتابي. ولم يكن المصريون القدماء يتحرجون من زواج الأخت وابنة الأخت. وقد اتبع هذه العادة البطالسة والرومان في مصر، حيث اتخذ معظم البطالسة أخواتهم زوجات لهم. وكانت هذه العادة شائعة في العصور السابقة ولا سيما بالنسبة للملوك والآلهة، فقد جاء في الأساطير أن الإلٰه «أوسيريس» والإلٰه «سيت» قد تزوجا بأختيهما «إيسيس» و«نفثيس» ولعل الغاية من زواج الأخت بين الملوك الاحتفاظ بالدم الإلٰهي النقي. وكانت الزوجة محترمة بوجه عام، كما خصّت الأم أيضاً بالاحترام الخاص حتى أن صورة أم الميت وليس صورة أبيه هي التي تُنقش مع صورته وصورة زوجته، وكثيراً ما نُسب الميت في شواهد القبور إلى جهة أمه وليس إلى جهة أبيه، ولعل هذه العادة من بقايا العصور القديمة.

وكان اسم الشخص ذا أهمية خاصة وموضوع اهتمام شديد، والاسم إما أن يكون بسيطاً يدلّ على تيمن، أو أنه ذو مغزى ديني، والغالب في الأسماء التركيب، حيث يتكوّن الاسم من جملة ذات معنى على غرار الأقوام السامية كما رأينا ذلك عند البابليين، وكثيراً ما تكون الأسماء البسيطة موجز الأسماء المركّبة واختصاراً لها. وبطبيعة الحال كانت تربية الطفل وتنشئته تقع على عاتق الأم، وكانت الأم ترضعه مدة قد تدوم ثلاث سنوات وقد يوكل الطفل إلى

المرضعة ومن بعد أربع سنوات يأتي دور الأب في التربية، والعادة أن الأطفال كانوا يعلّقون في أجسامهم التمائم والحروز لطرد الشر. وإذا ما بلغ الطفل دور الصبا فإما أن يُلحق بحرفة بالالتحاق بمحل صانع أو محترف أو يُرسل إلى الكتاتيب لتعليمه الكتابة والقراءة التي كانت من الأمور الصعبة التي تستغرق وقتاً طويلاً، وكان أولاد الطبقات العليا يؤخذون في الأغلب إلى البلاط ليتربوا مع أبناء الملوك، وكانت في مصر القديمة أنواع مختلفة من المدارس فبعضها مدارس ملحقة بالمعابد كما توجد مدارس رسمية خاصة بأبناء الطبقات الراقية، وكانت هناك أيضاً مدارس مهنية مثل مدرسة الكتبة ومدرسة الكهنة، ومدرسة عسكرية، وكان نظام الدراسة صارماً قاسياً حيث العقوبات الجسدية، ولكن مع ذلك بوسعنا أن نستدل من النصوص الكتابية على ولعهم بالتعليم وتقديرهم لفن الكتابة، كما يتجلى ذلك مما ذكرناه باسم وصية «دواف بن خيتي» لابنه، والحوافز على ذلك نيل الوظائف والمراتب العليا وليس لمجرد حب المعرفة والحكمة، فالتعليم كان الفاصل بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة، فتعلم فن الكتابة وصيرورة المرء كاتباً يضعانه في أولى درجة في سلم التوظف. وكان التعليم بوجه عام درجات، فالتعليم الابتدائي يقتصر على تعلم فن الكتابة والحساب وبعض الأمور العامة، والتعليم المتقدم يأخذ بالمرء إلى الاختصاص في المدارس الخصوصية حيث يتعلم الطب والرياضيات والسحر والكهانة ويتقن أسرار التعاليم الإلٰهية الكهنوتية.

وإذا ما أردنا أن نتكلم شيئاً عن المنازل وبيوت السكنى فإن معلوماتنا عنها لا تتعدّى عهد الدولة الوسطى، إذ لم يبق أثر ما لبيوت العهود السابقة، ويصدق ذلك على المدينة المصرية. وقد كشف المنقبون عن بقايا مدينة من هذا العهد في الموضع المعروف باسم اللاهون بمنطقة الفيوم، وقد بناها «سنوسرت» الثاني لتكون مقراً له، وتُعرف بين الباحثين الآن باسم «كاهون»، ولم تسكن هذه المدينة إلا زهاء القرن الواحد، وهي تشغل مساحة مقدارها 350 ـ 400 متر مربعاً ومحاطة بسور عريض من اللبن، ولها بابان وشارع رئيسي عرضه 8 ـ 9 أمتار، ويتفرّع منه بزوايا قوائم دروب وطرقات فرعية على

جوانبها منازل صغيرة، وقد خصّص نحو ثلاثة أرباع المدينة (قسم المدينة الشمالي) للملك ولكبار موظفيه. وعُثر على أنقاض مدينة أخرى مهمة من عهد الأمبراطورية عرفتنا أيضاً بالمدينة المصرية وبدور السكنى فيها، ونقصد بذلك المدينة التي شيّدها أخناتون في تل العمارنة في مصر الوسطى (على الضفة الشرقية من النيل) في أواخر السلالة الثامنة عشرة (1375 ـ 1350 ق.م)، وتمتد هذه المدينة نحو سبعة كيلومترات من الجنوب إلى الشمال ونحو (1-1/2 كم) من الغرب إلى الشرق، ويقوم وسط المدينة معبد الإلٰه «أتون» العظيم، ولعل قصر الملك كان يتصل به، وتقع إلى شماله وجنوبه منازل النبلاء وأفراد الشعب، وكانت هذه المنازل بعضها بسيطاً وبعضها كبيراً معقداً، ولكن الظاهر أن المدينة لم تكن مقسّمة إلى حارات للأغنياء وحارات للفقراء، وكان لأكثر البيوت حدائق، وقد اشتهر المصريون القدماء بالعناية بالجنائن منذ أبعد العصور. وفيما عدا أنقاض هاتين المدينتين فإننا نجهل إنشاء دور السكنى وخطط المدن المصرية بالنظر لعدم اعتنائهم ببيوت السكنى وإنما خصّصوا أعظم الجهود إلى إقامة القبور التي كانت البيوت الدائمة ولكن وجد في مثل هذه المقابر، ولا سيما المقابر العائدة إلى عهد الأمبراطورية، نماذج طريفة لأدوات المنازل والأثاث المستعملة، كما وجدت نماذج مصغرة لبعض بيوت السكنى. وإذا أضفنا إلى هذه الأدوات الصور الممثلة للبيوت والأثاث استطعنا أن نكوّن صورة لا بأس بها عن الأثاث البيتية مثل أسرّة النوم الخشبية، وكانت أسرة الأثرياء مفضضة ومذهبة ومزخرفة بالصور وكذلك الكراسي، ولكن عامة الناس صوّروا في أكلهم وهم على الأرض جالسين القرفصاء، إلا أن المقعد الخشبي شاع بين عامة الناس منذ عهد السلالة الثامنة عشرة. ولدينا أيضاً صورة لا بأس بها عن ملابس الناس وأزيائهم، حيث نجد النقب (الأزر) التي تلف في وسط الشخص في عهد المملكة القديمة، وقد أضيف إزار آخر في عهد المملكة الوسطى، كما أن الصدر صار يُغطى برداء في عهد الأمبراطورية، وقد استعملوا نسيج الكتان والصوف والجلود للملابس. وكانت الملابس كثيراً ما تُزخرف. وهناك ألبسة خاصة بالاحتفالات الدينية والرسمية، كما اختصّ الوزراء والكهّان بلباسهم الخاص.

وإذا ما تساءلنا عن أنواع المهن التي كانت تمتهنها طبقات الشعب وجب علينا أن نتكلم عن ثلاثة أسس مهمة قامت عليها حضارة وادي النيل تلك هي الزراعة والتجارة والصناعة، وهي الأسس المهمة التي رأيناها تميّز حضارة وادي الرافدين أيضاً. وإذا لم يكن في الوسع إسهاب القول في كل من هذه العناصر الثلاثة فإننا نقتصر على ذكر أبرز الأمور المهمة في الموضوع، ولنبدأ بالزراعة.

ولا حاجة بنا للإسهاب في أثر الزراعة في حضارة وادي النيل لأنه سبق أن رأينا في عدّة مناسبات عن تأريخ مصر كيف أن الزراعة كانت المورد الأول في حياة وادي النيل، وقد وضعت أسسها قبل عهد نضج الحضارة، حيث قام رواد الحضارة الأوائل لما جاؤوا إلى ضفاف النيل بإزالة الأحراش والغابات وتنظيم جريان النيل، وشق الترع والقنوات، فعملت تلك الجهود على نموّ الحضارة وتوفير القوت. ولعلّ أبرز ما تمتاز به الزراعة في وادي النيل ما سبق أن ذكرناه عن خصائص نهر النيل المميزة، ولا سيما دورة فيضانه وقلّتها وكثرتها، فلا حاجة لتكرار القول في ذلك. وبعد انتهاء موسم الفيضان في أواخر فصل الصيف تكون الحقول مستعدة للحرث، حيث تفتت التربة مما على سطحها من كتل الطمي الكبيرة، كما تحرث بالمحراث الذي تجرّه الثيران، واستعملت البغال أيضاً في عهد الأمبراطورية، وكانت العادة أن يخصص شخصان لكل محراث أحدهما يضغط على مقبض المحراث ويقود الآخر الثورين. وبعد إعداد الحقل وتهيئته تبدأ عملية البذر، وبعد البذر يقومون بعملية أخرى هي إنزال الحبوب في أثناء الأرض المحروثة، وكانت هذه العملية تتم في العصور الأولى بواسطة الخراف حيث تسير فوق الحقل المحروث، وكانوا يسمون هذه العملية «حرث الحقل مرة أخرى بواسطة الخراف»، واستعملوا الخنازير في عهد الأمبراطورية على ما يروي لنا «هيرودوتس»، وبعد ذلك يبدأ نموّ الحبوب وظهورها، فتبدأ عملية الحصد بالمنجل القصير، حيث يربط المحصود على هيئة حزم تُنقل بعدئذ إلى موضع مخصّص للدراسة. وكانوا يستخدمون الحمير في الدراسة، وكثيراً ما تخزن

الحبوب بعد التذرية في أهراء مبنية من الطين بهيئة مخاريط (ارتفاعها نحو خمسة أمتار وقطرها نحو مترين). وكانت أشهر الحبوب المزروعة الحنطة والشعير والشوفان. وبالإضافة إلى الحبوب، كان في مصر جملة أنواع من الخضراوات كالبصل والخيار والبطيخ. ومن الثروة الزراعية يمكننا أن نعدّد أيضاً تربية الماشية، وقد وصلت إلينا عن ذلك صور كثيرة من المقابر من جميع العهود، كالبقر والغنم والماعز. واعتنوا أيضاً عناية خاصة بالدواجن من الطيور المختلفة.

وبعد أن كثر الإنتاج الزراعي بالسيطرة على مياه الإرواء أمكن ظهور الصناعات التي كانت بسيطة في مبدإ أمرها، وظهرت التجارة أيضاً على مقياس واسع، وباستطاعتنا أن نقف على نتاج الصناعات المصرية فيما خلّفه لنا المصريون القدماء ولا سيما في قبورهم من الأثاث والأدوات المختلفة منذ أقدم عصور التأريخ. ونذكر من بين الحرف الشهيرة ما كانوا يصنعونه من نبات البردي كالقوارب والحصر والسلال والحبال والنعال، وأهم من ذلك مادة الورق التي ذكرنا عنها شيئاً فيما سبق، ومن الصناعات المهمة أيضاً الغزل والنسج من الكتان والصوف، ولأهمية صناعة النسيج أرجعوا أصلها إلى إحدى الإلٰهات المسماة «تايت»، وعدّت صناعة الملابس من أعمال النساء بوجه عام، ولكننا نجد إلى جانب ذلك صور الرجال وهم على الأنوال يصنعون النسيج، ونذكر أيضاً دباغة الجلود، وقد جاءتنا نماذج من الجلود المدبوغة. واشتهرت النجارة في مصر كما تدلّ على ذلك قطع الأثاث النفيسة التي خلفها لنا المصريون القدماء في قبورهم كالعربات والكراسي والتوابيت، وكان الخشب الجيد مفقوداً في مصر، ولذلك عمدوا إلى جلب الخشب الجيد من خارج مصر ولا سيما من بلاد الشام. ومن الصناعات المهمة التي توفّرت موادها الخام في بلاد مصر صناعة الفخار الشهيرة، وإلى جانب أواني الفخار البسيطة اشتهر الفخارون بصناعة التزجيج أو ما يُعرف بالبورسلين المصري، وكذلك صناعة الزجاج. ولا يعلم متى نشأت صناعة الزجاج، ولكن الأواني الزجاجية الكاملة لم يبدأ إنتاجها بكثرة إلّا منذ عهد الأمبراطورية.

ولم تكن بلاد مصر غنية بالمعادن، فكانوا يبحثون عن المعادن ويستخرجونها من الأقطار القريبة من مصر، مثل النحاس من طور سيناء، ولصعوبة الحصول على مثل هذه البضائع بالتجارة الفردية فقد ظل التعدين طوال قرون كثيرة تحتكره الدولة، وقد سبق أن رأينا الحكومات كانت تُرسل البعوث الخاصة لسيناء وبلاد نوبية لاستخراج النحاس. ويبدو أن صنع البرونز نشأ منذ عهد المملكة الوسطى على الرغم من استعماله قليلاً في عهد المملكة القديمة، ولكنه لم يحل محل النحاس تماماً إلّا في عهد الأمبراطورية. كما أن استعمال الحديد لم يبدأ بكثرة إلّا منذ هذا العهد. وكان الحديد يُستورد بالدرجة الأولى من بلاد الحثيين. أما الذهب والفضة فقد استعملا منذ أقدم العهود، واشتهر الصاغة بصناعاتهم الدقيقة النفيسة كما تدلّ على ذلك الآثار القيّمة التي وجدت في القبور. وقد خلف لنا المصريون القدماء سجلّات عن مناجم الذهب وكيفية العمل بها، حيث كانوا يرسلون البعوث الخاصة لاستخراج الذهب في الساحل الشرقي من نوبية، وكذلك يقال عن مناجم الأحجار ومقالعها[1]. ومما يقال عن الصناعة في مصر بوجه عام إنها لتضاهي بل تفوق الصناعات الحديثة في بعض النواحي قبل اختراع الآلات البخارية والعصر الآلي. وكذلك يقال بالنسبة إلى الأعمال الهندسية كما تدلّ على ذلك مشاريع البناء الجسيمة ومشاريع الري الكبرى، فنذكر على سبيل المثال من بين ذلك أن الملك «سنوسرت» الثالث شيّد جداراً طوله 27 ميلاً لجمع مياه منخفض الفيوم في بحيرة موريس، وبذلك استطاع أن يخلص أراضي صالحة للزراعة مساحتها نحو (25000) فدان من المستنقعات كما أنه أنشأ خزاناً عظيماً للإرواء بهذه الواسطة[2]، كما شقت جداول كبرى بعضها يربط النيل بالبحر الأحمر، ويقال إنهم استعملوا للحفر الصناديق الخاصة للعمل في

---

(1) انظر «مصر في العصور القديمة» تأليف «أدولف أرمان ورانكة» وهو الذي اعتمدنا عليه هنا.
(2) نقلاً عن:

Will Durant, The Story of Civilization; (Diodorus, 1, 52).

الماء[1] وننوّه أيضاً ببناء السفن ولا سيما الكبيرة منها حيث بلغ حجم بعضها (50×100 قدماً).

إن الكثير من المواد التي استُعملت في الصناعات التي عددناها كانت تستورد بالتجارة الخارجية. وكان أهم جزء من التجارة الخارجية بالطرق البحرية بواسطة السفن، وهي التجارة التي يبدو أنها اختصّت بأهل الدلتا. وكان النيل طريقاً مهماً للمواصلات الداخلية. وجاءتنا أخبار لا بأس بها عن السفن وأنواعها[2] حيث كانوا يستعملون الكبيرة منها للإبحار بها إلى سواحل سوريا، وقد سبق أن ذكرنا أن مستعمرة تجارية مصرية قد تأسست في جبيل، حتى أنهم سموا السفينة البحرية باسم مشتق من جبيل هو «جبليا». واستخدموا الحمير للمواصلات البرية الداخلية، واستخدموا للمواصلات البرية القصيرة «المحفّات». والمحفّة عبارة عن مقعد خشبي فوقه مظلة ويحمله من قبضاته الطويلة ستة خدم أو أكثر على أكتافهم ومعهم رجال يحملون المراوح للترفيه عن الثري. واستخدمت العربات في عهد الأمبراطورية للسفر والحرب والصيد، وكذلك استعملت الخيل في هذا العهد. أما الجمل فلم يذكر أو يصوّر قبل العهد اليوناني في مصر، وقد ازدهرت التجارة الخارجية ودرت على مصر خيرات عميمة. وكان من أشهر صادراتها الحبوب والصناعات الثمينة المختلفة، أما الواردات فمن أهمها الزيتون وزيت الزيتون والنبيذ من اليونان والساحل الليبي، والفضة من آسيا الصغرى، والنحاس والقصدير من سيناء وقبرص وسوريا الشمالية والأرز من جبال لبنان، وحجر اللازورد من فارس والمر والبهار للتحنيط من جنوبي جزيرة العرب وبلاد «البنت»، والصومال. والجلود والماشية والعاج والأبنوس وريش النعام والقسي من السودان. كما وجدت جملة منتوجات من بلاد بابل والهند عن طرق القوافل التي كانت تخترق الصحراء من قرب السويس أو قرب موضع القنطرة الآن، كما سلكت

---

(1) مما يعرف بـ (Caisson) انظر : Will Durant, Op. Cit., 169.

(2) انظر المرجع المذكور في الهامش رقم (1) ص 180.

التجارة البحرية في البحر المتوسط إلى بلاد الشام واليونان والجزر الإيجية وفي البحر الأحمر وخليج فارس.

وكانت المعاملات التجارية تتم بالمقايضة بالدرجة الأولى، واستعمل المصريون الأوزان والموازين، كما أنهم استعملوا قطعاً من النحاس معينة الوزن للتبادل منها قطع تزن نحو (91) غراماً تسمى «دين» واستعملوا الذهب أيضاً واسطة للتعامل، ولكن العملة المسكوكة لم تكن معروفة في مصر إلا في القرن الرابع ق.م.، حيث أُدخلت من اليونان.

مراجع مختارة

بالإضافة إلى المراجع التي أثبتناها في الهوامش يجد القارىء في الثبت الآتي المراجع الأساسية عن تأريخ مصر ويجد فيها الإشارات إلى المراجع الأخرى عن حول البحوث الكثيرة المتنوعة.

عن جغرافية مصر وعصور ما قبل التأريخ بوجه عام:

1. Childe, **New Light on the Most Ancient East,** (1952).
2. ..., «Terminology in Egyptian Prehistory», in **Antiquity,** No. 103 (1952).
3. O. Eberhard in **Die Welt des Orient** (1952), 43, ff.
4. K. S. Sandford in AJSL, XLVIII (1932), ..., **Palaeolithic Man and the Nile Valley,** (1934).
5. S.S. Huzzayin, **The Place of Egypt in Prehistory** (1941).
6. Frankfort **The Birth of Civilization in the Ancient Near East** (1951).
7. Frankfort in AJSL, LVIII (1941), 329 ff.

حول تأريخ مصر والحضارة المصرية بوجه عام انظر أحدث المراجع:

8. J.A. Wilson, **The Burden of Egypt** (1951).
9. Frankfort, **Kingship and the Gods** (1951).
10. Breasted, **A History of Egypt** (1905, 1954).
11. Steindorff G Seele, **When Egypt Ruled the East** (1942).
12. **Cambridge Ancient History.**
13. Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts** (1950).
14. Frankfort, et la, **Intelectual Adventure of Ancient Man** (1946)- **Before Philosophy** (Pelican, 1951).
15. Breasted, **Dawn of Conscience** (1933).

16. **The Legacy of Egypt.**

17. Adolf Erman, **The Literature of Ancient Egyptianx** (Transl frome German, 1927).

18. **E. Meyre, Geschichte des Altertum** (1926).

19. Scharff G. Moortgat, **Egypten und Vorderasien.**

20. H.R. Hall, **The Ancient History of the Near East** (1936).

21. Will Durant, **The Story of Civilization** (1942).

22. I.E.S. Edwards, **The Pyramids of Egypt** (Pelican, 1947).

23. H. Frankfort, **Ancient Egyptian Religion** (1948).

24. W.S. Smith, **A History of Egyptian Sculpture and Painting in the Old Kingdom** (1946).

25. A.H. Gardiner, **Egyptian Grammar** (1927).

26. ..., **The Attitude of the Ancient Egyptians to Death and the Dead** (1935).

27. J.D.S. Pendlebury, **Tell el-Amarna** (1935).

28. A. Erman, **Die Religion der Aegypter** (1934).

29. Kurt Lange, **König Echnaton und die Amarna Zeit** (1951).

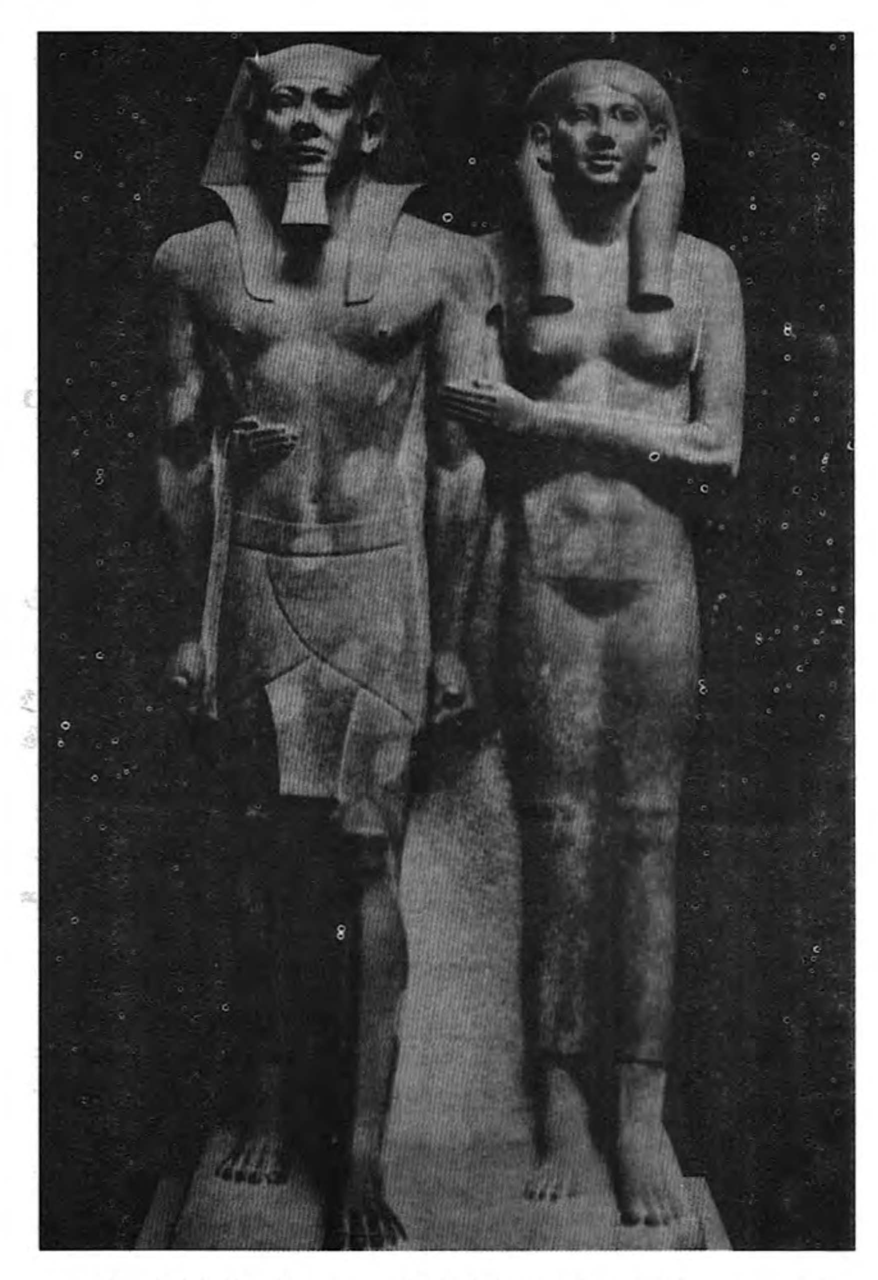
30. Knutdzon, **Die El-Amarna Tafeln.**

31. **A General Introductory Guide to the Egyptian Collections in British Museum** (1930).

32 ـ «مصر والحياة المصرية في العصور القديمة» تأليف أدولف أرمان وهرمان رانكة ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال.

33 ـ «مصر» تأليف دريوتون وترجمة عباس بيومي.

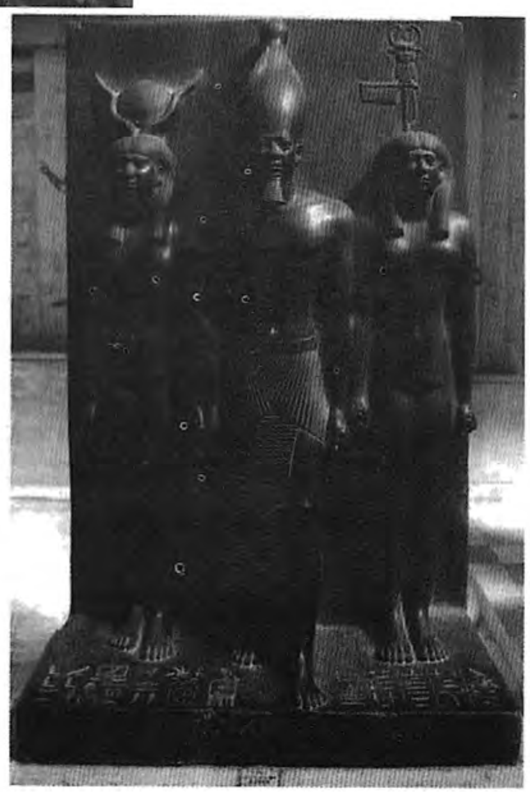
34 ـ «مصر القديمة» للدكتور سليم حسن، تسعة مجلدات (1940 ـ 1952).



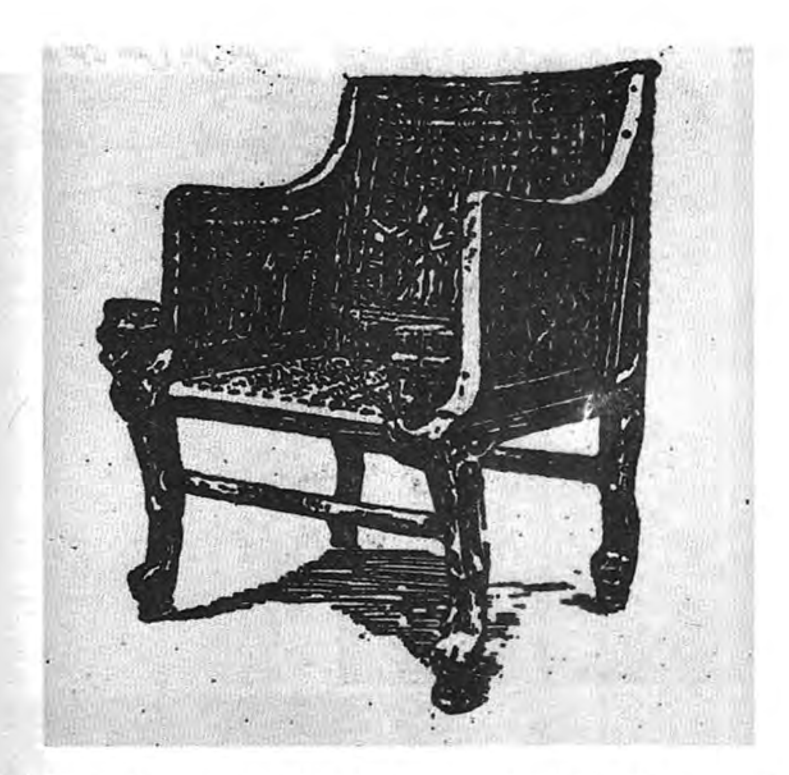
نحت يمثل لنا الملك «منكورع» والملكة «خاميرر نبتي» (من السلالة الرابعة).



رأس الفرعون خفرع باني ثاني الهرمين في الجيزة. وجد في معبد الوادي الخاص بهرمه. وقد نحت من حجر صلب (حجر الديوريت). ويمثل الصقر الإله هورس الذي يحمي الملك ويتجسّد فيه.



صفحة منحوتة تمثل الملك منكورع خليفة خفرع (السلالة الرابعة) مع الإلهة هاثور وإلهة أخرى خاصة بأحد الأقاليم.



كرسي من الخشب دقيق الصنع يعود إلى أحد النبلاء من عهد الأمبراطورية.



صورة تمثل لنا سفينة مصرية قديمة من عصر الأهرام.

القسم الثاني

تاريخ الجزيرة العربية
و
بلاد الشام

الفصل السادس والعشرون

جزيرة العرب
وشيء عن تأريخها القديم

سيتضح مما سنذكره عن علاقة الجزيرة بأقطار الشرق الأدنى بكونها مصدر الهجرات السامية ومما سنذكره عن تأريخ الأقوام المهمة التي استوطنت بلاد الشام منذ فجر التأريخ أهمية الجزيرة العربية في تأريخ الشرق الأدنى القديم، ولما كان ليس في الإمكان كتابة فصول مسهبة في تأريخ الجزيرة الماضي بالنظر لقلة المآثر ولأن ذلك خارج نطاق مدى بحثنا فإننا نكتفي بما سنورده من الملاحظات الموجزة لتكون تعريفاً بالموضوع لمن أراد التوسّع فيه في مظانه ونبدأ بذكر ملاحظات موجزة عن اسم العرب.

كلمة عرب:

تضاربت آراء المفسرين في الكلمة «عرب» وذكروا عنها آراء كثيرة لا يعدو الكثير منها أن يكون مجرد حدس بل وهم. فما هي المادة التي اشتقت منها الكلمة، وما هو أقدم ذكر لها؟ وهل سمى سكان الجزيرة أنفسهم عرباً ومتى كان ذلك؟

وعلى الرغم من أن علاقات مهمة قد نشأت بين سكان وادي الرافدين وبين أقسام مهمة من الجزيرة منذ أقدم الأزمان، فإن أقدم ذكر على ما نعلم حتى الآن لبعض القبائل العربية باسم العرب قد جاءنا من زمن الملك الآشوري «شيلمنصر» الثالث في أخبار حربه في بلاد الشام في موقعة «القرقار» (853 ق.م). وكثر ورود كلمة العرب في المصادر المسمارية منذ هذا التاريخ. ومما يقال عن العرب المذكورين بهذا الاسم في تلك المصادر أنهم

كانوا جلّهم أو كلهم من سكان بادية الشام أي بوادي جزيرة العرب الشمالية. وجاءت تلك الكلمة بصيغ وإن اختلفت إلا أنها تشير إلى اشتقاقها من مادة واحدة، نذكر أشهرها بالتعريب اللاتيني: (Arbi) و(Aribi) و(Arubu) و(Urbi)، والنسبة إليها (Arbaia) أو (Arbaya) بإضافة ياء النسبة الآشورية المماثلة إلى العربية[1]. وجاءت كلمة العرب في مواضع كثيرة من التوراة، وجاء ذكرها بصيغة (Arabaya) في نقوش دارا في حجر «بهستون». ومع غموض معنى الكلمة الواردة في جميع هذه المصادر إلا أنها تشير على الأغلب إلى البدو المتنقلين، أي سكان البوادي، مما يدلّ على أن الاسم صفة مشتقة من البادية والصحراء. والمرجّح كثيراً أن كلمة «عرب» مأخوذة من مادة «عرب» بمعنى «أمحل» أو «أجدب»، وهو فعل قليل الاستعمال في كثير من اللغات السامية. واستعملت صيغة (عرابة أو عربة) العبرانية اسماً للأرض القفراء التي يقع ضمنها البحر الميت وتمتد إلى النهاية الشمالية الشرقية من البحر الأحمر. ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أن المصريين القدماء لم يسموا بلاد العرب باسم خاص وإنما نعتوها في بعض كتاباتهم بـ «أرض الله» ووصفوها بنتاج أشجارها من البهار والتوابل.

أما ورود كلمة العرب في المآثر العربية فلا نستطيع أن نبّت بالزمن الذي سمى فيه العرب أنفسهم بهذه التسمية. والذي عليه كثير من الثقات هو أن بلاد العرب عُرفت منذ الجاهلية[2] باسم جزيرة العرب، وإن اسم العرب استُعمل في بلاد العرب نفسها قبل ظهور الإسلام كما يستبان من الأشعار الجاهلية، وكذلك استعمال الكلمة في القرآن الكريم. ومهما يكن من أمر فعندما أطلق العرب على بلادهم اسم «جزيرة العرب» لم يتمسكوا بالمعنى الاصطلاحي

---

(1) انظر حول النصوص الواردة فيها كلمة عرب في المرجع الآتي: **Reallexikon der Assyriologie , I** (Araber).

(2) الجاهلية اصطلاح غير متّفق على تحديد زمنه، ويضع بعض المؤرخين بداية العهد الجاهلي في 500 للميلاد ودام من 500 ـ 622 للميلاد.

التام لكلمة الجزيرة. وتسمية العرب لأشباه الجزر جزراً جزراً وردت كثيراً في كلامهم. وملخص القول إن كلمة عرب منذ ظهورها (وأقدم ما جاءنا عن ذلك من القرن التاسع ق.م) أخذ يطرد استعمالها ويتّسع بالتدريج فصار في النهاية علماً يطلق على سكان الجزيرة واتسع في الاستعمال بعد هجرة العرب الكبرى منذ الفتح الإسلامي فشمل معظم أقطار الشرق الأدنى وصار يجمل في مفهومه عدا الأوجه القومية والعنصرية الأوجه الثقافية والحضارية.

أحوال الجزيرة في الأزمان القديمة:

كانت أحوال الجزيرة في الدهور الماضية تختلف اختلافاً كلياً من حيث وفرة المياه والخصب عمّا هي عليه الآن. ولما كان لتلك الأحوال الماضية وتغيرها تأثير عظيم في العلاقات بين الجزيرة وبين الأقطار المجاورة من الشرق الأدنى، وكانت ذات صلة بنشوء الحضارات الأصلية في أنحاء الشرق الأدنى وبهجرات الأقوام كما مرّ بكم في تأريخ العراق، فيحسن بنا أن نذكر شيئاً موجزاً عمّا وجده البحث الحديث بالنسبة إلى أحوال الجزيرة الماضية وما طرأ على تلك الأحوال من تغييرات وتقلّبات أساسية. فقد أجمع الباحثون على أن الجزيرة كانت خصبة كثيرة المياه والأمطار في العهد الجيولوجي المسمى «البلايستوسين» وكانت كذلك حتى العصر الحجري المتأخر تقريباً. وإنها كانت تختلف عن حالها الآن بل كانت من أخصب بقاع الأرض وأغناها، وقد وجد الباحثون، ومن بينهم «فيلبي» محاراً من نوع المياه العذبة وأدوات من الصوان في جزء الربع الخالي الذي مرّ به. ويعتقد أن تاريخ هذه الآثار يرجع إلى الأزمان التي كانت فيها الجزيرة تتمتع بالخصب والمياه الدائمة في عصور ما قبل التاريخ البعيدة، في العصور الحجرية القديمة. وقد وجد فيلبي في الربع الخالي بقايا بحر واسع، هو السهل المنخفض المسمى الآن «أبو بحر». ويشبه بعضهم مناخ الجزيرة في الدهور الجيولوجية السابقة ولا سيما في دهر «البلايستوسين» بمناخ الهند الآن بالنسبة إلى كثرة المياه والرطوبة. وذكر السيّاح المحدثون جملة من قيعان الأنهار اليابسة في الجزء الجنوبي من

الجزيرة، وتدل بقايا الحيوانات التي وجدت هناك على أن أصلها أفريقي وتشير إلى مناخ رطب يشبه مناخ أفريقيا الحار في زمن قديم جداً. ويصادف هذا الزمن المشار إليه آخر عصر جليدي في أوروبا لعله قبل (20,000) سنة عندما كانت أوروبا وأمريكا الشمالية تغطيها الثلوج وغير مأهولة بالإنسان . فعند ذاك كانت الجزيرة تتمتع بالعصور الممطرة (Pluvial Periods) وتزدهر فيها الحياة.

ومن الأمارات القوية على خصب الجزيرة ووفرة المياه فيها في الأزمان الخوالي:

(1) الوديان الكثيرة المنتشرة.

(2) وجود قيعان بعض البحيرات والبحار المندرسة كالبحيرة اليابسة، قرب تيماء وبقايا البحر المسمى «أبو بحر» الذي وجده فيلبي في الربع الخالي.

(3) خرائب المدن الموجودة هنا وهناك في تيماء وغيرها.

(4) ثم إن الرمال الكثيرة وما فيها من ترسبات الأملاح والمياه الملحة الكثيرة كل ذلك يربط أراضي الجزيرة بأحوال بحرية.

(5) وإلى هذا كله فقد وجدت آثار العصور الحجرية في الجزيرة.

هجرات الأقوام من الجزيرة إلى بقاع الشرق الأدنى:

لا شك في أن يكون المفتاح في تاريخ العلاقات بين الجزيرة وبين بلدان الشرق الأدنى هو فيما ذكرناه سابقاً من الجفاف الذي حلّ في الجزيرة منذ نهاية آخر العصور الجليدية وما زال في الازدياد والتغيير الدوري منذ ذلك الحين. والواقع أن جميع المنطقة المحيطة بالجزيرة تقاسي الآن من قلّة المطر (ومن ذلك مصر والعراق وحتى إيران) بحيث تصير الحياة عسيرة خارج مناطق الأنهار والجداول أي مناطق الإرواء الصناعي. فإن الأعاصير الهابّة من الأطلسي التي تروي الآن شمالي أوروبا ووسطها لا تصل إلى منطقة البحر المتوسط إلّا في الشتاء، ولا تصل إلى كثير من المناطق الباقية مثل منطقة

الصحارى. ومع وصول شيء من الأعاصير الممطرة إلى العراق وإيران وحتى وادي نهر السند في الشتاء فإنها لا تصل إلّا وقد استنزف معظم مطرها بعد أن تمر بمرتفعات سوريا وفلسطين. وإلى ذلك التبدل الأساسي الذي حلّ في مناخ الجزيرة منذ نهاية العصور الجليدية، فإنها تعرّضت ولا تزال منذ ذلك الحين إلى أزمان دورية من الجدب والخصب القليل. ففي حالة الجدب تثور بلاد العرب كالبركان وتقذف بأمواج من القبائل الحربية السريعة إلى الأراضي التي تجاورها إلى الشمال الشرقي وإلى الشمال وإلى سوريا عبر الأردن وإلى أفريقيا، إذ مما لا شك فيه أن الساميين ساهموا كثيراً في تكوين سكان وادي النيل. والواقع أن الساميين يشبهون الحاميين من ناحية الأوصاف الجسدية وكذلك من الناحية اللغوية، ويرى الباحثون في أصول أقوام الشرق الأدنى أن هجرات مهمة من الساميين ذهبت إلى مصر (في حدود الألف الرابع ق.م) فنتج منها ومن السكان الأصليين الحامين المصريون كما نعرفهم في التاريخ.

فتكون أقدم علاقات بين الجزيرة وبين أنحاء الشرق الأدنى ومن بين ذلك بلاد الرافدين هي الهجرات المستمرة التي تنزح من جزيرة العرب وتستوطن بقاع الشرق الأدنى، مدفوعة على الأغلب بدوافع الجدب والجفاف على ما بيّنا من قبل. وقد بدأت هذه الهجرات في أزمان موغلة في القدم، أي منذ نهاية العصور الجليدية ونهاية العصور الحجرية القديمة. ومما لا شك فيه كان مصدر جزء كبير من المستوطنين الأوائل الذين حلّوا في وادي الرافدين الأسفل من جزيرة العرب، وقد ساهم هؤلاء مع الأقوام الآتية من الشرق والشمال في إنشاء أولى الحضارات البشرية وهي الحضارة السومرية كما مرّ بنا من قبل. وعلى ذلك فيمتد تاريخ الهجرات البشرية إلى عصور ما قبل التاريخ. فإذا قلنا مثلاً إن أقدم هجرة تاريخية من الألف الرابع أو الثالث ق.م. فلا يعني أن تكون أولى الهجرات بل يعني ذلك الهجرات التي نعرف أخبارها من مآثر وادي الرافدين المدوّنة. ولا تزال النظرية القائلة بأن جزيرة العرب مهد الساميين تحتفظ بقوّتها وأرجحيتها كما ذكرنا من قبل. وبدأت هجرات الساميين المعروفة تاريخياً تطغى على الشرق الأدنى منذ منتصف الألف الرابع

أو الثالث ق.م. فأثرت في الشرق وطبعته بطابعها حتى الآن. وكانت أولى الدول المعظمة التي أنشأها الساميون في وادي الرافدين هي الدولة الآكدية التي أسسها سرجون الآكدي في حدود 2400 ق.م. وتفرد الساميون بالزعامة السياسية على الشرق الأدنى منذ بداية الألف الثاني ق.م. أي بعد زوال سلالة أور الثالثة التي كانت آخر دولة للسومريين، على ما بيّنا في تأريخ العراق القديم. ونزحت من الجزيرة هجرات مهمة إلى بلاد الشام وكوّنت ثقافات ودولاً خطيرة الشأن على ما سنرى في تأريخ بلاد الشام كالأموريين والكنعانيين والآراميين والعبرانيين وغيرهم.

وإلى هذه العلاقات المستمرة الناشئة من هجرات الأقوام من الجزيرة التي بدأت منذ أبعد عصور التأريخ، فإننا نعرف اتصالات الجزيرة بأجزاء الشرق الأدنى ولا سيما وادي الرافدين قبل أن تبدأ الأخبار المدوّنة، فتنشأ العلاقات المدوّنة، فقد جلب سكان وادي الرافدين من بعض أجزاء الجزيرة بعض الأحجار والمعادن منذ عصور ما قبل التأريخ، فمن ذلك النحاس الخام من الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة في عمان (مجان في المصادر المسمارية)، وكان هذه الجزء مصدراً للنحاس في العصور التأريخية التي دوّنت أخبارها واستعمل العراقيون الأقدمون الحجر البركاني المعروف بالحجر الأوبزيدي، ومصادر هذا الحجر في الشرق من جزيرة العرب ومن أرمينيا ومن «ميلوس» إحدى جزر «إيجة». فتكون الجزيرة العربية على قدر عظيم من الأهمية باعتبارها مهد الساميين، ومصدر الهجرات السامية إلى الشرق الأدنى، مما كان له أثر بالغ في تأريخ أقطار الشرق الأدنى القديم والحديث، كما كانت الجزيرة مركز ثالث ديانة سامية عظمى في تاريخ الأديان، وانبثقت منها أعظم أمبراطورية من بعد تمكّن هذه الديانة كما أنها كانت مهد الثقافة العربية الإسلامية. وكان لمصر القديمة اتصالات مهمة بالجزيرة ولا سيما جنوبيها لجلب التوابل والبهار واللبان وما إلى ذلك من المواد العطرية والصمغية التي استعملوها في معابدهم وفي التحنيط. ومن الممكن تشبيه شبه الجزيرة بوتد كبير يقع بين أقدم موطنين حضاريين وهما وادي النيل ووادي الرافدين ومما لا

شك فيه أن تكون الجزيرة العربية قد تأثرت بهذين المركزين الحضاريين، كما اتصلت الجزيرة بالهند وبحضارة وادي السند.

موجز تاريخ الجزيرة القديم:

على الرغم من قلة المآخذ والمصادر بالنسبة إلى تأريخ الجزيرة التي تكاد تكون أرضاً بكراً من ناحية التحريات والبحوث الآثارية فإننا سنحاول أن نوجز بعض أخبارها الماضية معتمدين بالدرجة الأولى على أخبار العلاقات التي نشأت بين الجزيرة وبين دول العراق القديمة، وكذلك الأخبار اليونانية والرومانية، وعلى الوثائق الأصلية التي وجدت في بعض جهات الجزيرة نفسها وعلى نتائج التحريات الآثارية الحديثة[1] ونبدأ من ذلك بالجزء الجنوبي الغربي، في بلاد معين وسبأ أي اليمن تقريباً.

الجزء الجنوبي ـ معين وسبأ:

يختلف هذا الجزء من بلاد العرب عن غيره من الأجزاء من حيث كثرة المصادر والوثائق التأريخية التي جاءتنا منه بخلاف الأجزاء الأخرى التي يكون تاريخها مستقى بالدرجة الأولى من أخبار الأمم الأخرى ومن بينها الإشارات الواردة في مآثر الحضارات التي قامت في بلاد ما بين النهرين. ولكن مع كثرة النقوش الكتابية التي وجدت في بلاد العرب السعيدة (بلاد اليمن) من مآثر الدول التي قامت هناك، كدولة معين وسبأ فإن هذا الجزء من بلاد العرب لا يزال بحاجة إلى بحث الباحثين ولا سيما المنقبين ولا تقتصر أهمية ذلك على تاريخ الجزيرة وحضارتها الغابرة بل تاريخ الشرق الأدنى بأجمعه، فقد اتصلت الدول التي قامت في اليمن في بلاد سومر وبابل وآشور كما اتصلت بمصر والشام والحبشة وعيلام منذ أقدم الأزمان.

وعلى الرغم من رجوع تاريخ النقوش المعينية وغيرها إلى بداية الألف

---

(1) انظر المراجع الخاصة بهذا الفصل.

الأول ق.م.، ولكن مما لا شك فيه أن حضارة قديمة عربية نشأت في اليمن ترتقي إلى أبعد من هذا التأريخ، فتحتوي تلك النقوش على إشارات مهمة إلى اتصالات مع البابليين ومع الكنعانيين والأموريين يرجع تاريخها إلى الألف الثاني ق.م. وقد ذهب بعض الباحثين إلى احتمال قيام مملكة عربية مهمة في بلاد معين امتدت إلى الحجاز. ولعلها كانت في ازدهار في زمن الآكديين في العراق وإن «نرام ـ سين» الفاتح الآكدي المشهور قد كانت له علاقات مع هذه المملكة. ولعل أهم طريق للاتصال هو الطريق الذي يقطع بلاد العرب عن طريق مكة وجبل شمر حتى يصل إلى بلاد بابل قرب بابل، وكان هذا هو طريق الحج للمسلمين الشرقيين. وهناك شعبة لهذا الطريق شمالية من ينبع والمدينة ويتّصل بالطريق الرئيسي في جبل شمر ويحتمل أن الاتصال بين بلاد ما بين النهرين وبين بلاد اليمن كان يجري عن طريق بحري أطول مسافة يأتي من «دلمون» (البحرين) في الخليج العربي إلى البحر العربي. ونحن نعرف أن طرق القوافل التجارية كانت تبدأ من «مريابة» (مأرب عاصمة سبأ) وتستمر شمالاً بموازاة البحر الأحمر تقريباً إلى تيماء. وكانت تيماء من المراكز التجارية المهمة في جزيرة العرب، وملتقى طرق تجارية مهمة فمنها تسير قوافل جديدة تسير في عدة طرق منها ما يتجّه شمالاً إلى البتراء ودمشق وتدمر وآخر يسير إلى سيناء فمصر، ويتجه طريق ثالث إلى العراق.

وإذا لم يكن بوسعنا أن نفصل الكلام عن الحضارة التي قامت في اليمن فإننا نذكر هنا بعض الأمور البارزة فمن ذلك رأي يخصّ علاقات الجزيرة بسائر بلدان الشرق الأدنى بوجه عام وبلاد الرافدين بوجه خاص، وهي هجرة الساميين من جزيرة العرب التي يرجّح بعض الباحثين أن مصدرها من الجزء الجنوبي من بلاد العرب، والواقع أن الحقائق التأريخية تشير إلى أن الدول التي قامت في اليمن، ولا سيما المعينيين والسبئيين قد أقاموا لهم مناطق تجارية ومقار مهمة امتدّت إلى شمالي الجزيرة، وشملت الحجاز وكان من أشهر ذلك تيماء والعلا وغيرها. ويرجّح أن أكثر السبئيين الذين ورد ذكرهم في المصادر المسمارية، هم السبئيون المنتشرون في هذه الجهات. ومما تجدر

الإشارة إليه أننا نجد صدى هذا الانتشار والتوسع في المآثر العربية حيث تعدد قبائل كثيرة خرجت من اليمن إلى بقاع الشرق الأدنى ولكنها تربط السبب في ذلك بحادثة سيل العرم المأثور.

ومن الأمور المهمة التي تخصّ الحضارات في هذا الجزء من بلاد العرب إن أغلب الباحثين يعتقدون أن العوامل التي سببت نشوء الحضارة في اليمن هي بالدرجة الأولى التجارة ولا سيما تجارة البهار واللبان وغيرها من التوابل. والواقع أن التجارة المذكورة التي اشتهرت بها بلاد اليمن والتي انحصرت أهميتها في الأزمان المتأخرة (ولا سيما منذ عهد السبئيين) لم تكن الكل في الكل في حضارات معين وسبأ وغيرها. بل إن العوامل الأصلية في نشوء تلك الحضارات كانت أساليب الري والسدود والسيطرة عليها واتساع الزراعة مما جعل مساحات كبيرة قابلة لسكنى البشر بمستوى عال من العيش. وبذلك تشبه الحضارة التي قامت في بلاد اليمن الحضارات الأولى الأصلية التي نشأت في وادي الرافدين وفي وادي النيل. هذا وقصة سد مأرب وما اشتهر به أهل اليمن ولا يزالون إلى درجة ما من اعتنائهم بتصريف المياه وخزنها واستغلال الأرض يؤيد هذا الرأي، ونجد صدى ذلك في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[1].

إن النقوش الكتابية التي بدأت بالظهور في جنوبي الجزيرة منذ القرن التاسع عشر للميلاد على قدر عظيم من الأهمية التاريخية واللغوية. وهي تلقي ضوءاً كاشفاً على ديانة العرب في الألف الأول ق.م. وأقدمها النقوش المعينية التي تؤرخ عادة بالألف الأول ق.م. ولكن فيها إشارات مهمة إلى أدوار أقدم، ولا سيما الإشارات التي قلنا إنها تثبت وجود الاتصال مع بلاد بابل، ومع الأموريين والكنعانيين في الألف الثاني ق.م. والنقوش السبئية تلي المعينية في

---

(1) سورة سبأ، الآيتان: 15 ـ 16.

الزمن كما يرى أكثر الباحثين، وكلا النوعين من النقوش يدلان على قيام أربع ممالك متحضرة في الجنوب أقدمها معين ثم سبأ وحضرموت ومملكة «قتبان»[1]، ومعرفتنا بالمملكتين الأخريين أقل منها بالنسبة إلى معين وسبأ.

ومع اختلاف الآراء في تاريخ النقوش الجنوبية وتاريخ الدول التي قامت في الجنوب بعضها بالنسبة إلى بعض فالشائع عند الأكثرية أن دولة معين كانت أول مملكة ازدهرت في الجنوب لعله في حدود (1200 أو 1300 ـ 650 أو 700 ق.م)، ولكن الباحثين القدماء يضعون بداية المملكة المعينية في الألف الثاني وحتى في الألف الثالث ق.م. ـ غير أن الباحثين الآخرين يرون أن هذا التأريخ مبالغ فيه ويضعون لبداية الدولة المعينية التاريخ الذي أثبتناه. وقد ازدهرت دولة معين في جوف اليمن بين نجران وحضرموت، وشملت في عهد ازدهارها جميع جنوبي الجزيرة تقريباً، وامتد نفوذها إلى أجزاء الجزيرة الأخرى ولا سيما في الشمال والشمالي الغربي، وقد أثر المعينيون في هذا القسم كما تثبت ذلك النقوش الكتابية الثمودية التي ترد فيها أسماء الآلهة المعينية المهمة، وكما تشير إلى ذلك النقوش المعينية التي وجدت مع نقوش لحيانية في منطقة العلا الآن (وهي ديدان الواردة في التوراة). وقد وجد الباحثون في النقوش المعينية أسماء (26) ملكاً من ملوك معين. وكانت عاصمة الدولة المعينية «قرناو»، وهي الآن في الموضع الذي يسمى «معين» في الجزء الجنوبي من الجوف إلى الشمال الشرقي من صنعاء، وكان للمعينيين مدينة دينية مقدسة ورد اسمها في نقوشهم بهيئة «يثيل» وتمثلها الآن «براقش» إلى الشمال الغربي من مأرب.

وهناك قضايا مهمة في تاريخ معين ولا سيما ما يخص تأريخها بالنسبة

---

(1) لقد أجرت بعثة أمريكية أثرية بعض التنقيبات المهمة في وادي بيجان منذ 1949، وقد أظهرت نتائج التنقيبات أن نهاية دولة قتبان كانت في القرن الأول ق.م. وأن عاصمتها «تمنع» قد خربت بحريق هائل في حدود 50 ق.م. فأدمجت هذه المملكة بعدئذ في مملكة حضرموت. انظر حول ذلك:

W.F. Albright, **«The Chronology of Ancient South Arabia»** in BASOR No. 119 (1950).

إلى سبأ فمن الباحثين من يرى أنه لا يوجد في النقوش المعينية ما يسبق 800 ق.م. وأن مملكة معين كانت تُعاصر مملكة سبأ، ومن الأمور الغريبة أنه لم يأت أي ذكر للمعينيين في النقوش السبئية. وكذلك لم ترد عنهم إشارة في المصادر المسمارية، وقد ذهب البعض إلى أن المعينيين ظلوا إلى زمن الحميريين، وكان آخر ذكر لهم في 24 ق.م. ولكن البعض الآخر يرى أن الأوائل من الملوك السبئيين كانوا يعاصرون أواخر ملوك معين وأن السبئيين ورثوا مملكة معين وسلطانها.

وجاء في الكتابات المعينية عدد من الآلهة التي عبدها المعينيون وأشهر هذه الآلهة مجموعة من ثلاثة آلهة وهي: «أثتار» و«ود» و«نكرخ» وهذه أقدم آلهة عند المعينيين. وقد عيَّن بعض الباحثين الإِلٰه «ود» بالإِلٰه (القمر) (سين) أو (شهر) كما يسمى عند عرب الجنوب أحياناً، أما أثتار فهي شكل من أشكال الإِلهة الشهيرة (عشتار) العراقية التي شاعت عبادتها في جنوبي الجزيرة وصارت هنا إلهاً مذكراً في أغلب الأحايين. أما الإِلٰه الثالث فلا نعلم حقيقته ولا معناه وحتى ضبط اسمه ويرجّح بعضهم أنه الإِلٰه الشمس أو إِلٰه من آلهة الحرب. ومن المهم ذكره بهذا الصدد أن معبداً للإِلٰه القمر قد وجد حديثاً في موضع في حضرموت يدعى حريضة، وقد نقب فيه المنقبون ووجدوا بعض النقوش الحضرموتية التي تشير إلى أنه معبد الإِلٰه (سين) ويرجّح أن تاريخه يرجع إلى ما بعد القرن السادس ق.م. ومن الأمور المهمة التي لاحظها المنقبّون في المعبد أنه يشبه المعابد البابلية ولا سيما في اتجاه زواياه إلى الجهات الأربع وفي طراز مناضد الذبائح والقرابين، ووجد أن الخواتم التي عثر عليها في هذا الموضع ذات علاقة أساسية بخواتم بلاد ما بين النهرين.

وإذا ما أتينا إلى سبأ فنجد الحال يختلف فيها عن معين، إذ إن اسم سبأ وشيئاً عن أخبارها قد جاءتنا في آثار الحضارات الأخرى، ومن بين ذلك المصادر المسمارية والمآثر العبرية والعربية والإغريقية. وكان موطن السبئيين في جنوبي الجزيرة في الزاوية الجنوبية الغربية منها، وكانوا كالفينيقيين، بل هم

على حدّ تعبير بعض المؤرخين (فينيقيو البحر الجنوبي) فكانوا على معرفة تامة بطرق البحر العربي ومسالكه وموانئه ورياحه وتقلّباته، وقد طافوا سواحل الجزيرة. وكان الطريق البحري الرئيسي في البحر الأحمر يمر من باب المندب إلى وادي الحمامات في الساحل المقابل لمصر. ولكن لصعوبة الإبحار في البحر الأحمر التجأ السبئيون إلى سلوك طريق بري بين اليمن وسوريا يسير على طوال الساحل الغربي من الجزيرة فيصل عن طريق مكة إلى البتراء، ويتشعب في الشمال إلى مصر وسوريا والعراق. ويصل الفرع الذاهب إلى بلاد الشام إلى البحر المتوسط في غزة. ويخرج من حضرموت طريق إلى مأرب، عاصمة سبأ، حيث يتّصل بالطريق الرئيسي الذي ذكرناه وقد نشأ على طوال هذا الطريق جملة مستعمرات ومقار سبئية، يرجّح كثيراً أنها هي المشار إليها في المصادر المسمارية.

وكنا قد ذكرنا أمر اختلاف الباحثين في تاريخ معين بالنسبة إلى سبأ ولكن الشائع، كما ذكرنا، أن الملوك السبئيين الأوائل يعاصرون المتأخرين من ملوك معين، وأن السبئيين ورثوا عن المعينيين مملكتهم وسلطانهم، والذي عليه الآراء المعتدلة أن دولة سبأ تبدأ من 950 ـ 115 ق.م. وجرت العادة أن يقسم هذا التأريخ إلى دورين ينتهي الدور الأول منهما في 650 ق.م. وهو الدور الذي اشتهر بالملوك الملقبين بالمكربيين، وهو لقب له معنى ديني. ولكن الظاهر أن ملوك سبأ فقدوا صفتهم الدينية في الدور الثاني المحدد بـ 650 ـ 115 ق.م. واقتصروا في ألقابهم على (ملك سبأ) وصارت عاصمتهم في هذا الدور مأرب (مريابة)، إلى الشرق من صنعاء بحوالي 60 ميلاً، أما في الدور الأول فقد أقام ملوك سبأ حصناً منيعاً ورد ذكره بصيغة (صرواح) أو (صروح) وكان هذا على ما يرجّح عاصمته الأولى وموضعه الآن يسمى (خربة) على مسيرة يوم واحد إلى الغرب من مأرب. ومما يقال بصدد الدور الثاني من تاريخ سبأ أنه كانت تعاصر مملكة سبأ فيه مملكتان أخريان في الجنوب هما مملكة (قتبان) وحضرموت. وجاء اسم عاصمة المملكة الأولى بهيئة (تمنع) وعاصمة حضرموت (شبوه) وقد سبق أن ذكرنا ما اكتشفه المنقبون

حديثاً في حضرموت وهو معبد الإله القمر وعلاقة الآثار التي كشف عنها بحضارة وادي الرافدين. ومن الجدير ذكره عن مملكة (قتبان) أن أهم إله عبدوه هو الإله (عم) (من العم الذي يعني عمّاً أو قوماً)، و(عم) هذا من الآلهة السامية الغربية، ونجده يدخل في أسماء ملوك من السلالة الأمورية وهي سلالة بابل الأولى (التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي) مثل (عمي - صادوقا) و(عمي ديتانا) وحتى اسم حمورابي يدخل فيه اسم هذا الإله. وقد انتهى أمر دولة سبأ بقيام الدولة الحميرية (115 ق.م. ـ 300 للميلاد).

إن أقدم ذكر للسبئيين في المصادر المسمارية، على ما نعلم حتى الآن، هو ما ورد في أخبار الملك الآشوري (تجلاثبليزر الثالث) (745 ـ 727 ق.م) حيث يخبرنا أنه في السنة 732 ق.م. أخذ جزية من الملكة سمسي (ملكة العرب) التي حنثت بيمين طاعتها، ولكن رجع قومها السبئيون إلى الطاعة، وتشير أخبار هذا الملك إلى أنه مكن سلطانه على جزء من بلاد العرب، فقد ذكر لنا بعض القبائل والأقوام العربية ممّن دفع له الجزية. ومما يشير إلى نفوذ السبئيين في القسم الشمالي من الجزيرة أن اسم مكة مشتق من صيغة سبئية تعني (المزار) أو المعبد، وهي (مكورابا أو مكرابة) وأن هذه الصيغة السبئية لها علاقة باسم ملوك السبئيين (مكرب) وقد جاء ذكر مكة بهذه الهيئة في بطليموس (في جغرافيته).

إقليم ـ مجان (عمان):

لقد سبق أن ذكرنا اتصال بلاد ما بين النهرين مع الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة منذ أقدم العهود، وأن هذا الجزء كان مصدراً مهماً للنحاس منذ عصور ما قبل التأريخ واستمر كذلك في العهد السومري والعهود التي أعقبته. وكان أشهر مصدر للنحاس عند سكان العراق الأقدمين منطقة عمان التي ورد اسمها في المصادر السومرية بصيغة «مجان» (بالجيم الفارسية). وبوسعنا أن نعد الجزء الجنوبي الشرقي مركزاً خاصاً لحضارة عربية قامت هناك، ألصق ميزاتها أنها حضارة بحرية، كانت واسطة الاتصال بين مصر ووادي الرافدين

ووادي نهر السند، والواقع أن جزيرة العرب تبدو وكأنها وتد داخل بين المركزين الحضاريين في وادي النيل ووادي الرافدين، ومع أن جزيرة العرب لم تدخل ضمن النطاق الحضاري لكل من هذين الحضارتين إلا أنها تأثرت بكلتا الحضارتين، واتصلت بلاد العرب الجنوبية بمصر منذ أزمان قديمة، ولا سيما منذ عصر الأهرام، وكانت أشهر طريق برية تربطها بمصر هي الطريق الآتية من الجنوب من باب المندب.

وجاء ذكر مجان في المصادر المسمارية في أخبار الملوك الآكديين وبعض ملوك السلالات السومرية التي أعقبت العهد الآكدي. والذي عليه معظم الثقات من الباحثين أن (مجان) هي منطقة عمان اليوم، أي المنتهى الجنوبي الشرقي لجزيرة العرب، ويجب أن لا يخلط اسم مجان مع معان، إحدى الواحات في شمالي الحجاز، التي هي الآن في شرق الأردن.

وكثيراً ما يرد اسم «مجان» في المصادر المسمارية مع موضع آخر هو «ملوخا». والذي يظهر من المصادر المسمارية أن سكان الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة كانت لهم علاقة وصلة بالسومريين، عدا الصلات التجارية، ويصدق ذلك أيضاً على المنطقة التي سماها السومريون «دلمون» وهي التي سبق تعيينها بمنطقة البحرين الآن.

ولعل أقدم إشارة وردت بخصوص «مجان» و«دلمون» من زمن مؤسس السلالة الآكدية «سرجون» الشهير. فقد ذكر لنا هذا الملك أنه جلب سفناً من ملوخا وسفناً من «مجان» و«دلمون» إلى ميناء عاصمته آكد. وهذا يشير إلى اشتهار «مجان» بصناعة السفن والملاحة، حتى يرجّح أن اسم الموضع كلمة سومرية مشتقة من السفينة (إما أن تعني أرض السفن أو ميناء السفن) لأن أهلها اشتهروا بالملاحة وصناعة السفن، وورد في أخبار الملك الآكدي «نرام - سين» حفيد سرجون، أنه غزا مجان وأخضع ملكها «مانيؤم».

ويحتمل كثيراً من أخبار الدولة الآكدية، أنه كان في «مجان» مملكة يبدو على حكّامها أنهم من العرب الساميين، كما يشير اسم الملك الذي ورد ذكره

في أخبار «نرام ـ سين» وكان غزو هذه المملكة إما براً بطريق قديم من بلاد بابل عن طريق جبل «شمر»، ويصل هذا الطريق إلى مكة وجدة، وكان لهذا الطريق شعبة شمالية من ينبع والمدينة ويتّصل بالطريق الأصلي في جبل شمر، أو بطريق البحر من فم الفرات إلى الخليج العربي إلى «دلمون» (البحرين) ثم مجان. وتصف الكتابات المسمارية «مجان» بأنها جبل النحاس، وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذه المنطقة كانت من أهم المصادر للنحاس لسكان وادي الرافدين القدماء. هذا ولا يزال النحاس موجوداً الآن في الجبل الأخضر الذي ينبغي أن يكون ضمن مجان. ومن الأمور المهمة بصدد النحاس المجلوب من «مجان» أنه نوع من النحاس الخام فيه كمية من القصدير (والقصدير من الأجزاء المألوفة في تركيب النحاس الذي استعمله السومريون)، وقد حلّل بعضهم النحاس الموجود في الأناضول وفارس وقبرص وطور سيناء فوجده لا يحتوي على القصدير، وهذا مما يؤيد تعيين «مجان» بعمان، لأنه لا يزال يشاهد في جبل «المعدن» في عمان الآن آثار الحفائر القديمة لاستخراج النحاس. وقد وجد أن المعدن الموجود في هذه المناجم مخلوط بمعادن أخرى ويحتوي في الواقع 0,19% من القصدير. واشتهرت «مجان» كذلك بحجر الديوريت الأسود المشهور. ويرجّح كثيراً أن الديوريت الذي صنع منه ملوك العراق القديم التماثيل والأنصاب كان يجلب بالدرجة الأولى من «مجان».

وقبل أن نترك الكلام على «مجان» نذكر نقطة على غاية من الأهمية بصدد الأدلة على تعيين «مجان» السومرية بمنطقة «عمان» الحالية، وهو وجود موضع الآن في إقليم عمان، بين عمان والبحرين يسمى «ميجان» أو «مجان» (بالجيم الفارسية أي بنفس الصيغة السومرية). وقد ذكره السياح الأوروبيون، وتقع هذه المنطقة قرب الساحل (ساحل الخليج) في فم واد طويل يسمى وادي «شهبة». وهذا قاع نهر مندرس عظيم طوله زهاء (500) ميل يأتي من وسط نجد (خط الطول 44 شرقاً والعرض 25 شمالاً) ويصب في خليج فارس. ويمكن تحديد موضع «ميجان» بخط الطول 55 شرقاً وخط العرض 24

شمالاً، بنحو 450 ميلاً إلى الشمال الغربي من مسقط، وإلى الشرق من واحة «يبرين» الشهيرة بنحو 400 ميل. أما موضع (ملوخا) الذي سبق أن ورد ذكره مع «مجان» في المصادر المسمارية فلم يعين بعد بوجه التأكيد. ولعله قريب من مجان أو أنه بلاد الحبشة.

دلمون أو تلمون «البحرين»:

يطلق اسم البحرين عادة على جزيرة أو جملة جزر في الخليج العربي منها الآن جزيرة (أوال) وما يتبعها من الجزر. وقد أثبتت البحوث الحديثة على أن منطقة البحرين وجزءاً من الإحساء كانت تؤلف قطراً واحداً جاء في المصادر المسمارية باسم (دلمون) (أو (تلمون). وقد قامت في هذا الإقليم مملكة قديمة تكوّنت لها مع السومريين والبابليين والآشوريين علاقات متنوّعة منذ أقدم الأزمان، وقد جاءتنا أخبارها منذ منتصف الألف الثالث ق.م. واستمرّت إلى نحو 500 ق.م. وسيتضح من عرض موجز هذه الأخبار من المصادر المسمارية أن أمر تعيين دلمون أو تلمون بالبحرين يكاد يكون من الحقائق التأريخية المحققة. ومن الممكن تصنيف هذه الأخبار إلى صنفين، يشمل الصنف الأول منها المصادر التأريخية والتجارية كالعقود والصكوك والنصوص الفلكية، ويشمل الصنف الثاني الإشارات المهمة الواردة في الآداب السومرية، ولا سيما القصص والأساطير الدينية. ويتّضح من الصنف الأول من أخبارنا أن دلمون موضع جغرافي معين، ويظهر في الثاني أرضاً أسطورية غريبة عجيبة، بيد أن الصنف الأول هو الذي نستدل منه على تعيين (دلمون) بمنطقة البحرين. ولعلّ أقوى دلالة على هذا التعيين ما جاء في أخبار سرجون الآشوري (722 ـ 705 ق.م) حيث يذكر لنا هذا الملك أن ملك دلمون يعيش في وسط البحر الذي تشرق منه الشمس. وتذكر كتابة من زمن الملك الآشوري آشور بانيبال على أن دلمون وسط البحر الأسفل. وعبارة وسط البحر في كلا الخبرين تشير إلى الجزيرة وهو التعبير المألوف عن الجزيرة عند الآشوريين كما أن (البحر الذي تشرق منه الشمس) (البحر الأسفل) هو

التعبير المألوف عن الخليج العربي. وذكر لنا سرجون الآشوري أن المسافة إلى بلاد دلمون 30 (بيرو) و(البيرو هي الساعة البابلية وتعادل ساعتين من ساعاتنا)، وهي تعني عدد الساعات المقتضية للوصول إلى دلمون بطريق البحر من نقطة الشروع التي كانت بلا شك فم الفرات. فإذا قدرنا (5) أميال لما يقطعه القارب في الساعة، فتكون المسافة التي تقطع في (بيرو) بابلية زهاء (10) أميال، وتكون المسافة الـ (30 بيرو) المذكورة نحو (300) ميل، وهي بوجه التقريب بعد جزر البحرين عن أسفل الفرات. ومن الأمور المهمة في قضية تعيين البحرين بدلمون أن كتابة مسمارية وجدت في البحرين في عام 1879، ونصها: (قصر رموم عبد (الإله) (انزاك) رئيس قبيلة أجاروم). ويرجع زمن هذه الكتابة إلى العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق.م.، ولا سيما من نصفه الثاني)، أما الإله (انزاك) المذكور في هذه الكتابة فهو اسم الإله البابلي (نبو) حيث عبد وعرف بهذا الاسم في (دلمون). وإن ذكر الإله الخاص بدلمون في الكتابة المسمارية التي وجدت في دلمون ذو خطورة خاصة بتعيين البحرين بدلمون الواردة في المصادر المسمارية أما القبيلة الوارد اسمها بصيغة أجاروم فهو اسم قبيلة عربية قديمة، ويرجّح كثيراً أن هذا الاسم استمر في الاستعمال وصار (هجر) وهو اسم الإحساء في العصور الوسطى. وتوجد الآن قبيلة تعرف ببني هجر ديارها في شقة الأرض قبال البحرين.

لقد اشتهر تمر (دلمون) عند العراقيين الأقدمين وكثيراً ما ورد ذكره مع التمر الخاص بقطرين آخرين وهما (مجان) و(ملوخا). وجاء ذكر تمر دلمون في كثير من المصادر المسمارية منذ أقدم الأزمان في عصر فجر السلالات (الألف الثالث ق.م) ولعل مصدر تمر البحرين الذي اشتهر عند العراقيين من الواحات الواقعة في الجزيرة فيما يعرف الآن بالقطيف والهفوف. وكذلك اشتهرت الإحساء بالتمور الجيدة. ويذهب بعض الباحثين إلى أن أصل النخيل من جزيرة العرب.

ويرجّح كثيراً أن الساحل الشرقي من الجزيرة كان ضمن مملكة (دلمون)

كما تشير إلى ذلك كتابات سرجون الآشوري، وقد جاء في بعضها أنه (أخضع إلى سلطانه بيت ياكين في ساحل البحر المرّ إلى تخوم دلمون) ويعتقد كثير من الباحثين أن إقليم (بيت ـ ياكين) كان يمتد إلى جزيرة العرب. ولعله كان يشمل الكويت الآن أو جزءاً منه. وبإمكاننا أن نسمي الأقوام الذين عاشوا في البحرين والإحساء بالدلمونيين نسبة إلى (دلمون)، وقد نشأت منهم مملكة ازدهرت في الألف الثاني قبل الميلاد وكانت على اتصالات تجارية مستمرة مع السومريين والبابليين والآشوريين.

هذا ولا يبعد كثيراً احتمال أن منطقة البحرين من جملة البقاع التي يمكن اقتراحها مهداً للسومريين. ويرجّح كثيراً أن أصل (الدلمونيين) من الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة. وقد نشأت العلاقات بين العراقيين الأقدمين منذ عهد الحضارة السومرية الذي يطلق عليه اسم عصر فجر السلالات. فقد جاءتنا نصوص تاريخية من أواخر هذا العهد تشير إلى اتصال الملوك السومريين بهذه المنطقة ومن بينهم ملوك السلالة القديمة في لجش (تلو) في حدود 2600 ق.م. وغزا سرجون الآكدي مملكة الدلمونيين ويخبرنا أنه غنم منها ومن (مجان) (وملوخا) سفناً كثيرة، واستمرّت هذه العلاقات إلى العهد الآشوري الذي تعرض فيه الدلمونيون إلى حملات شديدة لضم مملكتهم إلى الأمبراطورية الآشورية. ومن الطريف ذكره بصدد العلاقات بين مملكة (دلمون) والآشوريين، أن سنحاريب بعد أن دمّر بابل عام 689 ق.م.، أراد ضم دلمون إلى أمبراطوريته ولكنه قبل أن يلجأ إلى إرسال الجيوش استعمل دعاية خبيثة لإلقاء الرعب في نفوس الدلمونيين، ذلك بأن أرسل إلى مملكتهم وفداً يحمل معه، عدا أمر الملك بالخضوع، رماداً من آثار الحريق الذي أحدثه في بابل، مشيراً بذلك إلى أن مصير الدلمونيين سيكون كمصير بابل إن لم يرضخوا. وقد فعلت هذه الدعاية أثرها إذ إن ملك دلمون أرسل إلى سنحاريب جزية وهدايا من الفضة، رمز الخضوع.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن جنة عدن المذكورة في التوراة ذات علاقة

وثقى بمنطقة دلمون. وإلى المصادر المسمارية التاريخية التي ذكرناها في تعيين البحرين بدلمون تساعدنا الإشارات الواردة في الآداب والأساطير السومرية. وتبدو (دلمون) في هذا الصنف من المصادر أرضاً غريبة ذات عجائب، فمن ذلك أن فيها آباراً وينابيع غريبة. وتوجد أسطورة عربية يتداولها سكان الجزيرة تشبه ما ذكره السومريون. ومن الأساطير التي تصف دلمون أسطورة عنوانها (أنكي وننخرساك) تبدأ بوصف أرض دلمون وصفاً تبدو فيه جنة كجنة عدن، أرض الخير والطهر، لأن الإلٰه أنكي وزوجه قد حلا فيها، ولكن هذا الفردوس الأرضي الذي فيه (لم يفترس الأسد ولم يختطف الذئب الحمل وليس فيه عجوز أو شيخ ولم يندب فيه أحد ولم يعرف فيه شر أو مرض) كان يعوزه الماء العذب فتضرّعت إلهة دلمون إلى (أنكي)، إلٰه (سومر) وإلٰه مدينة (أريدو) المقدسة أن يمنح مدينتها الماء العذب، فاستجاب دعاءها وأمر الإلٰه (شمس) أن يخرج الماء العذب من الأرض فتفجرت ينابيع المياه العذبة في دلمون.

وبالإضافة إلى القصة البابلية المشهورة بملحمة (جلجامش) التي ورد فيها ذكر الطوفان توجد قصة سومرية تتعلق بالطوفان كذلك وهي لا شك أصل الأسطورة البابلية. وعلى الرغم من أن هذه القصة السومرية ناقصة مخرومة في عدة مواضع إلا أن فيها إشارة مهمة إلى أرض دلمون وكونها موضعاً مقدساً. وتبدأ بخلق الإنسان والحيوانات وتأسيس المدن الخمس القديمة التي أنشئت، ثم حدوث الطوفان لإفناء البشر، ولكن ندم بعض الآلهة ولا سيما إلٰه (أريدو) (انكي)، فعزم على تخليص جنس البشر. فأخبر هذا الإلٰه نوح الطوفان السومري الصالح التقي أن ينقذ نفسه بأن يبني فلكاً، وبعد أن صنع الفلك حل الطوفان الذي عمّ الأرض ودام سبعة أيام وسبع ليال. وبعد الطوفان جوزي (زيوسدرا)، نوح الطوفان عند السومريين، بأن خلدته الآلهة وأسكنته في أرض دلمون. وإلى أرض دلمون ركب جلجامش الأسفار الطويلة وحجّ إلى جده كي يعلمه سر الخلود.

بلاد (باصو أو بازو) (نجد) وبلاد (حاسو) (الإحساء):

اتصل غير واحد من الملوك الآشوريين من العهد الحديث بأجزاء من جزيرة العرب، واتصلوا بالقسم الذي نبحث عنه الآن، وهو الجزء الشرقي والجنوبي الشرقي، ومع ذلك فإن الملك (أسرحدون) امتاز عن غيره من ملوك الأمبراطورية الآشورية الثانية في أنه أوغل في حملاته الحربية إلى مسافات بعيدة في بلاد العرب، وقد وصف بعض هذه الأجزاء البعيدة وصفاً ينطبق على بلاد نجد، ويذكر موضعاً آخر هو الإحساء ويذكر أحدهما باسم باصو أو بازو وهو نجد على ما يرجّح والآخر (حاسو) وهو الإحساء.

ومما يجدر ذكره عن الإحساء أن تحريات أثرية قد أجريت في الإحساء في عام 1940 وكذلك في جزيرة البحرين ويوجد في الإحساء الآن ميناء صغير يدعى (العقير) توجد بالقرب منه، إلى جهة الشمال ـ الشرقي، خرائب قديمة يظن أنها موضع (الجرعاء) القديمة. وقد اشتهرت الجرعاء في العهد اليوناني والروماني (Gerrhae) بصفتها مركزاً تجارياً مهماً في الشرق، ويظن أن مستعمرين من بلاد بابل. هم الذين شيّدوا المدينة، واشتهرت بتجارة اللبان والبهار والبضائع الأخرى الآتية من جنوبي الجزيرة والهند وأفريقيا، حيث كانت طرق مهمة آنذاك تمرّ في خليج فارس وجزيرة العرب إلى الغرب. وقد حصلت الجرعاء على ثروة عظيمة من تجارتها وبولغ في تلك الثروة حتى قيل إن جدران المدينة وسقوفها كانت مزينة بالعاج والذهب والفضة والأحجار الكريمة. ووصف المؤرخ الروماني (بليني) المدينة أن محيطها يبلغ خمسة أميال وفيها أبراج من حجر الرمل. ووصف (سترابو) الجغرافي اليوناني أن تربتها كثيرة الأملاح وأن أهل المدينة يعيشون في بيوت مشيّدة من الملح. ولعل المقصود بذلك الحجارة المستخرجة من أراضيها الملحة السبخة المنتشرة هناك. وإذا صحّ ذلك فمن يدري لعلّ هذا هو السبب الذي صيّر من الجرعاء إحدى مدن الجزيرة الضائعة، وورد ذكر الجرعاء في أخبار الملك السلوقي (أنطيوخس) الثالث الذي عدل عن غزو المدينة بعد أن رضخت ودفعت الجزية.

مراجع مختارة

عن أحدث البحوث الآثارية في جزيرة العرب، وتأريخها القديم.

1. P.K. Hitti, **History of the Arabs** (5th edition).
2. Carl Rathjens G.H. Wissman, **Suedarabiens Reise** (1934).
3. C.M. Doughty **Travels in Arabia Deserta.**
4. T.E. Lawrence, **Seven Pillars of Wisdom.**
5. Alois Musil, **Northern Hijaz.**
6. Dietlef Nielsen, **Handbuch der Altarabischen Altertumkunde** vol. I (1927).
7. W.F. Albright **«The Chronology of Ancient South Arabia»** in BASOR, No. 119 (1950).
8. F. Stark, **The Southern Gates of Arabia** (1936).
9. G.F. Hourani, **«Did Roman Commercial Competition Ruin South Arabia», in JNES,** XI, No. 4 (1952).
10. D.E. O'Leary, **Arabia Before Muhammad** (1927).
11. J. Philby, **The Background of Islam** (1947).
12. Bertram Thomas, **Arabia Felix. Across the Empty Quarter** (1932).
13. Beckingham, «Some Early Travels in Arabia», **JRAS,** vol. 12 (1949).
14. Bruce Howe, «Two Groups of Rock Engraving from Hijaz» in **JNES,** IX, (1950).
15. Ryckmans, **Les Religions Arabes Pre-islamiques** (1951).
16. Jamme, **Le Pantheon Sued-arabe Preislamique in Le Muséom** LX (1947).
17. The **Biblical Archaeology** XV (1952).
18. BASOR, 119 (1950).
19. R.B. Serjeant; **«Materials for South Arabian History» in Bull. of the Sch. of Orient. andt Afr. Studies.** XIII.

20. Cornwall in the **National Geographical Magazine,** vol. 93 (1948).

21. BASOR, Nos. 120 (1950); 129 (1952).

22. F.V. Winnett, **«The Place of the Minaens in the History of Pre-Islmaic Arabia» in BASOR,** XIX (1939).

23. W.F. Albright, **«The Chronology of the Minaen Kings of Arabia» in BASOR,** No. 129 (1953).

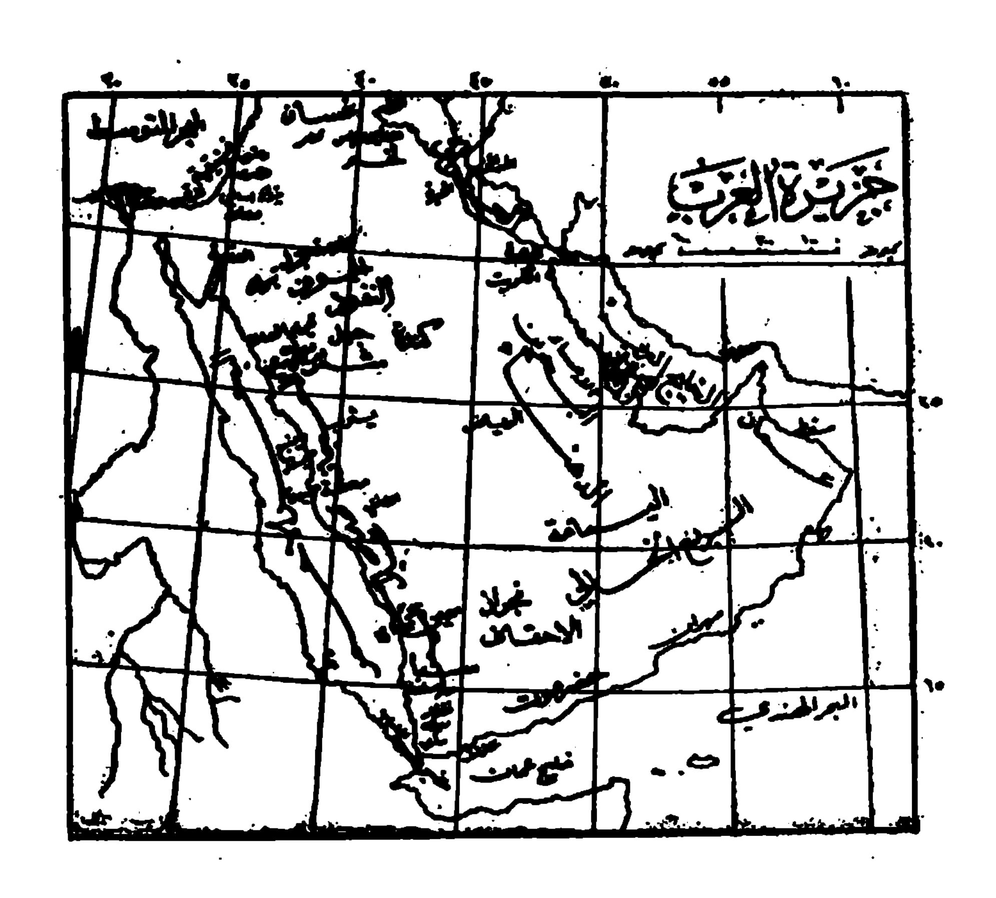
24. Mohammed Towfik, **Les Manuments de Main** (Cairo, 1951).

25. Ahmed Fakhri, **An Archaeological Journey to Yemen** (1947).

26. K.Y. Nami, **Les Monuments de Ma'in** (1952).

27. Van Beek, **«Recovering the Ancient Civilization of Arabia» in Biblical Archaeology,** vol. 15 (1952), 2 ff.

28. Rathjens in **Jahrbuch des Kleinasiatischen Forschung,** 1 (1950).


جزيرة العرب
البحر المتوسط
اليمامة
نجران
الأحقاف
حضرموت
خليج عدن
البحر الهندي

الفصل السابع والعشرون

موجز جغرافية بلاد الشام
وعصور ما قبل التاريخ فيها

لقد فاتنا أن ننبّه الدارس للحضارات القديمة بوجه عام وحضارات الشرق الأدنى بوجه خاص على أمر مهم لفهم هذه الحضارات ومواطن نموها وانتشارها، ذلك هو ألّا يلتزم بالحدود الجغرافية السياسية الحالية، فإنها في الواقع حدود مصطنعة لا تمثل لنا مراكز الثقافات القديمة ولا سعة انتشارها واتصالاتها. ولعل أكثر ما يصدق هذا القول على تأريخ سوريا القديم وعلاقته بحضارات العراق القديم. ونحن نستعمل كلمة عراق مضطرين لشيوع هذا المصطلح، أما الواقع بالنسبة إلى الحضارات التي درسناها في كلامنا على العراق فهو أن نسميها بحضارة ما بين النهرين، ويدخل في ذلك ثقافات الأقوام التي قامت في بلاد الشام مما سنتكلم عنه في الصفحات الآتية، ويدخل فيها أيضاً أو يمتّ إليها بصلة قوية على الأقل ما يُعرف بالحضارة الحثية في بلاد الأناضول وشمالي بلاد سوريا. هذا وقد نوّهنا في كلامنا على العراق القديم[1] في صلات بلاد الشام الحضارية بحضارة وادي الرافدين، وكيف أن مراكز مهمة للحضارة السومرية قد قامت في مواطن شهيرة تدخل في سوريا بحسب حدودها السياسية الحالية مثل «ماري» (تل الحريري)، وشغر بازار وتل براك. وإذا جاز لنا لسهولة فهم التأريخ الإقليمي تقسيم تلك الحضارة بحسب الأقاليم الجغرافية بالنسبة إلى العراق وسوريا فلا يصح ذلك

---

(1) انظر الجزء الأول.

بالنسبة إلى سوريا أو بلاد الشام نفسها[1] أي لا يصح أن نلتزم بالتقسيمات السياسية المصطنعة الحالية كلبنان وشرق الأردن وفلسطين وإنما سنسير في عرضنا لموجز تأريخ هذه البلاد على اعتبارها إقليماً حضارياً واحداً بحسب الخطة التي وضعها الأستاذ «حتي»[2].

وقبل أن نبدأ بإيجاز عرض الأدوار الحضارية والتأريخية في بلاد الشام نمهّد لهذا العرض بذكر أبرز ما تمتاز به هذه البلاد من الصفات الجغرافية ليعيننا ذلك على فهم تأريخها.

ولعل أهم ما يميِّز جغرافية البلاد السورية أنها مؤلفة من بقاع واطئة ومناطق جبلية مرتفعة تتجه بوجه عامودي من الشمال إلى الجنوب، فيمكن تمييز خمس مناطق فيها بين البحر والبادية وهي ابتداء من البحر:

(1) الشقة الساحلية.

(2) منطقة جبلية (جبال لبنان الغربية).

---

(1) يجدر في هذا الصدد أن نورد بعض الملاحظات المفيدة عن اسم بلاد سوريا، تلخيصاً بالدرجة الأولى من كتاب «حتي» المشار إليه في الهامش رقم 2. فأسم سوريا (Syria) صيغة يونانية محوّرة عن أصل سامي قديم. فقد جاءنا اسم (SHRYN) في النصوص المكتشفة حديثاً في «أوغاريت» (رأس الشمرة) في حدود القرن الرابع عشر ق.م..

Cyrus Gordon, **Ugaritic Handbook** (1948, p.142).

واستعملت كلمة «سريون» في المصادر العبرية أولاً لإقليم «انتي لبنان» ثم أطلقت على الكل (انظر سفر التثنية 3: 9، المزامير 9: 6، حتي، ذات المصدر، ص 58). وسمى البابليون إقليماً في الفرات الأعلى باسم «سو ـ ري» و«سر ـ ري» (حتي. ذات المصدر، ص 74). واستعمل مصطلح سوريا منذ العهد اليوناني على جميع بلاد الشام وظل في الاستعمال إلى الأزمنة الحديثة. وسمى العرب هذه البلاد باسم «الشام» (أو اليسار أو الشمال) بالمقابلة مع «اليمن» (اليمين أو الجنوب) (وذلك بالنسبة إلى أهل الحجاز، كما يقولون اليد اليمنى واليد الشومى). وسنرى في كلامنا على الأموريين (وهم أولى الموجات السامية الكبرى في بلاد الشام) أن سكان العراق القدماء أطلقوا على بلاد الشام اسم «أمورو» (من السومرية مارتو) التي كانت ترادف الغرب عندهم أيضاً.

(2) انظر كتابه القيم الذي كان أهم مرجع لنا في تلخيص تاريخ بلاد الشام:

P. Hitti, **History of Syria** (1951).

(3) شقة منخفضة واطئة (مثل البقاع وطبرية الخ).

(4) منطقة جبلية ثانية، جبال «انتي» لبنان (جبال لبنان الشرقية، وجبل الشيخ الخ).

(5) البادية.

أما المنطقة الأولى وهي الشقة الساحلية فتمتد على الساحل الشرقي من البحر المتوسط من طور سيناء إلى خليج الإسكندرونة، وهي شقة ضيقة محصورة بين البحر والجبال، وتبلغ أكبر سعة لها في الشمال والجنوب، ولكنها تكون مجرد ممر غير متّسع في سفوح جبال لبنان، ففي بعض المواضع مثلاً لا تزيد سعتها على أكثر من أربعة أميال وأحياناً ميل واحد، ولكنها تبلغ عند عسقلان (عسقلون) زهاء عشرين ميلاً، كما أن ارتفاع الجبال بمحاذاة الساحل يكون في بعض المواضع ارتفاعاً حاداً عامودياً. ففي شمالي بيروت بقليل يحاذي السهل الساحلي الضيق (حيث عرضه نحو ميل واحد) سفح جبل يرتفع زهاء (2500) قدم، وعند مصب نهر الكلب[1] إلى الجنوب من الموضع الأول

(1) اسم نهر الكلب في المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) «ليكوس» أي الذئب (Lycus) والمعتقد أن منشأ تسميته بنهر الكلب من صورة كلب (أو ذئب؟) منحوتة وقد وضعت هنا لتحمي محل المرور من قرب هذا المرتفع الجبلي، وتروي الأساطير أن هذه الصورة كان يخرج منها عند اقتراب عدو صوت عال يسمعه الناس القريبون فيهبون للدفاع. ويقال إن هذه الصورة رميت في البحر في أوائل الفتح الإسلامي. وقد وجدت حديثاً في عام 1942 في القاع صورة ذئب، لعلها هي الصورة التي نشأت عنها الأسطورة، وهي الآن موجودة في المتحف الوطني في بيروت (حتي، ذات المصدر، ص 30، 134).
ويكاد يكون مصب نهر الكلب متحفاً للنقوش التأريخية التذكارية التي نقشها على جدران الحجر القائمة الملوك الغزاة من المصريين والآشوريين والبابليين في أثناء مرورهم من هذا الموضع الشهير. وقد سبق أن عددنا هذه النقوش بحسب تسلسلها التأريخي في الجزء الأول من هذا الكتاب، ولعل في تكرار ما ذكرناه ونقله هنا فائدة لمن لا يتيسر عنده الجزء الأول، فنذكرها بحسب تسلسلها التأريخي على الوجه الآتي:
كتابة الفرعون رعمسيس الثاني (1292 ـ 1225 ق. م)، وهي مكوّنة من ثلاثة نقوش مشوّهة غير واضحة. =

بنحو ثلاثة أميال يلامس الجبل البحر ويدخل فيه، مكوّناً في هذا الموضع نقطة «استراتيجية» مهمة إزاء الأعداء. وفي الكرمل نجد أن لسان الجبل هنا قد أزال السهل الساحلي بحيث لم يترك سوى زهاء (2200) ياردة على الساحل. وتمتاز هذه الشقة الساحلية ببعض السهول المشهورة في العهود التأريخية وبخصبها وبأستقامتها وخلوّها من الخلجان باستثناء خليج الإسكندرونة.

وإذا ما تركنا هذه الشقة الساحلية إلى الشرق فنجد القسم الثاني من الأقسام الخمسة التي ميّزناها في بلاد سوريا، أي سلسلة الجبال والنجاد المرتفعة المطلة على الشقة الساحلية، وتبدأ هذه المرتفعات من جبال «أمانوس»[1] في الشمال وتمتد جنوباً إلى طور سيناء، وتكون سلسلة جبال لبنان الغربية بمثابة العمود الفقري لهذه المنطقة حيث تحيط به السهول والأراضي الواطئة المجاورة. إن هذه الشقة الجبلية تكون عائقاً للمواصلات لربط الساحل بالأراضي الشرقية الداخلية، وهو حاجز لا يوجد له منفذ إلّا في

= (2) ستة نقوش آشورية أوضحها نقش الملك الشهير أسرحدون (671 ق.م).

(3) نقش الملك نبوخذنصر الكلداني.

(4) آثار نقش يوناني ممسوح.

(5) عدة نقوش رومانية للأمبراطور «كره كالا».

(6) نقش عربي لا يُعلم صاحبه.

(7) أزال الفرنسيون إحدى الكتابات المصرية ونقشوا في مكانها تذكار احتلالهم لبنان (1860 ـ 1861).

(8) نقش الجنرال غورو (Gauraud) وإلى جانبه نقش الجنرال «اللنبي».

(9) نقش يسجل تذكار جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية (1942).

(10) نقش لبناني لتخليد خروج الجيوش الفرنسية عن سوريا ولبنان (1946).

(انـظـر: P. Hitti, **Op. Cit.**, 134, F.H. Weissbach, **Die Denkmaeler und Inschriften an den Mündung des Nahrel-Kelb** (Berlin, 1922).)

(1) وقد جاء اسمه في المصادر العربية «اللكام» (بضم اللام وتشديد الكاف، من السريانية **أوكاما**، الأسود) وفي التركية «كاور داغي» (جبل الكفار)، لأنه كان يؤلف سدّاً حاجزاً إزاء البيزنطيين بالنسبة إلى الدول الإسلامية وجبل «أمانوس» فرع قصير أو طية تفرّعت جنوباً عن سلسلة جبال طوروس التي تفصل سوريا عن آسيا الصغرى.

نهايتيه المتطرفتين، عند خليج الإسكندرونة حيث ينفذ منه من سفوح جبال «أمانوس» إلى سهول ما بين النهرين، وفي خليج السويس حيث يؤدي إلى البحر الأحمر أو إلى الصحراء الغربية. وبين هاتين النهايتين لا يكسر هذا الحاجز إلّا في وادي النهر الكبير[1] شمال طرابلس، وفي سهل مرج ابن عامر[2] شرق عكا وحيفا. ويطوف أمانوس حول خليج الإسكندرونة مكوّناً حاجزاً بين سوريا وكليكيا، ويرتفع هنا زهاء (5000) قدم فوق مستوى البحر، ويشقّ حدّه الجنوبي نهر العاصي[3] عند مروره في طريقه إلى البحر، وتعبر الجبل طرق تؤدي إلى أنطاكية وحلب، وأكبر مجاز فيه مجاز «بيلان»[4]، المشهور باسم «الأبواب السورية»، وتستمر سلسلة أمانوس جنوب مصب العاصي حيث يتصل بها الجبل «الأقرع»[5] الأجرد الذي يرتفع زهاء (4500) قدمٍ ويمتد إلى قرب اللاذقية[6] حيث يعرف باسم جبال النصيرية[7] إلى أن ينتهي في النهر الكبير الذي ينبع من هذه الجبال ويكون الآن الحد بين لبنان وسوريا كما أنه يحدّ هذه الجبال عن جبال لبنان[8]، أي لبنان الغربي (تمييزاً

(1) وهو النهر الوارد اسمه في المصادر الكلاسيكية باسم «ايلو ثيروس» (Eleutherus).
(2) وهو سهل يزرعيل (Esdraelon) الوارد ذكره في التوراة.
(3) «أورونتس» (Orontes) في المصادر الكلاسيكية.
(4) وباسم (Belian) و(Pylae Syriae) في المصادر الكلاسيكية.
(5) وهو جبل كاسيوس (Casius) في المصادر الكلاسيكية.
(6) (Laodicea) وهو اسم أم سلوقس المشهور حيث سُمِّيت خمس مدن باسمها.
(7) واسمها في المصادر الكلاسيكية (Bargylus)، ولعل الاسم العربي مأخوذ من اسم محمد بن نصير من الكوفة (القرن الثالث للهجرة) من أتباع الإمام الحسن العسكري. ومن أسماء هذه الجبال «البهراء». وقد اشتهرت هذه الجبال بأنها كانت من بين المعاقل التي اعتزّ بها الحشاشون الذين كانوا في سوريا، وكذلك استوطنتها فرقة النصيرية المتفرعة عن المذهب الإسماعيلي ولا تزال خرائب بعض القلاع من عهد الصليبيين قائمة في مرتفعاتها.
(8) اسم لبنان مشتق من المادة السامية «لابن» (أي أبيض، صار أبيض) ومنشأ التسمية على ما هو واضح من الثلوج التي تتوجّ قمم الجبال طوال ستة أشهر من السنة، ويكون الثلج في بعضها طوال السنة كلها.

لها عن جبال لبنان الشرقية، انتي لبنان). وجبال لبنان الغربية أهم جزء في هذا القسم الثاني من أقسام البلاد السورية الذي نتكلم عنه، وتمتد جبال لبنان الغربية من النهر الكبير إلى القاسمية شمال صور (حيث المجرى الأسفل من نهر الليطاني بين صور وصيدا ويسمى نهر القاسمية) أي مسافة نحو (105) أميال. وهي جبال شاهقة جليلة تبلغ أعلى قمة فيها (المعروفة باسم القرنة السوداء) زهاء (11024) قدماً فوق البحر، وبجوارها الموضع الجبلي المعروف باسم «ظهر القضيب» الذي يقل عنها زهاء (100) قدم، حيث توجد بقايا الأرز القديمة[1] التي اشتهر بها لبنان، ثم تأتي منطقة جبل «صنين» الشامخ المطل على بيروت وخليجها، وهو أوطأ من ظهر القضيب بنحو (100) قدم أيضاً. وتتألف صخور لبنان من طبقتين عليا وسفلى من الأحجار الكلسية (Limestone) تتخلل ما بينهما طبقة من الحجارة الرملية (Sandstone) ويتراوح ثخن الطبقة الكلسية العليا من بضعة مئات من الأقدام إلى ثخن خمسمائة آلاف قدم، وهذه الطبقة العليا التي تميّز لبنان في مشاهده ومناظره، كما أن ما يحدث فيها من تحات (Erosion) ينتج التربة الخصبة للزراعة، وحجارتها صالحة للبناء. وتتخلل مياه الأمطار هذه الطبقة إلى أعماق بعيدة إلى طبقة الحجارة الرملية والطينية حيث تستقر المياه ويتكوّن منها الينابيع الشهيرة التي تفيض بالحياة والخير على المنحدرات والوديان.

وتُعدّ فلسطين من الناحية الجغرافية الجيولوجية استمراراً أو امتداداً

---

(1) يرى الجيولوجيون أن موضع الأرز هذا يحدد نهاية «ثلاجة» جليدية في عصور ما قبل التأريخ، والمعروف أن العصور الجليدية الحقيقية لم تحدث هنا كما حدثت في أوروبا الشمالية وأمريكا الشمالية، ولكن شدة البرد الهائلة في تلك العصور قد ولدت في لبنان وفي مواضع أخرى من الشرق الأدنى «ثلاجات» محلية (Hitti, **Op. Cit.**, 34) حول جيولوجية لبنان وتكوين هذه الجبال وتأريخ الأقاليم المجاورة. انظر:

(1) G. Zumoffen, **Géologie du Liban** (Paris, 1926).

(2) Louls Dubertret et al, **Contributions à l'étude géologique de la Syrie Septentrionale** (Paris, 1933).

جنوبياً من لبنان من ناحية امتداد الشقة الساحلية السهلية حيث تتصل بسهل «شارون» الممتد من الكرمل إلى جنوب يافا بقليل حيث يتصل بالساحل الفلسطيني، كما أن القسم الجبلي (وهو القسم الثاني من البلاد السورية) من لبنان يستمر من بعد موضع قطع نهر القاسمية له، إلى مرتفعات جبال الجليل العليا وكذلك سلسلة المرتفعات الواطئة التي يطلق عليها اسم منطقة الجليل السفلى، وتبلغ جبال الجليل العليا في الجرمق (شمال صفد) ارتفاعاً قدره (3955) قدماً وهو أعلى نقطة في جبال فلسطين، وترتفع الجليل السفلى قرب الناصرة زهاء (1843) قدماً، ثم تقطع المنطقة المرتفعة من فلسطين بسهل مرج ابن عامر الذي يفصل منطقة الجليل في الشمال عن منطقة التلال الجبلية التي تكون إقليم السامرة ويهوذا في الجنوب. وتشتهر السامرة بتلالها ووديانها، وأشهر جبالها الجبل الشمالي (المسمى ايبال بالعبرية) وجبل «جرزيم» وهو جبل السامريين المقدس. ومن مرتفعات يهوذا جبل «يطا» (Juttah) (يوطة المذكور في التوراة) (الذي يرتفع 3847 قدماً)، وأورشليم (التي ترتفع 2550 قدماً)، ثم تنحدر منطقة يهوذا إلى أرض متموّجة إلى «بير سبع» (بير شيبا في التوراة) حيث المنطقة المعروفة باسم النقب (Negeb) الذي يعني في العبرية (الأرض اليابسة اللافحة). والجدير بالذكر عن هذه المنطقة الجبلية من الناحية الأثرية كثرة الكهوف فيها منها ما هو في لبنان وفي جبل الكرمل حيث عثر الباحثون في عدد منها على آثار الإنسان وبقاياه العظمية من أقدم عصور ما قبل التأريخ (العصور الحجرية القديمة) مما سننوّه به فيما بعد.

والقسم الثالث من الأقسام الخمسة من البلاد السورية مؤلف من السهول المنخفضة مثل (البقاع)، وهو سهل ضيق يبتدىء شمالاً من المنعطف الشمالي لنهر العاصي حيث يكون سهلاً عريضاً نوعاً ما هو سهل «العمق»[1]، ويستمر السهل إلى حماه ولكنه يرتفع هنا إلى نحو 1015 قدماً فوق البحر، وفيما بين

---

(1) وقد ورد ذكر هذا السهل في المصادر الآشورية باسم «اونقي» (**Luckenbill, Ancient Records of Assyria G Babylonia,** 1, 769, 821).

جبل لبنان الغربي والشرقي (لبنان وانتي لبنان) نجد السهل المشهور المعروف باسم البقاع الذي يستمر جنوباً خلال الأردن إلى البحر الميت ومن ثم يمتد في خلال العربة (العرابة) إلى العقبة، وهي اللسان الشرقي من البحر الأحمر. وينحدر هذا الوادي الغريب في تكوينه الجغرافي بانخفاض عجيب، ففي الحولة لا يترفع عن البحر سوى سبع أقدام، ولكنه يكون عند بحيرة طبرية تحت مستوى البحر بـ 685 قدماً وفي البحر الميت 1292 قدماً تحت مستوى البحر. ويختلف سهل البقاع[1] في عرضه من 6 ـ 10 أميال، ويرتفع بالقرب من بعلبك نحو 2770 قدماً فوق البحر، ويوجد في القرب من هذا الموضع محل تقسيم المياه حيث يتّجه من هنا العاصي ويأخذ مجراه شمالاً ويجري الليطاني[2] جنوباً. والعاصي والأردن هما النهران الكبيران في بلاد الشام (باستثناء الفرات الذي يمرّ من سوريا الشمالية). أما الليطاني فإنه يكاد يكون متمماً لمجرى العاصي وهو ينعطف غرباً[3] في مجراه الأسفل، ويمر من خلال الطبقة الحجرية الكلسية ويعرف هنا باسم «القاسمية» حيث يصب في البحر بين صور وصيدا. وسهل البقاع خصب التربة وموضع مراع جيد. أما وادي الأردن (ويعرف الأردن بغور الأردن ونهر الشريعة كما يسمى أيضاً في المصادر العربية) فيبلغ طوله زهاء (65) ميلاً، ويتراوح عرضه بين 3 ـ 15 ميلاً، ويفرغ مياهه في البحر الميت، وهو بحيرة مياهها شديدة الملوحة والمرارة، وتحتوي على كميات كبيرة من «البرومين» والبوتاس وكلوريد المنغنيز وتوجد قربه مناجم

---

(1) البقاع جمع بقعة أو بقيع أي «متجمع المياه الراكدة»، وقد ورد ذكره في المصادر اليونانية والرومانية باسم (Coele-Syria) (أي سورية الغور) ولكنه كان يدخل ضمنه في الأزمان اليونانية والرومانية مناطق أخرى مثل حوران وشرقي الأردن. كما يرجّح كثيراً أن اسم بعلبك مأخوذ من كلمة «بعل البقاع» أي سيد أو ربّ البقاع، من اسم الإله «بعل».

(2) (Leontes) في المصادر الكلاسيكية.

(3) توجد عند منعطفه قلعة صليبية تسمى الآن باسم قلعة الشقيف. (شقيف أرنون الذي لعله محرّف عن أرنولد). (وهي قلعة بيلفورت) (Belfort) التي تشرف على الطريق الجبلي من دمشق إلى صيدا وتتحكم فيه.

غنية من الحجارة الجيرية والقير كما توجد أيضاً مثل هذه الحجارة في «حاصبيا» في السفح الجنوبي الغربي من جبل الشيخ.

إن هذه المنطقة الثالثة تتميز أيضاً بوجود البراكين، كما تدل على ذلك مناطق الأحجار البركانية «اللابة» الكائنة شرقي جبل الشيخ وجنوب دمشق، كالحرة. كما أن تأريخ بلاد الشام لم يخل من الزلازل، فقد أصاب أنطاكية الكائنة في النهاية الشمالية من الإقليم كثير من الزلزال، حتى أنها خربت ما لا يقل عن عشر مرات في خلال القرون الستة الأولى قبل المسيح[1]، كما توجد آثار الاضطرابات الزلزالية في جدران معبد الإله الشمس في بعلبك والقلاع الصليبية في سوريا، كما قاست صور وصيدا كثيراً أيضاً، وقد وقع زلزال عنيف في عام (1822) حوَّل حلب ومدناً أخرى ركاماً.

وتكون سلسلة الجبال الشرقية القسم الرابع من أقسام البلاد السورية، حيث يبدأ ارتفاعها جنوب حمص وتكون مقابلة في ارتفاعها وفي طولها تقريباً لجبال لبنان الغربية، حيث تعرف باسم جبال «انتي لبنان» (لبنان الشرقي)، ثم تبدأ بالانحدار من جبل الشيخ[2] إلى نجد حوران، الذي تحادده منطقة التلال في الجولان[3] حيث تستمر في شرق الأردن بمرتفعات جلعاد وتتصل بنجد موأب وإقليم «أدوم» (سعير) جنوب البحر الميت. ويقسم مجرى نهر بردى[4] هذه المرتفعات الشرقية (انتي لبنان) إلى قسمين متميزين، قسم شمالي[5] يمتاز

---

(1) انظر: E.C. Semple, **The Geography of the Mediterranean Region** (1932), p.42. المشار إليه في حتي ذات المصدر ص 40.

(2) (Hermon) وذكر أيضاً في التوراة باسم «سريون» (Serion) (في المزامير 29: 6، وسفر التثنية 3: 9)، وذكر في بعض المصادر العربية مثل المقدسي «أحسن التقاسيم» باسم «جبل الثلج».

(3) من العبرية «جولان» (بلفظ الجيم كافاً فارسية، ومعناه الدائر أو الدائرة، أو المحيط)، وفي المراجع الكلاسيكية باسم «كولنيتس» (Gaulanitis).

(4) واسمه القديم «ابانه» (كما ورد في التوراة مثلاً)، وينبع من جبل الشيخ أيضاً النهر المسمى «الأعوج» (فرفر القديم) بالقرب من دمشق جنوباً.

(5) وقد سمى البلدانيون العرب هذا الجزء باسم «سنير» (انظر ياقوت مثلاً).

بأن جانبه الغربي أجرد عديم القرى والسكنى، وقسم جنوبي أشهر مرتفعاته جبل الشيخ الذي يعدّ من أعلى مرتفعات سوريا (زهاء 9383 قدماً)، وهو عكس القسم الأول مزدهر بالسكنى والقرى في سفوحه الغربية. ويمتاز لبنان الشرقي بوجه عام بقلة أمطاره مما جعله أقل استيطاناً من جبال لبنان الغربية. ويأتي نهر بردى من قرب الزبداني ويجري شرقاً ويروي قسماً مهماً من أراضي الشام التي لولاه لأصبحت جرداء، وبضمن ذلك منطقة دمشق وما ازدهر فيها من عمران وحضارة. إذ إنه بعد أن يمر من غوطة دمشق الشهيرة ويسقي جنانها الفياحة (مما جعل العرب يسمون دمشق بالفيحاء) يتفرع منه خمسة جداول لإرواء شوارع دمشق ودورها حيث تقسيم مجاري مياهها وتوزيعها الذي يرجع في أصله إلى العهد الأموي. ويمتاز سهل «حوران»[1] بأنه مكوّن من صخور بركانية من حجر البازلت وتربته خصبة، وتنتشر حقول الحجارة البركانية (اللابة) في جنوب دمشق (عند الموضع المسمى بالتلول) وتشمل رقعة واسعة تبلغ زهاء ستين ميلاً (طولاً وعرضاً)، ويحدّ هذه المنطقة من جهة الشمال الشرقي صخور اللجأ ومن الجهة الجنوبية الشرقية المنطقة الجبلية المسماة جبل حوران أو جبل الدروز (ومعدل ارتفاعه 4000 ـ 5000 قدم). إن إقليم حوران خال من الأشجار ولكنه منتج للغلة كثيراً وفيه مراع جيدة، وتدلّ البقايا الأثرية في هذا الإقليم التي تبدأ من عصور ما قبل التأريخ إلى العهد الروماني والبيزنطي على أهمية هذه البقعة الزراعية، حيث لا تزال بقايا الطرق والحصون والقنوات والخزانات من العهود الرومانية. وتمتد هذه البقعة البركانية إلى الجهة الجنوبية الشرقية وتتصل في خلال بادية «الحماد» بالبقع البركانية الحجازية المعروفة بالحرات (جمع حرة).

وتؤلف بادية الشام القسم الخامس من الأقسام الجغرافية التي ميّزناها

---

(1) لقد ذكر في التوراة باسم «باشان» وفي المصادر الآشورية باسم «حورانو» وفي المصادر الكلاسيكية باسم «أورانيتس» (Auranitis) وهو السهل الواسع في شرق الجولان وغرب اللجأ وجبل الدروز.

في بلاد الشام، حيث تتصل نجاد حوران الشمالية الشرقية، وشرقي الأردن بمناطق السهوب (Steppes) والحرات والرمال، ثم بادية الشام الكبرى التي هي امتداد لصحراء بلاد العرب الكبرى وتفصل بلاد الشام عن العراق كما أنها تفصل أيضاً ما بين طرفي الهلال الخصيب الشرقي والغربي، ويُعرف القسم المحاذي للطرف الشرقي من الهلال أي العراق باسم بادية الجزيرة (أي بادية ما بين النهرين)[1]، والقسم الجنوبي من هذه البادية يعرف باسم بادية العراق (أو السماوة). ويعرف القسم الجنوبي الغربي من بادية الشام باسم الحماد وهو مكوّن من رمال وأحجار ويكثر فيه العشب والكلأ في فصل الربيع. وتؤلف البادية الشامية ـ العراقية رقعة شاسعة على هيئة مثلث تستند قاعدته في خليج العقبة من جهة الغرب وعلى خليج الكويت من جهة الشرق ويمتد رأسه إلى جهة حلب في الشمال، ويبلغ أكبر عرض له نحو (800) ميل، وهي موطن البدو الذين يتاجرون مع الحضر، وعلاقتهم التأريخية والعرقية (العنصرية) مع أقاليم الهلال الخصيب تمتد إلى أبعد العصور، فهم أهم مصدر لسكانه على ما رأينا في تأريخ العراق القديم وعلى ما سنرى من الهجرات السامية الكبرى في كلامنا على تأريخ بلاد الشام.

ويتميز مناخ البلاد السورية التي أجملنا صفتها الجغرافية بمواسم مطرها ومواسم جفافها، فهناك فصل ممطر يبتدىء تقريباً من منتصف تشرين الثاني إلى نهاية آذار، ثم يعقبه فصل الجفاف طيلة أيام السنة الأخرى، وصفة المناخ هذه مما يميِّز أغلب إقليم البحر المتوسط. وبالإمكان تقسيم بلاد الشام من ناحية النباتات والأشجار إلى ثلاث مناطق، فتتميز الشقة الساحلية وسفوح الجبال الغربية بنوع النباتات الخاصة بسواحل البحر المتوسط، كالأشجار الدائمة الخضرة، وغلّتها الأساسية القمح والشعير والذرة وهي الحبوب الأساسية التي زرعها الإنسان في العصر الحجري الحديث في ربوع الشرق الأدنى، وتكثر فيها أشجار الزيتون والتين والكروم منذ الأزمان القديمة، وفي الأزمان

(1) (Mesopotamia).

المتأخرة أدخلت زراعة التبغ (كما يشتهر تبغ اللاذقية في العالم) والموز وأشجار الحمضيات كالليمون والبرتقال الخ، ودخلت زراعة قصب السكر من الشرق منذ الفتح العربي. وتتألف المنطقة الثانية من أعالي جبال لبنان الغربي والشرقي حيث تقتل شدة البرودة فيها الأشجار والنباتات مما ينبت في المناطق المعتدلة ولا يمكن أن يعيش فيها سوى الأشجار القوية كالأرز والصنوبر ولا سيما في لبنان الغربي، حيث يكون لبنان الشرقي أجرد تقريباً بالمقارنة مع المنطقة الجبلية الغربية. وتتميز المنطقة الثالثة المؤلفة من السهول والبقاع ومن النجاد الشرقية بين لبنان الغربي والشرقي بشدة حرارتها وتناقص أمطارها مما يجعلها شبيهة بمناطق السهوب من ناحية قلّة أشجارها باستثناء الشجيرات والأدغال والعوسج، كما أن الأعشاب فيها موسمية، ولما كان العاصي والأردن يجريان في واديين عميقين فلا يفيدان في الإرواء إلّا قليلاً، ويعوض ذلك نجداً شرقي الأردن وحوران حيث تكثر فيهما الأمطار المساعدة على إنبات الغلة والكلأ، وتشتهر حوران بغلات الحبوب بحيث كان مخزن الغلال السورية منذ العصور القديمة.

أثر سوريا في التأريخ والعوامل المؤثرة فيها:

إذا أضفنا إلى الصورة التي كوّناها عن بلاد الشام مما مرّ بنا من وصفها الجغرافي موقعها الجغرافي بالنسبة إلى الأقاليم الأخرى، فنستطيع أن نكوّن صورة كاملة عن المسرح الذي تكوّنت فيه حوادث تأريخ سوريا، ولعل أول ما يلفت إليه النظر في موقعها الجغرافي أنها في موقع سوقي مهم، فهي تصل ما بين ثلاث قارات تأريخية (آسيا وأفريقيا وأوروبا)، وإلى هذا الوضع السوقي نذكر الظروف التأريخية التي أحاطت ببلاد الشام منذ أقدم عصور التأريخ من وقوعها ما بين حضارتين عظيمتين: حضارة وادي الرافدين من الشرق وحضارة وادي النيل إلى الجنوب، مما جعلها ملتقى التأثيرات الثقافية المنبعثة من هذين المركزين الحضاريين، كما أن نشوء هاتين الحضارتين الأصليتين منذ تأريخ متطاول وضغطهما على البلاد السورية (سواء كان ذلك من الناحية العسكرية أو

الثقافية) كان من العوامل المهمة التي عملت على عدم نشوء حضارة أصلية[1] في سوريا من أطوار عصور ما قبل التأريخ فيها على غرار ما حدث في وادي النيل ووادي الرافدين. وإنما نشأت فيها حضارة فرعية أو عدة ثقافات فرعية على ما سيتّضح لنا ذلك فيما بعد. وإلى هذه التأثيرات الثقافية فإن موقع سوريا الجغرافي جعلها معرضة إلى الغزو ومرور الجيوش منها على الدوام، فقد سبق أن رأينا ذلك من تأريخ وادي الرافدين وتأريخ مصر، وكيف أن هذه البلاد دخلت في حوزة الأمبراطورية المصرية منذ القرن الخامس عشر ق.م.، ثم من بعد ذلك تعرّضت إلى ضغط الآشوريين الهائل وإلى غزو البابليين والفرس والمقدونيين والرومان الخ.

وتعرضت البلاد السورية في موقعها الجغرافي والتأريخي إلى التأثيرات المختلفة من الأقوام الهندية الأوروبية في جزر إيجه واليونان والرومان ومن البر تأثرت أيضاً بفارس والهند. ولعل أخطر التأثيرات التي كوّنت تأريخها وطبعته بطابعه الخاص موقعها المحادد (من جهة الشرق والجنوب) إلى مهد الأقوام السامية فكانت محطاً لهجرات البدو الساميين منذ أقدم العهود، فإذا صحّ كونها موضع ملتقى الحضارات وبوتقة انصهار الثقافات فإنها كانت أيضاً بوتقة انصهار الحضارة والبداوة. وسنرى من كلامنا على أدوار تأريخ بلاد الشام أن حصة هذه البلاد من موجات الأقوام السامية كانت أعظم من حصة أي من أقطار الشرق الأدنى التي هاجر إليها الساميون، وبوجه خاص وادي الرافدين، فقد جاءت إليها خمس هجرات مهمة.

---

(1) لقد سبق أن نوّهنا بالمقصود من الحضارة الأصلية جرياً على تعريف الباحث الشهير «توينبي» لها، حيث قلنا إنها الحضارة التي تنشأ مباشرة من الأطوار البدائية في عصور ما قبل التأريخ، وأحسن مثال على ذلك حضارة وادي الرافدين الأولى وحضارة وادي النيل. أما في سوريا فيبدو لنا من كلامنا على أدوار تأريخها أنه نشأت فيها ثقافة فرعية أي مدنية متأثرة بالحضارتين السالفتي الذكر وهي الحضارة السورية أو السريانية (كما سمّاها توينبي) التي نشأت منذ منتصف الألف الثالث ق.م.

(انظر كتاب توينبي (A Study of History) وترجمته إلى العربية من جانب المؤلف.

ولهذه الصورة التي تبدو فيها سوريا وهي متأثرة بالحضارات والثقافات والأقوام الخارجية وجه آخر تظهر فيه سوريا بدورها وهي مؤثرة أثراً مهماً في تأريخ الحضارات البشرية. ولما كنا سنقف على هذه التأثيرات المنبعثة من سوريا في كلامنا على تأريخها فنكتفي هنا بذكر أمثلة بارزة على هذه التأثيرات، فنذكر من ذلك مثلاً كونها مهد نشوء ديانتين ساميتين، وهما الديانة اليهودية والمسيحية وأثرهما البالغ في تأريخ العالم جميعه، وننوّه أيضاً بأثر بعض الأقوام التي استوطنت سوريا كالكنعانيين والفينيقيين من مساهمتهم في الحضارة البشرية عن طريق نشرهم عناصر الحضارة بين شعوب العالم وعلى رأس ذلك نشرهم الحروف الهجائية، وكونهم على ما يرجّح أول من اكتشف المحيط الأطلسي، ونذكر الآراميين أيضاً وأثرهم الكبير في تأريخ الشرق الأدنى من الناحية اللغوية والخط الهجائي. وكان ينبغي علينا أن نذكر الأموريين (أول الأقوام السامية في سوريا)، وكيف أنهم أثّروا في تأريخ حضارة الرافدين، فقد رأينا من تأريخ العراق القديم كيف أنهم أسسوا سلالة في العراق ، فكأن بلاد الشام صارت بدورها مهداً للهجرات السامية الثانوية إلى جهات الشرق الأدنى. وسيتضح من تلخيصنا لتأريخ بلاد الشام في العهد الهلنستي مساهمتها المهمة في الحضارة اليونانية الرومانية، حيث زوّدت سوريا العالم الهلنستي بعدد مهم من أعاظم المفكرين والشعراء والأدباء. وأخيراً وليس آخراً ينبغي التنويه بدور بلاد الشام في نشوء الحضارة العربية الإسلامية وسير تأريخها.

مصادر تأريخها وأدوار هذا التأريخ:

سوف لا نطيل الكلام على المصادر الأساسية التي تستند إليها معرفتنا بتأريخ بلاد الشام إذ يمكن إجمال ذلك بقولنا إنها بالدرجة الأولى من التنقيبات والبحوث الآثارية الحديثة التي كشفت لنا عن فصول مهمة من تأريخ هذه البلاد مما قبل العهد اليوناني والروماني والعربي، منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ حيث عرفتنا بسكنى البشر في العصور الحجرية وفي عصور ما قبل

التأريخ الأخرى التي تلت العصور الحجرية، والعهود التأريخية المهمة التي تمثلها لنا آثار الأموريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين والعبرانيين والأنباط. وأنه حتى في الأدوار التي تكثر عنها المصادر المدوّنة المعروفة سابقاً، كتأريخ العبرانيين وعلاقاتهم مع الأقوام السورية المختلفة مما جاءت أخبارها في التوراة، والمصادر الكلاسيكية (اليونانية الرومانية) والمصادر العربية الإسلامية، نقول إنه حتى في هذه الأدوار المتوفرة فيها مصادر البحث فإن التنقيبات في المواضع الممثلة لها قد أنارت لنا جانباً مهماً منها حيث مخلفات الحضارة المادية وفنونها ونواحيها المهمة الأخرى. ولما كنا سنشير إلى مراجع البحث الخاصة في كلامنا على الأدوار المختلفة فإننا ننهي هذه الملاحظة عن مصادر التأريخ السوري بذكر نوع آخر من المصادر المهمة تلك هي ما ورد في الأخبار المدوّنة مما جاءنا من حضارتي مصر والعراق بالدرجة الأولى.

إن هذه المصادر التي عددنا أنواعها قد مكّنت الباحثين المحدثين أيضاً من تمييز الأطوار المختلفة المتميزة في تأريخ بلاد الشام وضبط تسلسلها التأريخي. ونذكر هذه الأطوار بحسب تسلسلها التأريخي منذ أقدم عهود ما قبل التأريخ على الوجه الآتي[1]:

أدوار التأريخ الرئيسة في بلاد الشام:

أولاً: عصور ما قبل التأريخ:

1 ـ العصر الحجري القديم بأدواره المختلفة.

2 ـ العصر الحجري الوسيط.

3 ـ العصر الحجري الحديث.

4 ـ العصر الحجري المعدني.

(1) انظر: (Hiti, Op. Cit., 57 ff.)

ثانياً: العهود السامية: (في حدود 2400 ـ 538 ق.م)

1 ـ الأموريون.

2 ـ الكنعانيون ـ الفينيقيون.

3 ـ الآراميون.

4 ـ العبرانيون.

5 ـ عهد دويلات الأنباط والساميين المتأخرين الآخرين.

ثالثاً: العهد اليوناني ـ الروماني (الهلنستي): من فتح الإسكندر (333 ق.م) إلى الفتح العربي (633 ـ 640 م).

رابعاً: العهد العربي الإسلامي[1]: من الفتح العربي في القرن السابع للميلاد إلى الفتح التركي (1516 م).

خامساً: العهد العثماني: وقد انتهى في الحرب العامة الأولى.

(1) ذكر هذان العهدان إتماماً للفائدة وسوف لا يدخلان في موضوع بحثنا.

عصور ما قبل التأريخ

تنتهي عصور ما قبل التأريخ في بلاد الشام في زمن متأخر عن بداية عهد التدوين في حضارتي وادي النيل ووادي الرافدين، فبعد زمن ما من اختراع الكتابة في هاتين الحضارتين وانتشار استعمالها في التدوين انتقلت بعدئذ طريقة التدوين إلى بلاد الشام. والمعروف تأريخياً أن سوريا لم تقتبس الكتابة الهيروغليفية وإنما أخذت الخط المسماري من حضارة وادي الرافدين. ولعله من الممكن تحديد نهاية عصور ما قبل التأريخ في بلاد الشام في حدود منتصف الألف الثالث ق.م. ويسبق هذا العهد عصور ما قبل التأريخ الموغلة في قدمها إذ إنها تبدأ من العصر الحجري القديم، لعله منذ (200,000 ـ 150,000).

العصر الحجري القديم:

ونبدأ في كلامنا على عصور ما قبل التأريخ بذكر ما أسفرت عنه التحريات الأثرية عن آثار استيطان الإنسان في أولى هذه الأطوار، أي في العصر الحجري القديم[1]. ومما يقال في هذا العصر في سوريا بوجه خاص كثرة التحريات المهمة التي تمّت في جملة مواضع ولا سيما عدد من الكهوف في لبنان وفلسطين وفي مواضع مكشوفة في بادية الشام (ولا سيما بالقرب من

(1) يحسن بالدارس أن يراجع ما ذكرناه عن العصور الحجرية في تأريخ العراق، إذ إن الكثير مما جاء عنها ميزات عامة عن هذه العصور في الشرق الأدنى.

الرطبة) مما جعل معرفتنا بهذا العصر وبأطواره المختلفة وأشكال البشر الذين عاشوا فيه أكثر منها بالنسبة إلى جهات الشرق الأدنى الأخرى. فمن هذه الكهوف الشهيرة في لبنان كهف في منتصف الطريق تقريباً بين صور وصيدا (واسمه عدلون) وفي كهوف نهر إبراهيم ونهر الكلب وكهف «أنطلياس»[1] حيث وجدت آثار العصر الحجري القديم من نصفه الأول الذي أغلب ما يميز بصنع آلات الصوان من لب الحجر مما يعرف باسم (Core flint industry) كما نذكر كهف جبل الكرمل الذي نقبت فيه «دوروثي گارود» و«بيت»[2] ومواضع أخرى في شمال غربي البحر الميت وشمالي غربي بحر الجليل ووجدت فؤوس حجر يدوية من أدوار هذه العهود في مواضع أخرى في عقيق نهر الأردن، جنوب جسر بنات يعقوب[3]، كما وجدت آثارها أيضاً في رأس الشمرة (أوغاريت القديمة).

أما بقايا الإنسان العظمية من النصف الأول من العصر الحجري القديم فلم يعثر بعد على نماذج لها، ولكن مما لا مراء فيه أن تكون من نوع الإنسان العتيق البائد (Palaeoanthropic) الذي عاش في مثل هذه الكهوف التي عددناها لحمايته عن الأمطار والبرد القارس واتقاء شر الحيوانات المفترسة. وقد عاشت أنواع من الحيوانات انقرض معظمها، كحيوان الرنة (الرنديز) (Rhinoceros) وفرس الماء وبعض الحيوانات الشبيهة بالفيل. وكان المناخ مختلفاً عمّا هو عليه الآن بشدة برده القارس، إذ إنه مع عدم تقدم طبقات الجليد (الثلاجات) إلى سوريا الجنوبية إلا أن المناخ كان قارساً من أثر العصور الجليدية التي عمّت أوروبا، أما في الشرق الأدنى فكان على ما ذكرنا

---

(1) انظر بحث ذلك في المرجع الآتي:

G. Zumoffen, **La Phénicie Avant les Phéniciens** (Beirut, 1900).

ومجلة (**Anthropos**, III (1906), 431 ff.

(2) Dorothy A.E. Garrod G.D.M. Bates **The Stone Age of Mount Carmel** (Oxford, 1937).

(3) انظر المجلة التي تصدرها دائرة الآثار في فلسطين.

The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine, VI (1936), 214 ff.

سابقاً يقابل مثل هذه العصور الجليدية عصور ممطرة (Pluvial Period). وإذا انتقلنا إلى النصف الثاني من العصر الحجري القديم فتكثر لدينا الهياكل البشرية العظمية، كما وجدت في كهوف جبل الكرمل مثل «مغارة الطابون» و«مغارة السخول»[1] وفي كهوف أخرى حيث وجدت معها آلات من النوع المسمى بالمستيري (Mousterian) (من حدود 100000)، أما أنواع هذه الهياكل فبعضها شبيه بإنسان النياندرتال وبعضها يقرب من نوع الإنسان الحديث (Hamo Sapiens) ولعلها تكون حلقة الاتصال في تطور الإنسان من النوع العتيق البائد إلى نوع الإنسان الحديث وقد سمي هذا النوع بإنسان «فلسطين». وكان الإنسان لا يزال يعيش في الكهوف، واستعمل أسلوباً جديداً في صنع أدوات الصوان حيث استعمل الشظايا بعد هندمتها آلات له. وتوجد في جامعة بيروت الأمريكية نماذج ممثلة لآثار العصور الحجرية القديمة. وهناك أمارات على تبدّل في المناخ حدث في أواخر العصر الحجري القديم في بلاد الشام، من الرطوبة إلى الجفاف، ويسمى الطور الأخير من العصر الحجري القديم في أوروبا باسم الطور «الأورغنيشي» الذي وجد ما يضاهي أدواته وآلاته في الكهوف القريبة من بيروت مثل كهوف نهر الكلب وكهف أنطلياس[2]، كما وجدت حديثاً (1938) في كهف يسمى «كسار العقيل»[3] قرب أنطلياس مع هياكل عظمية.

العصر الحجري الحديث:

قبل أن ينتقل الإنسان في سوريا إلى العصر الحجري الحديث انتقل من العصر الحجري القديم إلى فترة فاصلة بين الطورين سبق أن أشرنا إليها في

---

(1) انظر: Garrod G Bates, Op. Cit., chaps. 4-7.

(2) انظر مجلة «الكلية»، مجلد 12 (1926).

(3) انظر مجلة المشرق (1947) ص 74 فما بعد وانظر أيضاً:

J.F. Ewing, «Aurignacian Man in Syria», in Amer. Jour. of Physical Anthropology IV, (1946), 252 ff.

تأريخ العراق القديم باسم العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) الممثل في بلاد الشام أحسن من غيرها من أقطار الشرق الأدنى (من حدود 10,000 ق.م) حيث أطلق عليه الباحثون اسم الدور «النطوفي»، كما وجد في فلسطين في الموضع المعروف باسم «وادي النطوف» (شمال غربي القدس) في كهف اسمه «الشقبة» نقِّب فيه في عام 1928 ووجدت له آثار أخرى ممثلة في مواضع أخرى في فلسطين[1] حيث يقدر بأنه دام إلى حدود 6000 ق.م.، ويميز من الناحية الأثرية بدقة أدوات الصوان من ناحية صغر حجمها مما يعرف باسم (Microlith). ووجدت مناجل من الصوان في هذا العهد ولكن استعمال الإنسان لها في حصد الحبوب المزروعة أمر غير مؤكد. واستطاع الإنسان في نهاية هذا العصر (أي العصر الحجري الوسيط) من تحقيق ما أسميناه بالانقلاب العظيم في حياة الإنسان، في تعلمه الزراعة وتدجين الحيوان وصنع الفخار الساذج، وتوجد في ديار الشام أنواع من الحيوانات صالحة للتدجين، كما يوجد الشعير والقمح على هيئة وحشية برية في شمالي سوريا[2]. وعلى نحو ما رأينا في كلامنا على العصر الحجري الحديث في وادي الرافدين كانت زراعة الإنسان في هذا العصر محدودة أي بمقياس صغير وأكثر ما تتّصف بإنتاج الاكتفاء الذاتي، كما أن الإنسان لم يستقر استقراراً دائمياً، إذ كان يتنقل من موضع لآخر كلما استنفد خصب شقة الأرض التي يزرعها، وزرع الإنسان إلى جانب القمح والشعير بعض الحبوب الأخرى كالذرة، وتعلم من بعدئذ زراعة أشجار الأثمار والعناية بها على هيئة بساتين، كما بدأ الإنسان في بعض أنحاء سوريا يسكن في بيوت من الطين كما يدل على ذلك نماذج بيوت الطين التي عثر عليها في أثناء التنقيبات في «أريحا» (في فلسطين) وفي الجديدة ورأس الشمرة (أوغاريت القديمة)[3]، ووجدت قرى أخرى من العصر

---

(1) D.A.E. Garrod in **the Palestine Exploration Fund** (1928).

(2) P. Hitti, **Op. Cit.**, p.16.

(3) Garstang, **The Story of Jericho** (London, 1940); C.F. Schaeffer, **Ugaritica** (Paris, 1939), 3 - 4.

الحجري الحديث في سوريا مثل جبيل، وسنعود فنذكر مثل هذه المواضع في كلامنا على العهد الذي أعقب العصر الحجري المتأخر، وهو العهد الذي أطلقنا عليه اسم العصر الحجري المعدني، لأن آثاره الممثلة قد وجدت في هذه المواضع وفي مواضع أخرى في لبنان وسوريا وفلسطين وهي تقوم فوق آثار القرى الصغيرة من العصر الحجري الحديث.

العصر الحجري المعدني:

بما أننا سبق أن ذكرنا ميزات العصر الحجري المعدني في كلامنا على العراق فلا نكرر ذلك إلا بأن نذكركم بأن أهم ما يميز هذا العهد من حيث التقدم الحضاري بداية معرفة الإنسان باستعمال المعادن ولا سيما النحاس، ثم البرونز، ولكن الإنسان في جميع أنحاء الشرق الأدنى بوجه عام لم يستغن عن الحجر في صنع أدواته وآلاته المهمة، وهذا هو منشأ مصطلح العصر الحجري المعدني (Calcholithic)، ومن الخصائص المهمة التي تميز هذا العهد من الناحية الآثارية الأواني الفخارية الملونة الجميلة التي عمّت صناعتها جميع أنحاء الشرق الأدنى، والجدير بالذكر بهذا الصدد أن الطور الذي سميناه باسم «حلف» في العراق المتميز بأواني الفخار الدقيقة الصنع الملونة بعدة ألوان إنما اشتق اسمه من اسم تل حلف (گوزان القديمة) في سوريا على الخابور حيث اكتشفت آثار الطور المميزة لأول مرة[1]، ووجدت أيضاً في جهات أخرى في سوريا مثل رأس الشمرة وفي العراق مثل الأربجية وتل بلا وغيرها وفي وادي الأردن في الموضع المعروف باسم «تليلات الغسول» (بفتح الغين وتشديد السين)[2]، أما عهد العصر

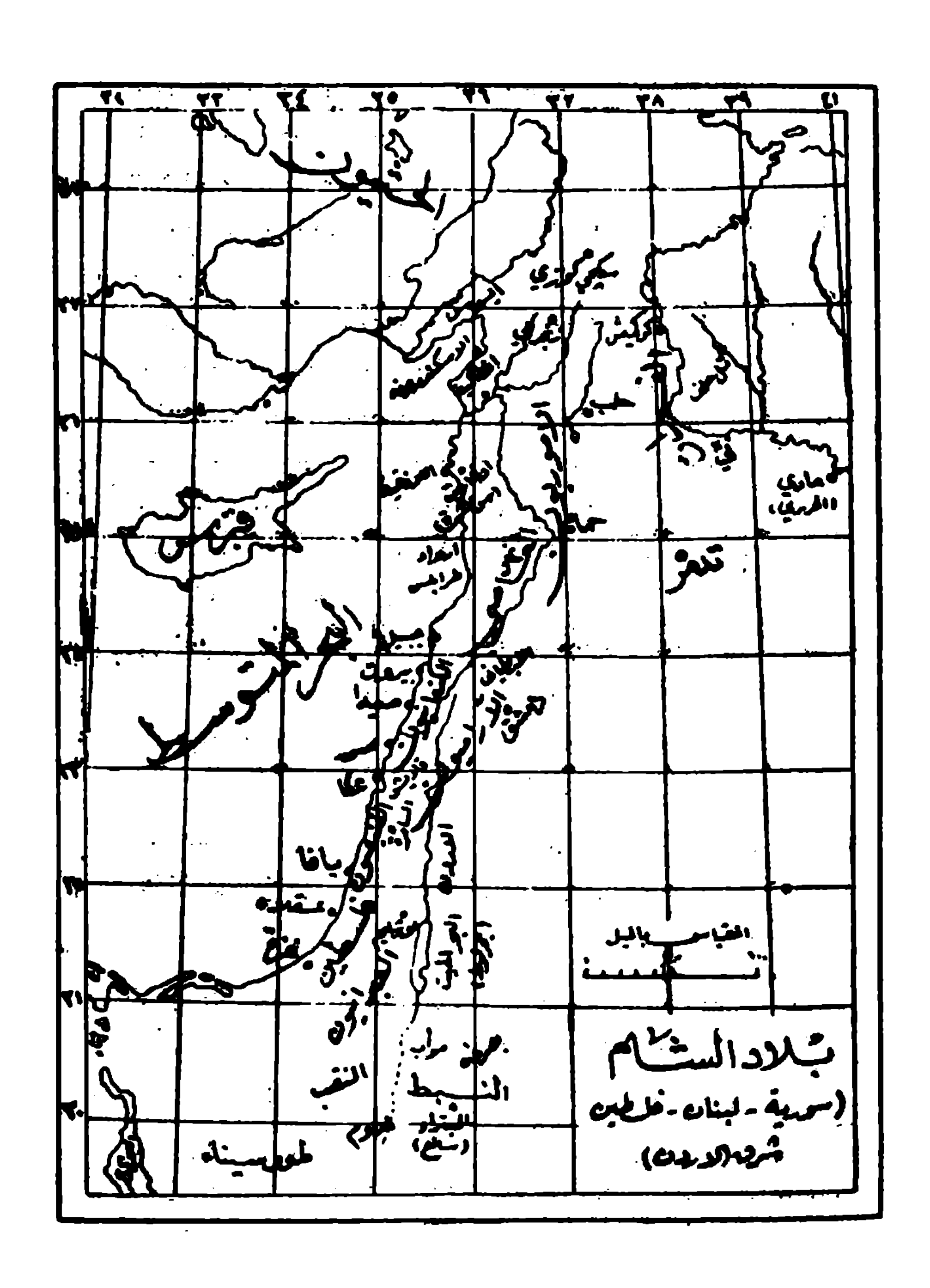
---

(1) Von Oppenheim, **Der Tell Halaf** (Berlin, 1943).
Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952) 110 ff. 217 ff.

(2) يقع بنحو 5,5 كم شرق الأردن. وقد نقبت فيه في عام (1929 ـ 1932) بعثة آثارية من المعهد التوراتي في روما .(The Pontifical Biblical Institute)

انظر: A. Mallon et al, **Teleilàt Chassul** II (Rome, 1934), Robert Koeppel, **Teleilàt Chassul, II** (Rome, 1940); Childe, ibid, 229 - 230.

الحجري المعدني في بلاد الشام فقد استغرق الألف الرابع ق.م. تقريباً، وأعقب طور هذا الموضع (أي حلف) بداية استعمال البرونز في بلاد الشام كما وجدت آثاره في جملة مواضع وبوجه خاص في «مجدو» وأريحا حيث اتسعت القرى وأصبح بعضها مدناً صغيرة محصنة بأسوار. وعندما نصل إلى نهاية هذا العهد في بلاد الشام نكون قد وصلنا إلى عهد نضج الحضارة الراقية في وادي الرافدين حيث تغلغلت تأثيراتها في بلاد الشام، كما يدل على ذلك نشوء جملة مواضع تمثل الحضارة السومرية مثل «ماري» (تل الحريري). وهذه هي العهود التي سنتكلم عنها الآن.


بلاد الشام
(سورية - لبنان - فلسطين
شرقي الأردن)
المقياس بالميل
تدمر
قبرص
حلب
يافا
عكا
النقب
النبط
طور سيناء

الفصل الثامن والعشرون

الأقوام السامية في بلاد الشام
الأموريون والكنعانيون والفينيقيون

1 ـ الأموريون[1]:

يمثل لنا استيطان الأموريين في بلاد الشام أولى الهجرات السامية الكبرى في هذه البلاد وهي الهجرات السامية التي أطلق عليها الباحثون اسم الأقوام السامية الغربية ولغاتها «اللغات السامية الغربية» تمييزاً لها عن الكتلة الشرقية التي تمثلها اللغة الآكدية وفروعها البابلية والآشورية في العراق واللغات العربية الجنوبية. أما سكان بلاد الشام قبل مجيء أولى الهجرات السامية إليها في الألف الثالث ق.م. أي في عصور ما قبل التأريخ التي تكلمنا عنها في الفصل السابق فلا نعرف عنهم حقائق مؤكدة على الرغم من العثور على كثير من الهياكل العظمية، ولكن المرجّح كثيراً أنهم لم يكونوا من عرق واحد ولا يُستبعد أن يكون بينهم بعض الساميين والسومريين والحوريين وغيرهم من الأقوام المنحدرة من الجماعات التي استوطنت بلاد الشام منذ العصور الحجرية القديمة. ومهما كان الحال فالأموريون أول قوم ساميين نعرف اسمهم الخاص وأخبارهم التأريخية. ويرجّح كثيراً كما سنشير إلى ذلك في موضع آخر، أن الكنعانيين جاؤوا أيضاً إلى بلاد الشام مع الأموريين في هجرة كبرى واحدة، ولكن الأموريين هم الذين اشتهروا بتكوينهم دولاً مهمة قبل الكنعانيين.

---

(1) يراجع ما ذكرناه سابقاً عن الأقوام السامية وعائلة اللغات السامية وفروعها في كلامنا على تأريخ العراق القديم (الجزء الأول، الفصل السابع)، وما ذكرناه أيضاً في الفصل السابع والعشرين من هذا القسم.

أما اسم الأموريين فقد أطلقه عليهم سكان وادي الرافدين، من المصطلح السومري «مارتو» (ومنه الكلمة الآكدية أمورو)، وكذلك يقال في أصل اشتقاق اسم المدينة الأمورية «ماري» (تل الحريري) وأطلقوا أيضاً اسم «بلاد مارتو» على الغرب، وأطلقوها توسعاً على جميع بلاد الشام[1]، حتى أنهم دعوا البحر المتوسط باسم آخر بالإضافة إلى اسم «البحر الأعلى أو البحر الكبير» هو «بحر أمورو العظيم». ومما لا شك فيه أن اتصالات واسعة مهمة قد نشأت بين سكان وادي الرافدين وبلاد سوريا على أثر الفتوح الآكدية المشهورة التي درسناها في تأريخ العراق. ومما يدل على هذه الاتصالات أن أول ذكر للأموريين في أخبار ملوك وادي الرافدين قد جاء في أخبار الملك الآكدي الشهير سرجون[2]، مؤسس السلالة الآكدية (في حدود 2350 ق.م)، وقد تمركز الأموريون في مبدأ أمرهم في الأقسام الشمالية من بلاد الشام ثم أخذوا من بعدئذ ينتشرون في أواسط سوريا وفي لبنان حتى امتدوا جنوباً إلى فلسطين. وقد أظهرت التحريات الحديثة في سوريا الشمالية (في مدينة ماري مثلاً) وجود مواطن ازدهرت فيها حضارة وادي الرافدين من العهد الشبيه بالكتابي (الوركاء وجمدة نصر كما في تل براك والخابور) قبل مجيء الأموريين إلى سوريا، وقبل أن يغزو سرجون الآكدي بلاد الشام ويتصل بالقبائل الأمورية. ومما لا مراء فيه أن هذه القبائل الأمورية البدوية قد تعلمت من هذه المراكز الحضارية السومرية، ودخلت في طور التحضر والمدنية، وتصف لنا هؤلاء الأموريين بالبدو قبل تحضرهم نصوص جاءتنا من المآثر السومرية، «وكيف أنهم كانوا بدواً متجولين لا يعرفون سكنى البيوت ولا يعرفون الزرع

---

(1) ومن الطريف التنويه به هنا أن منشأ مصطلح «مارتو»، و«أمورو» أي بلاد الغرب بالنسبة إلى وادي الرافدين مثل المصطلح الذي أطلقه عرب الجزيرة على بلاد سوريا أي الشام (اليسار أو الشمال).

(2) A. Poebel, **Historical Texts** (1914), p.17.

والفلح ولكنهم تعلموا ذلك بعدئذ»[1]، ونجدهم بعد حين من تعلمهم من حضارة وادي الرافدين في سوريا يؤسسون دويلات مهمة في الفرات الأوسط قامت من بعد الدولة السومرية في «ماري» في الألف الثاني ق.م.، وتكوّنت لهم علاقات مهمة مع بلاد الرافدين كما أنهم أسسوا سلالات حكمت في العراق نفسه مثل سلالة «ايسن» التي قامت على أنقاض سلالة أور الثالثة السومرية[2]، وكان أصل سلالة بابل الأولى (التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي) من الأموريين أيضاً، ويرجّح أيضاً أن السلالة المهمة التي تأسست في بلاد آشور واشتهرت بملكها «شمسي ـ أدد» أصلها أيضاً من الساميين الغربيين، أي من الأموريين.

ولنعد إلى ذكر بعض الأشياء المفيدة عن مدينة ماري التي قلنا إن الأموريين أسسوا فيها عاصمتهم في الألف الثاني ق.م. على أنقاض الحضارة السومرية. فقد أسسوا في الفرات الأوسط دولة مهمة ضمت إليها بعدئذ معظم البلاد السورية، وظلّت مزدهرة إلى أن قضى عليها حمورابي وضمها إلى أمبراطوريته. وقد أظهرت لنا التنقيبات الخطيرة التي قام بها الفرنسيون حديثاً في «تل الحريري»[3]، ماضي هذا الموطن الآثاري الحافل

---

(1) انظر النص المنشور في:

Edward Chiera, **Sumerian Religious Texts** (1924), 20 - 21.

(2) ومن الأخبار التأريخية الطريفة التي تشير إلى علاقات الأموريين بالسلالات الحاكمة في العراق أن أحد ملوك سلالة أور الثالثة (شو ـ سين) قد شيّد سوراً في أور وسماه بعبارة تصفه بأنه (الجدار الذي يصدّ الأموريين) وحاربهم آخر ملوك هذه السلالة المسمى «أبي ـ سين» حيث جاء في إحدى سني حكمه المؤرخ بها: «لقد أخضعت مارتو الذين قوّتهم كالعاصفة والذين لا يعرفون المدنية منذ القدم».

(Reallexikon der Assyriologie, II, 144 - 80).

(3) كانت هذه التنقيبات بإدارة الآثاري الفرنسي (أندريه بارو) (André Parrot) وقد أسفرت هذه التنقيبات عن نتائج خطيرة لا يزال درسها والبحث فيها مستمرين من جانب العلماء وللوقوف على نتائج هذه البحوث الكثيرة المنشورة في المجلات العلمية مثل مجلة (Syria, 1937 ff.) والنشرات الخاصة انظر:

André Parrot, **Archéologie Mesopotamienne,** 2 vols. 1946 - 1953.

بعهوده منذ عصور فجر السلالات السومرية وما قبل ذلك بقليل، كما كشفت لنا أيضاً عن البقايا المهمة في هذه المدينة في عهد سلالتها الأمورية، كالقصر الملكي الواسع[1] الذي عثر فيه المنقبون على أكثر من 20,000 لوح من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري واللغة الآكدية ولكن لهجتها تميل إلى السامية الغربية (الأمورية) وهي تتضمن أنواعاً مهمة من الوثائق والسجلات الملكية والخاصة، ومنها الرسائل والوثائق التجارية والإدارية الخاصة بأحد ملوك سلالة «ماري» الأمورية المسمى «زمري ـ ليم» (1730 ـ 1700 ق.م)[2]، وكان هذا آخر ملك من هذه السلالة حيث قضى على مملكته حمورابي البابلي. إن هذه الوثائق المدوّنة قد ألقت ضوءاً كاشفاً على جوانب مهمة في تأريخ بلاد الشام والأموريين بوجه خاص في الألف الثاني ق.م. وتأريخ الشرق الأدنى بوجه عام، ففيها ندرس الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والمعتقدات الدينية والعلاقات الدولية بين سوريا ودول وادي الرافدين وعن تعاصر ملوك ذلك الزمان[3]، كما فيها نواح مهمة عن الحياة السياسية. فندرس منها مثلاً أن مدينة ورد اسمها بهيئة «خلبو» (أي حلب) كانت عاصمة مملكة أمورية اسمها «يمخد»، وأن أحد ملوكها كان اسمه

---

(1) إن هذا القصر يعدّ من المآثر المهمة في تأريخ حضارات الشرق الأدنى فهو قصر واسع يشغل مساحة تقدّر بنحو ستة «إيكرات» ووجد فيه أكثر من (300) حجرة زيّنت جدران الكثير منها بصور ملوّنة زاهية كما وجدت فيه عدا الساحات والمرافق الأخرى مواضع خاصة للحمامات، ووجدت في بعض الحجرات دكاك ومناضد لعلها تشير إلى المدرسة.

(Hitti, **Op. Cit.**, 68; **Syria**, XVII (1936) XXIX (1952); Frankfort, **Art and Architecture in the Ancient Orient** (1954).

(2) حول هذه الوثائق انظر مجلة:

(Syria, XIX (1938) XX (1939); J.R. Kupper, **Archives royales de Nari** (1948).

(3) لقد سبق أن ذكرنا في كلامنا على ضبط تسلسل أدوار التأريخ في العراق القديم وأدوار السلالات الحاكمة أن الباحثين المحدثين استندوا من جملة ما استندوا إليه من المصادر إلى وثائق مدينة ماري ولا سيما ما يتعلق منها بالتعاصر بين حمورابي وبين ملوك سلالة ماري.

«يريم ـ ليم»[1]، وأن مدينة «جبلا»[2] (وهي جبيل) كانت من المراكز الصناعية المهمة للنسيج وأن مدينة أخرى باسم «قطنا»[3]، كانت مركزاً تجارياً مهماً لسلالات الحكام الأموريين.

إن هذه المآثر وغيرها لتشير إلى ازدهار ملحوظ كانت عليه الدول الأمورية، ومما لا مراء فيه أن تكون أهم عوامل هذه الازدهار زراعتها الجيدة المعتمدة على خصب أراضيها وكثرة أمطارها المساعدة والاعتناء بالشؤون الزراعية، وإلى هذا العامل كان هناك عامل خطير آخر هو ازدهار تجارتها وعلاقاتها التجارية مع أقطار الشرق الأدنى كما أنها كانت واسطة للتجارة المهمة بين أقطار البحر المتوسط وبين بلاد ما بين النهر، فكانت بذلك أيضاً واسطة لنشر الثقافة والتأثيرات الثقافية.

والجدير بالذكر بمناسبة كلامنا على الوثائق التي وجدت في القصر الملكي في ماري أن الأموريين لم يخلفوا لنا كتابات مهمة بلغتهم الأمورية الخاصة[4] (أو بالأحرى بلهجتهم) وإنما اتخذوا اللغة البابلية القديمة التي شاعت آنذاك كلغة رسمية للتدوين، ولكن مع ذلك فإن لغتهم شبيهة باللهجة الكنعانية بحيث يمكن عدهما لهجتين متقاربتين، اللهجة الكنعانية الشرقية (أي الأمورية) واللهجة الكنعانية الغربية (أي الفينيقية). أما ديانتهم فهي تشبه في أصلها ديانة الأقوام السامية البدائية التي تدور بالدرجة الأولى على عبادة الظواهر الطبيعية وتشخيصها بهيئة آلهة ذات صفات آدمية. كما أنهم اتخذوا بعض الآلهة الشهيرة من حضارة وادي الرافدين مثل الإلهة عشتار[5]. وكان من

---

(1) انظر: Albright in **The Bullt. of the Amer. Sch. of Orient. Res.** No. 67 (1937)

(2) بضم الجيم الملفوظ كافاً فارسية وتسكين الباء.

(3) بفتح القاف وفتح الطاء (أو تسكينها)، وتقوم خرائبها الآن في التل المعروف باسم «المشرفة» شمال شرقي حمص.

(4) من الأشياء التي خلفوها في لغتهم أسماء ملوكهم وحكّامهم وأسماء جملة مواضع في سوريا.

(5) من الصور الطريفة التي وجدت تزين جدران القصر الملكي في ماري صورة تمثل أحد ملوك المدينة (الذي يرجّح كونه «زمري ـ ليم») وهو يتسلم شارات السلطان من الإلهة عشتار (انظر الصورة المنشورة في حتي «تأريخ سوريا» (Hitti, **Op. Cit.**, p.69)

آلهتهم الخاصة الإلٰه «أمورو» (مارتو)[1] ومعه آلهة أخرى جاءتنا أسماؤها مع الآلهة الكنعانية (حيث حافظ الكنعانيون على الديانة الأمورية وعلى آلهتها) مثل «حدد» (حداد أو هدد)[2]، إلٰه المطر والزوابع، ومثل وهو مقترن مع الثور وشرارة الصاعقة. ويرجّح كثيراً أن نفس هذا الإلٰه قد عُبد من بعد ذلك في جهات بلاد الشام باسم «بعل». ومن آلهة الأموريين أيضاً إلٰه جاء اسمه عند الفينيقيين باسم «رشف» وسماه الآراميون «ريشوف»، والمرجّح أنه من الآلهة ذات العلاقة بالنار، وقد اتخذه المصريون في عهد الأمبراطورية. وعبدوا أيضاً إلٰهاً مهماً دخلت عبادته إلى حضارة وادي الرافدين هو الإلٰه «داجون» أو «دجان» (بلفظ الجيم كافاً فارسية) وأصله من الآلهة المتعلقة بالخصب والطعام[3]. ويعزى إلى الأموريين أنهم هم الذين أدخلوا إلى أنحاء سوريا الجنوبية عبادة نوع من الأنصاب كانت بهيئة أعمدة من الحجر تنصب قائمة في مواضع مطهرة كالكهوف في الغالب مع مذبح من الحجر[4] والمرجّح كثيراً أنهم هم الذين أدخلوا إلى بلاد الشام عادة تقريب الابن البكر وكذلك عادة التضحية في أسس البناء (تضحية الأطفال الآدميين) وهي عادة استمرت إلى زمن العبرانيين.

ومما لا شك فيه أن الدويلات الأمورية قد استعادت استقلالها من بعد عهد ضمها المؤقت إلى أمبراطورية حمورابي وظلّت كذلك إلى زمن تأسيس الأمبراطورية المصرية، فدخلت في العلاقات الدولية المعقدة التي تكوّنت

---

(1) وكانت عبادة هذا الإلٰه معروفة في وادي الرافدين. وكان للإلٰه «أمورو» الأموري إلهة زوجة هي «عشرتا» (أو اشيراتا)، إلهة الحب والشهوة والقوة، وهي شكل من أشكال عشتار البابلية (انظر الأسطورة الخاصة بزواجه في **S. N. Kramer, Sumerian Mythology**.

(2) مما لا شك فيه أن يكون هذا الإلٰه نفس الإلٰه الذي عُبد في ديانة العراق القديم باسم «أدد» إلٰه الرعد والزوابع والصواعق، ولا يعلم بوجه التأكيد هل أصل «أدد» البابلي من الإلٰه السوري أم العكس، ولعل الرأي الأول هو المرجّح. وسمي «حدد» أو «أدد» باسم آخر هو «رمان أو رمانو» أي المرعد.

(3) لقد وجد المنقبون في رأس شمرا (أوغاريت) معبداً خُصّص لعبادة هذا الإلٰه.

(4) انظر التوراة (سفر الخروج 20: 25).

آنذاك بين دول الشرق الأدنى ولا سيما بين المصريين والبابليين والآشوريين والحثيين. ودخلت تحت النفوذ المصري على ما بيّنا في كلامنا على الأمبراطورية المصرية في تاريخ مصر. ومما يقال بوجه الإجمال إن بلاد الشام أصبحت مدار النزاع والكفاح بين الأمبراطورية المصرية وبين الأمبراطورية الحثية المنافسة لها في بلاد الشام التي أصبحت من جرّاء هذا التنازع في فوضى ضاربة، فقسم منها كان موالياً لمصر وقسم حافظ على استقلاله وقسم كان متقلباً في ولائه فمن حوادث هذا العهد الطريفة في سوريا ما نقرؤه في الرسائل الشهيرة (رسائل العمارنة)[1] عن علاقة أحد الأمراء الأموريين المسمى «عبد ـ عشرتا» (أو عبد ـ اشرتا) الذي كان يتظاهر في ولائه وتبعيته لمصر[2] وينتهز فرص النزاع بين الحثيين والمصريين على بلاد الشام. وكان هذا يحكم في مملكة مركزها في أعالي نهر العاصي، ومع تظاهره بالولاء للفرعون المصري إلا أنه كان يساعد الحثيين في غزوهم إقليم السهل الكائن بين أنطاكية وجبال «أمانوس»، كما أنه استولى لحسابه الخاص على مدن كثيرة في الساحل وفي داخل البلاد، وخلفه ابنه المعروف باسم «عزيرو» الذي سار على خطة أبيه ووسع من حدود مملكته أيضاً في حماه وإقليم دمشق. وكان للمصريين على بلاد الشام والٍ من قبلهم اسمه «رب ـ عدي». وكان هذا يرسل الرسالة تلو الأخرى إلى سيده الفرعون المصري مبيناً فيه مؤامرات «عبد ـ عشرتا» وابنه

---

(1) جاءت أخبار هذه العلاقات المعقدة في الرسائل الشهيرة باسم «رسائل العمارنة» المدوّنة بالخط المسماري واللغة البابلية، وهي الرسائل التي قلنا إنها الرسائل التي تبادلها ملوك الشرق الأدنى والرسائل المتبادلة بين ملوك مصر وولاتهم في بلاد الشام، والرسائل المتبادلة بين ملوك مصر وملوك بابل وآشور، انظر نشرها في:

J.A. Knudtzon, **Die el-Amarna Tafein** 2 vols. (1908).

(2) انظر الرسالة رقم 66 في ذات المصدر المنشورة فيه تلك الرسائل. وهي الرسالة التي أرسلها إلى سيده الفرعون المصري أمنحوتب الثالث (1375) يظهر فيها ولاءه ويتعهد بولاء الأموريين أيضاً.

«عزيرو»[1] الذي وجد الفرصة سانحة على أثر ضعف الأمبراطورية المصرية في عهد الملك أمنحوتب الرابع (وهو أخناتون صاحب الثورة الدينية في مصر) فتشجع في غزو المدن والأقاليم السورية التابعة إلى مصر على الرغم من تحذير الوالي المصري «رب ـ عدي» للبلاط الفرعوني[2]، ويبدو أن «عزيرو» قد اتفق مع الحثيين على اقتسام البلاد السورية، ولكن قام بذلك بدهاء إذ استطاع أن يخدع البلاط المصري في ولائه حيث ذهب بنفسه إلى مصر مؤكداً خضوعه ولكن لما عاد إلى بلاده استمر في تعاونه مع الملك الحثي «شبوليوليوما» ونجح الطرفان في زعزعة أسس الأمبراطورية المصرية في سوريا بحيث اضطرت مصر إلى التخلي عن سوريا الشمالية وعن بلاد فينيقيا، وثبت الحثّيون فتحهم لشمالي سوريا وسوريا الوسطى.

الكنعانيون والفينيقيون:

لقد سبق أن نوّهنا بالصلة القريبة بين الأموريين وبين الكنعانيين[3] أو

---

(1) انظر الرسالتين رقم 75، و85 في المرجع السابق.

(2) انظر الرسالة رقم 109.

(3) لا يعلم بوجه التأكيد أصل اسم الكنعانيين، فكان يظن أن اسم «كنعان» من كلمة سامية تعني الشيء الواطىء أي الأرض الواطئة بالإشارة إلى موطنهم في الساحل (من جذر «كنع» و«خنع») بالمقابلة مع الأراضي الجبلية العالية المحاذية لموطنهم، ولكن رأي الباحثين حديثاً يميل إلى اشتقاق اسم «كنعان» من أصل غير سامي، حيث يرون اشتقاقه من كلمة «حورية» تعني الصبغ القرمزي، إذ يبدو أن هذا الإقليم اشتهر بصناعة هذا الصبغ لما اتصل الحوريون ببلاد سوريا في القرن الثامن عشر أو السابع عشر ق.م. ومن الأصل الحوري لاسم كنعان جاءتنا الصيغ المشهورة في البابلية مثل «كنخني» والكلمة الواردة في رسائل تل العمارنة «كنخي»، والكلمة الفينيقية «كينع» والعبرانية كنعان وكذلك يقال في اسم «فينيقية» (Phoinix) حيث ارتُئِي اشتقاقه من الكلمة اليونانية التي تعني القرمز أو الأرجوان وتشير إلى صناعة الأصباغ القرمزية التي اشتهر بها الساحر. انظر:

(Hitti, Op. Cit., p.79; Albright in **Studies in the History of Culture** (1942) p.25; **Classical Philogoty**, XXXVI (1941), 1 ff.

وصارت كلمة «فينيقي» تُستعمل مرادفة لكلمة «كنعاني» منذ القرن الثاني عشر ق.م.

الفينيقيين كما سمّاهم اليونان بعدئذ، حيث قلنا إنهم على ما يرجّح من قبيلة سامية كبرى واحدة نزحت إلى ديار الشام في هجرة واحدة، ويفسّر لنا ذلك ما لاحظناه من التشابه اللغوي والقومي بين الأموريين والكنعانيين بحيث يصح عدّ اللغتين الأمورية والكنعانية لهجتين من فروع كتلة اللغات السامية الغربية (أي اللغات السامية في سوريا)[1]، والاختلافات الموجودة بين القومين ناشئة بالدرجة الأولى من استيطان كلّ منهما في قسم خاص من بلاد الشام حيث التأثيرات الثقافية الأجنبية التي أثرت في كل منهما وهو في هذا الموطن الخاص به. فالأموريون تمركزوا أولاً في شمالي سوريا، وكان أكثر تأثرهم الثقافي من حضارة وادي الرافدين، وقد دخلت فيهم عناصر من السومريين والحوريين، أما الكنعانيون فإن حقيقة كونهم استوطنوا السواحل بالدرجة الأولى جعلتهم يتأثرون من الناحية الثقافية بحضارة مصر بالدرجة الأولى، كما أن عناصر محلية أخرى كانت موجودة قد دخلت معهم وهم في موطنهم هذا.

وكان اسم بلاد كنعان يطلق في مبدأ الأمر على الساحل والقسم الغربي من فلسطين، ولكنه عمّ استعماله بعدئذ وشمل قسماً كبيراً من سوريا وأطلق على كل فلسطين أيضاً، كما نجد ذلك في الأقسام القديمة من التوراة حيث أطلقت صفة كنعاني على جميع سكان فلسطين بدون تمييز عرقي، وكذلك سميت اللهجات السامية في فلسطين. وتدل أسماء كثير من المواضع في فلسطين وفي لبنان على قدم استيطان الكنعانيين في هذا الجزء من البلاد الشامية، حيث تشير أسماء مثل هذه المدن إلى أصلها الكنعاني. ومن الأمثلة على ذلك مدينة «أريحا» (Jericho) التي يعني اسمها الكنعاني «يريحو» مدينة القمر، ومدينة «بيسان» (بيت ـ شان، أي بيت الإله شان)، و«مجدو» أو «مجدون»[2]، وقد أبانت التحريات الآثارية الحديثة أن هذه

(1) بالأحرى اللغات السامية الشمالية الغربية تمييزاً لها عن فرع آخر من اللغات السامية الغربية يمكن تسميته بالفرع الشمالي، وهي اللهجات العربية الشمالية، أما اللغات العربية الجنوبية فتُصنَّف مع كتلة اللغات السامية الشرقية (أي مع الآكدية والبابلية والآشورية).

(2) من جذر جد، وجذ أي قطع، ويعرف موضعها الآن باسم «تل المتسلم».

المدن الكنعانية قد أسست في حدود منتصف الألف الثالث ق.م. وهناك أسماء مدن سامية أخرى يرجّح أصلها الكنعاني، وقد وردت أسماؤها في النقوش الكتابية في منتصف الألف الثاني مثل «عكا»[1]، وصور[2] وصيدا[3] وجبيل (جبلا).

وما قلناه عن الظروف التأريخية التي أحاطت بالأموريين من وجودهم بين حضارتين معظمتين (حضارة وادي النيل ووادي الرافدين) مما عرقل تكوين دول معظمة في بلاد الشام ينطبق أيضاً على الكنعانيين والفينيقيين، بالإضافة إلى قربهم من دولة معظمة أخرى هي الدولة الحثية. وإلى ذلك فإن الآشوريين بدأوا في إنماء قوّتهم السياسية وأخذهم مكان الأمبراطورية المصرية في بلاد الشام، وسنجد أن الآراميين من بين الأقوام السامية الأخرى قد تعرّضوا إلى أعظم الضغط والتدمير من الدولة الآشورية. وبالنظر إلى مثل هذه الظروف التأريخية فإن الكنعانيين لم يتح لهم تكوين دولة كبيرة موحدة، وإنما كانوا منقسمين إلى وحدات أو دويلات صغيرة على غرار دول المدن حيث مركز الدويلة مدينة مهمة محصّنة ذات قلاع وحصون لدفع غائلة الهجوم. ولكن لم تسلم مثل هذه المدن ودويلاتها من أن تكون فريسة للغزو من الخارج، ومما سهّل ذلك أنها لم تكن متّحدة بل كانت في نزاع وحروب فيما بينها في الغالب. وكانت المستوطنات الكنعانية في مبدأ أمرها منتشرة في طوال الساحل من جبل الأقرع (كاسيوس) إلى جبل الكرمل جنوباً، ثم اضطرت هذه المستوطنات إلى التمركز بعدئذ في سفوح جبال لبنان للاستفادة من حماية هذه الجبال الطبيعية من خلفهم أكثر مما كان يمتاز به جبل الكرمل أو جبل الأقرع وجبال أمانوس في الشمال. وهكذا نشأت أهم المدن الكنعانية الدائمية في

---

(1) «عكو»، التي تعني الرمال الحارة، وسميت باليونانية باسم (Ptolemais).

(2) (Tyre)، من «سور» أو «صور» أي صخر.

(3) صيدون من الصيد (أي صيد السمك) واسم الإله «صيدون» الكنعاني ـ الفينيقي.

سفوح لبنان مثل «طرابلس»[1] و«بترونا»[2]، وجبيل و«بيروت»[3] وصيدا وصور و«عرقة»[4] وفي الجنوب غزة[5] وعسقلان (عسقلون القديمة) في الساحل وهناك مدن أخرى في الأرض الداخلية مثل «جزير»[6] (جازر) و«مجدو» وأورشليم[7] وغيرها.

وكان كل من هذه المدن وغيرها نواة لمستوطن على هيئة دويلة صغيرة أشبه ما يكون بالوضع السياسي في بلاد اليونان، ولكن مما خفّف عزلة هذه الدويلات بعضها عن بعضها وعدم تكوينها وحدة سياسية كبرى أنه كانت تنشأ فيما بينها بين الحين والحين اتحادات أو جامعة دويلات مؤقتة إما بسبب اتفاق مصالحها أو بسبب أخطار تهددها، فكانت إحداها تتزعم مثل هذه الاتحادات، كما حدث لمدينة «أوغاريت» في أواخر القرن السادس عشر ق.م. وجبيل في القرن الرابع عشر وصيدا في مطلع القرن الحادي عشر ثم خلفتها صور وصارت أقوى الدويلات ولا سيما في عهد ملكها الشهير حيرام. ومن الأمثلة

---

(1) هذا هو اسم المدينة اليوناني (Tripolis) (أي المدن الثلاث)، ولا يعرف اسم المدينة بالفينيقية.

(2) وهي البترون الآن واسمها باليونانية «بوتريس» (Botrys).

(3) وقد وردت في رسائل العمارنة بهيئة «بيروتا»، والصيغة المصرية «بئروتا» و«بيروت» بالسامية جمع بئر.

(4) وهكذا تعرف الآن وهي مدينة قريبة من طرابلس (نحو 12 ميلاً إلى الشمال الشرقي منها) وذكرت في المصادر الكلاسيكية باسم «أركا» (Arka).

(5) غزة ترادف الكلمة العربية «عزة» أي القوة والمنعة. وتعرف خرائب المدينة القديمة الآن باسم تل« العجول» بفتح العين وتشديد الجيم.

(6) وتعرف الآن باسم تل الجزر جنوب شرقي الرملة، وقد وجدت فيها في التنقيبات الحديثة آثار عصور ما قبل التأريخ.

(R.A. Macalister, **The Excavation of Gezer**, 3 vols. (1912).

(7) اسم المدينة من أصل كنعاني من «يرو ـ شالم» أو «يرو ـ شلم»، و«شالم» أو «شلم» اسم إله كنعاني معنى اسمه السلام، ونجده يدخل في أسماء أعلام عبرانية مهمة مثل «أبشالوم» (أي أبو السلام وهو ابن داود)، وسليمان أيضاً، وهناك اسم إله آشوري هو «شلمانو» نجده يدخل في أسماء أعلام مهمة مثل «شيلمنصر» «شلمانو أشاريدو».

على نشوء الأحلاف لدرء خطر الغزو الخارجي الحلف العسكري الشهير بزعامة «قاديش» على العاصي، وهو الحلف الذي سحقه الفرعون المصري طوطمس الثالث في موقعة مجدو الشهيرة (1479 ق.م)، وقد استفاد الكنعانيون من العربة والخيول التي أدخلها الهكسوس[1] في أثناء إقامتهم في سوريا في حدود القرن الثامن عشر ق.م.، وقد شملت ثقافة الهكسوس في سوريا القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م.، ومن سوريا بدأ الهكسوس يتغلغلون إلى مصر ثم غزوها ومكثوا فيها في حدود 1730 ق.م.

ومن المدن الشهيرة التي تستحق التنويه بها بوجه خاص، جملة مدن ساحلية مثل صور وصيدا وأرواد (أرادوس)، عُرفت بمآثرها الحافلة في التأريخ وبتحصيناتها الطريفة، فقد كانت محصّنة بسورين، كما أنها كانت كل منها عبارة عن مدينتين: مدينة في الساحل، حيث يستوطن فيها الناس لأداء شؤونهم الاعتيادية كالتجارة والزراعة، والأخرى في جزيرة قريبة ملاصقة يعتصم بها السكان في أثناء الغزوات والأخطار الآتية من المجازات الجبلية. ويتجلّى ذلك في المدن الثلاث التي عددناها حيث لا تزال آثار المدينة الساحلية التابعة لأرواد[2] وبقربها الجزيرة الصغيرة التي كانت ذات أبنية شاهقة مؤلفة من عدّة طوابق، واشتهرت مثل هذه الجزر بمهارة أهاليها في طرق جمع مياه الشرب من الأمطار التي تجمع مياهها من السطوح في أحواض خاصة، ثم زيادة هذا

(1) انظر الكلام على الهكسوس في تأريخ مصر، ونذكر هنا بمناسبة استيطانهم في سوريا أن آثارهم وجدت في جملة مواضع مثل «قطنا» التي يرجّح أنها كانت عاصمتهم (وهي كما قلنا تعرف خرائبها الآن باسم المشرفية شمال شرقي حمص) وفي مواضع في فلسطين مثل «شكيم» (وتعرف الآن باسم البلاطة قريباً من نابلس) وفي «الخيش» (تل الدوير الآن) وشاروهين وأريحا وكانت حصناً مهماً للهكسوس، واشتهرت مواضع الهكسوس في سوريا بشكل حصون مُحاطة بخنادق المياه، كما أنهم فرضوا الحكم الإقطاعي على سوريا، حيث كانوا طبقة حاكمة مؤلفة من نبلائهم وصنفوه من المحاربين بالعربات الحربية.

(2) وتسمى خرائبها الآن طرطوس شمال «عمريت» حيث خرائب المعبد والمقابر لا تزال تُشاهد، وسماها الصليبيون «توتوسا».

المصدر باستخراج الماء من بعض الينابيع تحت الأرض في الجزيرة. وكانت صور أيضاً على شاكلة «أرواد» كما ذكر المؤرخ «سترابون»[1]. ولما أن حاصر الإسكندر الكبير المدينة بنى رصيفاً من الساحل إلى الجزيرة طوله نحو نصف ميل، وقد أظهرت التحريات الحديثة في المدينة الكائنة في الجزيرة حيث جرى التحري في البحر وما أخذ لها من الصور الفوتوغرافية من الجو أن الميناء الرئيسي كان في الطرف الجنوبي من الجزيرة، وأنه كان للمدينة سد عظيم يحميها (هو الآن تحت السطح بنحو 50 قدماً) كان طوله زهاء 750 متراً وثخنه نحو ثمانية أمتار، وكان لها أسوار ضخمة وحصنان عظيمان في كل طرف[2]، والمأثور أن الملك «حيرام» الشهير المعاصر لسليمان هو الذي جعل صورَ في عهده أمنع وأقوى ميناء بحري في ساحل البحر المتوسط، وكوّن لها أمبراطورية تجارية واسعة. وكان «حيرام» المذكور على صلات حسنة مع الملك العبراني سليمان (أوائل القرن التاسع ق.م) وتاجر معه حيث ساعده في بناء معبد الهيكل في القدس مقابل ما دفع الملك العبراني من الذهب والفضة والحبوب. ونشأت بين الفينيقيين والآشوريين علاقات واسعة، وكانت بلاد فينيقيا تتقي شر الآشوريين بدفع الهدايا والجزية، فاستفاد الفينيقيون من ذلك في استمرار تجارتهم، ولكن أحد ملوك الآشوريين وهو شيلمنصر الثالث (القرن التاسع ق.م) أراد بسط الحماية الآشورية على بلاد الفينيقيين فهاجم بلادهم واستولى على كثير من مدنهم. وفي عهد الأمبراطورية الآشورية الثانية تحسنت العلاقات نوعاً ما مع الفينيقيين حيث ساعد هؤلاء الملك الآشوري «آسرحدون» على غزو مصر بأن أمدّوه بالسفن والرجال والمال. وظل الفينيقيون في ازدهارهم وصلاتهم الحسنة مع الدولة المعظمة التي قامت في

---

(1) انظر وصف ذلك الوارد في «سترابون» (Strabo, Bk. XVI, ch.2) المعبد والمقابر لا تزال تُشاهد، وسماها الصليبيون «توتوسنا».

(2) انظر «حتي» ذات المصدر ص 84 والمصدر المشار إليه.

(A. Poidebard, **Un Grand Port disparu: Tyre** (Paris, 1939).

الشرق من بعد البابليين مثل الفرس الإخمينيين. واشتهرت صور بأنها تحدّت الإسكندر الكبير في فتوحه للشرق، ولم يستطع أخذها إلّا بعد حصار دام زهاء عشر سنوات.

الحياة الاقتصادية:

وإذا لم تستطع الدويلات الكنعانية ـ الفينيقية أن تكون دولاً كبيرة تشتهر بالفتح والغزو فإن الكنعانيين وجهوا همهم إلى تنمية نواحي الحياة الأخرى كالزراعة والصناعات المهمة والتجارة الخارجية وإقامة المستعمرات التجارية خارج موطنهم على ما سنبيّن فيما بعد. وكانت الزراعة والصيد (ولا سيما صيد الأسماك) والتجارة الخارجية أسس الحياة الاقتصادية عند المجتمعات الكنعانية، ومع أن الرقاع القابلة للزراعة غير واسعة إلا أنهم استغلوا كل بقعة في الجبال مهما صغرت، حتى أنهم غرسوا شرفات الجبل بالأشجار المثمرة، كالكروم والتين والرمان والتفاح. واستغلوا كذلك زراعة أشجار الزيتون. وكان الفلاحون يكونون الطبقات الدنيا في المجتمع، والصناع والتجّار الصغار الطبقة الوسطى في المدن الكنعانية بالمقارنة مع ملاك الأرض الكبار الإقطاعيين.

ومن الصناعات المهمة التي اشتهر بها الصنّاع الكنعانيون والفينيقيون صنع الفخار الذي بلغ طوراً عالياً من الإتقان من منتصف الألف الثاني ق.م.، واستعار الفخارون الكنعانيون دولاب الخزاف من بلاد ما بين النهرين، كما تأثرت صناعة الفخار السورية منذ 1500 ق.م. بقبرص ومسين من البلاد الإيجية. وعرفوا تعدين النحاس والبرونز منذ بداية الألف الثاني ق.م.، وبدأوا يستعملون الحديد بكثرة منذ الألف الأول ق.م.، وقد ساعدتهم أسفارهم التجارية البعيدة للحصول على المعادن كالقصدير لصنع البرونز والبحث عن الذهب والفضة، وترقى فن الصياغة عندهم في القرن السادس عشر ق.م.، وقد مدح هوميروس الشهير المعدّنين الفينيقيين (في الإلياذة الشهيرة). واشتهر الفينيقيون بصناعة العاج النفيسة حيث صنعوا من العاج والعظم أدوات جميلة. وقد جاءتنا أقدم آثار عاجية من القرن الرابع عشر

ق.م.، وكثرت هذه الصناعة واشتهرت في جميع أنحاء العالم المعروف كما في الأمشاط التي كانت تصدّر إلى أنحاء بعيدة، إلى إسبانيا مثلاً.

وبرع الكنعانيون والفينيقيون في صناعة الزجاج، حتى أنه يؤثر أنهم هم الذين أوجدوا هذه الصناعة[1]، ولكن الثابت تأريخياً أن المصريين القدماء عرفوا صناعة الزجاج قبل الفينيقيين (منذ القرن الثامن عشر ق.م)، ونذكر من الصناعات الوطنية المهمة أيضاً، صناعة النسيج مثل نسيج الأقمشة الصوفية منذ منتصف الألف الثاني ق.م.، وعرفت المنسوجات القطنية في الأزمان المتأخرة، وقد رأينا كيف أن الملك الآشوري «سنحاريب» قد أدخل زراعة (الأشجار التي تحمل الصوف) إلى العراق. ويبدو أن صناعة المنسوجات القطنية قد انتقلت من سوريا إلى اليونان في العهود الهلنستية ومعها اسم القطن من اللغات السامية. والمرجّح أن نسيج الكتان كان معروفاً أيضاً في القرن العاشر ق.م.، كما ترجّح معرفة الحرير في صور في القرن السادس ق.م. ومن الصناعات المهمة التي نوّهنا بها سابقاً بالنسبة إلى علاقتها باسم (كنعان وفينيقيا)، صناعة الأصباغ ولا سيما القرمز والأرجوان، وقد وردت الكلمة الأخيرة (أرجمن) في كتابات أوغاريت القديمة (رأس الشمرة)[2]، حيث تكثر في السواحل الفينيقية أنواع المحار التي يستخرج منها صبغ الأرجوان[3]

---

(1) لعل منشأ ذلك من رواية المؤرخ الطبيعي الشهير «بليني» الذي يروي أن جماعة من التجار كانوا يطبخون بالقرب من عكا واستعملوا (أثافي تحت القدور) قطعاً من النطرون الذي كان محملاً في سفنهم، فاكتشفوا وجود حجارة شفافة بسبب اختلاط النطرون بالرمل وانصهاره.
(Pliny, **natural History**, Bk. XXVI, ch. 65).

(2) انظر: **Journal Asietique** CCXXX (1938), 146.
وفي الكتابات الآشورية ذكر الصبغ بهيئة «أرجمانو» (بلفظ الجيم كافاً فارسية) وبالعبرية (أرجامان).

(3) واسمها العلمي (Murex Trunculus).
واستعملت أقوام أخرى مثل الإيجيين واليونان لاستخراج هذا الصبغ الخاص بعض الحيوانات المفصلية وتروي لنا الأساطير اليونانية أن هيلين الطروادية حينما كانت في الأسر كانت مرة تتمشى في الساحل وكان يصاحبها كلبها، فشاهدت أن هذا قد اصطبغ فمه بلون جميل=

واشتهرت صور بهذه الصناعة شهرة واسعة[1] حيث يوجد قرب صور وصيدا نوع ممتاز من المحار الخاص بصبغ الأرجوان، كما أنها كانت تستورد كميات أخرى من قرطاجة وتونس، وكان هذا الصبغ غالياً جداً لأن طريقة استخراجه معقدة تتطلب الدقة وبذل الجهود. وبالإضافة إلى الأرجوان اشتهر الفينيقيون بصناعة صبغ القرم (Crimson) المستخرج عادة من حشرات خاصة في أشجار السنديان أو البلوط (Oak)[2].

وسننوّه بوجه خاص في صناعة بناء السفن التي اشتهر بها الفينيقيون شهرة واسعة عند كلامنا على أسفارهم البحرية وتأسيسهم المستوطنات التجارية في الخارج.

الأسفار البحرية:

اشتهر الفينيقيون بالملاحة العالمية، ولعلهم كانوا أعظم الأقوام القديمة في هذا الشأن[3]. فقد وجد فينيقيو الساحل اللبناني الضيق أنفسهم في شقة ضيقة من الأرض، أمامهم البحر ووراءهم جبال لبنان الحاجزة لهم نوعاً ما من الاتصال بالداخل، ولكن هذه الجبال زوّدتهم بأنواع قوية جيدة من الخشب، فاستجابوا لهذه الأوضاع الناشئة من بيئتهم مستغلين إمكانياتها بأن صنعوا السفن وعوّلوا على الملاحة أولاً بمقياس صغير في صيد الأسماك وتصريف

= أحمر بسبب أكله محارة خاصة بذلك الصبغ، فأعجبت باللون حتى أنها اشترطت على كل خاطب لها أن يقدم لها رداء مصبوغاً بالأرجوان قبل أن تجيبه إلى طلبه.

(1) قارن الصفة الإنجليزية (Tyrian Purple). حول الروايات المختلفة عن صنع صبغ الأرجوان وتأريخ الصناعة في العهود المتأخرة انظر: (Hitti, Op. Cit., 94 ff.)

(2) انظر بحث المؤلف في نباتات العراق القديم في مجلة سومر 1952 ـ 1953.

(3) السبب في وضع هذه الحقيقة بقيد الاحتمال ترجيح استثناء أهل جزر بحر إيجة (وهم أهل الحضارة المينية) الذين اشتهروا بالملاحة حتى أن اليونان سموا مملكة مينوس في كريت بالمملكة البحرية. كما أن هناك احتمالاً باتصال الفينيقيين بالإيجيين وأخذهم عنهم بعض عناصر الحضارة، ولا سيما فن الملاحة. وتعلموا كذلك من حضارة مصر القديمة.

بضائعهم في المواطن القريبة من سواحل البحر المتوسط الشرقية، ولكن سرعان ما تطوّرت خبرتهم في الملاحة البحرية فوسعوا من مقياس بناء السفن وامتدوا في أسفارهم البحرية البعيدة، موغلين في البحر المحيط، حتى أنهم احتكروا أشهر الطرق البحرية الموصلة بين أقسام العالم المعروف آنذاك، وإليهم يرجع الفضل في الكشف عن مجاهل المحيط الإطلنطيقي، وأسدوا خدمة جلى في نشر حضارات الشرق القديم ونشر ثقافاتهم الخاصة إلى عوالم نائية مظلمة لم تكن قد أشرقت عليها أنوار المدنية. كما أنهم أخذوا من نهاية القرن الثالث عشر أو الثاني عشر ينشئون لهم مستعمرات ومستوطنات تجارية سنذكر أشهرها فيما بعد. وكانت أشهر الطرق البحرية وأول طريق مهم بين مدينة «جبيل» وبين «مصر»، وكان هذا الطريق قد بدأ به الملاحون المصريون وكانت جبيل مركزاً مصرياً مهماً للتجارة والملاحة[1]. ومن الطرق البحرية المشهورة التي طرقها الملاحون الفينيقيون بعد طريق «جبيل - مصر» الطريق الذي كان يربط أيضاً صور وصيدا بمصر وبقبرص إلى الشمال، وكان ينعطف غرباً من قرب خليج طوروس ويمر من ليقية (Lycia) ثم يمر من جنوب رودس ومن كريت وقورسيرا[2] إلى صقلية، ثم من الجزيرة «قورسيرا» إلى المستعمرات الفينيقية في شمالي أفريقيا، ومن هنا غرباً إلى مستعمراتهم في إسبانيا، لأن الفينيقيين احتكروا ملاحة البحر المتوسط وتجارته بحيث يصح القول إنه كان بحرهم الخاص قبل أن يدّعيه الرومان في العصور المتأخرة. وبالإضافة إلى ما نوّهنا به من خدمتهم في نشر الحضارة فإنهم أسدوا خدمات جليلة إلى فن الملاحة البحرية وأصولها ومبادئها، فإليهم تعزى الاستفادة من النجم القطبي في تعيين الاتجاه في السير، ومهروا في الملاحة الليلية على هدي النجوم. وقد سمى اليونان النجم القطبي باسم الفينيقيين. كما يجب أن نذكر لهم فضلاً آخر هو كونهم أقدم كاشفين جغرافيين في البحر، فمن أعمالهم

---

(1) انظر ذلك في تاريخ مصر.

(2) (Corcyra) وتسمى حديثاً بنتليريا (Pantelleria) وهي «قوصرة» الواردة في كتب البلدانيين العرب.

العظمى في الملاحة البحرية إبحارهم حول سواحل أفريقيا سابقين البرتغاليين بهذه المأثرة من الكشوف الجغرافية بأكثر من ألفي عام. والذي وجّه الملاحين الفينيقيين وساعدهم في إنجاز ذلك العمل الباهر أحد فراعنة مصر من السلالات المتأخرة (وهو ينخو 609 ـ 593 ق.م. من السلالة السادسة والعشرين) الذي أعاد حفر القنال القديم الذي يربط الفرع الشرقي للنيل بالبحر الأحمر[1]، وقد استغرق طوافهم حول القارة زهاء عامين. ويروي لنا هيرودوتس بهذه المناسبة رواية طريفة يقول فيها عن الفينيقيين بأن البعض يعتقد أنهم بإبحارهم حول ليبيا (أي أفريقيا) كانت الشمس على يمينهم، ولكن شيخ المؤرخين لا يصدق بذلك، مع أن الذي أنكره من هذه الحقيقة يثبت في الواقع حجة الرواية، لأن السفن عندما تبحر غرباً حول رأس الرجاء الصالح فإن شمس النصف الجنوبي من الكرة الأرضية تكون على يمينهم.

هذا وقد جاءتنا نماذج من صور السفن الفينيقية من حدود 1400 ق.م. وهي مصوّرة في المآثر المصرية[2]، وكانت أقدم سفنهم تسير بالمجاذيف والأشرعة كما وردت إلينا نماذج أخرى من سفنهم وهو مصورة في المنحوتات الآشورية وبوجه خاص في منحوتات قصر سنحاريب (في حدود 700 ق.م) وفي مقدمها عمود من الحديد (ram) مدبّب حاد لاستعماله في الهجوم، وكان بعض هذه السفن ذات طابقين، ويعزى إلى الملاحين الفينيقيين استعمال صفين أو أكثر من المجاذيف والجاذفين، أحدهما فوق الآخر. وقد يصل عدد المجاذيف في العهود المتأخرة زهاء 50 مجذافاً، أما الطابق العلوي فخصص لركوب المسافرين. وبمناسبة كلامنا على صور السفن الفينيقية في المنحوتات الآشورية نذكر ما اشتهر به الفينيقيون من أنهم كانوا يقومون بصنع السفن والأساطيل لحساب الدول والأقوام الأخرى، كما كانوا يساعدون حلفاءهم أيضاً من الدول الكبرى في الغزوات البحرية، ونذكر للأمثلة على ذلك تجهيز

Hitti, Op. Cit., 100. (1)

(2) حول وصف هذه السفن وصورها انظر ذات المصدر (رقم 3، ص 349) ص 99 فما بعد.

الملك حيرام، ملك صور، صديقه وحليفه سليمان بالسفن[1]، وقاموا بمثل ذلك للملك الآشوري سنحاريب في غزوه البحري لبلاد عيلام.

وإلى الطرق البحرية كان للفينيقيين محطات برية أيضاً لإنماء تجارتهم ومن أشهر هذه المراكز التجارية الأديسة (الرها)، ولعله «نصيبين» أيضاً، ويقال إنه كانت لهم مواضع في خليج العرب تربطه والبحر الهندي بالبحر المتوسط. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن مآثر الفينيقيين ترجع أصلهم إلى سواحل خليج العرب حيث تروى أنه كانت لهم مدن أسماء بعضها أرواد وصور وصيدا قبل استيطانهم في ساحل البحر المتوسط السوري[2].

أشهر مستوطناتهم ومستعمراتهم في الخارج:

ومن مظاهر نشاطهم التجاري ومهارتهم في الملاحة البحرية تأسيسهم المستعمرات المهمة خارج بلادهم، وقد بلغ بعضها مركزاً مهماً مشهوراً في التأريخ، واّتبعوا أساليب ناجحة في إقامتهم مثل تلك المستعمرات. فبالنظر إلى ضيق رقعة موطنهم الأصلي واتساع تجارتهم الخارجية كانوا يحتاجون إلى مراكز في أنحاء سواحل البحر المتوسط لتسهيل شؤون تلك التجارة، وكانوا يقيمون مثل هذه المستعمرات أولاً بمقياس صغير على هيئة مركز تجاري أو صناعي ويذهبون لإعماره بهيئة جماعة قليلة فلا يثيرون الشبهات حولهم ولا عداء المواضع التي يحلون فيها، كما أنهم لم يفرضوا سلطانهم السياسي، وامتازوا بقابلية التكيف مع العادات والأوضاع الجديدة على «نحو ما يفعل المهاجرون اللبنانيون في الأزمان الحديثة»[3] فيصيبون النجاح والفلاح. ثم تنمو مثل هذه المراكز التجارية والصناعية وترتبط بعضها ببعض، وتتحوّل الجماعة التجارية إلى مستوطن نامٍ دائم مرتبط بالتجارة البحرية بالبلد الأصلي. والمعتقد أن مستعمراتهم في شرقّي البحر المتوسط، وأشهرها قبرص، كانت أقدم من

---

(1) التوراة، سفر الملوك الأول 9: 27.

(2) Hitti, ibid., 100; Strabo, Bk. XVI, ch.3.

(3) انظر: (Hitti, Op. Cit., 102).

مستعمراتهم الأخرى في وسط هذا البحر مثل صقلية وسردينية التي يرجع عهدها إلى حدود منتصف القرن الحادي عشر ق.م.، ثم تلا هذه المستعمرات في القدم مستوطناتهم في شمال غربي أفريقيا وإسبانيا. ويرجّح كثيراً أن تونس في إقليم تونس الآن (واسمها القديم عوتيقا)[1] وقادس[2] في إسبانيا قد تأسستا في حدود (1000) ق.م.، ويليهما المدينة الشهيرة قرطاجة.

هذا وإن النقوش الفينيقية المكتشفة في سردينية وقبرص لا يمتد عهدها إلى ما قبل القرن التاسع ق. م، وأشهر هذه النقوش نقش الإله «بعل لبنان» الذي وجد في قبرص ويرجع عهده إلى منتصف القرن الثامن ق. م. فيبدو أن أعظم دور في نشاط الفينيفيين في إقامة مستعمراتهم في غربي البحر المتوسط كان بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الثامن ق. م.

وقد سبق أن نوّهنا بالاكتشاف الخطير الذي حقّقه الفينيقيون في الملاحة البحرية، ذلك هو ملاحتهم في المحيط الأطلسي، فإن إنشاءهم لمركزهم المهم في قادس فيما وراء أعمدة هرقل (المقابل لجبل طارق) قد جعلهم يكتشفون ذلك الأقيانوس[3] الذي سماه العرب ببحر الظلمات، وعنهم تعرف اليونان بذلك البحر. ولا يعلم إلى أي مدى تغلغل الفينيقيون في هذا المحيط الواسع، ويرى بعض الباحثين أنهم وصلوا إلى إنكلترا (إقليم كورنوال) بحثاً عن القصدير. ولا يقرّ هيرودوتس أنهم وصلوا إلى جزائر القصدير[4] القريبة

---

(1) (Utica) أي المدينة «العتيقة» تمييزاً لها عن قرطاجة (قرت حدشت) أي القرية الحديثة التي تأسست من بعد تونس في حدود 850 ق.م.

(2) اسم قادس مشتق من كلمة فينيقية تعني الجدار، ومنها اسم المدينة بالبربرية «أجادير»، و«أغادير» من الجدار.

(3) لا يعلم مدى صحة الآراء التي ساقها بعض الباحثين من أن الكلمة الإغريقية «أوقيانوس» (Okeanos) ومنه الكلمة الإنجليزية (Ocean) مشتقة من الكلمة السامية «عوج» (بلفظ الجيم كافاً فارسية) التي تعني «الدائرة»، أي الشيء المحيط كالدائرة (انظر المراجع المذكورة في (Hitti, Op. Cit., 103).

(4) كاستيراديز (Cassiterides)، (من الكلمة اليونانية للقصدير (Kassiteros) ومنه الكلمة العربية قصدير.

من «كورنوال»، وهي الجزائر التي يقول عنها ذلك المؤرخ إنها مصدر قصدير اليونان. أما المؤرخ «سترابون» (أواخر القرن الأول ق.م) فيرى عكس ذلك من أن الفينيقيين احتكروا تلك التجارة في الأزمان القديمة من قادس، وكانوا يخفون طريق الوصول إليها عن كل أحد. ومهما كان الحال فالمعروف، كما يروي المؤرخ «ديودوروس الصقلي»[1]، أن القصدير كان يحمل من بريطانيا إلى سواحل فرنسا ومن ثم إلى مرسيليا[2]، وقد عثر على نقش فينيقي في بريطانيا هو الوحيد من نوعه. وتعليل وجوده على الأرجح أنه جلبه أحد الجنود أو العمال الرومان بعد استعمارهم لإنكلترا واحتلالهم قرطاجة أيضاً[3]. ووجد أحد المنقبين في غزة قرطاً ذهبياً يعتقد المنقب الذي عثر عليه أن أصله من إيرلندا وتأريخه من حدود 1450 ق.م.[4].

وهناك أسماء عدة مواضع في إسبانيا أصلها من الفينيقية مؤيدة ما سبق أن ذكرناه عن المستعمرات التي أقامها الفينيقيون في إسبانيا كما توجد أيضاً أسماء مواضع في بلاد اليونان أصلها من السامية حيث تقرن بها عدّة أساطير متعلقة بالفينيقيين مما يدلّ على مدى الانتشار الذي حقّقه الفينيقيون من الناحية التجارية والثقافية[5].

---

(1) (Diodorus Siculus) الذي عاش في القرن الأول للميلاد.

(2) واسمها القديم مسيليا (Massilia) وكانت مستعمرة يونانية، ولعلها تقوم على موضع مستعمرة فينيقيا أقدم منها .(Hitti, **Op. Cit.**, 104).

(3) انظر مجلة .**Iraq, VII** (1940), 67 ff.

(4) Flinders Petrie, **Ancient Gaza**, II (1932), p.7 المشار إليه في .(Hitti, **Op. Cit.**, 104).

(5) حول هذه الأسماء الفينيقية في إسبانيا واليونان راجع (Hitti, **Op. Cit.**, 105, 106) أما عن الأساطير فننوّه بالأسطورة اليونانية الطريفة عن الإله اليوناني الأعظم «زوس» وكيف أنه انقلب ثوراً واختطف «يوروبا» العذراء الجميلة من الساحل السوري، وكانت «يوروبا» ابنة الملك الفينيقي «اجينور» (أو فينيق (Phoenix) بحسب الإلياذة) وجلبها إلى كريت، وعاد إلى شكله الأصلي وتزوجها فولد من هذا الزواج الملك الكريتي الشهير «مينوس»، وسميت قارة أوروبا باسم تلك العذراء الفينيقية «يوروبا».

قرطاجة[1]:

لقد سبق أن نوّهنا بهذه المدينة الفينيقية المهمة التي تأسست قرب مدينة تونس التي قلنا إنها كانت أيضاً من المستعمرات الفينيقية قبل زمن تأسس قرطاجة، واشتهرت هذه المدينة بالإضافة إلى مركزها التجاري والبحري بأنها أصبحت قوة دولية معظمة كان لها دور مهم في التأريخ ولا سيما في علاقاتها مع الرومان. فإنها لم يكد يمضي عليها زمن طويل حتى زاحمت وطنها الأصلي الذي بدأ يخيم عليه الخمول في القرن الثامن، وكان من أسباب هذا التقهقر مزاحمة المستعمرين الإغريق وضربات الآشوريين لبلاد سوريا بوجه عام والمدن الفينيقية بوجه خاص. أما القرطاجيون فقد ازدهروا في التجارة والأسفار البحرية مع الشعوب المختلفة، ومع الأقوام الهمجية في سواحل أفريقيا، ومن طريف ما يرويه هيرودوتس عن أساليب القرطاجيين في التجارة مع هؤلاء الأقوام أن الملاحين عندما يصلون إلى سواحل أفريقيا الغربية يفرغون حمولة سفنهم على الساحل وينسحبون إلى سفنهم ويوقدون ناراً لينبِّهوا الأقوام الهمج على وجودهم، ولما أن يبصر هؤلاء هذه العلامة يأتون فيضعون ذهباً مقابل البضاعة المطروحة، وعندئذ ينزل القرطاجيون من سفنهم ويشاهدون كمية الذهب فإذا اقتنعوا بها فإنهم يأخذونها ويذهبون في طريقهم، وإلا انسحبوا مرة ثانية إلى سفنهم تاركين الذهب والبضاعة في محلها، وينتظرون محاولة أخرى من القوم، وهكذا يتمّ التبادل التجاري بهذه الطريقة من المعاملة الخرساء[2].

واتسعت قرطاجة بتجارتها وملاحتها ونفوذها بحيث إنها أنشأت منذ القرن السادس ق.م. أمبراطورية ممتدة من ليبيا[3] إلى أعمدة هرقل وكانت

---

(1) هناك مستعمرة فينيقية أخرى في إسبانيا اشتق اسمها من قرطاجة (Carthage) وهي قرطاجنة (Carthegena) التي تعرف الآن بهذا الاسم أيضاً في إسبانيا، فيجب عدم الخلط بين الاسمين.

(2) Herodotus, Bk. II, ch. 196.

(3) طرابلس الآن (Cyrenaica).

تضم إليها جزائر «بلريك» ومالطة وسردينية وجملة مستوطنات في الساحل الإسباني والفرنسي، وهكذا عوضت هذه المستعمرة الفينيقية عن وطنها الأم في صور وصيدا في عدم قدرتهما على إنشاء مملكة قوية موحّدة بسبب ضغط المصريين والآشوريين.

لقد سبّب هذا الاتساع التجاري البحري والاتساع السياسي اصطدام قرطاجة مع الدولة الرومانية الناشئة حيث أخذت تنازعها على سيادتها البحرية، وقد بلغت سيادة القرطاجيين في البحر المتوسط وسيطرتهم عليه مبلغاً بحيث إن الرومان حذروا من غسل حتى أيديهم في مياهه بدون موافقة قرطاجة. ويقال إن الرومان قلّدوا صناعة سفينة قرطاجية قد نبذت قرب سواحلهم وبنوا على شاكلتها 130 سفينة في ستين يوماً[1] وسرعان ما نشبت الحروب الطاحنة بين الطرفين التي دامت أكثر من مائة عام (264 ـ 146 ق.م) وعرفت في تاريخ الرومان باسم الحروب البونية (نسبة إلى اسم فينيقيا). وكانت آخر الحروب بقيادة هانيبال[2] (218 ق.م) الذي خلف أباه «هملكار» وهو شاب فأخذ يعدّ العدّة لحرب روما وقام بمشروع حربي خطير هو غزو إيطاليا من إسبانيا باجتياز الألب، وبعد خمس عشرة سنة من حروبه في التربة الإيطالية هوجمت في أثنائها روما نفسها، استدعى هانيبال إلى قرطاجة حيث أرسل الرومان حملة بحرية كبرى لمهاجمتها وكانت الموقعة الشهيرة «زاما» حيث دحر فيها هانيبال (196 ق.م)، فهرب إلى صور والتحق بالملك السلوقي أنطيوخس، ملك سوريا، وانضم إليه في حربه مع الرومان وانتحر في عام 183 ق.م. في آسيا الصغرى، وكان من أعاظم قواد الحرب في التأريخ. ومع رضوخ قرطاجة إلى الرومان ودفعها غرامة حربية كبرى فإن الرومان لم يتركوها وشأنها بل تحرّشوا بها وأعلنوا الحرب عليها مرة ثالثة، وعلى الرغم مما أبداه القرطاجيون من

---

(1) (Hitti, Op. Cit., 107).

(2) اسم هانيبال من الفينيقية «حني ـ بعل» أي (فضل بعل)، ويلقب أبوه باسم هملكار برقة (من البرق والصاعقة).

بطولة وتضحية فذتين فقد دارت الدائرة عليهم ولما يئسوا من الظفر أشعلوا النار في مدينتهم، وتمّم الرومان هذا التخريب بحيث زالت مدينة قرطاجة من الوجود في عام 146 ق.م.، وهكذا تفرّد الرومان بزعامة البحر المتوسط.

شيء عن الآداب والديانة عند الكنعانيين والفينيقيين:

الحروف الهجائية:

اشتهر الفينيقيون باقتران اسمهم بالحروف الهجائية من كونهم هم الذين يدين إليهم العالم بهذا الاختراع العظيم. وبالنظر لأهمية هذا الموضوع في تأريخ الحضارات البشرية نقول شيئاً موجزاً عمّا وصل إليه البحث الحديث في أصل ذلك الاختراع. ولكي يدرك القرّاء أهمية هذا الاختراع يلزم أن يعيدوا إلى أذهانهم ما قرأوه عن خطوط الحضارات القديمة (كالخط الهيروغليفي في حضارة مصر والخطوط المسمارية في وادي الرافدين وعند الأقوام الأخرى التي اقتبست الخط المسماري) وصعوباتها الجمة كأداة للكتابة من ناحية كثرة العلامات المستعملة وصعوبة فهمها وغموضها وعدم ملاءمتها الملائمة الكافية في تأدية أصوات اللغات البشرية، فهي مكوّنة من عدّة مئات من العلامات الناشئة عن أصل صوري بعضها يقوم مقام الكلمات[1]، وأنها حتى في انتقالها إلى الطور الصوتي لم تنتقل إلى الطور الهجائي الصرف بل استخدمت عدداً كبيراً (بالنسبة إلى حروف الهجاء القليلة) على هيئة مقاطع صوتية وظلّت مع هذا الانتقال تستعمل العلامات الرمزية. وقاربت الهيروغليفية أن تتطور إلى المرحلة الهجائية حيث قلنا إن المصريين القدماء خصصوا (24) علامة هيروغليفية استعملت بهيئة «هجائية مقطعية» (أي بهيئة حرف صحيح مع أي حرف علة)، كما استخدموا علامات أخرى لتقوم مقام حرفين صحيحين مع أي حروف علة. أما الكتابة المسمارية فقد ظلّت مقطعية صرفة. وبالمقابلة مع هذا الطرق الثقيلة من الكتابة اهتدى البشر إلى اختراع مبدأ الحروف الهجائية التي

---

(1) وهو الذي سميناه بـ (ideogram) أو (logogram).

ينبغي عدّه من بين الاختراعات العظمى في تاريخ البشر. فأين حدث هذا الاختراع؟ ومن هم القوم الذين أوجدوه؟ ولنسأل أولاً ما هي الحروف الهجائية بالمقابلة مع طرق الكتابة الرمزية والصوتية المقطعية؟ والجواب على ذلك باختصار أن الحروف الهجائية علامات مصطلح عليها، تقوم كل علامة منها للتعبير عن صوت واحد في الكلام[1]. وفي جوابنا عن أصل اختراع الحروف الهجائية سوف نقتصر على إيجاز أهم النتائج الحديثة في الموضوع[2] دون الدخول في المناقشات الفنية المعقدة، فنقول إن أصل حروف الهجاء لم يكن من الفينيقيين بوجه مباشر ولا تمثل أقدم حروفهم الهجائية أصل الحروف الهجائية في العالم، وإنما الذي يصحّ قوله في هذا الموضوع أن أصل الحروف الهجائية من كتابات الأقوام السامية الغربية (أي من سوريا بوجه التحديد) أي من منطقة جغرافيّة تمتد من طور سيناء إلى أقاصي حدود بلاد الشام شمالاً وغرباً. والأمر الثاني المهم حول أصل الحروف الهجائية أنها كما نعرفه وهي في طور نضجها لم تنشأ دفعة واحدة وهي كاملة النضج كما أننا لا نستطيع أن نعين بوجه التحديد المنطقة الخاصة من بلاد الشام التي اخترعت فيها الحروف الهجائية لأول مرة ولا القوم الخاصين الذين يرجع إليهم فضل اختراعها. وإنما وجدت أنواع كثيرة من النقوش السامية الغربية المدوّنة بأنواع من

---

(1) ومن ناحية الأصل التأريخي يمثل هذا الصوت الصوت الأول للشيء المادي الذي استعملت صورته المبسطة حرفاً هجائياً فمثلاً صوت الحرف (أ) هو الصوت الأول من لفظ ألف «وأليف، أو «ألبو» ومعناه الثور في اللغات السامية حيث أخذ شكل رأسه المبسط واستعمل بهيئة حرف للألف) وصوت «ب» مأخوذ من الصوت الأول للفظ «بيت» الذي استعملت صورته المبسطة حرفاً للباء وصوت (س) هو الصوت الأول من اللفظ (سن) أي السن الذي استعملت صورته حرفاً للسين) وهكذا. ونذكر بهذه المناسبة أنه مع ابتعاد الحروف الهجائية العربية الحالية عن أصلها الصوري فإن بعض حروفها لا يزال يمثل صور الأشياء التي استعملت أصواتها الأولى حروفاً، مثل حرف السين (س) وحرف العين (ع) الخ..

(2) انظر أحدث البحوث في الموضوع والإشارة إلى الآراء السابقة مع بحث قيم في طرق الكتابة المختلفة عند البشر في المرجع الآتي:

I.J. Gelb, A Study of Writing. The Foundations of Grammatology (1952).

مجموعات العلامات التي يصحّ أن نعدها أصل الحروف الهجائية الصرفة الناضجة، وقد بدأت مثل هذه النقوش تظهر منذ منتصف الألف الثاني ق.م. ونذكر فيما يأتي أشهر هذه النقوش بالنظر لأهميتها في علاقتها بأصل الحروف الهجائية:

(1) النقوش المشهورة التي وجدت على الأحجار والأنصاب في شبه جزيرة طور سيناء في الموضع المعروف باسم «سرابيط الخادم»، وقد أرّخت هذه في حدود 1600 ـ 1500 ق.م. وعلّل وجودها في هذه المنطقة أنها من آثار العمال الساميين الذين كانوا يشتغلون في مناجم سيناء[1]، وقد كتبت هذه النقوش بعلامات محدودة العدد، وقد استعملت بهيئة صوتية حيث تمثل كل علامة صوتاً خاصاً ولكن ليس الصوت الأول على الدوام أي إنها كانت أقرب ما تكون إلى «الهجائية ـ المقطعية».

(2) ووجدت حديثاً في جملة مواضع في فلسطين مثل «الخيش» (تل الدوير) ومجدو وشكيم (نابلس) وتل الحصى نقوش لكتابات كنعانية ـ فينيقية شبيهة بالهجائية وهي من أدوار مختلفة ولكن يرجع معظمها إلى ما قبل العهد العبراني وأقدمها يرجع في تاريخه مثل نقوش طور سيناء إلى حدود 1600 ـ 1500 ق.م.

(3) ومن الاكتشافات الآثارية الخطيرة ما وجد في رأس الشمرة (أوغاريت القديمة) قبل نحو 24 عاماً، حيث وجد فيها جملة ألواح من الطين مكتوب بنوع غريب من العلامات المنتهية بالمسامير على غرار شكل الخط المسماري البابلي، ولكنها ليست من نظام الخط المسماري بل إنها شكل من أشكال الحروف الهجائية، وعددها 29 علامة تعبّر عن الأصوات السامية المألوفة في اللغات السامية الغربية، ويرجع تأريخها إلى حدود 1400 ق.م. أما سبب شبهها بالعلامات المسمارية فناشىء من كتابتها على ألواح الطين

---

(1) انظر Gelb, Op. cit. والمرجع الآتي: BASOR, No. 110 (1948), 1 ff.

واستعمال القلم الخاص الشبيه بالقلم المستعمل في كتابة الخط المسماري البابلي[1].

(4) ومن أنواع الخطوط المهمة التي كشفت حديثاً خط وجد في الكتابات التي عثر عليها في جبيل ويرجع عهدها إلى حدود 1000 ق.م.، وبعضها نقوش تعود إلى الملك «أحيرام» ملك جبيل. وكانت هذه الطريقة من الكتابة أقرب الطرق وأنجحها في تأدية المبدأ الهجائي وتتألف من 22 حرفاً، والمرجّح فيها أيضاً أن منها اشتقّت الكتابات السامية الهجائية الأخرى التي تمثلها الفروع الرئيسية الآتية وهي:

(1) الفينيقية.

(2) الحروف الفلسطينية (العبرانية القديمة).

(3) الآرامية.

(4) العربية الجنوبية[2]. ولكن ذلك لا يعني بوجه التأكيد كون هذه الحروف الجبيلية التي هي أصل أنواع الحروف السامية قد اخترعت في جبيل بوجه خاص أو حتى في فينيقيا، بل إن ما وجد في جبيل حتى الآن يمثّل نموذجاً من هذه الحروف التي هي أقرب أنواع الحروف التي ذكرناها يكونها أصل الخطوط السامية الأخرى.

وموجز القول كان منشأ الحروف الهجائية من بلاد الشام من الأقوام

---

(1) انظر التوراة، سفر الملوك الأول 9: 27. والمرجع **Hans Bauer, Das Alphabet von Ras Shamra** (Halle, 1932).

(2) واشتقت من الحروف الفينيقية الحروف الإغريقية ومنها الأتروسكية ومن هذه اللاتينية ومنها سائر الحروف الأوروبية في القرون الوسطى. وتفرع عن الخط الآرامي الخط العبراني والهندي والخطوط المختلفة في تدمر وخط الأنباط والخط السرياني ومن النبطي تفرع الخط العربي، ومن الخط الآرامي أيضاً الخط البهلوي والأفستي والخط الأرميني والجورجي والصغدي والخط المندائي، ومن فروع الخط العربي الجنوبي الخط الثمودي واللحياني والصفوي والحبشي.

السامية التي استوطنتها، وأنها تتألف من عدد محدود من العلامات (22 ـ 30 علامة) تمثل أصوات اللغات السامية بحسب المبدأ الهجائي وبعضها كان صورياً وبعضها خطياً، فكيف نشأت هذه الطريقة العظيمة في الكتابة؟ وهل يرجع أصلها إلى الكتابة المسمارية أو إلى الكتابة الهيروغليفية؟ الواقع أن أقرب هذه الخطوط القديمة إلى الحروف الهجائية السامية هو الخط الهيروغليفي، فقد سبق أن ذكرنا عن هذا الخط أنه خليط من الكتابة الرمزية والكتابة «الهجائية ـ المقطعية»، إذ رأينا أن فيه 24 علامة تدل على الحروف الصحيحة مقرون كل منها بأي حرف علة. فإذا كان لا بدّ للساميين الذين أوجدوا الحروف الهجائية من تأثرهم بإحدى الطرق الكتابية في الحضارات القديمة فإن تلك الطريقة ينبغي أن تكون تلك المجموعة من العلامات الهيروغليفية المشابهة للمبدأ الهجائي. أما مدى الصلة بين هاتين الطريقتين من الكتابة وهل أن الحروف السامية الهجائية مشتقة من العلامات الهيروغليفية مباشرة أو أنها أخذت الحافز منها على نحو ما يراه الباحثون في صلة الخط الهيروغليفي نفسها بالخط المسماري القديم، فكل ذلك لا يمكن البتّ به على وجه التأكيد. وقد سبق أن ذكرنا اشتقاق الحروف الهجائية الإغريقية من الحروف السامية، عن طريق الفينيقيين على ما يرجّح، كما يقرّ الإغريق أنفسهم[1]، وكما تشير إلى ذلك أسماء الحروف الهجائية وترتيبها عندهم حيث احتفظ الكثير منها باسمه السامي[2]، وكذلك جعلت لها قيم عددية مطابقة لقيم الحروف الأبجدية السامية[3]. وقد حسَّن الإغريق في الحروف الهجائية التي

---

(1) حول هذا الموضوع الطريف راجع:

(1) M. Dunand, **Byblia grammata (Beyrouth**, 1945), 189 ff.

(2) G.R. Driver, **Semitic Writing** (London, 1948) 128 ff.

(2) I.J. Gelb, **Op. Cit.**, 176 ff.

(3) هناك اختلاف كبير حول الزمن الذي أخذ فيه الإغريق الحروف الهجائية من الفينيقيين ولعل القرن التاسع ق.م. أقرب الأزمان إلى الحقيقة، ويحتمل القرن الثامن أيضاً. I.J. Gelb, **Ibid**, 178.

استعاروها مثل اتخاذهم حروف العلة الطويلة والقصيرة وكتابتها ضمن الكلمات بخلاف الطريقة السامية بوجه عام، حيث خصّصوا بعض الحروف السامية التي يطلق عليها اسم الحروف الصحيحة الضعيفة وجعلوها حروفاً للعلة. كانت هذه التحسينات على درجة من الأهمية بحيث يميل بعض الباحثين إلى الرأي إن نظام الحروف الهجائية الصحيحة الناضجة لم يظهر بوجه كامل صحيح إلّا على أيدي اليونان[1].

وبعد هذا البحث الموجز عن أصل الحروف الهجائية ننتقل إلى ذكر بعض الأشياء العامة عن مآثر الآداب الكنعانية ـ الفينيقية.

ومما لا شك فيه أن الكنعانيين والفينيقيين كتبوا بعض آدابهم بالحروف الهجائية ولكن لم يأتنا من هذه أشياء كثيرة ولعلها كُتبت بالدرجة الأولى على مواد قابلة للتلف، كما استعملوا الخط المسماري البابلي في بعض مواطنهم. وقد دخل جزء مهم من آدابهم في تراث العبرانيين ولا سيما في كتاباتهم المقدسة كأقوال الحكمة والأمثال والمزامير ونشيد الإنشاد وبعض الأساطير مما جاء في سفر التكوين وسفر الأنبياء[2].

الاكتشافات الأثرية في أوغاريت:

ومما يؤيد الرأي الذي ذكرناه عن اقتباس العبرانيين من أدب الكنعانيين والفينيقيين ما أسفرت عنه الاكتشافات الآثارية الحديثة في أوغاريت (رأس الشمرة القريبة من اللاذقية)[3]. وكان من بين الآثار القيّمة التي وجدت فيها ما

---

(1) I.J. Gelb, ibid, 166.

(2) Hitti, Op. Cit., 115 - 116.

(3) لقد ورد ذكر هذه المدينة مراراً حيث أظهرت التنقيبات الفرنسية فيها منذ عام (1928 ـ 1929) نتائج على قدر عظيم من الأهمية، فقد كشف عن أدوار كثيرة مرّت على المدينة منذ العصر الحجري المعدني (منذ الألف الخامس ق.م. حيث وجدت أواني الفخار الجميلة الملونة من طور حلف)، ويبدو أن عهد ازدهارها كمدينة مهمة كان في حدود القرن الرابع عشر ق.م. ويشير اسم المدينة المأخوذ من اللغة السومرية (أوغاريت من أوجار بلفظ الجيم كافاً فارسية أي مثل عقار العربية وتعني الحل) إلى تأثر هذا الإقليم بالثقافة السومرية وكان=

سبق أن نوّهنا به في كلامنا على الحروف الهجائية وهو مجموعة ألواح الطين المكتوبة بعلامات مسمارية التي قلنا إنها من أنواع الحروف الهجائية السامية القديمة من القرن الرابع عشر ق.م. ولعلها نسخ عن أصول أقدم، وقد كتبت بلهجة من اللغة الكنعانية. أما مادتها فتدور على النصوص الدينية، وتُعدّ أقدم نماذج للآداب الكنعانية وقد جاء بعضها على هيئة أساطير شعرية تدوّن لنا إحداها أسطورة النزاع أو الحرب السنوية التي تقوم بين إلٰه الخضار الذي سمّوه «عليان بعل» وبين عدوّه الإلٰه «موت» (أي الإلٰه الموت)، ويكون النصر في مبدأ الأمر للإلٰه «موت»، ولكن الإلٰه «بعل» ينتصر عليه في الخريف في بداية سقوط الأمطار الخريفية. ولا يستبعد أن هذه الأسطورة كانت تمثّل بهيئة دراما دينية. وقد وجد الباحثون في هذه الاكتشافات الحديثة مواطن كثيرة تتشابه فيها النصوص الأوغاريتية مع الآداب العبرانية المقدّسة مثل سفر أيوب، كما يوجد شبه أيضاً في اللغة والبحر الشعري والتأليف بما هو موجود في المزامير[1]. فمثلاً العبارة الواردة في الأدب الأوغاريتي «ممتطي الغمام» صفة الإلٰه بعل، وهي نفس الصفة المنعوت بها إلٰه العبرانيين (المزمور السادس والثمانون: 4)، كما أن الرعد صوت «بعل» والرعد صوت «يهوه» أيضاً كما جاء في (أيوب 37: 2 ـ 5، والمزمور 29: 3 ـ 5) وورد ذكر الحيوان الخرافي «اللوياثان» الذي ذبحه «بعل» كما فعل الإلٰه «يهوه».

وترينا هذه الأسطورة الخاصة بالإلٰه «بعل» والأساطير الكنعانية الأخرى

= للمدينة ميناء بحري (ويسمى الآن المينا البيضاء، وتبعد خرائب المدينة عنه إلى الداخل بنحو ميل واحد). وقد كشفت التنقيبات عن قصر فخم أعمدته موشاة بالفضة وهو يعود إلى أحد ملوكها الذي عاش في حدود 1400 ق.م.، ويعرف باسم «نقماد» أو «نقم أدا» (أي نقمة الإلٰه أدد أو حدد). ويعزى ازدهارها إلى تجارتها البحرية. وقد دمّرها أهل البحر الإيجيون الذين اندفعوا بفلولهم على أثر الهجرات اليونانية في حدود 1200 ق.م.، ولم يقم لها قائمة من بعد هذا التأريخ.

(1) انظر: **John H. Patton, Canaanite Parallels in the Book of Psalms** (1944).
وكذلك (Hitti, **Op. Cit.**, 115 ff.) حيث تجد بعض الأمثلة على أوجه الشبه في العبارات الموجودة في سفر أيوب والمزامير.

أن أساس ديانة الكنعانيين عبادة القوى الطبيعية المنتجة المولدة وقوى النموّ والخصب مما يميز المجتمعات الزراعية. كما تأثر الكنعانيون، مثل غيرهم من الأقوام التي استوطنت سوريا، في أديان الحضارات المجاورة ولا سيما حضارة وادي الرافدين ووادي النيل. وتدور هذه العبادة على إلٰه الخصب وفكرة موته والنواح عليه وتغلبه على الإلٰه الموت ثم اقترانه بإلهة الخصب التي سميت بأسماء مختلفة منها «بعلة» و«عناة» (عاناة) التي هي شكل من أشكال الإلهة عشتار. كما أن إلٰه الخصب الذي يموت عرف بأسماء مختلفة منها «بعل» (كما عند الكنعانيين) وكذلك عرف باسم «تموز» وهو الإلٰه البابلي الذي سبق أن ذكرنا علاقته بالإلهة عشتار. وأن فكرة الإلٰه الذي يموت ويقوم من بعد الموت الذي يمثل حياة الخضار الدورية في الطبيعة قد دخلت في مآثر الديانة المسيحية[1]. ومن الأسماء الكنعانية المهمة لإلٰه الخصب «تموز» اسم «آذون» (أي السيد أو الرب) ومنه الاسم اليوناني للإلٰه الشهير «أدونيس»[2] الذي عبده اليونان في حدود القرن الخامس ق.م.، وتوجد أسطورة تروي ما حلّ به من المصاب إذ إن تموز قتله خنزير وحشي في أثناء ما كان يصطاد، ولما انتقل إلى العالم الأسفل حلّ في الطبيعة الموت ولا سيما في حياة النبات، فنزلت عشتار إلى العالم الأسفل وأقامته من عالم الموت فعادت حياة الخضار إلى الأرض[3]. وقد قدس الفينيقيون الإلهة عشتار واشتهرت مدينة

---

(1) (Hitti, Op. Cit., 117).

(2) ومنه أيضا الكلمة التي يطلقها العبرانيون على الإلٰه «يهوه» الذي حرموا النطق باسمه بل سموه بدلاً من ذلك «أدوناي» (أي ربي أو سيدي). كما أن لهذا الإلٰه علاقة بالإلٰه المصري «أوسيريس»، ولعل الاثنين أصلهما إلٰه واحد للخصب هو «تموز».

(3) قارن أسطورة نزول عشتار إلى العالم الأسفل لإنقاذ بعلها تموز في أساطير العراق القديم (فقد جاءتنا من ذلك روايتان سومرية وبابلية، انظر ذلك في الجزء الأول، وترجمة الأسطورتين إلى العربية في مجلة سومر 1950). وقد اشتهرت حران بعبادة تموز وعادة النواح عليه كما كان الحال عليه في العراق، وقد ظلت عادة النواح في حران إلى أيام الإسلام كما روى ذلك ابن النديم من فهرسته. وأخذ اليونان الأسطورة الخاصة بأدونيس وأفروديت.

جبيل بعبادتها[1]، كما أنهم خصصوا موضع الفاجعة التي حلّت بالإلٰه «تموز ـ أدونيس» عند منبع نهر إبراهيم، مما جعل ماء النهر يتغير أحمر في موسم خاص من جرّاء دم الإلٰه[2]، ونشأت عند الفينيقيين من ذلك جملة طقوس دينية كانت تُقام بالدرجة الأولى في جبيل (التي تقع شمال مصب نهر إبراهيم بنحو خمسة أميال)، ومن الشعائر المهمة بحث النسوة عن الإلٰه المختفي، وكان العيد السنوي يستغرق سبعة أيام، وعندما يقوم «تموز» من الموت يعمّ الفرح الناس ولا سيما النسوة حيث ينذر بعضهن عفافهن ويخصي بعض الرجال أنفسهم ويكرّسون أنفسهم للخدمة في معبده الخاص[3].

---

(1) لقب الفينيقيون عشتار بربة أو سيدة جبيل، وقد شيّد لها فيها معبد شهير شاهده بعض الكتّاب الرومان وهو «لوشيان» في حدود 148 م ووصف رسوم العبادة الخاصة به.
انظر كتابه «الآلهة السورية» (Lucian, De Dea Syria)

(2) ولعله من الممكن ربط ما يقوم به الناس الآن عند منبع النهر حيث يزورون «سيدة المكان» التي صارت عندهم السيدة مريم العذراء، ويكرسون السرج المضاءة في محراب صغير تحت شجرة تين يعلق بها الناس (من مسيحيين وشيعة) قطعاً من ملابسهم طلباً للشفاء والتبرّك. وهناك رواية أخرى للأسطورة تجعل «تموز ـ أدونيس» الملقّب بالفينيقية بلقب «نعمان» يتحوّل إلى شقائق النعمان وهو النبات الذي سمي باسم الإلٰه واكتسب لونه من دم أدونيس القاني (Hitti, Op. Cit., 117).

(3) نشأت ممارسة البغاء المقدس مع عبادة الإلهة عشتار، وهناك إشارات في مآثر العراق القديم إلى وجود ما يسمى «بنساء المعبد» أو «بغايا المعبد»، وانتشرت هذه الممارسة على ما يروي هيرودوتس وسترابون في جبيل بالاقتران مع عبادة عشتار وكذلك في بابل وقبرص واليونان وصقلية وقرطاجة. انظر:
(Hitti, ibid., 118; Herodotus, I, ch. 199; Strabo, XVI, ch.I).
كما ذكرت التوراة وجود «بغايا المعبد» (حزقيال، 8: 14، وسفر التثنية 23: 18، وميخا 1: 7). إن هذه الإباحية الجنسية من العناصر المهمة في عبادة الخصب في المجتمعات البشرية القديمة في جميع العالم. ولعل من آثار تكريس النسوة أنفسهن إلى الإلهة عشتار العادة المتّبعة الآن بين الراهبات المسيحيات عندما ينذرن أنفسهن إلى العروس الإلٰهية حيث يجززن شعرهن (Hitti, ibid, 118) ويروي بعض الباحثين أن الختان، وهو عادة سامية قديمة، نشأ من عبادة إلهة الخصب عشتار بتضحية جزء من عضو الذكر لهذه الإلهة «ذات المصدر»، ولكن يشك في هذا التفسير لأصل عادة الختان لأن المصريين القدماء كانوا يمارسونه والمرجّح أن العبرانيين أخذوا العادة منهم.

وهناك إلٰهان مهمان في عبادة الكنعانيين بوجه خاص والساميين بوجه عام منشؤهما من عبادة الظواهر الطبيعية، حيث انتخب منها إلٰهان بارزان هما الإلٰه السماء، وهو الإلٰه الأب. والإلهة الأرض، وهي الإلهة الأم، فعبد الإلٰه السماء في أوغاريت باسم «إيل» (EL) والإلهة باسم «أشيرة» أو «أشيرات» (عشتار). وكان «إيل» الإلٰه الأسمى عند الأقوام السامية في سوريا ولا سيما الكنعانيين والعبرانيين. ولقب بلقب «عليان» (بفتح العين وتسكين اللام) وعبد أيضاً باسم بعل. ويرجّح أن الإلٰه الذي كان العبرانيون يضحّون له الأطفال باسم «مولوخ» أو «مولك»[1]، وهو الإلٰه الذي عبد في صور باسم «ملك ـ قرت» (أو ملكرت، ملك كرت) (أي ملك أو إلٰه المدينة). أما الإلهة الأم فقد ذكرت وعبدت بصيغ مختلفة منها ما ذكرناه من اسم «أشيرة» وكذلك عشتارة وعثتارة، وسماها العبرانيون «عشتوريت» (وأطلق اسم عشتار في جنوبي الجزيرة العربية على اسم إلٰه مذكر)، وهي عشتار عند البابليين، وقد عبدها اليونان باسم «أفروديت» والرومان باسم فينوس، ودعيت أيضاً في بلاد الشام باسم «بعلة» (السيدة) بالنسبة إلى المواضع المختلفة مثل «بعلة جبلا» (أي بعلة جبيل)، وعرفت أيضاً باسم «ملكة» (أي الملكة)، (والمقصود بذلك ملكة

---

(1) أو «مولوك» الذي ورد ذكره في التوراة (سفر الملوك الأول 11: 5، 33، وسفر الملوك الثاني 23: 13)، وقد وجدت في مواضع مزاراته بقايا أطفال مدفونين في الجرار مما يؤيد رواية التوراة، والمأثور عن هذا الإلٰه أنه أقيم له صنم من نحاس مجوّف وكانوا يشعلون فيه ناراً حامية ثم يقربون له الذبيحة البشرية، وعلى الرغم من تنديد أنبياء اليهود وتحذيرهم الناس من عبادة مولوك إلا أن اليهود مارسوا مراراً هذه العبادة الشنيعة ولا سيما في الموضع المسمى وادي بني هنوم (2 ملوك 23: 1) وفي مواضع أخرى. والوادي الأول أي «وادي بني هنوم» أو «وادي هنوم» يقع جنوبي أورشليم وغربها (ويعرف باسم وادي ربابة الآن)، ويسمى الجزء الجنوبي الشرقي بوادي توفة أو وادي القتل، ولكي ينقطع الناس عن أتباع العادة مطلقاً أخذوا يرمون فيه الفضلات والقاذورات ويصبون فيه مياه القاذورات من المدينة. وكانوا يحرقون الكناسات فيه، وأخذ من اسم الموضع أي «جي ـ هنوم» اسم «جهنم» لإطلاقه على موضع العقاب (انظر أيضاً العهد الجديد، متى 5: 22، 10: 28، 23: 15).

السماء)، وباسم «عناة» أو عاناة[1]، حيث جاء ذكرها في لوح من أوغاريت وهي أخت «عليان بعل»، وإنها العذراء، وباستطاعتها الإحياء والإماتة، كما أن الحب والحرب من أبرز صفاتها.

وقد أسفرت التحريات الحديثة في بلاد الشام عن الكشف عن المعابد القديمة، وبعضها يرجع إلى عهود قديمة جداً (الألف الثالث ق.م)، كما وجدت في «أريحا» و«مجدو» وكانت بأبسط صورها مؤلفة من حجرة واحدة ولها باب في ضلعها الطويل، ولكن تطور بناء المعابد من بعد منتصف الألف الثاني ق.م.، وازدادت مرافقها وأجزاؤها كما تمثلها لنا المعابد التي كشفت عنها التنقيبات الحديثة في «بيسان» (بيت شان)[2] وأوغاريت وغيرها. وتشترك مثل هذه المعابد[3] جميعها بعناصر أساسية:

(1) مذبح من الحجر.

(2) النصب المقدس.

(3) وبجانبه العمود المقدس.

(4) والحجرات التي تحت أرضية المعبد. وكان المذبح الذي تُقدّم فوقه القرابين أهم أجزاء المعبد.

---

(1) وقد دخل اسمها في جملة مواضع في بلاد الشام مثل «بيت عناث» الواردة في التوراة (سفر يشوع 19: 35، 38، وقضاة 1: 33) وهي الموضع المسمى الآن «البعنة» قرب عكا إلى الشرق. ومثل «بيت عنوث» (يشوع 15: 59) وتعرف الآن باسم «بيت عينون» شمال شرقي حبرون بنحو ثلاثة أميال، ومثل «عناثوث» (يشوع 21: 18) وهي مسقط رأس أرميا وتعرف الآن باسم «عناتا» إلى الشمال الشرقي من القدس بنحو أربعة أميال، ويرجّح أن اسم عانة، المدينة العراقية الآن من اسم هذه الآلهة، وكانت مركز إقليم مهم في العهود البابلية القديمة.

(2) انظر:

Rowe, The Four Canaanite Temples of Beth-shan (1940).

وقد وجدت في هذا الموضع أربعة معابد كنعانية لعبادة الحيات والأفاعي وهي عادة كانت شائعة في الشرق الأدنى القديم وفي كريت.

(3) اسم المعبد في الكنعانية «هيكلو» (الهيكل) (بفتح الكاف وتشديد اللام المفتوحة) مأخوذ من المصطلح السومري «أي ـ كال» (E-gal) أي البيت الكبير أو الجليل.

أما النصب أو الحجرة القائمة (وتسمى مصيبة) فهي ترمز إلى الإلٰه ويقوم بجانبها العمود المقدس أو الشجرة المقدسة (وهي أشيراه بالعبرانية، أي الأكمة) التي ترمز إلى إلٰه الخصب أو إلهة الخصب. والمرجّح أن الحجرات التحتية كانت تستعمل لغرض العرافة والفأل ومعرفة إرادة الآلهة. وكان النصب والعمود المقدسان يقومان مقام الأصنام الممثلة للآلهة، وإلى جانب ذلك استعملوا الدمى الصغيرة المصنوعة من البرونز، ووجد بعضها وهو يمثل الإلٰه «بعل»، وتمثل الإلهة عادة بدمية عارية ويداها على جانبيها أو ماسكتان لثدييها.

وإلى جانب المعابد المبنية استعمل الكنعانيون لعبادة آلهتهم معابد محلية في العراء، في قمم التلال. وهذه هي «المواضع العالية» المشار إليها في التوراة[1]، حيث لا ينصب فيها على ما يحتمل سوى مذبح الحجر وعمود الحجر المقدس.

وتدل عادة الدفن التي اتبعها الكنعانيون من دفن بعض الحاجيات العائدة إلى الميت على وجود فكرة عودة الحياة من بعد الموت أو ما شاكل ذلك. ولم يمارسوا التحنيط إلّا في حالات قليلة عند بعض الملوك الكنعانيين بتأثير العادة المصرية. ومن التأثيرات المصرية أيضاً فيما يخصّ عادة الدفن صنع التوابيت الملكية التي اشتهر بها الفينيقيون حيث كانت تُصنع بهيئة إنسان يمثل الملك[2]، وقد وجد عدد كبير من هذه النواويس غطاؤها ممثل على هيئة رأس إنسان أو جسم إنسان كامل مع الرأس، ويتراوح أزمانها من القرن السادس إلى القرن الثالث ق.م.، وأشهرها ناووس الملك «اشمن ـ عزر» بن «تبنيت» الذي حكم من بعد فتح الإسكندر بنحو نصف قرن. وقد نقش غطاء الناووس المصنوع على هيئة آدمية بنص مطول حيث اعتادوا كتابة مثل هذه النصوص لضمان عدم العبث بالجثة إذ يؤكّد النقش أنه لم يدفن مع الجثة أشياء ثمينة. ويوجد في المتحف الوطني في بيروت مجموعة ممثلة من هذه النواويس.

---

(1) سفر الملوك الأول 13: 2، وأرميا 32: 35، وهوشع 10: 8.

(2) وسُمّيت لذلك بمصطلح (Anthropoid Sarcophagus).

الفصل التاسع والعشرون

الآراميون

الآراميون:

الآراميون، كما سبق أن ذكرنا، هم الجماعة الكبرى الثالثة من الهجرات السامية في بلاد الشام، وكانوا قبل استيطانهم واستقرارهم في بلاد الشام، من بين الجماعات البدوية التي كانت تجول في بوادي الجزيرة الشمالية، وكانت تتغلغل منها جماعات بين الحين والحين في البلدان المتحضرة المجاورة مثل سوريا والعراق، وقد استوطنوا أخيراً في جهات الفرات الأوسط منذ منتصف الألف الثاني ق.م.، وهنا نمت لغتهم وقوميتهم وثقافتهم الخاصة بهم، وقد اقتبسوا من الأموريين والكنعانيين ومن الحضارات التي جاوروها ولا سيما حضارة وادي الرافدين والحثيين، ولكنهم حافظوا على لغتهم ولهجتهم الخاصة بهم، وقد كان لهذه اللغة أثر عظيم في جميع آسيا الغربية. واللغة الآرامية من فروع كتلة اللغات السامية الغربية التي انتشرت في بداية الألف الثاني ق.م. شمال غربي ما بين النهرين، أما اسمهم فإن أقدم استعمال له على ما نعلم من المصادر المعروفة حتى الآن يبتدىء منذ عهد الملك الآشوري تجلاثبليزر الأول (1100 ق.م)[1]، حين كانت مواطنهم منتشرة في الفرات الأوسط إلى سوريا غرباً، ولا يعلم معنى اسم آراميين والمرجّح اشتقاق كلمة «ارم» المذكورة في القرآن من اسمهم. ومما سهل عليهم التوطّن في مواطنهم اضطراب الأحوال في القرن السادس عشر ق.م. في بلاد بابل على أثر غزو

---

(1) Hitti, **Op. Cit.,** 115 - 116. و G. H. Kraeling, **Aram and Israel** (1918).

الحثيين لها وقيام السلالة الكشية فيها وكذلك تدمير الحثيين لمملكة ميتاني من بعد قرن ونصف القرن.

وكان الآراميون مكونين من جملة عشائر وقبائل، جاءت أسماء بعضها في الكتابات الملكية الآشورية وفي رسائل العمارنة ولا سيما في عهد أخناتون، فمنهم فرع جاء اسمه بصيغة «أخلمو» (أخلامو)، ومعنى هذا الاسم الرفاق أو الأصحاب، ولعل الأموريين في الفرات هم الذين أطلقوا هذا الاسم على جملة قبائل آرامية متحدة[1] وقد اتصل بهم الآشوريون في العهد الذي سميناه بالعصر الآشوري الوسيط فيروي لنا أحد ملوك هذا العهد وهو «أدد ـ نراري» الأول (1300 ق.م) أن أباه غزا جموع «الاخلامو» في شمال ما بين النهرين[2]، ونظراً لشهرة هذه القبائل صار اسمها كثيراً ما يُطلق على جميع الآراميين. ومن الآراميين فرع تغلغل إلى وادي الفرات الأسفل وعرف باسم «كلدو» (ومنهم الكلدانيون الذين رأيناهم يؤسسون الأمبراطورية البابلية الأخيرة). ولكن أهم المواطن التي انتشر إليها الآراميون من مقرّهم في الفرات الأوسط في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر كانت أراضي ما بين النهرين الشمالية وفي شمالي سوريا ووسطها، وأخذوا يضغطون على جماعات الأموريين والحوريين والحثيين في وادي العاصي وحلّوا محلهم. وصدّتهم جبال لبنان من التوغل أكثر من ذلك ومن أخذ مكان الأموريين الآخرين، كما أن الكنعانيين والفينيقيين في الساحل ظلوا في مواطنهم غير متأثرين نوعاً ما بضغط الهجرة الآرامية. هذا وقد سبق لنا أن ذكرنا في الجزء الأول من هذا

---

(1) Hitti, Op. Cit., 162.

(2) Luckenbill, Ancient Records of Bab. G Assyria, I, 73. وقد ورد ذكر اسم «بلاد الآراميين» (مات أرمي) واسم الآرامين أيضاً في الكتابات الآشورية من العهد الآشوري الوسيط.
(Luckenbill, Ancient Records, I, 239, 366).
والمعنى الشائع لكلمة «آرام» الأرض العالية أو لعله النجد فنجدها مضافة إلى أسماء مواضع مثل «آرام صوبا» و«آرام معكه» و«آرام النهرين» و«آرام بيت رحوب» و«آرام دمشق» و«فدان آرام» وقد وردت هذه الأماكن في التوراة مراراً.

الكتاب الحروب الرهيبة الطويلة التي دارت بين الآشوريين في عهدهم الوسيط وبين الآراميين الذين انتشروا من الفرات الأوسط إلى أراضي ما بين النهرين الشمالية وكادوا يقضون على الآشوريين، واستمر النزاع بين الآشوريين والآراميين في العهد الآشوري الحديث في زمن الأمبراطورية الآشورية الأولى (911 ـ 745 ق.م)، ولكن انتقل النزاع الآن إلى بلاد الشام حيث أسّس الآراميون دويلات مهمة قاست من غزوات الآشوريين أشد الضغط، مما كان من الأسباب المهمة في عدم تمكن الآراميين من إنشاء دولة كبرى معظمة في بلاد الشام على ما سنذكره بعد قليل.

أهم الدويلات الآرامية في بلاد الشام وفيما بين النهرين:

بدأ الآراميون يقيمون دولاً تجارية مهمة في الفرات الأوسط وما بين النهرين وفي مدن الشام المهمة منذ نهاية القرن الثالث عشر ق.م.، حيث استقروا في مواطنهم الجديدة[1]. فمن أشهر دويلاتهم وأقدمها في الفرات الأوسط الدويلة التي أقاموها في المنطقة الواصلة بين سوريا وبين ما بين النهرين. فمن هذه الدويلات دويلة سميت باسم «آرام ـ نهرايم» (أي آرام النهرين)، والمقصود بهذين النهرين الفرات ورافده الخابور. وورد ذكرها في المصادر المسمارية باسم «نهارين»، وهو الاسم الذي ذكرت به مراراً في المصادر المسمارية في أواخر القرن الثالث عشر ق.م.، ويظهر أنها اختفت من الوجود في حدود القرن التاسع ق.م. حينما قضى الآشوريون على جميع الآراميين في هذا الإقليم[2] ومن دويلاتهم الشهيرة فيما بين النهرين دويلة وردت باسم «فدان آرام»[3] وهي دويلة صغيرة لم تكن بسعة دويلة «آرام ـ

(1) وفي حدود هذا الزمن أيضاً انتهت تنقلات العبرانيين واستقروا في مواطنهم الخاصة على ما سنبينه من بعد كلامنا على الآراميين.

(2) Roger T. O'Callagan, **Aram Naharaim** (Rome, 1948), 143.

(3) (Padan Aram) وكلمة «فدان» مثل فدان العربي وتعني الحقل والسهل وقد ورد ذكرها في التوراة (سفر التكوين 25:20، 28: 2 ـ 7، 46: 15).

نهرايم» وكان مركزها في حران[1]، بحيث إن الكلمتين وردتا مترادفتين في التوراة. وحران ذات موقع مهم حيث يمرّ منها طريق تجاري كبير، وازدهرت فيها الثقافة الآرامية ازدهاراً كبيراً. وتقول المآثر العبرانية إن الآباء اليهود الأول جاؤوا من هذه الناحية قبل استيطانهم في فلسطين، حيث تزوج إسحاق بن إبراهيم من امرأة حرانية (وهي رفقة) كما أن إسحاق أرسل ابنه يعقوب إلى حران حيث تزوج أيضاً[2]، ويتبين من ذلك صلة العبرانيين بالآراميين، هذا ويظهر أثر الثقافة الآرامية في لغة سفر التكوين من ناحية التعابير والمفردات اللغوية[3] ويظن أن أجداد العبرانيين كانوا يتكلمون الآرامية قبل استيطانهم في فلسطين واتخاذهم اللهجة الكنعانية المحلية[4].

مملكة دمشق:

ومن الممالك الآرامية التي اشتهرت بأهميتها وسعتها أكثر من شهرة الدويلات المتعددة التي أسسها الآراميون الدولة التي صارت عاصمتها في دمشق وعرفت بآسم آرام دمشق[5]، وتأسست في أواخر القرن الحادي عشر

---

(1) معنى «حران» في اللغات السامية الطريق، وفي الآكدية بصيغة «خرانو».

(2) تزوج ليئه (Leah) و«راحيل» ابنتي لابان خاله (أي أخو رفقة) انظر خبر ذلك وذكر فدان آرام في التوراة (سفر التكوين 24: 4، 29: 21).

(3) Hitti, **Op. Cit.**, 164.

(4) Hitti, **Op. Cit.**, 164.

(5) لقد استوطن الآراميون في دمشق في حدود القرن الثاني عشر ق.م. حتى أن حوليات الفرعون رعمسيس الثالث (1198 ـ 1167 ق.م) تذكر دمشق بالصيغة الآرامية حيث جاء ذكرها بهيئة «ترمسكي» من الآرامية «دار ـ ميشيق» (أي قلعة أو حصن مشيق)، وذكرت في رسائل العمارنة بصيغة «دمشقا» بضم الدال و«دمشقا» بكسر الدال و«تمشجي» (بلفظ الجيم كافاً فارسية وكسر التاء وفتح الميم).

انظر: (Knudtzon, **El-Amarna**, Nos. 107, 197, 53).

هذا ولا يعلم أصل اشتقاق اسم المدينة ولكن الشق الثاني من الاسم «ميشيق» لعله إله غير سامٍ. حول بحث هذا الموضوع ولا سيما الكلمة في المصادر المسمارية انظر:

Hitti, **Op. Cit.**, 163; Clay, **Miscellaneous Inscriptions** (YOS, I,) 1 - 2; Speiser in JROS, 71 (1951), 257 ff.

ق.م. في نفس الوقت الذي ظهرت فيه الملكية عند العبرانيين. وقد نمت وتطورت من بعد تأسيسها وأصبحت دولة كبيرة فاقت على جميع الدويلات الآرامية والدويلات الأخرى التي قامت في بلاد الشام حيث اتسعت في حدودها وامتدت من جهة الشرق إلى الفرات وإلى اليرموك من جهة الجنوب على حساب الدولة العبرانية، كما أنها تاخمت أملاك الدولة الآشورية من جهة الشمال. وقد صارت جميع سوريا الداخلية إلى الشرق من لبنان وجميع شمالي سوريا وحوران (في إقليم باشان القديم) تحت سيطرتها في حدود بداية الألف الأول ق.م. وقد كان العداء مستفحلاً بين أرامیي هذه الدولة وبين العبرانيين طوال قرنين من الزمان.

وقد بدأ العداء والحروب بين الآراميين وبين العبرانيين قبل اتخاذ دمشق مركزاً للدولة الآرامية يوم كانت المدينة القديمة المعروفة باسم صوبا (صوبة)[1] مركزاً لمملكة آرامية عُرفت باسم مملكة «صوبا» أو «آرام صوبا» وقد بدأت الحرب بين ملوكها وبين أول ملك عبراني وهو «شاؤل» مؤسس المملكة العبرانية إلى الجنوب. وقد تغلب داود الذي خلف شاؤول على ملك مملكة صوبا المسمى «حدد عزر»[2]، مما مكن العبرانيين من مصدر مهم للنحاس، وتمكّن داود أيضاً من الاستيلاء على دمشق مؤقتاً. وقد استأنف النزاع أحد ملوك دمشق المسمى «رزون» (Rezon) حيث حارب العبرانيين طيلة أيام سليمان، وبدأت الكفة تنقلب على العبرانيين كما أن مركز أهمية المملكة

---

(1) (Zobah) ويرجّح أن اسم المدينة «صوبا» مشتق من «صيهوبا» التي تعني النحاس واللون الأحمر ويحتمل أن معنى صوبه «المحلة». ويظن أن هذا الموضع هو الذي عُرف في المصادر الكلاسيكية باسم «كلسيس» أو «خلسيس» (وهي الكلمة اليونانية للنحاس) التي يعينها الآن الموضع المسمى الآن «عنجر» جنوبي زحلة في البقاع. انظر:
(Kraeling, Aram and Israel, p.40; Hitti, Op. Cit., 166).
وقد صارت «كلسيس» موضع عاصمة مملكة عربية في إقليم البقاع في العهد السلوقي عُرفت باسم مملكة «أتورية» (Hitti, Op. Cit.,ibid., 166, 247)

(2) (Hadadezer) (أي الإله حدد عون) واسمه في التوراة العربية «هدد عزر».

الآرامية انتقل من صوبا إلى دمشق. وساعد انقسام المملكة العبرانية إلى مملكتي إسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب الآراميين (في حدود 922 ق.م) من بسط سلطانهم وفرضه حتى على العبرانيين. فإن يهوذا دفعت الجزية إلى ملك دمشق المسمى «بن حدد» (بنهدد) (في حدود 879 ـ 843 ق.م)، ثم هاجم مملكة إسرائيل وضمّ جلعاد (في شرق الأردن) إلى المملكة الآرامية[1] وقد قويت المملكة الآرامية في عهد ملكها «بن حدد» بحيث أصبحت مملكة إسرائيل تحت حمايتها في الأيام الأخيرة من حكم ملكها المسمى «عومري» (في حدود 875 ق.م) وأعاد «بن حدد» فرض الحماية الآرامية والجزية على إسرائيل في عهد «آحاب» بن «عومري»[2].

غزو الآشوريين بلاد الشام:

لقد سبق أن نوّهنا في أكثر من موضع واحد[3] بالصراع والحروب الشديدة التي دارت بين الآشوريين وبين الآراميين، فقد سبق أن قسمنا النزاع بين المعسكرين إلى حقبتين كانت الحروب في الحقبة الأولى بينهم وبين الآشوريين وهم في بلادهم وفي أثناء تدرجهم السياسي إلى دولة كبرى في أواخر العهد الذي سمّيناه بالعصر الآشوري الوسيط (في القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م) لما كان الآراميون في أثناء تنقلهم في الفرات الأوسط وفي مواطنهم في شمال ما بين النهرين، وقد بلغ من ضغط الآراميين على الدولة الآشورية مبلغاً كادوا يزيلونها من الوجود، ولكن سرعان ما تغيّر الموقف منذ القرن العاشر ق.م.، حيث استعاد الآشوريون قواهم وخلصوا مملكتهم من خطر القبائل الآرامية التي كانت تضغط على بلادهم وأسسوا أولى أمبراطورية عظمى في عهدها الحديث، فنقلوا الكفاح مع الآراميين إلى

---

(1) انظر أخبار ذلك في التوراة (سفر الملوك الأول 15: 18 فما بعد وسفر الأيام الثاني 16: 2 فما بعد).

(2) سفر الملوك الأول 20: 1 فما بعد.

(3) انظر الجزء الأول في كلامنا عن الآشوريين.

مواطنهم الجديدة في بلاد الشام حيث قام ملوك الأمبراطورية الأولى (900 ـ 745 ق.م) بجملة غزوات مدمرة لبلاد سوريا، وضموا معظم بلاد الشام إلى نفوذهم.

ومن الغزوات الآشورية العنيفة في هذا العهد الغزوة التي قام بها شيلمنصر الثالث على سوريا حيث جرت الموقعة الحربية الشهيرة التي عُرفت بموقعة «القرقار» على العاصي في عام 853 ق.م. ولدرء الخطر الآشوري اتحد ملوك الدويلات السورية وتألف اتحاد من اثني عشر ملكاً، وترأس الاتحاد ملك المملكة الآرامية في دمشق وهو «بن ـ حدد» (بنهدد) الذي ذكرناه، مما يدلّ على أهمية هذه المملكة، وكان أشهر ملوك الاتحاد من بعده آحاب ملك إسرائيل وملك حماه وكذلك ساعدت الاتحاد جملة مدن فينيقية، بحيث بلغ جيش الاتحاد زهاء (60,000) مقاتل قابلوا الآشوريين في القرقار على العاصي، ولم تكن الحرب حاسمة، حيث انسحب الجانبان.

واستمرت المملكة الآرامية في القوة وازدادت عن ذي قبل في عهد ابن «بن حدد» وخليفته المسمى «حزائيل»، الذي كان من عظماء الملوك المحاربين فأستطاع أن يصمد إزاء هجومين آشوريين وجههما شيلمنصر الثالث (في عام 842 ق.م.، و838 ق.م)، ومن ثم هاجم «حزائيل» مملكة إسرائيل ووسع سلطانه في شرقي الأردن إلى جهة الجنوب، ووسع فتوحه في سهل فلسطين الساحلي من أجل السيطرة على طرق التجارة مع مصر وبلاد العرب. وتمكّنت مملكة دمشق من إسرائيل بحيث أصبحت هذه تحت رحمتها، وكذلك أخذت الجزية من مملكة يهوذا. ولكن الهجمات الآشورية المدمرة المستمرة استنفدت قوى المملكة الآرامية بحيث إن خلفاء «حزائيل» لم يستطيعوا المحافظة على الأقاليم التابعة. وقام في إسرائيل ملك قوي هو «يربعام» الثاني (في حدود 785) بحيث استطاع أن يرجع حدود مملكته حتى أنه تجرأ فهاجم دمشق وحماه.

ولكن الضغط تفاقم خطره على المملكة الآرامية في عهد الملك

الآشوري «تجلاثبليزر» الثالث (745 ـ 727 ق.م) حيث سنحت لهذا الملك الفرصة حين ساءت العلاقات بين الدويلات السورية الثلاث وهي مملكة دمشق وإسرائيل ويهوذا، حيث استنجد بالملك الآشوري أحاز ملك يهوذا الذي هدّده «ففح» ملك إسرائيل و«رصين» ملك دمشق، فوجه تجلاثبليزر ماكينة الحرب الآشورية الهائلة في عام 734 ق.م. على سوريا، غازياً ومدمراً المدن التابعة لدمشق وحوّلها أنقاضاً[1] وسقطت دمشق (في عام 722 ق.م) بعد حصار رهيب وقتل ملكها[2] وأحلّ الآشوريون الدمار والخراب فيها ولم تسلم حتى بساتينها وأشجارها، وأجلى سكانها. وهكذا انتهت حياة هذه المملكة الآرامية المزدهرة وانتهى معها سلطان الآراميين. واستعيدت الأمبراطورية الآشورية في بلاد الشام منذ عهد تجلاثبليزر الثالث وخلفائه شيلمنصر الخامس وسرجون الذي أزال دولة إسرائيل من الوجود.

شيء عن الثقافة الآرامية:

وهكذا عمل الضغط الآشوري العنيف على خنق الثقافة الآرامية من الناحية السياسية، فإنه لم يقتصر على الحيلولة دون قيام دولة آرامية كبيرة في

---

(1) انظر وصف ذلك في أخبار الملك الآشوري (Luckenbill, **Ancient Records**, I, 777)

(2) كان من الملوك التابعين للآشوريين حينما ثاروا على السلطان الآشوري وانضموا إلى حلف دمشق ملك آرامي اسمه «بنمو» الثاني (بفتح الباء الملفوظة فاء وفتح النون وتشديد الميم). حيث قتل في معركة مدينة دمشق، وكان هذا ملك مملكة آرامية أخرى في شمال سوريا عُرفت باسم عاصمتها «شمأل» (وهي سنجرلي الحالية) غرب عينتاب في منتصف الطريق تقريباً بين أنطاكية ومرعش، وكانت ثقافتها متأثرة بالحثيين المجاورين لها، ولكن كان ملوكها آراميين، وقد خلفوا لنا نقوشاً كتابية مهمة بالحروف الفينيقية وقد أجريت في «شمأل» حفريات في زمن قديم (1888 ـ 1891) انظر المراجع الآتية:

(1) Luschan, **Ausgrabungen in Sendschirli** (Berlin, 1893).

(2) AJSL, XXXII, 223.

(3) «Zu d en Inschriften on Sendschirli» **in Zeit. für Assyr.**, 20 (1907) 159 ff.

وكان أقدم ما وجد فيها نقش كتابي مهم للملك «برركب» الذي يلقب نفسه بوكيل تجلاثبليزر الثالث، والكتابة باللغة الآرامية وبالحروف الهجائية.

سوريا وفي شمال ما بين النهرين بل إنه أزال الدويلات الأخرى من الوجود. ولكن مع إخفاق الآراميين السياسي فإن نفوذهم التجاري والثقافي قد فاق في مقداره وعظم أثره على أهميتهم السياسية في تأريخ الحضارة البشرية، فإن تراثهم الثقافي في البلاد الشامية وفي أنحاء الشرق الأدنى لا يزال محسوساً به إلى الأزمان الحديثة، ولا سيما من الناحية اللغوية بوجه خاص على ما سنبين فيما بعد.

ومن الناحية التجارية كانت قوافل التجارة الآرامية تجوب أنحاء الهلال الخصيب، وقد احتكروا طوال قرون كثيرة تجارة سوريا الداخلية كما احتكر أقرباؤهم الكنعانيون تجارة الساحل السوري. وتاجر الآراميون بصبغ الأرجوان من فينيقيا وبالأنسجة المزركشة والكتان والنحاس وبالأخشاب الثمينة كالأبنوس وبالعاج من أفريقيا.

انتشار اللغة الآرامية:

انتشرت مع التجارة الآرامية اللغة الآرامية انتشاراً واسعاً حتى أن الآشوريين استعملوها في بعض شؤونهم. فمن آثار تجلاثبليزر الثالث الطريفة أثر صور فيه كاتب آرامي وهو يدوّن بالآرامية (ولعله في الرق أيضاً) أو في ورقة بردي على ما يرى الأستاذ حتي[1] الغنائم والأسلاب التي أخذها الملك الآشوري من مدينة غزاها، وبلغت اللغة الآرامية منذ القرن الخامس ق.م. أوج انتشارها، فلم نقتصر على كونها لغة التجارة الرسمية بل صارت اللغة المحكية في جميع أنحاء الهلال الخصيب، منتصرة بذلك على اللغة المنافسة لها وهي اللغة العبرية، كما صارت لغة النبي عيسى وأتباعه، وكتب بها الإنجيل[2] على ما يرجّح وصارت الآرامية في عهد الملك الفارسي الإخميني

---

(1) (Hitti, Op. Cit., 168)

(2) انظر:

C. Torrey, **our Translated Gospels** (New York, 1936).

دارا الأول (521 ـ 486 ق.م) لغة المملكة الرسمية ولغة الأمبراطورية، من تخوم الهند إلى الحبشة. وهذا أعظم وأغرب انتشار تحرزه لغة لم يسندها سلطان سياسي. ولم يقتصر الأمر على انتشار اللغة وحدها، إذ إنه بانتشارها انتشر استعمال الحروف الهجائية التي كتب بها الآراميون لغتهم، فأقتبستها أقوام عديدة في جميع أنحاء آسيا في كتابة لغاتها المختلفة. فأخذ اليهود خطهم من الخط الآرامي بين القرنين السادس والرابع ق.م. وكانوا قبل ذلك يستعملون حروفاً فينيقية قديمة. والخط العبراني المسمى بالخط المربع الذي تُطبع به كتب التوراة مشتق من الخط الآرامي الذي اقتبسه اليهود. كما أن العرب الشماليين أخذوا خطهم من الخط النبطي الذي هو شكل من أشكال الخط الآرامي. وهذا هو الخط الذي كتب به القرآن وتطوّر عنه الخط العربي الحديث. وأخذ الأرمن والفرس والهنود (الخط البهلوي والسنسكريتي) خطوطهم من أصول آرامية. ونقل الكهنة البوذيون الخط السنسكريتي (المشتق من مصدر آرامي كما قلنا) من الهند إلى قلب الصين وإلى كوريا، وهكذا يكون الخط الفينقي (أصل الخط الآرامي) قد انتقل على أيدي الآراميين إلى جميع نصف العالم الشرقي في حين أن اليونان نشروا الخط نفسه إلى نصف العالم الغربي.

أما اللغة الآرامية فالمرجّح فيها أنها نشأت من إحدى اللهجات السامية الغربية التي كانت شائعة في النواحي الشمالية الغربية من أرض ما بين النهرين في منتصف الألف الثاني ق.م. ولم يكتسب الآراميون اسمهم الخاص وكذلك اسم اللغة الآرامية إلّا في حدود القرن الحادي عشر ق.م. (وبوجه خاص منذ زمن الملك الآشوري تجلاتبليزر الأول 100 ق.م). واللغة الآرامية بدورها انقسمت بمرور الأزمان إلى لهجات يمكننا أن نحصرها بفرعين. الفرع الشرقي في وادي الفرات وتمثله اللهجة المندائية والسريانية. ويمثل الفرع الغربي آرامية التوراة[1]

---

(1) وهناك تسمية شائعة مغلوطة تطلق على الآرامية هي الكلدانية، ومنشأ هذه التسمية مما ورد في سفر دانيال من استعمال الكلدانيين للآرامية. ولكن الواقع أن اللغة الكلدانية التي تكلم بها =

والإنجيل و«الترجوم»[1] واللهجات الآرامية في مملكة «شمأل» (وخرائبها الآن في سنجرلي بين أنطاكية ومرعش كما ذكرنا من قبل) وفي حماه وتدمر والأنباط. وتكلم بالمندائية طائفة باطنية (غنوسطية) في جهات الفرات من القرن السابع إلى التاسع للميلاد[2]. أما السريانية فكانت في الأصل لغة إقليم الرها (أديسا) وصارت لغة الكنائس المسيحية المتعددة في سوريا ولبنان وشمالي العراق (ما بين النهرين)، وظلت في الاستعمال من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للميلاد حين حلّت محلها العربية. ولما اتخذ المسيحيون الذين هم من أصل آرامي اللهجة الرهوية جاعلين إياه لغة الدين والثقافة صاروا يعرفون باسم السريان أو السوريين (ولغتهم باسم السريانية)[3] مبدلين تسميتهم بالآراميين التي أصبحت لديهم تسمية غير محببة لاقترانها بالعهد الوثني. ويُستعمل مصطلح «سريانية» الآن ليعني اللهجة الرهوية وما طرأ عليها من تغييرات.

الديانة:

أما عن ديانة الآراميين فقد تأثروا بديانة الأقوام السامية المجاورة كالكنعانيين وقبل ذلك بالأموريين. وكان أعظم إلٰه خصّوه بالعبادة الإلٰه «حدد» أو «هدد» أو «أدد» أو (أدو) وهو الإلٰه الذي ذكرناه من بين الآلهة الرئيسية عند

= الكلدانيون (أي البابليون في العهد البابلي الأخير) إنما كانت اللغة البابلية المتأخرة المشتقة من الأصل الآكدي. ونجد آثار الآرامية في سفر عزرا (4: 8 ـ 6، 18، 7: 12 ـ 26) وفي سفر دانيال (2: 4 ـ 7، 28).

(1) أي التفسير والشرح (من العبرانية عن الآرامية)، ويطلق على النسخ الكثيرة التي دوّنت بها جملة أقسام من التوراة باللغة الآرامية.

(2) ولا تزال لغة الدين والطقوس بين من يسمون بالصابئة (المندائيين) الآن.

(3) وكثيراً ما وردت هذه التسمية في التوراة اليونانية التي تعرف «باسم السبعينية» (Septuagint) (حيث يقال إنها ترجمت من جانب 70 أو 72 مترجماً)، والتي يظن أنها كُتبت في حدود 270 ق.م. ولا تزال مستعملة في الكنيسة الشرقية. وكذلك في صورة التوراة اللاتينية المسماة (Bulgate) التي وضعها القديس «جيروم» في القرن الرابع للميلاد، وهي مستعملة عند الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

الأموريين وعنهم انتقلت عبادته إلى الكنعانيين، حيث ذكرنا أن من بين ألقابه «رمون» و«رمان» أي «المرعد»[1]، وهو الإله الخاص بالرعد والزوابع والأمطار. وقد أقيم معبده الرئيس في المدينة التي عُرفت في المصادر العربية باسم «منبج»[2] وشيّدت له أيضاً جملة معابد في الأنحاء الأخرى من سوريا ولبنان، واختلطت عبادته مع عبادة الإله الشمس، ولعله هو جوبتر المعبود في بعلبك[3] وصار في العهد الروماني «جوبتر» الخاص بمدينة دمشق[4]. ووجد له في «شمأل» «سنجرلي» تمثال ضخم (نحو تسعة أقدام ونصف القدم). أقامه له الملك «بنمو» الأول (Panammu) (في القرن الثامن ق.م). وعبدت مع الإله «حدد» في منبج وفي المواطن الآرامية الأخرى، الإلهة زوجته التي ذكر اسمها في المصادر اليونانية والرومانية بصيغة «أترغاتس» (Atargatis)[5]، حيث نعتت بالإلهة السورية. وقد وصف هذه الإلهة وعبادتها الكاتب السوري «لوشيان» (من أهل سموساته، سميساط) الذي ألف باليونانية[6]، وتبدو هذه الإلهة في وصف «لوشيان» وهي تتصف بالصفات الأساسية الخاصة «بالأم ـ الإلهة» السامية، وصورت في النقود التي ضربت في منبج وهي تلبس تاجاً ويصحبها أسد في بعض الصور (على غرار الإلهة البابلية عشتار)، كما اتّخذ لها رمز

---

(1) لقد سبق أن نوّهنا بانتقال عبادة الإله أدد إلى حضارة وادي الرافدين.

(2) واسمها بالآرامية (Nappigu) ومابج (Mabug) أيضاً ووردت في المصادر الآشورية بصيغة «نمبيجي» (nampigi)، وهي باليونانية (Bambyce) وفي المصادر اليونانية والرومانية باسم «هيرابوليس أو هيروبوليس أيضاً». (ومعنى الاسم السامي المنبع) أي من جذر «نبق».

(3) Hitti, **Op. Cit.**, 172.

(4) Hitti, **Op. Cit.**, 172.

(5) وهذه الصيغة محرفة عن الاسم المركب من اسمين أولهما «عتار» أو «عتار» (بتشديد التاء) أي «اشتارته، عشتار» و«عتاه» وهما بالأصل اسمان لإلهتين متميزتين اندمجت عبادتهما أخيراً فأندمج اسماهما.

(6) الذي ولد في حدود 125 للميلاد. انظر كتابه في الموضوع المترجم إلى الإنجليزية بالعنوان الآتي: Lucian, **De Dea Syria**

H.A. Strong, **The Syrian Goddess** (Londn, 1913).

مؤلف من الهلال وقرص الشمس، وعبدت في فلسطين أيضاً في عسقلان. وانتشرت عبادتها في العهد السلوقي بين اليونان، ثم عنهم أخذها الرومان حيث أقيم لها معبد في روما، ومثلت في المآثر الرومانية وهي جالسة على عرشها بين أسدين، وكان كهنتها في الغالب من الخصيان.

وبالإضافة إلى هذين الإلهين عبد الآراميون جملة آلهة أخرى استعاروا بعضها من الأقوام المجاورين للآراميين، ومن هذه الآلهة المهمة الإلٰه «إيل» و«ركتاب» أو «ركب ـ إيل» (بتشديد الكاف في كلتا الحالين) وشمش و«رشوف». وقد ذكرت أسماء هذه الآلهة في كتابة ملك «شمأل» (سنجرلي) «بنمو» الأول في نقش تمثاله. فالإلٰه شمش، الإلٰه الشمس البابلي السامي، و«رشوف» و«رشف» الإلٰه الكنعاني الفينيقي، وقد ذكر بأسماء أخرى أشهرها «بعل شمين» (سيد أو رب السموات)[1].

(1) وقد جاء ذكر «بعل شمين» في النقوش الكتابية المهمة التي عثرت عليها مديرية الآثار العراقية في تنقيباتها في الحضر في معبده الخاص في الحضر (انظر مجلة سومر مجلد 1951 ـ 1952).

الفصل الثلاثون

العبرانيون

العبرانيون هم الجماعة السامية الرابعة من الهجرات السامية التي استوطنت بلاد الشام، فقد سبق أن تكلمنا عن الأموريين في الشمال والكنعانيين في الساحل والآراميين في الوسط وحلّ العبرانيون في الجزء الجنوبي، في فلسطين. كما سبق أن نوّهنا بأصل العبرانيين البعيد، حيث إنهم مثل الجماعات السامية الأخرى. نزحوا من بوادي الجزيرة العربية. والمفروض أن مجيئهم إلى الجزء الخاص بهم من بلاد كنعان، أي فلسطين، قد تمّ في ثلاث هجرات مفترضة وغير معروفة بوجه التأكيد وإنما هي مستنتجة بالدرجة الأولى من المآثر العبرانية كما جاءت في التوراة. فنستنتج من هذه المآثر أن أقدم هذه الهجرات قد كانت من بوادي جهات ما بين النهرين الشمالية. والمرجّح كثيراً أن هذه الهجرة قد حدثت في القرن الثامن عشر ق.م. مع زمن هجرات الأقوام الأخرى التي جاءت بالهكسوس والحوريين إلى جهات شرقي البحر المتوسط. وتقرن الهجرة الثانية في زمنها مع هجرة الآراميين في القرن الرابع عشر ق.م. في زمن «العمارنة»، أما الهجرة الثالثة فكانت خروجهم من مصر ومن النواحي الجنوبية الشرقية مع «موسى» ويوشع كما جاءت أخبار ذلك في التوراة، والمرجّح أن زمن ذلك يرجع إلى أواخر القرن الثالث عشر ق.م.[1].

---

(1) انظر المرجع الآتي:

Theophile J. Meek, **Hebrew Origins** (New York, 1936).

المشار إليه في **Hitti, Op. Cit.,** 176 ff.

وبموجب الأزمان المقترحة لهذه الهجرات الثلاث عندما جاءت الهجرة الأولى كان الكنعانيون يؤلفون القسم الأعظم من السكان، والأموريون يستوطنون الجهات المرتفعة التي لم تكن مزدحمة بالمستوطنين مما سهّل على المستوطنين الجدد استيطانهم فيها، كما كانت عدة عناصر أخرى غير سامية كالفلسطينيين والحوريين والحثيين فاختلط العبرانيون بهؤلاء وبالأقوام السامية الأخرى التي كانت قبلهم ونتج عن ذلك العبرانيون كما نعرفهم في التأريخ. كما تأثر العبرانيون بهذه الأقوام الأخرى من حيث تعلمهم منها الزراعة والحياة الحضرية المستقرة والكتابة وغير ذلك من عناصر الحضارة. حتى أنهم هجروا لهجتهم السامية الأصلية واتخذوا اللغة الكنعانية. وورث العبرانيون عن الكنعانيين أسس الثقافة المادية الكنعانية، كما أنه دخل إليهم الكثير من أسس الديانة والعبادة الكنعانية[1].

وأهم ما يتميز به عهد الهجرة الأولى بحسب مآثر التوراة وقصصها أنه زمن الآباء الأول وأولهم إبراهيم[2] حيث جاء في قصص التوراة أنه جاء من «أور» الكلدانيين إلى حران، وأنه استوطن في مبدأ الأمر في «حبرون»، وأن ابنه «إسحاق»[3] ولد يعقوب الذي فضل من بعد إقامته عدة سنين في «فدان آرام» على أخيه عيسو وجعل وريث أبيه وبدل اسمه إلى «إسرائيل»[4]، كما بدل اسم عيسو بأدوم (أي الأحمر)، وسُمِّيت ذريته بالأدوميين بعد أن حلّوا محل السكان الأصليين في «جبل سعير»، وهكذا أخرج أحفاد عيسو من العبرانيين كما أخرج إسماعيل[5] وأبناؤه، حيث فضل عليه أخوه إسحاق. وجاء من

---

(1) Hitti, Op. Cit., 177

(2) ويعني اسمه في العبرانية «الأب سام» (أب ـ رام).

(3) معنى اسم إسحاق في العبرانية (يصحاق) أي «عساه يضحك» (والإشارة إلى الإله إيل)، ومعنى اسم يعقوب بالعبرانية (عساه يحمي).

(4) «يسري ـ إيل» ومعناه (الإله «إيل» يحكم).

(5) وإسماعيل (بالعبرية يشمع ـ إيل أي ليسمع إيل) ابن إبراهيم من سرية مصرية اسمها هاجر. راجع قصص ذلك في التوراة.

يعقوب الأسباط الاثنا عشر، وأن الابن الحادي عشر وهو يوسف[1] (ابن راحيل الأكبر) قد بيع في مصر فنال حظوة عظمى في بلاط الفرعون. وبعد أن عاش أحفاد يوسف وأحفاد إخوته في مصر عدة أجيال رجعوا إلى فلسطين تحت قيادة موسى. وهذه هي بداية الهجرة الثالثة التي نعرف عن حقيقتها التأريخية أشياء أكثر من الهجرتين الأوليين، إذ إن مصادرنا عنهما كما قلنا مقتصرة على ما جاء من أخبار وقصص في الأسفار الأولى من التوراة، وهي الأسفار التي لم تدوّن بالكتابة إلّا من بعد مضي مئات من السنين على الحوادث التي ترويها. ولم يكتف كتّاب هذه الأسفار بتدوين أخبار هذه العهود البعيدة عن زمنهم بل إنهم دوّنوا تأريخ البشر منذ الخليقة، مقتبسين الكثير من قصص حضارة وادي الرافدين وأساطيرها كأسطورة الخليقة البابلية وقصة الطوفان وغيرها، ولكن هؤلاء الكتّاب حسّنوا في وضع هذه الأساطير والقصص وهذّبوا منها وجعلوها تنطوي على مغزى أخلاقي.

خروج الإسرائيليين من مصر واستيطانهم:

لقد سبق أن قلنا إن خروج الإسرائيليين من مصر يحدّد لنا مبدأ الهجرة الثالثة من هجرات العبرانيين، وإنه بالنظر إلى حقيقته التأريخية يمكن عدّه بداية التأريخ الحقيقي للإسرائيليين. والمرجّح كثيراً أن زمن استيطان يوسف وأحفاده في مصر قد كان في عهد حكم الهكسوس في مصر، وأن الحظوة المأثورة التي نالها يوسف في بلاد الفرعون يرجع عهدها إلى زمن أحد ملوك هؤلاء الهكسوس الذين يمتون بصلة إلى الأقوام السورية، كما أنهم غزوا مصر من سوريا التي أقاموا فيها قبل ذلك الغزو. وبعد طرد الهكسوس من مصر، على ما رأينا في كلامنا على مصر، دارت الدائرة على هؤلاء العبرانيين، ويرجّح أيضاً أن الضغط اشتد عليهم في عهد الفرعون رعمسيس الثاني (1299 ـ

---

(1) اسم يوسف من العبرانية (ياسف، بفتح السين) ويعني (عساه يزيد) ويحسن الرجوع إلى قصته في التوراة التي تُعدّ من أمتع القطع الأدبية الروائية.

1232 ق.م)، وهو الفرعون «الذي لم يعرف يوسف» (كما جاء في التوراة، سفر الخروج 1: 8) ووقع في زمنه الخروج المأثور (في حدود 1290 ق.م). والجدير بالذكر بهذا الصدد أن كلمة إسرائيل ذُكرت لأول مرة في مسلة الفرعون «مرين فتاح» بن رعمسيس التي وجدت في طيبة (في حدود 1230 ق.م)، ولعل هذه تشير إلى الإسرائيليين الذين بقوا في مصر ولم يخرجوا منها إلى فلسطين[1]. وبعد خروج هذه القبيلة الإسرائيلية من مصر ظلت تجول سنين كثيرة في طور سيناء والجهات القريبة منها، وهذا هو التيه المأثور، حيث قاسى فيه الإسرائيليون مصاعب كثيرة. وكان قائدهم المشهور «موسى» قد تلقى بحسب مآثر التوراة «العهد المأثور في «مدين»، وهو الجزء الجنوبي من شبه جزيرة طور سيناء. وتزوج قائدهم «موسى»[2] في مدين أيضاً من ابنة كاهن مدين (أو مديان) الذي كان على ما يرجّح موحداً ويعبد الله باسم «يهوه»[3] وهو الاسم الشهير الذي عبد به العبرانيون الله، والمرجح أن أصل اسم «يهوه» إله من آلهة البدو العرب الشماليين. وهكذا اختلطت هذه القبيلة الإسرائيلية

(1) (Hitti, Op. Cit., p.178)

(2) يرى الباحثون في اسم «موسى» أنه ليس عبرانياً بل اسماً مصرياً يعني «ابن» حيث نجده يدخل في أسماء جملة فراعنة مثل أحموسه وططموسه الخ. هذا وقد سبق أن نوّهنا بالفرضية الطريفة التي وضعها «فرويد» في كتابه (Moses and Monotheism, 1940) حيث يرى هذا بالأدلة التأريخية والاستنتاجات الخاصة بالطريقة الفرويدية أن موسى قائد مصري من أتباع الملك أخناتون الشهير الذي ابتدع فكرة الوحدانية، وأن موسى بعد فشل الحركة من بعد موت هذا الفرعون ذهب إلى حدود مصر في سيناء وأخذ يبشّر بفكرته بين العبرانيين. والغريب في هذا الأمر أن النبيين «عاموس» و«أشعيا» لم يذكرا موسى مع أن دعوتهما سبقت تدوين أسفار التوراة الخمسة الأولى بنحو قرن.

(3) لا يعرف بوجه التأكيد أصل الإله «يهوه». فيرى بعض الباحثين أنه من الآلهة التي كانت تقرن بالبراكين، وبعضهم يرى في أصله إلهاً خاصاً بعبادة القمر البدوية، حيث معبده أي مسكنه الخيمة وتدور عبادته بالدرجة الأولى على الأعياد وتقريب الذبائح. أما اسمه «يهوه» أو «ياهوه» فلا يعرف اشتقاقه بوجه التأكيد ولعله من الجذر «هوى» أو «هاواه» (أي سقط أو حدث أو وقع الخ).

بالقبائل العربية الشمالية ولا سيما المدينيين والقينيين. وفي حدود 1250 ق.م أخذت تتهيأ عند الجهة الجنوبية الشرقية من بادية شرقي الأردن للدخول إلى فلسطين، ولا يعلم عددها بالضبط ولكن لعلها لم تكن تتجاوز الـ6000 ـ 7000 نفساً[1]، ومرت في طريقها بالدويلات الصغيرة مثل «أدوم» وموآب و«أمون» الواقعة إلى الجنوب والشرق والشمال الشرقي من البحر الميت، ولم يجرؤ العبرانيون على التعرّض لها بالهجوم. ولكنهم أحرزوا انتصاراً على ملك دويلة أو شيخ إمارة أمورية ورد ذكرها باسم مملكة الملك «سيحون» ثم انتصروا على ملك دويلة أخرى هو «عوج» بن عنق المأثور في التوراة رئيس باشان (أي حوران) المشهور بأنه من بقايا العمالقة[2]. واستولوا في فلسطين نفسها على بعض المدن الكنعانية المسورة وأولها لخيش (تل الدوير الآن)، و«عاي»[3] و«أريحا» التي دمروها وأحرقوها وقتلوا أهلها حتى الأطفال بأمر «يهوه» كما جاء في التوراة[4]، كما استولوا على بعض المدن الكنعانية الشمالية بعد تغلغلهم في الجليل. أما المدن الأخرى المهمة مثل «بيت شان» (بيسان) وأورشليم فلم يستولِ عليها العبرانيون إلّا بعد أزمان (في حدود 1000 ق.م).

وبعد تمكّن هؤلاء العبرانيين من الأجزاء التي احتلوها في فلسطين اختلطوا بالسكان بالتزاوج وتكاثروا كما انضم إليهم أقرباؤهم الذين كانوا في البلاد قبلهم، وأخذوا يتغلغلون أيضاً إلى أجزاء أخرى بالتدريج، ويؤخذ من أخبار التوراة أنهم قسموا ما استولوا عليه من الأراضي بين إحدى عشرة قبيلة من قبائلهم الاثنتي عشرة المنسوبة إلى الأسباط الاثني عشر، أما القبيلة الثانية

(1) (Hitti, Op. Cit., p.179)

(2) انظر وصفه في التوراة في سفر التثنية 3: 11، وسفر الخروج 3: 18، 5: 1.

(3) بالقرب من دير ديوان الآن (انظر: يوشع 10: 30 ـ 31).

(4) انظر سفر يوشع 6: 15 فما بعد، 6: 2، 24.

عشرة وهي قبيلة «لاوي» فقد وزّعت بين القبائل اليهودية الأخرى لتقوم لها بإدارة الشؤون الدينية بهيئة كهنة.

ويطابق هذا العهد من الاستيطان العهد الذي يُعرف في تأريخ اليهود بعصر القضاة الذي شغل بوجه التقريب الربع الأخير من القرن الثاني عشر ق.م. وثلاثة الأرباع الأولى من القرن الحادي عشر. أما هؤلاء القضاة (واسمهم بالعبرانية شنوفطيم، جمع شوفيط) فكانوا في الواقع زعماء قوميين وحكاماً يظهرون ويبرزون في أزمان الشدائد لقيادة قومهم في الحرب مع الأقوام المجاورة كالكنعانيين والمدينيين والفلسطينيين وغيرهم. ونذكر من مشاهير هؤلاء القضاة المقرون اسمهم بالبطولة «شمشون» الجبار الذي اشتهر في حربه مع الفلسطينيين، وصارت أخباره عند كتبة التوراة أخباراً قصصية روائية مقرونة بالمبالغة البطولية[1]. وكان الفلسطينيون أشد أعداء الإسرائيليين الذين نازعوهم على استيطان الأرض الجديدة والاستيلاء عليها. وكان هؤلاء الفلسطينيون، الذين سُمِّيت باسمهم أرض فلسطين، جماعة من الأقوام الإيجية التي فرّت من وجه الهجرات اليونانية التي أزاحتهم من مواطنهم، وقد هاجر قسم من هذه القبائل إلى سوريا بعد إخفاقهم في النزوح إلى مصر حيث صدهم الفرعون «رعمسيس» الثالث في معركة بحرية (1191 ق. م)، فاستولوا على الساحل السوري الجنوبي الذي سمي باسمهم «فلسطين»، وكان يمتد من غزة إلى جنوبي يافا، ومن المدن المشهورة الأخرى التي أخذوها في هذا القسم من الساحل السوري عسقلان (عسقلون) وأشدود وعقرون و«جت»[2]. وكان الكرمل الحد الفاصل بينهم وبين الفينيقيين إلى الشمال. وكانت مدن الفلسطينيين الخمس المشهورة تؤلف دول مدن كل منها تحت زعيم وتؤلف جميعها فيما بينها اتحاداً، وكانت «أشدود» أشهر هذه المدن التي حازت على

(1) راجع أخبار هذا العهد في سفر القضاة.

(2) أي المعصرة ويرجّح أن يكون موقعها الآن التل المعروف الآن باسم «عرق المنشية» الواقع بنحو 6 ميلاً غرب «بيت جبرين».

الزعامة على اتحاد دول المدن. وقد بلغ هؤلاء الفلسطينيون في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ق.م. أوج قوتهم، وأوقعوا في حدود 1050 ق.م. في العبرانيين هزائم شديدة حتى أنهم استولوا على «تابوت العهد» المشهور[1] وأخذوه إلى أشدود، وظلت اليد العليا لهم على العبرانيين إلى زمن حكم أول ملك على العبرانيين وهو شاؤل (في حدود 1020 ـ 1004 ق.م)[2]. ومن العوامل المهمة التي مكّنت الفلسطينيين على العبرانيين أسلحتهم المصنوعة من الحديد الذي أتقنوا تعدينه وصنعوا منه الدروع والأسلحة الماضية. ولم يتعلم العبرانيون صناعة الحديد إلّا في عهد داود (في حدود 960 ق.م)، وتمكّن هذا الملك الذي خلف شاؤل من الغلبة على الفلسطينيين وإخضاعهم، كما استولوا على دويلة «أدوم» التي كانت غنية بالحديد الخام. والمرجّح كثيراً أن الفلسطينيين هم الذين علموا الأقوام السورية صناعة الحديد، ولعل الفينيقيين تعلّموا منهم أيضاً صناعة السفن والجرأة على الإبحار، باعتبارهم من موطن بحري. ومن آثار عهد الفلسطينيين في فلسطين التي وجدت في التنقيبات الأثرية صناعة نوع من الفخار يشبه الصناعة المينية (الإيجية)، وهذا من جملة الأدلة على أن أصلهم من جزر إيجة. وبدؤوا يتضاءلون في القوة والبأس منذ عهد «داود»، واندمجوا بمرور الأزمان بالعبرانيين وبالسكان الساميين الآخرين وفقدوا كيانهم كقوم مستقلين من الناحية السياسية والثقافية.

نشوء الملكية والمملكة الموحدة:

إن الأزمات التي تعرّض لها العبرانيون في صراعهم مع الأقوام المجاورة ولا سيما حروبهم مع الفلسطينيين وتقليدهم للأقوام المجاورة التي

---

(1) (The Ark of the Covenant) أو (The Ark) تابوت العهد أو الشهادة وهو بحسب المآثر العبرانية صندوق طويل صنعه موسى من الخشب وصار يشغل أقدس جزء من المعبد بعد بناء الهيكل، وأودع فيه لوحا الحجر المنقوشان بالوصايا العشر وأشياء أخرى دينية (انظر سفر الخروج 25: 1 فما بعد). وقبل أن يشيّد المعبد كان العبرانيون يحملون التابوت معهم في رحيلهم.

(2) انظر سفر صاموئيل الأول 13: 3 فما بعد، 31: 12.

كانت يحكمها الملوك قد عملت على ظهور نظام الملكية عندهم، وقد كان ذلك بتعيين أول ملك عليهم وهو شاؤل (في حدود 1020 ـ 1004 ق.م) الذي يحدد عهده بداية تأريخ العبرانيين كقوم لهم كيان سياسي. وكانوا من جميع الأقوام السامية قد تميزوا وتفرّدوا بتمسكهم الشديد بقوميتهم وبدينهم، وتكاد تكون هذه القومية والديانة شيئاً واحداً. وتروي لنا التوراة أن زعماء العبرانيين طلبوا من زعيمهم الديني ساموئيل (وكان آخر القضاة) أن يعيّن لهم «ملكاً ليحكم ويقضي بينهم مثل الأقوام والشعوب الأخرى»[1]، فاختير شاؤل الذي بذَّ قومه ببطولته وقيافته و«مُسح» ملكاً (في حدود 1020 ق.م)[2] واقتبس العبرانيون في تنظيم ملوكيتهم عرف الأقوام المجاورة وأنظمتهم، محتفظين ببعض الميزات والأنظمة الخاصة بهم، ولا سيما أصول التنظيم القبلي لأغراض إدارة المملكة، وحكم الملك بموجب أحكام الإلٰه «يهوه» كما كان يستوحيها كهنته ورجال الدين المقدسون عندهم. ومما يذكر عن «شاؤل» الذي كان أول ملك عندهم أنه لم يكن كفوءاً للحكم فيهم. وأخفق حتىٰ في تخليص قومه من نفوذ الفلسطينيين وتحكمهم فيهم. وفي معركة اشتبك بها معهم قتل أبناؤه الثلاثة وجرح جرحاً خطيراً، وانتحر فقطع الأعداء رأسه وعلّقوا جسمه وأجسام أبنائه في بيسان وأودعوا درعه وسلاحه قرباناً في معبد الإلهة «عشتاروت»[3]. وكان «داود» حامل درع الملك شاؤل فصار ملكاً من بعده (في حدود 1004 ـ 960 ق.م)، وكان في أول أمره يحكم في الواقع بصفته تابعاً للفلسطينيين، ولكنه تمكّن أخيراً من إحراز الاستقلال التام واشتهر بنزاله في عهد شاؤل مع «جالوت» البطل الفلسطيني الشهير. ولم يكتف بذلك بل إنه وسع حدود مملكته إلى جهات لم تبلغها المملكة قبله ولا بعده. فأولاً استطاع أن يصدّ الفلسطينيين ويقضي على سلطانهم تقريباً واستولى على دويلات «أدوم»

---

(1) انظر سفر ساموئيل الأول 8: 5.

(2) سفر ساموئيل الأول 9: 2.

(3) سفر ساموئيل الأول 31: 1 ـ 10.

و«موأب» و«أمون» (عمون)، كما أنه غزا دمشق. ومكّنه استيلاؤه على «أدوم» من السيطرة على الطريق التجارية المهمة بين بلاد الشام وبلاد العرب. واستطاع أن ينشىء دولة قوية ويوحّد قومه مؤقتاً. واتخذ عاصمته في «أورشليم» التي انتزعها من سكانها من غير الساميين (اليبوسيين)، وكان هذا اختياراً موفقاً لموقعها بين القسمين الشمالي والجنوبي، وبنى فيها قصره الملكي على أيدي معماريين من أهل صور، بمساعدة صديقه «حيرام» ملك صور (981 ـ 947 ق. م)، وأقام داود معبداً قومياً لليهود وهو معبد «يهوه»، جاعلاً بذلك عبادة «يهوه» الديانة الرسمية للمملكة الموحدة.

وخلف «داود» ابنه سليمان (960 ـ 925 ق.م) الذي بلغت في عهده المملكة أوج ازدهارها. واشتهر بأهتمامه بالتجارة الخارجية والصناعة والتعدين والبناء والتعمير بمقياس كبير. ولكنه حكم حكماً مستبداً قاسياً وعاش عيشة بذخ وإسراف في أبهة القصر والبلاط على غرار ملوك مصر وآشور، وأسرف في بناء قصره الذي استغرق بناؤه زهاء ثلاثة عشر عاماً وقام ببنائه البناؤون الفينيقيون كما كان الحال في قصر أبيه، واستعمل في بنائه عمداً كثيرة من أرز لبنان حتى سمي باسم «بيت غابة لبنان»[1]. واشتهر أكثر من ذلك في بنائه المعبد المشهور باسم «هيكل سليمان» الذي يظن أن موضعه الآن تحت قبة الصخرة، واستغرق بناؤه سبع سنين، واقتبس الكثير من فن العمارة الكنعاني حتى أن اسمه «الهيكل» (هيكال) مأخوذ من الكنعانية (ويرجع المصطلح إلى أصل بابلي سومري كما ألمحنا إلى ذلك من قبل). واهتم سليمان ببناء الحصون والقلاع والثكنات والإسطبلات، وقد عثر على خرائب اسطبلاته في التنقيبات الحديثة التي أجريت في «مجدو». وأنشأ أيضاً بمساعدة صديقه «حيرام» ملك صور أسطولاً من السفن لتجارة البحر الأحمر في سواحل الجزيرة وشرقي أفريقيا لجلب البهار والصموغ والعاج والذهب والأحجار

(1) سفر الملوك الأول 7 : 2 (Hitti, Op. Cit., 189)

الكريمة، وكانت قاعدته في رأس خليج العقبة[1]. واشتهر سليمان في الأساطير والقصص بالحكمة والثروة، ونسبت له الأساطير أن الجن كانت تبني له[2]، ومن ذلك القصة الطريفة مع ملكة عرب الجنوب (ملكة سبأ) الوارد اسمها في المآثر العربية باسم بلقيس، وتدعي السلالة الحاكمة في الحبشة أنها متحدرة من سليمان من زواجه ببلقيس ويلقب ملك الحبشة بأسد يهوذا.

ولكن الوثائق التأريخية لا تؤيد كل الشهرة أو القدرة التي اشتهر بها سليمان، فإن المملكة التي ورثها عن أبيه كانت أكبر وأغنى مما عليه المملكة في عهده وأورثها من بعده إلى خلفه. وقد بدأ في عهده تدخل فراعنة مصر في مدن الساحل الجنوبي من فلسطين وتزوج سليمان من ابنة الفرعون المصري (ولعل ذلك اضطراراً). وذكرت التوراة أن سليمان كان له 700 زوجة و300 سرية[3]، واستطاع ملك دمشق الآرامي «رزون» التخلص من نفوذه[4]، وكان لبذخ سليمان وإسرافه في حياته الخاصة والعامة على طراز ملوك الشرق القديم وفرضه العمل القسري على رعاياه أثر عظيم في تقهقر المملكة وانقسامها من بعده إلى مملكتين على ما سنرى بعد قليل.

انقسام المملكة:

وإلى العوامل التي نوّهنا بها مما عمل على ضعف المملكة وانقسامها

---

(1) وقد نقب في عام 1938 في الموضع الذي كان قاعدة الأسطول وهو تل الخليفة انظر تقرير الحفريات في:

Bullt. Amer Schools of Orient Research, No.72 (1938).

(2) وقد ورد ذلك في شعر العرب مثل قول النابغة الذبياني في تدمر (وخبر الجن أني قد أذنت لهم ينون تدمر بالصفاح والعمد) وتروي التوراة (2 أيام 8: 4) أن سليمان بنى تدمر، وهذه الرواية إما لتمجيد سليمان أو خلط اسم تدمر بمدينة في أدوم اسمها «تمار» أو «تمر» بناها سليمان.

(3) سفر الملوك الأول 11: 3 وكان لبعض نسوته تأثير عظيم في تصرف سليمان حتى أنه أقام بناء على طلبهن مواضع للعبادة الوثنية قرب أورشليم لعبادة آلهة صيدا ومؤاب وعمون (سفر الملوك الأول 11: 5 ـ 8).

(4) انظر الفصل التاسع والعشرين.

يُضاف عامل آخر مهم هو اختلاف أهل الجنوب عن أهل الشمال في الثقافة وأسلوب الحياة والعيش. فكان أهل الشمال أهل زراعة يعيشون على زراعة القمح والزيتون والكروم والحاصلات الزراعية الأخرى الناتجة من أراضيهم الخصبة بالنسبة إلى أراضي الجنوب. أما أهل الجنوب فكانوا رعاة بالدرجة الأولى كما أن أهل الشمال كانوا أكثر تأثراً بالكنعانيين وبثقافتهم وديانتهم الوثنية ولم تتمكن منهم عبادة إله العبرانيين «يهوه» كما كانت في الجنوب. ولما أن توفي سليمان (في حدود 825 ق.م) اجتمع ممثلو القبائل الاثنتي عشرة لانتخاب ابنه البالغ ستة عشر عاماً وهو «رحبعام» خليفة له وسأله المجتمعون عمّا إذا كان سيتعهد بتقليل فداحة الضرائب التي كانت في عهد أبيه فأجابهم جواباً طائشاً هو كما جاء في التوراة: «لقد أدبكم أبي بالسياط، أما أنا فسأؤدبكم بالعقارب»[1]، وعندها رفضت عشر قبائل الاعتراف بخلافته واختارت بدلاً منه رئيس الجمعية وهو «يربعام» من سبط «أفرايم». فتكوّن من هذه القبائل العشر المملكة الشمالية التي عُرفت باسم «إسرائيل»، وكانت عاصمتها في مبدأ الأمر في «شكيم» (قرب نابلس) ثم في «ترصه» وأخيراً في مدينة السامرة الشهيرة (وهي سبسطية الآن)، وتألف من القبيلتين الباقيتين ـ وهما «يهوذا» و«بنيامين» ـ اللتين بقيتا على عهد «رحبعام» المملكة الجنوبية التي عُرفت باسم مملكة «يهوذا» وعاصمتها في أورشليم.

إسرائيل:

وهكذا نشأت هاتان المملكتان وهما تحملان بذور التنافس والتنافر، بل غالباً ما استحكم العداء فيما بينهما ونشبت الحروب، فمرة تكون اليد العليا لإسرائيل ومرة ليهوذا، الأمر الذي أضعفهما علاوة على الانحلال الداخلي. وإلى هذه الأخطار الناجمة من الداخل فإن كلتا المملكتين تعرضتا لضغط الآشوريين وضرباتهم المهلكة، إذ كان الآشوريون في أوج عظمتهم العسكرية

---

(1) سفر الملوك الأول 12: 11.

في عهد الأمبراطورية الآشورية الأولى. وكان من مشاهير ملوك مملكة إسرائيل «عومري» (885 ـ 874) الذي أسس مدينة السامرة[1] حيث حصنها ونقل مقر العاصمة إليها من (ترصه). وخلفه آحاب (874 ـ 852 ق.م) وكان حليفاً لدمشق في موقعة القرقار الشهيرة وفي زمنه حدث نزاع حاد في المملكة بتأثير زوجته ابنة ملك صور وصيدا التي حملت زوجها على إدخال العبادة الوثنية الخاصة ببعل مما حرّض عليه كهنة «يهوه» ثم انتهى النزاع بثورة قام بها «يهو» أو (ياهو)، أحد قواد الجيش الذي قضى على سلالة «عومري» وصار ملكاً في عام 842 ق.م. والجدير بالذكر أن «يهو» هذا هو الذي ورد مصوراً هو ورسله في مسلة الملك الآشوري شيلمنصر الثالث المشهورة باسم المسلة السوداء، حيث نجده ساجداً يقبل الأرض أمام الملك الآشوري ويقدم له الجزية. وكان آخر ملك قوي من ملوك هذه المملكة «يربعام» الثاني (785 ـ 745)، وقد صادف عهده ضعف الأمبراطورية الآشورية في فترة الضعف التي سبقت قيام تجلاثبليزر الثالث (747 ـ 727 ق.م)، وتأسيسه الأمبراطورية الآشورية الثانية، حيث استطاع هذا، على ما مرّ بنا، أن يعيد الأمبراطورية الآشورية الثانية بجملة حملات حربية سريعة في بلاد الشام، فدخلت ضمن السيطرة الآشورية مملكة إسرائيل ويهوذا حيث دفعتا الجزية ولما أن رفض ملك إسرائيل «هوشع» أداء الجزية بتحريض مصر هاجم مملكته شيلمنصر الخامس خليفة تجلاثبليزر، فحاصر السامرة زهاء ثلاث سنوات وأكمل فتحها خلفه سرجون (في حدود 722 ـ 721 ق.م) فأسر زهرة رجال المملكة (زهاء 27,280 شخصاً) وأجلاهم أسرى إلى بلاد ماذي[2]، وتحطمت مملكة إسرائيل، وأحلّ

---

(1) ويعرف موضعها الآن باسم سبسطية المأخوذ من الاسم اليوناني (سيبستوس) (Sebastos) (أي المبجّل نسبة إلى اسم الأمبراطور الروماني أوغسطس)، وقد سمّاها بهذا الاسم هيرود الكبير بعد أن أعاد بناءها عام 27 ق.م.، وسماها باسم أوغسطس تبجيلاً له. وقد أظهرت التنقيبات الحديثة فيها عن آثار قصر هذا الملك ومجموعة من الآثار العاجية.

(انظر: Crowfool, **Early Ivories from Samaria** (London, 1938).

(2) سفر الملوك الثاني 17: 6.

محل هؤلاء الأسرى المبعدين جماعات من السكان جلبهم من بلاد بابل وعيلام وسوريا وبلاد العرب وأسكنهم في بلاد السامرة[1]، فاختلط هؤلاء مع الإسرائيليين ونشأ عن ذلك ما يُعرف في تأريخ اليهود باسم السامريين حيث اختلطت عبادة هؤلاء الأقوام الوثنيين بعبادة «يهوه»، ونجد أثر عبادة بعض الآلهة البابلية واضحة ولا سيما عبادة الإله نرجال إله «كوثى»، حيث كان من جملة الأقوام الذين أحلّهم محل يهود السامرة سكان من أهل «كوثى» (تل إبراهيم الآن). فكان ذلك مما فاقم من شقة الخلاف بين أهل السامرة وأهل يهوذا، بحيث حرم التزاوج ما بين القومين، حتى أنه لما عاد «عزرا» و«نحميا» من الأسر البابلي (في حدود 432 ق.م) بدأ بتطهير اليهود في أورشليم، فطردا من أورشليم حفيد الكاهن الأعلى لزواجه بابنة الحاكم السامري[2]، وظلت طائفة السامريين بهيئة مذهب متحجّر إلى الزمن الحاضر ويمثلهم الآن زهاء 200 شخصٍ يعيشون في نابلس (وهي شكيم القديمة، أول عاصمة للسامريين).

مملكة يهوذا:

عاشت مملكة الجنوب، أي مملكة يهوذا، من بعد زوال دولة إسرائيل بزهاء قرن وثلث القرن[3]. ومن الحوادث السياسية المهمة التي وقعت لمملكة يهوذا غزو مصر لها، حيث غزاها الفرعون الليبي «شيشونك» (وهو شيشق الوارد في التوراة) مؤسس السلالة الثانية والعشرين، وتوغل فيها (في حدود 920 ق.م) في زمن رحبعام وخرب مدنها وضرب أورشليم وأخذ

---

(1) انظر: Luckenbill, **Ancient Records of Assyria G Babylonia II, 17, 118**
وانظر ما ذكرناه في الجزء الأول عن سياسة تهجير السكان التي اتبعها الآشوريون.

(2) (سفر نحميا 13: 28).

(3) لقد حكم في مملكة يهوذا عدد من الملوك يعادل عدد ملوك إسرائيل، إذ حكم في كلتا المملكتين تسعة عشر ملكاً .(Hitti, **Op. Cit.**, 198)

غنائم كثيرة، ومن بين ذلك خزائن القصر والهيكل[1]. واستفادت يهوذا في القرن الثامن من توقف الفتوح الآشورية والمصرية. ولكن زوال مملكة إسرائيل من الوجود (في عام 721 ق.م) على يد الدولة الآشورية، كما مرّ بنا، عرض مملكة يهوذا إلى هجمات الآشوريين هجمات مباشرة أشد من ذي قبل. وصارت تؤدي الجزية إلى المملكة الآشورية في عهد الملك «حزقيا» (721 ـ 693 ق.م) بن آحاز فسلمت من هجمات الآشوريين، ولكن هذا لم يستمر طويلاً لأن «حزقيا» تحدى السلطان الآشوري بتحريض مصر وتشجيع النبي «أشعيا»، فقوى نفسه بالتحالف مع الدويلات المجاورة وتهيأ لحصار طويل حتى أنه حفر قناة طويلة (طولها زهاء 1700 قدم في الجبل) ليضمن الماء لعاصمته. وكان الملك سرجون وابنه سنحاريب قد قام بسلسلة حملات حربية على المدن الفينيقية والفلسطينية، وحاصر سنحاريب أورشليم في 701 ق.م. وترك على حصارها جزءاً من جيشه بعد أن استولى على أكثر المدن الفينيقية وذهب لملاقاة الجيش المصري بقيادة الملك «ترهاقة» (طهراقا)[2]. وأخفق حصار سنحاريب لأورشليم لعله بسبب تفشي الوباء، وتروي التوراة[3] أن ملاك الرب ضرب العدو وأهلك عدداً غفيراً منهم في ليلة واحدة. ومع أن أورشليم لم تسقط إلّا أن الجيش الآشوري ترك البلاد خراباً ولم يستطع حزقيا الاحتفاظ بعرشه إلّا بعد أن دفع ما كان يترتب عليه من الجزية واعترافه بسيادة الآشوريين. وظل الأمر كذلك حتى نهاية الدولة الآشورية وسقوط نينوى على أيدي الماذيين والبابليين الكلدانيين في عام 612 ق.م. ويبدو أن مملكة يهوذا انحازت إلى جانب الدولة البابلية الجديدة منذ البدء، فإن ملكها «يوشيا» (Josiah) (638 ـ 608 ق.م) قاد جيشاً لمحاربة الجيش المصري بقيادة «نيخو» الذي جاء للاستيلاء على

---

(1) سفر الملوك الأول 14: 25 ـ 26.

(2) انظر ذلك في الكلام على الآشوريين (الجزء الأول).

(3) سفر الملوك الثاني 19: 35.

بلاد الشام، ومات مجروحاً في موقعة «مجدو»[1]، واشتهر الملك «يوشيا» بإصلاحاته الدينية والقضاء على الشعائر الوثنية الدخيلة وظلت مملكة يهوذا الصغيرة من بعد موت «يوشيا» تتقلب في سياستها بين الخضوع إلى الدولة البابلية الجديدة وبين تحالفها مع مصر. وكان لسوء حظ ملكها الجديد ابن «يوشيا» وهو «يهوياقيم» (608 ـ 957 ق.م) أن اختار معارضة بابل والتحالف مع مصر في عهد «نيخو» الذي عيّنه على عرش يهوذا، وكان نبوخذنصر ملك بابل قد دحر جيش نيخو في كركميش (605 ق.م) وبذلك ثبت النفوذ البابلي في جميع بلاد الشام، ووجه نبوخذنصر جيشاً على يهوذا فدخل العاصمة «أورشليم» (597 ق.م) فأسر الملك المنشق «يهوياقيم» وأخذه مقيداً بالسلاسل إلى بابل[2] (سفر الأيام الثاني 36:6)، ونصب ملكاً على يهوذا ابنه «يهوياكين» الذي لم يشغل العرش سوى ثلاثة أشهر (في 597 ق.م) لأنه طمع أيضاً بالثورة، فجاء نبوخذنصر بحملة يقودها بنفسه وحاصر أورشليم التي استسلمت بعد حصار قصير الأمد، فأخذ نبوخذنصر الملك الشاب «يهوياكين» وزوجاته وموظفيه و7000 من جنده ونحو 100 من الصناع، وحملهم أسرى إلى بابل. وكان حزقيال (ذو الكفل في المصادر العربية) من بين رؤساء الدين المهمين الذين أُخذوا أسرى وكان هذا هو السبي البابلي الأول. وعين نبوخذنصر «صدقيا» أحد أبناء «يوشيا» وعم «يهوياكين» على يهوذا، وحكم هذا الملك (597 ـ 586 ق.م) برهة من الزمن وهو محافظ على ولائه لنبوخذنصر، ولكنه سوّل له من بعدئذ أن يحاول العصيان والاستقلال ولعل ذلك بتحريض مصر، فغضب نبوخذنصر في هذه المرة غضباً شديداً وأرسل حملة قوية حاصرت أورشليم، وأرسل

---

(1) سفر الأيام الثاني 35: 20 ـ 22. 34 وسفر الملوك الثاني 23: 29 ـ 30.

(2) لا يعلم بوجه التأكيد هل أُخذ أسيراً إلى بابل أو أنه مات أو قتل في أورشليم. والطريف ذكره بهذا الصدد أن النبي «أرميا» الذي كان ضد يهوياقيم وكفره قد تنبأ عنه أنه سيدفن كما يُدفن الحمار (أرميا 22: 18، 19).

الفرعون المصري (حوفرا أو افريز الوارد في هيرودوتس) نجدة لحليفه، ولكن ذلك لم يجد نفعاً، وبعد حصار دام زهاء السنة ونصف السنة سقطت أورشليم في عام 586 ق.م.، وحاول ملكها التعس الهرب ولكنه قبض عليه وأخذ إلى مقر قيادة الملك البابلي في «ربلا» (ربلة) على العاصي فذبح أبناؤه أمام عينيه ثم فُقئت عيناه وقيّد بالسلاسل حيث أخذ مع الأسرى إلى بابل. أما أورشليم فقد خربت ودمرت تدميراً كاملاً وأزيل الهيكل من الوجود وأخذ أهم السكان أسرى، ويقدر عددهم بزهاء (50,000) شخص ولم يترك سوى قلة بائسة، كما أن المدن المهمة في يهوذا قد خربت وظلت خراباً. وهذا هو السبي البابلي المشهور. وبعدها أكمل نبوخذنصر في عام 582 ق.م. فتح المدن الأخرى المجاورة ولا سيما مدن فينيقية إلّا مدينة صور التي قاومت زمناً طويلاً حتى 572 ق.م.، ثم غُزيت صور مرة أخرى في 564 ق.م.، فأصبحت جميع بلاد الشام خاضعة للدولة الكلدانية.

لقد سبق أن نوّهنا[1] بأثر السبي البابلي وبقاء اليهود في بابل في تطور ديانتهم حيث قلنا إن الديانة وتطور فكرة الوحدانية الشاملة وتساميها الروحي إنما حدث وهم في الأسر يعانون الاضطهاد وأن الديانة اليهودية كما نعرفها إنما ولدت في أثناء الأسر في بلاد بابل، كما أن أسفار التوراة قد دوّنت معظمها في هذه الفترة المظلمة بعيد رجوع اليهود إلى فلسطين في عهد الملك الفارسي كورش، وقد عاش دانيال في بابل في عهد الملك بيلشاصر على ما تروي التوراة وهو الذي فسر للملك «الكتابة على الحائط»[2]، ونال هو وجملة من اليهود البارزين معه حظوة لدى البلاط البابلي.

أما من ناحية التوراة فإن الأسفار الأولى التي تبتدىء بها التوراة عادة فقد أخذت شكلها الذي جاءتنا به في خلال مكث اليهود في بلاد بابل في أثناء السبي (586 ـ 538 ق.م) الذي ذكرناه، ولكن المرجّح أن كتابتها قد أُعيدت

---

(1) انظر الجزء الأول.

(2) انظر الجزء الأول وسفر دانيال.

ونقّحت كثيراً في خلال القرنين اللذين انتهيا في غزو الإسكندر الكبير للأمبراطورية الفارسية (أي في العهد الفارسي الإخميني 538 ـ 330 ق.م) ومع أنه يوجد في الأسفار الخمسة الأولى مادة قديمة، ولكن هذه الأسفار ليست في الواقع أقدم كتب التوراة تدويناً، وإنما الراجح أن أسفار الأنبياء هي أقدم كتب التوراة. وكتب في العهد الفارسي كثير من أسفار التوراة الحديثة في تأريخها، وبعضها لم يدوّن إلّا في العهد السلوقي مثل كتاب دانيال (في حدود 168 ـ 165 ق.م)، كما يحتمل أن جملة من مجاميع المزامير تعود إلى هذا العهد[1]. فيبدو أن مما لا شك فيه أن كهنة اليهود وأهل المعرفة منهم قد أخذوا معهم إلى بلاد بابل سجلاتهم القديمة الخاصة بتواريخ يهوذا وإسرائيل، كما استصحبوا معهم الكتابات الدينية المقدسة الخاصة بالأنبياء من «عاموس» إلى «هوشع» (القرن الثامن ق.م) إلى كتاب حزقيال من بعد قرنين من الزمان.

وبمناسبة كلامنا على تدوين أسفار التوراة ننوّه بخبر الاكتشاف الأثري الحديث حيث عُثر (في عام 1947) على مخطوطات بالعبرانية في إقليم البحر الميت ثبت أنها أجزاء من التوراة تعدّ أقدم ما لدينا من المخطوطات التوراتية حيث يرجع عهدها إلى القرن الثالث أو الثاني ق.م. بالمقارنة مع أقدم مخطوط بالعبرية للتوراة من تأريخ 916 للميلاد[2]. وجدت هذه المخطوطات الجديدة في كهف في موضع في شرقي الأردن يسمى «خربة قمران» (أي خربة الحجر) واستطاع الباحثون أن يعينوا من بين المخطوطات العبرية المكتشفة نصاً كاملاً لسفر «أشعيا» وأجزاء من أسفار التوراة الأخرى، ومخطوطاً طريفاً

---

(1) Ernest William Barnes, **The Rise of Christianity** (1948), 16.

(2) وهو المخطوط المعروف باسم (Codex Babylonicus Petropolitanus) أما نصوص المخطوطات الأخرى فهي الترجمة اليونانية من القرن الثالث أو الثاني ق.م.، وهي المعروفة باسم الترجمة السبعينية (Septuagint) حيث قلنا إن التسمية ناشئة من الاعتقاد بأن هذه الترجمة تمّت على أيدي 70 أو 72 مترجماً، والمرجّح أن الترجمة تمّت في مصر ثم الترجمة اللاتينية المعروفة باسم (Vulgate) التي قام بها القديس جيروم (345 ـ 420 م) الذي عاش في سوريا وقضى شطراً من حياته في التنسّك وصارت ترجمته المعول عليها في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

عنوانه «حرب أبناء النور لأبناء الظلام» ثبت أنه من الكتابات الدينية الخاصة بالطائفة اليهودية المعروفة باسم الـ «ايسينيين» (Essenes)[1]، وهي طائفة كانت تعيش عيشة الزهد والتقشف وتمارس التعميد وجملة أشياء تشبه ما في الديانة المسيحية وترى في الحياة جرياً على المبدأ الزرادشتي الفارسي، حرباً بين الخير والشر، بين النور والظلام. وأنها التجأت إلى هذا الموضع في أثناء الحروب اليهودية الرومانية.

ولما فتح كورش الفارسي بابل (539 ـ 538 ق.م) على ما رأينا في أخبار الدولة الكلدانية في الجزء الأول وجد هناك المهجرين من أسرى نبوخذنصر (أسر 597 وأسر 586 ق.م) فأحسن إليهم ولا يستبعد أنهم ساعدوه في فتح المدينة[2] وأصدر أمره بالسماح لمن أراد منهم الرجوع إلى موطنه وسمح لهم بإعادة بناء المعبد[3]، ولعل الحافز الذي دفعه إلى ذلك، بالإضافة إلى ما اشتهر من التساهل، أن يجعل من هؤلاء اليهود العائدين إلى وطنهم جماعة بجانب السلطة الفارسية في بلاد سوريا ضد الجماعات الموالية للنفوذ المصري، وإزاء هذه المعاملة رحّب اليهود بكورش ناعتين إياه بالمخلص الإلٰهي أو المسيح المنتظر[4]. هذا ولا يعلم كم من اليهود من انتهز هذه الفرصة فرجع إلى موطنه. ولكن الرأي الحديث على ما نوّهنا سابقاً[5] لا يميل

---

(1) انظر حول ذلك وحول خبر الاكتشاف **André Dupont-Sommer, The Jewish Sect of Qumrân and the Essenes** أما الطائفتان اليهوديتان الأخريان فهما طائفة الفريسيين (Pharisee) وطائفة الصدوقيين (Sadducee).

(2) Hitti, **Op. Cit.**, 221.

(3) إن أخبار ذلك مدوّنة بالتفصيل في سفر عزرا (وحول سماح كورش لهم بالرجوع) انظر: عزرا 6: 3 ـ 5.

(4) أشعيا 44: 28، 45: 1.

(5) انظر الجزء الأول، وحول عدد الراجعين وأسرهم. انظر عزرا 2: 64، ونحميا 7: 66. وحول الرأي القائل بقلة من رجع منهم انظر: **Olmstead, History et the Persian Empire.**
ولعله مما يؤيد هذا الرأي ما نعرفه من أخبار اليهود في بلاد بابل من بعد رجوع جماعة من الأسرى إلى فلسطين حيث كما نعرف نشأت التعاليم اليهودية المهمة المعروفة باسم التلمود=

إلى الأخذ بالأعداد التي يذكرها سفر «عزرا» و«نحميا» (42360)، ولعل الذين رجعوا انحصر عددهم في أولئك الذين لم يفلحوا كثيراً في الأرض الجديدة، ومن المتعصبين لإعادة الوطن القومي، كما أن المعروف من الوثائق التأريخية التي جاءتنا من العراق من العهود التي أعقبت العهد البابلي الحديث تشير إلى أن اليهود أصابوا النجاح والفلاح وظلّ قسم مهم منهم بعد السماح لهم بالرجوع إلى موطنهم، كما يشير إلى ذلك نشوء التلمود البابلي.

ومهما كان الحال فإن اليهود الذين عادوا إلى فلسطين بقيادة «زرو بابل»[1] قد أعادوا معهم كنائز الهيكل التي سلبها نبوخذنصر، وصار أول حاكم على فلسطين وتابعاً للدولة الفارسية، وشرع يعيد بناء الهيكل الذي لم يتم بناؤه إلّا بعد صعوبات في عهد دارا الكبير (عام 515 ق.م). وهناك جماعة أخرى من اليهود رجعت إلى موطنها بسماح من الملك الفارسي «أرتحششتا» الأول (465 ـ 424 ق.م) فعادت جماعة بقيادة «نحميا» والأخرى

= في بلاد بابل، ولا سيما التلمود البابلي (في حدود القرن الخامس للميلاد)، وهناك تلمود آخر هو المعروف باسم تلمود أورشليم (الذي دوّنه حاخامو طبرية بين القرنين الثالث والخامس للميلاد) والتلمود (ومعناه تعليم) يقسم إلى قسمين: (1) المشنا (ومعناه الموضوع والتكرار). (2) الجمارة (التفسير)، فتعني «المشنا» مجموعة من مآثر اليهود وتقاليدهم مع بعض الآيات من التوراة حيث يعتقد فيها اليهود أنها لقّنت إلى موسى في الجبل وأخذها عنه هارون وأليعازر ويشوع ونُقلت عنهم إلى الأنبياء ثم إلى المجمع اليهودي العظيم، وقد دوّنت في القرن الثاني للميلاد (حيث جمعها الحاخام يهوذا). أما الجمارة فهي مجموعة التفاسير والشروح والمناظرات التي جرت في مدارس اليهود الدينية من بعد «المشنا». انظر حول التلمود:

(1) H. L. Strac, **Einleitung in Talmud und Midrash** (1921).

(2) H.S. Linfield, «**The Rlation of the Jewish Talmud to Babylonian Law**» in AJSL, XXXVI, 40 ff.

(1) «زرو بابل» وهو اسم بابلي مأخوذ من «زيرو بابلي» (أي زرع أو ولادة بابل)، وقد تحدّر هذا من «يهو ياكين»، ويدعى زرو بابل أيضاً باسم «شيشبصر» الذي قلنا إنه اسم بابلي أيضاً (لعله مأخوذ من شمس ـ أبال ـ أوصر، انظر الجزء الأول).

بقيادة «عزرا»، فحكم نحميا على اليهود بصفته تابعاً للدولة الفارسية، حيث سمح لهم بالحكم الذاتي. ومما يجدر ذكره بصدد اللغة العبرانية في هذا العهد أنها بطلت أن تكون لغة الكلام المحكية وحلّت محلها الآرامية، هذا وسنذكر أحوال اليهود في العهود التي أعقبت العهد الفارسي في الكلام الموجز الذي سنفرده لأحوال البلاد السورية في تلك العهود.

شيء عن الأوجه الثقافية والدينية:

وقبل أن نذكر مجمل أحوال البلاد السورية في العهود المتأخرة التي نوّهنا بها نورد هنا بعض الأمور الموجزة عن الأوجه الثقافية والدينية في حياة العبرانيين. فمن الأمور العامة التي تُذكر بهذا الصدد أن العبرانيين ساروا في بدء حياتهم على طراز ما كان سائداً من نمط الحضارة والثقافة في الشرق الأدنى بالشكل الكنعاني. فأخذوا من الكنعانيين لغتهم وحروف الهجاء، وكذلك تعلموا منهم الزراعة، حيث دخل العبرانيون إلى موطنهم وهم بدو، فانتقلوا من الرعي إلى الزراعة في موطنهم الجديد. واقتبسوا من الكنعانيين أيضاً بعض الشعائر والطقوس الدينية، ولا سيما تلك التي تتعلق بالزراعة، وأن ما جاء في التوراة من تحريم هذه الشعائر المقتبسة يدلّ على أن العبرانيين كانوا يمارسونها. وحتى «يهوه»، الإلٰه الرسمي للعبرانيين، أخذ كثيراً من الصفات الخاصة بآلهة الكنعانيين ولا سيما «بعل»، حيث كانت عبادته تهدِّد عبادة يهوه.

وتأثر العبرانيون أيضاً في فنهم الديني بالكنعانيين، فمثلاً إن هيكل سليمان المشهور لم يقتصر على أن بنّائيه كانوا من صور بل إنه بُني بموجب تصميم معبد كنعاني وكذلك يقال في زخرفته وتزويقه. وهكذا كان قصر ملوكهم في أورشليم. كما استعاروا من الكنعانيين الموسيقى وآلاتها، ولا سيما الموسيقى الدينية. ويوجد شبه قوي بين الشعر العبراني والشعر الكنعاني كما وجدت نماذج منه حديثاً في «أوغاريت» (رأس الشمرة)، كما تأثر الأدب العبراني بوجه عام بالأدب الكنعاني. وتأثروا أيضاً بالعادات الكنعانية فيما

يخص مراسيم الدفن وبعض العقائد الخاصة بالعالم الآخر. وبوجه الإجمال لم يكن أثر العبرانيين في الحضارة البشرية من الناحية المادية شيئاً يُذكر، وإنما انحصر تراثهم الكبير في الناحية الدينية، في مسألة الوحدانية التي تطورت وتهذبت عندهم، كما أثرت التوراة في معظم العالم المتمدن الآن، والديانة المسيحية من ناحية الأصل التأريخي بنت الديانة اليهودية.

ولكن قبل أن تأتينا التوراة بشكلها النهائي المدوّن كانت مادتها قد مرّت بعدة أدوار تطورية، من الرواية الشفهية والانتخاب والحذف ثم التدوين. أما مدونو التوراة فيصحّ أن نقول إنه اشترك في تدوينها جماعات كثيرة متنوعة منهم المشرّعون مثل موسى المتكلم بوحي من الله (يهوه)، وتحتوي كتب الشريعة المنسوبة إلى موسى على الشريعة العبرانية المقدسة، وقد وجد الباحثون عدة أوجه من المقارنة والشبه بين شريعة حمورابي وشريعة موسى[1]، ومع قدم الشريعة الأولى بأكثر من 500 عام على شريعة موسى إلّا أنها تمثل مرحلة أرقى وأنضج من التطور الاجتماعي بالمقابلة مع شريعة موسى التي انحصرت في تنظيم شؤون مجتمع رعي وزراعة. ومن الأشخاص الذين أثروا في تطور المجتمع العبراني والديانة اليهودية والتوراة «الكاهن» (كوهين) الذي كانت وظيفته تعليم الشريعة وشرحها، وكان يقوم علاوة على ذلك بالإشراف على إقامة الشعائر والرسوم الدينية، ويصحّ القول إنه كان الواسطة بين الإنسان وبين الله[2]، وكانت وظيفة الكهانة عند العبرانيين وراثية حيث حصرت في نسل هارون، وهم اللاويون[3]. ومن الشخصيات الذين أثروا في العبرانيين أيضاً طبقة أهل الحكمة، ولم تكن وظيفة الحكيم رسمية، كما أن مصدر ما يتّصف به الحكيم من تجاربه وليست مثل الشريعة موحى بها. ويمثل الحكمة في التوراة سفر الأمثال

---

(1) انظر نموذجاً من هذه المقارنات في (Hitti, Op. Cit., 210).

(2) (Hitti, ibid, 210).

(3) سفر الخروج 28: 1، العدد 16: 4.

وسفر «أيوب» الذي يعدّ من أمتع كتب التوراة من الناحية الأدبية والإنسانية كما أنه يحتوي على نوع رفيع من الشعر، فهو يجمع بين الشعر والحكمة، وموضوعه شبيه بموضوع القصيدة البابلية الشهيرة التي عنوانها «لأمجدن رب الحكمة»[1] إذ تدور على ما يحلّ بعبد صالح من عذاب وبلوى لامتحانه وابتلائه من قبل الرب.

الأنبياء:

ولعل أهم هؤلاء الأشخاص الذين أثروا في سير تأريخ العبرانيين «الأنبياء». والنبي[2] يعني هنا المتكلم أو المخبر عن الله. ولإدراك أهمية الأنبياء في تأريخ الديانة العبرانية نقول إن الدين العبراني كما وصل إلينا إنما بدأ منذ ظهور الأنبياء، وقد ظهر نظام النبوة عند العبرانيين كرد فعل أو استجابة عنيفة إزاء العبادة الغريبة الوثنية من الأقوام المجاورة للعبرانيين، ولا سيما عبادة الأبعال من الكنعانيين، كما قويت حركة ظهور الأنبياء أيضاً بالاستجابة إزاء تبذير الملوك وزيغهم وإسرافهم منذ زمن سليمان بحيث كانت تبدو على دعوة مثل هؤلاء الأنبياء مسحة الاشتراكية البدائية. لقد ظهر الأنبياء ليحافظوا على ديانة «يهوه» نقية خالصة من شائبة العبادات الوثنية المجاورة. وتطور الأنبياء بمرور الأزمان إلى مرحلة روحية سامية، بحيث يصحّ القول إنهم أوجدوا ديانة تختلف عن ديانة الإسرائيليين القديمة، أهم ما يميزها الوحدانية النقية التي تدور على عبادة إلٰه عالمي عام، عادل، يحاسب على السلوك والأخلاق. وإذا كانت الديانة القديمة تقوم على الطقوس والعبادات الظاهرية ولا سيما التضحية والقرابين، فإن الأنبياء المتأخرين أعلنوا بين قومهم على أن الله الأعظم يريد من عباده بالدرجة الأولى السلوك والأخلاق أكثر من التعبّد، وهكذا تميّزت ديانة هؤلاء الأنبياء الجديدة بالإلٰه الواحد الأعظم الذي يهتم

---

(1) انظر الجزء الأول.

(2) كلمة النبي في العربية والعبرانية (نابئي) بحسب اشتقاقها اللغوي يعني المعلن أو المبلغ وهي كلمة مأخوذة من جذر سامي موجود في اللغات السامية، فجذر «نبو» في الآكدية يعني دعا وأخبر، ومنه اسم الإلٰه البابلي «نبو».

بالعدل والأخلاق. أي إنهم في الواقع قاموا بمحاولة جريئة وهم وسط ذلك العالم القديم ذي الديانة المشبعة بالطقوس الوثنية، وجهروا بتفسير انقلابي جديد للإله وطبيعته وصفاته، وتفسير علاقة الإنسان بهذا الإله، وعلاقة الإنسان بالإنسان، والتبشير بالعدالة الاجتماعية في الدين أكثر من العبادات الطقوسية. وقد أثرت تعاليم هؤلاء الأنبياء المصلحين الجريئين في العالم أثراً بالغاً ولا سيما في الشعوب التي تدين بإحدى الأديان السامية الكبرى. فالمسيح مثلاً لم يؤسس تعاليمه على تعاليم الكهنة والقوانين الموسوية مثلما أقامه على تعاليم أولئك الأنبياء، وبذلك يكون الأنبياء العبرانيون قد «بدأوا بأعظم حركة في تأريخ البشر الروحي»[1]، ونتج عن تبشير هؤلاء الأنبياء وتعاليمهم نوع جديد من الأدب الديني في التوراة، يمتاز بالجاذبية والتأثير والحماس العاطفي والنظم والتأليف المتميز بالموسيقى والإيقاع الخاصين، ويرجع عهد القسم الأعظم من هذا الأدب إلى حدود 750 و550 ق. م. ولعل أهم أثر لهؤلاء الأنبياء ما سبق أن نوّهنا به من سعيهم للتبشير بالوحدانية الصحيحة النقية، إذ إن الأنبياء كما يدل الواقع التاريخي هم الذين أوجدوا الوحدانية الصحيحة عند العبرانيين، أما ما قبل عهد الأنبياء فلم يكن العبرانيون موحدين بالمعنى الدقيق لمصطلح «التوحيد» (Monotheism)[2]، بل أصح ما يوصفون به أنهم أدركوا مبدأ التفريد (Henotheism). وهكذا كان موسى وداود على غرار ما رأيناه في الحضارات القديمة حيث كان يخص إلٰه واحد من بين مجموعة آلهة بالتعظيم والتقديس بدون نبذ عبادة الآلهة الأخرى والقضاء عليها، كما أن هذا الإلٰه الذي تصوّره العبرانيون في عهد موسى وما قبل موسى كان إلهاً قبلياً خاصاً بقبيلة إسرائيل وينافس آلهة الأقوام الأخرى، ويفاضله عباده مع هذه الآلهة، كما أن صفاته الأخرى لم تكن لتتميز بالصفات العليا التي تطور إليها تصور لأنبياء لله الأعظم، إلٰه جميع الكون. والواقع أن أهم ما يميّز مبدأ الوحدانية

---

(1) انظر (Hitti, Op. Cit., 212), J. A. Bewer, The Literature of the Old Testament.

(2) ومن الباحثين من وضع مصطلح (Monolatry) أي عبادة إلٰه واحد مع جواز الاعتراف بوجود آلهة أخرى.

الصرفة الصحيحة هو أن لا تتساهل بوجود الآلهة الأخرى وبعبادها، بل يعمد أصحاب الأديان الموحّدة إلى اضطهادهم وجواز قتلهم إن لم ينبذوا الشرك. والتفريد يمكن عدّه مرحلة تطورية بين الشرك (Polytheism) وبين طور الوحدانية الصرفة. فتطورت فكرة الإلٰه «يهوه» منذ ظهور الأنبياء بين العبرانيين من إلٰه قبلي لا يهمه من العالم والخلق سوى قبيلة إسرائيل (أو شعبه المختار) يحارب معها كما كان الحال عليه في آلهة دول المدن في العراق القديم ـ نقول إن هذا الإلٰه القبلي المحلي تطور تصور الناس له إلى إلٰه متسام، هو إلٰه جميع العالم، يتّصف بحبه لخلقه وبعدالته ورحمته وعفوه. وهذا في الواقع تطور عظيم لا نعلم بوجه التفصيل الخطوات التي تمّ إدراكه بها. ومن الإبداعات الأخلاقية التي ابتدعها أنبياء بني إسرائيل تعليلهم وتفسيرهم لما كان يقع على شعبهم من اضطهاد الشعوب، ولا سيما ضربات الآشوريين المهلكة. فبموجب التفكير الضيق القديم الذي شاركوا فيه الحضارات القديمة الأخرى أن القوم المغلوبين يعني أن إلٰه القوم الغالبين أقدر وأقوى من إلههم. أما أنبياء العبرانيين فلم يقروا بأن الإلٰه «آشور» أقوى من إلٰههم «يهوه» بل إنهم لم يعترفوا بوجود الإلٰه «آشور» ولا بغيره من آلهة الأقوام الأخرى، وعلّلوا ما كان يقع عليهم من ضربات أنه ناشىء من ذنوبهم وآثامهم ومعصيتهم للإلٰه «يهوه» الذي سخّر الآشوريين ليكونوا «سوط نقمة الله» لتأديب العبرانيين حينما يعصونه (كما جاء في التوراة). وهذه في الواقع براعة خلقية عظمى في تعليل النكبات وتحويل الهزيمة إلى نصر والذل إلى مجد.

ونختتم بحثنا عن العبرانيين بذكر أشهر أنبيائهم الذين أثروا في مجرى حياتهم الدينية والخلقية. فأول هؤلاء الذين أعلنوا الوحدانية الصرفة «عاموس»[1] وكان هذا راعياً ضئيل الشأن مهلهل الثياب، من قرية حقيرة في

(1) (Amos). ومعنى اسمه في العبرانية (حمل)، وله سفر في التوراة مشهور هو السفر الثلاثون من أسفار العهد القديم.

يهوذا قرب بيت لحم اسمها «تقوع». فكيف استطاع هذا الراعي أن يتصور الله بوحدانيته وشموله وعالميته فيبشر بفكرته في حدود 750 ق.م.؟ وكان «عاموس» نبياً مبشراً ونذيراً اعتمد على الكلام دون الكتابة على غرار أعاظم الأنبياء كعيسى ومحمد عليهما السلام. وقد بشّر بمبادئه في مملكة إسرائيل (مملكة الشمال) في عهد ملكها «يربعام» الثاني الذي امتاز عهده بالثروة والبذخ فندّد بسلوك هذه المملكة كما وبّخ مملكة يهوذا، وكان صريحاً عنيفاً في تبشيره. وكان أول من تصور الإلٰه «يهوه» بأنه إلٰه الشعوب الأخرى من غير الإسرائيليين[1]، كما أنه تصوره إلهاً يتّصف بالعدل الاجتماعي ولا يريد الطقوس والقرابين[2].

ونذكر من مشاهير هؤلاء الأنبياء «هوشع» الذي كان من أهل مملكة إسرائيل (وقد عاش في حدود 745 ـ 735 ق.م)، وله سفر مهم في التوراة، وقد بشر في مملكة الشمال في زمن الملك «يربعام» الثاني وكان معاصراً للنبي أشعيا الذي سنذكره، وقد بشّر بفكرة طريفة هو مبدأ الحب في الله وأن جوهر الله الحبّ[3]. أما «أشعيا» الذي بدأ نبوته في حدود 738 ق.م. فقد أكّد مثل «عاموس» على وحدانية الله الخالصة، وقد اعتبر الآلهة الأخرى من خلق الإنسان لا حقيقة ولا قيمة لهم[4]، كما أكّد على قدسية الله وكماله، وقد عاش في يهوذا في أيام عصيبة بالنسبة للعبرانيين فقد دمرت في عهده مملكة السامرة وأزيلت من الوجود على يد الملك الآشوري سرجون (772 ق.م).

وشاهد أيضاً تدمير سنحاريب لمملكة يهوذا وحصاره لعاصمتها أورشليم. وقد امتاز في هذه المحن بقوة روحه ووطنيته وتحريضه لقومه على المقاومة، فقد صرف ثلاثة أعوم وهو يجول حافياً عارياً تقريباً مبيِّناً للناس

(1) انظر عاموس، 9: 5 ـ 7.
(2) ذات المصدر الإصحاح الخامس.
(3) سفر هوشع 14: 4.
(4) سفر أشعيا 2: 8، 18، 10: 10.

كيف يعامل الأسرى الآشوريون. وقد بشر أشعيا بظهور المسيح المخلص لبني إسرائيل.

ونذكر من مشاهير أنبيائهم «ارميا»[1] (626 ـ 586 ق.م) الذي امتاز عن سابقيه من الأنبياء بأنه كتب تعاليمه، وقد عاش ليشاهد هجوم نبوخذنصر على يهوذا في عام 597 ق.م. وتخريب أورشليم والسبي البابلي الثاني في عام 586 ق.م. وقد أكّد أيضاً على الوحدانية، وحلم بظهور «طوبيا» يسود فيها الحق والعدل بين الناس[2]، وقد ورد في سفره[3] تعاليم وآراء تعد أسمى تفكير في التوراة، فقد فسّر فكرة العهد بين الله وبين بني إسرائيل ليس بأشياء ظاهرية خارجية مما يكتب على ألواح الحجر كما في عهد الله لموسى، وإنما هو عهد يكتب في القلوب كما أنه أكّد على مسؤولية الفرد الجاني دون غيره من أقربائه بخلاف العقيدة السابقة التي تأخذ الأبناء بجريرة الآباء[4] وهذه مرحلة مهمة في تطور العدالة الأخلاقية.

---

(1) (Jeremiah) ومعنى اسمه بالعبرانية «معظم من يهوه». وسفر «أرميا» هو السفر الرابع والعشرون من العهد القديم.

(2) سفر أرميا 23: 5.

(3) وبوجه خاص الإصحاحات 30 ـ 33.

(4) أرميا 31: 9 ـ 30.

الفصل الحادي والثلاثون

موجز تاريخ بلاد الشام في العهود المتأخرة

كنا نوّهنا فيما سبق ببعض الحوادث التأريخية المهمة في بلاد الشام في عهد الأمبراطورية الآشورية الثانية (745 ـ 612 ق.م) من غزوات الآشوريين المتتابعة وقضائهم على الكيانات السياسية التي كانت تقيمها الأقوام السامية في سوريا مثل دولة الآراميين في دمشق، وغزواتهم لبلاد فينيقيا، كما ذكرنا أيضاً قضاء الآشوريين على الدولة اليهودية الشمالية «إسرائيل» (721 ق.م)، وتخريبهم لمدن الدولة الثانية أي مملكة يهوذا. ورأينا أيضاً أن مجيء البابليين المتأخرين (الكلدانيين) لم يخفّف من وطأة دول العراق القديم في بلاد الشام، فقد رأينا نبوخذنصر يزيل نفوذ مصر من سوريا ويفرض السلطان البابلي في جميع أنحائها، كما أنه أزال الدولة اليهودية الثانية (يهوذا) من الوجود.

ونوّهنا أيضاً ببعض الحوادث المهمة في بلاد الشام في العهد الفارسي الإخميني الذي حلّ محل الأمبراطورية البابلية على أثر فتح كورش لبابل (539 ـ 538 ق.م)، وكيف عامل «كورش» يهود السبي في بابل وعودة جماعة منهم إلى فلسطين وقيامهم بإعادة الدويلة اليهودية التابعة للفرس مع شيء من الاستقلال الذاتي. هذا وقد امتاز العهد الفارسي بالنسبة إلى اليهود وبلاد فلسطين بالهدوء والاستقرار فإن زمن القرنين اللذين استغرقهما هذا العهد (من رجوع اليهود من السبي عام 538 إلى غزو الإسكندر للأمبراطورية الفارسية عام 330 ق.م) لم يتميز في تاريخهم بحوادث جسام، حتى أن مصادرنا الوحيدة عن تأريخهم في هذين القرنين تقتصر على سفري «عزرا» و«نحميا» من أسفار العهد القديم، ونجد حوادث هذا التأريخ مشوشة ملتبسة والتواريخ المخصصة

غير مضبوطة في هذين السفرين[1]، ومهما كان الحال فالمؤكد أن اليهود ظلوا على أحسن حال في علاقتهم مع الفرس الحاكمين، أما ما نشأ من علاقات عدائية فإنها كانت مقتصرة على الأقوام السامية الأخرى المجاورة لهم. فلم تنشأ بينهم ثورات ولا اضطرابات بالمقابلة مع الثورات العنيفة التي قاموا بها في العهد السلوقي الذي أعقب العهد الفارسي الإخميني والاضطرابات العنيفة في العهد الروماني على ما سنبيّن ذلك فيما بعد. أما الدويلات السورية الأخرى فقد دخلت ضمن الأمبراطورية الفارسية الكبيرة التي ضمّت معظم العالم المتمدن آنذاك من مصر إلى مدن الساحل اليونانية في آسيا الصغرى وإلى البنجاب في الهند[2]، ومما يجدر ذكره بهذا الصدد اتخاذ اللغة الآرامية مع الفارسية لتكون لغة هذه الأمبراطورية الشائعة كما اتخذت الحروف الهجائية بالإضافة إلى الخط المسماري الخاص بالإخمينيين. وازدهرت المدن الفينيقية في هذا العهد بصفتها مراكز مهمة للتجارة الدولية كما كان الأسطول الفينيقي عاملاً مساعداً للفرس في مواصلاتهم البحرية وساعدهم في غزو اليونان أيضاً. وامتازت إدارة الأمبراطورية ولا سيما التنظيمات التي وضعها دارا الأول (521 ـ 486 ق.م) بنظامها الدقيق الجامع بين الاستقلال الذاتي المحلي للولايات التابعة وبين السلطة المركزية والسيطرة التامة من جانب الأمبراطور. وبموجب تقسيم دارا للأمبراطورية إلى 23 ولاية دخلت بلاد الشام (وبضمنها فلسطين وقبرص) في إدارة الولاية الخامسة المسماة «عبر النهر» أو ما وراء النهر (عبر نهارا أي عبر نهر الفرات)، وكان على هذه الولاية أن تؤدي مثل الولايات الأخرى جزية أو ضريبة قدرها (350) وزنة من الفضة[3]. وإلى هذه الضريبة فإن بلاد الشام ولا سيما فينيقيا ساعدت الفرس في وارداتها وسفنها في غزو

---

(1) انظر: Erneste William Barnes, **The Rise of Christianity** (4th ed. 1948) 15.

(2) انظر البحث الخاص بالفرس الإخمينيين في هذا الكتاب.

(3) أي (Talaont) وهي وزن ومقدار من النقود أيضاً وتحتوي (كما في النظام البابلي) على 60 مناً والمنا 60 شيقلاً. وتختلف قيمتها النقدية باختلاف العصور. وسنرى من كلامنا على الإخمينيين أن هذه الضريبة خفيفة إذا قيست بضريبة ولاية بلاد آشور (1000 وزنة) وولاية مصر (700 وزنة).

مصر في عهد قمبيز بن كورش (529 ـ 522 ق.م)، فنتج ذلك إضافة ولاية جديدة إلى الأمبراطورية الفارسية. والمرجّح أن قمبيز مات في سوريا بعد عودته من غزو مصر[1]. كما أن الأسطول الفينيقي، على ما ذكرنا، ساعد أحشويرش (486 ـ 465 ق.م) في غزوه لبلاد اليونان حيث جهز بنحو (207) سفن، كما ساعده المهندسون الفينيقيون في حفره قنالاً لإيواء سفنه من العواصف[2].

وقد ازدهرت دمشق في العهد الفارسي وكانت أهم المدن السورية كما ازدهرت أربع مدن فينيقية وهي «أرواد» وجبيل وصيدا وصور، وقد سمح لكل منها بالاستقلال الذاتي في دويلتها الصغيرة. وقد اتحدت هذه الدويلات في القرن الرابع ق.م. وكوّنت اتحاد ولايات جعل مركزه في مدينة جديدة هي طرابلس، التي يعني اسمها المدن الثلاث. ومنشأ هذه التسمية أن كلاً من المدن الثلاث وهي صور وصيدا وأرواد كان لها مستوطن يمثلها في طرابلس قبل أن يتكوّن منها هذا الاتحاد الجديد، حيث اتحدت أجزاء المدينة أيضاً في السنة الأولى من حكم الملك الفارسي أرتحشستا الثاني (359 ـ 338 ق.م)، فأصبحت عاصمة لمملكة فينيقيا الموحدة حيث يجتمع فيها المجلس المشترك في كل عام ويشترك فيه نحو (300) ممثل. ومن الحوادث المهمة في تأريخ فينيقيا في عهد هذا الملك تدهور إدارة الأمبراطورية وظهور علامات تفسخها وانهيارها، فعزمت بلاد فينيقيا على الثورة من جرّاء معاملة الطغيان التي سار عليها الموظفون الفرس، وقد بدأت الثورة في طرابلس ثم انتشرت إلى صيدا، وقد نالت تشجيعاً من مصر، ولكن أرتحشستا أعدّ حملة كبرى من بابل (عام 351 ق.م) تقدر بـ (300000) من المشاة و(30,000) من الفرسان، وبالرغم من استبسال الفينيقيين والصيداويين بوجه خاص فإن مقاومتهم لم تجد نفعاً، ودمرت صيدا تدميراً كاملاً، فخضعت المدن الفينيقية الأخرى على أثر ذلك.

---

(1) يروي جوزيفوس المؤرخ اليهودي أنه مات في دمشق ولكن هيرودوتس يجعل وفاته في «أكبتانا» في ماذي (Josephus, **Antiquities,** XI ch.2).

(2) (Hitti, Op. Cit., 224).

أما من الناحية الثقافية فلا نعلم عن تأريخ بلاد الشام أموراً يعتدّ بها، لقلة المآخذ والمصادر ليس من الناحية الثقافية بل فيما يخصّ النواحي التأريخية الأخرى. كما أن التنقيبات الآثارية لم تكشف لنا عن نواح مهمة. والذي يقال بوجه عام إن الثقافة الغالبة كانت الثقافة السامية مع الاقتباسات الجديدة الأخرى. وأثّر الفرس بوجه خاص في الديانة اليهودية وانتقل منها التأثير إلى المسيحية ولا سيما من ناحية المبدأ الفارسي الثنائي من الخير والشر، وإلٰه الخير والشر وفكرة الحساب واليوم الآخر ومبدأ العقاب والثواب والملائكة[1]، كما دخلت بضع كلمات فارسية إلى العبرية الآرامية مثل كلمة «الفردوس».

العهد السلوقي والروماني في بلاد الشام:

سنقف من كلامنا عن الفرس الإخمينيين وقيام الإسكندر الكبير على كيفية سقوط الأمبراطورية الإخمينية وفتوح الإسكندر للشرق والتقاء الحضارة اليونانية بحضارات الشرق القديم ونشوء ما يعرف باسم العهد الهلنستي، أما الآن فنستبق ذلك ونذكر أشياء موجزة عن هذه الحوادث فيما يخص بلاد الشام فنقول إنه بعد اندحار الجيش الفارسي بقيادة دارا الثالث (336 ـ 330 ق.م) في موقعة أبسوس الشهيرة قرب خليج الإسكندرونة (333 ق.م) انهزم دارا، ولكن الإسكندر لم يلاحقه مباشرة بل إنه سار جنوباً لتأمين سيطرته على البحر فغزا فينيقيا سائراً على طوال الساحل من «أبسوس» وأرسل أحد قواده إلى دمشق حيث كانت مركز الجيوش الفارسية. فخضعت له معظم المدن الفينيقية المهمة مثل أرواد وجبيل وصيدا إلّا صور التي اشتهرت بعزتها ومقاومتها المأثورة للفاتحين السابقين حيث تحدّت سنحاريب وأسرحدون ونبوخذنصر، فحاصرها الإسكندر وبنى رصيفاً (طوله 200 قدم) من الساحل إلى جزيرتها المنيعة التي كانت تنتظر المعونة من المدن الفينيقية ومن قرطاجة، ولكن

---

(1) (Hitti, Op. Cit., 226)

المعونة لم تصل، وبعد حصار سبعة أشهر استسلمت صور، فقتل من أهلها (2000) وباع (30,000) عبيداً. كما أن غزة قاومت الإسكندر ولكن بعد حصار قصير لم يدم أكثر من شهرين فتحت ودمرت وبيع أهلها عبيداً. وبعد ذلك توجه الإسكندر إلى مصر فدخلها بدون مقاومة تذكر، وأسس الإسكندرية المشهورة التي صارت مركزاً مشرقاً مهماً للثقافة فيما بعد. وعاد الإسكندر في عام 331 إلى سوريا ليلاحق جيش دارا حيث التقى به في السهل الكبير بين نينوى وأربيل، فدحر الجيش وفر دارا، وسار الإسكندر من بعد ذلك لإكمال فتح بلاد بابل، فرحّب به أهلها، وذهب من بابل إلى مدينة السوس ومنها إلى برسيبوليس التي أحرقها الإسكندر في ساعة طيش وعربدة وبعد مغامرات قام بها فيما وراء النهر وفي تخوم الهند في ناحيتها الشمالية الغربية عاد الإسكندر إلى بابل ومات فيها في قصر نبوخذنصر بالحمى في حزيران عام 323 ق.م. وهو لم يتجاوز الثلاثة والثلاثين عاماً.

لقد بدأ الإسكندر بمشاريع عمرانية واسعة فقد كان يحلم بدمج الغرب بالشرق ونشر الثقافة الهلينية كما سنفصل ذلك فيما بعد، ونكتفي لموضوعنا الآن أن نذكر مآل امبراطورية الإسكندر بعد موته إذ إنها تمزقت وظل قواده يتنازعون فيما بينهم عليها زهاء 30 عاماً حتى انقسمت أخيراً بين أربعة من مشاهير قواده، فصارت مصر من حصة بطليموس، وبلاد بابل من حصة سلوقس وملك «أنتيكونس» في آسيا الصغرى و«أنتيباتر» في مقدونية. أما بلاد سوريا وبضمنها فلسطين فقد أُلحقت في مبدأ الأمر بآسيا الصغرى. وبعد معارك بين سلوقس وبطليموس متحدين وبين صاحب آسيا الصغرى ألحقت فلسطين في عام 312 ق.م. بمملكة بطليموس. وفي العام نفسه استعاد سلوقس بابل التي فقدها ثم بعد معركة أخرى في عام 301 ق.م. في فريجية أخذ الجزء الشرقي من آسيا الصغرى وجميع بلاد سوريا من الفرات إلى البحر المتوسط. وقد بنى في سوريا أنطاكية الشهيرة على العاصي وسماها باسم أبيه (أنطيوخس) وصارت مركز الحكم السلوقي في سوريا.

وقد عدّ عام 312 ق.م. بداية العهد السلوقي (ويسمى بالعهد اليوناني في بلاد الشام) وتأسيس المملكة السلوقية في سوريا، وصار السلوقيون يلقّبون أنفسهم بملوك سوريا. وصارت السنة السلوقية يسير عليها معظم الشرق الأدنى، حيث اتخذت في بلاد بابل التي دخلت في حوزة السلوقيين.

ولقد حذا سلوقس حذو الإسكندر في تحويل الشرق إلى الهلينية فمثلاً نجده يؤسس ما لا يقلّ عن ست عشرة مدينة سمّاها باسم أبيه (أنطيوخس) (Antiochus) أشهرها أنطاكية العاصي، كما أسس تسع مدن وسماها باسمه أشهرها سلوقية دجلة وسلوقية العاصي وخمس مدن سماها باسم أمه «لوديقية» (Laodicea)، وأشهرها مدينة اللاذقية كما أسس ثلاث مدن باسم زوجته (من بلاد البخت) «أفامه» (Apama)، وأشهر هذه المدن مدينة «أفامية» (Apamea) على العاصي (ويعرف موضعها الآن باسم قلعة المضيق). ولكن ضعف أمر السلوقيين من بعد سلوقس الأول في نزاعهم مع البطالمة (البطالسة) وبسبب ثورة الفرثيين في خراسان حيث استطاعوا أن يستقلوا عن سيطرة السلوقيين في عام 249 ق.م. تحت ملكهم إرشاق (Arsaccs)[1]، وكان أعظم ملك قام من السلالة السلوقية أنطيوخس الثالث الملقب بالكبير (223 ـ 187 ق.م) الذي استطاع أن يعيد كثيراً من الأجزاء التي فقدتها الأمبراطورية بعد حروب مستمرة دامت عشرين عاماً تقريباً. ومن الأمور التي تذكر عن أنطيوخس أن حدث في عهده أول اتصال بين قوة روما الجديدة وبين السلوقيين حيث حذرت روما أنطيوخس من التدخل في مصر كما أن «هانيبال» التجأ في عهده إلى سوريا وحرّضه على حرب الرومان، فتشجع هذا في إرسال حملة على اليونان ولكنه دحر في المعركة التي نشبت في «ثرموبيلي» (191 ق.م)، كما اندحر في معركة أخرى في مغنيسيا في آسيا الصغرى (190 ق.م)، فاضطر في عام 188 ق.م. على التنازل إلى الرومان عن جميع الأقاليم الكائنة في ما وراء طورس ودفع غرامة حربية كبيرة وبذلك فقد جميع آسيا الصغرى.

---

(1) انظر البحث الخاص بالفرثيين في تأريخ إيران.

وتأثرت سوريا تأثراً ملحوظاً بالثقافة اليونانية (الهلنستية) منذ العهد السلوقي فيها، حتى أن اليهود المشهورين بتعصبهم لقوميتهم، قد تأثر أغنياؤهم والطبقات الوسطى منهم بالتيارات الجديدة، حيث اتخذوا اللغة اليونانية والعادات والأزياء الغريبة. وبلغ الأمر أن الإله اليوناني «زوس» طوبق بالإله «يهوه»، وأقام أنطيوخس مذبحاً لزوس في الهيكل في أورشليم، مما أثار كهنة اليهود والمتعصبين منهم الذين رأوا في ذلك دنساً لهيكل الإله «يهوه»[1]، فنشبت ثورة يهودية في فلسطين (في عام 168 ق.م) بقيادة «جوداس» من العائلة المعروفة باسم «الهسمونيين» أو «الاسمونيين»، واتخذ هذا الثائر لقب «مكابوس» وتمكّن من الاستيلاء على «أورشليم» وتطهير الهيكل[2]. وتطورت هذه الحركة التي كانت دينية في أصلها إلى ثورة قومية بين اليهود لتحرير اليهود من العادات والعبادات الدخيلة، ووجهت الثورة أيضاً ضد اليهود الموالين المتساهلين المعتنقين للثقافة الإغريقية السلوقية، وسمح السلوقيون لليهود بالاستقلال الذاتي في المملكة التي كوّنوها واستمرت في الوجود إلى عهد الرومان في سوريا بعد ثمانين عاماً على تأسيسها (في حدود 168 ق.م).

ولم يقتصر الأمر في انحلال المملكة السلوقية على استقلال اليهود وغيرهم بل إن جملة دويلات عربية (نبطية) في سوريا قد استغلت الفرصة في الحدود الجنوبية. فظهرت في حدود 130 ق.م. سلالة عربية حكمت في «أديسا» (الرها)، وقد لقّب ملوكها باسم «أبجر»، وكانت تابعة اسمياً إلى الفرثيين، كما نشأت دويلة عربية أخرى مركزها في حمص (Emesa) ولم تكن تابعة للسلوقيين إلّا بالاسم. ونشأت دولة ثالثة في سوريا البقاع (Coel-Syria) ومركزها في الموضع المسمى «عنجر»[3]، كما أن الأنباط العرب الذين سبق

---

(1) انظر سفر دانيال 11: 31.

(2) لقد نشأ عيد عند اليهود بمناسبة هذا التحرير سمي باسم «هنوكه» (Hanukkah).

(3) خلسيس (Chalcis) في المصادر الكلاسيكية، وعرف أهل هذه المملكة باسم «أتوريين» (Ituraean).

لهم أن طردوا الآدوميين من البتراء في حدود 312 ق.م. قد كوّنوا في هذا العهد مملكة قوية. واستطاع هؤلاء الأنباط أن يأخذوا من السلوقيين جميع سوريا البقاع (في حدود 85 ق.م) ودخلت دمشق في حمايتهم أيضاً.

وبعد حروب معقدة بين الرومان والأرمن والسلوقيين استطاعت روما في عام 64 ق.م. من السيطرة على البلاد السورية (في عهد بومبي) فدخلت سوريا تحت الحكم الروماني.

وقبل أن نوجز أحوال البلاد السورية في العهد الروماني نذكر نواحي أخرى من الأوجه الثقافية في العهد السلوقي. فمن الأمور الجديرة بالذكر ما أشرنا إليه من تأسيس السلوقيين مدناً هلنستية جديدة في سوريا وفي أنحاء الشرق الأدنى الأخرى، ولم يكتفوا بذلك في سوريا بل إنهم أعادوا تسمية جملة مدن قديمة بأسماء تنمّ عن الصبغة اليونانية. وحين كان البطالمة يحكمون في فينيقيا وفلسطين سموا مدينة عكا باسم «بتولمياس» (Ptolemais) تكريماً لاسم بطليموس الثاني فيلادلفوس (285 ـ 247 ق.م)[1]، كما سميت باسمه المدينة القديمة «رباث ـ أمون» (وهي عمان الحالية) فدعيت «فيلادلفيا». وسميت حماه باسم «أبيفانيا» (Epiphania) تمجيداً لأنطيوخس الرابع الملقب «أبيفانس». ولكن هذه المدن وغيرها استعادت أسماءها السامية القديمة على الرغم من تبديل أسمائها.

وكان أكثر الأجزاء التي تأثرت بالثقافة الهلنستية الأجزاء الشمالية حيث شمل التبديل عدا أسماء المدن والمواضع أسماء الآلهة المحلية. فقد طوبق الإله «بل» مثلاً بالإله اليوناني «زوس»، ويأتي بعد ذلك في درجة التحول إلى

---

(1) (Ptolemy Philadelphus). ومن المدن التي ظهرت في العهد السلوقي اليوناني بانياس (Paneas). وهي «بانياس» الآن، حيث خص موضع منابع الأردن بالتقديس وخصص إلى الإله اليوناني (Pan) وهو إله مشهور في عبادة الجماهير ولما بنيت مدينة هناك سميت باسم «بانياس» كما ذكرت في الإنجيل باسم قيصرية فلبي حيث أعاد الحاكم فيليب بناءها ووسعها وسماها قيصرية تبجيلاً للأمبراطور «طيبريوس».

الهلينية المدن الفينيقية، حيث ازدهر الأدب الإغريقي والفلسفة الإغريقية، وقد ظهر في صيدا وصور جملة كتّاب ومفكرون كتبوا بالإغريقية في القرنين الأخيرين قبل الميلاد. فنذكر مثلاً اسم «زينو» من صيدا الذي كان مدرساً كزينو الرواقي (333 ـ 261 ق.م)، كما أن المدينة التي عاش فيها «زينو» الرواقي وهي «سيتيوم» (Citium) كانت مستعمرة فينيقية، وقد ذهب إلى أثينا وعلم في الرواق (Stoa) المشهور في 302 ق.م. ومن الفلاسفة اليونان المشهورين في أثينا «ديودورس» المشائي (من أتباع أرسطو) الذي كان من صور (في حدود 110 ق.م) ومنهم أيضاً «أنطيوخس» العسقلاني (من عسقلان) الذي حاول التوفيق بين الأفلاطونيين والرواقيين[1]. كما ظهر في سوريا في هذا العهد أيضاً جملة مؤرخين وجغرافيين وفلكيين وعدد من الشعراء. فمن الكتّاب المؤرخين المشهورين «بوزيدونيوس»[2] من أفامية (135 ـ 51 ق.م)، وكان فيلسوفاً رواقياً ومؤرخاً وعالماً طبيعياً، وقد درس في أثينا ومات في رودس. ومن الشعراء السوريين الذين يجدر ذكرهم «أنتيباتر» (Antipater) الصيداوي، وقد عاش في صور أيضاً (في القرن الأول ق.م)، وكان أبيقورياً في فلسفته. ومنهم أيضاً الفيلسوف الأبيقوري والشاعر «فيلوديموس» (Philodemus) الذي ولد في القرن الأول ق.م. في جدره (قرب الموضع المعروف الآن باسم أم قيس في فلسطين)، وهي مستعمرة مقدونية في شرق الأردن وتطل على منحدر اليرموك (Hieromax)، وقد استوطن هذا الشاعر في روما في عهد شيشرون.

هذا وينبغي ألّا نستنتج أن السوريين كلهم كانوا يعرفون اليونانية، بل انحصر تعلمها في الطبقة المثقفة. أما في المدن التي استوطنت من جانب السلوقيين فكان الناس يتكلمون بلغتين، اللغة اليونانية واللغات السامية المحلية ولا سيما الآرامية.

---

(1) ولكن الفلسفة التي عمّت في سوريا أكثر كانت الفلسفة الرواقية. Hitti, Op. Cit., 256.

(2) (Posidonius).

واَتبع السلوقيون سياسة تشجيع التجارة الداخلية والخارجية، وكان ينافس المملكة السلوقية في سوريا المملكة المصرية في عهد البطالسة، ولذلك نشأت الحروب المستمرة بين الطرفين، وازدهرت التجارة مع الهند بالبحر عن طريق اليمن ومن ثم بالطرق البرية بالقوافل عن طريق البتراء، أو بطريق آخر في البحر في السواحل الغربية من خليج فارس إلى الجرعاء (Gerrhae)[1] التي كانت مدينة عربية ومركزاً تجارياً مهماً في خليج فارس ثم في دجلة إلى سلوقية ومنها على طريق الفرات في خلال «دورايوربوس» (الصالحية الآن) ثم إلى أنطاكية أو في الطريق القديم شرق دجلة عبر جزيرة ابن عمر ومن ثم غرباً إلى نصيبين وأديسا وإلى أنطاكية أو إلى دمشق. وهكذا كانت سلوقية على دجلة مركزاً تجارياً مهماً. وكان السلوقيون إبان قوتهم مسيطرين على تجارة الحرير، في الطريق المتغلغل في إيران وأواسط آسيا إلى منغوليا. وازدهرت الحياة في سوريا من جراء ازدهار التجارة والزراعة واستعمال النقود المسكوكة. وقد عملت هذه الأسباب على ازدياد وارتفاع مستوى المعيشة. فقد ورد مثلاً تقدير لسكان سلوقية دجلة بنحو 600,000[2].

العهد الروماني:

لقد سبق أن نوّهنا ببداية العهد الروماني في سوريا حيث قلنا إنه ابتدأ بفتح بومبي لسوريا عام 64 ق.م.[3]. وكانت أحوال البلاد السورية في نهاية العهد السلوقي فيها في وضع اضطراب وفوضى، من تعدد الدويلات المحلية المتنازعة إلى انعدام الأمان في الأسفار البحرية لكثرة قراصنة البحر، إذ أصبح القراصنة قبل عهد «بومبي» قوة دولية مرهوبة حيث استولوا على القسم الشرقي

---

(1) ولعلها الآن الموضع المعروف باسم العقير (العجير) (انظر ما سبق أن ذكرناه في كلامنا على جزيرة العرب).

(2) انظر (Hitti, Op. Cit., p.279; Pliny, Bk. VI, ch.30).

(3) يحدّد هذا التأريخ المهم في تاريخ بلاد سوريا دخولها تحت الحكم الروماني باسم «ولاية سوريا» (Provincia Syria)، وعاصمتها أنطاكية.

من البحر المتوسط مما هدد روما في تموينها ومواصلاتها فعمل بومبي على استئصال شأفة القرصنة البحرية.

وكانت سوريا من أعظم وأهم الدويلات الرومانية بحيث وضعت تحت الحكم المباشر من جانب وال روماني (Proconsul) وخوّل سلطات واسعة من تجنيد الجيوش وشنّ الحروب، وكان أول حاكم فيها من هذا النوع «جبينيوس» (Gabinius) (57 ـ 55 ق.م) الذي قلص من نفوذ المملكة اليهودية وأعاد بناء جملة مدن في فلسطين، وأعقبه «كراسوس» الذي كان عضواً في الحكم الثلاثي الأول في روما (Triumvirate) وكان معه في الحكم بومبي ويوليوس قيصر. وقد جعل كراسوس من سوريا قاعدة مهمة لعملياته العسكرية ضد مملكة الفرثيين الذين كانت عاصمتهم في طيسفون. ولكنه لاقى اندحاراً شنيعاً في ربيع عام 53 ق.م. قرب حران على أيدي الفرثيين، وقتل في المعركة، وخلفه «كاسيوس» الذي جمع جيشاً قوياً للدفاع عن سوريا إزاء الفرثيين الذين انسحبوا منها (عام 51 ق.م) لما أدركوا قوة «كاسيوس». وأعقب ذلك عهد فوضى واضطراب ليس في بلاد سوريا فحسب بل في بلاد الرومان نفسها على أثر الحرب الأهلية والنزاع بين بومبي وقيصر، ثم صارت سوريا ومصر من حصة «أنطونيوس» (Mark Antony) على أثر اقتسام المملكة الرومانية، فحكم هذا أربع سنوات (40 ـ 36 ق.م) لم تتميز بالهدوء والاستقرار وقد ركن إلى حياة البذخ مع كليوبترا وأهمل شؤون الدولة. فانتهز الفرثيون الفرصة واستطاعوا أن يضموا إلى أمبراطوريتهم سوريا (40 ـ 38 ق.م). وبعد المعركة البحرية الشهيرة في «اكتيوم» (31 ق.م) دحر «أوكتافيوس» أنطونيوس وكليوبترا، فأعاد الحكم الروماني في سوريا، وتوج أمبراطوراً بعد أربع سنوات في روما باسم «أوغسطس». ومما يقال في العهد الروماني في سوريا من الناحية الثقافية استمرار الثقافة الهلنستية التي رأيناها في العهد السلوقي مع التبديلات المقتضبة في العهد الروماني في الناحية السياسية، وحلول اللغة اللاتينية محل الإغريقية، إذ الواقع أن الثقافة الرومانية بوجه عام امتداد للثقافة الهلنستية التي نشأت من بعد الإسكندر. واستمرت الثقافة الرومانية في سوريا

منذ الفتح الروماني عام 64 ق.م. إلى 323 للميلاد، حيث نقل الأمبراطور قسطنطين عاصمة الأمبراطورية من روما إلى القسطنطينية (بيزنطية)، حيث بدأ عهد جديد في أقاليم الشرق الأدنى. ومما يميّز الحكم الروماني في سوريا وسائر أنحاء الشرق الأدنى تساهل الرومان في إعطاء نوع من الحكم الذاتي للأقاليم التابعة لهم والسماح لها بالاحتفاظ بأديانها ولغاتها وعاداتها.

وقد استعادت سوريا في خلال القرن الأول من الحكم الأمبراطوري في روما (30 ق.م. ـ 70 للميلاد) ازدهارها الاجتماعي والاقتصادي من بعد عهد الارتباك والفوضى من جرّاء الحروب الداخلية والخارجية، وصارت بلاد الشام ولاية مهمة من أمبراطورية عظمى كانت تمتد من الأطلسي والبحر الشمالي إلى الفرات ومن الراين والدانوب إلى مناطق الصحارى. وتميز هذا القرن في حياة الأمبراطورية باستتباب السلم والاستقرار. هذا وسنرى من كلامنا على الرومان اشتهارهم بالكفاءة في الإدارة وإقامة الطرق الكبرى وإنشائهم البريد ومقدرتهم الهندسية مما سهّل إدارة الأمبراطورية الواسعة وتوحيدها. وكذلك استمر ازدهار الأمبراطورية في القرن الثاني للميلاد (96 ـ 180 م) حيث حكم جملة أباطرة صالحون أكفّاء، وقد وصلت الأمبراطورية في عهد تراجان (98 ـ 117 م) وفي عهد خلفه «هادريان» (Hadrian) (117 ـ 138 م) أوجها في السعة والاستقرار.

وكانت بلاد الشام مركزاً عسكرياً مهماً للرومان، حتى أن أحد القواد الرومان في سوريا وهو «فسباسيان» (Vaspasian) قد ساعده جنوده «اللجيون» في سوريا على صيرورته أمبراطوراً (69 للميلاد) ضد مرشح الجيوش الرومانية في ألمانيا. وبالنظر لازدهار الحياة الاقتصادية من الزراعة والتجارة والصناعة فقد ارتفع مستوى المعيشة وكثر السكان حتى أن سكان سوريا في القرن الثاني للميلاد قدر عددهم بنحو سبعة ملايين[1].

---

(1) انظر **H. Lammens, La Syrie, Précis historique** (1921).
المشار إليه في (Hitti, **Op. Cit.**, 292

واشتهرت في العهد الروماني جملة مدن استمرت في ازدهارها من العهد السلوقي، أشهرها «أنطاكية» وضاحيتها المشهورة «دفنى»[1]، وقد أصبحت أنطاكية ثالث مدينة معظمة في الأمبراطورية من بعد روما والإسكندرية واشتهرت ببذخها وحياة اللهو فيها وألعابها[2]. وكانت تزاحم أنطاكية في ازدهار الحياة مدينة اللاذقية التي اشتهرت بكرومها التي كانت تغطي التلال المطلة على المدينة وتمتد شرقاً إلى مدينة «أفامية» تقريباً، وكانت تصدر الكروم والخمور منها إلى ميناء الإسكندرية. وإلى الجنوب من «أفامية» على العاصي تأتي حمص التي حافظت في العهد الروماني على حكمها الذاتي حيث كان يحكمها ملوك كهان منها. ومن المدن الأخرى التي حافظت على حكمها الذاتي دمشق وتدمر وأديسا (الرها)، حيث كان كل من هذه المدن مركز دولة صغيرة. وقد نمت تدمر إلى دولة مهمة (انظر الكلام عن تدمر في موضع آخر). وقد أعلى هادريان من شأن دمشق وجعلها مدينة رئيسية (Metropolis)، وصارت في زمن «ديوقليشيان» موضع مصانع للأسلحة، وقد تحول إلٰهها «ادد»، حدد، أو «رمان» إلى جوبتر الدمشقي حيث انتشرت عبادته إلى إيطاليا وموضع معبده في دمشق تحت الجامع الأموي حيث يقوم الجامع فوق أنقاض كنيسة مسيحية وتقوم هذه الكنيسة فوق المعبد. ونالت بيروت حظوة كبرى في عهد أوغسطس[3] حيث وسع ميناءها. وأقام فيها «أكريبا» (Agrippa) الأول (31 ـ 33 م) حفيد هيرودوس الكبير ملهى وملعباً كبيرين، كما أنها كانت مركزاً مهماً لمدرسة من القانونيين والفقهاء في القانون الروماني ازدهرت من

---

(1) دفنى أصلها متنزه من الحدائق والجنائن في ضواحي أنطاكية إلى الجنوب بأربعة أميال. واشتق اسمها (Daphne) من حورية أو آلهة تبعها الإلٰه «أبولو» إلى هذا الموضع وتحوّلت هنا إلى شجرة الدفلى. وقد أقيم مزار لأبولو في «دفنى» قرب أنطاكية، حيث الجنائن والأشجار النضرة التي أقيم في وسطها تمثال كبير «لأبولو».

(2) George Haddad, **Aspect of Social Life in antioch in the Roman-Hellenistic Period** (Chicago, 1949).

(3) وقد سماها باسم ابنته تبجيلاً لها حيث دعيت باسم (Colonia Julia Augusta Felix).

بداية القرن الثالث إلى القرن السادس للميلاد. وقد عبد فيها الإلٰه «بوزيدون» (Poseidon) (أي نبتون) الذي جاءت صورته منقوشة على النقود. ومن المدن الشهيرة في لبنان، في البقاع، «مدينة الشمس» (هليوبوليس) وهي بعلبك. وقد سميت بهذا الاسم اليوناني (هليوبوليس) في العهد السلوقي حينما عيّن إلهها «بعل» بالإلٰه الشمس. وقد جعلت المدينة مستعمرة في عهد أوغسطس الذي أقام فيها حامية عسكرية جيشها جزء من جيش بيروت، ولكن بعلبك حافظت على ساميتها أكثر من بيروت وأنطاكية. وقد اشتهرت بعلبك بزماريها العازفين على الناي مثلما اشتهر موسيقيو أنطاكية، حيث كانوا يقومون بالطقوس الخاصة بمعبد بعلبك الذي اشتهرت به المدينة، وكان بالأصل قد أقيم لعباده الإلٰه السوري «حدد ـ أدد» لعله فيما قبل العهد السلوقي وقد اشتهر المعبد بصدق فأله (Oracle)، وقد أعاد بناءه ووسعه الأباطرة الرومان وأشهر من قام بذلك «أنطونيوس بايوس» (Antoninus Pius) (138 ـ 161 م) واستمر العمل أيضاً إلى زمن «كره كالا» (Caracalla) (211 ـ 217 م) وغيرهما، فصار المعبد يعدّ من عجائب فن العمارة، كما أن خرائبه الآن[1] أعظم ما جاءنا من الآثار الهلنستية في سوريا.

أما عن الناحية الأدبية والعقلية فإن المدن السورية لم تضاه مصر (ولا سيما الإسكندرية) في العهد الروماني[2]، وكان أدباؤها ممّن كتب باللاتينية لم يتميزوا بالإبداع، ولكن ظهر في سوريا كتّاب مبرزون بالإغريقية منهم المؤرخ اليهودي «جوزيفوس» (ولد عام 37 م في أورشليم) الذي كتب كتابه التأريخي المشهور عن اليهود وعن الحرب اليهودية الرومانية[3] فكان

---

(1) لقد أجريت فيه بعض التحريات الآثارية على يد «بخشتاين» (O. Puchstein) منذ عام 1902 انظر تقاريره عن الحفريات التي نشرت في 1902، 1903، و1905 وانظر أيضاً: Theodore Wiegand, **Baalbek,** 3 vols. (1921 - 1925).

(2) (Hitti, **Op. Cit.,** 319)

(3) Josephus, **Antiquities of the Jews and the Jewish War.** (William Whiston).

وقد ترجمه إلى الإنجليزية ثم نشر ونقّح من جانب (H.St. J. Thackeray) في سبعة مجلدات (طبع لندن 1926 ـ 1943).

مصدراً مهماً لتأريخ سوريا، وقد كان نفسه شاهد عيان في تلك الحرب التي سننوّه بها إذ صار قائداً في الجيش اليهودي، وهناك أسماء بضعة مؤرخين آخرين في سوريا لا يُعرف عنهم الشيء الكثير، منهم مؤرخ طريف عاش في النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد اسمه «يامبليخوس» (Iamblichus) كتب في تأريخ بلاد بابل. ومن المؤلفين القلائل الآخرين في الجغرافية والطب، جغرافي مهم اسمه «مرينوس» (Marinus) من أهل صور وقد عاش في منتصف القرن الثاني للميلاد، وكان أول من وضع الخرائط العلمية المرسومة بالطرق الرياضية على أساس خطوط الطول والعرض، وقد اقتبس منه بطليموس كثيراً[1]، ونذكر الطبيب الذي عاش في «أفامية» ومارس الطب في روما في عهد تراجان وبداية القرن الثاني للميلاد واسمه «أرخيجينس» (Archigenes) الذي كتب رسالة في النبض علّق عليها «جالينوس» المشهور. ونذكر أيضاً «لوشيان» (Lucian) من سموساته (سميساط) من القرن الثاني للميلاد، وكان قانونياً ثم محاضراً متجولاً في آسيا الصغرى ومقدونيا واليونان وإيطاليا وفرنسا[2] وساهم المفكرون السوريون في حقل الفلسفة أيضاً ولا سيما الأفلاطونية الحديثة، ويذكر لنا سترابون عن الفلاسفة الصيداويين، كما يذكر لنا فيلسوفاً رواقياً عاش في صور اسمه «انتيباتر» (Antipater) ولعله نفس «أنتيباتر» الشاعر[3]، كما اشتهر من صور الفيلسوف «مكسيموس» (Maximus) في عهد «مرقس أوريليوس». وصارت «أفامية» في القرن الثالث للميلاد مركزاً مهماً لمدرسة من الفلاسفة الأفلاطونيين المحدثين أسسها «إيميلوس» (Aemelius) بتشجيع الملكة العربية الشهيرة «زنوبيا» ملكة تدمر. وكان نفسه تلميذاً لأفلوطين مؤسس الأفلاطونية الحديثة[4].

---

(1) انظر جغرافية بطليموس الكتاب الأول الفصل السادس المشار إليه في: (Hitti, Op. Cit., 320).

(2) (Hitti, Op. Cit., 322). وقد جاءنا من مؤلفاته الشهيرة كتابه «الآلهة السورية» (De Dea Syria) (انظر نشر مؤلفاته من جانب (A.M. Hammon, Lucian, 1913)

(3) (Hitti, Op. Cit., 232).

(4) حول أسماء الفلاسفة الآخرين من هذه المدرسة انظر «ذات المصدر» ص 324 فما بعد.

ومما يقال بوجه عام أنه على الرغم من تغلغل النفوذ الروماني والثقافة الرومانية ـ الهلنستية في سوريا وعلى الرغم من تساهل الرومان مع رعاياهم ومنحهم الرعوية الرومانية إلى طبقات مهمة من الولايات الرومانية[1]، فإن السكان الأصليين ظلوا محافظين على كيانهم الوطني، وكانت تبدر منهم ردود فعل بعضها قصدية شعورية وبعضها لا شعورية إزاء عملية التحوّل إلى الثقافة الهلنستية، وبوسعنا عدّ ظهور المسيحية من جملة هذه الاستجابات من الناحية الدينية، حيث تمثل لنا انتصار المقاومة السورية للروح الهلينية ووثنيتها، ومن الباحثين من يعدّ ظهور الإسلام وانتصاره على الأمبراطورية الرومانية أعنف رد فعل إزاء التحول إلى الثقافة الهلينية[2]. وكان اليهود أكثر السكان مقاومة لتغلغل الروح الهلينية بصفتهم ذوي ديانة موحدة بلغ تمسكهم بها أن جعلوها قومية لهم. ومع أن الطبقات المثرية والأرستقراطية اليهودية قد تقبّلت التغلغل الروماني وتعاونت مع اليونان إلّا أن الجمهور ورجال الدين والوطنيين المتعصبين كانوا يقاومون ذلك التحول حتى بلغت المقاومة الثورة العلنية على روما. وقبل أن نلخص هذه الثورة اليهودية نذكر أن الرومان في عهد «أنطونيوس» قد خلعوا العائلة المكابية اليهودية من حكم اليهود ونصبوا بدلاً منها سلالة يهودية أخرى صار منهم ملوك اشتهروا باسم «هيرود» (هيرودس)، وأشهرهم هيرود الملقّب بالأكبر الذي حكم من 40 ـ 4 ق.م. الذي اشتهر بولادة السيد المسيح في السنة الأخيرة من حكمه[3]. وعمل هيرود على تمشية المصالح الرومانية ضد مصالح قومه اليهود فنجح إلى حدّ ما في نشر الثقافة الرومانية ـ الهلنستية حتى أنه أقام في أورشليم ملاعب على الطراز الروماني

(1) وقد بلغت حركة منح الرعوية الرومانية إلى سكان الولايات الرومانية أوجّها في عام 212 للميلاد لما أصدر الأمبراطور «كره كالا» مرسومه الشهير القاضي بمنح الجنسية الرومانية إلى سكان الولايات من الأحرار.

(2) انظر توينبي «بحث في التأريخ» (Toynbee, A Study of History) وترجمة الموجز من جانب المؤلف.

(3) انظر إنجيل «متى» 2: 1 ـ 18.

واتخذ العادات الرومانية. وقد وجّه عنايته إلى مدينة السامرة حيث جدّد بناءها وأعاد تسميتها باسم «سبسطية» (أي مدينة أوغسطس)، كما أنه وجّه همه إلى تعمير معبد الهيكل مداراة لليهود. واشتهر ابنه المسمى هيرود أيضاً بأنه هو الذي قتل يوحنا المعمدان[1] الذي عمّد المسيح وبشّر به وعاش في زمنه.

وأخيراً نجح الحزب المناوىء للرومان بزعامة الفريسيين فحدثت الثورة اليهودية عام 66 ـ 70 للميلاد في حكم «نيرون» وقامت ثورة أخرى في عهد «هادريان» في 132 ـ 134 م. فقضى على الثورة الأولى القائد «فسباسيان» (Vespasian) الذي دمر القطر وحاصر أورشليم ولما تبوأ العرش الروماني بعد موت نيرون عهد إكمال القضاء على أورشليم إلى ابنه «طيطوس» حيث حاصر المدينة زهاء خمسة أشهر انتهت في 70 للميلاد، فأوقع الرومان مذبحة مريعة في السكان وخربت المدينة وأُحرق الهيكل وأزيل من الوجود حتى أن الناس فيما بعد لم يهتدوا إلى موضعه، وقد قدر عدد اليهود الذين هلكوا في هذا العهد زهاء المليون نفساً. أما الأسرى فقد صار يتسلى بهم الرومان بأن أجبروا على قتل بعضهم البعض أو على مصارعة الأسود والوحوش الضارية. وزالت يهوذا من الوجود. وكأن هذا لم يكف حتى ثار اليهود ثورة ثانية من بعد نحو 62 عاماً في عهد هادريان، حيث ثار «سيمون بركوكبا» في 132 ـ 135 م فسحق هادريان العصيان بقسوة وحوّل أورشليم إلى مستعمرة رومانية، مبدلاً اسمها إلى «إيليا كبتولينا» (Aelia Capitolian)، وأقام في محل الهيكل معبداً للإله «جوبتر».

(1) انظر قصة هذه المأساة الفريدة في متى 11 فما بعد، حيث إن هيرود سجن يوحنا لتوبيخه له على الزنا بهيروديا التي حنقت عليه ودبّرت قتله. حيث جلبت ابنتها «سلومة» ورقصت أمام هيرود يوم عيد ميلاده فسرّ كثيراً حتى أنه وعدها إعطاءها أي شيء تطلبه فطلبت هذه من بإيعاز أمها رأس يوحنا المعمدان على طبق، فتمّ لها ما أرادت. وقد صارت الحادثة موضوعاً للفن.

نشوء الديانة المسيحية:

نشأت في بلاد سوريا ثاني ديانة عليا من الأديان السماوية السامية، ولما كنا قد نوّهنا بأولى هاتين الديانتين وهي الديانة العبرانية، فيحسن بنا أن نأخذ بعض الأشياء الأساسية عن الديانة المسيحية لما لها من الأثر العظيم في حياة الشعوب قديماً وحديثاً، وهي إلى ذلك من بين الأمور الخطيرة التي ساهمت فيها سوريا في تأريخ الحضارة البشرية، فيجدر عرضها في هذا الموجز من تأريخها.

وإذا كان يتعذّر على نطاق هذا الكتاب الدخول في التفاصيل عن تأريخ المسيحية وتطورها وانتشارها وذكر مللها ونحلها فنجتزىء هنا على النقاط الأساسية في الموضوع كمقدمة تعريفية لمن أراد التتبع والتوسع.

ومهما ساق النقاد المتشككون من الشكوك في شخصية عيسى التأريخية وتفاصيل سيرة حياته[1]، فإن الذي لا يمكن نكرانه من الوجهة التأريخية أن هناك حقائق تأريخية أساسية عن حياته وتعاليمه مأخوذة بالدرجة الأولى من الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل والرسائل الخاصة بالحواريين، وما ورد عنه

---

(1) لا مجال للدخول في نقاش مثل هؤلاء المتشككين وحججهم، ويكفي أن ننوّه ببعض مواطن شكهم على سبيل المثال، فمثلاً يقولون إن المسيح لم يذكره أحد من المؤرخين المعاصرين باستثناء عبارة قصيرة وردت في تأريخ «تاسيتوس» (الذي عاش في منتصف القرن الأول أو الثاني للميلاد) من أن «كريستوس» أي «المسيح» قاسى عقوبة الموت في حكم الأمبراطور طبيريوس على أثر الحكم الذي أصدره الحاكم الروماني «بونتيوس بيلاطس» (Tacitus, XV, ch. 44) ثم ذكره وذكر أتباعه المسيحيين المؤرخ اليهودي «جوزيفوس» (ولادة عام 37 م) وكان شاهد عيان في الحرب الرومانية اليهودية (70 م)، ولكن بعض النقّاد يشكون في أصالة هذه الإشارة وصحتها بيد أن الواقع أنِ ولادة المسيح في تلك القرية الضئيلة الشأن من تلك الأمبراطورية الواسعة وسير تبشيره وصلبه. كل ذلك كان من الأمور التافهة في نظر المؤرخين المعاصرين الذين عاشوا في تلك الأمبراطورية المترامية ذات الوقائع والحوادث الجسام. هذا وإن عدم الأخذ بسكوت المصادر المعاصرة لا يقتصر على هذه الحالة، بل إن هناك حوادث تأريخية من شاكلتها.

في المصادر المتأخرة. فمن هذه الحقائق الأساسية أن شخصاً تأريخياً (حقيقياً) اسمه «المسيح»[1]، قد ولد في موضع صغير (بيت لحم) في فلسطين من بلاد سوريا في العهد الروماني في حدود عام 4 ق.م. في أواخر حكم الملك اليهودي على فلسطين التابع لروما وهو «هيرود» (هيرودس) الملقّب بهيرود الأكبر في عهد (الأمبراطور) الشهير أوغسطس قيصر، وظهر يبشر بديانته في عهد الأمبراطور طبيريوس (42 ق.م. ـ 37 م) وأنه مات صلباً على الصليب في عهد هذا الأمبراطور (في عام 28 أو 29 للميلاد) في عهد الوالي الروماني المسمى «بيلاطس» (الملقّب بالبنطي) حيث سلم المسيح إلى اليهود. واتخذت ولادته حداً فاصلاً في التأريخ البشري بين العهد القديم والعهد الحديث.

وتفرّدت نبوءة عيسى ورسالته على ما جاء في الأناجيل ببعض الأمور التي لم تكن مألوفة في تجارب النبوات في الشرق الأدنى كولادته من عذراء (هي مريم العذراء التي كانت مخطوبة ليوسف) بدون أن يمسسها بشر، والعجائب والمعجاز التي حدثت في السماء، والموت على الصليب ثم قيامته، ولكن جميع تعاليمه التي بشّر بها قد سبق ما يضاهيها من تعاليم أنبياء بني إسرائيل، حتى الحكم والأمثال والعبر، بيد أن هذا النبي تفرّد عن سابقيه من الأنبياء بأن أقام ديانته على أساس أسمى يدور حول حب الله وعلاقة الإنسان بالله وعلاقة الإنسان بالإنسان (بنوة الإنسان لله وأبوة الله لجميع البشر) فجمع شمل البشرية في عائلة واحدة كبرى عن طريق الحب الإلٰهي. والجدير بالذكر بهذا الصدد أن غير واحد من الفلاسفة السابقين حلم بمبدأ الأخوة البشرية وحاول الإسكندر الكبير محاولته الجريئة العظمى من جمع العالم في دولة واحدة، ولكن كانت تنقص مبادىء هؤلاء قوة المعتقد الديني وحرارته، ولعل

---

(1) المسيح (Christ) أو كما في اللفظ العبراني «مشيح» يعني «الممسوح» (أي الممسوح بالزيت) وهو لقب الملوك اليهود بالإشارة إلى أن ملكاً مسيحياً سيظهر بينهم ويعيد مملكة داود. أما اسم عيسى (Jesus) فمأخوذ من يسوع (Jehoshia) من «يهوشع» العبراني (أي يهوه خلاص أو إنقاذ).

الفلسفة اليونانية الرواقية أقرب الفلسفات اليونانية إلى المسيحية من ناحية تبشيرها بمبدأ الحب الجامع، كما أن مؤسسي الكنيسة المسيحية الأوائل استعانوا بكثير من مبادىء الأفلاطونية (وبوجه خاص الأفلاطونية الحديثة) في شرح مبادىء المسيحية وتوجيهها وتعليل تعاليمها. ومن تعاليم المسيح الأساسية الانقلابية مبدأ «مملكة السماء» التي يدخل فيها جميع البشر المشمولين بأبوة الله وحب الله. ولعل هذا أبرز عامل كرهه بأعين اليهود، إذ إنه موجّه في الواقع على احتكارهم لله بموجب مبدأ «الشعب المختار» حيث أكّد المسيح على أن ليس هناك شعب مختار في «مملكة السماء»، لأن الله هو الأب الحي لجميع الحياة والأحياء، فلا يخصّ بشراً أو شيئاً من خلقه بالعطف، ويميّزه عن غيره.

كان انتشار المسيحية انتشاراً بطيئاً في مبدأ الأمر، محفوفاً بالمهالك والاضطهاد وكان الرومان حتى القرن الأول للميلاد ينظرون إلى المسيحية وكأنها مذهب يهودي أو بدعة يهودية غامضة، ولم يظهر الاهتمام بالديانة الجديدة إلّا في عهد الأمبراطور الروماني «تراجان» (98 ـ 117 م). ولاقت الديانة الجديدة مقاومة ومناوأة شديدتين من جانب الكتاب الرومان الذين كانت لديهم الديانة الرومانية القديمة وآلهتها تمثّل لهم أمجاد الأمبراطورية السابقة وقوّتها وسلطانها. وقد عمل الآباء المسيحيون الأول ولا سيما بولس على تقريب مبادىء المسيحية إلى أفهام اليونان والرومان، وكان بولس يعرف اليونانية وواقفاً على طرق الفلسفة اليونانية فاْستعان بالمصطلحات الفلسفية والمنطقية الكلامية في شرح أصول المسيحية، وكان بولس في الواقع أول من بدأ بمحاولة التوفيق بين المسيحية وبين الثقافة الهلنستية، وسنذكر أيضاً استعمال الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) للمصطلحات اليونانية، وبوجه خاص مبدأ «الكلمة» (اللوجوس Logos).

ولكن قبل أن تتمكن المسيحية من الانتشار في أرجاء الأمبراطورية الرومانية خارج الحظيرة اليهودية في فلسطين قاسى المبشرون بها ومعتنقوها

شتى ضروب العذاب والاضطهاد، وهناك سجل حافل بالشهداء من هؤلاء المسيحيين الأوائل. ومع أن الرومان كانوا متساهلين في أمور الدين مع الديانات الوثنية الأخرى المنتشرة في أمبراطوريتهم إلا أن المسيحيين كانوا متعصبين في معتقدهم وتبشيرهم بدينهم الجديد، ولم يتساهلوا كأصحاب الديانات الأخرى في مراعاة الطقوس الدينية الخاصة بديانة الأمبراطورية الرسمية، وهو أمر لم يكن ليتطلب منهم سوى مراعاة الرسوم الظاهرية، ولا سيما تقديس شخص الأمبراطور الروماني بصفته إلٰهاً، وفيما عدا هذا كانوا أحراراً في معتقداتهم الدينية الخاصة وعبادة آلهتهم الخاصة. ففضل المسيحيون الأذى والاضطهاد على الرضوخ إلى ذلك. وكان أول اضطهاد خطير حلّ بهم في عهد الأمبراطور الأهوج «نيرون» المشهور بغرابة أطواره، وحرقه لروما لإشباع عاطفة جنونية وصادف أن حدث في روما (عام 64 للميلاد) حريق فظن السكان أن أمبراطورهم الغريب الأطوار هو الذي أحدث ذلك الحريق، ولكي يدفع عنه تلك الشبهة اتّهم المسيحيين فأمر بإفنائهم جميعاً[1]. وأعقب هذا الاضطهاد المحلي اضطهاد شامل، امتد إلى الولايات الرومانية. فحكم على «بولس» بالموت في روما (68 للميلاد) واستشهد بطرس صلباً في روما في نفس الوقت الذي مات بولس بالسيف. كما وقت اضطهاد رسمي آخر في عام 95 للميلاد في عهد الأمبراطور «دوميشان». وأعلن تراجان في عام 112 م أن المسيحيين الذين يرفضون إظهار الخضوع إلى آلهة الدولة الرسمية وإلى عبادة شخص الأمبراطور يجب أن يحلّ بهم العقاب على أنهم رعايا خونة. ولما بدأت الأمبراطورية تسير في طريق الانهيار منذ القرن الثالث للميلاد في حين أن الكنيسة أخذت تتوطد وتقوى حاول حكّام الأمبراطورية الرومانية القضاء على الديانة الجديدة، واستمر الاضطهاد يتناوب شدة وضعفاً حتى أصدر الأمبراطور «ديوقليشيان» في عام 303 م أمره الرسمي بإزالة الكنائس وحرق الكتب المسيحية وطرد جميع الموظفين المعتنقين للمسيحية من خدمة الدولة،

---

(1) Tacitus, **Annales**, Bk. XV, ch.44.

ولكن تيار انتشار المسيحية كان أقوى من الاضطهاد، حتى آل الأمر إلى انتصار هذه الديانة بأن اعتنقها رسمياً رأس الأمبراطورية وهو قسطنطين الأكبر في عام 324 م، وهذا معناه أنها أصبحت ديانة الدولة الرسمية تقريباً. فانتصرت المسيحية ليس على قوى الاضطهاد بل إن الأديان الوثنية التي كانت تنافسها[1] أخذت تموت، حتى أن ثيودوسيوس (Theodosius) أمر بتحطيم تمثال الإله «جوبتر سيرابيس» المقام في الإسكندرية.

لقد سبق أن نوّهنا بأصول الديانة المسيحية، فتمدنا الأناجيل الأربعة بمعلومات مهمة عن سيرة المسيح والحوادث التي اقترنت في تبليغ رسالته

---

(1) حينما كانت المسيحية تبشّر بنفسها بين سكان الأمبراطورية كان ينافسها عدّة ديانات ونحل بعضها من أصل شرقي وبعضها من أصل يوناني، ومن ذلك جملة نحل باطنية سرية، مثل عبادة الإله «ديونيسيس»، وهو إله الخمرة والخضار والخصب وأصل عبادته من اليونان، ومثل عبادة الإلهة المصرية «إيسيس» (التي ذكرنا أنها زوجة الإله أوسيريس) وقد اعترف بعبادتها رسمياً الأمبراطور «كليجولا» (Caligula) في عام 40 م، وقد شاعت عبادة هذه الإلهة في جميع أنحاء الأمبراطورية في القرن الثاني للميلاد. وانتشرت أيضاً الديانة «المثرائية» وعبادة الإله «مثرا»، وهو الإله الشمس الذي ترجع عبادته في أصلها إلى الزرادشتية، وانتشرت هذه العبادة في القرن الثالث الميلادي، ولا سيما بين الجند. كما كان في بلاد سوريا نفسها عبادات من بقايا عبادة الآلهة الوثنية في العصور السامية القديمة مثل عبادة الإله «ادد ـ حدد» الذي عين بالإله «جوبتر» و«زوس». ولكن أصبح للمسيحية في بلاد سوريا مراكز مهمة مثل أنطاكية فقد صارت كنيستها أم الكنائس في الخارج، وخرج منها الحواريون والآباء الأول مثل بولس كما كان هؤلاء يرجعون إليها. وبعد تدمير أورشليم صارت أنطاكية عاصمة العالم المسيحي وقد كان أساقفتها يلقبون في القرن الرابع للميلاد بلقب المطران (Metropolitan) أي ما يقابل «رئيس الأساقفة» (Archbishop) وقد انعقد فيها ما لا يقل عن ثلاثين مجمعاً كنسياً (أي سنودس) (Synod) وهي مجامع الأساقفة للنظر في الشؤون الدينية العليا، أولها كان في عام 269 للميلاد. وإلى جانب أنطاكية ظهرت «أديسا» (الرها) أيضاً وكانت مركز الثقافة المسيحية الآرامية (السريانية) كما كانت أنطاكية مركز اليونانية والآرامية وكانت الرها أقدم مراكز المسيحية فيما بين النهرين، والمرجّح أن النسخ السريانية الأصلية للكتاب المقدس قد كُتبت فيها في أواخر القرن الثاني للميلاد.

وتعاليمه، ولكن لا نجد فيها إلّا قليلاً من المبادىء التي قامت عليها الكنيسة المسيحية ونظامها، حيث ترجع أسسها إلى أعمال الرسل ورسائل أتباع المسيح المشهورة ولا سيما رسائل يونس، حيث تكمل هذه ما ورد في الأناجيل الأربعة، وتضيف إلى ذلك جهود آباء الكنيسة الأول باختلاف أزمانهم والمجامع الكنسية المختلفة وأعمال الأساقفة البارزين.

ومما يجدر التنويه به عن الأناجيل أن الأناجيل الثلاثة الأولى بحسب ترتيبها المأثور (أي إنجيل متى ومرقس ولوقا) متشابهة تقريباً في مادتها من ناحية سيرة المسيح وأعماله[1] وهي تختلف كثيراً عن الإنجيل الرابع، أي إنجيل «يوحنا». ويرجع ترتيب الأناجيل المأثور إلى عهد الآباء المسيحيين مثل أوغسطين (354 ـ 430 م) الذي اعتقد بقدم إنجيل متى وأنه يسبق في عهده الأناجيل التالية. ولكن النقد الحديث (منذ نهاية القرن التاسع عشر) أبان بأن هذا الترتيب المأثور لا يقوم على أساس صحيح، فقد ظهر أن إنجيل «مرقس» استُعمل مصدراً في كتابة إنجيل «متى» و«لوقا» وأن مؤلف إنجيل متى غير معروف، كما أن لوقا قد دوّن من بعد عام 93 أو 94 م (بعد نشر تأريخ المؤرخ اليهودي جوزيفوس)[2]. واشتهر الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) باختلافه الأساسي عن الأناجيل الثلاثة الأخرى من حيث إدخاله مبدأ «الكلمة» (Logos) بتأثير الفلسفة اليونانية حيث يرى الباحثون المحدثون أن هذا الإنجيل كُتب في مدينة «أفسس» الشهيرة، وكان أول من أورد هذا المبدأ الفيلسوف اليوناني الشهير «هيراقليطس» الذي عاش في «أفسس» نفسها في حدود 500 ق.م. ولم يستعمل مبدأ الكلمة «اللوجوس» إلّا في مقدمة الإنجيل[3]، ولكن مع ذلك فقد أثر هذا الاستعمال تأثيراً عميقاً في عقائد المسيحية الأصولية.

---

(1) ولذلك تسمى الأناجيل الثلاثة الأولى (متى ومرقس ولوقا) باسم (Synoptic Gospels).

(2) انظر أحدث مرجع في الموضوع (Ernest William Barnes, **The Rise of Christianity** (1948).

(3) «في البدء كانت الكلمة والكلمة كانت عند الله وكانت الكلمة الله».

ولعل «بولس» (Poul) كان أعظم من أثر في وضع أسس المعتقد المسيحي[1]، وكان واسع الثقافة يعرف اليونانية ومطلعاً على أديان عصره وعلى فلسفة مدارس الإسكندرية فنقل كثيراً من آرائهم ومصطلحاتهم إلى المسيحية. وكان أول من فسرّ طلب المسيح بأنه ضحية إلٰهية لإنقاذ البشر من خطيئتهم الأولى. وكذلك تأثر بولس بعبادة الإله المصري أوسيريس، ولا سيما من ناحية مبدأ القيامة.

هذا ولا يسعنا أن ندخل في تفاصيل الاختلافات بين الفرق والنحل المسيحية المختلفة التي نشأت بالدرجة الأولى من الجدل والاختلاف حول طبيعة المسيح وشخصيته وألوهيته وعلاقته بالله الأعظم. فهل المسيح من مادة تختلف عن طبيعة الإله ولكنها شبيهة بمادة الله على ما اعتقد «أريوس» (Arius) بطرك الإسكندرية اليوناني (280 ـ 336) وفرقته المشهورة بالأريوسية (Arianism)، أو أن مادة المسيح من مادة الله الأب وأن الله نفسه كان ثلاثة في واحد، الأب، والابن والروح القدس كما رأى «أثناسيوس» أسقف الإسكندرية أيضاً (296 ـ 373 م)، وبعد حروب ومشاحنات تغلب المبدأ الأثناسي وأقرّ في مجمع نيقية (325 م) وأيّدته روما ولكن الأريوسية انتشرت زمناً طويلاً بين أقوام أوروبا البربرية الشمالية قبل أن تتمكن منهم المسيحية الأصلية. ومن الفرق المسيحية الكبرى الناشئة عن العقائد الخاصة بطبيعة المسيح النسطورية نسبة إلى نسطوريوس (Nestorius)، بطرك القسطنطينية في بداية القرن الخامس، وصاحب المبدأ الذي استحق من أجله التحريم في مجمع أفسس (عام 431 م) إذ قال بأنه تتّحد في عيسى الشخصية الإلٰهية أو العنصر الإلٰهي (اللوجوس) والعنصر البشري. وقد انتشر المذهب النسطوري في المشرق ولا سيما في العهد الساساني وعُرف باسم الكنيسة الشرقية (انظر الكلام على بلاد إيران)

(1) لم يعش «بولس» في زمن المسيح ولم يره، وكان يعيش في طرسوس واسمه في الأصل شاؤل وكان يهودياً متعصباً (فريسياً) فاضطهد المسيحيين القلائل، ولكنه اعتنق المسيحية (في عام 37 م)، وصار من واضعي أسسها.

ويأتي بعد النسطورية في عظم الانشقاق في الكنيسة مذهب الطبيعة الواحدة[1] (مذهب اليعاقبة) ويعني هذا المصطلح المسيحيين الذين رفضوا مبدأ الطبيعتين في المسيح (أي الطبيعة الإلٰهية والبشرية) وهو المبدأ الذي أقرّ في مجمع خلقيدون (451 م)، ورأوا أن الطبيعة البشرية والطبيعية الإلٰهية ما هما إلّا طبيعة واحدة مركبة. وقد انتشر هذا المذهب في القرن الخامس والسادس في معظم شمالي سوريا بفضل حماس المبشّرين به ولا سيما «برصوما» أسقف نصيبين (484 ـ 496) وبطرك أنطاكية «سويروس» (512 ـ 518 م).

(1) Monophysite.

القسم الثالث

موجز في
تاريخ بعض الحضارات والأمم القديمة

الفصل الثاني والثلاثون

موجز في
تاريخ بعض الحضارات والأمم القديمة

بعد أن أنهينا الكلام على حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل اللتين كانتا أهم حضارات أثّرت في حياة العالم القديم والحديث وأوجزنا الكلام على تأريخ بلاد الشام يحسن بنا أن نستعرض استعراضاً موجزاً أشهر الحضارات والأمم القديمة التي نشأت في العالم القديم وأثّرت كذلك بدورها في حياة الأمم ومصائر الشعوب في الشرق والغرب. وقد كان بعض هذه الحضارات من الحضارات الأصلية التي لم تشتق من غيرها بل نشأت مثل حضارتي مصر والعراق، من الأطوار البدائية. وقد ظهر بعضها مثل الحضارة المينية وحضارة وادي السند في أزمان قديمة، في الألف الثالث ق.م.، ونشأ بعضها من بعد ذلك منذ الألف الثاني ق.م. وكان بعضها من الحضارات الفرعية التي اشتقت من الحضارات القديمة الأصلية ولا سيما حضارة وادي الرافدين أو تأثرت بها وبحضارة وادي النيل أيضاً. ونذكر فيما يأتي أشهر هذه الحضارات مرتبة بحسب قدمها[1].

1 ـ حضارة وادي نهر السند والحضارة الهندية الآرية:

نشأت في وادي نهر السند وفي سهل روافده الخمسة (البنجاب) حضارة قديمة سبقت هجرة الأقوام الآرية (الهندية ـ الأوروبية) إلى الهند التي ابتدأت

---

(1) يرجى من القارىء أن يلاحظ أن بعضاً من هذه الحضارات قد ألحقناها بمواضع أخرى من هذا الكتاب مثل الحضارة المينية التي ذكرت مقدمة لتأريخ اليونان والأتروسكيين حيث ألحقوا في مقدمة تأريخ الرومان وسيجد القارىء الكلام على العيلاميين في القسم الخاص بتأريخ إيران.

في الألف الثاني (في حدود 1600 ق.م). ويرجّح كثيراً أن هذه الحضارة، مثل الحضارة السومرية والمصرية، من الحضارات الأصلية وأن زمن نشوئها يقرب من زمن نشوء هاتين الحضارتين أي في بداية الألف الثالث ق.م. أو منتصفه، وسبقت ظهور هذه الحضارة الناضجة عصور حجرية طويلة من العصر الحجري القديم والحديث حيث وجدت آثارهما منتشرة في جميع شبه القارة الهندية[1]. أما زمن نشوء هذه الحضارة الراقية فيرجع إلى العهد الحجري المعدني ومن الطريف في أمر هذه الحضارة أنها ظهرت إلى العالم منذ زمن حديث جداً في عام 1922 حيث بدأت التنقيبات في موضع يسمى «موهنجو دارو» وهي أول مدينة أظهرتها التنقيبات من تلك الحضارة[2]، ثم تناولت أعمال التنقيب مواضع أخرى أظهرت لنا أنه نشأت في وادي نهر السند الواسع حضارة راقية ذات مدن معظمة منسقة التخطيط منتظمة الشوارع والبيوت مبنية بالآجر. وقد عرفت الفنون الجميلة والتعدين واشتهرت بالتجارة. وقد ثبت أنها كانت على اتصال بالحضارة السومرية في العراق ووجدت بعض الآثار الخاصة بالحضارة السومرية مثل الختوم الأسطوانية في حضارة وادي نهر السند كما

---

(1) حول العصور الحجرية في الهند انظر المراجع الآتية:

(1) V. Smith, **Oxford History of India,** 2.

(2) Childe, **The Most Ancient East.**

(3)**Archaeological Survey of India** (Govern. Departement of Arch. 1947).

(2) تقع «موهنجو دارو» على الضفة الغربية من نهر السند إلى الشمال الشرقي من كراجي بنحو 140 ميلاً وقد بدأ البحث فيها بطريق الصدفة عندما كان أحد الآثاريين الهنود (وهو بنرجي Banerji) ينقب في معبد بوذي في ذلك الموضع فعثر تحت ذلك المعبد على آثار تلك المدينة القديمة. ثم اتسعت التنقيبات من بعد ذلك في موضع «موهنجو دارو» بإشراف (السير جون مارشال). وشمل التنقيب أيضاً مواضع أخرى تمثل هذه الحضارة مثل «هاربا» (Harappa) إلى الشمال الغربي من دلهي بنحو 300 ميلاً.

انظر:

(1) Sir Marshall, **Mohenjo Daro and the Indus Civilization.**

(2) Dr. Mackay **The Indus Civilization.**

وجدت بعض الختوم الخاصة بالحضارة السندية في العراق. فاستعان العلماء بهذه الاتصالات الثقافية في تأريخ الحضارة السندية أي تعيين زمنها. ووجدت في الموضعين السابقين آثار أخرى ممثلة لحضارة وادي السند كالأدوات المنزلية والآلات والأسلحة المصنوعة من النحاس وحلي من الذهب وأواني الفخار البسيطة والملوّنة.

واستعملت الحضارة السندية نوعاً من الكتابة الصورية لم تحلّ رموزها بعد. ومع اتساع التنقيبات التي جرت في الأماكن التي تمثل هذه الحضارة فإنه لم يعثر من تلك الكتابة على نماذج كافية تمكّن العلماء من حلّ رموزها وإنما وجدت منها نماذج قليلة موجزة فيما يسمونه بالختوم أو الحروز مما لا يساعد الباحثين في محاولتهم، ولا يعلم بوجه التأكيد لماذا لم يجد المنقّبون كتابات مطولة في مآثر هذه الحضارة، فيرى البعض أن سبب ذلك أنهم كتبوا على مواد قابلة للتلف كالجلود أو الخشب وما أشبه ذلك.

لقد سبق أن قلنا إن الحضارة السندية سبقت العهد الآري في الهند الذي بدأ في الألف الثاني ق.م. وأنها بدأت بالانهيار منذ ذلك التأريخ ولا شك أن الآريين هم الذين قضوا عليها. ومع أننا لا نزال نجهل الشيء الكثير عن هذه الحضارة من حيث أصولها القديمة إلا أن الباحثين وجدوا بعض الاتصالات بينها وبين الأطوار الحضارية في العراق مما يرجّح أنها تأثرت بالحضارة السومرية في نشوئها ولكنها على حال سارت فيما بعد بوجه مستقل الأمر الذي يجعلها، كما قلنا، من الحضارات الأصلية.

العهد الآري:

ومع الغموض الذي يكتنف نهاية الحضارة السندية والأقوام التي تقرن بها فيما قبل العهد الآري فيبدو أن الآريين لما غزوا الهند في منتصف الألف الثاني ق.م. وجدوا من الأقوام الأصلية في الشمال جماعات اشتهرت بعبادة «الثعابين» وهم «الناگا» (Naga)[1] الذين لا يزال أحفادهم الآن في المرتفعات

(1) Gour, **Spirit of Buddhism.**

الشمالية. واستوطنت في الجنوب جماعات سود الألوان فطس الأنوف، وهم «الدرافيديون» الذين كانوا متحضرين لما داهمهم الغزاة الآريون[1]، فتعلموا منهم مبادىء الحضارة. ولا يزال إقليم «الدكن» إلى يومنا هذا يسود فيه العنصر الدرافيدي وعاداته ولغته وفنه.

وبعد أن أمضى الآريون زمناً ما في الفتح والتوسع وقتل السكان الأصليين شرعوا في حياة الاستقرار، فاستقرت القبائل واتحدت جملة منها مكوّنة دويلات في أنحاء القطر، يحكمها ملوك ومجلس شورى من المحاربين، ويرأس كل قبيلة «راجا». ولما كان الآريون الغزاة أقلية بالنسبة إلى السكان الأصليين، فإنهم لم يكتفوا للمحافظة على كيانهم ونقاوة عرقهم بقتل هؤلاء السكان الأصليين، بل نشأت عندهم عادة الانفصال التام عنهم وتحريم الزواج منهم والاختلاط بهم، وهذه هي عادة التنجس التي ورثتها الهند في العصور الحديثة، من عهد الفتح الآري.

إن أحسن ما يصور لنا أوضاع الهند في عهد الفتح الآري الكتابات المقدسة المعروفة باسم «الفيدا» (أو الريج فيدا) حيث نستطيع أن نطلق على هذا العهد اسم العهد «الفيدي» (2000 ـ 1000 ق.م)، أعقبه عهد البطولة (1000 ـ 500 ق.م) الذي يمثله أدب الـ «مهابهراتا» (Mahabharata) والـ «رامیانا» اللتين كانتا بمثابة الأوديسة والإلياذة عند اليونان في عصور الأبطال. وبعد حين توطد الاستقرار والاختصاص كما تثبت نظام الانقسام إلى طوائف. ففي رأس طبقات المجتمع يأتي صنف المحاربين الـ «الكشاتريا» ثم كهنة «البراهمان» الذين لم يكن نفوذهم عظيماً في مبدأ الأمر وإنما كانوا مجرد مساعدين للرؤساء أو الملوك الكهنة، ولكن ازداد نفوذهم بمرور الأزمان حين زاد استقرار المحاربين وشغلوا بصناعات السلم دون الحرب، وصاروا عدا وظيفة الكهانة الدينية معلمين ومحافظين لتأريخ الفاتحين ومآثرهم وآدابهم

---

(1) Smith, **Oxford History of India,** 14.

وشرائعهم حتى بلغ نفوذهم في المجتمع في زمن البوذا (563 ـ 483 ق.م) أنهم نافسوا نفوذ الطبقة النبيلة المحاربة. ويقوم أساس المعتقد «البراهماني» على ثلاثة أركان أو على ثالوث إلٰهي مما يعرف باسم الـ «ترمورتي» (Trimurti) أي الثالوث المقدس وأولها الإلٰه الأعلى «البراهما» وهو المبدأ الخالق المتّصف بالمعرفة والحكمة ثم الـ «فشنو» (Vishnu) وهو المبدأ المدبّر الحافظ المتميز بالحب والعاطفة، ومبدأ الـ «شيفا» (Shiva)، وهو المبدأ المخرّب المدمر، من الإرادة والقوة. ويأتي بعد هاتين الطبقتين الحاكمتين طبقة التجار الـ «فسيا» (Vaisya) وطبقة الصُنّاع والعمال، الـ «شدرا» (Shudra)[1] الذين يدخل فيهم معظم السكان الأصليين، ثم طبقة المنبوذين، الـ «فارياه» (Pariah) المؤلفين من السكان الأصليين ممن لم يندمجوا بالفاتحين وممّن أسرهم هؤلاء الفاتحون في الحرب، وتبلغ طائفة المنبوذين في الهند الآن أكثر من 40 مليوناً[2].

هذا ولا نعلم أشياء مهمة عن ديانة الهند فيما قبل العهد الآري ولعله كان يدور على مبدأ الطوطمية والحيوية، حيث الأرواح تكمن في قوى الطبيعة المختلفة، كما عبدت الحيات والأفاعي ويرجّح أن بعض الآلهة الهندية الآرية أصلها مما قبل العهد الآري مثل الإلٰه «ناجا» (Naga) الممثل على هيئة تنين، و«هنومان» (Hanuman) «الإلٰه القرد» والإلٰه «نندي» (Nandi) وهو الثور المقدس ومجموعة من الآلهة الخاصة بالشجر. أما الآلهة القديمة الواردة في «الفيدا» فأصلها من قوى الطبيعة وعناصرها مثل الجو والشمس والأرض والنار والضوء والريح والماء[3]. فالإلٰه الجو «دايوس» (Dyaus) مثل الإلٰه الإغريقي «زوس»، ثم شخص الإلٰه الجو وصار أباً باسم «فرونا» (Varuna) وشخصت الأرض أيضاً على هيئة أم باسم «فريثيفي» (Prithivi) ومن الآلهة المهمة الإلٰه النار

(1) Will Durant, **The Story of Civilization**, 399.

(2) Will Durant, **The Story of Civilization**, 399.

(3) Will Durant **ibid**, 402.

«أجني» (Agni) والإلٰه «أندار» (Indra) إلٰه الصواعق والبرق والرعد، والإلٰه الشمس «فشنو» (Vishnu). إن هذه الآلهة وغيرها أكثر ما تتميز بصفة التشبيه. ولم يكن في الديانة الفيدية القديمة إشارات إلى معابد تشيد للعبادة وإنما كانت القرابين تُقدّم في مواضع عامة عند الحاجة، ثم إيقاد النار المقدسة ومارسوا نوعاً من تضحية البشر[1].

وكان في الهند جملة لهجات ولغات آرية أشهرها ما يسمى بالسنسكريتية التي دوّنت بها كتب «الفيدا» المقدسة، أما الكتابة فالمرجّح أنها دخلت إلى الهند عن طريق التجار في حدود القرن التاسع أو الثامن ق.م.، من الحروف الهجائية السامية. أما هذه «الفيدا» فتعني المعرفة أو الحكمة المقدسة[2]، وقد اشتهر من هذه الكتب الخاصة بالحكمة مما وصل إلينا أربع مجموعات أشهرها «الريج فيدا» (Rig - Veda) وهي القصائد الخاصة بالتراتيل والتمجيد والمدائح والنصائح والحكمة والفلسفة، وتنقسم كل فيدا إلى أقسام أربعة[3]، يتضمن القسم الرابع منها قسم الحكمة والفلسفة.

---

(1) Eliot, **Buddhist India**, 1, 241.

(2) (Veda) من نفس الجذر الإنجليزي (Wit) و(Wisdom) واللاتينية (Video) والإغريقية (Foida) وهذا مثال على التشابه الموجود بين السنسكريتية واللغات الأوروبية القديمة والحديثة بصفتها من عائلة لغوية واحدة.

(3) (**Will Durant, ibid**, 407).

البوذية

1 ـ الجينية:

تميز القرن السادس ق.م. في الهند وبقية أجزاء العالم المتحضر بيقظة فكرية بين المفكرين والفلاسفة، ففي اليونان بدأت عقول الناس تتفتح لمعالجة شؤون الكون وقضاياه الكبرى، وفي الصين كان كونفشيوس يبشّر بتعاليمه و«لاؤ ـ تصي» في الصين أيضاً، وكان بعض أنبياء بني إسرائيل مثل «أرميا» و«أشعيا الثاني» مشغولين في تبليغ رسالتهم. وفي الهند ظهر جملة رجال فكّروا في سلوك الإنسان والحياة البشرية منهم «مهافيرا» (Mahavira)[1] مؤسس الجينية (Jainism) الشبيهة بالبوذية والبراهمانية، وتدور على تقديس الرجال القديسين من العصور الماضية وهم «الجينا» أو «الجين» (Jain) وكان المهافيرا من «البوذات»، لأن البوذا (Buddha)[2] يطلق بوجه عام على الشخص الذي وهب الحكمة والنور الإلٰهيين وأطلقت على جملة مؤسسين لفرق ومذاهب دينية، ولكن اختص بهذا اللقب البوذا «غوتاما سدهرثا». وتدور تعاليم المهافيرا على ضبط النفس ونكران الحياة ولزوم حياة التقشف والتنسّك، وتطهير النفس من عواطفها. وبعد أن عاش زهاء (13) عاماً في حياة نكران الذات سماه بعض

---

(1) لا يعلم زمن المهافيرا بالضبط وهناك تاريخان محتملان وهما (599 ـ 552 ق.م. و549 ـ 477 ق.م).

(Will Durant, Op. Cit., 419).

(2) من السنسكريتية «بوذ» (Budh) أي استيقظ.

أتباعه «جينا» أي الغازي أو الفاتح إشارة إلى تغلبه على شهوات نفسه وعلى حياة المادة، وهو لقب يُطلق على المبشرين القديسين العظام الذين يظهرون مدفوعين بقوى علوية للتبشير بين الناس ثم سموه «مهافيرا» أيضاً، أي «البطل العظيم» ولكن اسم «الجين» و«الجينية» غلبت على هذا المذهب. وقد نظم المهافيرا رجال دينه من الرهبان والراهبات وفرض عليهم العزوبة، ولما أن مات بعمر 72 عاماً خلّف وراءه زهاء أربعة عشر ألف من الأتباع وكان للجينيين فلسفة خاصة بهم، فقد رأوا في المعرفة أنها شيء نسبي وقتي غير مطلق. ولا يوجد شيء حقيقي إلّا من وجهة نظر خاصة، فقد يكون باطلاً من وجهات نظر أخرى. وإليهم تنسب الأسطورة الطريفة الخاصة بالعميان الستة الذين وضع كل منهم يده على جزء خاص من الفيل فوصفه بشيء يشبه الجزء الذي تحسسه بيده، فوصفه الذي تحسس أذنه بأنه مروحة كبيرة والذي وضع يده على رجله بأنه عمود كبير مدور إلخ. وهكذا فجميع أحكامنا نسبية محدودة ومشروطة، أما الحقيقة المطلقة فلا يعرفها إلا المخلصون الذين يظهرون بين البشر في فترات معينة وهم «الجينا» من أمثال «المهافيرا». كما أن الحكمة المودعة في كتب «الفيدا» لا تغني شيئاً، لأنها لم توح من الله، وهم بوجه عام لم يروا ضرورة لوجود الآلهة، فعندهم أن هذا من البديهي المنطقي الذي يدركه حتى الطفل ذلك هو أن صعوبة فهم أو إدراك خالق غير مخلوق أو إدراك السبب الأول، أي سبب بدون مسبب، كصعوبة إدراك عالم غير مخلوق أو غير مسبب[1] وعندهم أن الأسهل من الناحية المنطقية الافتراض بأن الكون وجد منذ الأزل وأن ما يطرأ عليه من تغييرات وتقلّبات مسببة عن قوى الطبيعة وقوانينها بدون الاضطرار إلى افتراض تدخل آلهة أو إله خاص[2].

إن هذه الفلسفة الطبيعية، الشبيهة بمذاهب الفلاسفة اليونان الطبيعيين في العهد الذي سبق سقراط، لم تجد التربة الملائمة لها في الهند. فإنها بعد أن

---

(1) Will Durant, Op. Cit., 420.

(2) Will Durant, Op. Cit., 420.

أخلت السماء والكون من الآلهة ملأته بدلاً من ذلك بالقديسين المؤلّهين من «الجينا»، حيث عبد هؤلاء كما يعبد الآلهة على الرغم من عدّ هؤلاء معرضين إلى التفسخ والتناسخ، كما أنهم لم يكونوا بمثابة الآلهة الخالقة الحاكمة للكون. هذا ولم يكن الجينيون ماديين مطلقاً وإنما كانوا يرون مبدأ «الثنائية» في الحياة والطبيعة، أي مبدأ وجود المادة والروح أو الفكر حتى في الأشياء الجامدة، وتستطيع النفس إذا عاشت حياة لا شائبة فيها، أن تصير نفساً عليا خالصة[1] فتنطلق من لباسها المادي ويتم ذلك بحياة التنسك والامتناع من إحداث الأذى في أي شيء حي. وينبغي لكل «جيني» أن يقسم على نفسه خمسة أشياء: لا يقتل أي شيء، ولا يكذب، ولا يأخذ ما لا يُعطى له، وأن يحافظ على العفة وينبذ اللذة والمسرات الحسية. وبلغ من الجينيين الصادقين أنهم كانوا يمتنعون حتى من أكل عسل النحل لأنه حياتها ويصفّون الماء الذي يشربونه لئلا يكون فيه بعض الحيوانات الدقيقة، ويطبق الجيني شفتيه لئلا يدخل في فمه الهواء وفيه بعض المخلوقات، حتى أن بعضهم أقام مستشفى في «أحمد أباد» لإيواء الحيوانات الكبيرة السن والحيوانات المصابة. فلا يسمح للجيني قتل أي حياة باستثناء حياته، التي يمكنه أن يقضي عليها بالجوع والصيام، وفي ذلك انتصار عظيم للروح على الإرادة العمياء للحياة. وهكذا فإن هذا المبدأ الصارم لم يجذب إليه أتباعاً كثيرين. وحلّ فيهم الانقسام في حدود 190 للميلاد حول مبدأ العري، فقسم تمسّك بالعري التام وقسم ارتأى لباس رداء بسيط أبيض، ولكنهم الآن جميعاً يسيرون وهم لابسون الأردية المعتادة، ولكن رؤساء الدين منهم والقديسين يسيرون عراة، وهناك انقسامات أخرى، ويبلغ عددهم جميعاً الآن زهاء المليون ونصف المليون، وقد تأثر غاندي بمذهبهم من ناحية التقشف في الملبس والمأكل.

(1) وبمصطلحهم «فرماتمان» (Paramatman).

(2) البوذا والبوذية:

ومع جهلنا بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية التي عملت على ظهور الجينية والبوذية الشبيهة بها في الهند في حدود القرن السادس إلا أنهما في مبادئهما يبدوان وهما ردّ فعل عنيف إزاء الانغماس في الملذات من جرّاء تجمع الثروات الهائلة عند الطبقات العليا من المجتمع.

وتروي لنا المآثر الهندوسية أن أبا البوذا كان من النبلاء المثرين من قبيلة «الغوتاما»، وكان أميراً أو ملكاً على إقليم في سفح جبال هملايا، ويخصص البحث الحديث لولادته عام 563 ق.م. ولا نعرف عن قصة حياته سوى ما جاءنا من المآثر والقصص، فبموجب هذه المآثر تزوج البوذا في عمر 19 عاماً بابنة عمه الجميلة وعاش سعيداً زمناً ما ولكن أدرك فجأة عقم حياته الفارغة التي لم تملؤها أسباب السعادة التي كانت في متناول يده من ناحية الثروة وأسباب الحياة السهلة. وفيما هو في هذا الحال التقى بأحد أولئك المتقشفين المتزهدين فاستهوته طريقتهم، وفيما هو يفكر بتغيير سير حياته وافته الأنباء بأن زوجته الجميلة قد ولدت له ولداً فوجد «غوتاما» في ذلك رباطاً جديداً يجب قطعه، فعاد إلى موطنه واحتفل بعودته وبولادة الطفل، وفي ليلة مقمرة دخل إلى مخدع زوجته فوجدها تحيط بها الأزهار والطفل نائم بين ذراعيها فأحس بشوق لعناق الطفل ولكن خاف إيقاظ زوجته، فخرج مسرعاً وامتطى جواده وهام على وجهه في عالم الهند الواسع، وظل يسير طوال الليل حتى ابتعد عن ربوع عشيرته. ولما أن أصبح الصباح وجد نفسه عند نهر، فتمهل هنا وقطع بسيفه شعره الطويل المسرح بهيئة ضفائر ورمى جميع حليته وبدأ تجواله ووجد في طريقه رجلاً مرتدياً أسمالاً بالية فاستبدلها «غوتاما» بحلته الزاهية، وبذلك أصبح حراً في هيامه الآن بحثاً عن الحكمة والحقيقة ووجد في أثناء تجواله جماعة من الرهبان المتبتلين فعاش معهم في الكهوف وكان يذهب إلى المدينة والقرى المجاورة للتبشير بتعاليمهم وتضلع بجميع المعارف الميتافيزيقية في عصره، ولكنه لم يجد فيها حلاً لأزمته الفكرية فاتبع سبيل التقشف المتطرف

مع خمسة من أتباعه وأصحابه حيث قضى معهم في غابة حياة مارس فيها الصوم القاسي الشديد ونكران الذات والجسم، فذاعت شهرته. وفيما كان مرة يسير ذهاباً ومجيئاً مفكراً بحل لعذابه النفسي أصابه الإعياء الشديد فسقط على الأرض فاقداً شعوره وألفى نفسه وقد وجد سبيل الحكمة الأبدية واضحاً أمامه. فطلب من أصحابه أن يطعموه الطعام العادي تاركاً صومه وزهده فأنكر ذلك أتباعه، ولكنه نفسه أدرك الحقيقة من أن الإنسان لا يستطيع إدراك أي حقيقة مهما كانت إلّا بعقل سليم في جسم سليم معافى، وهذه أفكار غريبة بالنسبة إلى متنسكي الهنود، فتركه أصحابه وأتباعه، فأخذ «غوتاما» يتجول وحيداً. وتروي المآثر أنه حصل على الإلهام بالحكمة المطلقة لما كان يفكر بلا حراك ليلاً ونهاراً تحت شجرة في ضفة النهر. فعاد إلى «بنارس» وجمع حوله الأتباع من جديد حيث أسّس مجتمعاً منهم يعيش في الأكواخ. وكانت تعاليمه الجديدة تدور على كبح النفس وضبطها، فإن جميع ما يصيب الإنسان من شقاء منشؤه من رغبات الفرد وأطماعه. وهناك ثلاثة أشكال تبدو فيها أشواق النفس ورغباتها وكلها شر، فأولها الرغبة الحسية والشهوات وجميع أشكال الملذات الحسية وثانيها شهوة النفس الأنانية للخلود وثالثها الرغبة في النجاح الشخصي في المادة والأطماع. وإذا استطاع المرء من الغلبة على هذه الرغبات والشهوات فتحصل سعادة الروح الكاملة وهي بلوغ حالة «النرفانا»، وهي أسمى فضيلة، وعنها تنتج الاستقامة العقلية وسموّ الغرض والهدف في الحياة والسلوك الفاضل في العيش والحياة. ومع أن «النرفانا» في تطرّفها قاسية ترمي إلى إفناء النفس بضبط الشهوات إلا أنه يكمن فيها السر للسيطرة على النفس، وهو أمر اتفق فيه جميع المصلحين من الجنس البشري سواء كانوا أنبياء أو فلاسفة. كما أخذ «غوتاما» بمبدأ العقاب والثواب في هذه الحياة الذي يعيش فيها المرء أو في حياة أخرى عن طريق التناسخ، وهذا هو المبدأ الهندي المعروف باسم «الكرما» (Karma)، وهو ما قُدّر على الفرد من عقاب أو ثواب جزاء أعماله السابقة التي تحد مصيره في المستقبل بموجب الناموس العام من أن أي عمل يجازى خيراً أو شراً بحسب طبيعته. واشتهر «غوتاما» بطريقة بثّ تعاليمه في تجوله مع أتباعه من موضع إلى موضع آخر

على غرار السفسطائيين اليونان، كما أنه كان يشبه سقراط في طريقة عرض تعاليمه بطريقة إلقاء الأسئلة والوصول منها إلى الحقيقة المطلوبة. ونسبت إليه المآثر وضعه «الحقائق الأربع النبيلة» وهي: أن الحياة ألم والألم ناشىء من الشهوة والرغبة، وأن الحكمة تكمن في كبت جميع الشهوات. ويتّضح مما أوردناه شبه تعاليم «البوذا» بالمذهب «الجيني» الذي أسسه «المهافيرا» على ما لخّصناه فيما سبق.

ومع أن «البوذية» لم تكن في حياة مؤسسها تنطوي على نظام خاص للكهنة إلّا أنه سرعان ما نشأ منها بعد موت مؤسسها نظام خطر من الكهان على طراز كهنة الهندوس، و«البراهمان» كما أن أتباع «البوذا» أخذوا من بعده يؤلهونه ويقدسونه، ووقعت في تعاليمه تحويرات وإضافات وأساطير لم تكن موجودة بالأصل ولم يكن المؤسس ليرتضيها.

وننهي كلامنا على الهند القديمة بذكر شيء موجز عن العهد المهم الذي أعقب غزو الإسكندر للهند. فقد عبر الإسكندر في عام 327 ق.م. من إيران مرتفعات «هندوكوش» ودخل في الهند، وبقي يحارب عاماً واحداً في الولايات الشمالية الغربية التي كانت تابعة للأمبراطورية الفارسية، وحصل منها على الموارد لجيشه وعلى الذهب، وعبر في عام 326 السند وحارب من لاقاه في طريقه شرقاً وجنوباً ولاقى جيش الملك الهندي المشهور المعروف باسم «فور» (Porus) ودحر جيشه الهائل مع فيلته. وبعد هذا الانتصار أعجب الإسكندر بشجاعة «فور» وشخصيته فعفا عنه وولّاه على جميع ما فتحه من بلاد الهند ليكون تابعاً لأمبراطوريته، فبقي «فور» مخلصاً. ولكن نفوذ المقدونيين لم يبق في الهند زمناً طويلاً من بعد موت الإسكندر، إذ إنه ثار عليهم أمير شاب اسمه «جندرا كوفتا» (Chanragupta) (332 ـ 298 ق.م) فاستطاع أن يتغلب على الحامية المقدونية ومد فتوحه وأسس سلالة عظيمة حكمت الهند وأفغانستان زهاء 137 عاماً (322 ـ 185 ق.م) وهذه هي السلالة المورية (Mauraya) التي صارت في زمن مؤسسها أمبراطورية كبيرة وأعظم دول العالم القديم الموجودة آنذاك، وكانت تعاصر الحكم السلوقي في سوريا والعراق وعلى

صلات مع السلوقيين، وقد أعجب السفير السلوقي الذي جاء إلى عاصمة هذه المملكة «فتاليفترا» (Pataliputra) عاصمة مملكة «مغاذا» السابقة، حيث اندهش بالحضارة الباهرة التي كانت في هذه المملكة وحسن أخلاق أهلها وانتظام شرائعها[1] واشتهرت من مدن المملكة (البالغة ألفي مدينة) في عهد مؤسسة السلالة مدينة «تسكلا» (Taxila) الواقعة على بعد نحو عشرين ميلاً من مدينة «روليندي» الحديثة وهي الآن مشهورة بآثارها الباقية[2]. واشتهر من هذه السلالة ملكها الشهير «اصوكا» (Asoka) (273 ـ 232 ق.م) حفيد مؤسس السلالة. وقد اعتنق هذا المذهب البوذي وجعله المذهب الرسمي في الدولة، وقد استطاع أن يمدّ فتوحه ويجعلها تشمل معظم أجزاء الهند، ويعدّ حكمه الذي دام 28 عاماً من العهود المجيدة في التأريخ البشري، لما قام به من أعمال ومشاريع عمرانية كان البعض منها سابقاً لأوانه ومما يميّز اتجاهات العصور الحديثة في تاريخ الإنسان . فقد أسس المستشفيات والجامعات والحدائق العامة وخصص مزارع لإنماء الحشائش والعقاقير الطبية. وأوجد وزارة تعنى بشؤون الطوائف الخاضعة والمنبوذة في الهند، كما شرع في تعليم النساء، وعني بالبحوث والتأليف ووجه الكتبة البوذيين إلى نقد أدب الديانة البوذية وتطهيرها من الخرافات والأساطير، وبعث البعوث التبشيرية إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية. ومما يؤسف له أن خلفاء «أصوكا» لم يكونوا أكفّاء له. فظهرت مقاومة الكهنة «البراهمانيين» الذين كانوا يعارضون تعاليم البوذية الصريحة البسيطة، فأضعفوا المعتقد البوذي وشاعت الآلهة العديدة المتّصفة بالوحشية مما في الديانة الهندوسية البراهمانية التي أخذت تحل محل البوذية بالتدريج وجعلتها تنهار في شبه القارة الهندية، ولكن مع ذلك انتشرت البوذية في خارج الهند حتى تمكّنت من الصين وسيام وبرمة واليابان، ولا تزال البوذية في هذه الأقطار هي الديانة السائدة.

---

(1) انظر تقرير هذا السفير المسمى (Megasthenes) في .**Dutt, Civilization of India**, 50
وكذلك اقتباسه في: (Will Durant, **Op. Cit.**, 441).

(2) انظر .Sir Marshall, **Taxila** 3 vols

الحضارة الصينية

من المرجّح كثيراً أن الحضارة الصينية أو حضارة الشرق الأقصى من الحضارات الأصلية التي نشأت من الأطوار البدائية في العصر الحجري الحديث في الصين نفسها، ولا يستبعد أنها تأثرت بعض الشيء بحضارات الشرق الأدنى. ومهما كان الحال فإنها بلغت طور نضجها في وادي النهر الأصفر الأسفل منذ منتصف الألف الثاني ق.م.، وظهرت منها سلالات حاكمة منذ هذا التأريخ. وكانت البيئة الطبيعية التي ظهرت فيها الحضارة الصينية، بيئة قاسية شديدة، فكانت الأهوار والأحراش والفيضانات تعمّ وادي النهر الأصفر (هوانغ هو) وقد حوّل الإنسان هذه البيئة إلى مهد الحضارة الصينية، وامتازت بيئة هذه الحضارة أيضاً بتغيير متطرف من الحر والبرد في الفصول المختلفة. وبلاد الصين[1] بوجه عام أعظم إقليم جغرافي في قارة آسيا، ويحيط بها أعظم المحيطات من الشرق والجنوب الشرقي، كما يحدها أعلى الجبال وأوسع الصحارى في العالم (صحراء كوبي)، مما جعلها تتمتع بالعزلة والثبات والركود أيضاً. وتشير بقايا الإنسان القديم في الصين المعروف باسم إنسان بكين إلى أقدم استيطان الإنسان في العصور الحجرية القديمة في الصين.

ومما يقال في أصول الحضارة الصينية أن انقلاب العصر الحجري

---

(1) إن اسم الصين تسمية حديثة من القرن الثالث ق.م.، أما اسمها القديم المألوف فهو «تيين - هوا» (Tien - Hua) ومعناه «تحت السموات» ولها أسماء قديمة أخرى.

المتأخر قد حدث في الصين أيضاً (3000 ق.م)، حيث عرفت زراعة الحبوب ولا سيما الأرُزّ وتدجين الحيوان ولا سيما الخنزير والبقر. وظهرت من هذه البداية بعد أزمان حضارة الصين الناضجة والسلالات الحاكمة فيها في القرن الثامن عشر ق.م. وأول سلالة تعرف أخبارها التأريخية المضبوطة هي المعروفة بسلالة «شانغ» التي حكمت في أولى المدن التي ظهرت في الصين وهي «آنيانغ». وعرفت حضارة الصين فن التعدين، مثل صناعة البرونز ودولاب الخزاف والكتابة الصورية الاصطلاحية واستعملت العربات التي تجرّها الخيول في الحرب. ومع ما يلاحظ من بعض أوجه الشبه بين الحضارة الصينية وحضارات الشرق الأدنى إلا أنها تختلف عنها في التفاصيل التي ظهرت بتأثير موارد الاقتصاد المحلية في حضارة الصين مثل الاعتماد على الأرُزّ بدلاً من الشعير والحنطة والاعتماد على صناعة الحرير بدلاً من القطن أو القنّب.

واشتقت من حضارة الصين القديمة حضارة الشرق الأقصى أي حضارة الصين الحديثة وحضارة اليابان قبل أن تتخذا الحضارة الغربية. ولعل أبرز ما يلاحظه المتتبع لتأريخ الحضارة الصينية شدة محافظتها على مآثرها وتقاليدها الأساسية أكثر من أربعة آلاف عام، وقد آلت في أطوارها الأخيرة إلى أن تكون من نوع الحضارات المتحجرة. وكانت ديانتها القديمة تدور على عبادة القوى الطبيعية مثل الجو والسماء والأجرام السماوية والرياح والأمطار وغير ذلك مما له أثر في الحياة الزراعية. وامتازت أيضاً بتقديس «التنين»، رمز الأمبراطور المقدس، الذي كان من العناصر المهمة في الفن الصيني. ولعل أصله من الحيوانات من نوع التماسيح التي كانت تملأ أنهار الصين وصارت حيوانات مقدسة تُعبد. وامتازت الحضارة الصينية القديمة بالروح الاجتماعية، وأن العائلة لا الفرد كانت الوحدة الأساسية في بناء المجتمع، وكانت عادات الأجداد وعرفهم هي الشريعة والقانون المتّبع في المحافظة على تماسك المجتمع.

وتثبّت النظام الاجتماعي وتبلور في عهد سلالة «شو» (1122 ـ 255 ق.م) التي أعقبت سلالة «شانغ» وبلغ التوطيد الاجتماعي في القرن الخامس ق.م.، أشده وكان لتعاليم «كونفشيوس» (551 ـ 478 ق.م) أثر بالغ في ذلك

التبلور الاجتماعي. وقد وصفت «الكوفنشيوسية» على أنها ديانة، والواقع أنها ليست ديانة صرفة ولا فلسفة صرفة بل كانت أقرب ما تكون إلى النظام الاجتماعي والأخلاقي الذي كان يرمي إلى تثبيت المجتمع بتنظيم علاقاته الاجتماعية بموجب عرف وقواعد قاسية حتى في أتفه الأمور وعمّت الكونفشيوسية في الصين الشمالية. ولكن نشأت في وادي نهر «اليانغستي» في الصين الجنوبية عند سكانه عقائد وآراء وأنظمة تختلف عمّا كان عند الصينيين في الشمال في وادي النهر الأصفر (هوَانغ هو)، وظهرت بينهم ديانة تعرف بـ «التائوية» نسبة إلى «تاو» وهو المبدأ الأعظم الذي يمثل الطبيعة أو قوى الطبيعة ونواميسها وسيرها. وتنسب هذه التائوية (Taoism) بالدرجة الأولى إلى أحد حكماء الصين المشهورين الذي عاش قبيل «كونفشيوس» واسمه «لاؤ ـ تصي» (Lao Tse) (في حدود 604 ـ 517 ق.م) حيث عاش في عصر كثر فيه الحكماء والفلاسفة والمفكّرون. ويبدو أنه كان يبشّر بنوع من السلوك الرواقي (نسبة إلى الفلسفة الرواقية) والرجوع إلى حياة البساطة التي كانت في العهود القديمة. ومن تعاليمه الطريفة أن الحكمة والمعرفة ليستا شيئين مترادفين كما أن أسوأ الحكومات هي التي يتولى فيها الحكم الفلاسفة بعكس ما كان يرى أفلاطون في جمهوريته كما أن المثقف خطر على الدولة لأنه يريد أن تسير الأمور والدولة نفسها بموجب نواميس مطردة، ويقيم بناء المجتمع كالبناء الهندسي. واشتهر سكان ذلك الوادي بحبهم وشغفهم بالطبيعة وقد اعترفت تعاليمهم بقيمة الفرد عكس تعاليم «كونفشيوس». وبينا كانت هذه المبادىء تنتشر في الصين غزا البلاد جماعة كبيرة من قبائل التتر يعرفون بـ «التسين» (الصين) الذين أسسوا سلالة حاكمة قوية (255 ـ 206 ق.م) أنشأت أمبراطورية امتازت بالحكومة المركزية، وقد أقامت هذه السلالة «سور الصين العظيم» لصدّ القبائل البربرية في جهة الشمال[1]. والجدير بالذكر عن هذه

---

(1) كان يعيش في حدود الصين الشمالية قبائل بدوية عديدة وهي متشابهة في أصلها ولغتها وقد سموا بموجات متعاقبة مثل «الهون» و«المغول» والترك والتتر.

السلالة أن اسم «الصين» مشتق من اسمها. وغلب هؤلاء «التسينيين» جماعة من أتباع «كونفشيوس» هم «الهان» (الهون) الذين أسسوا سلالة عُرفت باسمهم (206 ق.م. ـ 221ب.م)، وقد وسعت هذه السلالة من فتوح الصين غرباً لحماية البلاد من برابرة أواسط آسيا، وللمحافظة على طرق التجارة المهمة التي كانت تنقل بها تجارة الصين، ومنها حرير الصين المشهور، إلى أقاليم الأمبراطورية الرومانية غرباً. ودخلت إلى الصين في هذا العهد الديانة «البوذية المهايانية» من الهند حيث التقت الثقافتان الهندية والصينية. وأعقب هذه السلالة سلالات أخرى منها سلالة المغول التي أسسها «جنكيز خان» وابنه «قوبلاي خان» ودامت هذه السلالة من 1280 إلى 1368 للميلاد. وكانت آخر سلالة حكمت الصين سلالة المانشو (المنشوريون) (1644 ـ 1911 م).

ومن الملاحظات المفيدة عن تأريخ الصين القديم أنه لا يعرف نوع العروق البشرية التي كانت تستوطن الصين في عصور ما قبل التأريخ، ومع أن العنصر الغالب الآن وفي العصور التأريخية المعروفة هو العرق المغولي (الأصفر) إلا أنه من المحتمل أن يكون أهل الحضارة الصينية القديمة منذ انقلاب العصر الحجري الحديث ليسوا مغوليين، ولعل ذلك الانقلاب قد تأثر بالمراكز الغربية التي وقع فيها مثل التركستان وإيران وشمالي العراق. ومما يقال في تأريخ الصين إن حوادثه وتواريخه غير معلومة بوجه الضبط فيما قبل 1800 ق.م.، كما أن السنين التي أعقبت هذا التأريخ تقريبية، ويبدأ التأريخ المضبوط منذ السنة الشهيرة التي ولد فيها «كونفشيوس» (551 ـ 478 ق.م). هذا مع العلم بأن تأريخ الصين القديم يمتاز بكثرة السجلات التأريخية التي خلفها لنا المؤرخون الصينيون القدماء الذين اهتموا بتدوين كل ما اعتقدوا بحدوثه، ولكن لا يسع المؤرخ الحديث الملتزم لأصول النقد التأريخي أن يأخذ برواياتهم فيما قبل عام 776 ق. م. وهو العهد التأريخي في الصين الذي امتاز بالإقطاع. ويشبّه المؤرخون الصينيون القدماء كتاب أسفار التوراة الأولى ومؤلفي أساطير الخليقة في الحضارات القديمة بأنهم يدونون لنا تأريخ الصين منذ الخليقة. وبموجب تلك الأساطير اشتغل أول بشر (بيان كو) زهاء

18 ألف عام في خلقه للكون والخليقة التي وجدت في عام (2,299,000 ق.م) بحسب التقويم الصيني، وقد تولد من نفسه الهواء والريح ومن لحمه الأرض ومن شعره الحشائش والأشجار ومن عظامه المعادن ومن عروقه الأمطار، وصارت الحشرات التي كانت متعلقة بجسمه «الجنس البشري»[1]. ويقول لنا هؤلاء المؤرخون إن الملوك الأقدمين حكم كل منهم (18 ألف) عام، وقد بذلوا جهداً عظيماً في تحويل «القمل» الذي في جسم «بيان كو» إلى جنس متحضر من البشر. وقبل أن يجيء هؤلاء الأباطرة السماويون كان البشر كالوحوش لا يعرفون المدنية والحضارة «يلبسون الجلود ويأكلون اللحم النيء ولا يعرفون آباءهم بل أمهاتهم». وتنسب المآثر تمدين البشر إلى الأمبراطور الأسطوري «فوهسي» (Fu Hsi) (2852 ق.م)، وإلى غيره من الملوك القدماء.

أما عن ديانات الصين فقد سبق أن نوّهنا بأشهر مذاهبها وهي «التائوية» و«الكونفشيوسية»، ثم نوهنا في كلامنا على البوذية في الهند بانتشار هذه الديانة إلى الصين حيث تمكّنت فيها، ومما يساعد على انتشارها الشبه الموجود بينها وبين «التائوية»، ويجدر التنويه هنا بأثر البوذية الكبير في حياة الصين حيث كانت عاملاً محفزاً على بث روح جديدة في الفن وفي النحت، والتصوير.

(1) Gowen G Hall, **Outline History of China** (New York, 1927); Will Durant, **Op. Cit.**, 642.

الحثيون في آسيا الصغرى وأقوام أخرى

1 ـ حضارة الأناضول قبل مجيء الحثيين:

كشفت التحريات الآثارية الحديثة عن وجود أدوار حضارية في آسيا الصغرى سبقت استيطان الحثيين فيها وتأسيسهم دولة في حدود 1800 ق.م. وأصل الحثيين على ما سنذكر فيما بعد من الأقوام الهندية الأوروبية، أما سكان آسيا الصغرى الأصليون فيما قبل العهد الحثي فلا سبيل لمعرفة أصلهم، ولا لغتهم لأنهم لم يخلفوا لنا آثاراً مدوّنة مكتوبة. ومهما كان الحال فإن الأدوار التي أظهرها البحث الحديث ترجع في عهدها إلى العهد الذي سميناه بالعصر الحجري المعدني الذي يؤرخ في الأناضول من الألف الرابع إلى حدود 2500 ق.م. ويليه طور من الحضارة يتميز باستعمال معدن النحاس (2500 ـ 2000 ق.م)، ثم عهد الدولة الحثية والحضارة الحثية ويشمل معظم الألف الثاني ق.م. وتأتي من بعد ذلك الأدوار المتأخرة مثل عهد الفريجيين والليديين الخ. ومما يقال بوجه الإجمال إن الكشف عن مثل هذه الأطوار وعن الحضارة الحثية يعدّ من أروع ما قامت به «الأركيولوجيا» (علم الآثار) في العصر الحديث ولا سيما في المواضع التي ازدهرت فيها مثل عاصمتها القديمة «حاتوشاش» (ويعرف موضعها الآن باسم بوغاز كوي) حيث وجدت فيها الآثار المدونة التي عرفتنا بهذه الحضارة. وقد وجدت من العهد النحاسي السابق ذكره في موضع يسمى «الجا»[1] مقبرة عثر فيها على آثار نفيسة من

(1) انظر خبر الاكتشافات الآثارية الحديثة في مواضع مهمة في الأناضول مثل الموضع المعروف =

الحلي والأدوات الذهبية والفضة والالكتروم (سبيك من الذهب والفضة) وكذلك أدوات النحاس وأواني الحجر النفيسة، مما يشبه ما وجد في المقبرة الملكية في «أور» في العراق من عهود فجر السلالات السومرية. وقد سبق أن نوّهنا بعدم معرفتنا بالأقوام التي أوجدت هذه الحضارة قبل الحثيين، وكل ما يمكننا قوله إنهم ليسوا من الأقوام الهندية الأوروبية التي ينتمي إليها الحثيون، ولغتهم ليست آرية أيضاً بل من اللغات الآسيوية، ولكن أشارت إليهم الوثائق الحثية باسم «خاتي» وهو الاسم الذي أطلق على الحثيين أنفسهم، كما يستشف من المآثر الحثية أن بلاد الأناضول كانت قبل أن يفرض عليها الحثيون دولة موحدة واحدة يحكم فيها جملة دويلات صغيرة، على طراز دول المدن السومرية ولا بدّ أن نشير هنا إلى تأثر بلاد الأناضول بالحضارات القديمة التي ظهرت في وادي الرافدين، فقد سبق أن ألمحنا إلى الحملات الحربية التي قام بها ملوك السلالة الآكدية في بلاد الأناضول والمستعمرة الآكدية التي قامت في كبدوكية، وتروي لنا المآثر المتأخرة (المدوّنة في حدود 1400 ق.م) أن الملك الآكدي «نرام ـ سين» (في حدود 2200 ق.م) قد حارب في الأناضول اتحاداً يشمل سبعة عشر ملكاً. وأثرت حضارة العراق القديم أيضاً في الحضارة الحثية في العهد الحثي (منذ الألف الثاني)، وسنرى كيف أن الحثيين استعملوا الخط المسماري واللغة البابلية في كتابة وثائقهم وتأثروا بأساطير وآداب ما بين النهرين. وقد وجد المنقبون حديثاً (1948 ـ 1949) في وسط الأناضول مستعمرة آشورية في «كول تبه»[1] يرجع عهدها إلى الزمن الآشوري

= باسم «الجا» (Alaça) الواقع عند عطفة نهر قزل ايرمق (نهر الهليس) وكذلك الاكتشافات الأخرى في:

Bulletin of the University Museum. Un. of Pennsylvania vol. 17 (1952), 47 ff.

وأحدث مرجع سهل كتب عن الحثيين والحضارة الحثية المرجع الموجز:

O.R. Gurney, **The Hittites** (1952, Pelican Publication); Illustrated London News, 21 July, 1945.

(1) وقد عين الاسم القديم لهذا الموضع حيث جاء اسمها بهيئة «كنيش» (Kanesh) وهي قرب قيصرية انظر: **Illustrated London News**, 14 January (1950).

القديم (منذ 1900 ق.م)، ولعلها تقوم على أدوار أقدم ترجع إلى العهد الآكدي.

(2) أما العهد الحثي (2000 ـ 1200 ق.م) فهو العهد المتميز بكثرة مصادره التأريخية المدوّنة بالحثية وبالبابلية حيث نجد فيه جماعات (هندية ـ أوروبية) وقد فرضت سلطانها على السكان الأصليين. وقد تكوّنت في هذا العهد دول معظمة قوية، ونشأت فيه بوجه خاص أمبراطوريتان أقدمهما في حدود (1800 ـ 1500 ق.م) وكانت هذه الدولة هي التي غزت بابل في أواخر سلالة بابل الأولى أي سلالة حمورابي ويرجّح أنها هي التي قضت على تلك السلالة، ولكن الحثيين لأسباب غير معلومة تماماً، لم يبقوا في العراق وحلّ محلهم الكشيون كما ذكرنا ذلك من قبل. أما الأمبراطورية الثانية فقد بقيت من 1450 إلى 1200 ق.م. وكانت تعاصر الكشيين في العراق والأمبراطورية المصرية (1580 ـ 1085 ق.م) وحدث نزاع حاد بين الحثيين والمصريين للاستيلاء على البلاد الشامية دام زهاء القرن الواحد فأضعف الأمبراطوريتين واستفاد الآشوريون من ذلك فوائد عظيمة كما مرّ بنا ذلك وتحطمت الأمبراطورية الحثية في حدود 1200 ق.م. بسبب هجرات من الأقوام الهندية الأوروبية مثل (الفريجيين) و(الكاريين) وغيرهم، فتكوّنت دول صغيرة في آسيا الصغرى على أنقاض الأمبراطورية الحثية.

(3) ويبدأ العهد الثالث من انهيار الأمبراطورية الحثية في عام 1200 ق.م. وقد انتقلت فلول من الحثيين من آسيا الصغرى إلى شمالي سوريا، فانتقل بذلك مركزهم الحضاري والسياسي. فتكوّنت من فلول الحثيين في شمالي سوريا دول صغيرة بقيت زهاء خمسة قرون وقد احتفظ الحثيون في هذا المركز الجديد بالمآثر الحثية. وكانت أشهر ممالكهم في هذا العهد مملكة (كركميش) نسبة إلى عاصمتهم (وهي جرابلس الآن). ولسوء حظ الحثيين صادف عهدهم هذا توسع الآشوريين وزمن عنفوانهم العسكري فشددوا عليهم الخناق حتى قضوا على كيانهم السياسي في آخر الأمر حين غزا سرجون الآشوري أهم مدنهم وهي «كركميش» في عام 717 ق.م..

شيء عن الحضارة الحثية:

1 ـ الحثيون على ما بيّنا من الأقوام الهندية الأوروبية، ولغتهم شبيهة بفروع عائلة اللغات الهندية الأوروبية، وتعد الحثية من الفروع القديمة من هذه العائلة، ومن الباحثين من يرى أن اللغة الحثية تؤلف مع عائلة اللغات الهندية الأوروبية الأخرى كتلة أو عائلة كبرى تحدرتا من أصل بدائي قديم يصح أن نطلق عليه اسم «اللغات الهندية ـ الحثية» وقد جاء الحثيون من موطن الأقوام الهندية الأوروبية المفترض في جوار قزوين وجنوبي روسيا. وقد دوّن الحثيون بخط هيروغليفي قديم وبخط مسماري مقتبس من المسماري في العراق القديم. أما الخط الهيروغليفي فشكله صوري ولا علاقة له بالهيروغليفي المصري، وكان مستعملاً منذ 1500 ـ إلى حدود 700 ق.م.، بالدرجة الأولى في منطقة كبيرة تمتد من أواسط الأناضول إلى شمالي سوريا، وقد بدأ العلماء يحلّون رموز هذا الخط منذ عام 1930 ولما ينته عملهم[1]، وكتب الحثيون أيضاً بعض سجلاتهم الأخرى بلهجة أو لغة حثية خاصة في خط مسماري اقتبسوه من العراق القديم، كما قلنا. وقد استعمل كلا الخطين في آن واحد في عهد الأمبراطورية الحثية، وكان الخط الحثي المسماري محدود الانتشار اقتصر استعماله بالدرجة الأولى في إقليم بوغاز كوي وما جاورها وقد

---

(1) حول هذا الخط والمحالاوت التي تمّت لحله انظر (**O.R. Gurney, Op. Cit.**) والجدير بالذكر بهذا الصدد أنه وجد حديثاً في «قره تبه» (Karatepe) في جنوبي الأناضول في ولاية أطنه (عام 1947 م) كتابات مهمة ستكون مفتاحاً جديداً لحل رموز الهيروغليفية الحثية، إذ إن هذه الكتابات مكوّنة من نصين متطابقين أحدهما بالهيروغليفية الحثية والثاني مكتوب بحروف هجائية فينيقية، وبذلك صار هذا الأثر بمثابة حجر رشيد في حلّ الخط المصري القديم وحجر بهستون في حل الخط المسماري. انظر المراجع الآتية:

(1) **Bult. of the Un. Museum,** Vol. 17 (1952), 52 ff.

(2) **Journal of the Near Easten Studies, VIII** (1949), 116 ff.

(3) **Orientalia,** XVIII (1949), 173 ff. **Archiv Orientalni** (1950).

(4) Obermann, **New Discoveries at Karatepe** (New Haven 1949).

(5) O.R. Gurney, **Op. Cit.**

مات هذا الخط من الاستعمال بنهاية الحثيين في الأناضول في حدود 1200 ق.م.، في حين أن الخط الهيروغليفي الحثي ظل في الاستعمال إلى حدود 700 ق.م.[1]. واستعمل الحثيون أيضاً إلى جانب هذين الخطين اللغة البابلية والخط المسماري في كتابة جملة من وثائقهم.

2 ـ ومن الأمور الطريفة عن كيان المملكة الحثية ونظام الملكية فيها احتمال أن الملوك في الأزمان القديمة كان يتم اعتلاؤهم على العرش بطريق بيعة طبقة النبلاء على غرار الملوك بين القبائل الأنكلوسكسونية والجرمانية، كما جاء من الحثيين ما يمكن تسميته بالدستور أو القانون الأساسي للدولة ولا سيما تنظيم وراثة العرش، حيث نظم ذلك الملك الحثي «تليبنيوس» (Telipinus) بموجب قانون وضعه[2]. وكان ملوك الحثيين يلقبون أنفسهم بالملوك العظام. ولم يؤله الملوك الحثيون ولكن نشأ نوع من العبادة والتقديس لأرواح الملوك القدماء. وكان الملك الحثي القائد الأعلى للجيش وأعلى سلطة قضائية والكاهن الأعلى أيضاً.

3 ـ وكان يقوم على رأس المجتمع الحثي الملك والأسرة المالكة حيث كان أعضاؤها يتولون المناصب العليا في الدولة، وكان كبار المدينة (شيوخها) يحكمون في المدينة في الأمور القضائية، ثم هناك الطبقة النبيلة، وطبقة الصنّاع والتجار والعوام ولا سيما الفلاحون. وقد عثر في خرائب العاصمة «بوغاز كوي» (1922) على أجزاء كثيرة من ألواح الطين التي دوّنت بالشرائع الحثية القديمة، ومن بين ذلك لوحان كاملان تقريباً دون في كل منهما نحو (100) مادة قانونية، وقد عدّت المواد البالغة مائتي مادة في اللوحين المذكورين كأنهما شريعة واحدة، وفيها شبه ملحوظ بشرائع القديم من ناحية الأحكام والصيغة الفنية[3].

---

(1) انظر: Gelb, **A Study of Writing**

(2) O.R. Gurney, **Op. Cit.. 64.**

(3) انظر ذات المصدر ص 88 فما بعد، وأحدث ترجمة القوانين الحثية في:
Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts** (1950), 188 ff.

4 ـ وقد أمدتنا الألواح المدوّنة التي عثر عليها في «بوغاز كوي» بمعلومات ثمينة عن ديانة الحثيين القدماء، وكان أبرز إله عُبد في الأناضول في العهد الحثي الإله الجو الذي مثل في المآثر الحثية في الأناضول وفي سوريا. ففي المآثر الحثية السورية يمثل هذا الإله (واسمه «تشوب») بهيئة آدمية وهو يحمل فأساً ورمز الصاعقة. وفي الأناضول يمثل وهو راكب في مركبة تجرها الثيران، وكان الثور حيوانه المقدس[1]، وقد يقوم الثور وحده رمزاً للإله في بعض المآثر. وقد أقيمت له معابد في طوروس وفي سوريا الشمالية، حيث كان الحوريون منتشرين هناك، وأثروا في ديانتهم في الحثيين، وعنهم دخل جملة آلهة من العراق القديم إلى الحثيين مثل «آنو» و«أنليل» و«أيا» وزوجاتهم وعبد الحثيون أيضاً الإله الشمس بهيئة إلهة، حيث طغت في عبادتها في مركز الأناضول على عبادة الإله الجو الذي صار زوجها.

الفريجيون والليديون:

رأينا فيما سبق كيف أن حياة الحثيين السياسية كدولة ذات كيان قد انتهت في حدود 1200 ق.م. على أثر هجمات موجة من الأقوام الهندية الأوروبية هي التي جاءت بأقدم الهجرات اليونانية إلى اليونان. وأعقب الدولة الحثية في الأناضول جملة أقوام أسست بدورها دولاً هناك، أشهرهم وأقدمهم القوم الذين سموا نسبة إلى الإقليم الذي أقاموا فيه مملكتهم (فريجية) وعرفوا باسم الفريجيين (وقد يجوز العكس أي إن الإقليم سمي باسم القبيلة الخاصة). وقد ظهرت منهم دولة في القرن التاسع ق.م.، كانت واسطة الاتصال الثقافي بمملكة ليديا وباليونان. وقد وضع الفريجيون بعض الأساطير التي فسروا بها أصل مملكتهم وأصل الملوك الذين ظهروا من بينهم، ومن بينهم أول ملك حكم عليهم واسمه «جورديوس» (Gordios) الذي لم يكن سوى فلاح فقير لا

(1) قارن ذلك بالإله «أدد» الذي عُبد في العراق القديم. ولكن يرجّح أن أصله من سوريا.

يملك غير ثورين[1]، وخلفه في الحكم ابنه المسمى «ميداس» (Midas) الذي كان مبذراً مسرفاً أضعف المملكة. وتروي الأسطورة أنه دعا الآلهة لتمنحه القدرة على تحويل كل شيء يمسّه إلى ذهب، فاستجابت له الآلهة حتى أن الطعام الذي كان يمسه يتحول إلى ذهب، فكاد يموت جوعاً فتضرّع إلى الآلهة أن تزيل منه تلك الأمنية التي تحوّلت إلى لعنة، فاستجابت له الآلهة ودلّته على الخلاص منها بتطهير نفسه في نهر اسمه «بكتولس» (Pactolus) الذي صار ينتج حساب الذهب منذ آنئذاك[2]. وقد قضى الكميريون على هذه المملكة في عهد ملكها «ميداس» (انظر كلامنا على الماذيين).

لقد أسس الفريجيون عاصمتهم في الموضع الذي عُرف بعدئذ باسم «أنقرة» (Ancyra)، واتخذوا لعبادتهم الآلهة المحلية التي وجدوها، واشتهرت من بين آلهتهم إلهة باسم «سبيلة» أو «كبيلة»[3] ولعلها إلهة حثية تمثل الخصب مثل الإلهة البابلية عشتار، وقد روت الأساطير اليونانية أن الفريجيين مارسوا البغاء المقدس في عبادة هذه الإلهة. وقد اتخذ الرومان عبادة «سبيلة» وجعلوها ضمن عبادة آلهة الدولة الرسمية، وكان للإلهة حبيب وزوج هو «أتيس»[4] وصار الرومان يقيمون المهرجانات الدينية المتّصفة بالخلاعة والتهتّك في الأعياد الخاصة بعبادة هذين الإلهين.

---

(1) تروي الأسطورة (كما جاءت في المصادر اليونانية مثل هيرودوتس) أن الإله «زوس» أوحى إلى الفريجيين أن ينتخبوا ملكاً أول من يقصد المعبد راكباً في عربة، فتم اختيار «جورديوس»، فكرّس هذا الملك عربته إلى الإله، وقد اشتهرت هذه العربة بوجود «عقدة» تربط بين أجزائها (ولا سيما خشبة النير المربوط بالعربة)، وقد أوحى الإله بأن من استطاع حلّ هذه العقدة تمكّن من حكم آسيا. ولم يستطع ذلك أحد غير الإسكندر الكبير الذي فك العقدة بضربة من سيفه من بعد معركة «إيسوس» الشهيرة. وصارت عبارة (The Gordian Knot) في اللغات الأوروبية مضرباً للمثل على العقدة العسيرة الحل.

(2) Will Durant, **Op. Cit.**, 288.

(3) Cybele أو Kybela.

(4) تروي الأساطير أن هذا الإله ولد من إلهة عذراء هي «نانا» بدون أن تتصل بذكر بل إنها حبلت به بعد أن وضعت رمانة بين ثدييها.

انتهت حياة المملكة الفريجية بقيام دولة أخرى أعقبتها في آسيا الصغرى عرفت باسم مملكة «ليديا» (Lydia)، وتقول المآثر إن الملك «جايجز» (Gyges) هو الذي أسس هذه المملكة وجعل عاصمتها في «سارديس»، ثم خلفه الملك «الياتيس» (Alyattes) الذي أوصل المملكة إلى الازدهار والرخاء. واشتهر من هذه المملكة الملك (قارون (كروسس (Croesus)) (570 ـ 546 ق.م) الذي خلفه ووسع المملكة بحيث جعلها تشمل معظم آسيا الصغرى، كما ميّز «قارون» نفسه بأنه سك نقود الذهب والفضة وختمها بنقوش جميلة، ولعل هذا هو سبب اشتهاره بالثروة. ولكن المعروف تأريخياً أن سك النقود قد سبق عهد قارون في آسيا الصغرى لعله بزمن نصف قرن[1].

لقد كان «قارون» آخر ملوك المملكة الليدية إذ قضى كورش في عهده عليها، وكانت ليديا متأثرة بالحضارة اليونانية إلى درجة أن هيرودوتس لما زار هذه المملكة وجدها لا تختلف في ثقافتها عن الثقافة الإغريقية، كما أن جلّ مصادرنا المدوّنة عن أحوال هذه المملكة قد جاءتنا من الإغريق، إذ لم يترك لنا الليديون شيئاً عن أدبهم. ويروي لنا هيرودوتس رواية ممتعة عن سقوط «قارون» فأولاً يقصّ لنا قصة زيارة «صولون»، المشرّع الأثيني المشهور لقارون، وكيف أن هذا عرض على الحكيم اليوناني ثروته العجيبة وسأله أن يخبره عن أسعد رجل بين الناس. فسمى له صولون ثلاثة رجال مغمورين، غير موجودين في الحياة، ولم يسم اسم «قارون» حتى بين السعداء معللاً ذلك بأنه لا يستطيع أن يخبره إن كان أسعد الناس حقاً حتى يعرف نهاية حياته. وكان الملك الفارسي «كورش» في ذلك الأثناء قد أقام مملكته الموطدة، وسعى من بعدئذ لتوسيعها بالفتوح الخارجية التي شملت حدود آسيا الصغرى أيضاً، ويروي لنا هيرودوتس أيضاً تتمة طريفة لحياة «قارون» إذ يقول إن هذا لما سمع باقتراب الفرس من حدود الأناضول أرسل إلى معبد الفأل يسأله هل سينال

---

(1) لقد سبقت الإشارة في كلامنا على الآشوريين أن قطعاً معدنية سكها سنحاريب (في حدود 700 ق.م) زنة كل قطعة نصف «شيقل».

النصر إذا هو عبر النهر (ولعله نهر الهليس، وهو قزل ايرمق الآن) لملاقاة الجيش الفارسي، فأجابه «فأل» الإله بأنه «إذا عبر النهر حطم مملكة عظيمة». أما نتيجة الالتحام مع الفرس فكانت تحطيم جيشه ومملكته، فلما أن شاهد النتيجة المحزنة (546 ق.م) صمم على الانتحار هو وعائلته فأحضر ناراً لتهيئة جنازته بالحرق. وفيما هو كذلك مرّ به «كورش» فأخبر بحقيقته، وتذكر «قارون» قول «صولون» له فبكى وقصّ القصة على «كورش»، فرأف به هذا وجعله مرافقاً له من بين مستشاريه[1].

---

(1) انظر رواية هيرودوتس الممتعة .(Herodotus, I, 87)

السوباريون والحوريون والميتانيون والأرمن

1 ـ السوباريون:

يجد الباحثون المشتغلون في كتابات حضارة وادي الرافدين إشارات عديدة إلى قومين حاروا في تعيينهما في مبدأ الأمر وهما «السوباريون» و«الحوريون»، وقد أوردوا عدة نظريات وتفسيرات حول أصلهما وعلاقة أحدهما بالآخر(1)، فذهب بعض الباحثين إلى أن الاسمين متطابقان وأنهما يطلقان على قوم واحد. ولكن أحدث الآراء وأصحها(2) هو أن هذين المصطلحين ليسا كلمتين تطلقان على قوم واحد بل على قومين متميزين بعضهما عن بعض.

فأما السوباريون(3) فقد كانوا أقدم القومين، ووردتنا عنهم إشارات في النصوص المسمارية من عهودها القديمة (منذ عصور فجر السلالات). فيستدل

---

(1) أبرز المراجع التي كتبت في الموضوع:

(1) Speiser, **Mesopotamian Origins** (1930).

(2) Ungnad, **Supartu** (1936).

(3) Gelb, **Hurrian and Subarians** (1944).

(2) انظر الحاشية رقم (1) المرجع رقم 3.

(3) السوباريون أو كما جاء اسمهم في المصادر المسمارية (SU-A) (Shubur) و«سوبارتو» أو «شوبارتو».

(حول الصيغ المختلفة لهذا الاسم والمواطن التي وردت فيها في النصوص المسمارية انظر المرجع رقم 3 الهامش 1).

من هذه الإشارات على وجود جماعة تُعرف باسم السوباريين في العراق كانت تعيش جنباً إلى جنب مع السومريين والآكديين، كما يستدل منها أيضاً على وجود إقليم سمي ببلاد السوباريين التي لا تعلم حدودها بالضبط، ولكن يؤخذ من المصادر الكتابية المتنوعة أن هذا الإقليم الخاص بالسوباريين يقع بين دجلة العليا وجبال «زجروس» وديالى. وكانت بلادهم تتضمن بالنسبة إلى سكان القسم الجنوبي من العراق شمالي العراق أيضاً ولا سيما بلاد آشور وبلاد الكوتيين. أما بالنسبة إلى الآشوريين فكانت بلاد «سوبارتو» بلاداً أجنبية معادية. وكانت جهات العالم بموجب المآثر البابلية أربع جهات «سوبارتو» أي جهة الشمال وبلاد «آكد» الجنوب، و«عيلام» الشرق، وبلاد «أمورو» (أي سوريا) جهة الغرب. هذا ولا يعلم أصل هؤلاء السوباريين بالضبط. والشيء الوحيد الممكن قوله بهذا الصدد إنهم ليسوا من الأقوام السامية ولعلهم من الأقوام الهندية الأوروبية، وكانت بلاد السوباريين مصدراً للرق (لأسر العبيد) عند البابليين والآشوريين. كما أنه لا يعرف أنهم كوّنوا لهم كياناً سياسياً خاصاً بهم، وإنما المرجّح أنهم هجرة من هجرات الأقوام التي جاءت إلى العراق واختلطت بسكانه بعد إقامتها واستيطانها في جزء خاص من العراق ، هو القسم الشمالي من العراق الذي استحوذ عليه الآشوريون فيما بعد، ومما لا شك فيه أن السوباريين دخلوا في بناء الآشوريين العرقي.

2 ـ الحوريون:

أما الحوريون فنعرف عنهم أشياء أكثر وأوضح من السوباريين فأولاً لم يكونوا من السوباريين، كما أن عهدهم في التأريخ متأخر عن عهد السوباريين. ولعلهم غزوا الإقليم الذي كان يستوطنه هؤلاء السوباريون. فكانوا بحسب الإشارات الواردة في النصوص المسمارية، موجودين بقلة في العراق في العهد الآكدي في بعض المواضع من العراق شرقي دجلة، وبدأ عددهم بالازدياد منذ عهد سلالة أور الثالثة وعهد سلالة بابل الأولى. واتسع استيطانهم في منتصف الألف الثاني وتكوّن لهم كيان سياسي، حيث نجدهم منتشرين في شمالي

سوريا وشمالي بلاد ما بين النهرين وإلى حدّ ما إلى الأناضول، ولكن الساميين كانوا الأكثرية في سوريا الجنوبية وإقليم ماري في الفرات الأوسط وفي فلسطين، على ما رأينا في كلامنا على تأريخ بلاد الشام، ولعل الحوريين هم الذين غزوا بلاد آشور من بعد عهد «شمسي أدد» الآشوري وحمورابي، حيث بلغ اتساعهم أوجّه، إذ نجدهم يؤسسون، بالإضافة إلى وجودهم في العراق، دولة قوية في شمالي سوريا، كما أبانت التنقيبات التي أجريت في «رأس شمرا» (أوغاريت القديمة) حيث وجدت بعض الألواح المدونة بكلمات حورية وشرحها بالسومرية كما وجدت نصوص باللغة الحورية[1]. ووجدت آثارهم أيضاً في مواضع أخرى من سوريا مثل الموضع المسمى الآن «تل المشرفة» (الذي يرجّح أن يكون موضع المدينة القديمة المسمى «قطنا»، جنوب حماه، حيث قلنا إنها كانت مركز الهكسوس في سوريا) ووجدت وثائق حورية عهدها من منتصف الألف الثاني، ووجدت آثارهم في تل العطشانة في سهل أنطاكية، وهي وثائق مهمة بعضها يرجع في عهده إلى زمن حمورابي وبعضها من عهد «العمارنة» (القرن الرابع عشر ق.م)[2]، وكان مركزهم في العراق في «توزي» (يورغان تبه قرب كركوك إلى الشرق بـ 10 أميال) وفي كركوك أيضاً (رابخا القديمة)[3] أما أصل هؤلاء الحوريين[4] ونسبتهم إلى الأقوام المعروفة فلم يبت

---

(1) انظر مجلة .(Syria, XII (1931).

(2) انظر : .S. Smith, in the **Antiquaries Journal**, XIX (1939), 38 ff

(3) لم يعثر على آثار على آثار الحوريين في توزي من العهد الآكدي، مما يدل على أنهم لم يكونوا مستوطنين في هذا القسم من البلاد في ذلك العهد. وكانت «توزي» تسمى في العهد الآكدي باسم «كاسور» (Gasur).

(انظر : .(T.J. Meek, **Old Akkadian, Sumerian, Texts from Nuzi** 1935).

وتتميز آثارهم المادية من ناحية الطبقات الآثارية بنوع الفخار الخاص الملون المعروف بالفخار الحوري والتوزي كما وجد في عدة مواضع مثل توزي وإقليم الخابور وبلاد آشور وتل العطشانة، ويؤرخ هذا الفخار في حدود 1500 ـ 1200 ق.م.

(4) المرجّح كثيراً أن مهدهم في النجاد المرتفعة الواقعة شمالي شرقي الهلال الخصيب في موضع ما بين بحيرة أورمية وجبال «زجروس» وغزوا بلاد ما بين النهرين في القرن الثامن عشر ق.م.

به بعد على وجه التأكيد، كما أن لغتهم لا يمكن القطع بها بكونها من اللغات الهندية الأوروبية ولكنها على كل حال ليست من اللغات السامية. ومن الباحثين من يقارنها باللغة الأورارطية (لغة بلاد الأرمن في إقليم وان)، ولكن إذا صحّ ذلك فتكون لغتهم أقرب إلى عائلة اللغات الهندية الأوروبية، كما أن من الباحثين من يقارنها بالعيلامية والكشية الخ. وكانت ثقافة الحوريين عنصراً مهماً في ثقافة الهكسوس المتأخرين في سورية.

3 ـ دولة ميتاني:

يبدو أن الحوريين تقلصوا في نفوذهم من بعد (1500 ق.م)، ولكن قامت في الإقليم الذي تمركز فيه الحوريون في شمالي ما بين النهرين دولة قوية عُرفت باسم دولة «ميتاني» كان سكانها بالدرجة الأولى من الحوريين، ولكن يؤخذ من أسماء الملوك الذين حكموها أن أصل الطبقة الحاكمة فيها من الأقوام الهندية الأوروبية، كما يستدل على ذلك أيضاً من الآلهة التي عُبدت في هذه المملكة مما ورد ذكرها في المعاهدات التي أبرمها ملوكهم مع الدول المجاورة، مثل الإلٰه «مثرا» و«فارونا» (Varuna) و«أندرا»، وهي الآلهة الهندية الأوروبية كما عرفت في عبادة الهند القديمة. لقد سميت هذه المملكة أيضاً باسم آخر هو «خانيكلبات» وهو الاسم الوارد في الكتابات المسمارية، والمرجّح أن هذه الصيغة هي الاسم الجغرافي لهذه المملكة أما مصطلح «ميتاني» فيبدو أنه الاسم السياسي لهذه الدولة. وسمّاها أيضاً بعض الأقوام السامية (مثل الكنعانيين والآراميين) باسم «نهارين» (أي ما بين النهرين) كما سمتها المصادر المصرية بهذا الاسم أيضاً. وكان يدخل في هذه المملكة في أيامها القديمة جزء من شمالي سوريا وإقليم كركوك (أرابخا) ولكن تقلصت حدودها في الأيام الأخيرة وانحصرت في شمال ما بين النهرين، وقد اتخذوا في هذا الإقليم موضعاً لعاصمتهم ورد اسمه في المصادر المسمارية بهيئة «وشوكني»[1]، ولا يعلم

---

(1) (Washshukkanni).

موقعها بالضبط، ولكن يظن أنها في الموضع المعروف الآن باسم الفخارية على الخابور، إلى الشرق من تل حلف وحران.

اتخذ ملوك ميتاني اللغة البابلية والخط المسماري في أغلب وثائقهم ومراسلاتهم الدولية، ولكن المرجّح أن اللغة الرسمية المحلية كانت اللغة الحورية، وهي لغة أغلبية سكان المملكة، وقد وجدت رسالة من أحد ملوكهم المسمى «تشراتا» إلى الفرعون أمنحوتب الثالث باللغة الحورية. كما وجدت ستة نصوص أخرى باللغة الحورية من مدينة ماري (تل الحريري).

لقد دامت هذه المملكة منذ زمن تأسيسها (في حدود 1500 ق.م) إلى زمن ابتلاعها من جانب الآشوريين زهاء القرنين من الزمان، والمعتقد أن الحوريين أثروا في الآشوريين في هيئات أجسامهم، كما أن الشكل العبراني اليهودي يرجّح أنه نشأ بتأثير الاختلاط بالحثيين والحوريين، وأثر الحوريون في سكان سوريا وبوجه خاص في الشكل اللبناني من ناحية شكل الرؤوس المدورة[1].

أما تأريخ دولة ميتاني السياسي وأسماء ملوكها فلا يسع هذا الموجز التأريخي إسهاب القول فيه وإنما نكتفي بالتنويه بما ذكرناه عن الآشوريين والعلاقات الدولية في عهد الأمبراطورية المصرية حيث أصبحت دولة ميتاني في القرن الرابع عشر ق.م. محاطة بدول وأمبراطوريات معظمة، ولقد كانت صديقة لمصر في نزاعها مع الأمبراطورية الحثية، كما تدل على ذلك رسائل العمارنة الشهيرة ولا سيما المراسلات بين أشهر ملوكهم «تشراتا» وبين الفرعون المصري أمنحوتب (أمنوفس) الثالث، وقد تزوج هذا من أخت الملك الميتاني، وكانت مملكة ميتاني قبل ذلك في حرب مع الأمبراطورية المصرية في عهد سلالتها الثامنة عشرة. وبلغ من قوّتها قبيل عهد الملك الآشوري «آشور أوبالط»

---

(1) أي الرؤوس المعروفة في الأنثروبولوجيا بمصطلح (brachycephalic). انظر: (Hitti, **Histyro of Syria**, 154).

أن فرضت نفوذها على آشور وقلصت المملكة الآشورية وضيّقت عليها الخناق، ولكن نزاعها مع الحثيين أضعفها حيث هاجم الحثيون في عهد «شوبيلو ليوما» الملك الميتاني تشراتا، كما ضيّقوا عليها في عهد ابنه «متيوازا». فضعفت المملكة الميتانية وصارت تؤدي الجزية إلى الآشوريين (في عهد أدد نراري 1304 ـ 1273 ق.م) الذين اتفقوا مع الحثيين للقضاء عليها، ولم تستطع مصر من مساعدتها بسبب ضعفها ثم ابتلعتها الأمبراطورية الآشورية.

4 ـ الأرمن:

الأرمن من الأقوام الهندية الأوروبية التي استوطنت في شمال موطن الآشوريين واتصل معهم الآشوريون منذ نشوء كيانهم السياسي وتوسّعهم الحربي، فقد اتصل أكثر من واحد من الفاتحين الآشوريين ببلاد الأرمن غازياً إياها، منذ أيام شيلمنصر الأول (1266 ـ 1243 ق.م) وتجلاثبليزر الأول (1117 ـ 1080 ق.م)، وازدادت العلاقات الحربية مع الآشوريين في العهد الآشوري الذي سميناه بالعهد الآشوري الحديث (900 ـ 612 ق.م) بحيث يستطيع المؤرخ أن يستخلص من هذه العلاقات مع الآشوريين التي ذكرت في أخبار ملوكهم الفاتحين مصادر مهمة عن تأريخ الأرمن، بالإضافة إلى المصادر الأخرى التي تركها لنا الأرمن القدماء في بلادهم وما جاء عنهم في المصادر الكلاسيكية من كتابات المؤرخين اليونان والرومان.

وقد عرفت بلادهم لدى الآشوريين بأسم «أورارتو» وعرفت لدى العبرانيين في التوراة باسم «أراراط»، وعرفوا أيضاً باسم «الهالديين». ويبدو من المصادر التي بين أيدينا أن الأرمن أسسوا في بلادهم، في إقليم بحيرة وان «وأورمية» مملكة مهمة استمرت عهوداً طويلة منذ المنتصف الثاني من الألف الثاني ق.م. ومما لا شك فيه أن الأرمن تعلموا من علاقاتهم مع الآشوريين أموراً مهمة عن فنون السلم والحرب. ونشأ منهم ملوك مثل «أرجيتيس» الثاني (في حدود 708 ق.م) الذي أوصل المملكة إلى حالة ملحوظة من الرخاء، فقد استغل الأرمن في عهده استخراج الحديد وتعدينه والتجارة به إلى آسيا

واليونان، كما اشتهر من ملوكهم «روساس» الذي حاربه الملك الآشوري سرجون في حملته في بلاد أرمينيا، وكان ضغط الآشوريين على المملكة الأرمينيا شديداً في عهد الملوك الذين أعقبوا سرجون، ودخلت بلاد الأرمن في حكم الأمبراطورية الفارسية على أثر فتوح «كورش» مؤسس السلالة الإخمينية. واستقلت في العهد السلوقي والعهد الفرثي ولكنها كانت مدار نزاع شديد بين روما والفرثيين، وبين روما أيضاً والساسانيين فمرة تكون إقليماً تابعاً لإحدى هذه الأمبراطوريات ومرة تكون مستقلة (انظر البحث الخاص ببلاد إيران).

وكان يعيش إلى الشمال من بلاد الأرمن على طوال سواحل البحر الأسود القبائل المتنقلة التي عرفت باسم «الاسكيثيين» (Scythian)، وهم قبائل هائلة، يرجّح أن تكون خليطاً من القبائل المغولية والقبائل الهندية الأوروبية. وقد اشتهرت هذه القبائل الشرسة القوية بغزواتها المدمرة لدول العالم القديم المتمدنة آنذاك، فكانوا يقومون بغزوات كبرى للأمبراطورية الآشورية ولعلهم ساهموا في غزو الدولة الآشورية في أيامها الأخيرة، وكانت أعظم غزواتهم المدمرة في آسيا الغربية (في حدود 630 ـ 610 ق.م) حيث لم يقل تدميرهم للمدن والسكان عن تدمير غزوات الهون والمغول في العصور المتأخرة، حتى أنهم بلغوا في انجرافهم إلى حدود مصر وسوريا وسميت مدينة في بلاد الشام بأسمهم هي «مدينة الاسكيثيين» (Scythopolis) وهي «بيسان الآن»، وقد استطاع الماذيون من دفعهم (في القرن السادس ق.م) إلى حدود مواطنهم الأصلية بعد أن فرضوا سلطانهم على بلاد إيران زهاء 28 عاماً ولكن أخطارهم على مراكز العالم المتمدن استمرت إلى زمن الرومان.

جاء وصف هذه القبائل في هيرودوتس، حيث يصفهم بأنهم قبائل متوحشة يركبون الخيل العارية الوحشية، ويشربون دماء أعدائهم ويستعملون جماجمهم للشرب[1].

---

(1) انظر تأريخ هيرودوتس (Herodotus, Bk. IV, 64) كما يصفهم هبوقراط (أبو قراط) (Hippocrates) في مؤلفه عن أثر المناخ والمياه والبيئة. الخ... =

حضارات أمريكا القديمة:

وإتماماً للفائدة نذكر تعريفاً موجزاً بالحضارات القديمة التي نشأت في القارة الأمريكية قبل مجيء الفاتحين البيض من الغربيين فقد أثمرت هذه القارة أربع حضارات مهمة كانت مواطنها في أمريكا الوسطى، وقد انبعثت من هذا المركز الحضاري تأثيرات حضارية إلى جهات أمريكا فتأثرت بهذا الأقوام البربرية من قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية والجنوبية، فنشأت مراكز ثانوية من حضارات بدائية أقل مرتبة وتقدماً من المركز الأصلي، وهذه إحدى الحالات التي ينطبق عليها قانون انتشار الحضارة. والمرجّح كثيراً أن الإنسان دخل إلى القارة الأمريكية في نهاية العصر الحجري القديم عن طريق مضيق «بهرنج».

وكانت اثنتان من هذه الحضارات الأربع من الحضارات الأصلية حيث نشأتا ونمتا من الأطوار البدائية ولم تشتقا من حضارة سابقة لهما. وأقدم هاتين الحضارتين حضارة «المايا» التي نشأت قبل (500 ق.م) في منطقة الغابات الاستوائية في أمريكا الوسطى، وقد تغلبت على هذه البيئة الصعبة التي نشأت فيها. وقد قامت من هذه الحضارة أمبراطورية (300 ـ 690 للميلاد) ثم حلت بها نهاية سريعة في القرن السابع للميلاد، وقد تركت وراءها سجلاً مهماً في خرائب المدن العظيمة في الغابات المشبّعة بالأمطار في «يوكتان»

= (Hippocrates, **Airs, Waters, Places**, XVII-XXI).

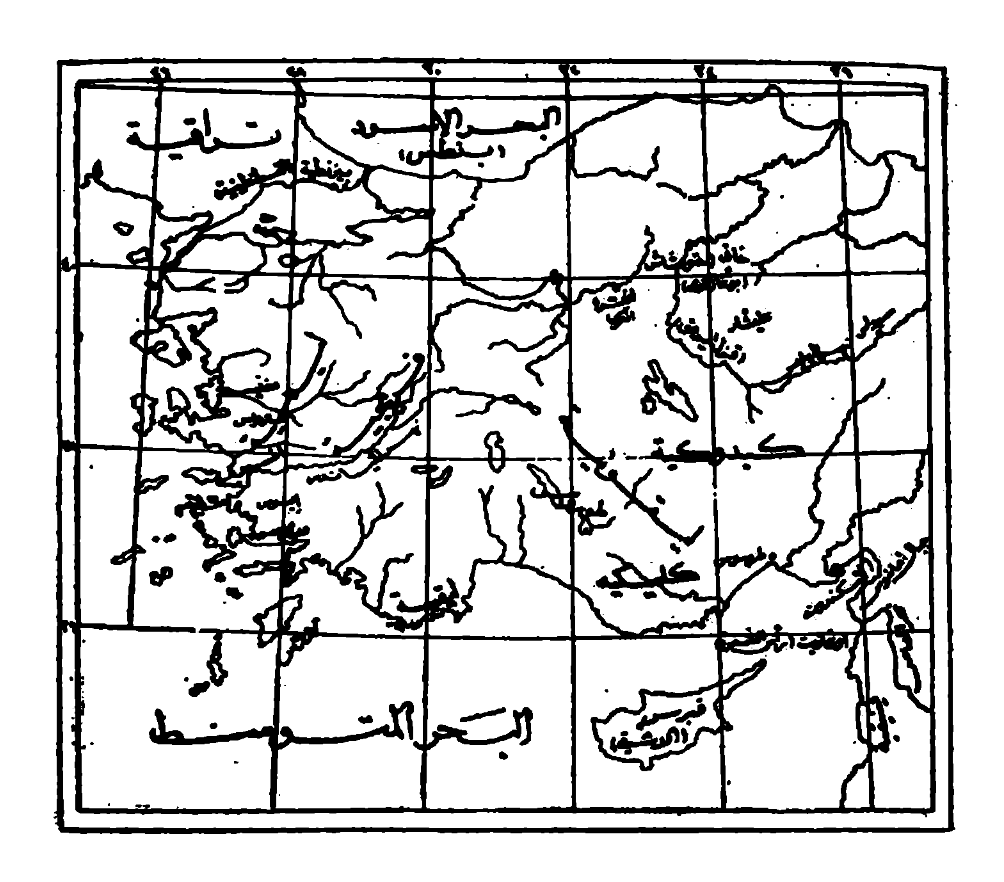
بأن نساءهم ما دمن عذارى يركبن الخيل ويمارسن الحرب، وإن المرأة منهن لا تتزوج ما لم تقتل ثلاثة من الأعداء. ويقول عن نسائهم أيضاً بأنهن ليس لديهن أثداء في صدورهن لأن الأمهات يكوين صدورهن بآلة من البرونز بحيث إذا كبرن لا تنمو أثداؤهن. وهناك بعض الباحثين من يعين هذه القبائل بأنها «يأجوج ومأجوج» المذكورين في التوراة والقرآن. حول لمح من تأريخ الاسكيثيين انظر:

(1) Maspero, **The Passign Empires.**

(2) **Cambridge Ancient History,** Passim.

وانظر تأريخ بلاد إيران أيضاً.

(يوقطان). وقد اشتهرت بحذقها في الفلك وطريقة التقويم المضبوطة. وقد ولدت حضارة «المايا» حضارتين فرعيتين هما حضارة المكسيك وحضارة «اليوكتان»، وقد نشأتا في جزء من شبه جزيرة «اليوكتان» قاحل أجرد وذلك من بعد 629 للميلاد، ونشأت عن حضارة المكسيك أمبراطورية الأزتيك التي بقيت إلى زمن الفتح الإسباني على يد القائد «كورتيز» في القرن السادس عشر الميلادي. أما الحضارة الرابعة فهي ثاني الحضارتين الأصليتين، وهي الحضارة «الأندية» وقد نشأت في الساحل الأندي وفي النجد الأندي في بداية العهد المسيحي، وقد تغلبت هذه الحضارة على البيئة الصعبة من الأرض البادية والمناخ القارس وفقدان التربة الخصبة في النجد الأندي وقد نشأت منها أمبراطورية «الأنكا» (1430 ـ 1530) في (بيرو) وقد قضى عليها الفاتح الإسباني« بيزارو» في 1530 للميلاد.



موطن الحثيين في الأناضول

القسم الرابع

بلاد إيران

العيلاميون ـ الفرس الإخمينيون ـ الإسكندر والسلوقيون ـ الفرثيون ـ الساسانيون

الفصل الثالث والثلاثون

عصور ما قبل التأريخ وتأريخ عيلام والماذيين

1 ـ مقدمة في جغرافية إيران وعصور ما قبل التاريخ فيها:

تبدو هضبة إيران[1] وهي شبيهة بالمثلث، محصورة ما بين منخفضين هما خليج فارس في الجنوب وبحر قزوين في الشمال، وهي توصل بين آسيا الوسطى وآسيا الغربية، كما أنها بمثابة جسر إلى آسيا الصغرى وإلى قارة أوروبا فيما وراءها. وتحيط بتلك الهضبة المثلثة سلاسل من الجبال ترتفع محيطة بصحراء منخفضة هي قاع بحر يابس (دشتي لوط). وتدعى السلسلة الغربية بجبال زجروس الممتدة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وطولها نحو (620) ميلاً وعرضها نحو 120 ميلاً، وتتراوح ارتفاعاتها بين 3280 و5570 قدماً، وهي تتألف من جملة سلاسل متوازية تخترقها أودية تتراوح في

---

(1) سيتضح من كلامنا على الأقوام التي استوطنت إيران أن اسم الآريين مأخوذ من نفس مادة «إيران»، وأول من استعمل مصطلح «بلاد إيران» «أريانا» (Ariana) الجغرافي الشهير «أراتو سثينيز» (Eratosthene) (القرن الثالث ق.م) الذي كان مديراً لمكتبة الإسكندرية الشهيرة، وكان في متناول يده الكتابات والمعلومات التي جمعها موظفو الإسكندر، ولكن المرجّح كثيراً أن هذا المصطلح يرجع في استعماله إلى العهد الإخميني إذ ورد في التراتيل والصلوات الدينية في الأفستا.

(**Herzfeld, Iran in the Ancient East** (1941), 192).

كما أن شيلمنصر الثالث اتصل في العام السادس عشر والرابع والعشرين من حكمه (843، 835 ق.م) بالقبيلتين الإيرانيتين الرئيسيتين وهما ماذي ومارس على ما سنبين فيما بعد، كما سيأتي ذكر الأسماء الخاصة بالأقسام الجغرافية الأخرى من إيران.

أطوالها من 60 ـ 30 ميلاً طولاً ومن 12 ـ 6 أميال عرضاً، ويمتد من السلسلة الوسطى من جبال زجروس ذراع يتّجه غرباً إلى سهل ما بين النهرين (جبال حمرين)، الأمر الذي أحدث انعطافاً وانحرافاً في نهر دجلة جعلاه يقترب كثيراً من الفرات في منطقة بغداد[1]. وكان سهل وادي الرافدين مهدداً بالغزو من هذا الامتداد المطل عليه (في الإقليم المسمى لورستان)، وكان الغزو متبادلاً على ما سيتضح ذلك فيما بعد. ويحدّ الناحية الشمالية من إيران سلسلة جبال «البرز» التي يرتفع أعلى جبل فيها (وهو «دماوند»، شمال طهران وهو المسمى في المصادر المسمارية بجبل بكني أي جبل اللازورد) زهاء 19,000 قدم وتحاذي جبال «البرز» الساحل الجنوبي من بحر قزوين، وتصل في نهايتها الغربية إلى أذربيجان الإيرانية التي تتوسطها بحيرة «أورمية» الملحة. ويمتاز إقليم أذربيجان بكثرة سكانه وتنمو في وديانه الخصبة الغلات المهمة كالحنطة والدخن والقطن والأرُزّ والتبغ كما أنه ذو شهرة تأريخية خاصة، إذ ظهرت منه سلالات الماذيين والفرس التي حكمت إيران، واستوطنته الأقوام الأخرى كالكرد والمغول والترك (التتر)، وهو إلى ذلك يعدّ الباب المؤديْ إلى إيران مما دعى الدول الفارسية إلى أن تهتم في المحافظة عليه إزاء الفاتحين الآتين عبر القوقاز من السهوب الكائنة جنوب روسيا، فقد أُقيمت الحصون المنيعة التي لا تزال بعض آثارها ماثلة الآن.

وتتفرع من جبال البرز إلى الشرق جبال خراسان التي لا ترتفع كثيراً، كما أنه يسهل العبور منها، وهي ذات وديان وسهول خصبة تنمو فيها غلات الحبوب والأرُزّ والقطن والكروم والخشخاش، وتعدّ خراسان مخزناً للغلات بالنسبة إلى إيران. وتؤلف خراسان المدخل الثاني إلى بلاد إيران. فقد عبّر منها في خلال العصور غزاة فاتحون مختلفون جاؤوا من سهول آسيا الوسطى، فكانت معرّضة لغزوات التركمان إلى القرن التاسع عشر للميلاد. وأقام ملوك

(1) اعتمدنا في هذه المقدمة وفي تأريخ الأدوار الرئيسية في إيران على الكتاب القيم الموجز:
R. Ghirshman, **Iran** (Pelican, 1954).

السلالة الساسانية في خراسان حصوناً لصدّ الفاتحين، واشتهر إقليم خراسان في تأريخ إيران بكونه مهد سلالات حاكمة مشهورة، كالفرثيين والصفويين والقاجاريين. وتكمل سلاسل الجبال المحيطة بهضبة إيران سلسلة جبال «مكران» في جهة الجنوب، حيث يمرّ من هذه الجبال مجازان أحدهما في بندر عباس (الذي كان فيما مضى ميناء مزدهراً في خليج عمان) والممر الآخر يؤدي إلى بلوجستان.

ويقع في وسط هضبة إيران منخفض صحراوي شاسع يعدّ أشد بقاع الدنيا قحولة وجفافاً. وهو ينقسم إلى صحراوين شاسعتين تسمى إحداهما «دشتي كوير» في الشمال والأخرى «دشتي لوط» في الجنوب[1]، فالأولى عبارة عن طين وملح لا ينمو أو يعيش فيها شيء إلّا في بعض الواحات القليلة. أما «دشتي ـ لوط» فهي صحراء جافة على وجه الإطلاق، ويصف هذه المفازة الروّاد القلائل الذين جازفوا بارتيادها بأنها لو قورنت بأقحل صحارى آسيا الوسطى مثل صحراء «كوبي» لبدت هذه خصبة بالنسبة إليها. وهكذا فقد انحصرت حياة الإنسان واستيطانه في إيران في الهضبة فقط وفي السهول والوديان بين سلاسل الجبال وفي الواحات والسهول الواسعة مثل سهل «خوزستان» المشهور (في الجهة الجنوبية الغربية)، وهذا هو بلاد السوس القديمة (خوزستان) أي بلاد عيلام التي تعدّ من الناحية الجغرافية امتداداً لسهل ما بين النهرين الأسفل لأنها تتألف من الأرض الرسوبية التي كوّنها نهر كارون وروافده الكثيرة. وكان هذا الإقليم[2] أقدم أجزاء إيران في استيطان الإنسان له كما ظهرت فيه أقدم الأطوار الحضارية، وهو إلى ذلك أصلح جزء لأن يكون

---

(1) دشتي لوط أو «دشت لوط» وتسمى صحراء الملح وسماها البلدانيون العرب باسم «المفازة الكبرى».

(2) معنى خوزستان بلاد «الخوز» أو «الهوز» ويجمع على أهواز، وهو اسم حاضرة هذا الإقليم في العصور الوسطى، وسمي عربستان ثم أعيدت تسميته القديمة «خوزستان» في أيام البهلوي رضا شاه. وسمى البلدانيون العرب نهر كارون باسم دجيل الأهواز، ولكارون رافد مهم هو نهر «كرخه» الذي يمر قرب السوس (قرب دزفول)، (انظر كلامنا على أصل اسم عيلام).

مركزاً لإدارة الدولة الإيرانية لما اتّسعت هذه عبر «زجروس» إلى ما بين النهرين وإلى آسيا الصغرى. وهناك سهل آخر في محاذاة الجبال المتاخمة لبحر قزوين، وهي جبال مهمة من ناحية جذبها للرياح الممطرة الغزيرة في هذا السهل الذي يكتسب خصباً بسبب ذلك، فكثرت فيه الغابات والغياض، والأحراش، كما ينمو فيه الأرز والقطن والشاي والتبوغ وقصب السكر والبرتقال والليمون، والتوت، والتين، والرمان، وهو يجهز القوت لزهاء 3/ 1 السكان. أما السهول الأخرى فهي ليست على هذا الخصب، وعديمة المطر تقريباً فلا يمكن زرعها إلّا بالإرواء الاصطناعي، الذي استُعمل في بلاد إيران منذ عصور ما قبل التأريخ، واّتسع في العهد الإخميني حيث كانت شبكة من القنوات تحت الأرض (بالفارسية قناة أو غناة أو كهريز) وفي الوقت الحاضر «تبزل» المياه في سفوح الجبال وتجمع في حفر عميقة يجري الماء فيها إلى الموضع البعيد المراد إرواؤه، وتظهر مثل هذه القنوات في كل عام. وهكذا أمكن لسفوح جبال زجروس والبرز بفضل مياه أمطارها أن تكون صالحة للزراعة ولسكنى البشر، حيث تكون هذه الجبال مصدراً لينابيع المياه والسيول.

ومع أن بلاد إيران، على ما رأينا، مُحاطة بالجبال إلا أنها مفتوحة من جهاتها الأربع (بطرق مسالك الجبال) إلى سهول ما بين النهرين (وسنتطرق إلى العلاقات والاتصالات منذ أقدم الأزمان) ومفتوحة أيضاً إلى روسيا والهند وخليج فارس. كما أنه يمرّ منها منذ أقدم الأزمان طرق مواصلات عالمية تربط الشرق بالغرب، فيخترقها طريق تجارة الحرير الشهير الذي كان طريق الفتوح أيضاً، وكانت إيران في الواقع معرّضة إلى الفتوح والغزوات الخارجية وهجرات الأقوام البربرية. ومن الناحية الحضارية تقع بلاد إيران بين مركزين حضاريين مهمين، هما بلاد ما بين النهرين ووادي نهر السند.

ومن الأمور المهمة التي يجدر ذكرها عن جغرافية إيران مما كان لها أثر في تأريخها وحضارتها في هذه البلاد من الموارد الطبيعية، فهي بالدرجة

الأولى زراعية وفيها حيوانات صالحة للتدجين، وهي موطن أشجار مثمرة مهمة وحبوب برية مما مكّن ظهور انقلاب العصر الحجري الحديث. ومن مواردها الطبيعية المهمة أنها غنية بأنواع الحجارة الجيدة كالمرمر والرخام والأخشاب، وبعض الأحجار الثمينة كحجر اللازورد (Lapis Lazuli) والفيروز (Turquoise) وقد استخرجت هذه الأحجار منذ أقدم العصور، وكانت مصدراً مهماً للأمراء السومريين الأوائل في العراق مما جعل إيران تتصل بمواطن الحضارات القديمة وتتأثر فيها. ويوجد فيها من المعادن النحاس والحديد والقصدير والرصاص مما جذب إليها الفاتحين الطامعين من دول العراق القديم، وتتكوّن سفوح زجروس ومنحدراتها من حجارة الكلس وتحتوي على النفط الذي كان معروفاً منذ أقدم الأزمان. وهناك ميزة جغرافية أخرى حدّدت من إمكانيات إيران في نشوء الحضارة والدول الكبرى في عصور أقدم، تلك هي أحوال الجفاف النسبي ومحدودية الأراضي الزراعية الصالحة للري بالأنهار مما كان يحتم على الفلاحين الهجرات الموسمية من الوديان إلى الجبال وبالعكس للمحافظة على الماشية، ولا يوجد في إيران، كما في العراق، مناطق زراعية كبيرة مستمرة تعتمد على الأنهار وتسبّب قيام الوحدات الاقتصادية والسياسية الكبيرة، وكانت الوحدات الزراعية في الواحات في العصور القديمة أقرب ما تكون إلى الاستقلال الذاتي في اقتصادها، ولهذه الأسباب تأخر نشوء الحياة الحضرية والحضارة في إيران عن نشوئها في وادي الرافدين، بآستثناء بلاد عيلام بسبب احتكاكها واتصالها بالعراق القديم وقربها منه.

2 ـ عصور ما قبل التاريخ:

قبل أن نتكلم عن الأدوار التأريخية في بلاد إيران نذكر بعض الملاحظات العامة عن مصادرنا الرئيسية، فنذكر على رأسها التحريات والتنقيبات الأثرية في العصر الحديث، منذ منتصف القرن التاسع عشر وهي مستمرة حتى الآن، ومع أن لدى المؤرخ الحديث مصادر مهمة عن تأريخ إيران من غير التحريات الآثارية، إلا أن هذه التحريات قد زوّدتنا بمعلومات مهمة

من أقدم عصور ما قبل التأريخ إلى العهد الساساني وحتى العهد الإسلامي وسنشير إلى نتائج هذه التحريات في أثناء كلامنا على أدوار التأريخ المختلفة. وبالإضافة إلى هذا المصدر الرئيسي فلدى المؤرخ مراجع أخرى أساسية مهمة نشأت من صلات الأقوام الإيرانية بالأقوام الأخرى وأهم كتابات عنهم ما جاء في المصادر اليونانية والرومانية، وعلى رأس ذلك تأريخ هيرودوتس الشهير وهو مصدر مهم ومعاصر للحوادث التي نشأت من جرّاء غزو الفرس الإخمينيين لبلاد اليونان، ويزوِّدنا هذا المصدر بعد تطبيق أصول النقد التأريخي عليه بمادة مهمة عن تأريخ إيران في العهد الإخميني والماذي. ومن المصادر المهمة ما جاء في التوراة عن أحوال فارس في العهد الإخميني أيضاً من الصلات المهمة بين اليهود والفرس من بعد فتح كورش لبابل. وتذكر الأخبار الواردة أيضاً في الأفستا (التي هي كتاب الفرس المقدس) وسننوّه باتصال الآشوريين ببلاد إيران وما جاء في كتابات الملوك الآشوريين الفاتحين إذ ورد فيها أول ذكر للأقوام الإيرانية بعد هجرتهم بقليل، واتصل قبل الآشوريين ملوك العراق الأقدمون منذ أقدم عهود التأريخ ببلاد عيلام وذكروا في كتاباتهم أشياء مهمة عن تأريخ العيلاميين على ما سيتّضح ذلك لنا فيما بعد. وننوّه أيضاً بالمصادر الرومانية المهمة ولا سيما عن العهدين الفرثي والساساني حيث نشأت علاقات واسعة أكثرها حربية بين الفرثيين والساسانيين وبين روما وبيزنطية (في العهد الساساني). وزوّدتنا نتائج التنقيبات بالإضافة إلى الآثار المادية والفنية بمصادر مدوّنة معاصرة باللغة العيلامية والفارسية عن تأريخ بلاد عيلام وعن الفرس الإخمينيين والساسانيين. وتكون أخبار المؤرخين العرب موثوق بها نوعاً ما عن العهد الساساني.

لقد أنتجت التحريات الأثرية الحديثة في إيران معرفتنا بآثار العصر الحجري القديم في جملة كهوف في الجبال مثل كهف «تنك ـ ببدا» (Tang-i-Pabda) في جبال «بختياري» إلى الشمال الشرقي من ششتر[1] حيث

(1) كشف عن هذا الكهف حديثاً في عام 1949. انظر: R. Ghirshman, Iran, 27.

عاش الإنسان الصياد واستعمل أدوات الصوان، والأدوات المصنوعة من العظام. وكان الجفاف آخذاً بالازدياد في إيران وجهات الشرق الأدنى الأخرى من بعد العصور الممطرة التي تقابل العصور الجليدية في أوروبا. فأثّر ذلك في استيطان الإنسان حيث انتقل من الجبال ولا سيما الكهوف إلى الوديان والسهول الخصبة.

وكانت الأحوال ملائمة للانقلاب الذي تمّ في العصر الحجري الحديث بتعلم الإنسان الزراعة وتدجين الحيوان، وقد كشف البحث عن أقدم مستوطن في إيران فيه آثار العصر الحجري الحديث في الموضع المسمى «تبه سيالك» في السهل قرب كاشان، جنوب طهران، وهو موضع ظلّ يستوطنه الإنسان في العصور التي أعقبت العصر الحجري الحديث في الأطوار التي أطلقنا عليها اسم العصر الحجري المعدني، كما وجدت آثار العصر الحجري الحديث في تل صغير قرب برسيبوليس وكشف فيه عن آثار العصر المعدني أيضاً التي وجدت في مواضع أخرى من إيران[1] وفي عيلام وسننوّه بهذه الأطوار في عيلام بوجه خاص.

---

(1) يمثل لنا موضع «سيالك» بدوره الأول والثاني والثالث تدرج التقدم الحضاري في عصور ما قبل التأريخ من العصر الحجري الحديث إلى أطوار العصر الحجري المعدني. حول نتائج التحريات في المواضع الأخرى مثل «تبه كيان» في نهاوند و«تبه حصار» قرب دمغان والمواضع الأخرى في لورستان وسستان انظر المراجع الآتية:

(1) Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952), ch.X.

(2) Mc Cown, **The Comparative Stratigraphy of Early Iran** (1942).

(3) Ghirshman, **Fouilles de Sialk** (1938).

(4) Schmidt, **Excavations at tepe Hissar - Museum Journal,** XXII (1933).

(5) Contenau G Ghirshman, **Fouilles du Tepe-Giyan** (1935).

بلاد عيلام والحضارة العيلامية

لقد سبق أن نوّهنا بأن هذا الجزء من بلاد إيران أقدم حضارة وعمراناً من بقية بلاد إيران، فقد ظهرت فيه في عصور ما قبل التأريخ الأطوار التمهيدية إلى نشوء الحضارة الناضجة بتأثير حضارة وادي الرافدين على ما سنبين ذلك عمّا قليل.

لقد سمى السومريون الإقليم الكائن إلى شرق وادي الرافدين الأسفل بمصطلح «نم» (NIM) الذي يعني النجد المرتفع، وسماه الآكديون الساميون في العراق باسم «إيلامتو»[1]. وفي التوراة يبتدىء الاسم بحرف (ع) أي «عيلام»[2]. أما العيلاميون فقد سموا أنفسهم باسم يختلف عن ذلك حيث جاء في المصادر العيلامية المسمارية بهيئة «حاروتي» أو «حافرتي» (Ha-Pir-ti) ويجوز قراءة العلامة الوسطى بلفظ (TAM) ويكون الاسم المحتمل «خاتمتي» (Ha-tam-ti)[3] وسمّت النصوص الفارسية المتأخرة إقليم عيلام باسم (Uvàja)

---

(1) لا يُعلم بوجه التأكيد هل أن هذه الكلمة الآكدية ترجمة للمصطلح السومري أو أنها تعريب أو تصحيف للكلمة السومرية NIM (E) بإبدال النون لاماً ولكن يجوز احتمال اشتقاق الاسم السومري من الاسم السامي «عيلام ـ ايلام». انظر:

Speiser, **Mesopotamian Origins,** 1930. chap. II.

(2) وتذكر التوراة أن بلاد عيلام سكنها بنو سام وأنها سُمِّيت باسم عيلام الابن البكر لسام (سفر التكوين 1: 22) وأن عيلام أبو قبيلة العيلاميين وأبو الفرس (عزرا 4: 9).

(3) انظر Speiser, **Ibid.,** 26.

ولعل هذا الاسم مأخوذ من اسم إحدى القبائل العيلامية الكبيرة.

و(Huvàja) ومنه الكلمة العربية «خوز» وخوزي و«حويزة» أي إقليم «خوزستان» وهو بلاد عيلام التأريخية بالضبط ودعا الإغريق بلاد عيلام والعيلامين باسم عاصمتهم الشهيرة «السوس» (سوسا)[1] فسموها «سوسيانه» (أي بلاد سوسا) وورد جزء مهم من بلاد عيلام باسم «إنشان» و«إنزان»، وكان من شهرة هذا الإقليم أن صار في بعض الأزمان القديمة يُطلق على جميع بلاد عيلام[2]، كما كانت هناك مدينة مهمة بالاسم نفسه إلى الشمال الغربي من مدينة السوس، وعلى نهر الكرخا. ولما أخذها ملوك الفرس الإخمينيين من العيلاميين صار من جملة ألقابهم الرسمية «ملك إنشان».

وتُعدّ عيلام، على ما ألمحنا إلى ذلك من قبل، جزءاً من جنوبي وادي الرافدين من ناحية الخصائص الجغرافية ومن الناحية الثقافية حيث التشابه الحضاري الكبير والاتصالات الثقافية منذ عصور ما قبل التأريخ وهي في الواقع لا تبعد عن بلاد سومر أكثر من (100) ميل، وكثيراً ما صارت ولاية تابعة للدول التي قامت في وادي الرافدين كما أنها غزت العراق أكثر من مرة في عهود ضعف الدول القائمة في العراق. كما أن بلاد عيلام كانت واسطة مهمة للاتصال الثقافي بين حضارة وادي الرافدين وبين سائر جهات إيران من جهة وبين الهند والتركستان وحتى الصين.

لقد كشف البحث الحديث عن وجود أطوار ما قبل التأريخ في بلاد عيلام وهي ممثلة في جملة مواضع، ولا سيما في مدينة السوس نفسها حيث وجدت أدوار العصر الحجري المعدني ذي الفخّار الملون الجميل، ووجد ما يضاهي طور العبيد في العراق بما عرف بالدور الأول من سوسة الذي يرى فيه

---

(1) ورد ذكرها في التوراة باسم «شوشان» أو «شوشن»، وتُكتب في المصادر المسمارية (العيلامية والبابلية) بهيئة رمزية بالعلامتين المسماريتين (INANNA-ERIN).

(2) وهكذا ورد اسم «إنشان» وهو يرادف عيلام في الحوادث المؤرخ بها من عهد ملك «أور» «أبي - سين».

(Royal Inscriptions from Ur, Nos. 290, 292).

بعض الباحثين أنه أصل حضارة العبيد في العراق ومهما كان الأمر فالثابت من الوجهة الحضارية أن بلاد عيلام تأثرت أثراً بالغاً في ثقافتها بالحضارة السومرية واشتقت منها عناصر أساسية من الحضارة، وبدأت هذه التأثيرات واضحة أكثر في العهد الذي سميناه في تأريخ العراق باسم «العهد الشبيه بالكتابي»، أي النصف الثاني من طور الوركاء وجمدة نصر، وأول ما يلاحظ من هذه التأثيرات الواضحة اقتباس العيلاميين للخط المسماري، حيث ظهر في عيلام نوع من الكتابة الصورية في عهد جمدة نصر (في حدود 3000 ق.م. على غرار الخط المسماري القديم، وقد سُمّي هذا الخط بالمسماري العيلامي القديم (Proto-Elamite) كما دوّن في عدة مئات من ألواح الطين وجدت في السوس وظل مستعملاً إلى العهد الآكدي، ولكن لا يزال هذا الخط مجهولاً. وقد ترك العيلاميون استعمال هذا الخط القديم في منتصف الألف الثالث، واستعملوا بدلاً منه طريقة من الكتابة المسمارية مشتقة من الخط المسماري في العراق بعد تعديلات وتغييرات لجعله ملائماً لأصوات لغتهم. وتتألف هذه الكتابة الجديدة من نحو (131) علامة مسمارية مقطعية (أي تُستعمل استعمالاً صوتياً بهيئة مقاطع) و(25) علامة كل منها تقوم لكلمة (أي بطريقة الكتابة الرمزية) و(7) علامات دالة، واختصروا في هذا الخط أيضاً مرة أخرى وجعلوه يتألف من (113) علامة، منها (102) علامة مقطعية و(11) علامة للكلمات وعلامات دالة[1].

استوطن بلاد عيلام أقوام لا نعرف عن أصلها أشياء مؤكدة، فهي ليست من الأقوام الإيرانية التي هاجرت إلى إيران في بداية الألف ق.م.، مما سنذكره في تأريخ إيران من بعد العيلاميين. فيكون عهد العيلاميين قد سبق العهد الإيراني أو الآري في بلاد إيران ولعل أصل العيلاميين من المنطقة الجبلية التي تتاخم سهول عيلام في الشمال والشرق، ومن الباحثين من يسمي سكان إيران قبل مجيء الإيرانيين باسم القزوينيين نسبة إلى إقليم بحر قزوين

(1) Gelb, **A Study of Writing**, 121.

ومنهم الكوتيون واللولوبو والكشيون، وإن اسم هؤلاء الكشيين مثل اشتقاق كلمة قزوين كما أن من الباحثين من يعدّ اللغة الكشية لهجة من اللغة العيلامية، أما هذه اللغة فلا نعلم صلتها بوجه التأكيد بعوائل اللغات البشرية المعروفة ولعلها من جملة اللغات المحكية في جنوب القوقاز، وهي شبيهة بعائلة اللغات القوقازية. وظلّت اللغة العيلامية في الاستعمال زهاء أربعة آلاف عام، وأقدم ما دوّن بها يرجع في عهده إلى بداية الألف الثالث ق.م.، ولعل مفردات وعناصر منها قد دخلت في الاستعمال في وادي الرافدين منذ الألف الرابع. ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أن الجغرافي العربي الإصطخري (منتصف القرن العاشر للميلاد) يروي أن أهل خوزستان كانوا يتكلمون في زمنه باللسان الخوزي إلى جانب الفارسية، ومصطلح اللغة الخوزية استعمل أيضاً في زمن الفرس الإخمينيين لإطلاقه على اللغة العيلامية. وقد حلّت رموز اللغة العيلامية من النقوش الإخمينية في برسيبوليس وبهستون، وهي النقوش المدوّنة بثلاث لغات (البابلية والعيلامية والفارسية الإخمينية)، والتي كانت مفتاحاً في حلّ رموز الخط المسماري واللغة البابلية أيضاً، على ما بيّنا في كلامنا على تأريخ العراق.

موجز تأريخ بلاد عيلام:

بدأت عيلام منذ بداية الألف الثالث ق.م. تزوّدنا بشيء من المصادر عن تأريخها، وكثرت هذه المصادر في العصور التأريخية المتأخرة، أما في العصور القديمة فمصادرنا المهمة مأخوذة من الكتابات التأريخية في حضارة وادي الرافدين، فندرس من هذه المصادر قيام إمارات وسلالات حكمت في عيلام في منتصف الألف الثالث ق.م.، وامتد سلطانها إلى بعض الأقاليم الجبلية المجاورة وإلى منطقة الخليج وإقليم بوشير. وقد عُثر هنا على كتابة باللغة السومرية يرجّح أنها تعود إلى أحد هؤلاء الأمراء. وقد سبق أن نوّهنا بغزوات الأمراء السومريين لبلاد عيلام، ولعل أقدم إشارة إلى بلاد العيلاميين هي التي جاءتنا من سلالة لجش الأولى من كتابات حاكمها «اياناتم» الذي غزا

عيلام حيث يتبجح في تلقيب نفسه بأنه «غازي عيلام»، الجبل الكثير الأشجار[1]، وتكرّرت الإشارات إلى فتح هذا «الأمير لعيلام»، وكذلك من الأمراء الآخرين من السلالة نفسها، وكلها تشير إلى غزو عيلام، ولكنها لا تذكر لنا شيئاً عن غلبة العيلاميين لبلاد سومر وهو أمر مرجّح ولكن لا ينتظر أن تذكرها أخبار هؤلاء الأمراء، إلّا في إشارة واحدة من أواخر عصر فجر السلالات تسمى العيلاميين «ناهبي لجش»[2].

وتعرضت بلاد عيلام إلى ضغط شديد بقيام السلالة الآكدية القوية في العراق حيث غزاها سرجون الآكدي وأحرز نصراً كاسحاً وضمّ بلاد السوس إلى أمبراطوريته[3]. وظلت عيلام خاضعة لسيطرة الآكديين في عهد «مانشتوسو» بن سرجون ولكنها ثارت في عهد «نرام ـ سين» فأخضعها هذا العاهل القوي بعنف وقسوة، وعين من قبله في مدينة السوس حاكماً شيّد أبنية مهمة فيها. وبلغ من نفوذ حضارة وادي الرافدين في عيلام في العهد الآكدي مبلغاً كبيراً بحيث إن اللغة الآكدية حلّت محل اللغة العيلامية في بلاد عيلام، وسمى كثير من السكان أنفسهم بأسماء سامية. وكان هذا أعظم خطر تعرّضت له عيلام في ثقافتها وقوميتها. ومهما كان الحال فيبدو أن العيلاميين تظاهروا بالركون إلى سياسة الخضوع والطاعة فأفادوا من ذلك إذ حصلوا على رضا فاتحيهم وسلموا من التدمير والتخريب حتى أن «نرام ـ سين» لم يخش من أن يعيّن على بلاد عيلام والياً من العيلاميين أنفسهم خلفاً للحاكم الآكدي الذي عيّنه من قبل. فأستغل هذا الحاكم العيلامي (واسمه بوزر ـ أنشوشناك) ثقة الآكديين وأخذ يبذر بذور الحركة القومية العيلامية حتى صارت النصوص

---

(1) انظر النص في: **Barton, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad,** 32, Col.6, 10 - 12.

(2) ذات المصدر.

(3) وقد سمى سرجون نفسه «ضارب عيلام وبراهسي». وبراهسي أحد أجزاء عيلام المهمة وحّدها الشمالي الغربي.
(Poebel, **Historical Texts,** P.185).

تُكتب في عهده باللغة العيلامية والخط العيلامي القديم إلى جانب اللغة الآكدية، كما اشتهر بأعماله العمرانية البنائية في مدينة السوس، واستطاع أن يفتح جملة أقاليم إلى جهة الشمال واتصل بإقليم الكوتيين (في المنطقة الجبلية شرق الزاب الأسفل) متظاهراً بحماية ولاية عيلام التابعة إلى الدولة الآكدية. ولما مات «نرام ـ سين»، أقوى ملوك السلالة الآكدية، أعلن هذا الوالي العيلامي استقلاله عن السلطة الآكدية، ولم يكتف بذلك بل إنه غزا بلاد الآكديين نفسها في عهد الضعف الذي حلّ بالسلالة الآكدية، ولعله وصل إلى العاصمة «آكد».

ولكن لم يدم هذا الازدهار السياسي زمناً طويلاً في عيلام، إذ إن ضعف السلالة الآكدية من بعد «نرام ـ سين» الذي استغله العيلاميون في انسلاخهم من ربقة السلطة الآكدية قد عرض العيلاميين إلى خطر آخر جاء من الأقوام الجبلية المجاورة للعراق، حيث هجم عليه بعض هؤلاء الأقوام، وبوجه خاص القوم الذين ورد ذكرهم في نصوص العراق القديم باسم «لولوبو» ثم أعقبهم الكوتيون. وكان «اللولوبو» يحتلون إقليماً يمرّ منه الطريق المهم القديم المؤدي من بغداد إلى كرمنشاه وهمدان وطهران. وقد سبق لسرجون الآكدي وحفيده نرام ـ سين أن قاما بغزو هذا الإقليم. وقد ضربهم «نرام ـ سين» بوجه خاص حيث حطم اتحاداً مكوّناً من اللولوبو والكوتيين على أثر معركة كبرى خلد انتصاره فيها في نصب عظيم نقشه في منطقة شهرزور. وكان هؤلاء الجبليون يسيطرون على الطرق التجارية المهمة الواصلة بين سهل وادي الرافدين وبين إيران. ومع أنهم كانوا أعداء العراق القديم إلا أنهم كانوا في أزمان السلم واسطة مهمة للتجارة. وقد وجد لأحد ملوك اللولوبو في جبال «سري بول زوهاب» في هورين شيخان منحوتة بالحجر تضاهي منحوتات نرام ـ سين، وفيها كتابة مشوّهة يظن أن فيها اسم الملك أو الرئيس «تار ـ لوني»[1]، كما خلفوا نقشاً آخر في الجبل المؤدي إلى القرية المسماة الآن «سري ـ بول»

---

(1) Ghirshman, **Iran.**

حيث اسم الملك «آنو ـ باتينيني» أمير اللولوبو مع صورته وصورة الإلهة عشتار[1] ويبدو أن الكوتيين الذين قضوا على السلالة الآكدية في العراق قد فرضوا سيطرتهم أيضاً على بلاد عيلام. وبعد طرد الكوتيين من العراق وقيام سلالة أور الثالثة العظيمة وإنشائها أمبراطورية كبرى دخلت بلاد عيلام ضمن هذه الأمبراطورية، وظلت كذلك أكثر من قرن واحد إلى سقوط هذه السلالة التي رأينا أن العيلاميين ساهموا في إسقاطها مع الأموريين حيث نشأت في عيلام سلالة وطنية جديدة، جاءتنا بعض أخبار ملوكها وجملة وثائق تجارية مدوّنة باللغة الآكدية، وتظهر فيها أسماء بعض الآلهة العيلامية، أشهرها الإلهة «شالا» وزوجها «آن شوشناك» كما شاعت عبادة الآلهة البابلية. وقد سبق أن رأينا من تأريخ العراق القديم كيف أن العيلاميين غزوا العراق في نهاية سلالة أور الثالثة وكيف أسّس أحد ملوكهم المسمى «كودر مابك» سلالة لارسه ثم كيف قضى «ريم ـ سين» العيلامي على سلالة ايسن المعاصرة لها ورأينا أيضاً حرب حمورابي لريم ـ سين واندحار هذا الملك العيلامي ففقد العيلاميون استقلالهم ودخلت عيلام ضمن أمبراطورية حمورابي. ولكن استعادت بلاد عيلام استقلالها في نهاية سلالة بابل الأولى وقامت فيها سلالة حاكمة مهمة في العهد الكشي في بلاد بابل، وقد سبق أن رأينا في كلامنا على تأريخ العراق كيف أن العيلاميين هم الذين قضوا على السلالة الكشية في العراق بقيادة ملكهم «شوترك ناختني» وأخذوا غنائم مهمة أشهرها المسلة التي نقش فيها حمورابي شريعته المشهورة ومسلة نرام ـ سين، حيث وجدت مثل هذه الآثار في السوس عاصمة عيلام، وقد قام منهم في هذا العهد ملوك أقوياء مثل شوترك نانختني المذكور و«كوتر ناختني» و«شلهاك آن شوشناك» وقد ازدهرت عيلام في هذا العهد في عمرانها وثقافتها، وفي قوتها السياسية حتى أن الملوك العيلاميين كوّنوا في نهاية العهد الكشي مملكة كبيرة ضمت معظم بلاد إيران. كما نشطت الثقافة الوطنية، حيث انتشر استعمال اللغة العيلامية بالخط

---

(1) Ghirshman, **Iran.**

العيلامي. ولكن لم يدم هذا العهد زمناً طويلاً إذ حلّ التدهور في عيلام في بداية الألف الأول ق.م.، وقد صادف ذلك قيام ملوك أقوياء في بلاد بابل أشهرهم «نبوخذنصر» الأول الذي حطم جموع العيلاميين واستولى على عاصمتهم السوس، وقد أعاد تمثال مردوخ الذي أخذه العيلاميون سابقاً. ويحدّد لنا هذا العهد فقدان بلاد عيلام لاستقلالها زهاء ثلاثة قرون، وصادف ذلك تعاظم الآشوريين وسيطرتهم على معظم الشرق الأدنى، وبضمن ذلك بلاد عيلام، وقد قاسى العيلاميون كثيراً من ضربات الآشوريين الشديدة، وكانت آخر الضربات القاصمة هي التي وجّهها الملك الآشوري «آشور بانيبال» على بلاد عيلام حيث دمرها ودمر العاصمة وأزال الدولة العيلامية من الوجود ودخلت بلاد عيلام من بعد ذلك تحت سيطرة السلالات الإيرانية الحاكمة كالماذيين والإخمينيين.

مجيء الإيرانيين إلى بلاد إيران والمملكة الماذية

هجرة الإيرانيين:

هجرة الإيرانيين إلى هذه البلاد التي سمّيت باسم «إيران» جزء من هجرة أقوام كبرى بدأت منذ أزمان أقدم من مجيء الإيرانيين إلى إيران، تلك هي الأقوام الهندية ـ الأوروبية. وكانت هذه قبائل كثيرة تتكلم بإحدى لغات العائلة اللغوية الكبيرة المعروفة باسم اللغات الهندية الأوروبية أيضاً، وكانت تعيش في خلال الألف الثالث في الأقسام الجنوبية من روسيا في السهوب الواسعة (سهوب أوراسيا)، حيث كانت تعيش على هيئة مجموعات قبلية، يحكم كل قبيلة رئيس أو ملك ينتخب من الأسر النبيلة، ويساعده في الحكم مجلس شورى من الوجهاء، ومن الرجال المحاربين. ومع أن هذه القبائل كانت تعرف الزراعة إلا أنها كانت متنقلة وأشبه ما تكون بالبدو، وكان شغل هؤلاء الأقوام المفضل «مهنة الحرب» والفروسية، وقد ساعدتهم الخيول والعربات البدائية على الحرب كثيراً.

بدأت هذه القبائل الهندية ـ الأوروبية أو الآرية تهاجر من مواطنها قبيل نهاية الألف الثالث ق.م.، وقد سلكت في هجراتها جهات مختلفة وفي أزمان متعاقبة على هيئة هجرات أو موجات متعاقبة، ففرع كبير منها اتجه غرباً حوالي البحر الأسود وعبر البلقان والبسفور وتوغل في آسيا الصغرى حيث كانت تقطن فيها أقوام آسيوية، وكان من هذا الفرع الحثيون على ما نوّهنا بذلك من قبل، وذهبت قبائل من هذا الفرع منذ منتصف الألف الثاني ق.م. إلى بلاد

اليونان، واستوطنت جماعة أخرى من الآريين في إيطاليا وفي أوروبا. ومن هجرات الأقوام الهندية الأوروبية الكبرى الهجرات التي اتجهت إلى الشرق. ويصحّ أن نسمي هذا الفرع من الأقوام الهندية الأوروبية باسم الفرع «الهندي - الإيراني» فقد اتجهت جملة قبائل شرقاً حول قزوين، وعبرت جماعات منها القوقاز وانتشرت بعيداً إلى عطفة الفرات الكبرى، وسكن هؤلاء مع الحوريين، وأقاموا بينهم دولة ميتاني (انظر كلامنا على الحوريين)، ولعل القبائل الكردية من هذه الهجرة، أي من الميتانيين، ولكن الأكراد الآن يتكلمون بإحدى لهجات اللغة الإيرانية القديمة، ومن الفرع الشرقي على ما يرجّح الكشيون الذين أسسوا سلالة حاكمة في العراق. ومن الفرع الشرقي أيضاً جماعات. مهمة اتجهت شرقاً أبعد وعبرت ما وراء النهر وسيحون واجتازت مجازات هندوكوش وغزت الهند (انظر كلامنا عن الحضارة السندية). ودخلت القبائل الإيرانية إلى إيران في مطلع الألف الأول ق.م.، إذ الشائع بين معظم الباحثين أن هذا الفرع من القبائل الآرية قد أخذ بالنزوح والتنقّل في بلاد إيران في بداية الألف الأول ق.م.، وأنه حدثت من جرّاء ذلك تغييرات أساسية في سكان إيران وتأريخها منذ هذا الزمن بمجيء تلك القبائل إليها. ومن الباحثين[1] من يحدّد مهد الآريين بالإقليم المسمى «ايرانويج» (Erànvej) بين سيحون وجيحون في إقليم خوارزم وسمرقند.

ومهما كان الحال فإن القبائل الإيرانية لم تستقر وتتوطن في بداية دخولها إلى بلاد إيران قبل 900 ق.م. وأول إشارة تأريخية مهمة إلى هذا العهد من مجيء الإيرانيين نجدها في كتابات الملك الآشوري شيلمنصر الثالث في عام حكمه السادس عشر والرابع والعشرين (أي عام 843 وعام 835 ق.م) حيث اتصلت الجيوش الآشورية في حملاتها على زجروس بقبائل إيرانية كبيرة ويذكر لنا هذا الملك اسم قبيلتين مهمتين وهما (Amadai)

(1) Herzfeld, **Archaeological History of Iran** (1935).
..., **Iran in the Ancient East** (1941).

أو (Màda) أي الماذيون (Parsua) أو (Parsa) أي فارس، وكانت هذه لا تزال في تنقلها بين بحيرة أورمية ونجد همدان، وكذلك اتصلت جيوش الملك «شمسي ـ أدد» الخامس[1] و«أدد ـ نراري» الثالث بالأقوام الإيرانية التي كانت بين بحيرة أورمية وهمدان وقزوين. ويصف لنا الملك «تجلاثبليزر» الثالث وخلفاؤه الماذيين بأنهم أشداء، وكانوا قد انتشروا في حدود هذا الزمن بعيداً إلى الجبال التي ورد ذكرها في المصادر الآشورية باسم جبال «بكني» (أي جبال حجر اللازورد) وهي جبال «دماوند» كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

وهكذا فيبدو من هذه الإشارات التأريخية المهمة الواردة في أخبار الملوك الآشوريين من القرن التاسع ق.م. أن مجيء الإيرانيين إلى إيران كان في حدود بداية الألف الأول، وأن القبائل الإيرانية الواردة في هذه الأخبار لم تكن قد استقرت في القرن التاسع ق.م.، والاستنتاج المهم الثاني أن أكبر هذه القبائل وأشهرها الماذيون والفرس وكان مجيئهما إلى بلاد إيران في نفس الزمن تقريباً، وبالإمكان تتبع اتجاهات هاتين القبيلتين الكبيرتين في بلاد إيران حتى استقرّت كل منهما في الموطن التأريخي الخاص بها. أما القبائل الفارسية فقد أوغلت بعيداً في اتجاهها جنوباً من نجد همدان وبلغت الأراضي السفلى المتاخمة لكرمنشاه، وسار الماذيون بأثر الفرس واستقروا في إقليم همدان وأوغلت جماعة منهم إلى أصفهان. ويبدو أن اندفاع الفرس أبعد إلى الجهة الجنوبية الغربية وعدم مكثهم في شمال غربي إيران إنما كان بسبب ضغط الآشوريين الشديد والأقوام الأخرى الشديدة المجاورة لإيران ولا سيما الأرمن الذين فرضوا سيطرتهم بعض

---

(1) يذكر شمسي أدد الخامس (823 ـ 810 ق.م) أنه دحر أحد الزعماء الإيرانيين في الإقليم الكائن شمال أورمية وأنه غزا (1200) مدينة من مدنه، والآشوريون يسمون القرى والحصون مدناً.

(Luckenbill, **Ancient Records**, I).

الوقت على إيران ولا سيما إبان ضعف الدولة الآشورية، ولكن انعكس الوضع في عهد تجلاثبليزر الثالث حيث غزا هذه الأقاليم وأخضعها. وبعد سقوط الدولة العيلامية على أيدي الآشوريين في زمن آشور بانيبال انفتح الطريق أمام توغل الفرس أكثر إلى الجهة الجنوبية الغربية، ويبدو أنهم انحازوا إلى العيلاميين في حربهم مع الآشوريين.

الماذيون

استقرت القبائل الماذية، على ما ذكرنا، وراء الحاجز الجبلي بين وادي الرافدين وإيران، وهي الجبال الممتدة من خليج فارس تقريباً إلى بحيرة «وان» بموازاة وادي الرافدين (سلسلة زجروس)، وكان موطنهم في إقليم همدان بمحاذاة بلاد آشور تقريباً، وقد عاش هؤلاء الماذيون منذ القرن التاسع ق.م. وهم خاملون من الناحية السياسية بسبب ضغط الآشوريين وضغط مملكة الأرمن أيضاً، ولكنهم كانوا يقتبسون من الآشوريون فنون السلم والحرب، فاستطاعوا بعد مضي نحو قرنين من الزمان أن يقضوا على الدولة الآشورية (612 ق.م) وتنحصر أخبارنا القليلة عن الماذيين في الإشارات الواردة عنهم في أخبار الملوك الآشوريين الذين سيطروا على بلاد ماذي وألحقوها بالأمبراطورية الآشورية وكذلك تكون أخبارنا قليلة عن العهد الذي أسسوا فيه مملكة قوية إذ لم تجر تنقيبات وتحريات أثرية مهمة في موطنهم كما أنهم لم يخلفوا لنا سجلات خاصة بهم، وتقتصر أخبارنا على الأساطير و«الأفستا» وأخبار هيرودوتس وعلى الأخبار القليلة في المصادر الآشورية. فمن هذه الأخبار ما يذكره تجلاثبليزر الثالث من أنه أخذ من الماذيين 65,000 أسيرٍ وأسكنهم في منطقة ديالى على طوال حدود بلاد آشور وأسكن في محلهم جماعات من الآراميين. ومن الأخبار الطريفة الخاصة بحروب الآشوريين مع مملكة الأرمن ما ورد في أخبار حروب سرجون الثاني الذي كان الميدان الماذي بارزاً في حروبه فقد قاد حملة كبرى ضد ملك الأرمن «روساس» وأخضع جملة رؤساء من حلفائه من الماذيين، من بينهم شخص ورد اسمه

بهيئة «دياكو» (Daikku) وأن سرجون نفاه في عام 715 إلى حماه في سوريا. ولا يعلم بوجه التأكيد هل هذا هو نفس الشخص الذي تقول عنه المآثر إنه أسس الأمبراطورية الماذية[1]. وسمى الآشوريون «اكبتانا»، عاصمة الماذيين، باسم «بيت دياكو». ووجد الماذيون في موطنهم الجديد المعادن المهمة كالنحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام والأحجار الكريمة. وعاشوا حياة زراعية. ويروي لنا هيرودوتس رواية ممتعة عن نشوء أول ملك على الماذيين وهو «ديوسيس»[2] فيقول إن الماذيين كانوا يعيشون في قرى وليس لديهم حكومة مركزية، وكان يعيش في إحدى القرى شخص اسمه «ديوسيس» اشتهر برجاحة العقل والعفة والنزاهة في الأحكام مما جعل الناس يلجؤون في الاحتكام إليه من القرى المجاورة، ولما رأى ازدحام الناس عليه امتنع عن الاستمرار قائلاً إنه لا يسعه أن يصرف كل أوقاته في تسوية خصومات الناس فيهمل شؤونه الخاصة وعند ذلك عمّت الفوضى وزال العدل من بين الناس، فاْجتمع الماذيون وتكلم المتكلمون منهم (ولعلهم من أصدقاء ديوسيس) وعرضوا عليه أن ينصبّوه ملكاً عليهم، فجرى انتخاب وأحرز الأكثرية «ديوسيس». ولما تمّ له ذلك طلب من الناس أن يبنوا له قصراً، وبعد حين سلك طريق الاستبداد، ولعل ذلك من جرّاء تقليده للملوك الآشوريين. وقد سبق أن نوّهنا بأن المآثر تنسب إلى هذا الملك تأسيس عاصمة الماذيين المشهورة (اكبتانا) (والمرجّح أنها همدان الحالية)، ويعني اسمها (Ecbatana) «ملتقى الطرق الكثيرة». وموضع اكبتانا في وادي خصب نضر وكان يجمل العاصمة قصر ملكي تبلغ مساحته نحو 2/ 3 الميل (بحسب رواية المؤرخ بوليبوس)[3]، وبقيت المدينة عامرة إلى العهد الإخميني والعهد السلوقي، وقد

---

(1) ورد ذكره في تأريخ هيرودوتس بهيئة «ديوسيس» (Deioces - Herodotus, 1, 96 ff.)

(2) ورد ذكره في تأريخ هيرودوتس بهيئة «ديوسيس» (Deioces - Herodotus, 1, 96 ff.)

(3) بوليبيوس مؤرخ من العهد السلوقي (204 ـ 122 ق.م)، فيكون وصفه للمدينة من بعد تأسيسها بزهاء 450 عاماً على ما يرجّح (Polybius, Bk. X, 27).

أما وصف هيرودوتس فهو أقرب إلى الأساطير. راجع أيضاً ما ورد عن اكبتانا في التوراة (سفر عزرا 5: 1 ـ 2).

نهبت إبان فتح الإسكندر لبلاد إيران ولم يبق من خرائبها الآن الشيء الكثير إلا أن أطلالها واسعة، وتقوم المدينة الحديثة (همدان) فوقها، وكثيراً ما يجد الناس في همدان وثائق مكتوبة في خرائب المدينة من عهد السلالة الإخمينية، ولا سيما من عهد دارا[1].

ومن ملوك الماذيين المعروفين «فراورطيس» (Phraortes) الذي يرجّح أنه حكم في حدود (655 ـ 633 ق.م) وأنه خلف «ديوسيس» الذي حكم في حدود 708 ق.م. وقد جرأ «فراورطيس» على الهجوم على بلاد آشور، ولكنه دحر في عام 653 ق.م.[2]. وكان الفرس تابعين إلى الماذيين ولكن بلاد فارس استقلت من بعد هذه الحادثة (في حدود 651 ق.م)، حيث انضم أحد ملوكهم كورش الأول (وهو غير كورش الثاني الأكبر) إلى العيلاميين في إرسال المدد إلى «شمش ـ شوم ـ اوكن» حاكم بابل وأخي «آشور بانيبال» في الحرب التي دارت بين الأخوين. ولكن كورش غيَّر سياسته لما أدرك قوة بلاد آشور الهائلة، فأظهر خضوعه وأرسل جزية مع ابنه إلى نينوى لكسب الصداقة الآشورية وضمان استقلال الفرس.

الاسكيثيون والكميريون:

ومن الحوادث الخطيرة في تأريخ الشرق الأدنى في هذا العهد مما كان لها أثر مباشر في بلاد إيران والماذيين بوجه خاص تنقل الأقوام الشبه همجية وهجراتهم إلى حدود إيران، وهؤلاء هم الاسكيثيون الذين سبق أن ذكرناهم ومعهم «الكميريون» (Cimmerians) وهم أيضاً من القبائل الهندية الأوروبية وقد عبروا مع الاسكيثيين القوقاز في هجرة جديدة في أواخر القرن الثامن مسببين اضطرابات كبرى في الأنحاء الشمالية الغربية من إيران، تلك الأنحاء التي قاست كثيراً من حروب الآشوريين والأرمن والماذيين. كما سبّب هؤلاء

---

(1) Herzfeld, **Arch. History of Iran,** 27 - 28.

(2) Olmstead, **History of Assyria.**

الأقوام اضطراباً شديداً في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين، وكانت هجرتهم سريعة وعنيفة، وكانوا فرساناً محاربين سريعي الحركة، وقد اندفعوا كحمم البراكين من السفوح الجنوبية من القوقاز. وسبق أن أشرنا إلى أخبار هيرودوتس وما سببوه من الدمار. وورد ذكرهم في المصادر الآشورية باسم (Gimirrai) أي الكميريون[1] والاسكيثيون باسم (Ishkuzai)، وهما اسمان مذكوران في التوراة أيضاً. ويروي هيرودوتس أن الاسكيثيين قد أزاحوا الكميريين، ولكن الواقع التأريخي خلاف ذلك، لأن هذين القومين كانا متحدين تقريباً، كما أن لغتيهما متطابقتان تقريباً، وعاشوا على الغزو والنهب، وقد قاست مملكة الأرمن منهم في عهد الملك الآشوري «سرجون» حتى أن الملك الأرمني «روساس» الأول انتحر من جرّاء تدميرهم لمملكته. وقد توطّن الكميريون في السواحل الجنوبية من البحر الأسود قرب مصب نهر الهليس (قزل ايرمق)، ومن هذا الموطن كانوا يندفعون في غزوهم وتدميرهم أقاليم آسيا الصغرى، وهم الذين حطموا الدولة الفريجية، حتى أن آخر ملوكها ميداس مات منتحراً. ثم حاربهم الملك الآشوري «آشور بانيبال» وهزمهم في المجازات الجبلية الصعبة في كيليكيا، فانتشرت فلولهم واندمجوا مع الاسكيثيين الذين استقروا نوعاً ما في الجهات الجنوبية الشرقية من بحيرة أورمية.

ويبدو أن استيطان الاسكيثيين حول بحيرة أورمية لم يعرقل قيام الدولة الماذية في مبدأ الأمر، فقد تمكّن الملك الماذي «فراورطيس» ـ الذي من ذكره سابقاً ـ من توحيد القبائل الماذية في مملكة واحدة وسّع من حدودها كثيراً، وقد حالف الكميريين وهادن الاسكيثيين ومن بعدها هجم على المملكة الآشورية، كما ذكرنا من قبل، ولكن الاسكيثيين نكثوا عهد حيادهم وكانوا حلفاء للآشوريين، فهاجموه من المؤخرة، وفقد حياته عام (653 ق.م) ويروي هيرودوتس أن الماذيين بقوا تحت نير الاسكيثيين زهاء 28 عاماً (653 ـ 625 ق.م) ووسع الاسكيثيون

(1) ويرجّح كثيراً أن اسم القرم وشبه جزيرة القرم مأخوذ من اسم هؤلاء الأقوام..(Ghirshman, **Iran**, 97)

من هجماتهم غرباً حتى أنهم خانوا حلفهم مع الآشوريين وانقضوا على تخوم المملكة الآشورية والتحق بهم فلول الفرسان الكميريين الذين دحرهم آشور بانيبال، على ما بيّنا من قبل، وهجموا على آسيا الصغرى وشمالي سوريا وفنيقيا وأحدثوا التدمير فيها. وقبل أن ننهي كلامنا على هؤلاء الاسكيثيين من ناحية علاقتهم ببلاد إيران في هذا العهد ننوّه هنا بالمجموعات الأثرية التي قوامها أدوات حربية بالدرجة الأولى مصنوعة من البرونز، وقد اكتسبت شهرة خاصة في المتاحف العالمية (ويوجد في المتحف العراقي مجموعة منها) حيث تعرف باسم «برونزيات لورستان»، فقد وجد الفلاحون مجموعات من الخناجر والسيوف ورؤوس السهام والفؤوس في منطقة كرمنشاه (أي شمالي لورستان)[1]. إن معظم هذه الأدوات مزخرفة بأطرزة فنية بعضها شبيه بالأطرزة الخاصة بحضارة وادي الرافدين، وقد وجد أكثرها في مقابر لم ينقّب فيها تنقيباً علمياً، وأكثرها خفيفة النقل مما يحمله عادة الفرسان المحاربون المتنقلون، حيث لا أثر لوجود مستوطنات قرب تلك المقابر. فلمن تعود هذه الأدوات؟ الجواب على ذلك بموجب أحدث الآراء العلمية أنها تخصّ جماعات من الفرسان الغزاة المتنقلين، وأن معظمها يرجع في زمنه إلى القرن الثامن أو السابع ق.م. وهي من آثار الاسكيثيين والكميريين في إيران ويؤيد ذلك الاكتشافات الأثرية الجديدة التي وضّحت لنا عهد الغزوات الاسكيثية في إيران وعلاقتهم بالدولة الماذية، ومن هذه الاكتشافات المهمة ما وجده الفلاحون بالصدفة في الموضع المسمى «سكيز» إلى الجنوب من بحيرة أورمية، حيث عثروا على كنز كبير يحتوي على أسلحة وحلي مختلفة المعادن، بعضها ذهبية، ومصنوعة صنعاً دقيقاً فيه أثر من الصناعة الآشورية، ولعلها كنز ملكي يعود إلى الاسكيثيين.

---

(1) انظر أحدث المراجع حول الموضوع في:

(1) Ghirshman, **Iran**, 99 ff.

(2) H. Frankfort, **History of Art and Architecture in the Ancient Orient** (1954).

وبعد هذه الملاحظات الضرورية نعود فنوجز أحوال الماذيين فنقول إنه جاء إلى عرش الماذيين من بعد «فراورطيس» السابق الذكر ابنه المسمى «كياخسار» (Uvakshatra) (Cyaxares)، وكان هذا أعظم ملوك الماذيين (633 ـ 584 ق.م)، فبعد أن ظلّ تابعاً للاسكيثيين زمناً قصيراً تمكّن من طردهم[1] كما فرض سيطرته على الفرس. ووجه همه من بعد ذلك للهجوم على الدولة الآشورية بعد الهجوم الفاشل الذي شنّه أبوه. وقد تحالف مع نبوبولاسر الكلداني ويبدو أنه قبل هذا التحالف هجم على نينوى في عام 615، ولكنها قاومت مقاومة عنيفة فتركها ووجّه هجومه على مدينة آشور، وتمّت في أثناء ذلك معاهدة الحلف مع «نبوبولاسر» التي تزوج بموجبها ابنه نبوخذنصر بابنة الملك الماذي المسماة «أميتيس». واستؤنف الهجوم على نينوى التي سقطت في عام 612 ق.م. وتحطّم الجيش الآشوري بقيادة آشور أوبالط في حران عام 610 ق.م. على ما رأينا من قبل، وبذلك أصبحت الدولة الماذية رابع دولة كبرى في الشرق من بعد تحطيم الدولة الآشورية، أما هذه الممالك فهي مملكة مصر، والمملكة البابلية الحديثة وليديا، وقد أصبحت المملكة الماذية في عهد هذا الملك أمبراطورية تشمل بلاد آشور وماذي وفارس ووسعها إلى تخوم آسيا الصغرى. ولكن لم تدم هذه الأمبراطورية زمناً طويلاً من بعد وفاة «كياخسار»، وقد خلفه في الحكم ابنه المسمى «استياجز»[2] الذي كان آخر ملوك الماذيين حيث انتقل الحكم في عهده إلى الفرس على ما سنبين ذلك في كلامنا على الفرس الإخمينيين، ولم يشتهر هذا الملك الماذي الأخير إلّا بالتبذير والإسراف، كما ترك الماذيون الأشداء المتقشفون في عهده حياة الزهد والبطولة، فأنجرف نبلاؤهم أيضاً في حياة الإسراف وهكذا كانت حياة المملكة الماذية قصيرة الأمد فلم تساهم كثيراً في تاريخ الحضارات البشرية، ولكن الماذيين أثروا في الفرس، ولعل الفرس الإخمينيين أخذوا منهم طراز العمارة

---

(1) ورد ذكره في المصادر البابلية بلقب «أومان ـ مندا» لتغلّبه على الاسكيثيين.

(2) اسمه بالإيرانية القديمة «أرشتيويجا» (Arshtivaiga) أي «رامي الرمح».

الخاص بالعمد، كما يحتمل كثيراً أخذهم من مآثرهم وشرائعهم وديانتهم. هذا ولا نعرف أشياء مهمة عن تنظيم الدولة الماذية، ولعلها اقتبست من تنظيم الدولة الآشورية. وسنتطرق إلى كيفية تغلب كورش الثاني على الملك الماذي «استياجز».



الفصل الرابع والثلاثون

الفرس الإخمينيون ـ الأمبراطورية الإخمينية والإسكندر والعهد السلوقي

السلالة الإخمينية ونشوء الدولة الإخمينية:

لقد تطرقنا فيما مرّ بنا من كلامنا عن هجرة الإيرانيين ومجيئهم إلى بلاد إيران إلى أصل الفرس وعلاقتهم بالماذيين حيث قلنا إن أشهر القبائل الإيرانية التي استوطنت إيران منذ الألف الأول ق.م. هما القبيلتان الماذية والفارسية وإن زمن استيطانهما كان واحداً تقريباً، ورأينا أيضاً أين كان موطن الماذيين في بلاد إيران، وموطن القبيلة الفارسية حيث قلنا إنها استقرّت في ذلك الجزء من إيران الذي عُرف باسم بلاد فارس أي الجزء الجنوبي الغربي من بلاد إيران المحادد لخليج فارس، حيث صار مركز الأمبراطورية التي كوّنها كورش واشتهر هذا الموطن بمدنه الشهيرة مثل برسيبوليس وبزرگاده. وكان الفرس في وطنهم هذا يجاورون العيلاميين في سفوح جبال البختيارية قرب كارون، وكانت عيلام ضعيفة فلم تستطع التدخل في استيطان القبائل الفارسية في جزء من مملكتها، ولا يمكننا البت هل اعترف الفرس بسلطان العيلاميين، ومهما كان الأمر فإنهم أقاموا في هذا الإقليم مملكتهم الصغيرة، وظلت تتدرج في النمو فتارة تكون خاضعة كولاية للماذيين وأخرى مستقلة. وساعد انشغال العيلاميين بدفاعهم إزاء الهجمات الآشورية المميتة وبعدهم نوعاً ما عن مركز الدولة الماذية على تدرج كيان الفرس السياسي. وقبل أن يظهر فيهم الملك كورش الأكبر (في حدود 558 ق.م) بأكثر من قرن واحد، حكم الفرس في موطنهم بعض الملوك أو الرؤساء وكانوا إما مستقلين أو تابعين للماذيين. فأول

هؤلاء الملك المسمى في تأريخ هيرودوتس «تسبيس» (Teispes) وبالفارسية (Chishpish) (675 ـ 640 ق.م) شخص اسمه «هاخمانيش»، وهو رأس السلالة الإخمينية الحاكمة. وقد لقّب نفسه بملك «إنشان» ويروي هيرودوتس أن هذا الملك مع استقلاله عن العيلاميين اضطر إلى الاعتراف (عام 670 ق.م) بسيادة الماذيين في عهد ملكهم «فراورطيس» الذي سبق أن رأيناه يقوم بهجوم فاشل على بلاد آشور، مات من جرّائه (653 ق.م). وبموت هذا وبغزو الاسكيثيين لبلاد ماذي، على ما رأينا من قبل، تقوّى مركز الملك الفارسي، وبعد موته قُسِّمت مملكته بين ولديه «أريارامنيس» (Ariaramnes) (640 ـ 590 ق.م) الذي لقب نفسه «الملك العظيم، ملِك الملوك ملك بلاد فرسا»[1]، والابن الثاني كورش الأول (640 ـ 600 ق.م) (Kurash). ونسمع من أخبار آشور بانيبال في حروبه مع العيلاميين التي دمر بها مملكتهم اسم «كوراش» (وهو كورش المذكور) وأنه سلّم ابنه الأكبر إلى الدولة الآشورية المنتصرة رمز ولائه لها. ولكن لم يتمتع هذان الملكان الأخوان باستقلالهما في مملكتهما زمناً طويلاً إذ تبوأ عرش المملكة الماذية «كياخسار» الذي مرّ بنا في كلامنا عن الدولة الماذية والذي رأيناه يحطّم الدولة الآشورية، ففرض السيادة على مملكة الفرس. وصار ملوكها تابعين للملك الماذي. وقد خلف في فارس الملك الذي ذكرناه باسم «أريارامنيس» ابنه المسمى «أرساميس» (Arsames) الذي وجد له أيضاً لوح ذهبي مكتوب في همدان (اكبتانا القديمة). ولم يحكم هذا زمناً طويلاً حيث اضطره على ما يرجّح قمبيز الأول ابن كورش الأول إلى التخلي عن الملك، ولعل ذلك تمّ بموافقة الماذيين. وقد تزوج قمبيز هذا من ابنة الملك الماذي «استياجز» الذي خلف «كياخسار» وكان قمبيز

---

(1) اكتشفت بطريق الصدفة في همدان لوحة من الذهب منقوشة بالخط المسماري الإخميني وباللغة الفارسية القديمة بألقاب هذا الملك، ولعل هذه الوثيقة (إن صحّت أصالتها) أقدم مآثر السلالة الإخمينية المدونة. حيث بدأ قبيل زمن هذا الملك تدوين اللغة الوطنية الفارسية بكتابة مسمارية خاصة بالفرس الإخمينيين.

تابعاً لاستياجز. والذي لا شك فيه أن هذا الزواج عظّم من مكانة السلالة الإخمينية. وجاء من هذا الزواج ابن اشتهر في تأريخ الفرس، فقد كان هذا الولد «كورش» الأكبر الذي أسّس الأمبراطورية الإخمينية.

كورش الأكبر (558 ـ 530 ق.م)

استغل كورش حفيد استياجز من ابنته مركزه فأخذ يقوّي نفسه، وأسس عاصمة جديدة هي «بزرگاده» التي سنذكرها في موضع آخر، وأخذ يدبر أمر انفصاله واستقلاله عن الماذيين وكان يحكم في بلاد بابل الملك «نبونهيد» الذي أعدّ الخطط للاستيلاء على بعض الأقاليم التابعة لمملكة ماذي، ولا سيما حران، فدارت مفاوضات سرية بين نبونهيد وبين كورش ليكونا حليفين، وكان الحلف لا شك موجهاً ضد «استياجز» الذي شمّ رائحة المؤامرة من تابعه وقريبه فاستدعاه إلى العاصمة «اكبتانا»، فرفض كورش الامتثال للأمر، فلم ير الملك الماذي بدّاً من شن الحرب على كورش، ويروي لنا هيرودوتس رواية ممتعة عن هذه الحرب فيبدو أن استياجز عيّن كبير قواده «هرباخوس» لحرب كورش، ولكن هذا انحاز إلى جانب كورش بناء على خطة واتفاق مدبرين بسبب الظلم الفادح الذي أوقعه استياجز بقائده سابقاً ثم قاد استياجز جيشاً آخر بنفسه لما تقدم كورش من العاصمة اكبتانا لأخذها، فدارت معركة مريرة دحر فيها جيش الملك الماذي ووقع أسيراً بيد كورش، ولكن هذا أحسن معاملته، بسبب صلة القربى معه. وهكذا صفا الجو لكورش، فاتخذ «اكبتانا» عاصمة المملكة المتحدة، وفتح عهداً جديداً في تأريخ إيران حيث اتحد الفرس والماذيون، ولم يمض طويل عهد على كورش حتى أسس أمبراطورية عظمى على ما سنوجزه بعد قليل.

وقبل أن نفعل ذلك نروي الرواية الطريفة التي ساقها هيرودوتس عن علاقة كورش باستياجز ونهاية حكم هذا الملك بسبب طغيانه وظلمه، ونحن

نرويها ملخصة على علاتها لطرافتها، ولأنها نموذج ممثل لطريقة هيرودوتس في عرض جانب من تأريخه[1].

قرّر الملك استياجز ألا يزوج ابنته (مندانة) من أحد الأمراء الماذيين لحلم رآه (وفحواه أنه رأى مجرى ماء يخرج من ابنته ويغمر عاصمته وجميع آسيا فعبّره له الكهنة المجوس بأن ولداً من ابنته سيأخذ منه الملك)، فزوجها إلى رجل من الأسر الشريفة في فارس اسمه قمبيز، إذ لم يكن في ذلك خطر لأن الفرس كانوا دون الماذيين مرتبة. ولكن استياجز رأى حلماً آخر كأن كرمة نمت من رحم ابنته وظللت جميع آسيا، فأرسل خلف ابنته وأحضرها إلى عاصمته وكانت لا تزال حاملاً، ووضع عليها حراسة شديدة، عيّن عليها «هرباخوس» أحد نبلاء مملكته، آمراً إياه أن يقضي على طفل ابنته. ولما جاء الطفل رقّ له «هرباخوس» وتهيّب من قتل طفل بريء، وخاف أيضاً من انتقام ابنة الملك لو حكمت من بعد أبيها الذي لم يكن له ولد. فأودع الطفل إلى أحد رعاته ليتولى قتله فلا يقع عليه وزر ولا تأنيب. ولما أخذ الراعي الطفل ـ وقد عرف حقيقته ـ إلى زوجته رقّت له وتوسلت زوجها أن يبقي عليه وأن يأخذ بدلاً منه ولدها الرضيع الذي ولد ميتاً فيضعه في مكان جبلي موحش ويدّعي أنه حفيد الملك. ففعل هذا بموجب ذلك وعاد بعد بضعة أيام إلى «هرباخوس» وأخبره بتنفيذ أوامره، فأرسل هذا جماعة جلبت جثة الطفل ودفن دفناً رسمياً باعتباره ابن بنت الملك. وهكذا سلم كورش (وكان هذا هو اسمه الذي سمّاه به الراعي) وعاش في بيت الراعي، ولما بلغ عشر سنين اكتشف جده حقيقته بصدفة عجيبة طريفة، ذلك أن أتراب كورش من الصبيان انتخبوه في اللعب ملكاً عليهم فأخذ يحكمهم ويوزع الأوامر عليهم فأطاعوه إلّا صبياً هو ابن أحد الأشراف المسمى «ارتمباريس» فعاقبه كورش بجلده، فشكى ذلك لأبيه الذي اغتاظ جداً وبلغ الملك بذلك فلما أحضر الصبي كورش بحضرة الملك وسأل عن فعلته أجاب جواباً ينمّ عن رجاحة عقله وكرم محتده (كما

(1) Herodotus, I 107 ff.

يقول هيرودوتس) ولاحظ استياجز على ملامح الصبي شبهاً به وبأمه وكان سنه ينطبق مع سن حفيده الذي حكم عليه بالموت، وبعد استجواب «هرباخوس» اعترف بأنه لم يقتل الطفل بيده وإنما سلمه إلى أحد رعاته الذي اعترف بدوره بواقع الحال، وعندها لم يبد الملك غضبه وإنما أظهر السرور لنجاة الطفل وأمر هرباخوس بأن يحضر ابنه ليشارك كورش الصبي في لعبه، وأولم الملك وليمة دعا إليها وجهاء مملكته احتفالاً بهذه المناسبة، فلما جلسوا إلى الطعام وضِع إلى جانب هرباخوس سفط مغطى، وبعد أن أكل من اللحم الذي أمامه وشبع أمره الملك أن يكشف عن السفط فإذا به يشاهد منظراً تقشعر له الأبدان، إذ وجد فيه رأس ابنه ويديه ورجليه مطبوخة بهيئة طعام فأدرك «هرباخوس» التعس أنه أكل من لحم ابنه، فلم يجزع وتجلّد حتى أنه لما سأله الملك هل عرف أي نوع من اللحوم قد أكل أجابه أنه يعرف ذلك حقاً. وبعدها استفسر الملك من الكهنة عمّا إذا كان لا يزال حفيده الطفل خطراً عليه فأجابوه بزوال الخطر، فسر الملك وأرسل الصبي إلى أمه وأبيه في فارس فسرّا به بعد أن كانا يحسبانه من الأموات. فنما كورش وبلغ مبلغ الرجال وصار أحزم وأشجع رجال قومه، أما هرباخوس فقد أضمر حقداً قاتلاً للملك فعزم على الانتقام واستغل تذمر الماذيين من ظلم «استياجز» وطموح كورش في أخذ الاستقلال لعشيرته عن سيادة الماذيين، وأخذ يحيك الدسائس والمؤامرات واتصل بكورش سراً مخبراً إياه بأن نبلاء الماذيين معه. ولما أرسل استياجز الجيش لتأديب كورش وكان قائد الجيش «هرباخوس» نفسه انحاز بجيشه إلى جانب كورش ثم حلّ به المصير الذي ذكرناه سابقاً، وبذلك أصبح كورش في عام 550 ملكاً على مملكة ماذي وفارس المتحدة.

لقد كوّن كورش من بعد ضمّه بلاد ماذي في زمن جيل واحد أمبراطورية معظمة شملت معظم العالم القديم المعروف، ممتدة من الهند إلى البلاد الإيجية وإلى البحر العربي، وبفتح قمبيز لمصر وبفتوح دارا اتسعت هذه الأمبراطورية فكانت أعظم أمبراطورية عرفها العالم القديم، وبعد توطيد كورش لمملكته في فارس وسّع حدودها إلى آسيا الصغرى فقضى على مملكة ليديا،

واستولى على عاصمتها «سارديس» عام (547 ـ 546 ق.م) في عهد ملكها قارون (كروسوس) على ما رأينا في كلامنا على المملكة الليدية وباستيلائه على مملكة ماذي ورث حقها في الأجزاء التابعة لها في بلاد ما بين النهرين، كما أن توسع آخر ملوك البابليين «نبونهيد» في سوريا واستيلائه على حران جعل نقض الحلف بين كورش وبين الملك البابلي أمراً لا بدّ منه، ولذلك صمّم كورش على تصفية الحساب مع بابل، وبعد غزوات قام بها في الأنحاء الشرقية من إيران ضد القبائل الإيرانية وصل بها إلى بلاد الصغد وسيحون وجيحون عاد فوجّه حملته إلى بلاد بابل، وفتح بابل نفسها (في عام 538) على ما بيّنا في كلامنا عن العراق القديم في الجزء الأول، وبذلك أنهى كورش آخر الممالك السامية وأنهى حكم الساميين في الشرق القديم الذي سادوا فيه عدة آلاف من السنين. واشتهر كورش بتساهله وسياسته الحكيمة ومقدرته الفذة في الإدارة والتنظيم فكان في الواقع من أعاظم الملوك في التأريخ، وقد اشتهر بكرمه وتساهله إزاء حتى أعدائه الذين حاربوه، ونستشهد من ذلك بحادثة قارون الطريفة التي رويناها عن هيرودوتس في معاملته لقارون ومعاملته للبلدان المفتوحة، والمثال على ذلك بلاد بابل، فكان معتدلاً في الفتح متحاشياً لتخريب المدن وذبح السكان. وقد مات في إحدى غزواته البعيدة ضد قبائل «الساجا» البربرية الشديدة عبر سيحون وجيحون.

خلف كورش في الحكم ابنه الأكبر «قمبيز» (530 ـ 522 ق.م)، وكان هذا قاسياً غريب الأطوار، وقد أشركه أبوه في الحكم في خلال الثماني سنوات الأخيرة من حكمه فكان يلقب بملك بابل، وكان لكورش ابن ثان هو «بارديا» (Bardia)[1] أودع إليه أبوه إدارة الأقاليم الشرقية من الأمبراطورية. ولما تبوأ قمبيز العرش بدأت الاضطرابات الناشئة عن المؤامرات التي يرجّح اشتراك «بارديا» فيها فاتهمه أخوه، ودبر أمر اغتياله، مما جعل الإغريق يلقّبونه بالطاغية. ومع أن قمبيز اشتهر بغزو مصر إلا أن الواقع أن أباه هو الذي وضع

(1) واسمه في المصادر اليونانية «سميرديس» (Smerdis).

خطة الفتح ووكل أمر تهيئة الحملة إلى ابنه في حياته، فبعد أن وطّد الأمور داخل مملكته قاد الحملة إلى وادي النيل. فالتجأ آخر فراعنة مصر المسمى «أماسيس» إلى عقد حلف مع أحد الحكام الطغاة في الجزر اليونانية وهو «بوليفراط» القوي صاحب جزيرة «ساموس»، ولكن هذا تخلى عنه لما كان الجيش الفارسي في غزة، والتحق أعظم قائد يوناني كان في خدمة الفرعون بجيش الفرس مفشياً لهم أسرار الدفاع المصرية. لقد عبر قمبيز صحراء سيناء بمساعدة البدو ووصل إلى مدينة رفح (Pelusium) فلاقى هناك «بسماتيك» الثالث الذي خلف أباه «أماسيس»، حيث مات لحسن حظه قبل وصول الجيش الفارسي. وكان مع الجيش المصري جيش من الإغريق المرتزقة، وبعد معركة شديدة تقهقر الجيش المصري إلى «منفس»، فسقطت المدينة بيد الفرس، ووقع الفرعون أسيراً فأرسل إلى «سوسة». وسلك قمبيز في مبدأ الأمر الاعتدال فاحترم الآلهة المصرية، وعين موظفاً مصرياً كبيراً على إدارة القطر، وأمر بإجراء بعض الإصلاحات. وأعد قمبيز من بعد ذلك الخطط لثلاث حملات حربية أخرى لمد السلطان الفارسي على قرطاجة التي كانت تسيطر على سواحل البحر المتوسط الغربية، وأخرى على واحة «أمون» الموغلة في بادية طرابلس للسيطرة على الطريق المؤدية إلى ليبيا، والثالثة ضد الحبشة. أما الحملة المعدة على قرطاجة فلم تنفذ بسبب رفض الفينيقيين بالسماح لأسطولهم في غزو أقربائهم القرطاجيين. وتروي لنا المصادر اليونانية أن جيشاً قوامه (50,000) أخفق في إحراز نتيجة مهمة في واحة أمون بسبب الزوابع الرملية المخيفة، ومع ذلك فقد خضع إغريق ليبيا وقورينا وبرقة إلى سلطان الفرس. أما حملة الحبشة وقد قادها الملك بنفسه فلا تعلم نتيجتها بوجه التأكيد، ولكن المصادر الإغريقية، ولعلها متأثرة بالروايات المصرية[1]، تقول إنها أخفقت، وإن الجيش قاسى من نقص المؤن وفقد الكثير من قواه في أثناء رجوعه. ولعل الأنباء السيئة عن الثورة التي قامت في إيران في أثناء غياب قمبيز قد وافته وهو

---

(1) لقد اعتمدنا في تلخيص هذه الحوادث على المرجع السهل المتناول Ghirshman, Iran, 136 ff.

في أثناء تقهقره إلى مصر فاضطر إلى الإسراع وأخذ طريق مختصر عبر الصحراء مما سبّب الكارثة في جيشه ومهما كان الحال فإن قمبيز أول فاتح توغل في جميع مصر، وإنه عين لحكمها ثلاث حاميات. وهناك روايات متضاربة عن بقاء قمبيز القصير في «منفس» بعد رجوعه من الحملة الحبشية. فيؤخذ من المصادر الإغريقية أن قمبيز تخلى عن سياسة التساهل الديني التي تحلّى بها أبوه، فحقّر ديانة المصريين وخرب معابدهم وقتل العجل المقدس أبيس في منفس، وهذه أعمال طيش وتهور بالنسبة إلى سياسي إزاء المصريين المشهورين بتمسكهم بآلهتهم ولذلك فسرت المصادر المصرية سلوك قمبيز بنوع من الجنة واضطراب العقل. وفيما هو في طريق عودته إلى بلاده أكّدت له الأنباء وهو في فلسطين أنباء الثورة التي قام بها الدعي «گوماتا» (Gaumata) المجوسي الذي كان يشبه أخاه «بارديا» أو «سميرديس» الذي قتله، فادّعى هذا بالعرش وأعلن نفسه ملكاً (عام 522 ق.م). فقبلت الولايات جميعاً تقريباً هذا الملك الدعي، الذي دارى الجماهير بأن أعفاهم من الضرائب ثلاث سنوات ولا يعلم مصير قمبيز في أثناء عودته، هل انتحر عمداً أو أنه جرح نفسه في أثناء نوبة الصرع التي انتابته، ولا يعلم أين مات في بابل أو في دمشق أو في اكبتانا. وعلى كل فقد رجع الجيش وظل موالياً للسلالة الإخمينية حيث انحاز إلى النبلاء السبعة الذين تآمروا على الدعي بزعامة «دارا» بن «هستابس» (Hystaspes)، وإلى ولاية بلاد الفرثيين ولعل هؤلاء النبلاء اتفقوا منذ البداية على تنصيب دارا ملكاً إذا نجحوا ولكن المآثر(كما جاءت في هيرودوتس) تقول إن هؤلاء الثائرين اتفقوا على تنصيب أحدهم ملكاً عليهم بطريق اقتراع طريف هو تتويج من يصيح فرسه أول الكل من بعيد غياب الشمس، فكان أول الأفراس فرس دارا.

دارا الأول (522 ـ 486 ق.م):

لقد كان دارا سريعاً قديراً في التغلب على الدعي، فقد استطاع أن يقضي عليه ولم يمض على موت قمبيز أكثر من شهرين، وقد أسر «كوماتا»

وقتل. ومع ذلك فلم يستتب الأمر لدارا إلا من بعد عامين قضاهما في إخماد الثورات التي نشبت في أنحاء الأمبراطورية للانسلاخ من السيطرة الفارسية، وكان على دارا في الواقع أن يعيد فتح ولايات الأمبراطورية من جديد بالإضافة إلى تغلبه على الثورات الداخلية. وبعد عناء أعيدت الولايات ومنها مصر وبلاد سوريا وليديا وبلاد السوس وماذي وأرمينيا، وبلاد آشور وبلاد بابل. وكانت ثورة بابل شديدة وكلف إخضاع الولاية ثمناً غالياً فقد ظهر شخص اسمه «ندنتو ـ بيل» ادعى أنه متحدّر من نبونهيد وأعلن نفسه ملكاً على بلاد بابل باسم نبوخذنصر الثالث[1]، ولاقى الجيش مصاعب في الاقتراب من العاصمة، حيث وضع هذا الملك جيشاً قوياً وأسطولاً على ضفة دجلة الغربي، وبعد هجوم مباغت عبر دارا النهر ثم وصل إلى بابل وحاصرها، وفيما كان في الحصار بلغته الأنباء بثورة ثانية في بلاد السوس، فاضطر إلى إرسال جزء من جيشه المحاصر لبابل لإخماد هذه الثورة. وقد قاومت المدينة، ويبالغ لنا هيرودوتس بمدة حصارها حيث يقول إنها قاومت عامين، ولكن ذلك مبالغة، وتشير ألواح الطين المؤرخة بحكم الثائر البابلي إلى أن المدينة استسلمت في الشهر الحادي عشر من حكمه (كانون الثاني ـ شباط 521 ق.م) حيث اعترف بدارا ملكاً على بابل، وبقي دارا بضعة أشهر في بابل قتل فيها «ندنتو ـ بيل» ويروى أنه صلب زهاء ثلاثة آلاف رجل من وجهائها.

لقد سجل لنا دارا انتصاراته وتغلبه على هذه الثورات العنيفة في الداخل والخارج في المنحوتات الجبلية المشهورة المطلة على الطريق بين كرمنشاه وهمدان (بهستون)، حيث نشاهد هذا الملك وفوقه يحميه الإله «اهورا مزدا» الذي يخرج رأسه وكتفاه من شكل قرص الشمس المجنح (وهو شعار شبيه بشعار الإله آشور) وقد وضع قدمه على جسم الثائر الدعي (كوماتا) وخلفه

---

(1) لا تعلم حقيقة هذا الادعاء، ويخبرنا دارا في الأخبار التي دوّنها في نقش بهستون الشهير أن هذا كان دعياً خدع البابليين، ومهما كان الأمر فقد التف حوله البابليون وقد جاءتنا منه رقم طين مؤرخة بحكمه (من تشرين الأول إلى كانون الثاني وشباط عام 522 ق.م).

ثمانية ملوك أدعياء مربوطون بالحبال. ودوّن حول هذه المشاهد بالفارسية القديمة والبابلية والعيلامية أخبار دارا في إخماد الثورات بعون الإلٰه «اهورا مزدا». وقد علّمت هذه الثورات والاضطرابات العنيفة الملك الشاب درساً في وجوب إعادة تنظيم الأمبراطورية وتحوير سياسة التساهل التي سار عليها كورش، ووضع إدارة الأمبراطورية على أسس أوطد وأثبت ومع ذلك فلم يركن دارا إلى العنف، وإنما اتخذ سبل السياسية الحكيمة الحازمة في ضبط الأقاليم التابعة، التي سمح بها بالمحافظة على كيانها الثقافي من اللغة والنظم الخاصة بها. وقسمت الأمبراطورية الواسعة إلى عشرين ولاية كل ولاية يحكمها وال فارسي (Satrap) (هو «المحافظ على المملكة»)، وكان هؤلاء الولاة يختارون من النبلاء الفرس وحتى من أسرة العائلة المالكة، وكان هؤلاء مسؤولين مباشرة إلى الملك. وسنعود إلى ذكر أشياء أخرى عن نظام الإدارة بعد انتهائنا من إيجاز الحوادث السياسية، وننهي كلامنا على دارا في هذا الموضع بذكر بعض الحملات التي وجهها إلى الجهات الشرقية ولا سيما ضد الاسكيثيين في جنوب روسيا حيث عبر البسفور والدانوب إلى «الفولغا»، ووجه حملة عسكرية أيضاً عبر أفغانستان إلى وادي نهر السند. وننوّه أيضاً باصطدام الفرس في عهد دارا باليونان على أثر ثورة الأيونيين، ثم إرسال الحملة المشهورة ضد أثينا التي أحرزت انتصارها الباهر العجيب في موقعة «مراثون» الشهيرة (490) مما سنكرر الكلام عليها في بحثنا الخاص باليونان فلا حاجة لتفصيل القول فيها في هذا الموضع. وانشغل دارا بثورة قامت في مصر فلم يستطع استئناف الحرب مع اليونان. ومات «دارا» (عام 486 ق.م) ولم يشاهد تحقيق سحق اليونان ولا إخماد الثورة في مصر.

خلفاء دارا

يُعدّ حكم دارا أوج قوة الفرس الإخمينيين وأعلى ما بلغته الأمبراطورية الفارسية في الإدارة والتنظيم والتماسك، كما أنه يمثّل لنا أوج الثقافة الفارسية الإخمينية.

وخلف دارا في الحكم «أحشويرش» الأول (Xerxes) (486 ـ 465 ق.م) الذي عيّنه دارا نفسه خلفاً له، واعتلى العرش الفارسي بعد أن كان نائباً للملك على بابل طوال اثني عشر عاماً. وكان أول عمل أنجزه لما تبوأ العرش إخماد الثورة التي نشبت في مصر في عهد أبيه، وقد قضى عليها بقسوة وعنف، وسلك سبيل العنف نفسه في بابل التي حاولت الاستقلال أيضاً وثارت على السلطة الفارسية. وقد ظهر في هذه الثورة جملة أشخاص في بابل جاءتنا من بعضهم وثائق مؤرخة بحكمهم مثل «بيل ـ شماني» و«شمش ـ أربا». وقد بلغ من غضب احشويرش أنه بعد أن قضى على مقاومة الثائرين خرب مدينة بابل، ولا سيما حصونها ومعابدها، ونهب تمثالاً من الذهب للإلٰه مردوخ وصهره (على ما يروي لنا هيرودوتس) حيث خرب معبد ايساكلا الشهير والزقورة. وبلغ التدمير مبلغاً حيث يروى أن الإسكندر لما فتح بابل حاول تعمير المعابد ولكنه وجد أن ذلك يكلفه عملاً كبيراً. وتخلى احشويرش من بعد قضائه على ثورة بابل عن اللقب المأثور الذي أوجده كورش وهو «ملك بابل»، واقتصر على لقب «ملك الفرس والماذيين». فيبدو أن ثقة ملوك السلالة الإخمينية منذ احشويرش بل من عهد دارا قد انحصرت في الفرس واعتبرت الأقاليم الأخرى مجرد رعايا تابعين. وكان احشويرش في الواقع أميل إلى حياة ترف البلاط وتشييد القصور منه إلى الحرب، ولكنّه لم ير بدّاً من استئناف الحرب بضغط الجماعات التي كانت تريد الحرب ولا سيما حرب اليونان. فسار احشويرش على رأس جيش عرمرم مصمماً على جعل الهجوم بالبر لا بالبحر فبنى له الفينيقيون جسراً على مضيق البسفور عبرت عليه جيوشه (وقد استغرق ذلك طوال سبعة أيام متوالية)، فسار من تساليا ومقدونيا دون أن يلاقي مقاومة تذكر، كما خضعت بلاد الإغريق الشمالية، فوصل الجيش إلى مجاز ثرموبيلي الشهير حيث وجد مقاومة بطولية على يد جيش صغير من اليونان بقيادة ملك إسبارطة، واستولى الجيش على أثينا حيث هجر سكان أتيكة مواطنهم، ولكن الأمر لم ينته فقد أحرز الإغريق النصر بأسطولهم الذي حطم الأسطول الفارسي في سلاميس (840 ق.م)، ومع أن الجيش الفارسي

البري لم يتأثر بهذه الموقعة إلا أن تحطيم الأسطول الفارسي قد أثر في أعصاب احشويرش لعله بسبب خوفه من التفاف الأسطول اليوناني عليه فتقهقر مع الجيش البري تاركاً بلاد الإغريق.

لقد كان أثر هذا الاندحار على يد دويلة تكاد لا تُقارن بالنسبة إلى ضخامة الأمبراطورية الفارسية أثراً بالغاً في الإخمينيين عدا التكاليف الجسيمة في المال والمعدات، كما أن احشويرش يئس من استئناف الحرب، وشغل نفسه في التعمير في العواصم الفارسية مثل برسيبوليس (اصطخر) والسوس حيث أكمل الأبنية التي لم يكملها أبوه. ومما يقال عن هذا الملك أنه يكاد يكون آخر الملوك الأقوياء في السلالة الإخمينية على الرغم من أنه صرف حيويته في حياة الدعة والملذات والمسرات. وبدأت السلالة الحاكمة تنهار في معنوياتها، فالواقع أن الأمبراطورية التي وضع أسسها كورش وأعادها دارا لم تدم أكثر من قرنين، وبدأت أمارات الانهيار تظهر منذ أواخر حكم احشويرش حيث ساد الانحطاط والعنف والاغتيالات ومؤامرات نساء القصر، وعمّت حياة الخنوثة والملذات بين الطبقات الأرستقراطية التي كانت في الواقع تقوم عليها إدارة الأمبراطورية وانتهت حياة احشويرش (465 ق.م) بأن اغتاله أحد حجّاب القصر ولا شك في أن يكون وراء ذلك مؤامرات نساء القصر. واستتبع اغتياله موجة من الاغتيال تشبه ما ساد بين أباطرة الرومان المتأخرين.

وخلف احشويرش ابنه «ارتحششتا» الأول (Artaxerxes) (465 ـ 424 ق.م) وكان ضعيف الشخصية، وقد بدأ حكمه بثورة قام بها أخوه والي بلاد البخت، فأخمدت هذه الثورة وأعقب ذلك قتله لجميع إخوته. وثارت مصر بمساعدة أثينا التي كانت تحتاج إلى غلات مصر لتعذر الحصول عليها عبر البسفور بسبب سيطرة الفرس. وفشلت الحملة الفارسية الأولى في إخماد الثورة، ولكن مدداً عظيماً مكّن الجيش الفارسي من إخمادها ومن التغلب على الأسطول الأثيني في الدلتا. وخسرت فارس في عهده نفوذها في آسيا الصغرى في فشلها في حملة حربية وجهتها على اليونان بعد أن أغرت إسبارطة بالذهب

لتكون ضد أثينا، ولكن «سيمون» الزعيم الأثيني أفلح في إبرام اتفاق مع إسبارطة، فواجه اليونان متحدين جيش الأمبراطورية الفارسية وتمّت التسوية بتنازل الملك الفارسي عن المدن الأيونية في آسيا الصغرى وجعل نهر الهليس (قزل ايرمق) الحد بين نفوذ الأمبراطورية الفارسية وبين اليونان. وكان هذا انخذالاً للفرس، ولكن الفرس التجؤوا مرة أخرى إلى إرشاء الدول اليونانية لإضرام الحرب بين أثينا وإسبارطة.

سار أرتحششتا في بابل على سياسة أبيه، مع نوع من التساهل في حرية العبادة إزاء البابليين، ولكنه شجّع استيطان الفرس في بلاد بابل ومن بينهم طبقة كهنة المجوس وصارت إدارة الولاية مقتصرة على الفرس كما أنه أقطع الأراضي للفرس وفرضت الضرائب الباهظة على السكان مما جعلهم متحفزين لأية إشارة إلى الثورة. ومما يجدر التنويه به عن عهد أرتحششتا الأول ما سبق أن ذكرناه عن رجوع جماعة أخرى من اليهود إلى فلسطين بعد الرجوع الأول في عهد كورش. فقد سمح الفارسي لعزرا أن يعود إلى أورشليم مع (1500) يهودي، ولكن نشب نزاع بين هؤلاء العائدين وبين اليهود الذين في فلسطين مما جعل الملك الفارسي يتدخل في الأمر فيرسل ساقيه «نحميا» اليهودي لتهدئة الوضع هناك، وسمح لليهود بإعادة كيانهم وإعادة بناء المدينة في 445 ق.م. كما اعترف بالكاهن الأعلى حاكماً على أورشليم ويهوذا وتابعاً للملك الفارسي.

لقد ساءت الأوضاع في عهد خليفة أرتحششتا الأول المسمى احشويرش الثاني (424 ق.م) الذي اغتيل بعد زمن قليل من اعتلائه العرش من جانب أخيه من أبيه، وقتل هذا بدوره على يد دارا الثاني (424 ـ 404 ق.م) الذي عمّ في عهده الفساد والمؤامرات، وبذرت الأموال الفارسية على التدخل في الحروب الأثنية الإسبارطية، وآل الأمر بعد ثورة الوالي الفارسي في «سارديس» إلى التحالف بين إسبارطة وفارس، حيث أعلن دارا الثاني الحرب على أثينا. وعمّت الثورات في جهات أخرى، في بلاد ماذي وفي مصر وأثمر التدخل الفارسي في الحرب البيلوبونيزية استسلام أثينا لإسبارطة.

زينفون وحملة العشرة آلاف إغريقي:

لقد خلّف دارا الثاني ابنه أرتحششتا الثاني (404 ـ 359 ق.م) وقد بدأ حكمه بمحاولة فاشلة لأخيه المسمى «كورش» الأصغر لاغتياله بطعنة خنجر في أثناء الاحتفال بالتتويج في المعبد الذي في «بزر گاده»، ولكن نجا كورش من العقاب بتوسلات أمه وتضرعها، وكانت هذه تساند ابنها كورش لأخذ العرش من الوريث الشرعي، فنجحت في إصدار العفو عنه وإعادته أيضاً إلى حاكمية ولاية آسيا الصغرى، وقيادة الجيوش الفارسية هناك، ولم يمض زمن طويل على بقاء كورش الأصغر في مقر ولايته حتى جدّد العصيان والثورة على أخيه لاغتصاب العرش فقاد جيشاً من آسيا الصغرى وألحق به جيشاً من الإغريق المرتزقة اشتهروا بحملة العشرة آلاف، المقترنة باسم زينفون الذي قاد الإغريق في تقهقرهم من العراق بعد مقتل كورش في الموقعة التي جرت قرب بابل، حيث نازل كورش أخاه بنفسه وجرحه ولكنه قضى عليه بضربة رمح قوية، فانهزمت جموعه. أما الإغريق فكانوا في جناح كورش الأيمن معتصمين بالفرات، ولكن قائدهم لم يترك موضعه فيساعد كورش في محنته. يؤلف سير هذه الحملة ورجوع الإغريق إلى بلاد اليونان أخباراً طريفة مهمة جاءتنا مدوّنة في كتاب زينفون[1] الذي رافق الحملة وكان جندياً بسيطاً ثم صار قائداً للإغريق في أثناء رجوعهم، ولأخبار هذه الحملة أهمية خاصة في الجغرافيا التأريخية للشرق وفي وصف جوانب مهمة لأحوال العراق والأقطار المجاورة، فنوجزها على الوجه الآتي:

بدأت حملة كورش من «سارديس» (عاصمة ليديا سابقاً) فاجتاز بجيشه ممر كيليكيا (ويسمى الآن كولاك بوغاز) المؤدي من هضبة الأناضول إلى سهل كيليكيا باتجاه البحر، ثم وصل إلى طرسوس المشهورة عند اليونان بالنسيج المصنوع من شعر المعز، وسلك كورش من بعد طرسوس الممر المعروف

(1) انظر: **Xenophon, Anabasis: The Expedition of Cyrus The Younger.**

بالمجاز السوري الذي يجتاز جبال أمانوس باتجاه أنطاكية وحلب، ثم مرّ من مدينة «أيسوس» الشهيرة التي جرت فيها الموقعة بين دارا والإسكندر من بعد مائة عام. ويذكر لنا زينفون مدينة باسم «مرياندوس» يرجّح أن تكون قريبة من الإسكندرونة. وتوجد فترة في قصة زينفون من بعد مرياندوس لم نسمع فيها شيئاً سوى مسيرة الجيش سيراً متصلاً زهاء أربعة أيام، ثم يذكر لنا من بعد اجتياز الجيش حلب نهرا يسميه «خالسيس» وهو نهر «الباليخ». ثم عبر الفرات من موضع مشهور باسم «ثبساكوس» وسار على الشاطىء الأيسر من الفرات حتى بلغ الخابور (الذي يدعوه زينفون باسم أراكوس). وبعد مدة من اجتياز هذا النهر يصف لنا زينفون «البادية العربية» وصفاً ممتعاً ذاكراً حيوانات الصيد فيها كالحمر الوحشية والأيل والحبارى والنعام، ثم يصف لنا ما حلّ بالجيش من قلة الطعام والمؤن وما قاسوه من صعوبة سير العربات في الوحل. ويصل الجيش أخيراً إلى موقع شمالي الرمادي بنحو خمسين ميلاً ذكره زينفون باسم «الأبواب»،ولا يعلم موضع هذا الممر، كما أن الجيش تاه من بعده مدة أسبوعين، ثم يدخل الجيش بلاد بابل ويلاقي كورش الأصغر جيوش أخيه الملك أرتحششتا الثاني في موضع يرجّح أن يكون قرب طريق الحلة ـ بغداد الآن ولا يبعد عن المسيب كثيراً، وهو الموضع الذي سمّاه زينفون «كوناكسه».

وبعد مقتل كورش سمح للإغريق بالتراجع وكانت عودتهم إلى بلادهم محفوفة بالأخطار وتعدّ ظاهرة عجيبة لا سيما وهم يبعدون بمسافة أكثر من ألف ميل عن أقرب موضع لموطنهم ويجهلون البلاد المعادية، وليس لهم أدلاء. وقد عدل قائد الإغريق عن سلوك نفس الطريق الذي جاء منه كورش فسار بالإغريق شرقاً إلى دجلة ماراً من عقرقوف (على ما يرجّح) ثم اجتازوا السور الماذي الذي بناه نبوخذنصر ووصلوا إلى دجلة قرب موضع سمّاه زينفون باسم «ستاسه»، وعبروا النهر من جسر، ثم ساروا شمالاً إلى موضع يتّصل فيه دجلة بأحد روافده الذي سماه زينفون «فسكوس» وهو نهر العظيم، كما تمهلوا قليلاً في مدينة «أوبس». وحدث للإغريق نكبة، تلك هي أن القائد

الفارسي «تسافيرنوس»، الذي كلف أمر مراقبة الإغريق حتى يتركوا حدود المملكة الفارسية قد اقترح على قائد الإغريق «كليرخوس» عقد مؤتمر حضره قواد الإغريق، ولكن القائد الفارسي قتلهم جميعاً. وعند ذلك انتخب الجند قائداً جديداً لهم هو «زينفون» الشهير الذي دوّن لنا أخبار الحملة، على ما بيّنا من قبل. وتابع الإغريق سيرهم من بعد تلك الحادثة. ويذكر لنا زينفون موضعين هما «كينه» و«لارسه» ولعلهما العاصمتان الآشوريتان آشور ونمرود، ثم خاضوا نهر الزاب الأعلى من بعد ذلك ويسمي لنا زينفون موضعاً هو «مسبلا» أي الموصل على ما يرجّح[1]، ومع أن الجيش كان يسير في الجانب الشرقي من النهر فإن زينفون لم يذكر «نينوى». التي لا شك أن يكون قد سار على أنقاضها بدون أن يميّزها، مع أنه لم يكن مضى على سقوطها أكثر من مائتي عام. ولما وصل الجيش منطقة زاخو يذكر لنا زينفون قوم «الكردوجي» (أي الأكراد) ويصفهم بأنهم قوم محاربون أشداء يعيشون في الجبال «ولا يطيعون الملك»، ثم ساروا إلى جزيرة ابن عمر ودخلوا في الأراضي التركية وواصلوا سيرهم حتى وصلوا في النهاية إلى البحر الأسود فصرخوا من شدة فرحهم «البحر! البحر!»، وعانق بعضهم بعضاً وعيونهم مغرورقة بالدموع.

وننهي كلامنا عن عهد «أرتحششتا» الثاني بذكر بعض الأمور الأخرى المهمة في سير تأريخ الأمبراطورية الفارسية، ومن ذلك استمرار تدخل الملك في إرشاء المدن الإغريقية ولا سيما إسبارطة وأثينا إحداهما ضد الأخرى وبلغ إنهاك قوى هاتين المدينتين أنهما قبلتا بمعاهدة الصلح والسلم الذي اقترحه الملك مما عرف باسم «سلام الملك»، وأصبحت معظم المدن الإيونية تحت سيطرة الفرس. ولكن هذا النصر الدبلوماسي قابلته نكبات وقعت للملكة الفارسية بسبب ثورات الولاة الذين اتحد عدد منهم وألفوا اتحاداً صار يسكّ النقود المشتركة باسمه، وهو امتياز كان محصوراً بيد الملك، كما استقلت مصر مما حرم الخزانة الملكية من موارد مهمة، وكادت الأمبراطورية تنهار

---

(1) لعلها محرّفة عن الكلمة الآشورية «مشفالو» (بضم الميم وسكون الشين) التي تعني العمق.

لولا أن خلصها النزاع الداخلي في الولايات نفسها وخيانة الولاة بعضهم بعضاً واغتيالهم بعضهم بعضاً، فتمكن الجيش الفارسي بقيادة الملك نفسه من إعادة الأمور إلى نصابها مؤقتاً، وقد مات الملك (وقد حكم زهاء نصف قرن) ولا تزال الاضطرابات تسود معظم جهات الأمبراطورية وداخل المملكة أيضاً. وخلفه في الحكم أرتحششتا الثالث، وكان قاسياً شديداً، ولكنه على شيء من الرجاحة والحنكة السياسية. وكان أول شيء فعله لما تبوأ العرش هو قتل جميع إخوته وأخواته، وقد بلغ عددهم العشرات. ثم وجّه همه لإخماد بعض الثورات واستعادة مصر، ولكنه فشل في ذلك، وقد تحالفت صيدا مع مصر وثارت على سلطان الفرس، فدمرها هذا الملك تدميراً وحشياً حيث أحرقها مع ألوف من سكانها في أنقاض البيوت، وأرسل بعدئذ حملة جديدة على مصر نجحت في إرجاعها إلى حظيرة الأمبراطورية الفارسية. وهكذا فيبدو أن الأمبراطورية استعيدت إلى أيام ازدهارها في عهد دارا الأول، ولكن المؤامرات لم تنته من البلاط الفارسي فقد مات هذا الملك القوي مسموماً وبموته طعنت المملكة الفارسية طعنة نجلاء لم تبرأ منها، في الوقت الذي ظهرت إلى الوجود دولة قوية في مقدونيا هي مملكة فيلب أبي الإسكندر الكبير، حيث كان يعدّ العدة لغزو آسيا، مما سنقصّ خبر ذلك في كلامنا على الإسكندر والسلوقيين. أما عن أحوال العرش الفارسي فقد سم ابن أرتحششتا الثالث ونصّب مكانه قريب منه هو دارا الثالث الملقب بلقب «كودومانوس» (Codomannus) وكان من الممكن لهذا الملك الشجاع أن يخلص المملكة الفارسية لو لم تواجهه مملكة مقدونية وقد اتحد معها الإغريق، بقيادة قائد محنك يُعدّ فلتة في العبقرية الحربية هو الإسكندر الذي قضى على السلالة الإخمينية وعلى الأمبراطورية معها وهو موضوع أجلناه إلى بحثنا عن الإسكندر.

شيء عن الحضارة والنظم الخاصة بالفرس الإخمينيين:

يتضح مما مرّ بنا من عرض أحوال الدولة الفارسية الإخمينية أن الفرس أسسوا أعظم أمبراطورية عرفها العالم القديم، وأن حكم السلالة الإخمينية دام

زهاء قرنين من الزمان (550 ـ 331 ق.م)، حكم فيها ابتداءً من كورش الكبير أحد عشر ملكاً تفرّد منهم جملة ملوك امتازوا بحسن الإدارة والتنظيم والحنكة السياسية وعلى رأسهم كورش ودارا الأول حيث كان الأول مؤسس الأمبراطورية واضطلع الثاني بتنظيمها. ولقد دخلت في هذه الأمبراطورية التي شملت الشرق القديم وآسيا الصغرى وجزءاً من العالم اليوناني أقوام وشعوب متحضرة، وعلى مستوى من الثقافة أعلى مما كان عليه الإيرانيون أنفسهم، مثل بلاد بابل وآشور ومصر وآسيا الصغرى والمدن الإغريقية وبلاد الشام، وهي مراكز حضارية ذات مآثر عريقة في العمران والمدنية فاستفاد الفرس منها في بناء أمبراطوريتهم وتنشئة ثقافتهم. كما شملت هذه الأمبراطورية أقواماً بعضها متأخر في مضمار الحضارة وبعضها لا يزال في طور البربرية. فتمازجت الثقافات القديمة، وانتشرت الحضارة مدى أبعد، ثم إن الأمبراطورية الإخمينية قد مهّدت السبيل لتحقيق النتائج الثقافية لفتوح الإسكندر، كما أن الإسكندر نفسه قد اتخذ الأمبراطورية الفارسية مثالاً احتذاه في تكوين أمبراطوريته وتنظيمها. واصطبغ السلوقيون بالصبغة الشرقية الفارسية، والواقع أن سلالة السلوقيين الحاكمة نصفها إيراني لأن سلوقس تزوج من «افامة» (Apama) الإيرانية. وقد يصحّ، كما جرى على ذلك بعض المؤرخين[1] أن نعدّ تأريخ الإسكندر امتداداً لتأريخ الأمبراطورية الفارسية، وقد سرنا في موجزنا على الأسلوب نفسه. والثقافة الهلنستية نفسها ليست سوى نتائج التقاء الحضارة اليونانية بحضارات الشرق القديم. وإذا قارنا الأمبراطورية الإخمينية بالأمبراطورية الرومانية وجدنا بينهما فروقاً جوهرية، فالأمبراطورية الرومانية، على ما سنرى في بحث الرومان، كانت نتيجة توسع تدريجي بطيء استغرق عدّة قرون، ولكن الإيرانيين أنشؤوا فجأة مملكة في فارس كانت ضئيلة الشأن ثم وسع هذه المملكة ملك واحد هو كورش وجعلها أمبراطورية واسعة، ومما لا شك فيه أن أبرز عامل في نشوء الأمبراطورية الفارسية

---

(1) Legacy of Persia, P.7.

نشوءاً سريعاً هو أن دول العالم القديم كانت في أدوار ضعفها وتدهورها، كالدولة البابلية والمصرية ومملكة ليديا، وقد سبق لأعظم أمبراطورية في الشرق وهي الأمبراطورية الآشورية أن تمزّقت قبل قيام كورش بنحو ستين عاماً فخلا الجو للفرس لغزو مراكز الحضارات القديمة. ومن الاختلافات المهمة أن الأمبراطورية الرومانية نظام في الحكم نشأ وتطور ولم يكن مجرد توسع مملكة صغيرة وضمّها شعوباً إلى سيادتها. ولعل دخول الأقاليم ذات التراث الحضاري قد جعل الأمبراطورية الفارسية تختلف عن الأمبراطورية الرومانية من حيث استطاعة هذه الأمبراطورية أن تجعل الشعوب التابعة تتمثل بالرومان وتتأثر بالثقافة الرومانية أثراً بعيداً، في حين أن الفرس تركوا الثقافات القديمة تحافظ على أنفسها، وصرفوا همهم إلى توطيد الإدارة وتماسك الأمبراطورية.

ومع ذلك فقد نظمت الأمبراطورية الفارسية تنظيماً ناجحاً بحيث إنها بقيت متماسكة طوال قرنين من الزمان تحت سلطان السلالة الإخمينية التي لم تكن قبل كورش سوى حكام محليين خاملين في إقليم ناءٍ في بلاد فارس. هذا وقد سبق أن نوّهنا باستفادة الإخمينيين من تراث نظام الإدارة عند الآشوريين، ولكن الإخمينيين حسّنوا في الطريقة الآشورية بل إنهم بدلوها. فقد كانت الأقاليم التابعة إلى الآشوريين ممالك كبرى لا يربطها بالآشوريين سوى دفع الجزية والاعتراف بالسيادة الآشورية، في حين أن كورش قسّم أمبراطوريته إلى عشرين ولاية يحكم كلاً منها والٍ تابع إلى الملك الفارسي ويعينه من النبلاء الفرس، ووطّد دارا تنظيم الأمبراطورية وأقامها على أسس أثبت. وقد حافظ على عدد الولايات البالغ عشرين ولاية تشمل الأقاليم والممالك الآتية:

(1) مصر.

(2) فلسطين.

(3) بلاد سوريا.

(4) فينيقيا.

(5) ليديا.

(6) فريجية.

(7) أيونية (المدن اليونانية في سواحل الأناضول الغربية).

(8) كبدوكية.

(9) كليكيا.

(10) أرمينيا.

(11) بلاد بابل وآشور.

(12) بلاد ماذي.

(13) فارس.

(14) إقليم القوقاز.

(15) إقليم أفغانستان وبلوجستان.

(16) الهند.

(17) بلاد الصغد.

(18) بلاد البخت.

(19) ولاية مساغيتا.

(20) ولاية تضم بعض القبائل التركمانية في أواسط آسيا.

وكان الملك يعيّن لكل ولاية حاكماً يعني بالفارسية القديمة «محافظ المملكة»[1] وكانت ولاية هذا المحافظ في الواقع مملكة كبرى، وكان لمعظم الولايات كيان سياسي عظيم، فكان الوالي ملكاً ذا نفوذ كبير، ولذلك حق

---

(1) وقد جاءنا هذا الاسم عن اليونان بصيغة (Satrap) والولاية (Satrapy) من الكلمة الفارسية القديمة «خشاثرابوان» (Khshathrapavan).

للملك الفارسي أن يلقّب نفسه بملك الملوك. ومن الناحية الثانية كان الوالي بسبب هذا النفوذ مصدر خطر جسيم على الملك الفارسي إذا حاول الاستقلال بولايته أو إذا جعلت وظيفته وراثية على ما رأينا في الأخطار التي تعرّض لها عرش الملك الفارسي بسبب ثورات الولايات. ولذلك وضع كورش نظاماً خاصاً حسّنه دارا هو تعيين قائد لجيوش الولاية يكون تابعاً للملك مباشرة ومستقلاً عن حاكم الولاية كما كان سكرتير الولاية والموظف المالي الأكبر مرتبطين بالملك رأساً. وإلى هؤلاء كان للملك موظفون خاصون يرسلهم لتفتيش شؤون الولاية كل عام تقريباً مثل «عين الملك» و«رسول الملك» و«أذن الملك»[1]. وقد سبق أن نوّهنا بأن هؤلاء الولاة كانوا من الأسر الفارسية النبيلة. والذي مكّن الملك من زيادة سيطرته على هؤلاء الولاة ما أنشأه دارا من نظام الطرق الملكية والبريد المنظم بين مراكز تلك الولايات وبين العاصمة. ولعل أهم واجبات محافظ الولاية، بالإضافة إلى الإدارة ومسك الولاية، جمع الضرائب نقداً أو عيناً. وكانت جميع الولايات خاضعة إلى مثل هذه الضرائب باستثناء ولاية فارس التي كانت معفاة منها لكونها مهد السلالة الحاكمة.

وكانت ولاية الهند على رأس الولايات في مقدار خراجها السنوي حيث كانت تدفع إلى خزانة «ملك الملوك» 4680 وزنة[2] ويأتي بعدها العراق (ولاية بابل وبلاد آشور) ومقدار جبايتها (1000) وزنة ثم مصر ومقدار جبايتها 700 وكيليكيا 360 وزنة وسوريا (وبضمن ذلك فلسطين) 350 وزنة وولايات آسيا الصغرى الأربع (1760) وزنة. وإلى هذه الجباية السنوية كان يترتب على كل ولاية أن تزود الملك بالمؤن والاحتياجات بحسب طاقة كل ولاية. فكان على ولاية مصر مثلاً أن تزود كل عام حبوباً تكفي لـ 120,000 شخص وكانت بلاد

(1) **Olmstead, The History of the Persian Empire, 59.**

(2) أي وزنة (Talent) من الفضة أو النقد، وقد سبق تعريف الوزنة وهي «بلتو» البابلية التي كانت تساوي 60 مناً والمنا 60 شيقلاً (والمنا نحو رطل إنجليزي أو نصف كيلو غرام).

ماذي ترسل كل عام 100,000 رأس من الغنم وبلاد الأرمن 30,000 طير. وبالإضافة إلى هذه المصادر من الثروة كان الملوك يحصلون على ثروات معدنية وثروات من مورد النقود المسكوكة، ولكي تكون لنا فكرة عن ثروة الخزانة الملكية نقول: إن بعض الباحثين قدّر ما وجده الإسكندر في خزائن دارا الثالث نحو (180,000) وزنة من النقود المسكوكة (وبتقدير الدولارات الأمريكية زهاء 2,700,000,000 دولار)[1] هذا مع العلم بأن دارا الثالث أخذ معه في هزيمته نحو (8000) وزنة وبعد مضي زهاء مائة عام من التبذير الهائل، وما صرف على الثورات والحروب، وقد رأينا فيما سبق كيف أن الملوك الفرس بعد فشلهم في إخضاع اليونان بالحرب أخضعوهم بطريق الرشوة بالذهب. ومما ساعد على تنظيم الأمبراطورية وتماسكها اتخاذ النقود المسكوكة في عهد دارا الأول[2]، ونظام الطرق والبريد، واتخاذ الآرامية والخط الآرامي إلى جانب الخط المسماري الفارسي واسطة للتعامل التجاري. ومع عدم انتظام الطرق البحرية والملاحة إلا أن الطرق البرية المهمة التي أنشأها الإخمينيون والاستفادة من الطرق القديمة قد ربطت أجزاء الأمبراطورية، ولا سيما ربط العراق بمصر وسوريا والأناضول وبلاد العرب وبلاد فارس، وكانت تسير في هذه الطرق المنتظمة وسائل المواصلات السريعة، وقد اشتهر الفرس عند اليونان بهذه السرعة في البريد، كما اصطلحوا عبارة «طريق الملك» على ما جاء في هيرودوتس. وكان بريد الملك يسير في تلك الطرق المتشعبة من العاصمة «سوسة» إلى أقصى أجزاء الأمبراطورية. وهو يحمل أوامر الملك إلى ولاته وقواده، ويزوّده بالتقارير السريعة. وينبغي

---

(1) Will Durant, The Story of Civilization, 363.

(2) أخذ الإغريق والفرس من ليديا النقود المسكوكة، وكذلك استعملت الأوزان الخاصة بالنقود التي هي من أصل بابلي مثل «المنا» والشيقل (ودعوه Siglos) و«رؤوس عشتار» (التي استعملت في عهد سنحاريب وتزن كل قطعة نصف شيقل) وسموها (Stater) وكانت هذه وحدة العملة في ليديا (وتساوي 217 حبة) وقسمت إلى أثلاث وأسداس وجزء من اثني عشر جزءاً الخ مما يدلّ أن أجزاء النقود قد اتّخذت على أساس نظام العدد البابلي.

أن ننوّه بأهمية الجيش في المحافظة على مسك أجزاء الأمبراطورية الواسعة، وكان الجيش الأساسي صغيراً قوامه النبلاء وتابعوهم من الفرس تحت قيادة القواد الأكفّاء، وقد سبق أن رأينا كيف أن الملك نفسه كثيراً ما كان يتولى القيادة العامة بنفسه. ويساعد الجيش الفارسي الأساسي جيوش الولايات التابعة.

كان اليونان يلقبون الملك الفارسي بلقب «الملك العظيم» (Basileus) ولعل ذلك ترجمة اللقب الفارسي «ملك الملوك». ومع أن الملك الفارسي كان في الواقع قمة الهرم المكوّن منه المجتمع الفارسي ويمثّل الحكم الأتوقراطي إلا أن سلطانه لم يكن مطلقاً كل الإطلاق، وإنما كان مقيداً نوعاً ما بالعرف والمآثر والتقاليد المرعية في بلاد فارس، فكانت معظم الأوامر والإرادات التي يصدرها إنما تصدر عن «الملك وهو في مجلس شوراه».

2 ـ عواصم الفرس الإخمينيين:

اتخذ مؤسسو الدولة الإخمينية جملة مدن شهيرة معظمها كان من المدن القديمة الشهيرة لتكون عواصم للدولة الجديدة، والأغلب أن أكثر من عاصمة واحدة كانت تتّخذ مركزاً للأمبراطورية في آن واحد. فقد انتخب كورش مدينة سوسة، العاصمة العيلامية الشهيرة، لتكون مركز إدارته حينما كان حاكم «انشان» في عهد تبعيته للماذيين ثم اتخذ «اكبتانا» العاصمة الماذية الشهيرة حينما قضى على الدولة الماذية، كما اتخذ بابل أيضاً بعد فتحها عام 538 ق.م. وقد اعتاد كورش أن يمكث في كل من هذه العواصم فترة من الزمن. ثم شيّد مدينة جديدة هي «بزركاده» أو «بسركاده»[1] (بالكاف الفارسية) لتكون رمز العهد الجديد الذي ساد فيه الفرس. وتقول المآثر إن كورش شيّدها في

---

(1) (Pasargadae) وتقع إلى شمال برسيبوليس (إصطخر) بحوالي (50) ميلاً وقد عينت حديثاً بالخرائب المسماة «مشهدي مرغاب» (بضم الميم وتسكين الراء). ويرى الباحثون في معنى اسمها (Parsagad) أنه يعني «مخيم الفرس».

موضع المعركة الحاسمة التي انتصر فيها على «استياجز» آخر ملوك الماذيين، ولا يعلم زمن تأسيسها، وإنما يقع بين 559 و550 ق.م.[1] وتشير خرائبها إلى أنها كانت على هيئة مخيم واسع يحيط بها سور تقوم في وسطه القصور والمعابد مع البساتين والحدائق، ووضعت في المداخل الثيران المجنّحة على الطراز الآشوري، ولا يزال يقوم في باب الحجرة الشمالية زوج من نوع الملاك الحارس المجّنح. وشيّد فيها معبد للنار بهيئة برج مشيد من الحجر، وهو يشبه المعبد الذي يقوم أمام قبر دارا في «نقش ـ رستم».

أما مدينة السوس فهي أشهر المدن وأقدمها في بلاد إيران وقد سبق أن ذكرنا أنها كانت عاصمة بلاد عيلام الشهيرة، وقد اتخذها كورش مقراً له، ثم عمر فيها دارا وبنى قصراً له بعد تعميره في مدينة بابل. والسوس من ناحية صلاح موقعها بالنسبة إلى أجزاء الأمبراطورية تأتي بعد بابل، ولكنها تفضل العواصم الفارسية الأخرى وهي اكبتانا وبزركاده وبرسيبوليس وقد سكن دارا في بابل في قصر نبوخذنصر في الجزء الشمالي من المدينة، حيث وجدت له مسلة من الديوريت منقوشة باللغة البابلية[2] ثم بنى في بابل بعدئذ قصراً جديداً خاصاً به موقعه غرب قصر نبوبولاسر، وقد بناه على الطراز البابلي الخاص بقاعات الأعمدة مما يعرف بمصطلح (Appadanna) (أي قاعة الاجتماع) تقليداً لطراز العمارة في قصر نبوخذنصر، واستعمل الآجر المزين المزخرف بالمينا[3] على غرار نقوش باب عشتار. ولكن دارا لم يقتنع بواحدة من العواصم القديمة التي لا تمثل العهد الجديد ولا تليق بضخامة الأمبراطورية التي أعاد تأسيسها، فأقدم على تأسيس عاصمة جديدة في موطن قومه الفرس فاختار الموضع الذي

---

(1) وجدت كتابة في خرائب المدينة منقوشة بثلاث لغات. بالفارسية والبابلية والعيلامية نصها: «أنا كورش الملك، الإخميني» ـ وهي ألقاب يؤخذ منها أن عهدها يرجع إلى الزمن الذي كان فيه كورش لا يزال تابعاً إلى الماذيين.

(2) **Koldewey, Excavation at Babylon** (1914), 166.

(3) Koldewey, **ibid,** 127.

شيّد فيه العاصمة التي سماها اليونان باسم «برسيبوليس» (أي مدينة الفرس)، وهي «إصطخرا» (Stakhra) (أي الحصن)، التي صارت أصل مدينة اصطخر الشهيرة. بدأ دارا بناء المدينة في عام 520 ق.م. ولم يكمل بناؤها إلّا في عهد أرتحشستا الأول في حدود 460 ق.م. وقد أمدّتنا نتائج التنقيبات التي قام بها المعهد الشرقي (جامعة شيكاغو) بنماذج مهمة عن الفن الفارسي القديم بمختلف نواحيه، كالعمارة[1] والنحت والنقوش، كما وجدت فيها وثائق مهمة دوّنت بالخط العيلامي وكانت برسيبوليس هي التي أقام فيها الإسكندر وليمة شرب ثم أحرقها. وإذا كانت «بزركاده» مدينة فارسية صرفة فإن برسيبوليس مدينة خليطة في عماراتها وفنها وزينتها ويوجد فيها عناصر من فن حضارة وادي الرافدين على المحنا.

3 ـ الديانة:

قبل أن تتوطد الديانة الزرادشتية التي تدور على عبادة الإله «أهورامزدا» في زمن دارا الأول كان الفرس وثنيين مشركين مثل القبائل الهندية الأوروبية الأخرى ويعبدون قوى الطبيعة المختلفة التي جسّموها وشخصوها على هيئة آلهة، فعبدوا الشمس بهيئة إله سمّوه «مثرا» والقمر باسم (ماه)[2] والأرض باسم «زام» (Zam) والنار باسم «أتار» (Atar) والماء باسم «أفام نفت» (Apam Napat) والريح باسم «وهيو» (Vahyu). ومع أن دارا والملكين اللذين أعقباه لا يذكرون في كتاباتهم اسم أي إله آخر مع «أهورامزدا» ولكن الواقع أن ما ندرسه من كتابات هؤلاء الملوك إنما هو ديانة الدولة الرسمية وليس ديانة

---

(1) حول نتائج التنقيبات في برسيبوليس والفن الفارسي من العمارة والنحت انظر المراجع الآتية:

(1) Herzfeld, **Iran in the Ancient East** (1941).

(2) Ghirshman, **Iran** (1954) 165 ff.

(3) G.G. Cameron, **Persepolis Treasury Tablets** (1948).

(4) Erich F. Schmidt, **the Treasury of Persepolis and Other Discoveries** (1939), **Persepolis** (1951).

(2) (Mah) وهو اسم القمر في اللغات الهندية الأوروبية (قارن الإنجليزية والكردية).

الجماهير التي ظلت محتفظة بعبادات الآلهة القديمة على الرغم من اتخاذ الملوك عبادة أهورامزدا الموحدة، ولكن أضيفت إلى أهورامزدا أسماء آلهة أخرى منذ زمن «أرتحششتا» الثاني ولا سيما الإله الشمس «مثرا»، المقرون بأنه إله العدل[1] والخلاص، وهو من الآلهة الإيرانية القديمة، والإلهة الشهيرة «أناهيتا» (Anahita) إلهة المياه والخصب والإنتاج، التي توجد في صفاتها وعبادتها آثار من عناصر غير إيرانية، وقد استمرت عبادتها واشتهرت معابدها في العهد الساساني على ما سنبين في كلامنا عن الساسانيين. ولقد تأثر الفرس في عبادتهم بالأقوام الأصلية قبل مجيئهم إلى إيران وبالأقوام المتحضرة المجاورة. وكانت عبادة الفرس لآلهتهم تقترن بالتضحية والقرابين، وقد وصف لنا هيرودوتس هذه الطقوس التي ترجع في أصلها إلى الأقوام الهندية ـ الإيرانية، وكان يقوم برسوم التضحية طبقة من الكهنة مؤلفة بهيئة إخوة أو جمعية دينية، وهؤلاء هم المجوس (Magi) (المؤبذان) المشهورون الذين يرجّح أن أصلهم من الماذيين، وكانوا ذوي امتيازات سياسية ودينية وعلى أهمية عظيمة في المجتمع، وكانوا يصحبون الجيوش للقيام برسوم الضحايا، كما كانوا يقومون بتعبير رؤى الأحلام، ويشركون في احتفالات تتويج الملوك التي كانت تُقام في العاصمة القديمة «بزركاده»، كما كانوا يتولون تعليم الصبيان وسدانة قبور الملوك، مثل قبر كورش[2] ومهما كان الأمر فإن هؤلاء (المجوس) مجهولو الأصل ولا يعلم عن ديانتهم التي لم تكن فارسية في أصلها إلّا أشياء قليلة. وهم كطائفة يؤلفون جماعة لا يدخل فيها أحد، وتبيح الزواج بالأقارب القريبين. وكانوا يرون في عقائدهم عن الكون وجود مبدأين، مبدأ الخير والشر، والواقع أنه لا يوجد في العبادة المجوسية آلهة حقيقيون،

---

(1) قارن وظائف الإله الشمس البابلي «شمش». وقد شاعت الديانة المترائية إلى أنحاء بعيدة، واتخذها الرومان.

(2) Ghirshman, Op. Cit., 156.

وإنما هناك عدد غفير من الشياطين الشريرة وعلى رأسها الروح الشرير الأعظم. ويستطيع المجوس بالسحر والتعاويذ دفع الشرور عن البشر، ومن الشياطين الشريرة الشياطين الكامنة في أجسام الموتى، فمنذ اللحظة التي يحلّ فيها الموت يصبح الجسم خطراً على الأحياء، ولذلك كانوا يبعدون أجسام الموتى في أعلى المواضع لتأكلها الوحوش والطيور الجارحة، وبعد تخليص العظام من اللحم الدنس تؤخذ وتوضع في صندوق صغير[1] مثقوب ليستطيع الميت رؤية الشمس.

الزرداشتية:

ومع وجود هذه العبادات الوثنية كان الفرس الإخمينيون يتجهون إلى الديانة الوحدانية وينبذون الشرك، وقد تمّ ذلك بوجه واضح وبصورة رسمية في عهد دارا الأول، وهذه هي عبادة الإلٰه الواحد «أهورامزدا»، كما سماه النبي الذي بشّر به «زراوستر» أو الأصح «زراثوشترا» (Zarathushatra) الذي لا يعلم زمنه بوجه التأكيد ولكن الرأي الحديث يرى أنه بدأ تبشيره حوالي منتصف القرن السادس ق.م. في الجهة الشمالية الغربية من نجد إيران، كما يرجّح أنه ولد في بلاد ماذي ولكنه اضطر إلى هجر موطنه والتبشير في جهات إيران الشرقية[2]. وتروي المآثر أن الحمل به وولادته قد تمّت بمعجزة إلٰهية فإن

---

(1) (Ossuary). والجدير بالذكر بصدد اسم المجوس أن الكلمة التي تُطلق على السحر في اللغات الأوروبية أي (Magic) مشتقة من اسم المجوس.

(2) حول أحدث الآراء عن هذا النبي الإيراني انظر:

(1) Olmstead, **The History of the Persian Empire** (1948), ch., VII.

(2) Ghirshman, **Op. Cit.**, 161 ff.

وكان الباحثون القدماء يرون إرجاع زمنه إلى عهد أقدم، إلى بداية الألف الأول ق.م.، وإلى القرن الثامن ق.م. والمرجّح أنه كان من بين معتنقي ديانته الأوائل أبو الملك دارا نفسه وكان والياً على بلاد الفرثيين. ويدل اسم زراوستر الذي يعني «مع الجمال الذهبية» واسم أبيه «فوروشسبا» (Pourushaspa) الذي يعني «مع الخيل السمر» وعشيرته المسماة «سبتاما» =

ملاكه الحارس حلّ في النبات المسمى «هوما»[1] وانتقل مع عصير النبات إلى جسم كاهن، ودخل في الوقت نفسه شعاع من السماء المقدسة في عذراء من أصل نبيل، فتزوج الكاهن بها فاتحد الملاك المحبوس (في جسم الكاهن) بالشعاع الإلٰهي (في جسم العذراء)، فتكوّن «زراوستر»، ومنذ اللحظة التي ولد فيها ضحك عالياً، وانهزمت من حواليه الأرواح الشريرة والشياطين التي تحوم في الحياة. ولما شبّ شغف بحب الحكمة والتقوى والعدل واعتزل حياة المجتمع وعاش في متاهات الجبال. وقد حاول الشيطان أن يغويه ولكنه لم يفلح. وقد شقّ صدره بالسيف وملئت أحشاؤه بالرصاص المذاب فلم يجزع بل إنه ظل على عقيدته بإلهه أهورامزدا، الذي تجلى له وأوحى له بالتعاليم المقدسة «الافستا»، وهي كتاب المعرفة والحكمة، وبلغه رسالته بأن يبشر بها بين البشر، فأصابه من هذا التبشير اضطهاد وازدراء، ولكن المآثر تقول إن أميراً عظيماً اسمه «وشتسبا» أو «هستابس»[2] اعتنق ديانته، وأوعده بأنه سينشرها بين الناس، ولما بدأ يبشر في إيران وجد الناس على ما رأينا سابقاً وثنيين يعبدون آلهة أصلها من القوى الطبيعية والحيوانات والأجداد الأموات (على نحو ما كان شائعاً بين الهنود الآريين في عهد الفيدا) وكان الكهنة

= (Spitama) (أي البيض) على أن أصله من قوم شبه رعاة، وورد اسمه في المصادر اليونانية بهيئة (Zoroaster) وهو الاسم الشائع في اللغات الأوروبية.

(1) وهو النبات الذي كان يستخرج منه الكهنة المجوس شراباً مسكراً لاستعماله في الطقوس الدينية و«الهوما» أيضاً الإلٰه العجل الذي يموت ويحيا وجعل دمه إلى الناس لينالوا الخلود إذا شربوه، حيث يتمثل الإلٰه بعصير ذلك النبات.

(2) لقد سبق أن نوّهنا باحتمال كون هذا الأمير أبا دارا الأول، وأن ذلك من جملة الأسباب التي دعت الباحثين المحدثين إلى تخفيض زمن زراوستر إلى منتصف القرن السادس ق.م. ومع أن هذا التأريخ أحدث ما وصل إليه البحث الحديث إلا أن هناك مآثر أخرى تجعل زمنه موغلاً في القدم فمثلاً عدّه الإغريق شخصية تأريخية وجعلوا زمنه يسبق زمنهم بـ (5500) عام، أما بيروسس (برعوشا) المؤرخ البابلي الذي كتب تأريخ بابل باليونانية (في القرن الثالث ق.م) فقد عيّن زمنه بنحو 2000 ق.م. أما أزمان الباحثين المحدثين فتتراوح من القرن العاشر إلى القرن السادس ق.م.

المجوس، على ما بيّنا، يقومون برسوم التضحية لهذه الآلهة، فثار على هذه العبادات وأعلن أنه لا يوجد سوى إلٰه واحد هو «أهورامزدا»[1] لا يوجد معه إلٰه آخر سوى صفاته وأهمها «الروح القدس» و«العدل»، والنية أو فكر الخير والتقوى والخلود. ومع أن «أهوردامزدا» هو الإلٰه الأوحد السائد في السموات، إلا أنه وجدت معه منذ البدء روح الشر أو مبدأ الشر التي أخذت تنازعه، فمنذ البدء كان هناك مبدآن توأمان، الخير والشر، وعن هذين المبدأين نشأت الحياة والفناء أو اللاحياة، أو الوجود السيئ المتّصف به أتباع الشر، أما الوجود الأفضل فلاتباع الخير والعدل ويتجسد مبدأ الخير بالإلٰه «أهورامزدا» أي إن الخير نوع من أقنوم[2] من هذا الإلٰه، والشر متجسد في المبدأ الذي دعاه «أهريمان». ويحيط بأهورامزدا أتباع إلٰهيون خيرون يحاربون مبدأ الشر، وهي حرب مستمرة تنتهي بانتصار مبدأ الخير. إن هذا المبدأ الثنائي (dualism) يجعل من الديانة الزرادشتية غير مطلقة التوحيد. أما الإنسان فلا مفر له من اتباع أحد المبدأين، وهو حر في اختيار أي منهما، فينبغي على كل إنسان أن يختار المبدأ الذي يرتئيه. أما الأشرار فيصيرون من أتباع أهريمان، والأخيار من أتباع «أهورامزدا» وهناك دينونة ويوم آخر يحاسب فيه الإنسان ، حيث ستنتصر مملكة «أهورامزدا»، ويهلك أهريمان وأتباعه، وستعيش أرواح الأخيار حياة أخرى في عالم سعيد خال من الشر، وتهلك نفوس الأشرار. وهناك مجموعات من الشياطين (daeva) هي نتاج تفكير الشر والكذب والغرور، وتنحصر أعمال هذه الشياطين في الأرض، موطن الإنسان، وإن الإنسان بمجرد عمل الشر يسر شياطين الشر ويكون من أتباعها. وسيكون أهورامزدا الديّان الأعظم يوم الحساب، ويساعده «زراوستر» الذي سيقود الصالحين عبر الصراط الفاصل بين النعيم والجحيم.

لقد نظمت العبادة الزرادشتية بموجب قواعد شديدة فقد حرّمت الضحايا

(1) وورد في تراتيله أيضاً بصيغة «أهورا»، و«مزدا» و«أهورامزدا» و«مزداأهورا».
(2) (Hypostasis).

والقرابين، كما حرم شراب «الهوما» المسكر الذي كان يستعمله المجوس في الطقوس الدينية ويعتبرون عصير ذلك النبات بمثابة دم الإلٰه العجل المسمى «هوما»، واتخذ مبدأ عدم دفن الميت أو حرقه أو غسله مخافة تدنيس العناصر الثلاثة المقدسة (التراب والنار والماء) فكانت أجسام الموتى تعرض في أماكن مرتفعة في الجبال أو على أبراج تُبنى لهذا الغرض وبعد تخليص اللحم منها بواسطة الجوارح والوحوش تجمع العظام في صندوق وتقبر في قبر خاص على ما بيّنا في عادة المجوس.

كانت الديانة الزرادشتية تعاصر في زمنها تقريباً الديانة البوذية وهي تشبهها في أمر مهم واحد هو أنهما كلتاهما رد فعل عنيف إزاء الديانات الآرية البدائية المتصفة بالقرابين والتضحيات القاسية. ولكن اختلفت البوذية عن الزرادشتية في مصيرها إذ انتشرت البوذية انتشاراً بعيداً واسعاً ولا يزال أتباعها يعدون بمئات الملايين في حين أن الزرادشتية تكاد تكون الآن في حكم الديانات الميتة باستثناء جماعة قليلة في إقليم فارس وباستثناء المجوس (البارسي) في الهند الآن (وعددهم نحو 90 ألفاً)[1] ولعل من أهم أسباب عدم انتشار الزرادشتية بالنسبة إلى البوذية أن الديانة الأولى فُرضت أو أُسندت من جانب حاكم، أي من الطبقات العليا في المجتمع، في حين أن البوذية كانت تعبر عن آمال الجماهير، وهناك عامل مهم هو محاربة الإسلام للزرادشتية في إيران وتعرضها لاضطهاد غزوات التتر لبلاد إيران.

وإذ بقيت الديانة «الزرادشتية» زمناً قصيراً وهي على بساطتها وصفائها ولا سيما في زمن حاميها الملك دارا الذي جعلها الديانة الرسمية فإنه سرعان ما عاد الناس إلى العبادات القديمة ولا سيما عبادة الإلٰه مثرا وعبادة الإلهة «أناهيتا»، حيث نجدهما يذكران في الكتابات الملكية منذ عهد أرتحشتا

---

(1) إن هؤلاء متعلقون بالكتابات المقدسة القديمة ويعبدون النار والأرض والماء والهواء بصفتها عناصر مقدسة ويعرضون جثث موتاهم في «أبراج الصمت» لتأكلها الطيور الجوارح، ويتّصفون بحسن المعاملة والصدق.

الثاني، ومن ثم أخذ مثرا المكانة البارزة في حين أن عبادة أهورامزدا أخذت بالتضاؤل، حتى انتشرت عبادة مثرا أخيراً من إيران إلى أنحاء الأمبراطورية الرومانية[1] ولا سيما في القرن الثالث للميلاد، كما أقيمت المعابد والتماثيل الخاصة بالإلهة أناهيتا، وهي عشتار أو أفروديت الفارسية، وخصصت بعض الكتابات المقدسة الخاصة بأهورامزدا للسحر والعرافة، كما برزت مكانة الكهنة المجوس، واشتهروا بالزهد والعفة والحكمة حتى بين اليونان وصار ملوك الفرس بمثابة تلاميذ لهم يستشيرونهم في الأمور المهمة. وحاول الملوك الساسانيون إحياء الديانة الزرادشتية، كما سنشير إلى ذلك في كلامنا على الساسانيين.

ويروي لنا هيرودوتس أنه لم يكن للفرس معابد ولا مذابح (هياكل) ولا تماثيل للآلهة، وهذا صحيح من وجهة النظر اليونانية لأنه لم يكن للفرس في الواقع معابد تؤمها الجماهير للعبادة. ولكن مع ذلك كانت لهم معابد خاصة، نعرف منها ثلاثة معابد من العهد الإخميني، أحدها في «بزركاده» بناه كورش والثاني بناه «دارا» الكبير في الموضع المسمى «نقش ـ رستم» أمام قبر دارا والثالث في سوسة، ويرجّح أن زمنه من عهد «أرتحششتا» الثاني.

إن قوام كل من هذه المعابد برج مربع يضم غرفة واحدة يرقى إليها بسلم، وهنا كان يتولى المجوس شؤون النار المقدسة. أما الاحتفالات الدينية فيبدو أنها كانت تُقام في العراء، حيث المذابح تقام بمسافة عن المعبد[2]. كما أن الفرس مارسوا تمثيل آلهتهم بالصور والأصنام المنحوتة، فنعرف مثلاً أن أرتحششتا الثاني أقام جملة تماثيل للإلهة «أناهيتا» في سوسة واكبتانا وبابل

(1) وقد أثرت بعض الطقوس الخاصة بعبادة هذا الإله في أعياد الديانة المسيحية، حيث إن عيد الميلاد لم يكن بالأصل سوى عيد شمسي يقام في كانون الأول (في الشتاء) رمز انتصار الإله الشمس على أعدائه حيث يبتدىء اليوم بالطول. فصار من الأعياد المثرائية ثم اتخذ يوماً مقدساً مقروناً بعيد الميلاد المسيحي. (Will Durant, Op. Cit., 372).

(2) Ghirshman, Op. Cit., 160.

وفي المراكز الأخرى المهمة من الأمبراطورية. كما مثل الإله أهورامزدا في معظم المنحوتات البارزة في واجهات القبور الملوكية الخاصة بالسلالة الإخمينية، حيث مثل الملك وهو يضحي أمام مذبح فيه النار المقدسة ويعلو فوقه القرص المجنح الذي يخرج منه رأس أهورامزدا وكتفاه، وهذه هي نفس الصورة التي تعلو المنحوتات البارزة في بهستون وفي جملة مآثر في برسيبوليس. وهذا الرمز إما أنه مأخوذ من أسلوب تمثيل الإله المصري هورس (الإله الصقر) أو من رمز الإله آشور.

4 ـ شيء عن الشريعة واللغة والفن والحياة الاقتصادية والاجتماعية:

كان الفرس الإخمينيون من الأقوام التي عنيت بالفتح وإدارة الدولة وتنظيم الجيوش والطرق أكثر من الأوجه الثقافية الأخرى، ولعل أقرب شبه بهم الرومان، وسنرى أن فنهم كان أقرب ما يكون إلى الفن الانتخابي منه إلى الفن الإبداعي، ويصدق ذلك على فروع الفن المختلفة.

ومهما كان الحال فإنه حالما أعاد دارا الأمبراطورية دعت الحاجة إلى ضرورة وضع أسس القانون والإدارة، وقد سد دارا هذه الحاجة. ونستطيع أن ندرس الأسس القانونية من النقوش الكتابية التي خلفها لنا دارا في عدة مواضع، في بهستون وبرسيبوليس وسوسة ونقش رستم، وقد وجد الباحثون الذين اشتغلوا فيها عدداً من أوجه الشبه بين كتاباته الخاصة بتنظيماته وشريعته وبين شريعة حمورابي[1]، وكانت مثل هذه النصوص الملكية الرسمية تنسخ على المسلات أو الألواح أو البردي وترسل إلى مراكز الولايات المهمة. وكان دارا مركِّزاً جلّ اهتمامه في نظام الإدارة على تطبيق العدل، وأن قوانينه وأوامره التي أصدرها بقيت يسار عليها في إيران زمناً طويلاً من بعد زوال الأمبراطورية. ويروي لنا هيرودوتس أن «القضاة الذين كانوا يختارون من الفرس يظلون في مناصبهم مدى الحياة، ما لم يخلعوا بسبب زيغهم في تطبيق

(1) Ghirshman, Op. Cit., 152 - 53.

العدالة» ولكن شرائع الأقوام التابعة ظلت معمولاً بها. وكان الملك مصدر القوانين والشرائع وإراداته هي القانون، واشتهر الفرس لدى الإغريق وفي التوراة بالتمسك بالقانون. وكانت الأحكام والإرادات التي يصدرها الملك تعتبر موحاة من الإله «أهورامزدا» نفسه، كما أن الملك كان المحكمة العليا التي يستأنف إليها، ويلي ذلك محكمة عليا خاصة للعدل مكوّنة من سبعة حكّام، ويلي هذه المحكمة العليا المحاكم المنتشرة في أنحاء المملكة، ونشأ بمرور الزمن وبكثرة الأقضية السابقة جماعة خاصة متضلعة بالشؤون القضائية كانت بمثابة الفقهاء والمحامين. وكانت الرشوة من جانب الحكام من الجرائم الكبرى. ويروى أن قمبيز عاقب مرة أحد القضاة الذي لم يلتزم أصول العدل بأن سلخه وهو حي، واستعمل جلده مقعداً في منصة القاضي وقد عيّن ابنه مكانه[1]. وكانت هناك أنواع مختلفة من العقوبات كالجلد والتشويه وقطع الأعضاء، وسمل العيون والسجن والموت بالصلب والشنق والرجم، وسحق الرأس بين حجرتين كبيرتين، والحرق، وهناك حالة خاصة عجيبة من عقوبة الموت يصحّ أن نسميها موت «القوارب»[2].

لقد أوجد الفرس الإخمينيون خطاً مسمارياً خاصاً بهم اشتقوه من الخط

---

(1) Cambridge Ancient History, III, 347.

(2) يروي لنا فلوطرخ في ترجمة حياة أرتحشستا الثاني (Plutarch, Lives, III 464) أن أحد الجنود صرّح في حالة سكر أنه هو الذي يرجع إليه الفضل في قتل احشويرش الأصغر في موقعة «كوناكسه» وليس إلى الملك. فأمر الملك بأن يعاقب ذلك الجندي (واسمه مثريداتس) بوضعه في القوارب. أما هذه الطريقة من الموت فقوامها أن يهيأ قاربان يطابق أحدهما الآخر فيوضع في أحدهما المحكوم عليه على ظهره ويطبق عليه القارب الآخر بحيث ينطبقان تماماً ولا يخرج من الشخص سوى رأسه ويديه ورجليه، وبعد أن يطعموه طعاماً يصبون فوق رأسه وفمه خليطاً من اللبن والعسل، ويجعلون وجهه مواجهاً للشمس على الدوام، وسرعان ما يهجم عليه الذباب فيعضه، ثم إن ما يفرزه جسمه المغطى بالقاربين يولد الديدان والحشرات التي تدخل إلى أحشائه الداخلية، حتى يتلف جسمه وتأتي الديدان على جميعه، وقد قاسى بهذا الأسلوب مثريداتيس سبعة عشر يوماً ثم مات من بعدها.

المسماري البابلي بعد تبسيط ما أخذوه وجعله أشبه ما يكون بحروف الهجاء (أو بالأحرى هجائي ـ مقطعي)، وقد اقتصر استعمال هذا الخط المكوّن من (43) علامة مسمارية على بضعة ألواح وعلى النقوش في الحجر. ولكن اتساع المملكة الفارسية إلى أمبراطورية معظمة ودخول جملة أقوام متحضرة فيها جعلت من المتعذر استعمال اللغة الفارسية بالخط المسماري، فظلت العيلامية في عيلام والبابلية بخطها المسماري في بلاد بابل، وكانت الآرامية المكتوبة بالهجائية قد انتشرت في معظم أجزاء الشرق الأدنى، فاستخدم الفرس الإخمينيون الآرامية لتكون لغة المعاملات المشتركة في أنحاء الأمبراطورية. ولصعوبة الخط المسماري الإخميني الذي دوّنت به الفارسية القديمة اتخذ الفرس أيضاً الخط الآرامي لكتابة لغتهم إلى جانب الخط المسماري، الذي انحصر كما قلنا في نقوش مآثر الحجر، وقد وجد نموذج من الفارسية المكتوبة بالحروف الآرامية في قبر دارا ولعل الكتابات الأخرى نقشت على الرق أو البردي فلم يصلنا منها شيء. أما ألوف الوثائق التي جاءتنا من «برسيبوليس» فلم يكن نص واحد من بينها مكتوب بالفارسية ويوجد عدد قليل منها بالآرامية، أما الغالبية فمدوّنة بالعيلامية.

لم ينشأ الفن الفارسي الإخميني بطريقة التدرج والتطور البطيء، فكان شأنه مثل نشوء الأمبراطورية السريع، ومع أن الفن الإيراني انتخابي في جوهره، وأخذ الشيء الكثير من أنماط الفنون والحضارات الناضجة التي دخلت أقوامها في حظيرة الأمبراطورية، ومع أنه تأثر بالفن اليوناني ولا سيما بالفنانين الأيونيين، نقول مع كل ذلك فقد تميّز فنهم بالطابع الخاص ولا سيما فن العمارة. فقد جاءنا من ملوكهم العظام، كورش ودارا واحشويرش الأول نماذج من فن العمارة الراقي في القصور الشهيرة في عواصمهم المشهورة ـ بزركاده وبرسيبوليس والسوس وبابل، ونلاحظ في فن العمارة في القصور آثار أصول العمارة البابلية. وقد سبق أن أشرنا إلى نتائج التنقيبات المهمة في

العاصمة برسيبوليس[1] حيث القصور الفخمة وقاعات العمد، والجدران المزينة بأفاريز المنحوتات والكاشي الملوّن بالمينا، ولقد توقف فن العمارة من بعد أرتحششتا الأول فلم يطرأ عليه شيء جديد. أما عن النحت المجسم فلا يعرف عن النحت الفارسي أشياء يعتدّ بها باستثناء تماثيل أشخاص صغيرة وجدت حديثاً في برسيبوليس[2]، واقتصر فن نحت التماثيل على تمثيل الملوك والأمراء. ومما يقال عن الفن الفارسي بهذه المناسبة إنه فن البلاط الرسمي ولذلك حرم من الحرية التي تمتع بها الفن اليوناني. وينبغي التنويه بالفن بواسطة المعدن ولا سيما البرونز الذي جاءتنا منه نماذج طريفة في تمثيل الحيوانات كالأسود والخيل. كما أن فن الصياغة والحلي يستحق التقدير والإعجاب وقد أمدّتنا التنقيبات في برسيبوليس بآلاف من أواني الحجر بعضها مزيّن برؤوس الأوز والبط (وهو طراز شائع في الفن الاسكيثي). كما جاءتنا مجموعات من الأحجار والفصوص والخواتم الأسطوانية والمنبسطة ولدينا ختم نفيس منقوش باسم دارا[3].

ونختتم كلامنا على الأوجه الحضارية للعهد الإخميني بذكر بعض الملاحظات المفيدة عن الحياة الاقتصادية، فنقول إن جملة عوامل مهمة عملت على ازدهار الحياة الاقتصادية في إيران وحسنت التجارة الخارجية ما بين أجزاء الأمبراطورية. وعلى رأس هذه العوامل ما سبق أن رأيناه من توحيد جميع آسيا الغربية والشرق الأدنى تحت حكم السلالة الإخمينية، وتقسيم هذه الرقعة الشاسعة إلى ولايات تحت إدارة مركزية، وإيجاد نظام من طرق المواصلات البرية والبحرية ونظام البريد لربط أجزاء هذه الأمبراطورية

---

(1) بدأ التحري من جانب المعهد الشرقي في برسيبوليس منذ عام 1931.
انظر النشرة الأخيرة لهذه التنقيبات .(Erich Schmidt, **Persepolis** 1951)
وكذلك .(1939) **The Treasry of Persepolis** ,...

(2) Ghirshman, **Op. Cit.**, 175, pl.22.

(3) Ghirshman, **ibid.**, **178.**

الواسعة، وإيجاد نظام متوازن من الضرائب، وإدخال الأوزان والقياسات المطردة، وأخيراً وليس آخراً إدخال النقود المسكوكة. فقد سبق أن نوّهنا بنشوء نظام النقود المسكوكة في ليديا قبيل عهد «قارون»، فانتشر استعمالها سريعاً في آسيا الصغرى وأدخل استعمالها دارا في أمبراطوريته. ونستطيع من دراستنا ألواح الطين المكتوبة من برسيبوليس أن نقف على دور الانتقال في الاقتصاد من نظام دفع الأجور بطريقة المبادلة أي دفع الأجور عيناً: باللحوم، والحبوب، والخمور، الخ. ولكننا نجد دفع الأجور في عهد احشويرش يتم بدفع ثلثيها عيناً والثلث الآخر نقداً، ثم تناقص الدفع بالمواد العينية في عهد الملك نفسه إلى الثلث. وملخص القول اقتضى مرور زهاء نصف قرن قبل أن يحلّ النظام النقدي محل المقايضة. وقد بلغ حجم التجارة في القرنين السادس والخامس ق.م. مقداراً لم يعرف من قبل.

واهتم معظم ملوك السلالة الإخمينية في تحسين إنتاج الأراضي الزراعية، فقد اشتهر الملوك الإخمينيون بحفر القنوات (الكهاريز) تحت الأرض. واتسعت الزراعة وعملت الاتصالات بين أجزاء الأمبراطورية في نقل بعض النباتات والأشجار من قطر إلى آخر، ومن ذلك انتقال البرسيم (Lucerne) الذي يكثر في وديان بلاد ماذي ويصلح علفاً للحيوانات، وقد نقله الفرس إلى بلاد اليونان في حروبهم هناك، ونقل أيضاً بواسطة هذه الحروب الدجاج المدجّن والحمام الأبيض والطاووس[1]. واهتم دارا بوجه خاص بزراعة الأشجار وزرع الأنواع الجديدة منها، ليس في فارس وحسب بل في أجزاء الأمبراطورية، فقد حاول الفرس زرع نوع جديد من الكروم في دمشق وأدخلوا الفستق إلى حلب وأدخلوا زراعة السمسم إلى مصر والأرُزّ إلى العراق، وسارت الدول التي قامت من بعد الإخمينيين في العهد الهلنستي على نفس السياسة. وننوّه بما ذكره هيرودوتس عن ازدهار العراق في الزراعة في هذا العهد، ومع أن هذا امتداد من العصور السابقة، ولكن المحافظة عليه والاعتناء بشؤون الري في هذا العهد لمما يستحق التسجيل. واستمر نظام

---

(1) Ghirshman, ibid., 182.

الزراعة على أساس ملكية الأراضي الكبيرة التي يشتغل فيها فلاحون مربوطون بالأرض أشبه ما يكونون بالرق، وكذلك استعمال الرق من أسرى الحروب. وكانت الملكية الصغيرة معروفة، ولكن أهميتها دون النوع الأول من الإقطاعات الكبيرة.

وكانت الأمبراطورية الفارسية بولاياتها الغنية بمختلف الموارد على درجة عالية من الاكتفاء الاقتصادي. فهناك مراكز مهمة للأخشاب الجيدة لاستعمالها في البناء والقوارب والعربات والأسلحة ومكائن الحرب المختلفة. ونذكر من أشهر هذه المراكز آسيا الصغرى وكريت وقبرص ولبنان والهند. كما كانت هناك مراكز مهمة لاستخراج المعادن، فمثلاً ينتج من قبرص الفضة والنحاس والحديد ومن آسيا الصغرى النحاس والفضة، ومن مصادر النحاس والحديد المهمة لبنان وأقسام دجلة والفرات العليا. وينتج إقليم كرمان الذهب والفضة، واشتهر إقليم سستان بالقصدير وجنوبي القوقاز بالفضة والحديد، وكذلك سواحل البحر الأسود الجنوبية. وازداد الاعتناء باستخراج الأحجار من مواضعها المشهورة حيث أصبحت الحاجة إليها شديدة بأتساع أعمال البناء. فأشتهرت جبال عيلام بحجارة البناء الجيدة واللازورد من «بدكشان» والفيروز (Turqoise) والعقيق من خراسان. كما زادت العناية بالصيد حيث مواضع صيد السمك المشهورة في خليج فارس ودجلة والفرات، وقد ازدهرت تجارة الأسماك المملحة المقددة.

العراق في العهد الإخميني:

وننهي هذه الملاحظات ونختم كلامنا على المملكة الإخمينية بالتنويه بأهمية العراق بصفته ولاية من ولايات الأمبراطورية الفارسية. فقد سبق أن رأينا من تقسيم الأمبراطورية إلى ولايات أهمية الولاية[1] التاسعة أي ولاية

---

(1) انظر ما ذكرناه عن اسم الولاية والوالي (Satrap) التي يرجع أصلها إلى الفارسية القديمة. وقد ترجم البابليون كلمة «سترابي» بمصطلح «بختو» (Pakhatu) وسميت بالآرامية «مدينة»، وتعني منطقة قضائية.

بابل وآشور. ولكن فصلت هذه الولاية في حدود 478 ق.م. (كما في أخبار زينفون) إلى ولاية بلاد بابل وبلاد آشور، وألحقت ولاية آشور بالولاية السادسة التي كانت في عهد دارا، وهي الولاية التي أطلق عليها اسم «عبر النهر» (عبر نهارا) وهي تشمل سوريا وفلسطين وقبرص. ورأينا أهمية بلاد بابل من الضريبة السنوية المترتبة عليها فكانت تأتي ثاني ولاية في مقدار تلك الضريبة (1000 وزنة) ثم يلي ذلك مصر. ويخبرنا هيرودوتس أن «الملك العظيم وجيشه كانوا يجهّزون بالطعام والمؤن طيلة أربعة أشهر من السنة من بلاد بابل وفي الأشهر الثمانية الباقية من بقية آسيا». وكان يعين لولاية بابل كما في سائر الولايات حكّام من الفرس من الطبقات النبيلة، ونحن لا نعرف الأسباب الحقيقية التي دعت البابليين إلى الثورة على الفرس في أثناء غياب قمبيز في مصر، أهي من جرّاء فداحة الضرائب أم بدوافع قومية ضد الحكم الفارسي الأجنبي، على الرغم من السياسة التي سار عليها كورش من مداراة أهل البلاد ودعواه في تخليصهم مما حلّ بهم من الاضطهاد في أواخر عهد الملك البابلي نبونهيد. ومهما كان الحال فقد كانت هذه الثورة شديدة وكلّف إخمادها الملك دارا جهوداً كبيرة، على ما رأينا. ورأينا بلاد بابل تثور أيضاً على الحكم الفارسي في عهد احشويرش الأول، وكيف أن هذا الملك أخمد الثورة بقسوة شديدة، حتى أنه دمر المعابد والقصور. ومهما كان الأمر فإنه باستثناء هذه الثورات ازدهرت الحياة في بلاد بابل، وحافظت على شهرتها القديمة في الإنتاج الزراعي وفي الاعتناء بشؤون الري، وقد أدهش هيرودوتس بذلك وبما شاهده من عمران بابل وقصورها وعجائبها، وترك لنا أخباراً طريفة عن أحوال العراق في هذا العهد[1].

ومع أن الفرس الإخمينيين اتخذوا خطاً مسمارياً خاصاً بهم على ما ذكرنا واتخذوا الآرامية إلا أنهم اعتمدوا كثيراً على طرق السجلات والوثائق

---

(1) نحيل القارىء إلى هذه الأخبار الممتعة في هيرودوتس. انظر ترجمة تأريخه:

The History of Herodotus, By George Rawlinson (Everymans Library), (1936).

التي وجدوها في المركزين الحضاريين المهمين، بلاد عيلام وبلاد بابل، حيث ظلت السجلات التجارية المهمة تدوّن بالعيلامية وبالبابلية، ولذلك فإن مصادرنا المهمة عن أحوال الأمبراطورية مأخوذة من الوثائق البابلية والعيلامية والآرامية. وقد وجدت ألوف كثيرة من هذه الوثائق في مختلف مدن العراق القديمة، وألوف أخرى في مدينة السوس. ويمكننا القول بالنسبة إلى كثرة الوثائق التي جاءتنا من العراق القديم في هذا العهد أنه لا توجد حقبة من حقب الثلاثة آلاف عام من تأريخ بلاد بابل الاقتصادي والاجتماعي ما يعادل حقبة القرنين وربع القرن منذ عام 625 (وهو بداية العهد البابلي الأخير)، حيث قدّر ما جاءنا من هذا العهد بزهاء (10) آلاف وثيقة من الوثائق التجارية والإدارية، وهي موزّعة بالتساوي تقريباً بين العهدين البابلي الحديث وبين القسم الأول من العهد الإخميني في العراق، وقد درست هذه الوثائق ونشرت جميعها مما جعل في متناول الباحث مصدراً غزيراً لمعرفة الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العراق. وبالإضافة إلى هذه الوثائق التجارية جاءنا من هذا العهد نحو (600) رسالة[1]. وإذا كان مجال البحث لا يمكننا من بحث هذه الوثائق فنكتفي بالتنويه بأهميتها بكونها تجهز الباحث الاقتصادي بمادة وفيرة تمكّنه من كتابة فصل ممتع مهم في تأريخ الأسعار والحياة الاقتصادية، موضحاً بالخطوط البيانية[2]. وننوّه أيضاً بالمصارف المعبدية المهمة. وكان ظهور المصارف قبل هذا العهد في بلاد بابل من الظواهر المهمة في الحياة الاقتصادية، وكان أبرز ما فيها ظهور مبدأ «الكريدت» (Credit) وهو مبدأ كان معروفاً في بلاد بابل قبل العهد الإخميني بأزمان، وكانت القروض متمركزة في أهم مؤسسة اقتصادية هي المعبد، واستمرت المصارف المعبدية في العهد

---

(1) أحسن بحث في هذه الوثائق وفي أحوال العراق في هذا العهد يجده القارىء في:

Olmstead, **History of the Persian Empire** (1948), ch. V.

(2) وقد كتبت في الواقع مثل هذه البحوث، ونخص بالذكر منها:

W.H. Dubberstein, «Comparative Prices in Later Babylonia» (625 - 400 B.C.) in **Amer Jour. of Sem. Languages**, 1939) 20 ff.

الإخميني. وكانت القروض التي يعطيها ملاك الأرض للفلاحين إلى موسم الحاصل الجديد تتم في الأغلب بدون فائض، ولكن في حالة عدم الدفع تُضاف إليها الأرباح. وإلى جانب المصارف المعبدية ظهرت المصارف الخاصة وكان ذلك بوجه واضح في حدود 648 ـ 626 ق.م.[1].

واشتهرت من الشركات المصرفية الشهيرة في بابل شركة عُرفت باسم «ايكيبي» (Egibi)، ويرى الباحثون أن هذه عائلة يهودية وأن مؤسسها محرف عن يعقوب[2] وعائلة أخرى باسم «ايرانو». واشتهرت عائلة تجارية مصرفية في عهد دارا الثاني (423 ـ 404 ق.م) وأرتحششتا باسم «موراشو»، وكانت عبارة عن شركة مالية مهمة في نفر، وهي يهودية أيضاً، وقد جاءتنا منها ألواح كثيرة مدوّنة بالشؤون المالية[3].

---

(1) W.H. Dubberstein, «Assyrian Babylonian Chronology» in **Jour. of Near East. Studies,** III (1944), 38 ff.

(2) Olmstead, **Op. Cit.,** 83 ff.

(3) انظر نشر هذه الألواح في: **The Bab. Expd. of the Un. of Pennsyl.,** IX.

الإسكندر والعهد السلوقي

كان المقدونيون في عهد «فيلب» والد الإسكندر محصورين في القارة الأوروبية بسبب عزلتهم عن مراكز الحياة اليونانية السياسية. وتكون بلادهم الجزء الوسطي من شبه جزيرة البلقان وتتألف من سهول واسعة مستوية يحددها ويخترقها آكام وحزون وعرة، مناخها قارس شديد ولها موارد طبيعية غزيرة. وهي بلاد زراعية ممتازة. لقد أدرك «فيلب» مؤهلات قومه وبلاده فشرع في إنماء ثروتهم بفتحه مناجم الذهب ووحّد قبائلهم تحت عرشه، وهيأهم إلى الفتح والتوسّع بتدريبهم تدريباً عسكرياً شاملاً، وبعد خمس عشرة سنة من حرب متواصلة مع الدويلات الإغريقية انتخب أخيراً في مؤتمر «كورنث» قائداً عاماً لجميع الإغريق ليتولى الحملة على بلاد فارس. إذ إن نجاح الثورة الإغريقية وصدّ الجيوش الفارسية التي أُرسلت إلى بلاد الإغريق منذ الثورة «الإيونية» وتعرف اليونان على بلاد فارس ومواطن ضعفها كل ذلك جرّأ المقدونيين واليونان المتحدين وحوّلهم من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم على الأمبراطورية الفارسية. ولكن «فيلب» اغتيل في اليوم الذي خصص لبدء الحملة فخلفه ابنه الشهير «الإسكندر» الكبير.

ولا يسعنا في هذا الموجز أن نسهب القول في ترجمة الإسكندر ومزاياه الشاذة الخارقة فنكتفي بالتنويه ببعض العوامل المؤثرة في شخصيته وعلى رأس ذلك وراثته عن أبيه شجاعته وإقدامه وأخذه عنه التدريب العسكري، فقد قاد في عهد أبيه الجيوش في حرب المدن اليونانية وأبدى مهارة فائقة، كما ينبغي التنويه بوراثته عن أمه «أولمبياس» المشهورة بحدة العاطفة. ونذكر أيضاً علاقته

بالفيلسوف اليوناني الشهير «أرسطو» حيث تولى هذا تثقيفه وهو في سن ثلاثة عشر عاماً، واشتهر عنه أنه كان مغرماً بالشعر والأدب اليوناني، حتى أنه كان يحمل معه على الدوام نسخة من الإلياذة أصدرها له أرسطو نفسه، ولعل من آثار تعليم أرسطو له ما أوثر عنه من اهتمامه بالفلسفة والمعرفة والعلوم والطب. وتروى عنه حادثة طريفة في أواخر حياة أبيه. وهي أن أباه طلّق أمه ليتزوج من ابنة أحد قواده التي أحبها، وفي الحفلة التي أقيمت بهذه المناسبة طلب أبو البنت، وكان ثملاً، أن يشرب المجتمعون نخب وارث العرش الآتي (من ابنته) فما كان من الإسكندر إلّا أن قذف كأسه بوجه القائد لأنه أهانه وأهان أمه. فنهض «فيلب» مجرّداً سيفه ولكنه سقط لأنه كان ثملاً.

وعندما خلف الإسكندر أباه[1] وافق الجميع على توليه أمر الحملة على فارس فأستعد لها خير استعداد، وبدأ أولاً إخضاع «تراقية» لئلا يبقى في مؤخرته عدو، ونقل من بعد ذلك جيشه بأساطيل عبر الدردنيل. ويروى أن الإسكندر كان أول من قفز إلى الشاطىء فقصد على الفور «طروادة» لزيارة مزار هناك فأهدى درعه وأخذ بدلاً منه تذكاراً من آثار «أخيلوس» (بطل إلياذة هوميروس) كان معلقاً على الجدران. وصادف من بعد ذلك أول جيش فارسي فجرت معركة عند نهر «الغرانيق» (Granicus) دحر فيها الجيش الفارسي وكانت معركة ملتحمة كاد الإسكندر يفقد فيها حياته. ثم زحف إلى الجنوب وسلك من «سارديس»[2] نفس الطريق الذي سلكه «كورش» و«زينفون» من قبله. أي إنه مرّ من طرسوس ثم إلى «الباب السوري» المؤدي من كيليكيا إلى شمالي سوريا. أما «دارا» الثالث، الملك الفارسي فإنه استطاع أن يحشد جيشاً قوامه

---

(1) ولد الإسكندر في عام 356 ق.م. واعتلى العرش في 336 ق.م. وبدأ حملته على آسيا في عام 334 ق.م. وفتح العراق في 331 ق.م. وتوفي في عام 323 ق.م. وهو بسن 33 عاماً.

(2) قبل أن يلاحق الإسكندر جيش الفرس الذي انهزم معظمه ما عدا المرتزقة الإغريق الذين قتلهم جيش الإسكندر باعتبارهم خونة، حرر الجيش المقدوني المدن اليونانية في آسيا الصغرى التي كانت تابعة للفرس. والغريب في أمر إحدى هذه المدن (وهي هليكار ناسوس مسقط رأس هيرودوتس الشهير) أنها أبت التسليم وفضلت بقاءها تابعة للفرس فأحرقت ودمرت.

40,000 رجل وزحف للدفاع عن مملكته، ولكنه سار في الطريق الجبلي حاسباً أنه سيلاقي الإسكندر فانتظره في مجازات جبال «أنتي ـ طوروس» وعندما وصل إلى (توبر اكاله) وجد نفسه في مؤخرة الإسكندر الذي كان يستهدف (سكل ـ توتان)، وعندما كان الإسكندر يقترب من سوريا أعاقته زوبعة في (مرياندوس) في الوقت الذي بلغته الأنباء عن مكان (دارا). فرجع في أثره وتلاقى الجمعان على جانبي مجرى ماء في (إيسوس) بمسافة قليلة إلى الشمال من (المجاز). فجرت أولى المعارك الكبيرة التي تحطم فيها الجيش الفارسي وانهزم الملك.

وكانت جيوش الإسكندر على نظام خاص يحسن أن نلقي نظرة عجلى على تأليفه. فأكثر ما يمتاز به نظام التعبئة عند الإسكندر نظام الصف (Phalenx)، الذي كان أقوى أجزائه وقد بلغ في وقت من الأوقات 20,000 رجل من الجنود المسلحين بحراب كبيرة طولها 20 قدماً، وسيوف وبيضات وتروس ودروع وقد درّبوا على القتال في ستة عشر صفاً، صفاً بعد صف، وتروسهم متصلة بعضها ببعض، وقد سلحت الصفوف الخمسة الأولى برماح مشهرة (طولها 13 ـ 14 قدماً). ويأتي من بعد ذلك صنف من المشاة مسلح تسليحاً ثقيلاً[1] ويحمل تروساً مقدونية مدورة. وصفوة هذا الصنف المشاة المشهورون المدرعون بالدروع الفضية، ويليه صنف آخر يحمل تروساً أخف[2] ثم رماة القذائف الذين هم في الغالب من الشعوب التابعة. وكان حرس الإسكندر الخاص مؤلفاً من الطبقة النبيلة من المشاة، وكذلك خيالة من المقدونيين يسمون «بالأصحاب» ويأتي بعد ذلك عربات تجرها خيول محمية بالزرد. وأضيفت الفيلة إلى قوام الجيش من بعد غزو الإسكندر الهند. وكانت الفيلة تعصب بعصائب وقنازع وتحمل في القتال عدا السائق أبراجاً من الخشب في كل منها أربعة رجال مسلحين. ومما يؤثر عنها أنه كان يقدم أمام أنظارها

(1) ويصطلح على هذا النوع من الجنود اسم (Hoplite).

(2) (Peltast).

قبل دخولها القتال عصير ثمر أحمر «إما لإهاجتها أو لمنع ارتباكها واضطرابها عند رؤية الدم».

كاد المقدونيون يخسرون المعركة في «إيسوس»، وذلك عندما عبرت الصفوف النهر فتعثرت في الضفة المقابلة وحلّ فيها الاضطراب. ولكن الهجوم الناجح الذي شنّته خيالة الإسكندر على ميمنة الفرس قرب الإسكندر إلى حيث كان الملك واقفاً في عربته. وبعد معركة خذلت دارا شجاعته فولى هارباً تاركاً جيشه في ارتباك وفوضى (انظر الشكل ص 441)، وخلف وراءه نساءه وأهل بيته وقد عاملهم الإسكندر معاملة شريفة لائقة. ومما يؤثر أن الإسكندر كتب إلى دارا بعد قليل بقوله له: «ليس عليك إلّا أن تأتي لتسألني فأعيد إليك زوجك وأمك وأطفالك وأي شيء آخر ترغب فيه. أما في المستقبل فإذا كتبت إليّ فعليك أن تخاطبني باسم ملك آسيا العظيم ولا تكتب إليّ كند بل خبرني عمّا تحتاج إليه كسيد كل ما تملك وإذا نازعتني المملكة فتمهل وحارب من أجلها مرة أخرى. ولا تهرب لأنني سأزحف عليك أينما كنت».

لم يلاحق الإسكندر دارا إلى قلب آسيا فكان ذلك منه بُعد نظر وحُسن تدبير. ولكنه عرج جنوباً ليحصل قبل كل شيء على بلاد الشام وفينيقيا ومصر، فخضعت له كل المدن الساحلية إلّا صور، فكان حصارها ثم فتحها (332 ق.م) من أصعب مشاريع الإسكندر الحربية. وقد دمرها الإسكندر بعنف.

وقد استقبل الإسكندر في خلال الحصار وفداً من دارا قدم له فدية كبيرة عن عائلته واقتراحاً بحلف عسكري. وقد روي أنه عندما بدأ الإسكندر ببحث الاقتراح في مجلس الشورى قال «بارمينو» أحد أصحاب الإسكندر: «لو كنت مكانك لقبلت». فرد الإسكندر على ذلك بالجواب المشهور: «وكذلك كنت أفعل لو كنت مكانك». وبدلاً من أن يقبل الإسكندر ذلك الاقتراح قصد مصر(عام 332 ق.م) بعد أن حاصر غزة زهاء شهرين جرح في المعركة في أثناء ذلك ثم زحف على مصر حيث لاقى مقاومة قليلة من الحاكم الفارسي. وقد أبحر من «منفس» وخطط بنفسه في موضع بين بحيرة مريوط والساحل

مكان الإسكندرية[1]، أشهر مدنه الجديدة. وقبل أن يتجه إلى بابل قام بعمل حكيم عندما أبقى إدارة البلاد بيد أهلها بالدرجة الأولى، ما عدا قيادة الحامية التي أودعها إلى قواده واحترم ديانتها وقدّم القرابين للآلهة المصرية ولقّب نفسه «ابن آمون» حيث زار معبد هذا الإله الذي أنبأه أنه سيحكم العالم.

ثم توجّه من بعد ذلك إلى العراق من قرب دير الزور[2] فسار شرقاً إلى دجلة وعبره بمسافة قليلة إلى شمالي الموصل. وسار إلى «كوكميلة» حيث وجد دارا معسكراً فجرت معركة كانت حاسمة في القضاء على الإخمينيين[3]. وكانت «كوكميلة» غربي نهر «الخازر»، شمالي غربي أربيل بنحو 20 ميلاً. ويميل الكثيرون إلى تسمية الموقعة باسم «أربلا»، ومصدره أن الإسكندر جلب الغنائم بعد انتهاء المعركة إلى (أربيل) إلى الجنوب الغربي من موضع المعركة بعشرين ميلاً.

بلغ جيش دارا، كما يروى، المليون رجل بضمنهم مرتزقة من الإغريق ومائة عربة ذات فؤوس. وكانت خيالته وحدها تربو على جيش الإسكندر بكامله (بلغ جيش الإسكندر زهاء 40,000 من المشاة ونحو 7000 فارس) فكان المقدونيون معرضين إلى حركة التفاف مفاجئة أو الهجوم عليهم من المؤخرة، ولذلك فإن خطط الإسكندر التعبوية تجاه هذه الصعوبات حرية

---

(1) تروي المآثر أنه بنى زهاء 170 إسكندرية، ولا يعلم مبلغ صحة ذلك ولكن المؤكد أنه بنى ما لا يقل عن عشرين مدينة وسمّاها الإسكندرية، بعضها في العراق وبعضها في بلاد إيران مثلاً في هيراة وهندوكوش.

(2) عبر الإسكندر الفرات في الموضع المسمى «ثبساكوس» جنوب غربي حلب، وقد أقام القائد «بارمينيو» جسراً هناك بعد أن فتح دمشق ثم التحق به جيش الإسكندر الأصلي.

(3) يبدو أن الجزع اشتد بدارا وحاول تسوية الأمر صلحاً مع الإسكندر فاقترح عليه إنهاء الحرب وجعل الفرات فاصلاً بين الأمبراطوريتين، وأنه يزوج ابنته من الإسكندر، وأن ابنه يبقى رهينة عنده على أن يطلق سراح أمه وابنته (وقد توفيت زوجته وهي لدى الإسكندر الذي دفنها باحتفال مهيب) ويقدم له مقابل ذلك فدية كبيرة (قدرها 30,000 وزنة من نقد الفضة)، وأنه سيقاسم الإسكندر سلطانه ويشاركه في الحكم بصفته زوج ابنته. ولكن الإسكندر رفض هذه العروض.

بالدرس والملاحظة. فبعد أن أنِف من تبييت عدوه رتّب جيوشه في الصباح واضعاً (بارمينيو) والخيالة في الميسرة، والصفوف في القلب، ووضع في الميمنة المشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً، ووضع جنداً من صنف كل من الميمنة والميسرة خلف ذلك بصورة منحرفة اتقاء حركة التفاف من العدو. وبدأت المعركة بتعرض جيش الإسكندر إلى حركة التفاف من ميسرة جيش العدو. فحمل الإسكندر تجاه ذلك متجهاً بهيئة مائلة إلى اليمين واستمرّ في نقل كتائبه وصفوفه الثقيلة في الاتجاه نفسه. فأمر دارا بهجوم على جناح الإسكندر ليصدهم، ولكن نبالة الإسكندر أسقطوا الخيول والسواق فأنفتحت كتائب المشاة وقد أحدثت العربات ثغرة في جناح الفرس الأيسر اقتحمها الإسكندر على رأس خيالته، شاطراً صف الفرس شطرين وزحفت الصفوف زحفاً عنيفاً على قلب جيش دارا، ففقد الملك الفارسي صوابه، فأدار عربته وولّى هارباً، وبعد ذلك بقليل تقرر مصير آسيا وكانت نهاية الأمبراطورية الفارسية الإخمينية. وبعد أن تمهل الإسكندر قليلاً في «أربيل» سار منحدراً إلى بابل.

لم يلاق الإسكندر حرباً في بابل بل إن الحاكم الفارسي (مازيوس) سلم المدينة إلى الفاتح. واتبع الإسكندر في بابل سياسة التسامح والمداراة التي اتبعها في مصر. فأعاد الحاكم (مازيوس) إلى منصبه، وألقى في روع السكان أنه خلّصهم من اضطهاد البرابرة. وصمم على إعادة بناء معابد الآلهة. ومن الأمور المثيرة أن الإسكندر وجد صرح بابل المدرج الشهير العائد إلى مردوخ في حالة أنقاض (على أثر تدمير احشويرش) وقد قدر أن (عشرة آلاف رجل يعملون مدة شهرين لا يستطيعون رفع الأنقاض المتساقطة منه).

ترانا في غنى عن أن نتابع الإسكندر في حملاته إلى بلاد فارس بعد فتحه بابل إلى السوس ثم إلى (برسيبوليس) ذات القصور المحصّنة التي جعلها دارا فخر السلالة الإخمينية. وقد استراح هنا أربعة أشهر انغمس في خلالها في ولائم وأفراح، وقد أحرق قصر الملك في آخر وليمة على أثر سكر. فعندما ثمل القوم اقترحت إحدى البغايا التي تسمى (تاييس) أن تضرم النار في

القصر (الذي طالما وضعت فيه خطط تدمير بلاد الإغريق) فبدأ الإسكندر بالشعلة الأولى، فتوهج البناء الشامخ بالنار التي التهمت أخشاب الأرز الثمينة والزخارف المنحوتة، وتوجه الإسكندر من «برسيبوليس» إلى «اكبتانا» العاصمة الماذية التي فرّ إليها دارا، ولكنه تركها في النهاية قاصداً بلاد البخت، وقبل أن يتوغل الملك التعس بعيداً ثارت عليه حاشيته وقتلته. وتابع الإسكندر تقدمه إلى أواسط آسيا وشمالي الهند وعند رجوعه مرّ ببلاد السند. ولقد بدأ التذمر والسخط يعمان جيش الإسكندر لاشتطاطه في مغامراته وأظهر عدم مطاوعته لمتابعة الإسكندر في مغامراته في مجاهل آسيا، فعاد إلى سوسة وهنا شرع في سياسته في مداراة الفرس وإشراكهم في الحكم، حتى أنه ألّف جيشاً من الإيرانيين الشبان ليتدربوا على أساليب الحرب الغربية. وشرع الإسكندر أيضاً في تحقيق إصلاحه بدمج الغرب بالشرق حتى أنه تزوج زوجة فارسية وحذا حذوه 80 قائداً من قواده و(10,000) جندي من جنوده. ومن بعد ذلك رجع إلى بابل وأقلع إلى أعالي دجلة من خليج فارس حتى «اوبس»، وقد أظهر أتباعه في «أوبس» تذمراً عظيماً فخطب بهم غاضباً وأرجعهم إلى الطاعة، وقد رفع في طريقه السكور التي وضعها الفرس ليعيقوا سير السفن في النهر.

لقد صمم الإسكندر على أن يجعل بابل مركزاً مهماً في أمبراطوريته لربط الغرب بالشرق وعزم على ربطها بطرق تجارية ليس بالهند فحسب بل بمصر بقنوات من البحر الأحمر والنيل حتى أنه شرع في بناء ميناء عظيم، وأخذ يهيئ في الوقت نفسه حملة إلى جزيرة العرب، وبعد ولائم دامت يومين وفي مساء بدء الحملة مرض الإسكندر بالحمى ومات في اليوم السادس (في حزيران من العام 323 ق.م) في قصر نبوخذنصر، ملك بابل الشهير. وهكذا انتهت حياة هذا الشاب العجيب (الذي جمع في عمر ثلاث وثلاثين سنة همم كثير من الأعمار وتجاربها) ولم يكن (موته نزوة من نزوات القضاء بقدر ما كان نتيجة حتمية للشدة التي احترق فيها لهب حياته) وقد دام حكمه ثلاث عشرة سنة وقد عرفت الثلاثة قرون التي أعقبت موت الإسكندر باسم العصر «الهلنستي» الذي

سنوجز عنه بعض الشيء. وقبل أن نبدأ بذلك نذكر بعض الملاحظات الأخرى المفيدة عن شخصية الإسكندر العجيبة، فأول ما يدهش في الإسكندر قابليته الفذة وفتوحه الخاطفة ثم موته وهو في ريعان الشباب، ولعل جسمه لم يتحمل الطاقة العظمى التي كانت تكمن في نفس هذا الشاب العجيب[1]. وقد يكون من حسن حظ الإسكندر أن يموت وهو في ذلك السن وفي أوج مجده، إذ لم يكن من المتوقع أن تزداد شهرته، بل الواقع أن بوادر الغرور والعجب بالنفس أخذت تبدو في سلوكه ولو أنه عاش أكثر من ذلك لارتكب على ما يرجّح حماقات تحط من شهرته الفذة التي اكتسبها. كما أن من المشكوك فيه أن يستغل هذا الشاب نجاحه المنقطع النظير في إدارة تلك الأمبراطورية العالمية وقد بدت عليه بوادر الثمل بنشوة النجاح والانتصار. ومن هذه البوادر الخطيرة أمارات العصبية التي تجلّت في قتله بعض خيرة قوّاده، وقتله الفيلسوف المشائي الشهير (من أتباع أرسطو، المسمى كليسثينيز)، وقد غضب أتباع أرسطو وأخذوا يشنعون به فساقوا نظرية تقول إن نجاح الإسكندر لم يكن عن حسن تدبير منه بل إنه تمّ بطريق الصدفة، وإن سقوطه وموته كانا بسبب تفاقم نجاحه وغروره. وبدأ الإسكندر أيضاً في أواخر أيامه يعجب بالتملق والإطراء حتى أنه قبل أن يجعله بعض المتزلفين ابن الإلٰه «زوس» وابن الإلٰه المصري أمون، كما أدخل عادة السجود بين يدي الملك واتخذ بعض العادات الأخرى الشائعة بين ملوك الشرق.

وعلى الرغم من أن الإسكندر لم يتح له الوقت الكافي لوضع أسس إدارة أمبراطوريته إلا أنه قام ببعض الإصلاحات منها تنظيماته المالية في التوفيق بين القيم الفارسية واليونانية، وكانت بابل ثانية مدينة مهمة في ضرب النقود في عهد الإسكندر. كما جعل إدارة الولايات مكوّنة من ثلاث سلطات،

---

(1) ولعل لآراء أرسطو دخلاً في سلوك الإسكندر واشتطاطه في إنهاك قواه الجسمية، حيث المبدأ المشهور القائل إن خير سلوك إنما يكون في فعالية النفس وسيطرتها على الجسم. ومن آثار ذلك ما اشتهر عن الإسكندر من عزوفه عن النساء.

من الحاكم العسكري والحاكم الإداري والمدير المالي، وقد اقتصر في الحكّام العسكريين على المقدونيين واليونان.

وننهي ملاحظاتنا هذه عن شخصية الإسكندر بالتنويه بأن الإسكندر وما اشتهر به من أعمال جسام صار موضوعاً طريفاً للقصص والأساطير لدى الأجيال التي أعقبته في مختلف الأزمان والأمكنة. وفي الآداب والقصص العربية شيء كثير من ذلك، حتى أن البعض يجعلون الإسكندر هو ذو القرنين المذكور في القرآن وأنه صاحب السد الخاص بيأجوج ومأجوج[1].

---

(1) انظر القرآن الكريم حول خبر ذي القرنين (سورة الكهف، الآية 82 فما بعد)، وحول قصص الإسكندر في الروايات العربية وتأريخ الإسكندر بوجه عام انظر:

(1) M. Lidzbarski, «Zu den Arabishen Alexander geschichte» in **Zeit. Für Assyrologie, VIII** (1893) 263 ff.

(2) Tarn, **Alexander the Great** (1947).

(3) A.R. Anderson, **Alexander's Gate, Gog and Magog and the Enclosed Nations** (1932).

مملكة السلوقيين

لقد رأينا مما مرّ بنا في كلامنا على الإسكندر أن الأمبراطورية الضخمة التي أسسها هذا الفاتح العظيم لم تعش من بعده إذ سرعان ما تحطمت من بعد موت مؤسسها، ودخل قواده وولاته في نزاع فيما بينهم من أجل الاستحواذ على أكبر حصة من أجزاء أمبراطوريته الواسعة وقد دامت تلك الحروب زهاء أربعين عاماً. ولم يكن عند موت الإسكندر من المدعيين بعرشه إلّا أخ أصغر منه كان مضطرب العقل، وكانت زوجته الريفية (روكسانه) قد ولدت ابناً ضاع حقه في المنازعات بين قوّاده. وقد برز من بين المدّعين المتخاصمين (من بعد معركة أبسوس عام 301 ق.م) ثلاثة من مشاهير قواد الإسكندر اقتسموا أمبراطوريته، فنجح أحدهم المسمى بطليموس في تأسيس سلالة البطالسة (البطالمة) في مصر، وصارت مقدونيا وبعض من بلاد اليونان من حصة القائد «أنتيكونس» (بالكاف الفارسية). ودخلت في حوزة القائد الثالث «سلوقس» بلاد الشام[1] والعراق وإيران.

لقد كان سلوقس من بين جميع خلفاء الإسكندر متشبعاً بآراء الإسكندر ومتعلقاً بمثله العليا ولا سيما تعلقه بالثقافة الهلينية ونشرها في الأقاليم الشرقية. كما كان على معرفة تامة بالإيرانيين وببلاد إيران فقد صار قائداً على جيش مؤلف من أشراف الفرس في عهد الإسكندر وقد تزوج نفسه بأميرة

(1) راجع ما ذكرناه عن أحوال بلاد الشام في العهد السلوقي.

فارسية هي «أفامه»[1] التي جاءت منها سلالة السلوقيين الحاكمة. وقد ورث أحسن أجزاء الأمبراطورية الفارسية الإخمينية وتنازل عن بعض الأقاليم الكائنة إلى الشرق من إيران إلى الملك الهندي «جندرا كوفتا» (مؤسس السلالة المورية التي اشتهرت بملكها أصوكا) مقابل ما جهزه هذا بأفيلة كان بحاجة إليها. ومما يذكر عن سلوقس أنه وضع الأسس الإدارية والسياسية والاقتصادية لأمبراطوريته، كما أنه قسمها إلى قسمين تقريباً، القسم الشرقي الذي شيّد له عاصمة جديدة هي سلوقية على دجلة في العراق وأسس في القسم الغربي (ومركزه بلاد الشام) العاصمة الثانية الشهيرة أنطاكية العاصي. وسماها باسم أبيه (أنطيوخس) وصارت أنطاكية من المراكز المهمة وأغنى مدينة في العالم آنذاك، وقد نافست الإسكندرية، كما صارت مركزاً مهماً من مراكز الحضارة الهلنستية. وقد أشرك سلوقس ابنه أنطيوخس الأول في الحكم، وجعله حاكماً على القسم الشرقي منها، ومقره سلوقية. ومع أهمية هذه المدينة إلا أن استقرار الملك نفسه في العاصمة الغربية قرب البحر المتوسط يشير إلى تغير في اتجاه السلوقيين في نقل مركز الثقل في سياستهم من الشرق إلى الغرب إلى قرب مركز العالم الهليني، وكان لهذا النقل أثر سيئ في تضاؤل سلطان السلوقيين ونفوذهم في الأقسام الشرقية حتى انفصلت عنهم نهائياً وآل أمرهم إلى أن انحصرت مملكتهم في بلاد الشام ثم ابتلعتها روما على ما سنبيّن فيما بعد. وكان تأسيس سلوقية على دجلة أهم عامل في موت مدينة بابل حيث بدأ أرباب التجارة والطبقات المهمة تهجرها إلى العاصمة المهمة، وتضاءل شأن بابل إلى مدينة صغيرة.

توالى على العرش السلوقي من بعد مؤسس المملكة سلوقس الأول ثمانية عشر ملكاً معظمهم باسم أنطيوخس وسلوقس، وسنرى أن أكثرهم كانوا ملوكاً ضعفاء، وأنه لم يكد يمضي قرن ونصف قرن على تأسيس المملكة على

(1) لقد سبق أن ذكرنا في كلامنا على بلاد الشام أن سلوقس شيّد زهاء أربع مدن سميت باسم أفامه، أشهرها أفامية على العاصي.

يد سلوقس (312 ـ 280 ق.م) حتى فقدت جميع أراضيها في الشرق وانحصرت في سوريا. وظهرت أولى بوادر الضعف في عهد أنطيوخس الأول ابن سلوقس (الملقّب سوتير المخلص 280 ـ 261 ق.م) فقد استقلت في عهده بلاد فارس وأصبحت تابعة بالاسم فقط، كما أنه في عهد خلفه أنطيوخس الثاني (الملقب نيوس أي الله 261 ـ 246 ق.م) انفصلت أقاليم مهمة من أجزاء الأمبراطورية الشرقية. فقد انفصلت مملكة بلاد البخت التي أسسها الإغريق شرقي بلاد إيران[1]، وانفصلت بلاد الفرثيين من بعد عام واحد (249 ـ 248 ق.م). وقد حاول الملك الذي خلف أنطيوخس وهو سلوقس الثاني (646 ـ 226 ق.م) إعادة الأوضاع في الشرق فأرسل جيشاً على الفرثيين أوقع فيهم الهزيمة ولكن ثورة خطيرة في أنطاكية اضطرته إلى ترك بلاد إيران ومنعته من متابعة انتصاره، حيث عاد إلى سوريا، وتفاقم الحال من بعد موت سلوقس حيث فقد السلوقيون أجزاء كثيرة من آسيا الصغرى.

وفي هذه المرحلة الحرجة من تأريخ السلوقيين جاء إلى العرش السلوقي ملك كفوء هو أنطيوخس الثالث الملقّب بالكبير (223 ـ 187 ق.م)، وقد تميّز هذا بمقدرة وبُعد نظر سياسي، فاستعادت في عهده المملكة سابق عهدها. فقد استطاع أن يخضع الولايات الثائرة وغزا بلاد إيران وسحق الثورات هناك، وحارب الفرثيين، وهزم ملكهم (ارشاق) فخضع له وقدم الجزية، فسار بجيشه المظفر إلى بلاد البخت وشنّ الحرب على ملكها الإغريقي «يوثيديموس» الذي

---

(1) كانت هذه المملكة تشمل أفغانستان الحالية وتمتد إلى شمال سيحون، وقد أسكن الإسكندر في هذه المواضع نحو (20,000) جندي من جنوده من المرضى والجرحى، وقد ثاروا من بعد موت الإسكندر مطالبين بإرجاعهم، ولكن بقيت منهم جماعة كوّنت قوة عسكرية في ذلك الإقليم، وبرز منهم شخص إغريقي باسم «ديودوتس» صار والياً على بلاد البخت، واستقلت هذه البلاد في عهد سلوقس الثاني عن سلطان السلوقيين وقد اندمج فيها الإغريق بالإيرانيين، واشتهرت بالزراعة والتجارة ولا سيما تجارة «الترانزيت» حيث كانت تربط إيران والغرب بالصين وجنوبي روسيا، وكانت هذه المملكة من جملة الوسائط التي انتشرت بها الثقافة الإغريقية في هذه الجهات وإلى الهند وأواسط آسيا.

أسس سلالة حاكمة جديدة وانتهت الحرب بين الطرفين بمعاهدة صداقة تزوج على أثرها ابنه «ديمتريوس» من ابنة الملك السلوقي، وعبر أنطيوخس من بعد ذلك هندوكوش فلاقى ملك الهند في وادي كابل وجدد معاهدة الصداقة السابقة. ورجع من بعد ذلك عن طريق خليج فارس إلى سلوقية. ويبدو أن نشوة هذه الانتصارات قد أثرت في أنطيوخس فقرر التحرش بالرومان، كما حاول فتح مصر ولكن الرومان حذروه من ذلك لأنه كانت لهم مصالح حيوية في الإسكندرية. كما عزم على استرجاع آسيا الصغرى ولم يكتف بذلك بل إنه عبر المضايق ليستولي على مقدونيا ولكن روما علمته درساً قاسياً حيث اندحر في معركة مع الجيوش الرومانية في مغنيسيا، وفرضت عليه معاهدة صلح (188 ق.م) لم يقتصر الأمر فيها على أنه فقد ممتلكاته في آسيا الصغرى بل فرضت عليه غرامة باهظة. وقتل من بعد ثلاث سنوات في غزوة له في بلاد اللر (لورستان). وقد ظهر في عهد أنطيوخس الكبير «يهوذا المكابي» الذي قاد ثورة اليهود في زمن أنطيوخس الرابع وقد نجحت الثورة، وأطلق لليهود حرية العبادة حسب شعائرهم الدينية، على ما بيّنا ذلك في كلامنا على تأريخ سوريا.

وكان أنطيوخس الرابع (175 ـ 164 ق.م) آخر ملك من السلوقيين وهو على شيء من القوة، وقد جاهد لمنع سير الأمبراطورية والمملكة إلى الانحلال والانهيار، ومع أنه نجح في حربه في مصر ضد البطالسة إلا أن هذا النصر لم يفده شيئاً. كما حاول توحيد الأقوام التابعين للسلوقيين عن طريق غرس الثقافة اليونانية فلم يفلح في هذه المحاولة. ولم يمض على موته عهد طويل حتى فقد السلوقيون العراق. وكانت نهاية السلوقيين بصفتهم عاملاً مؤثراً في التأريخ في زمن ملكهم المسمى أنطيوخس السابع (139 ـ 129 ق.م) إذ عظم في زمنه شأن الفرثيين في بلاد خراسان وامتدت فتوحهم من بلاد البخت إلى الفرات. وقد نجح أنطيوخس في بادىء الأمر في الاحتفاظ ببلاد بابل ولكن الملك الفرثي (افراهاط) الثاني دحر جيشه وأفنى معظمه في المعركة، وانتحر الملك السلوقي. وسنذكر أخبار السلالة الفرثية في البحث الخاص بالفرثيين. وتوالت على السلوقيين المحن بانفصال الولايات وظهور المدّعين والغاصبين في

العرش السلوقي، وانحصرت مملكتهم في سوريا، ثم فقدت استقلالها إزاء قوة روما المتعاظمة. وكان آخر ملوكهم أنطيوخس التاسع (115 ـ 95 ق.م).

ملاحظات عن العهد السلوقي في العراق:

دام العهد السلوقي في العراق زهاء القرنين (312 ـ 135 ق.م) وقد انتهى نفوذهم في العراق في عهد أنطيوخس السابع (الملقب سيديتس 8/ 139 ـ 129 ق.م) الذي دحره الملك الفرثي المسمى «افراهاط» الثاني (137 ـ 127 ق.م)، فانحصر نفوذ السلوقيين في سوريا وكانت مملكتهم قد أخذت في الانهيار حتى في سوريا إذ إنها تجزأت إلى ثلاث دويلات استمرت حتى 95 ق.م. ومما يجدر ذكره عن العهد السلوقي في العراق أن نوعاً من الانتعاش قد أصاب الحضارة البابلية، ولا سيما في علم الفلك والرياضيات فقد جاءتنا مجموعة من السجلات الفلكية والرياضية المهمة من عهد سلوقس (نيقاطور) (312 ـ 280 ق.م) تدوّن أرصاداً فلكية لها قيمة علمية كبيرة. وقد استمر الانتعاش إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد. وجاءنا من عهد الملك التالي الذي خلف سلوقس وهو أنطيوخس (سوطر) (280 ـ 260 ق.م) نموذج من التدوين التأريخي يسجل بعض الحوادث المعاصرة من ذلك ذكر بعض المدن البابلية مثل بابل وكوثى وبورسبا وورد اسم سلوقية بصفتها مدينة الملك أي العاصمة، وجاءنا من زمن هذا الملك سجل (على ختم طين) بالخط المسماري دوّن فيه بعض أعمال الملك العمرانية مثل تعميره معبد الإله «نبو» في بورسبا. وقد سمى الملك نفسه في هذا الختم «ابن سلكو» المكدوني. وعلى الرغم من هذا الإحياء الطارىء على الخط المسماري فإنه كان يسير إلى الموت وقد انحصر استعماله في السجلات الفلكية والنصوص الرياضية وعدد قليل من العقود والوثائق التجارية وبعض الأعمال المتعلقة بالشعائر الدينية. ومن الطريف ذكره أن بعض ألواح الطين التي جاءتنا من هذا العهد قد كتبت باللغتين البابلية والإغريقية (لغة اليونان من القرن الثاني ق.م) إذ ترجمت فيها الكلمات البابلية. وقد استمر الخط المسماري في الحياة في

السنة 10 و9 و6 ق.م. ومما يذكر كذلك عن العهد السلوقي أن أحد الكهنة البابليين المسمى «برعوشا» (بيروسس) قد كتب جميع ما يعرفه عن تأريخ العراق في عهد الملك السلوقي «سلوقس» وقد كتبه باللغة اليونانية ولكن الأصل ضاع ولم يأتنا من كتاباته إلا الاقتباسات التي أخذها عنه بعض مؤرخي الرومان. وقد دوّن أثبات الملوك من أقدم الأزمان إلى عهد الإسكندر الكبير. وكانت كتابات برعوشا من جملة المصادر الرئيسية القليلة عن تأريخ العراق قبل أن تحلّ رموز الخط المسماري.

ملاحظات عن الأمبراطورية السلوقية:

1 ـ مع أن السلوقيين كانوا ضعفاء بالنسبة إلى البطالسة في مصر غير أنهم كانوا هم ورثة الإسكندر الكبير لأنهم أخذوا القسم الأعظم من أمبراطوريته وقد كانت تخوم مملكتهم في مبدأ الأمر تمتد من الساحل الإيجي إلى تخوم الهند ولكن أمبراطوريتهم لم تكن ثابتة في حدودها، وبالنظر لسعتها لم يكن من السهل حكمها والمحافظة عليها. ومما أضعف أمرها النزاع المستمر بين البطالسة وبين الملوك السلوقيين، وكانت أساطيل البطالسة عائقاً كبيراً في ازدهار التجارة في المملكة السلوقية، حتى أنه كان يعسر على السلوقيين الاتصال باليونان للتجارة أو بسط النفوذ. وآل أمر الأمبراطورية السلوقية إلى أنها انحصرت في ديار الشام، حتى أنها دُعيت باسم مملكة «سوريا»، ولكن إذا قيس حكم السلوقيين من الناحية الحضارية فإنه كان أهم من عهد البطالسة في مصر بالنظر لاستمرار الحضارة الإغريقية (بشكلها الهلنستي) في أنطاكية وغيرها من المدن. فقد نشأت جملة مدن إغريقية عاشت حياة إغريقية وتمتعت بنوع من الاستقلال السياسي مع اعترافها بالنفوذ السلوقي. وقد عمل مؤسس السلالة سلوقس وابنه أنطيوخس الأول على تشجيع قيام مثل هذه المدن والدويلات في آسيا الصغرى وفي سوريا وفي فارس وفي تخوم الهند التي نشأت فيها «دولة البخت» الإغريقية، وهكذا حقق هذان الملكان بعض ما كان يحلم به الإسكندر من بثّ الحضارة الإغريقية في

الشرق وتشجيع الإغريق على تأسيس مستعمرات لهم في أنحاء الشرق. وكانت هذه الدويلات جمهوريات صغيرة يدير شؤونها الداخلية السكان أنفسهم. وعن طريق هذه الدويلات وغيرها من طرق الاتصال انتشرت حضارة الإغريق في الشرق وتأثرت بحضارة الشرق فنشأت من التقاء الحضارتين حضارة يصحّ أن نعدّها حضارة إغريقية ولكنها متأثرة بحضارات الشرق، وهذه هي الحضارة التي أطلقنا عليها اسم الحضارة «الهلنستية» أي الحضارة الشبيهة بالهلينية. وسنذكر عنها بعض الشيء في موضع آخر. وكان من جملة هذه الدويلات الإغريقية مدينة نشأت على الفرات هي «دورا يوروبس» (الصالحية الآن) التي قامت في حدود 300 ق.م.، وعندما ظهر الفرثيون وعظم شأنهم صارت في حوزتهم، ولكن الرومان استعادوها منهم وصارت مدينة رومانية مهمة. وقد أظهرت التنقيبات التي أجريت فيها مظاهر مهمة عن الحضارة الهلنستية والرومانية. ومن الدويلات التي نشأت في هذا العهد دولة عربية من الأنباط في «البتراء» فقد استغل الأنباط النزاع بين البطالسة والسلوقيين فأنشؤوا مملكة واتخذوا البتراء (سلع القديمة) عاصمة لهم، كما نشأت تدمر في أثناء النزاع بين الفرثيين الذين أعقبوا السلوقيين وبين الرومان. وقد ازدهرت دولة البتراء وعاشت زهاء الثلاثة قرون، منذ القرن الثاني ق.م. (164 ق.م) إلى أن أصبحت تحت نفوذ الرومان وضمها الأمبراطور تراجان في النهاية إلى الأمبراطورية الرومانية، وقد سيطر النبط أصحاب «البتراء» على طرق البادية المهمة المؤدية إلى موانىء البحر المتوسط وإلى موانىء اليمن فنافسوا تجار الإسكندرية الإغريق في تجارتهم بين الهند وأنحاء الأمبراطورية الرومانية. وقد صاحب انتعاش النبط الاقتصادي تعاظم في النفوذ السياسي، فامتد نفوذهم وسلطانهم من طور سيناء إلى دمشق ومن تيماء إلى بئر سبع.

وعلى الرغم من محاولة السلوقيين الاحتفاظ بالحضارة الإغريقية فإنهم لم يسلموا من تأثيرات الحضارات الشرقية، فكما أن الإسكندر الكبير قد تأثر بنظام الحكم في الشرق وصار ملكاً مقدساً يستمد سلطته من الآلهة كذلك اتخذ الملوك السلوقيون هذه العادات. فصار الملك ذا صبغة مقدسة بل إنه صار إلهاً تجب

عبادته والخضوع له. ولكن بوسعنا أن نقول إنه مع ضعف الأمبراطورية السلوقية فإنها هي التي حفظت الحضارة اليونانية في الشرق وسلمتها إلى روما.

2 ـ ومن الأمور التي تُذكر عن سياسة السلوقيين الأوائل في إدارة أمبراطوريتهم المؤلفة من أقوام مختلفة وبضمنها الأقوام الإيرانية ما سبق أن نوّهنا به من إدخال الجماعات الإغريقية في مواطن هذه الأقوام وتأسيس المستعمرات من الإغريق ومن هؤلاء وقد استهدف السلوقيون من ذلك عدا محاولتهم نشر الثقافة والنفوذ تسهيل شؤون إدارة الأمبراطورية، فأُنشئت المستعمرات العسكرية وغير العسكرية وهي عين السياسة التي شرع بها الإسكندر، وقد ظهرت هذه الخطة واضحة بوجه خاص في بلاد إيران حيث أُنشئت جملة مدن مهمة على الطريق العسكري بين سلوقية وبلاد البخت، وهو الطريق القديم المار من كرمنشاه وهمدان، ولإيصال هذا الطريق إلى البحر أسست ما لا يقل عن تسع مدن في سواحل خليج فارس ومن بين ذلك مدينة سُمِّيت أنطاكية في بوشير التي أخذت مكان مدينة عيلامية سابقة كما أعيد تأسيس «اكبتانا» وبنيت مدينة جنوبها وسميت باسم اللاذقية (نهاوند)، وسميت مدينة الري القديمة باسم «يوربوس» وكان سكان المدن الجديدة خليطين من السلوقيين والمواطنين المحليين. هذا وقد سبق أن رأينا المدن التي أسسها السلوقيون أو أعادوا تسميتها في بلاد الشام. وأوجد السلوقيون جهازاً كفوءاً في الإدارة واتبعوا نظاماً مالياً مرناً شبيهاً بالنظام الإخميني، وكان لهم جيش من الموظفين لجمع الضرائب.

ومما يلاحظ عن نتائج فتوح الإسكندر من تأسيس أمبراطوريته العالمية ثم انقسامها إلى ثلاث ممالك هلنستية (أو بالأحرى إلى ثلاث أمبراطوريات) أنها أوجدت انقلاباً في حياة العالم الاقتصادية آنذاك، بسبب الاتصالات الوثيقة بين أقطار العالم، بحيث إنه إذا وقع اضطراب ما في الحياة الاقتصادية لأحدها أثّر ذلك في الجهات الأخرى، كما أن أوضاع العالم الاقتصادية أصبحت تتأثر إلى حد كبير بالأوضاع الاقتصادية المحلية، وهذا حال لم يكن مألوفاً بهذه الدرجة في

الأزمان السابقة. كما أن انتشار العملة النقدية في هذه الرقاع الشاسعة واستعمالها أساساً للتعامل بمقياس لم يكن معهوداً من قبل كان له أثره البعيد في تطور العالم الاقتصادي. وإن الثروات الكبيرة والكنوز المعدنية التي وضعها فتح الإسكندر في السوق العالمية قد أثرت أثراً عميقاً بحيث إن قيمة الذهب والفضة قد هبطت عن قيمتها السابقة بنحو (50) بالمائة.

ومن الممكن القول إن المملكة السلوقية في العهد الذي شغل بحكم سلوقس الأول وخلفائه الأوائل قد ازدهرت في الناحية الاقتصادية. فقد تم نوع من التوازن بين الأجور والأسعار مما أدّى إلى تحسن أوضاع معيشة السكان[1]. وإن ازدياد أسعار الفائض يدل على ازدهار المصالح التجارية والطلب المتزايد على رأس المال. ولكن لم تدم هذه الحال من الموازنة والازدهار الاقتصادي زمناً طويلاً، إذ حلّ الاضطراب في المملكة السلوقية من جراء ضعف السلطة المركزية وضياع بعض الأقاليم المهمة، كما أن الأزمة تفاقمت بتدخل روما في الأقاليم السلوقية وتغير الأوضاع السياسية. ويرى بعض الباحثين أن الدولة السلوقية مؤسسة رأسمالية قوية، وكان الملك على رأس هذه المؤسسة، يدير احتكار المواد الخام والمواد المصنوعة وهذه بذور التصميم والسيطرة الاقتصادية في العهود الحديثة.

شيء عن الحضارة الهلنستية:

لقد نتجت فتوح الإسكندر في الشرق وقضاؤه على الأمبراطورية الفارسية الإخمينية كما مر بنا سابقاً نتائج أثرت في الحضارة البشرية بإمكاننا أن نحصرها في صنفين: نتائج سياسية ونتائج ثقافية (حضارية). أما النتائج

---

(1) يراجع في ذلك المرجعين المهمين:

(1) Ghirshman, **Op. Cit.**, 219 ff.

(2) Rostovtzeff, **Social and Economic History of the Hellenistic World,** II, ch, VI.

السياسية فهي تأسيس أمبراطورية أوروبية غربية ضمت إليها أقطار الشرق القديم المتمدن ونستطيع أن نعدها فاتحة النفوذ الأوروبي في الشرق.

أما النتائج الثقافية لفتح الإسكندر فإنها فاقت في أهميتها النتائج السياسية وكان لها تأثير بعيد المدى في سير الحضارة. لقد نشر الإسكندر الحضارة الهلينية في جميع الأقطار الشرقية. وكانت هذه الأقطار تعيش ببقايا من الحضارات الشرقية الآفلة مثل الحضارة البابلية والحضارة المصرية، وتحت نفوذ الفرس الإخمينيين الذين ورثوا عن هذه الحضارات. فالتقت الحضارة الإغريقية ببقايا حضارات الشرق. ونتج من هذا الالتقاء اقتباس الشرق الحضارة الإغريقية وتأثر الحضارة الإغريقية والإغريق أنفسهم بحضارات الشرق. فتكوّنت حضارة يصح أن نعدها خليطة، هي حضارة إغريقية متأثرة بحضارات الشرق. ولذلك نسميها بالحضارة الشبيهة بالهلينية أي الحضارة الهلنستية (Hellenistic) شملت القرون الثلاثة قبل ميلاد المسيح، أي القرون الثلاثة التي أعقبت موت الإسكندر، فمن أمثلة تأثر الغرب الإغريقي بالشرق انتشار الديانة المسيحية الشرقية من فلسطين إلى الغرب. وكان اليونان أول من اعتنق هذه الديانة من الأوروبيين ونشروها بدورهم في بعض جهات أوروبا.

ولهذه الحضارة أهمية خاصة لأنها عدا أهميتها في الحياة الشرقية والغربية كانت تراثاً مهماً للرومان عندما أخذوا يوسعون سلطة دولتهم ويزيدون في أسس تراثهم اللاتيني الضعيف. ويصح أن نعد الدولة الرومانية نفسها دولة «هلنستية». وانتقل تراث الإغريق إلى أوروبا الغربية في العصور الوسطى بهيئة حضارة «رومانية ـ هلنستية».

ومن مظاهر الحضارة الهلنستية انتشار اللغة الإغريقية في الشرق واستعمالها في معظم شؤون الحياة المهمة. وكانت هذه اللغة باللهجة «الأتيكية» التي صارت لغة العلم والحضارة. ومن أمثلة ذلك أن اليهود الذين كانوا يعيشون في الإسكندرية قد اضطروا إلى ترجمة التوراة إلى اليونانية ليتسنى لليهود المتعلمين أن يقرؤوا التوراة بسبب انتشار اللغة الإغريقية. وقد اشتهرت

في هذا العهد جملة مدن مهمة كانت مواطن لهذه الحضارة وعلى رأسها مدينة الإسكندرية المشهورة ويلي ذلك أنطاكية ومدن أخرى مثل سلوقية في العراق و«دورا يوروبس» (الصالحية الآن على الفرات) و«برغاموم» في ساحل آسيا الصغرى الغربي. وقد بلغت الحضارة الهلنستية في هذه المدن، ولا سيما في الإسكندرية، أوج نموها. ولعل أكثر ما تتّصف به هذه الحضارة «الحياة الحضرية» التي بلغت في كثير من أوجهها ومظاهرها حدّاً تشبه فيه الحياة العصرية (Modern) الحاضرة في أوجه المعيشة المختلفة كالترف والأناقة في البيوت والعيش واتساع التجارة وتجمع الثروة، وكان فيها اتجاهات واضحة في الاختراع وتطبيق العلوم على الاختراعات وصنع الآلات و«المكائن» لتحسين وسائل العيش المادية. ولعل أكثر ما يظهر ذلك في بناء البيوت والعمارات العامة وتجهيز دور السكنى بالمياه الجارية بالأنابيب، وبالحمامات وتصريف مياه القاذورات. وكانت الشوارع والبيوت والأبنية العامة توضع تصاميمها بالحساب والتخطيط.

ولكن حصل في نتاج الحضارة الهلنستية في الأدب والفن تدهور بالنسبة إلى الحضارة الإغريقية، ولا سيما من عهد «بريكلس». فقد نجد في النحت اتجاهات جديدة في زيادة المهارة واتساع مدى التعبير (كما في منحوتات برغاموم وهي الدويلة التي تكوّنت في ساحل آسيا الصغرى الغربي)، مما جعل بعض النقاد يقدرونه تقديراً عالياً. ولكن هذه الاتجاهات الجديدة في النحت لا تعوض ما فقده النحت من الخصائص في عهد الإغريق، ولا سيما بساطته وما يتّصف به من صدق التعبير. والتدهور الذي طرأ على الأدب أوضح من ذلك. فمن العبث أن نبحث في آداب هذا العهد عن الموسيقى الرزينة التي نجدها في أشعار «ايسكيلوس» و«سوفوكلس». وكان يغلب على شعراء هذا العهد أنهم من العلماء، كما في شعراء الإسكندرية. وقد تركوا مواضيع الشعر القديمة، وهي المواضيع «الدراماتيكية» كالحروب والمصير والنكبات، وصاروا يفضلون المواضيع المفرحة المسرة والنقد الهزلي. وعلى رأس هؤلاء الشاعر الكوميدي «مياندر» (342 ـ 290 ق.م) الذي أوجد هذا النوع الجديد من «الكوميدي»،

وأحب الشعراء كذلك مواضيع تصور مشاهد الطبيعة الجذابة كمشاهد الريف والرعاة والجداول والشجر، وقد صوروها بالشعر الموسيقي الجذاب، الذي كان يحبه سكان المدن المنشغلين بشؤون التجارة والأعمال. وكان أعظم شعراء هذا العهد في مثل هذه المواضيع شاعر صقلي اسمه «ثيوقريطس»[1] (القرن الثالث ق.م).

التعليم والعلم والفلسفة:

وبقي أن نقول كلمة موجزة في التعليم والعلم والفلسفة في هذا العهد. ولعل أول ما يلفت انتباهنا في هذا الموضوع كثرة المدارس نتيجة رغبة الناس في التعليم والتثقيف. وكان كثير من هذه المدارس على نفقة الدولة. وأسست المكتبات وخزانات الكتب وضمت فيها المؤلفات الكثيرة فقد قيل إن مكتبة الإسكندرية كانت تحتوي على نصف مليون مجلد (أي نصف مليون لفة من ورق البابيروس) وقد راج في هذا العهد فن استنساخ الكتب ونشرها، وترقى فن تنظيم خزانات الكتب، وكذلك علوم اللغة من نحو وصرف ومفردات. وقد ظهر في هذا العهد أول كتاب في نحو اللغة اليونانية ألفه «ديونيسوس» (120 ق.م) وقد أسس البطالسة في الإسكندرية تحت رعايتهم معهداً للبحوث سمي «المتحف» الذي كان يضم جماعة من العلماء والباحثين كان تحت تصرفهم الكتب والمختبرات ولهم الحرية في اختيار الموضوعات التي يريدون أن يبحثوا فيها. ولما كانت الرغبة في التحري والبحث عن الحقائق قد انتشرت في جميع الأقطار الواقعة تحت تأثير هذه الحضارة، فإن البحوث العلمية لم تنحصر في «متحف» الإسكندرية فقد عاش أرخميدس المشهور (287 ـ 212 ق.م) مثلاً في «سرقوسة» واشتهر بالرياضيات والفيزياء. وقد بنى البطالسة مرصداً فلكياً في الإسكندرية[2]. ومع أن التلسكوب لم يخترع فإن هذا المرصد

(1) وقد اكتسبت قصيدته (Idylls) مكانة في الأدب العالمي مدة ألفي عام.

(2) انظر كلامنا على تأريخ مصر حول الإسكندرية وخزانة كتبها وأخبار حرقها.

قد حقق ملاحظات واكتشافات فلكية مهمة. وكان أحد الفلكيين من أهل جزيرة «ساموس» (وهو أرستارخوس) قد برهن على أن الأرض والسيارات الأخرى تدور حول الشمس ولكن الظاهر أنه لم يأخذ بنظريته أحد من معاصريه. ومن مشاهير الفلكيين «راتوسثينيز» من علماء الإسكندرية (القرن الثالث ق.م) الذي كان أول من قاس حجم الأرض وكانت الطريقة التي اتبعها تدل على مهارة ومعرفة عالية، فإنه قاس الفرق بين سمت الشمس في نقطتين معينتين، أولاهما بئر في الشلال الأول من النيل والأخرى في الإسكندرية أي إنه قاس بالدرجات جزءاً من قوس محيط الأرض وهو الجزء الواقع بين الإسكندرية والشلال الأول ومن ذلك استطاع أن يحسب طول الدرجة من محيط الأرض. وقد حصل على نتيجة قريبة جداً من الواقع. ومن أعلام علماء الإسكندرية الرياضي الشهير «إقليدس» (القرن الثالث ق.م) الذي لا تزال هندسته تدرس في الوقت الحاضر. وقد اشتهر هذا العهد بالرحلات والاستكشافات الجغرافية، فتمكن الفلكي «اراتوسثينيز» الذي أشرنا إليه من تأليف كتاب في الجغرافية وقد رسم للعالم المعروف خريطة وضع فيها الأقاليم بصورة صحيحة، وكان أول جغرافي وضع في خريطته هذه خطوط الطول والعرض، فيكون بذلك مؤسس الجغرافية العلمية. أما البحوث الخاصة بعالم الحيوان والنبات فقد ظل أرسطو وتلاميذه القادة فيها، ولم يضف إليهم المتأخرون شيئاً يذكر. ولكن امتازت دراسة علم التشريح بأن صارت دراسة جسم الإنسان في «متحف» الإسكندرية تطبق على أجسام البشر من المجرمين المحكوم عليه بالإعدام، فأكتشفت بعض المعلومات عن الجملة العصبية. وصارت الإسكندرية بوجه عام مركزاً مهماً من مراكز البحوث الطبية في العالم القديم.

أما عن الفلسفة الهلنستية فقد احتفظت «أثينا» بالزعامة في الفلسفة حيث استمرت بحوثها في مدارسها المشهورة مثل «الأكاديمية» التي أسسها أفلاطون و«الليسيوم» التي أسسها أرسطو. ومع ذلك فإن المآثر وطرق البحث والمواضيع التي اشتهرت بها هذه المدارس لم تحقق متطلبات العهد الجديد. فمثلاً إن محور

التفكير السياسي الأخلاقي في كل من المدرستين كان يدور على «دولة المدينة» ولكن هذا النظام من الحكم لم يكن في العهد الجديد النظام الأساسي السائد. فبدلاً من دولة المدينة صار مصير الناس في حكومات ملكية ليس لهم فيها نصيب في إدارة الحكم، وعاش الناس في مجتمعات عالمية خليطة تركت عبادة الآلهة القديمة ومقاييس الأديان القديمة، فأصبحوا مجردين من إيمان ما أو من ضمان ما، فالتجأ أوساط الناس إلى عبادات أشبه ما تكون سرية كانت شائعة في الشرق وكانت عناصر مهمة دخلت في المسيحية. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن كلمة (Cosmopolitan) ترجع إلى هذا العهد، ومعناها المواطن العالمي.

أما الطبقة المثقفة فلم تتخل عن التعليل العقلي الفلسفي واستمرت في تحريها، ونشأ من ذلك نوعان من الفلسفة تميزان هذا العهد الجديد. وهما الفلسفة الرواقية[1] التي أسسها (زينو). والأخرى الفلسفة الأبيقورية لمؤسسها «أبيقور» وتتّفق الفلسفتان في نظرتهما التشاؤمية في تقدير الحياة والزهد بها وبقيمتها. ولكن لما كان محتماً على الإنسان أن يعيش هذه الحياة، فقد أوصى الرواقيون في فلسفتهم بمبدأ أخلاقي مبني على التحمل وعدم الاكتراث بالبؤس والتعرض إلى الألم. فكانت الفضيلة عندهم الصبر والتحمل. أما العلاج الذي ارتأته الفلسفة الأبيقورية فهو سبيل «اللذة والمسرة» ولكن اللذة والمسرة عند مؤسس الفلسفة تشمل لذة الجسم والعقل غير أن أتباعه لم يراعوا اللذتين على الدوام. ولذلك أصبحت الكلمة «أبيقوري» تعني عندنا الانغماس في اللذة والشهوة وتستعمل كلمات «رواقية» في لغات الغرب مرادفة للصبر والتحمل وعدم المبالاة[2].

---

(1) وهي Stoicism المشتقة من Stoa أي الرواق وهو رواق مشهور في أثينا كان يدرس عنده «زينو» مؤسس الفلسفة فعرفت فلسفته بالرواقية وأتباعه بالرواقيين. وزينو نفسه من أصل سامٍ من جزيرة قبرص وقد عاش بين القرنين الرابع والثالث ق.م.

(2) انظر كلامنا أيضاً على الفلسفة اليونانية في القسم الخامس من هذا الكتاب.

صورة تبين صفوف العمد الفخمة في القصر الملكي في برسيبوليس كما كانت عليه في الأصل.

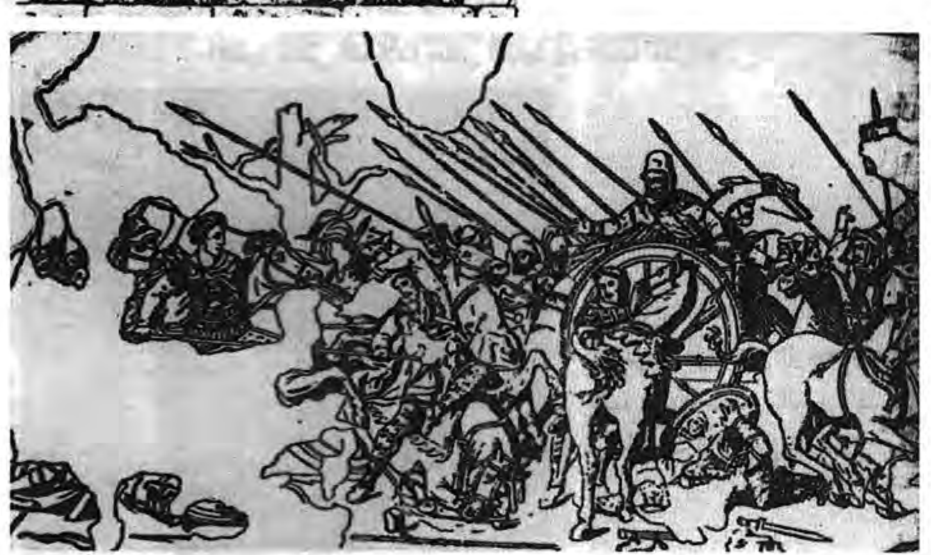




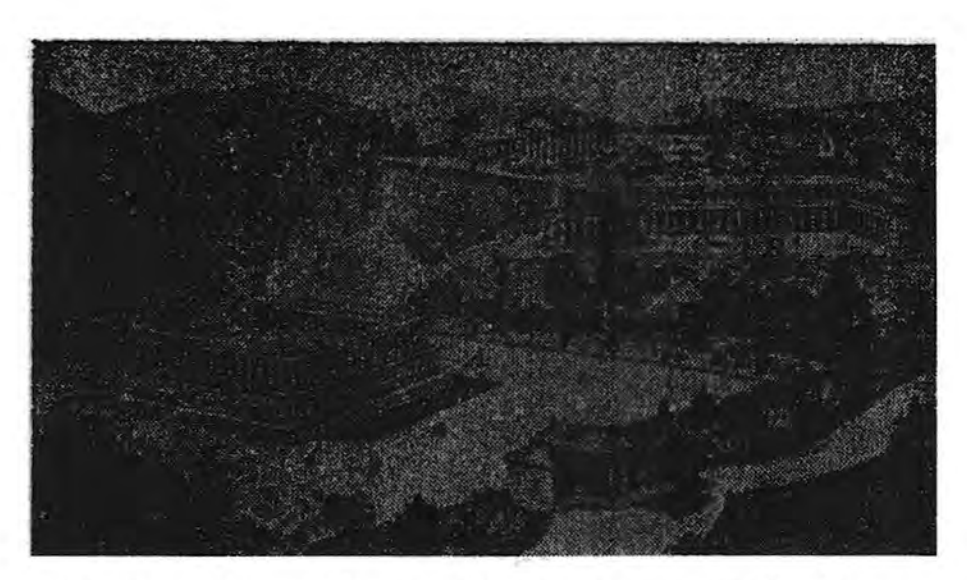
نماذج قديمة من النقود الفضية المسكوكة التي انتشر استعمالها في الأمبراطورية الفارسية من بعد اختراعها في ليديا (القرن السابع ق.م). فالرقم (1) نقد ليدي (550 ق.م) ورقم (2) نقد إغريقي من جزيرة خيوس (500 ق.م) ورقم (3) نقد كاري (650 ـ 550 ق.م) ورقم (4) دراخما (درهم) أثيني يرى في وجهه رأس الآلهة أثينا وفي قفاه بومة مع غصن زيتون واسم أثينا.



نماذج من جنود الفرس النبالة (يحمل هذان الجنديان الرماح لأنهما من حرس القصر الملكي). لاحظ زي لباس الجنود المقتبس عن الزي البابلي. صور مثل هؤلاء الجنود على جدران القصور بالآجر المزجج.



مشهد طريف يمثل نهاية موقعة إيسوس الشهيرة بين الإسكندر الكبير (وهو الشاب في الجهة اليسرى من الصورة) وبين دارا الثالث (الذي يشاهد في اللحظة التي أدار عربته في هربه).



بعض الأبنية العامة في مدينة «برغاموم» كما كانت عليه بالأصل. وبرغاموم مدينة شهيرة ازدهرت في العصر الهلنستي في الساحل الغربي من آسيا الصغرى وصارت في القرن الثالث ق.م. دولة مدينة مزدهرة في عهد خلفاء الإسكندر. ويشاهد في الصورة المرافق المهمة في المدينة كسوقها ومكتبتها الشهيرة وقصرها الملكي. وقد هدّد الأمبراطور الروماني تراجان (القرن الثاني للميلاد) بعض أبنيتها ولا سيما معابدها.



رأس منحوت من الرخام يمثل الإلهة أفروديت (من العهد الهلنستي أي السلوقي في العراق).

الفصل الخامس والثلاثون

الفرس الفرثيون والساسانيون

الفرثيون (247 ق.م. - 226ب.م):

لا يعرف بوجه التأكيد أصل الفرثيين الأوائل وتشير أزياؤهم وعاداتهم ولغتهم إلى أنهم كانوا من القبائل البدوية (الهندية الأوروبية) هذا وإن مصادرنا عن أصلهم قليلة ضئيلة، وتشير هذه المصادر القليلة إلى أنهم ينتمون إلى القبيلة المسماة «فرني» أو فارني (بارني (Parni)) وهذه بدورها من مجموعة قبائل اسكيثية واسعة اسمها «داهي» (Dahae) كانت تعيش حياة بدوية في السهوب الكائنة بين بحر قزوين وبحر آرال، واشتهرت بالفروسية والحرب. واسم الفرثيين نسبة إلى الإقليم الذي استولوا عليه في إيران، فقد قطنوا هضبة إيران في إقليم خراسان الذي يحدد بلاد فرثية. أما اسمهم وهو «الفرثيون» فقد عرفوا به بعد أن نزحوا إلى الجنوب إلى الإقليم الفارسي المسمى «بارثوا» (وهو إقليم خراسان) قبل 250 ق.م. ولذلك فإن اسم الفرثيين الوارد في المآثر الفارسية الإخمينية وفي المصادر اليونانية لا يشير إلى هؤلاء الفرثيين بل إلى أقوام أقدم عهداً استوطنوا في هذا الإقليم. وقد ورد ذكر هذه البلاد من أزمان أقدم في الأخبار الآشورية ولا سيما من عهد «أسرحدون» (القرن السابع ق.م) الذي أرسل حملة توغلت إلى جنوبي بحر قزوين وجاءت ببعض الأسرى من بلاد وردت باسم «برتوكا» وهذا هو إقليم «بارثوا» الوارد في أخبار كورش. فيتضح مما ذكرناه أن اسم الفرثيين نسبة إلى الإقليم الذي استوطنوه في إيران ولا يعلم الاسم الذي سموا به أنفسهم، ويرى بعض الباحثين أن اسم فرثي معناه

«محارب فارسي». وعرفت سلالة ملوكهم أيضاً بالأرشاقية نسبة إلى أرشاق (Arsaces) الذي كان أبرز شخصية قاد الثورة على السلوقيين. والمعروف عن تأريخ نشوء دولتهم أنه ظهر بينهم في حدود 250 ق.م. قائدان أخوان هما أرشاق الذي ذكرناه و«تيريداتس»، وقد قاد هذان جموع الفرثيين واستوليا على إقليم كبير في جوار بلاد البخت، كما استحوذا على الإقليم المسمى بلاد فرثية وقتلا الوالي من قبل السلوقيين.

وعلى الرغم من اختلاط الفرثيين بالأقوام الأخرى وتأثرهم بالحضارات الشرقية والحضارة الهلنستية فإنهم ظلوا يحافظون على عاداتهم البدوية القديمة مثل الفروسية والعصبية العائلية والقبلية والصيد والحرب اللذين كانا الشغل الشاغل لنبلائهم وأشرافهم. وامتاز الفرثيون بالدأب والعمل والمثابرة. ومهما كانت لغتهم الأصلية قبل استيطانهم في البلاد التي عرفوا بها فإنهم اتخذوا إحدى لهجات اللغة الفارسية المسماة «بهلويك» (أي البهلوي الفرثي) وكانت تكتب بالخط الآرامي، وهي قريبة الشبه بالبارسيك (أي البهلوية الساسانية). ويمكن إرجاع كلتا اللهجتين إلى اللغة الفارسية القديمة في العهد الإخميني. وقد اعتاد الفرثيون الكتابة في الرقوق مما كان سبباً لهلاك أكثر مآثرهم. وقد غزت الرقوق بلاد بابل وأخذت تحلّ محل الخط المسماري في الطين. ومما تجدر ملاحظته عن الكتابة في الرقوق أنها حفزت الصينيين في القرن الثاني للميلاد (105 للميلاد) على اختراع الورق.

بدأ ظهور الفرثيين كمملكة مستقلة في العهد السلوقي، في منتصف القرن الثالث ق.م.، في الوقت الذي كانت فيه المملكة السلوقية في مشاكل وشدائد ولا سيما في نزاعها مع البطالسة في مصر، فتشجعت الأقاليم الشرقية التابعة على الثورة على سلطة السلوقيين في عهد «أنطيوخس» الثاني فلما نجحت بلاد البخت في ثورتها تحفز الفرثيون فثاروا على السلوقيين وكان ذلك قبيل 247 ق.م. (لعله في 250 ق.م) وعندما نجح بالثورة «أرشاق» وأخوه في عام 247

عُدّت هذه السنة بداية العهد الفرثي[1] واستمرت الحروب بين الفرثيين والسلوقيين نزاعاً على الولايات الشرقية وكذلك على بلاد العراق. وقد سبق فتح العراق انتزاع بلاد ماذي من السلوقيين وحاول سلوقس الثاني أن يقضي على الفرثيين على ما ذكرنا في كلامنا على السلوقيين ولكن فشل بسبب الثورة التي اندلعت في أنطاكية. وبعد موت أرشاق الأول تفرد بالحكم من بعده أخوه تيريداتس الذي حكم زهاء 37 سنة تمكّن في خلالها من توطيد المملكة الفرثية وتوسيعها إلى الغرب، ونقل عاصمتها إلى مدينة أسسها الإغريق وسموها «هيكاتومبيلوس» ثم اتخذ الفرثيون مدينة اكبتانا القديمة ثم أسسوا طيسفون الشهيرة وتمثل لنا هذه العواصم مراحل توسع الفرثيين إلى الغرب. وخلف «تيريداتس» أرطبان الأول الذي لم يقو على مواجهة جيش أنطيوخس الثالث واضطر إلى الاعتراف بسيادة السلوقيين ولكن الملك الذي خلف أرطبان وهو «فريا فاطوس» (195 ق.م) انتهز فرصة اندحار انطيوخس الثالث على أيدي الرومان فأعاد الاستيلاء على إيران وتخليصها من نفوذ السلوقيين. وتحقق فتح العراق في عام 141 على يد الملك الفرثي (مثريداتس) الأول الذي يُعدّ المؤسس الحقيقي للأمبراطورية الفرثية فقد أدخل في مملكته جميع إيران تقريباً وضم بلاد بابل وآشور وسلوقية التي أبقاها على وضعها بدون تخريب ولكن الفرثيين أسسوا عاصمة جديدة في العراق في طيسفون التي ذكرناها سابقاً. واتخذ مثريداتس بصفته وريثاً للأمبراطورية الإخمينية لقب «الملك العظيم»، ولقّب نفسه «محب الهلينيين» مداراة منه للمستوطنات الإغريقية في إيران وقد مات مثريداتس في عام 137 ق.م. مخلفاً لابنه فراهاط الثاني **(Phraates)** أمبراطورية تمتد من الفرات إلى هراة. وبذل السلوقيون في عهد أنطيوخس السابع (سيدتس) آخر محاولة لاسترجاع الأقاليم السلوقية السابقة، فنجح هذا

---

(1) ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أنه وجد في نينوى لوح طين من بداية العهد الفرثي وهو مؤرخ تأريخاً مضاعفاً أي بتقويمين: بالعهد السلوقي وبالعهد الفرثي.

في اختراق ما بين النهرين وبلغ اكبتانا وكاد يقضي على الفرثيين، ولكن ثورات داخلية نشبت في بلاد إيران ضد الجيوش السلوقية مكّنت «فراهاط» من مباغتة السلوقيين وتمزيق جيشهم وقتل أنطيوخس وأسرت جيوشه وضمت إلى الفرثيين. وهكذا فشلت محاولة السلوقيين وانكمشوا في داخل سوريا على ما بيّنا سابقاً ولم تسلم سوريا من هجوم الفرثيين إلّا بانشغال فراهاط في صدّ الجموع الغفيرة من الاسكيثيين الذين كادوا يقضون على الدولة الفرثية حتى قتل الملك الفرثي في حربه معهم وخلفه عمه أو خاله المسمى أرطبان الثاني الذي قتل بدوره في المعارك فحل اضطراب شديد في المملكة الفرثية وانفصلت عنها جملة ولايات تابعة. وفي هذه الفترة الحرجة اعتلى عرش المملكة الفرثية مثريداتس الثاني (123 ق.م) الذي كان من أعاظم قادة الفرثيين فأعاد الأمور إلى سابق وضعها وخلص المملكة من الأخطار التي أحاقت بها فصدّ هجمات الاسكيثيين وأعاد الاستيلاء على الأقاليم التابعة ومما يذكر عن عهد هذا الملك الفرثي نشوء علاقات صداقة بين الفرثيين والصين لتسهيل التجارة فيما بينهما وسنلخص الأوضاع السياسية في المملكة الفرثية في كلامنا على الحروب الفرثية الرومانية. ولكن ظل النزاع مستمراً ولم يتثبت سلطان الفرثيين في العراق إلا منذ 135 ق.م. وظلوا يحكمون القطر حتى حلّ محلهم الفرس الساسانيون في 226 للميلاد. وبدخول الفرثيين العراق والأقاليم التي حواليه أخذوا يقتبسون نظم الإدارة القديمة ولا سيما النظم السلوقية، وكانت أمبراطوريتهم بوجه عام مقسمة إلى إمارات وممالك يحكمها حكّام يعينهم الملك وتميّزت دولتهم بكونها دولة إقطاعية بهيئة هرم قمته (ملك الملوك)، ومما يذكر عن الفرثيين أنهم كانوا يهدفون إلى استتباب السلم وحرية التبادل التجاري وقد حصلوا على موارد مالية من الضرائب والجزية والگمارك. ولكي يقضوا على أهمية العاصمة السلوقية القديمة بنوا بعض المدن الجديدة في العراق منها (طيسفون) (طاق كسرى) وكانت في عهدهم معسكراً للجنود. وبنوا كذلك قرب بابل مدينة عُرفت باسم (أولغاشية) نسبة إلى الملك الفرثي

(أولغاش) الأول (52 ـ 80)[1]. وكذلك أسسوا مدينة الحضر لتكون ثغراً على الطريق الآتي من بلاد بابل إلى نصيبين ويرجّح أن القصر الموجود في الحضر يعود إلى الملك «أورود» ولكن لا يعلم أي واحد من الملوك الذين سموا بهذا الاسم. وأظهرت التنقيبات التي أجراها الألمان في آشور أبنية فخمة شيدها الفرثيون هناك. ومع ذلك فإن بابل بقيت مركزاً مهماً للفرثيين ولا سيما لسكنهم في الشتاء. أما «اكبتانا» فقد اتخذوها عاصمتهم الشتوية المهمة في بلاد ماذي، وكانوا قد اتخذوا في مبدأ أمرهم مدينة «هيكاتو مبوليس» عاصمة لهم، وكانت هذه إحدى المدن الجديدة التي بناها الإسكندر في الإقليم الذي ظهر فيه الفرثيون وكان جزءاً من أمبراطورية الإسكندر وأمبراطورية خلفائه السلوقيين قبل ثورة الفرثيين واستقلالهم.

وبعد استتباب أمر الفرثيين في العراق نشأ بينهم وبين الرومان نزاع حاد على الشرق، فبعد تعاظم سلطة روما نشأت لها مصالح مهمة في بلاد الشرق وقد بدأ ذلك في الواقع في العهد السلوقي. وكانت الطرق التجارية المهمة المارّة بأقاليم الهلال الخصيب[2] من أبرز عوامل النزاع بين الرومان والفرثيين، فقد تولدت عند الرومان مطامع استعمارية في هذه البلاد ومنها العراق. ونتج عن ذلك نشوب الحروب المستمرة بين الطرفين. والواقع أن أبرز أخبار الدولة الفرثية في العراق تتميز بالحروب مع الرومان التي استمرت إلى العهد الساساني كما سنوجز ذلك فيما بعد، وظهرت في هذا النزاع قوة ثالثة وهي دولة الأرمن الذين نافسوا الفرثيين منافسة خطيرة حتى أن أحد ملوك الأرمن

---

(1) من الباحثين من يعيّن أولغاشية بمدينة الكوفة.

Cook, A Glossary of Aramaic Inscriptions, 1898, p.18.

(2) كان أعظم طريق بري يمر من بلدان الهلال الخصيب هو الطريق العظيم الذي يربط الهند بأوروبا، وقد صار هذا الطريق من أهم عوامل النزاع بين الرومان والفرثيين. ويوجد طريق بحري كان يمر من البحر الجنوبي إلى الهند، وقد ظل هذا الطريق بأيدي عرب الجنوب حتى القرن الأول للميلاد.

المسمى «تغرانيس» استطاع أن يضم ولاية ما بين النهرين إلى مملكته. والواقع أن الملك الفرثي «مثريداتس» هو الذي جاء بهذا الملك الأرمني وأجلسه على عرش المملكة الأرمنية على أثر تدخله بشؤونها، ولكنه استغل تدهور المملكة الفرثية من بعد موت «مثريداتس» فأستولى على جملة ولايات ووسع مملكته حتى أن السوريين رشحوه ليتولى عرش المملكة السلوقية بعد أن سئموا الحروب والمنازعات بين المدّعين في العرش من السلوقيين.

وقبل أن نذكر شيئاً من أخبار الحروب بين الرومان والفرثيين التي كان العراق ميداناً لها نذكر بعض المدن والحصون المهمة التي نشأ معظمها على التخوم الفاصلة بين الأمبراطوريتين وقرب الطرق المهمة وكان لها شأن مهم ليس في أخبار هذا النزاع وسير الحروب وإنما في تأريخ الشرق الأدنى القديم بوجه عام.

أنطاكية وحران ومدن أخرى:

وتأتي في مقدمة هذه المدن المهمة «أنطاكية» على العاصي. وقد رأينا خبر بنائها في عهد السلوقيين، ولكنها أصبحت مصراً كبيراً ومثلاً سائراً في الرخاء والبذخ وقد اتخذها أباطرة الرومان قاعدة لإعداد حملاتهم منها عبر الفرات إلى الشرق وهي تقع على الأكثر في واد ولكن أبراج أسوارها الشاهقة تشرف على الجبل المطلّ عليها. وقريب من أنطاكية مدينة «دفنى»، وقد جاء في الأساطير ما سبق أن ذكرناه من أن الإلٰه «أبولو» طارد إلى هناك حورية فانقلبت شجرة دفلى. وقد اتخذ أثرياء الرومان مدينة دفنى محلاً للنزهة والولائم والعطل. وقد صارت عبارة «الأخلاق الدفنية» في اللغة اللاتينية تعبيراً عن انحلال الأخلاق. ولا تزال المدينة على شيء من فتنتها القديمة حيث الحدائق ذات الأوراق الكثيفة وشلالات المياه بين الأزهار إذ يختلط خريرها بتغريد العنادل وأصوات الطيور. وإلى الشرق من دفنى نجد «حران» المذكورة في التوراة وهي من المدن القديمة التي جاء ذكرها كثيراً في أخبار الدول القديمة في العراق واشتهرت في عهد الحضارة العربية الإسلامية، وقد سماها

الرومان (كرهي) (Carrhae) وتقوم حران في ملتقى طرق مهمة في العالم القديم، وتقع إلى الشمال منها بمسافة قليلة «أديسا»، وهي «الرها» المذكورة في الأخبار العربية وكانت عاصمة إقليم يدعى «أوسرينة» وتقوم الرها الآن في «أورفة» الحديثة. وقد حصّنها الرومان تحصيناً منيعاً.

ولعل أهم حصن على الطريق الشمالية المؤدية إلى العراق هي المدينة التي تسمى الآن (ديار بكر)، وهي (آمد) المدينة القديمة المهمة. وكان لها سور من حجر البازلت محيطه خمسة أميال يدور حوله سور آخر له ثمانون برجاً. وتقوم المدينة على مرتفع شاهق على دجلة، وينعطف النهر في مروره بقربها فتظهر كأنها جزيرة راكبة على مضيق وهي تحجز الطريق من بلاد ما بين النهرين إلى البلاد الجبلية فيما وراء ذلك. وقد شاهدت (آمد) (التي تلقب بالسوداء) تبدل مصائر كثير من الشعوب والأمبراطوريات، وكان تأريخها سلسلة من الحضارات والمذابح. وتقع بين آمد ونصيبين مدينة تسمى (دارا) أصبحت خرائب وأطلالاً بعد سقوط الأمبراطورية الرومانية. وكانت في زمن تلك الأمبراطورية حصناً منيعاً ومعسكراً للجنود الرومان. وعلى الرغم من أنه لم يطرأ تغيير على اسم نصيبين من العهد الروماني فإنه لم يبق من جدرانها الرومانية شيء الآن. ومثل ذلك يقال في (سنجار) الواقعة إلى الجنوب بمسافة قليلة حيث تقع بلد سنجار الحالية على طنف من جبال سنجار.

البتراء وتدمر:

لقد ذكرنا في كلامنا عن العهد السلوقي كيف أن دويلة عربية من الأنباط قد نشأت في منطقة «البتراء» في أثناء النزاع بين السلوقيين والبطالسة، وقد اتخذت تلك الدولة «البتراء» (سالع المذكورة في التوراة) عاصمة لها وازدهرت هذه الدولة وعاشت زهاء ثلاثة قرون منذ القرن الثاني ق.م. (164 ق.م). ومما يذكر عن «البتراء» أن كتاب اليونان والرومان قد قسموا بلاد العرب إلى ثلاثة أجزاء مشهورة دعوا القسم الأول بلاد العرب السعيدة (اليمن) (Arabia Felix) والثاني بلاد «بترية» العربية (Arabia Petraea) والثالث اسم بلاد العرب

البادية (Arabia Deserta). وقد ذكرنا شيئاً منْ أخبار القسمين الأولين في الفصل الخاص بجزيرة العرب. وقد ظلت بلاد اليمن مستقلة في هذه العهود الأخيرة، وسيطرت روما على بادية الشام وبادية العراق. أما بلاد «البتراء» فكانت في مبدأ أمرها مستقلة ثم صارت تحت حماية الفرثيين، ثم انتقلت إلى نفوذ الرومان وقد ازدهرت في العهد الروماني ووصلت إلى أوج ازدهارها في القرن الأول للمسيح، وقد جعلها الرومان دولة حاجزة (Buffer state) ضد الفرثيين. ولعل أهم أسباب ازدهارها وقوعها في طرق التجارة المهمة ولا سيما طرق القوافل بين مصر وسوريا ومن الجهة الأخرى مع جنوبي الجزيرة[1]، فقد كانت الموضع الوحيد بين الأردن وأواسط الجزيرة العربية، وكانت حلقة مهمة في تجارة عرب اليمن. وتمتاز مدينة البتراء بمناعتها من جهاتها الثلاث - الشرق والغرب والجنوب إذ إنها منحوتة من حجارة الجبل الشامخ الذي يحيط بها من جهاتها ويصعب المرور منه حيث يدخل إليها من مجاز ضيق. واشتهرت البتراء ببناء مقدس كان بمثابة كعبة فيها لعبادة الإله (ذو الشرا)، وهو كبير آلهة الأنباط، ومن آلهتهم (اللات). وقد دخلت عبادة (ذو الشرا) في العهد الهلنستي، وصار مثل إله الخمر اليوناني (ديونيسوس) أو باخوس الروماني. وقد بدأت دولة «البتراء» تتضاءل منذ القرن الثاني للميلاد وذلك عندما أخذ الطريق إلى الهند ينتقل بالتدريج بواسطة البحر فأخذ طريق القوافل من الشرق إلى الغرب يتحول تدريجياً إلى الشمال بالقرب من تدمر، فازدهرت تدمر على حساب «البتراء». وقد استولى تراجان على البتراء (105 للميلاد) وصارت مملكة النبط ولاية تابعة إلى الأمبراطورية الرومانية فحل الظلام في تاريخ «البتراء» منذ ذلك الحين، وحلت محلها مدينة جرش وبصرى ومدن أخرى مما يعرف بالمدن العشر «ديكابوليس» (Decapolis).

(1) انظر .M. Rostovtzeff, **Caravan Cities** (Oxford, 1932)

تدمر (Palmyra):

ظهر شأن تدمر وأهميتها على أثر الأحوال التي نشأت من قيام الأمبراطورية الفرثية واستيلائها على بلاد الرافدين وكذلك بسبب الطرق الجديدة التي اتخذت بمقياس واسع من بعد القرن الأول الميلادي، وكانت مدينة تدمر تقوم في واحة وسط بادية الشام، وكان لها دور مهم في تأريخ الشرق في ذلك الحين وسنجد في أخبار الدولة الساسانية أن تدمر قد بلغت من القوة مبلغاً بحيث غزت عاصمة الفرس في العراق. وتقوم خرائبها العظيمة الآن وهي تشهد بما استطاع أن يفعله أهلها في مغالبة الطبيعة. ولما كانت تدمر تقع بين الأمبراطوريتين الرومانية والفرثية المتنافستين، فإن سلامتها كانت تتوقف على حفظ التوازن بين هاتين القوتين وتتوقف على حيادها. وساعدها موقعها الجغرافي المزوّد بالمياه العذبة على أن تكون ملتقى تجارياً مهماً ليس بين تجارة الغرب والشرق ولكن بين تجارة الجنوب والشمال، وهي التجارة الآتية من جنوبي الجزيرة العربية، ولا سيما من بلاد اليمن. وقد صارت مدينة البادية هذه في خلال القرنين الثاني والثالث من أغنى مدن الشرق الأدنى. واسم تدمر اسم قديم حيث كانت الواحات الواقعة فيها مقراً قديماً جاء ذكره باسم «تدمر الأموريين» في أخبار تجلاثبليزر الأول (1100 ق.م). وقد اندهش الرواة العرب بمبانيها حتى أنهم نسبوا بناءها إلى الجن، حيث اعتادوا أن ينسبوا الأبنية الضخمة العجيبة إليها[1] ويبدو أن تدمر وقعت تحت نفوذ الرومان في العهد الأمبراطوري القديم كما تشير إلى ذلك أخبار الرومان في بداية القرن الأول للميلاد. وصارت تدمر والمدن التابعة لها في زمن هادريان (117 ـ 38 م) تابعة إلى روما، وازداد نفوذ روما فيها في بداية القرن الثالث، ولكنها كانت تتمتع باستقلال في إدارتها الداخلية. وقد اهتم الرومان بتدمر وشعروا بخطورتها العسكرية لأن طريقهم من دمشق إلى الفرات كان يمرّ منها.

---

(1) ورد ذكرها بهذه الصفة في إشعار النابغة الذبياني حيث يقول:

إلا سليمان إذ قال الإله له — قم في البرية واحددها عن الفند

وخبر الجن إني قد أذنت لهم — يبنون تدمر بالصفاح والعمد

يقع عهد ازدهار تدمر بين 130 و270 للميلاد وقد جاءتنا من عهد ازدهارها هذا نقوش تدمرية عديدة، واتّسعت تجارتها في عهد ازدهارها حتى بلغت الصين والواقع أنها ورثت «البتراء» في أهمية طرق التجارة. وميّز التدمريون أنفسهم بحادثة شهيرة سنشير إليها في بحث الساسانيين وهي أن أميرهم أو ملكهم الشهير «أذينة» قد استطاع أن يطرد سابور الأول في عام 265 من سوريا ويسلبه جزءاً من غنائمه، وكان سابور قد أسر الأمبراطور «فاليران» واستولى على جزء كبير من سوريا.

نشأ في منطقة تدمر نوع من حضارة خليطة من الحضارة الإغريقية والفرثية والسورية، وهي الحضارة الهلنستية بوجه عام مع تغييرات محلية امتازت بها تدمر، ويصح أن نسميها بالثقافة النبطية. ونشوء تلك الثقافة عن النبط لدليل على مؤهلات عرب البادية عندما تحين لهم الأحوال الملائمة. والذي لا يشك فيه أن أهل تدمر من أصل عربي كما تدل أسماء الأعلام الواردة في نقوشها وكذلك لغة تلك النقوش نفسها. وكانوا يتكلمون لهجة من الآرامية الغربية. وكانت ديانتهم تدور على عبادة الشمس، حيث يقوم الإله الشمس على رأس آلهتهم. وعندما انهارت تدمر خلفها في طرق التجارة مدن أخرى نشأت في بلاد الشام، وهي مدن آل غسان مثل بصرى في حوران. وكان أصل الغساسنة من اليمن وقد أسسوا دولة في سوريا مركزها إلى الجنوب الشرقي من دمشق في النهاية الشمالية للطريق المهم الذي يربط مأرب بدمشق وبمرور الأزمان تأثر الغساسنة بالثقافة الآرامية وتكلموا باللغة الآرامية السورية ولكنهم لم ينسوا لغتهم العربية الأصلية، وهكذا صاروا يتكلمون بلغتين، شأنهم شأن الكثير من القبائل العربية التي استوطنت بقاع الهلال الخصيب. وقد دخلوا في القرن الخامس للميلاد ضمن نفوذ البيزنطيين وكانوا نصارى، ولم تكن لهم عاصمة ثابتة فمرة كانت في الجابية في الجولان وصارت مرة في «جلق».

الحضر:

لقد سبق أن ذكرنا أن الحضر من المدن الفرثية المهمة التي نشأت في

هذا العهد على الطريق من بلاد بابل إلى نصيبين، وهي (حترا) (Hatra) التي اشتهرت في الأخبار العربية باسم الحضر. وتقوم خرائب الحضر الآن في وسط بادية جرداء تقع على مسافة ساعة ونصف الساعة من ناحية الشرقاط وقبل أن يصل المرء إلى الحضر يمرّ من وادي الثرثار المشهور الذي يكون جافاً في أكثر أوقات السنة ولكن تجري فيه المياه في الربيع من جبال سنجار ويذهب الثرثار إلى منخفض في البادية عرب سامراء. والحضر من المباني المشيّدة ومن آثار العراق القائمة المهمة، وهي مسورة بسور يبلغ محيطه ثلاثة أميال ويقوم في وسطها معبد وقصر لا تزال بقاياهما قائمة وهي مثال نادر للعمارة من العهد الفرثي. وقد حكمت في الحضر سلالة من أصل عربي كانت تحت نفوذ الفرثيين. وصارت الحضر مدينة مهمة في خلال القرن الثاني للميلاد، حيث جاء وصفها في هذا العهد بأنها مدينة كبيرة معمورة يحميها سور قوي ضخم، ويقوم في وسطها معبد لعبادة الإله الشمس وبوسعنا أن نضع زمن ازدهارها بين 100 ـ 300 للميلاد. وقد عانت الحضر عدداً من الحصارات الحربية لم تفلح معظمها لمناعة أسوارها وشجاعة أهلها. وقد فشل الأمبراطور تراجان أن يفتحها في عام 116 للميلاد وقد عانى أمبراطور آخر هو سويروس في فتحها في 198 للميلاد وجاء وصف أهل الحضر في الأخبار الرومانية بأنهم يحاربون بنوع غريب من النيران مخيفة مرعبة ولا سيما لمن يقابلهم أول مرة. ولعل هذه الإشارة إلى نيران النفط والقير السائل الذي كان يجلبه أهل الحضر من هيت والقيارة التي لا تبعد عنهم كثيراً.

وظلت المدينة في العهد الساساني، ولكن سابور الأول خربها في 250 للميلاد. وقد روت الأخبار العربية أن سابور لم يستطع فتح المدينة إلّا بخيانة ابنة ملك المدينة وهو الضيزن المذكور في الآداب العربية حيث تروي الأسطورة أن ابنة الملك أفشت لسابور سر الطلسم الذي يحفظ المدينة حيث وعدها بالزواج منها وبعد أن فتح سابور المدينة هالته خيانة ابنة الملك لأبيها، فقتلها شر قتلة بأن ربطها بمؤخرة فرس أطلقه بسرعة. ووصفت المدينة في عام 363 بأنها خرائب وأنقاض. وقد قام الألمان الذين نقبوا في آشور منذ 1904 م

بدرس الموضع فوضعوا له الخطط ودرسوا بقاياه في 1911 م. وشرعت مديرية الآثار العراقية بالتنقيب في المدينة (مارت 1951 م) وقد أظهرت نتائج التحريات لنا أموراً مهمة عن المدينة وعن العهد الفرثي في العراق[1].

الحروب بين الرومان والفرثيين:

لعل أقدم علاقات بين الفرثيين والرومان ترجع في عهدها إلى محاولة الفرثيين لعقد علاقات صداقة مع الرومان لما جاء الجيش الروماني بقيادة «سلا» (Sulla) في عام 92 ق.م. إلى الفرات لمحاربة مملكة الأرمن في عهد ملكها «تغرانيس» الذي حالف ملك إقليم البحر الأسود (مملكة البنتس) فأرسل إليه الملك الفرثي مثريداتس وفداً لعقد الحلف بين الطرفين ولكن الرومان احتقروا الوفد الفرثي ورفضوا مقترحاته فما كان من الملك الفرثي إلا أن صالح ملك الأرمن وملك البحر الأسود وهجم على الجيش الروماني وأوقع فيه خسائر فادحة علّمت الرومان درساً قاسياً عن قوة الفرثيين الذين استهانوا بهم، واضطروا إلى عقد معاهدة حياد تمّت بين الملك الفرثي فراهاط الثاني وبين لوكولوس الروماني وجددت في عهد «بومبي» ولكن هذا نقض المعاهدة بعدئذ واستولى على الأقاليم الغربية التابعة للفرثيين، وساء الوضع في المملكة الفرثية حيث اغتيل فراهاط وبعد منازعات جاء إلى العرش (اورود) (57 ـ 53 ق.م). وعين في هذا الأثناء «كراسوس» حاكماً رومانياً على سوريا فأعتقد هذا أن الاستيلاء على بلاد إيران أمراً سهلاً. فنشبت بين الطرفين في حران معركة (53 ق.م) نكب فيها الرومان نكبة مريعة فني فيها معظم الجيش الروماني وقتل «كراسوس» نفسه.

ولأن هذه أول معركة بين الرومان والفرثيين فيجدر بنا أن نصفها بالإيجاز لنقف منها على طرق الحرب عند الطرفين. فقد كانت طريقة الهجوم

---

(1) لا يسعنا ذكر هذه النتائج في هذا الموجز فنحيل القارىء إلى ما نشر عنها في مجلة الآثار العراقية سومر (مجلد 7، 1951، مجلد 8، 1952، ومجلد 9، 1953، مجلد 10، 1955).

عند الفرثيين في هذه الموقعة تمتاز بالسرعة، سرعة الكر والفر، وكثيرة الشبه بما يشاهده المرء في حروب الهنود الحمر في أمريكا في الأفلام السينمائية أو حروب القبائل البدوية. والذي أدهش القائد الروماني (وكان قائد الفرثيين محارباً شهيراً اسمه سورينا) أنه لم يجد وحدة من جيش العدو ثابتة يهجم عليها، وبدلاً من ذلك فقد طوّقت جيشه خيالة العدو من رماة النبل المسلحين بالأسلحة الخفيفة فأمطرته بوابل من السهام المميتة بدون أن تعرّض نفسها لقذائف الرومان وكان عند الفرثيين بالإضافة إلى الخيالة من ذوي الأسلحة الخفيفة كتائب فرسان ثقيلة مسلّحة بالصلب اللماع حتى ركب الخيل. لقد صبر (كراسوس) وهو يشاهد السهام الفرثية تفتك بجموعه وقد ظن أن الفرسان ستنفد ذخيرتهم من السهام، ولكن يا لشدة فزعه إذ شاهد أن كل فارس بعد أن يرمي آخر سهم يرجع إلى الوراء مسافة فيحصل على ذخيرة جديدة من كنائن السهام التي كانت محمّلة على الجمال في المؤخرة. فرأى أن يهجم في الحال، فأوعز إلى قوة مختارة عنده قوامها 6000 آلاف رجل من الغاليين (الفرنسيين) أرسلهم يوليوس قيصر من أوروبا أن يهجموا على الجنود الفرثيين المدججين بالسلاح وقد ظهروا من مخبأ لهم في غابة في تلك اللحظة. فحل بالفرثيين الاضطراب الظاهري وانهزموا حتى انقطع اتصالهم بالجيش الرئيسي. ولكنهم رجعوا على حين غرة فأعادوا حشدهم وكروا على مهاجميهم بصف متراص من المعدن البراق، فاستبسل الغاليون في الحرب ولكن الفرثيين كثروهم فأبادوهم عن بكرة أبيهم تقريباً. وكان يقودهم ابن القائد كراسوس نفسه، ولما رأى هذا ما حل بجيشه أمر حامل ترسه أن يساعده في الانتحار تخلّصاً من العار حيث كان الباقي الوحيد من جميع الجيش. وعندما تراجع جيش كراسوس في اليوم التالي قتل ثلاثة أرباعه، وكان من بينهم (كراسوس) نفسه وكان عمره آنذاك ستين عاماً. وقد روى لنا المؤرخ (فلوطرخ) أن رأسه أرسل إلى أرمينيا حيث كان الملك الفرثي (أورود) وقد صادف وصول الرأس إلى هناك تمثيل رواية للروائي اليوناني (يوربيبذر) (واسمها باخي)، وكان من جملة مشاهدها رأس مقطوع فاستعمل الممثل رأس (كراسوس) لتمثيل ذلك

المشهد. وقد هزّت أنباء هذه النكبة يوليوس قيصر فأخذ يعدّ حملة للثأر من الفرثيين ولكنه قتل قبل أن يحقق ذلك المشروع.

انتهز الفرثيون فترة الاضطرابات التي حلّت في روما بعد مقتل قيصر فوسعوا فتوحهم إلى الغرب وأخذوا سوريا وفينيقيا. فأعدّ العدة (مارك أنطوني) الذي كان في مصر لوقف الزحف الفرثي، فانتصر الجيش الذي أرسله على الملك الفرثي (فاقور) الذي خلف أباه (أورود). وقد قتل الملك الفرثي نفسه. وتشجع (أنطوني) بهذا الانتصار فأراد غزو المملكة الفرثية نفسها، ولكن حلفاءه الأرمن لم يوافقوه وحبذوا له بدلاً من ذلك الهجوم على البلاد الماذية في شمالي فارس، ولكنه تراجع واندحر اندحاراً مفجعاً وفقد قسماً من جيشه، فعاد إلى الإسكندرية ليتناسى في أحضان كليوباترا ذلك الفشل الذي حلّ به.

وحلّ من بعد ذلك توقع النزاع بين الطرفين زمناً ما وعقدت معاهدة سلم بينها في أول سنة للميلاد في عهد فراهاط الرابع وأوغسطس، وأعقب ذلك زمن غامض في تأريخ الدولة الفرثية وتأريخ العراق. إن سياسة المصالحة والتعايش السلمي التي اتبعها الرومان في عهد أوكتافيوس (أوغسطس) إنما نشأت بسبب إدراك الرومان لقوة الفرثيين أولاً ولأنهم لم يروا في الفرثيين تهديداً للأمبراطورية الرومانية لو تركوهم وشأنهم. ولضمان سلامة تخوم الأمبراطورية الرومانية اتبع الرومان سياسة إنشاء دويلات حاجزة إزاء الفرثيين، فمن هذه الدويلات دولة تدمر وأرمينيا حيث قبل الفرثيون أن ينصب الرومان على أرمينيا ملكاً ممالئاً لهم، ولكن هذه السياسة لم ترض الفرثيين باستثناء ملكهم فحدثت اضطرابات في داخل المملكة بسبب هذه السياسة التي اتبعها الملك الفرثي، وأخذت روما تتدخل في شؤون العرش الفرثي حتى أنها ساندت الملك الفرثي «فراهاط» الخامس الذي سمّ أباه وكانت مساعدة الرومان له بشرط أن يتنازل عن أرمينيا، ولكن سرعان ما خلع هذا الملك الشاب، ورجا أشراف الفرثيين من أوغسطس أن يرسل لهم أحد أبناء «فراهاط

الرابع» الموجودين في روما حيث سبق لأبيهم أن أرسلهم إلى البلاط الروماني ليتثقفوا هناك على أثر الصلح الذي تمّ بين فراهاط الرابع وبين أوغسطس، فعاد الابن المسمى «أونون» الأول (Vonones) ولكن هذا لم يستطع أن يحتفظ بعرشه زمناً طويلاً لأن أشراف الفرثيين اشمئزوا من ثقافته الغربية، فخلعوه ولاحقوه إلى سوريا حيث قتل هناك. وتولى العرش الفرثي أرطبان الثالث المتحدر عن طريق النساء من السلالة الإرشاقية. وحصل انتعاش في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهده مما جعل الرومان يحسبون لذلك حساباً فأخذوا يتدخلون في شؤون المملكة الفرثية مرة أخرى ولعل الثورة التي اندلعت في سلوقية ضد أرطبان الثالث كانت بتحريض الرومان، وقد دامت زهاء سبع سنوات وتدخلت روما أيضاً في عرش أرمينيا.

انتهى السلم في زمن الأمبراطور الروماني (تراجان) فبدأت الجيوش الرومانية تنحدر إلى الفرات بلا انقطاع تقريباً، وكانت في كثير من الأحايين تصل إلى بلاد بابل، ونهبت العاصمة طيسفون مراراً. ولعل سبب استئناف الحرب مع الفرثيين في زمن تراجان ولع هذا الأمبراطور بتقليد الإسكندر الكبير حتى أنه سار على كثير من أساليب حروبه. وقد بدأ حملته من أنطاكية (115 للميلاد) وحمل القوارب التي صنعت في نصيبين على عربات لنقلها إلى جزيرة ابن عمر. ونجح الجيش الروماني في عبور دجلة بعد مقاومة ومن ثم جاء الجيش إلى قرب الموصل ففتحت المدن هناك. وكانت هذه المنطقة كلها تسمى (إقليم حدياب) فضم هذا الإقليم إلى الأمبراطورية الرومانية. ومن الغريب في أمر تراجان أنه لم يزحف على العاصمة الفرثية رأساً بل إنه عاد فعبر دجلة واتجه غرباً قاطعاً البادية التي تفصل النهرين وقد مرّ بالحضر (في 116 للميلاد) كما ذكرنا سابقاً، ولكنه لم يستطع فتحها فسار إلى الفرات واتصل بأسطول ثان كان قد انحدر إلى النهر في أثناء ذلك فسار به في النهر إلى بابل. وكان الملك الفرثي (خسرو) (106 ـ 129 ق.م) يراقب الأمور عن كثب حتى أن تراجان أخذ طيسفون بدون مقاومة وغنم كنوزاً كثيرة، ومن ثم سار في النهر إلى أسفل دجلة حتى خليج فارس وفيما هو في نزهته هذه

حالماً في غزو الهند على مثال الإسكندر جاءته أنباء مروّعة من الشمال. ذلك أن الملك الفرثي عاد وفتح جميع المدن التي أخذها الجيش الروماني فاضطر الأمبراطور أن يسرع بالعودة في حر الصيف وقد أحاط به الأعداء من كل جانب. ومات تراجان في الحملة، فتنازل خلفه (هادريان) عن الأقاليم المفتوحة إلى الفرثيين وارتد إلى ما وراء الفرات. وبعد خمسين سنة من ذلك غزا العاصمة الفرثية طيسفون قائد روماني اسمه (كاسيوس) أرسله الأمبراطور (مرقس أوريليوس) وتكررت الهجمات من بعد ذلك على المملكة الفرثية. وكان آخر هجوم ما قام به (كراكاله) وقد كان هذا قاسياً سفاحاً. فبعد أن نجح في حربه أبدى للفرثيين كأنه يريد الصلح حتى أنه طلب ابنة الملك ليتزوجها، وعندما خرج الناس من طيسفون وهم فرحون لمشاهدة الاحتفال بالزواج أعمل فيهم السيف وانتهك قبور الفرثيين الملكية في أثناء رجوعه من قرب الموصل. ومع ما كان عليه الفرثيون من الضعف فإنهم انتقموا من هذا الملك الفاجر، فقد اغتيل (كراكاله) نفسه. وحدثت آخر الحروب في عهد الملك الفرثي (أرطبان) الخامس آخر ملوك الفرثيين والأمبراطور الروماني «مكرينوس»، حيث وقعت معركة شديدة قرب نصيبين قتل فيها خلق كثيرون، وانتهت الحرب أخيراً بمعاهدة صلح أرجع بموجبها الرومان جميع الغنائم والأسرى التي أخذها (كراكاله) كما أنهم دفعوا مبلغاً كبيراً من المال للملك الفرثي، وهكذا فشل الرومان من بعد محاولات كثيرة دامت طوال قرنين ونصف القرن في جعل إيران تابعة لهم والاستيلاء على أقاليم الأمبراطورية الفرثية.

وكما كانت هذه الحرب آخر الحروب بين الرومان والفرثيين فإنها كانت كذلك آخر حياة الفرثيين حيث خلفتهم من بعد ذلك سلالة فارسية أخرى هم الساسانيون، الذين استمر في عهدهم النزاع والحروب مع الرومان على ما سنرى ذلك في كلامنا على الساسانيين. ومما يقال عن أثر تلك الحروب في الدولة الفرثية أنها كانت من بين العوامل المهمة في القضاء على السلالة الفرثية، ويضاف إلى هذا العامل المؤامرات والحروب الكثيرة بين أمراء

الفرثيين على العرش مما أضعف النظام الإقطاعي الفرثي وسبب تمرّد أمراء الإقطاع على ملوك السلالة. وكانت أخطر الثورات التي قضت على حياة الدولة الفرثية ثورة أمراء فارس وعلى رأسهم (أردشير) الساساني بن (بابك) ابن ساسان الذي نسبت إليه السلالة الجديدة، وكانت الثورة القاضية في عهد الملك الفرثي (أرطبان) الخامس الذي قضى عليه أردشير في حدود 227 للميلاد، وبعد زمن قليل دانت جميع بلاد إيران إلى الساسانيين ودخل العراق في حكمهم أيضاً وسنوجز أخبار الدولة الساسانية بعد قليل.

شيء عن التنظيم الإداري للأمبراطورية الفرثية:

1 ـ كانت سلطة السلالة الارشاقية تستند في قوتها إلى الأسر النبيلة من قبيلة الفارني (Parni) أي الفرثيين، وبإمكاننا أن ننظر إلى انتقال السلطة بيد الفرثيين على بلاد إيران أنه يمثل انتصار الإيرانيين الشماليين على الإيرانيين الجنوبيين، أي بعبارة أخرى تفوق الإيرانيين البدو على الإيرانيين المستقرين المتحضرين المتميزين بتراثهم الحضاري المستمد من حضارات الشرق الأدنى القديمة مع الصبغة الهلينية التي أدخلها الإسكندر. وكانت الفروق بين الفرثيين وبين الأقسام المتحضرة من إيران فروقاً واسعة بحيث لم يستطع تسويتها الحكم الفرثي بعد مرور أزمان طويلة. وكثيراً ما كان الإيرانيون المتحضرون يظهرون العداء إزاء الحكم الفرثي، وهو أمر شعر به الفرثيون بحيث إنهم لم يعتمدوا إبان الأزمات على مساعدة بلاد فارس وماذي وإنما كان جلّ اعتمادهم على أقربائهم من القبائل المستوطنة في السهوب إلى الشرق من قزوين، وهكذا فإن صلة الفرثيين بأقربائهم الشرقيين لم تنقطع، حتى أن مآثر الأمم المجاورة مثل الأرمن ربطت السلالة الفرثية الحاكمة بالسلالة الكوشانية التي ظهرت من البدو الإيرانيين.

2 ـ وتذكر لنا المصادر الكلاسيكية (ولا سيما الرومانية) أن ثماني عشرة دولة كانت تابعة إلى الفرثيين، وقد قسمتها هذه المصادر إلى نوعين، سموا إحدى عشرة منها بالأقاليم المهمة والباقي أقاليم صغيرة دون الأولى في

الأهمية، ومن أمثلة الصنف الأول ماذي وفارس وأرمينيا وعيلام و«خراكينة»[1] أو (كرخينة)، وكان بعض هذه الأقاليم على درجة كبيرة من الاستقلال الداخلي بحيث كانت تسك النقود باسمها، ولكنها تعترف بسيادة الفرثيين وتدفع الضرائب المعينة. أما بقية الأقاليم فكانت مقسمة إلى ولايات يحكم كلاً منها وال من النبلاء الفرثيين، وكانت وظائف هؤلاء الولاة على الأغلب وراثية.

وكان أساس الحكم الفرثي النظام الإقطاعي الذي كان يشبه إلى حدّ بعيد النظام الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى. واشتهر من أمراء الإقطاع سبع أسر نبيلة كبيرة على رأسها السلالة الإرشاقية التي هي قمة الهرم. وكان يتبع هذه الأسر الكبيرة سلسلة كبيرة من الأمراء والفرسان ويأتي في أسفل الهرم، في القاعدة جموع الفلاحين والطبقات الدنيا من المحاربين والتابعين، وكانت الروابط التي تربط بين النبلاء الكبار وبين تابعيهم الصغار من الفرسان المحاربين أقوى من الصلات التي تربط هؤلاء النبلاء بالملك. ولم يكن هناك نظام خاص بتولي العرش، كما لم يكن من الضروري أن يخلف الابن أباه، إذ كانت الطبقة النبيلة الأرستقراطية عاملاً مهماً في تعيين الملك الجديد، حيث يظهر الأشراف إرادتهم في انتخاب الملك الجديد في مجلس خاص بالنبلاء، وهو نوع من «السنات» كان يحدد السلطات والامتيازات الملكية وحقوق الملك. وهناك مجلس آخر للدولة مهمته استشارية يتألف من طبقة المجوس (Magi) والحكماء وكان هذا المجلس قريب الصلة من العرش[2]. وكانت طبقة النبلاء أساس قوة العرش الفرثي بيد أنها صارت في النهاية أهم عامل في سقوطه.

---

(1) (Charcene) دويلة صغيرة نشأت في جنوبي بلاد بابل واستقلت عن السلوقيين مستغلة ضعف السلوقيين على أثر اندحار الملك السلوقي أنطيوخس الثالث 223 ـ 187 ق.م. على أيدي الرومان، وقد تدرجت في البأس حتى أصبحت في العهد الفرثي من الدول المهمة التابعة للفرثيين.

(2) Ghirshman, **Iran,** 264.

ويبدو أن الفرثيين ليسوا هم الذين أدخلوا النظام الإقطاعي إلى إيران وإنما ورثوه عن الإخمينيين، وخلفوه بدورهم إلى الساسانيين، وظل في الوجود بشكل محوّر في العهد الإسلامي، وقد سبق أن نوّهنا بتفاقم نفوذ الطبقات النبيلة وتدخلها في شؤون التاج، فكانت تقيم الملوك وتخلعهم، فاستفاد الرومان المنافسون للأمبراطورية الفرثية من هذه الاضطرابات الداخلية وكثر المدّعون بالعرش في المملكة الفرثية، وكثرت الحروب الأهلية، وكان من يفقد عرشه على أثر هذه الحروب يلتجيء إما إلى القبائل المتاخمة إلى جهة الشرق أو إلى الدولة الرومانية للحصول على المساعدة.

3 ـ استمر المجتمع الإيراني في عهد الفرثيين على مآثره وتقاليده، فكان الشغل الشاغل للنبلاء الحرب والصيد، ولم يكن للفرثيين جيش نظامي، أما بصدد قواتهم المحاربة فمن تنظيماتهم الاجتماعية، فكان لكل إقطاعي جيشه الخاص به من أتباعه الفرسان، وفي حالة الحرب يقدم إلى الملك خدمته هو وأتباعه المحاربون من الأحرار والرق، ففي موقعة حران الشهيرة التي دحر بها الفرثيون الجيش الروماني كان فرسان القائد الفرثي (سورينا) مؤلفين بالدرجة الأولى من أتباعه. وكان النبلاء الكبار يجهزون الجيش الفرثي بالفرسان المسلحين تسليحاً ثقيلاً والمدرعين بالزرد مما يعرف بمصطلح «كتفركت» (Cataphract) وهم مسلحون بالرماح والسيوف، وكان هؤلاء الفرسان قوة هائلة في المناورات الحربية، وكان قسم من الجيش الفرثي يستعمل الجمال، ويبدو أن الفرثيين لم يستعملوا الفيلة في حروبهم. أما النبلاء الصغار فكانوا يمدّون الجيش بالفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً[1]. وكان هذا جيشاً ماهراً وكفوءاً ولا سيما في سرعة المناورة ومسلحاً بالسهام والقسي مما جعله قوة مميتة. وكان هؤلاء هم الذين يبدؤون المعركة بأن يمطرون العدو بوابل من السهام المميتة، ولكنهم يفرون في حالة الهجوم المعاكس. وكان في معركة حران التي ذكرناها سابقاً ألف جمل تحمل كنائن السهام الاحتياطية لتزويد هؤلاء الفرسان

---

(1) ويعرف هذا الصنف بمصطلح (Sagitarri).

النبالة. ويوجد قسم ثالث من الجيش الفرثي قوامه المشاة، وهو في الدرجة الأخيرة من الأهمية ويتكون على الأغلب من أهل الجبال ومن الفلاحين ومن الأرقّاء.

ومما يقال في الجيش الفرثي بوجه عام أنه كان يصلح للدفاع أكثر منه للهجوم، كما أن الفرثيين كان ينقصهم آلات الحصار الناجعة، فكان الجيش الفرثي يقف عاجزاً إزاء الحصون المنيعة.

4 ـ وإذا أردنا التحدث عن الديانة في العهد الفرثي فليس لدينا المصادر الكافية عن الموضوع، فنكاد لا نعرف شيئاً مما أدخله البدو الفرثيون إلى إيران من عناصر الديانة سوى أن ديانتهم تدور على عبادة القوى الطبيعية كالشمس والقمر، كما أن البحوث الحديثة أبانت أن الزرادشتية لم تنتشر بين الفرثيين كثيراً بخلاف ما كان يظن سابقاً[1]، ولكن استمرت عبادة أهم الآلهة التي كانت شائعة في العهد الإخميني وبوجه خاص عبادة الإله «مثرا» والإلهة «أناهيتا» و«أهورامزدا»، وكانت عبادة «أناهيتا» قد شاعت كثيراً منذ عهد أرتحشستا الثاني، وعمّت في العهد الفرثي حيث بنيت لها المعابد وعبدت في سوسة باسم «نانيا» (وهو الاسم السامي لأناهيتا)، وسنرى من كلامنا على العهد الساساني أن أجداد السلالة الساسانية كانوا قوّاماً في معبد النار الخاص بها في اصطخر. وانتشرت عبادتها غرب حدود إيران إلى آسيا الصغرى في ليديا وفي كبدوكيا وإقليم البحر الأسود.

ويبدو أن الفرثيين لم يسيروا في دفن الموتى على العادة المجوسية من تعريض الجثة فوق المرتفعات وإنما اتبعوا طريقة الدفن الاعتيادية، كما تشير إلى ذلك جملة قبور فرثية ولا سيما التوابيت المزجّجة الخاصة بهذا العهد الشبيهة بالحذاء، وكانت هذه كثيراً ما تزخرف في خارجها ببعض الصور ومن بين ذلك إلهة عارية، يرجّح أنها الإلهة «أناهيتا». ومما يذكر عن الديانة التنويه

---

(1) Ghirshman, **ibid**, 269.

بالمآثر المتعلّقة بزمن تدوين «الأفستا» أي الكتاب المقدس الخاص بتعاليم زراوستر، فمن ذلك الأسطورة القائلة بأن الإسكندر الكبير أحرق هذا الكتاب الذي وجده مدوّناً على ألف رق من الجلد بحروف من الذهب، وهذه مجرد أسطورة، كما تقول الروايات المتأخرة إن «الأفستا» جُمعت ودوّنت في عهد الملك الفرثي «أولغاش» الأول (51 ـ 77 للميلاد)، ولكن الكتابة العائدة لشابور الأول الساساني (241 ـ 272 م) المنقوشة في جدران معبد النار في «نقش رستم» تشير إلى أن الأفستا لم تكن قد دوّنت بعد، ويميل معظم الثقات المختصين إلى إرجاع زمن الخط المدوّنة به الأفستا إلى منتصف القرن الرابع أو لعله القرن السادس للميلاد[1]. واشتهر الفرثيون بتساهلهم الديني، حتى أنهم اتخذوا في بلاد ما بين النهرين (العراق) عبادات الإقليم الخاصة مع تحويرها بعض الشيء. وكانت «دورا يوروبس» (الصالحية الآن على الفرات) من أشهر معاقلهم المهمة، ولكن لم يعثر المنقّبون على معابد للنار فيها على الرغم من وجود مستعمرة إيرانية في هذا المركز التجاري المهم. ويظهر تساهلهم الديني أيضاً في معاملتهم لليهود الذين عدّوا الحكّام الإيرانيين مدافعين وحامين لديانتهم، واتسعت اليهودية في بلاد بابل في العهد الفرثي، حتى أنه ظهرت دويلة صغيرة في جهات الفرات في حدود (20 ق.م)، هذا بالمقارنة مع اضطهاد السلوقيين والرومان. وقد ساعد الفرثيون اليهود في ثوراتهم على الرومان في القرن الثاني للميلاد.

5 ـ ويبدو أن الفرثيين لم يبنوا مدناً كثيرة كما أن ما نعرفه من المدن التي أسسوها عدد قليل. فمن المواضع المشهورة الممثلة لعهدهم خارج بلاد إيران طيسفون (طاق كسرى) والحضر و«أولغاشية» في العراق وفي إيران «درب جرد» (Darabgard) و«جور فيروز أباد»، جنوبي شيراز، وقد بناها أول الملوك الساسانيين حين كان تابعاً للفرثيين ولكنه كان على أهبة الثورة على الفرثيين

---

(1) انظر حول الزرادشتية:

H.W. Bailey, **Zoroastrian Problems** (Oxford), 1943).

ولذلك فبإمكاننا عدها من المواضع الفرثية. وتمتاز مثل هذه المدن الفرثية بميزات عامة مشتركة في تصميمها، فهي على الأغلب مدورة الشكل تقريباً. وهذا نوع من خطط المدن كان معروفاً في الشرق الأدنى قبل العهد الإيراني، فكان الآشوريون يبنون معسكراتهم بهيئة دائرية. وهكذا كانت المدن الفرثية معسكرات في أصلها ووظيفتها، فطيسفون بُنيت لتكون معسكراً فرثياً مقابل سلوقية، واستمرت واتسعت في العهد الساساني، وكانت الحضر حصناً قرب الحدود بين الأمبراطوريتين الفرثية والرومانية، وكثيراً ما استعملت قاعدة للدفاع عن العراق وإيران إزاء الجيوش الرومانية. وبالإضافة إلى هذه المدن التي أسسها الفرثيون فإن الفرثيين عمروا وأنشؤوا مقرات مهمة لهم في جملة مدن مشهورة سابقة لا سيما في العراق نذكر منها المدينة الآشورية الشهيرة آشور (قلعة الشرقاط) حيث أبانت التنقيبات التي أجراها الألمان هناك (منذ عام 1904) بقايا قصور فرثية مهمة، ووجد المنقبون في مدن العراق المهمة مثل نفر وبابل وغيرهما آثار أبنية وآثار مختلفة من العهد الفرثي. ونذكر ازدهار «دورا يوروبس» في العهد الفرثي. واشتهرت المدن الفرثية بتزيين واجهات القصور فيها بالمنحوتات البارزة كما في أبنية الحضر. أما بالنسبة إلى بناء المعابد فلم يعثر المنقبون على نماذج منها في بلاد إيران نفسها، ولكن وجد منها عدة نماذج خارجها نذكر منها «تاكسلا» (Taxila) (في الهند في الضفة الشرقية من نهر الأندلس). وقوام مثل هذه المعابد حجرة مركزية مربّعة يفصلها عن الخارج ممشى (ambulatory) وهو طراز مشتق من فن العمارة الإخميني وصار السلم الذي كان في العهد الإخميني من الخارج داخلاً في ثخن الجدار ويؤدي إلى السطح الموجود فيه المذبح المخصص للنار المقدسة. أما القرابين فكانت تجري في الخارج قرب المعبد. ولا يسعنا هنا أن ندخل في موضوع الفن الفرثي بل نكتفي في ذلك بالتنويه بالآراء الحديثة حول الموضوع، فمن ذلك أن هناك نظريتين حول الفن الفرثي وقد تبدوان متناقضتين الأولى ترى فيه تأخراً وعودة إلى الطرق والأطرزة البدائية، وترى النظرية الثانية فيه أنه تظهر عليه مع ذلك روح جديدة تمثل لنا الروحية الإيرانية الجديدة في الفن، ولعل

هاتين النظريتين كلتيهما صحيحتان من وجهتي نظر مختلفتين، فالأولى صحيحة إذا اعتبرنا أصول الفن وطرقه ومحاولة نبذ الأساليب الإغريقية الناضجة الماهرة ـ والثانية صحيحة إذا اعتبرنا مواضيع هذا الفن دون أساليبه، فمن هذه الناحية يبدو الفن الفرثي وهو بداية فن إيراني جديد منطلق من قيود العرف الفني اليوناني، وسنجد هذا الفن الجديد تتوضّح معالمه أكثر في العهد الساساني.

6 ـ كانت الأمبراطورية الفرثية وبوجه خاص إيران والعراق واسطة مهمة للتجارة الدولية بين الغرب والشرق: تجارة الهند والصين وأواسط آسيا حيث البضائع المهمة كالحرير والبهار والعاج والروائح العطرية. وقد ازدهرت الحياة الاقتصادية في معظم العالم المتمدن ولا سيما في القرن الأول ق.م. بالمقارنة مع القرن السابق الذي تميّز بالثورات والاضطرابات والقرصنة، وفقدان الأمان. وساعد السلم الذي أحلّه أول أمبراطور روماني (أوغسطس) على ازدهار التجارة الدولية، وكان لذلك السلم أثر بالغ في حياة الشرق الاقتصادية. ومما ساعد التجارة التحسن الذي طرأ في وسائل النقل والاعتناء بالمحافظة على الطرق، واعتنى الفرثيون عناية ملحوظة في سلامة هذه الطرق بالنظر إلى أهميتها البالغة لهم في ضرائب تجارة «الترانزيت». فكانت طرق البادية تجهز بالآبار والمنازل (الخانات). وبُنيت في المدن التجارية المهمة مثل تدمر و«دورا يوروبس» والبتراء البيوت والخانات لإيواء التجّار والقوافل التجارية، وتشير الوثائق التي عثر عليها في «دورا يوروبس» على وجود شرطة للبادية للمحافظة على الطرق التجارية. كما استفاد الفرثيون من نظام البريد الذي رأيناه في العهد الإخميني ولا سيما تأسيس المحطات والمنازل لتبديل العربات لضمان السرعة، ويقال إن «وردان» (Vardanes) لما ذهب لخلع أخيه «جو تارز» (Gotarzes) قطع 350 ميلاً في يومين. واستعمل «نعل» الخيول لأول مرة في هذا العهد لمساعدتها على الجري السريع، ولا يعلم أصل هذا الاختراع أهو من الشرق أم من الغرب. ومما يدلّ على تحسن الصناعة الأقمشة الفاخرة والجلود والفخار والزجاج والأسلحة المختلفة.

هذا وقد سبق لنا أن نوّهنا بالنظام الاجتماعي في العهد الفرثي وكيف أن الإقطاع كان قوام المجتمع. واتسعت في هذا العهد بوجه خاص إقطاعات. الأراضي الواسعة بأيدي النبلاء من رؤساء الإقطاع، حتى أن نظام الملكية الصغيرة اختفى من إيران تقريباً، وفقد الفلاحون والمزارعون الصغار حريتهم، وأصابهم الاضطهاد من جانب الملاكين الكبار، وارتفعت أسعار الأراضي بتزايد الطلب عليها لاستثمار رؤوس الأموال فيها. وأصبحت معظم الأراضي إما ملكاً للتاج أو للإقطاعيين الكبار.

ومن ناحية الأساليب الزراعية الناجعة ننوّه بما قد حصل في العهد الهلنستي (منذ فتح الإسكندر) من طرق ناجعة علمية في الزراعة، ولكن يبدو أن الفرثيين لم يستفيدوا من هذه الأساليب المحسنة، ولكن حصل تقدم في فن تدجين الحيوانات ولا سيما الطيور والدجاج كما حصل نوع من التبادل في النباتات بين الصين وبين إيران على أثر المعاهدة التجارية التي أُبرمت بين الإقليمين فقد أخذت الصين زراعة البرسيم والكروم والخيار والبصل والزعفران والياسمين وأخذت إيران دودة القز وبعض الأشجار المثمرة، كما يحتمل أن بداية زراعة قصب السكر قد أُدخلت إلى إيران في هذا العهد ومصدره من الصين.

الساسانيون

تأسيس الدولة الساسانية[1]:

لقد سبق لنا أن نوّهنا في كلامنا على الفرثيين بعلاقة الساسانيين بهم، ونعيد هنا بشيء من التفصيل كيفية قيام السلالة الفارسية الساسانية وتغلبها على الفرثيين. فتروي لنا المآثر أن «ساسان» (Sassan)، جد السلالة الساسانية، كان الكاهن الأعلى في معبد الإلهة «أناهيتا» في اصطخر (برسيبوليس) وأن ابنه بابك (Papak) الذي خلفه في تلك الوظيفة الدينية المهمة قد تزوج من ابنة حاكم الإقليم، وأنه ثار عليه فيما بعد واغتصب منه السلطة بالقوة. وقد عدت المآثر المتأخرة «بابك» مؤسس السلالة الساسانية الحاكمة، وأن تبوئه منصبه الجديد في تلك الإمارة بداية عهد جديد في تأريخ إيران (208 للميلاد). وكان الملك الفرثي آنذاك «أرطبان» الخامس فلم يعترف بمشروعية عمله وبسلطته، ورفض كذلك محاولته لتنصيب ابنه «شابور» (Shapur) مما أدى إلى الانشقاق بين الملك الفرثي وبين تابعيه في إقليم فارس. وكان أردشير الابن الثاني لبابك قائداً عسكرياً في «درب جرد» في فارس، ولما مات أبوه رفض الاعتراف بسلطة أخيه شابور، ولكن لحسن حظ أردشير مات أخوه فكفاه ذلك مشقة الدخول في نزاع مسلح معه، فخلا الجو لأردشير وأعلن نفسه ملكاً على فارس وأخضع إلى سلطته جميع أمراء الفرس، وكوّن من فارس مملكة موحّدة قوية، كما وسّع سلطته إلى أصفهان وكرمان. فأخاف ذلك الملك الفرثي أرطبان

---

(1) اعتمدنا في إيجاز هذا البحث بالدرجة الأولى على المرجع القيم: Ghirshman, Iran (1954).

الخامس، فأوعز إلى ملك الأهواز (عيلام) التابع له أن يحارب أردشير ولكن غلبه أردشير في معركة حاسمة، ومن ثم استطاع أن يهزم جيوش الملك الفرثي في ثلاث معارك متوالية، واستطاع في الملاقاة الثالثة النهائية في بلاد السوس القضاء على الملك نفسه (224 للميلاد)، وهكذا انفتح الطريق أمام «أردشير» إلى العاصمة طيسفون في العراق، وتوج أردشير من بعد عامين ملكاً شرعياً على جميع إيران (226 للميلاد)، وهكذا رجعت السلطة إلى الفرس من بعد خمسة قرون ونصف القرن من سقوط الإخمينيين، وكان العام الذي أعلن فيه أردشير نفسه ملكاً على إيران بداية العهد الساساني، ودام نيفاً وأربعة قرون حيث انتهى بقضاء العرب المسلمين على الأمبراطورية الساسانية في حدود 637 للميلاد (أو في 651 م، وهو العام الذي اغتيل فيه يزدجرد في أثناء هربه من جيوش العرب).

ومع أن أردشير استطاع أن يقضي على الملك الفرثي فإنه واجه بعد قليل خطراً جسيماً هدد عرشه، إذ تألف اتحاد قوي لمقاومته وإعادة السلطان الفرثي وكان مركز المقاومة في هذا الاتحاد مملكة أرمينيا التي كان ملكها خسرو الأول، متحدراً من السلالة الفرثية الحاكمة، كما أن روما خشيت من ظهور هذه القوة الجديدة في بلاد إيران فقدمت المساعدات، وساعد الاتحاد أيضاً ملك الكوشانيين الذي التجأ إليه أفراد أسرة أرطبان وانضمت إليه جماعات من الاسكيثيين، ومهما كان الحال فإن أردشير تمكن من تحطيم الاتحاد في سلسلة معارك، فأنسحب الرومان والاسكيثيون وملك الكوشانيين. ولم يبق في الميدان إلا ملك أرمينيا حيث استمر هذا في مقاومته بيد أنه دحر من بعد معارك دامت عشر سنين. ومن ثم أصبح أردشير سيد أمبراطورية واسعة تمتد من الفرات إلى مرو وهيرات وسستان، فعمل أردشير على تقوية تخوم هذه الأمبراطورية مما أدى إلى الاصطدام بروما أحرز فيه الفرس سلسلة من الانتصارات على الرومان واستولى الفرس على حصنين مهمين هما نصيبين وحران.

شابور:

حكم أردشير حكماً طويلاً دام نحو خمسين عاماً استطاع في خلاله أن يدحر أعداءه الواحد بعد الآخر، ونجح في إقامة أسس أمبراطورية واسعة ولعل أهم أعماله التي يذكر من أجلها تحويله الجيوش إلى أداة نظامية قوية، وأشرك ابنه شابور الأول في الحكم، ويروى أنه نقل له العرش قبل موته ببضع سنوات. فورث شابور عن أبيه دولة موطدة نوعاً ما، ولكن لا تزال قائمة فيها الأنظمة الفرثية وعلى رأسها النظام الإقطاعي فأبقى عليه، ولكن حسّن في هذا النظام بأن قوّى فيه السلطة المركزية، مضافاً إلى ذلك جيش نظامي حسن التدريب مما جعل الأمبراطورية تقوم على أسس وطيدة مدة من الزمن.

لقد وجّه شابور همه منذ البداية إلى الشؤون الخارجية وبإمكاننا أن نوجز أعماله في جبهتين رئيستين هما الجبهة الشرقية والجبهة الغربية. وكان أهم خطر شغل شابور في الجبهة الشرقية وجود مملكة قوية في تخوم المملكة الفارسية الشرقية هي المملكة الكوشانية التي تأسست منذ القرن الأول للميلاد (في العهد الفرثي) مما جعلها مصدر خطر جسيم من الناحية السياسية والاقتصادية، إذ كانت المملكة الفارسية في الواقع محصورة بين قوتين خطرتين هما الأمبراطورية الرومانية والكوشانيين. وتدخل في هذه المشكلة من الحدود الشرقية مشكلة الدولة الأرمينيا. فوجه شابور قواه أولاً على الكوشانيين، وخلف أخبار انتصاره عليهم في الكتابات المنقوشة في جدران معبد (نقش رستم) حيث استولى على «بيشوار» عاصمة الكوشانيين الشتائية واستولى على وادي نهر السند ثم زحف شمالاً وعبر هندوكوش واستولى على بلاد البخت، وعبر سيحون ودخل سمرقند وطشقند وخلع الملك الكوشاني ونصّب بدلاً منه ملكاً جديداً تابعاً للفرس مع تقليص حدود المملكة وجعلها ولاية.

وبعد هذه التسوية الناجحة في الجبهة الشرقية حوّل شابور جهوده إلى الجبهة الغربية، وكان الحظ حليفه في الغرب أيضاً فقد زحف إلى سوريا وتوغل بعيداً فيها إلى أنطاكية، ولكنه لاقى بعض الاندحارات وفيما كان

مصمماً على الانسحاب اغتيل الأمبراطور الروماني «غورديان» (Gordian) وأسرع خلفه «فيلب» الملقّب بالعربي إلى طلب الصلح دافعاً جزية كبيرة إلى فارس وتخلى عن بلاد ما بين النهرين وأرمينيا (244 للميلاد). ولكن نشبت الحرب مع روما من بعد خمسة عشر عاماً على هذه التسوية. وأحرز شابور نصراً لامعاً فيها حيث استطاع أن يستولي على أهم المدن السورية من بينها المركز المهم «أنطاكية». وفي موقعة كبرى قرب الرها (أديسا) وقع الأمبراطور الروماني فالريان (Valerian)[1] أسيراً بيد شابور ومعه زهاء (70,000) جندي من الرومان من فرق «الليجون» الرومانية الممتازة، فأخذ هؤلاء إلى إيران ووطنوا في مقار بنيت لهم على هيئة معسكرات رومانية في خوزستان بالدرجة الأولى (260 م)، وقد استفادت الأمبراطورية الفارسية من اختصاص هؤلاء، إذ كان بينهم المعماريون والمهندسون فشغلوهم في الأعمال العامة كإنشاء الطرق والجسور والأسداد، وحصل شابور من هذه الانتصارات اللامعة على غنائم وأسلاب وفيرة، ولكن حدث له في أثناء عودته عن طريق شمالي سوريا حادث طريف لم يكن ليحلم به الملك الفارسي. إذ عندما اقتربت جموعه من تدمر (Palmyra) العربية، أرسل الملك أذينة (أو كما تسميه المصادر الرومانية (Adenathus) هدايا ثمينة. ولكن الملك الفارسي رفض هذه الهدايا باحتقار متسائلاً عمّن يكون أذينة هذا؟ ولِمَ لم يجيء بنفسه ويسجد للملك العظيم؟ فكان جواب أذينة أن ظهر بجموعه الأشداء (265 للميلاد) فأوقع الرعب في الجيش الفارسي وحدثت الفوضى وسلب الملك الفارسي جزءاً من الغنائم الكثيرة، ومع ذلك فلم يكن هذا الانتكاس أمراً ذا بال بالنسبة إلى انتصاراته على فاليران[2]. وكان هذا الحادث المهم قد بلغ الرومان فقربوا إليهم أذينة

---

(1) تروي لنا المآثر الرومانية (ولا سيما الكاتب والمؤرخ الروماني أمينيس مرشيلينوس) أن شابور عامل أسيره الأمبراطور بمنتهى الخشونة والتحقير فكان يرتقي عليه عند امتطاء جواده، ولما مات حشا جسمه وصار يستعمله للغرض نفسه.

(2) خلد شابور انتصاره على فاليران وجيوشه بالنقوش والمنحوتات البارزة في جبال فارس.

ولقّبوه «بحاكم المشرق»، وكان هذا لقباً عظيماً ورثته عن أذينة زوجه الملكة زنوبيا (أو كما يسميها العرب الزبّاء أو زينب) وقد كانت هذه ملكة عظيمة وصفها المؤرخ الشهير «جيبون» (Gibban) بأنها كانت ملكة نابغة مشهورة بالصيد والفروسية وتصفها المصادر الرومانية بجمالها وثقافتها وأنها كانت تحسن اللاتينية والإغريقية والمصرية علاوة على اللهجة السورية. وقد ورثت العرش عن زوجها الذي اغتاله أحد أقاربه بالوصاية على ابنها «وهب اللات».

وقد امتازت «الزبّاء» بطموحها الخارق فإنها تحدّت الأمبراطورية الرومانية وشنّت عليها الحرب واستطاعت أن تمدّ حدود مملكتها بحيث شملت ولاية مصر وقسماً كبيراً من آسيا الصغرى حيث دحرت الجيش الروماني هناك (عام 270 للميلاد) واستولت في العام نفسه على الإسكندرية وتوّجت ابنها الصغير ملكاً على مصر. واشتهر من قوادها الحربيين «قائدان عظيمان يعزى إليهما تدبير خطط الملكة الحربية وهما «زباي» و«زبدا». ولكن طموح «الزبّاء» الخارق كلّفها ثمناً غالياً فإنها لم تكتف بتحدي الأمبراطورية الرومانية بل إنها أخذت تحارب الفرس، ودحرت جيوش «سابور» مرتين وصلت في كل معركة منهما إلى أبواب العاصمة «طيسفون». ولما بلغت دولة تدمر هذه القوة حلّ الرعب في الرومان فعزم الأمبراطور الروماني «أورليان» على وضع نهاية لدولة تدمر فبعد أن دحر القائد (زبدا) في أنطاكية وفي حمص هاجم في ربيع عام 272 تدمر نفسها، وبعد حصار شديد يأست الملكة من المقاومة فهربت وأخذت بعدئذ مصفّدة بسلاسل من الذهب وسارت أمام عربة الأمبراطور في دخوله منتصراً إلى روما، وبذلك انتهت حياة هذه الملكة. وخربت المدينة ونهبت كنوز معبدها الشهير المخصص لعبادة الإله الشمس وأخذت إلى روما إلى معبد شيّده الأمبراطور للإله الشمس تخليداً لذكرى انتصاره هذا، فانتهت حياة مملكة تدمر، وخلفتها في الأهمية التجارية بعض المدن السورية التي كوّنها الغساسنة مثل بصرى.

ومن الأمور التي يجدر ذكرها عن عهد شابور الأول المدينة المهمة التي

شيّدها في إقليم خوزستان في الموضع المسمى بالسريانية «بيت لاقط» وموضعها الآن شاه أباد وعُرفت في المصادر العربية باسم «جنديسابور» التي اشتهرت بمدرستها في الطب وفروع المعرفة الأخرى مما كان لها أثر عظيم في الطب العربي وظلّت مزدهرة إلى العهد الإسلامي. لقد بنى شابور هذه المدينة تخليداً لانتصاره على الأمبراطور الروماني «فاليريان» وتدميره أنطاكية وقد سماها باسم طريف يعني «أحسن من أنطاكية مدينة شابور»(1) وصارت هذه من المراكز العلمية الشهيرة، ولجأ إليها كثير من العلماء النساطرة بعد أن طردتهم بيزنطية في القرن الخامس من إقليم أديسا (الرها). واشتهر شابور بولعه بالحكمة والمعرفة والفلسفة وترجمة المآثر اليونانية في ذلك.

وبعد الاستطراد الذي اضطررنا إليه في ذكر بعض الأشياء المفيدة عن تدمر نعود فنوجز ما تمّ في عهد شابور من الأحداث المهمة، وعلى رأس ذلك ما قام به هذا الملك العظيم، بالإضافة إلى أعماله العسكرية، من التنظيمات الداخلية للأمبراطورية مما بدأ به أبوه. واشتهر شابور بولعه بالمعرفة والكتب على ما ذكرنا من قبل حتى أنه أمر بترجمة جملة كتب يونانية وهندية تتضمن نواحي مختلفة من المعرفة كالطب والفلك والفلسفة. ومن الأمور التي تستحق الذكر عن عهد شابور ظهور حركة ماني (Mani) الدينية حيث شمله هذا الملك الفارسي بحمايته واهتم بتعضيد حركته الدينية ولعله استهدف من ذلك تأسيس ديانة عامة عالمية في أمبراطوريته ولما كنا سنذكر أشياء أخرى عن هذه الديانة في موضع آخر فنكتفي هنا بأن نذكر أنها حصلت على أتباع كثيرين في جميع آسيا الغربية، ولكن وقع الاضطهاد في صاحبها وأتباعها من بعد موت شابور (272 م) بزمن قليل في عهد بهرام (وهرام (Vahram)) الأول حيث حكم على «ماني» بالموت.

---

(1) (Veh-az-Andev-i-Shápûr) ثم سميت بهيئة (Gundê-Shâpûr) و(Jundi-Sábûr) أي جنديسابور بالعربية.

(E.G. Browne, **Arabian Medicine** (1921), 20).

خلفاء شابور:

كان شابور من أعاظم ملوك السلالة الساسانية وقد حصلت من بعده اضطرابات وثورات مما أحلّ في المملكة فترة من الوهن والضعف. خلف شابور ابناه هرمزد (هرمز) الأول ثم بهرام الأول، ثم بهرام الثاني فبهرام الثالث[1]. ونشبت حرب جديدة مع روما في عهد بهرام الثاني، كما حدثت ثورة خطيرة في التخوم الشرقية من الأمبراطورية حيث أراد أخوه الذي كان والياً على «سستان» اغتصاب العرش وساعده في ذلك أمير مملكة كوشان مما جعل الخطر يشتد على بهرام في جبهتين، ولذلك عمد إلى عقد الصلح مع روما متخلياً بموجبها عن بلاد ما بين النهرين وأرمينيا. ولم يحكم بهرام الثالث سوى بضعة أشهر (293 م) حيث خلعه أخوه «نرسي» (Narsah) (293 ـ 302 م) وهو سابع ملك من بعد أردشير وتجددت الحرب مع الرومان في عهد «نرسي»، وكان قائد الجيش الروماني «غاليريوس» وكان النصر حليف الملك الفارسي وتقهقر القائد الروماني إلى أنطاكية حيث عزره الأمبراطور الروماني «ديوقليشان» الذي قاد الجيش بنفسه وهاجم الملك الفارسي في السنة التالية، فأحرز الرومان نصراً ساحقاً على الفرس حتى أنهم أسروا جميع أسرة «نرسي» وعقدت معاهدة بين الطرفين سلخت بموجبها أرمينيا الصغرى وجملة ولايات فارسية شرقي دجلة. وبلغ الضعف في إيران مبلغاً كبيراً فركن الساسانيون إلى سياسة المصالحة مع الرومان ومع الكوشانيين حتى أن هرمز الثاني ابن نرسي وخليفته تزوج بأميرة كوشانية. ولم تحدث في عهد هرمز الثاني (303 ـ 309 م) حوادث تستحق الذكر. وتبوأ العرش الفارسي بعد موته ملك شاب هو شابور الثاني (سابور ذو الأكتفاف كما سمّاه العرب) الذي دام حكمه زمناً طويلاً نحو سبعين عاماً (309 ـ 379 م) برهن فيه عن كفاءته في الحكم، وقد احتذى مثال شابور الأول وكان أول محك لقدرته توجيه قواه إلى مملكة الكوشانيين

---

(1) راجع كتب التأريخ العربية حول تسلسل الملوك الساسانيين، وبوجه خاص الطبري والمسعودي واليعقوبي.

حيث حطم أمبراطوريتهم وضمت إلى إيران على هيئة ولاية تابعة يحكمها ولاة من الأمراء الساسانيين في مقرهم في «بلخ»، ومما يذكر عن عهد هذا الملك القدير انتشار الثقافة الإيرانية والفن الإيراني شرقاً إلى المدن التركستانية الصينية وحتى إلى الصين نفسها. واستأنف شابور الثاني من بعد استباب الأمور له في الشرق نزاعه مع الرومان لإزالة عار المعاهدات التي فرضتها روما على بهرام الثاني «نرسي». وكان سير الحرب في مبدأ الأمر في صالح الرومان، ولكن تغير الوضع لصالح الفرس بعد التسوية التي تمّت مع الكوشانيين والأفثلاطيين[1] حيث ساعد هؤلاء الأقوام البربرية الشديدة الجيوش الفارسية في حربها مع الرومان، وكانت أولى المعارك العظمى في عهد الأمبراطور الروماني قسطنطين[2] في سنجار، فكان النصر حليف شابور وبعد ذلك توجه (شابور) إلى نصيبين التي كانت قلعة رومانية محصّنة كما ذكرنا وكاد ينتصر هنا لولا الارتباك الذي حدث في جيشه واضطراره إلى ترك الحرب والذهاب إلى فارس ليخمد ثورة كانت قد نشبت هناك. وبعد إخماد الثورة رجع فقصد الشمال وحاصر (آمد) وقتل أهلها ومن بعد ذلك شغل الفرس أنفسهم في

---

(1) (Ephthalites) وهو الاسم الذي ذكره المؤرخون البيزنطيون، ويعرفون باسم الهون البيض وهم قبائل كثيرة تورانية (تركية) وقد سمّاهم العرب باسم الهياطل (ج. هيطل)، ولكن المؤرخين العرب أطلقوا هذا المصطلح بوجه عام على جميع الشعوب والأقاليم التورانية فيما وراء جيحون كما فعل المقدسي، وكان نهر جيحون القديم الحد الفاصل بين الأقوام الإيرانية والتركية، وسمى العرب جميع الأقاليم التي إلى شماله بما وراء النهر باسم الهيطل أيضاً، وسنرى مما يمر بنا من سير حوادث التأريخ الساساني ضغط هؤلاء وخطرهم على المملكة الساسانية ولا سيما في القرن الخامس للميلاد.

(2) ومما يقال عن النزاع الفارسي الروماني في عهد قسطنطين الكبير إنه اتخذ شكلاً جديداً، فإن اعتناق هذا الأمبراطور للمسيحية وتحول أرمينيا إلى المسيحية قرّبت ما بين أرمينيا وبين الرومان، ولكن قسماً من طبقة النبلاء في أرمينيا ظل محتفظاً بثقافته الإيرانية وبميوله وولائه لإيران، فصارت أرمينيا مسرحاً للمنازعات الداخلية. ولما صارت المسيحية الديانة الرسمية للأمبراطورية الرومانية تعرض المسيحيون التابعون للأمبراطورية الفارسية للاضطهاد من جرّاء اتهامهم بميولهم إلى روما بسبب الروابط الدينية الجديدة.

تخريب بعض القلاع الرومانية. وفي أثناء ذلك جاء إلى الحكم في روما الأمبراطور «جوليان»[1]. وقد بدأ حكمه في غزوه الشرق وعبّأ لذلك جيشاً كبيراً ومعه أسطول من السفن. فبعد أن عبر الفرات سار متوجهاً إلى حران وقسم هنا جيشه إلى قسمين أرسل القسم الأول منه شرقاً إلى نصيبين وسار بنفسه مع الآخر باتجاه الفرات. وكان الأسطول يرافق الجيش الزاحف. وقد وصل الأمبراطور إلى بابل نفسها وكان قد دمر مدناً كثيرة خلال تقدم الجيش ومن ثم سار الجيش شرقاً إلى العاصمة «طيسفون» فنشبت معركة عظيمة بين الفرس والروم على أبواب العاصمة كان النصر فيها للرومان. وكان الملك الفارسي آنذاك بعيداً عن العاصمة. فأسرع في العودة ليخلص عاصمته من الحصار الروماني. يضاف إلى ذلك أن الجيش الروماني الثاني لم يصل بعد باتجاه دجلة نظراً للمناوشات التي حصلت بينه وبين الأرمن، لذلك قرر مجلس الأمبراطور الحربي أن يترك حصار العاصمة الفارسية ويذهب لإخضاع المقاطعات الشرقية، وعزم الأمبراطور على حرق أسطوله مخافة أن يقع بأيدي العدو، وبعد أن فعل ذلك سار متوجهاً إلى بعقوبة ومنها إلى جبل حمرين، وكان الفصل صيفاً، فلاقى الجيش صعوبات عظيمة، وبعد أيام ظهر جيش الملك الفارسي (شابور) الذي اعترض مرور الأمبراطور من تلول حمرين إلى كركوك، وقد نشبت على أثر ذلك معارك غير حاسمة قتل في إحداها الأمبراطور بسهم في قلبه فمات على الأثر. فاضطرب الجيش من بعده ولما لم يتمكن من عبور جبال حمرين تقهقر قسم منه وعبر دجلة قرب سامراء ووصل الباقي بحالة مبعثرة إلى أنطاكية. وقد رافق حملة جوليان المؤرخ الروماني «مرشيلينوس» المشهور وكتب عن هذه الحوادث في مؤلفاته التأريخية. وهكذا كانت نتيجة غزوة جوليان للشرق، ومن نتائجها أيضاً إبرام معاهدة بين

(1) نذكر هنا تسلسل أباطرة الرومان في هذه الفترة التي حكم فيها شابور فبعد حكم قسطنطين (306 ـ 337 م) حلّت فترة اضطرابات دامت ربع قرن وحكم من بعدها الأمبراطور جوليان (يوليان) (361 ـ 363 م) ثم جوفيان (363 ـ 364 م).

الأمبراطور الذي خلف جوليان وهو جوفيان وبين شابور حصل بموجبها الفرس على أقاليم مهمة من الأمبراطورية الرومانية مثل سنجار ونصيبين وأرمينيا التي احتلت احتلالاً عسكرياً من جانب الفرس بقيادة مرزبان (أي أحد قواد التخوم).

أحوال الدولة الساسانية بعد شابور الثاني:

حلت من بعد موت شابور الثاني (379 م) فترة ضعف في حياة الدولة الساسانية شغلت زهاء القرن الواحد ودامت تقريباً إلى عهد قباذ الأول (488 ـ 531 م) وعمّت فيها الاضطرابات من جرّاء التناحر والنزاع بين العرش من جهة من ناحية تولي الملوك وبين الطبقات الأرستقراطية الإقطاعية التي حالفت طبقة الكهنة الزرادشتية. فعلى الرغم من الجهود التي بذلها أوائل الملوك الساسانيين الأقوياء من أجل السيطرة على النبلاء الإقطاعيين وكبح قوّتهم إلا أنهم عادوا إلى استرجاع امتيازاتهم المأثورة، وكان ذلك يظهر بوجه واضح إبان فترات الضعف الناشئة من ارتقاء العرش ملوك ضعفاء مثل الفترة التي أعقبت موت شابور الثاني، كما أن المناصب التي أخذوها في الدولة أصبحت وراثية، وضعفت سلطة العرش بتدخلهم ومعارضتهم حتى آل الأمر بالملك أن فقد حقه بتعيين خلفه، وهي العادة التي كانت متّبعة بين الملوك الساسانيين، وصار الملك ينتخب من أفراد الأسرة الساسانية من جانب طبقة النبلاء الإقطاعيين، فأدى ذلك إلى تمزق العرش من جرّاء تناحر الأحزاب الموالية للأمراء المتنازعين. وقد أخذ نفوذ هؤلاء النبلاء بالازدياد في عهد أردشير الثاني (379 ـ 383 م) الذي خلف شابور الثاني واستمر في الازدياد في عهد شابور الثالث (383 ـ 388 م) وبهرام الرابع (388 ـ 399 م) الذي تمّت في عهده تسوية للمشكلة الأرمينيا. واشتهر يزدجرد الأول (399 ـ 420 م) بتساهله الديني إزاء المسيحيين حتى أنه لقّب «بالملك المسيحي» وعين «جاثليقا» (Gatholicus) في سلوقية وخمسة مطارنة في خمس مدن، وسمح للقسس بحرية التنقل، ولكن يبدو أن هؤلاء أساؤوا هذا التساهل الملكي إذ

شهروا بالمعابد الزرادشتية وبكهنتها مما حمل الملك إلى التخلي عن سياسة التساهل إزاء المسيحيين. ومما يذكر عن حكم يزدجرد الأول ما جرى من التصادم مع الأفثلاطيين وهم الذين أسكنهم شابور الثاني في تخوم كوشان وسمح لهم بتأسيس اتحاد مع إيران، ولكن استطاع هؤلاء بمرور الزمن أن يؤسسوا مملكة قوية ازدادت في البأس والقوة في بداية القرن الخامس ويوسعوا حدودهم من هندوكوش وهددوا الهند.

وبعد موت يزدجرد الأول وقع نزاع حاد على العرش بين أبنائه فاستطاع أحدهم المسمى بهرام الخامس (بهرام جور) (421 ـ 438 م) أن يحصل على العرش بسبب المساعدة العسكرية التي حصل عليها من أمير الحيرة العربي المنذر الأول ابن النعمان (418 ـ 462 م)، حيث كان بهرام قد عاش في بادية الحيرة يوم كان شاباً. وقد اشتهر بهرام الخامس من بين الملوك الساسانيين بكونه صياداً (ووصفه الخيام بالصياد الأعظم) وشاعراً وموسيقياً وقد صارت شخصيته مدار قصص وموضوعاً للفنانين، وكان مسالماً ضعيفاً حتى أنه تحاشى مشكلة النبلاء بأن تنازل عن امتيازاته ولكنه نجح بحرب قصيرة مع بيزنطية، كما تفاهم مع روما[1]، وأظهر المسيحيون ولاءهم للدولة الساسانية حتى أن مجمعاً كنسياً أعلن استقلال كنيسة إيران عن بيزنطية. وخلف بهرام الخامس يزدجرد الثاني (438 ـ 459 م)، واشتهر هذا بالاهتمام بالمناظرات الدينية ودرس الديانات الموجودة في أمبراطوريته ولكنه ظل زرادشتياً متحمساً لديانته واضطهد أخيراً المسيحيين واليهود وتدخل في شؤون أرمينيا الدينية محاولاً تحويلها إلى الزرادشتية مما سبّب ثورة فيها أخمدها يزدجرد بصعوبة.

وازدادت أحوال الأمبراطورية سوءاً في عهد فيروز (459 ـ 484 م) وحصلت في عهده مجاعات في المدن والأرياف مما اضطر الملك إلى تأجيل

(1) ننوّه هنا بانقسام الأمبراطورية الرومانية إلى قسمين غربي وشرقي وقد قام بهذا التقسيم الأمبراطور ثيودوسيوس قبيل موته (393 ـ 395) حيث قسم الأمبراطورية بين ولديه جعل على القسم الشرقي (ومركزه بيزنطية) أركاديوس وعلى القسم الغربي (ومركزه روما) هنوريوس.

الضرائب وتوزيع الحبوب على الناس. ومما زاد في الطين بلة وقوع المنازعات والاضطهادات الدينية. وانقسم مسيحيو الأمبراطورية الفارسية في عهده إلى طائفتين النساطرة (الذين رأوا أن في المسيح طبيعتين الأولى إلٰهية والأخرى بشرية) واليعاقبة (أصحاب الطبيعة الواحدة)[1]. وحارب فيروز الأفثلاطيين (الهياطلة) فأندحر وأسر ولم يطلق سراحه إلّا بدفع فدية باهظة، وأودع ابنه قباذ (Kobad) رهينة حتى دفع الجزية واستنجد بروما التي تدخلت في شؤون إيران. ومع هذه النكبات فإن فيروز أعاد الكرة بعد استجمام عدّة سنوات فهجم على الأفثلاطيين، وقد كلّفته الحرب في هذه المرة حياته، وصارت اليد العليا لهؤلاء الأفثلاطيين وأصبحت إيران تابعة لهم تقريباً زهاء أكثر من نصف قرن، في عهد خلفاء فيروز الثلاثة[2]، وصار الهياطلة هم الذين ينصبون الملوك الفرس على عرشهم.

المزدكية:

ساءت أحوال المملكة في عهد قباذ الأول (488 ـ 531 م) فبالإضافة إلى الأخطار الخارجية من الأفثلاطيين نشب نزاع وصراع حادان بين جماهير الشعب وبين الطبقات النبيلة، وقد اتبع معظم الجماهير حركة دينية اجتماعية غريبة هي المزدكية التي ظهرت في هذا العهد، أما قباذ فقد التزم جانب الجماهير مدفوعاً على ما يرجّح بحافز القضاء على نفوذ الطبقات النبيلة. وتنسب هذه الديانة إلى مؤسسها «مزدك» وقد أسست على نظام وعقائد خاصة بالخليقة والكون مستقاة بالدرجة الأولى من تعاليم «ماني» ولها قواعد خاصة بالسلوك فكانت تتطلب من أتباعها الامتناع التام عن النزاع والبغضاء والحسد والتكالب. ولكن سر جاذبيتها يكمن في روحها الثورية ونظريتها الاجتماعية التي تستند إلى مبدأ التساوي العادل في توزيع الملكية والمقتنيات واقتسام

---

(1) انظر كلامنا على ظهور المسيحية في تأريخ بلاد الشام.

(2) وهؤلاء هم بلاش وقباذ الأول وجماسب.

أملاك الأغنياء بين الفقراء وشمل ذلك حتى النساء. وإذا نظرنا إلى هذه الحركة وهي في مجتمع مثل المجتمع الإيراني حيث تقسيم الطبقات الاجتماعية والفروق بينها شديدة وحيث قوام المجتمع الأسرة والملكية الفردية الواسعة والفروق بين الطبقات وحيث الطبقات الإقطاعية بامتيازاتها وأملاكها ـ نقول لو نظرنا إلى هذه الحركة على هذا الضوء لبدت لنا ثورة انقلابية لم يسبقها مثيل، حتى أنها وصفت بأنها شيوعية إيرانية، وهي مما لا شك فيه رد فعل عنيف من طبقات الفلاحين والأرقّاء وسكّان المدن والأرياف الأحرار المعوزين ضد الأرستقراطية الإقطاعية. فساند «قباذ» هذه الحركة الجريئة وأدخل جملة تشريعات جديدة يتعلق بعضها بمركز النساء. ولكن نشبت الثورة عليه فخلع عن العرش وسجن وحوكم ولكن أبقي على حياته. ونصب على العرش الفارسي أخوه «جماسب». أما قباذ فقد هرب إلى الأفثلاطيين والتجأ إليهم وعاد في عام 499 مع جيش من هؤلاء فخلع أخاه واستعاد عرشه، وغير سياسته إزاء الديانة الجديدة لا سيما وأن المزدكية التجأت إلى الثورة والعنف حيث نهبت أملاك النبلاء واختطفت النساء، وازداد بغض الملك لأتباع مزدك لما عارضوا تعيينه لابنه كسرى خلفاً له. وجرت مناظرة هجم فيها الكهنة الزرادشتيون والقسس المسيحيون على أتباع المذهب المزدكي، فأوقعت بهؤلاء على أثر ذلك مذبحة وأحرقت كتبهم وصودرت أملاكهم. ولكن على الرغم من كبح جماح هذه الحركة الثورية إلا أن آراءها ومبادئها ظلت وانتشرت سراً. حتى أنه حدث بعد خمسين عاماً أن ترأس أحد أبناء الخاقانات من الترك الغربيين الجماهير المعدمة واستولى على واحة بخارى وطرد الأغنياء والنبلاء، ولكن انتصاره لم يدم زمناً طويلاً إذ خمدت ثورته وقتل ومثل به. وظهرت ثورة أخرى في أزمان الفتوح العربية لإيران، إذ اعتنق مبادىء المزدكية في بداية القرن الثامن للميلاد الأمير المسمى «خورزد»، أخو شاه خوارزم، فبعد أن استولى هذا على السلطة اضطهد الطبقات النبيلة في ذلك الإقليم وصادر أموالهم ونساءهم وبناتهم ووزعها بين الطبقات الفقيرة. فاضطر الملك إلى الاستنجاد بالعرب، فأعاده القائد «قتيبة» إلى عرشه وأخمد حركة «خورزد».

ومع أن قباذ قلب ظهر المجن للمزدكيين إلا أنه ظل متأثراً بالآراء التي شاعت آنذاك حول العدالة الاجتماعية، فحاول التخفيف من الأوضاع السيئة بإصلاحات مالية، إلا أن الموت لم يمكنه من تنفيذ منهجه.

كسرى الأول:

خلف قباذ كسرى الأول (531 ـ 579 م) الذي عرف باسم كسرى أنوشروان واشتهر بإصلاحاته وعدله وصار (كما نجد صدى ذلك في المصادر العربية التي تلقبه بالملك العادل)[1] مثل الحاكم الصالح. وسيتضح مما سنوجزه عن أعماله أنه بإمكان عد حكمه أزهى حقبة في العهد الساساني سواء كان ذلك من النواحي الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية والانتصارات العسكرية، وكانت أولى أعماله أن أعاد الاستقرار وسلطة العرش في المملكة، كما أعاد الأملاك التي اغتصبها المزدكيون إلى أصحابها وجعل الدولة تعنى بشؤون النساء والأطفال الذين اغتصبهم أتباع مزدك، ولما شبّ أبناء هؤلاء النبلاء ألحقوا بخدمة العرش فكانوا أكثر ولاء وتعلقاً من النبلاء القدماء. وقام بمشاريع مهمة لإنقاذ وضع الريف والأراضي الزراعية، فأعيد بناء القرى، وأصلحت الطرق والجسور والقنوات وأدخلت الحكومة تشريعاً خاصاً لإصلاح النظام المالي فوضعت الإحصائيات للأراضي والأملاك وجعلت الضريبة على أساس الطبقة التي يعود إليها الفرد. والتفت إلى الجيش فأصلحه، والظاهر أن هذا الملك قسم الأمبراطورية من ناحية القيادة العسكرية إلى أربعة أقسام كبرى عيّن على كل قسم منها قائداً عاماً وهي فارس وماذي وبلاد البخت والعراق وأدخل التجنيد الإلزامي، وقوّى المراكز الدفاعية في تخوم المملكة.

وعلى الرغم من معاهدة الصلح المعقودة مع بيزنطية قام كسرى أنوشروان بغزو بلاد الشام (540 م) واستولى على أنطاكية وأحرقها ونقل سكانها إلى مدينة جديدة بناها لهذا الغرض قرب طيسفون، وسماها باسم

(1) وفي عهد كسرى ولد النبي محمدﷺ في أواخر سني حكمه (انظر الطبري).

يعني: «أحسن من أنطاكية مدينة كسرى»[1]، كما وسع العاصمة طيسفون، عاصمة الساسانيين في العراق، فجدّد المدينة، ويحتمل أنه هو الذي ابتنى الطاق العظيم واتخذه لإقامة الحفلات، وهو اليوم أكبر طاق معقود في العالم، حيث يزيد عرضه على (25) متراً ويبلغ علوّه عن مستوى التبليط زهاء (37) متراً، وقد مضى على بنائه نحو 1500 عام وهو لا يزال قائماً. والمعروف عن الملوك الساسانيين أنهم كانوا يزينون جدران القصور كما يروى ذلك عن طيسفون حيث مثلت في بعض جدرانها مشاهد الاستيلاء على أنطاكية، كما جاء وصف ذلك في قصيدة البحتري الشهيرة[2].

وبعد ذلك خاض كسرى حرباً موفّقة ضد البيزنطيين في أرمينيا انتهت بالصلح، وظل السلم حتى الأيام الأخيرة من حكمه الذي دام زهاء نصف قرن، ومما يجدر التنويه به في عهد كسرى أنه قضى على الأفثلاطيين فأعيدت حدود الأمبراطورية في جهة الشرق، ووسع حدود الأمبراطورية في الجنوب حتى شملت اليمن وكان يحكم في زمنه في الحيرة الملك «المنذر». واهتم كسرى بنشر الثقافة والتعليم فقد أنشئت في عهده مدرسة للفلسفة والشعر والبلاغة قرب مدينة سوسة ترجمت فيها كثير من الآثار اليونانية إلى اللغة الفارسية. وكان يميل بوجه خاص إلى الفلاسفة الأفلاطونيين المحدثين، وأوثر عنه أنه أرسل طبيبه «برزويه» (Burzuya) إلى الهند فجلب هذا معه الشطرنج وكتاب كليلة ودمنة المشهور وكتباً مهمة في الطب.

بإمكاننا عد كسرى آخر الملوك العظماء في السلالة الساسانية، وقد

---

(1) وبالفارسية القديمة (Veh-az-Andev-i-Kkusraw). (راجع ما ذكرناه عن اسم «جنديسابور» التي بناها شابور الأول تخليداً لذكرى انتصاره على أنطاكية).

(2) لم يعثر على نماذج من هذه الصور إلا أن «غريشمان» (Ghrishman Iran, 326) وجد في إيوان «بيشابور» تبليطاً من الفسيفساء منقوشة بالصور تدلّنا على نوع الصور الجدارية لأن المعروف أن صور الفسيفساء تستنسخ عادة من النقوش الجدارية.
(حول التنقيبات في طيسفون 1931 ـ 32 انظر: (J.H. Schmidt, in Syria, 1934)

خلفه سلسلة من الملوك معظمهم كان ضعيفاً وساءت في عهدهم أحوال الدولة. وأول هؤلاء هرمز الرابع (579 ـ 590 م)، وكان هذا على شيء من المقدرة والحنكة وحب المعرفة، فأراد متابعة سياسة أبيه ولا سيما الاحتفاظ بزمام السلطة على طبقات النبلاء والكهنة ولكن لم يوفّق في ذلك إذ تألب عليه النبلاء والكهنة الزرادشتية، وساء الوضع، ونجحت السياسة البيزنطية في تأليب الجبهات المعادية ضد إيران، وثار على الملك قائد عظيم وهو بهرام المتحدر من السلالة الأرشاقية، وساند النبلاء هذا الثائر الذي نجح في القبض على هرمز وسجنه وتنصيب ابنه كسرى الثاني (أبرويز) بدلاً منه (590 ـ 628 م)، ولكن القائد بهرام المذكور طمح بأكثر من ذلك إذ كان يريد العرش فاستولى على العاصمة وأعلن نفسه ملكاً إلا أن الملك المخلوع استطاع بمساعدة عسكرية من بيزنطية أن يغلب القائد الغاصب، ولكن تلك المساعدة البيزنطية كلفت الفرس ثمناً باهظاً إذ فقدوا جميع أرمينيا. ولكن لم يدم الوضع على هذا الحال زمناً طويلاً، إذ استطاع كسرى الثاني بعد بضع سنين من أخذ المبادأة واليد العليا على البيزنطيين حيث تمكّن الجيش الفارسي من استعادة أرمينيا والاستيلاء على أديسا (الرها) ثم زحف عبر كبدوكية وأخذ قيصرية ووصل إلى البسفور (610 م)، ثم هاجم الجيش الفارسي في العام التالي أنطاكية ودمشق ثم أورشليم، فنهب ودمر وقتل كثيراً من المسيحيين، وأخذ من فلسطين بعض الآثار الدينية (ومن بين ذلك جزء من الصليب الحقيقي)، واستطاع الجيش أن يستولي أيضاً في عام 616 م على غزة، وغزا مصر وأخذ بابليون (القاهرة القديمة) والإسكندرية ثم سار الجيش مع النيل إلى تخوم بلاد الحبشة. وبذلك أحرز كسرى الثاني انتصارات لامعة عجيبة ومدّ حدود المملكة إلى جهات لم تعرفها الدول الفارسية إلّا في عهد الأمبراطورية الإخمينية. والأعجب من ذلك أن الجيش الفارسي تمكن من الاستيلاء على أنقرة وضرب الحصار على القسطنطينية، وتمّ لجيوش الملك الانتصار على الأفثلاطيين في الوقت نفسه.

ولكن يبدو أن هذه الانتصارات الكاسحة السريعة كانت بمثابة صحوة

الموت، إذ استطاع الأمبراطور البيزنطي الجديد هرقل (Heraclius) بهجوم مقابل أن يحرر آسيا الصغرى ويطرد الجيوش الفارسية منها، ثم غزا أرمينيا وأوغل في أذربيجان. واستولى فيها على أهم معابد إيران. وبعد أن اتصل بحلفائه الخزر الذين عبروا القوقاز زحف إلى وادي دجلة وحاصر طيسفون، فأراد كسرى الهرب ولكن اغتاله ابن له من أميرة بيزنطية ولعلنا نستطيع تفسير هذه النكسات المريعة بالمقابلة مع الانتصارات اللامعة التي سبقتها إذا درسنا سلوك كسرى الثاني الذي كرهه بأعين رعيته، لما عرف عنه من القساوة والظلم والطمع وفرضه الضرائب الفادحة التي سحقت الشعب، وإلى ذلك كان سيئ الظن بحيث إنه كان يفتك بأقرب المقربين والموالين إليه، كما أن انتصاراته العجيبة زادت من سوء سلوكه بركوبه الغرور والطيش، فأسرف إسرافاً شديداً على أبهة بلاطه الذي كان يضم ألوفاً من السريات والموسيقيين والحجّاب والندمان، كما أنه أسرف في استعمال قواه المحاربة في فتوحه فوق طاقة موارده، وهكذا فليس من المستغرب أن انعكست الآية وتحوّلت انتصاراته السريعة إلى هزائم مماثلة. وقد ساهمت الطبيعة في إحلال الوهن في العرش والبلاد فقد صادف أن فاض دجلة فيضاناً طاغياً حوّل الأرياف المزدهرة إلى مستنقعات وسبّب انهيار أجزاء من القصور الملكية في طيسفون. ومن الحوادث التي لعلها كانت تبدو طفيفة بالنسبة إلى كسرى أبرويز وهو في أبهة بلاطه ولكنها كانت نذيراً بسقوط الفرس، تلك هي استقبال أبرويز رسولاً أرسله إليه شخص لم يسمع به من قبل، ذلك «هو محمد النبي العربي الذي طلب منه الإسراع في الدخول إلى دين الحق الجديد»[1].

ومن المحتمل جداً أن كسرى أبرويز تجاهل هذه السفارة وصاحبها وعجب لجرأة مرسلها ولكنه لم يدر بخلده أنه سيستطيع أتباع صاحب هذه

(1) كان مبعث النبيﷺ في العام العشرين من حكم كسرى أبرويز كما أن الهجرة كانت في عامه الثاني والثلاثين ووقعت في عهده موقعة ذي قار الشهيرة (انظر البلاذري حول رسالة النبي).

السفارة من اكتساح أمبراطوريته بعد زمن لم يزد كثيراً على أربعة عشر عاماً. إذ الواقع أن أربعة عشر عاماً هي كل المدة الفاصلة بين موت كسرى أبرويز وبين مجيء يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين (632 ـ 651 م). ولكن العجيب في هذه الفترة القصيرة أن ما لا يقل عن اثني عشر ملكاً قد تناوبوا على العرش الفارسي[1] وانغمرت المملكة بالنزاع والحروب الداخلية بين الأمراء والنبلاء المتخاصمين، وأصبح هؤلاء الملوك مجرد ألعوبة بأيدي الأحزاب المتنازعة، وصارت طبقات النبلاء المتحاربة تضع على العرش حتى النساء، والمثال على ذلك ابنتا كسرى (أبرويز) وهما «بوران» و«آزرمي دخت». ولما دعت الحاجة في عام 632 إلى تنصيب ملك من الأمراء الساسانيين فتش النبلاء عن أمير كان مختبئاً في اصطخر خوفاً على حياته من المؤامرات الدائرة، وكان هذا يزدجرد الثالث الذي بلغ سوء الوضع في عهده حدّاً لا ينصلح فيه إلّا بتغيير أساسي. وهكذا انفتح الطريق أمام الفاتحين العرب الذين بدؤوا بنشر دينهم الذي حتم على مصير الأمبراطوريتين العظيمتين، أمبراطورية فارس وبيزنطية. فقد أزالوا الأمبراطورية الأولى من الوجود، وقلّصوا حدود الأمبراطورية الثانية وحصروها في جزء من آسيا الصغرى ومركزها في القسطنطينية. وفيما كان هرقل مشغولاً بنزاعه مع كسرى كان الجيش العربي يغزو سوريا. هذا وأن سير الفتوح العربية التي أنهت الأمبراطورية الفارسية معروف لدى دارس التأريخ الإسلامي وخارج نطاق بحثنا فلا ندخل فيها إلّا بأن ننوّه بأنه على الرغم من كفاءة (رستم) قائد الجيوش الفارسية إلا أن الجيش العربي أوقع فيه هزيمة منكرة في موقعة القادسية الشهيرة قرب الحيرة (حزيران عام 637 م) حيث قتل في تلك الموقعة ثم تلى ذلك أخذ القائد العربي سعد للعاصمة طيسفون في العام نفسه (المدائن كما عرفها العرب)، ولكن مقاومة الفرس استمرت في بلاد إيران، فألّف يزدجرد جيشاً جديداً لصدّ سيل الفتوح العربية، ولاقى الجيوش العربية في

(1) حكم بعد أبرويز ابنه قباذ شيرويه الذي قتل أباه وانتشر الطاعون في زمنه ولا سيما في العراق.

سهل «نهاوند» جنوب همدان، فانتصر العرب انتصاراً لامعاً وانهزم الملك مع حاشيته إلى جهة الشرق كما فعل آخر ملوك السلالة الإخمينية (دارا الثالث) في هربه من ملاحقة الإسكندر. وحلّ به نفس المصير إذ اغتيل بالقرب من مرو (عام 651 م)، وبذلك انتهت حياة الأمبراطورية الساسانية وانتهى حكم السلالة الساسانية بعد أن دام نيفاً وأربعة قرون (226 ـ 651 م).

الحيرة:

وننهي بحثنا عن الدولة الساسانية بأن نذكر شيئاً موجزاً عن أخبار السلالة العربية التي كانت تحكم في الحيرة في أيام الساسانيين وقد كنّا ذكرنا في عدّة مواضع من تأريخنا أن القبائل العربية كانت تهاجر إلى الشرق من الجزيرة إلى وادي الرافدين منذ أزمان بعيدة، وفي حدود بداية القرن الثالث للميلاد جاءت بعض القبائل العربية إلى الموضع الخصب غرب الفرات وقد دعت نفسها هذه باسم «تنوخ» وأصلها من عرب اليمن. ويحتمل أن مجيئها إلى قرب الفرات صادف زمن الاضطراب الذي أعقب سقوط السلالة الفرثية وقيام السلالة الساسانية (226 للميلاد). وقد عاشت تنوخ في بادىء أمرها في الخيم، ولكن مقراتها صارت ثابتة. وهكذا نشأت الحيرة (وتعني الحيرة باللغة السريانية المخيم) الواقعة إلى جنوب الكوفة بثلاثة أميال وقد اعتنق أهل الحيرة المسيحية (الفرع النسطوري منها). وذهب فرع من تنوخ إلى شمالي سوريا. وينسب الدروز أنفسهم (وهم فرع من التنوخيين في لبنان الجنوبي) إلى ملوك الحيرة اللخميين.

وتذكر لنا المآثر أن مالك بن فهم الأزدي (وقد اتحد الأزد وتنوخ في قبيلة واحدة في العراق) كان أول ملك على الحيرة، وأن ابنه جذيمة الأبرش كان تابعاً إلى الملك الفارسي أردشير. ولكن مؤسس مملكة اللخميين الحقيقي هو عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن لخم ابن أخت جذيمة. فجعل عمرو الحيرة عاصمة له، ومنه اشتقت اسم السلالة اللخمية وقد جاءتنا منها أسماء من ملوكها (نحو عشرين ملكاً) لا نعرف سوى أسمائهم وأكثر من نعرف منهم

من الوجهة التأريخية امرؤ القيس الأول (328 للميلاد) ويعد النقش الكتابي الذي جاءنا منه أقدم كتابة عربية تفرعت عن الخط النبطي. واشتهر من أبناء امرىء القيس النعمان الأول الملقّب بالأعور (400 ـ 418 م)، المشهور في الأشعار العربية، وينسب إليه بناء الخورنق ويقال إنه بناه لبهرام جور بن يزدجرد الأول (399 ـ 420 م) الذي رغب أن يتربى ابنه في البادية. وكذلك ينسب إليه بناء السدير وهو قصر في البادية بين الحيرة والشام، وأنه كان وثنياً اضطهد أتباعه المسيحيين. واشتهرت الحيرة في زمن ابن النعمان وهو المنذر الأول (418 ـ 462 م) الذي عظم في زمنه شأن الحيرة ولا سيما في شؤون الأمبراطورية الفارسية وقد بلغ من قوة المنذر أنه أجبر الفرس على تتويج بهرام الذي التزم جانبه ضد مدّع بالعرش. وقد حارب المنذر مع الفرس البيزنطيين في عام 421.

وحكم في الحيرة في النصف الأول من القرن السادس للميلاد ملك باسم المنذر أيضاً (المنذر الثاني 505 ـ 554 م) هو الذي يسميه العرب ابن ماء السماء وهو لقب أمه (مارية أو ماوية). وكان هذا أشهر ملوك السلالة اللخمية، وقد كان شوكة في جانب الأمبراطورية الرومانية حيث أقلقهم وأزعجهم في بلاد الشام وكان يغزو البلاد ووصل إلى أنطاكية، ولكن صدّه الغساسنة، وكان يعاصره منهم الملك الحارث. وخلف المنذر الثاني ابنه الشهير عمرو الملقب بعمرو بن هند (554 ـ 569 م)، الذي اشتهر بإغداقه المال على الشعراء حتى أن ثلاثة من فحول الشعراء من أصحاب المعلقات وهم طرفة بن العبد والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم كانوا ملازمين لبلاطه. وقد استفاد الملك من هؤلاء الشعراء ببث الدعاية له بين العرب. واشتهرت أم الملك هند بأنها كانت أميرة مسيحية من غسان أو من كندة وأنها بنت ديراً مشهوراً في الحيرة ظل حتى القرن الثاني للهجرة.

انتهت سلالة الملوك اللخميين بحكم النعمان الثالث وهو المكنى «أبو قابوس» (580 ـ 602 م) ابن المنذر الرابع، وكان هذا صاحب النابغة

الذبياني. وقد اعتنق هذا الملك الديانة المسيحية، فكان الملك الوحيد الذي تنصّر من بين الملوك اللخميين. وصار الفرس يتدخلون مباشرة في شؤون مملكة الحيرة حتى أن ولاة منهم كانوا يحكمون في زمن «إياس بن قبيصة الطائي» الذي حكم الحيرة من بعد النعمان وظل الحال كذلك حتى العام 633 م حينما انحاز عرب الحيرة إلى جانب خالد بن الوليد في فتوح العراق.

موجز عن الأوجه الحضارية

1 ـ المجتمع والتنظيمات الإدارية:

على الرغم مما طرأ من التخفيف في شدة النظام الإقطاعي وتقليص الدويلات شبه المستقلة مما كان في العهد الفرثي السابق إلا أن المجتمع الإيراني بقي في العهد الساساني وكأنه الهرم في تدرج طبقاته، حيث يأتي في القمة «ملك الملوك»، وهو رأس الدولة، ثم تتدرج من بعد ذلك أربع طبقات تأخذ بالازدياد عدداً والتضاؤل نفوذاً كلما ابتعدنا عن قمة الهرم إلى القاعدة، ويتألف الصنف الأول مما يلي الملك من أتباع الملك من الإقطاعيين النبلاء والأمراء الكبار والصغار الذين كانوا ملوكاً صغاراً تابعين للملك الإيراني الكبير بصفته «ملك الملوك». ويدخل في هذا الصنف أمراء السلالة الحاكمة الذين عهدت إليهم إدارة الحكومة في الولايات الكبيرة مثل إقليم «سستان» و«كرمان»، وكذلك الولايات الكبرى التي ضمّت بالفتح إلى الأمبراطورية الساسانية. وبالمقارنة مع العهد الفرثي الذي سبق الكلام عليه تقلص عدد السلالات المحلية الحاكمة، كما زالت تقريباً من تخوم الأمبراطورية حيث جعلت ذات مركز شبيه بمركز أقوام التخوم المتحدة في الأمبراطورية الرومانية الذين وكّل إليهم أمر الدفاع عن الأقاليم الخاصة بهم.

ويلي الأمراء الكبار في السلم الاجتماعي رؤوس الأسر السبع، وهي أسر نبيلة فارسية ظل عددها وامتيازاتها متوارثة من العهد الإخميني تقريباً، إذ ورثها الساسانيون عن الفرثيين الذين شلّ النبلاء في عهدهم استقرار الدولة

السياسي. ولكن الساسانيين حاولوا التخفيف من حدة النظام الإقطاعي، واستطاع الملوك الأقوياء الأوائل أن يقلصوا هذا النفوذ إلى موت شابور الثاني حيث انتعش النظام الإقطاعي من بعد ذلك وأخذت أخطاره على الدولة تزداد في عهود الاضطرابات والضعف التي دامت زهاء (125) عاماً إلى زمن اعتلاء كسرى الأول عرش المملكة الفارسية، فاستطاع هذا هو والملوك الأقوياء القلائل الذين أعقبوه من تخفيف شرور النظام الإقطاعي، ولكن سرعان ما استفحل شره. وكان كفاح الطبقات الأرستقراطية الإقطاعية ضد العرش لحماية امتيازاتهم أهم العوامل التي نخرت في جسم الأمبراطورية الساسانية وسبّبت سقوطها. هذا ولا يعلم إلّا أشياء قليلة عن طبيعة الامتيازات التي كانت تتمتع بها تلك الأسر النبيلة الكبيرة، ولكن المرجّح كثيراً أنها كانت تمتد في نفوذها وسلطتها إلى جملة ولايات كانت تجبي الضرائب من فلاحيها بالإضافة إلى ما كان يُجبى منها إلى خزينة الملك. ومقابل هذه الامتيازات كانت تلك الأسر الإقطاعية تمد الملك بالمساعدات العسكرية وتجمع الجيوش من أتباعها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، كما كان الحال في العهد الفرثي. وهناك صنف آخر من النبلاء يصح أن نطلق عليهم اسم الوجهاء أو الأشراف وكانوا بمثابة القوة المعادلة للأسر النبيلة الكبرى، ويشمل هذا الصنف كبار موظفي الدولة والوزراء ورؤساء الإدارة وبعض قواد الجيش. وقد صارت هذه الطبقة عنصراً جديداً مهماً في نظام المجتمع الإيراني. واستطاع الملوك بالاعتماد عليها وعلى الجيش أن يعيدوا تنظيم إدارة الدولة وتقويتها مما لم يكن معهوداً في العهد الفرثي السابق.

ويأتي في سفح الهرم الاجتماعي في أولى درجاته طبقات الناس الأحرار من ملاكي الأرض الصغار ورؤساء القرى الذين كانوا واسطة الاتصال بين جماهير الفلاحين الذين يأتون في أسفل الهرم وبين موظفي الحكومة المركزية وممثليها، فكان هؤلاء النبلاء الصغار مسؤولين للحكومة عن جمع الضرائب وجبايتها من الفلاحين. وكان الفلاحون يؤلفون الجمهور الأكبر من السكان وهم على الرغم من كونهم أحراراً من الوجهة النظرية والقانونية إلا أنهم كانوا

في الواقع أشبه ما يكونون بالرق المربوطين بالأرض حيث كانوا يباعون من الوجهة العملية مع الأرض وينتقلون معها من مالك إلى آخر.

2 ـ الإدارة:

وكانت الإدارة بدورها تؤلف هرماً آخر يقوم فوق رأسه الوزير الأعظم (أو رئيس الوزراء) الذي كان بيده زمام السلطة التي يمارسها تحت سيطرة «ملك الملوك». وكان الوزير الأعظم ينوب عن الملك في غيابه، وهو مسؤول عن الشؤون السياسية والدبلوماسية، حيث يوقّع على المعاهدات والاتفاقيات، وتوكل إليه في بعض الأحايين قيادة الجيش العليا، كما كان رئيساً للوزراء أو الدواوين المختلفة حيث كان يدير كل ديوان «كاتب» أو سكرتير متضلع بالشؤون الإدارية وأصول تحرير التقارير وصياغة المعاهدات والمراسلات المهمة. ويأتي على رأس الدواوين ديوان العدل وديوان الرسائل وديوان التعيين في الوظائف وديوان الحرب وديوان المالية. وكان لديوان المالية أهمية خاصة ويديره الموكل بالضرائب يتبعه جيش من المحاسبين والجباة والعملاء. وعلى هذا الديوان وحسن إدارته كان يقوم نفس وجود الدولة.

وكان الملك القاضي الأعلى في الشؤون القضائية، وأعلى محكمة للاستئناف. وإلى جانب القضاة المدنيين كان رجال الدين يتولون جزءاً عظيماً من الشؤون القضائية لأن القانون والشريعة والأخلاق كانت مرتبطة بالديانة أشد الارتباط. ولا يعلم هل كان للساسانيين شريعة مدوّنة إلا أن الكتب الزرادشتية المقدسة كانت تتضمن فصولاً مهمة خصصت للشريعة والقانون، وتحتوي على فصل في الجرائم التي ترتكب ضد الملك وضد الدولة وضد الجار الخ. وكان الامتحان لإظهار البينة (Ordeal) والتعذيب أمرين مألوفين في أصول التقاضي عند الساسانيين.

وكانت إدارة الأمبراطورية تستند في تنظيمها إلى تقسيمها إلى ولايات أو أقاليم كما كانت في العهد الإخميني، وكان يختار لإدارة الولايات الوجهاء من

أعضاء الأسرة المالكة ومن النبلاء ومن قواد الجيش أحياناً. ولم تكن الحدود الإدارية بين ولايات الأمبراطورية ثابتة على الدوام. وبالنظر إلى سعة الولايات كانت كل ولاية تقسم بدورها إلى وحدات إدارية يحكمها حكّام خاصون، ثم تقسم هذه الوحدات أيضاً إلى مناطق إدارية أصغر حتى نصل إلى القرية حيث يكون رئيسها مسؤولاً إلى الموظفين الإداريين. وإذا ما أتينا إلى بلاط الملك ألفيناه في إدارته معقداً ومتدرجاً في الرتب مثل إدارة المملكة نفسها فهناك الطبقات والرتب المختلفة من الحجّاب، ويحتل أعضاء الأسرة المالكة وفرسان الملك وحرسه مقاماً عالياً، ومن حاشية البلاط الهزالون والمجان والموسيقيون الذين كانوا أيضاً على مراتب مختلفة بحسب مهارتهم وآلاتهم.

أما مصدر النفقات الباهظة التي تتطلبها إدامة البلاط وحاشية الملك المؤلفة من عدة آلاف ونفقات الموظفين والجيش والمشاريع العامة فكل ذلك مصدره من الضرائب ومن الواردات الخاصة الآتية من الأراضي العائدة للدولة والتاج. ومن الموارد المهمة استغلال الدولة للمناجم وسك النقود وواردات الدولة من غنائم الحروب الخارجية الجسيمة. إن هذه الموارد التي عددناها كانت تدرّ على خزائن «ملك الملوك» مقادير جسيمة من الثروة، وعلى الرغم من أن أكثر الملوك الصالحين العادلين كانوا يصرفون هذه الموارد الغزيرة في إصلاح شؤون المملكة والناس إلا أنها كانت تبذر ومع التبذير كانت مقادير كبرى منها تخزن عاطلة، وكما سقطت خزائن أموال الإخمينيين بيد الفاتح الإسكندر، كذلك صارت الكنوز التي غنمها العرب الفاتحون مما وجدوه باقياً في خزائن الملوك الإخمينيين مضرب أمثال المؤرخين.

3 ـ الجيش:

كانت قيادة الجيش في خلال القرون الثلاثة الأولى من العهد الساساني بيد «قائد الجيش الأعلى»، وكانت هذه وظيفة وراثية تقريباً يشغلها أحد أفراد الأسرة المالكة، وكان يعمل تحت إمرته قائدان أحدهما القائد المساعد والثاني قائد الخيالة، وكان يعيَّن في هاتين الوظيفتين من أفراد الأسر النبيلة في

المملكة. ولكن كسرى الأول بدّل هذا النظام من أساسه، فقد ألغى منصب القائد العام، ووكّل قيادة جيوش الأمبراطورية، على ما بيّنا سابقاً، إلى أربعة قواد، كل قائد مسؤول عن جبهة من جبهات المملكة الحربية: الشمال والجنوب والشرق والغرب، وعين مساعداً مع كل من هؤلاء القادة الأربعة. وكان الهدف من هذا التنظيم الجديد تحاشي حصر جميع الجيوش تحت قيادة فرد واحد يستطيع إذا ثار أن يزيح الملك عن عرشه، ولكن مع ذلك فإن هذا التنظيم الجديد ولّد بدوره شروراً جديدة، وصار القوّاد الأربع من العوامل التي حطّمت المملكة في أيامها الأخيرة.

كان الجيش الساساني، كما كان الحال عليه في العهد الفرثي، يقوم على وحدة أساسية مهمة فيه، هي نظام الفرسان المسلحين تسليحاً ثقيلاً[1]، وكان مصدر هؤلاء الفرسان من تجهيز طبقات النبلاء الفرس حيث هم يمدون به جيوش الملك. وهناك صنف آخر من الفرسان الخفيفي السلاح من رماة السهام ومصدر هؤلاء مما يجهز النبلاء الصغار، وكان هذا الصنف بمثابة حماية للصنف الأول، وكلا الصنفين كانا يستعملان في الالتحام حيث يلحق بهما نظام الفيلة الذي لم يستعمله الفرثيون كما بيّنا من قبل. أما ساقة الجيش (مؤخرته)[2] فقوامها المشاة من جماهير الفلاحين المسلحين بأسلحة فقيرة، فلم يكونوا على أهمية كبيرة من الناحية العسكرية. وكان يلحق بجيش الفرس جيوش مهمة مساعدة مصدرها من الشعوب التابعة ولا سيما من الأقاليم الكائنة في تخوم الأمبراطورية وقد اشتهر بعض هذه الجيوش شهرة خاصة مثل جيش «سستان» و«كوشان» والجيش المؤلف من الهياطلة (الترك الأفثلاطيين)، كما اشتهر الفرسان الأرمن بكفاءتهم وأهميتهم في جيش الأمبراطورية الفارسية.

ومن الملاحظات المفيدة التي نختتم بها كلامنا عن الجيش الفارسي أنه

---

(1) (Cataphract)، وهو نظام دخل في تنظيم الجيوش العربية ولا سيما في العهد العباسي.

(2) (rear-guard).

كان مقسماً إلى قطعات كبرى أو ما يسمى بالجحافل (Corps) يتألف كل منها بدوره من عدة فرق، وهذه تنقسم أيضاً إلى وحدات أصغر فأصغر. وقد سبق أن لاحظنا أن آلات الحصار الحربية كانت بدائية غير ناجعة في العهد الفرثي، ولكن تحسّنت هذه كثيراً في العهد الساساني، حيث أتقن فن الحصار بحيث أصبح الساسانيون يضاهون الرومان في ذلك، كما أن هناك أدلة غير مباشرة على أن الفن العسكري أصبح موضوع بحث. حيث كتبت فيه مؤلفات ومقالات.

4 ـ الديانة:

تروي المآثر المتأخرة أن الديانة الزرادشتية قد حفظت بأصلها في إقليم فارس، وأن أردشير بن بابك قد جعلها ديانة الدولة الرسمية، ولكن البحوث الحديثة في الديانة الساسانية لم تؤيد هذه المآثر، إذ الواقع أن هذه الديانة التي حوفظ عليها في فارس هي الديانة القديمة التي لم تستطع أن تزيلها ديانة زراوستر. فقد رأينا كيف أن عبادة الآلهة القديمة قد ظلت وبرزت في أهميتها من بعد عهد دارا الأول وكيف أن الملك الإخميني أرتحشستا قد اعترف رسمياً بعبادة آلهة قديمة ولا سيما الإلهة «أناهيتا»، حتى أنه صنع لها صنماً لعبادتها على عادة الديانة البابلية واليونانية. وهكذا فإنه حينما أخذت السلالة الساسانية حكم إيران وجدت الإقليم الذي ظهرت فيه، وهو إقليم فارس، مركزاً مهماً لعبادة «أناهيتا» وعبادة الإله «أهورامزدا» أيضاً. هذا وقد رأينا كيف أن أجداد السلالة الساسانية كانوا رؤساء الكهنة في معبد النار المهم في اصطخر. كما أن شابور الأول أسس معبداً مهماً في «بيشابور»، وأنه جلب إلى هذا المعبد ماء طاهراً من مسافة بعيدة حيث يجري حول الحجرة الوسطية في المعبد فيبدو أن هذه العبادة المقترنة بالماء (والإلهة أناهيتا إلهة المياه) كانت أيضاً مقترنة بالنار.

إن هذه الديانة سادت في القسم الجنوبي الغربي من إيران، أما في الشمال الشرقي فإن ديانة هذا الإقليم كانت تتمركز في المعبد المهم المقام في

«شيز»، حيث الكهنة المجوس القدماء يقومون بالطقوس الخاصة به. هذا ولا نعلم وجه الصلة بين هذين المعبدين وهاتين العبادتين ولا أيهما الأهم.

المانوية:

وهكذا فيبدو أنه لم تكن في إيران في العهد الساساني ديانة عامة توحّد جميع الناس، وقد شعر بهذه الحاجة بوجه خاص «شابور» الأول في الوقت الذي كانت تحرز فيه الأمبراطورية الساسانية انتصاراتها المهمة في الخارج وكانت بحاجة لتوحيد الإيرانيين وتعبئة جميع مواردها الوطنية في كفاحها وصراعها مع روما. ولعل هذا يفسر لنا اتجاه شابور بالنسبة إلى «ماني» الذي ظهر في عهده حيث قربه واصطفاه. وكان «ماني» هذا من أصل نبيل وادعى أنه نبي مرسل من الله لإنجاز ما أوحاه إليه. فبشر بديانة عالمية يدخل فيها جميع البشر بمختلف طبقاتهم وأشكالهم وألوانهم. والذي عليه البحث الحديث أن الطقوس والعبادات التي فرضها «ماني» مشتقة بالدرجة الأولى من عبادات بابل وإيران القديمة كالزرادشتية وأثرت فيها أيضاً البوذية والمسيحية. وكانت الأسس العقائدية في هذه الديانة تقوم على مبدأ «الثنوية» و«الضدية» أو الصراع بين عنصرين يسودان الكون هما النور والظلام، والخير والشر. ومن هذين العنصرين أو المبدأين المتضادين المتحاربين خلق الكون. إن روح الإنسان «نور» ولكن جسمه «ظلام»، فترمي التعاليم الأخلاقية المانوية إلى تحرير الروح أو النفس من الجسم. ولما أن يتحرر جميع النور وكل النفوس المحبوسة بالمادة فتصعد إلى الشمس، عندئذ ستتحطم الأرض والسماء، ولكن مملكة النور ستدوم إلى الأبد. وقسم أتباع هذه الديانة إلى طائفتين طائفة المقرّبين «المصطفين» وطائفة «السامعين» المطيعين. فيدخل في الطائفة الأولى صنف الكهنة الذين فرضت عليهم العزوبة وحرم عليهم أكل اللحم وطهرت نفوسهم من الغل والحسد والكذب. أما «السامعون» فقد سمح لهم بالزواج، وهم كالناس الاعتياديين إلا أنهم ينبغي أن يتحلوا بالفضيلة ويتجنبوا السعي وراء المادة والثروة. وفرضت هذه الديانة نوعاً من الصلاة والصيام، إلا أنها خلت

من القرابين والتضحيات وعبادة الصور والأصنام. ومارست المانوية أيضاً ما يشبه بعض الأسرار[1] المسيحية كالتعميد والتوبة والقداس الإلٰهي والغفران من الذنوب عند الاحتضار. والعجيب فيها أنها لم تعترف بالديانة اليهودية واعتبرت موسى والأنبياء شياطين وأن ربهم رب الظلام. وتأثرت بمبدأ الغنوسطية[2] في العقائد الميتافيزيقية بالكون وأصل الأشياء، وتأثرت المانوية في معتقداتها بالزرادشتية أيضاً، واشتقّت أسماء الملائكة من المصادر السريانية. وتأثرت بالبوذية في اعتقادها بتقمص الأرواح وانتقالها أو تناسخها[3].

وحصل رد فعل عنيف من جانب الكهنة المجوس ضد المانوية من بعد موت شابور، حيث حوكم «ماني» وحكم عليه بالموت، واضطهد أتباعه ونكّل بهم فهربوا خارج إيران متفرقين في أنحاء شتى فقد اتجه بعضهم إلى الأنحاء الشرقية حيث بشروا بمذهبهم في آسيا الوسطى، وهرب بعضهم إلى سوريا ومصر، واعتنق العرب في الحدود الغربية من إيران العقائد المانوية. هذا وقد سبق أن تكلمنا عن الحركة المزدكية التي ظهرت في عهد قباذ الأول (488 ـ 531 م) فننهي بحثنا في الديانة في عهد الساسانيين.

5 ـ شيء عن الفن:

يمثل الفن الساساني مرحلة أو طوراً متأخراً من فن شرقي كان في الوجود زهاء أربعة آلاف عام، وكان خلفاً مباشراً للطور الأخير من الفن الفرثي الذي كان فناً إيرانياً بوجه أساسي. وقد أثرت في الفن الساساني

---

(1) (Sacrament).

(2) (Gnosticism) معنى هذا المصطلح اللغوي مأخوذ من المعرفة والتبحر فيها وهو مبدأ فلسفي ديني ظهر قبيل المسيحية وظل من بعدها واعتنقته جماعات من المسيحيين ومبدؤه الأساسي الخلاص وتحرير النفس لا يتأتى إلّا عن طريق المعرفة (gnosis) التي تساعد الحائز لها على التحرر من قبضة أرجاس المادة.

(3) metempshychosis.

مؤثرات خارجية، ولكن مثلت هذه التأثيرات وحورت لتلائم الروح الإيرانية وهذا مظهر من مظاهر قابلية الأخذ والتكييف عند الإيرانيين. وأحسن ما يمثل لنا فن العمارة الساساني كما هو في العمارة الإخمينية بناء القصور وأبرز مثال على ذلك قصر طيسفون، ومع أن نظام العمد اليوناني (Calonade) قد دخل إلى الشرق من بعد فتوح الإسكندر واستعمل في برسيبوليس في زمن الإخمينيين إلا أن الساسانيين أحيوا طراز الطاق والعقادة، ومع أنه لم يبق من جدران قصر طيسفون ولا من نقوشه التي اشتهرت في الأخبار العربية إلا أن ما لاحظناه عن ولع الساسانيين بزخرفة جدران القصور بالرسوم الزاهية قد أيّدته الأدلة الأثرية[1]. ومن المدن التي خلف فيها الساسانيون أمثلة عن فن العمارة مدينة «فيروز أباد» التي أسسها أردشير حينما استقل بالحكم عن الفرثيين، وكانت هذه أقدم المدن الساسانية وهي مدورة على الطراز الفرثي، ولكن شابور الأول عدل عن هذا النوع من التصميم لما بنى مدينة «بيشابور» حيث شيدها على طراز غربي وجعلها مستطيلة وباستثناء هذه الأمثلة لا نعرف بقايا مدن أخرى ساسانية باستثناء جملة مقار أسسها الملوك الساسانيون لتوطين الأسرى الرومان، فقد شيّد شابور الأول واحداً من هذه المقار في «جنديسابور» بين دزفول وششتر وهي ذات مخطط مستطيل[2]، وحافظ الساسانيون على معظم

---

(1) انظر ما سبق أن لاحظناه والاستشهاد عن ذلك بالمرجع .(Ghirshman, Op. Cit., 326)

(2) ومن الآثار المهمة التي يجدر التنويه بها مما خلفه الساسانيون في العراق المدينة المسماة «دستجرد» (دستجرد كسرى) أو الدسكرة أو دسكرة الملك، كما جاءت في المصدر العربية. وهي تقع في الطريق المهم بين طيسفون وهمدان وتعرف خرائبها الآن باسم الزندان (السجن) وباسم بنت الأمير القريبة من شهربان. انظر ابن رسته و(Sarre-Herzfeld, Arch. Reise, II, 76).

كما يجدر التنويه بالحصن المعروف بقصر شيرين الواقع على طريق خانقين. وأظهرت التنقيبات في كيش آثار قصور مهمة مزخرفة بالزخارف الجصية التي يوجد في المتحف العراقي نماذج منها (راجع تقرير التنقيبات للبعثة المشتركة بين جامعة أوكسفورد ومتحف فيلد). ونذكر أيضاً مدينة الأنبار المنسوبة إلى شابور الأول الواقعة قرب الفلوجة بنحو 40 ميلا6 شمال غربي بغداد في الضفة اليسرى من الفرات، حيث بنى السفاح مقراً اسمه الهاشمية (انظر ياقوت).

المآثر الفرثية مثل استعمال الحجر في بناء القصور وتزيين قطع الحجر في الجدران بالمنحوتات البارزة التي تمثل مشاهد تأريخية تذكارية للملوك، كما يُلاحظ ذلك واضحاً في الحضر من العهد الفرثي. وكذلك يقال في بناء المعابد ولا سيما معابد النار مثل معبد «بيشابور» وبقايا الأثر الموجود في العراق في الموضع المسمى «باي كولي»[1] المرجح أنه معبد نار على هيئة برج، وقد سبق أن أوجزنا صفة معبد النار الساساني.

ومن فن النحت نذكر أشهر ما يمثله من المنحوتات التذكارية المنقوشة على الجبال، وقد عثر على أكثر من ثلاثين مشهداً منحوتاً بالمنحوتات البارزة في جبال نجد إيران، ومعظمها في فارس، مثل النحت الضخم العائد لأردشير الأول وشابور الأول في الموضع المسمى «نقش ـ رستم» قرب برسيبوليس ونقش كسرى (تمثاله) في «طاق بستان»، قرب كرمنشاه. وكان هذا موضع منتزه مشهور في العهد الساساني.

وننهي كلامنا عن الفن الساساني بالتنويه بمهارة الفنانين الصاغة في الفضة والذهب حيث جاءتنا جملة صحون منقوشة، كما دخلت صناعة الحرير إلى إيران في العهد الساساني من الصين واشتهر الحاكة الإيرانيون بمهارتهم الفنية في النقوش الجميلة حتى قلدت في أوروبا في العصور الوسطى.

---

(1) لقد زار المؤلف (مع زميله الأستاذ فؤاد سفر) موضع «باي كولي» (في تموز عام 1954) وقد سبق للمستشرق المشهور «هرزفيلد» أن زاره في عام 1911 و1913 واستنسخ كتاباته الفارسية (البهلوية الفرثية والبهلوية الساسانية) على الأحجار المتساقطة (انظر: **Herzfed, Paikuli** 1924)) ويعود هذا الأثر إلى الملك الساساني «نرسي» (293 ـ 302 م) ذكرى حربه مع أخيه بهرام الثالث ويقع على السفح الغربي من جبال قره داغ في الفتحة المعروفة باسم «دربند باي كولي» بحوالي 4 أميال من الضفة اليمنى من ديالى ويمكن الوصول إليه من كفرى إلى مركز ناحية «بيباز» ثم إلى قرية «بونكلة» فقرية «بيسكان» ثم قرية بيكال التي يشاهد منها موضع الأثر. كما يمكن الوصول إليه بأخذ الطريق المحاذي إلى الضفة اليمنى من ديالى (طريق مشروع دربندخان) المؤدي من «بيباز» إلى «ياني خيلان» ومنها إلى «باي كولي» بسلوك سفوح قره داغ.

مراجع مختارة عن القسم الرابع

(1)R. Ghirshman, **Iran** (Pelican Book, 1954).

(2) H. Herzfeld, **Archaeological History of Iran** (1935).

(3) ..., **Iran in the Ancient East** (1941).

(4) V. Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952).

(5) **Cambridge Ancient History.**

(6) G.G. Cameron, **History of Early Iran** (1936).

(7) N.C. Debevoise, **A Palitical History of Parthia** (1938).

(8) A. T. Olmstead, **History of the Persian Empire** (1948).

(9) P. Sykes, **Persia** (1922).

(10) Jacques Duchesne- Guillemin, **Zoroastre** (Paris, 1948).

(11) H. Frankfort, **History of Art and Architecture in The Ancient Orient** (1954).

(12) Arthur Upham Pope, **A Survey of Persian Art** (6 vosl, 1938).

(13) The **Legacy of Persia** (1953).

(14) M. Rostovtzeff, **The Social and Economic History of the Hellenistic World.**

(15) Will Durant, **The Story of Civilization** (1942).

(16) Erich Schmidt, **Persepolis,** I, (1951).

(17) H. S. Nyberg, **Die Religionen des alten Iran** (1938).

(18) A. Christensen, **L'Iran sous les Sassanides** (1944).

(19) E. Schmidt, **Flight over Ancient Cities of Iran** (1940).

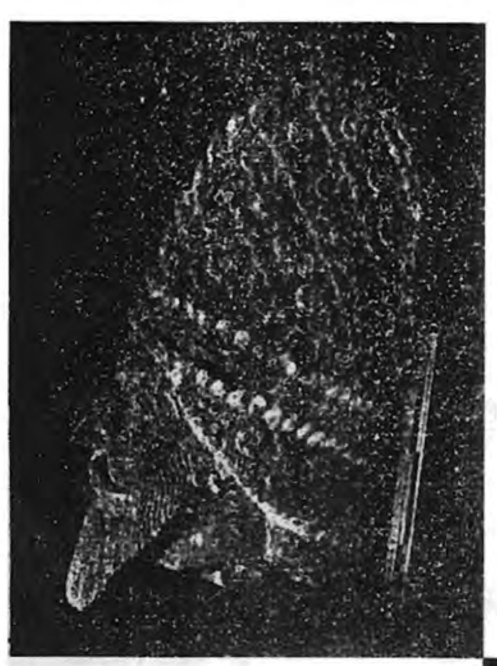
(20) G. Cameron, **Persepolis Treasury Tablet** (1947).

(21) V. Scheil. **Inscriptions des Achéménides á Suse** (1929).

(22) F. H. Weissbach, **Keilinschriften der Achaemeniden** (1911).

(23) W. Tarn, **Alexander The Great** (2 vols. 1947).

(24) Nõldeke, **Geschichte der Perser und Araber** (1879).



رأس تمثال من الرخام يمثل أحد ملوك الحضر المسمى «أثال» وجد في الحضر (القرن الثاني للميلاد) (من تنقيبات دائرة الآثار العراقية).



صورة رائعة منحوتة من الرخام تمثل إلهة القمر (وجدت في الحضر، من أواخر القرن الأول للميلاد. من تنقيبات دائرة الآثار العراقية).



طاق كسرى الشهير في طيسفون (المدائن).
أخذت هذه الصورة قبل عام 1909 قبل أن ينهدم الجناح الثاني من الطاق.

القسم الخامس

اليونان والرومان

الفصل السادس والثلاثون

موجز تاريخ اليونان

مقدمة في الحضارة المينية (الإيجية):

قبل أن نبدأ بإيجاز تأريخ اليونان والحضارة اليونانية نقدم ذلك بذكر ملاحظات موجزة عن الحضارة الإيجية أو كما تسمى الحضارة المينية التي اتصل بها اليونان بعد هجرتهم وأخذوا عنها عناصر حضارية مهمة فقد نشأت في الجزر الإيجية حضارة مهمة ازدهرت في جملة جزر مثل «مسينية» وكان مركزها في كريت (أقريطش). وقد سميت بالحضارة «المينية» نسبة إلى أحد ملوكها المسمى «مينوس»، وقد ظهرت منذ بداية الألف الثالث ق.م. والمرجّح كثيراً أن هذه الحضارة من الحضارات البشرية الأصلية نشأت من الأطوار البدائية. ولكنها على كل حال تأثرت بحضارة مصر القديمة بالدرجة الأولى وبحضارة العراق القديم.

عوّلت الحضارة «المينية»، مثل الحضارة الفينيقية، على البحر فأنشأت السفن وأتقنت فن الملاحة الذي درّ عليها الخيرات والثروة من التجارة الخارجية وقد عاشت في أطراف مركز هذه الحضارة قبائل من الأقوام الهندية الأوروبية منها القبائل الإغريقية الهمجية التي تعلّمت منها أصول الحضارة وأنشأت حضارة فرعية مشتقة هي الحضارة الإغريقية التي أضافت إلى تراث الحضارة «المينية» كثيراً من العناصر الجديدة في تأريخ الحضارة البشرية. وكانت القبائل الإغريقية هي التي قضت على آخر دولة «مينية» وقد هاجرت فلول من «المينيين» (أي الإيجيين) بعد القضاء على كيانهم السياسي إلى أنحاء

الشرق الأدنى، وجاء فرع منهم واستوطن سواحل البحر المتوسط الجنوبي، وقد عرف هذا الفرع بـ «الفلستينيين» أو «الفلسطينيين» ومنهم اشتق اسم فلسطين، وذهب فرع آخر منهم إلى آسيا الصغرى فأرتطم بالحثيين وقضى على كيان الأمبراطورية الحثية في حدود 1200 ق.م.

لقد أظهرت التنقيبات التي أجريت في جزيرة «كريت»[1] وبعض الجزر الإيجية الأخرى وجود عصر حجري طويل العهد جاء من بعده العهد البرونزي (في حدود 3000 ق.م) الذي كان عهد الحضارة «المينية» الناضجة. وقد أمكن تقسيم هذا العهد، أي عهد البرونز أو عهد الحضارة المينية، إلى ثلاثة أطوار تدعى بالعهد «الميني» القديم والعهد «الميني» المتوسط والعهد (الميني) المتأخر. وأمكن كذلك تقسيم كل من هذه الأطوار الثلاثة إلى ثلاثة أدوار فرعية فيكون مجموع أدوار الحضارة المينية تسعة أدوار أما تأريخ هذه العهود فقد أمكن ضبطها بالمقايسة مع ما يضاهيها من آثار الحضارة المصرية لوجود أوجه شبه بين آثار الأدوار المختلفة في كل من الحضارتين. فيرجّح أن العصر الحجري المتأخر الإيجي يقع في عصر ما قبل السلالات المصري ويقابل بداية العهد البرونزي، أي بداية طور الحضارة المينية القديم، السلالات المصرية الأولى والسلالات السومرية الأولى في العراق في عصر فجر السلالات وعلى ذلك فتكون بداية الحضارة المينية في بداية الألف الثالث ق.م. كبداية الحضارة في كل من العراق ومصر تقريباً. ودام العهد (الميني) القديم زهاء ثمانية قرون. وأمكن تأريخ العهد (الميني) الوسيط بالمدة الواقعة بين القرن الثاني والعشرين أو القرن الواحد والعشرين وبين النصف الأول من الألف الثاني ق.م. وأُرِّخ العهد الميني الأخير في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. ويبدو أن الحضارة المينية قد انتهى مصيرها فجأة في أواخر الألف

---

(1) انظر المراجع الآتية:

(1) Sir A. J. Evans, **The Palace of Minos,** vols. I-III (1921-30).

(2) Helen Gardner, **Art through the Ages** (1936) 101 ff.

الثاني بسبب هجرات الأقوام الهندية الأوروبية ولا سيما القبائل اليونانية التي كوّنت الحضارة اليونانية، وقد استعملت الحضارة المينية نوعاً من الخط الصوري على غرار الهيروغليفي المصري، لم تحل رموزه بعد، فلذلك لا نعرف أشياء كثيرة عن الأقوام التي أنشأت الحضارة المينية ولا سيما لغتهم وأصلهم وكثيراً من أوجه حضارتهم الروحية والعقلية.

هجرة اليونان وموجز تاريخهم:

اليونان من الأقوام الكثيرة التي تعرف بعائلة لغاتها «الآرية» أو اللغات الهندية الأوروبية والأقوام التي تتكلم بهذه العائلة اللغوية ليست من جنس (عرق) واحد خالص بل كانوا على الأرجح نتيجة اختلاط ما لا يقل عن ثلاثة عروق كعرق البحر المتوسط والأقوام المينية ولا سيما من كريت مع الأقوام الآرية، ويغلب على الإثينيين عرق البحر المتوسط، أما الإسبارطيون فهم أقرب إلى النورديين. ويرجّح كثيراً أن مهدهم القديم كان في مكان قريب من الواحات ومناطق المراعي في جنوب روسيا إلى بحر قزوين. ويرى بعض المؤرخين أن يكون وادي الدانوب الأعلى هو مهدهم الأصلي. وقد بدأت فيه فروع من هذه الأقوام تهاجر من مهدها الأصلي بحوالي بداية الألف الثاني ق.م. واتخذت في هجراتها اتجاهات مختلفة إلى أوروبا الجنوبية والغربية وإلى الشرق الأدنى والهند. وقد جاء بعضهم إلى العراق وأثروا في الحضارة البابلية والآشورية وفي الأقوام الأخرى في الشرق الأدنى فسببوا اضطراباً في توزيع السكان وأحدثوا هجرات أخرى ذهب بعضها إلى مصر. ولنا أن نتصور هؤلاء القبائل الهندية الأوروبية مقسمة إلى عشائر وقبائل ذات خيول وماشية وأغنام، وهم رعاة بالدرجة الأولى ولكنهم كانوا يعرفون الزراعة وكان لديهم العربات ذات العجلات. ولا شك في أنهم اقتبسوا البرونز من حضارات الشرق القديم، وأخذوا الحديد كذلك فيما بعد. هذا ولا نعلم بوجه التأكيد العوامل التي سببت هجرات هؤلاء الأقوام إلى الغرب والجنوب والشرق. ولعل من جملة الأسباب انجذابهم إلى خيرات الحضارات في الشرق القديم

وتكاثر السكان، ومواسم القحط الدورية التي كانت تحدث في مواطنهم الأصلية، وكذلك دفع هذه القبائل بعضها بعضاً. وقد استمرت هجراتهم قروناً كثيرة، وكانت بدرجات مختلفة من الشدة فقد تكون بهيئة جماعات قليلة تأتي إلى مواطن الحضارات، أو بهيئة غزوات متعاقبة أو هجرات كبيرة بمقياس واسع. وكان بعض الأقاليم التي اندفعوا إليها ليس بأكثر مدنية منهم مثل أوروبا الغربية وإيطاليا والقسم الشمالي من بلاد الإغريق. وبعضها كان متحضراً أو على شيء من الحضارة مثل الشرق الأدنى وفارس والجزر الإيجية وآسيا الصغرى والهند وقد عمدوا في كثير من الأحايين إلى تحطيم الحضارات التي غزوها وحلّت لغاتهم محل اللغات الأصلية[1].

وكان من جملة هذه القبائل قبائل اتجهت منذ الألف الثاني ق.م. إلى جزر بحر إيجة التي كانت فيها على ما بيّنا حضارة مزدهرة منذ الألف الثالث ق.م. وعاشت هذه القبائل في أطراف الحضارة الإيجية وأخذت تقتبس منها. وكانت هذه القبائل خليطة، ولعل بينها عناصر من النورديين. ومن المحتمل أن عناصر حوض البحر المتوسط التي كانت موجودة قبل مجيء الهيلنيين قد دخلت في تكوين القبائل الإغريقية التي عُرفت في تأريخ اليونان. أي إن الإغريق المعروفين في التأريخ لم يكونوا من عرق خالص ولكنهم صاروا وحدة في القرابة والاختلاط. وإن الأشعار الهومرية قد نشأت في شكلها المعروف الآن في حدود القرن التاسع ق.م. ولكن فيها مآثر من أزمان أقدم، ولذلك فبإمكاننا أن نستفيد منها لمعرفة أشياء مفيدة عن حياة القبائل (الآخية)، أقدم قبائل الإغريق، وعن دويلاتهم القديمة. ولعل غزو طروادة الوارد في تلك الأشعار حقيقة تأريخية حدثت في أثناء انتشار الإغريق إلى سواحل آسيا الصغرى، وتشير الأشعار الهومرية كذلك إلى حضارة اتصلوا بها وهي الحضارة الإيجية بالدرجة الأولى. وعندما جاءت أولى الهجرات الإغريقية (وهم الآخيون) إلى (البيلوبونيس) كانت هذه الحضارة في طور ازدهارها

---

(1) راجع ما ذكرناه عن هجرات الأقوام الهندية الأوروبية في كلامنا عن تأريخ إيران.

ولذلك لم يستطع هؤلاء الإغريق من الانقضاض عليها بل كانوا يتعلمون منها، ولكن جاءت هجرة أخرى من القبائل الإغريقية (وهم الدوريون) منذ 1500 ق.م.، فأخذت هذه تخضع القبائل الإغريقية السابقة أي القبائل الآخية ثم بدأت تغزو الحضارة الإيجية وتخضع مدنها. وفي حدود 1300 و1000 ق.م. بدأت قبائل أخرى تستحوذ على مواطن الحضارة الإيجية. ومن هؤلاء الإغريق الأيونيون ويمكننا أن نعد نهاية الحضارة الإيجية في حدود 1200 ـ 1100 ق.م. وقد اقتسمت القبائل الإغريقية اليونان والجزر الإيجية وكذلك سواحل آسيا الصغرى فيما بينها. فتمكن الدوريون في الجنوب والأيونيون في الوسط والأيليون في الشمال. وكان مصير الإيجيين إما القتل أو الخضوع أو الهجرة كما فعل بعض الإيجيين وهم المعروفون بالفلسطينيين الذين استقر بهم التشريد والجلاء إلى فلسطين (جنوبي فلسطين) بعد أن فشلوا في الذهاب إلى مصر حيث حاربهم رعمسيس الثالث فالتجؤوا إلى ساحل فلسطين الجنوبي كما ذكرنا سابقاً. لقد استوطن اليونان في موطنهم[1] الذي يمتاز بتنوع مناظره ومناخه ولعل أبرز ظاهرة تجلب الانتباه في صفة بلاد اليونان الجغرافية كثرة الجزر والخلجان كما أن الجبال تقسم بلاد اليونان إلى وحدات صغيرة كثيرة ومناخه شبه استوائي متنوّع من ناحية الأمطار والشمس، ولكن ليس فيه تطرف في الحرارة والبرودة. وبلاد اليونان بكثرة جزرها وخلجانها نصفها بري ونصفها بحري.

2 ـ موجز عهود التأريخ اليوناني:

بإمكاننا أن نقسم تأريخ اليونان إلى العهود الآتية:

(1) سمي اليونان أنفسهم هيلنيين نسبة إلى جد أسطوري اسمه (Hellen) كما سموا بلادهم هيلاس (Hellas). أما اسم يونان فنسبة إلى الأيونيين. وكانت هناك قبيلة يونانية تعيش في إقليم بوشيه من اليونان اسمها «غراي» سمي باسمها الرومان جميع الهلينين حيث أطلقوا عليهم اسم إغريق (Graici).

1 ـ عهد الملوك (1100 ـ 750 ق.م).

2 ـ عهد النبلاء (750 ـ 625 ق.م).

3 ـ عهد الطغاة (625 ـ 525 ق.م).

4 ـ عهد الديمقراطية (525 ـ 400 ق.م).

1 ـ عهد الملوك:

هذا العهد أقدم العهود في تاريخ اليونان بعد أن هاجروا إلى موطنهم وقضوا على الحضارة الإيجية، ويبدو أن النظام الملكي كان من جملة الأشياء التي اقتبسها اليونان من الحضارة الإيجية فاتخذوا لهم ملوكاً من قوادهم في الحرب وزعمائهم الدينيين، وكانوا في مبدأ أمرهم ملوكاً ساذجين أشبه ما يكونون برؤساء القبائل الرعاة عندما اتخذت القبائل الإغريقية الزراعة واستقرّت في قرى. وكان هذا العهد القديم من تأريخ اليونان حافلاً بالتطور والتكيف وقد جابه اليونان فيه قضايا كثيرة نشأت بعد استيطانهم وتكوينهم المجتمعات الآخذة في التحضر، وقد نشأ معظم هذه المشاكل عن الزراعة والأراضي وكذلك عن العلاقات الاجتماعية المختلفة. دام هذا العهد زهاء ثلاثة قرون (1100 أو 1000 إلى 750 ق.م) وكان هذا هو العهد الذي نشأت فيه حضارة الإغريق. وقد تطورت القرى إلى مدن ونشأت عن المدن دويلات المدن التي كانت كل منها مملكة مستقلة لها قوانينها وجيشها وآلهتها على طراز نظام دويلات المدن في العراق القديم في العصور التي سميناها بعصور فجر السلالات. ولم يتعد الإغريق في أنظمة الحكم نظام «دولة المدينة» (City - State). وقد صار الملك محترماً وحاكماً قوياً تقع على عاتقه حماية المدينة وكان يساعده في الحكم وفض الخصومات مجلس شورى أو دار ندوة تجتمع للقضاء بين الناس. وقد بلغ عدد دويلات المدن المئات في بلاد الإغريق وفي السواحل وفي الجزر الإيجية. وقد اقتبس الإغريق في هذا العهد معدن الحديد إذ بدأ عندهم في حدود 10000 ق.م. وقد جاءهم بعد أن انتشر استعماله في

آسيا الصغرى من الحثيين منذ القرن الثالث عشر ق.م.، وتكون الحضارة الإيجية قد انتهت قبيل العصر الحديدي وأنها شغلت معظم العصر البرونزي (3000 ـ 1000 ق.م).

لقد ظل الإغريق زمناً بعد (1000 ق.م) وهم لم يبلغوا طور المدنية الناضجة ولكنهم مع ذلك كانوا يسيرون إلى طور النضج بالتراث الذي ورثوه عن الإيجيين وبتأثير حضارات الشرق القديم ولا سيما حضارة مصر وحضارة العراق وبتأثير الفينيقيين الذين كانوا نقلة الحضارة، وقد اقتبسوا بعد 900 ق.م. حروف الهجاء عن الفينيقيين مع الورق (البابيروس) وقد أغرم اليونان في عهد الملوك بالحروب التي كانت تتّصف بالبربرية والقسوة ونشأ عن التغني بأعمال الحرب وأبطال الحرب أشعار غنائية لتخليد أعمال الأبطال فكان شعر الملاحم مثل أشعار هوميروس التي هي أقدم آداب الإغريق. وقد خلّفوا لنا من ذلك «الإلياذة» و«الأوديسة»[1] المنسوبتين إلى هوميروس. وكانت أشعار هوميروس بمثابة الكتاب المقدس عند الإغريق إذ فيها أخبار الآلهة وحياتها وعلاقاتها بعضها ببعض وأعمالها، كما كان الحال في التوراة عند اليهود. وعلى هذا فإلى قيمة هذه الأشعار الأدبية والتأريخية فإن فيها معلومات قيمة عن ديانة الإغريق القديمة وعن مراحل تطورها.

ويقع ضمن عهد الملوك طور حضاري تميز بنوع أوانيه الفخارية المزيّنة بأطرزة هندسية يعرف باسم الطور الهندسي[2].

2 ـ عهد النبلاء:

يتميز أواخر العهد السابق، أي عهد الملوك، بنشوء طبقة خاصة من الملاكين. فقد تجمّعت الثروة، أي ملكية الأراضي، بيد طبقة خاصة نسميهم

---

(1) الإلياذة نسبة إلى «اليوم» وهو الاسم الذي دعا الإغريق به طروادة أما الأوديسة فنسبة إلى بطل الملحمة «أوديسوس» حيث تصف أسفاره ومغامراته بعد رجوعه من طروادة.

(2) (Geometric Pottery) (1100 ـ 800 ق.م) أي إنه استغرق معظم عهد الملوك.

النبلاء أو أمراء الإقطاع الذين استحوذوا على الأراضي واغتصبوا الملاكين الصغار والفلاحين. وأصبحت ملكية الأراضي وراثية خاصة بهذه الطبقة الأرستقراطية[1]، وبلغ النبلاء قدراً عظيماً من البأس والقوة فقضوا على الملوك من بعد 750 ق.م. وبدّلوا نظام الحكم من الملكية إلى نظام الحكم الأوليغاركي (حكم الأقلية) الذي يشبه نوعاً ما نظام الإقطاع في تأريخ أوروبا في العصور الوسطى. وكان ديدن النبلاء السرقة والقرصنة وقد أصبحت في عهدهم طبقة الفلاحين وعامة الناس في وضع يتميز بالبؤس والشقاء ولكن يمتاز هذا العهد الجديد بنشوء التجارة البحرية في حضارة الإغريق وبناء السفن، وقد بدؤوا في بناء سفنهم على غرار سفن الفينيقيين. واشتهر الأيونيون منهم بالتجارة البحرية. وأدى ظلم النبلاء إلى أمر مهم آخر هو هجرة الفلاحين وغيرهم من الطبقات المرهقة المظلومة فقد جلى كثير منهم إلى أقاليم ما وراء العالم الإيجي واليوناني، فنشأت من الإغريق مستعمرات مهمة حوالى البحر الأسود إلى أراضي الزرع في الدانوب الأسفل. وقد اصطدم الإغريق الذين انتشروا إلى سواحل آسيا الصغرى الجنوبية بالآشوريين، وقد حاربهم فعلاً الملك الآشوري سنحاريب حيث دحر جيشاً منهم في كيليكيا في حدود 700 ق.م. وتكوّن من الإغريق مستعمرة في قبرص. وهاجر جماعة منهم إلى دلتا مصر وتغلغلوا هناك بصورة سلمية وأسسوا مدينة تجارية قرب الإسكندرية[2] وأسسوا إلى غرب الدلتا قيرين[3] (في طرابلس الآن). وكذلك انتشروا إلى إيطاليا في صقلية وفي جنوبي إيطاليا وقد دعي القسم الجنوبي من إيطاليا «بلاد الإغريق الكبرى».

---

(1) وتسمى هذه الطبقة بـ (Eupatrids).

(2) سميت بسيدة السفن أي (Naucratis).

(3) (Cyrene) وهي قيرين أو «قورينا» كما جاءت في «أخبار الحكماء» للقفطي حيث تنسب إلى هذه المدينة مدرسة «القورنيائيين» الفلسفية التي أسسها الفيلسوف اليوناني «أرسطيس». وينبغي عدم الخلط بين قيرين والقيروان التي قامت على موضع بيزنطي قديم هو «قمونية» أو «قمودة» (Caput-Vada). وإقليم قيرين (Cyrenaica) هو بنغازي.

ومما يقال في عهد النبلاء أن الثروة في داخل بلاد الإغريق كانت بالدرجة الأولى ثروة زراعية، ولكن انتشار الإغريق وازدياد التجارة عندهم ونشوء بعض الصناعات قد غيّر الأحوال الاقتصادية فنتج ذلك تغييراً في نظام المجتمع وفي نظام الحكم، وسنلخص ذلك في الكلام على عهد الإغريق الثالث، أي عهد الطغاة.

3 ـ عهد الطغاة (625 ـ 525 ق.م):

لقد ذكرنا فيما سبق أن الاتساع الاستعماري للإغريق وكذلك اتساع التجارة ونشوء الصناعات كل ذلك أحدث تغييرات بعيدة المدى في حياة اليونان فقد صارت المستعمرات الإغريقية الجديدة أسواقاً مهمةً للتجارة اليونانية من بلاد اليونان نفسها. وإن حاجات هذه المستعمرات والطلب المتزايد على البضائع من بلاد الإغريق كان حافزاً لمدن الإغريق ولا سيما المدن الأيونية لتوسيع صناعاتها وتجارتها، وأخذت المدن الإغريقية تزدهر وهذا ما حدث لأثينا وكورنث وغيرهما. وقد حفز مدن اليونان حافز آخر هو منافسة الشرق ولا سيما الفينيقيين. وكانت الصناعة الإغريقية في القرن السابع دون الصناعات الشرقية ولكن أخذت صناعات المدن الإغريقية تزاحم الشرق منذ 600 ق.م. وتتفوق عليها في صناعة الحديد والفخار وتصدير زيت الزيتون. ومما سهّل التجارة والصناعة في مدن الإغريق أن الإغريق بدؤوا يستعملون النقود المسكوكة منذ القرن السابع ق.م.، وقد اقتبس الأيونيون في سواحل آسيا الصغرى طريقة التعامل بالنقود من آسيا الصغرى حيث يظن أن الليديين هم الذين أوجدوا النقود المسكوكة في حدود 700 ق.م.[1]. هذا ولا ينكر ما للنقود من أهمية عظمى في المعاملات التجارية.

وموجز القول كان القرن الذي دامه عهد الطغاة حافلاً بالانقلابات الصناعية والازدهار الاقتصادي بحيث يصحّ أن نعده انقلاباً صناعياً مهماً مهّد

---

(1) لاحظ ما ذكرناه عن نشوء النقود في الأقسام السابقة من هذا الجزء.

لازدهار حضارة الإغريق في القرن الخامس وهو القرن الذي كان حافلاً بالاختراع والإبداع في تأريخ البشر، كما سيمرّ بنا ذلك عند الكلام عن حضارة الإغريق.

وكان من نتائج اتساع التجارة والصناعة القضاء على النظام السابق في عهد النبلاء. إذ كانت سلطة هؤلاء ناشئة عن الثروة الزراعية والحيوانية، ولكن ضوئل شأن هذا النوع من الاقتصاد على أثر اتساع التجارة والصناعة وهكذا حل محل عهد النبلاء المؤسس على الزراعة عهد جديد هو العهد الذي سميناه بعهد الطغاة، وهم من المثرين بالثروة الجديدة[1] كما حدث في أوروبا بعد عهد الإقطاع. وقد تبدل نظام الحكم في هذا العهد حيث كان الحكّام فيه من الغاصبين وبمثابة الملوك وقد دعا الإغريق أنفسهم مثل هؤلاء الحكام باسم الطغاة أو المستبدين ويعني ذلك الحاكم الأعلى. وقد بدأ مثل هؤلاء الحكام يظهرون منذ 650 أو 625 ق.م. في المدن الأيونية في آسيا الصغرى وفي الجزر القريبة، واشتهر منهم في أثينا أعلام مشهورون مثل «دريكو» و«صولون». وانتهى عهد الطغاة في أثينا باغتيال الطاغية (هبارخوس) وطرد طاغية آخر، فحل بذلك حكم الشعب أي الديموقراطية وهي كلمة جاءتنا من الإغريق وكان هذا هو نظام الحكم في العهد التالي لعهد الطغاة.

قوانين الإغريق المدوّنة:

ومما يمتاز به عهد الطغاة نشوء أقدم القوانين المدوّنة عند الإغريق. وإذ رأينا أن القوانين المدوّنة قد بدأت في حضارة العراق منذ أزمان قديمة جداً فإن الشرائع كانت عند الإغريق تعتمد على العرف المتداول إلى حدود 624 ق.م. حيث بدأت الشرائع المدوّنة تظهر منذ هذا التأريخ. وكان أول قانون

---

(1) وهم طبقة البلوطوقراطية (Plutocry) أي حكم أصحاب الثورة الذي حلّ محل الحكم الأوليغاركي.

مدون هو القانون الذي أصدره «دريكو» وقد اشتهر هذا القانون بالصرامة والشدة حتى أن صفة «دريكوني»[1] قد صارت تُستعمل في بعض اللغات الأوروبية لتعني «الصارم، الشديد» وكان سبب تدوين هذا القانون رغبة الاثنيين وكفاحهم المستمر لتكون لهم شريعة مدوّنة، حتى لا يُساء استعمال التقاليد القانونية غير المدوّنة. ومن أعلام هذا العهد «صولون» المشهور الذي كان من التجار المثرين وينتسب إلى إحدى الأسر الملكية القديمة. وقد اكتسب هذا شهرة وزعامة عند الأثينيين على أثر حرب نشأت بين أثينا وبين إحدى الدويلات المجاورة فأثار صولون حماس قومه وتزعمهم فانتصروا على الدولة المعادية وجازوا زعيمهم بأن انتخبوه في 594 ق.م. «أرخونا» (أي القاضي أو الحاكم الأعلى)، وخوّل السلطة المطلقة للإصلاح العام وبوجه خاص رفع الظلم والحيف عن الفلاحين والزرّاع وقد أصدر صولون، في سبيل الإصلاح، قانوناً اشتهر باسمه، وقد امتازت شريعته بضمان إحقاق الحقوق وبأصول التقاضي مثل نظام المحلفين، وقد ساوت الشريعة بين جميع المواطنين الأحرار. وإلى هذا أصدر صولون دستوراً للدولة أعطي فيه لجميع المواطنين حقاً في الحكومة وإدارة شؤونها. وقد قسم الشعب بحسب هذا الدستور إلى أربع طبقات بحسب دخلهم من الثروة فاقتصرت الوظائف العليا للحكومة على طبقة النبلاء، وسمح للفلاحين في إدارة الوظائف الصغيرة، وهكذا بقيت الحكومة بيد النبلاء، ولكن أعطي الحق لجميع الشعب في التصويت في انتخاب «مجلس الشعب». واشتهر صولون بالاعتدال والزهد في الحكم حتى أنه لما اتهم بميله إلى أن يكون طاغية تخلى عن الحكم مختاراً وترك أثينا عدّة سنين وخلى المجال لغيره في الحكم. ومما يقال عن صولون وعهده بوجه عام أن إصلاحاته المهمة قد أنقذت أثينا من ويلات ومحن وتسنى لها أن تسير قدماً في نهضتها الصناعية والتجارية.

لقد أعقب صولون في الحكم فرد من طبقة النبلاء القديمة هو

---

(1) (Draconci).

(فيسترانوس)[1] الذي تقلّد الحكم بالقوة عندما عاد من المنفى وهو على رأس جيش من المرتزقة وقد اشتهر حكمه بالرزانة والتعقّل وبنى أسطولاً من السفن استولى به على الدردنيل فساعد ذلك أثينا كثيراً في تجارتها مع بلدان البحر الأسود وقام بإصلاحات عامة كثيرة وازدهرت في زمنه الصناعة والتجارة في أثينا، ويصحّ أن نعدّه واضع أسس عظمة أثينا التي حققتها فيما بعد. وخلّف هذا في الحكم ابناه[2] اللذان كان حكمهما نهاية عهد الطغاة في تأريخ الإغريق. وقد ثار عليهما الشعب ومقتهما واغتال أحدهما وهو (هيبارخوس) طالبان في أثينا وفرّ الثاني بعد اغتيال أخيه. وقد خلّد النحاتون الإغريق هذين الطالبين الشابين بتمثالين يمثلانهما في حالة الانقضاض على الطاغية. ومن الطريف في أمر هذا النحت أن الفرس أخذوه بعد موقعة سلاميس فصنع الأثنيون نسخة له ولكن الإسكندر الكبير أرجع النحت الأصلي إلى بلاد اليونان. وقد انتهى عهد الطغاة قبل 500 ق.م. (في حدود 525) بعد أن دام قرناً واحداً. ومما يذكر عن نظام الطغاة أن أحد الاثينيين وهو كليسثينيز أراد أن يضمن عدم رجوع النظام القديم فأوجد طريقة الاقتراع السنوي، ذلك بأن يصوِّت عامة الشعب في كل عام فيعلنوا رأيهم حول أي مواطن يخشى خطره على الدولة وبعد التصويت ينفونه مدة عشر سنوات. وكانت طريقتهم في الاقتراع على شيء من الطرافة إذ كان كل مصوت يلتقط كسرة من آنية فخار ويكتب فيها اسم الشخص الذي يعتقد بأنه خطر على حياة الشعب وتودع تلك الكسرة في وعاء من الفخار (صندوق الانتخاب). ولما كانوا يسمون الكسرة من الفخار (أوستراخون (Ostracon)) فإنهم اشتقوا منها فعلاً (مثل الإنكليزية (Ostracise) ليعني نفي ذلك الشخص وإنهاء عمله السياسي. وهذا بداية العهد الديمقراطي في أثينا.

وكانت مدينة إسبارطة في حوالي تلك الأزمان قد ازدادت في القوة

---

(1) (Pisistratus) (540 ـ 528 ق.م).

(2) وهما (Hipparchus) و(Hippias).

والبأس واتسعت فتوحها حتى أنها أخذت جزءاً كبيراً من شبه جزيرة (البيلوبونيس) وقد حققت في حدود 500 ق.م. اتحاداً بالقوة يضم الدويلات المجاورة عرف باسم «العصبة الإسبارطية». ولما كانت إسبارطة زعيمة هذه العصبة فقد صارت العصبة أو الجامعة الإسبارطية (The Sparten League) أقوى دولة في عالم الإغريق. وامتازت مدينة إسبارطة بنظام الحرب والشدة، وكانت خالية من الصناعات فلم يكن فيها ازدهار صناعي وتجاري. كما أنها لم تخضع إلى نظام الطغاة في حكمها وإنما ظلت على نظام حكم الملوك. ولتوزيع سلطات الملك كانت تعين ملكين يحكمان في آن واحد وكانت تمقت نظام الحكم الديمقراطي فلذلك كانت تنظر بعين الحسد والاشمئزاز إلى الديمقراطية الأثينية. وكان حكم «الملكين» تسيطر عليه جمعية من الشيوخ. ولعل أحسن ما توصف به إسبارطة في نظام حكمها أنها كانت عبارة عن قبيلة محاربة مخيمة ضمن رعايا أخضعتهم واستعبدتهم.

4 ـ عهد الديمقراطية:

نستطيع أن نعد بداية هذا العهد من اغتيال آخر طاغية في أثينا في حدود 525 ق.م. ويمتاز هذا العهد بأحداث مهمة في تأريخ الإغريق جميعهم وفي تطور حضارتهم، وبوسعنا أن نعد الازدهار الاقتصادي والتجاري الذي أنجزه الإغريق في عهد الطغاة سبباً لازماً ومقدمة تمهيدية لازدهار حضارة الإغريق في عهد الديمقراطية أما هذه الأحداث فأبرزها وأهمها ما يأتي:

(1) انتقال دولة أثينا وهي أهم دولة في الإغريق إلى نظام الحكم الديمقراطي.

(2) الحروب اليونانية الفارسية.

(3) الأمبراطورية الأثينية.

(4) الحرب بين أثينا وإسبارطة.

(5) ازدهار حضارة الإغريق (القرن الخامس ق.م).

فلنوجز كلّاً من هذه الأحداث المهمة. وسنفرد لحضارة الإغريق بحثاً خاصاً.

1 ـ الحكم الديمقراطي:

مرّ نظام الحكم الديمقراطي بمراحل متعاقبة يميز كل مرحلة منها علم من أعلام التأريخ اليوناني في هذا العهد مثل «كليستينيس» (Clisthenes) و«ثيمستوكلس» (Themistocles) أحد أبطال مراثون و«سيمون» (Cimon) و«بريقلس» (Pericles). وبلغت الديمقراطية في عهد «بريقلس» (460 ـ 430 ق.م) أنضج مرحلة في تأريخ الإنسان، على الرغم من نهايتها بعد عهده. ومن المهم أن نذكر هنا أن التجربة التي قامت بها أثينا في هذا النظام من الحكم قد كانت نتيجة تغييرات اقتصادية واجتماعية كبيرة أفضت إلى حصر السلطة بأيدي جماعة من المثرين من الطبقة الوسطى يتبعها العمال والأجراء وطبقة العبيد. وكان النزاع بين الأحزاب المختلفة في أثينا، كما في جميع بلاد الإغريق، قائماً مستمراً. ويمكننا تمييز حزبين واضحين من هذه الأحزاب فجماعة كانت تريد حكماً أرستقراطياً أو أوليغاركياً بيد أقلية تنحصر فيها الامتيازات والجماعة الأخرى كانت تهدف إلى الحكم الديمقراطي أي حكم الشعب كما أن بعض الطغاة القديرين استطاعوا أن يحتفظوا بحكمهم كما كان الحال في «سرقوسة». أما أثينا فكانت بطلة الديمقراطية في جميع الإغريق. في حين أن إسبارطة كانت تمثل الحكم الأوليغاركي.

وتشترك جميع الدول اليونانية بوجه عام بانقسام السكان في كل منها إلى طبقات، أما بالنسبة إلى المال أو الحسب أو المركز الاجتماعي، أو المهنة. وكانت الجنسية الأتيكية في دولة أثينا تمنح إلى كثير من الرعايا بسخاء. ولكن مما يلاحظ أن الأجانب القاطنين فيها والمقيمين كان بيدهم كثير من الصناعة والتجارة وأعمال البنوك. أما في إسبارطة فإن حق المواطنة الكاملة لم يكن إلّا

في بضعة آلاف من العائلات، ومع أن الجماعات الأخرى كان قسم كبير منها حراً ولكنه كان قليل الامتيازات والحقوق، وكان عامة الشعب في الواقع عبيداً للأرض وكان نظام الرق جزءاً من حياة الإغريق الاقتصادية ومن الأسس التي قامت عليها حضارة اليونان، وكان يعدّ نظاماً مرغوباً فيه، أما القسم الأعظم من العبيد فكان من غير الإغريق. ومما يقال في حال العبيد إنهم لم يكونوا بوجه الإجمال في أسوأ وضع باستثناء الذين كانوا يشتغلون في المناجم وكان من الممكن لبعضهم أن ينال الحرية بعد جهد وعمل شاقين. ومما تمتاز به الديمقراطية الأثينية الحصة الكبيرة التي كانت تصيب الفرد المتوسط من العمال والمزارعين في الحياة السياسية والثقافية. وبخلاف ما كانت عليه أثينا من الديمقراطية والازدهار والتطور ظلت إسبارطة محافظة راكدة على أوضاعها القديمة البدائية.

ولكي ندرك الفروق بين أثينا وباقي دويلات الإغريق ولا سيما إسبارطة نوجز هنا تطور بلاد الإغريق والحوادث التي وقعت فيها في خلال أربعة القرون المحصورة بين 725 و325 ق.م.، أي منذ عهد النبلاء، وقد أثرت هذه الحوادث في سير التأريخ اليوناني.

فبعد بداية عهد النبلاء بزمن قليل جابهت بلاد الإغريق جميعها مشاكل أساسية أهمها حاجة السكان المتكاثرين إلى وسائل العيش والقوت وكانت الشعوب اليونانية تؤمن تلك الوسائل باقتصارها على المنتوجات الزراعية بالدرجة الأولى وهي المحاصيل التي تنتج في بلاد الإغريق وتستهلك في داخلها ولكن الأزمة اشتدت ولم تكف تلك المحصولات لسد حاجات السكان. فسلكت دويلات المدن المختلفة سبلاً مختلفة في حل تلك المشكلة. فعمد بعضها مثل «كورنث» و«كالسيس» (خالسيس) إلى الاستيلاء على أراضٍ زراعية واستعمارها فيما وراء البحار خارج بلاد الإغريق مثل صقلية وجنوبي إيطاليا وتراقيا وغيرها. ولكن دويلات أخرى اتبعت سبلاً أخرى لحل المشكلة غيرت من أسلوب حياتها. فقد أشبعت دولة إسبارطة مثلاً حاجة سكانها إلى

الأرض باستيلائها على جيرانها من الإغريق واستعبادهم، وقد دفعت عن ذلك ثمناً باهظاً هو الحروب المستمرة مع جيرانها الذين من شاكلتها، ولكي يأمن زعماء إسبارطة دوام هذا الحل جعلوا من الحياة الإسبارطية حياة عسكرية كلها من الرأس إلى القدم، وقد حققوا ذلك بإحيائهم أنظمة اجتماعية بدائية كانت معروفة عند جماعات من الإغريق في الأزمان القديمة وكانت على وشك الزوال حتى في إسبارطة نفسها.

ولكن أثينا أقبلت على حلّ مشكلة السكان بوجه يختلف عن ذلك تماماً فقد أقدمت على الصناعات والتصدير بالتجارة الخارجية ثم غيّرت أنظمتها السياسية ونشأتها بحيث أشركت في السلطة السياسية الطبقات الجديدة التي استتبع تكوينها نشوء تلك الأساليب الاقتصادية الجديدة. ثم إنها بدأت بزراعة أراضيها ولا سيما جبال أراضيها الجرداء بأشجار الزيتون التي أصبحت مورداً تجارياً مهماً، وقد رأينا استغلالها للنقود في ترقية تجارتها الخارجية، كما أنها صنعت السفن ونشأت صناعات جديدة طريفة من بينها أواني الفخار الجميلة لتصدير زيت الزيتون، وعمدت إلى فتح مناجم الفضة. ويمكننا أن نوجز ما قامت به أثينا أنها تفادت الثورة الاجتماعية بأن حققت تحقيقاً ناجحاً انقلاباً اقتصادياً وسياسياً بدلاً منها، وقد رأينا فيما سبق نشوء النظام الديمقراطي فيها. وبذلك فإن أثينا قد فتحت سبيلاً جديداً لسير المجتمعات اليونانية ولعل هذا هو ما عناه «بريقليس» عندما قال عن أثينا بأنها «معلمة بلاد هيلاس» (أي بلاد الإغريق). وبهذا السبيل اختلف تأريخ إسبارطة عن أثينا، ولم يكن هذا الاختلاف ناشئاً عن سجايا أو جبلات خاصة تميز الإسبارطيين عن الأثينيين.

وقد سبق أن ألمحنا بأن هذا الازدهار الاقتصادي الذي حققته أثينا قد مهّد السبيل لازدهار آخر حققته تلك الدولة في القرن الخامس، إذ ازدهرت على يدها حضارة الإغريق وأنتجت للتراث البشري الفلسفة اليونانية وفن الرواية والعلوم مما سنأخذ عنه بعض الشيء في البحث الخاص بحضارة اليونان.

2 ـ الحروب الفارسية اليونانية:

لقد ذكرنا في أخبار الدولة الفارسية الإخمينية أن كورش قبل أن يغزو العراق ويأخذ بابل قد غزا آسيا الصغرى وقضى على مملكة الليديين بتغلبه على ملك ليديا «قارون» (Croesus) واستيلائه على العاصمة «ساردیس» (546 ق.م) ثم ضم المدن الأيونية في آسيا الصغرى إلى الأمبراطورية الفارسية وتقدم الفرس إلى جزر إيجة بجوار الدول اليونانية، وبذلك اصطدم العالم الإغريقي بامتداد النفوذ الفارسي، وكانت بوادر النزاع ثورة المدن الأيونية على الاستعمار الفارسي، وقد ساعد بعض الدويلات اليونانية وبخاصة أثينا الأيونيين بإرسالها قطعات من السفن. فأغاظ هذا العمل الدولة الفارسية وصمم الملك دارا الأول (521 ـ 485 ق.م) على تأديب الإغريق فأرسل حملة كان نصيبها الفشل (492 ق.م) بغرق الأسطول المرافق للحملة. ثم أعقب ذلك من بعد عامين إرسال حملة أخرى من الأساطيل فحدثت بين الطرفين المعركة الشهيرة مراثون (490 ق.م) وكانت الحملة موجهة إلى أثينا التي استطاعت جيوشها وحدها أن تهزم جموع الفرس مع تفوّقهم بالعدد والعُدّة. وقد أبدى القائد الأثيني «ملتيادس» (Miltiades) مهارة وبراعة عظيمتين في كسبه هذه المعركة العظمى التي شجعت الإغريق وأنقذتهم من عبودية الفرس.

لقد اشتهر في معركة مراثون[1] سياسي محنك اشتهر ببعد النظر وأصالة الرأي هو «ثميستوكلس» (Themistocles) الذي كان (أرخوناً)، أي أعلى حاكم في دولة أثينا فقد ارتأى بناء أسطول بحري فنجح في إقناع الأثينيين ببناء الأسطول بعد معركة مراثون، وقد مات الملك دارا بدون أن يثأر من أثينا وخلفه في الحكم (احشويرش) (485 ـ 465 ق.م) الذي أخذ على عاتقه هذه المهمة، وأخذ يدبر الخطط للانقضاض على جميع الإغريق، ولكي يضمن

---

(1) سهل مراثون في ولاية أتيكا التي تقع فيها أثينا.

ذلك سيطر على بعض مدن الفينيقيين واستمال المدن الأخرى إلى جانبه. وأصبح الأسطول الفارسي أسطولاً ضخماً. وبعد عشر سنين من معركة (مراثون) هجم الملك الفارسي على اليونان بالأسطول وبالقوات البرية. فوصل الجيش البري إلى مجاز «ثرموبيلي» المطل على خليج سلاميس ووصل بالقرب منه أسطول كبير قوامه 500 سفينة. وكان ملك إسبارطة «ليونيداس» (Leonidas) ومعه زهاء الـ (5000) رجل يحمي ممر «ثرموبيلي» (Thermopyae) وتهيأ الأسطول الإغريقي (وكان يحتوي على نحو 300 سفينة) لضرب الأسطول الفارسي. ومما يذكر في هذه الحرب البطولة التي أبداها ملك إسبارطة في الدفاع عن المجاز فقد استطاع أن يمنع جموع الفرس الكثيرة يوماً كاملاً ولكن الفرس استطاعوا أن يقضوا على جيشه بحركات التفافية فمات الإسبارطيون جميعهم ومعهم ملكهم وقائدهم. واشتبك من بعد ذلك الأسطول الأثيني مع أسطول الفرس بمعركة بحرية عظمى هي معركة «سلاميس» (480 ق.م) انتصر فيها الإغريق بعد معركة دامت تطوال اليوم إلى الليل وتحطم فيها أسطول الفرس بأجمعه تقريباً وكانت النتيجة أن أثينا أصبحت سيدة البحر. وتحقق بعد النظر الذي أظهره ذلك السياسي العظيم «ثيمستوكلس» حيث أنقذ أثينا ومعها بلاد اليونان وحضارة اليونان من الزوال. وقد أسرع احشويرش إلى آسيا مخافة أن يقطع عليه أسطول الإغريق خط الرجعة. والواقع أن الداهية «ثيمستوكلس» قد حاول ما كان يخشاه الملك الفارسي ولكن إسبارطة لم توافق على ذلك. وقد اشتبكت قرطاجة في حدود هذا الزمان بحرب مع صقلية بعد أن عبر أسطولها من أفريقيا. أما النتيجة فكانت اندحار قرطاجة. ولكن مع هذه الانتصارات لم يتخلص العالم الإغريقي من خطر الفرس إذ إن الملك الفارسي ترك جيشاً كبيراً مع أحد قواده لتمضية فصل الشتاء في «تساليا» (Thessaly). ولذلك فمهما بدت لنا نتائج السياسة التي اتبعها «ثيمستوكلس» واضحة بالنسبة لفائدة الإغريق فإن الأثينيين لم ينظروا إليها كذلك. فكان جزاؤه أن نُحِّيَ من الحكم. وعندما قارب الشتاء على الانتهاء توجه الجيش الفارسي الرابط في «تساليا» إلى «أتيكة». فحل الرعب من جديد في اليونان، وبعد لأي اشتركت

إسبارطة بجيشها في هذه الحرب الجديدة، وصارت القيادة العامة بيد ملكها الذي قاد زهاء الـ 30 ألف رجل من الجند المسلحين تسليحاً ثقيلاً. وتقابل الجيشان في «بلاتيا» (Plataea) (479 ق.م) وبدأت المعركة بخسائر من جانب اليونان بسبب السهام الفارسية المميتة ولكن رماح الصفوف الإغريقية كسب لليونان الموقف وأحلت الهزيمة في جموع الفرس ولم يحاول الفرس من بعد ذلك غزو الإغريق وهكذا برهن المواطنون الإغريق الأحرار كيف أن شعباً صغيراً حراً استطاع أن ينتصر على أعظم أمبراطورية عرفها العالم القديم.

3 ـ أمبراطورية أثينا ومنشأ النزاع بينها وبين إسبارطة:

أ ـ نتجت الانتصارات التي أحرزها الإغريق في حربهم مع الفرس نتائج خطيرة في حياتهم وفي علاقات الدول الإغريقية بعضها ببعض. وقد ألمحنا فيما سبق إلى الاختلافات الأساسية بين إسبارطة وأثينا وليس في نظام الحكم فحسب، بل في جميع نواحي الحياة بحيث يصحّ أن نعد الدولتين تمثلان حضارتين مختلفتين وقد عملت نتائج الحرب مع الفرس على اتساع هذه الاختلافات بين الدولتين. فمن جهة شعرت أثينا بعظم الأعمال التي أنجزتها في حربها مع أعظم أمبراطورية وأخطر عدو هدّد حياة اليونان ووجود اليونان. وقد أحرزت أثينا أولى الانتصارات العظيمة (مراثون) وحدها بدون أن تساعدها إسبارطة. فشعر الأثينيون بشعور جديد هو الاطمئنان إلى قابليتهم وعظمة مدينتهم وخرجوا من الحرب وهم على أشد ما يكونون من الطموح واتجهوا في أفكارهم إلى عالم جديد واتجاه جديد في الحياة. ومهما خالط هذا الطموح من الغرور والزهو والاعتداد بالنفس فإنهم لا شك أدركوا أسرار انتصارهم وأحسوا بقيمة الحرية السياسية وبقيمة نظام الحكم الديمقراطي عندهم. فصارت أثينا ممثلة للديمقراطية والتقدم وسيادة الشعب وبطلة حرية الفكر وحريات الإنسان بوجه عام. وبعكس هذه الصورة كانت إسبارطة وهي الدولة الثانية العظيمة من بين الدويلات اليونانية. فقد خرجت إسبارطة من الحرب وهي صغيرة وظلت محافظة اقتصرت أنظمتها وحضارتها على نظام

الجندية القاسي. فكان المواطنون فيها كلهم جنوداً يأكلون في مطاعم عامة تهيئُها لهم الدولة. ولم يكن المواطن الإسبارطي يعرف شيئاً أو يشغله شيء سوى الحرب والتهيؤ للحرب. وكان العبيد يزرعون له أرضه. فكانت دولة إسبارطة بوجه الاختصار عبارة عن جيش فقط. وإلى ذلك كله كان عدد الجنود أي المواطنين الذين لهم حق الجنسية الإسبارطية محدوداً لا يتجاوز بضعة آلاف من المحاربين يحكمون بالقوة والقسوة عدداً كبيراً من السكان في داخل مملكتهم ومن الأقوام المجاورة لها التي استعمروها. وكان الشغل الشاغل لهذه الطبقة الحاكمة الحرب فلم تعن بالتجارة أو الصناعة أو أي شيء من مظاهر الحياة الأخرى حتى أن مدينة إسبارطة لم تكن سوى مجموعة قرى لا تستحق أن يُطلق عليها اسم مدينة، بل كانت أقرب ما تكون إلى معسكر. ولم تتعد كذلك في نظام حكمها النظام الملكي، وكان الملكان اللذان يشتركان في الحكم قائدين عسكريين دون أي شيء آخر. وكان عالم هؤلاء الجنود المواطنين وأفق تفكيرهم محدوداً ضيقاً. وإذا طمح هؤلاء بأن يكونوا زعماء الإغريق العسكريين فإنهم كانوا يتهيبون من هذه الزعامة وما كان يتطلبه العصر الجديد من اتساع النظر إلى إمكانيات مستقبل جديد عظيم. وكانت هذه الأمور من جملة الأسباب التي جعلت عالم الإغريق منقسماً على نفسه ولم يتّحد في دولة واحدة بل كانت الأمور تسير إلى عكس ذلك إذ أدّى التنافس والنزاع بين أعظم دولتين من دول اليونان، أي أثينا وإسبارطة إلى خصام وحروب دامت زهاء قرن واحد.

نشوء أمبراطورية أثينا وانتصار الديمقراطية:

إن انتصار أثينا في مراثون وسلاميس على الفرس ولّد الرغبة في الأثينيين في جلب جميع الإغريق تحت سلطان أثينا وقد رأينا كيف أنها حاربت في الموقعة الأولى وحدها، وفي الموقعة الثانية كانت بيد الأثينيين قيادة الأسطول الذي قضى على غزو الفرس. وقد أدركت أثينا بتحريض «ثيمستوكلس» وإرشاده أن خير سبيل لإنعاشها واتساعها إنما يكون في إنشاء أسطول بحري

جعل أثينا سيدة البحار. واستغلت أثينا خوف الإغريق من عودة الفرس للغزو فاستطاعت أن تقنع المدن الإغريقية في آسيا الصغرى ودويلات أخرى في جزر إيجة فانضمت تحت زعامتها في عصبة عُرفت بالعصبة أو الجامعة «الديلية» (نسبة إلى جزيرة صغيرة اسمها ديلوس (Delos) حيث وضعت العصبة ماليتها المشتركة في معبد لابولو هناك). وقد ساهمت المدن الغنية بإمداد العصبة بالسفن وكانت المدن الأخرى تؤدي مالاً معيناً كل عام. ولكن تحوّلت هذه العصبة أو الاتحاد بالتدريج إلى أمبراطورية مؤلفة من دويلات تحت زعامة أثينا أو حكمها. فأغاظ ذلك المدينة المنافسة إسبارطة. ونشأ من ذلك أن انقسم الرأي في أثينا إلى حزبين بالنسبة إلى ما يجب أن تتخذه أثينا من سياسة تجاه إسبارطة. وكان أحد الحزبين بقيادة «سيمون» أحد القواد البحريين المشهورين وابن القائد المشهور «ملتيادس» بطل مراثون. وكان هذا الحزب يرى اتخاذ سياسة الصداقة مع إسبارطة، وكان يتألف على الأغلب من الطبقة المثرية والنبلاء والأشراف والمحافظين، ولكن الحزب الآخر، وقد تزعمه «ثيمستوكلس»، كان يرى سياسة الشدة تجاه إسبارطة. وقد كان هذا الحزب يضم معظم الأثينيين الأحرار الديمقراطيين المتجددين. وحدثت من بعد ذلك أحداث هامة في سياسة أثينا الخارجية والداخلية. فأولاً دُحر الزعيم «ثيمستوكلس» في المجلس العام وصوّت المجتمعون بعدم الثقة به وأعقب ذلك أنهم اتهموه بالخيانة العظمى ففرّ هارباً والتجأ إلى الملك الفارسي وهكذا كانت نهاية هذا الزعيم الفذ الذي جعل أثينا سيدة البحار. أما سيمون فقد صفا له جو الزعامة أمداً قصيراً وقد اشتبك بحرب بحرية مع الفرس انتصر فيها (468 ق.م)، وطلبت في زمنه إسبارطة من أثينا مساعدة بالجيش للقضاء على ثورة قام بها بعض رعاياها فتقدم سيمون بالنجدة ولكن الإسبارطيين ألحوا بخشونة أن يرجع الجيش الأثيني حتى قبل أن يقضي على الثورة فظهر للأثينيين خطل سياسة سيمون التي ترمي إلى صداقة إسبارطة فصوتوا على تنحيته عن الحكم (461 ق.م). وكانت إقالة سيمون انتصاراً للشعب على الأشراف والنبلاء. وأتبع الشعب انتصاره بأن ضيق على مجلس الشيوخ (المكوّن معظمه

من النبلاء) وحدد سلطته إلى أضيق الحدود وأصدر قانوناً في سلب مجلس الشيوخ جميع سلطاته السياسية وقصر سلطاته على بعض الشؤون والقضايا كالنظر في قضايا القتل ونشأ في غضون ذلك مجلس عام للشورى من الشعب قوامه 500 عضو أخذ لنفسه إدارة معظم شؤون الدولة. وكانت الطريقة في ممارسة حقوقه في تقسيمه إلى عشر لجان قوام كل منها (50) عضواً كانت تحكم كل لجنة مدة تربو على الشهر بقليل من كل عام.

ومن مظاهر انتصار حكم الشعب الديمقراطي اتساع مجالس المحلفين للنظر في الخصومات والقضاء، وصار عدد المواطنين المشتركين بنظام التحليف ستة آلاف فرد كانوا يقسمون إلى مجالس صغرى من المحلفين. وكان كل مجلس من هذه المجالس في الواقع مجلساً من القضاة لوقت محدود لتقرير الأحكام الخاصة بالقضايا التي تعرض عليهم. وإذ كان المشتركون في هذه المجالس من الطبقات العامة ومن الفلاحين وغيرهم ممّن يعيش على الكسب والعمل فقد كان يدفع لكل عضو من هذه المجالس رواتب لإعالتهم. وقد اكتسبت هذه المجالس من الحول والقوة بحيث أصبحت من أهم مصادر التشريع في اليونان، بل كانت مع مجلس الشورى مصدر التشريع وإصدار القوانين. وهذا في الواقع هو حكم الشعب بنفسه كما يفهم من كلمة الديمقراطية في اللغة اليونانية. ومن مظاهر الديمقراطية اليونانية في هذا العهد اتساع حق الترشيح إلى منصب الحاكم الأعلى (أرخون) بحيث شمل جميع المواطنين باستثناء العمّال الذين لم تكن لهم أية ملكية. كما أن حق الانتخاب والتصويت قد اتسع فشمل جميع طبقات المواطنين. وكذلك اتسع حق الانتخاب إلى الوظائف فشمل جميع درجات الشعب باستثناء وظيفة القائد الحربي الذي بقي حق الانتخاب إليه في جماعة من القواد والمتنفذين. وكان عدد هؤلاء القواد عشرة كانوا ذوي نفوذ في شؤون إدارة الدولة وفي الشؤون الخارجية كما أن قائد العشرة كان ذا نفوذ عظيم في الدولة ولا سيما إذا استطاع بخدماته أن يقنع مجلس أثينا العام بخططه وقيادته. واشتهر «بريقلس» الذي جاء إلى الحكم بعد سقوط سيمون بسياسته في توسيع نفوذ أثينا وبناء

أمبراطورية لها. وقد تزعم الطبقات التي تميل إلى التجدد والتقدم واستطاع أن يحوز على ثقة الشعب فكان انتخابه قائداً يتجدد كل عام وصار حاكم أثينا الفعلي، ودام سلطانه من 460 ق.م. حتى موته من بعد ثلاثين عاماً. وتعاظمت تجارة أثينا وصناعتها من بعد الحروب الفارسية ودرّت عليها الخيرات والثروة فزاد السكان وإلى هذا كان لدولة أثينا موارد مهمة لشؤون الحكومة وأهمها مناجم الفضة في أتيكة وكذلك الضرائب وموارد المكوس. أما إسبارطة فلا يمكن قياس وارداتها بالنسبة إلى ثروة أثينا وكان هذا من الأسباب التي زادت في الخصومة بين الدولتين.

4 ـ الحروب بين أثينا وإسبارطة:

وعلى الرغم من ازدهار أثينا في الداخل تحت قيادة «بريقلس» فقد سارت سياستها الخارجية إلى التردي ولا سيما في علاقاتها مع الدويلات اليونانية وقد أخذت تستعمل الشدة والقوة في إكراه بعض الجزر الداخلة في أمبراطوريتها في الاستمرار على تبعيتها ودفع الجزية وكان أسطولها يمخر بحر إيجة على الدوام لابتزاز تلك الجزية التي كانت تجمعها وتصرفها كيفما شاءت، فكانت ديمقراطيتها في الواقع محصورة فيها ولم تشمل الأجانب التابعين لها، حتى أنها ألغت حق المواطنة لهم، وتمادت في تعسفها بحيث إنها كانت تكره الشعوب الداخلين في أمبراطوريتها على التقاضي أمام محاكم المحلفين الأثينية. ومما أساء في الوضع أن مجلس الممثلين من جميع دول الأمبراطورية الذي كان يجتمع للنظر في شؤون الأمبراطورية قد أصبح معطلاً تقريباً. فأصبحت أثينا بوجه الإجمال دولة مستبدة مستعمرة مما حفظ ذلك التابعين لها ولا سيما أنهم كانوا يوازنون بين حالهم وبين حسن حال الدول التابعة إلى العصبة الإسبارطية فبدأ بعضهم يتصل بإسبارطة سراً لطرح نير أثينا والانضمام إلى إسبارطة. فشجّع كل ذلك إسبارطة على المجاهرة بحقدها على أثينا. وعمّت هذه الروح جميع اليونان تقريباً، وجعلت الحرب بين أثينا وإسبارطة أمراً لا بدّ منه.

وقعت أولى الحروب بين أثينا وإسبارطة قبل تثبيت زعامة بريقلس بزمن قليل (459 ـ 446 م)[1] وقد دامت حوالي الـ 15 سنة وكانت سجالاً بين الطرفين، ومما زاد في ضعف أثينا أنها ساعدت في أثناء ذلك مصر في ثورتها ضد الفرس في عهد أرتحششتا الأول (465 ـ 424 ق. م) وأرسلت لهذا الغرض أسطولاً قوامه (200) سفينة فقدت جميعها. وفي ختام هذا الاصطدام أبرمت بين أثينا وإسبارطة معاهدة صلح (445 ق.م) أمدها ثلاثون عاماً. وكانت هذه الحرب الأولى مما يدعى بالحروب «البيلوبونيسية» (Peloponessian) ومع معاهدة الصلح المعقودة فإن النزاع والتنافس الكامنين بين الدولتين لم تستأصل جذورهما بل ظلت المدينتان تتنازعان زعامة الإغريق. وقد نشبت الحرب الثانية بعد نحو 15 عاماً من إبرام معاهدة الصلح (في عام 431 ق.م). فتألبت جميع الدول غير الداخلة في أمبراطورية أثينا عليها. وبدأت الحرب ووضع أثينا المالي على أحسن ما يرام وتحت قيادتها أسطول جعلها سيدة البحر بدون منازع. ولكنها كانت ضعيفة تجاه جيوش الأعداء البرية التي جاء منها زهاء (30,000) رجل من الأشداء إلى أبواب أثينا. وكانت خطة بريقلس الحربية الاهتمام بالقوة البحرية والاعتماد عليها وإهمال شؤون الدفاع عن «أتيكة». ونصح هذا الزعيم سكان أتيكة أن يجلوا عن بيوتهم ويلتجئوا إلى أثينا المحصنة. وعمدت أثينا لمقابلة تخريب الجيوش المعادية لبلادها إلى الغزوات البحرية وتخريب مدن الأعداء كذلك وفرض الحصار البحري. ولكن لم تجد هذه التدابير نفعاً إذ اضطرب السكان المحصورون في أثينا وحلّ فيهم لسوء الحظ وباء قضى على ما يقرب من ثلث السكان، وبالإضافة إلى ذلك كانت جيوش الأعداء تضرب الحصار على المدينة التي لم تستطع أن تدخل معها في قتال فكان كل ذلك سبباً قوياً في سخط الأثينيين على بريقلس وقد بلغ بهم الحال أن حاكموه وخلعوه، ولكن عدلوا عن ذلك بعد حين لأنهم شعروا

---

(1) سببت هذه الحروب الانتحارية تدهور حياة اليونان وقد وصفها المؤرخ اليوناني ثوسيدايدز الشهير بأنها (بداية الشرور الكبرى في هيلاس).

بخلوّ مكانه الذي لم يستطع أحد من السياسيين الأثينيين أن يشغله فأعادوا انتخابه. ولكن مجريات الأمور كانت تسير على عكس ذلك إذ فقد زعامته ومات ابناه بالطاعون ثم مات هو نفسه من بعد ذلك (429 ق.م) وهكذا ترك هذا الرجل أثينا بدون زعيم وهي في محنة شديدة فاضطربت الأمور فيها وتخبط زعماء مجلس الشورى من سياسة إلى سياسة بدون هدى. وقد جاء وصف هذه الأحوال في روايات الشاعر الشاب «أرستوفانيس» الكوميدية. ومع هذا التردي فإن سلطان أسطول أثينا قد دام زمناً أطول، ولكن نضبت موارد أثينا المالية ولم يستطع «كليون» الدباغ زعيمها الجديد إنقاذها من ذلك. وبعد عشر سنين من الحروب طلب خلفه عقد الصلح مع إسبارطة (421 ق.م) وقد قبل الطرفان بموجب هذا الصلح التنازل عن جميع ما حصلا عليه من فتوح وإرجاع الحال إلى ما كان عليه قبل الحرب. وهكذا انتهت الحرب الثانية التي أنهكت قوى الدولتين المتنازعتين ومعهما جميع الإغريق.

ولكن برهنت شروط معاهدة الصلح على تعذّر تطبيقها فاندلعت الحرب بين الطرفين مرة ثالثة وكانت نتيجتها هذه المرة تحطيم أمبراطورية أثينا. وقد ارتكبت في هذه الحرب، كما في الحروب السابقة، فظائع وحشية. ولعل أشد صدمة أصابت أثينا في أثناء هجومها على (سرقوسة) أسر أسطولها وجيشها هناك (413 ق.م) وبعد ذلك دخلت إسبارطة في النزاع ومما يذكر عن هذه الحرب الثالثة أن الحاكم الفارسي في آسيا الصغرى ساعد أسطول إسبارطة بالمال[1]. وقد دامت الحرب بين الدولتين تسع سنوات (413 ـ 404 ق.م)، وآل الأمر بأثينا أن استسلمت للملك الإسبارطي الذي كان يحاصرها في 404 ق.م. وبذلك قضى على أمبراطوريتها.

وهكذا فشلت أثينا في فرض زعامتها على العالم اليوناني، وأخذت إسبارطة تلك الزعامة زمناً ما، ولكنها لم تكن لائقة لتلك الزعامة لأنها كانت

(1) راجع ما ذكرناه سابقاً عن تدخل الفرس الإخمينيين بشؤون اليونان من إرشاء الدويلات اليونانية لتحارب بعضها بعضاً بعد أن أخفقوا في ضمّ اليونان بالقوة.

اقتصرت في نشاطها على الناحية العسكرية، واستخدمت القوة والاضطهاد في إخماد النظم الديمقراطية في مدن اليونان التي حكمتها حكماً عسكرياً، وهو حكم أقلية من طبقة النبلاء مستند إلى القوة العسكرية وقد دعا الإغريق هذا النظام «أوليغاركي» (ومعناه بلسانهم حكم الأقلية). ومع تعسف هذا النوع من الحكم وعدم صلاحه للإغريق، فإن الناس المفكّرين قد زهدوا بالحكم الديمقراطي وعدّوه فاشلاً ولا سيما نظام الحكم الشعبي الذي اشتهرت به أثينا[1]، ومما يقال في هذا العهد الجديد انتشار الروح العسكرية والفن العسكري وصيرورة العسكرية مهنة وفناً ليس في خدمة الدولة بل مهنة عسكرية فكان الرجال يمتهنون العسكرية في خدمة دول وحكومات أجنبية، وقد اشتهر الإغريق المرتزقة في ذلك، والمثل على ذلك ما مرّ بنا في الكلام على حملة زينفون. فقد اشتهر في أثينا من هؤلاء القوّاد المحترفين جماعة أكسبتهم مغامراتهم الحربية شهرة عظيمة. ولعلّ أعظم هؤلاء «زينفون» الأثيني الذي دخل الخدمة العسكرية مع «كورش» الأمير الفارسي في آسيا الصغرى في (400 ق.م) الذي أراد التغلب على أخيه الملك، كما مرّ بنا.

وقد خلف لنا «زينفون» عن حملته هذه إلى أراضي الأمبراطورية الفارسية أخباراً طريفة في كتابه «الصعود» (Anabasis) على ما بيّناه في كلامنا على الدولة الإخمينية. وشرح فيه كثيراً من المواقع الحربية، فيكون هذا الكتاب من الكتب العسكرية التي بحثت في العلوم الحربية. ومما يقال عن الفنون الحربية عند الإغريق إنهم لم يعرفوا آلات الحصار الضخمة وظلوا كذلك حتى بعد زمن «بريقلس». ولكن جاءت آلات الحصار إليهم عن طريق الفينيقيين والقرطاجنيين.

الحرب بين إسبارطة والفرس:

ويبدو أن المهارة التي اشتهرت بها حملة زينفون قد شجعت إسبارطة

---

(1) قارن تشهير أفلاطون بهذا النظام في جمهوريته.

على حرب الفرس في آسيا الصغرى، إحدى ولاياتهم، واستخدمت لذلك من بقي من عشرة الآلاف رجل فنجحت في عدة مواقع، ولكن أعقبت ذلك ثورات قامت بها بعض المدن الإغريق على إسبارطة، ونتج عن هذه الاضطرابات تكوين حلف من أثينا وطيبة ضد إسبارطة، وقد ساعد الفرس هذا الحلف لإضعاف إسبارطة فاشترك أسطول من أثينا مع الفرس لفرض السلطان الفارسي على مدن الإغريق في آسيا الصغرى. وهكذا دخل الإغريق مرة ثانية في حرب أخرى فيما بينهم وقد دامت ثماني سنوات وعرفت بالحرب «الكورنثية». وقد استطاعت أثينا أن تبني أسطولاً استطاعت أن تحطم به أسطول إسبارطة. ولكن الفرس شعروا بفقدان التوازن بعد انتصار أثينا البحري وخشوا من خطرها على مستعمراتهم فسهل ذلك على إسبارطة أن تعقد الصلح مع الفرس، وكذلك رغبت الدويلات المعادية لإسبارطة أن تعقد الصلح معها. وقد تدخل الملك الفارسي أرتحششتا الثاني في إبرام هذا الصلح ولذلك عرف «بصلح الملك» (378 ق.م). ومع هذا الصلح فإن الخصومات والمشاكل في العلاقات بين الدويلات الإغريقية لم تحل حلاً نهائياً.

سقوط إسبارطة وزعامة طيبة:

ظلت إسبارطة تجهد في أن تتمسك بسلطانها على العالم اليوناني زهاء خمسة وعشرين عاماً منذ نهاية آخر حرب من الحروب البيلوبونيسية، وقد سبّبت شدة النظام الإسبارطي كره الإغريق للإسبارطيين كرهاً فاق كرههم لأثينا في إبان زعامتها. وقد بدا هذا المقت في ثورة جماعة من أهالي طيبة على الحكّام الإسبارطيين الطغاة وقتلهم إياهم، فنجح أهالي طيبة في إدخال نظام الحكم الديمقراطي بدل الحكم الأوليغاركي. واستطاعت أثينا في الوقت نفسه من تأليف اتحاد منها ومن طيبة ومن بعض المدن الإغريقية الأخرى مما أقلق بال إسبارطة. ونتجت المصادمات خسران إسبارطة في المعركة البرية، وعندما دحرت أثينا أسطولها، تقدمت إسبارطة إلى الصلح. واجتمعت جميع الدويلات اليونانية في وفود في إسبارطة لعقد ذلك الصلح، وعندما اجتمع المؤتمرون

وعرضت عروض الصلح تعقدت الأمور برفض إسبارطة تمثيل «طيبة» لولاية «بوشية» التي تقع فيها. وهكذا ظلت إسبارطة وطيبة بعد مؤتمر الصلح في حالة حرب. وكان جميع الإغريق ينتظرون سحق طيبة بالصفوف الإسبارطية. ولكن عندما نشبت المعركة بين الطرفين لم تفد شهرة نظام الصف الإسبارطي تجاه تعبئة جديدة قام بها قائد جيش طيبة. وهكذا تحطم الجيش الإسبارطي (في عام 371 ق.م) بعد أن احتفظ بزعامة القيادة زهاء ثلاثين عاماً، منذ 404 ق.م. فانتقلت الزعامة إلى دويلة ثالثة بعد إسبارطة وهي دويلة طيبة ولكن هذه بدورها آل أمرها إلى التحطم بعد أن خسرت في المعارك البحرية والبرية مع إسبارطة مرة أخرى في 362 ق.م. وهكذا قضت الدول الكبرى الثلاث بعضها على بعض وحطمت بعضها بعضاً، وانتهت حياة الإغريق السياسية ولم يحققوا الوحدة السياسية التي حاول كل من هذه الدول الثلاث فرضها على بلاد اليونان. وعندما جاءت دولة أجنبية لفرض سلطانها على الإغريق وجدت عالم الإغريق منقسماً على نفسه. وكانت هذه الدولة هي «مقدونيا» التي استطاع ملكها فيلب أبو الإسكندر الكبير أن يقضي على الجيش اليوناني في عام 338 ق.م. فاعترفت به الإغريق إلا إسبارطة التي أخضعت بالقوة، وأكمل عمله ابنه الإسكندر الذي انتخب قائداً لجميع الإغريق في حملته على فارس.

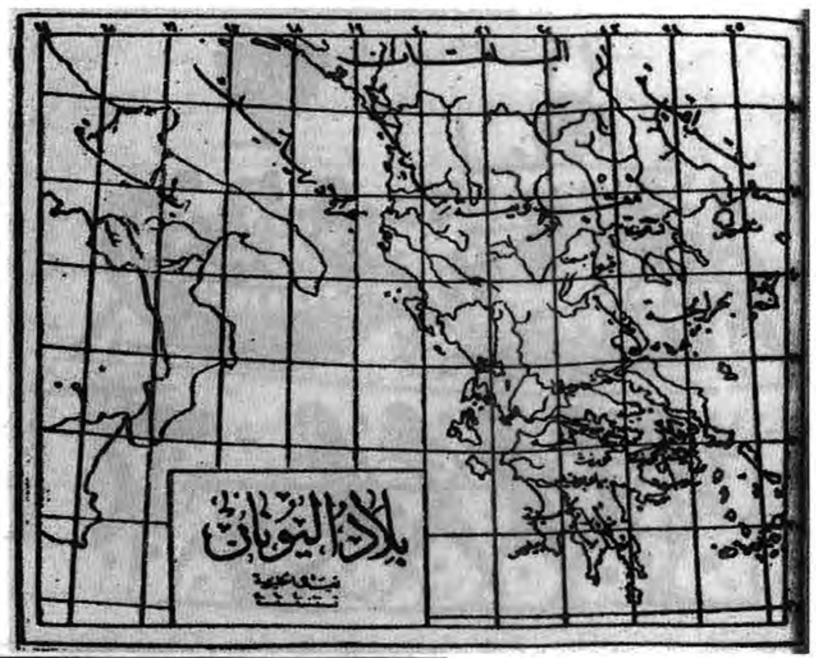
ومع هذه النزعة عند الإغريق إلى عدم الاتحاد والانضمام إلى دولة يونانية واحدة على الرغم من فشلهم في الحياة السياسية العملية فإن حضارة الإغريق قد حققت إنجازاً رائعاً من الخلق والإبداع في تأريخ الحضارات البشرية وكان لها تراث ضخم في جميع الحضارات التي أعقبتها. وسنأخذ طرفاً من مظاهر حضارتهم في الصفحات الآتية.



مشهد معركة بحرية في تأريخ اليونان القديم في عهد الملوك صوِّر على إناء فخاري جميل ويشاهد اسم الفنان الذي نقشه مكتوباً بالحروف (أرستونوثوس).



مشهد بيت عروس يونانية حيث تشاهد في الجهة اليمنى وبصحبتها صديقاتها. لاحظ الأزياء وأوعية الفخار المزينة المستعملة للأزهار.





تمثال «ديموسثينيز» الخطيب اليوناني الشهير الذي عاش في أثينا في عهد فيليب أبي الإسكندر وكان زعيم الحزب المناوىء لسياسة الاعتراف بسلطة فيليب على اليونان.

الفصل السابع والثلاثون

الحضارة الهلينية (الإغريقية)

يظهر مما عرضناه سابقاً من تأريخ اليونان أن تأثير اليونان وأهمية تأريخهم ليس من الناحية السياسية، وإنما في تراثهم الثقافي. ومع أن الإغريق صدّوا الفرس ولكن أهمية هذا الانتصار تنحصر في أنه مكّنهم من المحافظة على طراز حياتهم من أن يسحق بالطغيان الفارسي وبالاستعمار الأجنبي. كما أن الحروب الفارسية كانت إحدى طرق الاتصال المهمة بين اليونان وبين حضارات الشرق القديم. وقد امتاز الإغريق بانتشارهم من موطنهم وولعهم بالهجرة بهيئة تجار أو مستعمرين إلى جهات متأخرة في مضمار الحضارة، فنتج عن ذلك بث كثير من عناصر الحضارة اليونانية. وكان الرومان من بين الأقوام التي تعلّمت من الإغريق وعن طريق الرومان، في خلال العصور الوسطى، جاء تراث اليونان إلى العالم الحديث ولا سيما الحضارة الأوروبية. وإلى ذلك فإن هذه الحضارة الغربية قد تأثرت تأثراً عميقاً بالحضارة اليونانية بصورة مباشرة في عهد النهضة الأوروبية وإحياء المآثر الكلاسيكية. والحضارة الغربية تعد حضارة مشتقة من الحضارة اليونان ـ الرومانية، التي يصح أن نسميها بالحضارة «الهلينية». وقد ألمحنا سابقاً إلى علاقة هذه الحضارة بالحضارة المينية التي ازدهرت في جزر بحر إيجة، إذ أكدنا على صلتها بهذه الحضارة. وإلى هذا كله أخذت الحضارتان المينية والهلينية أشياء أساسية من حضارات الشرق القديم ولا سيما من حضارات العراق وحضارة مصر، ولكن فضل الإغريق مع ذلك كبير على البشر لأنهم أضافوا أشياء جد مهمة، وكلها من خلقهم وإبداعهم، ونخص بالذكر روح العلم الحديث والفلسفة وأشياء أخرى

لا تزال جزءاً مهماً من التراث البشري. ولعل أهم فرق بين الحضارات القديمة وحضارة الإغريق ليس في صحة المعلومات والملاحظات عن هذا الكون وكثرتها وإنما في المنهج وطريقة البحث بحيث يصح أن نعد الإغريق موجدي «منهج العلم» الحديث، وذلك بطريقة ملاحظاتهم واستخراج القواعد والضوابط لتفسير الحقائق المشاهدة، وتعليل الأشياء والحوادث بعلل لا تمتّ إلى الأساطير وما بعد الطبيعة بصلة. أي إنهم فصلوا اللاهوت عن العلم، وبحثوا عن علل الأشياء ضمن الحوادث الطبيعية. وسيتضح ذلك كثيراً في درسنا أهم المقومات في الحضارة الهلينية.

1 ـ الدين:

ونبدأ من حضارة الإغريق بدرس شيء موجز عن ديانتهم لتأثيرها العظيم في جزء كبير من نتاجهم الأدبي والفني بوجه خاص وفي حياتهم الاجتماعية بوجه عام.

وديانة الإغريق تشبه من وجوه كثيرة ديانات الحضارات القديمة في الشرق كحضارات العراق ومصر. فهي ديانة وثنية مبنية على الشرك أي تعدد الآلهة، وينسب الإغريق إلى آلهتهم الكثيرة، كما كان الحال عند قدماء العراقيين والمصريين، صفات البشر سواء أكان ذلك في شكلهم أم في عواطفهم أم حياتهم. وهذا ما سميناه بمبدأ التشبيه. فنجد الآلهة المذكورة في العصر الهومري تسكن في جبل شامخ في سهل «تسالية» هو جبل «الأولمبوس». واختص كل إلٰه بظاهرة طبيعية أو بأمر خاص من أمور الكون. وتؤثر الآلهة في مصائر البشر فكان الإلٰه «زوس» أو «زفس»، أبا الآلهة، حاكم السماء والجو وللإلٰه «بوزيدون» البحر، مثل الإلٰه البابلي «ايا» ولأبولو الشمس. وأفروديت إلهة الحب وتضاهي عشتار البابلية. وتعنى الآلهة بشؤون الأفراد الذين يقدمون لهم الخضوع والقرابين. وتريد الآلهة من الناس أن يكونوا أخياراً عادلين. ولكن اتّصفت الآلهة اليونانية بالقوة والبطش فينبغي للبشر أن يحصلوا على مرضاتها.

ومهما بدا دين الإغريق في العهد الهومري ساذجاً فإنه مع ذلك يمثل مرحلة تطورية بالنسبة إلى ما كانت عليه ديانتهم في العهود السابقة ولا سيما عندما كانوا في عهد البداوة والسذاجة، فكانت ديانتهم تتّصف على ما يحتمل بما يعرف بمبدأ الحيوية، كما هو الحال عند كثير من الشعوب البدائية. وفحوى هذا المبدأ كما مرّ بنا في الديانة البابلية عزو الحياة والقوة إلى مظاهر الطبيعة المختلفة. فقد كانوا يجسمون قوى الطبيعة القاسية ويستعطفونها ويسترضونها لدرء شرها وجلب مساعدتها. وعندما بدأ الإغريق يستوطنون السواحل الإيجية فيما بعد 1400 ق.م. اتخذوا بعض الآلهة التي وجدوها في مواطنهم الجديدة وأخذوا كذلك بعض الآلهة عن جيرانهم في آسيا مثل أفروديت التي انتشرت عبادتها من العراق القديم وأخذوا من الآلهة المصرية عبادة الإلهة إيسيس والإله «أوسيريس». ولكن عندما بدأ الإغريق وهم في عنفوان حضارتهم يفكرون في الكون بطرقهم الفلسفية أخذ الدين بالتفسخ والانهيار.

ومما يمتاز به الدين عند اليونان أنه لم ينتج في جميع أطواره نظاماً للكهنة أو الكتب المقدسة كما في بعض الأديان الأخرى. ولذلك سلم اليونان من شرور حكومة الكهنة الدينية (Theocracy) ولكن كانوا يقدسون بعض المآثر الأدبية التي صارت عندهم بمثابة الكتب المقدسة مثل مآثر هوميروس وهزيود. وكان رئيس العائلة هو الذي يتولى أمر عبادة الآلهة في معبد أو مذبح في بيت العائلة نفسها. وكان الفرد بوجه عام كاهن نفسه من ناحية العبادة. أما الكهنة الذين يخدمون في المعابد العمومية فكانت الدولة هي التي تستخدمهم. وبسبب سلطة الدولة الشاملة لم ينشأ في تأريخ اليونان نزاع بين رجال الدين والكنيسة وبين السلطة الزمنية على نحو ما حدث في تأريخ حضارات أخرى ولا سيما الحضارة المسيحية.

المعبد:

ونستطيع أن نجد أصل المعبد العام في قصر الملك. إذ لما كان

الملك، في عهد الملوك رأس المجتمع، فقد كان يقيم في ساحة قصره مذبحاً للعبادة فصار هذا معبد المدينة أي معبد دولة المدينة. وعندما انقضى عهد الملوك (فيما بعد 800 ق.م) واختفت مع الملوك قصورهم، حافظ الناس على تلك المزارات وعلى تماثيلها المعدّة للعبادة. وبنوا لهذا الغرض بيوتاً خاصة بالمزارات، فصارت هذه بيوتاً خاصة للعبادة، أي صارت معابد. وكانت التلول خارج أثينا، ولا سيما المرتفع المعروف بالأكروبوليس، مواضع سكنى الملوك المحصنة، وعندما اختفى الملوك صار «الأكروبوليس» موضع الآلهة المقدس وشيّدت عليه بيوت للعبادة كانت آية في النفاسة. وكان أشهر هذه المعابد «البارثينون» الذي كان عبارة عن معبد خاص بمدينة أثينا لعبادة إلهة خاصة كانت حامية أثينا وهي «بارثينوس» أي «أثينا العذراء» (انظر الشكل) ومثل معبد «الأيريخثيوم» آخر الفصل. وقد امتازت بعض معابد الإغريق الأخرى بكونها معابد وطنية عامة لجميع اليونان تقريباً. ومن بين هذه معبد «أبولو» في «دلفي» ومعابد أخرى في إقليم «الأولمبوس». وقد ساعدت مثل هذه المعابد الوطنية العامة بعض الشيء على تقوية وحدة الإغريق الوطنية الضعيفة، فقد رأينا كيف أن الإغريق لم يتحدوا اتحاداً سياسياً بل كانوا منقسمين على أنفسهم. وكان معبد (أبولو) في دلفي كذلك موضع العرافة والكهانة فكانت الإجابة على الأسئلة الخاصة بالتنبؤ والعرافة تأتي على لسان كاهنة المعبد وقد حملتهم الرغبة في التعرّف على مصائرهم وكشف المستقبل على أن يلتجئوا إلى طرق العرافة والكهانة كما كان الحال في حضارات الشرق القديم.

واعتقد الإغريق بعالم آخر وبحياة أخرى يُجازى فيها المسيء والصالح وكانوا يعتقدون بموضع للعذاب أو جهنم هي هادس (Hades)[1]، وكما كانت هذه داراً للعقاب فقد اعتقدوا بدار للثواب موضعها في «الجزر المباركة».

(1) وهادس أيضاً إله العالم الأسفل وأخو الإله زوس، ولليونان اسم آخر لإله العالم الأسفل هو «بلوتو» أو «بلوتون» (Pluto) الذي يضاهي الإله الروماني ديس (Dis).

ولكن أهم ما يمتاز به الخلود عند اليونان ولا سيما المتنورين منهم أنه خلود النفس وليس بعثاً للجسم المادي، بل إنه أشبه ما يكون بالتصوف الروحي. وكان من بين الوسائل للوصول إلى هذا الفردوس نوع من العبادة والرياضة السرية التي كانت تُقام في معبد في «ألوسيس»، ونشأت من ذلك طبقة من الكهنة أو الدراويش المتجولين الذين كانوا يعلّمون العامة أشياء غريبة. وقد دوّنت هذه الأمور في كتاب صار لدى أوساط الناس بمثابة الكتاب المقدس. ولكن انتشار التعاليم الفلسفية والعلوم التي بدأها الفلاسفة الأيونيون في ساحل آسيا الصغرى الغربي ولا سيما «مليطس» وتأثير روايات الأدباء المشهورين ولا سيما مسرحيات «أرستوفانيس» الكوميدية كل ذلك أدخل الشكوك والريب في قلوب كثير من عامة الناس، ومن باب أولى في خاصة الناس من الطبقة المثقفة فتزعزعت العقائد الدينية ونبذت الأساطير والخرافات والمتناقضات المعزوة إلى الآلهة. وسوف يتجلى لنا من بحثنا في الفلسفة اليونانية أن الفلاسفة كانت لهم آراؤهم ومعتقداتهم الخاصة، وهي تتّصف بخلوّها من خرافات العوام وأوهامهم. وسنجد بعضهم يقول بمبدأ التوحيد والحلول ويرفض بعضهم مبدأ التشبيه بالنسبة إلى صفات الآلهة في الديانة الإغريقية، أي عزو صفات البشر المادية والروحية إلى الآلهة. وعلى الرغم من خلو ديانة الإغريق من كتب مقدسة كما في بعض الديانات الأخرى غير أن الملاحم الشعرية المنسوبة إلى هوميروس كانت للإغريق كما نوّهنا بذلك بمثابة تلك الكتب المقدسة، إذ إنها حوت أخبار الآلهة وعلاقاتها بعضها ببعض وتأثيرها في شؤون البشر. هذا ولم يبق الإغريق في حالة واحدة من ناحية المعتقدات منذ الأزمان القديمة، فقد شرعوا منذ القرن السادس يفكرون في حياتهم وفي عصرهم وفي سلوك الإنسان والتمييز بين الصحيح والفاسد، وبين الخير والشر. ولم يعد الناس يصدقون أن الآلهة قد عاشت تلك الحياة الشريرة التي تصورها الأغاني الهومرية. وأخذوا يصححون آراءهم بالنسبة إلى الإله «زوس» وأتباعه من آلهة «الأولمبوس» ولا سيما بالنسبة إلى ما يعزى إليهم من أعمال الشر. وقد سببت آراء الفلاسفة الأيونيين تغيير كثير من العقائد بالنسبة إلى

الآلهة، وهم الفلاسفة الذين سنراهم يبحثون في هذا الكون وظواهره وفي الأشياء ويبحثون عن أسباب وعلل طبيعية لها. وقد استطاع بعض هؤلاء العلماء الفلاسفة، وهو طاليس (القرن السادس ق.م) من التنبؤ بكسوف الشمس بالاستعانة بالأثبات البابلية التي جمعها الفلكيون البابليون عن حدوث الكسوف. وقد حصل من ذلك على شهرة عظيمة ونتج من ذلك نتائج بعيدة المدى في نظر الناس إلى المعتقدات الدينية. فكانوا يعتقدون أن حوادث الكسوف وغيرها من ظواهر السماء إنما هي نتائج لغضب الآلهة وتقلب أطوارها. ولكن طاليس أظهر أن حركات الأجرام السماوية تجري وفق قوانين ثابتة.

وقبل أن ننهي البحث في ديانة اليونان نذكر التأثيرات الدينية الخارجية التي أثرت في حياة الإغريق الدينية. والواقع أن ميناء أثينا المسمى «بيروس» لم يقتصر على البضائع التجارية الصادرة والواردة بل إنه وغيره من طرق الاتصال بالخارج كان واسطة لنقل التأثيرات الخارجية إلى عالم الإغريق، ومن بين ذلك التأثيرات الدينية. فقد دخل بتلك الواسطة بعض الآلهة الغريبة من الحضارات الأخرى. من بينها «الإلهة الأم» من آسيا الصغرى بهيئة أفروديت أو سبيلة التي يرجع أصلها إلى وادي الرافدين، وجاءت الإلهة المصرية «إيسيس» كما ذكرنا من قبل، وكذلك دخلت عبادة الإلٰه المصري «أمون». ومما يذكر في ذلك أن الشاعر اليوناني الشهير «بندار» قد نظم قصيدة في تمجيده وأقام له تمثالاً. وصار أمون إلهاً للتنبؤ عن المستقبل وحاز عند الإغريق على شهرة عظيمة ضارعت شهرة «أبولو» إلٰه دلفي وسنقف من الكلام على الفلسفة اليونانية والأدب اليوناني على التأثيرات الداخلية التي غيّرت وحورت من ديانة اليونان.

وانتشرت بين اليونان جملة عبادات تقوم على طقوس وشعائر سرية، وكان بعضها على هيئة جماعات «أخوة» خاصة، والغريب في طقوس بعضها أنها تتصف بالتهتك والانغماس وبضعها يذهب إلى التطرف في سلوك

التقشف، فمن هذه الطقوس الغريبة الاحتفالات والطقوس التي كانت تُقام للإله «ديونيسوس» (Dionysus)، وهو إلٰه الكروم والخمر، واتّصفت هذه الاحتفالات بالتهتك في الشرب حيث يتمّ الاتحاد مع هذا الإلٰه، وقد أخذ الرومان هذه الطقوس حيث عرفت بالعبادة الباخية نسبة إلى «باخوس» (Bacchus) وهو اسم ديونيسوس أيضاً ولا سيما عند الرومان، وأثرت هذه العبادة والاحتفالات في فن التمثيل عند اليونان مما سنشير إليه في كلامنا على «الدراما» اليونانية، وعلى الضد من هذه الطقوس كانت العبادة الأورفية[1] تلتزم سلوك الامتناع والزهد، ولكن فيها شعائر سرية لتلقين التابعين لها وتعليمهم وإعدادهم، كما فيها طرق خاصة بالشعوذة لطرد الشياطين وأعمال السحر حيث كان يبشر بها نوع من الدراويش انتحلوا هذه العبادة حيث الاعتقاد بوجود السعادة الأبدية في حالة التزام التعاليم الخاصة بها وكذلك وجود العذاب الدائم والتناسخ وانتقال الأرواح. واشتهر الفيثاغوريون بالزهد والتقشف ولعلهم كانوا يعتقدون بالتناسخ حتى أنهم التزموا الأغذية النباتية وامتنعوا عن أكل لحوم الحيوانات لأن ذلك عندهم بمثابة أكل لحوم الإنسان.

2 ـ الفنون الجميلة (العمارة ـ النحت ـ النقش ـ الموسيقى):

يظهر الفن حالما ينشأ عند الأقوام البدائية قوى عقلية نشيطة وحس بالجمال وميل إلى التهذيب والذوق الأنيق، فتصير هذه الملكات عندهم وسيلة للتعبير. ومما لا شك فيه أن الإغريق تعلموا من الفنانين والصُنّاع الإيجيين. ولكن لم ينشأ عند الإغريق حافز التعبير عن أنفسهم بالفنون إلّا بعد أن اتصلوا مع الفن المصري والفن العراقي، ولم يبدؤوا بالإنتاج الفني إلّا في حدود 600 ق.م. حيث دخلوا

---

(1) (Orphism)، وأرفيوس (Orpheus) ومنه اسم العبادة، كان بحسب الأساطير اليونانية مغنياً وموسيقياً من تراقيا اشتهر بمهارته في التوقيع وشجاوة صوته بحيث إنه كان يحرك الصخور والأشجار، حتى أنه أطرب إلٰه العالم الأسفل «بلوتو» لمّا ذهب إلى هناك ليعيد زوجته إلى الحياة فوافق الإلٰه على ذلك بشرط ألّا يلتفت أورفيوس وراءه ولكنه أخلّ بهذا الشرط فلم يفلح في مهمته.

منذ ذلك التأريخ في طور الخلق والإبداع الفنيين اللذين ما زالا مصدر إلهام للبشر حتى يومنا هذا.

لقد جرت العادة بتقسيم الفن إلى صنفين: الفنون الرئيسية[1] وتدعى الفنون الجميلة وهي العمارة والنحت والنقش والموسيقى والفنون الصغرى أو الفرعية[2] كالصناعات الفنية مثل الفخار والحياكة وصناعة المعادن وغيرها من الفنون أو الصناعات الأخرى. ولكن هذا تصنيف اصطلاحي لأنه بوسعنا أن نحس بنفس الحاسة الفنية والذوق الفني بنتاج كلا الصنفين. فقد خلّف الإغريق لنا نماذج جميلة من أواني الفخار المنقوشة ومن أدوات البرونز وقطع النقود والأحجار الكريمة المصنوعة وغير ذلك مما نستطيع أن نستشف فيها نفس الإبداع والذوق اللذين نحسهما في الفنون الجميلة أو الفنون الرئيسية بحسب التقسيم الذي أوردناه. ولكن مع ذلك تتطلب الفنون الرئيسية مدارك عقلية أوسع وخيالاً أكثر وتحتاج كذلك إلى مهارة فنية مما جعل النقّاد يفردون الفنون الرئيسية بكونها المعيار الصحيح لمعرفة الذوق اليوناني والنبوغ اليوناني.

أ ـ الموسيقى والنقش:

أما ما يخص الموسيقى والنقش من هذه الفنون الجميلة فليس لدينا لمعرفتها إلّا الحزر والتخمين تقريباً، ذلك لأن الإغريق لم يخلفوا لنا شيئاً من بدائعهم في هذين الفنين. ويهون الأمر قليلاً في أمر النقش إذ بوسعنا أن نعرف بعض الشيء عنه من نقوش الأواني الفخارية ومن نماذج وأمثلة قليلة من العهد «الهلنستي»[3] وكذلك من نسخ رومانية. فالفخارون الذين عاشوا في أحسن العهود (فيما قبل 500 ق.م. وما بعد ذلك) كانوا كذلك نقاشين فنانين من

(1) Major or Fine Arts.

(2) Minor Arts.

(3) راجع البحث عن الحضارة الهلنستية.

الطراز الممتاز. وتبرهن أواني الفخار الجميلة التي خلفوها لنا على إتقان ومهارة عظيمين في الرسم وفي الألوان ويتجلّى فيها شعور راق بالزخرفة مما أضفى عليها سحراً خالداً.

ب ـ العمارة والنحت:

ومما يؤسف له أن المآثر الأصلية التي جاءتنا عن فن العمارة والنحت جزء ضئيل من الإنتاج الأصلي. فقد اندرس معظم المعابد والقليل الباقي منها كان في وضع متداع ماثل إلى البلى. وليس لدينا من فن النحت اليوناني الأصلي إلّا نسخ من العهود الرومانية باستثناء نماذج أصلية قليلة جاءتنا مثلاً من أجزاء من البارثينون و«الإيجينا» و«الأولومبيا» ومثل تمثال هرمز (انظر الشكل آخر الفصل).

ومما يقال عن العمارة عند الإغريق، إن الإغريق لم يكونوا بنائين من بناة الأبنية التذكارية الضخمة كما في حضارة مصر وحضارة العراق القديم. فقد كانت أثينا حتى في إبّان أدوار ازدهارها مدينة من الطراز المتوسط في الأبنية. وكانت بيوتها ذات طابق واحد مبنية من اللبن وشوارعها ضيقة متعرجة قذرة، ولكن مهارة اليونان في فن العمارة خصصت للمعابد والمباني العامة، وكانت تشيد في زمن الملوك من الخشب ولكن بنيت بالرخام والحجارة فيما بعد، ويمتاز المعبد اليوناني بروعته وبساطة تخطيطه وبصفوف عمده الجميلة، والأعمدة من خصائص العمارة الإغريقية التي لم تعرف العقادة والقوس، وزينت المعابد بآيات من فن النحت، وبوسعنا أن نقتفي بداية النحت من بداية القرن السابع ق.م. وبلغ ذروته ونضجه بعد أقل من ثلاثة قرون في منحوتات (البارثينون). ويمتاز النحت عند الإغريق أنه لم يقف على حال جامدة واحدة وإنما كان في اندفاع مستمر، ونستطيع أن نتبين ذلك جلياً من زمن النحات العظيم (فيدياس) الذي أشرف على بناء البارثينون (في حدود 430 ق.م) (انظر الشكل آخر الفصل) ونحاتي القرن التالي مثل «براكستيلز» (انظر الشكل آخر الفصل) و«سكوباس» ثم نحاتي القرن الثالث، إذ نلمس حركة مستمرة عند

النحاتين تتصف بالإنسانية الواسعة وبالاقتصاد العظيم في العمل ولكننا نشاهد كذلك أن الإخلاص في التعبير الذي اتّصف به النحاتون الأقدمون قد حلّت محله المهارة اليدوية. وإذا كان ليس في الوسع الدخول في تفاصيل أخرى عن الفن اليوناني فنكتفي بما ذكرناه ونضيف إليها ملاحظات أخرى نذكر فيها أبرز خصائص ذلك الفن وميزاته.

لقد ساق بعض الباحثين ثماني ميزات أساسية في النفس اليوناني[1] هي:

(1) الروح الإنسانية (Humanisim).

(2) البساطة (Simplicity).

(3) التناظر والتناسق والانسجام (Balance & measure).

(4) الواقعية أو التمثيل الطبيعي (Naturalism).

(5) نشدان المثل الأعلى (Idealism).

(6) الصبر (Patience).

(7) المتعة (Joy).

(8) الشركة (Fellowship).

ونعني بالميزة الأولى أن الفن اليوناني كان أول فن في التأريخ اهتم بتمثيل الإنسان ورفعه إلى مستوى عال، ويتّضح الاهتمام بالإنسان والإنسانية في الفلسفة التي أعقبت الفلاسفة الطبيعيين ولا سيما منذ سقراط، فصار الإنسان «مقياس جميع الأشياء»، ومثلوا الآلهة بأجمل أشكال الجسم الإنساني وتفننوا في إبراز أسمى ما في الجسم البشري من جمال ليبلغوا بمستوى صور الآلهة، وهذا ما تهدف إليه الميزة الخامسة أي نشدان المثل الأعلى في الفن

---

(1) The Legacy of Greece, p.353 ff.

ولا سيما في تمثيل جمال الجسم البشري. أما الميزة الثانية، أي البساطة، فإنها لا تعني السذاجة وإنما هي من قبيل السهل الممتنع في قوة التعبير ووضوحه ومفهوميته، مما يميز كبار الفنانين والأدباء والشعراء، وتعني أيضاً خلوّ الفن اليوناني مما يسمى بالرمزية أو الانطباعية، وأكثر ما يتجلّى ذلك في فن النحت. وتتجلّى الصفة الثالثة في وجود مبدأ التناسب والانسجام والإيقاع والتناظر. ولعل الإغريق كانوا أعظم شعوب العالم القديم في درسهم الطبيعة وشكل الجسم الإنساني وتشريحه. وعلى الرغم من نزوع النحات اليوناني إلى بلوغ المثالية في تمثيل الجسم الإنساني إلا أنه تميز بنجاحه في تمثيل الأشخاص والأفراد مما يصحّ تمييزه بالفردية (Individuality). وهذا ما تعنيه الميزة الرابعة أي التمثيل الطبيعي.

هذا وقد سبق أن نوّهنا بالميزة الخامسة وهي المثالية بنشدان الجمال في تمثيل الجسم الإنساني، وقد فاق الإغريق في تمثيل الجسم البشري جميع الشعوب الأخرى. وبإمكاننا أن نميز تأريخ الفن اليوناني بأنه كان في البحث عن الجمال، فأدركوا أن الطبيعة لم تنجح النجاح الكلي في إنتاج الجمال الفردي، بل هي دون المثل الأعلى، ولذلك فيلزم على الفنان أن يتعاون مع الروح الخالقة في تحسين ما أنتجته الطبيعة بإكمال نواقص إنتاجها. وتتجلّى هذه الروح حتى في ألعابهم الرياضية، فلم ينظروا إلى الرياضي على ضوء قابليته على القفز والنط والعدوى بل من ناحية رشاقة قوامه وشكل جسمه (form)، حتى أن جميع تمارينهم الرياضية كانت تجري على أنغام الناي. وقبل أن نترك الكلام عن هذه الميزة ننوّه بأمر مهم في تقدير الفنانين الإغريق لجمال الجسم البشري، فقد كان نشدان الجمال مركّزاً على جسم الذكر أكثر من جسم الأنثى، بل إن تمثيل الجسم الأنثوي قد تأخر في الفن اليوناني بعد عهود تمثيل أجسام الذكور، ومع ظهور هذا التمثيل فإن الفنانين الأيونيين والأتيكيين لم يجرؤوا على تمثيل جسم الأنثى عارياً بعكس أجسام الرجال. ولكن الفنانين في العهود الأخرى مثل «سكوباس» (Scopas) و«براكسيتيلز» مثلا إلهة الحب على هيئة امرأة عارية. وقد صارت تماثيل الإلهة أفروديت من القرن الرابع

ق.م. مثالاً لجمال جسم الأنثى عند مختلف المدارس الفنية إلى الأزمان الحديثة، ويوجد تمثال للإلهة أرطميس هو مثل أعلى آخر على جمال جسم المرأة. والطريف ذكره بهذا الصدد أن أحد الفنانين كلف بصنع تمثال لإحدى الإلهات فجمع هذا أجمل عشر فتيات ودرسهن فركب من صور الجمال التي كوّنها في ذهنه صورة مثالية لما ينبغي أن يكون عليه المثل الأعلى للجمال.

ولا حاجة بنا إلى إسهاب القول في الميزات الأخرى كالصبر، فقد كان الفنان الإغريقي فناناً ينتج للمتعة وليس للتجارة فلم يبال بصرف الوقت، ويروى عن أحد فناني الإغريق أنه صرف سبع سنين في إنجاز شكل واحد، والمرجّح أنه لم يكن ليضجر من صرف أعوام أخرى لو رأى في ذلك مما يزيد في كمال تمثيله. وتتصل بهذه الميزة الميزة السابعة وهي الفن من أجل المتعة وإشباع الحس الفني حيث اللذة والحبور في الإنتاج الفني، إذ كان الفنان يستمتع بنتاج المتعة واللذة، وليس أدلّ على ذلك من صرف الجمهور أوقاته في مشاهدة الروايات التمثيلية من الصباح إلى المساء.

ونعني بالميزة الثامنة، أي روح التعاون والشركة، ما كان يتحلّى به الفنانون من التعاون في الإنتاج الفني ويتّضح ذلك في تجميل المعابد وتزيينها بالمنحوتات مما كان يشترك به عدة فنانين.

3 ـ الأدب اليوناني:

أ ـ الأشعار الهومرية:

ظلت قصة انتصار الإغريق على طروادة في ذاكرة خيال المنتصرين وفي أفكارهم زمناً طويلاً. فأنشأ شعراؤهم الأغاني الشعرية لتخليد أعمال أبطالهم، فكانت هذه تنشد في قاعات الملوك والنبلاء وانتشرت هذه الأغاني من بلاد الإغريق إلى المواطن الأيونية في سواحل آسيا الصغرى. وكانت الكتابة أي التدوين غير معروفة عند الإغريق، ولكن توارث الناس تلك الأشعار جيلاً عن جيل بالرواية. وكان كل جيل يضيف إليها عناصر وأشياء جديدة وحدث في

الأغاني الأصلية حذف وتغيير فتحورت الحقائق والوقائع الأصلية ولم يحتفظ الناس إلّا بالأشياء المثيرة للشعور المغذية للعواطف وللحاجات النفسية، فاكتسبت هذه القصص مظاهر خارقة للعادة وفوق أعمال البشر. أي إنها دخلت فيها أعمال الآلهة والقوى فوق الطبيعة. وكانت الآلهة في تصور الإغريق كوائن فوق البشر أو أنهم بشر سامون (سوبرمان)، فأخذت الآلهة تطغى شيئاً فشيئاً على قصص الأبطال والملاحم. وهكذا نشأت مجموعات من أشعار الملاحم ما بين 1000 و700 ق.م. تدور على تأريخ اليونان القديم وعلى علاقة الآلهة بشؤون البشر وتأثيرها فيها. وكان أشهر جزء من هذا التأريخ «حرب طروادة» التي جاءنا عنها نموذجان كاملان من تلك الملاحم الشعرية. ولكن ينبغي لنا ألا نغفل شأن الملاحم الأخرى مثل القصص المتعلقة بمدينة طيبة وهي القصص التي أخذت الروايات المسرحية منها أشياء كثيرة واشتق منها كثير من الآداب الرومانية.

فمن الملاحم المشتقة من حروب طروادة التي ألمحنا إليها مجموعتان من الأشعار عرفتا «بالإلياذة» و«الأوديسة» وهما اللتان تعزيان عادة إلى هوميروس. ولكن الواقع أننا لا نعرف شيئاً مؤكداً عن هوميروس حتى أن وجوده وشخصيته التأريخية مشكوك فيهما بيد أن اسم هوميروس معروف بكونه من المغنين المشهورين في عهد الأبطال والملاحم فقرن هذا الاسم بهاتين المجموعتين وظل كذلك عندما دوّنتا. ومما يقال عن الإلياذة والأوذيسة إنهما خير مثالين جاءانا من الملاحم والأشعار الشعبية التي تعكس لنا عادات الإغريق وروحهم الوطنية في إبان نشوء حضارتهم على أنقاض الحضارة الإيجية. ثم إنهما لم ينفرد في نظمهما وتأليفهما شخص أو شاعر واحد، وإنما هما مجموعات من الأغاني الشعبية القومية، ولكنهما جمعتا من تلك المصادر على نحو ما نجد في مجموعة القصص المعروفة بألف ليلة وليلة. ويصحّ على ذلك أن نقول إن مؤلفي هذه الأشعار هم الشعراء المغنون وجماهير الناس فقد ساهم الشعراء بالنظم والجماهير بالاستماع إليها واستحسانها وطبعها بذوقهم وميولهم ولكن فيها علاوة على

ذلك أفكار اليونان وآراؤهم عن الآلهة وقد عدّها الإغريق الذين عاشوا فيما بين 700 ـ 400 ق.م. سجلاً مهماً عما كان يعتقده أجدادهم وكذلك بالنسبة إلى عقائدهم أيضاً، فكانت لهم بمثابة الكتابات الدينية عند اليهود، إلا أن سر القوة في تلك الأشعار لم يأت من وحي إلٰهي جاء إلى أنبياء كأنبياء كتب اليهود الدينية وإنما تكمن قوة تلك الملاحم في سحر شعرها وخيالها وفي أدبها الرفيع الذي أسر ألباب الإغريق وتمكّن من مشاعرهم. وإلى ذلك كانت الأشعار الهومرية تراثاً عاماً لجميع الإغريق فصارت بذلك من العوامل المهمة في التخفيف من روح الانقسام التي طغت عليهم وحالت دون وحدتهم السياسية.

ب ـ الأشعار الغنائية:

كان الشعر لدى الإغريق يختلف عمّا هو عليه في الأشعار الأوروبية الحاضرة التي هي نتائج أدبي لغرض القراءة. ولكن الشعر عند الإغريق كان نوعاً من الموسيقى لأنه كان يغنى به على الدوام سواء أكان بصوت إنسان على توقيع القيثار[1] أم جماعة من المغنين ينشدونه في الأعياد المختلفة الخاصة بالآلهة، ويكون النوع الثاني بمثابة العبادات الدينية عند الإغريق وقد مهّد السبيل لظهور فن الرواية التراجيدية عندهم كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد.

وقد اشتهر من شعراء الشعر الغنائي جماعات نشأ أكثرهم في جزر بحر إيجة وليس في بلاد اليونان الخاصة ومنهم «أليكوس» من جزيرة «ليسبوس» (في حدود 600 ق.م)، وقد نظّم ببحر خاص من الشعر اشتهر باسمه[2] وقد قلّده ونظم فيه الشاعر الروماني «هوراس». ونظّم «ألكيوس» في مواضيع مختلفة في الحب والحرب والأسفار. وكانت تعاصره الشاعرة المشهورة

---

(1) أي (Lyre) ومن ذلك (Lyric Poetry) وهو الشعر الغنائي.
(2) (Alcaics).

«سافو» (في حدود 600 ق. م) التي رفضت حبه وهيامه بها. وكانت هذه شاعرة كذلك من جزيرة «ليسبوس» وعدّت أعظم شاعرة، واشتهرت أشعارها في العهد «الهلنستي» والروماني ونظمت في بحر خاص اخترعته ودعي باسمها[1] وقد قلّده كذلك بعض شعراء الرومان وقد طغى موضوع الحب على أشعارها. وكان الحب عند الإغريق بوجه عام يختلف عن مفهومه في وقتنا هذا، فلم يكن ليعني عندهم حب رجل لامرأة بل كان عندهم نوعاً من الصداقة المتسامية أو عاطفة شديدة يحملها بشر لبشر آخر، وكان كذلك نشدان الجمال في الجسد والروح أما الجمال فلا ينحصر عندهم بجنس المذكر أو المؤنث بل إنه صفة إنسانية كثيراً ما يجده الرجال بين الرجال والنساء بين النساء. وعلى ضوء ذلك ينبغي أن نفهم أشعار «سافو» وغيرها. وامتازت أشعار هذه الشاعرة بحرارة العاطفة المتأججة وبالصراحة والعنف في التعبير ثم بالبساطة.

اشتهر في الشعر اليوناني نوع خصص للتغني والإشادة بالرياضيين المنتصرين في الألعاب الرياضية المشهورة ولا سيما الألعاب الأولمبية و«الفيثية»[2] وكان لهذه الألعاب صفة دينية حيث كانت جزءاً من الأعياد الدينية. فالألعاب الأولمبية مثلاً خصصت لتمجيد الإله (زوس) و(الفيثية) خاصة بالإله (أبولو). وقد نظم كثير من شعراء اليونان الأغاني لتمجيد المنتصرين فمن هؤلاء الشعراء الشاعر المشهور (بندار) (Pindar) الطيبي (520 ـ 440 ق.م) الذي اشتهر كذلك بتغنيه بالجمال وأودع أشعاره تلاحين وإيقاعات لذيذة وموسيقى خاصة جعلته من أصعب الأشعار عند ترجمته إلى لغة أخرى. وقد قلّد (بندار) شعراء كثيرون واستوحى منه شعراء فرنسا في القرن السادس عشر. ومن الأشعار الإغريقية كذلك أشعار الروايات التراجيدية التي سنأخذ عنها بعض الشيء.

---

(1) Sapphic Stanza.

(2) Phytian.

ج ـ التراجيدي (المأساة):

منشأ الرواية التراجيدية[1] عند الإغريق من الأشعار الغنائية التي كان ينشدها جماعة من المغنين (Chorus) مصحوبة بالرقص والإيقاع وعندما أدخل شخص قصاص وظيفته توضيح القصة الشعرية وإضافة شخص ثانٍ إلى القصاص نشأ ما يعرف بالمحادثة الثنائية (Dialogue) ونشأ فن الرواية التراجيدية. وكانت تلك الأغاني تغنى في مناسبات دينية أشهرها أعياد خاصة بالآلهة مثل عيد الإله (ديونيسوس) ابن الإله (زوس) وإله الخمر الذي يقابله عند الرومان الإله (باخوس). وبوسعنا أن نحلّل التراجيديا الإغريقية إلى ثلاثة أمور مهمة:

أولاً: كانت احتفالاً دينياً. وثانياً كان هذا الاحتفال عاماً أي خاصاً بالمجتمع. وثالثاً كانت احتفالاً موسيقياً وبذلك يدخل فيها الدين والدولة والفن فبوصفها احتفالاً دينياً كانت مخدودة من جهة الموضوع وطريقة التمثيل فكان يتطلب منها أن تروي عن أبطال الأساطير وتشيد بالآلهة وقوتها وحولها ويجب كذلك أن يدخل فيها عنصر مهم هو رقص المغنين وهو الرقص المستمد من عيد الإله «ديونيسوس». والحقيقة أن هذه القيود كانت لفائدة المؤلف إذ يكون بها على بيّنة من ذوق مستمعيه وتجعل موضوعه ذا وحدة معلومة واتجاه معلوم. وأفادت صفة التراجيدي الثانية كذلك في ترقية هذا الفن، إذ بمشاركة المجتمع فيها دخل فيها عنصر التنافس بين المؤلفين، فكانت الروايات تُقام مثلاً في كل ربيع وكان يجري فيها نوع من الاختيار بتصويت الجمهور ومنح الجائزة لمن يحوز على رضا الجمهور. وكانت تمنح جائزة أخرى لجماعة المغنين، ويشترك في هذه المناسبات مئات من الجمهور وتكون التراجيدي

---

(1) كلمة تراجيدي (Tragedy) إغريقية ولا يعلم بوجه التأكيد أصل اشتقاقها ويظن أنها مركبة من الكلمتين الإغريقيتين (Tragos) أي عنزة و(Ode) أي أغنية، ولعل ذلك ناشيء من لبس الممثلين جلد العنزة في أثناء الرواية لتمثيل الإله «ساتير» (Satyr) الذي تمثل أجزاء من جسمه بهيئة العنزة.

وكذلك الكوميدي على ذلك بمثابة ناد للتمثيل اهتم بترقيته وليس في الإنتاج التجاري. فكانت الروايات تهدف إلى المثل العليا للجمهور. فإذا أراد مؤلف أن تنجح روايته فيجب عليه أن يودعها هذه المثل ويمثل فيها رغبات الشعب وعقائدهم وحاجاتهم وآمالهم. أما الناحية الموسيقية فيها فقد جعلتها أشبه ما تكون «بالأوبرا» ولنقل إنها مثل «الأوبرا» المعروفة باسم «برسيفال» (Parsifal) لمؤلفها «واجنر» الشهير حيث تشترك فيها الموسيقى والكلام والغناء والتمثيل.

ولنأخذ الآن أشهر شعراء التراجيدي عند اليونان:

إيسكيلوس:[1] (525 ـ 455 ق.م)

وكان هذا هو الذي أدخل ممثلاً ثانياً[2] بالإضافة إلى الممثل الأول[3] (أي الذي سميناه بالقصاص). وامتازت رواياته القديمة بقلة التمثيل وكثرة غناء المغنين، ولكن حقق في رواياته الأخرى التالية التناسب بين التمثيل والغناء[4]. ومما يقال في «إيسكيلوس» إنه مثل الشاعر «بندار» يمثل العهد القديم، فإنه يمتاز بمزاج ديني فهو طالما «فسر الشقاء والبؤس بأنها نتيجة للذنوب والآثام».

سوفوكلس: (Sophocles) (496 ـ 406 ق.م)

وقد خلف (إيسكيلوس) ويمتاز عليه بتقدم فنه التمثيلي، وقد أضاف إلى رواياته ممثلاً ثالثاً فزاد عامل التمثيل وامتاز في حَبْكِ مواضيع رواياته فزادت قابليته «الدراماتيكية». ولكن يكمن سر عبقريته ومجده الفني بتفسيره عاطفة

---

(1) (Aeschylus).

(2) (Deuteragonist).

(3) (Protagonist).

انظر Wil Durant; The Life of Greece, 383 ff.

(4) ونجد ذلك جلياً في روايته المشهورة (Prometheus Boud) وروايته آغا ممنون (Agamemnon). والمشهور أنه ألّف سبعين دراما (ويروى تسعين)، لم يأت إلينا منها سوى سبع روايات.

الإنسان وميوله على ضوء الخبرة البشرية الواسعة العامة. وهذه في الحقيقة أعظم ميزات الأدب الكلاسيكي. فلم يعن هذا الشاعر وغيره بفرد خاص من الناس وفي حال معيّنة خاصة من الحياة البشرية ولكن بالإنسان مطلقاً، أي البشر جميعاً وفي أحوال عامة تحدث لجميع الناس والبشر. فمواضيع «سوفوكلس» مثلاً مواضيع المأساة العامة الخالدة التي تحدث في هذه الحياة لبطل الرواية لضعف أو نقص فيه، وهو شخص نبيل كريم لولا هذه النقائص في شخصيته، ولكن يكمن وراء كل ذلك سر القدر ولغزه. ويشبه هذا الشاعر سلفه «إيسكيلوس» في نزعته الدينية، فكان دأبه وديدنه تبرير أعمال الآلهة بالنسبة للإنسان. وعلى ذلك فتكون أغراض رواياته أخلاقية بالدرجة الأولى ترمي إلى إظهار قيمة الصلاح والعدل والفضيلة وهذه أمور كانت لدى الأثينيين مرادفة للجمال كذلك أو أنها لا تتضارب مع الجمال وبذلك حقّق «سوفوكلس» في رواياته دمج الفضيلة بالجمال. وقد أحبه الأثينيون حتى أنه نال الجائزة الأولى والثانية ثماني عشرة مرة وقد غلب الشاعر «إيسكيلوس» وهو في سن الثامنة والعشرين.

ومن رواياته المشهورة عدا ما ذكرنا «الملك أوديبوس»[1] (أوديب).

يوريبيدز: (Euripides) 480 ـ 406 ق.م):

وكان هذا معاصراً للشاعر سوفوكلس. وهو أول من عبر عن التيارات الجديدة والاتجاهات الحديثة في حياة الأثينيين التي كانت تتجه بالدرجة الأولى إلى المذهب الواقعي والعقلي[2] فلم يحظ بالشهرة الشعبية كما كان عليه الشعراء الأقدمون، فكان أقرب إلى الحياة العصرية الحديثة من أسلافه الذين خالفهم بأن عني بتمثيل عواطف أشخاص حقيقيين، وأنزل أبطال رواياته

---

(1) (Oedipus Rex) و(Oedipus Tyranus) وتدور هذه الرواية على الأسطورة الإغريقية في قتل أوديب أباه وتزوجه بأمه وقد اشتقت من اسم «أوديب» العقدة النفسية عند أصحاب التحليل النفسي في علم النفس. والمأثور عن سوفوكلس أنه كتب 113 رواية لم يأتنا منها سوى سبع روايات.

(2) (Realism) و(Rationalism).

إلى منزلة الناس الحقيقيين الذين كانوا في زمنه حتى وجد أوساط الناس وجمهورهم محلاً لهم في رواياته ولا سيما في وصفه النساء وتحليلهن، وقد أظهر في هذه الناحية مقدرة في معرفة النفس البشرية. وإذ كان إيسكيلوس وسوفوكلس ذوا نزعة دينية وعقيدة راسخة بالآلهة كما يظهر ذلك في إظهار أقدارهم المقدسة في حياة الناس، فقد كان عقل يوريبيدز وقلبه قد تملكتهما الشكوك والريب. فلم ير الحياة كما رآها سلفاه بسيطة مطردة مفهومة. وقد أثار الفلاسفة ولا سيما السفسطائيون منهم الشكوك بين الناس وكانت المسائل التي أثاروها تتطلب حلولاً عقلية مستمدة من تجارب الإنسان وحياته ومعارفه وليس من قضاء الآلهة وقدرها. ولذلك امتازت روايات يوريبيدز بتعقيدها في تحليل الحوادث وبتعدد نواحيها وأوجهها مما جعلها عصرية حديثة. ومن موضوعاته المحببة له الصراع المحتدم في داخل الفرد، صراع الحب والعاطفة، وصراع الحب والإخلاص والحب والواجب وكان بمثابة فولتير في عصر التنوير الإغريقي، وتأثر بتعاليم السفسطائيين واشتهر بإدخاله إلى فن المرسح ما يُعرف باسم «الإلٰه من الماكنة» (deux ex machina) أي إدخال شخصية تمثل الإلٰه لحل بعض حوادث الرواية وليضفي التدين والاعتقاد بالآلهة في رواياته، مغطياً بذلك على سخريته وازدرائه بمعتقدات القوم بالآلهة. وقد استطاع سقراط أن يجد حلولاً لشكوكه قبل أن يوافيه الأجل[1].

د ـ الكوميدي:

منشأ الكوميدي الإغريقية مثل «التراجيدي» من الأعياد الدينية ولا سيما الشعائر الدينية المصحوبة بالرقص والتمثيل الخاصة بالإلٰه «ديونيسوس». ولكنها نشأت بعد التراجيدي، ولذلك فبالرغم من أخذها شيئاً كثيراً من طرق التمثيل القديمة فإنها فقدت جميع العناصر الدينية فيها وصارت روايات انتقادية هزلية للتسلية والمتعة. وقد اعتاد المؤرخون على تقسيم تأريخ الكوميدي

---

(1) تنسب المآثر إلى يوريبيدز أنه ألّف (75) رواية لم يأت إلينا منها سوى (18) رواية. انظر .Wil Durant, Op. Cit., 401 ff

الإغريقية إلى ثلاثة عهود: الكوميدي القديمة (إلى 400 ق.م). والكوميدي الوسيطة (400 ـ 336 ق.م) والكوميدي الحديثة (336 ـ 250 ق.م) ولعل أبرز ما تمتاز به الكوميدي القديمة سلاطة سخريتها وبذاءتها وابتذالها وإسفافها إلى هزل الغوغاء، وكانت تتّسم بطابع أعياد السكر والعربدة التي نشأت منها وقد وجهت السخرية والانتقاد إلى شخصيات معروفة ومشهورة لدى الجماهير ولكنها اتسعت أغراضها الانتقادية فشملت جميع الآراء السياسية والفلسفية في زمنها ومن ناحية الفن آل تطورها إلى تمثيلية موسيقية، وكان من مشاهير عهد الكوميدي القديمة «أرستوفانيس» (445 ـ 388 ق.م) الذي جاءنا من رواياته الأربعين إحدى عشرة رواية، وتدور رواياته على الانتقاد الهزلي والسخرية، ولكنها لا تنتهي بهذا الغرض وإنما كان يحمّلها من الصناعة اللغوية الشيء الكثير ولم يكن لهزله وسخريته حدود تقف عندها حتى أنه طالما نعت بالكاتب البذيء، ولكن تتوقف هذه الصفة في الواقع على أذواق أهل الجيل ومشاربهم التي تتغير من عهد إلى عهد. وفي رواياته ميزات أخرى خاصة ظاهرة أهمها النقد اللاذع القوي المنصب على الناس وعلى العادات ويظهر ذلك جلياً في سخريته من الأوضاع السياسية في دولة أثينا في عهده في أثناء الحروب البيلوبونيسية حتى أنه جعل السلم يحلّ في إحدى رواياته بنتيجة إضراب النساء عن أزواجهن وامتناعهن عنهم وقد كانت رواياته الأخيرة انتقالاً إلى الكوميدي من العهد المتوسط حيث حدثت في هذا الفن تغييرات أبرزها التقليل من أدوار المغنين ولعل ذلك قد نشأ بنتيجة اندحار أثينا في حربها مع إسبارطة (404 ق.م) وحذف الانتقاد الشخصي وقد حدث ذلك بقانون حرم السخرية من أشخاص معينين، ثم انتظام الموضوع ووحدته، ومما يؤسف له أنه لم يخلف لنا شعراء الإغريق نماذج من رواياتهم الكوميدية في هذا العهد وكذلك الحال في الكوميدي الحديثة ويمثل روعة الكوميدي الحديثة الشاعر «ميناندر»[1] (342 ـ 291 ق.م) ولكن سبيلنا للتعرف على رواياته من تقليد شعراء الرومان

(1) (Menander).

لها من أجزاء أصلية اكتشفت حديثاً. ولعل أول شيء نلاحظه الذوق الرفيع والأناقة ودقة الملاحظة في فهم أوضاع المجتمع وفهم الطبيعة البشرية مع العطف عليها واحتذت على مثاله أوروبا في عهد النهضة أولاً في إيطاليا ثم في فرنسا (كما في روايات موليير) وبالتالي في أوروبا جميعها وفي أمريكا كذلك.

العلم والفلسفة والتاريخ:

أ ـ العلم:

لقد سبق أن نوّهنا بفضل الإغريق على البحث العلمي الحديث بجمعهم حقائق ومجموعات من المعارف وتنظيمها وسوق العلل لتفسيرها، وقد استفاد الإغريق كثيراً من المعارف والمعلومات الكثيرة التي وصلت إليها حضارات الشرق القديم ولا سيما حضارة وادي الرافدين ووادي النيل.

كان الإغريق الأقدمون البدائيون يصفون الظواهر الطبيعية بلغة الأساطير وكانوا يعزون جميع ما يحدث في الكون وهم مدفوعون بالشعر والخيال إلى أفعال الآلهة نفسها مباشرة دون أن تنتج عن أسباب صادرة منها. إلّا أن الإغريق الأيونيين كانوا، بسبب قربهم من مراكز الحضارات القديمة، أول من خطا خطوات أخرى وتعدى دائرة الأساطير في تعليل حوادث الطبيعة وظواهرها وقد عاش في مدينة «مليطس» في حدود 600 ق.م. جماعة من المفكرين أولهم طاليس المشهور الذي شغل تفكيره بالبحث في المادة وفي جوهر الأشياء. وقد جهد هؤلاء المفكرون في تفريد مادة عامة وتجريدها من بين جميع الموجودات وجعلها المادة الأولى في تركيب الأشياء وفي تفسير اختلافاتها وتغيراتها. فرأى طاليس في عنصر الماء هذه المادة الأولى. ولكن نظرية العنصر الواحد هذه فنّدها مفكّر محدث هو «أمبيدوقلس» الذي قال بنظرية العناصر الأربعة: أي التراب والهواء والنار والماء لتفسير الظواهر الطبيعية المختلفة وقد اعتقد في هذه العناصر الأربعة أنها غير مشتقة أي بسيطة لا تفنى ولا تتغير من حيث الكيف، ولكن لها قابلية الانقسام الميكانيكي

والحركة فتستطيع أن تغيّر في نسبها وتركيبها. وتتألف الأشياء من هذه العناصر البدائية بنسب مختلفة وتفنى الأشياء بانفصال هذه العناصر بعضها عن بعض.

وقد نشأ عن هذه النظرية بمرور الزمان النظرية الذرية التي قال بها بعض فلاسفة الإغريق ولا سيما «لوسيبوس» و«ديموقريطس»، وأساسها الاعتقاد بوجود عدد غير محدود من الجزئيات غير المرئية تسمى ذرات (Atoms) تتحرك في فراغ غير محدود. وتتّحد هذه الذرات لتكوين الأجسام والأشياء الموجودة في الكون. فالشيء ليس إلّا مجموعة من الذرات. وتتّصف هذه الذرات بتشابهها وعدم اختلافها من حيث الكيف ولكنها تختلف من حيث الحجم والشكل وأن هذه الفروق الكمية في المادة الأولى كانت عند الفلاسفة الذريين كافية لتفسير أنواع الأشياء والموجودات التي لا حصر ولا عدّ لها ومن بينها الشعور والفكر والنفس. ولعل هذه النظرية الذرية أقرب ما وصل إليه العلم الحديث من جميع النظريات التي قال بها فلاسفة الإغريق في تفسير الظواهر الطبيعية ولكن مع ذلك كان في نظريتهم نزعة ميتافيزيقية أكثر من النزعة العلمية. ويعزى ذلك إلى أن هؤلاء العلماء الإغريق لم يحققوا نظرياتهم وفرضياتهم بالاختبار والامتحان ولذلك فكان علماؤهم فلاسفة وظل علمهم فلسفة محضة.

ولما كان العلم والفلسفة شيئاً واحداً تقريباً عند مفكري اليونان فإننا سنقف من كلامنا عن بعض فلاسفتهم على بعض الأمور المهمة مما وصل إليهم هؤلاء المفكرون في حقل العلوم والمعارف. ولكننا نذكر هنا شيئاً موجزاً عن العلوم الرياضية في الحضارة اليونانية. ولعل أول شيء بارز في تأريخ الرياضيات عند اليونان ما سبق أن ذكرناه في الكلام عن الرياضيات في حضارة وادي الرافدين من أن عبقرية اليونان تفرّدت بالشكل (الهندسة) دون العدد بخلاف الرياضيات في وادي الرافدين التي بدأت بداية جبارة واتجهت الاتجاه الصحيح، ولكن حيد الإغريق عن هذا الاتجاه الصحيح كان في الواقع انتكاساً في سير تطور الرياضيات، مع أن المرجح كثيراً أن اليونان وقفوا على

تراث البابليين في الجبر، ولكن الحضارة اليونانية ـ الرومانية لم تهتم بالجبر إلّا في القرن الثالث للميلاد على يد بعض رياضيي اليونان مثل «ديوفانتوس» (ديوفنطس). والذي يعجب له أنه حتى الذين اهتموا منهم بالعدد مثل الفيثاغوريين لم ينظروا إلى العدد نظرة علمية واقعية بل نظرة تقديس أو نظرة صوفية. ومع هذه النقائص فللإغريق فضل كبير في تطور المعارف البشرية لا سيما في بحثهم المنظم واهتمامهم بالبرهان والتدليل ووضع القواعد والنواميس العامة مما يميِّز منهج العلم الصحيح، ويتجلى ذلك في هندستهم ونظرياتهم الهندسية وأنهم مع احتمال أخذهم الكثير من الحقائق الهندسية من حضارات الشرق القديم إلا أنهم برهنوا على هذه الحقائق وحققوها ووضعوها بهيئة قواعد عامة.

ب ـ الفلسفة:

ومما تجدر ملاحظته أن كلمة العلم (Science) ليست من أصل يوناني. فقد أطلق المفكرون اليونان الذين بحثوا في الأشياء وفي أصلها وفي العناصر الأولى على بحوثهم اسم «الفلسفة»، وهي كلمة يونانية مركبة تعني «حب الحكمة»[1]، وبذلك كان «حب الحكمة» هذه أي الفلسفة عند مفكري اليونان يشمل البحث في الظواهر الطبيعية الذي ندخله في العصر الحديث في دائرة العلم، أما التفكير والنظر في تجاريب البشر وحياتهم وفي الغايات والعلل الأصلية فندعوه الآن فلسفة. ولذلك ينبغي لنا أن نفهم من الفلسفة الإغريقية

---

(1) تنسب المآثر إلى فيثاغورس (الذي أسس جمعية أو أخوة فلسفية في جنوبي إيطاليا في منتصف القرن السادس ق.م) أنه أول من استعمل مصطلح فلسفة. وأصل نشوء هذا المصطلح من رأي اليونان في أن الإنسان يحتل مركزاً وسطاً بين الله والحيوان. فبالقياس إلى الآلهة يكون مجرد مخلوق معرّض للخطأ والضلال والموت والفناء، ولكنه بالمقارنة مع الحيوانات ذو مركز رفيع مستعد للفهم والإدراك وبما أن الإنسان معرّض للخطأ والضلال فيستحيل عليه إدراك «الحكمة» (Sophia) بكامل معناها، لأن ذلك خاص بالله وحده. ولكنه مع ذلك فإذا لم يستطع أن يكون حكيماً فبإمكانه أن يكون محباً للحكمة أي (Philo-Sophus) متمثلاً بالله بقدر الإمكان كما يقول أفلاطون في «طيماؤس» .(The Legacy of Greece, 27)

هذين الشيئين وهما البحث في ظواهر الطبيعة الذي بدأ به الفلاسفة الأيونيون مثل طاليس وغيره وكذلك البحث في القضايا الخاصة بأصل الحياة ومعناها، وهي القضايا التي كان أول من عني بها جماعة من المفكرين عرفوا بالسفسطائيين. وبالإجمال كان مفهوم الفلسفة لدى اليونان جهوداً جدية رزينة من جانب المفكرين لفهم العالم والإنسان وهدفها الرئيسي اكتشاف الطريق الصحيح في العيش والحياة وحمل الناس على السير فيه. وكان الفلاسفة السفسطائيون في القرن الخامس ق.م. أشبه ما يكونون بمحاضرين جوالين يجوبون في جميع بلاد اليونان، فيقفون في الأسواق وفي المواضع الأخرى التي يجتمع فيها الناس ويخطبون بالجماهير في شؤون تشغل بالهم مثل النفس أو الروح والسعادة والحياة وما بعد الموت. وكانوا إلى ذلك يعلمون الخطابة والبحوث السياسية. وظهر أخيراً مفكّر أثيني لم يتجول كما فعل السفسطائيون وقد عمل على توجيه آراء السفسطائيين المشوشة إلى ناحية مثمرة من البحث هي قضية السلوك والفضيلة وعلاقة المواطن في الدولة والناس. وهذا هو سقراط الذي سنأخذ موجز ترجمة حياته.

ومن الممكن تقسيم تأريخ الفلسفة اليونانية إلى ثلاثة عصور متميزة يتجلى فيها تدرج تطور الفكر اليوناني. وقد شغل الإغريق أنفسهم في أقدم هذه الأطوار بالنظر في الكون، وفي الطور الثاني النظر في الإنسان نفسه وامتاز الطور الثالث بالبحث المنظم.

أما الطور الأول فيتضمن تأريخ المفكرين اليونان قبل سقراط. وقد سبق لنا أن أشرنا إلى فلاسفة هذا الطور بصفتهم علماء فلنأخذ عنهم بعض الأمور الأخرى، فقد شغل المفكرون الأوائل نشاطهم في النظر في الطبيعة ودرس قضاياها ومسائلها، وبدؤوا في العالم الخارجي من مسائل الطبيعة والفلك والجغرافية ولا سيما الظواهر الأساسية. وكان من بين القضايا الدائمة التي شغلت الفكر البشري مادة الأشياء الأولى أو جوهرها الذي تتألف منه جميع الأشياء وترجع إليه جميع الأشياء وقد رأينا كيف شغلت هذه القضايا فكر

الإنسان وظهرت في حضارات وادي الرافدين ووادي النيل. فبحث فلاسفة اليونان الطبيعيون فيما قبل سقراط عن أساس الأشياء الذي لا تطرأ عليه التغييرات والتقلّبات وتتكوّن منه هذه الأشياء المختلفة في مظاهرها. وقد سألوا أنفسهم: ما أساس الأشياء وجوهرها الذي يبقى مع كل التغييرات العارضة؟ وكيف يتحول ذلك الأساس إلى تلك الأشياء؟ وكيف تتحول الأشياء وترجع إليه؟ وقد اتجه الفكر اليوناني دائماً إلى تصور أن هذه الكثرة الوفيرة من الأشياء التي يتكوّن منها العالم المنظور إنما تتألف جميعها من أصل وجوهر هو أصل الأشياء فبحث فلاسفة اليونان الأولون في أصل الأشياء وأجابوا على تلك الأسئلة بأسلوب لا تدخل فيه الأساطير والعلل السماوية. وقد رأينا كيف عبّر المفكرون الأقدمون في وادي الرافدين عن أصل الكون بالأساطير وقالوا بنظرية العناصر الأربعة تقريباً، وكان معظم الفلاسفة اليونان من الطور الأول يعيشون في «أيونية» في ساحل آسيا الصغرى الغربي. وبالرغم من أن أجوبة هؤلاء كانت ساذجة إلا أنها تمثل مرحلة مهمة في مراحل الفكر اليونان. فقد رأينا كيف أن طاليس (585 ـ 550 ق.م) أجاب على تلك الأسئلة بأن رأى في الماء مادة الأشياء الأولى، ورأى فيلسوف آخر اسمه «انكسمينيس» (590 ـ 500 ق.م) أنها الهواء، وامتاز عنهما «انكسيمندر» (610 ـ 545 ق.م) بأن فكر في أن مادة الأشياء الأولى يجب أن تكون شيئاً يختلف عمّا نعرفه من صور المادة، ويجب أن يكون غير محدود ولا معين، تتكوّن منه بعض الأشياء المحدودة مثل النار والهواء والماء والتراب. ومن هنا يتّضح لنا أن مرحلة الأساطير قد انتهت وأن الإنسان لم يشغل نفسه بالسؤال عمّن خلق عالم الأشياء وإنما بدأ يوجّه فكره إلى سؤال آخر وهو ما الأساس الذي تتكوّن منه الأشياء وقد رأى بعض هؤلاء المفكرين ولا سيما «انكسمينيس» أن الطريقة التي تتحول فيها المادة الأولى إلى الأشياء المختلفة هي طريقة التمدّد والتقلّص. وأرجع هؤلاء المفكرون أصل جميع الأشياء إلى أصل مادي وإلى طريقة مادية وأن المادة أزلية تتّصف بالحياة، فقد عدوا جميع الأشياء تتركب من مادة ليست ميتة جامدة بل مادة حية.

وقد أدخل فيثاغورس (570 ـ 500 ق.م) ومدرسته مبدأً ورأياً جديدين في طبيعة أصل الأشياء أو المادة الأولى التي تتألف منها الأشياء. فكان هو وأتباعه يؤكدون على صور الأشياء دون المادة، وكانوا يرون أن هذه الصور وليس المادة هي الحقيقة الثابتة في هذه الأشياء. وقد أداهم درسهم الموسيقي إلى اكتشاف مبدأ التناسب أو النسبة. فطبقوا هذه الفكرة في حقول ومواضيع أخرى فصحة الجسم مثلاً عدوها نتيجة من تناسب معين بين صفات الجسم الأساسية (كالحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة)، فإذا تغير التناسب فيما بينها إلى تناسب آخر نشأت العلل والأمراض. وبتطبيق هذا المبدأ على أصل الأشياء رأوا أن مبدأ الأشياء وجوهرها يجب البحث عنه في الصور المختلفة لهذه الأشياء. وعبّروا عن هذه الفكرة بما أوثر عنهم من أن «جميع الأشياء أعداد». وكان من السهل مطابقة الأعداد بالصور والأشكال في تلك الأيام، لأن الأعداد كانت تمثل في الغالب بنقاط وأشكال تترتّب في أشكال هندسية معيّنة، فكان من السهل تعيين الوحدة العددية بنقطة أو شكل. فمن الممكن تحليل الخطوط إلى نقاط والسطوح المستوية إلى خطوط والأجسام إلى سطوح مستوية، أي إن النقط تكوّن الخطوط والخطوط تكوّن المستويات وهذه تكوّن الأجسام، وهكذا فإن جميع الأشياء مؤلفة من الأعداد لأن الوحدة في الأعداد (أي الواحد) هو النقطة بعينها.

لقد أسّس المدرسة الفيثاغورية في جنوبي إيطاليا لاجىء أيوني بعد استيلاء الفرس على «أيونية». وقد ملأ غزو الفرس لأيونية الإغريق بنوع من الشعور الديني بنتيجة ما لاقوه من الاضطهاد، وكانت المدرسة الفيثاغورية أشبه ما تكون بأخوة دينية مؤسسة على آراء فلسفية. وكان هناك جماعة أخرى من الفلاسفة في جنوبي إيطاليا هم الإيليون (نسبة إلى إيليا وهي مستعمرة إغريقية)، واشتهر من هؤلاء «زينوفانيس» (570 ـ 480 ق.م) الذي هاجم ما كان يتصوره الناس عن الآلهة وكيف كانوا يرون فيهم كصور البشر، وقد اشتهر بقوله المأثور: «يعتقد البشر بأن الآلهة جاءت إلى الوجود كما جاؤوا هم أنفسهم، وأن لها جوارح وأصوات وأجساماً. . . ولكن لو كان للثيران أو الأسود

أيدي، لرسمت النيران الآلهة مثل الثيران وجعلت الخيول الآلهة خيولاً مثلها». وقد كان هذا المفكر يخالف آراء زمنه في فكرة التشبيه أي الاعتقاد بأن الآلهة مثل البشر وكذلك عارض فكرة الشرك أي تعدد الآلهة، واعتقد «بإله واحد عظيم لا يشبه البشر في جسمه أو في فكره» وعلى ذلك فيكون هذا أول موحد في الغرب، وينسب إليه أرسطو فكرة الحلول وله القول المأثور «الكل واحد، والواحد هو الله». وقد شارك في آراء هذا الفيلسوف مفكرون آخرون من أهل «إيليا».

وعلى النقيض من «الإيليين» كان «هرقليطس» (540 ـ 475 ق.م) لا يرى وحدة الأشياء بل كثرتها وتنوّعها وتغيرها الدائم، ولكنه اتفق معهم في أزلية المادة الأولى. وقد تصور حدوث دورات كونية من التغير، حيث تبدأ كل دورة وتنتهي بكتلة نارية. ولعل أثمن شيء في تعاليم «هرقليطس» ما يعتقده من الانتظام في الظواهر والوقائع الطبيعية. فيقول إن جميع التغيرات تحدث وفق قانون. وإن هذا الانتظام في ظواهر الكون وتغيراته عنده دليل على وجود «عقل أو سبب عام» إما أنه موجود في طبيعة المادة الأساسية أو أنه يسير إلى جانبها. وقد اتسع مبدأ التنوّع والكثرة على يد فيلسوفين آخرين هما «أنكساغوراس» (500 ـ 428 ق.م) و«أمبيدوقلس» (483 ـ 430 ق.م) الذي يعزى إليه أنه أول من قال بنظرية «بقاء الأصلح» وانتهى أمره إلى النظرية الذرية الخاصة بديموقريطس (460 ـ 370 ق.م)، فكان الأولان يريان أن المادة الأولى ليست من جوهر واحد بل من مجموعة من «البذور» أو «الجذور» تتكون من اتحادها الأشياء. وهذه البذور أو الجذور التي تتكون منها جميع الأشياء معروفة عندنا بنظرية العناصر الأربعة ـ أي النار والهواء والماء والتراب. وقد أورد «أنكساغوراس» مبدأين لتكوين الأشياء من اتحاد هذه العناصر الأربعة وانفصالها وهما مبدأ الجذب والدفع (أو الحب والبغض كما سماها).

والظاهر أن النظرية الذرية قد أوجدها أولاً «لوسيبوس» (500 ـ 430

ق.م) ولكنها تعزى عادة إلى تلميذه «ديموقريطس» الذي لقّب بسبب ذلك «بأبي الفيزياء» كما يصحّ القول إنه مؤسس الفلسفة المادية. ويرى هذا أن الحقائق الثابتة في تركيب الأشياء هي «الذرات» (Atoms) و«الفراغ» وتختلف الذرات في الحجم والشكل، وتتكوّن الأجسام المركبة جميعها منها. أما الفروق الموجودة في الأجسام المركبة فمنشؤها اختلاف الذرات المكوّنة منها من حيث أشكالها وحجومها ومن حيث وضعها وترتيبها في تركيب تلك الأجسام. واعتبر الذرات بوجه عام وكأنها حروف الهجاء في سفر الكون. وأن هذه الذرات ليست ثابتة بل تتّصف بالحركة وتتحرك في جميع الاتجاهات فتصطدم بعضها ببعض وتتّحد بعضها ببعض وتؤلف أجساماً مركبة، وتصطدم هذه الأجسام المركبة بعضها ببعض فتتحول إلى ذرات منفصلة. وبوجه الإجمال حاولت هذه النظرية تفسير الكون تفسيراً مادياً ميكانيكياً صرفاً. أي تفسيراً يدور على المادة والحركة. أما صفات المادة الثانوية من لون وذوق الخ فهي بحسب هذه النظرية أمور مصطلح عليها تتكون بالمران أي إن الإحساسات مجرد تعويد ومران، والحقيقة الوحيدة في وجودها هي الذرات. ونشأ عن ذلك نوعان من الصحة أو الحقيقة: فهناك حقيقة مصطلح عليها وحقيقة موضوعية ثابتة. وقد أخذ هذه الفكرة الفلاسفة السفسطائيون، وفسرت فلسفة «ديموقريطس» الروح بأنها أيضاً نوع من جماع الذرات اللطيفة الدقيقة الملساء، وتتولد ظواهر الحياة وفعاليتها عن حركة هذا النوع من الذرات. لقد أخذ هذه الفلسفة الأبيقوريون وتأثر بها الرواقيون أيضاً، ولكنها أخذت تفقد مكانتها بسبب اصطدامها بفلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو وظلت كذلك في العصور الوسطى ولكنها بعثت من جديد منذ عهد النهضة الأوروبية الحديثة بتأثير العلوم الطبيعية فظهرت بوادرها في فلسفة ديكارت وبيكون و«هوبز».

الطور الثاني من الفلسفة والسفسطائيون:

لقد نتج غزو الفرس لـ «أيونية» تشتيت الفلاسفة الأيونيين وانتشار الاهتمام بالفلسفة كما ألمحنا إلى ذلك فيما سبق. ونتج انتصار الإغريق على

الفرس نتائج أبعد من ذلك. فقد سبّب ذلك الانقلاب العظيم روحاً غير مستقرة ولا قانعة في الأحوال والأوضاع الجارية ولا سيما في الآراء والمعتقدات وأيقظت روحاً جديدة اتجهت إلى الاهتمام بالمعرفة، وكان ذلك الطور الثاني في تأريخ الفلسفة اليونانية، حيث بدأ الفكر اليوناني يتحول إلى البحث في الإنسان نفسه، وصارت أعمال الإنسان موضوع البحث، وأغفل النظر في العلم الطبيعي الذي كان فيما سبق موضوع الفلسفة بل اتجه البحث إلى قوى الإنسان الباطنية، فبحثوا في القوى المفكرة وقوة الإرادة، أي الفكر والإرادة، ونشأت في عقول المفكرين مسألة جديدة فيما يتعلق بالمعرفة البشرية وثبات حقائق الأشياء، والصواب والحق والخير وهل هناك حق أو صواب أو خير قائم بنفسه لا علاقة له بآرائنا الشخصية. وظهرت في هذا الطور الذي يصحّ أن نسمّيه بالعصر الإنساني، القضايا الأخلاقية والمنطقية والنفسية «السيكولوجية». واشتهر في هذا العصر السفسطائيون. وكان هؤلاء صنفاً من المدرّسين المحترفين الذين استجابوا إلى حاجة العصر الفكرية. ومعنى اسمهم «الحكماء»، وقد عملوا على نشر الثقافة العامة، ونشأ عن نقدهم للآراء والمعتقدات السائدة أن اتجه المفكرون الآخرون إلى البحث في قضايا الحياة البشرية، وهم الذين قالوا بالتمييز بين القيم الحقيقية وبين القيم بحسب ما نصطلح عليه أي بحسب آرائنا الشخصية. ويعزى إليهم القول المشهور «إن الإنسان مقياس جميع الأشياء». وهذا في الواقع سبق مبدأ الفلسفة الحديثة المعروفة بفلسفة الذرائع أو «البراغماتية» في قولها بنسبية الحق والصواب والخير بالنسبة إلى حاجات الإنسان العملية، وقد صارت أثينا في هذا العهد مركز الفلسفة الإغريقية التي وصلت إلى ذروتها وأوجها في عهد ثلاثة من عباقرة مفكريها وهم سقراط وأفلاطون وأرسطو، وسنأخذ موجز تراجمهم.

الطور الثالث من الفلسفة:

بإمكاننا أن نعد الطورين الأولين من تأريخ الفلسفة اليونانية مقدمة لأعظم رقي حدث للفكر اليوناني، وقد ظهر هذا الرقي في الطور الثالث، وهو عصر

البحث المنظم، وبلغ أوجه في عهد الفلاسفة العظام الذين ذكرناهم. ففي الطورين الأولين أي طوري البحث في الكون والإنسان كان بحث الفلاسفة مقصوراً على عدد محدود من المسائل. ولكن اتسع البحث في الطور الثالث فشمل قضايا كثيرة منها قضايا النفس والطبيعة وقد استفاد عظماء هذا الطور من المعارف التي وصل إليها من سبقهم، وامتاز بحثهم في الأشياء بالمنهج العلمي. ويعدّ أرسطو خاتمة نضج الفلسفة اليونانية وفاتحة عصر العلوم التي تميّزت وتفرّعت حيث تخصص كل علم منها لبحث خاص مما لم يعرفه اليونان في عصورهم الأولى بل كانت موضوعات العلوم ممتزجة بعضها في بعض، كما كان العلم والفلسفة شيئاً واحداً. ولنأخذ تراجم مشاهير هذا الطور:

سقراط (470 ـ 399 ق.م):

هجر هذا المفكر بحوث الأيونيين العلمية ولعله لم ير فيها حاجة الزمان ومتطلباته. بل إنه وجه بحثه إلى الأخلاق ولا سيما قضايا مهمة مثل الصلاح والحق والجمال والأمانة والعدل. فقد رأى أنه إذا لم يتحلّ المواطنون بهذه المبادىء الفاضلة فإن الدولة تنهار حتماً، ولكن ينبغي للناس قبل أن يسلكوا بالسلوك الفاضل أن يتحلوا بالمعرفة وكانت طريقة سقراط التحليل المنطقي للأضداد بطريق السؤال والجواب حيث يمكن إظهار الزائف الباطل ونبذه وتبقى من بعد ذلك الحقيقة.

ومما يجدر ذكره عن سقراط أنه ناوأ السفسطائيين الذين رأيناهم ينكرون جميع الأشياء الثابتة ويقولون بأن الباطل والحق والخير والشر وما إلى ذلك من القيم إنْ هي إلّا أمور نسبية أي بالنسبة إلى الفرد. فحارب سقراط هذا الخطر وقرر أن هناك حقائق ثابتة لا نسبية فالخير ما طابق الخير في الواقع وليس ما اعتقده الفرد خيراً. ثم إن سقراط خطّأ السفسطائيين بما كانوا يرونه من أن الحواس وحدها هي سبيلنا لإدراك الأشياء فأبان أن التأمل والتفكير هما كذلك سبيلنا للمعرفة، وأن عمل الحواس هو إدراك الجزئيات لا الكليات التي لا يدركها إلّا العقل.

ومما يؤثر عن سقراط ما قلناه من أنه وجه الناس إلى النظر في الإنسان وفي نفس الإنسان بعد أن كان همُّ الفلاسفة مقصوراً على النظر في العالم الخارجي. وإليه ينسب القول المأثور «اعرف نفسك».

لقد جذب سقراط إلى جانبه حشداً من الشباب الموهوبين من جميع الطبقات وكان سبيله نبذ كل شيء والشك في كل شيء لا يخضع للعقل والفكر ليحرر العقل البشري من عبء الخرافات والترهات ويبني الحياة، كما كان يعتقد، من جديد على أساس العقل والفكر. وكان هذا في الواقع تحدياً يتّصف بالأصالة وقد دوى صوته في جميع العصور والأزمان ولم يحرم من تابعين مناصرين. ولكن عرضته تعاليمه هذه إلى سخط المحافظين من أبناء مدينته الذين عدوها خطرة. إذ رأوا في تحديد علاقات الإنسان بالإنسان وبالمجموع على أسس العقل إنكاراً لأفعال الآلهة وسلطاتها. ومما عجل المأساة التي حلّت بسقراط اندحار أثينا في حربها مع إسبارطة (404 ق.م) فهاج كثير من المحافظين الذين علم سقراط أبناءهم وعزوا إليه إفساد الشباب وحملوه بأنه هو سبب النكبة التي حلّت بأثينا لتعاليمه المتّصفة بالكفر وإنكار سلطان الآلهة. فرمي بالخيانة العظمى وحوكم فحكم عليه بالموت في حدود 399 ق.م. وقد تناول بيده السم.

أفلاطون (427 ـ 347 ق.م):

أشهر تلاميذ سقراط وكان من عائلة مثرية مشهورة في أثينا، فكان من البديهي أن يطمح بالاشتراك في حكم الدولة. ولكن زمنه كان عهد الديمقراطية الأثينية أي حكم الجمهور أو «الرعاع» فكان يقتضي من أفلاطون مداراة الشعب وكسب ثقته لينال حصة في الحكم ولكنه كان يأنف من ذلك. فأتجه إلى ناحية أخرى من الحياة، إلى البحث والدرس والفلسفة تحت إرشاد معلمه سقراط. ومما امتاز به سقراط أنه اقتصر في بث تعاليمه على التلقين والرواية الشفهية ولم يعن بتدوينها على نحو ما يفعل أغلب المؤلفين الطامحين في تخليد ذكرهم وقد فعل أفلاطون مثل معلمه بأن صار يعلم شبان أثينا في مدرسة

أسسها لهذا الغرض وهي الأكاديمية[1] المشهورة في أثينا. ولكنه عمد قبل ذلك إلى تدوين كتب وضعها لقرّائه على أنها تمثل تعاليم سقراط معلمه المحبوب ولعل ذلك خرافة غير حقيقية وأن الكتابات التي خلّفها أفلاطون على أنها تعاليم معلمه هي في الواقع آراؤه وأفكاره نفسه. ونستطيع أن نستنتج بدون أن نسيء إلى أي من الفيلسوفين العظيمين أن أفلاطون قد تمثّل أفكار معلمه وسلفه وتأثر بها بحيث أصبحت أفكاره بالذات وذلك عندما كان تلميذاً لسقراط وأضاف إليها بعد أن تمثلها عندما استقل وبلغ نضجه العقلي والفلسفي.

وكان أفلاطون إلى كونه مفكراً فناناً موهوباً مما جعل مؤلفاته تمتاز بجاذبيتها للقراءة والتتبّع، وقد استعمل طريقة الحديث بالسؤال والجواب في عرض آرائه الفلسفية، واستخدم لذلك الأمثال والأساطير والهزل اللاذع مما حبّب مؤلفاته للقراء وخفف من جفاف آرائه الفلسفية المجرّدة. وتناول في بحوثه وآرائه كثيراً من المسائل والقضايا التي لا تزال تحتل مكانتها من تفكير البشر في هذه الأزمان فبحث في النفس وفي الخلق وفي الصور أو الأفكار الثابتة (المثل) (Ideas) التي تكمن وراء مظاهر الحياة والكون المتغيرة فكانت هذه المثل عند أفلاطون حقائق موجودة في الخارج بنفسها ومستقلة عن عالم الحس الذي هو مجرد انعكاسات أو خيالات لعالم المثل الحقيقي الذي ينبغي أن يكون هدف المعرفة البشرية. ولذلك فيميز أفلاطون بين ضربين من المعرفة فمعرفة تتعلق بعالم المثل الحقيقي ومعرفة تخص عالم التغير والحس. وخالف أفلاطون فلسفة ديموقريطس المادية ورفض تفسير الكون تفسيراً ميكانيكياً بل رأى أن في الكون هدفاً وغاية هو الخير الذي تهدف إليه جميع الأشياء. والذي يذكر عن أفلاطون أنه حاول التوفيق بين آراء سقراط وفيثاغورس وهيراقليطس. وبحث في مسائل السياسة وقد أعمل فكره مثل معلمه في سياسة دولة المدينة وتهذيب شؤونها وتخليصها من الشرور والأخطار التي أحسها

---

(1) (Academy) مشتقة من اسم بستان قرب أثينا كانت تعود بالأصل إلى بطل اسمه «أكاديموس».

فيها. وقد أودع آراءه السياسية في «جمهوريته» المشهورة التي تعكس لنا آراء الفيلسوف في زمن نضجه الفكري. وجمهوريته في أساسها لا تعدو أن تكون «طوبائية[1] (Utopia)» كان الدافع إليها كره أنظمة الحكم الجائرة ونظام أثينا الديمقراطي ونشدان دولة مثالية هي المدينة أو الدولة الفاضلة. ويرى أفلاطون أن مثل هذه الدولة ينبغي أن تُشاد على العدل وينبغي لحكومتها أن لا تكون من طبقة الساسة المحترفين أو التجار، بل يجب أن يكون حكامها طبقة خاصة يربون تربية خاصة ويعدّون لغرض الحكم ويجب أن ينتخبوا من طبقة الفلاسفة الذين يستطيعون دون غيرهم أن يحكموا إخوانهم بموجب أنظمة وقوانين واضحة وبهدي المثل الخالدة (وهي مثل أفلاطون). ومما يجدر التنويه به أن معظم المفكرين الخياليين الحالمين أمثال أفلاطون من أصحاب «الطوبائيات» قد تأثروا بأفلاطون وساروا على هديه، كما أنه بوسعنا أن نقول إن أكثر الآراء التي قال بها أصحاب الإصلاح الاجتماعي الانقلابي (الراديكالي) قد نوّه بها مؤلف «الجمهورية» العظيم.

الأفلاطونية الحديثة:

لقد ظلت آراء أفلاطون عنصراً هاماً وأساساً في أفكار الأجيال التي أعقبت أفلاطون، ولم تقتصر فلسفته على تأثيرها في فلسفات الحضارة الإغريقية الرومانية بل إنها أثرت في جماعة كبيرة من الفلاسفة من مفكري العرب المسلمين وبعض المفكرين اليهود وأثرت في أفكار المسيحية في إبان نشوئها وتكوينها. وقد تبنى مآثر أفلاطون وشرحها للناس مفكر اسمه «فلوطين» (Plotinus) من فلاسفة العهد الهلنستي، وكان هذا ذا آراء أصيلة وقد علم في روما في منتصف القرن الثالث للميلاد وكان قد ظهر في الإسكندرية في أواخر القرن الثاني للميلاد (204 م). وصارت تفسيراته وتعليقاته وعرضه لآراء أفلاطون بعد أن تمثلها فلسفة خاصة عرفت بالأفلاطونية الحديثة وكانت ذات

(1) ومعنى هذه الكلمة في اللغة اليونانية «مكان غير موجود».

تأثير عظيم في أفكار الناس. وقد دخلت في آراء رجال الدين المسيحي وفي طرقهم اللاهوتية وكانت تراثاً مهماً في العصور الوسطى وفي الفلسفة العربية الإسلامية حيث أثرت تعاليمه فيها أثراً كبيراً كما يتضح ذلك في فلسفة «إخوان الصفا» ولا سيما آراؤه عن فكرة «الفيض» الإلٰهي والعقل والنفس و«الأحد» أي الله. ولما اكتشف فلاسفة العرب المسلمين فلسفة أفلاطون وأرسطو صاروا يبحثون فيهما وهم متشبعون بالأفلاطونية الحديثة. ومما يقال في فلسفته إنها مزيج من الفلسفة والدين، وحاول أفلوطين أن يوفّق في فلسفته بين المسيحية والمذاهب الشرقية وآراء اليونان ولا سيما آراء أفلاطون، وفي فلسفته شيء من التصوف الديني.

أرسطو (384 ـ 322 ق.م):

بإمكاننا أن نعد أرسطو ممثلاً أوج ما وصلت إليه المعارف عند الإغريق وقد عدّ الإغريق أنفسهم أرسطو كذلك فقد حصل في زمنه على شهرة واسعة وظلت شهرته ومعارفه تتوارثها القرون التالية، وكانت مصنفاته الكتب المعول عليها حتى عهد النهضة الأوروبية حينما بدأت أوروبا تسير إلى عهد العلم الحديث. ويعدّ أرسطو وارث الفلسفة الإغريقية التي بدأت منذ 600 ق.م. ومتشبعاً بجميع فروعها وبحوثها، وامتاز بعقل وفهم نادرين وامتازت فلسفته ومعرفته بالبحث في جميع فروع الفلسفة والقضايا التي عالجها حكماء الإغريق منذ طاليس إلى سقراط وأفلاطون فبحث في العلوم الطبيعية وفي قضايا الإنسان والمجتمع وفي الأخلاق والسياسة.

وكان أبو أرسطو طبيباً مشهوراً فاكتسب منه الاتجاه العلمي الرزين الذي يمتاز به البحث الطبي. وظهر اتجاهه العلمي في مدرسته التي أسسها في «الليسيوم» بعد موت أفلاطون. وكانت خارج أثينا قرب الملعب الرياضي. ولكنه لم يترك التفكير والتأمل الفلسفي الذي ورثه عن سلفيه العظيمين سقراط وأفلاطون.

وإذا كان من المتعذر الكلام في جميع البحوث والمعارف التي خاضها أرسطو فإننا نوجز ما حقّقه في أربعة حقول مهمة تمثل أبرز النواحي في بحوثه وهي:

(1) المنطق.

(2) البيولوجيا.

(3) الأخلاق. (وبضمن ذلك السياسة لأن السياسة عند الإغريق لم تكن لتنفصل عن موضوع الأخلاق).

(4) الجمال.

1 ـ المنطق:

وكان مفهوم المنطق عند أرسطو فن التفكير الصحيح ومنهجه ولذلك عدّ المنطق أساس الفكر والعلوم. وقد بحث أرسطو في مواضيع المنطق في عدّة مقالات أو كتب، ودعيت البحوث هذه باسم الآلة (Crganon) لأن المنطق مثل الآلهة بالنسبة للفكر والعلوم. وقد سار كل من أرسطو وأفلاطون في نفس المنهج الذي سار عليه سقراط ولا سيما في طريقة جدلهما ومناظرتهما فكانا يحذران من استعمال الكلمات والمصطلحات على غير وجهها ومفهومها الصحيحين وقالا بوجوب تحديد معاني الكلمات. ولكن أرسطو يمتاز عنهما بأنه أول من أسس طريقة علمية للتفكير السليم ومعاييره وقد حقق ذلك بإتقان يدعو إلى الدهشة حتى أن طريقته أصبحت منهجاً لازماً لسير الأجيال التي أعقبته ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا.

2 ـ البايولوجيا (علم الحياة):

وامتاز أرسطو بدقة ملاحظته ودرسه للعالم الطبيعي فترك لنا جملة مؤلفات مهمة تبحث في الفروع المختلفة للعلوم الطبيعية. وأكثر ما تظهر عبقريته وأصالة بحثه في أنه كان أول باحث انتقل من النظر في المادة غير العضوية إلى المواد العضوية أي إلى الأحياء، مؤسساً بذلك علم الحياة

«البايولوجيا» بكلا فرعيه: علم النبات (Botany) وعلم الحيوان (Zoology) وقد استدعي وهو في سن الأربعين وقبل أن يفتح مدرسته إلى بلاط الملك المقدوني «فيلب» لتعليم ابنه الإسكندر الذي صار الإسكندر الكبير. وعندما تسلم الإسكندر العرش لم ينس أرسطو الذي كان يدعوه بأبيه الروحي وعندما حل أرسطو في أثينا وشرع في البحث والدرس وهبه الملك مبالغ كثيرة من المال ليصرفها على بحوثه وجمع معارفه، فتمكّن من جمع معلومات واسعة ثمينة عن نباتات منطقة البحر المتوسط وحيواناتها لا يستطيع إنسان بمفرده أن يجمعها، بل كان سبيل أرسطو إليها بذل المال وإرسال التلاميذ والمساعدين إلى البلدان المختلفة، كما تفعل المؤسسات العلمية الحديثة، هذا ولا يشين بحوث أرسطو في هذا الموضوع كثرة الأخطاء لأنه في الواقع كان أول عمل علمي من نوعه.

3 ـ الأخلاق والسياسة:

يرى أرسطو في أخلاقه في كتابه (نيقوماخيا) أن الخير والصلاح هو «ما تهدف إليه جميع الأشياء» وغاية أعمال الإنسان جميعها وينبغي أن يكون شيئاً يبحث عنه لنفسه بل إنه هو الغاية وليس واسطة لبلوغ شيء آخر. فما هو هذا الخير الأعلى؟ يرى أرسطو أن صلاح أي شيء يكون في تحقيق وظيفة ذلك الشيء والإنسان يشارك عالم النبات في الغذاء والتناسل ويشارك عالم الحيوان في الحس. ولكنه ينفرد في حيازته على الحياة العقلية وعلى ذلك «فإن وظيفة الإنسان أن تعمل الروح أو النفس وفق العقل. ووظيفة الإنسان الصالح أن يكون ذلك العمل صالحاً خيراً ويكون الخير الأعظم عند الإنسان «العمل الفاضل» ويدعو ذلك أرسطو بكلمة خاصة هي «يوديمونيا» (Eudaimonia) التي يمكن ترجمتها بالسعادة أو الوجود السعيد. ولكن ينبغي لنا أن لا نخلط بين هذه السعادة وبين اللذة أو السرور، لأن اللذة والسرور، كما يرى أرسطو، ليسا غايتين لذاتهما بل إنهما نتاج يستتبع العمل الفاضل أو العمل الصالح.

وإذا كانت السعادة نتيجة للعمل الصالح أو هي العمل الصالح فما هي

الفضيلة أي ما هو هذا العمل الفاضل؟ يرى أرسطو أن الفضيلة على ضربين فضيلة عقلية وفضيلة أخلاقية. أما مبعث الأولى وموطنها فهو الفكر ومقر الثانية الإرادة. ولما كان الفكر وظيفة خاصة بالإنسان ، فتكون أعلى فضيلة للإنسان في حياة الفكر الخالص والتأمل المجرد ولكن مثل هذه الحياة لا تكون ممكنة إلّا بفضل الجزء الإلٰهي (المقدس) الموجود فينا. أما الذين لا يستطيعون منا أن يصلوا إلى هذه المرحلة العليا من التأمل النظري فيكون بمستطاعهم نوع آخر من الحياة العقلية، وهي الحياة العقلية العملية التي تسيطر على رغباتنا وتنتج عندنا الفضيلة الأخلاقية.

وتحتل الفضيلة الأخلاقية عند أرسطو مكانة خاصة فهي عنده «عادة أو مزاج تنطوي على غاية أو اختيار مقصودين» ويمكن تمكينها وتثبيتها بالمران والرياضة. ومدار هذه العادة على «الوسط» بين متناقضين، بين التفريط والإفراط (خير الأمور أوسطها). فالشجاعة مثلاً (وسط) بين التهور والجبن وأن هذا الوسط شيء نسبي بالنسبة لنا أي إنه يختلف باختلاف الأفراد والأحوال وعلاوة على ذلك فإن تقرير هذا الوسط من وظائف العقل العملي. وبوسعنا أن نستشف من وراء هذا (الوسط) الذي قال به أرسطو مَثَلَ الإغريق الأعلى في التناسب والقياس والانسجام.

والأخلاق في فلسفة أرسطو مادة العلم العملي وهو السياسة. فالإنسان بطبيعته «حيوان سياسي» لا يستطيع أن يحقق قابلياته وإمكانياته العليا إلّا في حالة كونه عضواً في دولة أو في مجتمع. وتعني الدولة عنده «دولة المدينة» التي لم يتعد حدودها العقل الإغريقي حتى في أيام الإسكندر الكبير. ولما كان كمال الحياة وتكميلها لا يتحققان إلّا في الدولة، فتكون الدولةِ نظاماً طبيعياً لازماً، وهي بهذا المعنى لها الأسبقية على الأفراد الذين يؤلفونها، وهي هدف الحياة الإنسانية ومصدرها.

وقد هاجم أرسطو إشاعة الملكية والنساء التي حبذها أفلاطون للطبقات العليا في دولته المثالية. ويصرّ بدلاً من ذلك على الملكية الخاصة في المال

وفي العائلة. ولما كان عنده مبدأ «أن شؤون شخص لا تعني شخصاً آخر» فقد أبان أن الملكية العامة تؤول إلى التخريب وانعدام التعاون، وهو التعاون الذي أراده أفلاطون. ولكنه يتفق مع أفلاطون بأن الحكام في الدولة الصحيحة يجب أن يكونوا أحسن الجميع ويهدفون لصالح المجموع.

ولما كان أرسطو يعتقد بعدم المساواة بين الناس فقد برز نظام الرق عادّاً إياه نظاماً طبيعياً. فإن البعض لائقون بجبلتهم للحكم والبعض للخضوع. وكان أرسطو يحتقر العمل اليدوي، وقد شارك هذا الاحتقار جميع الإغريق تقريباً. ولما كانت وظيفةِ الدولة تثبيت الحياة الصالحة فإن العمال والصُّنّاع وجميع الذين لا تمكنهم أعمالهم من التفرغ لإنماء الفضيلة يجب إخراجهم من حق المواطنة.

4 ـ الجمال[1]:

اشتهر أرسطو بكتاباته في موضوع الجمال (ولا سيما قسم البيوتيقا أي الشعر) وقد اتخذت آراؤه مقياساً للنقد الفني في العصور القديمة والوسطى وإلى العصور الحديثة ولا تزال كذلك تحتل مكاناً مهماً في النقد الفني الحديث إن لم يكن بين الفنانين المعاصرين وإلّا بين أساتذة الكليات والجامعات ومن أقواله المأثورة «إن الفن يقلّد الطبيعة» وكان هذا في الواقع شعاراً أو رمزاً عند الناس وليس حقيقة، لأن «التقليد» عنده في هذا الباب لا يعنى بتقليد الظواهر الخارجية بقدر ما يعنى بالمعاني أو الحقيقة الداخلية.

ويؤكد في موضوع الرواية (الدراما) على وحدة الفعل في موضوع الرواية

(1) يتضح من بحث أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان في الجمال أن البحث في هذا الموضوع أقدم من اسم علم الجمال في الوقت الحاضر وهو «الاسثيقي» (Aesthetics) وكان أول من استعمل هذا المصطلح «بومجارتن» (1714 ـ 1762) أحد أتباع الفيلسوف الألماني «وولف» وكان أول من جعله فرعاً مستقلاً من فروع الفلسفة.

ولم يقل بالوحدات الثلاث وهي الزمان والمكان والفعل وهو المبدأ الذي ألصقه به الكتّاب المتأخرون.

وامتاز أرسطو عن أفلاطون في قضية المادة والصور (forms) أو المثل عند أفلاطون حيث لم ير مثل أفلاطون عالم المثل منفصلاً مستقلاً عن عالم الحس، بل حاول التوفيق بين الكليات والجزئيات، وعنده أن هذا التوفيق ضروري في تكوين عالم الحقيقة والمعرفة وتدور محاولته على فكرة «المادة» و«الصورة» وهما اللتان كانتا منفصلتين عند أفلاطون فأعاد التوفيق فيما بينهما. وإذا كان الأيونيون، كما رأينا قد أكّدوا على المادة فقط والفيثاغوريون وأفلاطون على الصورة فقط، فإن أرسطو ذهب إلى أن الصورة والمادة يتعلق كل منهما بالآخر، فالصورة ملازمة للمادة أي إن الكلي ملازم للجزئي، ومن الممكن أن يتميزا ولكنهما لا ينفصلان. ويتعلق بهذا المذهب الخاص بالصورة والمادة مبدأ العلل الأربع عند أرسطو، وملخّص هذا أنه إذا أردنا أن ندرك أشياء معينة إدراكاً صحيحاً فينبغي أن نعين أربعة أمور فيها أو أربع علل، وهي:

(1) (العلة المادية) (Material Cause) أي المادة التي تتكوّن منها تلك الأشياء أو المصنوعة منها تلك الأشياء.

(2) العلة الصورية (Formal Cause) أي الصورة أو القانون في كيفية تركيب تلك الأشياء أو صنعها.

(3) العلة الفاعلية (Efficient Cause) أي العامل أو الفاعل الذي تكوّنت بواسطته تلك الأشياء.

(4) العلة الغائية (Final Cause) أي الغاية التي من أجلها تكوّنت أو صنعت تلك الأشياء.

وقد أوضح أرسطو أنه ليس من الضروري أن توجد جميع هذه العلل في جميع الأشياء، فبعض الأشياء يمكن فهمها بأخذ بعض من تلك العلل. ومما

يجدر التنويه به عن فلسفة أرسطو أن فلسفة ابن سينا (370 ـ 428 هجرية) أقرب فلسفات المسلمين إليها، كما أن ابن رشد (520 ـ 595هـ) شرح تعاليم أرسطو ولا سيما في كتابه الشهير «تهافت التهافت» الذي ردّ به على الغزالي في طعنه بالفلاسفة والفلسفة.

شيء عن الفلسفة اليونانية بعد أرسطو:

استمرت الفلسفة اليونانية عدة قرون من بعد أرسطو، ومع ذلك فإنه بوسعنا أن نلاحظ أن روحاً جديدة قد طغت عليها حتى في أثناء حياة أرسطو. وكان ذلك نتيجة لفقد الإغريق استقلالهم على يد المقدونيين في موقعة «خيرونيا» (338 ق.م) فلم تترك الشدائد التي حلّت بالإغريق من جراء السيطرة المقدونية ميلاً أو متّسعاً إلى الفلسفة البحتة. بل احتاج الناس بدلاً من ذلك دواءً يقوّيهم ليس من الفلسفة بل من الدين والأخلاق. وبذلك صارت الفلسفة من بعد العهد الأرسطوطاليسي تطغى عليها النزعة الأخلاقية والدينية. وهكذا شغل الرواقيون (Stoics) أنفسهم والأبيقوريون والشكاك في مسائل الحياة من السلوك المثالي، ويتجلّى ذلك في مذاهبهم بالتوصية بالاتزان ورباطة الجأش وراحة العقل وسلامته وتحرير النفس من قيود الأوضاع والأحوال الخارجية. وقد اتّخذ الأبيقوريون بغض النظر عن فلسفتهم الأخلاقية الفلسفة الذرية الخاصة بديموقريطس التي ذكرناها فيما سبق[1]، واشتهر الرواقيون في مذهب الحلول وكذلك في نظرتهم العامة وعدم التفريق في مسألة الوطن والمواطنة.

---

(1) استخدم الأبيقوريون هذه الفلسفة في نواح اجتماعية ولا سيما في تطمين الأغنياء المترفين في العصور الهلنستية الذين خافوا من عاقبة ما بعد الموت، فبموجب تفسير ديموقريطس للروح بكونها اتحاد ذرات لطيفة تتحرك بانتظام ما دام الجسم حياً ثم تتفرق وتتشتت بالموت، لا يكون ثمة وعي أو حس أو ألم. كما أن الأبيقوريين وصفوا الآلهة بأنها أرواح مخلدة في السماء ولا شأن لها بما يحدث في الأرض، كما أنها عديمة الأثر في سير الحياة التي تسيرها سنن الضرورات الطبيعية ولهم رأي خاص بالسعادة، حيث يتمّ الحصول عليها بالابتعاد عمّا يثير القلق الروحي بالانصراف إلى الفلسفة ولذة التأمل والفكر.

وتأثر الرواقيون أيضاً بمادية ديموقريطس ولكنهم خالفوا الأبيقوريين في سلوكهم وقالوا بمبدأ الفضيلة من حيث استجابتها للضروريات المادية الطبيعية. وقد وضع الشكاك الأسس التي سار عليها أصحاب فلسفة الشك فيما بعد. وقد كان للشرق أثر منهم في الفلسفة الإغريقية في هذا العهد، وهو العهد الذي أخذنا عنه بعض الشيء في كلامنا على العصر «الهلنستي». وعندما صارت بلاد اليونان جزءاً من المملكة الرومانية (سنة 146 ق.م) نشأ عهد جديد في تأريخ الفلسفة يصحّ أن نسميه بعهد الفلسفة «الرومانية ـ اليونانية» ومما يميز به هذا الدور بوجه الإجمال أنه كان نهاية البحث المنظم والإبداع وحلّ محله ميل إلى الشروح والتفاسير المطوّلة، وكان في الوقت نفسه عصر حصل فيه اتجاه إلى تحصيل العلوم والاتساع في الاطلاع والإقبال عليها وصارت العلوم متميزة بعضها عن بعض في مواضيع بحثها بخلاف ما كانت عليه في زمن ازدهار حضارة الإغريق حيث كانت كلها تنتظم تحت الفلسفة.

التأريخ:

هيرودوتس:

يلقب هيرودوتس بأبي التأريخ، وقد ولد في «هليكارناسوس» بين ظهراني أولئك الإغريق في غربي آسيا الصغرى الذين بدأوا نهضة الإغريق العقلية. ويرجّح أنه ولد في العام 485 ق.م. (أو 480) وتوفي في حدود 425 ق.م.، وقبل أن يموت بست سنوات كانت رحى الحروب البيلوبونيسية تدور. وقد شغف مثل حكماء الإغريق بالحياة العقلية، ولكن وجه همّه إلى الإنسان وشؤونه وبعد أن نفي من المدينة التي ولد فيها بسبب ثورة سياسية، اتجّه إلى الرحلات والأسفار فسافر إلى مصر وفارس والأقاليم التي حوالى البحر الأسود وإلى بلاد الإغريق وإلى إيطاليا ولعله إلى العراق وفارس فحصل بأسفاره على معلومات ثمينة عن معظم العالم المعروف. ولا يسعنا أن نبت في هل أنه كان يفكر بمشروع تأريخه عندما قام بتلك الأسفار ليجمع المادة له أو أن تلك الأسفار هي التي حفّزته على كتابة ذلك التأريخ. ومهما يكن واقع

الحال فقد جاء في مقدمة تأريخه «هذا تقديم بحث هيرودوتس الهليكارناسي لكيلا يمحو الزمان أعمال الإغريق والبرابرة[1] العجيبة، وبوجه خاص لئلا تنسى الأسباب التي من أجلها شنوا الحرب فيما بينهم. وبوسعنا أن نستنتج من ذلك ومن كتابه أيضاً حقيقتين مهمتين: الأولى أنه دون بالنثر حوادث تأريخية محدودة (وفي هذه الحالة الحروب التي شنّتها فارس على بلاد اليونان في زمن دارا الأول واحشويرش) وهو عمل لم يسبق به على ما نعلم أحد من كتّاب الإغريق والثانية أنه اتبع في ذلك طريقة دعاها هو «التحري أو البحث أي (Historia)»[2]، فصارت هذه الكلمة تُطلق على جميع البحوث التأريخية المماثلة في معظم اللغات الأوروبية.

ويمكننا أن نشيّد بفضل هيرودوتس في بحثه التأريخي لا سيما إذا اعتبرنا الصعوبات التي جابهها في جمع مادته حيث لم يكن تحت متناول يده وثائق أو سجلات محفوظة أو مكتبات منظمة أو أي كتاب سابق يرجع إليه. وحسناً ما فعل عندما دعا تأريخه «البحث أو التحري» لأنه كان مضطراً إلى جمع حقائقه ومراجعه بنفسه بالاتصال بالناس الذين كانت لهم معرفة بتلك الحوادث والحقائق، ولكن مما سهل عليه جمع حقائقه قرب العهد. أي عهد حوادث الحروب بين الإغريق والفرس، حتى أنه كان باستطاعته الاتصال بأناس حاربوا بالفعل في تلك الحروب ولا زالوا على قيد الحياة في زمنه. وقد يجد قرّاء تأريخ «هيرودوتس» نوعاً من الخلط بين الأساطير والحقائق التأريخية بدون أن ينبّه على الحد الفاصل فيما بين الاثنين وبوسعنا أن نتّفق في أن هيرودوتس قد أغرم بسرد الحكايات والقصص الغريبة وأنه كان عنده ميل أشبه ما يكون بميل الأطفال إلى القصص الخيالية.

ولكن ذلك لا يعني إغفال قيمة تأريخه بل ينبغي للقارىء أن يستعمل النقد. ومع ذلك فإن تلك الخصائص التي نجدها ما هي إلّا ظاهرية إذ نجده

---

(1) يقصد بذلك الفرس. راجع ما اخترناه من تأريخ هيرودوتس في قصة كورش واستياجز.

(2) وهذا ما تعنيه كلمة (History) في أصل ما وضعها هيرودوتس (راجع مقدمة الجزء الأول).

يسرد الأمور على سبيل الرواية بأن يقول «يقال» أو «يقولون» أي إنه لم يصدق بما يروي وإنما يذكره على سبيل الرواية. وإذا ظهر هيرودوتس بصفة التحيّز إلى جانب أثينا فإنه أظهر الاعتدال والصدق في ما كتبه عن الأقوام الأخرى من غير الإغريق، وهم الذين يسميهم البرابرة ولا سيما الفرس أعداء اليونان. وتظهر على تأريخه ما كان يتّصف به من الروح الدينية، والظاهر أن مبادىء السوفسطائيين الفلسفية في زمنه لم تؤثر فيه بل بقي معتقداً بأن الإنسان تحكمه وتقدر مصائره الآلهة غير المنظورة. وبوسعنا أن نعدّ هيرودوتس أول من جمع مادة مهمة عن عادات الأقوام وأزيائها وبحث فيها وهو ما يدخل الآن ضمن فروع علم الإنسان (أي الأنثربولوجيا).

ثوسيدايدز (Thucycides) (470 ـ 400 ق.م):

بعد مضي بضعة أشهر على موت هيرودوتس (425 ق.م) حدث أن قائداً أثينياً اسمه «ثوسيدايدز» قد عزل من منصبه لفشله في إحراز النصر. فاعتزل هذا في الريف في «تراقية» وتفرّغ لكتابة تأريخ عن الحروب بين أثينا وإسبارطة وهي الحروب التي نكب بسببها. وكان سلفه هيرودوتس قد استمر في ذكر حوادث الحروب الفارسية الإغريقية إلى ما بعد موقعة سلاميس بقليل (480 ق.م). فلم يملأ «ثوسيدايدز» الفترة الطويلة بين سلاميس وبين نشوب الحروب البيلوبونيسية (431 ق.م) إلّا بمقدمة عامة. ووجه همّه إلى كتابة التأريخ المعاصر فقط، لانعدام الوثائق والمراجع. ولأنه وضع نصب عينيه التحري عن الحقائق وحدها ونبذ الأساطير والحكايات، ورأى أن خير سبيل للعثور على الحقائق تسجيل الحوادث والوقائع إبان حدوثها أو حوالي ذلك دون التعويل على روايات الناس بعد زمن جيل أو جيلين عندما يحورها ويغيرها خيال الناس وهو الخيال الذي لا يمكن السيطرة عليه. ولا بأس أن ننقل نص ما قال بشأن منهج بحثه:

«لم أركن إلى المجازفة في التحدث عن وقائع الحرب من أي مصدر كيفما اتّفق أو من فكر من أفكاري. ولم أصف أي شيء لم أشاهده بنفسي أو

آخذه من الآخرين الذين دققت عنهم وفحصت رواياتهم». والواقع أن المؤرخ «ثوسيدايدز» كان مفكراً نقاداً من الطراز الأول لا قياس له بسلفه هيرودوتس الذي اتّصف بالتديّن وقبول القيم المأثورة للحياة، وهذا يفسر لنا الفرق بين تأريخي كل من الرجلين. ولأن بحث «ثوسيدايدز» بحث خاص بحقائق محدودة وبموضوع محدود فقد امتاز تأريخه بالوحدة الفنية وبوحدة الموضوع بخلاف تأريخ سلفه. ومع ذلك ففي تأريخ هيرودوتس نوع من السحر والجاذبية بسبب تنقله في بحثه وشمول تأريخه مواضيع مختلفة لا نجدها في تأريخ خلفه. وملخّص القول يمكننا أن نعد كلّاً من التأريخين يمثل طريقة خاصة في البحوث التأريخية لا تزال كلّ منهما متّبعة في كتابة التأريخ إلى يومنا هذا. فقد احتذى على مثال «ثوسيدايدز» جماعة كبيرة من المؤرخين عنوا من الوقائع والحوادث التأريخية بتأريخ الدولة ـ أي السياسية والحروب». ولكن ترى جماعة أخرى من المؤرخين أن التأريخ ينبغي أن يكون شاملاً أوسع من موضوع السياسة والحرب أي موضوع «ثوسيدايدز» بل يجب أن يكون واسعاً عاماً كالحياة البشرية نفسها وهذا هو (تأريخ الحضارة) الذي بدأ بوضع أسسه شيخ المؤرخين هيرودوتس.

ونبغ في العهد الروماني مؤرخان إغريقيان أحدهما (بوليبيوس)[1] والثاني (فلوطرخ). وكان أولهما من جملة الرهائن الذين جلبهم الرومان من الإغريق بعد القضاء على استقلال الإغريق وضم المدن الإغريقية إلى روما (146 ق.م) وكان (بوليبيوس) من السياسيين، وعلى قدر عظيم من الثقافة والتهذيب وقد ألحق بعائلة (سكيبيوس) القائد الروماني وشاهد بنفسه الحملات الحربية العظيمة فكتب بالإغريقية تأريخاً خالداً دوّن فيه أخبار الحروب الرومانية الكبرى. أما فلوطرخ (64 ـ 120 م) فقد عاش في عهد الأمبراطور الروماني تراجان، وقد اشتهر بتراجمه النفيسة[2] التي كتبها عن مشاهير الإغريق

---

(1) (Polybius) و(Plutarch).

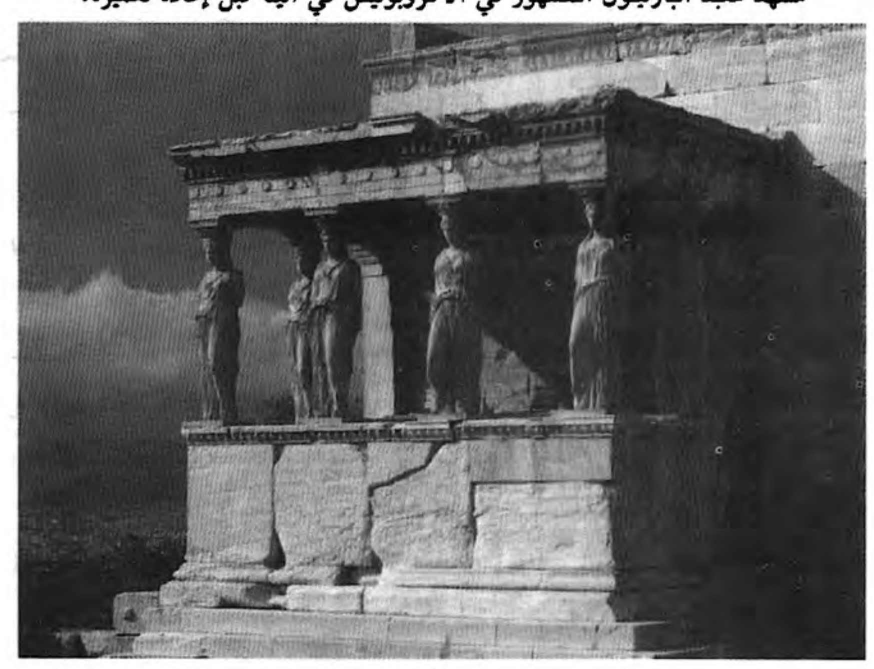
(2) Plutarch Lives.

والرومان وصارت هذه المرجع الأساسي للأجيال التالية في معرفتها بأشياء كثيرة عن الإغريق والرومان.

وفيما عدا هيرودوتس وثوسيدايدز، ظهر في الإغريق بعض المؤرخين من الأزمان القديمة وأشهر هؤلاء (هيكتوس) (Heacetaeus)، وكان هذا معاصراً الفيلسوف الأيوني (طاليس) وعاش في القرن السادس ق.م.، وهو أول مؤرخي اليونان. وقد اشتهر بما كتبه عن تأريخ اليونان وأصلهم وهجراتهم الأولى. وهو يشبه المؤرخين العظيمين بنعته نفسه بأنه يتحرى الحقيقة وقد تحلّى بالروح العلمية ويؤثر عنه أنه قال: (إن ما أكتبه هنا هي القصة التي أعتقد بأنها حقيقة صحيحة، لأن أساطير الإغريق كثيرة، وهي برأيي مستحيلة التصديق). وقد أعقب هذا المؤرخ هيرودوتس الذي أوجزنا ترجمته.



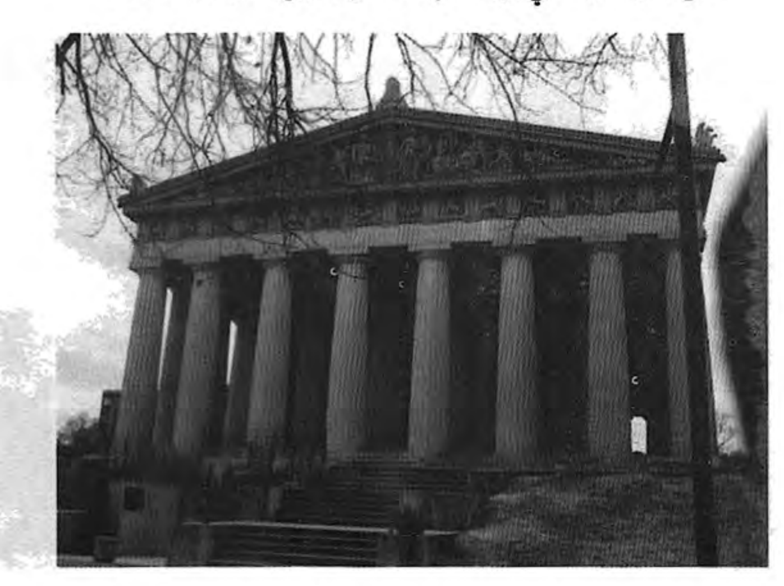
مشهد معبد البارثينون المشهور في الأكروبوليس في أثينا قبل إعادة تعميره.



واجهة إيوان جميل الفن والعمارة بني لتزيين أحد معابد الأكروبوليس (في أثينا) المخصصة للآلهة «أثينا» والمعروف باسم «إيرخثيوم» (Erechtheum) وهو اسم أحد الملوك اليونان القدماء حيث كان المعبد يقوم في قلعته القديمة.



مشهد من منحوتات جميلة في هيكل الإله «زوس» في مدينة «برغاعوم» من العهد الهلنستي يرينا معركة أسطورية بين الآلهة والعمالقة.



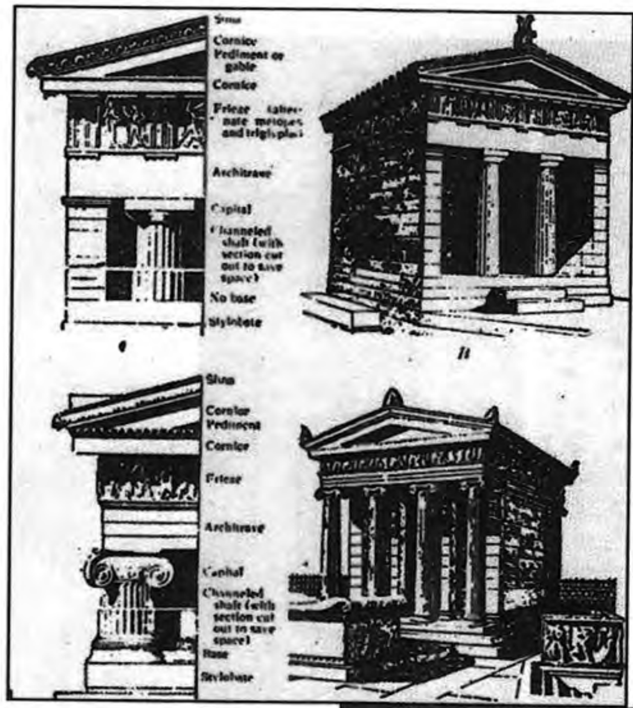
إعادة بناء معبد البارثينون في أثينا كما كان عليه في الأصل في القرن الخامس ق.م. حيث أشاده بريقليس الشهير على يد المعمار «ايكتينوس» والنحّات الشهير «فيدياس».



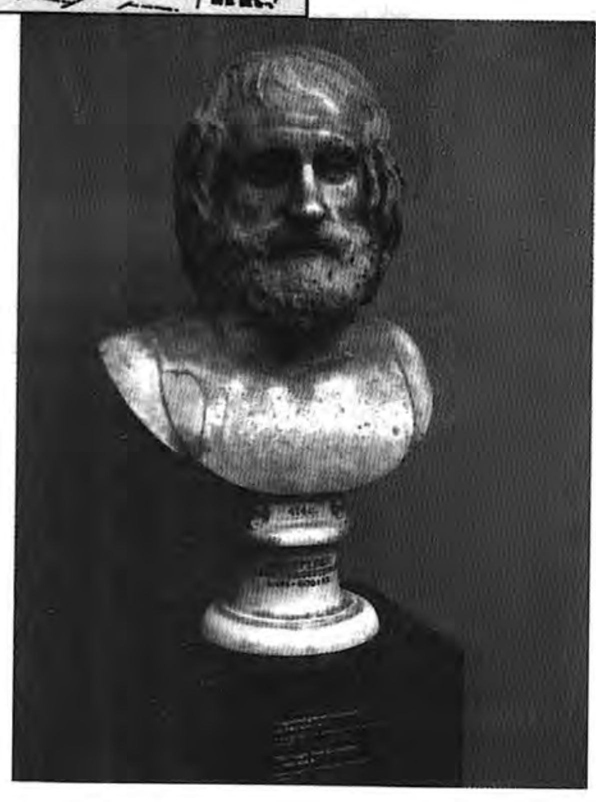
التمثال الشهير الذي يمثل الإله هرمز (Hermes) يلاعب الإله الطفل «ديونيسوس». لقد كسرت الذراع اليمنى. يعدّ هذا النحت قطعة خالدة في فن النحت اليوناني مما جاءنا من القطع القلائل الأصلية (من صنع النحّات المشهور براكستيليز، القرن الرابع ق.م).



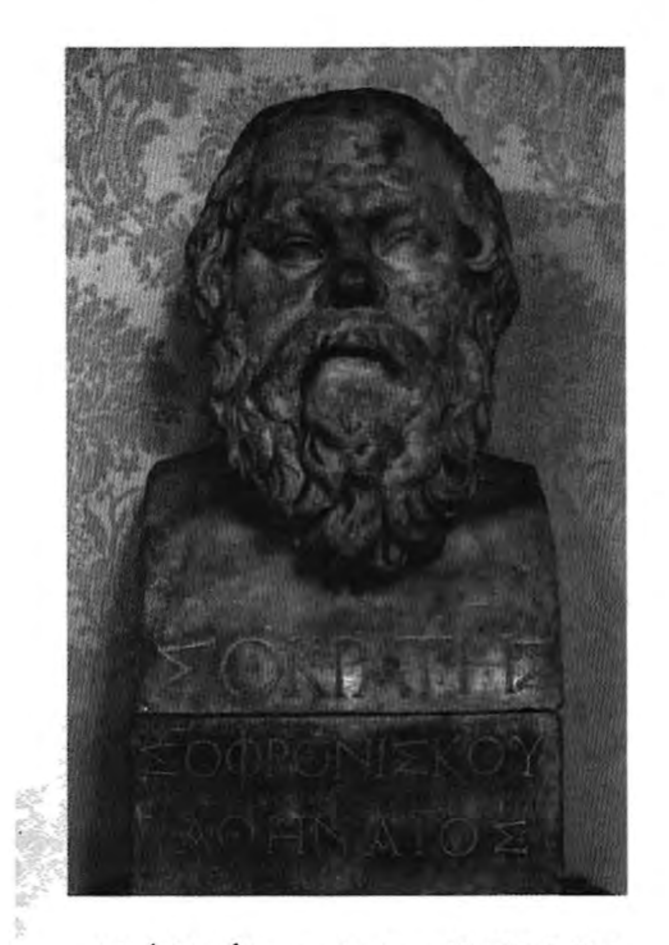
جزء من الأفريز الذي نحته النحات الشهير «فيدياس» (القرن الخامس ق. م) يمثل النحت شباناً يركبون الجياد في موكب خاص بأحد الأعياد الأثينية.



الطرازان الرئيسان في فن العمارة الإغريقي وهما الطراز الدوري (A,B) والطراز الأيوني (إلى الأسفل).



تمثال نصفي للروائي اليوناني «يوربيدز» (وقد كتب اسمه بالحروف اليونانية في أسفل التمثال).



تمثال لسقراط الشهير على شيء من الأهمية التأريخية لأنه يحمل كتابة باليونانية هي جزء من دفاع سقراط في محاكمته التي انتهت بالحكم عليه بالموت (كما جاء ذلك في أحد كتب تلميذه أفلاطون المسمى بالدفاع).

الفصل الثامن والثلاثون

موجز تأريخ الرومان

تأريخ الرومان والحضارة الرومانية موضوع بحث مستقل لا يمكن الإسهاب فيه في هذا الكتاب، ولكن هذا القسم الذي خصصناه للرومان، مع إيجازه، كاف لتكوين فكرة عن خطوط التأريخ الروماني وعن أبرز ميزات الحضارة الرومانية. ولما كانت حضارة الرومان فرعاً من حضارة أعمّ، وهي الحضارة الهلينية فإن ما ذكرناه عن تلك الحضارة (أي الحضارة الإغريقية) يساعد على فهم حضارة الرومان وأصولها وتراثها. وقد أثر التأريخ الروماني في حياة الشرق القديم في الأيام الأخيرة من تأريخه القديم، ونشأت علاقات مهمة بين الرومان وبين الدول الشرقية التي قامت على أنقاض دول العراق القديم كما مرّ بنا في الكلام عن الدولتين الفرثية والساسانية، وكان العراق بوجه خاص ميداناً لحروب كثيرة نشبت بين الرومان وبين تلك الدول. وإلى ذلك سيطر الرومان على جميع الأقاليم الكائنة في شرق حوض البحر المتوسط زهاء خمسة قرون. وكانت هذه الأقاليم ملتقى حضارات الشرق القديم والحضارة الإغريقية (الهلينية).

وإذا كان من المتعذر، كما قلنا، الإحاطة بتأريخ الرومان بوجه التفصيل فإننا مع ذلك نستطيع أن نكوّن صورة جامعة عن ذلك التأريخ بتقسيمنا إياه إلى عهدين كبيرين أساسيين هما:

(1) عهد الدولة أي الجمهورية الرومانية.

(2) عهد الأمبراطورية.

1 ـ عهد الدولة الرومانية (الجمهورية):

ونذكر من هذا العهد النقاط البارزة أي الحقائق الأساسية في التأريخ الروماني على الوجه الآتي:

1 ـ جاءت القبائل الإيطالية إلى شبه الجزيرة التي دعيت فيما بعد «إيطاليا»، وكانت هذه القبائل جزءاً من هجرات الأقوام «الهندية ـ الأوروبية»، وكانت في بداية أمرها، كما كان الحال في قبائل الفرس والإغريق، قبائل شبه همجية، ولكنها أخذت تتعلم أصول الحضارة بالتدريج من اتصالاتها بالمدنيات المجاورة. وتعلّمت بوجه خاص من جماعات كانت تقطن في إيطاليا نفسها قبل مجيء «الإيطاليين»، وهم «الأتروسكيون» الذين يحتمل أن يكون أصلهم من آسيا الصغرى وكانوا مسيطرين على إيطاليا في القرن السادس ق.م، من مدنهم المحصنة التي كانت في الإقليم المسمى «توسكاني» ثم تعلّمت من اليونان وأخذت عن القرطاجيين أشياء مفيدة من عناصر الحضارة.

2 ـ وكان الرومان في مبدأ أمرهم يحكمهم ملوك لا يمتّون إليهم بصلة ويرجّح كثيراً أن يكونوا ملوك الأتروسكيين أنفسهم، ولا نعلم كم دام هذا العهد. ولكن المرجّح كثيراً أن الإيطاليين أنشؤوا جمهورية قوامها «دولة المدينة» ولا سيما في روما في حدود 508 ق.م.[1] لا تفرق كثيراً عن دويلات المدن الإغريقية، وكان في إيطاليا دويلات مدن أخرى غير دولة روما، ولكن روما أخذت تسيطر عليها بالتدريج وتضمها إليها مكوّنة مملكة واحدة وبوسعنا أن نلخّص توطيد سلطان روما في جميع إيطاليا بالمراحل الآتية:

(أ) ظلت دولة روما حتى 325 ق.م. في حروب مع الأتروسكيين ومع منافسين آخرين من اللاتين وكذلك صدّت هجمات الغاليين واستطاعت أن

(1) تروي المآثر الرومانية أن مدينة روما تأسست في حدود 753 ق.م. وأن الذي أسسها الأخوان التوأمان رومولوس وريموس (انظر الصورة آخر الفصل).

تنجح في جميع ذلك وتحرز السيادة، وكانت في أثناء ذلك قد اكتسبت كثيراً من عناصر الحضارة ومن بين ذلك الحروف الهجائية المشتقة من الخط الإغريقي.

(2) بدأت روما بصفتها زعيمة الدويلات اللاتينية في (325 ـ 280) في دحر الأقوام الإيطالية الأخرى في وسط إيطاليا وفي جنوبها (ومن بين ذلك القبائل المعروفة بالسامنية) وكذلك الأتروسكيين والغاليين.

(3) وأخيراً رضخت بعض المدن الإغريقية في إيطاليا إلى سيادة روما، واستطاعت في حدود (280 ـ 275) أن تصفي الحساب مع منافسيها فتقضي على مقاومتهم.

(4) اتخذت روما سياسة حكيمة باتخاذ القبائل الإيطالية التي كانت تخضعها حلفاء لها وأعطت الجماعات الأخرى الحكم الذاتي المحلي، وإذا أضفنا إلى هذا العامل الطرق الرومانية الشهيرة أدركنا العوامل التي استطاعت بها روما أن تؤسس دولة قوية موطدة استطاعت أن تقف بوجه كثير من الصدمات التي حلّت بها فيما بعد.

وقبل أن نتابع إيجاز الوقائع الأساسية في تأريخ الرومان نقول كلمة مختصرة عن نظام الحكم في روما قبل أن تصير أمبراطورية وهو النظام الذي نشأ مع نشوء الدولة الرومانية. ويبدأ ذلك منذ أن تخلصت روما من حكم الملوك الأتروسكيين وأخرجتهم من المدينة في حدود (500 أو 508 ق.م)، وكان العامل المهم في طرد هؤلاء الملوك طبقة النبلاء الرومان (الباتريشي)، فأخذ هؤلاء زمام الحكم بيدهم، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يكون ملكاً، بل إنهم وافقوا لعله إرضاءً للناس، على أن ينتخب اثنان منهم يسميان «القنصلين» لرئاسة الدولة وكانت مدة انتخابهما سنة واحدة وكانا متساويين في السلطات. وكانت طريقة انتخابهما تتمّ في كل عام من مجمع يضم جميع القادرين على حمل السلاح أي جميع المحاربين. ويكون نوع الحكومة هذا النظام الجمهوري تقريباً ولكن كان للجمهورية رئيسان. ولمّا كان حق اختيار

القنصلين محصوراً في طبقة النبلاء فقد صارت حكومتهم تتّصف بالاستبداد. ولكن العوام (البليبيون وهم على الأكثر من القبائل اللاتينية) رفضوا الخضوع إلى استبدادهم وحيث كان النبلاء في حاجة ماسة إلى العوام إذ هم مادة الدولة وجنودها، فقد استرضوهم وأعطوهم حصة كبيرة في الحكم بأن سمحوا لهم بانتخاب جماعة من الموظفين من مجمعهم، وسمي هؤلاء الموظفون «تربيون» وكان لهؤلاء الحق في نقض أي قرار أو قانون حتى ما كان يصدر من القنصلين. فإذا ما شعر مواطن بهضم حق له من جانب القنصل فإنه كان يرفع ظلامته إلى «التربيون» الذي كان باستطاعته أن ينقض الحكم حتى الحكم الصادر بالإعدام، وهكذا حصل «التربيون» على سلطات واسعة وعندما زادت أعمال الحكومة زاد عدد أعضاء مجلس «التربيون» ونشأت طبقات جديدة من الموظفين لمساعدة القنصلين اللذين كانت أعمالهما كثيرة كقيادة الجيوش وتنفيذ القوانين والهيمنة على موارد الدولة إلى غير ذلك من شؤون الحكومة، فعين موظفون لإدارة الشؤون المالية[1]، ثم موظفون عامون[2] أنيطت بهم إحصاء النفوس وتخمين الضرائب المترتبة على الأفراد وتنظيم أمور الانتخاب ومراقبة سلوك الناس وكذلك عين القضاة للبتّ في القضايا[3]. واعتاد الرومان في إبان الأزمات الوطنية أن يعينوا حاكماً عاماً ممّن يثقون بهم وبنزاهتهم يعطى السلطة العليا المطلقة وهذا هو الدكتاتور الذي كان يعين زمناً قصيراً محدوداً. ونشأ عند الرومان مقابل «التربيون» مجلس (السنات) أي مجلس الشيوخ[4] يؤلف من النبلاء (أي الباتريشيين) والواقع أن مجلس الشيوخ يرجع في أصله إلى زمن الملوك الأتروسكيين الذين كانوا يجمعون مثل هذه المجالس للشورى وكان هذا يسيطر على القنصلين والسلطة التنفيذية. ومع سلطة

(1) يسمى أحدهم (Qudetor).

(2) ويسمى أحدهم (Censor) أي الرقيب ومنه اشتقت الكلمة الإنكليزية بهذا اللفظ والمعنى.

(3) ويسمى أحدهم (Praetor).

(4) وهو مشتق من (Senex) أي الشيخ.

«التربيون» بحق النقض ورفع الظلامات عن طبقة العوام، فلم يكن بوسعه أن يضمن حقوق العوام وتمتعهم بحق المواطنة والحقوق السياسية ومحافظة ممتلكاتهم إلى غير ذلك، ولذلك لم تكتف طبقة العوام بحصولها على مجلس العوام (أي التربيون المنتخب منهم) بل استمرّت في انتزاع حقوقها من الطبقة المتنفذة المثرية، واستمرّ النزاع وكان شبيهاً بما حدث في أثينا وبعض الدويلات الإغريقية الأخرى في أثناء انتقالها إلى الحكم الديمقراطي ولكن تطور النزاع في روما إلى نتائج أفضل ووصلوا إلى تسوية أحسن والواقع أن الرومان كافحوا كفاحاً شديداً، ولكن بدون إراقة دماء أو ثورات ونجحوا نجاحاً كبيراً في خلال القرنين اللذين أعقبا تأسيس الجمهورية. فمن جملة ما طالبوا به وأحرزوا فيه النجاح تدوين القوانين المتعارف عليها، فلم يكد يمضي خمسون عاماً على تأسيس الجمهورية حتى دوّنت القوانين الرومانية القديمة على اثني عشر لوحاً من البرونز (450 ق.م)، وطالب الشعب في الوقت نفسه أن يكون له نصيب في وضع القوانين الجديدة. ونشأ في روما مجلسان مهمان[1] صارا مجلسين تشريعيين لجميع الدولة الرومانية. وقد استطاع العوام الحصول على حقوق متساوية في انتخاب هذين المجلسين، وهكذا أصبحت للعوام حقوق مهمة في التشريع وزادت حصتهم من إدارة الدولة وحفظت حقوقهم[2].

2 ـ الأمبراطورية الرومانية:

أ ـ أسباب نشوء الأمبراطورية ومقدماتها:

إن العوامل التي سببت انتقال الدولة الرومانية من النظام الجمهوري إلى النظام الأمبراطوري (في عهد أوغسطس) لم تقتصر على اتساع الدولة الرومانية

---

(1) أحدهما (Centuriate) (المئوي) والآخر (Tribal) (القبلي) أو باللاتينية (Comitia Tributa) والآخر (Comitia Centuriata).

(2) يراجع ما ذكرناه عن قرطاجة وعلاقتها مع الرومان في تأريخ بلاد الشام.

بالفتوح الخارجية وضم الأقاليم الخارجية فحسب، بل لنشوء هذا النظام من الحكم أي النظام الأمبراطوري[1] عوامل أخرى من جملتها عامل الاتساع الخارجي وبوسعنا أن نحصر هذه العوامل في ثلاثة أصناف:

أ ـ العوامل السياسية:

نتجت هذه العوامل من النقص السياسي في نظام الحكم نفسه، وبالدرجة الأولى عجز مجلس الشيوخ الروماني في تنظيم إدارة عادلة لائقة تشمل جميع الممتلكات والبلدان التي دخلت في حوزة الدولة الرومانية على أثر الفتوح الخارجية وقد أصبح التفسّخ والفساد مزمنين ولا سيما من جانب الحكّام المستبدين الذين كان همهم سلب خيرات الأقاليم التابعة للدولة الرومانية.

ب ـ العوامل الاقتصادية:

وقد أدّى نهب الأقاليم وابتزاز ثرواتها تجمّع الثروات في أيد قليلة من الحكّام الأرستقراطيين وأصحاب المصالح والأعمال وجامعي الضرائب. فنشأ في روما نظام رأسمالي مركّز نتج عنه الاستحواذ على الأراضي والأملاك بأيد قليلة وإفقار الفلاحين والمزارعين الصغار. ومما زاد في الطين بلة نظام الرق، حيث صار الملاكون يستخدمون العبيد في زرع الأرض فحلّت البطالة والمجاعة في طبقات كثيرة من الناس.

ج ـ العوامل الاجتماعية:

وكان أبرز النتائج الاجتماعية التي نتجت عن تلك الشرور ازدياد البطر

---

(1) سيتضح من الكلام على العهد الذي نشأت فيه الأمبراطورية في زمن أوغسطس أنه بالرغم من نشوء الأمبراطوريات في الشرق بوجه خاص، فإن هذه الأمبراطوريات لم تؤثر في صميم نظام الحكم المتبع في تلك الدول وإنما اقتصر أمرها على اتساع الدولة بالفتوح الخارجية وضم الأقاليم الأخرى إليها. أي إن نظام الحكم ومراكز الملوك في تلك الدول لم يتغير كما حدث في «روما» عندما نشأ فيها النظام الأمبراطوري حيث حدث تغيير دستوري في نظام الحكم، ولذلك يصح أن نطلق على الأمبراطوريات القديمة اسم (Inorganic Empires) تمييزاً لها عن الأمبراطورية الرومانية التي نسميها (Organic).

والبذخ عند الأغنياء وإفقار الجماهير من السكان وازدياد العبيد وعملهم فالتجأ الفلاحون الذين طردوا وحلّ محلهم العبيد إلى الهجرة إلى روما فازداد عدد الجماهير الفقيرة البطالة، وخلقت من ذلك هوة سحيقة بين الأغنياء المتنفذين وبين الفقراء وازداد فيما بينهم الحقد والكراهية.

إن جميع هذه العوامل حتمت نشوء نظام جديد غير النظام الروماني الجمهوري العتيق وهو النظام الذي نشأ يوم كانت روما «دولة مدينة» أما الآن فقد رأينا كيف انتقلت دولة المدينة هذه أولاً إلى دولة موحّدة ضمّت جميع شبه الجزيرة ثم بسطت سلطانها على أقاليم أخرى، فشملت الدولة شعوباً وأقواماً مختلفة، وقد أصبح مجلس الشيوخ الذي تتركّز في يده السلطات عاملاً في إضعاف رئاسة الدولة والسلطة التنفيذية، وكانت إدارة الدولة الواسعة وحكمها يتطلبان الحزم والسرعة في تقرير الأوامر وتنفيذها وحفظ الأمن وصيانة الحدود التي تستلزم قيادة عسكرية حكيمة واسعة النفوذ، ومما زاد في الطين بلة أن الأغنياء من النبلاء كانوا منقسمين على أنفسهم وفي نزاع فيما بينهم على استلاب الثروات.

ولما يئس العوام من الإصلاح قاموا بعدة ثورات لنيل حقوقهم وانضم إليهم كثير من النبلاء لجلب العوام إليهم وتوسيع نفوذهم في الحكم منافسة لغيرهم من النبلاء وقام قسم من هؤلاء المؤيدين للعوام ببعض الإصلاحات التي مسّت بحقوق مجلس الشيوخ (السنات) وأغضبته فحدثت اغتيالات ومؤامرات، وبرز قواد وزعماء، وكان من جملة النبلاء المتقربين من العوام قائد شهير اسمه «بومبيوس» (بومبي) فانتخب قنصلاً (في عام 70 ق.م) وألغى هذا بعض الأنظمة والقوانين المضرة بمصالح العوام واستطاع أن يحافظ على الأمن ويقضي على القرصنة البحرية التي كانت منتشرة في البحر المتوسط وثبت سلطة روما بالقضاء على الثورات التي نشأت في إيطاليا وإسبانيا وآسيا الصغرى، واستطاع أن يفتح الأقاليم في سواحل البحر الأسود وفتح سوريا وجعلها إقليماً رومانياً (64 ق.م) وفتح القدس كذلك حتى أنه أوصل حدود الدولة إلى الفرات كل ذلك عمل على ازدياد نفوذ «بومبيوس» فخافه مجلس

الشيوخ وخشي استبداده بالحكم فأخذ يعارضه ويقاومه، وبرز من المعارضين له قائدان هما «كراسوس» و«يوليوس قيصر»، ولكن استطاع بومبيوس أن يتّفق معهما وتألفت على أثر ذلك حكومة ثلاثية[1] (59 ق.م) وقد صار قيصر في أول سنة من الحكم قنصلاً، ثم صار الاتفاق على أن يحكم قيصر بلاد الغال (فرنسا) مدة خمس سنوات وأن يبقى بومبيوس في روما ويكون صاحب الأمر. أما «كراسوس» فقد ذهب بحملة حربية مع الفرثيين[2] فقتل في الحرب.

يوليوس قيصر:

أخذ يمهد لنفسه ويبسط نفوذه، وقد تقرب من العوام (وهو من طبقة النبلاء) وقد أظهر نفسه سياسياً ممتازاً وعندما ذهب إلى فرنسا أبدى مهارة عسكرية فائقة، واستطاع بعد حروب دامت ثماني سنوات أن يبسط نفوذه على جميع فرنسا من جبال الألب حتى بحر المانش، ومن نهر الراين حتى ساحل المحيط الأطلسي[3] وقد غزا إنكلترا مرتين. واستطاع قيصر أن يكسب رضا جنوده ويستميلهم إليه بحسن المعاملة وزيادة الرواتب وكانت أخبار انتصاراته وأعماله العسكرية قد أكسبته عند الرومان مكانة مرموقة، كل ذلك جعل بومبيوس ومعه مجلس الشيوخ الروماني يخشى نفوذ قيصر واستبداده. وعندما قربت مدة حاكمية قيصر على بلاد الغال من الانتهاء صار أتباعه في روما، بتوصية منه، يمهدون له السبيل لانتخابه قنصلاً، فخشي مجلس الشيوخ من رجوعه إلى روما وهو مزهو بالانتصارات العسكرية، فأخذ «بومبيوس» جانب مجلس الشيوخ متخلياً عن زعامة العوام وجماهير الناس. وكانت أولى بوادر

---

(1) (Triumvirate).

(2) راجع البحث الخاص بالفرثيين.

(3) ومما يذكر عن قيصر أنه مع انشغاله في الحروب والحملات فقد وجد متّسعاً من وقته فألف تأريخاً في الحروب الغالية، ويعدّ تأريخه من أحسن أنواع النثر اللاتيني، وإن كان الغرض من وضعه دعاية سياسية لنفسه أظهر فيها قيصر الأعمال العسكرية المجيدة التي قام بها في سبيل الرومان.

النزاع أن مجلس الشيوخ أصدر أمراً إلى قيصر بتسريح جيشه وهو الجيش الماهر الذي لا يرتبط إلّا بقيصر بصفته قائده العظيم المحبوب. فسلك قيصر تجاه ذلك خطوة جريئة سريعة بأن سار بجيشه إلى روما وأخذ خصومه على حين غرة (49 ق.م)، فلم يسع بومبيوس أن يقابل جيوش قيصر الزاحفة فهرب ومعه كثير من أعضاء مجلس الشيوخ والنبلاء إلى بلاد اليونان ليشن الحرب من هناك وكان معه أسطول عظيم، وله جيش في إسبانيا، وهكذا كان على قيصر أن يحارب قوات الأعداء في جبهتين في الغرب والشرق. وقد بدأ حربه في إسبانيا وبحركات بارعة وبقطع الإمدادات اضطر جيش «بومبيوس» في إسبانيا على التسليم بدون حرب تذكر (49 ق.م) فتفرغ قيصر لحرب خصومه في اليونان (49 ـ 48 ق.م) وقضى عليهم في معركة مشهورة (48 ق.م)، فهرب «بومبيوس» إلى مصر وقتل هناك بتحريض من قيصر. وهكذا تخلص قيصر من أعدائه ومنافسيه وأصبح سيد الأمبراطورية الأوحد. فوجّه همّه من بعد ذلك إلى توطيد أمور الأمبراطورية في الخارج، واستغل فرصة النزاع على عرش مصر بين بطليموس وأخته كليوبترا، فتوجه بجيشه إلى الإسكندرية وحارب بطليموس وقتله وأجلس كليوبترا على العرش وبقي معها عدة شهور[1] (من تشرين الأول 48 إلى حزيران 47 ق.م) وأبدى ضعفاً وانجذاباً أمام الملكة الجميلة، وعاش معها في الإسكندرية[2]. وقد حدثت من بعد ذلك ثورة في آسيا الصغرى فأخمدها قيصر في بضعة أيام. ومما يؤثر عن قيصر كلماته المشهورة التي أرسلها إلى مجلس الشيوخ الجديد (أتيت ـ رأيت ـ ظفرت)[3]، وهي تدل على اعتداد قيصر بنفسه وبقابلياته. وعاد قيصر إلى إيطاليا، وكانت انتصاراته قد رفعت منزلته في نفوس الشعب الذي وجد منه العطف على

---

(1) كليوبترا المشهورة بالجمال وهي سابعة امرأة بهذا الاسم من البطالسة وكانت آخر البطالسة في مصر.

(2) وقد حدثت مرة اضطرابات أحدثها الغوغاء والعوام فهوجم قيصر ولكنه نجا بصعوبة وقد أحرقت مدينة الإسكندرية المشهورة في أثناء ذلك ومعها مكتبتها الشهيرة.

(3) Veni, Vidi, Vici.

مصالحه والرغبة في الإصلاح، فكافأه مجلس الشيوخ وعيّنه دكتاتوراً طوال حياته (سنة 45 ق.م) ومما يقال عن قيصر بوجه الإجمال إنه استعمل قوته ونفوذه باعتدال، فلم ينتقم من أحد ومنح الشعب حريته وقضى على الفوضى ونشر الأمن. وضرب على أيدي الموظفين والجباة المختلسين ووزع الأراضي على جنوده وشغل المواطنين العاطلين، ومنح حق الرعوية الرومانية لجميع سكان البلاد التابعة، ووضع تقويماً جديداً هو التقويم الذي لا يزال مستعملاً حتى اليوم ويسمى باسمه (التقويم اليولياني) وأطلق اسمه على أحد الشهور «يوليو» (تموز).

قام قيصر بهذه الأعمال على الرغم من أنه لم يعش إلّا خمس سنوات منذ أن دخل إلى إيطاليا (49 ـ 44 ق.م)، قضى أربعاً منها بالحروب. وقد عيّن اليوم الثامن عشر من آذار سنة 44 لقيامه بحملة على الفرثيين شرق الفرات ولكن المؤامرات كانت تُحاك ضده، لأن قسماً من الرجال المشهورين من أعضاء مجلس الشيوخ كانوا يمقتون حكم رجل واحد، وكانوا يحاولون إعادة النظام الجمهوري العتيق الذي حكم التأريخ بزواله وعدم صلاحيته. فأغتيل قيصر في قاعة مجلس الشيوخ في 15 آذار سنة 44[1] وكان من جملة قتلته البارزين «بروتس» و«كاسيوس».

أنطونيوس والحرب الأهلية:

كان قيصر محبوباً لدى الشعب فأثار اغتياله سخطه واستغل ذلك «أنطونيوس» صديق قيصر وأهاج الشعب على قاتليه الذين أخذوا الحكم من بعده واضطرهم على الهرب إلى مقدونيا، وأخذ أنطونيوس الحكم لنفسه، ولكن كان لقيصر قريب شاب يسمى «أوكتافيوس» كان قيصر قد تبنّاه وأوصى بأن يكون وريثه فأسرع هذا الشاب إلى روما وطالب بحقه واستطاع بما أبداه

(1) وهو التأريخ المشهور (the Ides of March). راجع بهذه المناسبة رواية «يوليوس قيصر» لشكسبير.

من الحنكة والسياسة أن يستميل إليه قسماً من الجنود ونجح في انتخابه قنصلاً (43 ق.م) واستطاع أن يكوّن اتحاداً ثلاثياً منه ومن أنطونيوس ومن زعيم آخر هو «لبيدوس» وتكوّنت من الثلاثة حكومة ثلاثية[1]، على أن يحكم أنطونيوس القسم الشرقي من الأمبراطورية وأوكتافيوس القسم الغربي منها ويحكم الثالث شمالي أفريقيا عدا مصر. وبموت الثالث بعد مدة قصيرة أصبحت الأمبراطورية مقسمة بين «أنطونيوس» و«أوكتافيوس»، أخذ أولهما القسم الشرقي منها وأخذ الثاني القسم الغربي. وكان أول شيء قامت به هذه الحكومة القضاء على قتلة قيصر في معركة «فيلبي» عام 42 ق.م. وأخذت تظهر من بعد ذلك مقدرة الرجلين ومواهبهما. وقد بدا للرومان أن أنطونيوس دون صاحبه في الحكمة والكياسة، وازدادت ضآلة شأن أنطونيوس على أثر فشل مريع في حرب قام بها مع الفرثيين، فالتجأ إلى مصر، إلى كليوبترا الملكة الفاتنة التي سحرت قلبه فأحبها وهام بها، وقد بادلته هذه الحب رغبة في المحافظة على عرشها، فعزم على أن يتزوجها ووعدها بمملكة مصر وبمنح أولادها أفريقيا وسوريا، فانتهز ذلك غريمه «أوكتافيوس»، ولما وصلت الأخبار إلى روما ثار سخط الشعب وقرر مجلس الشيوخ إعلان الحرب على أنطونيوس. وقاد أوكتافيوس الأسطول الروماني والتقى بأسطول أنطونيوس في (أكتيوم) على الساحل الغربي لبلاد اليونان فنشبت معركة عنيفة انتصر فيها «أوكتافيوس» فهرب أنطونيوس بقسم من الأسطول ومعه كليوبترا وتخلى عن جيوشه، والتجأ إلى مصر مرتمياً في أحضان كليوبترا، وسار أوكتافيوس في السنة التالية إلى مصر فدخلها بدون مقاومة تذكر، وانتحر أنطونيوس لعله بسبب تخلي كليوبترا عنه. وأعقب من بعد ذلك انتحار كليوبترا بعد أن يئست من استمالة أوكتافيوس واسترضائه فخشيت ما سيحل بها من المصير المحزن وهو أخذها أسيرة إلى روما وهي سليلة البطالسة وآخر ملوك مصر، فانتحرت بأن تجرّعت السم بيدها وبذلك

---

(1) وهي الحكومة الثلاثية الثانية من بعد زمن قيصر.

انتهت دولة البطالسة في مصر وأصبحت مصر ولاية تابعة إلى الأمبراطورية الرومانية (30 ق.م).

وهكذا انتهت الحروب الأهلية والقلاقل وأخذت أمور الأمبراطورية تستتب وتستقر وبدأ عهد جديد هو عهد الأمبراطورية امتاز بالهدوء وانتشار السلام مدة طويلة، زهاء القرنين بدأتا في عهد أوكتافيوس ولا سيما من بعد قضائه على غريمه أنطونيوس وضم مصر إلى الأمبراطورية.

ب ـ النظام الأمبراطوري: أوغسطس:

عندما عاد «أوكتافيوس» إلى روما منتصراً استقبل بحماس وحفاوة، ولم يبق له منافس في الحكم، وبدأ عهداً جديداً دام زهاء القرنين يعد من أمجد عهود التأريخ البشري من حيث السلام والهدوء في معظم أجزاء العالم المتمدن. وشعر الرومان بالطمأنينة بعد قرن كان مليئاً بالثورات والحروب الأهلية والتخريب، وشعروا كذلك بضرورة سيطرة حاكم واحد على أجزاء الأمبراطورية الواسعة. وبدأ هذا العهد الجديد بحكم أوكتافيوس الذي دام أربعاً وأربعين سنة (30 ق.م. ـ 14 م) ساد فيها الأمن والسلام، وانصرف هذا العاهل إلى العمران والحضارة، وأحبه الشعب حباً جماً حتى أنهم لقّبوه «أوغسطس» أي «المبجل» أو «الموقر». وكان أعظم عقبة في حكمه تبديل النظام القديم للحكومة وتثبيت ما حصل عليه من السلطة بالطرق الشرعية القانونية. ولكن لم ينهج سبيل العنف واحترم النظام القديم ولم يرغب في أن يكون ملكاً على طراز ملوك الشرق. وأول ما بدأ به أنه لم يناوىء مجلس الشيوخ بل حسن فيه عن طريق الأعضاء اللائقين، والواقع أنه تنازل لهذا المجلس وللشعب الروماني (في عام 27 ق.م) عن جميع سلطاته. ولكن مجلس الشيوخ شعر بعدم استطاعته إدارة شؤون الدولة معتبراً بالتجارب الماضية، فمنح أوغسطس رسمياً قيادة الجيش وحق إدارة أهم الولايات التابعة إلى الأمبراطورية، فاستطاع أن يأخذ لنفسه أهم حقوق مجلس العموم (التربيون) مما جعل سلطانه في الدولة يستند إلى أساس شرعي، ومنحه مجلس

الشيوخ عدا لقب أوغسطس لقباً آخر هو «الأمبراطور»[1]. وقد عدّ أوغسطس نفسه موظفاً يعينه مجلس الشيوخ ولم يكن تعيينه دائمياً بل لعدد محدود من السنين ثم أعيد تعيينه. وعلى ذلك فإن الأمبراطورية الرومانية في هذا العهد الجديد كانت تُدار بحكومة ثنائية من مجلس الشيوخ ومن الأمبراطور أو المواطن الأول، ولكن سلطات أوغسطس كانت تسير إلى التزايد لا سيما وقد كانت بيده السلطة على الجيوش. وقبل أن نذكر شيئاً عن نظام الأمبراطورية نتابع الإيجاز في الكلام عن عهد أوغسطس الذي يشبه بعهد «بريقليس» في تأريخ اليونان. وامتاز أول الأباطرة بالحزم والإدارة، ومما يؤثر عنه أنه قام بجولات في أنحاء الأمبراطورية ليقف بنفسه على حاجات سكانها وسير إدارتها. وقد أدرك ضرورة إنشاء جيش ثابت لحماية الأمبراطورية الواسعة، فألّف جيشاً ضخماً (بلغ عدده 400 ألف جندي) وزّعه في الحدود والأقاليم بحسب الحاجة. وحارب الأقوام التي هاجرت من أواسط آسيا واستوطنت في أواسط أوروبا وشمالها مهددة تخوم الأمبراطورية، واستطاع أن يكسر شوكتها ويدرأ خطرها إلى حين.

وقد انتهت حياة أوغسطس بموته في شهر آب عام 14 م فأطلق اسم الأمبراطورية على ذلك الشهر (أي أوغسطس ـ آب) تخليداً له، وقد أقام له الرومان تمثالاً عظيماً كانوا يسجدون له إجلالاً وتعظيماً.

خلفاء أوغسطس إلى سقوط روما[2]:

وبعد أن أجملنا كيفية انتقال نظام الحكم الروماني من النظام الجمهوري إلى النظام الأمبراطوري نوجز أحوال هذه الأمبراطورية الرومانية من بعد أول

---

(1) وكان من جملة ألقابه الجديدة المواطن الأول (Princeps). أما لقب الأمبراطور فهو لقب قديم كان يلقّب به القائد المنتصر وهو مشتق من أصل يعني «قاد أو حكم» أي (Imperator).

(2) تراجع الحوادث المهمة ولا سيما علاقات الحروب بين الرومان والفرس الفرثيين والساسانيين مما سوف لا نتطرق إليه في هذا الموجز.

أمبراطور فيها وهو أوغسطس فقد أعقبه في الحكم ربيبه أو ابنه بالتبني طبيريوس (14 ـ 37 م) الذي حكم حكماً مطلقاً وأساء في استعمال السلطة ولا سيما بعد مضي بضع سنوات على حكمه حيث ارتكب الظلم والاضطهاد لما لقيه من المقاومة في العاصمة، واشتهر حكم طبيريوس بأنه تمّ في عهده صلب السيد المسيح. وخلفه في الحكم «كاليجولا» (Caligulla) (37 ـ 41 م)، ولكن هذا لم يكن كفوءاً بل كان شبه مجنون، فانصرف إلى الملاذ حتى أنه صار يشترك في المصارعة مع اللاعبين. واغتاله أحد الضباط بعد حكم أربع سنين. وتميز حكم الأمبراطور الذي خلفه وهو كلوديوس (41 ـ 54 م) بإدخاله بدعة في الدستور الروماني تلك هي سماحه للنبلاء الغاليين بدخول مجلس الشيوخ ومناصب القضاء، كما افتتحت بريطانيا في عهده من بعد غزو يوليوس قيصر لها بنحو مائة عام فصارت ولاية تابعة للأمبراطورية (عام 43 م)، وقامت فيها مدن تطورت بمرور الأزمان إلى مدن إنجليزية مهمة. وأحاط كلوديوس نفسه ببطانة شريرة ولا سيما زوجاته وآل أمره إلى أن سمته إحداهن المسماة «أغريبينا» وكانت هذه أم نيرون فقامت بفعلتها لتمهد لابنها اعتلاء العرش. وكان نيرون (54 ـ 68 م) تلميذاً للفيلسوف الكبير «سنيكا»، ولكن لم تقوِّم فلسفة هذا الفيلسوف من غرابة أطوار نيرون فقد ارتكب آثاماً وشروراً كثيرة، وتنسب إليه المآثر أنه هو الذي أحدث الحريق الكبير في روما لكي يشيدها من جديد على طراز أحسن وأنه صعد إلى سطح قصره يمتّع نظره بمشهد النار عازفاً قصيدة من نظمه بعنوان «نهب طروادة»[1]، وأنه لكي يدرأ عنه الشبهة اتهم المسيحيين مستغلاً ما كان يتنبأ به بعضهم من قرب مجيء المسيح بعد هلاك العالم بالنار، فاضطهد المسيحيين اضطهاداً وحشياً، والمأثور أن بطرس وبولس هلكا نتيجة هذا الاضطهاد. وفيما كان نيرون بعيداً عن روما في الشرق حاكمه مجلس الشيوخ في غيابه وحكم عليه بالموت بتهمة الخيانة العظمى،

---

(1) إذا صحّت نسبة الحريق إلى نيرون فيكون هذا مصاباً بالجنون المعروف بجنون النار (Clyptomania).

فلما علم هذا انتحر، وكان نيرون سادس أمبراطور من سلالة يوليوس قيصر. وبعد موته وقعت الاضطرابات والمنازعات حول تولّي العرش فخلفه ثلاثة أباطرة خاملي الشأن لم يدم حكمهم زمناً طويلاً (68 ـ 69 م) ثم تغلب على عرش الأمبراطورية قائد الجيش الفلسطيني فسباسيان (69 ـ 79م)، وكان هذا شيخاً محبوباً، وحدثت في عهده ثورة اليهود المشهورة ضد الرومان فدمرت أورشليم بقيادة ابنه «طيطوس». وأوقعت مذبحة مريعة باليهود على ما بيّنا في كلامنا على تأريخ الشام. ومات فسباسيان موتاً طبيعياً فخلفه ابنه «طيطوس» (79 ـ 81 م)، الذي امتاز بتساهله، ولكن وقع في عهده حدثان مهمان أحدهما حدوث حريق آخر في روما كالذي حدث في زمن نيرون، كما ثار بركان فيزوف الشهير فدمر أشهر مدن «كمبانيه» وهما «بومبي» ومدينة «هركولانيوم»، فطمرت المدينتان بحمم البركان. ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أن المؤرخ الشهير «بليني» ذهب لمشاهدة الحدث ودرسه فأهلكه البركان[1]. وجاء من بعد طيطوس أخوه «دوميشان» (81 ـ 96 م) وبعد أن أمضى السنين الأولى امتلأ حكمه بالقتل واغتصاب الأملاك، فحدث نزاع حاد بينه وبين المجلس الأعلى الروماني، ولكن مات هذا الأمبراطور باغتياله من جانب أسرته وأعقب عهده حكم خمسة أباطرة لقّبوا بالأباطرة الصالحين (96 ـ 180 م) وهم نرفا (96 ـ 98 م) وتراجان (98 ـ 117 م) وهادريان (117 ـ 138 م) وأمبراطوران يسمى كل منهما أنطونيوس (138 ـ 180 م). هذا وقد سبق أن نوّهنا بعلاقات بعض هؤلاء وحروبهم في كلامنا على الدولة الفرثية. فلا نكرر ذلك إلّا بذكر بعض الملاحظات المفيدة عن بعض هؤلاء الأباطرة ولا سيما تراجان الذي كان جندياً إسبانياً، وهو أول من ارتقى عرش القياصرة من أهل الولايات الرومانية التابعة، ففتحت هذه السابقة الباب

---

(1) وبعد انطمار المدينتين بنحو 16 قرناً اكتشفتا بالصدفة في عام 1713 م ثم أجريت التنقيبات فيهما من جانب السلطات الإيطالية، فظهر القسم الأعظم من بومبي كبيوتها ومسارحها وحماماتها ومعابدها وفنونها الخ...

لازدياد شأن أهل المستعمرات في مصائر الرومان، وقد وسع تراجان من حدود الأمبراطورية الرومانية كثيراً ففي الناحية الأوروبية تجاوز الدانوب الذي جعله أوغسطس حدّ الأمبراطورية في أوروبا، وتجاوز الفرات أيضاً، حد الأمبراطورية في آسيا، حيث اجتاز الفرات وأخضع أرمينيا وأخذ العراق من الفرثيين. ومن ملوك هذه الفترة مرقس أوريليوس الذي خلفه ابنه «قومودوس» (180 ـ 192 م)، وكان هذا قاسياً غريب الأطوار حتى أنه امتهن المصارعة.

وحلّ من بعد حكم «قومودوس»، عهد ضعف وفوضى في الأمبراطورية دام زهاء القرن الواحد (192 ـ 284 م) بسبب تدخل الجند في شؤون انتخاب الأباطرة إذ صار الجند في الواقع هم الذين ينصبون الأباطرة. وقد حكم في هذه الفترة خمسة وعشرون أمبراطوراً ماتوا قتلاً باستثناء أربعة منهم فقط. ومما فاقم الاضطرابات الداخلية ازدياد غزوات البرابرة وإحلال الدمار والخراب في تخوم الأمبراطورية، وابتدأ هذا العهد ببيع الجنود الحرس عرش الأمبراطورية لمن كان يدفع فيه مالاً أكثر، وعند ذاك ثارت الفرق الرومانية الأخرى المعسكرة في أنحاء الأمبراطورية ونادى كل جيش منها بقائده أمبراطوراً، ونجح أحد هؤلاء وهو «سويروس» قائد جند الدانوب إذ هجم على روما وأزاح الأمبراطور الذي باعه الحرس الأمبراطوري العرش. وخلفه كراكاله (211 ـ 217 م) الذي كان طاغية سفاحاً انتهى أمره بقتله في سوريا[1]، ولكنه قام بعمل مهم هو أنه شمل بالرعوية الرومانية جميع أحرار الأمبراطورية، ولعله كان مدفوعاً بطمع الحصول على الضرائب الفردية، تلك الضرائب الشخصية التي كانت تُجبى من المواطنين الرومان. وحل بعد موت «كراكاله» قرن آخر مليء بالفوضى وبسرعة انتقال العرش من أمبراطور إلى آخر كما تفاقم في هذه الفترة خطر البرابرة فصاروا يتوغلون في غزواتهم إلى الولايات الرومانية المختلفة. وحكم من بعد ذلك جملة أباطرة طغاة امتازوا بالكفاءة أشهرهم

(1) انظر حروبه مع الفرثيين في تأريخ الفرثيين.

«كلوديوس» و«أورليان» و«تاسيتوس». وحكمت زنوبيا الملكة العربية الشهيرة في زمن أورليان ولقّبت نفسها بملكة الشرق، فجهز عليها الأمبراطور أورليان جيشاً قاده بنفسه على ما بيّنا، وبعد حصار طويل فُتحت تدمر.

انتهى قرن الفوضى بتولي عرش الأمبراطورية الرومانية الأمبراطور «ديوقليشان» (284 ـ 305 م) الذي اشتهر بما أدخله من الإصلاحات في المملكة ولا سيما إصلاح نظام تولي الأباطرة للقضاء على هذه الفوضى وإيقاف قتل الأباطرة وتنصيبهم بالأساليب الكيفية ولكن نظامه لم يخفف من الوضع كثيراً كما أنه اتخذ نظام الحكم المطلق على طراز ملوك الفرس الساسانيين. فأولاً أشرك معه في الحكم خليفته وجعل لنفسه ولهذا الخليفة مساعداً لقّب بلقب القيصر، أما «ديوقليشان» وخليفته فقد لقبا بلقب أوغسطس. ومما يذكر عن عهد ديوقليشان في أواخر حكمه ما أحله من الاضطهاد الشامل بالمسيحيين من رعايا الأمبراطورية، وقد تفنن القوم في أنواع الإماتة والتعذيب، فبالإضافة إلى إلقاء الضحايا في غياهب السجون كانوا يلقون أمام السباع في الملاعب ليتسلى بهم الجمهور كما كانوا يحرقون بنار خفيفة. وبعد أن حكم ديوقليشان عشرين عاماً حكماً موفقاً سئم الحكم فأعتزل العرش، وجعل خليفته يستقيل أيضاً فحدثت المنازعات حول العرش ونادى الجند بقسطنطين أمبراطوراً (306 ـ 337 م)، ولكنه ظل يحارب المنازعين له زهاء 18 عاماً. واشتهر قسطنطين باعتناقه للمسيحية (في ميلان عام 313 م) جاعلاً إياها ديانة رسمية بل ديانة الدولة الرسمية، كما أنه بدأ البداية التي جعلت من الكنيسة مؤسسة مالكة عظيمة تملك العقارات والأراضي فقد سمح للهيئات والمؤسسات المسيحية بقبول العطايا والهبات والأوقاف كما أنه نفسه أقطعها الثروات والأراضي. واعترف قسطنطين بيوم الأحد ليكون يوم راحة وعطلة رسمية، وكان الأحد عند الرومان «يوم عبادة الشمس». وإلى قسطنطين يعزى اجتماع مجمع نيقيا الكنسي في آسيا الصغرى (325 م) الذي جرت فيه المناظرة الدينية الشهيرة بين أتباع «أريوس» وبين أتباع «اثناسيوس» (وكلاهما من أساقفة الإسكندرية)، فأقر المبدأ الاثناسي

ورفض المذهب الأريوسي الذي كان ينكر كون طبيعة المسيح مساوية لطبيعة الله أو مادته[1]. ونذكر عن قسطنطين أيضاً اختياره لبيزنطية لتكون عاصمة جديدة للأمبراطورية تبرماً منه بروما وبوثنيتها، وكان أيضاً مدفوعاً في اختياره هذا بعوامل حربية استراتيجية حيث أعداء الرومان الشرقيون، وهم الفرس الساسانيون. وأجرى قسطنطين أيضاً إصلاحات مهمة في نظام الحكومة، حيث قسم الأمبراطورية إلى أربع ولايات كبرى قسمت كل منهما بدورها إلى أقسام إدارية أخرى.

وخلف قسطنطين الكبير جوليان (361 ـ 363 م) الذي عكس سياسة سلفه بالنسبة إلى المسيحية إذ عمل على إرجاع الوثنية. ومما يميّز العهد الذي أعقب موت قسطنطين حلول فترة اضطرابات وضعف دامت زهاء (25) عاماً، ثم استولى على العرش جوليان المذكور، وخلفه جوفيان (363 ـ 364 م) الذي أرجع المسيحية إلى سابق عهدها.

لقد عاشت الأمبراطورية الرومانية في الغرب قرناً آخر من الزمن من بعد عهد جوفيان بقليل (376 ـ 476 م) وقد شغل هذا القرن بالنزاع ورد غزوات البرابرة ولا سيما القبائل الجرمانية، ودشن هذا القرن بحادثة طريفة في علاقة الرومان بالبرابرة هي فرار الغوط الغربيين من قبائل الهون الهائلة (376 م) حيث فروا من شمال الدانوب الأسفل فاستعطفوا السلطات الرومانية بالسماح لهم بعبور النهر والإقامة في تراقيا هرباً من تلك القبائل المغولية المحاربة فسمح لهم الأمبراطور «فالنيس» بالإقامة بشرط إعطاء أولادهم رهائن، وبعد فترة قصيرة جاءت بأثرهم قبائل كثيرة من الغوط الشرقيين الذين طردهم من مواطنهم «الهون» أيضاً فرفض الأمبراطور السماح لهم بالعبور، ولكنهم عبروا الدانوب عنوة بأسلحتهم فدخلوا حدود الأمبراطورية وانضمّ إليهم أقرباؤهم الغوط الغربيون وأحدثوا الدمار في الولايات المتاخمة للدانوب، وجرت بينهم

(1) انظر كلامنا على نشوء المسيحية في تأريخ بلاد الشام.

وبين الرومان معارك قتل فيها الأمبراطور نفسه في أدرنة، وظل شريكه في الحكم الأمبراطور غراشيان (الذي كان مركزه في روما) واختار معه في الحكم «ثيودوسيوس» الشهير الذي أخضع الغوط ولكنه أدخل منهم جنداً كثيرين إلى الجيوش الرومانية. حكم ثيودوسيوس من 392 إلى 395 م، وقام قبيل موته بتقسيم الأمبراطورية بين ولديه إلى قسم شرقي ومركزه القسطنطينية وعلى رأسه «أركاديوس» وإلى قسم غربي وعاصمته روما وعلى رأسه «هنوريوس». وقد دامت الأمبراطورية الشرقية ما يربو على ألف عام، إلى فتح العثمانيين القسطنطينية (1453 م).

أما مصير الأمبراطورية الغربية فنكتفي هنا بالتنويه بأن البرابرة كانوا يتأهبون للانقضاض عليها بعد موت «ثيودوسيوس» بسنوات قليلة. وكان آخر انتصار للرومان على البرابرة النصر الذي أحرزه القائد الوندالي «ستيليكو» قائد هنوريوس على الغوط الغربيين الذين تدفقوا من تراقيا بقيادة زعيمهم «الرك» واندفعوا من مضيق ثرموبيلي ودمروا بلاد اليونان وعبروا الألب وأوقعوا الرعب في إيطاليا (402 ـ 403 م) ولكن القائد الروماني دحرهم، فاحتفى الرومان بهذا النصر احتفاء عظيماً (404 م)، ولكن ارتكب الأمبراطور حماقة لا تغتفر، ذلك لأنه أعدم قائده العظيم «ستيليكو» خوفاً من مزاحمته. فثار الجنود الغوط لقتل أزواجهم وأولادهم الذين كانوا رهائن في إيطاليا، فتأهب الزعيم الغوطي «الرك» مرة ثانية واجتاز الجبال وقاد جيوشه إلى أبواب روما وحاصرها ولكنه تخلى عن تدميرها مقابل فدية عظيمة، ثم أعاد الكرة «الرك» (عام 410 م) على روما وكان هجومه عليها ليلاً فألقى الرعب والهلع في أهلها، ولكن الغريب في أمر هذا الفاتح البربري أنه أمر جنوده بالإبقاء على حياة الناس وألّا ينتهكوا المعابد المسيحية، ولكنه أباح لهم أموال السكان، وظل الغوط ينهبون المدينة ستة أيام بلياليها. ومات الرك (410 م) فانسحب أتباعه واجتازوا الألب وأقاموا معسكراتهم ومضاربهم في جنوبي فرنسا وشمالي إسبانيا مكونين ما يعرف بمملكة الغوط الغربيين، وكانت القبائل البرابرة الأخرى تؤسس ممالك لها في ولايات الأمبراطورية الأخرى مثل الفرنك، والوندال القريبين من

الغوط حيث نزحوا من مواطنهم في «بانونية» واجتازوا فرنسا وجبال البرنيس إلى إسبانيا واستقروا زمناً ما في إقليم في إسبانيا اشتق اسمه من اسمهم هو «الأندلس». وفيما كان البرابرة يعيشون في أنحاء الأمبراطورية ويقتسمونها مؤسسين نواة الدول والممالك الأوروبية فيما بعد ظهرت قبائل «الهون» المغول مرة أخرى وكان اندفاعهم في هذه المرة عنيفاً قوياً ويقودهم قائد شديد المراس هو «أتيلا» العاتي سلف «هولاكو»، فهزم جيوش الأمبراطورية الشرقية ولم تسلم القسطنطينية إلا بدفع الجزية، ثم اتجه بجموعه الهائلة إلى الغرب وعبر الراين إلى فرنسا مصمماً على الهجوم على إيطاليا والقضاء على روما، فدب الهلع في أوروبا. ولصد هذه الجموع اتحد الجرمان والرومان والغوط الغربيون، وهجموا على موضع «أتيلا» حيث انتظر الهجوم في سهول «شالون» في شمالي فرنسا، فنشب قتال مرير طويل انتهى بانخذال الهون، فرجع «أتيلا» متقهقراً بجيشه إلى ما وراء الراين. والواقع أن هذا النصر يعدّ من الانتصارات الحاسمة التي قررت مصير أوروبا ومستقبلها. ولكن «أتيلا» لم يتخل عن خطته في تدمير روما فقد نزل مرة أخرى واجتاز موضع البندقية الآن، وهددت جيوشه روما، ولكن الغريب أنه لم يقتحمها بل ارتدّ، ويقال إن ذلك كان بسبب توسط أسقف روما وتحذيره من نقمة السماء. فرجع بجيوشه إلى ما وراء الألب ومات فجأة (عام 453 م) من بعد وليمة للاحتفال بزواجه بامرأة شابة، ولعل لأمبراطور القسطنطينية يداً بدس السم له، واختفى الهون من بعد موته من التأريخ حيث اختلطوا بالأقوام الأوروبية الآرية، وكانت أمبراطورية «أتيلا» تشمل أقواماً من غير المغوليين أيضاً من بينهم أقوام جرمانية وتمتد من الراين عبر السهول إلى أواسط آسيا. وكان يتبادل السفراء مع الصين، أما مخيمه الرئيسي فكان في سهل هنغاريا، شرق الدانوب، وجاءه إلى مقره هذا سفراء من القسطنطينية، وقد خلف لنا أحدهم «فريسكوس» (Priscus) أخباراً عن أتيلا وحكومته.

لم تظل الأمبراطورية بعد هذه الحوادث سوى بضعة أعوام، وتوالت على روما التي انحصرت فيها وفيما جاورها تلك الأمبراطورية، المصائب

والمحن. فقد نهبها الوندال (455 م) الذين جاؤوا من شمال أفريقيا، من المملكة التي كونوها هناك واشتهرت بقرصنة البحار، وأخيراً سقطت روما على يد أحد قواد القبائل الجرمانية المسمى «أوداسر» وخلع آخر أمبراطور عن العرش (476 م) وأرسل شعار الأمبراطورية إلى «زينون»، أمبراطور القسطنطينية سائلاً إياه ذلك الزعيم الجرماني أن يحكم في إيطاليا باسمه، فأقرّه على الاقتراح وصارت إيطاليا ولاية من ولايات الأمبراطورية الشرقية.

ومن الصدف الغريبة أن الأمبراطور الروماني الذي خلعه أوداسر كان اسمه «روملوس أوغسطولس» المركب من اسم «روملوس» الذي تنسب إليه المآثر تأسيس مدينة روما ومن تصغير اسم أوغسطس مؤسس الأمبراطورية الرومانية.

نظام الأمبراطورية الرومانية:

ولنأخذ الآن أبرز ما يمتاز به نظام الأمبراطورية الرومانية التي أوجزنا تأريخها:

(1) رأينا فيما سبق كيف أن عوامل عديدة أدّت إلى نشوء نظام الحكم الأمبراطوري في زمن أوغسطس (30 ق.م ـ 14 م). وكيف سبق هذا العهد قرن كان مملوءاً بالاضطراب والثورات والحروب الأهلية. وقد ظلت الأمبراطورية الرومانية نيفاً وقرنين من الزمان من بعد عهد أوغسطس وهي موطدة متماسكة وعلى مستوى عال من المدنية والرفاه. ولكن بدأ يحلّ فيها في القرن الثالث للميلاد تغييرات كانت تسير بها إلى الانهيار والتفسخ، وقد نشأت هذه النكسات من جملة عوامل معقدة ـ سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية. وعلى الرغم من مجهودات الأباطرة الأقوياء لإيقاف التدهور، فإن أمور الأمبراطورية كانت تسير إلى الأفول والتدهور، وآل الأمر إلى فقدان الجزء الغربي من الأمبراطورية تقريباً بهجمات البرابرة في نهاية القرن الخامس.

(2) لقد أثرت خمسة القرون التي حكمت فيها الأمبراطورية في تأريخ

حوض البحر المتوسط من الناحية الحضارية والسياسية، وكان هذا التأثير عميقاً ثابتاً، يتجلى بوجه واضح في تأريخ الحضارة الأوروبية ويظهر كذلك تأثير التراث الروماني في الحضارة العربية الإسلامية، وإذ كنا قد أكّدنا في درسنا حضارة الإغريق الناحية الفكرية: علومها وفنونها وفلسفتها وأدبها فينبغي لنا بدراستنا روما أن نؤكد من حضارتها ومن تراثها نواحي أخرى أهمها: التنظيم والطرق والحكومة والإدارة والقانون.

(3) ويصح أن نشبه الأمبراطورية الرومانية بـ «بوتقة» انصهرت فيها الشعوب والتقت الحضارات وامتزجت الآراء، ولا نعدو الواقع إذا قلنا إن المثل الأعلى لهذه الأمبراطورية كان دمج البشر في حكومة عالمية، وهي الفكرة التي استولت على عقل الإسكندر الكبير. وقد التقت ضمن هذه الأمبراطورية حضارات الشرق مع الحضارة الهلنستية، ونشأت في أحضانها المسيحية فاختلطت هذه التيارات بعضها مع بعض وأثرت على شعوب مختلفة كانت تعيش ضمن الأمبراطورية وانتشرت إلى الأقوام البربرية من التيوتون والسلاف فيما وراء تخوم الدانوب.

(4) وبوسعنا أن نعد الأمبراطورية الرومانية نتيجة خبر وتجارب بشرية دامت زهاء ألفي سنة كانت ترمي إلى دمج أقاليم وأقوام كثيرة متنوعة تحكمها دولة مركزية قوية. فبدأ الآكديون في العراق بهذه التجربة ثم البابليون والمصريون والحثيون[1] والآشوريون والفرس والإسكندر الكبير والسلوقيون ومعاصروهم الفرثيون والساسانيون ـ وكل من هؤلاء قد كوّن من هذه التجارب أنظمة ومآثر خاصة استفاد من تراثها قياصرة الأمبراطورية الرومانية، وعلى ذلك فيمكننا عدّ الأمبراطورية الرومانية آخر المراحل التطورية التي وصل إليها

---

(1) لقد سبق أن نوّهنا بالوثيقة التأريخية المهمة التي جاءتنا من الحثيين من عاصمتهم بوغاز كوي المتضمنة أقدم قانون أساسي أو دستور من نوعه (منتصف الألف الثاني ق.م). ويعزى هذا القانون الأساسي إلى الملك (تيليبينوس) وقد كتب بالخط المسماري واللغة البابلية القديمة (راجع الجزء الأول من الكتاب).

هذا النظام من الحكم. ولعل ذلك هو السبب الذي جعل الأمبراطورية الرومانية تتصف بالثبات وحسن التنظيم ونظام الرعوية والقانون الذي تطور عند الرومان من قانون عتيق خاص بالرومان إلى قانون يسري على أقوام وشعوب كثيرة من البشر وهذا هو قانون الشعوب كما سنرى ذلك فيما بعد.

(5) ولم يشذ الرومان عن الدول الاستعمارية الأخرى في كثير من الأمور إذ يحتمل أنهم لم يعتقدوا أنهم كانوا فاتحين غزاة، مدفوعين بالأنانية والنهب واستغلال الأقوام الضعيفة. بل لعلهم كان يميلون إلى الاعتقاد بأنهم لم يحاربوا إلّا ليدافعوا عن أنفسهم ويدفعوا خطر الأقوام التي ادعوا بأنها تهددهم، ولعله تولّد عندهم نفس الشعور الذي تولّد عند المستعمرين الأوروبيين في الوقت الحاضر في تبرير الاستعمار بأنهم كانوا ذوي رسالة يؤدونها وهي نشر السلام والعدل والحضارة. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن الأقوام التابعة إلى للأمبراطورية كانت راضخة للحكم الروماني وراضية في القرنين الأولين من تأريخ الأمبراطورية ولم يبد على معظم الأقاليم التابعة، بعد أن كانت تكتسب الرعوية الرومانية، ميل للانفصال فكانت في الواقع منجذبة إلى المركز بعوامل كثيرة منها حسن الإدارة والعدل والسلام والزعامة الصحيحة، ولكن لم تستمر هذه الصفات عند الرومان الحاكمين زمناً طويلاً إذ حل في الأمبراطورية التفسخ منذ القرن الثالث للميلاد وفقدت أهليتها للحكم، فبدأت الأقوام التابعة تنفصل عن المركز، وانهارت الأمبراطورية من بعد ذلك.

(6) تخوم الأمبراطورية وحمايتها: لعل أهم القضايا التي جابهت الأمبراطورية منذ تأسيسها كانت قضية الدفاع عن الأقاليم التابعة والمحافظة على حدود الأمبراطورية ثم قضية التنظيم الإداري الذي كان يتوقف عليه الرفاه الاقتصادي وإذا استثنينا ما أضيف إلى الأمبراطورية من بعد أوغسطس مثل بريطانيا وأرمينيا وشمالي بلاد ما بين النهرين فإن حدود الأمبراطورية ظلت كما كانت عليه في أيام أوغسطس. فكان الراين والدانوب تخوم الأمبراطورية تجاه البرابرة الأوروبيين والفرات الحد تجاه الفرثيين أولاً ثم الفرس الساسانيين.

وكانت جيوش الأمبراطورية موزعة بين هذين الاتجاهين، واشتهر الرومان بطرقهم الهندسية العجيبة التي سهلت حكم أجزاء الأمبراطورية، يُضاف إلى ذلك إنشاء الأسوار والحصون والأساطيل وقد سبق أن ذكرنا بعض الحصون المهمة التي نشأت في شمالي العراق وفي سوريا في التخوم بين الفرثيين والفرس الساسانيين من بعدهم وبين الأمبراطورية الرومانية. أما الجنود فكانوا من المحترفين المدربين، وكانوا يجندون مدة طويلة وكثيراً ما استخدموا في حالة انتفاء الحروب في تعبيد الطرق وما شابه ذلك. وامتازت الجيوش الرومانية بالعدة الممتازة وبالضبط والتدريب العسكريين وكان يقودها أمهر القواد وأكثرهم خبرة بالحرب، وهذا مما جعلها أحسن ما عرفه التأريخ من نظام الجند، وبالوسع تقدير هذه الجيوش بمعدل بين (225,000) و(350,000) مقاتل، قوامها أولاً من الرومان والإيطاليين ولكن أخذت الدولة فيما بعد تجنِّد كثيراً من سكان الولايات التابعة لها، ثم من البلدان القاصية المتأخرة حتى شمل التجنيد كثيراً من القبائل الأوروبية من البرابرة، وبذلك صار نظام الجيش الروماني وسيلة مهمة للتهذيب والوحدة بين شعوب العالم، ولكن كان لذلك نتيجة أخرى مغايرة صارت من جملة الأسباب المهمة في القضاء على الأمبراطورية حينما أخذت هذه الجنود تفقد شعورها بالإخلاص والولاء للأمبراطورية، ويدب فيها التذمر عندما فكّرت في الرفاه والنعيم اللذين كانت تتنعم بهما الطبقات الموسرة المرفهة. وآل الأمر فيما بعد (منذ 235 م) إلى أن صار الجيش يتدخل في الحكومة، يعزل قيصراً ويتوج قيصراً. وكثيراً ما كان الجيش يعزل القيصر الأرستقراطي ليحل محله قيصراً من طبقته ولا يهمه من ذلك سوى زيادة الرواتب أما المحافظة على الحدود فلم يكن يهمه في شيء. والواقع أن تدخل الجيش بدّل كيان الأمبراطورية من أساسه. وإذا كان باستطاعة القياصرة العسكريين الآتين إلى الحكم بتدخل الجيش أن يوطدوا الأمور بعض الشيء ويوقفوا انهيار الأمبراطورية، فإن النهاية كانت محتومة لا بدّ منها. ومهما كان الحال فإن تفسخ نظام الجيش كان جزءاً من سلسلة أعم من التدهور العام الذي شمل النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعقلية بيد أن

تفسخ الجيش كان السبب المباشر في شل قوى الأمبراطورية وجعلها لا تقوى على محافظة تخومها.

(7) الحكومة: لكي نفهم نظام الحكومة في عهد الأمبراطورية نستعيد هنا أبرز الأمور التي كان يمتاز بها نظام الحكم الروماني القديم قبل نشوء الأمبراطورية. وبوسعنا أن نلخص ذلك بما يأتي:

(1) سيادة الشعب سيادة من الوجهة النظرية، أي سيادة المواطنين الرومان الممثلين في المجالس.

(2) تقسيم السلطة التنفيذية وتوزيعها على موظفين إداريين كانوا ينتخبون مدداً قصيرة وكان كل من هؤلاء بمثابة الرادع المراقب لغيره.

(3) مجلس الشيوخ (السنات)، الذي كانت سلطته في الأصل محصورة بإبداء المشورة وبالسلطة المعنوية ولكنه صار فيما بعد أهم السلطات الحاكمة. ومقابل هذا النظام القديم نجد النظام الأمبراطوري يهدف إلى تمركز السلطات بيد السلطة التنفيذية وعلى رأسها حاكم واحد هو الأمبراطور الذي أخذ بيده السلطة المطلقة تدعمها أهم وظيفة أخذها وهي قيادة الجيش العليا التي أعطيت لأول أمبراطور وهو أوغسطس، وإلى ذلك كله أخذ الأمبراطور جميع السلطات التي كان يتمتع بها مجلس العوام (التربيون). ولم يترك لمجلس الشيوخ في الواقع إلا ظاهر السلطة. ومما ساعد على حصر السلطان المطلق بيد الأمبراطور بصفته رأس الإدارة المدنية والعسكرية الأحوال التي أحاطت بأول أمبراطور ونعني به أوغسطس فإن انتصاراته ووضعه حداً للثورات والحروب الأهلية المرهقة التي استغرقت زهاء قرن واحد وتقدير الشعب وحبه له جعلهم يظهرون تقديرهم وحبهم بإغداق السلطات والحقوق عليه فصارت امتيازات للأباطرة الذين أعقبوه.

وكانت الأمبراطورية في إدارتها مقسمة إلى ولايات، بعضها تحت إدارة مجلس الشيوخ نفسه والأخرى ـ وبضمن ذلك الولايات في تخوم

الأمبراطورية ـ كانت تحت إدارة الأمبراطور نفسه. ولكن انتقلت الولايات التي كانت تحت إدارة مجلس الشيوخ إلى إدارة الأمبراطور ولا سيما من بعد القرن الثاني. وشغل الأباطرة في القرنين الأولين من تأسيس الأمبراطورية في إصلاح طرق جباية الضرائب، وكان حكّام الولايات يعينون برواتب معلومة وهم تحت مراقبة وسيطرة تامتين. وبمرور الزمن نشأت طبقة خاصة اختصّت بالتوظيف والخدمة العامة فنشأت طبقة الموظفين الذين صار التوظيف مهنة وفناً لهم. ومما يقال في طبقة الموظفين إنها في أحسن العهود كانت تمتاز بحسن الإدارة والكفاءة، ولكن كثيراً ما عانى الأباطرة في المحافظة على المستوى العالي لطبقة الموظفين ومنعهم من الصيرورة جهازاً «روتينياً» أو جهازاً ظالماً همّه الرشوة وابتزاز المال، وقد تمتعت بعض الولايات بقسط من الحكم الذاتي، وكان هم المراقبين من الحكومة المركزية مقصوراً على مراقبة انتخاب الموظفين المحليين وسماع الشكاوى ضدهم. ولكن أخذ الحكم المحلي يضعف بمرور الزمن وازدادت السيطرة من جانب الحكومة المركزية. واتسعت حقوق المواطنة والرعوية الرومانية بالتدريج فشملت سكان الأقاليم ولكن كان يتبع هذه الحقوق واجبات باهظة وصارت هذه الواجبات في الأيام الأخيرة أغلى من تلك الحقوق وعبئاً ثقيلاً كان من جملة العوامل في انهيار الأمبراطورية.

(8) نظام تولي الأباطرة: نظام تولي الأباطرة نظام غريب لا هو بالوراثي الخالص ولا بالانتخابي الخالص. فمن الوجهة النظرية كان الأمبراطور ينتخب انتخاباً ويتم توليه الحكم بإرادة تأتي من مجلس الشيوخ ولكن الأمبراطور كان يعين خليفة له وظلت هذه الطريقة معمولاً بها زهاء قرنين وقد ضمنت تتابع مجيء قياصرة قادرين بالطرق السلمية فيكون نظام الأمبراطورية في هذين القرنين الأولين من عمرها أشبه ما يكون بالخلافة في العهد الأموي والعباسي ـ تعيين الخليفة وبيعته من قبل المسلمين. وقد حكم في هذا العهد عدّة أسر من الأباطرة وغالباً ما كان الأمبراطور المعين خليفة من أقارب الأمبراطور المرشح أو قريبه بالتبني أو من المقربين إليه ممن يعتمد عليهم. أما القرن الثالث فقد

شغل معظمه بتمزق الأمبراطورية بالحروب الأهلية بسبب النزاع على تولي منصب الأمبراطور، وكان الجيش في الواقع هو الذي يعين ويخلع الأباطرة وكان معظمهم من قواد الجيش وقد تردّى الحال في القرن الرابع وتغير روح نظام الأمبراطورية وأصبح حكماً مستبداً، ونشأت في هذا القرن عاصمة شرقية في القسطنطينية. واعترف في هذا العهد أيضاً بالدين المسيحي بصورة رسمية، وتمت سيادة هذه الديانة قبل نهاية القرن الرابع. وبدأ البرابرة في الربع الأخير من القرن الرابع بهجماتهم على الأمبراطورية التي كانت بوجه العموم سائرة إلى الأفول.

وقبل أن نذكر طرفاً من الحضارة الرومانية نتمهل قليلاً في التفكير بأسباب انهيار الأمبراطورية الرومانية وسقوطها.

كانت الأمبراطورية الرومانية تهدف منذ تأسيسها إلى الوحدة، أي تماسك أجزاء الأمبراطورية وتعلقها بالحكومة المركزية، وقد اتخذت لذلك سبلاً مختلفة منها طرق القوانين والإدارة والتنظيم، ولكن بنيت وحدة الأمبراطورية الرومانية في الواقع على أساس القوة العسكرية، ولم يمض زمن طويل على تأسيسها على أساس القوة العسكرية حتى أخذت ظواهر الحال في هذه الأمبراطورية تشير إلى وحدة ناشئة من المصالح والنفع المتبادل بين الأقوام المختلفة التي كانت تؤلفها، ومما زاد في ذلك انتشار الحضارة الهلنستية ودخول هذه الأقوام فيها وكانت هذه الأقوام كذلك تعتمد بعضها على بعض من الناحية الاقتصادية ومن ناحية الدفاع المشترك وبوسعنا أن نجمل أهم الروابط التي عملت على تماسك الأمبراطورية كالآتي:

(1) حكومة منظمة تنظيماً راقياً وإدارة صالحة مسؤولة أمام الأمبراطور.

(2) نمو قوانين وشرائع طبقت على أقوام مختلفة.

(3) حسن المواصلات وتسهيل الأسفار في البر والبحر.

(4) وقد انتشرت اللغتان اللاتينية والإغريقية وأصبح يتكلم بهما البشر المتمدن.

(5) ازدهار التجارة والمعاملات التجارية التي أصبحت موحّدة تقريباً باستعمال نقد واحد وموازين موحدة وكذلك في طرق تنظيم إيداع الأموال والمعاملة فيها (البنوك).

(6) اتساع الجاليات والمستعمرات اللاتينية وانتشارها واتساع إعطاء حق الرعوية الرومانية إلى جميع سكان الولايات الأحرار.

(7) انتشار التربية والتهذيب تحت رعاية الدولة في جميع المدن المهمة.

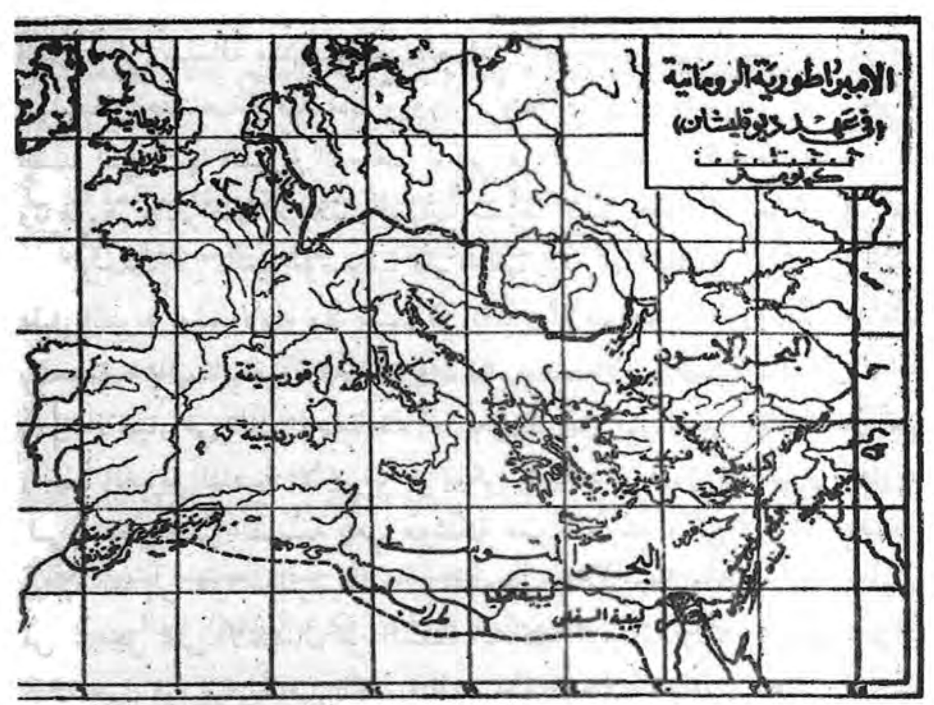
(8) ومما يدل على الاتجاه إلى التمسّك بالوحدة والعالمية انتشار فكرة القانون الطبيعي المنطبق على جميع البشر وكذلك فكرة المواطن العالمي.

ومع كل هذه الأسباب العاملة على الوحدة فإن الأمبراطورية انهارت[1] في النهاية ويمكننا اعتبار سقوط روما (476) تأريخ سقوط الأمبراطورية. فما هي الأسباب التي عملت على سقوط أمبراطورية روما ذلك السقوط المفاجىء؟

والواقع صار سقوط روما من القضايا التي بحث فيها مؤرخون كثيرون وعددوا لذلك «قائمة» من أسباب التدهور والسقوط معظمها يبدو لائقاً كأنه صحيح ولكنه غير مقنع القناعة الكافية. ولعله مما يحير الباحث أن الأمبراطورية الشرقية تعرّضت لمثل ما تعرضت له الأمبراطورية الغربية من الهجمات وأسباب الضعف الداخلي التي يعددها المؤرخون ولكنها لم تتحطم، ولعل أحسن منهج للبحث في أسباب انهيار الأمبراطورية وسقوطها أن يبحث

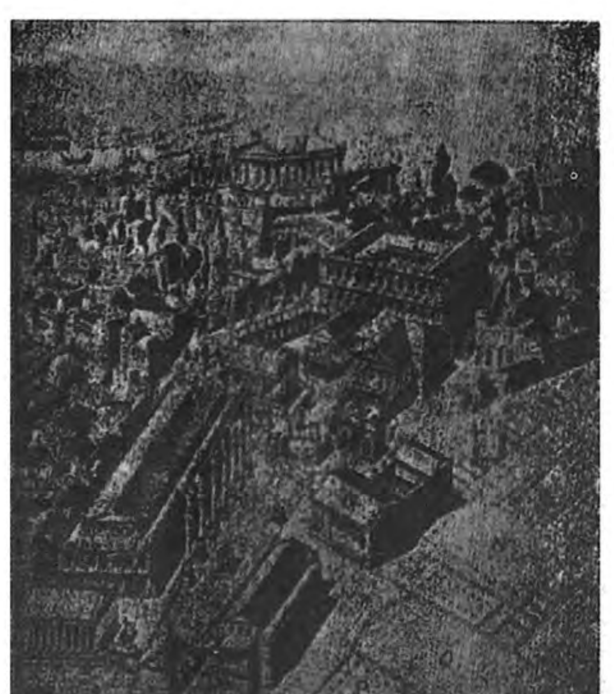
(1) نشأت مدينة روما بحسب المآثر الرومانية في 753 ق.م. وصارت جمهورية في حدود 508 ق.م. وتأسست الأمبراطورية في حدود 27 ق.م. وسقطت روما في 476 م ولكن توالت في الأمبراطورية الشرقية في القسطنطينية سلسلة من الأباطرة حتى 1453 م. وحكم في أوروبا الغربية حكام منذ 800 إلى 1806 كانوا يسمون أنفسهم بـ «الأمبراطور الروماني» تقليداً للأمبراطورية الرومانية.

المؤرخ في سلسلة متشابكة من العوامل المختلفة التي تقسم إلى أمراض سياسية واجتماعية واقتصادية وروحية. ويجدر بنا أن نشير إلى أن البحوث القيمة التي كتبها المؤرخ المعاصر توينبي في أسباب نشوء الحضارات ونموّها وتدهورها وانقراضها من ذلك أسباب سقوط الأمبراطورية الرومانية فيها كثير من الوجاهة من ناحية موضوعنا فليراجعها القارىء المتتبع، وسيمر بنا بعد قليل التنويه بهذه الآراء ولا سيما في تفسير الأمبراطورية الرومانية وعلاقتها بالحضارة «اليونانية ـ الرومانية» وأن نشوء هذه الأمبراطورية كان في الواقع بادرة الانهيار في تلك الحضارة، أما فعل البرابرة في القضاء عليها فهو أنهم وجهوا الضربة القاضية الأخيرة، بل يمكن تشبيه عمل البرابرة بالطيور الجارحة التي تنقض على الفريسة وهي موشكة على الموت أو في دور الاحتضار. وبالإضافة إلى هؤلاء البرابرة عملت الشعوب والأقوام التابعة إلى الأمبراطورية من الداخل على الانفصال عن السلطة الحاكمة الرومانية وتكوين حضارة فرعية نمت حول قوة مركزية هي الكنيسة المسيحية، وخلاصة القول حصل في جسم الحضارة «اليونانية ـ الرومانية» انشقاق وانهيار: في الخارج بخروج الأقوام الأوروبية التي كانت تعيش في حدود الأمبراطورية وتتعلم من الحضارة التي تمثلها هذه الأمبراطورية، ولكنها كانت منجذبة إليها إبان قوة هذه الحضارة وازدهارها. وانشقاق في الداخل بخروج الطبقات المحكومة من مختلف الأقوام والشعوب. وبعد فترة من الفوضى نشأت على أثر سقوط الأمبراطورية على أنقاض الحضارة «اليونانية ـ الرومانية» حضارة فرعية جديدة هي الحضارة الأوروبية.





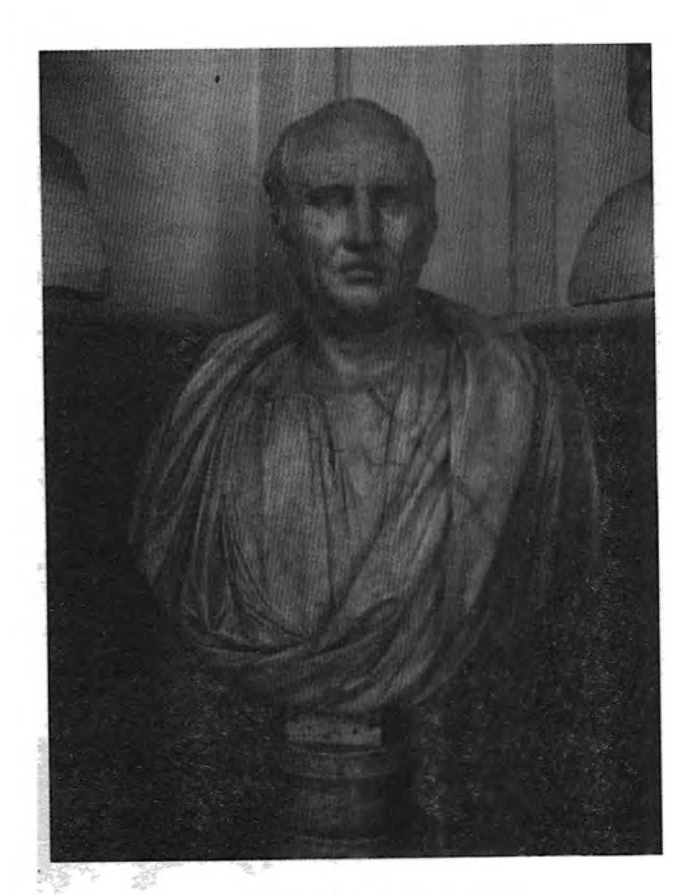
صورة ذئبة من البرونز. قديمة العهد (من صنع فنان يوناني عاش في إيطاليا في القرن السادس ق.م). وتمثل الصورة الأسطورة الخاصة بالأخوين التوأمين «رومولوس» و«ريموس» اللذين أرضعتهما وربّتهما ذئبة. وتنسب المآثر تأسيس روما إلى هذين الأخوين.



بناء «الفورم» الروماني (كما يجب أن يكون عليه في الأصل) ويشاهد في الصورة الأبنية العامة التي اشتهر بها هذا الموضع في عهد الأمبراطورية القديم.



تمثال الأمبراطور أوغسطس (أول أمبراطور في الرومان).



تمثال يعزى إلى يوليوس قيصر.

الفصل التاسع والثلاثون

إلمامة عن الحضارة الرومانية

بعد أن عرفنا الخطوط الأساسية للتأريخ الروماني نوجز الآن في فصل واحد أبرز المقوّمات والعناصر في الحضارة الرومانية، وقد سبق لنا أن نوّهنا بصلة الثقافة الرومانية بالحضارة اليونانية وأثر هذه الحضارة فيها. وكنا كثيراً ما أشرنا إلى إمكان دمج الثقافتين اليونانية والرومانية تحت اسم واحد هو «الحضارة «الهلينية» جرياً على ما ذهب إليه بعض الباحثين في تأريخ الحضارات[1] حيث يفسر الأمبراطورية الرومانية بأنها «الدولة العالمية»[2] التي أنشئت لمسك تلك الحضارة وضم الداخلين فيها بالقوة بعد أن فقدت هذه الحضارة قوة جذبها للشعوب والأقوام التابعة لها في الداخل والخارج عندما اجتازت طور النمو والإبداع ودخلت في مرحلة الانحلال والانهيار. ومهما كان الحال فإن الثقافة الرومانية تميزت عن الثقافة اليونانية بخصائص تفرّدت بها، ومن ذلك أنها لم تعن بالفلسفة التي تفرّدت بها عبقرية اليونان ولكنها ميّزت نفسها بأمور أخرى منها القانون والشريعة وطرق الإدارة والتنظيم المدني والعسكري والاهتمام بطرق المواصلات والعمارات المدنية العامة، ومن ذلك بوجه خاص الحمامات الرومانية الشهيرة، وغير ذلك مما سنوجزه بعد قليل. ومع أن هذا الفصل الموجز الذي خصصناه للحضارة الرومانية لا يفي في الإحاطة بجميع أوجه هذه الحضارة بوجه التفصيل إلا أنه يكفي ليكون إلمامة

(1) وهو «توينبي» في بحوثه المعنونة «بحث في تأريخ». (انظر ترجمة المؤلف لموجز بحوثه).
(2) Universal State.

بالحقائق الأساسية فيها ومقدمة بتعريف أوجه تلك الحضارة، ونبدأ من ذلك بالقانون الروماني.

القانون الروماني:

تأتي القوانين الرومانية في مقدمة التراث الروماني الذي جاء إلى أوروبا ومنها أثر في أمم وشعوب أخرى غير الأمم الأوروبية.

ولعله من المفيد، للإلمام بشيء عن القانون الروماني، أن نجري على منهج الفقهاء الرومان في التمييز بين القانون المدني (Jus Civile)، وقانون الشعوب (Jus Gentium) والقانون الطبيعي (Jus Naturale) فالأول هو القانون الروماني القديم الذي اقتصر في تطبيقه على الرومان وحدهم. أما قانون الشعوب فهو بعرفهم القانون المشترك بين جميع الشعوب وكانوا يستمدون منه الأحكام التي تطبق على الأجانب في الأمبراطورية، واصطلحوا على القانون الطبيعي ذلك القانون الذي تخضع له جميع الكائنات الحية من الإنسان والحيوان والنبات، وقد أثّر قانون الشعوب في القانون الروماني المدني إذ وسعه وهذّب فيه. أما فكرة القانون الطبيعي فقد أخذها الرومان من الفلسفة اليونانية. ولكن قانون الشعوب كان عند الرومان كالقانون الطبيعي عند اليونان[1].

---

(1) يذهب أصحاب القانون الطبيعي إلى وجود قانون يكمن في طبيعة العلاقات والروابط الاجتماعية وأن هذا القانون ثابت لا يتغير بالنسبة إلى الزمان والمكان وبوسع عقل الإنسان أن يكشف قواعده وأحكامه فهو بذلك مثل النواميس التي تجري بموجبها ظواهر الكون الطبيعية. وطريقة الكشف عن هذا القانون في الظواهر الاجتماعية أن يجهد العقل البشري في درس المجتمع فيقف منه على السنن التي تنظم الروابط الاجتماعية فيه فيستنير بها في وضع القانون الوضعي. ونشأت فكرة القانون الطبيعي على هيئة فلسفة عند اليونان، فمثلاً ميّز أرسطو بين ما سمّاه بالقانون العام (وهو القانون الطبيعي) وبين القانون الخاص الذي هو من وضع البشر. وأخذ الرومان فلسفة القانون الطبيعي واتخذوه بصورة عملية حيث صيروه قانوناً أدخلوا فيه قانون الشعوب أو هو قانون الشعوب نفسه. ومن الجدير بالذكر=

بدأت القوانين الرومانية على هيئة مجموعة من العرف والعادات المصطبغة بالصبغة الدينية، وقد ذكرنا فيما سلف كيف أن الرومان نجحوا في عهد الجمهورية في حمل السلطات على تدوين القوانين المتعارف عليها، إذ لم يكد يمضي خمسون عاماً على تأسيس الجمهورية حتى دوّنت القوانين القديمة في اثني عشر لوحاً من البرونز (450 ق.م). وهذا أقدم تدوين أو «تقنين»[1] للقوانين الرومانية وقننت الشريعة الرومانية مرة أخرى في نهاية المراحل التي نما فيها القانون الروماني وذلك في تقنين جستنيان الشهير (سنة 528 ـ 543 م) وكان هذا التقنين على قدر عظيم من الأهمية بالنسبة إلى القانون الروماني الذي تعدّدت مصادره فعسرت معرفة الأحكام الواجب تطبيقها، فرأى الأمبراطور البيزنطي جستنيان أن يجمع قواعد القانون المبعثرة في مصادر شتى ويضعها في كتاب واحد بعد إزالة المتناقضات منه ولذلك ألف لجنة خاصة قامت بالعمل، وسمي هذا التقنين المهم باسم (Corpus Juris Civile) وقد جاء واضحاً منسجماً وصار معيناً ومصدراً مهماً للقوانين الأوروبية جميعها.

والقانون الروماني المدني العتيق في الواقع كان ضيقاً منشؤه، كما سبق أن ذكرنا، العرف والعادة والدين وكان قبل أن يدوّن في الألواح الاثني عشر سراً بيد رجال الدين ثم نجح العوام في حمل السلطة على تدوينه، وقد اقتصر في مبدأ أمره في عهد الجمهورية على الرومان وبعض الناس الذين كانوا يتمتعون بحقوقه بموجب معاهدة خاصة. ولكن تغيّرت الأوضاع في الدولة الرومانية في عهد الأمبراطورية، فقد اكتسب معظم سكان الأمبراطورية الأحرار في القرن الثالث للميلاد حق الرعوية الرومانية، وبدأ منح الجنسية الرومانية

= أن المعتزلة في الإسلام قالوا بفكرة القانون الطبيعي حيث ميزوا بينه وبين الدين وجعلوا الوحي مصدر الثاني والعقل هو الكاشف عن القانون الطبيعي (انظر «أصول القانون» تأليف الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري بك والدكتور أحمد حشمت أبو شيت (1938) ص 40 فما بعد، ومن 109 ـ 113 حول الفقه والقضاء في تكوين القانون الروماني).

(1) Codification.

بمرسوم أصدره الأمبراطور «كراكاله» في عام 212 م. أما بالنسبة إلى سكان الأقاليم فكانت تطبق عليهم في مبدأ الأمر قوانينهم القديمة الخاصة بهم، ولكن بمرور الزمن وبتأثير فكرة القانون الطبيعي المشترك بين جميع البشر (والمستمد بالدرجة من الفلسفة الرواقية) وبتأثير الفقه والقضاء (كما سنبين فيما بعد) نشأ قانون عام هو قانون الشعوب الذي أثّر بدوره تأثيراً عظيماً في القانون المدني الروماني.

يفصل بين زمن تدوين القانون الروماني العتيق في الألواح الاثني عشر (450 ق.م) وبين تقنين جستنيان الشهير (528 ـ 543) زهاء ألف عام طرأ فيها على العرف القانوني تطورات كثيرة مهمة، وإذ كان العرف والعادة المصدر الأساس الذي اشتق منه القانون العتيق فقد تعددت المصادر لنشوء القانون الروماني المدني وبوسعنا أن نحصر هذه المصادر في:

(1) التقنين (Codification) الذي سبق أن أشرنا إليه.

(2) القضاء.

(3) الفقه.

(4) التشريع.

أما عن القضاء فقد بدأت الحركة القضائية منذ أن تولى «البريطور» الروماني شؤون القضاء. و«البريطور» كان أعلى قاض في الدولة الرومانية يلي القنصل في أهمية المنصب وكان هناك «بريطور» خاص بالرومان وآخر للأجانب، الأول لتطبيق القانون الروماني المدني والآخر لتطبيق قانون الشعوب. وقد اعتاد «البراطرة»، (جمع بريطور) أن يصدروا ما يسمى «بالمنشورات»[1] القضائية يعلن فيها كل «بريطور» للناس في أول ولايته للقضاء[2] ما اعتزم على اتباعه من القواعد القانونية وكذلك ما يرتئيه في كيفية

---

(1) Edicts.

(2) وكان البريطور الروماني يلي القضاء الروماني سنة واحدة.

تطبيقه وتفسيره للقوانين، وكان «البراطرة» بهذه الوسيلة يحدثون تعديلات مهمة في القانون الروماني العتيق بمقتضى الأزمان وكان للبريطور حقوق مهمة في تنظيم الدعاوى، بإعطاء الدعوى وسلبها بحسب مقتضى الأحوال والعدالة. وبمرور الأزمان توالت هذه المنشورات القضائية وصارت سوابق للبريطور التالي يستقي منها الصالح. وبقي الحال كذلك إلى زمن هادريان الذي جمع «المنشورات القضائية»[1] وحرم إضافة أشياء إليها. وتألف من هذه المجموعات قانون يصح أن نسميه بالقانون البريطوري الذي بقي منفصلاً مستقلاً عن القانون المدني إلى عهد جستنيان حتى امتزج القانونان ودخلا في تقنين هذا الأمبراطور فيستبان من ذلك أن القانون الروماني كان من صنع القضاء إلى حد كبير ثم إن القضاء سبق عهد الفقه العلمي الذي ظهر فيه الفقهاء المشهورون، وعلى ذلك فيكون القضاء مصدراً أسبق من الفقه ومع ذلك فيصح القول إن القانون الروماني كان من صنع الفقه أيضاً. وإذا كان من المتعذر تتبع تأريخ الفقه الروماني فإننا نوجز أهم مراحل تطوره. فقد مرّ الفقه الروماني في أدوار من التطور كان في أقدمها سراً واحتكاراً بيد رجال الدين، وأعقب ذلك دور ثان صار الناس يتعلمون فيه الإجراءات القانونية ويستفتون رجال القانون. وكان يوجد إلى جانب «البريطور» قضاة وظيفتهم شبيهة بالمحلفين لأن يبتون في الوقائع ويستفتون في القانون من جانب رجال القانون الذين لم يتبحروا فيه. ونشأ بمرور الزمن جماعة من المجتهدين في القانون يدرسونه ويفتون به للناس بدون أجر ولعل أصحّ ما يتميز به هذا الدور أنه دور الفقه العملي. إذ أعقبه دور ثالث دخل فيه الفقه السبيل العلمي فألّف في القانون وصار يتبع في تدريس القانون المنهج العلمي، واعترف بالفقه على أنه مصدر رسمي للقانون الروماني، فقد صار لبعض الفقهاء المتبحرين حق الفتوى

---

(1) وسمي هذا الجمع بالمنشورات الدائمة ويُعدّ القانون البريطوري أصل قانون العدالة (Equity law).

القانونية الملزمة للقضاة في أحكامهم[1]، ولكن صار الأمبراطور بعد القرن الثالث للميلاد السلطة النهائية في عمل القانون وفي تفسيره واستأثر الأباطرة بأمور القانون حتى أنهم منعوا الترخيص للفقهاء بالفتاوى الملزمة، فنشأ بذلك مصدر جديد للقانون الروماني هو التشريع من جانب السلطة الأمبراطورية ولكن بعض الأباطرة كانوا يميلون إلى الأخذ بكتب بعض الفقهاء وآرائهم حتى أن الأباطرة التزموا في أوائل القرن الخامس الميلادي آراء بعض الفقهاء المشهورين ولا سيما خمسة من مشاهيرهم وجعلوها المرجع، وهكذا فعل «جستنيان» في مجموعة قوانينه حيث اعتمد كثيراً على مذاهب أولئك الفقهاء الخمسة[2].

تراث القانون الروماني:

ظلت القوانين الرومانية في الأمبراطورية الشرقية بعد سقوط روما، مع تحويرات وتبديلات اقتضاها مرور الزمان، وبقيت حتى استيلاء الأتراك على القسطنطينية في عام 1453. واقتبس الأتراك وقبلهم العرب جزءاً لا يستهان به من الأنظمة والقوانين الرومانية، وسمح الأتراك بتطبيق أحكام من القانون الروماني على رعاياهم المسيحيين. وفي الغرب حافظت الممالك التي أنشأتها القبائل الأوروبية على أجزاء من القوانين الرومانية، وإن كانت مبسطة محورة واختلطت هذه بالعرف التيوتوني ونشأ من الاثنين القانون الإقطاعي. وساعدت الكنيسة في المحافظة على بعض مبادىء القانون الروماني ونشط الاهتمام

---

(1) نشأت في هذا الدور مدرستان زعيم إحداهما «لابيو» ولكنها عرفت باسم تلميذه «بروكيليان» وعلى رأس الثانية «كابينو» عرفت كذلك باسم تلميذه «سابينيان» أما الاختلاف بين المدرستين فكان أكبره يدور على التفصيلات، مع ميل المدرسة البروكيلية إلى المحافظة على المبادىء الجمهورية حتى بعد استقرار الأمبراطورية، وسارت المدرسة السابينية على المبادىء الأمبراطورية الجديدة.

(2) وهم «جاييس» و«بابنيان» و«اليبان» و«بول» و«مودستين».

بالقانون الروماني في حدود القرن الحادي عشر حينما بدأ الحكّام يبسطون إدارتهم وسلطانهم السياسي على رعاياهم.

ومع وجود الشيء الكثير من القانون العام (Common law) في القانون الإنجليزي والأمريكي، فإن هذا القانون قد أخذ كثيراً من مبادىء الفقه الروماني ومن مبادئ «القانون الروماني». وحافظت معظم أوروبا على كثير من القانون الروماني وطبقته بوجه أكثر. وإذا علمنا أن كثيراً من الدول الشرقية[1] قد استعارت بعض القوانين الأوروبية فيكون معنى ذلك أنها مدينة إلى تراث القانون الروماني.

الأدب والفكر والفن:

لقد سبق أن نوّهنا كيف أن الثقافة الرومانية قد تميّزت بنتاج عناصر من الحضارة تعد إضافات مهمة إلى التراث البشري كنظام الأمبراطورية وتنظيم الإدارة والجيوش والقانون الروماني والطرق الشهيرة والقنوات الرومانية وكذلك الحمامات. ولكن مع ذلك كان للرومان فضل في الأدب والفكر والفنون الجميلة، كان لها كذلك تأثير في الحضارات البشرية ولا سيما في الحضارة الأوروبية.

وعندما اتسعت الأمبراطورية واختلطت فيها الشعوب والحضارات والثقافات، اتسع أفق الرومان، ونتج عن ذلك فقدان كثير من مآثر الرومان القديمة. وبوسعنا أن نقول بوجه عام إن المعين الأساسي للأدب والفلسفة والعلم عند الرومان كان من حضارة الإغريق وبوجه خاص من الحضارة الإغريقية الهلنستية، وهي الحضارة التي قلنا إنها نتجت من التقاء الحضارة الإغريقية بحضارات الشرق القديم. ومع ذلك فبوسعنا أن نجد الطابع الروماني الخاص والحياة الرومانية متمثلة في نتاج الرومان الأدبي حيث تتمثل فيه الحياة

---

(1) ونكتفي ببعض الأمثلة: القانون الفرنسي في مصر والقوانين الأوروبية في تركيا والصين واليابان.

الرومانية منذ أقدم أدوارها في العهد الجمهوري إلى تأسيس الأمبراطورية واتساعها. ونوجز فيما يأتي بعض الأوجه البارزة من الفكر والفن عند الرومان.

الشعر اللاتيني:

لبداية الشعر اللاتيني علاقة متينة بالأدب الإغريقي. ويبدو ذلك بوجه خاص في أول نتاج الأدب الروماني الذي ظهر بإلهام من هوميروس وبتأثير «التراجيدي» الإغريقية، وهكذا كان أول نموذج للأدب الروماني الذي يمثله الشاعر «إينيوس» (Ennius 239 ـ 169 ق.م). واستمر الشعراء اللاتين يحتذون أمثلة الأدب الإغريقي القديمة، ويظهر ذلك في روايات بعض الشعراء الكوميدية مثل «فلوطس» (Plautus) (254 ـ 184 ق.م) حيث اشتقت مثل هذه الروايات فنها وفكرتها من الكوميدي الإغريقية من عهدها الحديث. واستعار شعراء الشعر «الغنائي» (Lyric) مثل «كاتلوس» (Catullus) و«هوراس» (Horace) (65 ـ 8 ق.م) الطرق الفنية المتّبعة في الشعر الإغريقي. وأسس الشاعر اللاتيني «لوقريشيوس» (Lucretius) (99 ـ 55 ق.م) فلسفته على فلسفة «أبيقور» وعلمه على علم «ديموقريطس» (Democritus) وسار «فرجل» (Virgil) (70 ـ 19 ق.م) على مآثر «ثيوقريطس» (Theocritus) في «مختاراته»[1].

ومع ذلك فإن الشعراء اللاتين لم يقتصر أمرهم على تقليد أسلافهم من الشعراء الإغريق، بل جعلوا ما اقتبسوه جزءاً خاصاً بهم أي إنهم تمثلوه، واستعملوه في تصوير الحياة الرومانية، فأصابوا حظاً من الإبداع والأصالة جعلهم في مصاف أسلافهم.

الشعر الفلسفي:

لعل أحسن مثال جاءنا عن هذا الضرب من الشعر الروماني بعض

---

(1) وهي قصائد تتضمن أحاديث ومحاورات (Dialogue) و(Eclogue) تجري بين الرعاة.

النماذج التي تمثل لنا التغيير الذي طرأ في عهد قيصر، وعلى رأس ذلك القصيدة الفلسفية المسماة «حول طبيعة الأشياء»[1] لناظمها «لوقرشيوس» (99 ـ 55 ق.م) الذي تأثر بفلسفة «أبيقور» فعزم على تحرير العقول من الخوف من الموت وهو الخوف الذي عدّ مصدره من التعاليم الدينية، وقد حاول بالفلسفة والعلم أن يبيّن أنه ليس هناك وجود شخصي شعوري فيما بعد الموت وكان يعتقد بالفلسفة الذرية. ولقد كان هذا الشاعر الفلسفي مأخوذاً باعتقاده الذي تمسك به كما يتمسك المرء باعتقاد ديني، فقد اتخذ عبادة الطبيعة. ويهمنا بالنسبة إلى آرائه تنبؤه بأشياء مهمة كشف عنها العالم الحديث، في الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وفي الكيمياء والفيزياء. وامتاز إلى ذلك بموهبة شعرية ملحوظة، وأنه فاق في سعة خياله شعراء الرومان جميعهم.

الشعر الغنائي:

امتاز بهذا النوع من الشعر «كاتلوس» (84 ـ 54 ق.م) الذي عاصر «لوقريشيوس» وقد استطاع أن يصل بالشعر إلى مستوى عال وامتاز بأنه شاعر العاطفة والأحاسيس والحب. وقد هام بحب «كلوديا» (Clodia)، وكان عكس الشاعر هوراس الذي كان شاعر الحضر والعقل والرزانة. ويمثل الشاعر «هوراس» (65 ـ 8 ق.م) أكثر من غيره روح المجتمع الروماني في عهد أوغسطس، ولا سيما حياة الطبقات الوسطى المثقفة والطبقة الحاكمة، وتتجلى قيمة أشعار هوراس الاجتماعية في أشعاره الانتقادية (Satires) وفي رسائله (Epistles) التي تمدنا بصورة جلية عن حياة الجيل الذي عاش فيه، وتأثر بالفلسفة الرواقية وبالشعراء الذين اعتنقوها من الإغريق، وقد أخذ بالفضيلة الأرسطوطاليسية التي تدور على «الوسط الذهبي» وتتجلى في هوراس عقائد الطبقات الوسطى والطبقات الحاكمة في دعواهم بأنهم أصحاب رسالة هي حكم العالم. وكان هوراس من ناحية الفن والصنعة من الطبقة الأولى، وإن

---

(1) De Rerum Natura (On The Nature of Things).

يكن دون الشاعر الأول في إثارة القارىء ولكنه بدلاً من ذلك يستطيع أن يشيع فيه السرور والطمأنينة الجميلة الناشئة من الحس بالجمال.

وأودع في بعض رسائله (فن الشعر) نقداً ضمنه ما ينبغي أن يكون عليه في (الدراما) وقد حازت القواعد التي ذكرها في هذه الرسالة في عصر النهضة الأوروبية تأثيراً فاق تأثير أرسطو في كتابه (الشعر). ومما جاء في آرائه أنه يلزم على الشاعر (أن يجمع بين المفيد النافع وبين الجميل) أي إنه رأى أن يكون للشعر فائدة، وعلى الرغم من إهمال كثير من النقّاد لهذا المبدأ وتعلقهم بمبدأ (الفن للفن) إلا أنه لا يزال لنظرية هوراس أتباع كثيرون.

وكان يعاصر هوراس الشاعر «فرجل» (70 ـ 19 ق.م) الذي اختلف في مزاجه عن هوراس. وقد ترك لنا صوراً لنواح أخرى من عصر أوغسطس الذي عاش فيه فنجده قد سحرته فكرة الأمبراطورية وحلمها. وقد شغل حياته كلها في فنه، وقد سبق أن أشرنا إلى أن أول نتاجه هو ما سمّيناه «المختارات» وهي أشعار تصور الحياة الريفية على لسان الرعاة، تقليداً لأشعار «ثيوقريطس» (300 ـ 245 ق.م) ثم أخرج قصيدة طويلة في وصف حياة الريف والمزارع[1]، وصرف بقية حياته في كتابة ملحمته العظيمة عن روما وهي «الإنيادة»[2] وقد جازاه أوغسطس ووهبه مزرعة عاش فيها وساعدته على التفرغ لحياته الشعرية وتختلف ملحمته «الإنيادة» عن الإلياذة والأوديسة بكونها من تأليف شاعر معين كتبها لتخليد أوغسطس حامي فرجل وصديقه، ولتمجيد مركز روما العظيم وحقها في الحكم الأمبراطوري. وكان فرجل عند أهل القرون الوسطى «الشاعر» كما كان عندهم أرسطو «الفيلسوف» وقد عزوا إليه نوعاً من القوة الخارقة أو القوة السحرية ولا سيما نبوءته بميلاد المسيح من عذراء. واختاره دانتي مثالاً ودليلاً في كوميديته الإلٰهية.

---

(1) وتسمى بـ (Georgics).

(2) (Aeneid) نسبة إلى البطل (Aneas) حيث تصف أسفار هذا البطل وأتباعه من طروادة إلى إيطاليا بعد سقوط طروادة.

النثر اللاتيني:

أثرت الخطابة في تطور فن النثر عند الرومان، إذ صارت فنون البلاغة والبيان من مستلزمات فن الخطابة لبلوغ التأثير في السامعين. وفي حقل الخطابة ظهرت مواهب أعاظم الكتّاب الرومان وعبقرياتهم. وكان شيشرون (Cicero) (106 ـ 43 ق.م) على رأس الخطباء في الأيام الأخيرة من العهد الجمهوري ومنشأ عظمته وشهرته أنه خلق لغة أدبية ممتازة وقد صرف هذا الكاتب العظيم أواخر أيامه في تأليف مجموعة من الرسائل تبحث في السياسة والفلسفة. وكانت الينابيع التي أخذ منها معظم مادته من مصادر إغريقية باستثناء بعض التآليف في فن الخطابة[1]. ولعل أهم ما أسداه إلى الأدب اللاتيني أنه أوجد تعابير ومفردات تستطيع أن تعبر عن الأفكار المجردة المأخوذة من الفكر اليوناني، وصار بذلك واسطة لتعريف الفكر اليوناني إلى الرومان، ومن الرومان إلى العصور التي تلت الرومان. وكان لاكتشاف بعض آثاره (رسائله) في عهد النهضة الأوروبية تأثير عميق في أوروبا حيث تعرفت بها على الحياة الاجتماعية التي عاش فيها «شيشرون» وقد بقيت اللغة اللاتينية لغة أوروبا المتمدنة ما يزيد على الخمسة عشر قرناً، وكان (شيشرون) طوال هذه الحقبة إمام البلاغة والنثر اللاتيني.

ليفي (Livy) (59 ق. م ـ 17 م):

وكان ليفي إمام النثر اللاتيني في العهد الأوغسطسي وقد كتب تأريخاً مسهباً لروما منذ تأسيسها، وقد وصلنا منه 35 كتاباً تقدر بربع التأليف الأصلي. وليفي لا يعدّ مؤرخاً بحسب مفهوم كلمة (المؤرخ) في العصر الحاضر. وإذا قسناه بالمؤرخ الإغريقي (ثوسيدايدز) ألفيناه أقل منه من ناحية التحقيق والنقد وعلى كل حال فإن تأريخه قد اقتصر على تفسير روح الشعب

---

(1) مثل De Oratore وBrutus.

والمجتمع دون تدوين حوادث ذلك المجتمع وأنظمته. وقد كان متحمساً في اعتقاده بالمآثر الرومانية وأمجاد هذه المآثر لذلك فقد رسم لنا تلك الأمجاد بروح شاعر وليس بعقل عالم محقق.

تاسيتوس (Tacitus) (55 ـ 120 م):

بوسعنا أن نعد «تاسيتوس» آخر فحول البلاغة والكتّاب العظماء عند الرومان. وقد بدأ ببعض التآليف مثل حياة حميه الأمبراطور (أكريكولا) (Agricola) وكذلك كتابه عن ألمانيا، ولكن هذه دون تآليفه الأخرى ولا سيما مؤلفيه التأريخيين العظيمين (التواريخ)[1] والحوليات اللذين ألّفهما من 69 إلى 96 للميلاد وذكر فيهما أخبار حكم الأباطرة من بعد موت (أوغسطس) إلى وفاة (نيرون)، وتعدّ هذه التآليف من النتاج الفني الممتاز بالإضافة إلى كونها تأريخاً، وقد امتاز هذان الكتابان بالأسلوب اللاذع.

وما يقال في الكتّاب الذين جاؤوا من بعد تاسيتوس إنهم مقلدون أكثر منهم مبدعون. وإن العهد الفني المجيد قد انتهى من بعده.

الفن الروماني:

1 ـ العمارة:

أخذ الرومان العقادة والقوس من الشرق[2]، وصار القوس أساس العمارة الرومانية، وقد مزجوا القوس والعقادة مزجاً فنياً رائعاً مع نظام العمد والأفاريز وغير ذلك من أجزاء العمد والتيجان (Capitals) التي أخذوها عن الإغريق. وقد بدأ الرومان منذ عهد أوغسطس في تزيين عاصمتهم بأبنية جميلة تعبّر عن عظمتهم وسلطانهم، وهذا هو السبب الذي جعل أوغسطس يفتخر بقوله لقد وجدت روما من الآجر فتركتها من الرخام. وتدل المباني التي

---

(1) Histories وAnnals.

(2) راجع أصل هذه الفنون العمارية في تأريخ العراق القديم.

شيّدها الرومان على النواحي التي اهتموا بها وعلى حاجاتهم - فالمباني التي خلّفوها في العاصمة وفي مدن الأقاليم المهمة تنحصر بالدرجة الأولى في المعابد والحمامات العامة والمحاكم وأبنية الملاهي والمسارح، ومدارج الألعاب (Amphitheatre) ومع اختلاف هذه المباني في الوظيفة والغاية فقد كانت تتّصف بأوصاف عامة من فن العمارة، مما جعل المدينة الرومانية تتّصف بالاتساق والتناسب الفني. وعلى الرغم من أن الرومان كانوا مقتبسين في فن العمارة غير مبدعين ولكن يجب أن نقرّ بما امتازوا به من المهارة الفائقة في تكييف وتمثيل ما اقتبسوه إلى حاجاتهم الخاصة، وفي سيطرتهم على مادة البناء وأشكالها. وإلى ذلك كانت عمارتهم أضخم وأروع مما أنتجه معلموهم الإغريق.

كان الرومان مهندسين أعظم منهم بنّائين. ويظهر نبوغهم الهندسي ومهارتهم في قبابهم الصغيرة[1] مثل قبة البانثيون وفي العقادات العجيبة في «بسيليقة» قسطنطين[2]. وقد استخدموا في هذه المشاريع العظيمة مادة للبناء جديدة هي «الكونكريت» (الإبرق) التي صارت بإضافتها إلى الآجر والحجر مادة جديدة ممتازة في البناء. ومن مظاهر المهارة الهندسية الرومانية بناء الطرق الرومانية المشهورة والجسور والقناطر والقنوات والأسوار والحمامات. فقد أنشؤوا شبكة من الطرق العظيمة في جميع أنحاء الأمبراطورية، ولا يزال بعضها مستعملاً حتى زماننا هذا. هذا ولا تنحصر آثار الأبنية الرومانية في إيطاليا بل شملت أقطاراً أخرى في أفريقيا وسوريا واليونان وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا وحتى في ألمانيا.

واشتهرت العمارة الرومانية بنوع من الأبنية المدنية العامة اسمها

---

(1) وتدعى مثل هذه القباب (Cupola) كما في قبة البانثيون.

(2) (Basilica). وكانت هذه بالأصل في روما القديمة قصراً ملوكياً، ثم تطورت أخيراً فأصبحت قاعات تستعمل للمحاكم أو للمجالس العامة وكذلك صارت طرازاً في بعض الكنائس المسيحية.

«الفوروم» (Forum) وكانت هذه مواضع عامة للاجتماعات وإقامة الأسواق والمحاكم ودوائر الدولة العامة. ونشأ الفوروم بالأصل بهيئة محل للأسواق العامة ثم تحول إلى مركز المدينة المدني للاجتماعات العامة والأغراض الأخرى التي عددناها وكان يُقام في مثل هذه المواضع تماثيل الأباطرة والقواد العظام والمنابر العامة لإلقاء الخطب في أثناء الاجتماعات والاحتفالات. واختص كل أمبراطور تقريباً ببناء من هذه الأبنية من عهد أوغسطس فما بعد، وبذّ جميعها «فوروم» الأمبراطور «تراجان» (98 ـ 117 م). ومن الجدير بالذكر عن هذا «الفوروم» أن المعمار الذي وضع خططه وتصميمه معمار من الشرق هو «أبولودوروس» الدمشقي، وأنه يشبه في تصميمه المعبد المصري. فأول ما يجده الداخل إلى ذلك البناء المهيب مدخل معقود من الأقواس «البواكي» يفضي إلى ساحة مكشوفة فيها صفوف من العمد الفخمة من جهاتها الثلاث وفيها أجنحة عظمى دائرية ذات دكاكين، ثم يدخل إلى «البسيليقة» ذات الأعمدة الكثيرة، ويليها معبد خُصِّص لعبادة الأمبراطور المؤلّه.

2 ـ النحت:

إن معظم ما جاءنا من النحت الروماني نسخ من المنحوتات الإغريقية المشهورة أو من منحوتات العهد الهلنستي. والواقع أن معرفتنا ببعض القطع الأصلية اليونانية من هذه النسخ الرومانية. ومع ذلك فبوسعنا أن نجد الإبداع والأصالة في بعض المواضيع الخاصة. ويظهر هذا الإبداع في التماثيل «النصفية» (Bust) التي يظهر فيها التعبير الواقعي، وهذه ميزة فنية لا نجدها في النحت الإغريقي ومثل ذلك يقال في تماثيل الأشخاص بوجه عام. وأبدع النحات الروماني كذلك في موضوع آخر هو الأفاريز المنحوتة المتّخذة للزينة في العمارة. ويظهر في هذا الحقل أيضاً الفن الواقعي وكذلك استعمال النحت البارز (Relief) للزخرفة والزينة وقد وفّق النحاتون في ذلك إلى حدّ الإعجاب.

3 ـ النقش (Painting):

جاءتنا أمثلة للنقش الروماني من النقوش الجدارية (Frescoe) في البيوت

الخاصة ولا سيما ما وجد في «بومبي» (Pompeii). ومما يقال في النقش الروماني بوجه الإجمال إنه مستعار من الفن الإغريقي من ناحية الموضوع والطريقة ولما لم يأتنا من نقوش الإغريق شيء فيكون لنماذج النقش الروماني التي جاءتنا قيمة عظمى إذ منها نستطيع أن نعرف عن النقش عند الإغريق والرومان أموراً مهمة جداً أولها وأبرزها استعمال فن المنظور الذي سبقت الإشارة إليه في الكلام على حضارة العراق ومصر واستعمال الظلال لجعل الصور المنقوشة تتراءى كأنها ذات ثلاثة أبعاد، وكذلك الموفقية في تناسب الألوان واتساقها ومراعاة النسبة والوحدة بين الأشكال مع المنظر العام، وكل هذه في الواقع مبادىء أساسية وصل إليها الفن الإغريقي. وقد زوّدتنا الآثار التي وجدت في (بومبي) بنماذج جميلة عن نتاج الفنون الفرعية الرومانية كسبك التماثيل من البرونز وقطع الأثاث الجميلة المتّخذة للزخرفة. ومن الفنون الفرعية الجميلة ما أنتجه الصاغة والجوهريون من القطع النفيسة التي تطلبتها أناقة الحياة الرومانية.

ونختتم هذا البحث الموجز في الفن الروماني بذكر أثر الفن الأتروسكي في الفن الروماني على الرغم من تأثر الرومان بالفن الإغريقي بدرجة كبيرة ويتجلّى ذلك في البناء الأتروسكي في الحجارة على مبدأ القوس مما مكّن العمارة الرومانية أن تنشأ مشاريع جبارة كالجسور والمعابد والقصور والمراسح وأقواس النصر. وبوسعنا أن نعد الهندسة العمارية عند الروماني مظهراً من مظاهر ما امتازوا به من الميل إلى النظام والتنظيم اللذين يتجليان أيضاً في القانون الروماني وفي تنظيم الحكومة والإدارة، وقد قرنت الهندسة العمارية بحب الزخرفة والزينة أي الجمع بين الهندسة والجمال ويظهر ذلك بوجه خاص في أبنية الحمامات الشهيرة التي امتازت بها العمارة الرومانية[1].

---

(1) يستحسن أن ينبه الطالب إلى مراجعة بعض الكتب للوقوف على أمثلة من الفن الروماني مثل كتاب: Helen Gardner: **Art Through The Ages** (1936), Chp. 7.

مراجع مختارة عن القسم الخامس

(1) **Cambridge Ancient History.**

(2) Will Durant, **The Life of Greece** (1939).

(3) Goltz, **The Aegean Civilization** (1925).

(4) **The Legacy of Greece** (1942).

(5) Franel, **Greece and Babylon** (1911).

(6) Hellen Gardner, **Art Through The Ages** (1936), 122 ff.

(7) E.A. Gardner, **The Art of Greece** (1925).

..., **Greece and the Aegean** (1934).

(8) ..., **A Handbook of Greek Sculpture** (1915).

(9) J. B. Bury, **History of Greece** (1931).

(10) Flickinger, **The Greek Theatre** (1918).

(11) T. R. Glover, **Democracy in the Ancient World** (1927).

(12) Sir, T. Heath, **History of Greek Mathematics** (1921).

(13) A. T. Murray, **Iliad** (Texts and trans).

(14) ..., **Odyssey** (Texts and trans).

(15) J. P. Mahaffy, **Social Life in Greece** (1925).

(16) H. Mc Clees, **Daily Life of the Greeks and the Romons** (1928).

(17) M. Nilssen, **History of Greek Religion** (1925).

(18) Zeller, **Outlines of the History of Greek Philosophy** (1931).

(19) **The Legacy of Rome** (1940).

(20) Showerman, **Rome and the Romans** (1931).

(21) Taylor, **Constitutional and Political History of Rome.**

(22) R. H. Barrow, **The Romans** (Pelican).

(23) Anderson G Spiers, **The Architecture of Ancient Rome** (1927).

(24) A. Man, **Pompeii. Its Life and Art** (1902).

(25) Will Durant, **Story of Philosophy** (1930).

(26) Poland et al, **The Culture of Ancient Greece and Rome** (1926).

(27) Rostovtzeff, **A History of the Ancient World,** 2 vols. (1926-27).

(28) Norwood G Duff, **The Writers of Greece and Rom** (1926).

(29) Zimmern, **The Greek Commonwealth** (1924).



أحد الملاعب المدرجة (Amphitheatre) في روما
مما يعرف الآن باسم «كولوسيوم» (Colosseum).

الفهارس العامة

فهرس الأعلام

ب

ت

ث

ج

ح

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس الأماكن

ث

ج

ح

خ

د

ش

ص

غ

ف

ق

ن

و

ي

464، 466، 467، 469، 475،
480، 485، 493، 494، 498،
503، 519، 575، 577، 578،
579، 580، 589، 592، 594،

596، 607، 609، 610، 611،
612، 615، 620، 628، 629،
631، 640، 647، 648، 651،
667، 677، 694، 705.

فهرس الجماعات

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ط

ع

من مقدمة المؤلف

لكي نفهم قصة الحضارة في وادي النيل وسير تأريخها من نشوئها وتطورها وأدوارها ينبغي لنا أن نلمّ بأبرز الخصائص المميزة لمسرح حوادث تلك الحضارة مما كان له أثر بارز في طبع تلك الحضارات بميزاتها ومقوماتها الخاصة. ولما كان الغرض من هذه المقدمة الجغرافية الاستعانة بها لفهم حوادث التأريخ المصري القديم فسنكتفي من جغرافيا وادي النيل بالأمور البارزة الموضّحة لتلك الحوادث.

تقع مصر في الجانب الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، وإن أبرز ما يميّز مصر، في جغرافيتها وتأريخها، نهرها العظيم «النيل» مصدر الحياة والخصب بحيث يصحّ قول هيرودوتس المأثور «إن مصر هبة النيل»، إذ لولاه لأصبحت مصر صحراء جرداء، فهي قطر عديم المطر بوجه أساسي، فيكون النيل وما على جانبيه من الأراضي الضيّقة بلاد مصر التي يمكن فيها الحياة والعيش وهي شقة خضراء ضيّقة يكون فيها الحدّ الفاصل بين الحياة والزرع وبين الصحراء وعدم الحياة حدّاً واضحاً وبوناً صارخاً بين «المزروع» والصحراء. وقد عمل ضيق هذه الشقة الخضراء على تكاثف قرى الفلاحين، وجعل القرية تكون لصق القرية اقتصاداً بالأراضي القابلة للزراعة. ولكن إذا ما بُذلت العناية المقتضية فإن هذه الأراضي تدرّ على سكان مصر خيرات زراعية عميمة.

كلمة النيل ليست من أصل مصري قديم. والمرجّح كثيراً أنها من الكلمات السامية القديمة المشتقة من «نهر» أو «نهل» أو «نخل» (بإبدال الراء لاماً) فصارت الكلمة الثانية بصيغة «نيل» ومنها الكلمة اليونانية (Neilos) واللاتينية (Nilus). أما المصريون القدماء فقد سمّوا نهر النيل وكذلك الإله الخاص بنهر النيل باسم «حعف» أو «حعفي». وفي الأزمان المتأخرة صار يُلفظ بهيئة (هوفي وأوفي وحوفي) ولا يُعلم معنى هذا الاسم المصري القديم، وقد أُله النيل ونظمت في تمجيده التراتيل الدينية وخُصّصت له بعض الأعياد الدينية.

